

ديوان البارودي

محمود سامي البارودي باشا

حققه وصححه وضبطه وشرحه

محمد شفيق معروف

المفتش العام بوزارة التربية والتعليم سابقاً

الجزء الثالث

قافية اللام — قافية الميم



دار المعارف بمصر



حقّقه وصححه وضبطه وشرحه

محمد شفيق معروف

المفتش العام بوزارة التّربية والتعليم سابقاً

الجزء الثّالث

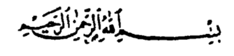
قافية اللام — قافية الميم



دار المعارف بمصر

١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.



وفاء وشكر

شاركنى الأستاذ الجليل المرحوم « على الجارم » فى تحقيق الجزأين الأول والثانى من ديوان البارودى ، وشَرْحِهما ، والإشرافِ على طبعتهما الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة : الجزء الأول سنة ١٩٤٠ من بدء قافية الهمزة إلى نهاية قافية الذال فى ٣٢٥ صفحة. والجزء الثانى سنة ١٩٤٢ من بدء قافية الراء إلى نهاية قافية الكاف فى ٣٨٧ صفحة . ثم شاركنى فى تحقيق أبياتٍ من قافية اللام . وبعد انتقاله إلى رحمة الله فى ١٩٤٩/٢/٨ انفردتُ بالعمل موفياً بعهده ، مقيماً على وده .

وفى تحقيق الجزء الثالث رجعت فى بعض مشكلاته إلى بعض أصدقائى المشتغلين بالدراسات اللغوية والأدبية ؛ فكان حقًّا علىَّ أن أنوّه بهم ، وأشكر لهم ، ولكل من عاونى على إنجازه ، وتيسير طبعه ونشره .

أما الجزء الرابع — وهو ختام هذا الديوان — فقد أتممتُ تحقيقه وشَرْحَه ، وأعددتُه للطبع وفاءً بحقّ الأمّة العربية المجيدة ، وحقّ شاعرها العبقرىّ الذى جدّد مجدها الأدبىّ ، وأحيا الشعر ، وأعاد إليه قوّته ونَضْرته « وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكّلتُ ، وإليه أنيب » .

محمد شفيق معروف

٨ شارع المختار بالروضة بالقاهرة

يوم الاثنين ٩ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٩٢ هـ

الموافق ٢٢ من مايو سنة ١٩٧٢ م

قافية اللام

وقال يذمّ سيرة الحكّام ، ويحضّ الناس على طلب العدل فى الأحكام .
وذلك فى عهد « إسماعيل* باشا » خديو مصر :

* إسماعيل باشا : الخديو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا . ولد بالقاهرة سنة ١٨٣٠ م ، وتربّى بمصر فى طفولته ، ومستهلّ شبابه. ثم أرسله جدّه إلى فرنسا، فأتمّ تعلّمه بكلّية « سنت سير » الحربية . وعاد إلى مصر سنة ١٨٤٩ فى عهد واليها « عباس باشا الأول » ، فكانت بينهما جفوة . وبعد قتل عباس سنة ١٨٥٤ تولّى « سعيد باشا » فاتّخذ « إسماعيل » وزيراً ، وعهد إليه بمهمّات سياسيّة ، وأقامه مقامه فى أثناء غيابه عن مصر فى أوربا والحجاز . ولما توفى « سعيد » فى ١٨ من يناير سنة ١٨٦٣ تولّى بعده حكم مصر ، فنهض بها فى شتّى النواحى الاقتصاديّة ، والتعليميّة ، والعمرانيّة ، والسياسيّة ، وعنى بالحربيّة والبحريّة . وغُيّرت وراثة العرش ، فصارت لأرشد أبنائه من بعده . وكسب لمصر ولنفسه من الدولة العثمانية حقوقاً غير قليلة ، منها استقلال مصر الذاتىّ . ومنح لقب « خديو » : وهى كلمة فارسيّة الأصل ، معناها « سيّد » . وفى عهده تمّ حفر قناة السويس، وافتتحت افتتاحاً رسميًّا فخماً يوم ١٧ من نوفبر سنة ١٨٦٩ ، واتّسع سلطان مصر فى إفريقية . وفى سنة ١٨٦٨ أرسل حملة حربيّة مصريّة شاركت فى قمع ثورة . « كريد » (أقريطش) . وفى سنة ١٨٧٧ أرسل حملة أخرى شاركت فى الحرب الروسيّة التركيّة ، وكان « محمود سامى البارودىّ » الفارس الأديب الشاعر النابه من كبار ضبّاط مصر فى هاتين الحملتين . لمع نجم إسماعيل فى سماء مصر بضع سنين ، ولكنه بإسرافه ، وكثرة استداناته ، وسوء تدبيره ، وفساد حاشيته ضيّع ماليّة حكومته ، وضعضع اقتصاديّات وطنه ، وباع أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وتدخّل الدائنون الأوربيون فى شئون البلاد ؛ فكان لهم فى الوزارة المصريّة وزيران : أحدهما إنجليزىّ ، والآخر فرنسىّ . وفى ١٨ من فبراير سنة ١٨٧٨ قامت فى القاهرة مظاهرة خطيرة جديدة فى بابها من ضبّاط الجيش المصرىّ ؛ فكانت نذير الثورة العرابيّة . وفى ٢٦ من يونيه سنة ١٨٧٩ أرسل الباب العالى إلى مصر برقيّتين : الأولى بعزل « إسماعيل » ، والأخرى بتولية ابنه « توفيق » .
وفى ٣٠ من يونيه سنة ١٨٧٩ غادر الخديو إسماعيل القاهرة إلى الإسكندريّة ، ومنها إلى إيطاليا ؛ =

قَلَّدْتُ جِيدَ الْمَعَالِي حِلْيَةَ الْغَزَلِ وَقُلْتُ فِي الْجِدِّ مَا أَغْنَى عَنِ الْهَزَلِ[1]

يَأْبَى لِيَ الْغَيَّ قَلْبٌ لَا يَمِيلُ بِهِ عَنْ شِرْعَةِ الْمَجْدِ سِحْرُ الأَعْيُنِ النُّجُلِ[2]

= فأقام بها إلى سنة ١٨٨٧ ، وفي تلك السنة انتقل إلى الآستانة ، فقيدت حريته ، وساءت حالته ، وتوالت عليه الأمراض إلى أن توفى فى يوم ٣ من مارس سنة ١٨٩٥ عن خمس وستين سنة . ومن الآستانة نقل جثمانه إلى القاهرة ، ودفن بمسجد الرفاعي بالقلعة يوم ١٣ من مارس سنة ١٨٩٥ .

وقد جاءت هذه اللامية فى سبعين بيتاً ، افتتحت بها قافية اللام ص ١٩٨ — ٢٠٢ فى أصل الديوان المخطوط . ولا ريب أن الشاعر نظمها فى أواخر حكم الخديو إسماعيل لمّا ساءت الأحوال ، وارتبكت مالية مصر ، وأرهقتها الديون المتراكة ، وتدخل الأجانب فى شئونها ، وتبرم الأهالى بهذا الحكم السفيه الفاسد ، وأجمع الناس على وجوب خلع ذلك الحاكم .

وإذا لم يكن بدّ من تعيين الوقت الذى نظم فيه الشاعر هذه القصيدة الحافلة المطوّلة ، فى ظنّنا أنه أوائل سنة ١٨٧٩ أو قبيل ذلك العام حينما بلغ السيل الزبى ، وضاق الأحرار بالأمر ذرعاً .

والمقصود بالذمّ والهجاء فى هذه القصيدة : الخديو إسماعيل ، وبطانته : ورجال حكمه الذين زيّنوا له السفه والخطل ، وعاونوه على الفساد والإفساد ، والظلم والاستبداد .

(١) قلّدته القلادة : جعلتها فى عنقه . والقلادة : ما يزين العنق من الحلى ونحوه . والجيد : العنق : أى الرقبة . والمعالى : جمع المعلاة : وهى الرفعة ، والشرف . والحلية : ما تزدان به المرأة من مصوغات المعدنيات ، أو الجواهر ، أو الحجارة الكريمة ، أو نحوها . والغزل : مصدر غزل الرجل بالمرأة (من باب فرح) : أى تودّد إليها ، وحادثها ، ونوّه بمحاسنها ، وأفاض بذكرها . وحلية الغزل : الغزل الشبيه بالحلية . جعل غزله بالمعالى حلية ، هى قلادة ازدان بها جيد المعالى . يقول : إنه تغزّل بالمعالى ، وزيّنها بغزله . والمراد : أنه تعلّق بها ، وحرص عليها ، وحسّنها لغيره ، ورغّبه فيها ، وحبّبها إليه . والجدّ (بفتح الجيم) : ضدّ الهزل : مصدر جدّ (من باب ضرب) . والاسم منه الجدّ (بكسر الجيم) . والهزل : مصدر هزل فى كلامه (من بابى فرح وضرب) . ومعنى الشطر الثانى : أنه نظم هذه القصيدة فى الجدّ ومعالى الأمور مستغنياً بها عن الهزل والدعابة والمزاح ، وما لا يناسب هذا المقام .

اتّجه الشاعر فى مطلع هذه اللاميّة إلى معالى الأمور ، وما تتطلّبه من الجهاد والكفاح ، والجدّ والصرامة ؛ فتعلّق بها ، ورغّب فيها غيره ، وحرّضه عليها . وانصرف عن الهزل ، وصرف غيره عنه ؛ إذ لا يليق بأمثاله ، ولا يناسب هذا المقام .

(٢) يأبى : يمتنع ، ويعاف ، ويكره . ويأبى له قلبه الغىّ : ينزّهه عن الغىّ : وهو الجهل ، والضلال . ولا يميل به : لا يميله ، ولا يصرفه ، ولا ينحرف به . وفاعل « يميل » : « سحر الأعين » . =

أَهِيمُ بِالْبِيضِ فِي الْأَغْمَادِ بَاسِمَةً عَنْ غُرَّةِ النَّصْرِ ، لَا بِالْبِيضِ فِي الْكِلَلِ (٣)

=والمجد : الكرم ، والعزّ ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء . ومن المجد « المعالى » التى تنزل بها الشاعر فى البيت السابق . وشرعة المجد : طريقه ، ومنهاجه . والسحر : كلّ أمر يخفى سببه ، ويتخيّل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع . وسحَره : استماله . وفتَنه ، وسلَب لبّه . ويقال : سحرته بعينيها . وسحر العيون : جاذبيّتها ، وفتنتها ، وجمالها الباهر الأخّاذ . وعين نجلاء : واسعة فى حسن وجمال . وعيون نجل (بضم فسكون) ؛ إذ القاعدة الصرفية أن كلّ وصف على أفعل وفعلاء يطّرد جمعه على فعل (بضم الفاء ، وسكون العين) . ويلاحظ أن « النجل » هنا مضمومة العين . وهو سائغ كثير فى الشعر ، بشرط صحّة الفاء والعين . ومن أمثلته فى شعر « عنترة بن شداد العبسى » :

طَوَى الجَدِيدَانِ مَا قَدْ كُنْتُ أَنْشُرُهُ وَأَنْكَرَتْنِي ذَوَاتُ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

وهذا البيت تفصيل وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فقلبه متعلّق بمنهج المجد ومعالى الأمور ، مترفّع عن الهزل واللهو ، بعيد عن الغواية والضلالة ، لا يصرفه عن غاياته المجيدة ما يفتن الرجال من ربّات الحجال ولا يعرقل مساعيه الحميدة ما يخلب الألباب ، ويستهوى الأفئدة من محاسنهن وسحر عيونهن .

(٣) هام العاشق بمشوقته : شغفته حبًّا . وهيامه بالبيض : شدّة تعلّقه بها ، وحبّه لها . والبيض فى الشطر الأول : السيوف . واحدها أبيض . وفى الشطر الثانى : الحسان الجميلات من النساء . الواحدة بيضاء . والأغماد : جمع غمد : وهو جفن السيف ، وغلافه . وباسمة : لامعة ، مصقولة ، مشرقة ، متلألئة . مستعار من البسم : وهو أولّ الضحك ، وأخفّه ، وأقلّه ، وأحسنه . وغرّة النصر : طلعته ، ووجهه ، وإشراقه ، وبهاؤه وشهرته . مستعار من غرّة الفرس : وهى بياض مستحسن فى جبهته . والكلل : جمع كلّة (بوزن علّة وعلل) : وهى الستر الرقيق . وغشاء رقيق ، يخاط كالبيت ، يُتَوَقَّى به من البعوض . وفى الكلل تصان الحسان المحجّبات من النساء . والعربىّ يهيم بالفتاة المحجّبة ، لا السافرة . والبارودىّ يجنح لمحاكاة قدامى الشعراء ، ويولع بالبيئة العربيّة البدويّة ؛ فهو لا يفتأ يعرض فى شعره الكثير من صورها وخصائصها . وفى البيت جناس وتناسب بين البيض فى الأغماد ، والبيض فى الكلل ، وإن كانت « الأغماد » قد عضّلَت على الشاعر ، ووارت ما يريده ، وهو الهيام بالسيوف المصقولة اللامعة القاطعة ، مصلتة ، مشهورة ، مسلولة ، مجرّدة من أغمادها فى ساحات الجلاد والقتال ، وميادين الكفاح والنزال .

يفخر بالمجادة الحربيّة ، والقوّة العسكريّة ، ويعشق الجلاد والقتال ، لا البيض الحسان من ربّات الحجال .

وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين واضحة وثيقة ؛ فإن الجدّ ، والمجد ، ومعالى الأمور كثيراً ما تتطلّب الكفاية الحربيّة ، والقوّة العسكريّة ، وكثيراً ما تستدعى الجهاد والجلاد ، والكفاح بالسلاح . أمّا الهيام بالبيض الحسان المحجّبات فإنه أشبه بالهزل والغىّ ، واللهو والمجانة .

فى الأصل المخطوط بين البيتين الثالث والرابع بيت مضروب عليه ، هذا نصّه : =

لَمْ تُلْهِنِى عَنْ طِلَابِ الْمَجْدِ غَانِيَةٌ ... فى لَذَّةِ الصَّحْوِ مَا يُغْنِى عَنِ الثَّمَلِ (٤)

كَمْ بَيْنَ مُنْتَدِبٍ يَدْعُو لِمَكْرُمَةٍ ... وَبَيْنَ مُعْتَكِفٍ يَبْكِى عَلَى طَلَلِ (٥)

= وما القدود – وإن مال النعيم بها أشهى إلىّ من الخطّية الذُّبُلِ

ويبدو أن الشاعر استغنى عن هذا البيت بما قبله وما بعده . وقد آثرنا أن ننشره هنا ، ونشرحه فيما يلى : القدود : جمع قدّ : وهو القامة . أو القوام : أى الاعتدال ، وحسن الطول ، والتقطيع . ومال النعيم بها : أما لها الترف والنضرة ، وزهاها لين العيش ورغده ، وهزّ عطفيها اتّساعه وغضارته . وأشهى : أحبّ ، وألذّ ، وأمتع . والخطّية : الرماح المنسوبة إلى الخط : وهو موضع ، أو مرفأ للسفن ببلاد البحرين ، تباع فيه الرماح ، وتنسب إليه . والذُّبُل : جمع ذابل : وهو الدقيق . وذبول الرماح من محاسنها . يقال : رمح ذابل ، ورماح ذُبُل ، وذوابل . وبين القدود والذوابل تناسب ومشاكلة .

يقول : إن الأسلحة وأدوات الحرب والقتال أحبّ إليه من الحسان الناعمات الفاتنات بجمال قدودهن ؛ فالبيت فى معنى البيتين اللذين توسّطهما . أو هو قريب منهما . والفكرة فى هذه الأبيات واحدة ، وهى التغنّى بالمجد والجدّ ، والانصراف عن الهزل واللهو ، والاعتماد على الكفاح وقوّة السلاح .

(٤) لم تلهنى : لم تشغلنى ، ولم تصرفنى . والطلاب : المطالبة : مصدر طالبه : أى طلب منه حقًّا له عليه . ويقال : طالبه بحقّه : أى طلبه منه ، واقتضاه . وطلاب المجد : طلبه ، والسعى فى تحصيله . والغانية : المرأة المستغنية عن الزينة بجمالها الخِلْقىّ ، وحسنها الطبيعىّ . والثمل : السكر : مصدر ثمل (من باب فرح) : أى أخذ فيه الشراب وأسكره ، وأزال وعيه وعقله . والصحو : ضدّ الثمل .

ما زال الشاعر يتغنّى بالمجد . ويحرص على الجدّ ، لايشغله عنهما فتنة الغانيات ، ولذّة المسكرات ، ومساورة الشهوات .

وإنه ليجد المتعة والنفع كلّه فى الصحو ، أى فى يقظة العقل والحواسّ ، وتمام الوعى والإدراك ؛ فإن هذا يلذّه ، ويقوّى عزيمته ، ويرفع همّته ، ويحدوه إلى أعظم المقاصد ، وأشرف الغايات . ويغنى أمثاله عن الثمل ، أى المسكرات التى يشتهيها ، ويتلهّى بها ، ويغرق فيها أهل الهزل والغىّ ، واللهو والمجون .

والشطر الثانى تذييل فى معنى الشطر الأول ؛ كأن التلهّى بالغوانى سكر يخدّر العقل ويخمره ، والسعى فى طلب المجد صحو ينبهه ويذكيه .

(٥) «كم» : اسم «ثنائى» مبهم ، مبنىّ على السكون . وهى هنا خبرية ، بمعنى كثير . وتمييزها محذوف . أى كم فارق ، أو كم مسافة : أى الفوارق كثيرة ، والمسافات واسعة بين الداعى إلى المكرمات والمعتكف على الأطلال يبكى ويتحسّر . و«بين» : اسم بمعنى «وسط» . وهو ظرف مبهم ، لا يتبيّن معناه إلا بإضافته إلى اثنين فصاعداً ، أوما يقوم مقام ذلك . ويلاحظ أن الشاعر كررها فى هذا البيت قبل=

لَوْلَا التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَا ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَلْيِ وَالْعَطَلِ (٦)

= اسمين مظهرين « كم بين منتدب وبين معتكف» . والذى نعرفه فى الكثير من استعمالاتها أنها تفرد إذا جاءت قبل اسمين مظهرين ، وتكرّر إذا جاءت قبل ضميرين ، أو قبل اسم ظاهر وضمير . وفى القرآن الكريم : « فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه » . « يخرج من بين الصلب والترائب » . « لا حجة بيننا وبينكم » . « يطوفون بينها وبين حميم آن » . ومنتدب : داع ، موجّه : اسم فاعل من انتدبته لكذا ، أو إلى كذا : أى دعوته إليه ، وحثثته عليه ؛ فانتدب له : أى فاستجاب له ، وسارع إليه . ومن هذا يتبيّن أن الفعل .« انتدب» يستعمل متعدياً ولازماً . والمكرمة : واحدة المكرمات ، أو المكارم . وهى اسم من الكرم بمعناه العامّ الذى يجمع الأخلاق الكريمة ، والمحاسن الكبيرة ، والأفعال المحمودة العظيمة التى تظهر من الإنسان . ولا ريب أن الدعوة إلى المكرمات من أعمال الجدّ ، والمجد ، ومعالى الأمور التى ردّدها الشاعر ، وتغنّى بها فى أربعة الأبيات السابقة . ومعتكف : اسم فاعل من اعتكف على الشىء : أى أقبل عليه ، واتّجه إليه ، ولازمه ، معظّماً له . والطلل : ما شخص : أى ظهر ، وارتفع من آثار الديار التى هجرها أهلها ، وارتحلوا عنها . وجمعه أطلال ، وطلول . و « على طلل » : متعلّق بـ « معتكف » : أى . . . وبين معتكف على طلل ، يتحسّر ، ويبكى ، وينتحب . ولعلّ الشاعر يريد بالشطر الثانى من هذا البيت : ما اعتاده شعراء الجاهليّة وأشباههم والناسجون على منوالهم من الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب بالمرأة فى مطالع قصائدهم . ومن التشبيب الوقوف بالرسوم الدارسة ، والأطلال الشاخصة ، والديار المهجورة ، باكين ، مستبكين ، ذاكرين فى حسرة ولهفة ، وأسى ، وحنين ما كان بينهم وبين معشوقاتهم فى تلك الديار والآثار من لقاء ووصال ، ووجد وغرام . . . . . . كأنه يقول : إننى افتتحت هذه القصيدة بالدعوة إلى المكرمات وأعمال الجدّ والمجدّ ومعالى الأمور . وغيرى كانوا يفتتحون قصائدهم بالاعتكاف على الأطلال ، وبكاء الرسوم والآثار . وشتّان ما بيننا .

والمعنى : أن الفرق شاسع ، والبون بعيد بين الداعى إلى المكرمات ، والباكى على ارتحال المعشوقات . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة — وبخاصّة البيت الأول — ظاهرة وثيقة ؛ فإن الانتداب للمكارم ، والدعوة إليها ، والحضّ عليها ، والاستجابة لها ، من الجدّ ومعالى الأمور التى مجّدها الشاعر ، ونوّه بها ، ورغّب فيها . أما الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار (شأن شعراء النسيب أو التشبيب فى العصور الخوالى ، وفى البيئة البدويّة الصحراويّة) فإنه أشبه بالهزل ، أو اللهو الذى لا يرجى من ورائه نفع عامّ ، أو شىء يتّصل بالكرم والمجد ومعالى الأمور .

(٦) التفاوت : التباين ، والاختلاف . مصدر تفاوت الشيئان : أى اختلفا ، وتباينا ، وتباعد ما بينهما . والخلق (بفتح فسكون) : الناس ، وغيرهم من المخلوقات . وهو فَعْل بمعنى مفعول : أى مصدر أريد به اسم المفعول . أو هو الخلق (بضم فسكون) ، كالخلق (بضمتين) . ومعناه السجيّة ، والطبيعة ، =

فَانْهَضْ إِلَى صَهَوَاتِ الْمَجْدِ مُعْتَلِيًا ... فَالْبَازُ لَمْ يَأْوِ إِلَّا عَالِيَ الْقُلَلِ(٧)

وَدَعْ مِنَ الْأَمْرِ أَدْنَاهُ لِأَبْعَدِهِ ... فِى لُجَّةِ الْبَحْرِ مَا يُغْنِى عَنِ الْوَشَلِ(٨)

والغريزة . وجمعه أخلاق . والمزيّة : التمام ، والفضيلة . ومزيّة الفرق : تمام الفرق : أى الفرق التامّ الواضح . أو فضيلة التفرقة . والحلى : مصدر حليت المرأة (كرضيت) : أى لبست الحلى ، أو صارت ذات حلى . وهو ما تزدان به من مصوغ المعدنيات ، كالأساور ، والقلائد الذهبيّة ونحوها . والعطل : ضدّ الحلى . وقد يستعمل فى الخلوّ من الشيء ، وإن كان أصله فى الخلوّ من الحلى ، فيقال : عطل الرجل من المال والأدب . (من باب طرب) .

والمعنى : أن الناس يتفاوتون ويتفاضلون فى أخلاقهم وهمّاتهم وكفاياتهم ومساعيهم ، وأن هذا التفاوت يظهر ما بينهم من فوارق واضحة ، وصفات متباينة ، وأعمال مختلفة .

وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن الداعى للمكرمات حال فاضل ، والباكى على الأطلال ناقص عاطل .

(٧) نهض إلى كذا (من بابى قطع وخضع) : قام ، وتحرّك إليه فى يقظة وسرعة ونشاط . والصهوات : جمع صهوة (بوزن شهوة وشهوات) : وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس . واعتلى الشيء : ارتفع . واعتلاه : علاه ، ورقيه ، وصعده . والباز : لغة فى البازى : وهو من جوارح الطير التى تصيد ، وتطير فى الطبقات العليا من الجوّ . وفى بعض المعجمات أنه ضرب من الصقور . وأوى المكان ، وأوى إليه : نزله ، وسكنه ، وأقام به ، واستوطنه . والقلل : جمع قلّة : وهى من كلّ شيء قمّته ، وأعلاه . وقلل الجبال ونحوها : قممها وأعاليها .

فى البيت الخامس أظهر الفارق العظيم الواسع بين الداعى للمكرمات ، والباكى على الدمن والأطلال . ووصل السادس بهذا المعنى ، فقرّر أن الناس متفاوتون فى أخلاقهم وأعمالهم ومساعيهم ، وأن فيهم الحالى والعاطل ، والفاضل والناقص .

وفى هذا البيت حضّ على النهوض ، وبعد الهمّة ، وقوّة العزم ، واعتلاء صهوات العزّ والشرف ، والسموّ إلى أعلى مراتب المجد والكرم . وضرب البازى مثلاً ؛ فإنه يقتحم العقبات ، ويقهر الصعوبات ، ولا يطير إلا فى طبقات الجوّ العليا ، ولا يسكن إلا القمم الشاهقة ؛ فالشطر الثانى تذييل مؤكّد لمعنى الشطر الأول .

(٨) دع : اترك . والأمر : الشأن والحال . وأدناه : أقربه . واللجة : معظم الماء وكثرته . ومنه بحر لجىّ . والوشل (بفتحتين) : الماء القليل . وهو هنا ضدّ اللجّة .

والمعنى : اطلب الجليل الرفيع من الأمور يجزئك عن التافه الحقير القريب ، كالمستغنى باللجّة عن الوشل ؛ فالشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . وفيه تأكيد لمعنى الشطر الأول . وفيه الحجّة والبرهان والإقناع .

قَدْ يَظْفَرُ الْفَاتِكُ الْأَلْوَى بِحَاجَتِهِ ... وَيَقْعُدُ الْعَجْزُ بِالْهَيَّابَةِ الْوَكَلِ(٩)

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ تَسْلَمْ ، فَرُبَّ فَتًى ... أَلْقَى بِهِ الْأَمْنُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالْوَجَلِ(١٠)

وَلَا يَغُرَّنْكَ بِشْرٌ مِنْ أَخِي مَلَقٍ ... فَرَوْنَقُ الْآلِ لَا يَشْفِي مِنَ الْغَلَلِ(١١)

---

(٩) «قد» : حرف يفيد التكثير فى مثل هذا المقام . وظفر بالشىء (من باب فرح) : فاز به ، وأصابه ، وناله ، وتمكّن منه. والفاتك: الجرىء الشجاع المقدام . اسم فاعل من فتك (من بابى ضرب ونصر) : أى ركب ما همّ من الأمور ، وما دعت إليه نفسه ، فى جرأة وإقدام وعدم مبالاة . والألوى الشديد العسر ، الذى يلتوى على خصمه ، أى يستعصى عليه . والهيّابة : الجبان الشديد الخوف. والوكل: (بفتحتين ، أو بفتح فكسر) : الجبان ، والضعيف العاجز ، يتّكل على غيره .

ينوّه بالقوّة والجرأة ، ويزدرى الضعف والعجز ؛ فحاجات القوىّ الجرىء ميسّرة له ، رهينة بطلبه . أمّا العاجز الجبان فإن عجزه يقعده ويشلّه ، فلا يكاد يصل إلى شىء من مطالبه ورغائبه .

(١٠) «ربّ» هنا : حرف يفيد التكثير . ونظيرتها فى مثل هذا المقام «كم» الخبرية . واليأس (بالياء) : مصدر يئس منه : أى انقطع أمله فيه ، وفقد رجاءه . أو هى البأس (بالباء) : بمعنى العذاب الشديد ، وبمعنى الخوف . والوجل (بفتحتين) : الخوف .

يحضّ على الحذر والتيقّظ والاحتراس ؛ فإن الحذر المحترس جدير بالسلامة من الأخطار والآفات ، والآمن الغافل يلقى به أمنه وغفلته بين المخاوف وخيبة الرجاء .

لمّا حضّ على الجرأة والإقدام فى البيت السابق رأى أن يدعو فى هذا البيت إلى الحذر والاحتراس ، كأنه ينهى الجرىء المقدام عمّا يرديه من الغفلة والإهمال ، والتهوّر والاندفاع .

(١١) لا يغرّنك : لا تنخدع . غرّه : ختله ، وخدعه ، وأطمعه بالباطل . والبشر : البشاشة وطلاقة الوجه . والملق : الودّ الكاذب ، واللطف المتكلّف ، وأن تعطى باللسان ما ليس فى القلب. (وفعله من باب فرح) . ورونق الشىء : حسنه وبهاؤه . ومنه رونق السيف ، ورونق الضحى . والآل : السراب (بوزن السحاب) : وهو ما يراه المرء على بعد وقت الهجير فى الصحارى وغيرها كأنه ماء . فإذا جاءه لم يجده شيئاً . وفى القرآن الكريم : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً » . الآية رقم ٣٩ من سورة النور . والغلل (بفتح الغين وفتح اللام) : العطش. أو شدّته وحرارته.

فى البيت السابق قال : إن السلامة مرجوّة بالحذر والاحتراس ، لا بالغفلة والاندفاع .

وفى هذا البيت عرض صورة من صور الغفلة ، وهى الانخداع بملق المتملّق . ونهى عن الاغترار به ، والركون إليه ؛ فإن ما يظهره هذا المخادع من الودّ والبشاشة ، والملق والنفاق — يشبه السراب ، له حسن ورواء ولكنّه لا يروى غلّة ، ولا يطفئ ظمأ .

لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ مَا فِى النَّاسِ مِنْ دَخَنٍ ... لَبَاتَ مِنْ وُدِّ ذِى الْقُرْبَى عَلَى دَخَلِ (١٢)

فَلَا تَثِقْ بِوِدَادٍ قَبْلَ مَعْرِفَةٍ ... فَالْكُحْلُ أَشْبَهُ فِى الْعَيْنَيْنِ بِالْكَحَلِ (١٣)

وَاخْشَ النَّمِيمَةَ ،وَاعْلَمْ أَنَّ قَائِلَهَا ... يُصْلِيكَ مِنْ حَرِّهَا نَارًا بِلَا شُعَلِ (١٤)

كَمْ فِرْيَةٍ صَدَعَتْ أَرْكَانَ مَمْلَكَةٍ ... وَمَزَّقَتْ شَمْلَ وُدٍّ غَيْرِ مُنْفَصِلِ (١٥)

= والشطر الثانى من هذا البيت تذييل يجرى مجرى المثل، ويؤكّد معنى الشطر الأول؛ فإن بشر المتملّق خادع كاذب ، والسراب بررنقه خادع كاذب ، وكلاهما لا يجدى ، ولا ينفع ، بل يضرّ ويؤذى من يغفل عنه ، وينخدع به .

(١٢) الدخن (بفتح الدال وفتح الخاء) الحقد ، وفساد الباطن ، وسوء الخلق . ومن كلامهم : « هدنة على دخن » . والدخل هنا : الشكّ والريبة . (وفعله من باب فرح) .

يذهب إلى أن الناس ينطوون على الحقد والضغينة ، وسوء السريرة ، وفساد الباطن . ولو علم الإنسان ما يضمره بعضهم لبعض من الشرّ والكيد ، لساوره الشكّ والارتياب فيما يظهرونه من التودّد والتلطّف ، حتى ولو كانوا أقرباءه وذوى رحمه . والصلة واضحة وثيقة بين هذا البيت والبيت الذى قبله والبيت الذى بعده .

(١٣) الوداد : المودّة والمحبّة . والكحل (بضم فسكون) : كلّ ماوضع فى العين ،يستشفى به ، وليس بسائل ، كالإثمد ونحوه . والكحل (بفتحتين) سواد يعلو جفون العيون ، خلقة من غير اكتحال . وهو مصدر كحلت العين (من باب فرح) : أى اسودّت أجفانها خلقة .

يقول : لا تثق بمودّة امرئ، ولا تطمئنّ لإقباله عليك، وتقرّبه إليك قبل أن تجرّبه وتتعرّف صدقه، وتستبين إخلاصه ؛ فإن الودّ يتشابه صادقه وكاذبه ، كما يتشابه المصنوع والمطبوع من الكُحْل والكَحَل .

(١٤) النميمة : الوشاية والسعى بالوقيعة والفتنة والفساد والتفرقة بين الناس ، اسم من نمّ بين القوم : أى حرّش ، وورّش ، وأغرى . ونمّ الحديث : سعى به ليوقع فتنة بين الناس . أو رفعه إشاعة له ، وإفساداً . ويصليك ناراً : يلقيك فيها ، ويحرقك بها . والشُعَل : جمع شُعْلَة : وهى لهب النار وتوقّدها .

يحذّرك النميمة ، والتأثّر بها ، والإنصات لقائلها .ويشبّهها بالنار ، يصلاها ، ويحترق بحرّها من يستمعها ، وإن لم يبصر لها توقّداً ولهيباً . ولا ريب أن المستمع للنميمة مخدوع؛ فإن ضررها يصيبه قبل أن يصيب المنموم عليه . والنمّام يزيّن كلامه بالكذب، ولا يريد إلا الإفساد والوقيعة والتفرقة .

(١٥) «كم» هنا : خبريّة ، تفيد التكثير . والفرية : الكذب. وصدعت : حطمت وكسرت . وشمل الودّ : ما اجتمع واتّصل من الوداد والمحبّة بين الناس. يقال: جمع الله شملهم : أى ما تشتت من أمرهم. وفرّق الله شملهم : أى ما اجتمع من أمرهم. ومزقت الفرية شمل الودّ : أى مزّقت حال المتحابّين ، =

فَاقْبَلْ وَصَاتِى ، وَلَا تَصْرِفْكَ لَاغِيَةٌ عَنِّى ؛ فَمَا كُلُّ رَامٍ مِنْ بَنِى ثُعَل(١٦)

إِنِّى امْرُؤٌ كَفَّنِى حِلْمِى ، وَأَدَّبَنِى كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْ مَاضٍ وَمُقْتَبَلِ(١٧)

= وما اجتمعوا عليه من الوداد والمحبّة . أو فرّقتْ مجتمعهم القائم على الودّ والمحبّة .

يشير بهذا البيت إلى بعض آثار النميمة والكذب ، كإيقاد نيران الفتنة ، وتهديم الممالك ، وثلّ العروش وتحطيم قوى الأمن ، وتمزيق شمل الودّ ، والتفرقة بين الأخلاّء .

(١٦) الوصاة : الوصيّة: اسم من أوصاه إيصاء ، أو وصّاه توصية. وأوصى الله الناس بكذا وكذا: أى أمرهم به ، وفرضه عليهم، ويراد بالوصيّة هنا : ما قدّمه الشاعر فى تسعة الأبيات السابقة من النصح والإرشاد . ولا تصرفنّك : لا تبعدك ، صرفته عنى : رددته ، ونحّيته ، وأبعدته. ولاغية : كلمة ذات لغو : وهو الباطل ، والخطأ ، والسقط ، وأخلاط الكلام ، وما لا خير فيه، وما لا يعتدّ به. و « ثُعَل » (بوزن عُمَر) ابن عمرو بن الغوث : من طيّئْ : وهو جدّ جاهلىّ ، اشتهر بنوه بإجادة الرمى ، وإصابة المرمى .

والشطر الثانى من هذا البيت ينطوى على التمدّح بإتقان الرماية ، والفخر بإصابة الهدف وإحكام ما أسداه إلى الناس فى تسعة الأبيات السابقة من الوصايا والتجارب ، والنصائح والإرشادات ، والحكم والأمثال .

يقول : تقبّل وصيتّى ، وانتفع بها ، ولايصرفك عن الناصح الأمين لغو اللاغين ، وهذر الهاذرين ؛ فما كلّ متكلّم يزن الكلام ، ويحبك القول ، ويتحرّى الرشد ، ويخلص لك النصح ، ويصيب شاكلة الصواب.

فى ستة الأبيات الأولى من هذه القصيدة افتخر الشاعر بعدّة مزايا، تدور كلّها حول إيثار الجدّ ، وطلب المجد ، والتشبّث بمعالى الأمور ، والاعتماد على الكفاح وقوّة السلاح ، والدعوة إلى الفضائل والمكرمات .

وفى تسعة الأبيات التى تليها انتقل إلى النصح والإرشاد ، فدعا إلى اعتلاء صهوات المجد ، والسعى إلى الجليل العظيم من الأمور . ونوّه بالقوّة والجرأة وآثارهما ، وأوصى بالحذر والحيطة ، ونهى عن الاغترار بملق المتملّقين ، وأوجب اختبار المتودّدين قبل الثقة بودادهم ، وفظّع النميمة والكذب ، وأشار إلى بعض آثارهما .

وفى الأبيات ١٦ — ٢٠ عاد إلى التمدّح والفخر بنفسه ، وعرض بعض مزاياه التى تؤهّله للقيادة ، وترشّحه لما كان يرغب فيه ، ويطمح إليه من المناصب الرفيعة ، والآمال الوسيعة .

(١٧) كفّنى حلمى : منعنى عما لا يليق ، وحال بينى وبين ما لا ينبغى . والحلم : الأناة ، والعقل ، والصفح ، وضبط النفس . وضدّه الطيش ، والنزق ، والجهل ، والخفّة، والحماقة . وأدّبنى : =

فَمَا سَرَيْتُ قِنَاعَ الْحِلْمِ عَنْ سَفَهٍ وَلَا مَسَحْتُ جَبِينَ الْعِزِّ مِنْ خَجَلِ[١٨]

=راضنى على محاسن الأخلاق ، وكرم السجايا ، وحميد الخصال . والجديدان : الليل والنهار . وكرّهما : رجوعهما مرّة بعد أخرى . يقال : كرّ الليل والنهار : أى عادا مرّة بعد أخرى . و « من » هنا : بيانيّة ؛ فما بعدها ، وهو الماضى والمقتبل يبين ما قبلها ، وهو كرّ الجديدين : أى توالى الأزمنة ، وتتابع الليل والنهار . وقد تكون « من » هنا : بمعنى « فى » ، كما فى قول الله تبارك وتعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله » (الآية رقم ٩ من سورة الجمعة) . ومقتبل : مستقبل ، مستأنف . (بصيغة اسم المفعول فى الثلاثة) .

يريد بالشطر الثانى : أن تتابع الليل والنهار فى ماضيه وحاضره قد راضه على محاسن الأخلاق ، وأدب الحياة ، وأنه من الماضى والحاضر اكتسب ذخيرة من الآداب أعدّها لمستقبل الزمان .

يفخر بحلمه وعقله ، ورزانته واستقامته ، ومكارم أخلاقه ، وحميد خلاله ، وترفّعه عن كلّ مالا يليق بمثله ، وانتفاعه فى ماضيه وحاضره ومستقبله بتجارب الحياة ، وتتابع الأيام والليالى.

(١٨) سريت الثوب عنى أسريه . وسروته أسروه : نزعته ، وأزلته ، وكشفت ما كان يغطيه من جسمى . والواو فى هذا الفعل أعلى من الياء . وقناع الحلم : الحلم الشبيه بالقناع : وهو — فى الأصل — : ما تقنّع به المرأة رأسها : أى تستره ، وتغطّيه . والسفه : الخفّة ، والطيش ، والجهل ، والحمق ، ونقص العقل ، وسوء التصرّف . وضدّه الحلم .

ومعنى الشطر الأول : أن الحلم أصيل ثابت راسخ فى جبلّته وطبيعته . وليس زائفاً ، أو متكلّفاً ، أو خادعاً كاذباً ، لا يلبث أن ينكشف عن سفه ، وخفّة ، وجهل ، وطيش ، ونزق ، وحماقة .

أو المعنى : أنه إذا خرج من حلمه ، وغضب ، فإنما يغضب عن رويّة وحكمة ، وحقّ وعقل ، لا عن سفه وطيش ، وجهل ونزق .

ومسح الشيء المبتلّ : أمرّ يده عليه ؛ لإزالة ما به من أثر الماء ونحوه . والجبين : ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة ، أو شمالها . وهما جبينان . وقد يطلق الجبين ، ويراد به الجبهة : وهى ما بين الحاجبين إلى الناصية : أى إلى مقدّم الرأس . والعزّ ، والعزة ، القوّة والمنعة ، والحميّة ، والأنفة . وضدّه الذلّ ، والضعف ، والاستخذاء ، والهوان . وجبين العزّ : جبينه العزيز الذى ينمّ على قوّته وحميّته . والخجل : التحيّر ، والدهش من الحياء أو الاستحياء : وهو انقباض النفس عن القبائح .

ومعنى الشطر الثانى : أنه عزيز أبىّ ، يأنف من الدنايا ، ويستنكف من القبائح ، ويترفّع عمّا يشينه ، ولا يرتكب ما يخجله .

افتخر بأصالة حلمه ، ورزانته ، واستقامته ، ورجاحة عقله ، وتمسّكه بالحكمة والرويّة فى رضاه وغضبه ، كما افتخر بعزّة نفسه ، وبعده عن السفه ، وعن كلّ ما يندّى منه الجبين حياء وخجلا .

وهذا البيت شبه تكرار لمعنى البيت السابق . أو هو توضيح وتفصيل لمعنى قوله : « إنى امرؤ كفّنى حلمى » فى البيت السابق .

حَلَبْتُ أَشْطُرَ هَذَا الدَّهْرِ تَجْرِبَةً وَذُقْتُ مَافِيهِ مِنْ صَابٍ ،وَمِنْ عَسَلِ (١٩)
فَمَا وَجَدْتُ عَلَى الأَيَّامِ بَاقِيَةً أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ حُرِّيَّةِ الْعَمَلِ (٢٠)
لَكِنَّنَا غَرَضٌ لِلشَّرِّ فِي زَمَنٍ أَهْلُ الْعُقُولِ بِهِ فِي طَاعَةِ الْخَمَلِ (٢١)

(١٩) الأشطر : جمع شطر (بوزن أسطر وسطر) . وشطر كلّ شيء : نصفه . ومن كلام اللغويّين : للناقة شطران : قادمان ، وآخران : أى للناقة ونحوها أربعة أخلاف : خلفان قادمان ، وخلفان آخران . وكلّ خلفين من أخلافها الأربعة شطر . والخلف (بكسر فسكون) : ضرع الناقة ونحوها . ويرادفه فى المرأة الثدى ، وهو ما يجتمع فيه اللبن . وقولهم : « حلب الدهر أشطره » أصله « حلب الدهر شطريه » ، ثم أحلّوا الجمع محلّ المثنى . أى حلب أخلافه كلّها ،على تشبيهه بالناقة ونحوها . ومعنى « حلب الدهر أشطره » أو « حلب أشطر الدهر » : خبر ضروب الزمان ، ومرّ به خيره وشرّه ، وتمرّس برخائه وشدّته ، وجرّبه تجربة تامّة . وجرّبتُ الشيء تجريباً وتجربة : اختبرته مرة بعد أخرى . و « من » الأولى فى الشطر الثانى بيانيّة ، فهى تبين كلمة «ما » ، وتزيل إبهامها ، وتوضح المقصود منها . و « من » الثانية تكرار للأولى قصد به التأكيد . والصاب : شجر مرّ . أو هو عصارة ذلك الشجر : أى ما يسيل منه إذا عصر . وواحدة الصاب : صابة .

ومعنى الشطر الثانى من هذا البيت : توضيح ، وتفصيل ، وتأكيد لمعنى الشطر الأول ؛ فإن الذى يحلب أشطر الدهر مجرّب خبير ، متمرّس ، يذوق بالتجربة الصادقة مرارته وحلاوته .

يفخر بسعة خبرته ، وكثرة تجاربه ، فقد مارس أمور الزمان ، وخبر ضروبه ، ومرّ به خيره وشرّه ، وذاق الحلو والمرّ من أحواله .

(٢٠) باقية على الأيام : باقية على مدى الأيام : أى تبقى بقاء الأيام ، وتدوم دوام الدهر . وأشهى : ألذّ ، وأطيب ، وأحبّ . ويريد بحرّية العمل : العمل الحرّ الطليق ، البعيد عن نطاق الحكومة ؛ فإن العمل الحكومىّ مقيّد بشتّى القيود ، والعمل الحرّ منطلق فسيح ممتع. وهو أطيب الأعمال وأكرمها ، وأشهى ما تشتهيه نفس الحرّ ؛ إذ يجد فيه الحرّية الباقية الدائمة .

افتخر فى البيت السابق بأنه جرّب الحياة ، وذاق حلوها ومرّها، وحلب الدهر أشطره ، وتمرّس بخيره وشرّه، ورخائه وشدّته .

وهو فى هذا البيت يشير إلى إحدى تجاربه الصادقة فى مجال الأعمال ،فيمتدح العمل الحرّ ، وينوّه به ، ويعرّض بالمناصب الحكوميّة التى لا تَبْقَى لأصحابها ، وهى مع هذا تقيّد حريّتهم ، وتضعف شخصيّتهم .

(٢١) الغرض : الهدف الذى يرمى . والخمل (بفتح الخاء والميم) : جمع خامل : وهو الساقط الذى لا نباهة له ، ولا يعتدّ به .

=

قَامَتْ بِهِ مِنْ رِجَالِ السُّوءِ طَائِفَةٌ　　أَدْهَى عَلَى النَّفْسِ مِنْ بُؤْسٍ عَلَى ثَكَلِ (٢٢)

مِنْ كُلِّ وَغْدٍ يَكَادُ الدَّسْتُ يَدْفَعُهُ　　بُغْضًا، وَيَلْفِظُهُ الدِّيوَانُ مِنْ مَلَلِ (٢٣)

= فى البيت السابق أشاد بالعمل الحرّ ، وعرّض بالمناصب الحكوميّة . ويفهم من هذا أن المشتغلين بالأعمال الحرّة أحرار سعداء ، وأن العاملين فى الحكومة غير أحرار ، وغير سعداء .

وفى هذا البيت استدرك ، فقال : إن العقلاء النابهين الأحرار من أمثاله مكرهون فى زمانه على إطاعة نكرات من الحكّام الخاملين الساقطين . يستوى فى ذلك العاملون فى الحكومة ، والمشتغلون بالأعمال الحرّة ، فإنهم جميعاً أهداف لا يفتأ هؤلاء الحكّام الظالمون يصيبونها بالأذى والشر ، والبغى والعدوان . والغرض الحض على الثورة فى وجوه هؤلاء المستبدّين ؛ فإن المفكّر الأريب العاقل يستنكف أن يدخل فى طاعة الجاهل الساقط الخامل .

والشاعر ينتقل فى هذا البيت والأبيات التالية إلى هجاء خصومه السياسيّين من ولاة الحكم ، الذين ساء ظنّه بهم ، ورآهم فاسدين مفسدين .

(٢٢) الهاء فى « به » يعود على « زمن » فى البيت السابق . والمراد قامت بالحكم فى زمن البارودىّ طائفة من رجال السوء . أو يعود على « الشرّ » فى البيت السابق أيضاً . والمراد اقترفت الشرّ طائفة من رجال السوء . وساءه سوءاً (من باب قال) : فعل به ما يكره . وضدّه سرّه . والاسم منه السوء (بضم السين) . ومن معانى السوء : الهزيمة ، والشرّ ، والردى ، والفساد ، وكلّ ما يغمّ الإنسان . والطائفة : الجماعة من الناس . وأدهى : أثقل ، وأمرّ ، وأوجع ، وآلم . اسم تفضيل من دهاه يدهاه : أى أصابه بداهية : وهى النائبة ، والنازلة ، والكارثة . والبؤس : شدّة الحاجة . والثكل (بوزن التعب) : فقدان الحبيب والولد . : مصدر ثكلت الأمّ ولدها (من باب تعب) : أى : فقدته .

يهجو الحكّام فى زمانه بأنهم رجال شرّ وفساد ، وأن قيامهم بالحكم أشدّ إيلاماً لنفس الحرّ من البؤس والثكل مجتمعين .

(٢٣) الوغد (بفتح فسكون) : الدنىء الرذل ، أو الأحمق الخفيف العقل . والدست : (بفتح فسكون) كلمة فارسيّة معرّبة : ومن معانيها : صدر البيت ، وصدر المجلس . ويراد بها هنا مجلس الحكم . أو كرسىّ الرياسة ، أو مقعد الإمارة والسلطان . ودست الوزارة : منصبها . ودفع الشىء يدفعه : (من باب قطع) نحّاه ، وأزاله بقوّة . والبغض : المقت والكراهية . ويلفظه (من باب ضرب) : يخرجه ، ويطرحه ، ويرميه . والديوان : مكان الكتبة والمستخدمين . ويراد به وبالدست هنا : المناصب الكبيرة التى يشغلها هؤلاء الحكّام المهجوون من رجال الخديو إسماعيل وأعوانه . والملل : السآمة والضجر .

وصمهم بالدناءة والرذالة والحماقة . وقال : إن الديوان ، أو المجالس ، أو كراسىّ الحكم ، أو =

ذَلَّتْ بِهِمْ مِصْرُ بَعْدَ الْعِزِّ ، واضْطَرَبَتْ قَوَاعِدُ الْمُلْكِ ، حَتَّى ظَلَّ فِي خَلَلِ (٢٤)

وَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ «الْفُسْطَاطِ» خَاضِعَةً بَعْدَ الْإِبَاءِ ، وَكَانَتْ زَهْرَةَ الدُّوَلِ (٢٥)

قَوْمٌ إِذَا أَبْصَرُونِي مُقْبِلًا وَجَمُوا غَيْظًا ، وأَكْبَادُهُمْ تَنْقَدُّ مِنْ دَغَلِ (٢٦)

فَإِنْ يَكُنْ سَاءَهُمْ فَضْلِي ، فَلَا عَجَبٌ فَالشَّمْسُ - وَهْيَ ضِيَاءٌ - آفَةُ الْمُقَلِ (٢٧)

=المناصب التي يتولّونها متبرّمة بهم، ضجرة منهم، ساخطة عليهم. وهي لشدّة كراهيتها لهم، ومقتها لانحرافهم وفسادهم تكاد تقذف بهم، وتزيلهم بالقوّة من مناصبهم.

(٢٤) بهم: بالحكّام المهجوّين: أي بسبب انحرافهم وفسادهم. وقواعد الملك: أسسه وأصوله. وخلل: فساد، واضطراب. وظلّ في خلل: أي دام فساده واختلاله.

يقول: كانت مصر في عزّة وقوّة ومنعة، فلمّا ولي أمرها هؤلاء الأوغاد المفسدون أساءوا إليها، وأفسدوا أمورها؛ فهوت إلى حضيض الذلّ والضعف والهوان، واختلّ الملك من قواعده، ولم يبق له ضابط أو نظام.

(٢٥) دولة الفسطاط: الدولة المصريّة. والفسطاط (في الأصل): السرادق. والبيت من الشعر. ومجتمع أهل الكورة: وهي الصقع، أو المدينة. والفسطاط: مدينة مصر العتيقة التي بناها عمرو ابن العاص في موضع فسطاطه. وخاضعة: ذليلة. والإباء: العزّ والمنعة. وزهرة الدول: زينتها، وبهجتها.

يقول: كانت الدولة المصريّة بهجة الدول، وزينة الممالك، ففسد أمرها بفساد هؤلاء الحكّام، وذلّت بعد عزّ، وخضعت بعد إباء.

(٢٦) يريد بالقوم من يهجوهم. ووجموا (من باب وعد): عبسوا، وأطرقوا، وسكتوا على غيظ. والغيظ: غضب شديد كامن، يضمره العاجز، ولا يستطيع لعجزه إظهاره. وهو أشدّ الحنق. وتنقدّ: تنشقّ، وتتقطّع. والدغل (بفتحتين): الحقد المكتوم، وفساد الباطن. ومثله الدخل (بوزنه ومعناه).

(٢٧) الآفة: كلّ ما يصيب شيئاً، فيفسده. والمقل: العيون. واحدتها مقلة (بوزن مُهْجة ومُهَج).

في هذا البيت والذي قبله قال: إن المهجوّين من خصومه السياسيّين حاقدون عليه أشدّ الحقد؛ لما يعرفونه من كفاياته ومحامده، فإذا رأوه مقبلا عليهم ثار الغضب الكامن في قلوبهم، ومزّق الحنق أكبادهم؛ فتجهّموه، وكرهوا لقاءه، وبدا عليهم الكمد والوجوم.

ولا غرو أن يسوءهم فضله، ويغيظهم إحسانه؛ فإن الناقص يحسد الفاضل، والعاطل يمقت الحالي، =

نَزَّهْتُ نَفْسِيَ عَمَّا يَدْنَسُونَ بِهِ ... وَنَحْلَةُ الرَّوْضِ تَأْبَى شِيمَةَ الْجُعَلِ (٢٨)

بِئْسَ الْعَشِيرُ ، وَبِئْسَتْ مِصْرُ مِنْ بَلَدٍ ... أَضْحَتْ مُنَاخًا لِأَهْلِ الزُّورِ وَالْخَطَلِ (٢٩)

أَرْضٌ تَأَثَّلَ فِيهَا الظُّلْمُ ، وانْقَذَفَتْ ... صَوَاعِقُ الْغَدْرِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ (٣٠)

= وضياء الشمس يؤذى العيون ، ويفسد الأبصار .

والشطر الثانى من هذا البيت تذييل يوضّح معنى الشطر الأول ، ويقوم مقام الحجّة والدليل والبرهان ، فالشاعر بفضائله ومزاياه يسوء حاسديه ، ويحزن الحاقدين عليه . والشمس بنورها الوهّاج تؤذى العيون ، وتعاسر الأبصار . ولو قال : « المقل الرمد » (جمع رمداء، صفة من الرمد) لوضّح المعنى ، ووفّاه حقّه. وهو هنا يلمح قول البوصيرى :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

(٢٨) نزّه نفسه عمّا يشينها : ترفع بها عنه ، وأبعدها . ودنس الثوب ونحوه (من باب تعب) : توسّخ ، وتلطّخ . ومن المجاز : دنس عرضه . والروض: جمع روضة : وهى البستان الحسن . والأرض تعجبك بخضرتها ونباتها وأشجارها وعشبها وأزهارها وبقلها ومياهها . والشيمة : الخلُق ، والغريزة ، والطبيعة ، والجبلّة . والجعل : حشرة كالخنفساء ، تألف الأقذار ، وتكثر فى المواضع النديّة .

يفتخر بأنه ترفّع بنفسه وعرضه عمّا انحطّتْ إليه نفوس المهجوين وأعراضهم من النقائص والمثالب. مثله ومثلهم كنحلة الرياض والخنفساء ؛ فإن النحلة لا تفتأ تخالط الزهر والثمر ، وتحرص أشدّ الحرص على الطهر والنقاء ، وتترفع بطبيعتها عن طبع الخنافس والجعلان التى تهوى الأقذار ، وتأوى إلى الأوضار .

(٢٩) العشير : المعاشر ، والمخالط (فعيل بمعنى مفاعل) . والمراد أهل مصر الذين رضوا بالضيم ، وأقاموا على الهوان . والمناخ : المقام ، والمنزل . وهو فى الأصل : مبرك الإبل . اسم مكان من أناخ الرجل الجمل إناخة : أى أبركه . والزور : الكذب ، والباطل . والخطل (بفتحتين) : الخطأ ، والفحش ، والمنطق الفاسد المضطرب ، والكلام الكثير المختلّ الذى لا قيمة له ، ولا غناء فيه . ومن معانى الخطل: الحماقة ، والطيش ، والخفّة ، والنزق. ويريد بأهل الزور والخطل : من يهجوهم من حكّام مصر الفاسدين المفسدين الذين استتبّ لهم الأمر ، وطال ما يقاسيه الوطن من خطلهم وفسادهم .

يذمّ من رضى بالذلّ ، وأقام على الضيم من معاشريه ، ويرمى من يهجوهم من الحكّام بالزور والخطل ، ويتبرّم بمصر ويذمّها ؛ لأنها آوتهم ، ورضيتْ أن تكون لهم منزلا ومقاماً .

(٣٠) يريد بالأرض : أرض مصر . وتأثّل: تأصّل ، وتجمّع ، ورسخ ، وثبت . والقذف : الرمى القوىّ البعيد : مصدر قذف الحجر وغيره ، وقذف به (من باب ضرب) أى : رمى به بقوّة . =

وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي عَمْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... لَمْ يَخْطُ فِيهَا امْرُؤٌ إِلَّا عَلَى زَلَلِ (٣١)

لَمْ أَدْرِ مَا حَلَّ بِالْأَبْطَالِ مِنْ خَوَرٍ ... بَعْدَ الْمِرَاسِ، وَبِالْأَسْيَافِ مِنْ فَلَلِ (٣٢)

أَصَوَّحَتْ شَجَرَاتُ الْمَجْدِ، أَمْ نَضَبَتْ ... غُدْرُ الْحَمِيَّةِ حَتَّى لَيْسَ مِنْ رَجُلِ؟ (٣٣)

= فانقذف. والصواعق : جمع صاعقة : وهي النازلة لا تصيب شيئاً إلا دكّته وأحرقته . أو هي نار تسقط من السماء . أو هي كلّ عذاب مهلك. والسهل : الأرض المنبسطة الممتدّة . وضدّه الحزن (بفتح فسكون)، والهضبة ، والجبل . و « بين السهل والجبل » أي في كلّ مكان . وصواعق الغدر : الغدر الشبيه بالصواعق .

يصف مصر في أواخر عهد الخديو إسماعيل ؛ إذ تجمّعت المظالم ورسخت ، وكثرت المفاسد ، وعمّت الخيانات ، ونزلت ضروب الغدر بالناس نزول الصواعق .

(٣١) في عمياء : في ضلالة وجهالة وكرب وبلاء . من قولهم : عمي على الرجل طريقه (من باب صدى) : إذا ضلّه ، ولم يهتد إليه . وعمي عليه الأمر : التبس وخفي . ومظلمة: تأكيد لمعنى عمياء . وخطا يخطو (من باب عدا) : مشى . وزلل : مصدر زلّت قدمه (من باب تعب) : أي زلقت في طين ونحوه ، فسقط .

يصوّر سوء الأحوال في عهد أولئك المهجوّين ؛ إذ أصبح الناس في جهالة وضلالة، وكرب وبلاء. ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا خطا فيها المرء خطوة لم يسلم من العثار والسقوط .

(٣٢) حلّ بهم : نزل بهم ، وأصابهم . والأبطال : جمع بطل : وهو الرجل الشجاع المقدام . والخور (بفتحتين) : الضعف والانكسار . (وفعله من باب تعب) . والمراس (بكسر الميم): البأس ، والشدّة ، والجلد ، والقوّة ، وممارسة الأمور : أي معالجتها بصبر وكفاية عالية . وفلل السيف : انثلام حدّه ، وتكسّر مضارب به . (وفعله من باب تعب) . وقد يراد بتفلّل السيوف هنا : أنها تعطّلت ، وتوقّفت عن العمل — مع شدّة الحاجة إليها — ؛ لأنها لا تكاد تجد الأيدي القويّة ، والقلوب الجريئة . ونفى الدراية عن نفسه في أول البيت يُشْعِر بما تملّكه من العجب والدهش والأسى والأسف .

يعجب ويأسى لما نزل بأبطال مصر وحماتها من ضعف وخذلان ، وصبر ممقوت على الذلّ والهوان ، وعهده بهم أنهم أولو قوّة ، وأولو بأس شديد . ويدخل في دائرة العجب والأسى ما صارت إليه السيوف وأدوات الحرب والقتال من تثلّم وتكسّر ، أو توقّف وتعطّل .

في الأبيات ٢١–٣١ هجا وذمّ، وفخر وتمدّح، وندّد بمثالب الحكّام ، ورثى لسوء أحوال البلاد والناس في عهدهم . وفي هذا البيت والأبيات الآتية حضّ على الثورة العارمة في وجوههم ، ولإزاحتهم عن كراسيّهم ، ودفع الظلم بقوّة السلاح .

(٣٣) صوّح الشجر : يبس وجفّ . ونضب الماء : غاض ، وغار ، وانقطع . (وبابه دخل) . والغدر والغدران (بضم فسكون فيهما) : الأنهار والجداول ومجاري المياه . واحدها غدير ، =

لَا يَدْفَعُونَ يَدَاعَنْهُمْ . وَلَوْ بَلَغَتْ مَسَّ الْعَفَافَةِ مِنْ جُبْنٍ ،وَمِنْ خَزَلٍ(٣٤)
خَافُوا الْمَنِيَّةَ . فَاحْتَالُوا . وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ لَا تَرْتَدُّ بِالْحِيَلِ(٣٥)
فَفِيمَ يَتَّهِمُ الْإِنْسَانُ خالِقَهُ وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا قَيْدٌ مِنَ الْأَجَلِ ؟(٣٦)

= وهو فى الأصل : القطعة من الماء يغادرها السيل : أى يتركها وراءه ، فهوفعيل فى معنى مفاعل (بصيغة اسم المفعول) . أو بمعنى مفعل (بصيغة اسم المفعول أيضاً) من أغدره إغداراً : أى غادره وتركه . والحميّة: الأنفة، والاستنكاف ، والترفّع عن الدنايا والنقائص . والاستفهام فى أول هذا البيت للتعجّب ، أو الاستنكار . والغرض استنهاض الهمم ، وشحذ العزائم .

استفهم فى تعجّب وأسى واستنكار لإقامة الرجال على الضيم ، وضياع الأنفة والحميّة . والغرض استنهاض قومه ، وشحذ عزائمهم لمكافحة الظلم والطغيان ، واسترداد العزّة والمجد .

(٣٤) مسّ العفافة: لمسها ، أو ملمسها. مصدر مسّ الشيء (من بابى فهم وردّ) : أى لمسه بيده ، من غير حائل . والعفافة : مصدر عفّ : أى كفّ عمّا لا يحلّ ، ولا يجمل . ومثله العفّة والعفاف . و « من » هنا : للتعليل . وقد كرّرت مرتين : مرة قبل « جبن » ، ومرة قبل « خزل » : أى لجبنهم وضعفهم لا يدفعون عن أنفسهم يد العدوان ، حتى ولو أصابت صميم أعراضهم ، ومسّت منهم موضع العفّة . والخزل (بفتحتين) : الاسترخاء والضعف ، والتثاقل والانكسار .

يستنكر استكانة المحكومين لهؤلاء الحكّام ، وإحجامهم عن حماية ما يحميه الأبىّ بنفسه ودمه من عرضه وشرفه . ويرميهم بالجبن والخور . وهو فى الحقيقة يريد تحميسهم ، وإثارة حميّتهم لمكافحة الظالمين المفسدين ، وإسقاط دولة الاستبداد والاستعباد .

(٣٥) المنيّة : الموت . واحتال : طلب الشيء بالحيلة : وهى جودة النظر ، والقدرة على دقّة التصرّف ، والحذق فى تدبير الأمور ، وتقليب الفكر حتى يُهتدى إلى المقصود . وجمعها حيل .(بكسر ففتح) .

والمعنى : أن الجبناء يخافون الموت ، ويحتالون لدرئه ، ويطلبون لأنفسهم السلامة بالجبن والإحجام . وكأنهم يجهلون أن الموت لا تردّه الحيل ولا مناص منه. ولو استيقنوا هذه الحقيقة الواضحة لكانوا شجعاناً ، ودفعوا بشجاعتهم عادية الضيم والطغيان .

(٣٦) « فيم ؟ » : « لماذا ؟ » . « فى » التعليليّة جرّت « ما » الاستفهاميّة. وحُذفت ألفها ، وبقيت الفتحة دليلاً عليها . والاستفهام هنا : للاستنكار والاستهجان . والقيد (بفتح فسكون) : حبل ونحوه يجعل فى رجل الدابة وغيرها ، فيمسكها . والأجل: مدّة الشيء . والوقت الذى يحدّد لانتهائه . يقال : ضربت له أجلا : أى وقتاً محدّداً. وجاء أجله : إذا حان موته . وأجل الإنسان : المدة المضروبة لحياته فى الدنيا. وجمعه آجال . ومعنى الشطر الثانى : أن كلّ نفس مقيّدة بأجلها ، لا تحيد عنه، كما فى=

هَيْهَاتَ يَلْقَى الْفَتَى أَمْنًا يَلَذُّ بِهِ مَالَمْ يَخُضْ نَحْوَهُ بَحْرًا مِنَ الْوَهَلِ (٣٧)

فَمَالَكُمْ لَا تَعَافُ الضَّيْمَ أَنْفُسُكُمْ وَلَا تَزُولُ غَوَاشِيكُمْ مِنَ الْكَسَلِ ؟ (٣٨)

وَتِلْكَ مِصْرُ الَّتِى أَفْنَى الْجِلَادُ بِهَا لَفِيفَ أَسْلَافِكُمْ فِى الْأَعْصُرِ الْأُوَلِ (٣٩)

= قول الله تبارك وتعالى : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » الآية رقم ٦١ من سورة النحل . أو هى . « قِيد » (بفتح القاف وكسرها) : بمعنى القدر . يقال : بينهما قيد رمح ، وقيد خطوة : أى مقدارها . والمعنى على هذا : أن كلّ نفس لها مقدار من الأجل لا يزيد ، ولا ينقص .

جعل خوف الجبناء من الموت ، واحتيالهم لدرئه اتّهاماً لله تعالى ، وسوء ظنّ به ، وشكّاً فيما ورد عنه من تحديد الآجال ؛ ولهذا أنكر عليهم هذا الاتّهام ، ورآه مغرقاً فى البطلان ؛ فكلّ نفس ذائقة الموت ، وهى مقيّدة بالمدّة المضروبة لحياتها « ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها » . الآية رقم ١١ من سورة المنافقون .

(٣٧) « هيهات » : كلمة تبعيد : اسم فعل ماض ، معناه بعد . وخاض الخائض الماء (من باب قال) : مشى فيه . والوهل : الخوف ، والفزع . (وفعله من باب تعب) .

يستبعد أن يصل المرء إلى ما يلذّه ويشتهيه من الأمن والطمأنينة إلا إذا ركب إليهما المخاوف والأهوال ، واقتحم الصعاب والعقبات .

(٣٨) « ما » : استفهاميّة . والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع . وتعاف : تأبى ، وتكره . والضيم : الظلم . والغواشى : جمع الغاشية : اسم من غشيه الأمر : أى غطّاه . والغاشية : الداهية ؛ لأنها تصيب الإنسان وتدهاه ، وتغشاه . والغاشية : النازلة من الشرّ أو المكروه . و« من » : تعليليّة ؛ فغواشيكم علّتها وسببها كسلكم . أو هى بيانيّة ، والكسل بيان للغواشى .

غشيهم الكسل والخمول والتراخى ؛ فاستكانوا ، ورضوا بالذلّ ، واحتملوا الظلم ، وأقاموا على الضيم والهوان . وفى البيت لوم ، وتعيير ، وتعنيف ، وتقريع يقصد به التحميس والتحريض ، وإحياء الهمم ، وشحذ العزائم .

(٣٩) الإشارة فى أول هذا البيت تنمّ على رفعة القدر ، وبعد المكانة . والجلاد : الحرب والقتال : مصدر جالده بالسيف : أى ضاربه . واللفيف : جماعات الناس وأخلاطهم . والأسلاف : جمع سلف (بوزن سبب وأسباب) : وهم الماضون من الآباء والأجداد . ولفيف أسلافهم : خاصّتهم ودهماؤهم ، وأغنياؤهم وفقراؤهم الذين اجتمعوا على العزّة والحرّية ، والمنعة والقوّة ، والإباء والكرامة ، والجرأة والشجاعة ، ثم طواهم الموت ، ونشرهم التاريخ . والأعصر : جمع العصر : وهو الدهر والزمان . ويلاحظ أن الشاعر ذمّ مصر فى البيت التاسع والعشرين حينما أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل ، وعظّمها فى هذا البيت إذ كانت موطناً للأعزّة الأحرار المجالدين الذين أفناهم الجهاد فى سبيل العزّة والمجد .

فى الأبيات ٣٢ — ٣٨ ضروب من القول ، قصد بها الشاعر تحميس قومه ، وتحريضهم على دفع =

قَوْمٌ أَقَرُّوا عِمَادَ الْحَقِّ وامْتَلَكُوا ... أَزِمَّةَ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ (٤٠)

جَنَوْا ثِمَارَ الْعُلَا بِالْبِيضِ ، وَاقْتَطَفُوا ... مِنْ بَيْنِ شَوْكِ الْعَوَالِي زَهْرَةَ الْأَمَلِ (٤١)

فَأَصْبَحَتْ مِصْرُ تَزْهُو بَعْدَ كُدْرَتِهَا ... فِي يَانِعٍ مِنْ أَسَاكِيبِ النَّدَى خَضِلِ (٤٢)

= الظلم بقوّة السلاح .

وفى هذا البيت وثمانية الأبيات التالية فنّ آخر من فنون هذا التحريض ، هو التنويه بالآباء ، ونشر شىء من سيرهم ، والإشادة بأعمالهم وآثارهم ؛ ليتشبّه بهم الأبناء فى الكفاح والجلاد ، والاستهانة بالموت ، وبذل النفس ؛ لدفع الضيم ، وإحقاق الحقّ ، وكسب النصر ، وبسط السلطان ، وارتداء المجد ، وبلوغ الأمل .

(٤٠) يريد بالقوم : السلف القوىّ العزيز الكريم الذى نوّه به فى البيت السابق ، وقال : إن الجلاد أرداه وأفناه . وأقروا : أرسوا ، وأرسخوا ، وثبّتوا . وعماد الحق : ما يعتمد عليه ، ويستند إليه من المبادئ والمثل العليا . والأزمّة : جمع زمام : وهو المقود الذى تقاد به الدابّة من حبل ونحوه . والخلق : الناس . وامتلاك أزمّة الناس : كناية عن السيطرة عليهم . والحافى : غير المنتعل . والمنتعل : لابس النعل وشبهها . والنعل : الحذاء . و « من » بيانيّة . ويراد بالحافى والمنتعل من الخَلْق : الناس أجمعون على اختلاف مراتبهم وأحوالهم وأجناسهم .

أحسن الشاعر الثناء فى هذا البيت على أسلاف المصريين الذين أحقّوا الحقّ ، وأرْسَوْا دعائمه ، وأبطلوا الباطل وقوّضوا بنيانه ، وبسطوا سلطانهم على شتّى البلاد والأجناس والناس .

(٤١) جنوا ، واقتطفوا : قطفوا ، واقتطعوا ، والتقطوا ، وجمعوا . وواو الجماعة : ضمير « قوم » فى البيت السابق . والبيض : السيوف . واحدها أبيض . والعوالى : أسنّة القنا ، وأطراف الرماح . الواحدة عالية : وهى أعلى الرمح ، أى رأسه الحادّ القاطع . ومثلها السنان ، والنصل . وشوك العوالى : العوالى الشبيهة بالشوك . وزهرة الأمل : الأمل المشرق الباسم ، الشبيه بالزهرة .

يقول لمن يحاول تحميسهم وتحريضهم من مواطنيه : إن أسلافكم بلغوا المعالى ، وحقّقوا الآمال بالجلاد والكفاح ، وقوّة السلاح .

(٤٢) تزهو : تشرق وتضىء : زها اللون : صفا وأشرق . والكدرة : لون يميل إلى السواد والغبرة . وضدّها : الصفاء والنقاء . ويانع : أحمر قانئ : أى شديد الحمرة ، يميل إلى السواد . و « من » : بيانيّة . والأساكيب : جمع أسكوب (بوزن أسلوب وأساليب) : وهو المطر الدائم السكوب ، أى الانصباب . سكب الماء ونحوه (من باب دخل) : انسكب ، وانصبّ ، وسال . والندى : المطر . وخضل : ند ، مبتلّ ، يترشّش ماؤه ويتفرّق وينتثر . =

لَمْ تَنْبُتِ الْأَرْضُ إِلَّا بَعْدَ مَا اخْتَمَرَتْ ... أَقْطَارُهَا بِدَمِ الْأَعْنَاقِ وَالْقُلَلِ (٤٣)

شَنُّوا بِهَا غَارَةً أَلْقَتْ بِرَوْعَتِهَا ... أَمْنًا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الذِّئْبِ وَالْحَمَلِ (٤٤)

حَتَّى إِذَا أَصْبَحَتْ فِى مَعْقِلٍ أَشِبٍ ... يَرُدُّ عَنْهَا يَدَ الْعَادِى مِنَ الْمِلَلِ (٤٥)

= و « فى » : للظرفيّة المكانيّة . وقد تكون تعليليّة : أى بسبب يانع ... و « فى يانع من أساكيب الندى خضل » : أى فى دم قانٍ ، ينصبّ بغزارة ، ويترشّش ، كأنه دفعات المطر . يشير بهذا إلى دماء القتلى والجرحى من أبطال مصر وأعدائهم ، فى الحروب الكثيرة التى خاضها المصريون فى الأزمنة السابقة لإقرار الحقّ ، وكسب النصر ، وبناء المجد ، وتوسيع السلطان ، وتحقيق الآمال . ويشير بالزهو إلى صفاء الحال بالعزّة والغلبة ، واستتباب الأمن والنظام . ويشير بالكدرة إلى ما كانت تعانيه مصر قبل هذه الحروب من الضيم والغدر ، واضطراب الأمر ، وفساد الحكم .

يصف مصر فى إثر الحروب التى خاضها أسلافنا يوم كانت البلاد مصبوغة بما سال من دماء المجاهدين من أبنائها، ودماء القتلى والجرحى من أعدائها ، وبهذه الدماء حلّ الإشراق والصفاء محلّ الكدر وسوء الحال . والغرض إحياء الهمم ، وشحذ العزائم .

(٤٣) « تنبت » : مضارع نبت (من باب نصر) أو هى مضارع أنبت . يقال : نبتت الأرض : أى صارت ذات نبت . وأنبتت الأرض إنباتا : أى أخرجت النبات . واختمرت : تغطّت ، واستترت . مستعار من اختمرت المرأة : أى لبست الخمار : وهو ثوب تغطّى به رأسها وتستره . والأقطار : النواحى والجوانب . واحدها قطر (بوزن قفل) . والأعناق : الرقاب . واحدها : عنق . ويراد بالقلل هنا : رءوس القتلى . الواحدة قلّة : وهى من كلّ شىء أعلاه .

والمعنى : أن أرض مصر لم تنبت لأهلها العزّة والقوّة ، والغلبة والكرامة إلا بعد أن غطّتها دماء أعناق المحاربين ورءوسهم . وهذا قريب من قول الشاعر :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

(٤٤) بها : بالأرض (فى البيت السابق) . والغارة : الإغارة ، والهجوم الخاطف المفاجئ . وشنّنا على أعدائنا الغارة : وسّعنا مداها ، وفرّقناها عليهم من كلّ وجه . والروعة : الرهبة ، والفزع ، والخوف . والحمل : الخروف الصغير ، لا تزيد سنّه على سنة . ويضرب المثل بالذئب فى ولوعه بالحملان ، والتربّص لها ، وشدّة الفتك بها .

والمعنى : أن أسلافنا بحروبهم العنيفة الطاحنة ، وغاراتهم الشديدة الواسعة مدّوا ظلال الأمن فى أرجاء البلاد . وبلغ من انتشاره واستتبابه واستقراره أن ألف الحمل الذئب ، وأمن سطوته ، وغيلته .

(٤٥) « إذا » ظرف مضمّن معنى الشرط . وجوابه « أخنى الزمان » فى البيت الآتى . والمعقل (بوزن المجلس) : الحصن . وأشب (بفتح فكسر) : منيع حصين : صفة من الأشب : مصدر أشب الشجر (من باب تعب) : أى كثر ، والتفّ . واشتدّ التفافه ، حتى لم يبق فيه مجاز . والعادى : العدوّ المعتدى . والملل : جمع ملة (بوزن علّة وعلل) وهى : فى الأصل الدين . والمراد أصحاب الملل والمذاهب والأجناس المختلفة .

أَخْنَى الزَّمَانُ عَلَى فُرْسَانِهَا ؛ فَغَدَتْ ... مِنْ بَعْدِ مَنْعَتِهَا مَطْرُوقَةَ السُّبُلِ(٤٦)

فَأَىَّ عَارٍ جَلَبْتُمْ بِالْخُمُولِ عَلَى ... مَاشَادَهُ السَّيْفُ مِنْ فَخْرٍ عَلَى زُحَلِ(٤٧)

إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ ... فَإِنَّمَا هُوَ مَعْدُودٌ مِنَ الْهَمَلِ(٤٨)

(٤٦) أخنى عليهم الدهر: بلغ منهم بشدائده، وأتى عليهم، وأهلكهم. والفرسان (بضم الفاء): جمع فارس: وهو الماهر فى ركوب الخيل. وفرسان الجيش: المحاربون على ظهور الخيل. وغدت: صارت. والمنعة (بفتح النون وسكونها): العزّ والقوّة والامتناع. ومطروقة: مسلوكة، يطرقها الناس، ويسيرون فيها. والسبل: الطرق: جمع سبيل. و «مطروقة السبل»: كناية عن ضعفها، وهو أنها، واستكانتها، وزوال منعتها.

ومعنى هذا البيت والذى قبله: أن مصر كانت منيعة محصّنة عزيزة الجانب، قويّة البأس، ترتدّ عنها أيدى العادين على اختلاف طوائفهم وأجناسهم ومللهم، ولا يجرؤ عليها عدوّ أو طامع، وذلك بفضل رجالها الأعزّة المحاربين الأشدّاء الشجعان، فلمّا أخنى عليهم الدهر فقدت بعدهم عزّتها ومنعتها، وصارت مركباً ذلولا للطامعين المستغلين من الغزاة والمستعمرين، والحكّام المستبدّين.

(٤٧) «أىّ»: اسم استفهام، مفعول به مقدّم للفعل «جلب». والاستفهام هنا: معناه التهويل، والتشنيع، والتقبيح: أى لقد جلبتم بخمولكم عاراً شنيعاً هائلا قبيحاً. والعار: السبّة، والعيب، والشنار. والخطاب فى «جلبتم» للمصريين الذين فرّطوا فى حقّ وطنهم، وقصروا عن مساعى أسلافهم، وضيّعوا مجد آبائهم، واستكانوا لظلم حكّامهم، وتركوا بلادهم نهبة للطامعين من الغزاة والمستعمرين والمستغلين. والخمول: ضد النباهة. مصدر خمل الرجل (من باب قعد)، وخمل ذكره أو صيته، أو شأنه: أى خفى، وخبا، وسقط، ورجل خامل: ساقط، لا نباهة له. وشاد (من باب باع): بنى، وأظهر، ورفع، وطوّل. و «من» هنا: بيانيّة، توضّح إبهام «ما» قبلها. وزحل (بوزن عمر): أعظم الكواكب السيّارة، وأرفعها، وأبعدها فى النظام الشمسىّ. وهو ممنوع من الصرف: أى التنوين، ويجرّ بالفتحة. وإنما جرّ بالكسرة هنا لضرورة الشعر.

يقول: إن هؤلاء المصريين جلبوا: بخمولهم وتوانيهم عاراً فظيعاً على مفاخر آبائهم التى كسبوها بالكفاح، وشيّدوها بقوّة السلاح، فأنبهت شأنهم، ورفعتهم فوق منازل الكواكب والنجوم.

أظهر الشاعر البون الشاسع، والفارق البعيد بينهم وبين آبائهم: أى بين الخمول والنباهة، والسقوط والرفعة. والغرض تحريضهم على إحياء مجد السلف، بمقاومة البغى والظلم، ومكافحة العدوان والطغيان، واسترداد العزة والكرامة، وحياة الشرف والإباء.

(٤٨) الهمل (بفتحتين): الماشية: أى الإبل: والبقر، والغنم، تسرح من غير راع، وتترك سدى، بلا عناية. والمفرد هامل. =

فَبَادِرُوا الْأَمْرَ قَبْلَ الْفَوْتِ ، وانْتَزِعُوا شِكَالَةَ الرَّيْثِ ،فَالدُّنْيَا مَعَ الْعَجَلِ (٤٩)

= والمعنى : أن المرء إنما يعتبر آدمياً بعقله الذى يحيا به حياة طيّبة عزيزة ، فإذا أهمله خرج من عداد بنى الإنسان ، ولم يكن إلا من البهائم والأنعام المهملة الضالّة التى تهيم فى الأرض على وجوهها بلا ضابط أو رعاية .

والشاعر يشير بهذا إلى أن المصريين يهملون عقولهم ، ويحيون حياة الأنعام إذا أقاموا على الضيم ، ورضوا بما هم فيه من ذلّ وهوان ، وتركوا بلادهم نُهْبة يتحكّم فيها ، ويستبدّ بها الغاصبون والمستغلون ، والمستعمرون ، والحكّام المستبدّون .

وفى تشبيه المهملين لعقولهم بالأنعام يقول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون » . الآية رقم ١٧٩ من سورة الأعراف .

أجرى الشاعر هذا البيت مجرى الحكم والأمثال ، ونوّه بالعقل وعظّمه ؛ ليحضّ قومه على الاعتزاز بعقولهم ، واستخدامها فى الوسائل والأعمال التى تحيى مجدهم ، وتنتشلهم من حياة الهمل : أى حياة الذلّ والهوان ، وتعطيل العقل والإدراك .

(٤٩) بادروا الأمر : عاجلوه ، وسارعوا إليه . والأمر الشأن والحال . ويراد به أمر التبصّر ، والتيقّظ للحوادث ، وسرعة التخلّص من الذّلّة والمهانة بما يقدّمونه لأنفسهم ولوطنهم من صدق النضال ، وجلائل الأعمال . والفوت : الفوات . والمراد فوات الوقت ، وضياع الفرصة . مصدر فاتنى الشىء (من باب قال) . وانتزعوا : اقتلعوا . انتزعت الشىء من موضعه : اقتلعته . والشكال (بوزن كتاب) : العقال : أى القيد : وهو حبل تشدّ به قوائم الدابة . أمّا « الشكالة » فلم نجدها فيما بين أيدينا من المعجمات . والريث : البطء . (وفعله من باب باع) . وشكالة الريث : الريث الشبيه بالشكالة : أى البطء المعوّق ، والتمهّل الممقوت . والمراد بالدنيا : دنيا النصر والغلبة ، وحياة العزة والسعادة . والعجل : ضد الريث . ومثله العجلة (وفعله من باب طرب) .

فى البيت السابق نوّه بالعقل ، وعظّم شأنه . ومن حسن استخدام العقل المسارعة إلى التخلّص من سوء الحال ، وحياة الهمل قبل ضياع الفرصة ، وفوات الوقت . كأنه يرى أن الوقت الذى نظم فيه هذه اللاميّة فى أواخر عهد إسماعيل هو الوقت الملائم ، والفرصة المواتية ، ولهذا حرّضهم على المبادرة والمسارعة ، ونهاهم عن التريّث الممقوت ، والتوانى الذى يعقل الهمم ، ويشلّ العزائم ، ويحبط الأعمال ، ويضيع الآمال . ولا ريب أن الدنيا فى مثل هذه الحالة تتطلّب العجلة ، وتعتمد عليها ، وتقبل معها . ولاريب أن الأمر قبل هذا وبعده يتطلّب القيادة الحكيمة ، والقائد الكفء . وفى أربعة الأبيات الآتية تنبيه على القائد الكفىّ ، وتصوير لصفات الكفاية فيه . وقد يكون هذا من قبيل دعاية البارودىّ لنفسه ، وترشيحها لمنصب القيادة العسكريّة ، والقيادة السياسيّة .

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ شَهْمًا أَخَا ثِقَةٍ يَكُونُ رِدْءًا لَكُمْ فِى الْحَادِثِ الْجَلَلِ (٥٠)

مَاضِى الْبَصِيرَةِ ، غَلَّابٌ ، إِذَا اشْتَبَهَتْ مَسَالِكُ الرَّأْىِ صَادَ الْبَازُ بِالْحَجَلِ (٥١)

---

(٥٠) قلّدناه الأمر أو العمل : فوّضناه إليه ، وألزمناه إيّاه . وهو من مجاز اللغة . والأصل : قلّدتُ المرأة تقليداً : أى جعلت القلادة فى عنقها . وأمركم : أمر قيادتكم ، أو أمر حكومتكم . والشهم : الجلد الصلب ، القوىّ الصبور ، النشيط المتوقد ، الذكىّ الفؤاد . والردء : المعين ، والنصير . والحادث : ما يحدث ويجدّ ، ويقع . ويأتى بمعنى النائبة ، والكارثة ، والمصيبة . وجمعه حوادث . ومن كلامهم : نزلتْ به حوادث الدهر : أى نوائبه وكوارثه . والجلل : العظيم الكبير الخطير .

ومما يدخل فى حسن استخدام العقل ، ومبادرة الأمر : أى فى معنى البيتين السابقين : أن يختاروا من بينهم رجلا شهما ، عالى الكفاية ، متوقّد الذهن ، يثقون به ؛ فيلقون إليه مقاليد أمورهم ، ويستدفعون به الأسواء . ويستعينون بهمّته وشهامته فى الجلل المهمّ الخطير من الحوادث والنوازل والملمّات .

(٥١) ماض : نافذ ، خبر لمبتدأ محذوف : أى وقلّدوا أمركم شهماً هو ماضى البصيرة ، غلاّب . والبصيرة : العلم ، والخبرة ، والاستبصار فى الشىء . و « ماضى البصيرة » : ذكىّ الفؤاد ، متوقّد الذهن ، حادّ الفكر ، ينفذ بعلمه وضياء قلبه فى مجاهل الأمور ، فلا يلتبس عليه شىء . ويقال لقوّة القلب المدركة : بصيرة . وهى للقلب بمنزلة البصر للعين ؛ فالبصيرة : نور القلب الذى به يستبصر . والبصر : نور العين الذى به تبصر . وغلاّب : صيغة مبالغة من الغلب : أى كثير الغلبة . واشتبهتْ : التبستْ ، وأشكلتْ ، وخفيتْ . ومسالك : طرق ، وسبل ، ومذاهب . مفردها مسلك . والرأى : التدبير ، أو الاعتقاد ، أو العقل . وجمعه آراء . والباز : لغة فى البازى : وهو كالصقر ، والشاهين ؛ من جوارح الطير التى تصيد وتفترس . والحجل : من بغاث الطير وصافرها : أى الجبان الضعيف الذى يصاد ، ولا يصيد . واحدته حجلة (بوزن قصبة وقصب) : وهى طائر فى حجم الحمامة ، أحمر المنقار والرجلين ، طيّب اللحم . و « صاد الباز بالحجل » : صاد جوارح الطير ببغاثها ، وصقورها بصافرها ، وقويّها بضعيفها ، وشرارها بخيارها . والمراد أن الذى يختار للقيادة والحكم والزعامة ، وتلقى إليه مقاليد الأمور ينبغى أن يكون حاذقاً ماهراً ، كيّساً لبقاً ، فطيناً أريباً ، واسع الحيلة ، شديد الدهاء ؛ فصيد البازى بالحجل : كناية عن الكياسة ، وحسن السياسة ، والحذق ، واللباقة ، فهو ينال بالحيلة ما تعجز عنه القوّة ، أو ينال أصعب الأمور بأيسر السبل . أو يحلّ الأمور المعقّدة بقليل من الحيلة .

وصف من يختار للقيادة بالذكاء والدهاء ، والتغلّب على ما يصادفه من الصعاب والعقبات ، وأنه إذا تشابهت الأمور ، واختلطت الأوضاع ، وخفيتْ مسالك الرأى — تعرّف البعيد العسير من التدبير ، بالقريب اليسير من التفكير .

إنْ قالَ بَرَّ ، وَإنْ نَادَاهُ مُنْتَصِرٌ لَبَّى، وَإنْ هَمَّ لَمْ يَرْجِعْ بِلا نَفَلِ (٥٢)
يَجْلُو الْبَدِيهَةَ بِاللَّفْظِ الْوَجِيزِ إذَا عَزَّ الْخِطَابُ ،وَطَاشَتْ أَسْهُمُ الْجَدَلِ (٥٣)
وَلَا تَلَجُّوا إذَا مَا الرَّأْيُ لَاحَ لَكُمْ إنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إلَى الْفَشَلِ (٥٤)

(٥٢) برّ : صَدَقَ. من البِرّ : وهو التوسّع فى فعل الخير . واستعمل البِرّ فى الصدق : لكونه بعض الخير المتوسّع فيه . ومنتصر : مستنصر : أى طالب للنُّصرة ، أو النصر ، أو المدونة ، أو النجدة . ولبّى : أجاب : أى أجاب المنتصر ، وأقبل عليه ، ونصره . وهمّ بالشىء : أراده : وطلبه ، (وبابه ردّ). والنفل : الغنيمة . وجمعه أنفال (بوزن سبب وأسباب) .

وصفه بالصدق فى القول ، وأنه ينصر المستنصر ، ويعين من استعان به ، ويجيب من ناداه . وإذا همّ بالحرب أقدم عليها ، وخاض غمارها ، ولم يعد منها إلا بالنصر والغنيمة .

(٥٣) يجلو : يوضح ، ويظهر ، ويكشف . وفاعله ضمير يعود على «شهماً» فى البيت الخمسين : أى وقلّدوا أمركم شهماً يجلو البديهة . . . والبديهة : أول كلّ شىء . وما تبده به غيرك من الكلام وغيره . وما يبدهك به : أى يبدؤك به ، ويفجؤك ، ويباغتك . واللفظ الوجيز : الكلام القصير القليل ، وهو – على قصره وقلته وإيجازه – واضح بليغ ، تامّ المعنى ، سريع الوصول إلى الفهم . وعزّ الخطاب : شقّ ، وصعب . أو ضعف . أو غلب من يحاوله ، واستعصى عليه . أو قلّ ، فلا يكاد يوجد . وطاش السهم : انحرف عن الهدف ، ولم يصب الرميّة . والأسهم ، وكذا السهام : جمع سهم : وهو عود من خشب يسوّى ، ويركّب فى طرفه نصل حادّ قاطع من الحديد الصلب ، ليرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . والجدل : مفاوضة فيها منازعة ، ومخاصمة ، ومغالبة بالحجج والأدلة والبراهين . وهو اسم من جادلته مجادلة وجدالا . أو هو مصدر جدل (من باب تعب) .

من صفات الشهم الذى تقلّدونه أمركم : أن يكشف باللفظ الوجيز البليغ ما يفاجأ به من بداءه الكلام ، وعوارض الأفهام ، إذا عجز غيره عن الخطاب ، وانحرف المجادلون عن الصواب .

عُنِىَ الشاعر فى هذا البيت وثلاثة الأبيات قبله ببيان أهمّ الصفات ، أو المزايا ، أو المؤهّلات التى ينبغى توافرها فيمن يرشّح للقيادة ، أو الإمارة ، أو الحكم ، أو الولاية . وكأنما يدعو إلى نفسه ؛ فإن هذه الصفات ظاهرة فيه ، تشير إليه ، وتدلّ عليه .

(٥٤) لجّ (كتعب ، وضرب) : تمادى فى الخصومة والجدل . ومن مصادره : اللجاجة . ولاح : بدا ، وظهر . والفشل : الضعف والتراخى .

ينهى قومه عن التمادى فى الجدل ، والمماحكة ، والخصومة إذا بدا لهم وجه الرأى والتدبير ، وظهر مذهب الحق والصواب ؛ فإن التمادى فى المماحلة والمنازعة يدعو إلى الضعف ، ويفسد الرأى ، ويمزّق شملهم ، ويذهب ريحهم ، وينتهى بهم إلى الهزيمة والخسران .

قَدْ يُدْرِكُ الْمَرْءُ بِالتَّدْبِيرِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْكُمَاةُ ، وَلَمْ يَحْمِلْ عَلَى بَطَلِ (٥٥)

هَيْهَاتَ ، مَا النَّصْرُ فِى حَدِّ الأَسِنَّةِ ، بَلْ بِقُوَّةِ الرَّأْيِ تَمْضِى شَوْكَةُ الأَسَلِ (٥٦)

---

(٥٥) «قد» هنا : حرف يفيد التكثير . ويدرك : يلحق ، وينال . والتدبير : التفكير فى الأمر ، وتقليب وجوهه ، والنظر فى عاقبته : أى آخره ونهايته . ودبّر الأمر . ودبّر فى الأمر : ساسه ، وفعله عن فكر ، وفهم ، وتقدير ، وروية . والكماة ؛ جمع كمىّ (بوزن غنىّ) : وهو لابس السلاح . كمى (كرمى) نفسه بالسلاح : أى سترها وغطّاها. والكمىّ : الشجاع ، الجرئ ، المقدام ، ولو لم يتسلّح . وحمل المحارب على قرنه (أى ندّه ونظيره) : كرّ عليه ، وهجم . والبطل : الشجاع المقدام . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الفعليّة التى بعدها حاليّة .

فى البيت السابق نهى مواطنيه عن اللجاجة إذا ما بدا لهم وجه الرأى والتدبير ، وحذّرهم عاقبة التمادى فى الجدل والخصومة .

وفى هذا البيت نوّه بجودة الرأى ، وإتقان التدبير ، وعظّم شأنهما ؛ فبهما وبالمسالمة والمهادنة ينال المسالم ما يعجز عن نيله المحاربون الشجعان بعنف القتال ، وشدّة النزال ، وكثيراً ما تحقّق السياسة المآرب ، وتغنى عن الحروب .

وهذا قريب من قول الشاعر :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أوّلٌ ، وهى المحلّ الثانى

وقريب من المثل : « ينال باللين ما لا ينال بالشدة » . والبيت الآتى يعزّز هذا المعنى ويؤكّده .

(٥٦) « هيهات » : كلمة تبعيد : اسم فعل ماض ، بمعنى بعد . ومعناها هنا مؤكّد لمعنى النفى الذى بعدها : أى هيهات أن يكون النصر فى حدّ الأسنّة وحدها . والأسنّة : جمع سنان (بوزن كتاب) : وهو نصل الرمح : أى حديدته التى يطعن بها ، فتجرح ، وتقتل. وحدّ السنان : طرفه المحدّد ، الماضى ، القاطع . وتمضى : تنفذ ، وتقطع . وشوكة الرمح ونحوه : شباته ؛ وحدّه الجارح القاطع . والأسل : الرماح . وقد يطلق على السيوف والسكاكين ونحوها . الواحدة أسلة (بوزن قصبة وقصب) .

والمعنى : أن الأسنّة والأسلحة وأدوات القتال لا تكفى وحدها لإحراز النصر ، وكسب المعارك . وإنما ينتصر المحاربون ، وتكتسب أسلحتهم المضاء والحدّة بقوّة الرأى ، وإحكام التدبير .

وهو بهذا يفضّل قوّة الرأى على قوّة السلاح ، أو يقدّم الأولى على الثانية ، أو يجعل قوّة السلاح من قوة الرأى ؛ فالسلاح لا يكون قوياً نافذاً إلا إذا استخدم عن رأى قوىّ ، وتدبير محكم ، ومعنى هذا البيت تأكيد وتعزيز لمعنى البيت السابق .

وَطَالِبُوا بِحُقُوقٍ أَصْبَحَتْ غَرَضًا لِكُلِّ مُنْتَزِعٍ سَهْمًا ، وَمُخْتَتِلِ (٥٧)
وَلَا تَخَافُوا نَكَالًا فِيهِ مَنْشَؤُكُمْ فَالْحُوتُ فِي الْيَمِّ لَا يَخْشَى مِنَ الْبَلَلِ (٥٨)

(٥٧) الغرض : الهدف الذى يرمى إليه . ومنتزع : اسم فاعل من انتزعت السهم من الكنانة : (وهى جعبة السهام) : أى جذبته ، وأخرجته للرمى والقتال . والسهم : عود من خشب ، يسوّى ، ويركّب فى طرفه نصل حادّ قاطع من الحديد الصلب ؛ يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها. وجمعه أسهم وسهام . ومختتل : مخادع : اسم فاعل من اختتله : أى خدعه ، وأراد به المكروه من حيث لايدرى .

رأى الشاعر حقوق المصريين فى زمانه هدفاً للمعتدين عليها بقوّة السلاح ، ونُهْبة لمستلبيها بالمخاتلة والخداع ؛ فنبّه ، وحمّس ، وأيقظ الشعور الوطنى ، وحضّ على المطالبة بها فى جرأة وإقدام ، وعزم وتصميم .

والبيت الآتى يعزّز معنى التنبيه والتحميس ، وقوّة المطالبة والتصميم .

(٥٨) نكّل به تنكيلا: عاقبه ، أو عذّبه ؛ ليردعه ، ويروع غيره ويحذّره . واسم ذلك العذاب: النكال . ومنشؤكم : نشأتكم ، أو نشوكم : وهو مصدر ميمى من نشأ (من باب نفع) : أى نبت ، وترعرع ، وشبّ ، ونما . والحوت : العظيم من السمك . وجمعه حيتان . واليم : البحر . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشطر الأول . وفيه قوّة التحميس والإقناع .

والمعنى : لا تخشوا النكال يصبّه عليكم من تخرجون عليهم من الطغاة الظالمين، والغاصبين المستبدّين؛ فقد نشأتم فى النكال والعذاب ، وتمرّستم بالبلايا والنوائب . مَثَلُكم فى هذا مَثَلُ الحوت ، لا يرهب البحر ، ولا يباليه ؛ لأنه ابن البحر ، والناشئ فيه .

ويلاحظ أن الشاعر استخدم فى هذه اللاميّة الأساليب الخطابيّة: من خبر وإنشاء ، واستمالة وإقناع، ومدح وهجاء ، وسياسة وحرب، ولين وشدّة ... وأسلوب هذا البيت شديد ؛ فهو يحضّ على الثورة العارمة لتحطيم حكم العدوان والطغيان ، مع البذل والتضحية ، والإقدام فى غير مبالاة ببطش الحاكمين ؛ فإن حكمهم نفسه تنكيل بالمحكومين ، وتعذيب لهم ، فإذا ثاروا فى وجوه هؤلاء الطغاة ، وأصيبوا بنكالهم ، فلن يكون شرًّا من حكمهم .

ومن شعر أبى الطيّب المتنبى فيما يقرب من هذا المعنى :

والهجر أقتل لى ممّا أراقبه أنا الغريق ، فما خوفى من البلل ؟

ومن شعر بشّار بن برد :

كمزيلٍ رجليه عن بلل القطـ ـر وما حوله من الأرض بحر

ومن كلام بعض الحكماء :

« من علم أن الفناء مستول على كونه ، هانت عليه المصائب » .

عَيْشُ الْفَتَى فِى فِنَاءِ الذُّلِّ مَنْقَصَةٌ وَالْمَوْتُ فِى الْعِزِّ فَخْرُ السَّادَةِ النُّبَلِ (٥٩)

لَا تَتْرُكُوا الْجِدَّ أَوْ يَبْدُو الْيَقِينُ لَكُمْ فَالْجِدُّ مِفْتَاحُ بَابِ الْمَطْلَبِ الْعَضِلِ (٦٠)

(٥٩) العيش: المعيشة، والحياة . والفتى : الشابّ أوّل شبابه ، بين المراهقة والرجولة . وهذا فتى بيّن الفتاء : وهو طراءة السنّ. وقد يطلق « الفتى » على المرء فى كلّ طور من أطوار حياته، فتقول العرب: فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشابّ . وهذا المعنى هو المراد هنا. وفناء الذلّ : ساحة المذلّة والمهانة والضعف والاستخذاء. مستعار من فناء الدار : وهو ساحتها ، ورحبتها ، والموضع المتّسع أمامها. ومنقصة: عيب ونقيصة . والعزّ : القوّة ، والكرامة . ومثله العزّة . وضدّه الذلّ والهوان . والسادة : جمع السيّد . والنبل (بفتحتين) : النبلاء : جمع نبيل : صفة من النبل (بضم فسكون) : وهو الفضل ، والذكاء ، والنجابة .

ما زال الشاعر ينصح ، ويحمّس ، ويحرّض على إباء الضيم ، وإسقاط حكم الإذلال والاستعباد ؛ فمن النقيصة والعار أن يرضى المرء بالمذلّة والهوان ، ويحيا حياة الضعف والاستخذاء . ومن النبل والفضل، ودواعى الابتهاء والافتخار أن يموت فى سبيل العزّة والمنعة ، والقوّة والأنفة ، والسيادة والكرامة .

ولحكيم الشعراء أبى الطيّب المتنبى فى هذا المعنى شعر كثير رائق فائق ، منه :

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم بين طعن القنا ، وخفق البنود

فرءوس الرماح أذهب للغيـ ظ ، وأشفى لغلّ صدر الحقود

لا كما قد حييت غير حميد وإذا متّ متّ غير فقيد

فاطلب العزّ فى لظى ، وذر الذلّـ لَ ولو كان فى جنان الخلود

يقتل العاجز الجبان وقد يعـ جز عن قطع بُخْنُق المولود

ويوقّى الفتى المخشّ وقد خوَّ ضَ فى ماء لَبّة الصنديد

(٦٠) الجدّ (بفتح الجيم) : الاجتهاد فى الأمر. وضدّه الهزل : مصدر جدّ (من بابى ضرب وقتل) . والاسم منه الجدّ (بكسر الجيم) . و « أو » هنا : بمعنى « إلى » : أى التزموا الجد إلى أن يبدو لكم اليقين . ويبدو : يظهر ، ويتّضح ، ويستبين ، وينكشف . وهو منصوب بأن المضمرة ، ولم تظهر الفتحة على الواو لضرورة وزن الشعر . واليقين : العلم الذى لا شكّ فيه . ويراد به هنا: ما تستيقنون تحقّقه بجهادكم من أهدافكم ، ومطالبكم ، وآمالكم . والعضل (بفتح فكسر ، أو بفتح فضم) : العسير ، الصعب .

يحضّهم على التزام الجدّ والاجتهاد ، ومواصلة الكفاح والنضال ، حتى ينجلى لهم وجه الحقّ ، ويستيقنوا إصابة أهدافهم ، وتحقيق مقاصدهم ، وبلوغ آمالهم ؛ فإن الجدّ يذلّل الصعاب ، ويفتح الأبواب ، وييسّر المعضل العسير من المطالب ، ويقرّب النائى البعيد من المآرب .

طَوْرًا عِرَاكًا ، وَأَحْيَانًا مُيَاسَرَةً رِيَاضَةُ الْمُهْرِ بَيْنَ الْعُنْفِ وَالْمَهَلِ (٦١)
حَتَّى تَعُودَ سَمَاءُ الْأَمْنِ ضَاحِيَةً وَيَرْفُلَ الْعَدْلُ فِى ضَافٍ مِنَ الْحُلَلِ (٦٢)
هٰذِى نَصِيحَةُ مَنْ لَا يَبْتَغِى بَدَلًا بِكُمْ . وهَلْ بَعْدَقَوْمِ الْمَرْءِ مِنْ بَدَلِ؟ (٦٣)

(٦١) الطور : التارة ، والمرّة . والعراك : الخصام ، والنضال ، والقتال . مصدر عاركته معاركة وعراكاً . ومياسرة : مساهلة ، وملاينة : مصدر ياسرته : أى لا ينته ، وساهلته . وضدّها المعاسرة . والمهر : ولد الفرس : ورياضته : تمرينه ، وتعليمه ، وتذليله ، وتدريبه . والعنف : الشدة . وضده الرفق . والمهل (بفتحتين) : التؤدة ، والرفق ، واللين .

فى البيت السابق حض الشاعر قومه على التزام الجدّ ، حتى يستيقنوا إصابة أهدافهم الوطنيّة، ويحرّروا أنفسهم وبلادهم من ربقة الذلّ والعبوديّة . وفى هذا البيت وسّع مجال الجد ، ونوّع وسائله ، ونصح أن يسلكوا إلى غاياتهم شتّى السبل ، ويتذرّعوا بمختلف الأساليب من ملاينة ومخاشنة ، ومهادنة وقتال ؛ فإن التنويع والتوسيع من العقل والرأى والتدبير ، وهو كفيل بتحقيق المطالب ، وبلوغ المآرب ، كالمهر يستعان على رياضته وتذليله بالمراوحة بين اللين والعنف ، والرفق والشدّة .

(٦٢) ضاحية: ظاهرة ، صافية، نقيّة ، ورفل فى ثيابه (من بابى نصر وقعد) أطالها ، وجرّها فى سيره فاخراً متبختراً . والضافى من الثياب ونحوها : السابغ، الكامل، التامّ ، الوافى ، الواسع ، الفضفاض. والحلل :الثياب . الواحدة حُلّة (بوزن قُلّة) : وهى إزار ورداء . ولا تسمّى حُلّة حتى تكون من ثوبين . من جنس واحد .

والشاعر فى هذا البيت والبيتين قبله ينصح لقومه ، ويدعوهم إلى التزام الجدّ ، ومواصلة الجهاد مع تنويع أساليبه حتى يظهر الأمن ويستتبّ ، ويتمّ العدل ويستقرّ .

(٦٣) أراد بالنصيحة : ما قدّمه إلى قومه فى هذه القصيدة من لوم وعتاب ، وتوجيه وإرشاد ، وحضّ وإغراء وتبشير وتحذير . . . والنصيحة : قول فيه دعوة إلى صلاح ، ونهى عن فساد . ونصحه ، ونصح له: أرشده إلى ما فيه صلاحه . ويبتغى : يريد ، ويطلب. وبدلاً بكم : بدلاً منكم . والبدل من الشىء : الخلف ، والعوض . والاستفهام بهل فى الشطر الثانى : معناه النفى . و «من» زائدة . والغرض من زيادتها فى مثل هذا المقام تأكيد الكلام وتقريره ، وتقويته ، وتوثيقه ، وفى القرآن الكريم: «فارجع البصر هل ترى من فطور» ؟ .الآية رقم ٣ من سورة المُلْك .

يقول : هذه نصيحة يسديها إليكم أخ لكم ، مستهام بكم ، حريص عليكم ، لا يريد منكم بدلا ، ولا يبغى عنكم حولا ؛ لأنكم قومه وأهله ، وعترته وعشيرته . وهيهات أن يستبدل المرء بقومه غيرهم ؛ فإنهم لن يسدّوا مسادّهم ، ولن يكونوا أمثالهم .

أَسْهَرْتُ جَفْنِى لَكُمْ فِى نَظْمِ قَافِيَةٍ مَا إِنْ لَهَا فِى قَدِيمِ الشِّعْرِ مِنْ مَثَلِ (٦٤)
كَالْبَرْقِ فِى عَجَلٍ . والرَّعْدِ فِى زَجَلٍ وَالْغَيْثِ فِى هَلَلٍ ،وَالسَّيْلِ فِى هَمَلِ (٦٥)

(٦٤) جفن العين : غطاؤها من أعلاها وأسفلها ، فهما جفنان لكل عين . والجمع جفون ، وأجفان. ويراد بالجفن هنا : العين . وفى المثل : « إنه لشديد جفن العين » : يضرب لمن يصبر على السهر. ونظم الشاعر شعراً : ألّف كلاماً موزوناً مقفّى . مستعار من نظم الدرّ (أى اللؤلؤ) وتنظيمه : وهوأن يجمع ، وينسّق ، ويرتّب ، ويضمّ بعضه إلى بعض ، ويجعل فى سلك ونحوه . ويراد بالقافية هنا : هذه القصيدة اللاميّة التى نظمها الشاعر ، وأتمّها سبعين بيتاً ، وضمّنها عواطفه ، ونصائحه ، وتجاربه ، وآراءه فى الحكم والسياسة ، وصفات الحاكم الكفء ، ومؤهلات القائد الرشيد ... وتوجّه بها إلى قومه فى حماسة ، وحنان ، وإخلاص . والقافية فى علم العروض والقافية (أى علم موازين الشعر) : الحروف التى تبدأ بمتحرك ، يليه آخر ساكنين ، فى آخر البيت . أو هى من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما؛ فقافية هذا البيت مثلا : « من مثل» . والقافية فى بيت زهير بن أبى سلمى :

ومن يك ذا فضل ، فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ، ويذمم

كلمة « يذمم » . وقد تطلق القافية على حرف الروىّ الذى تبنى عليه القصيدة ، وتنسب إليه ، ويكرر على الدوام فى آخر كلّ بيت منأبياتها ، فهذه القصيدة — مثلا — لاميّة ؛ لأن رويّهاحرف اللام . و « إن » فى الشطر الثانى من هذا البيت زائدة ، وكذلك « من » . وزيادتهما لتقرير النفى وتوكيده ، وتقوية الكلام وتوثيقه . ومثل (بفتحتين) : مماثل ، وشبيه ، ونظير ، وكفء .

يقول : إنه بدافع من إخلاصه ، ووطنيته ، وحبّه لقومه ،وحرصه عليهم ، وتعلّقه بهم — بذل جهداً ، وعانى مشقّة ، وتجافى جنبه عن مضجعه ، واحتمل الأرق والسهر ، حتى نظم لهم هذه القصيدة البديعة الفريدة ، الرائقة ، الفائقة ، التى لا نظير لها فى شعر الأوائل والأواخر .

فى البيت السابق لخصّ فى كلمة «نصيحة » ما دعا إليه قومه فى الأبيات التى قبله من رشد وصلاح ، وما نهاهم عنه من ضعف واستكانة. وفى هذا البيت وستة الأبيات بعده فخر بهذه اللاميّة المطوّلة الخالدة، وتنويه بمحاسنها ومزاياها . والغرض : زيادة التنبيه عليها . والترغيب فيها ، وتأكيد ما قدّمه من نصح وإرشاد ، وتوجيه وتحميس .

(٦٥) البرق : ضوء شديد خاطف ، يلمع فى السماء ، على إثر انفجار كهربىّ فى السحاب. والعجل : السرعة : مصدر عجل (من باب تعب) . والرعد : صوت يدوّى فى السماء ، ويسمع من السحاب ، عقب وميض البرق . والزجل : الجلبة ، والصوت المرتفع العالى . (وفعله من باب فرح) . والغيث : المطر . والهلل (بفتحتين) : أول المطر . ويراد به هنا : انصبابه ، واندفاعه . والسيل : الماء الكثير الغزير السائل : مصدر سال الماء (من باب باع) : أى جرى فى غزارة وكثرة . ثم غلب استعمال « السيل » فى ماء المطر إذا=

غَرَّاءُ ، تَعْلَقُهَا الْأَسْمَاعُ مِنْ طَرَبٍ ... وَتَسْتَطِيرُ بِهَا الْأَلْبَابُ مِنْ جَذَلِ (٦٦)

حَوْلِيَّةٌ ، صَاغَهَا فِكْرٌ أَقَرَّ لَـهُ ... بِالْمُعْجِزَاتِ قَبِيلُ الْإِنْسِ وَالْخَبَلِ (٦٧)

=اجتمع ، وجرى مسرعاً فوق سطح الأرض ، وفى الأودية . وجمعه سيول . وهمل السيل (بفتح الهاء والميم) : فيضانه ، وجريانه ، واندفاعه . والهمل : الماء السائل ، لا مانع يحجزه .

والمعنى : أن هذه القصيدة تسرع إلى الأفهام إسراع البرق ، وتضىء إضاءته ، وتترك فى الأسماع مثل دوىّ الرعد ، وتنصبّ فى الأذهان انصباب المطر ، وتجرى جريان السيل . وصفها بالوضوح ، والبلاغة ، والسلاسة ، والانسجام ، وروعة التعبير . وقوّة التأثير .

وفى البيت ترابط وثيق ، وتناسق تامّ بين المتعاطفات . وفيه من المحسّنات البديعية جناس بين « عجل » و « زجل » ، ثم بين « هلل » و « همل » . وفيه تشطير : وهو فى الشعر كالسجع فى النثر . ومن أمثلته قول الشاعر فى المديح :

تجلّى به رشدى ، وأثرت به يدى ... وفاض به ثـَمْدِى ، وأورى به زَنْدِى

وموسيقاه إلى هذا كلّه غاية فى حسن الإيقاع ، وإمتاع الأسماع .

(٦٦) غرّاء : واضحة ، مشهورة ، مميّزة . وهى فى الأصل صفة من « الغرر » : مصدر غرّ وجهه (من باب فرح) : أى صار ذا غرة : وهى بياض مستحسن فى جبهة الفرس . وتعلقها (من باب فرح) : تحفظها ، وتستظهرها ، وتعيها ، وتتشبّث بها . والطرب : مصدر طرب منه ، أو طرب له (من باب فرح) : أى خفّ ، واهتزّ من فرط فرح وسرور ، أو فرط حزن وغمّ . و « من » فى كلّ من الشطر الأول والشطر الثانى : تعليليّة أى بمعنى لام التعليل : أى تفيد العلّة والسبب . وتستطير : تطير ، وترتفع ، وتنتشر . ويراد بالاستطارة هنا : شدّة التأثّر . والألباب : العقول . واحدها لبّ . والجذل : الفرح . (وفعله من باب طرب) .

يقول : إن لاميّته هذه اتّضحت ، واشتهرت ، وامتازت من غيرها بما انفردت به من الخصائص ، والمزايا ، والمحاسن . ثم نوّه بقوّة تأثيرها ، وقوّة تأثّر الناس بها ، فقال : إنهم يسمعونها ، فيطربون لها ، ويعجبون بها ، وتعيها أسماعهم ، وتستظهرها عقولهم ، وتهتزّ لها مشاعرهم .

(٦٧) حوليّة : نسبة إلى الحول (بفتح فسكون) : أى السنة ، أو العام . والمراد أنه أمضى وقتاً طويلاً فى نظم هذه القصيدة ، وتنقيحها ، وتحريرها ، وتهذيبها ؛ حتى أخرجها محبوكة النسج ، مختارة اللفظ ، غزيرة الحكمة ، ساحرة البيان ، تامّة المحاسن ، رائعة التعبير ، قويّة التأثير ، باقية بقاء الدهر ، كحوليات زهير بن أبى سلمى المزنىّ : وهو شاعر جاهلىّ من أصحاب المعلّقات ، توفى قبيل بعثة النبى — صلى الله عليه وسلم — واشتهر بتنقيح شعره ، وتهذيبه ، والتروّى فيه ، وعرضه على النقّاد قبل إذاعته . وصاغها : أنشأها ، ونظمها . ومن كلامهم : صاغ كلامه : أى حبّره ، وزيّنه ، وحسّنه . وأقرّ

تَلُوحُ أَبْيَاتُهَا شَطْرَيْنِ فِي نَسَقٍ كَالْمَشْرَفِيَّةِ قَدْ سُلَّتْ مِنَ الْخِلَلِ (٦٨)

إِنْ أَخْلَقَتْ جِدَّةُ الْأَشْعَارِ أَثَّلَهَا لَفْظٌ أَصِيلٌ ، وَمَعْنًى غَيْرُ مُنْتَحَلِ (٦٩)

= له بكذا : اعترف له به ، وأثبته . والمعجزات : جمع معجزة : وهى فى الأصل : أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد نبيه تأييداً لرسالته ، وإثباتاً لنبوته . والمعجزة ما يعجز البشر أن يأتوا بمثله . ويراد بالمعجزات هنا : ما يستعصى على غير البارودىّ من جيد الشعر وفائقه . والقبيل : الجماعة المجتمعة التى يقبل بعضها على بعض . أو الجماعة من أقوام شتّى . والإنس : البشر : أى الناس . الواحد إنسىّ : أى آدمىّ . والخبل (بفتحتين) : الجنّ .

يفتخر بأن هذه القصيدة حوليّة من صياغة فكره العبقرىّ الألمعىّ الذى اعترفت جماعات الإنس والجنّ بتفوّقه وسبقه ، وامتيازه وإعجازه .

(٦٨) تلوح : تظهر مشرقة متلألئة . من قولهم : لاح النجم : أى بدا ، ولمع ، وأومض ، وتلألأ . وأبياتها : أبيات هذه القصيدة . وشطر كلّ شىء : نصفه . ومنه شطر البيت من الشعر . وكلّ بيت من الشعر شطران . وفى نسق : فى اتّساق ، على نظام واحد . والمشرفيّة : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام ، أو مشارف اليمن ، أو مشارف العراق : وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . أو المراد بها مشارف الشام ؛ إذ كانت مشهورة بصناعة السيوف وتجارتها . ومشارف الأرض : أعاليها . وتوضيح التشبيه هنا : أن السيف المشرفىّ إذا سلّ من غمده بدا له صفحتان متلألئتان لامعتان مشرقتان . وكذلك أبيات هذه القصيدة ؛ فلكلّ بيت منها شطران كصفحتى المشرفىّ . وسلّت من الخلل : أُخرجت من أغمادها . سللت السيف (من باب ردّ) : انتضيته : أى جرّدته ، وأخرجته من غمده . والخلل : جمع خلّة (بوزن علّة وعلل) : وهى جفن السيف : أى غمده : أى غلافه ، وجرابه .

يقول : تظهر أبيات هذه القصيدة متوافقة متناسقة . كلّ بيت منها شطران متّسقان على نظام واحد ، كأنها السيوف جرّدت من أغمادها ، فبهرتك بلألائها ، وتساويها ، وبديع نظامها ، وحسن تنسيقها .

(٦٩) أخلق الثوب ونحوه : ذهبت جدّته ، ورمّ ، وبلى . والجدّة : ضدّ الإخلاق والبلى : مصدر جدّ الشىء يجدّ (بوزن خفّ يخفّ) ، فهو جديد . وأخلقت جدّة الأشعار : أى كانت جديدة ، ثم أخلقت : أى بليت بمرور الزمن ، وذهبت بهجتها ونضارتها ، وضعف تأثيرها . وأثّلها : أثّل هذه اللاميّة : أى أصّلها : أى جعلها ذات أصل ثابت راسخ : لا يصيبه البلى ، ولا ينال منه القدم . ولفظ أصيل : جيّد ، قوىّ ، متميّز . وأصالة اللفظ والأسلوب : جودته ، واستحكامه ، وابتداعه وحسن اختياره ، وحبك تأليفه . وغير منتحل : مبتدع ، مبتكر ، غير مسبوق ، أو غير مسروق . انتحل فلان الشىء : أى ادّعاه لنفسه ، وهو فى الحقيقة لغيره . =

تَفْنَى النُّفُوسُ ، وَتَبْقَى وَهْيَ نَاضِرَةٌ   على الدُّهُورِ بَقَاءَ السَّبْعَةِ الطُّوَلِ(٧٠)

= يفتخر بأن قصيدته هذه جيّدة اللفظ . محبوكة النسج ، متينة التركيب ، متميّزة الأساليب .

ومعانيها إلى هذا مبتدعة مبتكرة غير مسبوقة . فإذا بليت أشعار غيره من الشعراء ، وذهب الزمان بجدّتها ونضارتها – بقيتْ هذه القصيدة جديدة فريدة ، ناضرة زاهرة ، بليغة التعبير ، شديدة التأثير بأصالة ألفاظها ، وبديع معانيها .

والبيت الآتى – وهو الأخير – تكرار ، وتأكيد لهذا المعنى .

(٧٠) تفنى : تبيد ، وتهلك . وفاعل « تبقى » : ضمير « قافية » فى البيت الرابع والستين : أى هذه القصيدة اللاميّة . والواو الثانية : واو الحال . والجملة بعدها حاليّة « هى ناضرة » : أى حسناء ، رائقة . من النضور ، أو النضرة : وهى الحسن والرونق . والدهور : جمع دهر : وهو الزمان الطويل ، أو مدّة الحياة الدنيا . والسبع الطول من القرآن الكريم : سُوَر البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . والسابعة سورة يونس ، أو سورة الأنفال ، أو الأنفال ومعها التوبة (براءة) ؛ لأنهما سورة واحدة عند بعض المفسّرين ، ومجموعهما السورة السابعة من السبع الطول . والسبع الطول من الشعر : معلّقات امرئ القيس ، وزهير ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد ، وطرفة ، وعنترة ، والحارث بن حلزّة . والطول (بوزن الكُبَر) : جمع الطُّولى (بوزن الكُبْرى) : مؤنث الأطول .

فى ستة الأبيات السابقة افتخر البارودى بهذه القصيدة ، وأطراها ، ونوّه بمحاسنها ومزاياها . وفى هذا البيت بلغ باعتداده وفخره بها القمّة ، فقال : إن الناس يفنون ، وتبقى بعد فنائهم خالدة خلود الدهر ، محتفظة برونقها ونضرتها ، وبهائها وجِدّتها .

ومن مبالغاته المقبولة أن يقرن بقاءها ببقاء المعلّقات السبع ، وهى أبلغ ما أثِر وحُفِظَ من الشعر العربىّ القديم .

وأعلى مراتب الاعتداد والابتهاء ، والإطراء وحسن الثناء أن يقرن بقاءها ببقاء القرآن العظيم ، كأنها فيض من مائه ، وقبس من ضيائه . قال الله تبارك وتعالى : « إنا نحن نزّلنا الذكر ، وإنّا له لحافظون » . الآية رقم ٩ من سورة الحِجْر .

تعليق وجيز

قدّمنا فى ترجمتنا للخديو « إسماعيل » أنه أرهق مصر بكثرة الديون الأجنبيّة ، فساءت الأحوال الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة ، وتدخّل الدائنون الأوربيّون فى شئون البلاد ، فأصيبت العزّة القوميّة فى الصميم ؛ وانتهى الأمر باتفاق إنجلترا وفرنسا على عزله ونفيه ؛ فكان لهما ما أرادتا ، وأرسل الباب العالى إلى مصر برقيتين بتاريخ ٢٦ من يونيه سنة ١٨٧٩ : إحداهما بتولية « توفيق » ، والأخرى بعزل « إسماعيل » . وبأمر الدول غادر القاهرة إلى الإسكندرية فى ٣٠ من يونيه ١٨٧٩ ومنها إلى إيطاليا . وظلّ منفيّاً مغترباً بعيداً عن بلاده إلى أن توفى بالقسطنطينيّة ، ثم نقلت جثّته إلى القاهرة ؛ وبهذا التحكّم =

. . . .

= الأجنبيّ ذلّت الحكومة الخديويّة ، وهان أمرها فى نظر الأجانب والوطنيين ، وامتدّ هذا الهوان من « إسماعيل » إلى « توفيق » ومن تتابعوا بعده على عرش مصر - حتى سقط هذا الحكم بقيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ .

وفى أواخر حكم « إسماعيل » ، وفى ذلك الجوّ الغائم القاتم ، المتبرّم الساخط نظم البارودىّ هذه اللاميّة الطويلة السياسيّة، بالعنوان الذى اختاره لها، وهو ذمّ الحكّام، وحضّ الناس على طلب العدل فى الأحكام؛ فاستخدم فنّه الأدبىّ القوىّ فى الذمّ والتنديد ، والإثارة والتحريض ، وعرّض مؤهّلاته وكفاياته التى تؤهّله لمرتبة الزعامة ، وقيادة ثورة وطنيّة ، تنتشل العزّة القوميّة ؛ وتردّ إلى الوطن كرامته وحريته ، وتصالح ما أفسده الطغاة المسرفون ، وأبرَزَ الدوافع التى تفرض هذه الثورة ، وتتعجّلها ، ونوّه بأمجاد الآباء لتحميس الأبناء، وإحياء ثقتهم بأنفسهم. وطرّق أبواباً ومعانى أخرى، فشابهت العينيّة التى مطلعها:

متى أنت عن أحموقة الغىّ نازع وفى الشيب للنفس الأبيّة وازع*؟

واتّجهتْ كلٌّ منهما إلى التحريض على مكافحة البغى والفساد بقوّة السلاح ، مع اختلاف تاريخى نظمهما ؛ فالعينيّة نظمها حوالى سنة ١٨٦٨ بعد عودته من حرب « كريد » وهو فى نحو التاسعة والعشرين . واللاميّة نظمها حوالى سنة ١٨٧٩ وهو فى نحو الأربعين ، بعد عودته من الحرب الروسيّة التركيّة ، وقبيل خلع الخديو « إسماعيل » .

وفى كثير من شعره الذى نظمه بين عامى ١٨٦٨ و ١٨٨٢ (تاريخ توقّد الثورة العرابيّة) محاولات لإثارة مواطنيه ، وجمعهم حول رايته ، وتحت قيادته . وفى كثير منه محاسنة وملاينة ، وولاء ظاهر لصاحب العرش ؛ فهو ثائر طامح ، ومدار محاذر .

وعنوان هذه اللاميّة يشير إلى تاريخ نظمها ، وهو أواخر حكم « إسماعيل » ؛ ولكن الدكتور « محمد حسين هيكل » على الرغم من هذا يرى ، أو يرجّح فى تقديمه لديوان البارودىّ** أنه نظمها قبيل اشتعال الثورة العرابيّة فى أوائل سنة ١٨٨٢ لما اندفع الضبّاط المصريون يفكّرون فى خلع « توفيق » ، وتحرّكتْ فى نفس البارودىّ أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر ، ونازعتْه نفسه يومئذ إلى مكان المجد والسيادة . وفى بعض أبيات هذه اللامية (٥٠ - ٥٣) ما ينمّ على هذا التفكير ، وهذه المنازعة النفسيّة .

* * *

ولا ريب أن الثورة العرابيّة تولّدتْ من سخط الضباط المصريين على زملائهم من الأتراك والجراكسة الذين كانوا يستأثرون بالرتب الرفيعة ، ومراكز القيادة فى الجيش ، وكانت فيهم مع هذا غطرسة وغلظة .

---

* انظر الجزء الثانى من شرح ديوان البارودىّ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧١ ، أول قافية العين ، ص ٢١٣ - ٢٢٣ عينيّة فى ٥٠ بيتاً .

** انظر تقديم ديوان البارودى ص ٢٥ - ٢٦ ج ١ من شرح ديوان البارودى ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧١

وَقَالَ وَهُوَ بِحُلْوَانَ ، * وَقَدْ أَقَامَ بِهَا مُدَّةً ، لِمُلَازَمَةِ الْحَمَّامَاتِ :

طَرِبْتُ ، وَلَوْلَا الْحِلْمُ أَدْرَكَنِي الْجَهْلُ ‏ وَعَاوَدَنِي مَا كَانَ مِنْ شِرَّتِي قَبْلُ[1]

= أمّا البارودىّ – وهو من أصل جركسى – فقد عاش ومات فى حبّ مصر ، والوفاء لها ، والتغنّى بأمجادها ؛ فأحبّه المصريون ، وأعجبوا بأدبه وخُلُقه ، وفروسيّته وشجاعته ، وقدروا إخلاصه وولاءه لحركتهم الوطنيّة مذ كانت فى المهد ، وتعلّق به أدباؤهم وشعراؤهم وعلماؤهم ومثقّفوهم ؛ فكان أستاذهم ورائدهم الذى أحيا الشعر العربىّ ، وجدّده ، وأعاد إليه مجده ونضرته .

ومع هذا كلّه لم يكن البارودىّ القائد الأوّل للثورة العرابيّة ، ولم تنتج هذه اللاميّة ونظائرها ما كان يرتجيه لشخصه من استجابة عامّة قويّة ، وزعامة شعبيّة فى السلم والحرب ، والسياسة :

أهبت ، فعاد الصوت لم يقض حاجة ‏ إلىّ ، ولبّانى الصدى وهو طائع

فما سبب هذا ؟ لعلّ أهمّ الأسباب وأظهرها أن المصريين – وبخاصّة ضبّاط الجيش – كانوا يودّون أن يستبدلوا بالحكم التركىّ حكماً مصريًّا خالصاً صميماً لا تشوبه شائبة ، وهم يعدّون الجراكسة من الأجانب ؛ فزعامة البارودىّ لا تحقّق أطماعهم ، ولا ترضى كبرياءهم .

* « حلوان » : بلدة مصرية ، على الضفّة الشرقيّة لنهر النيل ، وعلى بعد خمسة وعشرين ألف متر من القاهرة ، فى جنوبيها . وقد اشتهرت من قديم الزمان بعيون معدنيّة ، بنيت عليها حمّامات ، يستشفى بمياهها الكبريتيّة الساخنة من الأمراض الجلديّة ، ومن الرثية : أى وجع المفاصل ، ومن أمراض أخرى غيرها . وبعد عودة البارودى من منفاه فى ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٩ استجاب لنصيحة أطبائه ، فقصد إلى هذه المدينة ، وأقام بها فترة للاستشفاء بجوّها وهوائها ، وبيئتها الطبيعية ، ومياهها المعدنيّة .

ولازمها ملازمة ، ولزاماً : تردّد إليها ، وداوم عليها ، وطال مكثه بها .

(١) طربت : اهتززت فرحاً . من الطرب : وهو خفّة ، أو هزّة تثير النفس ؛ لشدّة فرح وسرور ، أو شدّة حزن وغمّ ، أو شدّة ارتياح ونشاط . وطرب للغناء : أى ارتاح له ، ونشط ، واهتزّ (وفعله من باب فرح) . و « لولا » : حرف يدل على امتناع شىء لوجود غيره . وهى هنا داخلة على جملتين : اسميّة ، ففعليّة ؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى : أى ولولا الحلم موجود لأدركنى الجهل ؛ فالموجود الحلم والممتنع الجهل . والحلم : الأناة ، والعقل ، والرزانة ، والوقار . وضدّه الجهل : وهو الخفّة ، والسفه ، والحماقة ، والطيش . وأدركنى : لحقنى ، وأصابنى ، وتمكّن منى . وعاودنى : رجع إلىّ بعد الانصراف عنى . وشرّة الشباب : مرحه ، وخفّته ، وحدّته ، ونشاطه .

استقرّ بحلوان مقام الشاعر ، وانتفع بجوّها وحمّاماتها ؛ فعادت إليه صحّته ونشاطه ؛ فاهتزّ فرحاً =

فَرِحْتُ ، كَأَنِّى خَامَرَتْنِى سَبِيئَةٌ مِنَ الرَّاحِ ،مَنْ يَعْلَقْ بِهَا الدَّهْرَ لَا يَسْلُو(٢)

= وسروراً . ولولا حلمه وعقله لاستخفّه الطرب ، وأصابه جهل الفتوّة ، وعاد إليه ما كان له من صبوة الصبا ومرح الشباب .

ومن هذا البيت انتقل الشاعر فى ثمانية الأبيات الآتية إلى وصف الخمر ، وبيان آثارها ، وهيام نفوس شاربيها بها .

وصلة هذا كلّه بالبيت الأول : أن المخمور يشبه الطرب ، وأن الخمر تهزّ شاربها ، وتستخفّه ، فيبدو كمن هزّه الطرب واستخفّه .

(٢) الفاء فى أول البيت : عاطفة . ورحت : صرت . والرواح (فى الأصل) : السير فى العشىّ . أو هو السير فى وقت ما : من ليل ، أو نهار . ومن المجاز : راح للأمر ، يروح رواحاً : أى اهتشّ له ، واشتهاه ، وطرب له ، وفرح به فرحاً شديداً ، وأخذته من أجله خفّة ، وهزّة ، ونشاط . وخامرتنى : خالطتنى ، ومازجت دمى وجسمى ، وظهر أثرها فى حواسّى وعقلى . وسمّيت الخمر خمراً ؛ لأنها تخامر عقل شاربها : أى تخالطه ، وتفسده . من قولهم : « خامره الداء » . أو لأنها تخمر العقل : أى تستره ، وتغطّيه وتغيّبه ، وتخفيه . أو لأنها تركت حتى اختمرت . وسبيئة : فعيلة ، من سبأت الخمر : أى اشتريتها لأشربها لا لأتّجر فيها . والخمر المشتراة للشرب خير من الخمر المشتراة للتجارة . ومن كلامهم : « ما تُسْبَأ لكم الراح ، ولكن تُسْبَى منكم الأرواح » . والراح : الخمر . ويعلق بها : (من باب طرب) : يتعلق ، ويتشبّث ، ويستمسك . . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدّة الحياة الدنيا . وسلوت الحبيب ، وسلوت عنه : نسيته ، وصبرت على فراقه . ومن يعلق بها لا يسلوها الدهر : أى ومن يشربها يتعوّد شربها ويتعلّق بها أبد الدهر ، وطوال العمر ، فلا يكاد يسلوها ، أو يتخلّى عنها ، أو يصبر على فراقها .

وإذا كانت الفاء فى أول البيت عاطفة ، وتفيد الترتيب مع التعقيب ، فالبيت متّصل بالذى قبله ، مترتّب عليه فى تعقيب : أى بلا تراخ ، أو انفصال .

والمعنى : أنى طربت لرؤية « حلوان » ، واستقرارى بها ، وانتفاعى بحمّاماتها ، فرحت لهذا كله : أى هششت له ، وتملّكتنى خفّة ، وهزّة ، ونشاط ، كأنى مخمور بخمر جيّدة ، من شربها اعتادها ، وتعلق بها ، وواظب عليها ، أبد الدهر ، لا يستطيع على فراقها صبراً ، ولا يطيق عنها سلواناً .

أو هى « فَرِحْتُ ، كأنى مخمور ... » . وعلى هذا يكون البيتان منفصلين انفصالا إعرابيًّا ؛ ففى البيت الأول أعلن طربه : أى شدة فرحه بالإقامة فى « حلوان » . وقال : إن حلمه عصمه ، فبقى فى دائرة الرزانة والوقار . ولولاه لأمالته شدّة الفرح إلى الجهل والخفّة ، وأعادت إليه شرة الصبا ، وطيش الشباب . وفى البيت الثانى قال : إن فرحه بالإقامة فى حلوان اشتدّ به ، فجعله كالمخمور . . . وبدأ يصف الخمر وآثارها فى هذا البيت وسبعة الأبيات التى تليه .

سَلِيلَةُ كَرْمٍ . شَابَ فِى الْمَهْدِ رَأْسُهَا ... وَدَبَّ لَهَا نَسْلٌ ، وَمَا مَسَّهَا بَعْلُ[٣]

إِذَا وَلَجَتْ بَيْتَ الضَّمِيرِ ، رَأَيْتَهَا ... وَرَاءَ بَنَاتِ الصَّدْرِ ، تَسْفُلُ ، أَوْ تَعْلُو[٤]

---

(٣) سليلة : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هى : أى الراح سليلة كرم . وسليلة : ابنة : مؤنث السليل : وهو الولد حين يخرج من بطن أمه . والكرم (بفتح فسكون) : العنب ، أو شجر العنب . والراح (أى الخمر) ابنة الكرم ؛ فمن عصير العنب أجود أنواعها . وشاب الرأس : ابيضّ شعره . والمهد : الفراش ، أو السرير ، يمهّد للطفل ، : أى يوطّأ ، ويهيّأ ؛ لينام فيه . وشيبة رأس الخمر فى المهد : كناية عن الحباب ، أو الزبد : أى الرغوة البيضاء التى تعلو الخمر ، وتطفو فوقها ، وهى فى دنّها ، فى الطور الأول من أطوار اختمارها وتعتيقها . ومن كلامهم : « طفا الحباب على الشراب » : وهو الفقاقيع التى تعلو سطح الماء ونحوه . ودبّ (من باب ضرب) : مشى مشياً رويداً : أى ليّناً ، هادئاً ، رفيقاً ، ومنه دبيب الطفل الصغير . ولها : للخمر . والنسل : الولد ، والذرّية . ونسل الخمر : ما ينفصل منها ؛ متحركا فى خلالها ، فى أثناء تفاعلها ، واتّحاد عناصرها وهى تختمر . ودبيبه : حركته الهيّنة ، الليّنة ، الرفيقة ، الهادئة . وبعل المرأة : زوجها . وما مسّها : لم يمسسها : أى لم يخالطها ، ولم يتّصل بها . مسّ الرجل زوجته : أى تغشّاها ، وخالطها .

فى البيت الأول : أعلن الشاعر طربه ، لاستقراره بحلوان ، واستمتاعه بمزاياها ، مع احتفاظه بحلمه ، ورزانته ، وهيبته ، ووقاره .

وفى البيت الثانى : شبّه طربه بطرب المخمور ، واستطرد لوصف الخمر ، وبيان بعض آثارها ، وتعلّق شاربيها بها .

وفى هذا البيت : أشار إلى الطور الأول من أطوار تخميرها وتعتيقها ؛ فالرغوة ، أو الزبد ، أو الحباب يطفو فوقها وهى تختمر ، كأنه الشيب يعمّ شعر الرأس . وفى جوفها حركات التفاعل الكيميائى . ومن هذا التفاعل انفصال كثير من جزئياتها ، وتحرّكها فى خلالها ، كأنها نسلها ، يمشى على رود ، ويدبّ دبيباً .

(٤) ولجت : دخلت : أى الخمر . والضمير : المضمر : أى ما تضمره فى نفسك ، وتكتمه ، وتستره ، وتخفيه . ويراد بالضمير هنا : قلب شارب الخمر ، أو باطنه ، وجوفه . وبيت الضمير : الضمير الشبيه بالبيت ؛ فهو من إضافة المشبّه به إلى المشبّه . ورأيتها : أحسست بها . وبنات الصدر : الهموم والأحزان . ومن كلامهم : « غلبتنى بنات الصدر » : أى أرهقتنى هموى وأحزانى . و « أو » هنا : بمعنى واو العطف . والخمر تسفل وتعلو وراء بنات الصدر : أى تجيش وتضطرب فى جوف شاربها مطاردة بنات الصدر . والخمر — فى زعم شاربيها وتخيّلهم — تذهب همومهم ومتاعبهم ، وتنسيهم أحزانهم وأشجانهم . ولا غرو ؛ فإنها تغيّب العقل ، وتخدّر كلّ ما يتّصل به من مراكز التفكير والتدبير ، =

كَأَنَّ لَهَا ضِغْنًا عَلَى الْعَقْلِ كَامِنًا ... فَإِنْ هِيَ حَلَّتْ مَنْزِلًا رَحَلَ الْعَقْلُ[٥]

تُعَبِّرُ عَنْ سِرِّ الضَّمِيرِ بِأَلْسُنٍ ... مِنَ السُّكْرِ مَقْرُونٍ بِصِحَّتِهَا النَّقْلُ[٦]

= والإدراك والشعور ، ولا ريب أن المخمور بليد الإحساس ، ناعس الضمير ، ميّت الوجدان ، مغرق فى الغفلة والذهول .

والمعنى : أن الخمر – بجيشانها واضطرابها فى جوف شاربها – تطارد – فيما يزعم ، أو يتخيّل – همومه وأحزانه ، وتهيّىء له جوًّا خادعاً من الطمأنينة والارتياح ، والسرور والانشراح .

(٥) لها : للراح : أى الخمر . والضغن ، والضغينة : الحقد الشديد ، والانطواء على العداوة والبغضاء . وكامن : مستتر ، مضمر ، خفىّ ، مكتوم . وحلّ المكان ، وحلّ به (من باب قعد) : نزل به . ورحل : ارتحل ، وذهب .

يقول : إن الخمر والعقل لا يكادان يلتقيان ، كأنهما عدوّان متضاغنان ؛ فالخمر تضمر للعقل أشدّ الحقد ، وتظهر له كلّ الكراهية والبغضاء ، فإن هى نزلت فى جوف شاربها لم يسع العقل إلا أن يشدّ رحاله ، ويعجّل ترحاله .

(٦) عبّر عما فى نفسه : أعرب ، وأظهر ، وأفصح ، وبيّن بالكلام . وسرّ الضمير : ما يبالغ المرء فى إخفائه وكتمانه ، ويحرص كلّ الحرص على إضماره فى نفسه من الأمور والأخبار وغيرها ، والسر والضمير هنا كلمتان مترادفتان . والألسن : جمع اللسان . واللسان ترجمان الجنان : والمعبّر عمّا فى ضمير الإنسان . وقد يراد بالألسن : العبارات والكلمات ، والأخبار . و « من » هنا : للتعليل : أى بيان العلّة والسبب : أى أن الخمر تسكر المخمور ، فيحمله السكر على إفشاء أسراره ، وفضح نفسه ، وكشف ما انطوى عليه ضميره بعبارات وكلمات مقرون بصحتّها النقل : والسكر (بضمّ فسكون) : اسم من سكر (من باب طرب) : أى غاب وعيه . والسكران : ضدّ الصاحى . ومقرون : اسم مفعول من قُرِن الشيءُ بالشيء : أى وُصل به ، ورُبط ، وجمع . و « بصحتّها » : بصحّة الألسن : أى بصدق ما ترويه ، وتخبر به . والنقل : مصدر نقلت الخبر أو الكلام عن صاحبه : أى رويته عنه ، وأبلغته غيره . ومعنى « مقرون بصحتّها النقل » : أن ما تنقله الألسنة ، وتخبر به وترويه صحيح صريح ، لاشكّ فيه . أو أن العبارات والأنباء التى يخبر بها السكران غيره منقولة من سرّه وضميره نقلاً صحيحاً صريحاً لاريب فيه .

والمعنى : أن الخمر تظهر أسرار المخمور ، وتحمله على إفشائها ؛ فهو يطلع عليها مجالسيه ، أيًّا كانوا فى غير مواربة ، أو التواء ، أو انحراف ، وبلا تحرّج ، أو تصوّن ، أو احتراس . إن السكران – بسبب سكره – ينقل إلى غيره نقلا صريحاً صحيحاً ما كان يحرص كلّ الحرص على كتمانه وإضماره من الأسرار والأخبار قبل أن تمزّق الخمر إزاره ، وتهتك أستاره .

مُحَبَّبَةٌ لِلنَّفْسِ ، وَهْيَ بَلَاؤُها   كَمَا حُبِّبَتْ فِى فَتْكِهَا الْأَعْيُنُ النُّجْلُ (٧)

يَكَادُ يَذُودُ اللَّيْثَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ   إِذَا مَاتَحَسَّى كَأْسَهَا الْعَاجِزُ الْوَغْلُ (٨)

تَرَى لِخَوَابِيهَا أَزِيزًا ، كَأَنَّهَا   خَلَايَا تَغَنَّتْ فِى جَوَانِبِهَا النَّحْلُ (٩)

---

(٧) « محبّبة » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هى : أى الراح محبّبة للنفس . وبلاؤها : بلاء النفس. والبلاء : المحنة ، والفتنة ، والشر ، والعذاب . و « فى » : للظرفية أى كما حبّبت الأعين النجل إلى العاشقين فى حال فتكهابهم . أو هى بمعنى « مع» . والفتك (بفتح الفاء . وضمها ، وكسرها) : مصدر فتك به (من بابى ضرب وقتل) : أى قتله على غفلة . أو قتله مجاهرة . والنجل : جمع نجلاء: أى واسعة حسناء . نجلت العين (من باب فرح) : اتّسعت فى حسن .

والمعنى : أن الخمر محبّبةإلى نفوس مدمنيها .وهى – مع ولوعهم بها ، وحبّهم لها – شرّ لهم ، ووبال عليهم ، كعيون الحسان تفتك بالعشّاق ، وتحمل إليهم بلا يا العشق ، وهمومه ، وهم على الرغم من هذا كلّه يستعذبونه ، ويهيمون بالمعشوقات وعيونهن ، كأنما يطلبون المزيد من العذاب والأوصاب .

(٨) يذود : يدفع ، ويطرد . (وبابه قال) . وفاعله : ضمير « العاجز » . والليث : الأسد . ومستقرّه : عرينه ، ومأواه الذى يستقرّ فيه ، ويطمئنّ . وتحسّى الماء وغيره : شربه شيئاً ، فشيئاً ، أو جُرْعة بعد جُرْعة . والوغل (بفتح فسكون) : الضعيف الجبان : والنذل الساقط . والمقصّر فى كلّ شىء . وجمعه أو غال .

والمعنى : أن الخمر تجعل الضعيف الجبان شجاعاً مقداماً .

ولهذا البيت صلة بالبيت السادس ؛ فإن الخمر تذهب بتصوّن السكران وحيطته واحتراسه ، فيفضى إلى مجالسيه بكل ما كان يحرص على كتمانه من أسراره وأخباره ،ويُقْدِم على الأخطار والمهالك بلاتدبّر أو تحوّط؛ فشجاعته هنا تهوّر واندفاع ، وهجومه على الأسد فى عرينه من الأعمال الناجمة عن قلّة الوعى وضعف الإدراك .

(٩) يلاحظ أن الشاعر وضع « ترى » موضع « تسمع » ؛ فالأزيز ونحوه من الأصوات يسمع ، ولا يرى . ولخوابيها : لخوابى الراح : وهى الخمر : جمع خابية : وهى الحُبّ . أو الدّنّ . أو شبههما من الأوعية والآنية التى تحفظ فيها الخمر ، وتعتّق. والأزيز : نشيش القِدْر ، وصوت غليانها. أزّت القدر ، أو الخابية ، أو نحوهما : تحرّك ما فيها ، واضطرب وصوّت من شدّة الغليان . والخلايا : جمع الخليّة (بوزن هديّة وهدايا) : وهى بيت النحل الذى تسكنه ، وتأوى إليه ، وتُعَسِّل فيه . وتغنّى المغنّى : غنّى ، وطرّب ، وترنّم .

شبّه ما يسمع من نشيش الخمر وأزيزها فى دنانها إبّان غليانها بغناء النحل فى جوانب خلاياها . وفى الشطر الثانى من هذا البيت وثلاثة الأبيات بعده استطرد لوصف النحل .

سَوَاكِنُ آطَامٍ . زَفَتْهَا مَعَ الضُّحَى ... يَدَا عَاسِلٍ يَشْتَارُ ، أَوْ خَابِطٍ يَغْلُو(١٠)

دَنَا : ثُمَّ أَلْقَى النَّارَ بَيْنَ بُيُوتِهَا ... فَطَارَتْ شَعَاعًا ، لَا يَقِرُّ لَهَا رَحْلُ(١١)

مُرَوَّعَةٌ ، هِيجَتْ ، فَضَلَّتْ سَبِيلَهَا ... فَسَارَتْ عَلَى الدُّنْيَا ، كَمَا انْتَشَرَ الرِّجْلُ(١٢)

---

(١٠) سواكن : جمع ساكنة : اسم فاعل من سكنت الدار ونحوها . ويراد بالآطام هنا : خلايا النحل وبيوتها : جمع أطم (بضم فسكون ، أو بضمتين) : وهو فى الأصل : الحصن . والبيت المرتفع . وزفتها : طردتها ، ودفعتها . واستخفتها ، وشتتت شملها . (وبابه رمى). ومع الضحى : فى وقت الضحى : حين تشرق الشمس ، ويرتفع النهار ، ويمتد . والعاسل: من يأخذ عسل النحل من خلاياها . ومثله المشتار . اشتار : استخرج العسل من الخليّة ، واجتناه ، وجمعه . وخابط : اسم فاعل من خبطت الشجرة بالمخبط : أى ضربتها ، ليسقط ورقها . وخبط الباب : دقه . وغلاه (من باب ،عدا ، ورمى) : خبطه ، وضربه .

فى البيت السابق شبه أزيز الخمر فى خوابيها بصوت النحل فى جوانب خلاياها .

وفى هذا البيت قال : إن هذه النحل المغنية الهائنة كانت ساكنة مطمئنة فى بيوتها ، فصاحاها عاسل مشتار ، أو خابط غال ؛ فأزعجها وأثارها . وهاجها وطردها ، وفرّق جمعها ، وشتت شملها . والبيتان الآتيان تأكيد ، وتفصيل ، وتمثيل لهذا المعنى .

(١١) دنا : قرب ، وتقدم . وبابه سما . وفاعله ضمير العاسل المشتار ، أو الخابط الغالى فى البيت السابق. وطارت شعاعاً : طارت متفرقة منتشرة . وقرّ يقرّ (كيضرب ويعلم) : ثبت ، وسكن ، واستقرّ . والرحل: مسكن الإنسان ، وما يستصحبه من الأثاث . وكلّ شىء يعدّ للرحيل، من أوعية الأمتعة وغيرها ، ورَحْل البعير : ما يوضع على ظهره لركوب الراكب ، كالسرج للفرس . وجمعه أرحل ، ورحال . ومن المجاز : حطّ فلان رحله ، وألقى رحله : أى أقام . وعدم قرار رحل النحل : كناية عن تفرقها . وانزعاجها ، وانتشارها ، فهو تكرار وتأكيد لمعنى « طارت شعاعاً » .

يقول : إن العاسل المشتار ، أو الخابط الغالى اقترب من خلايا النحل ، ثم طرح بينها شعل النار ؛ فأقلقها ، وأزعجها ، وشتت شملها ، فذهبت متفرقة ، وهامت على وجوهها ، لا تلوى على شىء .

وفى البيت الآتى تفصيل وتمثيل لهذا المعنى .

(١٢) مروّعة : مفزّعة ، مخوّفة ، مذعورة . روّعته ترويعاً : أفزعته ، وذعرته ، وخوفته . مروّعة (بالرفع) : خبر لمبتدإ محذوف . أو مروعة بالنصب : حال من فاعل « طارت » : أى النحل فى البيت السابق .=

فَبِتُّ أُدَارِى الْقَلْبَ بَعْضَ شُجُونِهِ   وأَزْجُرُ نَفْسِى أَنْ يُلِمَّ بِهَا الْهَزْلُ(١٣)

= وهيجت : أثيرت . هاج القوم : ثاروا لمشقّة ، أو ضرر . وهاجهم : أثارهم . يتعدّى ، ويلزم . (وبابه باع) . وضلّت سبلها : لم تهتد إلى طريقها . وسارت على الدنيا : هامت على وجوهها ، وذهبت كلّ مذهب ، متحيّرة ، مضطربة ، لا تدرى أين تتوجه . أو هى « ثارت » بالثاء : بمعنى تهيّجت ، وتفرّقت ، وانتشرت : والرجل (بكسر فسكون) : الطائفة العظيمة من الجراد .

والبيت تكرار ، وتأكيد ، وتفصيل ، وتمثيل لمعنى البيتين السابقين ؛ فقد روّعت النحل بزَفْى المشتار ، أو الفالى ، وفوجئت بشعل النار يلقيها بين بيوتها ، فهاجت وماجت ، وغاب وعيها ، واضطرب أمرها ، وتشتّت شملها ، والتوت بها السبل ، وهامت على وجوهها ، وانتشرت فى كلّ ناحية انتشار الجراد .

(١٣) بات يفعل كذا : أى فعله ليلا . وأدارى : أدافع . وأصله الهمز . درأه : دفعه ، وردّه . ودارأه ، وداراه : دافعه ، وأبعده . و « بعض شجونه » : بدل اشتمال من « القلب » . والشجون : الهموم ، والأحزان . مفردها شجن (بوزن أسد وأسود) . ويراد بالشجون هنا : أشجان العشق . وهموم الغرام . ومن معانى الشجن : الحاجة الشاغلة ، وهوى النفس . وقد يكون هذا المعنى هو المراد هنا . وزجره (من باب نصر) : منعه ، وكفّه ، ونهاه . وألمّ به يلمّ : حلّ به ، ونزل . والهزل : الهزال ، والضعف . (وفعله من باب نصر) ، أو هو الهزل : بمعنى المزاح ، والعبث . (وفعله من باب ضرب) وضدّه الجدّ .

يقول : إنه سهر الليل يدرأ عن قلبه ما يساوره من الهموم والأحزان ، ويكفّ نفسه عن الانطياع للوجد والشجن مخافة أن يصيبها الضعف والانكسار والهزال .

أو المعنى : أنه بات يدفع عن قلبه ما عاوده من هوى قديم ، ويزجر نفسه مخافة أن ترجع إلى ما اعتادته قبل هذا من هزل ومجانة .

أعلن الشاعر طربه فى البيت الأول من أبيات هذه القصيدة ؛ إذ هزّه فرحه وارتياحه لحلوان وحمّاماتها .

وفى البيت الثانى شبّه سروره ونشوته بنشوة المخمور . واستطرد ، فوصف الخمر وآثارها فى ثمانية أبيات .

وفى البيت التاسع شبّه أزيز الخمر فى خوابيها بغناء النحل حول خلاياها . ثم استطرد ، فوصف تغيّر حالها ، وشتات شملها حينما روعها عاسل مشتار ، أو هاجها خابط فال .

ثم انتقل فى هذا البيت والأبيات التالية إلى الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب . ولعلّ الصلة بين هذا الغرض والغرض الذى قبله أن العاشق الصبّ المستهام يعانى من شتات الأمر ، وافتراق الشمل ، وأشجان القلب ، والقلق ، والانزعاج ما عانته النحل من هذا كلّه حينما روّعها الخابط الفالى ، أو أفزعها العاسل المشتار .

وَمَا كُنْتُ أَدْرِى - وَالشَّبَابُ مَطِيَّةٌ ... إِلَى الْجَهْلِ - أَنَّ الْعِشْقَ يَعْقُبُهُ الْخَبْلُ (١٤)

رَمَى اللهُ هَاتِيكَ الْعُيُونَ بِمَا رَمَتْ ... وَحَاسَبَهَا حُسْبَانَ مَنْ حُكْمُهُ الْعَدْلُ (١٥)

فَقَدْ تَرَكَتْنِى سَاهِىَ الْعَقْلِ ، سَادِرًا ... إِلَى الْغَىِّ ، لَا عَقْدٌ لَدَىَّ ، وَلَا حَلُّ (١٦)

---

(١٤) أدرى : أعلم . والشباب : الفتاء ، والحداثة. والشابّ من أدرك سنّ البلوغ ، ولم يصل إلى سنّ الرجولة : والمطيّة من الدوابّ : ما يُمْتَطَى ، ويُرْكَب . والجهل : الجفوة ، والتسافه ، والخفّة ، والطيش ، والنزق ، والحماقة . وضدّه الحلم ، والعقل ، والأناة ، والوقار ، والرزانة ، والكياسة . ويعقبه : يخلفه ، ويجىء بعقبه ، ويأتى بعده . (وبابه نصر ، ودخل) . والخبل (بفتح فسكون ، أو بفتحتين ، أو بضم فسكون) : الجنون ، وفساد العقل ، والبَلَه ، والهَوَج . ومثله الخبال . يقال : خبله الحبّ ، أو الحزن ، أو الدهر ، أو الشيطان : أى أفسد عقله ، وذهب بفؤاده . (وبابه ضرب) .

والمعنى: أن الفتيان يمتطون نشاطفتوّتهم إلى الجهل ، والخفّة ، والطيش ، والسفاهة ، وما لا خير فيه من اللهو والعبث ، والهزل والمجون . ومن الجهل وقوع الفتى فى مهاوى الهوى والغرام .

ولقد كان الشاعر يجهل قبل هذه التجربةالمرّة أن الشباب يقود الشابّ إلى العشق ، وأن العاشق المستهام ينتهى أمره إلى الخبال والجنون .

(١٥) رمى اللهظالمى بالبلايا : أسلوب إنشائىّ غير طلبىّ . الغرض منه هنا الدعاء على العيون التى تيّمته . و «هاتيك» : «ها» : حرف تنبيه . و «تى» : اسم إشارة . والكاف : حرف خطاب . والمشار إليه «العيون» ويريد بها : عيون الحسان اللائى أوقعنه فى شرك الهوى والغرام . و «بما رمت» : بمثل ما رمت به عشّاقها من السهر ، والوصب ، والمتاعب ، والآلام .

فى البيتالسابق قال : إن الشابّ يمتطى شبابه إلى الجهل ، وإن الجهل يوقعه فى حبائل الهوى والغرام ، فلا يزال يتقلّب فى أوصابه وعذابه ، ويقاسى وساوسه وهمومه ، حتى ينتهى أمره إلى الخبال والجنون .

ولقد كان يجهل هذه العواقب ، فلمّا كابدها ، وتجرّع مرارتها، واكتوى بنارها — اتّجه بدعائه إلى الله تبارك وتعالى — فى هذا البيت — أن يحاسب الحسان المعشوقات حساباً عادلا ، ويرمى عيونهن الجميلة بمثل ما رمت به العاشقين من السهاد والوصب ، والمتاعب والآلام .

وفى البيتين الآتيين تفصيل لبعض ما أصابه من تلك العيون .

(١٦) تركتنى : أى عيون الحسان ؛ ففاعله ضمير. يعود على «العيون» فى البيت السابق . وساهى العقل : ذاهب العقل ، مختمر اللبّ : اسم فاعل من سها فى الأمر ، وعن الأمر : أى غفل عنه ، ونسيه . وسها إليه : نظر إليه ساكن الطرف . والسادر : المتحيّر التائه . ومن كلامهم : «هو سادر فى الغىّ» :=

أَسِيرُ ، وَمَا أَدْرِى إلى أَيْنَ يَنْتَهِى   بِىَ السَّيْرُ ، لٰكِنِّى تَلَقَّفُنِى السُّبْلُ (١٧)
فَلَا تَسْأَلَنِّى عَنْ هَوَاىَ ؛ فَإِنَّنِى   وَرَبِّكَ أَدْرِى كَيْفَ زَلَّتْ بِىَ النَّعْلُ ؟ (١٨)

= أى تائه . و « إلى » هنا : بمعنى « فى » كما فى قول الله تبارك وتعالى : « الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة ، لا ريب فيه . ومن أصدق من الله حديثاً ؟ » (الآية رقم ٨٧ من سورة النساء) : أى ليجمعنكم فى يوم القيامة . وكما فى قول النابغة الذبيانىّ يخاطب النعمان بن المنذر ملك الحيرة :

فلا تتركنّى بالوعيد ، كأننى إلى الناس مطلىّ به القار ، أجرب

أى فى الناس . والغىّ ، والغواية : الخيبة ، والانهماك فى الجهل ، والإمعان فى الضلال . وضدّه الرشد والهداية . والعقد : مصدر عقدت الحبل ونحوه (من باب ضرب) ، فانعقد : أى جعلت فيه عقدة . وضدّه الحلّ : مصدر حللت العقدة : أى فتحتها ، فانحلّتْ (وبابه ردّ) و « لا عقد لدىّ ، ولا حلّ » : كناية عن عجزه ، وقصوره ، وضعفه ، وقلّة حيلته ، وذهاب مُنّته ، وفقدان إرادته .

يقول : تركتنى عيون الحسان مشرّكاً ، مخبولا ، شارد الذهن ، تائهاً فى الضلال ، لا تواتينى حيلة . ولا أجد وسيلة . وهذه بعض آثار العشق الّتى أشار إليها فى آخر البيت الرابع عشر .

وفى البيت الآتى تفصيل وتأكيد لبعض هذه المعانى .

(١٧) تلقّفنى : أصلها « تتلقّفنى » ، ثم حذفتْ إحدى التاءين تخفيفاً : مضارع تلقّفتُ الشىء : أى تناولته بسرعة . والسبل (بوزن كتب) : جمع سبيل : وهو الطريق . وسكنت الباء هنا للتخفيف ، وضرورة وزن الشعر .

يصف بعض آثار الهيام : وسهو العقل ، والخبال ؛ فالشوارع تتلقّفه ، والطرقات تتداوله : فيسير فيها هائماً فى غير وعى ، وعلى غير هدى ، لا يدرى أين يتوجّه ، ولا يكاد يعرف لسيره هدفاً ، أو مقصداً .

(١٨) الهوى : الحبّ ، والعشق ، والغرام . وأدرى : لا أدرى ، ولا أعرف ، ولا أعلم . بتقدير « لا » النافية ؛ فإن الكلام يشير إليها ، ويدلّ عليها . ومن أمثلة حذفها وتقديرها قول الله تبارك وتعالى : « تالله تفتأ تذكر يوسف » : أى « لا تفتأ » : أى تذكره باستمرار . وقول امرئ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح ، بتقدير « لا » النافية : أى سأستمرّ قاعداً . والمعروف أن حذف أداة النفى جائز سائغ مطّرد قبل أفعال الاستمرار ، كما مثّلنا . ولعلّ سبب هذا الجواز أن النفى فى مثل هذا مفهوم وإن لم يذكر . وقد استفاد شاعرنا من هذه القاعدة ، فحذف الأداة ؛ لأن النفى مفهوم من السياق ، ولا يستقيم المعنى بدونه . ولو كان المضارع الواقع فى جواب القسم مثبتاً مستقبلا لوجب توكيده واقترانه بلام القسم =

فَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ نَظَرْتُ فُجَاءَةً بِحُلْوَانَ حَيْثُ انْهَارَ ، وانْعَقَدَ الرَّمْلُ[١٩]

إِلَى نِسْوَةٍ مِثْلِ الْجُمَانِ ، تَنَاسَقَتْ فَرَائِدُهُ حُسْنًا ، وَأَلَّفَهُ الشَّمْلُ[٢٠]

مِنَ الْمَاطِلَاتِ الْمَرْءَ مَا قَدْ وَعَدْنَهُ كِذَابًا ؛ فَلَا عَهْدٌ لَهُنَّ ، وَلَا إِلُّ[٢١]

= وزلّت قدمه (من بابى ضرب وتعب) فى طين ونحوه : زلجت ، وزلقت ، وسقطت . والنعل : الحذاء ونحوه . وهى مؤنّثة .

والمعنى : لا تسألنى عن عشقى وغرامى سؤال العاذل اللائم ؛ فقد وقعتُ فيه على غِرّة ، ولم أدر كيف أوثقتنى حباله ، وطوقتنى أغلاله . والأبيات الآتية تفصّل هذا المعنى ، وتوضّحه ، وتؤكده .

(١٩) «هى» : ضمير الشأن ، أو الحال ، أو القصة ، أى فلم يكن شأنى ، أو حالى ، أو قصّة حبّى وغرامى إلا أن نظرتُ . . . وفجاءة : فجأة ، وبغتة . وانهار : تفكّك ، وسقط . ومثله «انهال» وضدّه «انعقد» . وكان فى أرض حلوان رمال ، منها المنعقد على هيئة كثبان وآكام ، ومنها المنهار المنبسط فى أودية وسهول .

يقول : فلم تكن حالى ، أو قصة ذلك العشق إلا نظرة فجائيّة غير مقصودة ، وقعتْ منى بمدينة حلوان على نسوة مثل الجمان . . . فكان الذى لولاه ما درتُ هائماً . . . ويلاحظ أن هذا البيت متّصل كلّ الاتّصال بالأبيات الأربعة بعده ، وأن الحال ، أو القصة المعبّر عنها بالضمير «هى» تكمل فى البيت الثالث والعشرين بقوله : «فكان الذى لولاه ما درت هائماً» . .

(٢٠) «إلى نسوة» متعلّق بـ«نظرتُ» فى البيت السابق . والجمان : الدرّ ، أو اللؤلؤ ، أو حبّات تصاغ من الفضّة على شكل اللؤلؤ . الواحدة جُمانة . وتشبّه بها المرأة فى البياض ، والنقاء ، والصفاء . وتناسقت الأشياء : انتظم بعضها إلى بعض . وفرائده : فرائد الجمان : أى وحداته ، وجواهره : جمع فريدة : وهى الجوهرة النفيسة . وقد يراد بالفرائد : الحبّات من الفضة وغيرها ، تفصل بين حبّات اللؤلؤ أى الدرّ فى العقد أى القلادة . وحُسْناً : أى حَسُنَتْ حُسْناً . أو تناسقتْ من أجل الحسن : أى من أجل أن تكون حسناء . وألّفه : ألّف الجمان : أى جمعه ، ونظمه ، ورتّبه ، ونسّقه . والشمل : اجتماع الأمر : أى اجتماع أمر هذا الجمان ، وائتلاف حبّاته .

وقع نظره فجأة ، وبلا قصد على هؤلاء النسوة الجميلات الساحرات العيون ، فشبّههن فى جمالهن ، واجتماع شملهن ، وانتظامهن . . . بعِقْد من لؤلؤ تناسقتْ وحداته ، وائتلفت فرائده ، وتألّقت ، وتشابهت فى الحسن والبهاء ، والرونق والرواء .

(٢١) «من» : بيانية . وما بعدها بيان للنسوة المشبّهات بالجمان فى البيت السابق : أى نظرت إلى نسوة هنّ الماطلات . . . أو هى للتبعيض . والماطلات : جمع ماطلة : اسم فاعل من مطل المدين الدائن =

تَكَنَّفْنَ تِمْثَالًا مِنَ الْحُسْنِ رَائِعًا ... يُجَنُّ جُنُونًا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ الْعَقْلُ (٢٢)

فَكَانَ الَّذِى لَوْلَاهُ مَادُرْتُ هَائِمًا ... أَرُودُ الْفَيَافِى ، لَا صَدِيقٌ ، وَلَا خِلُّ (٢٣)

= دينه ، أو بدينه . ومطله حقّه ، أو بحقّه : إذا سوّفه بوعد الوفاء ، وأجّله مرّة بعد أخرى . (وبابه نصر) .
ويراد بالمرء هنا : المحبّ العاشق المستهام . و « ما » : اسم موصول ، بمعنى الذى : أى يمطلن عاشقهنّ الوعد الذى قد وعدنه به . وكذاباً : مصدر « كذب » . ومثله الكذب . ووعدته كذاباً : وعدته وعداً قائماً على الكذب ، بعيداً عن الصدق والوفاء . والعهد : الموثق ، والوفاء ، ومثله « الإلّ » . وفى القرآن الكريم : « لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ، ولا ذمّة ، وأولئك هم المعتدون » . الآية رقم ١٠ من سورة التوبة .

والمعنى : أن هؤلاء الحسان قد يَعِدْنَ العشّاق باللقاء والوصال ، وهنّ يضمرن الكذب والمطال ؛ فلا وفاء لهنّ ، ولا سبيل إليهنّ .

(٢٢) تكنّفنا فلاناً ، واكتنفناه : استدرنا حوله ، وأحطنا به من كل جانب . والتمثال : الصورة المصوّرة . أو هو ما تصنعه ، أو تنحته من نحاس أو حجر أو غيرهما تشبّهه بخلق الله تعالى من ذوات الروح والصورة ، أو تحاكى به خلقاً من الطبيعة ، أو تمثّل به معنى يكون التمثال رمزاً له . و « من » : بيانية : أى تمثالاً هو الحسن : أى يمثّل الحسن ويصوّره . ورائعاً : باهراً معجباً : اسم فاعل من راعنى الشىء : أى أعجبنى . وجُنّ به وجُنّ منه : أعجب به إعجاباً شديداً ، واستخفّه الإعجاب ، حتى صار كالمجنون .

يقول : إن هؤلاء النسوة الجميلات اللائى وقع نظره عليهنّ فجأة قد أحطن من كلّ جانب بفتاة منهنّ باهرة الرواء ، غاية فى البهاء ، كأنها تمثال للحسن ، أجاد المثّال صناعته ، وأحكم صياغته ؛ فإذا رآها المرء فُتن فُتوناً ، وجُنّ جنوناً .

(٢٣) « كان » فى أول البيت : تامّة . ومعناها : وُجِد ، أو حصل ، أو وقع . وفاعله « الذى » : أى فكان الحب أو العشق ، أو الغرام الذى لولاه ما دار هائماً : أى متحيّراً فى أمره ، يسير على غير هدى : اسم فاعل من « هام » : أى خرج على وجهه فى الأرض ، لا يدرى أين يتوجّه . وهام فى الأمر : تحيّر فيه ، واضطرب ، وذهب كل مذهب . وراد الشىء يروده (من باب قال) : طلبه ، وابتغاه . أو هو راد يرود روداناً : أى جاء ، وذهب ، ودار بلا طمأنينة ، أو استقرار . والكلام على تقدير « فى » : أى أتردّد فى الفيافى جيئة وذهاباً ، فى قلق ، وحيرة ، واضطراب . والفيافى : الفلوات ، والقفار ، والصحارى ، والمفاوز لا ماء فيها ، ولا حياة . الواحدة فيفاء (بوزن صحراء) . والخِلّ (بكسر الخاء وتشديد اللام) : الصديق المختصّ الودود . ومثله الخليل .

عشق الشاعر الفتاة التى أشار إليها فى البيت السابق ، وبلغ به العشق مداه ؛ فتدلّه ، وتولّه ، وهام على وجهه فى الفيافى والفلوات ، فريداً وحيداً ، لا يكاد يجد خليلا يزيل وحشته ، أو صديقاً يخفّف لوعته .

فَوَيْلُمِّهَا مِنْ نَظْرَةٍ مَضْرَحِيَّةٍ رُمِيتُ بِهَا مِنْ حَيْثُ وَاجَهَنِي الْأَثْلُ (٢٤)

رُمِيتُ بِهَا وَالْقَلْبُ خِلْوٌ مِنَ الْهَوَى فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى اسْتَقَلَّ بِهِ شُغْلُ (٢٥)

لَقَدْ عَلِقَتْ مَا لَيْسَ لِلنَّفْسِ دُونَهَا غَنَاءٌ، وَلَا مِنْهَا لِذِي صَبْوَةٍ وَصْلُ (٢٦)

---

(٢٤) « ويلمّها » : أصلها ويل لأمّها . ونظرة : تمييز للضمير المضاف إليه « ها » . ومعنى الويل : الشرّ ، والعذاب. هذا هو الأصل . ثم ركّبوا هذه الكلمات ، وجعلوها كالشيء الواحد ، واستعملوها فى التعجّب ، أو التفجّع .فكأنه قال : عجباً لها من نظرة . . . أو أتفجّع منها ، وأتوجّع ،وأتألّم ؛ لأنها جنتْ علىّ ، وأساءتْ إلىّ ، وجلبتْ لى بلايا العشق وأوصابه . ومضرحيّة : صفة لـ « نظرة » . ومعناها صائدة صائبة ، نسبة إلى المضرح : وهو الصقر ، أو النسر الطويل الجناح . ومثله المضرحىّ . والصقر والنسر من جوارح الطير التى تصيد غيرها ، وتفترسه ، وتفتك به . وطول جناحيه دليل قوّته ، وشدّة بأسه . ورميتُ بها : رميتُ بنظرة هذه الحسناء . من قولهم : رمى الصائد الصيد : أى أطلق عليه من السهام ونحوها ما يصيده . و « حيث » : ظرف مكان ، يضاف إلى الجمل . وواجهنى : قابلنى ؛ من المواجهة : وهى أن تقابل بوجهك وجه غيرك . والأثل (بفتح فسكون) : نوع من الطرفاء : وهو شجر طويل مستقيم يُعَمَّر ، جيّد الخشب ، كثير الأغصان ، متعقّدها ، دقيق الورق طويله ، لا ثمر له . وواحدته أثلة (بوزن تمرة وتمر) .

تعجّبتُه نظرة الحسناء إليه واستهوته ، وأوقعته فى شَرَكِ الحبّ ، وحبائل العشق . ويبدو أنه لمّا نظر إلى النسوة نظرته الفجائية التى أشار إليها فى البيتين التاسع عشر والعشرين صادفت نظرته إليهن نظرتها إليه ؛ فكانت الفاتنة المولّهة ، وكان ما كابده وضاناه من الوجد والهيام ، والهوى والغرام .

(٢٥) بها : بالنظرة المضرحيّة . والواو : واو الحال .والجملة الاسمية بعدها حاليّة . وخلو : خال ، فارغ . واستقلّ : مضى وذهب وارتحل . واستقلّ بالأمر : تفرد به ، واستبدّ . وشغل (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون ، أو بضمتين ، أو بفتحتين) ؛ ففيه أربع لغات . وهو ضدّ الفراغ .

أحبّ الشاعر هذه الحسناء ، وهام بها على إثر نظرتها إليه ، وكان قلبه قبلها فارغاً من الهوى ، فمازالت به ، أو لم تكد تفارقه حتى استبدّ الحبّ بفؤاده ، وذهبتْ به شواغل العشق ، وهموم الغرام .

(٢٦) علقتْ : هويتْ ، وأحبّتْ . وفاعله : ضمير مستتر ، تقديره « هى » : أى نظرته التى لاقتْ نظرتها لقاءً غير مقصود ، ولكنّ هاتين النظرتين المتقابلتين أوقعتاه فى أشراك الهوى ،وحبائل الغرام. و « ما » هنا : اسم موصول بمعنى « التى » . ويلاحظ أن الشاعر وضع « ما » (وهى لغير العاقل) موضع « من » (وهى للعاقل) . ولو قال : « لقد علقت من ليس للنفس دونها غناء » لاستقام له الوزن واللغة . على أن بعض العلماء يجيز استعمال « ما » للعاقل . و « دون » : بمعنى « غير » : أى =

فَتَاةٌ يَحَارُ الطَّرْفُ فى قَسَمَاتِهَا لَهَامَنْظَرٌمِنْ رَائِدِ الْعَيْنِ لَا يَخْلُو (٢٧)

لَطِيفَةُمَجْرَى الرُّوحِ ،لَوْأَنَّهَا مَشَتْ عَلَى سَارِبَاتِ الذَّرِّ مَا آدَهُ الْحِمْلُ (٢٨)

=ليس لنفس العاشق غناء بغير هذه المعشوقة ، أى أن نفسه لا تستغنى عنها ، ولا تسلوها ، ولا تجد صبرً على فراقها . وغناء : (بوزن سناء) : استغناء واكتفاء . والاسم الغنية (بضم فسكون) . والصبوة : الميل ، والحنين ، والشوق . وذو الصبوة : العاشق ، المحبّ ، المشتاق . والوصل : ضدّ القطيعة . وفعله من باب وعد . ويكون فى عفاف الحبّ ودّعارته . « ولا منها لذى صبوة وصل » : أى ولا يرجى منها وصل للصبّ العاشق المستهام .

لاقت نظرته إليها نظرتها إليه؛ فَتَعَلَّقَهَا عَرَضاً ، من غير قصد ، ولكنّه ما لبث أن هام بها ، ولم يجد ما يسليه ، أو يغنيه عنها . ثم رآها متمنّعة مترفّعة ؛ فزادتْ بالهجران عذابه ، وضاعفتْ بالصدود أوصابه .

(٢٧) « فتاة » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : « هى فتاة » . والطرف (بفتح فسكون) : البصر ، والنظر . وحيرته : أن ينظر إلى الشىء ، فينبهر ، ويتردّد ، ويُغْشَى عليه . حار بصره يحار : نظر إلى شىء ، فغشيه منه ضوء ، فلم يقو على النظر إليه ، وارتدّ عنه . وقسماتها (بفتح السين وكسرها) : محاسنها واحدتها قسمة (بفتحتين ، أو بفتح فكسر) . ومنظرها : مفاتنها ، وما يعجبك منها ، ويستهويك إذا نظرتَ إليه . ورائد : اسم فاعل من ردتُ الشىء (من باب قال) : أى طلبتُه ، وابتغيتُه . وراد المكان : ذهب فيه ، يبحث عن مرعى أو نحوه . ولا يخلو من رائد العين : أى لا يخلو من عين تروده وتعوده ، وتبتغيه ، وتسرح فيه ، وتتردّد إليه ، وتعكف عليه .

يقول : إن منظر هذه الفتاة بهيج جميل ، فاتن ساحر ، لا يكاد يخلو من عين تتّجه إليه ، وتُقْبِل عليه ، مفتونة ببهجته وجماله ، مسحورة بحسنه وروائه ، فمحاسنها على الدوام تحيّر الأبصار ، وجمالها مَرَاد الأنظار .

(٢٨) لطيفة: صفة من اللطافة : وهى الخفّة ، والدقّة . وضدّها الثقل ، والغلظ ، والضخامة ، والكثافة. ومجرى النهر : مسيله : اسم مكان من جرى الماء ونحوه : أى انصبّ ، وسال . ومجرى الروح : كناية عن الجسم : أى الجسد ، أو البدن ، ولو أنها : لو أن المتغزل بها .والسارب : اسم فاعل من سرب (من باب دخل) : أى مضى ، وذهب ، وسار ، ومرّ ، وجرى .والذرّ : صغار النمل . الواحدة ذرّة . وآده الحمل (من باب قال) : أثقله ، وأجهده . والحمل (بفتح فسكون) : مصدر حملت الشىء (من بابُ ضرب) : أى رفعته ، ونهضت به . والحمل (بكسر فسكون ، أو بفتح فسكون) : اسم للشىء المحمول .

وصف جسمها بالخفّة واللطافة ، قائلا: لو مشت هذه الحسناء على الساربات فى الأرض من صغار =

لَهَا نَظْرَةٌ سَكْرَى. إذَا أَرْسَلَتْ بِهَا إلَى كَبِدٍ ، فَالْوَيْلُ مِنْ ذَاكَ وَالثُّكْلُ (٢٩)

تُرِيقُ دِمَاءً حَرَّمَ اللهُ سَفْكَهَا وَتَخْرُجُ مِنْهَا ،لَا قِصَاصٌ، ولا عَقْلُ (٣٠)

لَنَا كُلَّ يَوْمٍ فِي هَوَاهَا مَصَارِعُ يَهِيجُ الرَّدَى فِيهَا ، وَيَلْتَهِبُ الْقَتْلُ (٣١)

= النمل — لم تستثقل حملها . وهذه مبالغة غير سائغة .

وقد يكون الوصف لروح الحسناء ، فهى تجرى جرياً لطيفاً خفيفاً ، وهى لا تئود ساربات الذر إذا مشت فوقها . وليس فى هذا شىء من المغالاة .

ومعنى هذا أنه ترفّع فى هذا البيت عن الصفات الماديّة أو الجسديّة ، وتغزّل بشىء من محاسنها الروحيّة أو النفسيّة .

ولا ريب أن المعنى الأول (خفة جسمها) أقرب وأرجح ، لأنه جار على المألوف ، بعيد عن التكلّف ، ولا قيمة لقوله: « لو أنها مشت على ساربات الذرّ ما آده الحمل » إلا به .

(٢٩) لها : للحسناء المتغزل بها . ونظرة سكرى : نظرة فاترة ساكنة ، كأنها ناعسة . والعرب تستحسن الفتور فى عيون النساء ، وتتغزل به . قال ذو الرمّة :

تبسّمن عن نَوْرِ الأقاحىّ فى الثرى وفَتَّرْن من أبصار مضروجةٍ نُجْلِ

وأرسلتْ بها إلى كبد العاشق: وجّهتْها إلى قلبه . والويل: الشر ، والعذاب . والثكل (بضم فسكون): الموت والهلاك . ويراد بالويل والثكل : ما يضانيه الصبّ المستهام من تباريح الوجد ، ولوعة الغرام .

(٣٠) تريق : تصب ، وتسيل . وفاعله ضمير يعود على « فتاة » فى البيت السابع والعشرين ، أو يعود على « نظرة » فى البيت السابق : أى تريق بنظرتها دماء . . . وسفك الدم : إراقته ، وإسالته . وتخرج منها : تخرج من الدماء ، أى من وزر سفكها ، وتبعات إراقتها . والقصاص (بكسر القاف) : أن يعاقب الجانى بمثل ماجنى ، فيقتل القاتل . والعقل : الدية : وهى المال الذى يدفعه القاتل ، أو أهله إلى ولىّ المقتول أو ورثته تعويضاً من دمه . ومثلها العدل .

والمعنى : أن غرام العشّاق بهذه الحسناء يلوعهم ويضنيهم ، وأنها تضاعف لوعتهم وأوصابهم ، وتوردهم موارد الردى والهلاك بالصدّ والقطيعة ، والإعراض والهجران . ومن عجيب أمرها أنها تخرج من هذه التبعات والأوزار كلّها آمنة مطمئنّة ، لا يؤخذ منها عدل ، ولا يقع عليها قصاص .

(٣١) فى هواها : بسبب عشقنا لها ، وغرامنا بها . ومصارع : جمع مصرع (بوزن مذهب) : اسم مكان ، أو مصدر ميمىّ من صرعه (من باب منع) : أى طرحه على الأرض. وقد يراد بالصرع: القتل. ومنه « صرعهم ريب المنون » و « هذه مصارع القوم » . ويهيج : يثور ، ويشتدّ . والردى : الهلاك . ويلتهب : يشتدّ ، ويكثر . مستعار من التهاب النار : أى توقّدها واشتعالها . =

مَصَارِعُ شَوْقٍ . لَيْسَ يَجْرِى بِهَا دَمٌ ... وَمَرْمَى نُفُوسٍ لَا يَطِيرُ بِهِ نَبْلُ (٣٢)

هَنِيئًا لَهَا نَفْسِى ،عَلَى أَنَّ دُونَهَا ... فَوَارِسَ،لَا خُرْسُ الصِّفَاحِ ،وَلَا عُزْلُ (٣٣)

= يصف ما يلقاه عشاقها كل يوم؛ فإن هيامهم بها ، وصدها عنهم – يتركهم صرعى كأنما سقطوا فى معارك هائلة طاحنة ، يشتد فيها الهلاك ، ويلتهب القتل .

(٣٢) مرمى : اسم مكان ، أو مصدر ميمى من رمى عن القوس ، ورمى عليها رمياً ورماية : أى أطلق سهمها . ورمى السهم عن القوس ، أو رماه عليها : أى أطلقه منها . ورمى الصيد : أى أطلق عليه ما يصيده . وبه : بالمرمى ، أو بالرمى . والنبل : السهام العربية . وهى مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . وجمعها نبال . وواحدها سهم : وهو عود من خشب يسوى ويركب فى طرفه نصل حاد قاطع من الحديد الصلب . يرمى به المحارب والصائد ونحوهما عن القوس ونحوها .

والمعنى : أن المصارع التى ذكرها فى البيت السابق ليست معارك تجرى فيها دماء الجرحى والقتلى ، وترمى فيها النفوس بالسهام والنبال . وإنما هى مصارع شوق وغرام ، ووجد وهيام ، وكثيراً ما يصرع الشوق الواجد المستهام .

(٣٣) هنؤ الشىء هناءة ، فهو هنىء : تيسر من غير مشقة ، ولا عناء . ولها : للحسناء المتغزل بها . و « على » هنا : بمعنى « مع » ، فهى تفيد المصاحبة . ودونها فوارس : دون نفسى فرسان : أى يحميها ويحيط بها فرسان . و« دون »: ظرف مكان منصوب ، بمعنى « قبل »: أى قبل أن يصل أعدائى إلىّ فوارس يصدونهم ، ويحجزون بينى وبينهم. والفوارس : جمع فارس : وهو من يركب الخيل بحذق ومهارة ، ويحسن استخدامها فى الحروب وغيرها . وفرسان الجيش : المحاربون على ظهور الخيل . وخرس : جمع أخرس: وهو الذى انعقد لسانه عن الكلام . ومن المجاز : سيف أخرس : أى لا صوت له . والصفاح : جمع صفح : وهو الجانب . وصفح السيف : عرضه . ويراد بالصفاح هنا : السيوف ، وسائر أسلحة الحرب والقتال . وعزل (بضم فسكون) : جمع أعزل : وهو من لا سلاح معه .

والمعنى : أن هذه المعشوقة قد تيمته ، وسيطرت عليه ، وتملكت نفسه بسلطان الحب ، وسطوة الغرام على الرغم من أنه عزيز أبى ، منيع قوى ، محصن محمى بمحاربين أشداء أقوياء ، شجعان بسلاء ، وكماة مدججين بأسلحة لها قعقعة وصليل ، وفرسان من قومه أولى قوة ، وأولى بأس شديد ، وهو مع هذا كله يهنئ محبوبته ، ويرجو أن تكون مغتبطة مسرورة بما ظفرت به فى يسر وسهولة من قلب المحب وولائه ، وإعجابه ووفائه . ويلاحظ أن الشاعر افتخر بقومه ، وأشاد بفروسيتهم وشجاعتهم وشدة بأسهم ، واعتمادهم على الكفاح بالسلاح . وفخره بهم فخر ضمنى بنفسه؛ لأنه منهم ، وشأنهم شأنه . وقد يكون الضمير فى « دونها» عائداً على « فتاة » فى البيت السابع والعشرين ؛ فهى ممنعة محجبة ، فى حراسة قوية شديدة . والأبيات ٣٣ – ٥١ فى مدح قومها وهم قومه ، والفخر بمحامدهم وهى محامده .

فى البيت الأول من أبيات هذه القصيدة أعلن الشاعر طربه ، وشدة فرحه لما رأى «حلوان» ، وانتفع بحماماتها ، واستقر مقامه بها .

=

مِنَ الْقَوْمِ ضَرَّابِى الْعَرَاقِيبِ وَالطُّلَى ... إِذَا اسْتَنَّتِ الْغَارَاتُ . أَوْ فَغَرَ الْمَحْلُ (٣٤)

إِذَا نَامَتِ الْأَضْغَانُ عَنْ وَتَرَاتِهَا ... فَقَوْمِى قَوْمٌ لَا يَنَامُ لَهُمْ ذَحْلُ (٣٥)

= وفى ثمانية الأبيات التى تليه انتقل إلى وصف الخمر ، وبيان آثارها ، وتعلّق نفوس شاربيها بها ، كأنّ نشوتها اتّصلتْ بنشوة الطرب وهزّته .

وفى البيت التاسع وثلاثة الأبيات بعده استطرد لوصف النحل ومرحها وغنائها حول خلاياها ، ثم انقلاب حالها ، وشتات شملها لمّا رُوِّعتْ وهيجتْ .

ومن هذا الغرض انتقل إلى الغزل ؛ فبسطه فى واحد وعشرين بيتاً .

وهو هنا ، وفى الأبيات التالية إلى آخر القصيدة ينتقل من الغزل إلى الفخر بقومه ، والإشادة بمزاياهم ومناقبهم .

(٣٤) «من القوم» : بيان للفوارس فى البيت السابق. وضرّاب : صيغة مبالغة ، تدلّ على كثرة الضرب ، وشدّته ، وعنفه ، والعراقيب : جمع عرقوب (بوزن عصفور وعصافير) : وهو من الإنسان : وتر ، أو عصب غليظ خلف كعبى القدم ، وفوق العقب . ومن الدابّة : ما يكون فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها. وكل ذى أربع عرقوباه فى رجليه ، وركبتاه فى يديه ومن عادة العرب أن يضربوا عراقيب الإبل ونحوها تمهيداً لذبحها. وقد يكون المعنى: أنهم يضربون عراقيب أعدائهم المنهزمين أمامهم . والطلى: الأعناق : الواحدة طُلْية ، (بوزن كُلْية وكُلًى) ، أو الواحدة طُلاة . ومن كلامهم : يضربون الطُّلَى ، ويطعنون فى الكُلَى » .واستنّتْ: نشطتْ ، واشتدّتْ ، واتّسعتْ. والغارات: جمع الغارة : وهى الخيل المغيرة المسرعة . والهجوم على العدوّ . والقوم يهجمون على غيرهم .وفغر فاه (كنع ، ونصر) : فتحه . وفغر الفم : انفتح . ومثله انفغر. والمحل (بفتح فسكون) : الجدب والشدّة وانقطاع المطر ، ويبس الأرض من الكلأ والنبات . ومثله (أى بوزنه ومعناه) القحل ، والقحط . وانفغار المحل : كناية عن اشتداد الجدب واتساعه .

يمدح قومه وفوارسهم بالشجاعة والكرم ؛ فهم يحملون على أعدائهم ، ويضربون أعناقهم إذا حمى الوطيس ، واستعرت الحرب ، واشتدّتْ الغارات . وهم يكثرون من عقر الإبل ونحوها لإطعام الجائع ، وإشباع المتأزّم إذا أقحط الناس وأجدبوا . وفى البيت لفّ ونشر غير مرتّب .

وقد يكون ضرب العراقيب : كناية عن تعقّبهم لأعدائهم المنهزمين أمامهم . وضرب الطلى : ضرب أعناق الإبل ونحوها : أى ذبحها . وعلى هذا يكون اللفّ والنشر مرتّباً .

(٣٥) الأضغان : جمع ضغن (بكسر فسكون) : وهو الحقد الشديد ، والانطواء على العداوة والبغضاء . والوترات : جمع وترة (بوزن سجدة) : اسم مرة من وترت الرجل (من باب وعد) : أى أدركته بمكروه ، أو قتلت حميمه، فأفردته منه . ومثلها التِّرة ، والوتر ، والثأر . والذحل : (بفتح=

رِجَالٌ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَنَجْدَةٍ فَقَوْلُهُمُ قَوْلٌ، وَفِعْلُهُمُ فِعْلُ(٣٦)
إِذَا غَضِبُوا رَدُّوا إِلَى الْأُفْقِ شَمْسَهُ وَسَالَ بِدُفَّاعِ الْقَنَا الْحَزْنُ والسَّهْلُ(٣٧)

= فسكون) : الضغن ، والحقد ، والعداوة، والبغضاء . وهو أيضاً الثأر. ولا ينام لهم ذحل: لا تنام عداوتهم لمن عاداهم، ولا يسكت غضبهم حتى ينتقموا لأنفسهم منه . أو لا ينام ثأرهم ، ولا تهدأ ثورتهم إلا إذا أخذوا بثأرهم .

يقول : إذا همدت عداوات الناس ، وأهملوا الأخذ بثاراتهم — فإن قومى لا يهدأ لهم بال ، ولا يستقرّ لهم قرار حتى يدركوا التّرات ، ويقتصّوا ممن جنى عليهم . وإدراك الثأر قصاص ، وعدل ، وقوّة .

(٣٦) أولو بأس : ذوو بأس : أى أصحاب بأس . والبأس : القوة ، والشجاعة ، والإقدام فى القتال ، والشدّة فى الحرب . والنجدة: الشجاعة فى القتال ، والشدّة ، والبأس ، والإقدام ، وسرعة الإغاثة .

ومعنى الشطر الثانى : أنه إذا كانت أقوال الناس وأعمالهم ناقصة أو تافهة ، فإن أقوال قومى وأعمالهم تامة عظيمة ، ذات أثر وخطر . أو المعنى : أنهم لا يقولون مالا يفعلون .

أو المعنى : أن قولهم يجمع كل صفات الفصاحة والسداد، وأن فعلهم يجمع كل صفات القوّة والإنجاز. كما تقول : « فلان رجل » : أى يجمع كل صفات الرجولة .

(٣٧) الأفق (بضم فسكون ، أو بضمتين) : الناحية من نواحى الأرض أو السماء . ومنتهى ما تراه العين من الأرض ، كأنما التقت عنده بالسماء . وردّوا إلى الأفق شمسه : أى جعلوا الشمس تعود غاربة إلى مطلعها فى السماء : والمراد أنهم حجبوا ضياءها بكثرة أسلحتهم ، وكثرة ما ينعقد فى جوّ المعارك من قَتَام وعِثْيَر وغُبار تثيره سنابك خيلهم ، وحركات كرّهم وفرّهم . والدُّفّاع: السيل العظيم الهائل ، يندفع بقوّة وشدّة وعنف ، ويدفع ما يصادفه فى طريقه ويكسحه . والقنا : الرماح . الواحدة قناة : وهى عصا مستوية ، أو عود خشبىّ يسوّى ، ويركّب فى طرفه سنان من الحديد الصلب، يطعن به المحارب عدوّه ، فيجرحه ، أو يقتله . والطرف الذى فيه السنان هو رأس القناة أو الرمح . وكانت القنا أو الرماح من أدوات الحرب والقتال فى قديم الزمان . ودفّاع القنا : القنا الشبيهة بالسيل الجارف ، فى قوّته ، وكثرته ، وزحمته ، وتموّجه ، وشدّة اندفاعه . والحزن (بفتح فسكون) : ما غلظ من الأرض وخشن . وهو خلاف السهل ؛ فحزون الأرض : جبالها ، وهضابها ، وعقباتها ؛ وما غلظ وخشن منها . وسهولها : أوديتها ، وكلّ ما سهل ، ولان ، وانبسط منها .

يقول : إذا غضب قومه لشرفهم ، وثاروا لحميّتهم — أجّجوا نيران الحرب ؛ فحجبوا بغبارها ودخانها ضياء الشمس ، وملأتْ رماحهم وأسلحتهم حزون الأرض وسهولها ، كأنها السيل العظيم الجارف ، المندفع المتموّج .

مَسَاعِيرُ حَرْبٍ . لَا يَخَافُونَ ذِلَّةً ... أَلَا إِنَّ تَهَيَّابَ الْحُرُوبِ هُوَ الذُّلُّ[٣٨]
إِذَا أَطْرَقُوا أَبْصَرْتَ بِالْقَوْمِ خِيفَةً ... لِإِطْرَاقِهِمْ ، أَوْ بَيَّنُوا رَكَدَ الْحَفْلُ[٣٩]
وَإِنْ زَلَّتِ الْأَقْدَامُ فِي دَرْكِ غَايَةٍ ... تَحَارُ بِهَا الْأَلْبَابُ ـ كَانَ لَهَا الْخَصْلُ[٤٠]

---

(٣٨) مساعير : جمع مسعار (بوزن مفتاح) : وهو عود من حديد ، أو خشب تحرّك به النار؛ لتحيا ، ويزداد لهبها . اسم آلة من سعرت النار (من باب قطع) : أى أوقدتها . وألهبتها . وقومه مساعير حرب : أى يقدمون على الحرب ، فيؤججون نارها ، ولا يخشون بأسها . والذلّة : الضعف ، والخضوع ، والهوان . ومثله الذلّ ، والمذلّة . و « ألا » : حرف استفتاح : أى أداة تبتدأ بها الجملة . وتفيد هنا التنبيه ، وتدلّ على تحقّق ما بعدها . وتهياب : اهتياب ، وخشية ، وحذر ، وخوف .

والمعنى : أن قومه لا يتهيّبون الحرب فى سبيل الدفاع عن الحقّ والشرف ، والمحافظة على العزّة والكرامة ؛ بل يقدمون عليها ، ويوقدون نارها فى حماسة وشجاعة ، وقوّة وإقدام ، وبأس شديد ؛ فإن النصر والظفر والغلبة لمن ركب الأهوال والأخطار ، وخاض المعامع والوقائع ، واثقاً بالنصر ، مطمئناً إليه . والهزيمة والذلّ والهوان لمن تهيّب الحروب ، وأحجم عنها ، وخشى مغبّتها .

ولا ريب أن الأمة التى تستكين لعدوّها ، وتؤثر الملاينة والمهادنة ، وتجنح للراحة والدعة ، وتخشى القتال والنزال — تفرّط كل التفريط فى عزّتها وكرامتها ، وتقع فى مهاوى الذلّ والضعف ، والعبوديّة والهوان .

(٣٩) أطرق إطراقاً : أمال رأسه إلى صدره ، وسكت ، فلم يتكلم ، وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض ، كالمفكّر المهتمّ . وخيفة : خشية : مصدر خاف . ومثله الخوف ، والمخافة . وبيّنوا : تكلموا : من التبيين : وهو الكلام ، والإفصاح ، والبيان ، والإيضاح . وركد (باب قعد) : هدأ ، وسكن ، وثبت . والحفل : الحشد ، وجماعة الناس .

يصف قومه بالمهابة والجلال ، ساكتين ، ومتكلمين ؛ فإذا أطرقوا خشى الناس عاقبة هذا الإطراق ، وأوجسوا منه خيفة ، وأقلقهم ما قد ينطوى عليه من كوارث . وإذا تكلموا سكن الناس ، واستمعوا لقولهم ، وسكت كل متكلم سواهم احتياباً لهم وإجلالا .

(٤٠) زلّ فى طين ونحوه (من بابى ضرب وتعب) : سقط . ومثله زلق ، وزلج . ودرك : اسم من أدركت الشىء إدراكاً : أى لحقته ، وبلغته ، ووصلت إليه ، وظفرت به . وغاية كل شىء : نهايته . وآخره . ويراد بالغايات هنا : المقاصد البعيدة ، والمطالب الصعبة . وتحار : تتحيّر ، وتدهش ، وتضلّ . وبها : بالغاية : أى بسببها . أو فى سبيل إدراكها ، والظفر بها . والألباب : العقول . مفردها لبّ وكان لها : كان لهم : أى لرجال قومه الذين يمدحهم ، ويفخر بهم ؛ فالرجال جمع تكسير ، ويجوز أن =

أُولَئِكَ قَوْمِي ، أَيُّ قَوْمٍ وَعُدَّةٍ فَلا رَبْعُهُمْ مَحْلٌ ، وَلَا مَاؤُهُمْ ضَحْلُ(٤١)

يَفِيضُونَ بِالْمَعْرُوفِ فَيْضًا ، فَلَيْسَ فِي عَطَائِهِمُ وَعْدٌ ، وَلَا بَعْدَهُ مَطْلُ(٤٢)

= يكون ضميره مفرداً مؤنثاً . تقول : الرجال لها جلد على القتال : كما تقول : لهم جلد . والخصل (بفتح فسكون) : الخطر : أى قصب السبق . أو الغاية . أو الأمد . أو المرمى . أو الهدف الذى يخاطر عليه المتخاصلون : أى يتراهن عليه المتسابقون : وهم المتراهنون فى النضال والمراماة .

يقول : إذا زلّت أقدام الناس : أى تعثروا وكبَوْا فى إدراك غاية من الغايات البعيدة التى تحيّر الألباب . وتُضلّ العقول – كان لقومى الفوز بها ، والسبق إليها ، والاستيلاء عليها .

يمدحهم بأنهم يدركون بمزاياهم ، وقوّة ألبابهم ، ورجاحة عقولهم ما يعجز غيرهم عن إدراكه من الغايات البعيدة ، والمقاصد الجليلة ، والمطالب الصعبة .

(٤١) « أىّ » فى مثل هذا المقام : تدلّ على معنى الكمال ، وتقع صفة للنكرة ، وحالاً للمعرفة .

والمعنى : أن قوميّة قومه تامّة كاملة ، مبرّأة من الخلل ، أو الضعف ، أو النقص ، أو العيب . . . والعدّة : ما أعددته لحوادث الدهر من المال ، والسلاح ، وغيرهما . والربع : المنزل . ومحل (بفتح فسكون) : ما حل ، جديب ، لا خير فيه . والمحل : الشدّة ، والجدب ، واحتباس المطر ، وقحول الأرض ، ويبسها ، وعجزها عن الإنبات . وضدّه الخِصْب . وماء ضحل (بفتح فسكون) : قليل على الأرض ، لا عمق له . ومن كلامهم : « بلدكم محل ، وماؤكم ضحل » .

يشير إلى قومه ، معتزاً بصلته بهم ، مفتخراً بانتسابه إليهم ؛ فقوميّتهم كاملة تامة ، وعتادهم كثير موفور ، ووطنهم عزيز منيع ، وواديهم خصيب مَرِيع .

(٤٢) فاض الماء (من باب باع) : أى كثر حتى سال على ضفة الوادى . ومن المجاز : « رجل فيّاض » : أى سخىّ ، كريم ، جواد ، معطاء . ويفيضون بالمعروف : أى معروفهم كثير فيّاض عامّ ، شامل ، واسع . أو هو مضارع أفاض بالشىء : أى دفع به ورماه . وفى القرآن الكريم : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء » . وأفاضوا بمعروفهم : دفعوا به إلى المعتفين فى كثرة وسخاء . والمعروف : الخير ، والبر ، والإحسان . والعطاء : ما يعطى ، ويمنح ، ويوهب ، وجمعه أعطية . وجمع الأعطية أعطيات . ووعده الأمر ، ووعده به وعداً ، وعدة : منّاه به . وليس فى عطائهم وعد : أى عطاؤهم كلّه ناجز ، غير موعود . وإذا كان كلّه ناجزاً ، مقضيّاً ، معجّلاً ، نافذاً ، تاماً ، فلا يتصوّر أن يكون بعده مطل : أى تأخير ، أو تسويف : مصدر مطلته حقّه وبحقّه : أى أجّلت موعد الوفاء به مرة بعد أخرى ، ومثله ماطله مطالا ، ومماطلة .

يمدحهم بكثرة البرّ والخير ، وفيضان معروفهم وإحسانهم ، وأن أعطياتهم تامّة منجزة ، وبرّهم نافذ معجّل ، فلا وعد ، ولا تسويف ، ولا مطال .

فَزُرْهُمْ تَجِدْ مَعْرُوفَهُمْ دَانِيَ الْجَنَى ... عَلَيْكَ ، وَبابَ الْخَيْرِ لَيْسَ لَهُ قُفْلُ (٤٣)

تَرَى كُلَّ مَشْبُوبِ الْحَمِيَّةِ . لَمْ يَسِرْ ... إِلَى فِئَةٍ إِلَّا وَطَائِرُهُ يَعْلُو (٤٤)

بَعِيدَ الْهَوَى ، لَا يَغْلِبُ الظَّنُّ رَأْيَهُ ... وَلَا يَتَهَادَى بَيْنَ تَسْرَاعِهِ الْمَهْلُ (٤٥)

= أو المعنى : أنهم يُفيضون على غيرهم بالبرّ والخير ، وأنهم يبدءون الناس بالعطاء ، وإذا وعدوهم أنجزوا ، ولم يُخْلِفوا .

والبارودى هنا ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى :

واجْزِ الأمير الذى نعماه سابقة ... بغير وعد ، ونعمى الناس أقوال

(٤٣) دانٍ : قريب. والجنى : كل ما يجنى من ثمار الأشجار : أى يجتنى ، ويقطف ، ويلتقط ويجمع . وفى القرآن الكريم : « وجنى الجنتين دانٍ » . الواحدة جناة (بوزن حصاة وحصى) .

والجنى أيضاً : مصدر جنى الثمر ونحوه (من باب رمى) : أى تناوله من شجره . ومعروفهم دانى الجنى : أى خيرهم ميسّر ، سهل ، قريب لمن أراد اجتناءه .

يقول : إذا زرت قومى وجدت معروفهم دانياً ، وبرّهم قريباً ، تجتنيه فى يسر وسهولة . كما تجد لديهم أبواب الخير والإحسان مفتّحة لكل إنسان . وهو تكرار وتأكيد لمعنى البيت السابق .

(٤٤) مشبوب : اسم مفعول ، بمعنى متوقّد . شببت النار (من باب ردّ) : أى أوقدتها ، وأذكيتها ، ورفعتها . والحميّة : الأنفة ، والنخوة ، والمروءة ، والحماسة ، والترفّع عن الدنايا ، والاستنكاف من النقائص ، والمحافظة على الحرمات ، واتّقاء التهم والشبهات . وفئة : فرقة ، وطائفة ، وجماعة من الناس . وطائر الإنسان : عمله ، وحظّه من الخير والشرّ . وفى القرآن الكريم : « وكلّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » : أى عمله الذى طار عنه ، من خير ، أو شرّ .

يمدح كلّ رجل من قومه بالحماسة ، والمروءة ، والنخوة ، والحميّة العالية القويّة ، وأنه كلّما سار إلى طائفة من أعدائه محارباً ، ظهر فى القتال عمله ، وعظم من النصر حظّه ، وطار فى الناس صيته ، وارتفعت بينهم مكانته .

(٤٥) بعيد : نعت لمشبوب الحميّة فى البيت السابق : أى ترى فى قومى كلّ مشبوب الحميّة ، بعيد الهوى . أو هو حال ، أو خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هو بعيد الهوى. والهوى : مصدر هوى الإنسان الشىء (كرضيه) : أى أحبّه ، وتعلّق به. والهوى : إرادة النفس. والهوى: الشىء المهويّ : أى المراد المحبوب ، والمرغوب المطلوب . ومعنى « بعيد الهوى » : أنه طموح ، بعيد الهمّة ، تتعلّق نفسه بمعالى الأمور ، وترتاد المقاصد الرفيعة النبيلة ، وتترفّع عن الدانى القريب ، والتافه الحقير . والظنّ : أن يدرك الذهن الشىء ، مع ترجيحه ، بغير يقين. وجمعه ظنون . والرأى : الاعتقاد ، والعقل ، والتدبير ، والبصيرة ، والحذق بالأمور . وجمعه آراء . ومعنى « لا يغلب الظنّ رأيه » : أنه يرى الرأى واضحاً ، قاطعاً ، صريحاً ، لا لبس فيه ؛=

تَصِيحُ الْقَنَا مِمَّا يَدُقُّ صُدُورَهَا طِعَانًا . وَيَشْكُو فِعْلَ سَاعِدِهِ النَّصْلُ(٤٦)

إِذَا صَالَ رَوَّى السَّيْفُ حَرَّ غَلِيلِهِ وَإِنْ قَالَ أَوْرَى زَنْدَهُ الْمَنْطِقُ الْفَصْلُ(٤٧)

فيستيقنه، ولا يساوره فيه ظن ، أو شكّ ، أو تردّد ، أو ارتياب . ويتهادى : يتمايل فى مشيته ، ويتباطأ ويتمهّل . والتسراع : مصدر بمعنى السرعة ، أو الإسراع : ويفيد مع هذا المبالغة والتكثير . والمهل (بفتح فسكون) : التؤدة ، والتباطؤ .

ومعنى الشطر الثانى : أنه يسارع إلى مقاصده العالية . وغاياته البعيدة فى جدّ وصرامة ، ونشاط ، وسرعة فائقة محمودة ، لا يعوقها ، أو يقلّلها تباطؤ ، أو تردّد ، أو إحجام .

فى البيت السابق مدح رجال قومه بالحميّة المشبوبة ، واقتران مسيراتهم كلّها بالنصر والغلبة ، وإصابة الأهداف ، وتحقيق الآمال .

وفى هذا البيت أشاد بطموحهم ، وبعد هممهم ، وتعلّقهم بالرفيع العالى من المقاصد والمطامح ، يسارعون إليها فى غير تردّد ، أو تباطؤ ، أو إحجام . وهم يمتازون إلى هذا كلّه بإجادة التدبير ، والحذق فى التفكير ؛ فالواحد منهم يرى الرأى — بقوة بصيرته — واضحاً ، قاطعاً ، صريحاً ؛ فيستيقنه ، ولا يساوره فيه ظنّ أو شكّ ، أو ارتياب .

(٤٦) تصيح : تصوّت فى قوّة . من صياح الديك ونحوه : وهو صوته القوىّ الشديد ، الرفيع العالى . (وفعله من باب باع) . والقنا : الرماح . الواحدة قناة . و « ما » المتصلة بـ « من » الجارّة : حرف مصدرىّ يؤوّل مع الفعل الذى بعده بمصدر مجرور بمن : أى تصيح القنا من دقّه صدورها . وفاعل « يدقّ » ضمير تقديره « هو » ، يعود على « مشبوب الحميّة » فى البيت الرابع والأربعين . ودقّ الشىء (من باب ردّ) : كسره ، أو ضربه بشىء فهشمه . وصدر كلّ شىء : مقدّمه . وصدور القنا : عواليها . جمع عالية : وهى الجزء الذى يلى السنان من القناة . وطعنه بالرمح ونحوه : ضربه بسنانه ، ووخزه ، وأصابه . والطعان : المطاعنة : مصدر طاعنه : أى طعن كلّ منهما الآخر . والساعد (من الإنسان) : ما بين مرفقه وكفّه . وهو مذكّر . والنصل : حديدة الرمح والسكّين ونحوهما . وهى التى تجرح وتقتل . وجمعه نصال ، ونصول .

يمدح الرجل من قومه بأنه محارب طعّان ضرّاب ، شديد البأس ، قوىّ المراس . ويصوّر هذه القوّة بأن القنا والرماح فى يده تصيح بأعلى صوتها وهو يطاعن بها ، ويدقّ عواليها فى صدور أعدائه ، وأن النصال والأسنّة تشكو قوّة ساعده ، وشدّة بطشه ، ولا تكاد تستريح من حركات يديه . وقد أسلفنا أنه من السادة النابهين فى قومه ، وأن مزاياهم مزاياه ، وفضائلهم فضائله ؛ فهو يمدحهم ، ومديحه لهم فخر بنفسه .

(٤٧) صال : وثب للقتال . وصال المحارب على عدوّه : سطا عليه ، وهجم ليقهره ، ويفتك به . (وبابه قال) . وفاعله ضمير « مشبوب الحميّة » . وروّاه تروية : أزال عطشه بالماء ، أو الشراب المروى=

لَهُ بَيْنَ مَجْرَى الْقَوْلِ آيَاتُ حِكْمَةٍ   يَدُورُ عَلَى آدَابِهَا الْجِدُّ وَالْهَزْلُ(٤٨)

= والحرّ : الحرارة . والغليل : العطش الشديد . والغليل أيضاً : الغيظ . والزند : العود الأعلى الذى تقدح به النار . والزندة : العود الأسفل الذى فيه الفرضة ، أى الفرجة ، أو الثقب . وهما زندان إذا ضرب أحدهما بالآخر خرج من بينهما شرار تقتدح به النار : أى توقد ، وتشعل . وأوريت الزند : ضربت به الزندة ، فأخرجت الشرار والنار . والمنطق الفصل : القول السديد ، الصائب البليغ ، يفصل بين الحق والباطل ، أو يفصل خلاف المتخالفين ، ويحسم خصومة المتخاصمين . وأورى المنطق الفصل زنده : أى أظهر قوله السديد مزيّته وفضله .

يقول : إذا هجم الرجل منا على المحاربين من أعدائه — سفك بسيفه دماءهم ، وأروى بهذه الدماء حرارة تعطّشه إليها . أوشفى بسفكها عداوته وغيظه . وإذا تكلّم فى محفل أظهر منطقه الحقّ الواضح ، وقولُه السديد الفاصل ، وبيانُه البليغ الساحر ما يمتاز به من رجاحة العقل ، وسداد الرأى ، وطلاقة اللسان ، وسحر البيان ، وقوّة الحجّة والبرهان . . . فحسم الخلاف ، وأزال الخصومات ، وحلّ المشكلات ، وجمع الناس على السداد والرشاد .

والبيت الآتى تفصيل وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من هذا البيت .

(٤٨) له : لـ « مشبوب الحميّة » فى البيت الرابع والأربعين . والمجرى (فى الأصل) : اسم مكان من جرى الماء ونحوه : أى سال ، وانصبّ ، واندفع ، ومرّ سريعاً . وبين مجرى قوله : فى أثناء كلامه . أو فيما يجرى به كلامه . والآيات : جمع آية : وهى العلامة الظاهرة ، والأمارة ، والعبرة ، والمعجزة . والآية من القرآن الكريم : الجملة منه . أو الكلام ينفصل من غيره بفصل لفظى . أو العبارة يحسن السكوت فى نهايتها ، وتدلّ على حكم من أحكام الله تبارك وتعالى . والحكمة : العدل ، والعلم ، والتفقّه ، والحلم والقول السديد الوجيز الرائع الذى يفيد أدباً ، أو عظة ، ويتضمّن حكماً صحيحاً مسلّماً ، ويمنع مما لا ينبغى . أو الكلام الذى يقلّ لفظه ، ويجلّ معناه ، وجمعها حكم (بوزن منحة ومنح) . وآيات حكمة : أمارات وعلامات تدلّ على أن قائلها من الحكماء . أو معجزات بيانيّة ، وعبر وعظات تتّصل بالحكمة . أو حكم بالغات كأنها مقتبسة من آى الذكر الحكيم . والآداب : جمع الأدب : وهو رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغى . أو هو الجميل من النظم والنثر . وآداب الحكمة : الآداب التى تلتزم الحكمة ، وتدعو إليها ، وتحضّ عليها ، وتدور حولها ، وتجرى فى نطاقها . والهزل : المزاح . وضدّه الجد .

ومعنى الشطر الثانى : أن جدّه وهزله يجريان فى نطاق الحكمة ، ويلتزمان آدابها . وليس بمستغرب أن يمدح المرء بالتزام الحكمة فى جدّه وهزله ؛ فقد كان النبىّ — صلّى الله عليه وسلّم — يمزح ولا يقول إلا حقاً .

يقول : يتكلّم الرجل منا ، فينطلق لسانه بالحكمة وفصل الخطاب . ولا يكاد يفارق الحكمة جادًّا ، أو هازلا ؛ فجدّه وهزله يجريان فى نطاقها ، ويلتزمان أدبها .

تَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ وَجَــدِّهِ ... مَخَايِلُ سَاوَى بَيْنَهَا الْفَرْعُ وَالْأَصْلُ (٤٩)

فَأَشْيَبُنَا فِى مُلْتَقَى الْخَيْلِ أَمْرَدُ ... وَأَمْرَدُنَا فِى كُلِّ مُعْضِلَةٍ كَهْلُ (٥٠)

لَنَا الْفَضْلُ فِيمَا قَدْ مَضَى . وَهْوَ قَائِمٌ ... لَدَيْنَا ، وَفِيمَا بَعْدَ ذَاكَ لَنَا الْفَضْلُ (٥١)

---

(٤٩) تلوح : تبدو ، وتظهر . و «عليه» : على «كلّ مشبوب الحميّة» فى البيت الرابع والأربعين . ومخايل : مشابه ، وآيات ، وعلامات . والمراد : مخايل مجد ونجابة . ومن كلامهم : «ظهرت فيه مخايل النجابة» : أى دلائلها ، ومَظِنّاتها . الواحدة مخيلة (بوزن مكيدة ومكايد) . وساوى بينها : سوّى بين المخايل : أى جعلها متساوية ، متماثلة . ويراد بالفرع : الأولاد ، والحفدة . ويراد بالأصل : الآباء ، والأجداد .

والمعنى : أنك ترى فى الرجل منا مخايل فضل ونجابة ، وأمارات نبل ومجادة ، ورثها عن أبيه وجدّه ، وأورثها أولاده وحفدته ، وهى متساوية متماثلة فى أصولنا وفروعنا .

(٥٠) أشيبنا : الشائب منا : وهو الشيخ إذا طعن فى السنّ ، وابيضّ شعره . والخيل : جماعة الأفراس . لا واحد لها من لفظها ، وإنّما المفرد فرس . وقد تطلق الخيل على الفرسان (بضم الفاء) : جمع فارس : وهو الحاذق الماهر فى ركوب الخيل واستخدامها . وملتقى الخيل : ساحات القتال ، وميادين الحرب والنزال . والأمرد الشابّ الذى طرّ شاربه : أى نبت ، ولم تنبت لحيته . والمعضلة : المشكلة الصعبة ، لا يهتدى لوجهها . من أعضل الأمر : أى اشتدّ ، وصعب ، واستغلق ، وخفى وجه صوابه . والكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ، وخطه الشيب ، أى خالطه ، ورأيت له بجالة ، أى عظمة ووقاراً .

والمعنى : أنك ترى الأشيب منا فى معامع القتال ، وساحات النزال كالشابّ فى نشاطه ، وفتوّته ، وحماسته ، وشجاعته ، وشدّة بأسه ، وقوّة مراسه .

وترى الشابّ منا حلاّلاً للمعضلات ، هادياً لأوجه المشكلات ، كأنه الشيخ حنّكته التجارب ، وحلب الدهر أشطره .

(٥١) الفضل ، والفضيلة : الخير ، والبرّ ، والدرجة الرفيعة فى حسن الخلق . وضدّهما النقص ، والنقيصة . وافتخاره بالفضل هنا : افتخار بالسبق ، والتفوّق ، والمحامد ، والمناقب ، والفضائل ، والمكرمات التى ترفع أصحابها إلى مراتب التحميد والتمجيد . وهو : أى الفضل . وقائم : ظاهر ، مستقرّ ، دائم ثابت . ولدينا : عندنا .

يقول : كان الفضل من شيم الماضين من آبائنا وأجدادنا ، وهو قائم مستقرّ فى الحاضرين منا ، وسيبقى ملازماً للآتين من أولادنا وحفدتنا .

والخلاصة أنهم أصحاب فضل تالد وطريف ، وأن الفضل باق لهم على مدى الزمان . وبهذا البيت ختم الشاعر هذه القصيدة الطويلة . ولخّص به تسعة عشر بيتاً نظمها فى مدح قومه والفخر بهم .

. . . ؟ . . . .

= وقبل هذا الغرض أطربته إقامته بحلوان. ثم وصف الخمر ، وتعلّق شاربيها بها . ثم استطرد لوصف النحل آمنة مغنّية مجتمعة الشمل ، ثم منزعجة مشتّتة لا يقرّ لها قرار . ثم انتقل إلى الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب فى واحد وعشرين بيتاً .

تلخيص وتعليق

فى تسعة الأبيات الأولى من هذه القصيدة الطويلة : أنّ الطرب هزّه ، فراح كالمخمور ، وجعل يصف الخمر ، ويبين آثارها . وفى الأبيات (٩ – ١٢) استطرد لوصف النحل ، روّعها مروّع ، فهاج ساكنها وعلا أزيزها . ثم انتقل إلى التشبيب بغادة حلوان فى الأبيات (١٣ – ٣٢) .

ومن البيت الثالث والثلاثين إلى نهاية القصيدة أطنب فى مدح قومه ، واعتزّ بهم ، وافتخر بكرمهم ، وشدّة بأسهم ، وكثير من محامدهم .

وفى البيت الأول يقول : إن حلوان أطربتْه ؛ فضبط حلمه طربه ، وعصمه من الجهل والطيش ، فلم يتجاوز نطاق الرزانة والوقار ، ولم تعاوده شرّة الشباب ونزوته. وهذا التفسير يرجّح أنه نظم هذه القصيدة فى شيخوخته ، ووقار سنّه ، بعد أن عاد من « سرنديب » فى سبتمبر سنة ١٨٩٩ ، ثم قصد إلى حلوان للاستشفاء فى حمّاماتها بمياهها الكبريتيّة الساخنة .

* * *

لم تتجاوز هذه القصيدة الطويلة ثلاثة من فنون الشعر وأغراضه ، هى الخمر ، والغزل ، والفخر . وغراميّات البارودىّ – فيما يبدو لنا – صور يتخيّلها ، أو حسان يجالسهنّ فى بعض ليالى أنسه ولهوه ؛ فتدفعه طبيعته الشاعرة المتدفّقة إلى التغزّل بهنّ ، وإن لم يتملّكه حبّ ، ولم يتوقّد فى نفسه غرام . وكذلك خمريّاته ؛ فإن الخمر لم تذهب بعقله يوماً ما ، كما لم يفتن الحبّ لبّه يوماً ما ؛ إذ كانت له فى حياته مطامح ومطامع ترفعه عن الاستئسار للهوى والغرام ، والإغراق فى الشراب واللهو ، والتمادى فى الخلاعة والمجون . وإنما هو الحرص على استيعاب أغراض الشعر ، وتقصّى فنون الكلام والولوع بمباراة الفحول فى كلّ ما طرقوه من الأبواب . أما فخره فكثيراً ما يجعله تعبيراً عما لا يرى التصريح به من آماله المتوثّبة فى نفسه ، كالذى تراه فى اللاميّة الأولى التى مطلعها .

قلّدتُ جيد المعالى حلية الغزل   وقلتُ فى الجدّ ما أغنى عن الهزل

بعنوان : «وقال يذمّ سيرة الحكّام ، ويحضّ الناس على طلب العدل فى الأحكام » .

وَقَالَ ، وَكَتَبَ بِهَا إِلَى الْأُسْتَاذِ الْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ «حُسَيْنٍ الْمَرْصَفِيِّ* » :

مَضَى اللَّهْوُ ، إِلَّا أَنْ يُخَبَّرَ سَائِلُ   وَوَلَّى الصِّبَا إِلَّا بَوَاقٍ قَلَائِلُ[1]

بَوَاقٍ تُمَارِيهَا أَفَانِينُ لَوْعَةٍ   يُؤَرِّثُهَا فِكْرٌ عَلَى النَّأْيِ شَاغِلُ[2]

---

* الشيخ حسين بن أحمد حسين المرصفىّ ، نسبة إلى « مرصفا » إحدى قرى مركز « بنها » بمحافظة القليوبيّة من البلاد المصرية : عالم ، لغوىّ ، أديب ، تعلّم فى الأزهر ، ونبغ فى علوم اللغة العربية وآدابها ، ثم تولّى تدريسها فى الأزهر ، ودار العلوم . وكان من أوائل أولئك الأفذاذ الذين ردّوا على اللغة العربية فى العصر الحديث ما كان لها من القوّة والبهاء فى العصر القديم . ومن تلاميذه وأصحابه الذين انتفعوا بفضله وأدبه : حفنى ناصف ، والبارودى ، وعبد الله فكرى. ومن مؤلفاته «الوسيلة الأدبية للعلوم العربية» جزءان فى مجلّدين . وكان ضريراً ، أى مكفوف البصر . توفى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩) م .

(١) اللهو : اللعب . وما لهوت به : أى شغلك من هوى ، وطرب ، ومتعة ، ولذّة ، ونحوها . ويخبّر (بالبناء للمجهول ، وتشديد الباء) : يُخْبَر ، ويُنبّأ ، ويجاب . خبّره ، وأخبره بكذا : أنبأه ، ونقل إليه الخبر ، أو حدّثه به . وسائل : مستخبر ، مستفهم، مستنبئ . وولّى : أدبر ، ومضى، وذهب ، وانقضى. والصبا (بكسر الصاد) : الحداثة، وصغر السنّ . ومنه الصبىّ : وهو الصغير ، دون الغلام . أو دون الفتى والشابّ . ويراد بالصبا هنا : الفتاء ، والشباب ، وما يلابسه ، ويدعو إليه من اللهو ، والمرح ، والمتع ، واللّذات . . . وبواق : جمع باقية . وقلائل : جمع قليلة . وفى الشطر الثانى من هذا البيت استثناء بـ « إلاّ » فى كلام تامّ موجب ، فالمستثنى ، وهو « بواق » واجب النصب . ونعته وهو « قلائل » واجب النصب كذلك . والإعراب الذى تقتضيه قواعد النحو : « وولّى الصبا إلاّ بَوَاقِيَ قَلَائِلَ » . هذا حكم المستثنى بإلاّ فى كلام تامّ موجب . ولكن بعض أئمة النحو يجيزون رفع المستثنى بإلاّ فى الكلام التامّ الموجب ، على تخريج « إلا » بمعنى « لكن » . وما بعدها مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير هنا : « لكن بواق قلائل لم تُوَلِّ » : أى لم تذهب . ومن هذا قول النبىّ — صلّى الله عليه وسلّم — « كلّ أمّتى معافى إلاّ المجاهرون» : أى لكن المجاهرون بالمعاصى لا يعافون : أى لا يسلمون من مغبّة معاصيهم .

يقول متحسّراً : انقضى عهد اللهو ، وانتهت لذّاته ، وذهبت بذهابه مسرّاته . ولم يبق منه إلا ذكريات أُجيب بها السائل وأُخبر المستخبر . ومضى الشباب وملاهيه وملابساته ، ولم يبق منه إلا بقيّة قليلة من آثاره وأخباره .

(٢) تماريها : تساورها ، وتثيرها ، وتذكيها . والممارة (فى الأصل) : المجادلة ، والمناظرة ، والمنازعة، والملاجّة . والأفانين: جمع أفنون (بوزن عصفور) : وهو النوع من الفن . وأفانين الكلام : =

فَلِلشَّوْقِ مِنِّى عَبْرَةٌ مُهَـــرَاقَةٌ وَخَبْلٌ ـ إِذَا نَامَ الْخَلِيُّونَ ـ خَابِلُ(٣)

أَلِفْتُ الضَّنَى إِلْفَ السُّهَادِ ،فَلَوْ سَرَى بِىَ الْبُرْءُ غَالَتْنِى لِذَاكَ الْغَوَائِلُ(٤)

= أساليبه. وطرقه . وأفانين اللّوعة : ضروبها ، وأنواعها ، واللوعة : الجزع ، والضجر ، واحتراق القلب من الحبّ والشوق ، أومن الهمّ والغمّ . ولوعة ذات أفانين: لوعات منوعة ، كثيرة . ويؤرّثها : يؤرّث: اللوعة : أى يوقد نارها ، ويؤجّجها ،ويُذْكيها ، والفكر: النظر فى الأمر ، وتأمّله ، وتدبّره، وإعمال الخاطر فيه . والفكر : إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . والنأى : البعد . و « على » هنا : بمعنى « مع » . أو بمعنى « فى » . أو بمعنى « لام التعليل » : أى مع النأى . أو فى حالة النأى . أو بسبب النأى ، ومن أجله . وشاغل : اسم فاعل من شغلته بكذا (من باب قطع) : أى جعلته مشغولا به منصرفاً إليه ، منكبّاً عليه .

فارق الشاعر أهله وأحبّاءه ؛ فجدّد الفراق حسراته ، وضاعف لوعاته، وشغلته فى نأيه الأفكار والوساوس .

(٣) العبرة (بفتح فسكون): الدمعة قبل أن تفيض وتسيل . ومهراقة :منصبّة جارية غزيرة . والخبل (بفتح فسكون ، أو بضم فسكون ، أو بفتحتين) : المرض الذى يؤثّر فى العقل والفكر . والفساد الذى يصيب الإنسان والحيوان ؛ فيورثه اضطراباً عقلياً كالجنون . ومثله الخبال والخبول . وإذا أرادوا المبالغة قالوا : خبل خابل، كما يقولون : شغل شاغل. والخليّون : جمع الخلى (بوزن الغنىّ): وهو الخالى من الوجد والهمّ ونحوهما . وضدّه الشجى . وفى المثل : « ويل للشجىّ من الخلىّ » . وفى الشعر : « نام الخليّون عن ليل الشجيّينا » .

والمعنى : أن الشوق برّح به حتى أبكاه وحرمه أمنة النعاس . وما زال به الأرق والوجد حتى اختبل عقله وذهب فؤاده . على حين أنّ الخليّين ينامون ملء جفونهم ، وينعمون بالعافية ، واجتماع الشمل، ورخاء البال .

(٤) ألفت الشىء إلفاً (من باب علم) : أنست به، وتعوّدته ، وأحببته ، وارتحت له ، وسكنت إليه .والضنى : المرض ، والهزال ، والضعف . وهى من الكلمات الدائرة على ألسنة شعراء الهوى والغزل . وأكثر ما تستعمل فيما يعقبه الوجد والحبّ ، والصبابة والشوق من الضعف والهزال . ضنى (كرضى) : مرض مرضاً مخامراً ، كلما ظن برؤه نكس . والسهاد : الأرق. وسرى الماء فى العود ، والدم فى العروق : دبّ وجرى ، وتسلسل . والبرء (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : الشفاء ، والسلامة من المرض . وغاله (من باب قال) : اغتاله، وأهلكه ، وأخذه من حيث لا يدرى . والغائلة : اسم فاعل منه . وجمعها =

فَلِلَّهِ هَذَا الشَّوْقُ ! أَىَّ جِرَاحَةٍ أَسَالَ بِنَا؟ حَتَّى كَأَنَّا نُقَاتِلُ(٥)

رَضِينَا بِحُكْمِ الْحُبِّ فِينَا ، وَإِنَّنَا لَلُدٌّ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْنَا الْجَحَافِلُ(٦)

= الغوائل. واللام فى « لذاك » : لام التعليل : أى من أجل سَرْىِ البرء فى جسمى وبسببه .

والمعنى: أنه تعوّد الضنى ، وأنس به ، وسكن إليه ، كما تعوّد الأرق ، وأحبّه ، وارتاح له ؛ ولهذا يحرص عليهما حرصه على سببهما ؛ وهو الشوق والصبابة ، والوجد والغرام . ويرى أن سراية البرء فى جسمه ، وإبلاله من الضنى والسهاد معناه أن يسلو أحبّاءه ، وينسى أخلاءه ، وتطيب نفسه بفراقهم . ومثل هذا السلوان يغتاله ، ويهلكه ، ويرديه ؛ كأنما يرى حياته وسلامته ، وهناءته وسعادته فى بقاء الحبّ وآثاره ، ودوام الشوق وأضراره .

(٥) لله كذا : أسلوب من أساليب التعجّب . ولله هذا الشوق : تعجّب من شدّته ، وحرارته ، وتبريحه ، وملازمته ، وآثاره ، واتّساع مداه . و «أىّ» : اسم استفهام ، مفعول به مقدّم وفعله « أسال » . وفاعله ضمير الشوق . ويراد بالاستفهام هنا : تأكيد معنى التعجّب فى صدر البيت . أو تهويل الجراحة ، والتنبيه على خطرها وشدّتها . والجراحة : الجرح . وجمعها جراح . وأسال بنا : المراد جرحنا ، وعمّق جرحنا ، وأسال بالجراحة دماءنا .

يعجب ، ويعجّب غيره من هذا الشوق الذى برّح به ، واشتدّ ، وجرحه جرحاً عظيماً عميقاً ، تصبّب منه الدم غزيراً ، حتى كأنها جراحات جلاد وقتال ، وكلوم حرب ونزال . وهذا كلّه تصوير حسّىّ لتبريح الشوق ، وشدّة أثره .

(٦) الحبّ (بضم الحاء وكسرها) : المحبّة ، والمودّة ، والحبّ (بكسر الحاء) : المحبوب . وجمعه أحباب . وحكم الحبّ : حكومته ، وقضاؤه ، وسيطرته ، وسلطانه . ولُدّ : جمع ألدّ : صفة من اللدد (بوزن التعب) : وهو شدّة الخصومة . ويراد بالألدّ هنا : القوىّ ، العنيد ، الشديد البأس فى الحرب والقتال . واللام المفتوحة الداخلة على «لدّ» : لام الابتداء . وهى هنا تفيد التوكيد . والتفّتْ علينا : اجتمعتْ علينا ، وأحاطت بنا . والجحافل : الجيوش الكثيرة . واحدها جحفل (بوزن جعفر) : وهو الجيش الكبير . والواو فى الشطر الأول : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية .

والمعنى : نحن فى الحبّ نرضى بحكم الحبيب ، ونخضع لسلطان الهوى . وفى الحرب نشتدّ على أعدائنا ، ونصمد لجحافلهم إذا أحاطت بنا ، وتجمّعتْ حولنا . وبصمودنا وقوة مراسنا تمزّق هذه الجحافل ، ونغلبها .

يريد أن انقيادنا لسيطرة الحبّ لا ينتقص قوّتنا وشجاعتنا وشدّة بأسنا فى القتال . وهوهنا ينظر إلى قول الشاعر : =

وَإِنَّا رِجَالٌ تَعْلَمُ الْحَرْبُ أَنَّنَا بَنُوهَا ، وَيَدْرِى الْمَجْدُ مَاذَا نُحَاوِلُ (٧)

إِذَا مَا ابْتَنَى النَّاسُ الْحُصُونَ ، فَمَالَنَا سُوَى الْبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ مَعَاقِلُ (٨)

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ ـل ، على أننا نذيب الحديدا

وترانا لدى الكريهة أحرا راً ، وفى السلم للحسان عبيدا

قدّم الشاعر خمسة أبيات تحسّر فى أوّلها على انقضاء أيام اللهو ، وذهاب زمن الصبا والشباب . ثم تحدّث عن ذكريات ، وبقايا قلائل من آثار ذلك الزمن وأخباره ما فتئت تلوعه وتضنيه ، وتؤرّقه وتبكيه ، وتؤجّج فى قلبه تباريح الشوق ، ولواعج الوجد ، وحرق الصبابة والغرام. وفى هذا البيت ختم حديث الحبّ وأحكامه ، وانتقل إلى الفخر ببعض مناقبه ومناقب قومه فى ثمانية أبيات .

(٧) بنوها : أبناؤها : جمع الابن . وتكنى العرب بابن كذا عن ملازمه : المتعلّق به ، المداوم عليه ؛ فابن الحرب : البطل الشجاع المرموق فى القتال . وابن السبيل : الملازم للأسفار . ويدرى : يعرف ، ويعلم . والمجد : العزّ ، والشرف ، والكرم ، والرفعة ، والعلاء . ونحاول : نروم ، ونريد ، ونطلب . حاول الأمر : أراد إدراكه وإنجازه . وحاوله : طلبه بالحيل .

والمعنى : أننا تمرّسنا بالحروب ، وألفناها ، وتعوّدنا أن نخوض غمارها بشجاعة وبأس شديد . وأن المجد يعرفنا ، ويعلم أننا على الدوام نحاول مكاسب الشرف ، ونروم معالى الأمور ، ونتعلق بها ، ونتّجه إليها ، ونحرص عليها .

(٨) ابتنى : بنى . والحصون : جمع حصن : وهو المكان الحصين المحمىّ المنيع الذى يصعب اقتحامه ، ويعتصم به المحاربون ، ليردّ عنهم أعداءهم . ومثله القلعة . وسوى : غير . والبيض : السيوف ومفردها أبيض . والسمر : الرماح : جمع الأسمر : وهو الرمح يسمرّ لونه إذا صلب . واللدان : اللينة ، المرنة فى صلابة وقوة . واحدها لدن (بوزن سهل) . واللدانة ، أو اللدونة من الصفات المستحسنة فى الرماح ، ومن أمارات جودتها . والمعاقل : الحصون ، والقلاع ، والملاجئ : جمع معقل (بوزن مسجد) .

يقول : إذا شيّد الناس الحصون والقلاع والمعاقل ؛ ليلجئوا إليها ، ويتمنّعوا بها ، فإننا لا نلجأ إلاّ إلى سيوفنا ورماحنا .

يفتخر بالشجاعة ، والبسالة ، والإقدام ، والهجوم فى الحروب ؛ فإن المعتمدين على أسلحتهم اليدويّة ، الظاهرين لأعدائهم — أشجع ، وأقوى ، وأشدّ بأساً ، وأجدر بالإعجاب والتقدير والفخر من المتحصنين بحصونهم ، اللائذين بمعاقلهم .

ويقرب من هذا المعنى قول الشاعر :

ولقد علمتُ — على توقّىّ الردى أن الحصون الخيلُ ، لا مدر القرى

فَمَا لِلْهَوَى يَقْوَى عَلَيَّ بِحُكْمِهِ ؟ أَلَمْ يَدْرِ أَنِّى الشَّمَّرِيُّ الْحُلَاحِلُ ؟(٩)

وَإِنِّى لَثَبْتُ الْجَأْشِ ، مُسْتَحْصِدُ الْقُوَى إِذَا أَخَذَتْ أَيْدِى الْكُمَاةِ الْأَفَاكِلُ(١٠)

---

(٩) «ما» : استفهامية . والاستفهام هنا للإنكار ، أو التعجّب . والهوى : الحبّ ، والعشق ، والغرام . ويقوى : يسيطر ، ويتسلّط . وحكمه : قضاؤه ، وسيطرته ، وسلطانه . والاستفهام فى أول الشطر الثانى للتقرير ؛ فإن الشاعر يريد أن يحمل الهوى على الإقرار له بأنه الشمّرىّ الحلاحل . وإذا ثبت له هذا واستقرّ كانت سيطرة الهوى عليه داعية إلى التعجّب والاستنكار والدهش . ويدرى : يعلم . والشمّرىّ (بفتح الشين والميم المشددة ، أو بكسرهما ، أو بضمهما ، أو بكسر ففتح) : الرجل المجدّ ، البصير ، المجرّب ، الماضى فى الأمور بإرادة قوية ، وعزم شديد . والحلاحل (بضم الحاء الأولى وكسر الحاء الثانية): السيد فى عشيرته ، والشجاع ، والرزين الوقور ، الركين فى مجلسه .

يستنكر ، أو يتعجّب من سيطرة الهوى عليه ، مع علمه وإقراره بعزّته وسيادته ، ووقاره ورزانته ، ومضاء عزمه ، وشدّة بأسه .

عاد الشاعر فى الشطر الأول من هذا البيت إلى حديث الهوى والحبّ ، وافتخر فى الشطر الثانى ، وفى أربعة الأبيات الآتية بمحامده ومناقبه وشدّة بأسه فى الحروب ، ثم استطرد للحكمة ، ومنها انتقل إلى الغرض الأساسىّ من هذه القصيدة ، وهو مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفىّ .

(١٠) ثبت : ثابت ، لا يلين ، ولا يتزعزع . والجأش : النفس ، والقلب . ورجل ثبت الجأش: شجاع ، جرىء ، مقدام ، ثابت القلب ، لا تهوله الأهوال . ومستحصد : مستحصف ، مستحكم ، مجتمع ، متضافر ، شديد ، متين . والقوى : جمع قوّة : أى قوّة العقل ، وقوّة الجسم ، وقوّة الإرادة ، وقوّة الرأى . . . وكلّ ما يبعث النشاط ، والنموّ ، والحياة ، والحركة من القوّات الطبيعية ، والحيويّة ، والعقليّة . والكماة : الشجعان ، البواسل ، المسلّحون : جمع كام (بوزن رام ورماة) : اسم فاعل من كمى نفسه (كرمى) : أى سترها بالدرع ، والبيضة ، ونحوهما من أنواع السلاح . ومثله الكمىّ (بوزن الغنىّ) : وهو لابس السلاح . والشجاع المقدام الجرىء ، ولو لم يكن عليه سلاح . والأفاكل : جمع أفكل (بوزن أحمد) : وهو الرعدة : أى اضطراب الجسم ، وارتعاشه ، وارتجافه ، وارتماده من فزع ، أو حُمَّى ، أو غيرهما . وأخذت الأفاكل أيدى الكماة : أى ارتجفت أيديهم ، وارتعدت أجسامهم ، واضطربت أفئدتهم ، وفزعوا أشدّ الفزع من أهوال المعامع ، وعنف القتال . و «أيدى» مفعول به ، منصوب بالفتحة الظاهرة على «الياء» . وإنما سكّنت هنا لضرورة وزن الشعر .

يفتخر برباطة جأشه ، وثبات جنانه ، واستحصاد قواه ، وشدّة بأسه فى ميادين الحرب والقتال ، وساحات الوغى والنزال إذا ارتعد الكماة ، وفزعوا من ضراوة الحرب وأهوالها .

إِذَا مَا اعْتَقَلْتُ الرُّمْحَ – وَالرُّمْحُ صاحِبِي عَلَى الشَّرِّ – قَالَ الْقِرْنُ : إِنِّيَ هَازِلُ[١١]

لَطَاعَنْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مِنْ مُطَاعِنٍ وَنَازَلْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ يُنَازِلُ[١٢]

(١١) الرمح : قناة، أو عصا مستوية، أو عود خشبيّ، يسوّى، ويركّب فى رأسه سنان حادّ قاطع من الحديد الصلب . يطعن به المرء عدوّه ، فيجرحه ، أو يقتله . واعتقل الرامح رمحه : أى وضعه بين الركاب والسرج . أو بين الركاب وساقه . أو جعل بعضه تحت فخذه ، وجرّ آخره على الأرض وراءه وهو ممتط جواده . وقد يكون المراد باعتقال الرمح هنا : مطلق حمله للطعان والقتال . والواو : واو الحال . والجملة الاسميّة بعدها حاليّة . و « الرمح صاحبى على الشرّ » : أى أن رمحه يصاحبه ويرافقه على الدوام فى الحرب والقتال . أو المعنى : أن رمحه هو الذى يعينه على مكافحة الشرّ ، وكسر شوكته ، وإخماد جذوته فى الحرب وغيرها . وقرنك : نظيرك : وكفؤك فى القتال وغيره . وهازل : اسم فاعل من الهزل : وهو المزاح . وضدّه الجدّ .

وإذا أريد باعتقال الرمح : مطلق حمله للطعان والقتال – كان معنى البيت : أنى إذا حملت رمحى ، جلتُ به فى الحرب جولات غاية فى الجرأة والشجاعة والإقدام ، وركبتُ الأخطار والأهوال ، لا أباليها ، ولا أهتمّ بها ، ولا أكترث لها . فإذا رآنى قرنى دهش لجرأتى ، وإقدامى على الموت فى غير مبالاة ولا اكتراث وظن أو قال : إنى هازل مازح غير جادّ ؛ وإنما حمله على هذا الظن أو القول ما رآه من إقدام عجيب غريب ، واندفاع نادر فى الحروب غير مألوف .

وإذا كان اعتقال الرمح : جعله بين الركاب والسرج ، أو بين الركاب والساق – كان المعنى : أن رمحى صاحبى وملازمى فى الحرب والقتال ، فإذا ما اعتقلته تهيّبنى مطاعنى ، وعجز عن مطاعنتى ، واعترف أنه هازل فى طعانه ، ومازح فى نزاله ، عابث غير جادّ : أى ألقى سلاحه مستسلماً استسلام العجز والقصور . هذا إذا ما اعتقلت رمحى ، فما بالك إذا ما اعتصمت به ، ووجّهته إلى قرنى مصوّباً ، أو مصعّداً ؟

أو المعنى : أنى لتمام ثقتى بنفسى ، وشدّة بأسى ، وطول تمرّسى بالحروب – أخدع قرنى باعتقال رمحى ، حتى إذا انخدع ، وظنّ أنى هازل فى الطعان غير جادّ ، سارعت إليه بالطعنة النجلاء ، والضربة القاضية .

(١٢) « اللام » المفتوحة فى أول هذا البيت واقعة فى جواب قسم . و « قد » مقدّرة بعدها : أى والله لقد طاعنت . وطعنه بالرمح ونحوه (من بابى قتل ، وقطع) : وخزه ، أو ضربه برأسه . وطاعنه مطاعنة وطعاناً : طعن كلّ منهما الآخر . ومطاعن : اسم فاعل منه . و « من » فى الشطر الأول زائدة . وزيادتها هنا لتوكيد مضمون الكلام ، وتوثيقه ، وإحكامه ، وتقريره . ونازله فى الحرب منازلة ونزالا : قابله وجهاً لوجه ليقاتله . واسم الفاعل منه منازل .

يفتخر بأنه طاعن ونازل ، وجالد وقاتل ، وحارب وضارب حتى فرّ أمامه مطاعنوه ، وانهزم منازلوه ، ولم يجد بعد هذا من يصمد له ، أو يقف فى وجهه ، أو يجرؤ على منازلته .

وَشَاغَبْتُ هَذَا الدَّهْرَ مِنِّى بِعَزْمَةٍ أَرَتْنِى سَبِيلَ الرُّشْدِ وَالْغَىُّ حَائِلُ (١٣)

إِذَا أَنْتَ أَعْطَتْكَ الْمَقَادِيرُ حُكْمَهَا فَأَضْيَعُ شَىْءٍ مَا تَقُولُ الْعَوَاذِلُ (١٤)

---

(١٣) الشغب : الخصام ، والجلبة ، وتهييج الشرّ ، وإثارة الفتن والاضطراب . وشاغبه : أكثر الشغب معه . وشاغب الدهر : شارّه ، وقاومه ، وكافحه ، وغالبه . والدهر : الزمان . والمراد : خطوبه ، ونوازله ، وشروره ، وشدائده . والعزمة : الإرادة القاطعة القوية ، والثبات والصبر فيما تعزم عليه : أى تعقد عليه ضميرك ، وتجدّ فيه ، وتمضى بلا تردّد ، ولا توقّف ، ولا انثناء . والرشد : الاهتداء ، والصلاح ، والاستقامة . وضدّه الغىّ ، والانحراف ، والضلال ، والجهل ، والفساد . وسبيل الرشد : طريقه الواضح المستقيم . وحائل : حاجز ، حاجب : اسم فاعل من حال الشىء بين الشيئين (من باب قال) : أى حجز ، واعترض . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية.

يفتخر بصلابة عزيمته ، وقوة إرادته ، وصبره وثباته فى الشدائد والملمّات ؛ وبهذا استطاع أن يكافح شرور زمانه ، ويقاوم حوادثه ، كما استطاع أن يستبين طريق الهدى والرشاد ، ويسلك مسالك الاستقامة والاعتدال ، على الرغم من حيلولة الغىّ والفساد ، وظلمات الجهل والضلال .

ختم الشاعر بهذا البيت حديث مفاخره ومفاخر قومه ، وانتقل فى سبعة الأبيات الآتية إلى الحكمة ، ومنها ينتقل إلى الغرض الأساسىّ من هذه القصيدة ، وهو مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفى فى ثمانية أبيات .

(١٤) المقادير : جمع مقدور : وهو الأمر المحتوم . من قدر الله الأمر على فلان : أى جعله له ، وحكم به عليه . أو هى جمع مقدار : من قولهم : الأمور تجرى بقدر الله ، ومقداره : أى بتقديره ، وحكمه ، وقضائه . ومعنى « أعطتك المقادير حكمها » : جرت أمور الحياة على ما تحبّ وتهوى ، وترغب وتتمنى . و « ما » فى الشطر الثانى : مصدرية ، تؤوّل هى والفعل الذى بعدها بمصدر : أى « قول العواذل أضيع شىء » . والعواذل : جمع عاذلة : اسم فاعل من عذله (من بابى نصر وضرب) : أى لامه .

والمعنى : إذا انقادت لك المقادير ، وجرت أمور الحياة على ما تحب وتهوى — فلوم اللائمات ضائع مهمل ، لا قيمة له ، ولا ينبغى أن يطاع .

ينهاه عن الاستماع لعذل العواذل إذا واتته المقادير ، وجرت الأمور على ما يشتهى ؛ لأن التأثر باللوم يقعده عن الإقدام والمضىّ ، وانتهاز الفرص السانحة المواتية لإصابة الأهداف العالية ، وتحقيق الآمال الواسعة .

والبيت الآتى يلقى على هذا البيت بعض الضوء .

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا أَنْ يَعِيشَ مُحَسَّدًا تَنَازَعُ فِيهِ النَّاجِذَيْنِ الْأَنَامِلُ(١٥)

لَعَمْرُكَ مَا الْأَخْلَاقُ إِلَّا مَوَاهِبٌ مُقَسَّمَةٌ بَيْنَ الْوَرَى ، وَفَوَاضِلُ(١٦)

---

(١٥) محسّد (بتشديد السين للكثرة والمبالغة) : اسم مفعول من التحسيد : أى الحسد : وهو أن تكره نعمة المحسود ، وتتمنى زوالها عنه ، وانتقالها إليك ، وتنازع : أصلها تتنازع ، ثم حذفتْ إحدى التاء ين للتخفيف : وتنازع القوم الشيء : تجاذبوه : أى جذبه كل واحد إلى نفسه . وفيه : فى المحسد : أى فى أمره وشأنه . أو بسببه . والنواجذ : أقصى الأضراس . وهى أربعة . وقد تسمى أضراس الحلم ، أو أضراس العقل . ومفردها ناجذ . والأنامل : رءوس الأصابع . واحدتها أنملة (بتثليث الهمزة والميم) : وهى المفصل الأعلى الذى فيه الظفر . وعضّ الأنامل بالناجذين أو بالنواجذ : كناية عن الغيظ والحسرة ، والحقد والندم . وفى التنزيل العزيز : « وإذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ » . وفى الشطر الثانى تصوير بليغ لتعاقب الأنامل على الناجذين ، وتوالى العضّ ، وتتابعه ، وكثرته . وفيه تأكيد ، وتجسيم وتمثيل لمعنى التحسيد ؛ فإن الحاسد محنق مغيظ .

والمعنى : لا قيمة للرجل إلا بأن يحيا حياة العظمة ونباهة الشأن ، ويقتعد غارب العلياء ، ويتسنّم ذروة المجد ، ويحوز النعم الكثيرة ؛ وبهذا يكثر حسّاده ، ويشتدّ حسدهم له ، ويستشعرون الحسرة والكمد ، ويعضّون عليه الأنامل من الغيظ .

(١٦) « لعمرك » : اللام المفتوحة للابتداء . وتفيد توكيد مضمون الجملة بعدها . وعمرك : حياتك والمعنى : أحلف ، أو أقسم بحياتك . والإعراب : « عمر » : مبتدأ مرفوع . وخبره محذوف وجوباً . والكاف : ضمير المخاطب فى محلّ جرّ مضاف إليه . والتقدير : لعمرك قسمى . أو لعمرك يمينى . والأخلاق : جمع خلق (بضمتين ، أو بضم فسكون) : وهو الطبيعة ، والغريزة ، والخليقة التى يخلق المرء بها ، ويفطره الله عليها . أو هو حال للنفس راسخة ، تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر ورويّة . أو هو القوى والسجايا المدركة بالبصيرة وفى القرآن الكريم : فى التنويه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . أما الخلق (بفتح فسكون) : فإنه الهيئا ت ، والأشكال ، والصور المدركة بالبصر . والمواهب : العطايا ، والهدايا ، والهبات . الواحدة موهبة . والورى : الخلق ، والناس . والفواضل : الدرجات الرفيعة فى الفضل ، والهبات ، والأيادى ، والنعم ، والعطايا ، وأعمال البرّ والخير والإحسان . الواحدة فاضلة .

والمعنى : أن الأخلاق الكريمة ليست إلا هبات يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويقسمها بينهم بحسب إرادته وحكمته . وفى القرآن الكريم : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

أو المعنى : أن الإنسان لا يعدّ متحلّياً بالأخلاق الفاضلة العظيمة إلا إذا كان سخيًّا كريماً معطاء ،=

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَادِحَانِ : فَعَالِمٌ ... يَسِيرُ عَلَى قَصْدٍ ، وَآخَــرُ جَاهِلُ(١٧)

فَذُو الْعِلْمِ مَأْخُوذٌ بِأَسْبَابِ عِلْمِهِ ... وَذُو الْجَهْلِ مَقْطُوعُ الْقَرِينَةِ جَافِلُ(١٨)

فَلَا تَطْلُبَنْ فِي النَّاسِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... مِنَ الْوُدِّ ؛ أَمُّ الْوُدِّ فِي النَّاسِ هَابِلُ(١٩)

=واسع المروءة ، عظيم البرّ ، كثير الإحسان ، يقسم بين الناس مواهبه وفواضله ، ويعمّهم بإقباله وسماحته .

وصلة هذا البيت بالذى قبله أن المحسّد ين هم عظماء الناس وأفاضلهم . « إنما يحسد العظيم ويشنا ».

(١٧) كادحان : مثنى كادح : اسم فاعل من كدح (كمنع) : أى كدّ ، وعمل ، وسعى ، ودأب وجهد نفسه . والقصد : الرشد ، والهدى ، والصلاح ، واستقامة الطريق . وضدّه الإفراط ، والتفريط ، والغى ، والضلال ، واعوجاج الطريق .

والمعنى : إنما الناس عاملا ن جاهدان : أحدهما عالم يهتدى بعلمه ، ويستضىء بعرفانه ، ويتحرّى الرشد ، ويتوخّى الصلاح والقصد. والآخر جاهل يعسف الظلماء ، ويخبط خبط عشواء ، وتتفرّق به السبل ، وتلتوى عليه الأمور ، ويتردّى فى المهالك .

والبيت الآتى يفصّل هذا المعنى ، ويزيده ، ويوضحه ، ويؤكّده .

(١٨) ذو : صاحب . وذو العلم : العالم . وذو الجهل الجاهل . والأسباب : جمع سبب : وهو الحبل . وكل شىء يتوصّل به إلى غيره . والسبب : القرابة . والمودّة . ويقال: مالى إليه سبب : أى طريق . و« مأخوذ بأسباب علمه» :يأخذ الناس بأسباب علمه ، ويهتدون بهدْيه ، ويتودّدون إليه ، ويتّصلون به اتصال المتعلّم بالمعلّم ؛ فبينه وبينهم صلات ، وروابط ، ومودّات ، وتعاون وثيق على البرّ والخير ، والهدى والرشاد . والقرينة : النفس. والقرينة : مؤنث القرين: وهو المقارن والمصاحب والعشير. وجافل : اسم فاعل من جفل البعير ونحوه (من بابى جلس وقعد) : أى ندّ ، ونفر ، وشرد ، وحاد عن الطريق . أو فزع ، وانزعج .

عرض صورتى العالم والجاهل ؛ ليظهر ما بينهما من مضادة ، وتناقض ، وتباين ، واختلاف شديد ؛ فالعالم متصل بالناس ، ينتفعون بعلمه ، ويهتدون بهديه ، ويسلكون طريقه ، ويتوددون إليه ، ويعقدون بينهم وبينه أوثق الصلات ، وأشرف العلاقات .

والجاهل شتّى بجهله ، منقطع عن الناس ، كالبعير يند ، ويشرد ، فلا يلبث أن يضل ، وينفرد ، وتتقطع به الأسباب ، وتلتوى عليه الأمور ، وتستبهم أمامه السبل .

(١٩) المثقال : ما يوزن به : مفعال من الثقل . ومثقال الشىء : ميزانه : أى مثله فى وزنه . وفى القرآن الكريم : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » : أى زنة ذرة . والذرة : واحدة الذر : وهو صغار النمل . والهباء المنتشر فى الهواء . وما يرى فى شعاع الشمس الداخل من النافذة . والذرة (فى علم الطبيعة) : أصغر جزء فى عنصر ما ، يصح أن يدخل فى التفاعلات الكيمياوية . والود (بتثليث الواو) : المودة والمحبة .=

مِنَ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى الْفَتَى غَيْرَ طَبْعِهِ وَأَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ مَنْ لَا يُشَاكِلُ (٢٠)
بَلَوْتُ ضُرُوبَ النَّاسِ طُرًّا ، فَلَمْ يَكُنْ سِوَى «الْمَرْصَفِيِّ» الْحَبْرِ فِي النَّاسِ كَامِلُ (٢١)

=وهابل : اسم فاعل من هبلته أمه (من باب فرح) : أى ثكلته ، وفقدته . و « أمّ الودّ فى الناس هابل » : أمّ الودّ ثكلى ، والودّ مهبول : أى مثكول ، مفقود ، لا وجود له بين الناس .

استيئس الشاعر ، وأيئس غيره من مودّات الناس وتراحمهم ، قائلاً : إن محاولاتك فى هذا الشأن غير مجدية ، ولو كان ما تحاوله قليلاً ضئيلاً غاية فى القلّة والضآلة ؛ لأنك إنما تحاول شيئاً مفقوداً لا وجود له .

والبيت ينمّ على جوّ نفسىّ قاتم قد يحيط بالمرء إذا جفاه أخلاّؤه ، وتنكّر له أودّاؤه . ولعلّ صلته بالذى قبله شيوع الجهل فى الناس ، وأن الجاهل الجافل لا يرتجى ودّه ، ولا يطمع فى خيره .

وفى هذا البيت وغيره من خمسة الأبيات السابقة شبه تمهيد للغرض الأساسىّ من هذه القصيدة ، وهو المديح فى ثمانية الأبيات الأخيرة .

(٢٠) العار : العيب ، والسبّة ، وكلّ قول ، أو فعل يشين صاحبه ، ويعيبه ، ويُعَيَّر به . والطبع والطبيعة : الخليقة ، والسجيّة ، والجبلة التى جبل الإنسان عليها : أى فطر عليها ، وخلق . وصحبه يصحبه (من باب سلم) : صاحبه ، وعاشره ، ورافقه ، ولازمه . وشاكله يشاكله : وافقه ، وماثله ، وشابهه .

وصلة الشطر الثانى بالشطر الأول : أن الذى يصاحب من لا يشاكله راض غير طبعه ، متكلف ماليس فى خليقته ، منقاد لغيره ، مفرّط فى عزته وكرامته . وهذا كلّه مما يعاب عليه ، ويعيّر به .

والمعنى : اظهر للناس على حقيقتك ، وحافظ على شخصيتك ، وتحلّ بالشجاعة الأدبية ، وكن جريئاً ، واضحاً ، صريحاً ، ولا تصاحب إلا من يماثلك وتماثله .

وفى البيت نهى ضمنى عن الملق والرياء والنفاق ، والتذلل المتصنّع ، والخضوع الممقوت ، والتفريط فى العزة والكرامة .

ختم الشاعر بهذا البيت سبعة أبيات أجراها مجرى الحكم والأمثال . ويبدو فى بعضها ، أو فى أكثرها التمهيد للغرض الأصلى من هذه القصيدة ، وهو مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفى ؛ فهو عالم جليل فاضل ، كريم الأخلاق ، سار فى حياته على قصد ، وعمّ تلاميذه وأصدقاءه وقُرّاءه بأدبه وعلمه وفضله .

وفى البيت الآتى إلى آخر هذه القصيدة مديح وإطراء وحسن ثناء .

(٢١) بلاه : اختبره ، وجربه ، وامتحنه . (وبابه عدا) . وضروب الناس : أجناسهم ، وأنواعهم ، وأجيالهم . وطرا : جميعاً . ولم يكن : لم يوجد : مضارع « كان » التامة التى تكتفى بمرفوعها : أى فاعلها ، ولا تحتاج إلى خبر . ومعناها : حدث ، ووقع ، وحصل ، ووجد . وفاعلها هنا : « كامل » فى نهاية البيت : أى فلم يوجد فى الناس كلهم رجل كامل سوى « المرصفى » الحبر . والحبر : العالم . أو الصالح . =

هُمَامٌ أَرانِى الدَّهْرَ فِى طَىِّ بُرْدِهِ وَفَقَّهَنِى حَتَّى اتَّقَتْنِى الْأَمَاثِلُ(٢٢)

أَخٌ حِينَ لَا يَبْقَى أَخٌ ، وَمُجَامِلٌ إِذَا قَلَّ عِنْدَ النَّائِبَاتِ الْمُجَامِلُ(٢٣)

بَعِيدُ مَجَالِ الْفِكْرِ ، لَوْ خَالَ خِيلَةً أَرَاكَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الدَّهْرُ فَاعِلُ(٢٤)

= يقول : إنه اختبر الناس ، وجرّبهم على اختلاف أجناسهم وأجيالهم ، فلم يجد فيهم رجلاً جمع المناقب ، وحميد الأعمال ، وشرف الخلال والخصال سوى « المرصفى » العالم الصالح .

(٢٢) همام : عظيم الهمّة ، قوىّ العزم ، سيّد ، شجاع ، سخىّ . والدهر : العصر ، والزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدّة الحياة الدنيا كلّها . ودهر فلان : مدّة حياته فى الدنيا ، والزمن الذى عاش فيه . ومن معانى الدهر : الهمّة ، والإرادة ، والغاية . والبرد : ثوب مخطّط . أو هو كساء مخطّط يلتحف به . وجمعه أبراد ، وبرود . أو هو أكسية من الصوف الأسود ، يلتحف بها . الواحدة بردة . وفى طىّ برده : فيما انطوت عليه ثيابه : كناية عن شخصه . وأرانى الدهر فى طىّ برده : أرانى حُنْكة الدهر ، وتجاربه ، وخبراته . أو أرانى فى شخصه الهمّة العالية ، والإرادة القويّة ، وغاية الفضل ، أو غاية ما كنت آمله وأرتجيه . وفقّهنى : علّمنى ، وأفهمنى . أو صيّرنى فقيهاً . والفقيه : العالم الفطن . واتّقاه : توقّاه ، وحذره ، وخشيه ، وخافه . وأماثل القوم : خيارهم ، وأفاضلهم ، وشرفاؤهم . جمع الأمثل : اسم تفضيل من مثل مثالة (من باب ظرف) : أى فَضُلَ : أى اتصف بالفضيلة : وهى الدرجة الرفيعة فى حسن الخلق ، وكرم الشمائل . واتّقتْه الأماثل : تهيّبوه ، وأجلّوه ، وأكبروه ، وعظّموه لفقهه ، وعلمه ، وفطنته ، وعظيم مزاياه .

مدح صديقه وأستاذه الشيخ حسيناً المرصفىّ بعظم الهمّة ، وقوّة الإرادة ، وواسع الخبرة ، والكرم والسيادة . وأحسن الثناء على ما استفاده من فقه الممدوح وعلمه ، وفهمه ، ومعارفه وتجاربه . وقد بلغ الشاعر من هذا كلّه درجة رفيعة ، ومرتبة عالية ، حتى تهيّبه وعظّمه خيار الناس وأفاضلهم .

(٢٣) الأخ : الصديق . وفى المثل : « إن أخاك من آساك » . و « رب أخ لك لم تلده أمّك » . ومن كلامهم : « إخوان الوداد أقرب من إخوة الولاد » . وجامله مجاملة : أحسن عشرته ، وعامله بالجميل : أى بالإحسان ، والبرّ ، والخير ، والمعروف . ومجامل : اسم فاعل من المجاملة . والنائبات : النوازل ، والشدائد والخطوب ، والمصائب . الواحدة نائبة .

يقول : إن الممدوح أخ ، وصاحب ، وصديق صادق الودّ ، حسن العشرة ، مجامل ، برّ ، كريم ، خيّر ، مواس ، وبخاصّة فى الشدائد والملمّات التى يتفقّد فيها المرء كثيراً من إخوان الصفاء والرخاء فلا يجد منهم أحداً .

(٢٤) مجال : اسم مكان ، أو مصدر ميمىّ من جال فى المكان (من باب قال) : أى طاف ، ودار . =

طَرَحْتُ بَنِى الْأَيَّامِ لَمَّا عَرَفْتُهُ وَمَا النَّاسُ عِنْدَ الْبَحْثِ إِلَّا مَخَايِلُ(٢٥)

فَلَوْ سَامَنِى مَا يُورِدُ النَّفْسَ حَتْفَهَا لَأَوْرَدْتُهَا ؛ وَالْحُبُّ لِلنَّفْسِ قَاتِلُ(٢٦)

= والفكر : إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . ومن كلامهم : « لى فى الأمر فكر » : أى نظر وروية . وخال الإنسان الشىء يخاله خيلا (من باب نال) وخيلة (بفتح فسكون ، أو بكسر فسكون) : ظنه وخمنه . والظهر : ما غاب عنك : وهو معنى « الغيب » . وإضافة « ظهر » إلى « الغيب » من إضافة الشىء إلى مرادفه للتأكيد ، كنسيم الصبا . وحق اليقين . وجنة الفردوس . ومن كلامهم : « تكلمتُ به عن ظهر الغيب » و« قرأ القرآن عن ظهر قلبه » : أى مِنْ حِفْظِه ، لا من المصحف . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها . أو مدة العالم من مبدإ وجوده إلى انقضائه . ويراد بالدهر هنا : الزمن مطلقاً . وقد نسب الشاعر الفعل إلى الدهر على عادة العرب؛ فإنهم يُسْندون الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز .

والمعنى : يفكّر الممدوح تفكيراً عميقاً ، واسع الأفق ، بعيد الغاية . وإذا ظن ظنّاً ، أراك بهذا الظن ما يكون فى مستقبل الزمان ، وأطلعك على المغيب الذى لا يستطيع إدراكه ، أو التنبؤ به إلا ذو الفكر الثاقب ، والظن الصادق ، والفراسة الصائبة ، والفطنة الفائقة، والخاطر الباهر ، والرأى السديد ، والنظر البعيد .

(٢٥) طرحه : رماه ، وألقاه ، وأبعده ، ونحّاه . وبنو الأيام : الناس . والمخايل : جمع مخيلة (بوزن معيشة ومعايش) : وهى الظن . أو المظنة : أى المكان الذى يظن وجود الشىء فيه .

ومعنى الشطر الثانى أنك — مع طول البحث والتفتيش ، والاجتهاد ، والتدقيق فى تَعَرُّف طبائع الناس ، وأخلاقهم ، وسرائرهم ، وما انطوت عليه نفوسهم — لا تستطيع عرفانهم إلا فى نطاق الظن والحدس والتخمين ؛ فإنهم مظانّ لأمور وأحوال كثيرة خفية متباينة متناقضة . وصلته بالشطر الأول : أن الشاعر عرف ممدوحه معرفة صحيحة يقينية ، وتبين له فضله ، وبره ، ووفاؤه ، وصدق وداده .

عرف الشاعر ممدوحه معرفة صحيحة صادقة ؛ فآثره بوده ، وأفرده بصحبته ، واستغنى بفضله عن غيره من الناس .

(٢٦) سامه كذا (من باب قال) : جشّمه إياه ، وطلبه منه ، وأراده عليه . والحتف : الردى ، والهلاك ، والموت . ويورد النفس حتفها : يسوقها إلى الهلاك . والأصل : « أوردتُ الإبل وغيرها الماء » : أى أوصلتُها إليه ، وبلّغتُها مورده . ومن المجاز : « أورده المهالك » : أى دفعه إليها ، وأوقعه فيها .

أخلص الشاعر لممدوحه المحبة والمودة ، واشتد إقباله عليه ، وتعلقه به ، وانطياعه له ، حتى بلغ الغاية فى هذا كله ؛ فلو كلفه الممدوح أمراً يورده موارد التهلكة لأقدم عليه بلا تردد أو توان، ولو كان فيه حتفه وهلاكه .

=

فَلَا بَرِحَتْ مِنِّى إِلَيْهِ تَحِيَّـةٌ تَنَاقَلُهَا عَنِّى الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ(٢٧)

وَلَا زَالَ غَضَّ الْعُمْرِ، مُمْتَنِعَ الذُّرَا مَرِيعَ الْفِنَا، تُطْوَى إِلَيْهِ الْمَرَاحِلُ(٢٨)

= والجملة الاسمية فى آخر البيت : تذييل يوضح ما قبله ، ويؤكّده ، ويزيل ما قد يثيره من الدهش ، أو العجب ، أو تهمة التزيّد والمغالاة ؛ فإن الحبّ الأخوىّ الروحىّ الصحيح الخالص الصادق قد يقتل المحبّ ويرديه .

(٢٧) لا برحتْ : لا زالتْ : أى بقيتْ ، واستمرّتْ . والتحيّة : السلام . والدعاء بالحياة ، وطول العمر . وتناقلها : أصلها « تتناقلها » . ثم حذفتْ إحدى التاءين تخفيفاً . ومعناها : تتجاذبها ، وتتنازع نقلها عنى إلى الممدوح ؛ فالتناقل هنا : التنازع ، والتجاذب ، والتنافس فى نقل تحية الشاعر إلى ممدوحه . أو هو من قولهم : تناقل القوم الحديث بينهم : أى نقله بعضهم عن بعض ؛ فالضحى تنقل التحية عن الأصائل ، والأصائل تعود فتنقلها عن الضحى ، وهكذا دواليك . وهو تأكيد لمعنى الاستمرار فى الشطر الأول . والضحى : جمع ضحوة : وهى وقت إشراق الشمس ، وانبساطها ، وارتفاع النهار ، أو امتداده . والأصائل : جمع الأصيل : وهو الوقت حين تصفرّ الشمس قبيل غروبها . أو هو الوقت بين العصر والمغرب . أو هو العشىّ . ويراد بالضحى والأصائل هنا : كلّ أوقات النهار والليل .

حيّا الشاعر ممدوحه تحيّة تبقى وتتجدّد ما بقى الجديدان .

(٢٨) « لا زال » : من أفعال الاستمرار . ومثله « لا برحتْ » فى البيت السابق . وغضّ : ناضر ، ناعم . والعمر : الحياة ، والمعيشة . وغضاضة العمر : نضارة الحياة ، ورقّتها ، ونعومتها ، ورفاهتها ، وصفاؤها . وإشراقها . وممتنع : منيع حصين . والذرا : (بضم الذال) : جمع ذُرْوة : وهى من كلّ شىء أعلاه . أو هو الذرا (بفتح الذال) : لكلّ ما استترتَ به ، وأويتَ إليه ، تقول : أنا فى ذرا فلان : أى فى كنفه ، وظلّه ، وستْره ، وحماه . ومريع : مُمْرِع ، خصيب ، كثير الكلأ والمرعى . والفناء ممدود (وقصر هنا لضرورة وزن الشعر) : الساحة ، والوصيد : وهو سعة فى وسط الدار ، أو أمامها أو بجانبها . وامتناع الذرا : كناية عن العزّة والمنعة . ومَرَع الفناء : كناية عن رفاهة العيش ، وبسطة الرزق . والمراحل : جمع مرحلة (بوزن مرتبة ومراتب) : وهى المسافة التى يقطعها المسافر على الإبل فى نحو يوم . والطىّ (فى الأصل) : ضدّ النشر . ومن المجاز : « طوينا إليه المراحل » : أى سلكناها ، وقطعناها مرحلة بعد مرحلة . وتُطْوى إلى الممدوح المراحل : أى يُسافر إليه من الجهات النائية ، والأقطار البعيدة . وهذا إنما يكون للعظيم الكريم ، النابه الشأن ، الرفيع القدر ، الذاهب صيته فى الناس ؛ فهم يقصدونه من أقاصى البلاد معتفين ، طالبين علمه ، وأدبه ، وفضله ، ومعروفه .

دعا للممدوح باستمرار نضارة الحياة وغضارتها ، وطول العمر وازدهاره ، ودوام العزّة والمنعة ، وسموّ =

وَقَالَ فِى الْفَخْرِ :

عَصَيْتُ نَذِيرَ الْحِلْمِ فِى طَاعَةِ الْجَهْلِ ... وَأَغْضَبْتُ فِى مَرْضَاةِ حُبِّ الْمَهَاعَقْلِى (١)

= المنزلة ، ورفعة القدر ، وخصب الجناب ، وسعة الرحاب ، وشيوع فضله فى الناس ؛ فهم يعتمدون عليه ، ويقصدون من أقاصى البلاد إليه .

* * *

جاءت هذه اللامية فى ثمانية وعشرين بيتاً : منها مقدمة ، أو شبهها فى خمسة أبيات ، شكا فيها الشاعر ما يعانيه فى بعده من الشوق إلى أحبائه ، ومايلابس هذا الشوق عادة من الضنى والسهاد. ثم انتقل إلى الفخر بقومه وبنفسه فى ثمانية أبيات . ثم عرّج على الحكمة ، فنظم فيها سبعة أبيات ، ومنها انتقل إلى مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفىّ فى ثمانية أبيات .

* * *

وقد نشر الممدوح هذه القصيدة فى كتابه « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » الجزء الثانى . صفحة ٥٠١ طبعة سنة ١٢٩٢ هـ ، بمطبعة المدارس الملكية ، بدرب الجماميز ، بالقاهرة .

ولم تخالف رواية «الوسيلة الأدبية» أصل الديوان إلا فى كلمتين : إحداهما فى الشطر الثانى من البيت الثانى والعشرين : « اتفاقى » . والأخرى فى الشطر الثانى من البيت السابع والعشرين : « يناقلها » . وفى صفحة ٥٠٢ عقّب الشيخ حسين المرصفىّ بقوله : « وعلى أن ليس من طبعى أن أقول الشعر . . أنطقنى حبه بأبيات أجملت فيها صفته ، وهى :

زكا أميرى طبعاً ، واعتلى شرفاً ... فدار حيث تدور الشمس والقمر
ونال مانال عن كدّ الرجال ، فلا ... منّ عليه لشخص حين يفتخر
بفضله كل أهل الأرض معترف ... كما تصادق فيه الخبر والخبر
لا يجهل الرتبة العلياء يعمرها ... ولا يتيه بها ما أعظم الخطر
صحبته وهو سرّ فى مخايله ... حتى تخيم من إعلانه الكبر
فما أخذت عليه شبه بادرة ... ولا تخيلت أمراً منه يعتذر
أدامه الله نقى من فضائله ... ومن فواضله ما أنبت الشجر

(١) النذير : المنذر. والنذير أيضاً : الإنذار: وهو الإعلام ، مع التخويف ، والتحذير والتنبيه على سوء العاقبة . والحلم : العقل ، والوقار ، والأناة ، والصبر . وضدّه الجهل: وهو السفه ، والنزق ، والخفة =

وَنَازَعْتُ أَرْسَانَ الْبَطَالَةِ وَالصِّبَا إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَأْتِهَا أَحَدٌ قَبْلِي (٢)

=والطيش . ويراد بالجهل هنا: جهل الفتوّة، وخفّة الشباب ، وما يميل إليه الشبّان عادة من الصَّبْوة، والهوى ، والمرح ، والطرب ، واللهو ، والعبث . ومرضاة: مصدر بمعنى الرضا . والمها : البقر الوحشىّ ، تشبّه به حسان النساء فى جمال العيون ، وحسن اتّساعها. الواحدة مهاة (بوزن قناة وقنا) و « فى » فى الشطرين: للسببيّة : أى التعليل، كما فى قول الله تبارك وتعالى: « قالت: « فذلكنّ الذى لُمْتُنَّنى فيه » . أى عَصَيْتُ نذير الحلم من أجل طاعة جهلى ، وأغضبتُ عقلى بسبب مرضاة الحبّ . أو هى للظرفية فيهما : أى عصيت نذير الحلم فى سبيل طاعة الجهل ، وأغضبت عقلى فى سبيل مرضاة الحب .

والمعنى : أنه خلع عذاره؛ فانقاد لجهل الصبا ، وأطاع لهو الشباب، ولم يَأْبَهْ بحلمه حينما أنذره، وحذّره ، وبصّره بوخامة العُقْبَى ، وسوء المصير . ومن الانهماك فى الغىّ أنه أحبّ الحسان، وأرضى هواه بمغازلتهنّ ، والصبوة إليهنّ مغضباً عقله حينما دعاه إلى الرشد ، وحضّه على السلوان ، فخالفه وعصاه.

(٢) نازعته الثوب ونحوه : جاذبته إيّاه : أى جذبه كلّ منا إلى نفسه . ويلاحظ أن الفعل « نازع » يتطلّب مفعولين . وتقدير الكلام هنا : ونازعت البطالة والصبا أرسانهما . والمراد أنه انقاد لدواعيهما ، وانطلق فى مجالهما انطلاقاً بعيد المدى ، لا يحدّه وازع ، أومانع ، أو ضابط ، أو زاجر. والأرسان : جمع رسن (بوزن سبب وأسباب) : وهو حبل يشدّ على أنف البعير ونحوه ، ليقاد به . ومثله الزمام ، والمقود . والبطالة (بتثليث الباء) : مصدر بطل العامل: أى تعطّل ، وبقى بلا عمل . ويراد بالبطالة هنا : ما يلابسها عادة من المجون ، واللهو ، والجهل الذى أشار إليه الشاعر فى البيت السابق . والصبا (بكسر الصاد) : جهلة الفتوّة : أى لهو الفتيان ، وعبثهم. أو هو الشوق والحنين . ويراد به هنا : الحنين إلى الغوانى ، والتعلّق بهنّ ، بدليل البيت الآتى . أو هو الصغر والحداثة . ويراد به مرح الحداثة ولهوها . والصبا (بفتح الصاد) : مصدر صبى (من باب صَدِىَ) : أى فعل أفعال الصبيان. أو مال إلى المرأة، وحنّ إليها وتشوّق . وفى بعض المعجمات : صبا إليها يصبو صبواً (بفتح الصاد) : مال إليها وتعلّق بها .

جعل الشاعر البطالة والصبا أفراساً أو نحوها ، امتطاها ، وجاذبها مقاودها: أى حملها على الجرى والإسراع إلى غاية بعيدة، لم يصل إليها أحد قبله .

والمراد : أنه ركب الهوى ، وانقاد لدواعيه انقياداً بعيد المدى ، حتى بزّ الخلعاء المتبطّلين ، وسبق اللاهين المتهتكين .

وليس من الضرورىّ أن تكون هذه صورة صحيحة لحياة الشاعر فى شبابه ؛ فإن البارودى أولع بمحاكاة=

فَخُذْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِ لَوْمِى ؛ فَإِنَّنِى بِحُبِّ الْغَوَانِى عَنْ مَلَامِكَ فِى شُغْلِ (٣)

إِذَا كَانَ سَمْعُ الْمَرْءِ عُرْضَةَ أَلْسُنٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ لِلْخَدِيعَةِ وَالْخَتْلِ (٤)

رُوَيْدَكَ ، لَا تَعْجَلْ بِلَوْمٍ عَلَى امْرِئٍ أَصَابَ هَوَى نَفْسٍ ؛ فَفِى الدَّهْرِ مَا يُسْلِى (٥)

= فحول الشعراء ، واستيعاب ما عرف قبله من فنون الشعر وأغراضه ؛ ومنها شعر اللهو والخلاعة ، والمجون .

(٣) أخذ فى كذا ، وأخذ يفعل كذا : شرع فيه ، وبدأ . والغوانى : جمع غانية : وهى المرأة الغنيّة بحسنها وجمالها عن الحلى والزينة . وشغله الشىء (من باب قطع) : لهّاه ، وصرفه. وشغلت عنه بكذا : تلهّيت به عنه ، وانصرفتُ . والاسم الشغل (بضم فسكون ، أو بضمتين) .

والمعنى : فى استطاعتك أن تخوض معى فيما شئت من الأخبار والأقوال والأحاديث إلاّ حديث لومى وعذلى ، ومحاولة صرفى عن الهوى والغرام ؛ فإنها محاولة مخفقة غير منتجة ، وحديث لا جدوى فيه ، ولا فائدة منه ، ولن يجد منى سمعاً صاغياً ، ولا قلباً واعياً ؛ فقد شُغِل عن سماع الملامة بحبّ الحسان الغانيات.

وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين واضحة وثيقة ؛ فقد أرضى الشاعر حبّه وهواه ، وأغضب عقله وحلمه ، وانطلق فى مجال اللهو والبطالة انطلاقاً بعيد المدى ، وشغله تعلّقه بالغانيات عن الاستماع لعذل العاذلين ، ولوم اللائمين .

(٤) جعله عرضة لكذا : نصبه له هدفاً تسهل إصابته ؛ وجعل سمعه عرضة للألسن : استمع لعذل العاذلين ، وتأثّر بلوم اللائمين . والألسن : جمع لسان؛ ويراد به هنا : الكلام والقول : أى قول العاذلين وكلامهم . و«هو» : أى المرء ، أو سمعه . والخديعة : اسم من خدعه (من باب قطع) : أى أظهر له خلاف ما يخفيه ، وألحق به الضرر والمكروه من حيث لا يعلم . ومثلها الختل : مصدر ختله (من بابى ضرب وقتل) : أى خدعه ، وتغفّله .

يقول : إن الإنسان يقع بسهولة فى حبائل الخادعين الخاتلين إذا هو استمع لكلّ قول يلقى إليه .

يريد : إذا استمع العاشق لعذل العاذلين ، فإنما يستمع للخديعة والختل ، والمكر والدهاء ، والتضليل والإفساد ؛ وهو بهذا يؤكّد ما قرّره فى البيت السابق من شدة تعلّقه بالغانيات ، وشدّة انصرافه عن العذل والملامة .

(٥) رويدك : تمهّل ، واتئد ، وتأنّ ، وترفّق . و «لا تعجل» : تأكيد لمعنى «رويدك» . وأصاب الشىء : وجده ، وأدركه . والهوى هنا : المهوى : أى المحبوب المعشوق. وأصاب هوى نفس : =

فَلَيْسَتْ بِعَارٍ صَبْوَةُ الْمَرْءِ ذِي الْحِجَا إِذَا سَلِمَتْ أَخْلَاقُهُ مِنْ أَذَى الْخَبْلِ (٦)

وَإِنِّي –وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ كَأْسٍ وَلَذَّةٍ– لَذُو تُدْرَإٍ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ وَالْأَزْلِ (٧)

= وجد من تهواها نفسه. والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود . وأسلاه يسليه: حمله على السلوان : وهو النسيان . يقال : سلا العاشق معشوقته ، وسلا عنها : إذا نسيها ، وطابت نفسه بعد فراقها .

يقول لعاذله : لقد وجدت من تهواها نفسى ، فعشقتها ، وتعلقت بها ، فلا تعجل بعذلى؛ فإن فى صروف الدهر ، وحدثان الزمان ، وكر الجديدين ، واختلاف الملوين – ما قد يصرف العاشق عن معشوقته ، ويقطع صلته بها ، ويحمله على السلوان والنسيان؛ فيلتقى مع عاذليه على ما يشتهون ويحبون .

كأنما أراد أن يثبط عاذله ، ويكسر حدته ، ويصرفه عن عذله ، ويعلله بهذا التذييل ، وهو : « فى الدهر ما يسلى » .

(٦) الصبوة : الحنين إلى المحبوب . صبا إليها : نزع ، وحن ، ومال ، وتعلق ، وتشوق . والصبوة أيضاً: جهلة الفتوة ، ولهو الصبا، ومرح الشباب . والحجا : العقل، والفطنة. والأذى :العيب والضرر . والخبل : الفساد، ومثله الخبال ، أو هو الجنون وشبهه ؛ خبله الحب وغيره (من بابى ضرب وقتل) : إذا فتنه وأذهب فؤاده ، وأفسد عقله .

والمعنى : إنما يعاب المرء ويعير بفساد أخلاقه ، وانحراف سلوكه ، ونقصان عقله ؛ فإذا سلمت أخلاقه وسلوكه وعقله من العيب والضرر والفساد – كان جديراً بالتقدير والاحترام ، ولو وقع فى شرك الهوى والغرام.

وصلة هذا البيت بالذى قبله أن حبه عذرىّ عفيف ، طاهر نظيف ؛ فلا ينبغى أن يعذله من أجله عاذل ، أو ينحى عليه بالملامة لائم.

(٧) « وإن كنت ابن كأس ولذة » : « إن » هنا : حرف وصل ، وهى معترضة ، مجردة من معنى الشرط ، أو ليس لشرطها جواب ؛ كما تقول : « فلان بخيل وإن كان كثير المال » : تصمه بالبخل حتى مع كثرة ماله . والشاعر هنا يفخر بأنه ذو تدرإ وإن كان ابن كأس ولذة : أى مع كونه ابن كأس ولذة ؛ فإن المرء إذا لازم الكاس واللذة فقد يتهم بالركون إلى الدعة ، والإحجام فى مواطن الإقدام ، والتفريط فى مقتضيات العزة والكرامة ؛ والشاعر ينفى هذا الاتهام ، ويقرر نقيضه . والكأس : الكوب ، أو القدح ، أو الإناء يشرب فيه ، وهى مؤنثة ، قيل : ولا تسمى كأساً إلا إذا كان فيها الشراب ؛ وقد تطلق الكأس على الخمر ، وهو المراد هنا . وتكنى العرب بابن كذا عن ملازمه ، والمواظب عليه . وابن الكأس: مدمن الخمر. والتدرأ: الحفاظ ، والمنعة، والقوة . وذو تدرإ: مدافع ، ذو عزة ومنعة ، وعدة =

وَقُورٌ ، وأَحْلَامُ الرِّجَـالِ خَفِيفَةٌ صَبُورٌ ، وَنَارُ الْحَرْبِ مِرْجَلُهَا يَغْلِي(٨)
إِذَا رَاعَتِ الظَّلْمَاءُ غَيْرِي . فَإِنَّمَا هِلَالُ الدُّجَى قَوْسِي ، وَأَنْجُمُهُ نَبْلِي(٩)

= وقوة ؛ يُقْدِم ، ويهجم ، فلا يتَوقى ، ولا يهاب . والكريهة : الشدة فى الحرب . والكريهة أيضاً : الداهية ، والنازلة . وجمعها كرائه . والأزل : الضيق ، والشدة ، والأزمة . أو شدة الزمان ، والجدب ، وضيق العيش . يفتخر بأنه — على الرغم من إدمانه الشراب ، وعكوفه على اللذات — عزيز ، شجاع ، مقدام ، وافر العدة ، شديد البأس ، قوى المراس إذا حَمِيَ الوطيس ، وقامت الحرب على ساقها ؛ وأنه كما يدفع الأعداء بشجاعته وبسالته ، يدفع الشدائد والأزمات بكرمه وسخائه .

افتتح الشاعر هذه القصيدة بسبعة أبيات فى حديث الحب والهوى ، والإغراق فى الكأس واللذة ، والتمادى فى لهو الصبا ، ومرح الشباب ، وجهالة التبطل ، مخالفاً نذير الحلم ، مغضباً العقل ، مُعْرِضاً عن عذل العاذلين ، مستبيحاً كل هذه اللذات ما دامت أخلاقه سليمة من العيب والفساد . وهو فى هذا البيت والأبيات التالية ينتقل من حديث اللهو والمجانة إلى حديث الجد والصرامة ، مفتخراً بكثير من محامده ومناقبه ، وقد يجنح فى أثناء فخره للنصح والإرشاد ، أو للحكمة والمثل .

(٨) وقور : ذو وقار : وهو الرزانة ، والحلم ، والثبات ، والعظمة . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملة الاسمية بعد كل منهما حاليّة . والأحلام : جمع حلم : وهو العقل ، والوقار ، والرزانة ، والأناة ، والصبر . وخفّة أحلام الرجال : كناية عن الذعر ، والفزع ، والخوف الشديد . والمرجل (بوزن منبر) : القدر من النحاس ، أو الطين المطبوخ ، أو غيرهما . وغليان مرجل الحرب : كناية عن شدّتها ، وتأجّج نيرانها .

يفتخر بأنه إذا خفت أحلام الرجال ، وتملكهم الذعر والفزع فى النوازل والأهوال — بقى له وقاره ، وثباته ، ورزانته ، وحلمه ، وعقله ، وعظمته ؛ ولا غرو ؛ فإنه متمرس بالحروب وآفاتها ، صبور على شدائدها وويلاتها ؛ وهو بوقاره وصبره قمين بمكافحة الشدائد ، وتبديد المخاوف .

(٩) راعه : أفزعه ، وأخافه ، فارتاع (وبابه قال) . والظلماء : الظلمة ، ويراد بها : ما تخفيه فى أطوائها من الويلات والمخاوف ؛ فهى إذا راعت غيره من الناس لا تروعه ؛ لأنه متمرس بها ، جرىء عليها بقلبه وعدته وسلاحه ؛ كفخره فى البيت الآتى بأنه ابن الليل . أو يراد بالظلماء : ظلمات الخطوب والمظالم التى تُفْزِع الناس ، وتبلبلهم ، وتُخْفِى وجوه الرأى والتدبير ؛ فهو أهل لتبديدها ، وإقرار الأمن والطمأنينة . والهلال : غرة القمر ، أو لليلتين من أول الشهر ، أو إلى ثلاث ، أو إلى سبع . ولليلتين من آخره : ست وعشرين ، وسبع وعشرين ؛ ويرى حينئذ فى السماء كأنه قوس من الضياء . والدجى : الظلمات ، واحدتها دجية . والقوس آلة على شكل نصف دائرة ، أو على هيئة الهلال ، ترمى عنها السهام ؛ تذكّر ، وتؤنّث . والنبل : السهام العربية ؛ لا واحد لها من لفظها ، بل الواحد سهم : =

أَنَا ابْنُ الْوَغَى ، وَالْخَيْلِ ، وَاللَّيْلِ ، وَالظُّبَا وَسُمْرِ الْقَنَا ، وَالرَّأْيِ ، وَالْعَقْدِ ، والْحَلِّ (١٠)

=وهو عود من خشب ، يُسَوَّى ، فى طرفه نصل محدد من الحديد الصلب ، يرمى به المحارب ، أو الصائد ، أو نحوهما عن القوس ونحوها . وفى الشطر الثانى تشبيهان مقلوبان : « هلال الدجى قوسى ، وأنجمه نَبْلى » : فقوسه كهلال الدجى ، ونبله كنجوم الليل ، أو كالنجوم التى تبدو فى السماء كأنها قريبة من الهلال ؛ وكلاهما يبدد الدجى ، ويمزّق الظلمات .

يعتز بعدته وسلاحه ، ويفخر بشجاعته وإقدامه على الأهوال والأخطار إذا أحجم غيره ، وتملّكه الفزع.

(١٠) تكنى العرب بابن كذا عن ملازمه ، أو المثابر عليه ، أو المتمرس به ، أو الماهر فيه . والوغى : الحرب : وهو فى الأصل الصوت والجلبة . وابن الوغى : الشجاع المقدام ، المتمرس بالقتال ، الشديد البأس فى الحروب . والخيل : جماعة الأفراس ، لا واحد لها من لفظها . وابن الخيل : الفارس الماهر فى ركوبها ، والمحارب على ظهرها ، والذى يحسن استخدامها فى القتال وغيره . وابن الليل : راكب الأهوال والمخاوف ، الذى لا يتهيّب الأخطار ، ولا يباليها . والظُّبَا : جمع ظبة : وهى حد السيف ، أو حد السنان ، أو حد الخنجر ، أو نحو ذلك . وسمر : جمع سمراء : صفة من السمرة : وهى لون بين السواد والبياض . وسمر القنا : القنا السمر : جمع قناة : وهى الرمح : وهو عصاً مستوية ، أو عود خشبى يُسَوَّى ، ويركّب فى رأسه سنان حاد من الحديد الصلب ، يطعن به . والسمرة من صفات الجودة فى القنا والرماح ؛ لأن القناة إذا صلبت اسمرّ لونها. وابن الظبا والقنا : كناية عن خبرته بالأسلحة وأدوات الحرب والقتال ، وتمرسه بها ، واعتماده عليها ، ومهارته فى استخدامها . والرأى : العقل ، والإصابة فى التدبير . ورجل ذو رأى : ذو بصيرة ، وحذق بالأمور . وابن الرأى : الفائق فى صحة التفكير ، وإحكام التدبير ، وقوة الإدراك ، وصدق الفراسة ، والخبرة الواسعة . والعقد : مصدر عقدت الحبل ونحوه (من باب ضرب) : أى شددته ، وربطته ، وأوثقته ، وأحكمته ؛ أو جعلتُ فيه عقدة ؛ وعقدتُ طرفى الحبل ونحوه : وصلتُ أحدهما بالآخر بعقدة تمسكهما ، فأحكمت وصلهما ؛ ومن المجاز : عقدت البيع ، واليمين ، والعهد ، ونحوه : أى أكّدته . والحل : ضد العقد : مصدر حللت العقدة (من باب رد) : أى نقضتها ، وفككتها ، وفتحتها ؛ ومن كلامهم : « فلان حلال للعقد والمشكلات ، كاف للمهمّات » . وابن العقد والحل : كناية عن سيادته ورياسته ، ورجوع الناس فى مشكلاتهم إليه ، واعتمادهم فى المهمات عليه . وتبدو الصلة قوية وثيقة بين « ابن الرأى » و « ابن العقد والحل » ؛ فإن العقد والحل لا يكونان إلا بسداد الرأى ، والإصابة فى التدبير .

جمع الشاعر فى هذا البيت ثمانياً من مناقبه ومفاخره فى الحرب والسلم ، لم يركب فى واحدة منها متن الشطط ، أو المغالاة ؛ فهو فارس محارب ، شديد البأس ، صلب المراس ، يقتحم الظلماء ، ويصول=

فَقُلْ لِلَّذِى ظَنَّ الْمَعَالِى قَرِيبَةً ... رُوَيْدًا؛فَلَيْسَ الْجِدُّ يُدْرَكُ بِالْهَزْلِ(١١)
فَمَا تَصْدُقُ الْآمَالُ إِلَّا لِفَاتِكٍ ... إِذَا هَمَّ لَمْ تَعْطِفْهُ قَارِعَةُ الْعَذْلِ(١٢)

= فى الهيجاء معتمداً على عدته وسلاحه ، لا يبالى المخاطر والمخاوف ، ولا يكترث للأهوال والشدائد .

وهو إلى هذا كلّه سيّد مطاع فى قومه ، راجح العقل، سديد الرأى ، صائب التدبير ، قوى الإرادة ، واسع الحيلة ، يتصرف فى الأمور العامة بحذق وبصيرة ، ويسوس الناس بلباقة وكياسة ؛ ولهذا يرجعون فى مشكلاتهم إليه ، ويعتمدون فى المهمّات عليه .

(١١) المعالى مفعول به أول لـ « ظن » منصوب بالفتحة الظاهرة على الياء ، وإنما سُكّنتْ هنا لضرورة وزن الشعر : جمع المعلاة : وهى الرفعة والشرف . ورويداً : مهلاً ، لا تعجل : تصغير « رود » (بوزن عود) ؛ من قولهم : امش على رود : أى على مهل ؛ أو هو تصغير « الإرواد » على الترخيم ، مصدر أرود فى مشيه : أى رفق ، وتمهّل ، واتّأد ، وتأنى ، ولم يعجل . والجد (بكسر الجيم): ضد الهزل ، أو هو (بفتح الجيم) : مصدر جد (من باب ضرب) : أى عظم فى أعين الناس ، وعلت مكانته بينهم . والمعنى على الأول : أن المعالى من الجد الذى لا يعقل أن ينال بالهزل ؛ فالضدان لا يلتقيان . وعلى الثانى : أن العظامة من المعالى التى لن يدركها الهازلون .

افتخر الشاعر فى البيت السابق بثمانٍ من مناقبه فى الحرب والسلم ، وكلها من معالى الأمور . وفى هذا البيت نصح وأرشد ؛ فقال للذى ظن المعالى دانية قريبة ، هينة يسيرة ؛ فتمناها بأيسر الوسائل ، وأهون الأسباب : تمهّلْ ، واتّئِدْ ، ولا تتماد فى ظنك هذا ؛ فإنك واهم خاطئٌ ، بل هازل مازح ، ولن تدرك العلياء إلا بالجد والصرامة ، والدءوب والاجتهاد .

(١٢) الآمال : جمع الأمل : وهو الرجاء : مصدر أمله « كطلبه » : أى رجاه ، وترقبه . وتصدق الآمال : يظفر بها الآمل ، وتتحقق له . والفاتك : الجرىء الشجاع المقدام ، الماضى فى الأمور : اسم فاعل من فتك (كضرب ، ونصر) : أى ركب ما تدعو إليه نفسه ، غير مبالٍ . وهمّ بالشىء (من باب رد) : أراده ، وقصده ، وعزم على القيام به . ولم تعطفه : لم تثنه ، ولم تصرفه . (وبابه ضرب) . وقارعة العذل : ما يقرع سمعه من اللوم : أى ما يطرق أذنه ؛ مستعار من قرع الباب : أى طرقه ، ودقّه ، وضربه ، ونقر عليه مستفتحاً . والقارعة أيضاً : القارصة . وقوارع اللسان : قوارص الكلم . والعذل : مصدر عذله (من بابى ضرب وقتل) : أى لامه .

يقول : إن الأمانى لا تتحقّق إلا للرجل الماضى الجرىء الشجاع ، الذى يهم بالأمر ، فَيُقْدم عليه ، ويمضى فيه ؛ لا يصرفه عنه لوم اللائمين ، وعذل العاذلين .

لَهُ بِالْفَلَا شُغْلٌ عَنِ الْمُدْنِ وَالْقُرَى ... وَفِى رَائِدَاتِ الْخَيْلِ شُغْلٌ عَنِ الْأَهْلِ (١٣)

إِذَا ارْتَابَ أَمْرًا أَلْهَبَتْهُ حَفِيظَةٌ ... تُمِيتُ الرِّضَا بِالسُّخْطِ، وَالْحِلْمَ بِالْجَهْلِ (١٤)

(١٣) له : للفاتك . والفلا : الفلوات ، الواحدة فلاة (بوزن قناة) : وهى القفر ، والمفازة لا ماء فيها ، والصحراء الواسعة . وشغل (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون ، أو بضمتين ، أو بفتحتين) : الاسم ، أو المصدر من شغله عن الشيء (من باب منع) : أى لهّاه عنه وصرفه . وشغل بكذا عن كذا (بالبناء للمجهول) : أى اشتغل بالأول ، وانصرف عن الآخر . والمدن (بضم فسكون ، أو بضمتين) : جمع مدينة . والقرى : جمع على غير قياس لقرية . و « فى » : بمعنى الباء ، أى وله برائدات الخيل شغل عن الأهل ، كما فى قول الشاعر :

ويركب يوم الروع منا فوارس ... بصيرون فى طعن الأباهر والكلى

أو هى للظرفية : أى وفى رائدات الخيل ما يشغله عن أهله . ورائدات : جمع رائدة : اسم فاعل من راد الشيء (من باب قال) : أى ذهب ، وجاء ، ودار ، وتنقّل فى طلبه ، والبحث عنه . وأهل المرء : عشيرته ، وذوو قرباه . ويريد بالفلوات ، ورائدات الخيل : حياة المخاطرة والجلاد ، والمغامرة والكفاح ، وركوب الصعاب والمخاوف ، واقتحام الأخطار والأهوال ، والتنقل فى طلب المعالى ، ومكاسب الشرف . ويريد بالمدائن والقرى ، والأهل والعشيرة : حياة الإقامة والدعة ، وعيش النعيم والرفاهية ؛ وهذا البيت متّصل بالذى قبله .

والمعنى : إنما تتحقّق الأمانى ، وتصدق الآمال لفاتك همام ، وفارس مقدام ، مشغول عن أهله وعشيرته ، وغضارة العيش وراحته بجوب الفلوات ، وقطع المفازات ، وركوب الأخطار ، لبلوغ الأوطار . وفى البيتين أن الإخلاد إلى النعيم والرفاهية ، وإيثار الراحة والعافية ، والاستماع لعذل العاذلين ، ولوم اللائمين — يخيّب الأمل ، ويكذّب الرجاء .

(١٤) ارتاب فيه ، وارتاب منه ارتياباً : وجد فيه ما يريبه : أى ما يوقعه فى الريبة : وهى الظنّة ، والتّهمة ، والشك ، وقلق النفس ، وانزعاجها ، واضطرابها . وارتاب به : اتّهمه . ويبدو من المعجمات التى بين أيدينا أن « ارتاب » من الأفعال اللازمة ؛ ويتعدّى بفى ، أو بمن ، أو بالباء ؛ وقد توسّع الشاعر فى استعماله هنا ، فعداه بنفسه ، ونصب « أمراً » على نزع الخافض . والأمر : الشأن ، والحال ، والحادثة . وارتاب أمراً : أحسّ أنّ فى هذا الأمر شرًّا . أو توجّس منه ما يكره . وفاعل « ارتاب » ضمير « فاتك » فى البيت الثانى عشر . وألهبته : هيّجته ، وحمّسته : مستعار من ألهبت النار إلهاباً : أى أوقدتها ، وأذكيتها . والحفيظة : الحميّة ، والغضب فى الشيء الذى ينبغى أن يحفظ ويصان : اسم من الحفاظ والمحافظة : وهى حماية المحارم ، وصيانتها ، والدفاع عنها . والحلم : الصبر ، والأناة ، وتهدئة سوْرة الغضب ، وتأخير عقاب المعتدى . والجهل : ضد الحلم . ومعنى الشطر الثانى : أن الحفيظة تثير فى نفس الفاتك السخط والجهل =

فَلَا تَعْتَرِفْ بِالذُّلِّ خَوْفَ مَنِيَّةٍ   فَإِنَّ احْتِمَالَ الذُّلِّ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ (١٥)
وَلَا تَلْتَمِسْ نَيْلَ الْمُنَى مِنْ خَلِيقَةٍ   فَتَجْنِى ثِمَارَ الْيَأْسِ مِنْ شَجَرِ الْبُخْلِ (١٦)

= فيتغلبان على الرضا والحلم ؛ فلا يبقى لهما أثر أو حياة .

يقول : إذا راب ذلك الفاتك أمر ، ورأى فيه ما يكرهه — اشتدت لدفعه حماسته ، وقويت لمنعه حميته ، وعاجله بالسخط والغضب ، والجهل والبطش ؛ وهو فى هذه الحالة لا يرضى ، ولا يهدأ ، ولا يعرف سبيل الحلم أو الهوادة أو الأناة .

(١٥) اعترفت بالشيء: أقررت به على نفسي؛ ومنه الاعتراف بالذنب. واعترفت للشيء: انقدت له، وصبرت عليه ؛ والمعنى الثانى هو المراد هنا ؛ ولو وضعت « اللام » موضع «الباء» : « فلا تعترف للذل » لدل الفعل على المعنى المراد بلا توسع ، ولا تأويل ، ولا تضمين. وتأويل العبارة مع « الباء » : لا تصبر متلبساً بالذل مخافة الموت ؛ أو لا تعترف بأنك ذليل ، بل أنكر الذل ، وكافحه ، ولا تقم عليه . والمنية : الموت .

والمعنى : أن الحياة الطيبة العزيزة الكريمة لا تكون إلا مع الحرية ، والعزة ، والكرامة ؛ فادفع عن نفسك المذلة والهوان ، ولو قتلت فى سبيل ذلك ؛ فإن الموت فى هذا السبيل شرف وخلود .

وفى مثل هذا المعنى ، أو فيما يقرب منه يقول أبو الطيب المتنبى :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

ويقول فى الحض على طلب العزة ، وإباء الضيم والمذلة :

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا ، وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغيـ   ـظ ، وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد   وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ، وذر الذ   ل ولو كان فى جنان الخلود

(١٦) لا تلتمس: لا تطلب . والمنى : الأمانى ، والآمال ، واحدتها منية . والخليقة : كل ما خلقه الله تبارك وتعالى ؛ ويراد بها هنا : الناس . وثمار اليأس : اليأس الشبيه بالثمار : جمع ثمرة . وشجر البخل : البخل الشبيه بالشجر .

والمعنى : أن البخل غالب فى الناس ، مسيطر عليهم ، متحكم فيهم ، متمكن منهم ؛ فإذا أملتهم ، ورجوت خيرهم — انقطع أملك ، وخاب فيهم رجاؤك ، وأخفق مسعاك ، وذهبت أمانيك أدراج الرياح ، =

فَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ ذُو مَكِيدَةٍ   وَآخَرُ مَحْنِيُّ الضُّلُوعِ عَلَى دَخْلِ[(١٧)]

= وأحدقت بك ظلمات اليأس ، وأمضّتك حسراتُ الإخفاق .

والغرض النصح والإرشاد ؛ كى يعتمد المنصوح له على نفسه فى تحقيق آماله ، وإدراك رغائبه ، نافضاً يده من الناس ؛ فإن شرّهم غالب ، وخيرهم قليل . وفى البيتين الآتيين تنديد بهم ، وتصريح ببعض عيوبهم .

وفى الشعراء رهافة إحساس ، ورقّة شعور قد تذكى فيهم روح التبرّم والتشاؤم ، وتضرب عليهم مثل هذا الجوّ النفسىّ القاتم ، وتحملهم على التزيّد والمغالاة فى مثل هذا المقام إذا أخفقت بعض مساعيهم ، وخاب رجاؤهم فى بعض من يأملونهم .

(١٧) حاسد : اسم فاعل من الحسد : وهو أن يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسود ، وانتقالها إليه . والمكيدة هنا : الخديعة ، والخبث ، والمكر السيئ : اسم من كاده ، وكاد له (من باب باع) : أى مكر به ، وخدعه ، وأراده بسوء . ومحنىّ الضلوع : من إضافة اسم المفعول إلى نائب الفاعل : أى محنيّة ضلوعه : وهى عظام قفص الصدر ، واحدتها الضلع (تؤنّث وتذكّر) . والدخل : فساد الطويّة ، والعيب ، والريبة ، والغدر ، والمكر ، والخديعة .

حصر الناس ، وقصرهم على فريقين ، أو طائفتين ، أو رجلين : حاسد كائد ، وفاسد الطويّة معيب . وبهذا وصمهم جميعاً بالتحاسد ، والتباغض ، والتكايد ، والتخادع ، والخبث ، والدغل ، والفساد ، والريبة ، والمكر السيئ ، وكلّ ما تحتويه كلمات الحسد ، والكيد ، والدخل من النقائص ، والمساوى ، والمعايب الخفيّة والظاهرة ؛ فغالى فى السخط عليهم ، والتنديد بهم .

وقد يشتدّ حنقُ الشاعر على من ساءه مخبرهم من الناس ، وأصابه شرُّهم ؛ فيذهب هذا المذهب ، ويبالغ فيه :

ومن هذا القبيل قول القائل :

عوى الذئب ، فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسان ؛ فكدت أطير

وقول الآخر :

ظننت بهم خيراً ، فلما بلوتهم   نزلت بواد منهم غير ذى زرع

وقول أبى فراس الحمدانى :

وقد صار هذا الناس إلا أقلّهم   ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقول الشاعر :

لا يغرنك ما ترى من أناس   إن تحت الضلوع داء دويا =

تِبَاعُ هَوًى ، يَمْشُونَ فِيهِ كَمَا مَشَى ‏ ‏ وَسُمَّاعُ لَغْوٍ ،يَكْتُبُونَ كَمَا يُمْلِي(١٨)

وقول شوقى فى رائيته الطويلة التى عنوانها : « أبو الهول » :

وما راعهم غير رأس الرجال ‏ ‏ على هيكل من ذوات الظفر

ولو صوروا من نواحى الطباع ‏ ‏ توالوا عليك سباع الصور

فيا رب وجه كصافى النمير ‏ ‏ تشابه حامله والنمر

(١٨) تباع : خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هم أى الناس تباع هوى : جمع تبيع (بوزن سريع): وهو التابع الذى يتبع غيره ، وينقاد له . والهوى : مصدر هوى الشىء (من باب صدى): أى مال إليه ، وأراده ، واشتهاه ؛ وأكثر مايستعمل فى الميل المذموم ،وهو المراد هنا : أى ميل النفس إلى الشهوات التى يستنكرها العقل والدين؛ وقد يطلق الهوى على النفس المائلة إلى الشهوة ؛ وقد يراد به الشىء المهوى ، وغلب على غير المحمود؛ وإذا أريد ذم امرئ قيل : إنه اتبع هواه. وهو من أهل الأهواء. وفى القرآن الكريم « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطا» الآية رقم ٢٨ من سورة الكهف. ويمشون فيه : يمشون فى الهوى : أى فى مسالكه وطرقه؛ أو يمشون معه ؛ فكلمة « فى » معناها المصاحبة. و« كما مشى » : كما مشى الهوى : أى يمشون مثل مشيه ، ويقتدون به ؛ وهو تأكيد ، وتفصيل ، وتمثيل ، وتجسيم لمعنى « تباع هوى » . وسماع : جمع سامع . واللغو : الباطل ، والسقط ، وما لا خير فيه من الكلام . وأملى عليه الكتاب إملاء : قاله له ، فكتبه عنه . وفاعل « يملى » : ضمير « اللغو» . و« يكتبون كما يملى» : تأكيد ، وتجسيم ، وتفظيع لمعنى « سماع لغو » ؛ فهم لا يكتفون بسماعه ، بل يحرصون على كتابته ، وتقييده ، وحفظه ، وتدوينه .

وصلة هذا البيت بالذى قبله وثيقة واضحة ؛ فالشاعر متبرم بالناس ، ساخط عليهم ، نافر منهم ؛ ولهذا صورهم فى البيت السابق حاسدين كائدين ، قد انطوت نفوسهم على الضغن والغدر ، والخداع والفساد .

وهم فى هذا البيت عبيد أهوائهم ، وأسرى شهواتهم ، مولعون باللغو والباطل وما لا خير فيه ؛ يستمعون له ، ويحرصون على تدوينه وكتابته .

وهذا البيت ختام ثمانية أبيات (من الحادى عشر إلى الثامن عشر) جاءت فيما يشبه النصح والإرشاد ، أو الحكمة والمثل ، وتضمنت الحض على طلب المعالى ، وتحصيل معداتها ومؤهلاتها من الجرأة والإقدام، وسمو الهمة ، وصلابة العزم ، وقوة الإرادة ، وشدة البأس ، وإيثار حياة الكفاح والمخاطرة على حياة النعيم والدعة ؛ ثم حض على إباء الضيم ، ورفض المذلة ، ودفع الريب والكرائه بالحفيظة الذاكية ، والحمية المتوقدة ؛ ولما خاب أمله فى كثير من الناس ، وساءه مخبرهم ، وأصابه شرهم — ندد بهم ، وشهر بعيوبهم ، وأيئس منهم .

وهو فى البيت الآتى والأبيات التالية إلى آخر القصيدة يعود إلى الفخر بمناقبه ومحامده .

وَمَا أَنَا ـ وَالْأَيَّامُ شَتَّى صُرُوفُهَا ... بِمُهْتَضِمٍ جَارِى ، وَلَاخَاذِلٍ خِلِّى (١٩)
أَسِيرُ عَلَى نَهْجِ الْوَفَاءِ سَجِيَّةً ... وَكُلُّ امْرِئٍ فِى النَّاسِ يَجْرِى عَلَى الْأَصْلِ (٢٠)
تَرَكْتُ ضَغِينَاتِ النُّفُوسِ لِأَهْلِهَا ... وَأَكْبَرْتُ نَفْسِى أَنْ أَبِيتَ عَلَى ذَحْلِ (٢١)
كَذَلِكَ دَأْبِى مُنْذُ أَبْصَرْتُ حُجَّتِى ... وَلِيدًا ، وَحُبُّ الْخَيْرِ مِنْ سِمَةِ النُّبْلِ (٢٢)

---

(١٩) « والأيام شتى صروفها » : « الواو » : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية . وشتى : جمع شتيت (بوزن مريض ومرضى) : وهو الشيء المشتت ، المفرّق ، المختلف. وصرف الدهر : حدثانه ، ونوائبه ، وجمعه صروف . ومهتضم : خبر المبتدإ « أنا » ، أو خبر « ما » العاملة عمل « ليس » ؛ والباء قبله زائدة لتوكيد الكلام ؛ وهو اسم فاعل من « اهتضمه » : أى ظلمه ، وغصبه ، وكسر عليه حقه. وخاذل : اسم فاعل من خذله (من باب قتل) : أى أسلمه ، وخيّبه ، وتخلّى عنه ، وقعد عن نصرته ، وبخل بإعانته . والخِل : الصديق المختص ، الودود ، الخالص الود ، ومثله الخليل .

يتمدّح بوفائه لجيرانه ، وبرّه بهم ، ونُصرته لخلانه ، ومواساته لهم ، إذا ساءت الأيام ، واختلفت صروف الزمان ، وتوالت نوائب الحدثان . والبيت الآتى يكشف معنى الوفاء ، ويؤكده .

(٢٠) النهج : الطريق المستقيم الواضح . والسجية : الطبيعة ، والخلق ، وجمعها سجايا . وأصل الشيء : أساسه الذى يقوم عليه ، ومنشؤه الذى ينبت منه ، ومصدره الذى يصدر عنه .

يفتخر فى الشطر الأول بأن الوفاء من أخلاقه وسجاياه ، يجرى فيه على طبيعته وفطرته ، بلا تكلّف أو تصنّع. والشطر الثانى تذييل جارٍ مجرى المثل ، ومعناه : أن المرء يجرى فى سيرته ، وأعماله ، وسلوكه ، وتصرفاته على ما ورثه ، واعتاده ، وفُطر عليه ، وتأصّل فيه من الأخلاق ، والطبائع ، والسجايا ، والغرائز ، والعادات ، والاستعدادات .

(٢١) الضغينات ، والضغائن : جمع الضغينة : وهى الحقد ، والضغن ، والغيظ المكتوم ، والانطواء على الكراهية ، وإضمار العداوة والبغضاء . ولأهلها : لأهل الضغينات : أى للحاقدين ، الكارهين ، المغيظين. وأكبرت نفسى عن كذا : ترفّعتُ بها عنه ، واستنكفت منه ، وتعاليت. والذَّحْل : العداوة ، والحقد . وبات على الذحل : أضمره ، وأكنّه ، واتصف به ؛ أو لازمه ، وأقام عليه ، ولم يفارقه.

والمعنى : أنه ترك الحاقدين عليه يشقون بحقدهم ، وعظّم نفسه ، وتعالى بها عن هذا الخلق الوضيع ، فلم يجارهم فيه ، ولم يؤاخذهم به .

(٢٢) « كذلك » : مثل ذلك ، أو الكاف زائدة لتوكيد الكلام ، والإشارة بعدها إلى ما افتخر به فى ثلاثة الأبيات السابقة : من برّه بجيرانه ، ونُصرته لخلانه ، وسيره بطبعه على نهج الوفاء ، وترفّعه بنفسه =

وَرُبَّ صَدِيقٍ كَشَّفَ الْخُبْرُ نَفْسَهُ   فَعَايَنْتُ مِنْهُ الْجَوْرَ فِي صُورَةِ الْعَدْلِ[٢٣]

= عن الذحل والغل ، والضغن ، والحقد . ودأبي: عادتي ، وشأني . والحجة: الدليل ،والبرهان .وأبصرت حجتي : رأيتها ، وعرفتها ، وعلمتها ، واستطعت الإتيان بها ، وإقامتها ؛ وهذا كناية عن الرشد ، والتمييز ، والإدراك ، ونضج العقل والفكر . ووليداً: صبياً ، أو غلاماً . ويعرب حالاً : أى أبصرت حجتي حالة كوني وليداً . والسمة : الأمارة ، والعلامة . والنبل : الفضل ، والشرف ، والعظمة ، والذكاء والنجابة ، وجودة الرأى ، وكرم الشمائل .

يقول : إنه اعتاد منذ صغره الفضائل التي أشار إليها في ثلاثة الأبيات السابقة . وفي البيت فخر بأنه بلغ الرشد وهو وليد، وامتاز بنضج العقل، وصحة التفكير ، وإقامة الحجة مذ كان غلاماً ناشئاً . « وحب الخير من سمة النبل » : تذييل جار مجرى المثل ؛ وصلته بمعنى هذا البيت : أن الفضائل التي أشار إليها ، وتمدح بها — من الخير والبر ؛ وأن حبها والتحلي بها من أمارات النبل ، والعظمة ، والشرف ، والفضل ، والذكاء ، والنجابة ، وكرم الحسب ، وجودة الرأى ، وحميد الخلال .

(٢٣) « رب » : حرف جر ، يفيد التقليل ، أو التكثير ؛ وسياق الكلام هنا يرجح أنها للتكثير ؛ لأن الشاعر بصدد الشكوى من شيوع النفاق ، وإضمار الظلم ، وكثرة الخداع ، وكذب الوداد . وكشف الشيء تكشيفاً: مبالغة في كشفه (من باب ضرب) : أى أظهره ، ورفع عنه ما يواريه ويغطيه . والخبر (بتثليث الخاء) : الاختبار ، والتجربة ، والامتحان (وفعله من باب نصر) . وعاينت رأيت وأبصرت . والجور : الظلم .

يقول : وكم صديق كشفتُ بالاختبار والتجربة حقيقته ، وما انطوت عليه نفسه ، فرأيته يجور عليّ ، ويظلمني كاسياً ظلمه ثوب العدل ؛ أورأيته يتبهى بالعدل ويعالنه ، وهو في حقيقته جائر ظالم .

وللشعراء في مثل هذا المعنى ، أو فيما يقرب منه شعر كثير جرى مجرى النصح والإرشاد ، أو الحكمة والمثل ؛ ومنه قول الشريف الرضي :

لا تجعلنّ دليل المرء صورته   كم مخبر سمج عن منظر حسن

وقول غيره :

يعطيك وداً صادقاً بلســانه   ويجنّ تحت ضلوعه ألوانا

وقول الأبيوردي :

يلقاك والعسل المصفى يجتنى   من قوله ، ومن الفِعال العلقم =

وَهَبْتُ لَهُ مَا قَدْ جَنَى مِنْ إِسَاءَةٍ ؛ وَلَوْشِئْتُ ، كَانَ السَّيْفُ أَدْنَى إِلَى الْفَصْلِ (٢٤)

وَمُسْتَخْبِرٍ عَنِّى ، وَمَا كَانَ جَاهِلًا بِشَأْنِى ، وَلَكِنْ عَادَةُ الْبُغْضِ لِلْفَضْلِ (٢٥)

= يبدى الهوى ، ويثور – إن عرضتْ له فرص – عليك ، كما يثور الأرقم

وقول أبي تمام :

إن شئت أن يسودّ ظنك كلّه فأجله فى هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً متبسماً عن باطن متجهّم

وقول الشريف الرضى أيضاً :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول العمر أن يتقوّما
تقبّلت منه ظاهراً متبلّجاً وأدمج دونى باطناً متجهّما
ولو أننى كشّفته عن ضميره أقمت على ما بيننا اليوم مأتما

(٢٤) وهبتُ له الشيء : أعطيته إياه بلا عوض . ووهبتُ له إساءته ، أو جريرته ، أو جنايته : عفوتُ عنه ، ولم أعاقبه بها . ومن كلامهم : « اللهمّ هب لى ذنوبى » : أى اغفر لى ذنوبى . وجنى جناية : ارتكب ذنباً . وأدنى : أقرب . والفصل : مصدر فصل بين الشيئين (من باب ضرب) : أى فرّق . وفصل الشيء عن غيره : أبعده عنه ، وأبانه منه . وفصل الحاكم بين الخصمين : قضى ، وحكم . وفصله : قطعه ؛ ومنه فصل الخصومات : وهو الحكم بقطعها ، والقضاء بين الحق والباطل : أى الممايزة بينهما . و « كان السيف أدنى إلى الفصل » يشعر أن إساءة صاحبه إليه كانت مثيرة جداً ، وأنه حينما كظم غيظه ، فتجاوز عنها ، ووهبها له — إنما تجاوز عن ذنب فظيع ، يكاد يحمل على الانتقام بالإعدام .

يقول : إنه عفا عن صديقه الذى جنى عليه ، وأساء إليه ؛ ولو شاء أن يعاقبه لانتقم منه شر انتقام ، أو لكانت الشدة والقسوة أحسم علاج لدائه ؛ وقد وصمه فى البيت السابق بالنفاق ، أو حسن المظهر ، وقبح المخبر ، أو إظهار العدل ، وإضمار الظلم ؛ وهذه كلّها أدواء ، أو إساءات ، أو جنايات تستحقّ شرّ ضروب العقوبة والانتقام ؛ ويرتفع الصفح عنها ، والتسامح فيها إلى أسمى مراتب الحلم ، والكرم ، والإغضاء .

(٢٥) ومستخبر : وربّ مستخبر : اسم فاعل من استخبرته : أى سألته عن الخبر ، أو طلبتُ منه أن يُنْهِىَ إلىَّ ما عنده من الأخبار . والواو الثانية : واو الحال . وجملة « وما كان جاهلاً بشأنى » : حال من فاعل « مستخبر » ؛ وهو ضمير مستتر تقديره « هو » : أى وربّ مستخبر عنى وهو يعرفنى . وجهل الشيء ، وجهل به : لم يعرفه (وبابه فهم) . والشأن : الأمر ، والحال . =

أَتَى سَادِرًا ، حَتَّى إذا قَرَّ أَوْجَسَتْ سُوَيْدَاوُهُ شَرًّا ؛ فَأَغْضَى عَلَى ذُلِّ(٢٦)

وَمَنْ حَدَّثَتْهُ النَّفْسُ بِالْغَيِّ بَعْدَ مَا تَنَاهَى إِلَيْهِ الرُّشْدُ سَارَ عَلَى بُطْلِ(٢٧)

= والفضل : الإحسان ، أو الابتداء به بلا علة ؛ ورجل فاضل : متصف بالفضل ، أو بالفضيلة : وهى المزيّة ، والدرجة الرفيعة فى الفضل ، وحسن الخُلق . وضدّ الفضل والفضيلة : النقص ، والنقيصة ، والرذيلة . وأمّهات الفضائل : العفة ، والحكمة ، والعقل ، والشجاعة .

والمعنى : وربّ حاسد حاقد مغيظ ، يستخبر عنى وهو يعرفنى ، ويؤمن بفضائلى ؛ وإنما كان استخباره من تجاهل العارف المغيظ المحنق ، الذى لم يقصد به غير محاولة الحطّ من قدرى ، والتغافل عنى ، كأنى رجل خامل مغمور مجهول ؛ ولا غرو ؛ فإن هذه عادة ذوى النقص الذين يمقتون من يفوقهم بفضله ، ولا يعترفون بشىء من مزاياه ؛ وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

وفى البيت الآتى تكملة وتفصيل لقصة ذلك المستخبر .

(٢٦) فاعل « أتى » : ضمير « مستخبر » فى البيت السابق . وسادراً : غير مهتم ، ولا مبال ما صنع . ورجل سادر فى الغى : متحير ، تائه فى الضلال . وقرّ : استقرّ ، وسكن ، واطمأن ، وثبت . وأوجست : أحسّت ؛ وقد يحمل الإيجاس معنى التخوّف . وسويداء القلب : حبته ؛ ويراد بالسويداء هنا : القلب . وأغضى على الأمر : سكت عليه ، وصبر . والذل : الضعف ، والهوان ، ومثله الذلة ، والمذلة .

والمعنى : أن هذا الذى استخبر عنى ، حاسداً لى ، حاقداً علىّ ، مغيظاً منى ، متجاهلاً فضلى — جاء متكبراً ، سادراً فى غيه ، تائهاً فى ضلاله ، لا يهتم ، ولا يبالى ما صنع ، حتى إذا سكن ، واستقرّ ، وعاد إليه شىء من رشده ، وانتباهه ، وصوابه — أحسّ أنه ارتكب ذنباً ، واقترف جرماً ؛ فاستشعرّ قلبه الفزع والخوف ، وتوجّس الشر ، وسوء الجزاء ؛ فسكت سكوت الذليل المهين ، وأغضى إغضاء الضعيف الحقير .

(٢٧) حدثته نفسه بالغى : زينّته له ، ودعته إليه ، وأوقعته فيه : مصدر غوى (كرمى) : أى أمعن فى الجهل والضلال ، أو هو جهل من اعتقاد فاسد : أى جهل سببه فساد الاعتقاد ، ومثله الغواية . وضده الرشد : وهو الاستقامة ، والاهتداء ، والصلاح . وتناهى إليه : بلغه ، ووصل إليه . والبُطْل : الباطل ، والضياع ، والخيبة ، والخسران ، والفساد . ومثله البطلان . ونقيضه الحق .

والمعنى : أن الذى يجنح للغى ، ويؤثر الضلال ، بعد أن يرى الرشد ، ويذوق حلاوته ، ويستبين مسالك الاستقامة والصلاح — إنما يستبدل الشر بالخير ، ويشترى الضلالة بالهدى ، ويخبط فى ظلمات الفساد والبطلان ، ويختار لنفسه الضياع والخسران . =

وَإِنِّى لَأَسْتَحْيِى مِنَ الْمَجْدِ أَنْ أُرَى   صَرِيعَ مَرَامٍ لا يَفُوزُ بِهَا خَصْلِى (٢٨)

أَقُولُ وَأَتْلُو الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ كُلَّمَا   أَرَدْتُ ؛ وَبِئْسَ الْقَوْلُ كَانَ بِلا فِعْلِ (٢٩)

أَرَى السَّهْلَ مَقْرُونًا بِصَعْبٍ ، وَلا أَرَى   بِغَيْرِ اقْتِحَامِ الصَّعْبِ مُدْرَكَ السَّهْلِ (٣٠)

= وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين : أن الذى يبغض الفضل والفضلاء ، ويتجاهل قدرهم ، ويحاول الحط من شأنهم – ممعن فى الغى ، سادر فى الباطل ، منحرف عن الحق .

(٢٨) الاستحياء : الاحتشام ، والخجل ، والانقباض . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء . وصريع : مصروع طريح : من صرعه (من باب قطع) : أى طرحه ، وألقاه على الأرض . والمرامى : الأغراض ، والأهداف ، والغايات ، والمقاصد ، والمطالب ، والمآرب : جمع المرمى : وهو الهدف الذى يصيبه الرماة ، أو المتسابقون فى المراماة . ويراد بالخَصْل هنا : السعى . وهو فى الأصل مصدر خصل الهدف (من باب قتل) : أى أصابه . ومن كلامهم : أحرز فلان خصله ، أو أصاب خصله : إذا فاز وغلب .

يفخر بأنه عزيز ، شريف ، طموح ، عالى القدر ، رفيع المكانة ، حريص على استيفاء مطالب المجد ، ومرامى الماجدين ؛ ولهذا يخجل من أن يراه الناس مخفقاً فى شىء من هذا ، أو مقصراً عن تلك الغايات ، أو صريعاً دون أغراض لم تظفر بها همته ، ولم تصل إليها مساعيه ؛ فكلها مقرونة بالفوز ، مكللة بالنجاح ؛ ومجده يحفزه – على الدوام – إلى الظفر بما يتناضل فيه أمثاله من المقاصد البعيدة النبيلة ، والمآرب السامية الشريفة .

(٢٩) تلاه (من باب سما) يتلوه : تبعه يتبعه . وأتلو القول بالفعل : أجعل فعلى تالياً لقولى ؛ فهو يتبعه ، ويصدقه . « وبئس القول كان بلا فعل » : تذييل ، معناه : أن القول الذى لا يصدقه الفعل ، ولا يقترن بالعمل – قول هراء ، مذموم ، كاذب ، فاسد ، أجوف ، فارغ ، لا قيمة له ، ولا غناء فيه .

يفخر بأن إرادته قوية صارمة ، وأنه إذا قال قولاً قرنه بالفعل الذى يصدقه ؛ فأقواله على الدوام صادقة ، متبوعة بالأعمال التى تشرفه .

ومن شعره الذى ختم به إحدى قصائده الدالية :

كذلك ، إنى قائل ، ثم فاعل   فعالى ، وغيرى قد ينير ، ولا يُسدى

(٣٠) أرى (هنا) : بمعنى أعلم ، وأعتقد . ومقرون : مقترن ، متصل ، ملازم ، مصاحب . =

وَيَوْمٍ كَأَنَّ النَّقْعَ فِيهِ غَمَامَةٌ لَهَا أَثَرٌ مِنْ سَائِلِ الطَّعْنِ كَالْوَبْلِ (٣١)
تَقَحَّمْتُهُ فَرْدًا سِوَى النَّصْلِ وَحْدَهُ وَحَسْبُ الْفَتَى أَنْ يَطْلُبَ النَّصْرَ بِالنَّصْلِ (٣٢)

= واقتحام الصعب : تخطّيه ، وتجاوزه . والمراد معاناته ، ومضاناته ، ومكابدته ، ومقاساته ، والتغلب عليه : مصدر اقتحم نهراً ، أوعقبة ، أووَهْدة : أى رمى بنفسه فيها ، على شدة ومشقة . ومدْرَك : إدراك ، وبلوغ : مصدر ميمى لأدركت الشيء إدراكاً : أى لحقتُه ، وبلغتُه ، ووصلت إليه .

يقول : إن أيسار الأمور مقرونة بصعابها ، وإن الهين السهل منها لا ندركه إلا إذا تخطّينا إليه العسير الصعب .

(٣١) ويوم : وربّ يوم . بتقدير « ربّ » التى تعمل وهى محذوفة بعد الواو . ومجرورها نكرة. وهى هنا تفيد التكثير ؛ لأن الشاعر يفتخر بشجاعته ، وإقدامه ، وكثرة ما خاضه من معامع القتال ، وأيام الحرب والنزال . والنقع : الغبار . وفيه : فى ذلك اليوم الذى يصف شدة القتال فيه . وغمامة : سحابة . ولها : للغمامة . وأثر الشيء : ما يحدثه . وأثر الغمام : المطر . والطعن : مصدر طعنه بالرمح ونحوه (من بابى منع ، وقتل): أى وخزه به ، وضربه ، فجرحه ، أوقتله. أوهى الطعن (بضم فسكون): جمع طعين : بمعنى مطعون ، كقتيل بمعنى مقتول . ويراد بسائل الطعن هنا : الدماء الغزيرة الجارية ، التى تسيلها طعنات الرماح ، وضربات السيوف . والوبل : المطر الغزير ، الشديد ، الضخم القطر . ومثله الوابل .

يفتخر بشجاعته ، وبسالته ، وإقدامه ، وكثرة ما خاضه من معامع القتال ، وما شهده من أيام الحرب والنزال ، قائلاً : وربّ يوم اشتدتْ فيه جولات المتحاربين ، وتتابعتْ حركات الكرّ والفرّ ؛ حتّى انعقد فى سماء المعركة غبار كثيف ، أثارته — مع سنابك الخيل — هذه الجولات والحركات ؛ فكان كالسحابة الماطرة ، وكان مطرها الشديد الغزير ما تفجّر ، وسال ، وتصبّب من دماء القتلى والجرحى .

(٣٢) تقحّمته : تقحمتُ ذلك اليوم : أى دخلت فيه ، وخضت غماره بجرأة وإقدام وشجاعة ، واحتملت شدائده ومكارهه ؛ من قولهم : تقحّمَ الفرس النهر : أى دخل فيه عَنْوةً ، وتقحّم الرجل الأمر : رمى بنفسه فيه على شدة ومشقة ، وبغير روية . وفرداً : وحيداً . وهو حال من فاعل « تقحّم » . والنصل : حديدة محددة قاطعة جارحة ، تكون للرمح ، والسهم ، والسيف ، والخنجر ، والسكين ونحوها . و« حسْبُ » : اسم بمعنى كاف. وحسبه كذا : يكفيه ، ويُغنيه. ومن معانى الفتّى : السخى ، وذو النجدة . ومن معانى الفُتوة : النجدة ، والشجاعة . وبين النصر والنصل جناس كَسَبَ الكلام حسناً ، وضاعف بلاغته .

فى البيت السابق وصف يوماً عصيباً من أيام الحرب والقتال ، وصوّرشيئاً من أهواله وشدائده . =

لَوَيْتُ بِهِ كَفِّى ،وَأَطْلَقْتُ سَاعِدِى وَقُلْتُ لِدَهْرِى :وَيْكَ!فَامْضِ عَلى رِسْلِ (٣٣)
فَمَا يَبْعَثُ الْغَارَاتِ إلَّا مُهَنَّــدِى وَلا يَرْكَبُ الْأَخْطَارَ إلَّا فَتًى مِثْلِى (٣٤)

= وفى هذا البيت افتخر بأنه اقتحم ذلك اليوم الأيوم وحيداً فريداً ، لا يؤنسه غير سلاحه الذى تمرس به ، واعتاد حسن استخدامه .

والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فالشجاع يكفيه فى الحروب درعه وسلاحه ، ويغنيه عُدّته وعتاده؛ وبه ينال النصر ، ويقهر العدوّ ، ويبلغ المراد ، ويظفر بالمرام .

(٣٣) لويت به كفى : لويت بالنصل كفى . وبه : عليه ؛ فالباء هنا بمعنى « على » . يقال : لوى كفه على العصا : أى أمسكها ، قابضاً عليها بيده ، ضاماً عليها أصابعه . والساعد : الذراع ؛ وهو ما بين المرفق والكف . وإطلاق ساعده بالنصل والسلاح : كناية عن قوته ، وجرأته ، وشدة بأسه ، وتمرسه بالقتال والنزال ، وحسن استخدامه للسلاح وأدوات الحرب وعتادها . والدهر (فى الأصل) : اسم لمدة العالم ، من مبدإ وجوده إلى انقضائه ، ويطلق على المدة الكثيرة ، والأمد الطويل ، والزمان الممدود ، ومدة الحياة الدنيا . ودهر المرء : مدة حياته . وقد جرى الناس — وبخاصة الشعراء — على تهييب الدهر ، ونسبة الشر والخير ، والمسرة والمساءة إليه ، وترديد ما يصيبهم من حوادثه شاكين متوجعين . وسيطرة المرء على دهره : كناية عن عزه ومنعته ، وجريان أموره على ما يحب ويهوى . و « وى » : كلمة تعجب ؛ وقد تأتى للزجر والسيطرة والتهديد ، وهو المراد هنا ؛ وقد يكنى بها عن الويل : وهو العذاب ، والشر . والكاف المتصلة بها هنا : كاف الخطاب . وامض : أمر من « مضى » بمعنى ذهب ، وسار . والرسل (بكسر فسكون) : التمهل ، والتؤدة ، والتأنى ، والرفق . وامض على رسْل : سر متئداً ، وامش متأنياً ، وتمهل ، ولاتحاول الإسراع ، أو الانطلاق .

يفتخر بأنه قبض فى ذلك اليوم العصيب على سيفه ، وأطلق فى القتال ساعده ، وأنه بقوته وجرأته وشدة بأسه ، وكفايته الحربية العالية — استشعر العزّة ، والغلبة ، والسلطان ؛ وجرت أموره فى حروبه على ما يحبّ ويهوى ، وتحكّم فى عصره وزمانه ؛ فانقاد له الزمان وأطاعه . وهذا أبلغ من قول غيره :

ولو مدّ نحوى حادث الدهر كفّه لحدّثتُ نفسى أن أمدّ له يدا

وأخفّ مغالاة من قول الشاعر :

وإنك عبدى يازمان ، وإننى على الرغم منّى أن أرى لك سيدا

(٣٤) يبعث الغارات : يثيرها ، ويهيجها ، جمع الغارة : اسم من أغار المحاربون على أعدائهم إغارة : أى هجموا عليهم ، وأوقعوا بهم . والغارة أيضاً : الخيل المسرعة المغيرة . ويراد بالغارات هنا : الهجمات الشديدة ، الظافرة المنتصرة . والمهنّد : السيف المطبوع من حديد الهند ، وكان خير السّيوف =

. . . .

= عند العرب. وهنّد السيف تهنيداً: شحذه، وأحدّ سنانه، فالسيف مهنّد (بصيغة اسم المفعول): أى حادّ، ماض، قاطع، بتّار. والأخطار: جمع الخطر (بفتحتين): وهو الإشراف على الهلاك. ويراد بالفتى هنا: الشجاع، السخىّ، ذو النجدة: من الفتوّة: بمعنى النجدة، والشجاعة، والسخاء، والكرم، والمروءة. وفتى مثله: فتى يماثله، ويشابهه فى ركوب الأخطار، وفى المزايا، والمحامد التى افتخر بها. وفى شطرى البيت قصران بطريق النفى والاستثناء؛ وهما من مبالغاته المقبولة فى مثل هذا المقام؛ فسلاحه -لا سلاح غيره من المحاربين- هو الذى يشُنّ الغارات، ويثير الهجمات؛ وأمثاله من الفتيان ذوى النجدة والشجاعة هم الذين يركبون الأخطار لبلوغ الأوطار.

ختم الشاعر هذه القصيدة مفتخراً بفتوّته وشجاعته، وإقدامه على اقتحام المخاوف، وركوب الأهوال، واعتماده فى هذا ونحوه على سلاحه، وحسن استخدامه لعتاد الحرب، وأدوات القتال؛ وبهذه المزايا يوقع بأعدائه، ويبالغ فى قتالهم، ويفجؤهم بهجماته الخاطفة المظفّرة.

تلخيص وتعليق

انتظمتْ هذه القصيدة أربعة وثلاثين بيتاً، أكثرها فى الفخر؛ وقد افتتحها الشاعر بسبعة أبيات فى حديث الحب والكأس، والصبوة والهوى، والإغراق فى متع الحياة ولذّاتها، والانطلاق فى لهو الصبا، وجهالة البطالة، مستبيحاً لنفسه كل هذا، نافياً السبّة والعار عن أمثاله من ذوى الحجا، إذا سلمت من الفساد أخلاقهم.

ومن البيت السابع إلى البيت العاشر انتقل إلى حديث الجدّ والصرامة، متغنياً ببعض مفاخره، ولا سيما مزاياه الحربية.

ومن الحادى عشر إلى الثامن عشر أجرى حديثه مجرى النصح والإرشاد، أو المثل والحكمة، حاضّاً على طلب المعالى بالجدّ والإقدام، وركوب الأخطار، وأعمال الفروسية، وإيثار حياة الخشونة والكفاح على حياة الدعة والرفاهة، وما إلى ذلك من الفضائل والمؤهلات؛ وفى هذه النصائح تنديد بالكثرة الغالبة من الناس؛ فإن شرهم -فى رأيه- غالب، وخيرهم قليل، ومظهرهم يناقض مخبرهم، ونفوسهم مطبوعة على الكزازة والبخل، والحسد، والكيد، وفساد الطوية، وإضمار الغدر، واتباع الأهواء والشهوات، والولوع باللغو والباطل، كأنهم معوّقون لأمثاله؛ ولهذا نبّه، وندّد، وحذّر، وأيئس منهم، وأوجب الإعراض عنهم؛ فإنهم عراقيل، أو عقبات ينبغى أن يتخطّاها طلّاب العلا، وروّاد المجد والشرف.

ومن التاسع عشر إلى الرابع والثلاثين، أى إلى نهاية القصيدة، عاد إلى الفخر بكثير من مناقبه ومحامده.

=

وَقَالَ يَذْكُرُ مُقَامَهُ فِى «سِيلانَ»* وَيَتَشَوَّقُ إِلى الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ :

رُدُّوا عَلَيَّ الصِّبَا مِنْ عَصْرِىَ الْخَالِى   وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللِّمَّةِ الْبَالِى ؟[1]

= ويلاحظ أنه شديد الاهتمام بمناقبه الحربيّة ، كثير الترديد لها ، والتغنى بها فى شعره كلّه ، ولا غرو ؛ فإنه فارس محارب ، شديد البأس ، قوىّ المراس ؛ ويبدو أنه وقف فى حروبه مواقف كثيرة مشرّفة ، وعالج كثيراً من المخاطرات ، وأعمال المجد الحربىّ ؛ وربما كانت محاكمته فى أعقاب الثورة العرابية ، ونفيه إلى «سرنديب» من شواهد فروسيته وبطولته ، وإخلاصه لوطنه وأمته ، وصدقه فى الجهاد والقتال ؛ فمن حقه على الناس أن ينوهوا به ، ويعظّموا شأنه ، ويخلّدوا تاريخه وسيرته ، ويتقبلوا فخره وابتهاءه .

وله أن ينافس بفخره وشعره فرسان شعراء العرب ، من أمثال عنترة بن شدّاد العبسىّ ، وأبى فراس الحمدانىّ .

* * *

* «سيلان» : جزيرة بالمحيط الهندى ، مجاورة للهند ، فى جنوبيها الشرقى ؛ كثرة سكانها بوذيون ، وفيها قلة من المسلمين ؛ وقد استعمرها البريطانيون ، وسيطروا عليها من سنة ١٨٠٢ م إلى أن استقلت فى نطاق «الكومنولث» سنة ١٩٤٨ م ؛ وهى معروفة لتجار العرب وملاحيهم من قديم الزمان ، وهم الذين سموها «سرنديب» . وإليها نفى الشاعر : «محمود سامى البارودى» فى ٣٠ من صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) عقب إخفاق الثورة العرابية ، وطال به النفى سبعة عشر عاماً ؛ وفى ذلك المنفى السحيق نظم أجود شعره ؛ وفى عهد الخديو «عباس حلمى الثانى» رأى أولو الأمر فى مصر أن يعود المنفيون من قادة الثورة العرابية إلى وطنهم ؛ فصدر أمر العفو عن البارودىّ ؛ وعاد إلى مصر قبل رفاقه فى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م)

(١) الصبا : الحداثة ، والصغر . يقال : عرفته فى صباه : أى عرفته وهو غلام صغير السن . والعصر : الزمان . والخالى : الماضى . والاستفهام فى أول الشطر الثانى معناه الاستبعاد ، أو النفى ؛ كأنّ الشاعر وضع «هل» موضع «لن» التى تفيد تأبيد النفى فى المستقبل . واللمّة : ما جاوز شحمة الأذن من شعر الرأس ، أوما ألمّ منه بالمنكبين : أى قاربهما ؛ والمراد شعر الرأس مطلقاً . والبالى : اسم فاعل من بلى الثوب ونحوه (كرضى) : أى رثّ ، وخلق ، ودثر ، وذهبتْ جدّته ؛ ويراد بالبالى هنا : الذاهب . وكنى بسواد اللمة البالى : عن الصبا فى عصره الخالى ؛ لأن سواد الشعر من مظاهر الحداثة والصبا ، وأمارات الفتوّة والشباب غالباً ، فإذا ذهب ذهب معه الشباب ومرحه ولهوه ، وملابساته ودواعيه ، وحل محله بياض الشيب ، وهموم الهرم ، ومتاعب الشيخوخة . والشطران كلاهما فى التلهّف والتحسّر على ماذهب من صباه ، ونضارة عمره .

تمنى فى الشطر الأول أن يعود إليه ماذهبتْ به الأيام من مرح الصبا ، ولهو الشباب ؛ أو استنجد بمن يستطيعون — فى توهّمه وظنّه — أن يردوا إليه مافاته من فتوته وشبابه ؛ ولكنه ما لبث أن استبعد تلك =

مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ ، مَالاحَتْ مَخَايِلُهُ   فِى صَفْحَةِ الْفِكْرِ إِلَّا هَاجَ بَلْبَالِى؟[٢]
سَلَتْ قُلُوبٌ ؛ فَقَرَّتْ فِى مَضَاجِعِهَا   بَعْدَ الْحَنِينِ ،وَقَلْبِى لَيْسَ بِالسَّالِى[٣]

= العودة فى الشطر الثانى، فأعلن يأسه ، وانقطاع رجائه؛ والتعبير بـ « البالى » فى نهاية البيت قوى بليغ؛ فإن « سواد اللّمة البالى » لن يتجدد ، ولن يعود أبداً .

(٢) العيش : المعيشة ، والحياة ؛ ويريد به ماحزنه فواته ، وتحسر عليه فى البيت السابق من الصبا ، وملابساته ، ودواعيه . ولاحت : بدت، وظهرت . والمخايل : جمع المخيلة (بوزن معيشة ومعايش) : وهى فى الأصل: الظن، أو المظِنة؛ ومنه : ظهرتْ فيه مخايل النجابة : أى مَظِنّاتها ، ودلائلها . ويراد بالمخايل هنا : صور ذلك الماضى السعيد ، وذكرياته العزيزة المحبوبة . والفكر : إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . وفكر فى الأمر (من باب ضرب) : أعمل فيه عقله ، وتأمله . ولى فى هذا الأمر فكر : أى نظر ، وروية . ويراد بالفكر هنا : الذهن، أوالفهم ، أو العقل ، أو القلب ، أو النفس ، أو الخاطر ، أوقوة الإدراك والتصور . وهاج : فعل لازم ، معناه ثار ، وتحرك ، وانبعث؛ ومثله تهيّج ، واهتاج ؛ وفاعله « بلبالى » . أوهو فعل متعد ؛ يقال : هاجه ،وأهاجه، وهيجه : أى حركه ، وأثاره ؛ وفاعله ضمير يعود على « ماض من العيش » ؛ ومفعوله « بلبالى » . والبلبال: شدة الهم ، والوساوس .

يقول : كلما مرتْ بخاطرى صور ذلك الماضى السعيد — عَظُم تَلَهُّفِى ، واشتدتْ حسرتى، وثارت همومى وأشجانى .

(٣) سلاه ، وسلاعنه (من باب سما) : نسيه ، وهجره ، وطابت نفسه بعد فراقه ؛ واسم الفاعل منه « السالى » ؛ ولعله يريد بالقلوب : قلوب أحبائه الذين كانوا يعطفون عليه ، ويحنّون إليه ، فلما فرق النوى بينه وبينهم سَلَوْا عنه ، وطابت نفوسهم بعد فراقه. وقرّت: استقرتْ ، وثبتت ، وهدأت ، وسكنت . والمضاجع : جمع المضجع (بوزن مذهب ومذاهب) : وهو موضع الضجوع : اسم مكان من ضجع (من باب منع) : أى وضع جنبه على الأرض ، أونحوها . واستقرار القلوب فى مضاجعها : كناية عن رخاء البال ، وهدوء الخاطر ، وطيب النفس ، وراحة القلب ، وهناءة الحال ؛ وهو تأكيد لمعنى السلوان فى أول البيت . والحنين : الاشتياق ، وتوقان النفس ، ونزوعها إلى من تحب .

فى البيت الأول تمنى الشاعر أن يعود إليه ما زايله إلى غير رجعة من عهد الصِّبا، وعيش الشباب . وفى البيت الثانى اشتد تلهفه عليه ؛ فقال : إن صوره وذكرياته لاتفتأ تعاوده ؛ فتثير أشجانه ، وتجدد حسراته . وفى البيت الثالث عتاب مرّ لأخلاء ذلك العهد ؛ إذ كانوا يعطفون عليه ، ويحنّون إليه ، فلما افترق الشمل ضاعفوا همومه بسلوّهم عنه ، على حين أنه مازال ذاكراً لهم ، متعلقاً بهم ، حافظاً لعهدهم ، مقيماً على ودهم . والأبيات الآتية تؤكد هذا المعنى وتفصّله .

لَمْ يَدْرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُورًا بِلَذَّتِهِ ... أَنِّي بِنَارِ الْأَسَى مِنْ هَجْرِهِ صَالِي(٤)

يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا ! هَلْ إِلَى عِدَةٍ ... بِالْوَصْلِ يَوْمٌ أُنَاغِي فِيهِ إِقْبَالِي(٥)

غِبْتُمْ ؛ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ ... وَسَاءَ صُنْعُ اللَّيَالِي بَعْدَ إِجْمَالِ(٦)

---

(٤) لم يدر : لم يعلم. ويقال : بات يفعل كذا: إذا فعله ليلاً. وظل يفعل كذا : إذا فعله نهاراً . والبيات هنا يشمل الليل والنهار ؛ فمعناه الاستمرار . و « بلذته » : بلذة السلوان : أى برخاء البال المكنىّ عنه فى البيت السابق باستقرار القلوب فى مضاجعها . والأسى : الحزن ، أوشدته . و «من» فى الشطر الثانى : تعليلية ؛ فهى تفيد العلة : أى السبب ؛ فهو يصلى نار الأسى بسبب هجران أحبائه له ، وسلوهم عنه . والهَجر ، والهِجران : ضد الوصل والتلاقى . وإضافة « هجر» إلى ضمير الغائب ، وهو « الهاء » : من إضافة المصدر إلى فاعله ؛ فالهاء : ضمير « من بات مسروراً بلذته » وهو الهاجر : أى التارك ، المُعْرِض ، المتباعد ، أو السالى ؛ والشاعر هو المهجور ، أو المسلو عنه ؛ إذ اعتبر سلوهم عنه هجراناً له. وصال : اسم فاعل من صلى النار ، وبالنار (من باب رضى) : أى قاسى حرها ، أواحترق بها.

يقول – فى التياعٍ وأسًى شديد – هجرَنى أحبائى ، ونَسوا ما كان بيننا من حب ووداد ، وطابت نفوسهم بعد فراقى ، وباتوا ناعمين مسرورين بلذة حياتهم بعدى ، أو بلذة السلوان ، ورخاء البال . وهم لايكادون يعرفون ما أكابده وأضانيه ؛ فقد اشتد أسىَ لهذا الهجران ، وبت أحترق بلوعة الوَجْد والشوق ، وأتجرع مرارة البعد والحرمان .

(٥) العدة : الوعد : مصدر وعده الأمر ، وبالأمر : أى منَّاه به . والوصل ، والصلة ، والوصال : ضد القطيعة ، والصدّ ، والهجران . و « يوم » بالتنوين مع الرفع ، أوالنصب ، أو الجر ؛ وبلا تنوين مع النصب . والغرض من النداء : الاستعطاف ، والاسترحام . والغرض من الاستفهام : التمنى ؛ فهو يتمنى أن يظفر بوعد الوصال من أحبائه الذين غضبوا عليه ، وأعرضوا عنه بعد الحب والحنين ؛ وبذلك الوعد المأمول يسترد ماضيه السعيد ، وعيشه الرغيد ، وتعود إليه راحته وهناءته . وناغاه : قاربه ، وداناه ، ولاقاه . وناغيتُ الصبىَّ : لاطفته بالمحادثة والملاعبة ؛ وكلمته بما يعجبه ، ويسره ، ويهواه . وفيه : فى يوم الوصال . ويريد بالإقبال : ماينتجه الوصل ، أو العدة بالوصل من هناءته ، وسعادته ، وارتياحه ، وانشراحه ، ورخاء باله ، وصلاح حاله ؛ من قولهم أقبلت الدنيا على فلان : أى جاءته بخيرها ؛ وأقبلت عليه الدولة : أى المال ، والعزة ، والسلطان ، والغلبة ونحوها .

تمنى على أحبائه الغاضبين عليه ، المعرضين عنه – أن يعودوا إلى الرضا والإقبال ، ويعدوه بالوصال ؛ لينعم ، ويهنأ ، ويستريح ، ويسعد ، وتقبل عليه الدنيا بخيرها .

(٦) الخطاب فى « غبتم » للغاضبين عليه فى البيت السابق . وغيابهم يشمل – مع شحط الدار ، وبعد المزار – القطيعة ، والصد ، والإعراض ، والسلوان ، والهجران . وأظلم يومى : اسودّ : من الظلام . =

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي مِنْكُمْ عَلَى ثِقَةٍ حَتَّى مُنِيتُ بِمَا لَمْ يَجْرِ فِي بَالِي[٧]
لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْبًا أَسْتَحِقُّ بِهِ عَتْبًا ، وَلٰكِنَّهَا تَحْرِيفُ أَقْوَالِ[٨]

= أو الظلمة ، أو الظلماء . ويراد باليوم هنا : كل الوقت ، أوالحين ، نهاراً ، وليلاً . وإظلام يومه : كناية عن تكدّر معيشته ، ونكد الدنيا عليه . والفرقة : اسم من فارقه مفارقة وفراقاً . وساء يسوء : شاه ، وقبح . وصنع الليالى : عملها ، وتصرفها : مصدر صنعه (من باب منع) صنعا (بفتح فسكون ، أوبضم فسكون) . و« ساء صنع الليالى » : تكرار ، وتأكيد لمعنى « أظلم يومى » . والإجمال : الإحسان : مصدر أجملت الشيء : أى حسّنته ، وصيرته جميلاً . والسوء أو القبح شرّ فى ذاته ، فإذا جاء بعد الإجمال والإحسان — كان أفظع ، وأنكى ، وأوجع ، كالفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز ، والمرض بعد الصحة ، والوحشة بعد الأنس ، والهزيمة بعد النصر ، والشقاء بعد السعادة . . . ويلاحظ أن الشاعر أولع فى هذا البيت ، وفى خمسة الأبيات السابقة بترديد مثل هذا المعنى ، ومثل هذه المقابلات المؤثّرة الفاجعة ؛ فقد مضى عصر صباه وشبابه ، وتلاه ابتئاس الشيب والهرم ؛ وزايله رغد عيشه فى وطنه ، ليشقى بنكد العيش فى منفاه ؛ وسلاه أحباؤه بعد الحب والحنين؛ وهجروه بعد الإقبال والوصال ؛ وبقى مع هذا كله وفيًّا لهم ، متعلقاً بهم؛ وقرّتْ قلوبهم فى مضاجعها ، وأقَضُّوا عليه مضجعه؛ وباتوا مسرورين بلذة السلوان ، وبات يَصْلى نار الأسى والهجران . . . وهكذا من غضب بعد رضا ، وغياب بعد حضور ، ونأى بعد قرب ، وظلمة بعد ضياء ، وفُرقة بعد تلاق ، وإساءة بعد إحسان؛ وفى بعض الأبيات الآتية مايشبه هذا ، ويجرى مجراه .

شكا ما يقاسيه من فراق أحبابه ، وغيبتهم؛ فأوقاته بعدهم مظلمة قاتمة ، وعيشته كَدِرة نَكِدة ، والزمن يعاسره ، ويخاشنه ، ويسيء إليه ، بعد مياسرة ، وملاينة ، وإحسان .

(٧) أحسبنى : أظننى . و« منكم » متعلق بـ« ثقة » : أى على ثقة منكم : أى تثقون بى ، وأثق بكم . وثِق به : ائتمنه ، واطمأن إليه . ومُنِيتُ : ابتُلِيتُ ، وأصِبتُ . مناه الله بكذا (من باب رمى) : ابتلاه به ، واختبره . والبال : الخاطر ، والقلب ، والنفس . وجرى الشيء فى باله : خطر ، ووقع . ومُنِىَ بمالم يجرفى باله : فوجئ بمالم يكن يتوقعه .

كان يظن أن الصلة بينه وبين المعاتبين وثيقة ، والوداد خالص ، والبر والوفاء موفوران دائمان فى العسر واليسر ، والشدة والرخاء ؛ فلما أصابته محنة النفى والإبعاد ، ومسّه الضُّر ، وأحاط به الشرّ — منى بما لم يكن يتوقّعه من القطيعة والهجران ، والإعراض والسلوان ؛ فخاب الأمل ، وتزعزعت الثقة ، واشتد به الكرب والبلاء .

(٨) لم أجن : لم أقترف . جنى الذنب : ارتكبه ، وقارفه . وفى الحب : بسبب الحب ، أو فى سبيل الحب ، أو فى أثناء مكابدته ومعاناته . وبه : بالذنب : أى بسببه ، ومن أجله . والعتب : الموجدة ، واللوم ، وأن تنكر على من تعاتبه شيئاً من فعله . ولكنها : ولكن القصة ، أو الحالة . وتحريف الكلام :=

وَمَنْ أَطَاعَ رُوَاةَ السُّوءِ — نَفَّرَهُ ... عَنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ[٩]

أَدْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرٌ قَبْلَهُ ثِقَةٌ ... وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ صَدٌّ بَعْدَ إِقْبَالِ[١٠]

= إمالته عن وجهه ، وتغييره عن مواضعه .

يقرر أن حبه قائم على الصدق والإخلاص ، والبر والوفاء ، وأنه لم يقترف فيه مايعيبه ، أو يؤاخذ به ؛ ولكن الوشاة لايفتئون يحرفون كلام المتحابين عن مواضعه ، ويُخَرّجونه تخريجاً سيئاً للوقيعة والإفساد . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويؤكده .

(٩) روى الحديث ونحوه يرويه رواية : حمله ، ونقله ، وذكره ، واسم الفاعل منه راو ؛ وجمعه رُواة. والسوء : الشر ، والفساد ؛ ورواة السوء : الوُشاة المولعون بالنميمة والسعاية ، وتزيين الكذب ، والإفساد بين المتحابين . ونفّره تنفيراً : حمله على النفور : أى الانقباض ، والسخط ، والإعراض والهجران . والقيل والقال : مصدران ، أو اسمان بمعنى القول ، أوكلام الناس ؛ أو لايجتمعان إلافى السوء والشر ؛ وقد نهى النبى — صلى الله عليه وسلم — عن القيل والقال : أى عن فضول القول ؛ مما يوقع الخصومة بين الناس .

يحذّر الاستماع للواشين ورواة السوء ؛ فإن دأبهم تحريف الكلام ، والإفساد بين المتحابين ؛ فمن أقبل عليهم ، وانقاد لهم نفّروه بسعايتهم من أصدقائه وأحبائه ؛ فخسر صداقتهم وودهم ، وتقطّعت بينه وبينهم الأسباب .

(١٠) أدهى: اسم تفضيل من دهاه الأمر يدهاه: إذا نزل به ، وأصابه ، وفاجأه ، وأتاه من مأمنه؛ ومنه الداهية : وهى النازلة ، والنائبة ، والأمر المنكر العظيم . والمصائب : جمع المصيبة : وهى البلية، والداهية ، والشدة ، والكارثة ، وكل أمر مكروه يحل بالإنسان ويصيبه . والغدر : نقض العهد. وضده الوفاء . والثقة : مصدر وَثِق به : أى ائتمنه ، واطمأن إليه . والصد : الإعراض والهجران . وضده الإقبال والوصال .

جعل غدر أحبابه به ، ونقضهم لعهده ، بعد ثقته بهم ، وثقتهم به — مصيبة دونها كل المصائب ؛ وما أثقلها عليه ، وفظّعها لديه أنها أتته من مأمنه ، ودهته ممن وثق بهم ، واطمأن إليهم . كما عدّ إعراضهم عنه بعد إقبالهم عليه ظلماً قبيحاً ؛ بل عدّه أقبح الظلم ، وأشنعه ، وأفظعه ، وأدهاه ؛ ولاريب أن الغدر والظلم — فى ذاتهما — منكران قبيحان ، فإذا جاءا من الأصدقاء الأوِدّاء ، كان نُكْرُهما أفظع وأشنع ، وقبحهما أنكى وأوجع ؛ فإذا أضيف إلى هذا كله أن الصدّ ، والغدر أصاباه وهو فى منفاه — علمنا أن أزمته النفسية بلغتْ أقصى غايات القسوة والشدة . وفى مثل هذا المعنى قوله فى البيت السادس : « وساء صنع الليالى بعد إجمال » ؛ وقد يكون معنى هذا البيت : أن الشاعر لم يكن منه غدر بمن أحبهم من أهله وصحبه الذين تركهم فى مصر على الحبّ والوفاء ؛ ولم يكن منه صدود، أو إعراض ، أو صدوف ، =

لا عَيْبَ فِيَّ سِوَى حُرِّيَّةٍ مَلَكَتْ ... أَعِنَّتِي عَنْ قَبُولِ الذُّلِّ بِالْمالِ(١١)

تَبِعْتُ خُطَّةَ آبَائِي ، فَسِرْتُ بِهَا ... عَلَى وَتِيرَةِ آدَابٍ وَآسَالِ(١٢)

= أو انصراف ؛ وأكّد هذا النفي بقوله : ولو وقع منه شيء من هذا لكان أقبح الظلم ، وأدهى المصائب .

والتعبير في هذا البيت سائغ ، مقبول ، لابأس به ؛ ولوعكس ، فقال : « أقبح الظلم غدر قبله ثقة ، وأدهى المصائب صدّ بعد إقبال » – لكان أجود وأجمل ؛ فالغدر ، والخيانة ، ونقض العهد من صور الظلم وأمثلته ؛ وإنه ليقبح كل القبح إذا وقع من موثوق به على واثق ، لايزال يحفظ العهد ، ويقيم على الود ؛ وإعراض الحبيب عن المحبّ بعد إقباله عليه : هو الداهية الدهياء ، والمصيبة الجلى التي تحطم قلب المحب ، وتقتل آماله .

هذه عشرة أبيات تحسر فيها الشاعر على مازايله من عصر الصبا والشباب ، وعيش الرغادة والهناءة ، واجتماع الشمل ، ورخاء البال ؛ وشكا الوجد والصبابة ؛ وعاتب من سلوا عنه ، ونسوا ماكان بينه وبينهم من حب ومودة ، وتلاق وإقبال ؛ وأظهر – في توجع وتفجع – مابين أمسه ويومه ، أو ماضيه وحاضره من تضادّ وتناقض ، وتباين واختلاف ؛ واهتمّ بإثبات صدقه في حبه ، وإخلاصه لمن أحبهم ، وإقامته على الود والوفاء ، وبراءة ساحته من الذنوب والهنوات ؛ وحذّر وتبرّم بـرواة السوء الذين لايفتئون يقطعون بسعاياتهم أواصر المودة بين المتحابّين ؛ وصوّر هذا كلّه تصويراً يشبه الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ؛ وهو ضرب من التلميح المألوف في الشعر العربي ؛ ومنه انتقل إلى الفخر بنفسه في الأبيات الآتية .

(١١) الأعنة : جمع عنان (بوزن سنان وأسنة) : وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة . وملكت الحرية أعنتي : سيطرتْ عليّ ؛ فجريت على سنها ، ولم أحد عن طريقها ؛ وهذا كناية عن استمساكه بها ، وحرصه عليها ، ودفاعه عنها ؛ وفي البيت تأكيد المدح بما يشبه الذم . و « عن قبول » : جار ومجرور ، متعلّقه غير مصرّح به في الكلام ؛ وفي الإمكان تقديره بـ « منعتني » أو نحوه : أي بما تضمّنه الفعل « ملك » من معنى المنع ، أو الحبس ، أو الصد ، أو نحو ذلك .

استنكف الشاعر أن يقبل المذلة والهوان ، وأبى أن يبيع عزته ، وكرامته ، وحرية بلاده بما قدّمه إليه المعتدي الغاصب من الأموال والوعود المغرية ؛ ولا غرو ؛ فإنه رجل حرّ أبيّ ، يقدر الحرية ، ويعظّم شأنها ، ويحرص عليها ، ويبذل في سبيل الدفاع عنها كل نفيس ؛ وهذا – وحده – عيبه الذي كان سبب اضطهاده ، وتشريده ، وتجريده ، ونفيه ، وإبعاده .

(١٢) تبعه (من بابي طرب وسلم) : حذا حذوه ، واقتدى به ، وسار في أثره ، ولم يحد عن طريقه . ومثله اتّبعه . والخطة : الأمر ، أو الشأن ، أو الحالة ، أو الخصلة ، أو الخلق ، أو السيرة أو السلوك . وفي الحديث : « إنه قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها » : أي أمر واضح في الهدى والاستقامة ؛ فتقبلوه ، والتزموه . وسرت بها : سرت بالخطة : أي سرت على نورها ، والتزمت ماتهدي إليه . وسرت بها : سيّرتها : أي أحييتها بالانقياد لها ، والاقتداء بها ؛ وهو تأكيد لمعنى =

فَمَا يَمُرُّ خَيَالُ الْغَدْرِ فِى خَلَدِى وَلَا تَلُوحُ سِمَاتُ الشَّرِّ فِى خَالِى(١٣)
قَلْبِى سَلِيمٌ ، وَنَفْسِى حُرَّةٌ وَيَدِى مَأْمُونَةٌ ، وَلِسَانِى غَيْرُ خَتَّالِ(١٤)

التبع ، أو الاتّباع فى أول البيت . والوتيرة : الطريقة المطّردة ، والمداومة على الشىء ، والملازمة . والآداب : جمع أدب : وهو رياضة النفس — بالتعليم والتّهذيب — على ماينبغى . وآسال : شبه ، وعلامات ، وأخلاق ، وشمائل ؛ ولم يسمع لها بمفرد ؛ ومن كلامهم : « فلان على آسال من أبيه » : أى على شَبَه منه . وتأسّل أباه : أشبهه ، واقتدى به ، وتخلّق بأخلاقه . والشطر الثانى توضيح لخطة آبائه ؛ فهى خطة رشد ، وعزة ، وهدى ، واستقامة . ولقد اتبعها ، وسار بها على طريقة مطّردة من آداب هؤلاء الآباء العظماء وآسالهم : أى شمائلهم . .

يفخر بأنه يسير على ما ورثه عن آبائه من آداب رفيعة ، وأخلاق كريمة ، وشمائل عالية . وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن الحرص على الحرية ، وإباء الضيم ، ورفض المذلة من خطة آبائه ، وآدابهم ، وشمائلهم.

(١٣) مرّه ، ومرّ به ، ومرّ عليه ؛ يتعدّى بنفسه ، وبالباء ، وبعلى ؛ ويلاحظ أن الشاعر عداه بـ « فى » « فما يمرّ خيال الغدر فى خلدى » ؛ فهى بمعنى « الباء » ، أو بمعنى « على » ، أو أن الفعل « يمر » مضمن معنى فعل آخر يتعدى بـ « فى » ، مثل « يقع » أو « يخطر » ؛ وهذا كله كثير مألوف فى الشعر العربى . وخيال الشىء : صورته ، وظله . والغدر ترك العهد ، ونقضه ، والإخلال به . وضده الوفاء . والخلد (بفتح الخاء واللام) : البال : والقلب ، والنفس . وتلوح : تبدو ، وتظهر . وسمات : علامات ، وأمارات ، واحدتها سمة (بوزن عدة وعدات) . ومن معانى « الخال » : الظن ، والتوهّم .

نفى عن نفسه الغدر وضروب الشرّ كلها بأسلوب قوىّ بليغ ؛ فهو لا يكاد يتصوّر الغدر ، أو يتخيّله ، أو يفكّر فيه ، أو يديره فى خلده ، أو يمرّ بباله مروراً سريعاً .

وعلامات الشرّ وضروبه كلها بعيدة كل البعد عن ظنه ، وتوهّمه ، وتفكيره ، وتدبيره ؛ وإنما هو رجل خير وبرّ ، واستقامة وأمانة ، وصدق ووفاء .

(١٤) قلبى سليم : يريد سلامته من الآفات والنقائص ، والعيوب النفسية والخلقية : كإضمار الشرّ ، والحقد ، والحسد ، والضغينة ونحوها . وفى القرآن الكريم : « يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » (الآية ٨٨ والآية ٨٩ من سورة الشعراء). ونفسى حرة : عزيزة ، كريمة ، قوية ، أبية ، نقية ، عفيفة . ويدى مأمونة : أمينة ، يوثق بها ، ويطمأن إليها ، ويعتمد عليها ، ولا يتوقّع منها خيانة ، أو غدر ، أو شرّ ، أو عدوان . وغير ختّال : غير خدّاع : صيغة مبالغة من ختله (من بابى ضرب وقتل) : أى غرّه ، وراوغه ، وخدعه عن غفلة ، وأراد به الشرّ والمكروه من حيث لايعلم . والمبالغة هنا غير مقصودة ؛ فهو ينفى عن نفسه الختل فى جميع ضروبه وصوره ، ومراتبه وألوانه . ولسانى غير ختال : صادق ، صريح ، واضح ، لا يخاتل ، ولا يخادع ، ولا يظهر غير ما يضمره قلبى السليم .

لَكِنَّنِى فِى زَمَانٍ عِشْتُ مُغْتَرِبًا فِى أَهْلِهِ حِينَ قَلَّتْ فِيهِ أَمْثَالِى[١٥]
بَلَوْتُ دَهْرِى ؛ فَمَا أَحْمَدْتُ سِيرَتَهُ فِى سَابِقٍ مِنْ لَيَالِيهِ ، وَلَا تَالِى[١٦]
حَلَبْتُ شَطْرَيْهِ : مِنْ يُسْرٍ ، وَمَعْسُرَةٍ وَذُقْتُ طَعْمَيْهِ : مِنْ خِصْبٍ ، وَإِمْحَالِ[١٧]

افتخر بسلامة قلبه ، وعزّة نفسه ، وأمانة يده ، وصدق لسانه .

(١٥) المغترب : الغريب ، النازح ، البعيد عن وطنه وأهله ، وأمثالى : أشباهى ، ونظرائى ، مفرده مثل (بكسر فسكون) : وهو الشبه ، والنظير .

يفخر بقلة أشباهه ونظرائه فى زمانه ؛ ولهذا يحيا بين الكثرة الغالبة من أهل هذا الزمان حياة الاغتراب والعزلة ، والوحشة ، والجفوة ؛ إذ لا يشبههم ، ولا يشبهونه ، ولا يألفهم ، ولا يألفونه .

وهذا قريب من قول أبى الطيب المتنبى :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

(١٦) بلوت : اختبرت ، وامتحنت ، وجربت . ودهرى : زمانى . وما أحمدت سيرته : لم أجدها محمودة ؛ أو لم أجد فى سيرته ما يحمد . وسيرته : سيره : وهى اسم من سار يسير : أى مشى . والسيرة أيضاً : السنّة ، والطريقة ، والمذهب ، والسلوك ، والحالة التى يكون عليها الإنسان وغيره . وسيرة الرجل : تاريخ حياته ، وصحيفة أعماله ، وأحوال سلوكه بين الناس . والتالى : اسم فاعل من تلاه يتلوه : أى تبعه ، ولحق به ، وسار فى أثره . وضدّه السابق؛ ويراد بالسابق والتالى من لياليه : أوقاته كلّها . وقد جرى الناس قديماً وحديثاً على شكوى الدهر والزمان ؛ وهم ينسبون إليه ما يتقلّبون فيه من الخير والشرّ ، والمسرّة والمساءة ، والأمن والخوف ، واليسر والعسر ، والرخاء والشدة ؛ فإن أصابتهم فتنة ، أو شرّ ، أو بلاء — تبرّموا بالدهر ، وأعلنوا ضجرهم منه ، وسخطهم عليه ، وبالغوا فى سبّه وشكواه .

يقول : إنه اختبر الزمان الذى يعيش فيه ، وجرّب السابق واللاحق من أيامه ولياليه ، فلم يجد فى سيره وسيرته وأعماله وتصرفاته معه شيئاً يستحق الحمد وحسن الثناء .

فى البيت السابق افتخر بقلة أمثاله فى زمانه ، وجهر بأنه يحيا بين الكثرة الغالبة من أهل هذا الزمان حياة العزلة والاغتراب ، والقطيعة والإعراض .

وفى هذا البيت تبرم به ، وسخط عليه ، وجرّده من الخير والمحامد ؛ لأنه لم يجد فى ماضيه وحاضره شيئاً يسره ويرضيه .

(١٧) حلبت شطريه : حلبت شطرى دهرى : أى جربت أموره ، واختبرت أحواله كلها ، ومر بى خيره وشره ، وحلوه ومرّه ، ورخاؤه وشدّته ؛ مستعار من حلبت الشاء ، والبقر ، والإبل ، ونحوها :=

فَمَا أَسِفْتُ لِبُؤْسٍ بَعْدَ مَقْدُرَةٍ وَلَا فَرِحْتُ بِوَفْرٍ بَعْدَ إِقْلَالِ(١٨)

عَفَافَةٌ نَزَّهَتْ نَفْسِي، فَمَا عَلِقَتْ بِلَوْثَةٍ مِنْ غُبَارِ الذَّمِّ أَذْيَالِي(١٩)

=أى استخرجتُ ما فى ضرعها من اللبن. والشطر: نصف الشىء، أو جزؤه، مثنّاه شطران، وجمعه أشطر، وشطور (بوزن أسطر، وسطور). وللناقة ونحوها شطران: قادمان، وآخران. وكل خلفين من أخلافها: شطر؛ وحلبت شطريها: حلبت أخلافها كلها: جمع خلف (بكسر فسكون): وهو حلمة ضرعها. هذا هو معنى الحلب، ومعنى الشطر فى أصل اللغة؛ ثم تجوّزوا بهما، وتوسّعوا فى استعمالهما؛ فقالوا: «حلبت بالساعد الأشدّ»: أى استعنت بمنْ يعنى بحاجتى، ويهتم بشأنى، ويقوم على أمرى قياماً حسناً. وقالوا: «حلبت الدهر أشطره» و«حلبت الدهر شطريه»: أى خبرته، وتمرست بخيره وشره. واليسر: السهولة، والغنى. وضده المعسرة (بوزنى المكرمة، والمرحمة): وهى الصعوبة، والشدة، والفقر، وضيق ذات اليد. والخصب: كثرة العشب والنبات والخير، ورغد العيش. وضده الإمحال: وهو الإجداب والإقفار، والشدة، والجوع، وانقطاع المطر، ويبس الأرض.

والشطر الثانى من هذا البيت: فى معنى الشطر الأول؛ فهو تكرار وتأكيد له. وقد خبر الشاعر الدهر، وجرّبه، وتمرّس بيسره وعسره، وخيره وشرّه، وحلوه ومره، ورخائه وشدته، ووفرته وإقلاله، وخصبه وإمحاله.

والبيت الآتى تفريع، وتطبيق، وبيان لأثر هذا التمرّس الطويل الممدود الموفور.

(١٨) أسف عليه: حزن. وأسف له: تألم، وندم. والبؤس: الفقر، وشدة الحاجة. والمقدرة (بتثليث الدال): القوّة، واليسار، والغنى؛ وهى خلاف البؤس. والوفر: الغنى، واليسار، والكثير الواسع من المال والمتاع ونحوهما. وضدّه الإقلال: وهو الفقر: مصدر أقلّ الرجل: أى قل ماله، وافتقر بعد غنى.

يقول: إنه لطول تمرّسه بتقلّبات دهره، لا يكاد يبالى هذه التقلّبات، أو يهتمّ بها، أو يكترث لها؛ فالفقر بعد الغنى لا يسوءه، ولا يحزنه؛ والغنى بعد الفقر لا يفرحه، ولا يبطره.

(١٩) عفّ عفّة، وعفافة: كفّ عن الحرام، وامتنع عما لا يحلّ، ولا يجْمل من قول أو فعل. ونزّه نفسه عن القبيح تنزيها: أبعدها عنه، وصانها منه، ونحّاها، وترفّع بها عن كل ما يشينها. وما علقتْ (من باب تعب) بلوثة: المراد: ما تلوثت، ولا تلطّخت، ولا اتسخت. وفاعله «أذيالى» والترتيب الأصلى: فما علقت أذيالى بلوثة من غبار الذم. والأصل: علق الشوك بالثوب: أى نشب فيه، واستمسك به، وتعلّق. واللوثة: اسم مرّة من لاث (من باب قال) الثوب ونحوه فى التراب، أو الطين، أو نحوهما: أى لطخه به، ومثله لوثه تلويثاً. والغبار: ما دقّ من التراب، أو الرماد. والذمّ: العيب. وغبار الذم: الذم الشبيه بالغبار. والأذيال: جمع الذيل: وهو أسفل الثوب، وآخر كلّ شىء. وما علقت أذيالى بلوثة من غبار=

فَالْيَوْمَ لَا رَسَنِي طَوْعُ الْقِيَادِ ، وَلَا قَلْبِي إِلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَـــا بِمَيَّالِ(٢٠)

لَمْ يَبْقَ لِي أَرَبٌ فِي الدَّهْرِ أَطْلُبُهُ إِلَّا صَحَابَةُ حُرٍّ صَادِقِ الْخَالِ(٢١)

= الذم : ما دنّس شيئاً من ثيابى شىء من العيب ، أو المنكر ، أو القبيح المستهجن ؛ وهذا كناية عن عفّته ، وطهارة نفسه ، ونقاء عرضه ، وترفّعه عن كل ما لا يحلّ ، ولا يجمل من الأقوال والأفعال ؛ وهو شرح ، وتوضيح وتأكيد لمعنى « عفافة » فى أول البيت .

افتخر بعفّته ، ونزاهة نفسه ، ونقاء عرضه ، وترفّعه عما لا يليق ، ولا يجمل .

وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن عفته صانته من الاستكانة والضعف ، والتأثّر بتقلّبات الدهر ، ومفارقات الزمان ؛ فالمحن ، والكوارث ، والنكبات ، والحوادث ترتدّ عنه ، وهو صامد ثابت فى مستواه العالى ، ومنزلته الرفيعة ، وحصنه الحصين : حصْن العفافة والنزاهة .

(٢٠) الرَّسَن : الحبل . أو المقْود : أو الزمام يجعل فى رأس الدابّة ، أو يشدّ فى أنفها لتقاد به . والطوع : الانطياع ، والانقياد ، والخضوع : مصدر طاعه ، وطاع له (من باب قال) : أى لان له ، وانقاد . والقياد : مصدر قاد الرجل الدابة : أى مشى أمامها آخذاً بمقودها . ومعنى « لا رسنى طوع القياد » : لا أذلّ ، ولا أخضع ، ولا أستكين ، ولا أنقاد ؛ فالتعبير كناية عن عزته ، وأنفته ، وحميّته ، وسموه فوق الأهواء والشهوات . وزهرة الدنيا : حسنها ، وبهجتها ، ومتاعها ، وزينتها ، وغضارتها ، ونضارتها .

والمعنى : أنه اليوم لا ينقاد لنزوات النفس ، ولا ينخدع بمتاع الحياة الدنيا ، ولا يكاد يتعلق بها أو يباليها ؛ وهذا هو الزهد الذى يفزع إليه المرء إذا أصيب بمثل ما أصيب به الشاعر من الاضطهاد ، والتجريد ، والنفى ، والتشريد .

أو المعنى : أنه اليوم وقبل اليوم لم يخضع لعات ، ولم يقبل ذلاً ، ولم يغترّ بإقبال الدنيا عليه .

(٢١) الأرب : الحاجة ، أو الحاجة الشديدة ، أو البغْية ؛ أو الأمنيّة . وصحابة : صحْبة : مصدر صحبه (من باب سلم) : أى صاحبه ، ورافقه . وحرّ : كريم ، طيّب ، شريف . والخال : الظن ؛ وما توسّمت من خير . وصادق الخال : يصدق ظنه بى ، ويصدق ظنى به ؛ أو أتوسّم فيه الخير ، فتصْدُق فراستى ، وأراه عند ظنى .

كان للشاعر حاجات أو أمانىّ فى دهره ، أو فى أهل دهره ، انقطعتْ كلها وخابتْ ، ولم يبق منها غير أمنيّة واحدة ، هى أن يعثر على صاحب وصديق حرّ كريم ، طيّب شريف ، يحقّق الظن ، ويقيم على الودّ ، ويصْدُق الإخاء ، ويدين بالوفاء .

وفى الأبيات الآتية استبعد الشاعر ذلك الأمل الفريد الوحيد ؛ بل استيئس منه ، وأعلن انقطاعه وفواته ، وشكا الوحدة وملابساتها ، وهمومها وآلامها ؛ وإذا كانت الوحدة فى ذاتها موحشة مؤلمة ، فهى لمثل هذا الشاعر فى ذلك المنفى السحيق أشدّ إيحاشاً وإيلاماً .

وَأَيْنَ أُدْرِكُ مَا أَبْغِيهِ مِنْ وَطَرٍ وَالصِّدْقُ فِي الدَّهْرِ أَعْيَا كُلَّ مُحْتَالِ؟(٢٢)
لَا فِي «سَرَنْدِيبَ» لِي إِلْفٌ أُجَاذِبُهُ فَضْلَ الْحَدِيثِ، وَلَا خِلٌّ، فَيَرْعَى لِي(٢٣)

(٢٢) «أين» : اسم يستفهم به عن المكان : أى فى أىّ مكان أدرك ما أبغيه من وطر ؟ . والاستفهام هنا : للاستبعاد . وأدرك : أنال ، وأبلغ ، وأصيب . وما أبغيه : الذى أطلبه ، وأريده وأبتغيه . والوطر : الحاجة ، والبُغْية . والصدق فى الدهر : صدق الزمان ، ووفاؤه ، أوصدق أهل الزمان ووفاؤهم . وأعياه الشىء : أتعبه ، وأعجزه ، واستعصى عليه . والمحتال : طالب الشىء بالحيلة : وهى الحذق ، وجودة الرأى ، وصحة النظر فى الأمر ، والقدرة على التصرّف : اسم فاعل من احتال احتيالاً : أى أتى بالحيلة ، واستخدمها ، واعتمد عليها فى إصابة غرضه ، وتحقيق وطره .

فى البيت السابق طمع أن يحقّق له الدهر أمنيّة واحدة ، فيُعْثره على صاحب حرّ كريم ، وصديق صادق الود .

وفى هذا البيت استبعد الظفر بتلك الأمنية . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ؛ مؤكّد لمعنى الاستبعاد ، وانقطاع الأمل ، وفوات الوطر ، وموت الرجاء ؛ فإن الدهر فى طبعه الكذب ، والإخلاف ، والمراوغة ، والمعاسرة ، ومعاداة الأحرار ؛ وهو بهذه الخصال ونحوها أعيا ذوى الحيلة ، والحذق ، والرأى ، والذكاء ، والدهاء ، وردّهم بالخيبة المُرّة ، والحسرات القاتلة .

وقد يكون معنى الشطر الثانى من هذا البيت : أن صدق الناس فى هذا الزمان لا وجود له ، ولا سبيل إليه ؛ وما دام الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى الصاحب الحرّ ، والخلّ الوفىّ . والتفسير السابق ينتهى إلى هذا التفسير ويطابقه ؛ فالشاعر حينما يعيب الزمان ويشكوه ، إنما يعيب أهل الزمان ويشكوهم ؛ وهو بهذا البيت يمهّد لما يشكوه فى الأبيات الآتية من وحدته ووحشته فى منفاه ، وبعض ما كان يقاسيه فيه من المتاعب والآلام .

(٢٣) «سرنديب» : «سيلان» وقد عرّفنا بها فى عنوان هذه القصيدة . صفحة ٩٣ . والإلف : أليف ، مؤانس : من ألفه (كعلمه) : أى أنس به ، وأحبّه ، وصادقه ، وعاشره . وجاذبته الشىء : نازعته إياه . وتجاذباه : تنازعاه . وجذبه إليه : ضدّ دفعه عنه . وفضل الحديث : طرف الكلام . وأجاذبه فضل الحديث : أتحدّث إليه ، ويتحدّث إلىّ بما يكون بين الإلفين المتحابين . والخلّ (بكسر الخاء وضمها) : الصديق المختص الودود ، ومثله الخليل . ورعى الأمر يرعاه رعاية : حفظه ، وصانه . ويرعى لى : المراد يرعى لى الخلّة : وهى الصداقة ، والمودّة ، والمحبّة التى تخلّلت النفس ، وخالطتْها وامتزجت بها .

يشكو خلوته ، ووحدته ، ووحشته فى منفاه ؛ فهو غريب فيه ، متبرّم به ، بعيد عن وطنه ، منقطع عن أهله ، لا يكاد يجد من يحادثه ، ويؤانسه ، ويخفّف عنه وحشته ، ويرعى له خلّته من الألّاف والأخلاء .

أَبِيتُ مُنْفَرِدًا فِى رَأْسِ شَاهِقَــةٍ مِثْلَ الْقَطَامِىِّ فَوْقَ الْمِرْبَاِ الْعَالِى(٢٤)

إِذَا تَلَفَّتُّ لَمْ أُبْصِرْ سِوَى صُوَرٍ فِى الذِّهْنِ ،يَرْسُمُها نَقَّاشُ آمَالِى(٢٥)

---

(٢٤) بات يبيت : أدركه الليل، وبات فى مكان كذا : أقام به ليلاً ؛ والمراد هنا : الإقامة المطلقة الدائمة، ليلاً ونهاراً؛ وإنما عبّر بالبيات؛ لأن الليل عادة وقت الأرق ، والوَحْشة ، والهمّ ، والضجر . . . وما يعانيه أمثال الشاعر من متاعب النفى وأوصا به ، وهموم الانفراد وآلامه . ومنفرداً : فريداً ، وحيداً . ورأس كل شىء : أعلاه . وشاهقة : عظيمة الارتفاع ؛ والمراد فى رأس هضبة ، أو قنّة ، أو رابية ، أو أرض جبليّة مرتفعة. والقطامىّ (بفتح القاف وضمها) : الصقر الحديد البصر ؛ يرفع رأسه وينظر إلى الصيد ، ويرقبه . والمَرْبأ (بوزنى المذهب والمنبر) : المكان العالى المرتفع ، يقف فوقه من يشرف على شىء ، ويرقبه .

والبيت شبه تكرار وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فقد أمضّه الهمّ والحزن، والعزلة والوحشة ، والانفراد والوحدة، ومرّتْ به الليالى والأيام متتابعة طويلة مملّة فى ذلك المنفى السحيق، وفى تلك القنّة الشاهقة (ويبدو أن المنزل الذى اختير لإقامته كان بعيداً عن العمران والسكان ، وفوق هضبة عالية من هضاب سرنديب) . وفى الشطر الثانى شَبّه نفسه بالصقر يقف وحيداً فريداً فوق أحد المرابئ، أو إحدى قمم الجبال مترقّباً ما قد يعنّ له من الصيد .

(٢٥) التَّفت إلى الشىء: اتجه إليه؛ يقال: التفتَ بوجهه يمْنة ويسرة ؛ فإذا كثرتْ حركات الالتفات ، قيل تلفّت تلفتاً . والصور (بضم الصاد وكسرها) : جمع صورة : وهى الشكل، والتمثال . وصورة الشىء : خياله فى الذهن ، أو العقل . والذهن : الفهم ، أو العقل ، أو الفكر ، أو قوة الإدراك . ويرسمها (من باب نصر): يخطّها، ويصوّرها . ونَقّاش: صيغة مبالغة من نقش الشىء (من باب نصر) أى لوّنه ، وزيّنه بلونين، أو بألوان . وبحاشية الأصل المخطوط لهذا الديوان كلمة : « بهزاد » تلقاء كلمة : « نقّاش » . وهما على وزن واحد؛ ولعل الشاعر كان يريد أن يفاضل بينهما، ليرجّح إحداهما على الأخرى . و « بهزاد » (كمال الدين أستاذ) أشهر مصوّرى الفرس فى القرن السادس عشر الميلادى .

فى البيت الثالث والعشرين والأبيات التالية له بدأ الشاعر يصف وحدته فى منفاه، وبعض ما يضانيه من المتاعب النفسية والجسمانية ، وبعض ما كان يحيط به ، ويؤثّر فيه من مظاهر الطبيعة ، وخصائص البيئة ؛ وهو فى هذا البيت، يكثر من التلفّت بوجهه يمنة ويسرة، ويدور ببصره فيما حواليه فوق ذلك المرتبأ العالى ، فلا يرى غير صور فى ذهنه لما كان يرتقبه ويرجوه ، ويأمله ويتمنّاه من انفراج أزمته ، وزوال شدّته ؛ أو هى صور ما كان يتوق إليه — قبل نكبته ونفيه — من آمال كبيرة واسعة لم يتحقّق له منها شىء ؛ وفى البيت معنى التحسّر والتلهّف على ما فات .

تَهْفُو بِيَ الرِّيحُ أَحْيَانًا ، وَيَلْحَفُنِي بَرْدُ الطِّلَالِ بِبُرْدٍ مِنْهُ أَسْمَالِ(٢٦)

فَفِي السَّمَاءِ غُيُومٌ ذَاتُ أَرْوِقَةٍ وَفِي الْفَضَاءِ سُيُولٌ ذَاتُ أَوْشَالِ(٢٧)

---

(٢٦) تهفو بى الريح: تُحَرِّكنى ، وتهزّنى . ويلحفنى: يغطّينى؛ لحفه (من باب منع): غطاه باللحاف ونحوه . والطلال: جمع الطلّ : (بوزن تلّ وتلال): وهو الندى ، أو المطر الضعيف . وبرد الطلال : المطر البارد ، أو المطر مع برودة الجو . والبرد (بضم فسكون) : ثوب مخطط ، أو هو كساء من الصوف الأسود يلتحف به . ومنه : من برد الطلال . وبرد أسمال ، وثوب أسمال : خلَق ، بال ، قديم ، مُسْتَهْلك ، قد ذهبتْ جِدّته . ويراد بالبرد الأسمال ، أو البرد المهلهل : ما تساقط فوق الشاعر ، وكساه ، وغطّاه من ذلك المطر الضعيف ؛ فقد شبّهه — لضعفه وخفّته ورقّته — بالثوب الخَلَق البالى الأسمال الْهَلْهَال . وبين « بَرْد » و « بُرْد » جِناسٌ حَسَّن اللفظ ، وضاعف بلاغة الكلام .

وصف بعض ما كان يعانيه فى ذلك المرتبإ العالى من الظواهر الطبيعية ؛ فقد تشتد الرياح ، فتحركه ، وتهزّه هزاً عنيفاً ؛ وقد يبرد الجو ، وتمطر السماء مطراً خفيفاً ، فتتساقط عليه قطراته الباردة ، وتكسوه برداً سَمِلاً خَلَقاً ، بالياً هَلْهالاً .

وفى ثلاثة الأبيات الآتية وَصَفَ السحب ، والسيول ، وقوس الغمام (قوس قُزَح) .

(٢٧) غيوم : جمع غيم ؛ وهو السحاب . والقطعة من الغيم : غيمة . وذات : صاحبة: مؤنث « ذو » : بمعنى صاحب . وأروقة : جمع رواق (بوزنى كتاب ، وغراب) : وهو سقف فى مقدّم البيت . أو كساء مرسل على مقدّم البيت من أعلاه إلى الأرض ؛ أو خباء كالفسطاط ، يحمل على عمود واحد طويل فى وسطه . ورواق الليل : مقدمه ، وجانبه . وسيول : جمع سيل : وهو الماء الكثير السائل الجارى؛ وماء المطر إذا جرى مسرعاً فوق سطح الأرض . والأوشال : مياه تسيل من أعراض الجبال ؛ فتجتمع ، ثم تساق إلى المزارع . والأوشال أيضاً : جمع وشَل (بوزن سبب وأسباب) : وهو الماء الكثير الغزير . ويقال : جاءوا أوشالاً : أى يتبع بعضهم بعضاً . وذات أوشال : تأكيد لمعنى الكثرة المستفادة من لفظ « سيول » .

فى الشطر الأول وصَف السحب فى السماء ، ورأى فيها ما يشبه الأرْوقة ؛ أو رآها تغطّى الأرض ، كما تغطّى الأروقة ما تحتها ؛ أو رآها متكاثفة متراكة كأنها أروقة الليل .

وفى الشطر الثانى وَصَفَ السيول ؛ ويراد بها الأمطار الغزيرة المنهمرة فى الفضاء بين السماء والأرض؛ أو مياه الأمطار الغزيرة الجارية بقوّة وسرعة وتتابع فوق سطح الأرض ؛ أو المياه الغزيرة التى تسيل من أعراض الجبال ، وتنحدر إلى الأودية والوهاد فى مثل البيئة التى يَعنيها .

وفى هذا البيت تمهيد لوصف قوس الغمام فى البيتين الآتيين .

كَأَنَّ قَوْسَ الْغَمَامِ الْغُرِّ قَنْطَرَةٌ مَعْقُودَةٌ فَوْقَ طَامِى الْمَاءِ سَيَّالِ(٢٨)
إِذَا الشُّعَاعُ تَرَاءَى خَلْفَهَا نَشَرَتْ بَدَائِعًا ذَاتَ أَلْوَانٍ وَأَشْكَالِ(٢٩)
فَلَوْ تَرَانِى وَبُرْدِى بِالنَّدَى لَثِقٌ لَخِلْتَنِى فَرْخَ طَيْرٍ بَيْنَ أَدْغَالِ(٣٠)

(٢٨) القوس: آلة على شكل نصف دائرة، ترمى بها السهام ونحوها، وهى مؤنثة، وقد تذكّر. والغمام: السحاب، أو الأبيض منه، واحدته غمامة. وقوس الغمام: قوس قُزَحَ (بوزن عمر): وهو حادث جوّى، يظهر فى السحاب بشكل قوس يتكون من الألوان: البنفسجىّ، فالنيلى، فالأزرق، فالأخضر، فالأصفر، فالبرتقالى، فالأحمر؛ وسببه انحلال أشعّة الشمس إلى هذه الأضواء السبعة فى كُرَيّات ماء السحاب، التى تفعل بضوء الشمس فعل الموشور البلورى. وفى بعض المعجمات أن قوس قُزَح تنشأ فى السماء، أو على مقربة من مساقط مياه الشلالات ونحوها، فى ناحية الأفق المقابلة للشمس؛ وترى فيها ألوان الطيف متتابعة؛ وسببها انعكاس أشعّة الشمس من رذاذ الماء المتطاير من الأمطار، أو من مياه الشلاّلات ونحوها من المساقط المرتفعة التى ينحدر منها الماء. وغمامة غرّاء، وغمام غُرّ: أبيض حسن. والقنطرة: الجسر يبنى على الماء للعبور، وجمعها قناطر. ومعقودة: منعطفة، منحنية، متقوسة. وطام: كثير، غزير، فياض. وسيال: صيغة مبالغة من سال الماء ونحوه: أى طغى، وجرى، بشدة وكثرة؛ والمشابه واضحة بين قوس الغمام والقنطرة.

(٢٩) الشعاع: ضوء الشمس، أو هو الضوء الذى يرى كأنه خيوط، واحدته شعاعة، والجمع أشعة. وتراءى: بدا، وظهر. وخلفها: وراء قوس الغمام؛ ولعل الشاعر يعنى أن الشعاع وقوس الغمام يظهران معاً، وأنه يسقط عليها من ورائها. ونشرتْ: بسطتْ، وأظهرتْ: من النشر: وهو خلاف الطى. وبدائع: روائع: جمع بديعة: مؤنث البديع: وهو المحدث، المُبْتدع، العجيب، الذى لم يعرف من قبل: أى أن قوس الغمام تريك ما يروعك، ويبهرك، ويعجبك، ويسرك، ويروقك من منظرها الفذ الفريد، وشكلها البديع العجيب. و «بدائع» ممنوعة من الصرف، أى التنوين؛ لأنها صيغة منتهى الجموع؛ وإنما نوّنت هنا لضرورة وزن الشعر. ويراد بالألوان: ألوان الطيف المتتابعة، وهى سبعة ألوان، ذكرناها بترتيبها، فى التعريف بقوس الغمام، فى شرح البيت السابق. وأشكال: صور، وهيئات.

يقول: إذا بدتْ أشعة الشمس المنعكسة وراء قوس الغمام، نشرتْ ما يروقك من بدائع الألوان والأشكال.

وفى شرح البيت السابق تعريف واف بقوس الغمام، وسببها.

(٣٠) البُرْد: الثوب. والندى: المطر، والبلل، وبخار الماءيتكاثف فى طبقات الجو الباردة، فى أثناء الليل، ويسقط على الأرض قطرات صغيرة. ولَثِقٌ (بوزن فرح): ندىّ، مبتلّ. والواو: واو=

غَالَ الرَّدَى أَبَوَيْهِ ؛ فَهْوَ مُنْقَطِعٌ   فِى جَوْفِ غَيْنَاءَ ، لَا رَاعٍ ، وَلَا وَالِى(٣١)

أُزَيْغِبَ الرَّأْسِ ، لَمْ يَبْدُ الشَّكِيرُ بِهِ   وَلَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ مِنْ كَيْدِ مُغْتَالِ(٣٢)

= الحال، وجملة : « بُرْدى بالندى لَثِقٌ » : حال من المفعول به، وهو الياء فى « ترانى ». وخِلْتَنِى : حسِبتنى، وظننتنى . وفرخ الطائر : وَلده . والأدغال : جمع دغل (بوزن سبب وأسباب) : وهو الشجر الكثير ، الكثيف ، الملتفّ .

فى سبعة الأبيات السابقة شكا الشاعر بعض ما كان يضانيه فى منفاه من الانفراد ، والوحشة ، وخيبة الأمل ، ومرارة الحسرات ؛ ثم صوّر بعض الظواهر الطبيعيّة التى كانت تعاسره فى مرتبئه العالى، كعصف الريح ، وبرودة الجو ، وتراكب الغيم ، وكثرة الأمطار والسيول والأوشال . ثم استطرد ، فأرانا صورة نَيِّرة لقوس الغمام؛ وفى هذا البيت ابتلّ ثوبه بما تساقط عليه من المطر؛ فبدا ضعيف المُنَّة، ضيق الحيلة، قليل الحركة ، كأنه فرخ طير بين أدغال؛ وفى سبعة الأبيات الآتية استطرد لوصف هذا الفرخ الذى انعقدتْ بينه وبين الشاعر مشابه كثيرة؛ ويلاحظ أن الندى أو المطر الذى أصاب الشاعر فى هذا البيت أكثر من الطلّ أو المطر الذى أصابه فى البيت السادس والعشرين ؛ فبرده فيه أسمال ، وبرده هنا لَثِقٌ .

(٣١) غاله (من باب قال) : اغتاله ، وأهلكه ، وأرداه . والردى : الهلاك ، والموت . ومنقطع : يريد أنه مقطوع عن أهله ، ووطنه ، عاجز عن العودة ، أو متابعة الرحلة والسفر ؛ وفى الانقطاع معنى الانفراد ، والوحشة ، والقلق ، والضجر ، والخلوة ، والهمّ . . . وسائر ما يعانيه السجين فى سجنه ، ويضانيه المنفىّ فى منفاه . وجوف كل شىء : باطنه . وفى جوف غيناء : فى جوف أرضٍ ، أو بقعة غيناء : مؤنث الأغين: وهو الأخضر ، الطويل، الناعم، الكثير الورق ، الملتفّ الأغصان من الشجر والنبات . والراعى : اسم فاعل من رعاه يرعاه : أى راقبه ، ولاحظه ، وحرسه ، وحفظه ، وصانه ، وتولاه . والوالى : اسم فاعل من وليه يَليه ولاية : أى تَوَلّاه ، ونصره ، وأحبّه ، وقام بما يلزمه ، وأعدّ له ما يكفُل سلامته وطمأنينته .

والمشابه كثيرة واضحة بين الشاعر وهذا الفرخ الفريد الوحيد، اليتيم اللطيم الذى فَقَدَ راعيه وواليه، وانقطع عن أهله ووطنه ، فى جوف تلك الغيناء الموحشة المظلمة المخيفة .

ويلاحظ أن معنى « الأدغال » فى البيت السابق قريب جداً من معنى « الغيناء » فى هذا البيت ؛ وفى كل منهما الظلمة ، والوحشة ، والخوف ، والقلق ، وتوقّع الشر ، والعدوان ، والأذى ، والمكروه .

(٣٢) « أزيغب » (بالنصب) : صفة لـ « فرخ طير» فى البيت الثلاثين . أو بالرفع : خبر لمبتدإ محذوف : أى هو أزيغب : تصغير « الأزْغَب » : وهو ماله زَغَب من الطير . والزغب (بوزن =

كَأَنَّهُ كُرَةٌ مَلْسَاءُ مِنْ أَدَمٍ خَفِيَّةُ الدَّرْزِ ، قَدْ عُلَّتْ بِجِرْيَالِ (٣٣)
يَظَلُّ فِى نَصَبٍ ، حَرَّانَ ، مُرْتَقِبًا نَقْعَ الصَّدَى بَيْنَ أَسْحَارٍ وآصَالِ (٣٤)
يَكَادُ صَوْتُ الْبُزَاةِ الْقُمْرِ يَقْذِفُهُ مِنْ وَكْرِهِ بَيْنَ هَابِى التُّرْبِ جَوَّالِ (٣٥)

= السبب) : صغار الشعر والريش ، وأول ما يبدو منهما . أو هو الشعيرات الصفر على ريش الفرخ الصغير . ولم يبد : لم يظهر : مضارع « بدا » (من بابى عدا ، وسما) : أى ظهر . والشكير (بوزن السرير) : صغار الريش النابتة بين كباره ، وكذلك صغار الشعر . والشطر الأول : كناية عن صغره ، وطفولته ، وضعفه . ولم يصن : لم يحفظ : مضارع صانه (من باب قال) : أى حفظه ووقاه . والكيد : المكر السيِّئ ، والخبث ، والخديعة ، وأن تريد غيرك بسوء ، وتخفى عنه ما تضمره له من الأذى والمضرة . ومغتال : اسم فاعل من اغتاله اغتيالاً : أى أخذه من حيث لا يدرى ، وأهلكه ، وقتله غيلة .

يقول : إنه فرخ صغير ضعيف ، لا حول له ، ولا قوّة ، ولا يستطيع أن يردّ عن نفسه كيد الكائد ، واغتيال المغتال .

(٣٣) ملساء : ناعمة ليِّنة . والأدم (بفتحتين ، أو بضمتين) : جمع الأديم : وهو الجلد المدبوغ . والدرز : موضع الخياطة ؛ أو هو مصدر درز الخياط الثوب (من باب نصر) : أى خاطه خياطة دقيقة ، متقاربة ، ملتزمة غاية الالتزاز ، وعلّت : سقيت مرة بعد أخرى . والجريال : صبغ أحمر ، أو خمرى اللون ، أو سلافة العصفر : أى عصارته ، وخلاصته . والعصفر : نبات يستخرج منه صبغ بين الحمرة والصفرة . وفى بعض المعجمات أنه صبغ أصفر اللون .

التفّ هذا الفرخ الصغير الضعيف – على نفسه ، وتجمّع ، وتكوّر ، وأخفى أطرافه ورأسه فى أطواء جسمه المغطى بالزغب الأصفر ؛ فكان كالكرة الملساء الناعمة اللينة ، الخفية الدرز ، صنعت من الجلد المدبوغ ، وصبغت بالعصفر ؛ وهذا كلّه تصوير بليغ للخوف والضعف ، والانقباض والابتئاس ؛ وقد تشير الصورة مع هذا كله إلى الجوع والعطش ، والبؤس والحرمان .

(٣٤) ظل يفعل كذا : فعله نهاراً : والمراد هنا أنه يبقى فى نَصَبه ليلاً ونهاراً . والنَّصَب : الإعياء ، والتعب . وحران : شديد العطش . ومرتقب : منتظر . والنقع : مصدر نقع الماء العطش (من باب نفع) : أى أذهبه ، وأطفأه ، وسكّنه . والصدى : شدة العطش . والأسحار : جمع السحر (بوزن سبب وأسباب) : وهو آخر الليل ، قبيل الفجر . والآصال : جمع الأصيل : وهو الوقت حين تصفرّ الشمس لمغربها ، أو هو الوقت بين العصر والمغرب ؛ ويراد بالأسحار والآصال : أوقات الليل والنهار كلّها .

والبيت تصوير لما يقاسيه هذا الفرخ فى جوف تلك الغينا ء طوال النهار والليل من شدة العطش ، والإعياء ، وطول ارتقابه ما ينقع صداه ، ويطفئ ظمأه ؛ ولا ريب أن خوفه وانقباضه ، وضعفه وانقطاعه .. أقعده عن السعى وراء طعامه وشرابه .

(٣٥) البزاة : جمع البازى : وهو طير من الجوارح ، أو ضرب من الصقور يصاد به . والقمر : جمع الأقمر : صفة من القمرة : وهى لون بين البياض والخضرة . ويقذفه (من باب ضرب) : يدفعه ، ويلقيه ، =

لَا يَسْتَطِيعُ انْطِلاقًا مِنْ غَيَابَتِهِ كَأَنَّمَا هُوَ مَعْقُولٌ بِعُقَّالِ[٣٦]

فَذَاكَ مِثْلِي ، وَلَمْ أَظْلِمْ ، وَرُبَّتَمَا فَضَلْتُهُ بِجَوَى حُزْنٍ ، وَإِعْوَالِ[٣٧]

= ويرميه بقوة . ووكر الطائر : عشه . وهابى الترب : ما دقّ من التراب ، وثار ، وانتشر ، وارتفع فى الجو . ومكان هابى الترب : ترابه دقيق ناعم ، مثل الهباء : وهو الغبار . وجوال : ثائر ، متحرك ، منتشر ، مرتفع . ويراد بهابى الترب الجوال : الوهاد ، والأودية ، والأراضى المنخفضة التى يرقّ ترابها ، ويثور غبارها .

يصف فزَعَ هذا الفرخ الصغير الضعيف ، وشدة خوفه من الطيور الصائدة الجارحة المفترسة ؛ ويقول إن صوتها يكاد يخرجه من عشه العالى ، ويرمى به فى سحيق الأودية ، وعميق الوهاد ، بين الأتربة الهابية ، والغبار الثائر .

(٣٦) الغيابة : كل ما غيب شيئاً ، وستره ، وأخفاه عن العيون . ويراد بغيابة الفرخ هنا : وكره ، وعشه الذى يستتر به ، ويلبث فيه ، ولا يكاد يبرحه ويغادره . ومعقول : مربوط ، مقيد . والعقال (بوزن الرمان) : داء يأخذ الدواب فى أرجلها ؛ ويراد به هنا : ما يقيّد هذا الفرخ ، ويمنعه المشى والحركة ، ويحبسه عن الانطلاق والطيران .

والبيت فى وصف ما يعانيه هذا الفرخ من آلام الحبس ، وتقييد الحرية ؛ فهو سجين فى وكره ، لا يكاد يبرحه ، ولا يستطيع الانطلاق منه .

(٣٧) ذاك : إشارة إلى فرخ الطير الذى استطرد لوصفه فى سبعة الأبيات السابقة . والمِثْل : الشِبْه ، والنظير . ولم أظلم : لم أتزيد ، ولم أبالغ ، ولم أعدُ الحقيقة ، ولم أتجاوز حدّ القصد والاعتدال : من الظلم بمعنى وضع الشىء فى غير موضعه . و « رُبَّتَما » : كلمة تقليل ، أو تكثير . وهى هنا للتكثير ؛ فالشاعر يفوق هذا الطائر ، ويزيد عليه فى الكثير الغالب من الأحوال التى أشار إليها من قبل . وفضلته (من باب نصر) : أى فُقْتُه ، وزدتُ عليه ، وعانيتُ أكثر مما يعانى . وجوى الحزن : حرقته وشدته . والإعوال : مصدر أعول : أى رفع صوته بالبكاء .

يقول : إنه حينما شبّه حالته فى منفاه بحالة ذلك الفرخ — لم يتجاوز الحدّ ، ولم يَعْدُ الصواب ؛ بل ربُما فاقه بالجوى ، والحرقة ، وشدة الوجد ، وفرط الحزن ، وتبريح الشوق ، والإجهاش بالبكاء ، والانفجار بالنحيب ، والانطياع للإعوال .

ومثل هذا البيت ينمّ على ما كان ينتاب الشاعر — أحياناً — فى منفاه من الجزع ، وضعف المُنّة ، والانهيار .

وفى سرنديبيّاته مع هذا كثير من شواهد قوته وصلابته وصبره الجميل ، وتجلّده لريب الدهر ، وصروف الزمان .

شَوْقٌ ، وَنَأْىٌ ، وَتَبْرِيحٌ ، وَمَعْتَبَةٌ ... يَا لَلْحَمِيَّةِ مِنْ غَدْرِى وَإِهْمَالِى(٣٨)

أَصْبَحْتُ لَا أَسْتَطِيعُ الثَّوْبَ أَسْحَبُهُ ... وَقَدْ أَكُونُ وَضَافٍ فِى الدِّرْعِ سِرْبَالِى(٣٩)

---

(٣٨) النأى : البعد ، والفراق . وبرّح به الشوق ، والوجد ، والهمّ ، ونحوه تبريحاً : ثقل عليه ، وعذّبه ، وآذاه أذى شديداً . والمعتبة (بفتح التاء وكسرها) : الاسم من عتب عليه (كضرب ، ونصر ، وطرب) : أى أنكر عليه شيئاً من فعله ؛ أو لامه فى موجدة وتسخط وغضب ؛ أو خاطبه مخاطبة الإدلال والاجتراء مع الثقة ، مذكّراً إيّاه بما كرهه منه ، طالباً حسن مراجعته . والعتب ، أو المعتبة المشار إليها هنا : قد تكون على الشاعر من بعض بنى وطنه ، وقد تكون منه عليهم ، وقد تكون من رفقائه فى منفاه ؛ فقد نزغ الشيطان بينهم بعد إخفاق الثورة العرابيّة ، وزعزعت الدعايات الكاذبة المسمومة ثقة بعضهم ببعض ؛ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . و « يا للحمية » : أسلوب استغاثة : وهى نداء من يخلّص من شدّة ، أو يعين على دفع بلية . و « يا » قبلها : حرف نداء واستغاثة . واللام بعدها مفتوحة ؛ لدخولها على المستغاث به : وهو الحمية : بمعنى : الأنفة ، والإباء ، والمروءة ، والنخوة ، والغيرة . ويا للحميّة : يا لذوى الحميّة . والمستغاث لأجله : « غدرى » ؛ وهو هنا مجرور بـ « من » ؛ لأنه مستنصر عليه : أى أستغيث ذوى الحمية ، لدفع ما أصابنى من غدر الغادرين ، وإهمال المهملين . والغدر : نقض العهد ، وإخفار الذمّة . وضدّه الوفاء .

فصّل فى الشطر الأول بعض ما كان يقاسيه فى منفاه من التغريب والتشريد ، والبعد والفراق ، وتبريح الشوق والوجد ، وفرط الهمّ والغمّ ، ومرارة العتب والموجدة . وفى الشطر الثانى اشتد به الكرب والبلاء ؛ فاستغاث ذوى النخوة والحمية ؛ ليدفعوا عنه ما أصابه من غدر الغادرين ، وإهمال المهملين الذين نقضوا عهده ، وأخفروا ذمته ، وأهملوا شأنه ، وخذلوه وأسلموه .

(٣٩) « أصبح » هنا : بمعنى «صار» . وأسحبه : أجره على الأرض . والضافى : السابغ ، التام : اسم فاعل من ضفا الثوب (من بابى عدا ، وسما) : أى سبغ ، وطال إلى الأرض . والدرع : قميص من زرد الحديد ، يلبسه المحارب وقاية لنفسه من سلاح العدوّ . والسربال : القميص ، أو كل ما يلبس. و « قد » فى أول الشطر الثانى تفيد هنا التكثير : أى وكثيراً ما كنت . . . أو وطالما كنت ...

فى الشطر الأول أشار إلى ما انتهى إليه أمره فى منفاه من الضعف والقصور ، والعجز والإعياء ؛ لتقدم سنه ، واعتلال جسمه ، وكثرة ما توالى عليه من البلايا والكوارث .

وفى الشطر الثانى أشار إلى ما كان عليه قبل النفى من القوة والبأس الشديد ، مفتخراً بكثرة ما تسربل به من سابغات الدروع ، وعنف ما خاضه من المعامع والحروب .

والبيت الآتى تكرار لهذا المعنى .

وَلَا تَكَادُ يَدِى تُجْرِى شَبَا قَلَمِى ... وَكَانَ طَوْعَ بَنَانِى كُلُّ عَسَّالِ (٤٠)

فَإِنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِى بَعْدَ نَضْرَتِهِ ... فَالدَّهْرُ مَصْدَرُ إِدْبارٍ وَإِقْبَالِ (٤١)

(٤٠) تجرى : ترسل ، وتطلق ، وتحرك : مضارع أجراه إجراء . والشبا ، والشبوات : جمع شباة (بوزن قناة) : وهى حد كل شىء . وشباة القلم : إبرته ، وسنه . والبنان : أطراف الأصابع ، الواحدة بنانة (بوزن سحابة وسحاب) . ومن كلامهم : هو طوع بنانك ، وطوع يدك : أى منقاد لك . والعسال : الرمح اللدن ، المهتز ؛ وعسلان الرماح من أمارات جودتها ؛ وهو تصوير لاهتزازها ، واضطرابها الشديد فى أثناء الطعان والحرب .

يقول — فى حسرة ولهفة — : إن يده الآن لا تكاد تقوى على تحريك قلمه بالكتابة ؛ وكان شديد البأس ، قوى المراس ، قديراً على حمل السلاح ، بارعاً فى استخدامه وتطويعه .

ويلاحظ أن الشطر الثانى من هذا البيت ، والشطر الثانى من البيت السابق فى معنى واحد : هو الفخر بماضيه الحربى ، والاعتزاز بما كان له من سابغات الدروع ، والبراعة فى استخدام الأسلحة وتطويعها ، وخوض غمار الحروب بشجاعة وجرأة ، وكفاية عالية ، وإقدام محمود .

(٤١) جف : يبس ، ونشف . والعود : غصن الشجرة بعد أن يقطع ؛ وكنى بعوده عن جسمه ؛ وكنى بجفاف عوده عن ضعفه ، وعجزه ، وتقدم سنه . والنضرة : الرونق ، والحسن ، والنعمة . وفى القرآن الكريم : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » (الآية رقم ٢٤ من سورة المطففين) : أى بريقه ، ورونقه ونداه . وكنى بنضرة عوده عن قوته ، وفتوته ، وشبابه ، وصحته ، ونعمته . والدهر : اسم لمدة العالم ، أو مدة الحياة الدنيا ، أو الزمان الطويل ، والأمد الممدود ؛ وقد اعتاد الناس أن يضيفوا إليه الخير والشر ، والمسرة والمساءة . والإدبار : مصدر أدبر : بمعنى ذهب ، ومضى . وضده الإقبال : مصدر أقبل ؛ وهما يصدران عن الدهر ، وينبعثان منه ، وينسبان إليه . ومن كلامهم : « أقبلت عليه الدنيا » : إذا جاءته بخيرها . وضده « أدبرت عنه » . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، ومعناه : أن الدهر حول قلب ؛ يعطى ، ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويهب ، ويسترد ، ويدور على الناس بأسباب القوة والضعف ، والعز والذل ، والجدة والحرمان ، والسعادة والشقاء .

أعلن الشاعر فى البيتين السابقين أسفه وجزعه ، وتلهفه وتحسره . ولكنه ما لبث أن عزى نفسه بهذا البيت ، وسلاها ، وخفف عنها كل التخفيف ؛ فإن الدهر حُوَّلٌ قُلَّبٌ ، لايكاد يعرف الاستقرار أو الثبات ؛ وما جرى عليه يجرى على غيره من الناس ؛ فله فيهم أسوة حسنة ؛ وقد تسالمه الأيام ، وتُقْبل عليه الدنيا ، وتعود إليه عزته وحريته . وفى الأبيات الآتية أساليب أخرى للتعزية والتسلية ، والتخفيف والتلطيف .

عَلَامَ أَجْزَعُ ؟ وَالْأَيَّامُ تَشْهَدُ لِي بِصِدْقِ مَاكَانَ مِنْ وَسْمِي وَإِغْفَالِي (٤٢)

رَاجَعْتُ فِهْرِسَ آثَارِي ، فَمَا لَمَحَتْ بَصِيرَتِي فِيهِ مَا يُزْرِي بِأَعْمَالِي (٤٣)

فَكَيْفَ يُنْكِرُ قَوْمِي فَضْلَ بَادِرَتِي وَقَدْ سَرَتْ حِكَمِي فِيهِمْ ، وَأَمْثَالِي ؟ (٤٤)

---

(٤٢) « علام »؟ : « ما » الاستفهامية المجرورة بـ «على» ؛ وإذا جُرَّتْ حذفتْ ألفها ، وبقيتْ الفتحة دليلاً عليها ؛ والمعنى: على أيّ شيء ؟ أو لأيّ شيء أجزع ؟ : من الجزع : وهو أبلغ من الحزن ، وأشد ، وأعمق (وبابه تعب) ؛ فهو ينكر على نفسه الحزن ، أو يستبعده وينفيه. و « الواو » : واو الحال ، والجملة بعدها حاليّة . ووسمه (من باب وعد) : جعل له علامة يعرف بها. وضده الإغفال : مصدر أغفله : أى تركه بلا وسم ؛ ويريد بالوسم ؛ ما عمله ؛ وبالإغفال : ما تركه .

والمعنى : أنه لم يقترف ما يندم عليه ، أو يستوجب العَتْب واللوم ، أو يصمه ويعيبه ؛ وأن صحيفته بيضاء ، وكتابه نقيّ ، وسلوكه مستقيم ، لا غبار عليه ، وسيرته كلّها نظيفة مشرّقة ، والأيام تشهد أنه كان على الدوام يتوخّى الحق والصدق والإخلاص ، ويتحرّى الرشد والاستقامة والصلاح فيما يأتى وما يذَر من الأقوال والأعمال والتصرفات ؛ فلا ينبغى لمثله أن يجزع ، ولا يليق به أن يحزن .

كأنه يكرّر ما تضمّنه البيت السابق من تعزية نفسه وتسليتها ، وحملها على الصبر والتجلّد والسلوان .

والبيت الآتى يوضح معنى هذا البيت ، ويفصّله ، ويؤكده .

(٤٣) راجع الكتاب : رجع إليه ، وأعاد النظر فيه . والفهرس : الكتاب تجمع فيه أسماء الكتب. ولَحَق يوضع فى أول الكتاب ، أو آخره ، يذكر فيه ما اشتمل عليه الكتاب من الأبواب والفصول والموضوعات والأعلام . والآثار : جمع أثر : وهو ما بقى من رسم الشىء ، أو ما يحدثه الشىء ، أو ما خلّفه السابق للاحق . ويريد بفهرس آثاره : صحيفة أقواله وأعماله وتصرفاته ، بترتيب أزمنتها وأمكنتها. ولمحتْ : أبصرتْ . والبصيرة : الفهم ، والفطنة ، والعقل ؛ وقوة الإدراك . وفيه : فى فهرس آثارى : أى كتاب سيرتى . وأزرى به يزرى إزراء : عابه ، وشانه ، وحطّ من قدره .

خفف الشاعر عن نفسه ، وعزاها بقوله : إنه راجع ماضيه وحاضره فى كتاب سيرته وحياته ، فلم يرفيه ما يُزْرى بعمله ، أو يحُطّ من شأنه ، ولاريب أن المنصفين من المؤرخين يُقرّرونه على هذا ، ويشهدون بنقاء عرضه ، وصدق جهاده ، وإخلاصه لوطنه .

(٤٤) « كيف » : اسم استفهام يطلب به تعيين الحال ؛ وقد أخْرج هنا مخرج التعجّب ، أو التقريع ، والتعنيف ، والتوبيخ . وينكر : يجهل ، أو يجحد . والبادرة : اسم فاعل من بدر إلى=

أَنَا ابْنُ قَوْلِي ، وَحَسْبِي فِي الْفَخَارِ بِهِ ... وَإِنْ غَدَوْتُ كَرِيمَ الْعَمِّ وَالْخَالِ (٤٥)

=الشيء : أى أسرع ، وعَجِل . ويراد بها هنا : البديهة : وهى الإجابة العاجلة الصائبة ، والفكرة السريعة السديدة . وفلان حَسَنُ البادرة والبديهة : أى يفهم ما يفاجأ به من أول وَهْلة ، ويحسن التصرف على وجه السرعة . وله فى الشعر ، والنثر ، والكلام ، والجواب بدائه : أى بدائع ، وروائع ، وعجائب . والواو : واو الحال ، والجملة بعدها حالية . وسرى (من باب رمى) : مضى ، وذهب ، وسار ؛ ويراد بسراية حكمه وأمثاله فيهم : ذيوعها ، وشيوعها ، واشتهارها ، وانتشارها . أو هى « سرا » (من باب عدا) : بمعنى شرُفَتْ ، وعلا شأنها . والحكم جمع حكمة : وهى القول السديد الرائع ، الذى يوافق الحق ، ويفيد أدباً وعظة . والأمثال جمع مثل (بوزن سبب وأسباب) : وهو القول السائر الفاشى بين الناس ، يمثّلون مضربه (أى الحالة الجديدة المشابهة لمعناه) بمَوْرده (أى الحالة الأصلية القديمة التى ورد فيها) . والحكم والأمثال فى شعر البارودى ونثره غير قليلة .

وجّه الشاعر فى هذه القصيدة كثيراً من العتب المرّ إلى من جفوه ، أو أساءوا به الظن ، أو سلوا عنه من أحبائه وأهله وبنى وطنه . وهو فى هذا البيت يفخر بما شاع وذاع فى قومه من أدبه الرفيع ، وفضله الوسيع ، وبوادره ، وبدائهه ، ويعتب عليهم ؛ فيعتبر اتهامهم إياه ، أو سلوهم عنه ، أو إهمالهم شأنه ، أو قعودهم عن نصرته ، أو غدرهم به — جهلاً بفضله وأدبه ، وإنكاراً لمزاياه ومفاخره ؛ ولهذا سأل فى تعجب ودَهَش ، أو تقريع وتعنيف : كيف يتأتى منهم هذا الإنكار ، أو الجحود ، أو الجهل ، أو التجاهل ، مع ما يدور بينهم ، ويتردّد إليهم ، ويسرى فيهم ، ويطرق أسماعهم من حكمه وأمثاله ، وفواضله ومحامده ؟ ! .

(٤٥) أنا ابن قولى : أنا ابن أدبى وشعرى : يريد أنه منتسب إليه ، معوّل عليه ، معتز به اعتزاز الولد بأبيه ؛ ويكنى بهذا عن فصاحته وبلاغته ، ومقدرته على نظم الشعر ، وإنشاء الأدب ، وتمكّنه من أسباب اللَّسَن والبيان . والعرب تكنى بابن كذا عن ملازمه ، والمتمرس به ، والماهر فيه . وحسبى : كفانى ، أو كفايتى ؛ وهو مبتدأ ، خبره « فى الفخار به » : أى كفايتى وغَنائى وثروتى فى أن أفخر بقولى ، أو فى أن أفاخر به غيرى . والفخار (بفتح الفاء) : الفخر ، والابتهاء . أو هى الفخار (بكسر الفاء) : مصدر فاخره مفاخرة وفخاراً : أى غالبه فى الفخر ، وباراه . و «إن» (بكسر الهمزة وسكون النون) : حرف وصل ، لا جواب له ، كما فى قولهم : « فلان كريم وإن كان قليل المال » : أى مع قلة ماله . أو هى بمعنى « قد » التى تدخل على الفعل الماضى ؛ فتفيد التوكيد والتحقيق . والواو قبلها : واو الحال ، والجملة بعدها حالية : أى والحال أنى قد غدوت كريم العم والخال . ويجوز أن تكون « أن » (بفتح الهمزة وسكون النون) : وحينئذ يكون المصدر المؤوّل منها ، ومن الفعل بعدها معطوفاً على الضمير المجرور المتصل=

وَلِي مِنَ الشِّعْرِ آيَاتٌ مُفَصَّلَةٌ   تَلُوحُ فِي وَجْنَةِ الْأَيَّامِ كَالْخَالِ(٤٦)
يَنْسَى لَهَا الْفَاقِدُ الْمَحْزُونُ لَوْعَتَهُ   وَيَهْتَدِي بِسَنَاهَا كُلُّ قَوَّالِ(٤٧)

= بالباء فى « به » : أى كفايتى فى الفخار بقولى ، وبأنى غدوت كريم العم والخال ؛ أو يكفينى ويغنينى الفخار بقولى ، وبأنى . . . وكسر همزة « إن » أفضل وأبلغ فى مثل هذا المقام . وغدوتُ (من باب سما) : صرت ، أو كنت : أى وإن كنت مع فخرى بقولى كريم العمّ والخال . وكريم : صفة من الكرم : بمعنى الخير ، والفضل ، والبرّ ، والمروءة والإحسان ، وكل ما يرضى ويحمد من المزايا ، والفضائل ، والمحامد ، والمكرمات . والعم : أخو الأب . والخال : أخو الأمّ ؛ والمراد أنه كريم الأصول من جهتى أبيه وأمّه ؛ فحسْبه كامل تامّ .

افتخر فى البيت السابق بفضل بوادره وبدائهه ، وسيرورة أدبه وشعره ، وذَيَعان حكمه وأمثاله . وافتخر فى هذا البيت بفصاحة لسانه ، وسحر بيانه ، وروائع أدبه وشعره ، واعتزازه بقوله ، وتمكّنه من أساليب الكلام ، وكرم أعمامه وأخواله ، ومجادة حسبه ، وشرف أصوله .

وجوّ هذه الأبيات وأمثالها يحمل — مع الفخر — العتب ، والموجدة ، والتخفيف عن نفسه ، وعلاج جزعه ، وتبرئة ساحته ، وتَرَضِّى من يهمّه رضاهم من أهله وأحبّائه .

(٤٦) آيات : جمع آية : وهى العبرة ، والموعظة ، أو المعجزة . والآية من القرآن الكريم : كلام منه منفصل بفصل لفظى . ومفصّلة : مبيّنة ، موضّحة . من التفصيل : وهو التبيين . أو هو ضد الإجمال . وفصّله : جعله فصولاً متمايزة ، وقطعاً مستقلة . وتلوح : تبدو ، وتظهر . والوجنة (مثلثة الواو ساكنة الجيم) : ما نتأ : أى ظهر ، وبرز ، وارتفع من لحم الخدّ . والخال : شامة ، أو نكتة سوداء فى البدن ؛ وغلب على شامة الخدّ ؛ وهى من محاسن الوجه . وقد تكون خلقية ، وقد تصنعها المرأة للتجميل والتزيين .

أشار إلى ما فى شعره وأدبه من عبر وعظات تهذب النفس ، وتهدى إلى الرشد ، وافتخر بما فيه من الروعة والجمال ، وسحر البيان ؛ ودانى به آى الذكر الحكيم فى بلاغة التعبير ، وقوة التأثير ، وخصيصة الإعجاز ، وقال : إن الأيام تزدان به ، كما تزدان وجنات الحسان بالخيلان ؛ وفى هذا معنى خلود شعره ، ودوام حسنه .

(٤٧) لها : للآيات المفصّلة التى افتخر بها فى البيت السابق . وينسى لها : ينسى بسببها ، ومن أجلها ؛ فاللام هنا للتعليل ؛ ويمكن أن تكون بمعنى « فى » ، أو بمعنى « مع » ، أو بمعنى « عند » ، أو بمعنى « بعد » . والفاقد : اسم فاعل من فقد المرء ولده ، أو حبيبه . واللوعة : حرقة الحزن ، وألم الفراق . والسنا : الضوء الساطع . وقوال : صيغة مبالغة من القول ؛ ويراد به : الأديب اللسن الفصيح . =

فَانْظُرْ لِقَوْلِى تَجِدْ نَفْسِى مُصَوَّرَةً فِى صَفْحَتَيْهِ ؛ فَقَوْلِى خَطُّ تِمْثَالِى (٤٨)
وَلَا تَغُرَّنْكَ فِى الدُّنْيَا مُشَاكَلَةٌ بَيْنَ الْأَنَامِ ؛ فَلَيْسَ النَّبْعُ كَالضَّالِ (٤٩)

= والمعنى : أن الشاكل الملتاع يجد فى شعر البارودىّ ما يعزّيه ، وينسيه فاجعته ؛ وأن هذا الشعر ينير السبيل لرواته وحفظته من الأدباء والشعراء ؛ فيقتدون به ، ويهتدون بهديه ، ويحتذون مثاله ، وينسجون على منواله ، ويبلغون بفضل الاقتداء والاهتداء مرتبة الإجادة والإتقان .

(٤٨) يريد بقوله : أدبه وشعره . وصفحة الشىء : وجهه ، وصفحة الكتاب : أحد وجهى الورقة منه . ولكل ورقة أو صحيفة وجهان أو صفحتان . ويريد بصفحتى قوله :أدبه كله ، أو صفحات ديوان شعره ، أو الصحائف التى دوّن فيها أدبه وشعره . والخط : مصدر خط الشىء (من باب رد) : أى كتبه بقلم أوغيره. وخط عليه : رسم. والخط أيضاً: ما يُسْطر، أو يُكْتب ، أويُرْسم . والتمثال : الصورة المصوّرة. أوهوما تصنعه وتصوره بيدك مشبهاً خلق الله تعالى من ذوات الروح والصورة . وقولى خط تمثالى: أى أدبى وشعرى يمثّلنى، ويصوّرنى ، ويبرز خصائصى ، وما تنطوى عليه نفسى؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الأول .

يقول: إنك ترى فى آثاره الأدبية صورة صحيحة، دقيقة، صادقة ، بينة، واضحة لكل مايميز نفسه من الخصائص والصفات ؛ وليس فى هذا شىء من التزيد أو المغالاة ؛ فإنك تستطيع أن تستخرج من شعر البارودى وأدبه صورة كاملة لشخصيته وسيرته ، وأطوار حياته كلّها .

ويلاحظ أن هذه القصيدة قد صوّرت لقارئها كثيراً من جوانب نفس هذا الشاعر ، وخواطره ، وهواجسه ، وضروب إحساسه المرهف ، وشعوره المتوقّد ، وعواطفه الذاكية ، وخلجات قلبه ، وأحواله فى منفاه ؛ كما أشارت إلى صلاته بمن فارقهم فى مصر من أهله وأحبابه .

(٤٩) لا تغرّنك : لا تخدعنك . غره (من باب قعد) : خدعه، وأطمعه بالباطل ، ونال منه بالخديعة ما يريد . والمشاكلة : المشابهة ، والمماثلة . والأنام : الخلق ، والناس . والنبع : شجر ينبت فى قلة الجبل، تتخذ منه القسى والسهام ، وهو أصفر العود ، رزين ثقيل . وإذا تقادم احمر لونه؛ وفيه صلابة وشدة، مع مرونة ولين، واحدته نَبْعة . ومن كلامهم: « ما رأيتُ أصلب منه نبعاً». والضال : السدْر البرّى : وهو شجر النَّبْق ، واحدته ضالة (بوزن عادة وعاد) . والنبع أقوى من الضال ، وأصلب عوداً .

يقول : لا تنخدع بما تراه بين الناس من مشابه ومشاكلات ؛ فإنهم يتشابهون فى خِلْقتهم ، ومظاهر حياتهم؛ ولكنهم يختلفون اختلافاً كبيراً فى أخلاقهم، وطباعهم ، وما انطوت عليه نفوسهم ؛ مَثَلُهم فى هذا مَثَلُ شجرتى النبع والضال ؛ فإنهما تتشابهان فى مظهريهما ، وتختلفان فى القوة والصلابة .

والغرض الحض على اليقظة والاحتراس ، ودقة الممايزة بين الناس؛ للإفادة من خير الأخيار ، واتّقاء شرّ الأشرار ، واجتناب حبائل التغرير والخداع؛ ولعل صلة هذا البيت بالذى قبله : أن قول الشاعر =

إنَّ ابْنَ آدَمَ ـ لَوْلَا عَقْلُهُ ـ شَبَحٌ مُرَكَّبٌ مِنْ عِظَامٍ ذَاتِ أَوْصَالِ(٥٠)

= يميزه ويظهره ؛ فلا يكاد يختلط أمره بغيره من الناس .

فى خمسة الأبيات السابقة افتخر الشاعر بسيرورة حكمه وأمثاله ، ونوه ببعض مزايا أدبه وشعره ، واعتزّ بصدق تصويرهما لشخصيّته ونفسه ؛ ثم ختم هذه القصيدة الرائعة الخالدة ببيتين يجريان مجرى الحكم والأمثال .

(٥٠) شبح الشىء : ظلّه ، وخياله ، وما بدا لك من شخصه غير جلىّ من بعد ؛ ويراد بشبح ابن آدم : جسمه ، وهيكله العظمىّ . والأوصال : جمع وصل (بضم فسكون ، أو بكسر فسكون) : وهو المفصل (بوزن المجلس) ، أو مجتمع العظام ، أو كلّ ملتقى عظمين من الجسد ، أو كلّ عظم على حدة ، لا يكسر ، ولا يوصل بغيره .

والمعنى : أن الإنسان لا قيمة له إلا بعقله .

وفى البيت تمجيد للعقل ، وتنويه به ، وتعظيم لشأنه ، فى غير سرف ، أو تزيد ، أو مبالغة ، أو مغالاة ؛ فالإنسان حيوان عاقل ، وحيوان ناطق ، وفى الحديث النبوىّ الشريف : « ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » . وفيه أيضاً : « ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى ، أو يردّه عن ردى » . وفى القرآن الكريم : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » الآية رقم ٤٣ من سورة العنكبوت . وفيه « إن شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون » الآية رقم ٢٢ من سورة الأنفال . وفيه : « وقالوا : لو كنا نسمع ، أو نعقل ، ما كنا فى أصحاب السعير » الآية رقم ١٠ من سورة الملك .

وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن الناس يتفاوتون بتفاوت عقولهم ، ويختلفون اختلافاً كبيراً .

تلخيص وتعليق

نفى البارودى إلى « سيلان » فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ ففارق زوجته « عديلة يكن » وأطفاله منها ، وهم ابن وأربع بنات ؛ وفيما بين عامى ١٨٨٣ و ١٨٨٤ نظم هذه اللاميّة الطويلة فى التشوق إلى أهله ووطنه ؛ فبلغ بها الغاية فى صدق العاطفة ، وجمال الموسيقى ، وروعة التصوير ، وبلاغة التعبير ، وحسن السبك ، وقوة التأثير ، وأخرجها من أعماق قلبه لتحتلّ قلوب الناس .

وهو فى البيتين الأول والثانى يتحسر على ما ذهبت به الأيام من مرح الصبا ، وغضارة العيش ؛ وأين حاضرة التاعس فى منفاه من ماضيه السعيد فى أحضان وطنه ؟ .

وفى ثمانية الأبيات بعدهما حنين إلى أهله وأحبابه ، وعتاب رقيق ، وتَـوَلُّـه ، واستعطاف ، وتأكيد لإقامته على الود ، ووفائه بالعهد ، وتحذير من الاستماع لرواة السوء الذين يحرفون القول ، ويفترون الكذب ، وينفرون بأكاذيبهم المرء من صديقه وحميمه .

وفى الأبيات (١١ — ١٩) افتخر بعفته : وسلامة قلبه وجوارحه ، وبراءته من العيوب والمناقص ، وأنه يتأسى آباءه ، ويسير على آدابهم ؛ وهو بهذا الفخر الصادق يفند التهم التى رمى بها ، ويحبط الأقوال المحرفة ، ومزاعم رواة السوء ؛ ويعالج ما يحزنه ويضنيه من البعد والفراق ، وما يضاعف أحزانه وأوصابه من الجفوة والقطيعة التى أشار إليها ، وشكاها فى أوائل القصيدة .

وفى الأبيات ٢٠ — ٢٢ زهد فى الدنيا ؛ يفزع إليه من تثقل عليه نوائب الزمان ؛ فالنفى ، والبعد ، والاغتراب ، والنزوح عن الأهل والوطن — نوائب ، يضاعفها أن يجفوه أهله وأوداؤه باستماعهم للقيل والقال ، وأن يطلب الصديق الصادق فلا يكاد يجده .

وفى الأبيات ٢٣ — ٣٧ شكا انفراده فى منفاه ؛ وإذا كانت الوحدة فى ذاتها موحشة مؤلمة ؛ فهى لمثل هذا الشاعر فى ذلك المنفى السحيق أشد إيحاشاً وإيلاماً .

ومن شكوى الوحدة فى مرتبته العالى استطرد لوصف قوس الغمام . ثم أطنب فى وصف فرخ طير يماثله فى انقطاعه ، وسوء حاله ، وشدة بلواه .

وفى الأبيات ٣٨ — ٥٠ لخص ما يضانيه ، ومايز بين حاضره وماضيه ، وافتخر بشعره ، وأنه تصوير صحيح دقيق صادق لجوانب نفسه ، وخلجات قلبه ، ومشاعره ، وعواطفه ، وأحواله فى منفاه .

وفى القصيدة — إلى هذا كله — نصح وإرشاد ، وأبيات تجرى مجرى الحكم والأمثال :

ومن أطاع رواة السوء نفرّه عن الصديق سماع القيل والقال
أدهى المصائب غدر قبله ثقة وأقبح الظلم صدّ بعد إقبال

. . . .

ولا تغرّنك فى الدنيا مشاكلة بين الأنام ؛ فليس النبع كالضال
إن ابن آدم — لولا عقله — شبح مركّب من عظام ذات أوصال

وَقَالَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ « سَرَنْدِيبَ* » يَمْدَحُ الْخِدِيو «عَبَّاس حِلْمى الثَّانِى** » وَيَشْكُرُهُ عَلَى اسْتِدْعَائِهِ إِلَيْهِ ، وَحُسْنِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ فِى أَثْنَاءِ مُحَادَثَتِهِ مَعَهُ :

---

* « سرنديب» أو « سيلان » : جزيرة بالمحيط الهندىّ ، مجاورة للهند ، فى جنوبيها الشرقى ؛ كثرة سكّانها بوذيّون ؛ وفيها قلة من المسلمين؛ وقد استعمرها البريطانيون، وسيطروا عليها من سنة ١٨٠٢ م إلى أن استقلّت فى نطاق « الكومنولث » سنة ١٩٤٨ م . وعرفها تجار العرب وملاحوهم من قديم الزمان؛ وهم الذين سمّوها « سرنديب » ؛ و إليها نفى محمود سامى البارودىّ عقب إخفاق الثورة العرابيّة فى ٣٠ من صفر سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) ؛ وطال به النفى نحو سبعة عشر عاماً، وفى ذلك المنفى السحيق نظم أجود شعره . وفى عهد الخديو« عباس حلمى باشا الثانى » رأى أولو الأمر فى مصر أن يعود المنفيون من قادة الثورة العرابية إلى وطنهم ؛ فعاد البارودى قبل رفاقه إلى مصر يوم ٦ من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ الموافق ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م . وَرُدّت إليه أمواله ، وأملاكه الموقوفة ، و رتبه وألقابه، وحقوقه المدنية والسياسيّة فى ١٨ من المحرم سنة ١٣١٨ هـ الموافق ١٧ من مايو سنة ١٩٠٠م

ويبدو من عنوان هذه المدحة ، ومن جوها أن الشاعر نظمها بعد أن ردّت إليه أملاكه وحقوقه ؛ ولا ريب أن هذا — مع الاستدعاء ، والمحادثة ، والإقبال ، والحنان — قد طيب نفسه ، وحرّك عاطفته ، وأنطقه بهذا المديح ؛ ويلاحظ أن الخديو« عباس حلمى الثانى » ارتقى عرش مصر وعمره ثمانية عشر عاماً :

وأدركت فى عصر الشبيبة غايــة من الفضل لم يبلغ مداها الأفاضل

** عباس حلمى باشا الثانى (١٨٧٤ — ١٩٤٤ م) : خديو مصر : عباس حلمى بن محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا ، رأس الأسرة المحمدية العلوية التى حكمت مصر من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٩٥٣ م .

تعلم فى مصر ، وسويسرا ، والنمسا ؛ وتولى منصبه وهو فى الثامنة عشرة عقب وفاة والده فى ٨ من يناير سنة ١٨٩٢ . وكان عباس طموحاً ؛ فحاول مقاومة سياسة الاحتلال البريطانى التى سيطرت على مصر من سنة ١٨٨٢ م ؛ ولكنه لم يستطع .

وفى عهده استردّ السودان ، وانتشر التعليم ، وأنشئ البنك الأهلى ، وردم خليج القاهرة ، واتسع العمران ، وكثرت الأندية ، وانتشرت الصحف والمجلات ، وانطلقت حريّة النقد ، وظهر الزعيم « مصطفى كامل باشا » ، ورفضت الجمعية العموميّة مدّ الامتياز لشركة قناة السويس .

وفى صيف سنة ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواى؛ فاشتدت حملات الرأى العام المصرىّ على سياسة الاحتلال؛ حتى اضطرّ العميد البريطانىّ لورد « كرومر » إلى الاستقالة فى مايو سنة ١٩٠٧ وخلفه «إلدن غورست» ثم لورد « كتشنر » . ولمّا نشبت الحرب العالميّة الأولى، انتهز البريطانيون فرصة غياب « عباس » عن مصر =

سَمَا الْمُلْكُ مُخْتَالًا بِمَا أَنْتَ فَاعِلُ ... وَعَادَتْ بِكَ الْأَيَّامُ وَهْيَ أَصَائِلُ[١]

رَبَأْتَ مِنَ الْعَلْيَاءِ قُنَّةَ سُودَدٍ ... يُقَصِّرُ عَنْهَا صَاغِرًا مَنْ يُطَاوِلُ[٢]

وَأَدْرَكْتَ فِي عَصْرِ الشَّبِيبَةِ غَايَةً ... مِنَ الْفَضْلِ لَمْ يَبْلُغْ مَدَاهَا الْأَفَاضِلُ[٣]

= فى الآستانة « إستانبول » ، فخلعوه فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ م ، بعد أن فرضوا حمايتهم على مصر ، و « بسويسرا » كان معظم إقامته بعد خلعه ؛ ولما توفى نقل جثمانه إلى مصر ، فدفن فى مقابر أسرته بالقلعة بالقاهرة .

(١) سما : علا ، وارتفع . والملك (بتثليث الميم) : مصدر ملكه (من باب ضرب) : أى حازه ، واحتواه ، قادراً على الاستبداد به ، والتصرّف فيه . والملك أيضاً : ما يحوزه المالك ، ويملكه ، ويتصرّف فيه . ويراد به هنا : ما يتولاه الممدوح ، ويتقلّده ، ويسوسه ، ويرأس حكومته من البلاد . ومختالاً : مزداناً ، مزهوًّا . وعادت : صارت . وبك : بسببك : أى بأعمالك المجيدة ، وسياستك الرشيدة . والواو الأخيرة : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . والأصائل : جمع الأصيل : وهو الوقت بين العصر والمغرب ، أو وقت اصفرار الشمس قبيل مغربها . والعرب تتغنى بالأصائل ، وتستشعر فيها الدعة ، والراحة ، والانتعاش ، والانشراح ، ورخاء البال ، وهناءة الحال . وفى الأصائل يجتلى الناسُ جمال الطبيعة ، ومحاسن الكون ، ونضرة الدنيا وبهجتها .

للممدوح أعمال مجيدة ، وأفعال عظيمة ، ومساع محمودة ؛ رفع بها قواعد الملك ، وأقام أركانه ، وأعلى بنيانه ؛ فازدان ، وازدهر ، واختال ، وافتخر ، وتبختر ، وتكبر ؛ وبفضل الممدوح ، ويمن طالعه ، وسعد زمانه – صارت الأيام أصائل ، لا تلق الناس إلا بما يريحهم ، ويرضيهم ، ويسرّهم ، ويغنّيهم ، ويمتعهم ، ويبهجهم .

(٢) ربأ : ارتفع ، وعلا (وبابه منع) . وربأه : رفعه ، وأعلاه . والعلياء : الرفعة ، والشرف . وقُنّة كلّ شىء : أعلاه . والسودد (بضم السين مع فتح الدال وضمها مهموزاً ، وغير مهموز) : السيادة ، والعظمة ، والمجد ، والشرف ، والعلاء ، وكرم المنصب ، والقدر الرفيع . ويقصر : يعجز . وصاغراً : ذليلاً ، مهيناً . وطاوله يطاوله : غالبه فى الطول ، وباراه .

اعتلى الممدوح أسمى مراتب المجد والسودد ، وانفرد بما ارتبأه من كرم المنصب ، ورفعة القدر ؛ فلا سبيل إلى مطاولته ، أو مباراته ؛ ومن حاول شيئاً من هذا عجز ، وعاد بالذلّة والصغار .

(٣) أدرك الشىء : لحقه ، وبلغه ، وناله ، وظفر به . وعصر الشبيبة : زمن الشباب ، وعهد الحداثة والفتاء . وفى التعريف بالممدوح أنه تولّى منصبه وهو فى الثامنة عشرة من عمره : أى فى عنفوان شبابه . =

فَخَيْرُكَ مَأْمُولٌ ، وَفَضْلُكَ وَاسِعٌ ... وَظِلُّكَ مَمْدُودٌ ، وَعَدْلُكَ شَامِلُ(٤)
مَسَاعٍ جَلَاهَا الرَّأْىُ ؛ فَهْىَ كَوَاكِبٌ ... لَهَا بَيْنَ أَفْلَاكِ الْقُلُوبِ مَنَازِلُ(٥)

=وغاية الشيء ، ومداه : أقصاه ، ومنتهاه . والفضل : الإحسان ، أو الابتداء به بلا علة له . وأصله فى اللغة الزيادة ، ثم كثر استعماله فى الزيادة المحمودة : كفضل العلم ، والحلم ، والبر ، والمعروف ، والخير ، والإحسان . والفضل الذى أدرك الممدوح غايته وهو شاب : بعيد المدى ، واسع المجال ؛ ومنه ما أشار إليه الشاعر فى البيتين السابقين من معانى العلا والمجد والسودد ، وعظمة الملك وسموه ، وازدهار السلطان وافتخاره ، وارتياح الناس لولايته ، وسعادتهم بحكمه ، وفى مقدمتهم المادح نفسه . والأفاضل : جمع الأفضل : اسم تفضيل من الفضل . ومعنى « لم يبلغ مداها الأفاضل » : أن الممدوح بزَّ غيره من أفاضل الولاة والحكام ، والرؤساء والملوك ، وسبقهم وفاقهم ، وتجاوز ما بلغوه من غايات الفضل والإحسان ، ومحامد الحكم والسلطان.

(٤) « خير » (بفتح فسكون) : ومن معانيه : المال الكثير الطيب ، وما يرغب فيه الناس جميعاً ، كالعقل ، والفضل ، والعدل . وضده الشرّ والضرّ . أو هى « خير » (بكسر الخاء) : بمعنى الكرم . ومأمول : مرجو ، مرتقب ، يأمله الناس ، ويرجونه . والظل : ضوء شعاع الشمس إذا استترت عنك بحاجز ، أو هو كل موضع لم تصل إليه الشمس ، وجمعه ظلال . والعرب تكنى بالظل عن العزّ والمنعة ، وعن الرفاهة والراحة ، وغضارة العيش . ومن كلامهم : « السلطان ظل الله فى الأرض » ؛ لأنه يدفع عن الناس الأذى والشر ، كما يدفع الظلّ عن المستظلّ به أذى الشمس ووهجها . وتقول : « أنا فى ظل فلان » : أى فى كنفه ، وذراه ، وجنابه ، ورحابه . وفى القرآن الكريم ، فى مَثَل الجنّة : « تجرى من تحتها الأنهار . أكلها دائم وظلها » الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد . وفيه : « إن المتقين فى ظلال وعيون » الآية رقم ٤١ من سورة المرسلات . وفى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... » وممدود : ممتد ، مبسوط ، واسع ، محيط . وشامل : عامّ تامّ ، يشمل القريب والبعيد . والخير ، والظل ، والعدل من صور الفضل . والبيت تفصيل ، وتكرار ، وتأكيد لمعنى البيت السابق .

(٥) المساعى : المكرمات : أى الخيرات ، وأفعال الكرم ، واحدتها مسعاة . والمساعى أيضاً : جمع المسعى : وهو السعى ، والعمل ، والمسلك ، والتصرف ، والمقصد ، والولاية . وجلاها : كشفها ، وأوضحها ، وأظهرها . والرأى : العقل ، والاعتقاد ، والإصابة فى التدبير . ورجل ذو رأى : ذو بصيرة ، وحذق بالأمور . ولها : للمساعى المشبّهة بالكواكب . والأفلاك : جمع فلك (بوزن سبب وأسباب) : وهو الفضاء يدور فيه النجم أو الكوكب . وإضافة الأفلاك إلى القلوب : من إضافة المشبّه به إلى المشبّه . ومنازل : جمع منزل : وهو مكان النزول . أو جمع منزلة : وهى المكانة ، والمرتبة .

والمعنى : للممدوح مساع ، ومكرمات ، وتصرّفات ، وأعمال مجيدة ، يصدر فيها دائماً عن رأى ،=

يُقَصِّرُ قَابُ الْفِكْرِ عَنْهَا ، وَيَنْتَهِي ... أَخُو الْجِدِّ عَنْ إِدْرَاكِهَا وَهْوَ ذَاهِلُ(٦)
وَكَيْفَ يَنَالُ الْفَهْمُ مِنْهَا نَصِيبَهُ ... وَأَقْرَبُهَا لِلنَّيِّرَاتِ حَبَائِلُ ؟(٧)

= وبصيرة ، وسداد تفكير ، وحسن تدبير ؛ ولهذا ظهرتْ ، واشتهرتْ ، وسمتْ فى عيون الناس كالنجوم النيرة المضيئة اللامعة ، واحتلّتْ من قلوبهم أرفع المراتب ، وأعلى المكانات .

(٦) القاب : المقدار . ومن كلامهم : «هو منّى قاب قوس» : أى مقدار قوس : كناية عن قربه . ويراد بقاب الفكر هنا : جهده ، وطاقته ، ومقدرته ، وقوّته . والفكر : إعمال العقل فى المعلوم من أجل الوصول إلى المجهول . ولى فى هذا الأمر فكر : أى نظر وروية . وعنها : عن مساعى الممدوح ومكرماته . وينتهى عن إدراكها : يقف ، ويكفّ : أى لا يستطيع إدراكها . وأخو الجدّ : المجدّ المجتهد ، أو العظيم من الناس ؛ فالجد (بفتح الجيم وكسرها) : الاجتهاد . والجدّ (بفتح الجيم) : العَظَمَة . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وذاهل : اسم فاعل من ذهل (كقطع ، وتعب) : أى تدلّه ، وتحيّر ، وغاب عن رشده .

والمعنى : أن مساعى الممدوح فوق نطاق تفكير الناس ؛ أو أن الفكر مهما بلغتْ طاقته وجهده وقوّته ؛ واتسعتْ دائرته وأفقه ونطاقه ؛ وبعدت غايته ومداه ومرماه — يعجز عن أن يصل إلى غايات الممدوح ، وسامى مساعيه ؛ وإذا حاول عظيم ، أو همام ، أو مجتهد دءوب مطاولة الممدوح فى تلك المساعى ، انتهى به الأمر إلى العجز ، والذهول ، والحيرة ، والدهش ، والقصور ، والابتئاس . والبيت الآتى تكرار وتأكيد لهذا المعنى .

ويلاحظ أن الشاعر فى هذه القصيدة يكرر كثيراً من المفردات والألفاظ ، وكثيراً من العبارات والأساليب ، وكثيراً من المعانى والأفكار ، وكثيراً من الصور والأخيلة ، ويجنح للتزيد ، والمبالغة ، والمغالاة ؛ فشعره هنا تبدو فيه أمارات الشيخوخة ؛ أو لعلّه مدح هذا الأمير بحكم الاضطرار الأدبىّ ، لا بدافع من المحبة والمودّة ، والإخلاص والإعجاب ، والتأثّر والاقتناع .

(٧) الاستفهام فى أول هذا البيت للاستبعاد ، أو للنفى . والفهم : الإدراك ، والعلم ، والعرفان ، وحسن تصوّر المعنى ، وجودة استعداد الذهن للاستنباط . ومنها : من مساعى الممدوح . والنصيب : الحظّ ، والحصّة من كلّ شىء . وأقربها : وأقرب تلك المساعى . والنيّرات : الكواكب والنجوم المنيرة ، وأحدتها نيّرة . والحبائل : جمع حبالة (بوزن رسالة ورسائل) : وهى الشَّرَك ، والمصيدة ، وما يُنْصَب للطير . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية .

يستبعد ، أو ينفى أن تصيب أفهام الناس وأفكارهم حظاً من مساعى الممدوح ؛ فإن القريب الدانى منها أشراك للنجوم والكواكب ؛ وهذا كناية عن إغراقها فى الرفعة والسموّ ، وبعدها عن نطاق الأفهام والأفكار ؛ فالشطر الثانى موضّح لمعنى الشطر الأول ، مؤكد للنفى أو الاستبعاد . =

إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَجْدُ ، حَتَّى لَوَانَّهُ أَرَادَ مَزِيدًا لَمْ يَجِدْ مَا يُحَاوِلُ(٨)
فَمُرْ بِالَّذِي تَهْوَاهُ ؛ فَالسَّعْدُ قَائِمٌ بِمَا تَشْتَهِي ، وَاللهُ بِالنَّصْرِ كَافِلُ(٩)
فَقَدْ تَصْدُقُ الْآمَالُ وَالْحَزْمُ رَائِدٌ وَتَقْتَرِبُ الْغَايَاتُ وَالْجِدُّ عَامِلُ(١٠)

= أو المعنى: أن الدانى القريب من مساعى الممدوح حبائل وأشراك لمساعيه البعيدة التى شبهها بالنيّرات؛ فكيف تصل أفهام الناس ، أو أفكارهم ، أو هممهم ، أو قدراتهم إلى القصىّ البعيد من تلك المساعى، أو المطالب ، أو الأهداف ، أو الغايات ، أو الأعمال الكبيرة المجيدة ؟ وهو تكرار لمعنى البيت السابق؛ وفيه تكلّف ومغالاة .

(٨) إليك تناهى المجد : أسلوب يفيد القصر : أى إليك لا إلى غيرك بلغ المجد غايته ونهايته ، وأدرك مداه وأقصاه . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء ، والحسب ، والكرم . والمزيد: الزيادة . وحاول الشىء يحاوله : رامه ، وأراده ، وابتغاه ، وطلبه بالحيلة: وهى الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور .

يقول : لو حاول المجد أن يعظم ويزداد لدى الممدوح — لم يجد ما يحاوله ؛ لأنه بلغ أعلى درجاته ، ومنتهى غاياته .

(٩) أمره بالشىء ، وأمره الشىء . وفعل الأمر منه « مُرْ » . وتهواه : تحبه ، وتريده ، وتشتهيه . والسعد: السعادة ، واليمن . وهو نقيض الشقاوة والنحس . والسعد قائم بما تشتهى : أى والسعد فى خدمتك ، وطوع إرادتك . وكافل بالنصر : متكفل به ، ضامن له .

والمعنى : أن الممدوح يستطيع أن يأمر رعيته بما يريد ؛ ويسلك بها ما يشاء من المسالك والمساعى؛ ويتجه إلى ما يرغب فيه من الرغائب والمقاصد؛ ويعالج ما يطمح إليه من الغايات والمطالب، وهو مطمئن إلى عون الله تعالى ونصره ، وتسديده وتأييده، هذا إلى يُمْن طالع الممدوح ، وسعادة جَدّه ، وبركات مساعيه .

(١٠) «قد» فى مثل هذا المقام : حرف يفيد التكثير . وتصدق : المراد تتحقّق ، وتصحّ وتقع. وأمله يأمله (من باب طلب) : رجاه ، وترقّبه. وأكثر استعمال الأمل فيما يستبعد حصوله، وجمعه آمال. والحزم مصدر حزم الإنسان رأيه، أو أمره (من باب ضرب) : أى ضبطه، وأحكمه، وأتقنه، وأخذه بالثقة . والرائد : الرسول الذى يرسله قومه ؛ ليختار لهم مكاناً ملائماً ينزلون فيه ، ومن يتقدم القوم ؛ ليبصر لهم الكلأ ، والمرعى، ومساقط الغيث . والجد (بفتح الجيم وكسرها) : الاجتهاد . والعامل : المؤثّر فى الشىء ، والباعث له ، والمحرض عليه . والواو فى كلا شطرى البيت : واو الحال ، والجملة بعد الواو الأولى : حال من الآمال ، وبعد الثانية حال من الغايات .

يقول : تَصدُق الآمال ، وتتحقق الأمانىّ إذا رادها المرء بالحزم ؛ وتقترب الغايات البعيدة إذا =

وَأَيُّ صَنِيعٍ بَعْدَ فَضْلِكَ يُرْتَجَى وَأَنْتَ مَلِيكٌ فِي الْبَرِيَّةِ عَادِلُ ؟(١١)
يَعُمُّ الرِّضَا مَا قَامَ بِالْحَقِّ صَادِعٌ وَتَبْقَى الْعُلَا مَادَامَ لِلسَّيْفِ حَامِلُ(١٢)

= عمل لها طالبها ، وجد واجتهد فى تحصيلها .

وفى البيت إشارة إلى أن الممدوح يحقق بحزمه الآمال الواسعة ، ويقرّب بجده الغايات البعيدة .

فى البيت السابق قال : إن السعد فى خدمة الممدوح ، والله تعالى ناصره ومؤيده . وفى هذا البيت عاملان آخران ، هما حزم الممدوح ، وأخذه الأمور بالجد والاجتهاد؛ وبهذه العوامل الأربعة تَصْدُقُ الآمال ، وتُدرَك الغايات ، وتنال الرغائب ، وتتحقق المطالب .

(١١) « أى » : اسم استفهام؛ والاستفهام هنا : معناه النفى : أى لا صنيع يُرتجَى بعد فضلك . والصنيع : البر ، والخير ، والمعروف ، والإحسان ؛ ومثله الفضل؛ كأنه قال : لا صنيع يُرتجى بعد صنيعك؛ أو لا فضل يُرتجى بعد فضلك . ويُرتجى: يُرجى ، ويُؤْمل ، ويُرتقب . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال ، والجملة بعدها حالية. والمليك: صاحب المُلْك : أى صاحب الولاية والأمر والسلطان؛ ومثله المَلِك . والبرية : الخلق ، والناس .

يقول : لا صنيع يرتجى بعد صنيعك ، والحال أنك ملك عادل فى الناس .

ولعل الصلة بين شطرى هذا البيت : أن الممدوح يوزع فضله ، وبره ، وإحسانه على الناس بالعدل، والإنصاف ، والقسطاس المستقيم ؛ وأنه يغنيهم جميعاً بصنيعه وفضله ؛ فلا يبقى فيهم من يطمع فى فضل غيره وصنيعه .

(١٢) يعم : يشمل، يقال : عمّ المطر الأرض : أى شملها ، وغطاها ، ولم يترك منها شيئاً . و « ما » فى شطرى هذا البيت : مصدرية ظرفية : أى يعمّ الرضا مدة قيام الصادع بالحق ، ومدة دوام الحامل للسيف. وصادع : اسم فاعل من صدع بالأمر (من باب قطع) : أى جهر به ، وبيّنه مصارحة وعلانية . والعلا : الرفعة ، والشرف ؛ أو هى جمع العليا : مؤنث الأعلى . وحامل السيف : الذى يحسن حمله ، واستخدامه ، والمجالدة به ؛ يكنّى بهذا عن قوة الكفاح ، وموفور السلاح ؛ ويريد أن العلا تبقى للأمة ، وتبقى لها العزة والمنَعة ما بقيتْ لها الأُهْبة والاستعداد الحربى التام .

والمعنى : أن الممالك والبلاد إذا تمتع أهلها بالحرية ، وحطموا قيود الذل والعبودية ، واستطاع كل امرئ أن يجهر بما يراه حقاً ، ويعلن عقيدته ونقده ، وهو مطمئن آمن أن يصاب بمكروه ، عاش الناس جميعاً — على اختلاف آرائهم ومذاهبهم — فى رضاً ، وغبطة ، ودعة ، وطمأنينة ، وأمن ، وسلام .

ولن تستطيع الأمم أو الممالك أن تحافظ على أمنها وسلامتها ؛ وتستبقى ما وصلتْ إليه من مراتب العزة والرفعة ، والسودد والعلا إلا إذا اعتمدتْ على قوتها وبأسها ، وما تُعِده من موفور السلاح ، والعتاد الحربى ، والجيوش المتأهبة للكفاح والقتال .
=

فَيَا طَالِبًا مَسْعَاتَهُ ؛ لِيَنَالَهَا رُوَيْدَكَ ؛ إِنَّ الْحِرْصَ لِلنَّفْسِ خَاذِلُ (١٣)
فَمَا كُلُّ مَنْ رَاضَ الْبَدِيهَةَ عَاقِلٌ وَلَا كُلُّ مَنْ خَاضَ الْكَرِيهَةَ بَاسِلُ (١٤)

= وقد ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكم والأمثال، بعد ما قدمه من صريح المديح ؛ كأنه يقرر أن الناس فى عهد الممدوح صادعون بالحق ، مستمتعون بحرياتهم ، راضون هانئون مغتبطون ؛ وهو فى الوقت نفسه يحضّ على استبقاء هذه الحالة الطيبة المرضية، وهذه الحياة الحرة الكريمة بقوة السلاح ، والاستعداد للكفاح .

(١٣) المسعاة : المَكْرُمة ، والمَعْلاة فى أنواع المجد، وجمعها المساعى. ومن كلامهم : « هو من أهل المساعى » : أى من أهل المكارم. ورويدك : تمهّلْ ، واتئدْ ، ولا تَعجَلْ : تصغير « رود » (بوزن عود) : من قولهم : امش على رود : أى على مهَل . أو تصغير ترخيم لإرواد : مصدر أرود فى السير : أى رَفَق ، واتأد ، ولم يسرع . والحرص : الجشع : وفَرْط الشَّره : مصدر حرص على الشىء (من بابى ضرب وسمع) : إذا رغب فيه رغبة شديدة مذمومة ، واشتد تمسكه به، وشرَهُه إليه . وخاذل : اسم فاعل من خذله (من باب قتل) : أى أسلمه ، وخيبه ، وترك إعانته ، وقعد عن نُصرته .

يقول لمن يطلب مثل مساعى الممدوح ، أو يباريه فى مكرماته ، أو يطاوله فى معاليه ، أو ينافسه فى أعماله الكبيرة المجيدة : تمهلْ ، واتئد ، وارفُق بنفسك ؛ فإنك تحاول غير الممكن ، وتطالب ما يستعصى عليك ، وتبتغى ما تَقصُرُ عنه طاقتك ؛ وقد جعل هذه المحاولة من الجشع ، وفرْط الشَّره ، والحرص المذموم ؛ وقال له : إن مثلك جدير بأن يردّه حرصه وشرهُه إلى الخِذلان والخسران . ويلاحظ أن معنى هذا البيت تكرار لمعنى البيتين السادس والسابع من هذه القصيدة .

(١٤) راض المهر ونحوه : ذلّله ، ومرّنه ، وطوّعه ، وعلّمه حسن السير . والبديهة : المفاجأة . ويقال : أجاب ، أو خطب ، أو شعر على البديهة : أى ارتجل الإجابة ، أو الخطبة ، أو الشعر ، بلا إعداد ، أو توقّف ، أو طول تفكّر ، وجمعها بدائه . ولفلانٍ بدائه فى الكلام : أى روائع ، وبدائع ، وعجائب . ورياضة البديهة : تمرين الذهن على سرعة الفهم ، وقوة الإدراك، ونفاذ البصيرة . ويراد بالعاقل هنا : الذكى ، السريع الفهم ، المتوقد الذهن ، القوى الإدراك؛ وقد يكون اسم فاعل من عقله (من باب نصر) : أى غلبه بالعقل ، وفاقه فى قوة إدراك الأشياء على حقيقتها . وخاض الماء (من باب قال) : دخله ومشى فيه ؛ ومن المجاز : خاض الكريهة : وهى الشدة فى الحرب ، وجمعها كرائه . وباسل: بطل ، شجاع ، مقدام : صفة من البسالة : وهى الإقدام على الكرائه ، والعبوس عند الحرب .

والمعنى : أن المرء قد يزاول بعض الأعمال العظيمة ، وهو — مع هذه المزاولة — لا يعدّ عظيماً ؛ كمن يمثّل فى إحدى المسرحيات موقفاً من مواقف البطولة ، أو سرعة البديهة ، وحسن الارتجال ؛ وهو — مع هذا =

وَلَوْلاَ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِى دَرَجَاتِهِمْ   لَعَادَلَ «قُسًّا» فِى الْفَصَاحَةِ «بَاقِلُ» (١٥)

= التمثيل – لا يعدّ بطلاً ، ولا سريع البديهة ، ولا مطبوعاً على الارتجال .

وصلة هذا البيت بالذى قبله أن من يحاول مطاولة الممدوح فى مساعيه ومكرماته – إنما يبنى محاولته على الشَّره ، والجشع ، والحرص الممقوت ، لا على شرف الطبع ، وكرم النفس ، وحب الخير ؛ مثله فى هذا مَثَلُ من يخوض المعامع مكرهاً، لا بطلاً ، أو طامعاً ، لا مدافعاً ، ومن يروض البديهة، لا عن ذكاء ، أو توقّد ذهن ، أو سرعة فهم ، أو قوة إدراك .

والبيت مع هذا يشير إلى تفاوت الناس فى كفاياتهم ، ودرجاتهم ، ومقاصدهم . والبيت الآتى صريح فى هذا المعنى ، مؤكد له .

(١٥) « لولا » : حرف شرط يدل على امتناع شىء لوجود غيره ؛ وهى هنا داخلة على جملتين : اسمية ، ففعلية ؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى ؛ والممتنع هنا التعادل : أى التساوى ، والمماثلة بين « قسّ » و « باقل » ؛ والموجود : اختلاف الناس فى درجاتهم . ويراد باختلاف الناس : تفاوتهم ، وتباينهم . ودرجاتهم : طبقاتهم ، ومراتبهم ، وأوصافهم ، ومنازلهم فى العقل والتدبير ، والفضل والخير ، والشجاعة والبسالة ، والمجد والشرف ، والبيان والفصاحة وغيرها . وعادله : وازنه ، وماثله ، وساواه .

و « قُسّ » بن ساعدة ، بن عمرو، بن عدىّ، بن مالك : من بنى إياد ، بن نزار ، بن مَعَدّ ، بن عدنان : خطيب العرب قاطبة، وأحد حكمائهم فى الجاهلية، وأسْقُفُ « نَجْران » ، والمضروب به المثل فى البلاغة والحكمة والفصاحة واللَّسَن ، وقوة الحجة ، وسحر البيان ؛ قيل : وهو أول من خطب متوكئاً على سيف أو عصًا ، وأول من كتب : « من فلان إلى فلان » وأول من قال فى كلامه : « أما بعد » ؛ وكان يفِدُ على قيصر الروم زائراً ؛ فيكرمه ويعظّمه ؛ وهو من المعمَّرين ؛ وقد رآه النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – قبل النبوة فى سوق « عكاظ » ، وسمعه يخطب ، ويعظ الناس ؛ فارتاح له ، وأعجب به ؛ ولما مات سنة ٢٣ قبل الهجرة (سنة ٦٠٠ م) ، قال عليه الصلاة والسلام : « يرحم الله قُسًّا ؛ إنى لأرجو أن يأتى يوم القيامة أمّةً وحده » . والفصاحة : البيان ، واللَّسَن ، وسلامة الألفاظ من الإبهام وسوء التأليف : مصدر فصح الرجل (من باب ظرف) : أى جادت لغته ، وانطلق لسانه بكلام صحيح واضح فصيح .

و « باقل الربعى » : ابن عمرو بن ربيعة الإيادى : رجل جاهلى ، ضرب به المثل فى العى والبلاهة . ومن حكايات عيه وبلاهته : أنه اشترى مرة ظبياً : (أى غزالاً) بأحد عشر درهماً ، ووضعه تحت إبطه ، فسئل : بكم اشتريته ؟ فعجز عن الكلام ؛ فمد يديه ، وفتح كفيه ، يريد أصابعه العشر ، وأخرج لسانه ، يريد الواحد الباقى ليكملها أحد عشر ، مشيراً بهذا كله إلى ثمن الظبى ؛ فأفلت منه ، وفر هارباً ؛ فضربوا به المثل فى البلاهة والعىّ : أى الحَصَر ، والعجز عن النطق والكلام. وقالوا : « أعْيَا من باقل » ، =

هُوَ الْمَلِكُ الْمَكْفُولُ بِالنَّصْرِ جُنْدُهُ ... إِذَا احْمَرَّ بَأْسٌ ، أَوْ تَنَمَّرَ بَاطِلُ (١٦)

لَهُ بَدَهَاتٌ لَا تَغِبُّ ، وَعَزْمَةٌ ... مُؤَيَّدَةٌ ، تَعْنُو إِلَيْهَا الْجَحَافِلُ (١٧)

= وقابلوا به « قسًّا » : ليظهروا الفارق الواضح بين الضدين ، أو المتناقضين « وبضدها تتميز الأشياء » .

والمعنى : لو تساوى الناس فى درجاتهم ، لذهبت الفوارق ، والفواصل ، والمميزات التى تميز الخبيث من الطيب ، والخامل من النابه ، والجاهل من العالم ، والناقص من الفاضل ، والذكى من الغبى ، والعيى من الفصيح ، وتلاقى الضدان ، واجتمع النقيضان على سواء ، وتعادل « قسّ » و « باقل » ، على الرغم من أن الأول يضرب به المثل فى اللَّسَن ، والفصاحة ، والعقل ، والحكمة ، وطلاقة اللسان ، وسحر البيان . والثانى فى الدرك الأسفل من البله ، والغفلة ، والعِىّ ، والحَصَر ، وانعقاد اللسان ، والعجز عن النطق والكلام .

ولا ريب أن نظام الحياة ، ونظام الناس فيها مبنيان على اختلافهم ، وتفاوتهم فى أمور كثيرة جدًّا ؛ وقد أشرنا من قبل إلى بعضها ؛ فإن تساووا انهدم نظامهم ونظام الحياة .

قال الأفْوَه الأوْدى :

لا يصلح الناس فوضى ، لا سَراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ومن الأقوال المأثورة : « الناس بخير ما تفاوتوا ، فإن تساووا هلكوا » . وفى القرآن الكريم : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًّا » . الآية رقم ٣٢ من سورة الزخرف .

(١٦) الكفالة : الضمان : مصدر كفله ، وكفل به : أى ضمنه ، واسم الفاعل كافل ، واسم المفعول مكفول ؛ هذه لغة المعجمات التى بين أيدينا ؛ والشاعر يريد هنا : أن الله تعالى تكفّل لجند الممدوح بالنصر ، وضمن له الغلبة . والبأس : الشدة فى الحرب . واحمرار البأس : كناية عن استحرار القتال ، وشدة الكفاح والنزال ، وكثرة ما سال من دماء الجرحى والقتلى . وتنمّر : تشبّه بالنمر فى طبعه ؛ وهو لا يرى إلا متنكراً غضبان ؛ ومن طباعه الشراسة ، والشر ، والإضرار ، والعدوان . وتنمر الباطل : كناية عن تفاقمه ، واشتداده ، واستفحاله .

والمعنى : أن الله تبارك وتعالى يرعى على الدوام الممدوح وجيشه ؛ ويؤيده بنصره فيما يخوضه من معامع الحرب والقتال ؛ وفيما يعالجه من إبطال الباطل ، وإخماد الفتن ، والقضاء على المفاسد .

(١٧) له : للممدوح . ويراد بالبدهات هنا : الآراء ، أو الأفكار ، أو التصرفات ، أو الأحكام ، أو العبارات الصائبة المحكمة السديدة ، يرتجلها الممدوح فى سرعة خاطر ، وتوقد ذهن ، وقوة عارضة ، وحضور بديهة ، واحدتها بدهة (بوزن سجدة وسجدات) : اسم مرة من بدهه (من باب نفع) : أى بغته ، وفاجأه . ومنه البداهة ، والبديهة : وهى سداد الرأى عند المفاجأة . ولا تغبّ (مضارع غبّ =

فَآرَاؤُهُ فِى الْمُشْكِلَاتِ كَوَاكِبٌ وَهِمَّاتُهُ فِى الْمُعْضِلَاتِ مَنَاصِلُ(١٨)
تَدُلُّ مَسَاعِيهِ عَلَى فَضْلِ نَفْسِـــهِ وِلِلشَّمْسِ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا دَلَائِلُ(١٩)

= (من بابى ردّ ، وخفّ)، أو مضارع أغب إغباباً: أى لا تنقطع ، ولا تغيب ، ولا تتخلف؛ يريد أن بدهات الممدوح متصلة حاضرة على الدوام ؛ فهى من مزاياه الملازمةله : بمعنى أنها لا تساعفه فى حين ، وتخذله فى حين آخر . والغبّ والإغباب (فى الأصل): أن تشرب الماشية يوماً ، وتظمأ يوماً . والعزمة : الإرادة القوية القاطعة ، وثبات المرء وصبره فيما يعزم عليه . ومؤيدة : مقواة ثابتة : اسم مفعول من التأييد : وهو التقوية والتعزيز . وتعنو : تخضع ، وتذل : مضارع :« عنا » (من باب سما) . وفى القرآن الكريم : « وعنت الوجوه للحي القيوم ؛ وقد خاب من حمل ظلماً » الآية رقم ١١١ من سورة طه؛ ويلاحظ أن الفعل « عنا » متعدّ باللام فى الآية القرآنية الكريمة؛ وقد عدّاه الشاعر فى هذا البيت بـ« إلى »، وهو جائزمقبول . والجحافل : جمع جحفل (بوزن جعفر) : وهو الجيش القوى العرمرم ، الشديد ، الكثير ، الجرّار ، فيه خيل .

مدحه بأنه إذا فوجئ بأمر لقيه بسداد الرأى ، وسرعة البديهة ، وحسن التدبير ؛ وقال : إن هذه المزايا ملازمة له ، لا تكاد تفارقه ؛ وهو إلى هذا قوىّ العزم ، قاطع الإرادة ، شديد البأس ، يقهر الجيوش الجرّارة ؛ فتستسلم له فى عناء وذلّة وهوان . أو أن عزمته القوية الصارمة المؤيدة بنصر الله ترهب أعداءه ، وتخضع له جيوشهم الكثيرة قبل أن يحاربها؛ وكل هذا وأمثاله من مبالغات المديح . والبيت الآتى يدور حول هذا المعنى ، ويفصّله ويؤكّده .

(١٨) الآراء : جمع الرأى : وهو الإصابة فى التدبير ، والبصيرة ، والحذق بالأمور . والمشكلات الأمور الملتبسة ، المشتبهة ، المختلطة ، الخفية ، الصعبة ، واحدتها مشكلة . والهمات : جمع همة (بكسر الهاء وفتحها) : وهى العزم القوى ، والإرادة القاطعة . ومن كلامهم : « له همة عالية . وهو بعيد الهمة » . والمعضلات : المشكلات ، والأمور المستغلقةالشديدة ، والمسائل الصعبة الخفية التى لا يُهتدى لوجهها ، الواحدة معضلة . والمناصل : السيوف ، مفردها مُنْصُل (بوزن مُنخُل ومناخل) .

مدحه بالاقتدار على حل المشكلات ، وإزالة لبسها ، وإضاءة جوانبها بآرائه السديدة النيرة ، وتدبيراته المحكمة الصائبة ؛ ونوّه بهممه البعيدة العالية ، وعزماته القوية الماضية التى يحسم بها المعضلات ، ويفتح المستغلقات .

(١٩) دله على الطريق ونحوه، ودله إليه دلالة (بفتح الدال وكسرها)، وجمعها دلائل، ومثلها الأدلة: جمع دليل . ويراد بفضلنفسه : أن نفسه فاضلة كريمة خيّرة . وللشمس من نور عليها دلائل : أى للشمس أدلة عليها من نورها ؛ فـ « من » بيانية ، وما بعدها ، وهوالنور بيان لما قبلها ، وهوالدلائل، أو الأدلة .

يقول : إن مساعى الممدوح ، ومكرماته ، ومبراته ، وأعماله العظيمة المجيدة – تدل على فضله ، وسمو نفسه ، كما يستدل على الشمس بضيائها . وفى هذا التشبيه معنى علو قدر الممدوح ، ورفعة مكانته ، وعظم شأنه ، ونباهة أمره ، وعموم خيره وبرّه . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل .

فَيَا مَلِكًا عَمَّتْ أَيَادِيهِ ، وَالْتَقَتْ ... بِهِ فِرَقُ الْآمَالِ وَهْيَ جَوَافِلُ[٢٠]

بِكَ اخْضَرَّتِ الْآمَالُ بَعْدَ ذُبُولِهَا ... وَحَقَّتْ وُعُودُ الظَّنِّ وَهْيَ مَخَايِلُ[٢١]

بَسَطْتَ يَدًا بِالْخَيْرِ فِينَا كَرِيمَةً ... هِيَ الْغَيْثُ ، أَوْ فِي الْغَيْثِ مِنْهَا شَمَائِلُ[٢٢]

---

(٢٠) عمَّتْ : شمِلتْ . يقال : عمَّ المطر الأرض : أى استوعبها ، وغطَّاها ، ولم يترك منها شيئاً. والأيادى : جمع اليد : بمعنى النعمة ، والصنيعة ، والإحسان . والتقتْ : تلاقت ، واجتمعت . وبه : بالملك . والمراد التقت فى ساحته ، وفِنائه ، ورِحابه . وفرق : طوائف ، وجماعات ، الواحدة فرقة ، والواو فى الشطر الثانى : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية . وجوافل : مسرعة : جمع جافل ، أو جافلة .

مدحه بعموم بِرِه وخيره ، وشمول نفعه وإحسانه ، وكثرة نعمه وأياديه ؛ وأنه مرجوٌّ عظيم ، ومأمول كريم ؛ تتلاقى فى رحابه الآمال مسرعات ؛ وتزدحم على بابه الأمانىّ جماعات .

(٢١) بك اخضرَّت الآمال : أسلوب تخصيص أو قصر ، وطريقته هنا : تقديم ما حقّه التأخير : أى اخضرَّت الآمال بالممدوح ، لابغيره . واخضرت صارت خَضِرة ناعمة ، غَضَّة ناضرة ؛ على تشبيه الآمال بالنبات . والذبول : مصدر ذبل النبات (من باب دخل) : أى ذوى ، وجف ، ويبس ، وقَلَّ ماؤه ، وذهبتْ نضارته وغضارته . والاخضرار هنا : نقيض الذبول . وحَقّ الأمر : ثبت ، ووجب ، ووقع ، وتحقق ، وصَحّ ، وصدق . ووعود الظن : الوعود المظنونة ، أو المتوهمة : أى القائمة على الظن ، والتوهم ، والتخمين ؛ لا على الصدق ، أو الحق ، أو اليقين . ومخايل : جمع مخيلة (بوزن معيشة ومعايش) : وهى الظن . يقال : « أخطأت فيه مخيلتى » : أى ظنى . ومخايل هنا : تكرار وتأكيد لمعنى « الظن » قبلها : أى تحققتْ بفضل الممدوح وعودٌ كانت قبله مخايل وأوهاماً وظنوناً .

يقول : أحيا الممدوح بنعمه وأياديه آمال الناس ؛ وكانت الوعود قبله أوهاماً وظنوناً ، فأنجزها وحققها .

(٢٢) بسط يده بالخير (بالسين ، أو الصاد ، وبابه نصر) : فتحها ، ومدها ، وأطلقها : وهو كناية عن جود الممدوح ، وكرمه ، وسخائه ، وعطائه الكثير الجزيل الوافر . و « كريمة » تكرار ، وتأكيد لهذا المعنى . والغيث : المطر الكثير النافع ؛ ولا يستعمل الغيث إلا فى النفع والخير . و « هى الغيث » : تشبيه بليغ : أى يد الممدوح كالغيث . وشمائل : طباع ، وسجايا : جمع شمال (بوزن كتاب) . و « فى الغيث منها شمائل » : تعبير أبلغ وأقوى ، وأمتع من التشبيه البليغ قبلها ؛ فيده أعمّ من الغيث نفعاً ، وأعظم خيراً .

مدحه بالكرم والجود ، والسخاء ، والعطاء الجزيل الكثير ، الواسع الشامل ؛ وقال : إن يده كالغيث الذى يحيى =

وَأَيْقَظْتَ أَلْبَابَ الرِّجَالِ ؛ فَسَارَعُوا إِلَى الْجِدِّ ؛ حَتَّى لَيْسَ فِى النَّاسِ خَامِلُ (٢٣)

وَمَا «مِصْرُ» إِلَّا جَنَّةٌ ؛ بِكَ أَصْبَحَتْ مُنَوَّرَةً أَفْنَانُهَا وَالْخَمَائِلُ (٢٤)

طَلَعْتَ عَلَيْهَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ ، أَشْرَقَتْ بِلَأْلَائِهِ الْآفَاقُ وَاللَّيْلُ لَائِلُ (٢٥)

= المَوات ، ويُنبت الكلأ والنبات ؛ بل إنها تفوق الغيث ، وتفضله ، وتزيد عليه ؛ وقد بسطها فى رعيته بالإفضال والإحسان ؛ فبعث فى البلاد الحياة والنَّضْرة ، وعمم النفع والخير ، ووفّر للناس أسباب الرخاء والرفاهية .

(٢٣) الألباب : جمع لب : (بوزن قفل وأقفال) : وهو العقل . والجد (بفتح الجيم وتشديد الدال) : مصدر جد فى أمره ، أو فى سيره (من بابى ضرب ونصر) : أى اجتهد . والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . وخامل : ساقط ، مغمور ، لا نباهة له . وضده النابه .

أيقظ الممدوح عقول الرجال من سُباتها ، ونبههم على ما يحييهم حياة طيبة كريمة ؛ فخلعوا أردية التوانى والخمول ، والكسل والفتور ، وسارعوا إلى الجد والاجتهاد ، وواظبوا على الكد والدءوب ؛ فلم يبق فيهم خامل ، أو ساقط ، أو مقصر ، أو متوان ، أو ضعيف ، أو مغمور .

(٢٤) الجنة : البستان ، والفردوس ، والحديقة ذات النخيل والأشجار . وأصبحتْ : صارتْ . كما فى قول الله تبارك وتعالى : « فأصبحتم بنعمته إخوانا » الآية رقم ١٠٣ من سورة آل عمران . ومنوّرة : ذات نُوّار ، وورد ، وأزهار : اسم فاعل من نَوَّر الشجر والنبات تنويراً : أى أخرج نوره . أو هى من نَوَّر النبات والزرع : بمعنى ظهر ، وأدرك ، وحَسُن . أو هى من نَوَّر التمر : أى خُلِق فيه النوى . والأفنان : الأغصان . واحدها فنن (بوزن سبب وأسباب) . والخمائل : جمع خميلة (بوزن سفينة وسفائن) : وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف الذى لا يرى فيه الشىء إذا وقع فى وسطه ؛ لا لتفافه وكثرته . وكل موضع كَثُر فيه الشجر خميلة . وفى البيت أسلوبان من أساليب القصر ، أو التخصيص : « وما مصر إلا جنة » و « بك أصبحتْ منوَّرة » أى بسببك ، وبفضل ولايتك ، وقيادتك ، ورياستك ، لا بفضل غيرك من الناس .

جعل مصر فى عهد الممدوح جنة ناضرة ذات خمائل وأفنان ؛ وبأفضاله ومساعيه نَوَّرتْ وأزهرت وأثمرتْ : يكنى بهذا عما عم البلاد والرعية فى عهده من الخصب والنماء ، والخير والرخاء ، ورغد العيش ، وهناءة الحياة .

(٢٥) طلع الكوكب ونحوه (من باب دخل) : بدا ، وظهر من عُلُوّ . وطلع عليه : أقبل عليه . وطلعة : اسم مرة منه . والبدر : القمر الممتلىء ، ليلة كماله ، فى منتصف الشهر القمرى . وأشرقتْ : أضاءت وأنارت . واللألاء : الضوء . والآفاق : النواحى ، والأقطار ، والجهات ، واحدها أفق (بوزنى قفل وعنق) . وليل لائل : شديد الظلمة ، ومثله ليل أليل ، والواو : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حال من الآفاق .

وَأَجْرَيْتَ مَاءَ الْعَدْلِ فِيهَا ؛ فَأَصْبَحَتْ ... وَسَاحَاتُهَا لِلْوَارِدِينَ مَنَاهِلُ (٢٦)
وَلَمْ يَأْتِ مِنْ أَوْطَانِهِ «النِّيلُ» سَائِحًا ... إِلَى «مِصْرَ» إِلاَّ وَهْوَ حَرَّانُ سَائِلُ (٢٧)

=والمعنى: كانت البلاد مظلمة معتمة بما يسودها من الخلل والقلق، والظلم والضيم، والضعف والفساد؛ فطلع عليها الممدوح طلوع البدر؛ فبدّد بمساعيه ظلماتها، وأضاء بفضائله أرجاءها، ونشر فيها العدل، والأمن، والصلاح، والرخاء.

(٢٦) ماء العدل: العدل الشبيه بالماء فى عموم نفعه، وقيام نظام الحياة عليه، وشدة احتياج الناس إليه. وفيها: فى مصر. وإجراء ماء العدل فى مصر: كناية عن إطلاقه، وتعميمه، بحيث يشمل القاصى والدانى، والبعيد والقريب. وأصبحت: صارت، والواو فى أول الشطر الثانى: واو الحال، والجملة الاسمية بعدها حالية. وساحاتها: نواحيها، واحدتها ساحة، وللواردين متعلق بمناهل: جمع وارد: اسم فاعل من ورد الإنسان وغيره الماء: أى أشرف عليه، ووافاه، وصار إليه، وبلغه. والمناهل: موارد الماء، ومواضع الشرب على الطريق: جمع منهل (بوزن مذهب). وساحاتها مناهل تشبيه بليغ. والتناسب والتناسق واضحان هنا بين ماء العدل، والمناهل، والواردين.

والمعنى: أن الممدوح نشر فى أهل مصر كلهم أجمعين الإنصاف والعدالة؛ فارتضوا حكمه العادل الصالح، وصارت ساحات مصر ومنازلها مناهل يرد الناس عليها، ويفدون إليها من فجاج الأرض، فيجدون فيها الرى، والأمن، والعدل، والطمأنينة، واحترام الحقوق، وسيادة القانون، وازدهار العمران. وفى أربعة الأبيات الآتية تفصيل وتأكيد لهذا المعنى.

(٢٧) نهر النيل: من أطول أنهار الكرة الأرضية؛ ينبع من بحيرات الهضبة الاستوائية، ومن مياه هضبة الحبشة فى أواسط إفريقية، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط عند «دمياط» و «رشيد» من البلاد المصرية؛ ويخترق — من أقصى منابعه إلى مصبه — بلاداً كثيرة، أهمها: تنجانيقا، وكينيا، وأوغندا، والكنغو، والسودان، وأثيوبيا، ومصر. وأشهر روافده: بحر الغزال، وبحر الزراف، والسوباط، والنيل الأزرق، والعطبرة. وأهم الخزانات، أو السدود المقامة عليه؛ لضبط مياهه، والتحكم فيها، وحسن الانتفاع بها: خزانات أسوان، وسنار، وجبل الأولياء، والسد العالى فى أسوان؛ ويفيض فى أواخر الصيف بمصر؛ وسبب فيضانه سقوط الأمطار الغزيرة الموسمية على هضاب أثيوبيا (الحبشة). وكانت له المكانة العظمى عند قدماء المصريين؛ وما زالت مصر إلى اليوم تحتفل بوفائه فى شهر أغسطس من كل عام. والأوطان: جمع وطن: وهو مقر الإنسان، ومكان إقامته. وأوطان نهر النيل: منابعه فى أواسط إفريقية. وسائحاً: اسم فاعل من ساح الرجل فى الأرض سياحة: أى ذهب فيها، وتنقل بين أرجائها ونواحيها. أو من ساح الماء ونحوه يسيح سَيْحاً وسيَحاناً: أى سال، وجرى على وجه الأرض؛ فى كلمة «سائحاً» تورية؛ والمعنى الأول هو المراد هنا. وحران: صديان: أى شديد العطش. والمراد=

فَيَأَيُّهَا الصَّادِى إِلَى الْعَدْلِ وَالنَّدَى هَلُمَّ ؛ فَذَا بَحْرٌ لَهُ الْبَحْرُ سَاحِلُ[٢٨]

مَلِيكٌ أَقَرَّ الْأَمْنَ وَالْخَوْفُ شَامِلٌ وَأَحْيَا رَمِيمَ الْعَدْلِ وَالْجَوْرُ قَاتِلُ[٢٩]

فَسَلْهُ الرِّضَا ، وَانْزِلْ بِسَاحَةِ مُلْكِهِ فَثَمَّ الْأَمَانِى ، وَالْعُلَا ، وَالْفَوَاضِلُ[٣٠]

=بالحران هنا : المشتاق الذى برّح به الشوق ، وسائل : اسم فاعل من سأل سؤالاً : أى استعطى ، وطلب . أو من سال الماء ونحوه سيلا ، وسيلاناً : أى جرى على وجه الأرض ؛ فى كلمة « سائل » تورية . والمعنى الأول هو المراد هنا ؛ فالنيل يسأل الممدوح فضله وعدله ، ويرجو برّه وخيره . و« سائحاً » حال ، وصاحبها « النيل » وكذلك جملة : « وهو حران سائل » .

والمعنى : إنما انتقل نهر النيل إلى مصر من منابعه القاصية البعيدة ؛ لأنه واجد مشتاق إلى لقاء الممدوح ، طامع فى فضله وبره ، ونواله وإحسانه .

(٢٨) الصادى : الشديد العطش : اسم فاعل من صدى (كتعب) : أى اشتد عطشه ، وجمعه صُداة . والندى : السخاء ، والكرم ، والفضل ، والخير ، والجود ، والعطاء . وهلم تعال ، وأقْبِل : اسم فعل أمر : بمعنى الدعاء إلى الشىء ، وطلب الإقبال عليه . و « ذا » : إشارة إلى الممدوح . ومن كلامهم : « فلان بحر المؤمِّل » : إذا كان سخيّاً ، جواداً ، معطاء ، واسع المعروف ، شامل البر ، عظيم المروءة ، يحقق أمل الآمل ، ويصدّق رجاء من يقصده ويرجوه . وساحل البحر : شاطئه ، وجمعه سواحل . و « بحر له البحر ساحل » : أى الممدوح بحر عظيم جداً ، إذا قرن به البحر الحقيقى تضاءل ، وصغُر ، وكان كالساحل للبحر المجازى ، وهو الممدوح . أو المعنى : أن الممدوح فى عَظَامته ، وفيضان كرمه بحر ليست له سواحل أو شواطئ أو حواجز ، أو حدود ؛ فالبحر لا يُتصوَّر أن يكون ساحلاً لبحر آخر.

ينوّه بعدالة الممدوح ، ويُشيد بنداه ، ويشبهه بالبحر العظيم الواسع ، ويدعو العطاش والصُداة إلى الإقبال عليه ، والقصد إليه ؛ لينعموا بالرىّ والخير ، والفضل والعدل ، والجود والإحسان .

(٢٩) مليك : مَلِك : أى صاحب مُلك ، وعزّ ، وبأس ، وسلطان . وأقرّ الأمن : أرساه ، وثبته . وشامل : عامّ ، منتشر ، شائع . والرميم : البالى ، الهشيم ، المتفتت . وفى التزيل العزيز : « قال من يحيى العظام وهى رميم » ؟ الآية رقم ٧٨ من سورة يس . والجور : الظلم . والجملتان الاسميتان فى نهايتى الشطرين الأول والثانى حاليتان .

والمعنى : كان الخوف شاملاً عامّاً ، فأذهبه ذلك الملك العظيم ، وأقرّ الأمن والطمأنينة والسلام ؛ وكان الظلم مخيفاً قاتلاً ؛ فقضى عليه الممدوح ، ومحا آثاره ، وأحيا العدل ، وبسط سلطانه ، ومدّ ظلاله .

(٣٠) سله الرضا : أمر من سال يسال (بوزن خاف يخاف) : تخفيف سأل يسأل . والأصل : فاسأله الرضا : أى اطلب إليه أن يرضى عليك بما تقدمه من الولاء والإخلاص . والساحة : الناحية . والمكان =

رَعَى اللهُ يَوْمًا قَرَّبَتْنِي سُعُودُهُ ... إِلَى سُدَّةٍ تَأْوِى إِلَيْهَا الْأَمَاثِلُ(٣١)

لَثَمْتُ بِهَا كَفًّا ، هِيَ الْبَحْرُ فِي النَّدَى ... تَفِيضُ سَمَاحًا ، وَالْبَنَانُ جَدَاوِلُ(٣٢)

=الواسع . وفضاء بين دور الحى لابناء فيه ، ولا سقف له. وساحة ملكه : رحاب الممدوح وكَنَفه ، وظله ، وذَراه . و« ثَمّ » : اسم يشار به إلى المكان البعيد : بمعنى« هناك » . والبُعد هنا : بُعد المنزلة ، وسمو المكانة . والأمانى (بتشديد الياء ، وتخفف فى الشعر) : جمع الأمنية : وهى البُغية ، وما يتمناه الإنسان ، ويقدره ، ويرغب فيه ، ويحب أن يصير إليه . والعلا (بوزن الهدى) : الرفعة ، والشرف ، والعلاء . أو هى جمع العليا ، مؤنث الأعلى : أى الدرجات العُلى . والفواضل : النعم العظيمة ، والدرجات الرفيعة فى الفضل ، والعطايا والهبات الجزيلة ؛ الواحدة فاضلة .

والمعنى : إذا أخلصت لهذا الملك العظيم ووالبته – رضى عنك ، وأقبل عليك ؛ وإذا نزلتَ فى رحابه نعمتَ بعطاياه العظيمة ، وهباته الجزيلة ، فصححَّتْ أحلامك ، وتحققَّت أمانيّك ، وظفرت بكل ما تأمله وترجوه .

(٣١) رعاه الله : حفظه ، وصانه ، وتولاه ، ووقاه . وهو تعبير بالخبر فى مقام الإنشاء مجازاً . ومعناه الدعاء. ورعى الله ذلك اليوم : يمّنَهُ ، وباركه ، وحفظ ذكراه ، وجددها . وسعوده : سعود ذلك اليوم : أى بركاته : جمع السعد : وهو اليُمْن ، والبركة . والسُدَّة (بوزن القُبة) : باب الدار ؛ أو فناؤها ؛ أو ما بين يدى الباب ، كالصُفَّة ، والسقيفة ، والظُلَّة ، والساحة ، والرُواق ؛ أو ما يُجْلَس عليه كالمنبر والسرير ؛ ويراد بسُدَّة الممدوح هنا : حضرته ، ومجلسه ، ومقامه . وتأوى إليها : تلجأ إليها ، وتلوذ بها. والأماثل : أفاضل الناس ، وخيارهم ؛ جمع الأمثل (بوزن الأفضل ومعناه) .

يذكر بالخير ، وحسن الثناء ، وخالص الدعاء ذلك اليوم السعيد الميمون المبارك ، الذى أتيح له فيه أن يلوذ بحضرة الممدوح ، ويتشرف بالمثول بين يديه ، ويسعد بحضور مجلسه العالى ، وهو مجلس الأماثل الأفاضل ، الكرام الأخيار .

(٣٢) لثم يده ، أو وجهه ، أو فمه (من بابى ضرب ، وفهم) : قبَّله . والكف : الراحة بين الأصابع ؛ أو هى اليد : أى الراحة مع الأصابع ، وهى مؤنثة . والندى : الفضل ، والخير ، والبرّ ، والإحسان . وفاض النهر ونحوه (من باب باع) : كثُر ماؤه ، وزاد ، وطغى ، حتّى سال على ضفة الوادى : أى جانبه . وسماحاً : تمييز : وهو الجود ، والسخاء ، والكرم ، والعطاء . والبنان : الأصابع ؛ واحدتها بنانة (بوزن سحابة وسحاب) . والجداول : جمع جدول (بوزن جعفر) : وهوالنهر الصغير .

يعتزّ بأنه قبَّل يد الممدوح ، ولا غروَ ؛ فإنها جديرة باللثم والتقبيل؛ وقد شبّهها بالبحر فى الندى والسخاء ، وقال : إنها تفيض كرماً وسماحاً ، وتنبسط بالخير الكثير ، والعطاء الجزيل؛ وجعل أصابعها روافد ، وجداول ، وأنهاراً .

نَطَقْتُ بِفَضْلٍ مِنْكَ ، لَوْلَاهُ لَمْ يَدُرْ ... لِسَانِى .وَلَمْ يَحْفِلْ بِقَوْلِيَ فَاضِلُ (٣٣)

وَلَا أَدَّعِى أَنِّى بَلَغْتُ بِمِدْحَتِى ... عُلَاكَ ؛ وَلَكِنْ جُهْدُ مَا أَنَا قَائِلُ (٣٤)

وَكَيْفَ أُوَفِّى مَنْطِقَ الشُّكْرِ حَقَّهُ ... وَدُونَ ثَنَائِى مِنْ عُلَاكَ مَرَاحِلُ ؟ (٣٥)

---

(٣٣) نطقتُ : المراد نظمت هذه المدْحة ، أى هذه القصيدة التى مدحتك بها ، وتحدثت بها إلى الناس . وبفضل منك : بسبب فضلك ، وما أوليتنى إياه من البر ، والمعروف ، والخير ، والإحسان . ولم يَدُرْ لسانى : لم يتحرك ؛ والمراد : لم يستطع النطق ، ولم يتحرك بالكلام . ولم يحفل : لم يبال ، ولم يهتم .

والمعنى : أن فضل الممدوح ، وما أفاضه على الشاعر من البر ، والخير ، والمعروف ، والإحسان — أنطقه بمدحه وإطرائه ، وحرَّك لسانه بحسن الثناء عليه ؛ ولولا هذا الفضل ما أجاد الشاعر هذا المديح ، ولا احتفل بقوله فُضلاء الأدباء .

(٣٤) ادَّعى لنفسه كذا : زعمه لها ، ونسبه إليها . والمدحة (بكسر الميم وسكون الدال) : اسم من مدحه (من باب نفع) : أى أطراه ، وأحسن الثناء عليه ، ونوَّه بما له من المزايا والفضائل . والمدحة أيضاً : ما يُمْدَح به المرء من الشعر ؛ ومثلها الأُمدوحة (بوزن الأرجوحة) . والجهد (بفتح فسكون ، أو بضم فسكون) : الطاقة ، والاستطاعة ، والوسع ، والغاية ، والنهاية ؛ وهو خبر لمبتدإ محذوف ، تقديره « هى » : أى المدحة ؛ أو « هو » : أى الأمر ، والشأن ، والحال . و « ما » : اسم موصول : بمعنى « الذى » .

والمعنى : لم أصل بمدحتى هذه إلى المستوى الرفيع العالى الذى يناسب الممدوح ، ويدانى سموَّه وعلاه ؛ ولكنها غاية ما أطيقه وأستطيعه من القول . والبيتان الآتيان متصلان بهذا المعنى ، مؤكدان له .

(٣٥) « كيف » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين الحال ؛ وقد خرج الاستفهام هنا عن معناه الحقيقى أو الأصلى إلى الاستبعاد ، أو النفى ؛ فالشاعر يستبعد مقدرته على الوفاء بشكر الممدوح ، أو ينفى هذه المقدرة ، ويعلن قصوره وعجزه ؛ كأنه قال : لا أستطيع أن أوفّى منطق الشكر حقه . ووفاه حقه توفية : أعطاه إياه وافياً ، تاماً ، كاملاً ؛ ومثله أوفاه . ومنطق الشكر : الشكر المنطوق به : أى الجارى على اللسان ؛ كأنه يعظم الشكر القلبى ، ويقرر أنه أوفى ، وأتم ، وأصدق ، وأعظم من الشكر اللسانى ؛ ويشير إلى أنه إذا لم يستطع الوفاء بالشكر اللسانى ، فقد وفى كل الوفاء بالشكر القلبى . و « دون » : ظرف مكان منصوب ؛ وهو هنا بمعنى « فوق » : أى وفوق ثنائى إلى مرتبتك فى العلا — مراحل واسعة بعيدة ، ومسافات ممتدة كبيرة ، لا أستطيع اجتيازها . أو هو بمعنى « قبل » : أى وقبل أن أصل بثنائى إلى مرتبتك العالية مراحل هى فوق طاقتى ؛ كما تقول : « دون بلوغ القمر ، والوصول إليه مراحل ، ومسافات ، وأهوال . والثناء : =

وَحَسْبِىَ عُذْرًا أَنَّكَ الشَّمْسُ رِفْعَةً ... وَكَيْفَ يَنَالُ الْكَوْكَبَ الْمُتَنَاوِلُ؟[٣٦]

لِتَهْنَ بِكَ الدُّنْيَا ؛ فَأَنْتَ جَمَالُهَا ... فَلَوْلَاكَ أَمْسَى جِيدُهَا وَهْوَ عَاطِلُ[٣٧]

= ما يذكر فى محامد الناس ؛ فَيُثْنَى حالاً فحالاً ذكْره : أى يكرر ، ويردد ، ويعاد : وهو اسم من أثنى عليه : أى وصفه بخير . والمراحل : جمع مرحلة (بوزن مرتبة) : وهى المسافة ، يقطعها السائر على قدميه ، أو المسافر على الإبل فى نحو يوم .

والمعنى : أن ما ينطق به من الشكر ، والإطراء ، وحسن الثناء — دون ما يستحقه الممدوح ؛ فبين ثناء الشاعر ومنزلة الممدوح فى العلاء والرفعة — مراحل كثيرة واسعة ، ومسافات بعيدة قاصية ، لا يستطيع اجتيازها .

(٣٦) حسبى : يكفينى ، ويغنينى . وفاعله : « أنك الشمس رفعة » : أى المصدر المؤول من أن ومعموليها . وعذراً : تمييز : أى يكفينى عذراً علاؤك . والعذر : الحجة يُدْلى بها المعتذر ، ويقدمها إلى لائمه ؛ ليرفع بها عنه اللوم والمعتبة . والاستفهام فى أول الشطر الثانى : معناه الاستبعاد . ونال الشىء يناله نَيْلاً : أخذه ، وظفر به ، وحصل عليه ، وأصابه . والمتناول : الآخذ ، والمتعاطى : اسم فاعل من ناولته الشىء ، فتناوله : أى أخذه ، وأصابه ، وتعاطاه . ويراد به هنا : من يحاول تناول الكواكب ، أو يرغب فى الوصول إليها ، أو يطمع فى الاستيلاء عليها .

يعتذر عن تقصيره فى الشكر والثناء بأن الممدوح ارتفع ارتفاع الشمس والقمر ، وعلا علو النجوم والكواكب ؛ وهيهات أن ينالها من يحاولها ؛ فالشاعر لا يستطيع أن يسمو بشكره ومديحه وحسن ثنائه إلى المكانة العالية الرفيعة التى يحتلها الممدوح .

(٣٧) لِتَهْنَ : لتفرحْ ، ولتغتبطْ ، ولتسرّ ، ولتسعد . وأصله « لتهنأ » ثم سُهّلتْ الهمزة بقلبها ألفاً ، ثم عوملِ معاملة المعتلّ ؛ فحذفتْ الألف ؛ لأنه مجزوم بلام الأمر . والأمر هنا : للدعاء . يدعو للدنيا أن تدوم لها بدوام الممدوح هناءتها وسعادتها ، وسرورها وغبطتها ؛ كما يدعو للممدوح أن يبقى هانئاً للدنيا ، مسعداً إياها ، تزدان بطلعته ، وتتجمل بحضرته ، وتَحْسن بسيرته ، وتطيب بحُكمه وعدالته . وأمسى : صار . والجيد . العنق ، أو مقدمه ، أو موضع القلادة منه . والواو : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية . وعاطل : خال من الحلى والزينة .

يهنئ الحياة الدنيا بالممدوح ؛ فهو زينتها ، وجمالها ، وبهجتها ؛ وبه صارت طيبة ، عزيزة ، كريمة ، يرغب الناس فيها ، ويجدّون ، ويحرصون عليها ، ويعملون ؛ ولولا الممدوح لكانت ثقيلة عليهم ، قلقة بهم ، مضنية لهم ، عَطْلاءَ من الحلىّ والزينة والبهاء ، مجردة من أسباب المتعة والهناءة والسعادة .

وَدُمْ لِلْعُلَا مَا ذَرَّ بِالْأُفْقِ شَارِقٌ وَمَا حَنَّ مِنْ شَوْقٍ عَلَى الْأَيْكِ هادِلُ(٣٨)
وَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تَتْلُو مَدَائِحِي عَلَيْكَ وَيُمْلِيهَا الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ(٣٩)

(٣٨) دم للعلا : أمر مقصود به الدعاء ؛ فالشاعر يدعو أن يدوم الممدوح للمعالى ، وتبقى المعالى له . و « ما » : مصدرية ظرفية فى شطرى هذا البيت : أى مدة ذُرور الشارق بالأفق ، ومدة حنين الهادل على الأيك . وذر (من باب قعد) : طلع : وظهر ، وشرق . والأفق : منتهى ما تراه العين من الأرض ، كأنما التقت عنده بالسماء. وجمعه آفاق . والشارق: الشمس حين تشرُق. وحنّ : طرّب : أى رجّع صوته ، ومدّه . والمصدر الحنين : وهو صوت فيه طرب ، وأمل ، أو توجّع وشوق . و « من » هنا للتعليل ، كما فى قول الفرزدق فى مدح علىّ بن الحسين : « يغضى حياء ، ويغضى من مهابته » . والأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، الواحدة أيكة . وهادل : اسم فاعل من هديل الحمام : وهو هديره ، وصوته الذى يردّده فى حنجرته .

يدعو بأن يبقى الممدوح عالى القدر ، سامى المنزلة ، رفيع المكانة، ما دام يشرُق على الكون نجم ، ويغنى على الأشجار حمام : أى أبد الدهر .

وهذا أسلوب شعرى يقصد منه الدعاء بالبقاء ؛ وقد يشار فيه إلى بعض صفات المدعو له ، وبعض فضائله ومزاياه . وفى كلمة « شارق » هنا إشارة إلى رفعة قدر الممدوح ، وسمو مكانته ، ونباهة شأنه ، واهتداء الناس بهديه ، وسائر المشابه التى يلاحظها الأدباء حينما يشبّهون مثل ذلك الممدوح بالشمس .

(٣٩) « لا زال » : من أفعال الاستمرار : أى بقيتْ ، واستمرتْ ، ودامت ؛ وهو تعبير بالخبر فى مقام الإنشاء مجازاً ؛ والمقصود به الدعاء ؛ فالشاعر يدعو لمدائحه بالخلود ، ترددها الأيام ، وتقرؤها على الممدوح صباح مساء ؛ وفى هذا دعاء ضمنى للممدوح بامتداد العمر ، وطول البقاء . وتتلو : تقرأ . والمدائح : جمع المديح : وهو الشعر الذى يمدح به الشاعر غيره ، ومثله المِدْحة ، وجمعها مِدَح (بوزن كِسرة وكِسر) ، والأمدوحة ، وجمعها أماديح . وأملى عليه الكتاب يمليه إملاء: قاله له ، فكتب عنه . والضحى : حين تشرق الشمس ، أو وقت ارتفاع النهار وامتداده ، أو هو جمع ضَحْوة (بفتح فسكون) : وهى ارتفاع النهار وامتداده بعد طلوع الشمس . والأصائل: جمع الأصيل: وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها ، أو هو الوقت من العصر إلى المغرب . ويراد بالضحى والأصائل : جميع أوقات النهار والليل .

يدعو بالخلود لمدائحه التى نظمها فى تمجيد الممدوح وتحميده ، والإشادة بأعماله ومزاياه ، والتنويه بمساعيه ومكرُماته ؛ وفى هذا دعاء ضمنى له بامتداد العمر ، وطول البقاء ؛ وهو دعاء فى أسلوب شعرى رائق فائق ؛ فالأيام والليالى ، والضحى والأصائل لا تفتأ تُغادى الممدوح وتراوحه ، وتُصَبّحُه وتمسّيه مترنمة بهذه المدائح الباقية ، متغنية بهذا الشعر الخالد ؛ ولا تبرح تُملى ذلك السجلّ العظيم على كل كاتب .

وَقَالَ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ :

أَلَا حَيِّ مِنْ «أَسْمَاءَ» رَسْمَ الْمَنَازِلِ وَإِنْ هِيَ لَمْ تَرْجِعْ بَيَانًا لِسَائِلِ(١)

تعليق وجيز

جاءت هذه القصيدة فى تسعة وثلاثين بيتاً، كلها فى الغرض الأساسى الذى قصد إليه الشاعر ، وهو مدح الخديو « عباس حلمى باشا الثانى » وشكْرُه ، وإحسان الثناء عليه . والأبيات القليلة التى جنح فيها الشاعر لما يشبه الحكمة أو المثل لا تلبث النظرة العابرة أن تردها إلى صميم المديح والإطراء .

وعندنا أن هذه المدحة ليست فى المستوى العالى الذى اعتاد البارودىّ أن يحلق فيه ، ويُتْحف به قرّاء العربية . وقد أشرنا فى عدّة مواضع من الشرح إلى بعض ما لاحظناه من هنواتها ، كالجنوح للتكلف والتزيد ، ودوران التفكير والتعبير فى نطاق ضيق محدود ، وكثرة تكرار الفكرة ، والمعنى ، واللفظ ، والأسلوب ، والصورة والخيال ؛ ولعل سبب هذا الهبوط أن الشاعر نظم هذه القصيدة بحكم الاضطرار الأدبى ؛ فلم تصدر عن عاطفة صادقة ، أو إخلاص ، أو إعجاب ، أو تأثر ، أو اقتناع .

ومما أولع بتكراره مادة الفضل ، ومادة العدل ، ولا غرو ؛ فالفضل هيكل المحامد ، وجماع المناقب . والعدل أساس الملك ، وزينة الملوك والرؤساء ؛ وهو الذى يحمل إليهم قلوب الرعايا ، ويسلكهم فى عداد الخالدين ؛ ورضى الله عن عمر بن الخطاب وأمثاله من الخلفاء الراشدين ، والحكام العادلين .

* * *

(١) « ألا » : أداة استفتاح وتنبيه . وحياه تحيّة : قال له : حيّاك الله : أى أطال عمرك ، وأبقاك . و « من » : تعليلية : أى حى رسم المنازل من أجل « أسماء » : وهى الفتاة التى يتغزل بها الشاعر . والرسم : ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الديار التى ارتحل عنها أهلها ، وجمعه رسوم . ويريد بالمنازل : منازل « أسماء » وقومها . و « إن » هنا : مجرّدة من معنى الشرط ؛ وهى حرف وصل ، كما تقول : «صلّ وإن عجزتَ عن القيام » : أى حىّ الرسوم ولو لم تجبك . ولم ترجع بياناً لسائل : لم تجب عن سؤال السائل ، ولم تردّ تحيّته : مضارع رجعه إليه : أى رده ، وأعاده . و « هذيل » تقول : أرجعه إرجاعاً . والبيان : المنطق الفصيح ، والكلام الواضح ؛ ويراد به هنا : إجابة السؤال ، وردّ التحيّة .

جرَّد الشاعر من نفسه شخصاً ، أو تَخَيَّل أن معه رفيقاً ، ثم خاطبه قائلاً : إن وفاءنا لأسماء يقتضى أن نقف بما بقى من آثار ديارها ؛ لتحية هذه الآثار ، وسؤالها عمن ارتحل عنها من أحبابنا ، وإن كنا نعلم أنها لن ترد علينا السلام ، ولن تجيب عن شىء من أسئلتنا ، ولن تخفف ما نضانيه من الأسى واللوعة ، والوجد والهيام ؛ وهذه صورة من صور الحياة فى البيئة البدويّة الصحراوية القائمة على التنقل والارتحال ، وتعلّق العاشقين بمعشوقاتهم ، ووقوفهم على رسوم ديارهن المهجورة ؛ لتحيّتها ، وتجديد ذكريات الحبّ والغرام .

خَلَاءٌ تَعَفَّتْهَا الرَّوَامِسُ ، وَالْتَقَتْ ... عَلَيْهَا أَهَاضِيبُ الْغُيُومِ الْحَوَافِلِ(٢)
فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَرَسُّمٍ ... أَرَانِي بِهَا مَا كَانَ بِالْأَمْسِ شَاغِلِي(٣)
غَدَتْ وَهْيَ مَرْعًى لِلظِّبَاءِ ، وَطَالَمَا ... غَنَتْ وَهْيَ مَأْوًى لِلْحِسَانِ الْعَقَائِلِ(٤)

(٢) خلاء : خبر لمبتدإ محذوف ، والتقدير : هى : أى رسوم المنازل خلاء : أى خالية قد هجرها أهلها ، فلا أحد بها ، ولا شىء فيها . وتعفتها : أبلتها ، ودرستها ، ومحتها ، وأزالتها . والروامس : الرياح التى تثير التراب ، وتحمله ، فتغطى به آثار الديار ، وتطمسها ، الواحدة رامسة . والتقت : تلاقت ، واجتمعت . والأهاضيب : دفعات الأمطار المتتابعة ، واحدتها أهضوبة (بوزن أعجوبة) . والغيوم : السحب : جمع غيم ، والقطعة منه غيمة . والحوافل : صفة للغيوم : أى المجتمعة ، المحتشدة ، المتراكبة؛ أو الممتلئة الكثيرة المطر : جمع حافل ، أو حافلة .

يصف — فى تحسر وتلهف — منازل محبوبته « أسماء » التى لم يبق منها إلا رسومها وأطلالها الموحشة المقفرة ؛ وقد رمستها الرياح بما حملته إليها من الأتربة ؛ وأرسل عليها السحاب الثقال دفعات متوالية من المطر الغزير ؛ فزادها دروساً وعفاء ، وبلى وامحاء .

(٣) اللأى : الإبطاء ، والشدة ، والاحتباس؛ ولأيا عرفت الشىء : أى عرفته بعد معاناة ، وجهد ، وشدة ، ومشقة . ويريد بالدار : منزل محبوبته « أسماء » . وبعد ترسم : بعد تفرس ، وتأمل ، وتبصر ، ونظر طويل : مصدر ترسمت الدار : أى نظرت إلى رسومها ، وتبصرت أطلالها ، وتأملت آثارها . وفاعل « أرانى » : ضمير « ترسم » . والجملة صفة له . وبها : أى بالدار . وشاغل : اسم فاعل من شغله الأمر (من باب منع) : أى لهاه ، وصرفه عما سواه . وما كان بالأمس شاغلى : أى ما كان فى ماضى الزمان شغلى الشاغل .

فى البيتين السابقين استوقف الشاعر على رسوم المنازل المهجورة رفيقاً متخيلا أو حقيقياً ، واشتركا فى تحيتها تكريماً لمحبوبته « أسماء » ، وإن كان لا يرجى من هذه الرسوم رد التحية ، أو إجابة السائل، أو إراحة المتحسر اللهفان؛ ثم أشار إلى بعض العوامل الطبيعية التى تتابعت على هذه الطلول ؛ فأغرقتها فى البلاء والعفاء .

وفى هذا البيت قال : إنه ترسمها ، وتأملها ، وأطال الوقوف عليها ، والنظر إليها ؛ فلم يعرفها إلا بعد لأى وجهد ، ونصب ، ومشقة ؛ وبهذه المعرفة تجددت لديه ذكريات الماضى العزيز ، ومحاسن الأيام الخالية ، وما كان يشغله ويلهيه من مواطن الحب واللقاء ، ومسارح اللهو والمرح . وفى البيت الآتى عرض لصورتين متناقضتين من ماضى هذه الديار وحاضرها .

(٤) غدت : صارت . وفاعله ضمير « الدار » فى البيت السابق . والواو : واو الحال . وجملة « هى مرعى » حال من فاعل « غدت » . والمرعى : موضع الرعى : رعت الماشية الكلأ ، أو العشب ، =

فَلِلْعَيْنِ مِنْهَا بَعْدَ تَزْيَالِ أَهْلِهَا مَعَارِفُ أَطْلَالٍ ، كَوَحْيِ الرَّسَائِلِ (٥)

فَأَسْبَلَتِ الْعَيْنَانِ فِيهَا بِوَاكِفٍ مِنَ الدَّمْعِ ، يَجْرِي بَعْدَ سَحٍّ بِوَابِلِ (٦)

= أو النبات : أى سرحت فيه ، وأكلته . (وبابه سعى) . والظباء : الغزلان : جمع ظبى ، أو ظبية . و « طالما » : « طال » : فعل ماض لا يحتاج – على الأشهر – إلى فاعل ؛ لأنه اتصل بـ « ما » الزائدة الكافة . وغنتْ : كانت ، أو لبثت ، أوأقامت . وفاعله ضمير « الدار » . والوجه الصحيح الذى نعرفه : « غنيت » كرضيت ؛ والعرب تقول : غنى بالمكان يغنى (من باب رضى) : أى لبث به ، وبقى ، وأقام . وطالما غنيتْ : أى وطالما بقيت : أى لبثت زماناً طويلاً . والواو بعدها : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حال من فاعل « غنيت » . والمأوى : المنزل ، والمكان الذى تأوى إليه ، وتنزل به . والحسان : جمع حسناء . والعقائل : جمع عقيلة (بوزن كريمة) : وهى المرأة ، أو الزوجة ، أو الفتاة الكريمة المصونة المخدّرة .

عرّض الشاعر فى هذا البيت صورتين متناقضتين من ماضى هذه الديار وحاضرها ؛ إذ كانت مغنى للعقائل الكريمات المخدّرات الجميلات من النساء ؛ ثم صارت مرعى ومسرحاً للظباء وحيوان الصحراء . وهذا البيت – كالأبيات السابقة واللاحقة – يحمل فى طياته معنى التحسر والتلهف ، والتوجّع والتفجّع ، والبكاء على ديار ومنازل كانت مأنوسة مأهولة بمن يحبّ ؛ فلما ارتحل عنها أهلها أوحشت ، وعفت ، ولم يبق فيها إلا مايثير الشجن ، ويبعث الأسى ، ويجدد الذكريات ، ويُسيل العبرات .

(٥) منها : من الدار . وتزيال : زوال ، وذهاب ، وتحول ، وانتقال . وهو مصدر على وزن « تفعال » . والأطلال : جمع طلل (بوزن سبب وأسباب) : وهو الشاخص الظاهر المرتفع عن سطح الأرض من رسوم الديار ، وآثار المنازل التى هجرها سكّانها ، فعبث بها البلى والعفاء . ومعارف الأطلال : ما يعرف منها ، ويتّضح ، ويستبين للناظر المترسّم . والوحى : الخطّ ، والكتابة ، والمكتوب . والرسائل : جمع رسالة : وهى الصحيفة تكتبها . وترسلها إلى غيرك .

والمعنى : أن العين لا تبصر من هذه الديار بعد ارتحال أهلها إلا أطلالا بقيت على الأرض رسومها ، كأنها رسائل مخطوطة تخبرك بكثير من أحوال ماضيها .

(٦) أسبلت العينان : بكتا . وفيها : فى رسوم دار المحبوبة وأطلالها . وواكف : سائل . و « من » : بيانية ؛ فما بعدها ، وهو « الدمع » : بيان لما قبلها ، وهو « واكف » . وجملة « يجرى » : صفة لـ « واكف » : أى واكف جار . أو حال من « الدمع » . وسح الماء ونحوه سحاً (من باب رد) : أى سكبه ، وصبه صباً متتابعاً كثيراً . وسح الماء : سال ، وانسكب ، وانصب ؛ فهو لازم متعدّ . والوابل المطر الشديد ، الغزير ، الضخم القطر . وبعد سحّ بوابل : أى بعد بكاء بدمع غزير ، منسكب منهمر : أى أن بكاءه متكرّر متتابع .

والمعنى : أن وقوفه بدار محبوبته هاج أشجانه ، وأثار ذكريات ماضيه ؛ فبكى ، وأطال البكاء ، وعاوده بدمع غزير منهمر متتابع . والبيت الآتى تكرار ، وتأكيد ، وتفصيل لهذا المعنى .

دِيارُ الَّتِي هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَتِي ... وَأَغْرَتْ بِقَلْبِي لَا عِجَاتُ الْبَلَابِلِ[(٧)]

مِنَ الْهِيفِ، مِقْلَاقُ الْوِشَاحَيْنِ، غَادَةٌ ... سَلِيمَةُ مَجْرَى الدَّمْعِ، رَيَّا الْخَلَاخِلِ[(٨)]

إِذَا مَا دَنَتْ فَوْقَ الْفِرَاشِ لِوَسْنَةٍ ... جَفَا خَصْرُهَا عَنْ رِدْفِهَا الْمُتَخَاذِلِ[(٩)]

---

(٧) «ديار» : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هي ديار . أو هذه ديار . وهاجت : هيَّجَتْ ، وحركتْ ، وأثارتْ . والصبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق ، والوَلوع الشديد . وأغراه بالشيء إغراء : ولعه به ، وحضه عليه ، وحرضه . ولا عجات : محرقات : جمع لا عجة ، أو لاعج : وهو المحرق المؤلم المبرِّح الشديد من الهوى ، أو الشوق ، أو الهمّ ، أو الحزن ، أو نحوه . والبلابل : الوساوس ، والهموم الشديدة : جمع بلبال ، أو بلبالة .

وقف الشاعر بديار تلك الفتاة التي أحبها ، وهام بها ؛ فأثارت أطلالها في نفسه ذكريات الماضي ، وأشعلت في قلبه نار الوجد والغرام ، وحرارة الشوق والهيام ؛ وسلّطت عليه لواعج الهموم والوساوس والأوهام.

(٨) من الهيف : يريد التي هاجت عليه صبابته : وهي الفتاة التي أحبها ، وهام بها : جمع هيفاء (بوزن بيضاء) : صفة الهيف (بفتحتين) : وهو ضمور البطن ، ورقة الخاصرتين. ومقلاق : شديد القلق ، ويراد به هنا : كثرة التحرك. والوشاح (بوزني كتاب وغراب) : أديم ، أو نسيج عريض ، يرصّع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، تتجمّل به ، كما تتجمّل بالقلادة ونحوها. ومقلاق الوشاحين : وشاحاها قلقان ، متحركان ، لا يستقرّان ؛ وهذا كناية عن ضمور بطنها ، ودقة كشحيها ، أي خاصرتيها ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى الهيف ، وهو من محاسن النساء . وغادة : ناعمة ، ليّنة الأعطاف ، مرنة الجوانب حسنة التمايل والتثني : صفة من الغيد (بفتحتين) . ومجرى الدمع : كناية عن العين . وسليمة مجرى الدمع : عيناها جميلتان سليمتان ، مبرّأتان من العيوب والآفات. وقد يراد بمجرى الدمع : الخدّان . وريّا : مؤنث ريان : ضد عطشان . وساق ريا : ممتلئة ، نضيرة ، ناعمة . والخلاخل : جمع خلخل (بوزني جعفر وبرقع) : وهو الحجل (بكسر فسكون ، أو بفتح فسكون) : حلية للساق ، كالسوار للمعصم ، ومثله الخلخال . وجمعه خلاخيل . ويراد بالخلاخل هنا : موضعها من الساق ، أو الساق نفسها : وهي ما بين الركبة والقدم . وريّا الخلاخل : كناية عن امتلاء ساقيها ، وجمالهما ونضارتهما .

نوّه بما اجتمع في معشوقته من محاسن النساء ، كالهيف ، والغيد ، وسلامة العينين وحسنهما ، وجمال الساقين وامتلائهما . وفي البيت الآتي تنويه بلون آخر من ألوان هذا الجمال الجسماني الذي فُتن به ، وعني بترديده وتكراره .

(٩) دنتْ : قربت . والوسنة : النعاس : وهو أول النوم . أو فتور في الحواسّ يتقدّم النوم . وجفا : نبا ، وبعد. وخصر الإنسان : كشحه : وهو ما بين سرّته ووسط ظهره . وردفه : كَفَلُه : =

تَعَلَّقْتُهَا فِى الْحَىِّ إِذْ هِىَ طِفْلَةٌ وَإِذْ أَنَا مَجْلُوبٌ إِلَىَّ وَسَائِلِى(١٠)
فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْحُبُّ فِى الْقَلْبِ وَانْجَلَتْ غَيَابَتُهُ ـ هَاجَتْ عَلَىَّ عَوَاذِلِى(١١)

= أى عَجزُه، ومؤخَّر جسمه. ومتخاذل: ضعيف؛ والمراد أنه ثقيل، لين، رخْو، غير متماسك. وجفاخصرها عن ردفها: أى لم يكن معه فى مستوى واحد؛ فخَصرها ناب عن الفراش: غير مطمئنّ عليه؛ لضموره، ونحافته، ورقّته، وخفّته. وعلى العكس منه ردفها؛ فإنه ثابت على الفراش فى أثناء نومها، مطمئن، مستقرّ؛ لامتلائه، وضخامته، وبدانته، وثقله.

وصفها بدقّة الخصر وضموره، وعظم الردْف وامتلائه؛ ويلاحظ أن معنى دقة الخصر تكرّر ثلاث مرات: مرّة فى هذا البيت، ومرتين فى الشطر الأول من البيت السابق.

(١٠) تعلّقتها: هويتها، وأحببتها. والحى: محلّة القوم: أى منزلهم الذى يحُلّون به، وجمعه أحياء؛ والحىّ (فى الأصل): البطن من بطونهم. وهو دون القبيلة. وطفلة: صغيرة، لم تدرك. والشطر الثانى: كناية عن طفولته؛ فجلوب: اسم مفعول من الجلب: وهو سوق الشىء، أو المجىء به، أو نقله من موضع إلى آخر. ووسائل: نائب فاعل «مجلوب»: جمع وسيلة: وهى الوصْلة، وما تتقرّب به إلى غيرك. ويراد بالوسائل هنا: المعدّات، والذرائع الموصلة إلى المآرب والغايات، والأسباب المحققة للمقاصد والحاجات. وأراد بكونها مجلوبة إليه: أن غيره يمهّدها له، ويُعينه عليها، ويمكنه منها؛ وهذا كله كناية عن صغره وطفولته؛ فالطفل يتولاه وليه، ويجلب له وسائل الحياة، وييسر له أسباب الرغَد والرخاء.

والمعنى: أن الحبّ نبت فى قلبيهما وهما طفلان صغيران يَدْرجان فى ساحات حيهما، ثمّ نما، وشبّ وترعرع بنموهما. والأبيات الآتية تعزّز هذا المعنى، وتفصّله.

(١١) استقرّ: ثبت، وسكن، وتمكّن. وانجلتْ: انكشفت. وغيابة كل شىء: ما ستَرك منه، وواراك. وانجلت غيابة الحب: انكشف ما كان يسترنا منه، ويخْفى أمرنا، ويواريه: وهو امتزاجه بعبث الطفولة ولهوها. أو المعنى: أن الحب لما استقر فى قلبينا ظهرت للناس دلائله، وكثرت أماراته، واستبانت شواهده وآثاره؛ فانجلى للعواذل باستقراره ما كان يستره، ويخفيه، ويُعَمّيه. وهاج الشىء: ثار. وهاجه: أثاره؛ يتعدى ويلزم (وبابهما باع). والمعنى على التعدى: أن الغيابة المنجلية أثارت عليه اللائمات. وعلى اللزوم: أنه لمّا انجلت الغيابة تهيّجت عواذله، وثرن عليه: جمع عاذلة: أى لائمة: اسم فاعل من العذل: وهو اللوم.

تمكّن الحبّ من قلبيهما، وثبت، واستقر، ونما وترعرع بنموّهما، وتجاوزهما طور الطفولة؛ فكثرت أماراته، وظهرت للناس آثاره؛ فانتبهت لأمرهما عواذلهما، أو الحاسدات، أو الغيارىَ؛ فثارت ثائرتهن، وكدّرن بالعذل، أو الغيرة، أو الحسد ما كان صافياً من حياتهما.

فَيَالَيْتَ أَنَّ الْعَهْدَ بَاقٍ ، وأَنَّنَا دَوَارِجُ فِي غُفْلٍ مِنَ الْعَيْشِ خَامِلِ (١٢)

تَمُرُّ بِنَا رُعْيَانُ كُلِّ قَبِيـلَةٍ فَمَا يَمْنَحُونَا غَيْرَ نَظْرَةِ غَافِلِ (١٣)

(١٢) « يا » فى أول البيت : حرف تنبيه . أو هى حرف نداء ، والمنادى محذوف . و « ليت » حرف تمنٍّ ؛ والتمنى يتعلّق بالمستحيل غالباً ؛ كقول الشاعر :

ألا ، ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

ويريد بالعهد : عهد الطفولة : أى زمنها الذى تجاوزاه ، وكان تجاوزهما إيّاه سبب انتباه العواذل ، وتكدير حياتهما بثورتهن وهيجانهن؛ وهو بتمنيه بقاء ذلك العهد إنما يتمنى المستحيل . ودوارج : جمع دارجة : اسم فاعل من درج الصبى ونحوه : أى دب ، ومشى مشيا رويداً . وشىء غفل : ليست فيه علامة تميزه . ومادة غفل : على طبيعتها ، لم تتناولها يد الصانع . و « من » بيانية . والعيش : المعيشة ، والحياة . وخامل : ساقط ، لا نباهة له ، ولا شهرة : اسم فاعل من خمل الرجل (من باب قعد) : أى خفى ، فلم يُعْرف ، ولم يُذْكر . ويراد بالعيش الغفْل الخامل : الحياة الفطريّة الطبيعيّة الساذجة ، التى لا تنبه الناس عليهما ، ولا تلفت أنظارهم إليهما .

يتأسى على فوات زمن الطفولة ، ويتمنى لو بقى ذلك الزمن ، وظل هو وحبيبته يدْرجان فى حياة ساذجة خاملة خالية مما ينبه العواذل عليهما ، ويهيجهن ، ويثير فى قلوبهن الغيرة أو الحسد ، ويحملهن على تكدير حياتهما بالعذل ونحوه .

وفى أربعة الأبيات الآتية تصوير لذلك العهد الذى تمنى بقاءه .

(١٣) الرعيان : جمع الراعى : وهو من يرعى الماشية ، ويحفظها ، ويقوم بأمرها ، ويسرّحها فى الرعى والكلأ . والقبيلة : الجماعة من الناس تنسب إلى أب واحد . ومنحه الشىء (من باب نفع) : أعطاه إياه . و « يمنحونا » : أصلها « يمنحوننا » . وحذفتْ النون للتخفيف . وغافل : اسم فاعل من غفل عن الشىء (من باب قعد) : أى تركه ، وسها عنه من قلّة التحفّظ ؛ فالغافل ساه ، ضعيف الانتباه ، قليل التيقّظ .

فى عهد الطفولة كان رعاة الماشية من شتى القبائل يمرّون به وبحبيبته ، فتقتحمهما عيونهم ، ولا يكاد يفطن لأمرهما منهم أحد ؛ وإذا نظروا إليهما فإنما هى نظرات عابرة غافلة ، ليس فيها شىء من المبالاة أو الاهتمام ، أو الانتباه ؛ وهذا هو الخطّ الأوّل من خطوط الصورة التى رسمها الشاعر لعهد الطفولة فى هذا البيت وثلاثة الأبيات بعده ؛ ويلاحظ أنها كلّها صور مطابقة لحياة العرب فى باديتهم، مصدقة للعنوان الذى اختاره الشاعر لهذه اللامية ، وهو : « وقال على طريقة العرب » : أى محاكياً عرب البادية فى الفنّ ، والموضوع ، والتعبير ، والتصوير .

صَغِيرَيْنِ لَمْ يَذْهَبْ بِنَا الظَّنُّ مَذْهَبًا   بَعِيدًا، وَلَمْ يُسْمَعْ لَنَا بِطَوَائِلِ (١٤)

نَسِيرُ إِذَا مَا الْقَوْمُ سَارُوا غَدِيَّةً   إِلَى كُلِّ بَهْمٍ رَاتِعَاتٍ وَجَامِلِ (١٥)

(١٤) صغيرين : حال من «نا» ، وهو ضمير المفعول به فى «يمنحونا» فى البيت السابق. ومذهب : مصدر ميمى بمعنى الذهاب : أى لم يذهب بنا الظن ذهاباً بعيداً. ويراد بالظن : ظن الناس فيهما. ومعنى لم يذهب ظن الناس بهما مذهباً بعيداً : لم يرتابوا فى أمرهما، ولم يهتموا باجتماعهما على الحب والألفة؛ لأنهما صغيران، بمرحان مرح الطفولة البعيدة عن التهم والريب والشبهات. وقد يراد بالظن : ظنهما بنفسيهما. والمعنى على هذا : أننا كنا فى غضارة الطفولة، وطهارتها، وبراءتها لا تذهب ظنوننا فى الحب مذهباً بعيداً يدنسه، أو يريبه، أو ينزل به عن مستواه الرفيع العالى، مستوى الطهر والعفاف، كما تذهب ظنون بعض العاشقين من الرجال والنساء. وطوائل : عداوات وخصومات، واحدتها طائلة. ومعنى «لم يسمع لنا بطوائل» : لم يسمع الناس بعداوات وخصومات قامت بيننا وبين غيرنا؛ إذ كنا فى غضاضة الطفولة ونضارتها بعيدين عن هذا، لا نحمل حقداً أو ضغينة على أحد، ولا يحمل علينا أحد حقداً أو ضغينة، ولا نجاهر أحداً بعداوة أو خصومة، ولا يجاهرنا أحد بعداوة أو خصومة؛ فعهد الطفولة بطبيعته لا يعرف الحقد أو الضغينة، ولا يتصور فيه عاذل أو حاسد، أو عداوات وخصومات تتأجج نيرانها، ويشتهر أمرها بين العاشقين وعاذليهم وحسادهم؛ فتكدر حياة الحب والعشق والغرام. وقد تكون الطوائل هنا : جمع طائل أو طائلة : بمعنى القدرة، أو الفضل، أو المنة، أو الغنى، أو السعة، أو النفع، أو العلو، أو الكثير الغزير. والمعنى على هذا : لم يسمع الناس عنا من خواص الحياة النابهة، والمعيشة الراغدة ما ينبه شأننا، ويعلى قدرنا، ويغرى بنا العواذل والحساد، ويثير حسدهم لنا، وحقدهم علينا؛ وهذا تكرار وتأكيد لمعنى العيش الغُفْل الخامل الذى تمناه من قبل فى البيت الثانى عشر. ومن معانى الطوائل : الترات، أو الثارات؛ وهذا المعنى ينتهى إلى الخصومات والعداوات التى شرحناها من قبل. أو يراد بها الذنوب والآثام : بمعنى أننا فى حبنا لم نقترف إثماً أو خطيئة، ولم نكن محل تهمة أو ريبة.

يتمنى لو دامت لهما طفولتهما، وبقيا صغيرين بعيدين عن مظان الريب والشبهات، محصنين من العداوات والخصومات التى تذيع حبهما، وتنبه الناس عليهما، وتغرى بهما العواذل والحاسدات.

(١٥) غدية (بوزن قضية) : صباحاً، أول النهار، ما بين الفجر وطلوع الشمس. والبَهْم : أولاد الضأن، والمَعْز، والبقر، الواحدة بهمة (بوزن روضة وروض). وراتعات : جمع راتعة : اسم فاعل من رتعت الماشية (من بابى نفع وخضع) : أى رعت، وأكلت، وشربت ما شاءت فى خصب ورَغَد وسعة. والجامل : القطيع من الإبل مع رعاته. وهو معطوف على «بهم».

وهذا البيت كسابقه ولاحقه تصوير لحياة الطفولة والدعة، والعيش الغفل الخامل الذى تمنى الشاعر =

وَإِنْ نَحْنُ عُدْنَا بِالْعَشِيِّ أَضَافَنَا إِلَيْهِ سَدِيلٌ مِنْ نَقًا مُتَقَابِلِ(١٦)
فَوَيْلٌ لِهَذَا الدَّهْرِ ، مَاذَا أَرَادَهُ إِلَيْنَا ،وَقَدْ كُنَّا كِرَامَ الْمَحَاصِلِ؟(١٧)

= بقاءه له ولحبيبته؛ فهما يتخفيان نهاراً فى غمار الناس . ويسلكان مسالكهم ، ويبكران إلى الإبل والضأن والماشية كسائر الرعاء؛ وقد أسلفنا أن الشاعر أولع فى هذه اللامية ببيئة العرب ، وحياتهم فى باديتهم ، وحرص على إتقان تصويرها ، وإجادة التعبير عنها ، ومحاكاة قدامى الشعراء من أهل البادية؛ ويلاحظ أن عنوان هذه القصيدة : « وقال على طريقة العرب » : أى جرى على سننهم فى وصف الديار ، وبكاء الأطلال ، والتغنى بما كان فيها من حب ونعيم ، وتصوير الحياة فى البادية العربية .

(١٦) عدنا : رجعنا . والعشى : آخر النهار ، أو أول الظلام ، أو الوقت من المغرب إلى العتمة ، أو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب ، وهو خلاف الغدية . وأضافنا : ضمنا ، وأمالنا ، وجمعنا . والسديل (بوزن أمير) : الستر ونحوه : فعيل بمعنى مفعول من سدل الإنسان الثوب ونحوه : أى أسبله ، وأرسله ، وأرخاه . والنقا : الكثيب من الرمل ، أو القطعة المحدودبة منه . ومتقابل : يستقبل بعضه بعضاً .

ختم الشاعر بهذا البيت الصورة التى رسمها لعهد الطفولة الذى تمنى بقاءه له ولحبيبته ؛ إذ كانا يرجعان من المرعى آخر النهار ، فيخلوان منفردين مستترين بكثبان متواجهة من الرمال ، كأنها السدائل والأستار ، تخفيهما عن الأنظار ، وتتيح لهما فرصة تلاق ينعمان فيه بسعادة الحب ، وهناءة الطفولة ، وصفاء الحياة .

(١٧) « ويل » : كلمة شر ، وعذاب ، وهلاك . ولهذا الدهر : إشارة إلى زمانهما الذى عاسرهما ، وتنكر لهما ، وبدل حالهما؛ وقد جرى الناس — وبخاصة الشعراء — على شكوى الدهر إذا مسهم الضر ؛ فهم ينسبون إليه الخير والشر ، والمسرة والمساءة ؛ فالشاعر هنا متبرم بالدهر ، داع عليه بالويل والثبور ؛ وفى مقدمة ديوانه أنه قد يشكو الدهر أو الزمان وهو يقصد به العالم الأرضى ، وأهل الدهر . وما ذا أراده إلينا : ماذا أراد بنا ؟ أو ماذا أراد منا ؟ أو ما ذا طلب إلينا ؟ أو ما ذا قصد من معاسرتنا والتنكر لنا ، وتبديل حالنا ؟ . والاستفهام هنا : معناه الإنكار ؛ فالشاعر ينكر على الدهر فعله ، أو قصده ، أو إرادته بهما : أى يستقبح هذا منه ، ويعيبه عليه ، وينهاه عنه . والواو : واو الحال ، والجملة الفعلية بعدها حالية . وكرام : جمع كريم وكريمة : بمعنى طيب ، مرضى ، محمود . ويراد بالمحاصل : الغايات ، والمقاصد : جمع محصل (بوزن مذهب) : مصدر ميمى من حصل على الشىء (من باب قعد) : أى أحرزه ، وأدركه ، وناله ، وحازه ، وملكه ؛ وإذا كان المرء شريفاً نبيلا حصل على ما يريده بأشرف=

عَلَى عِفَّةٍ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهَا مُبَرَّأَةٌ مِنْ كُلِّ غَيٍّ وَبَاطِلِ(١٨)
وَلٰكِنَّهَا الْأَيَّامُ لَمْ تَأْتِ صَالِحًا مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا أَعْقَبَتْ بِالتَّنَازُلِ(١٩)

=الوسائل ، وخير الذرائع ؛ فمعنى « كرام المحاصل » : أن ما قصدا إليه ، وحصلا عليه ، وثبت لهما ، وجمعهما من الحب والغرام — كان كريماً ، طاهراً عفيفاً ، نزيهاً . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن « المخاصل » (بالخاء) : جمع مخصل (بوزن مذهب) : مصدر ميمي بمعنى السبق ، والفضل ، من خصله (من باب نصر) : أى سبقه وفاقه ، وفضله . ويراد بالمخاصل الشيم النبيلة ، والخصال الفاضلة . وكرام المخاصل : كرام الأخلاق .

يعلن الضجر والتبرّم بزمانهما الذى تنكّر لهما ، وبدّل حالهما ، وأراد بهما السوء والمكروه ، على الرغم من حرصهما على عفاف الحبّ ، وطهارة السيرة ، وشرف الغاية ، ونُبْل الخصال ، وكرم الأخلاق . والبيت الآتى يعزّز هذا المعنى ويوضّحه ، ويؤكده .

(١٨) « على عفة » : خبر ثان لـ « كان » فى البيت السابق : أى كنا كرام المحاصل ، على عفّة . أو هو خبر لكان المحذوفة : أى كنّا على عفّة . والعفة : أن يباشر العفيف الأمور على وفق الدين والمروءة ، ويترك الشهوات من كل شىء ، ويكفّ عمّا لا يحل ، ولا يجمل من الأفعال والأقوال . و « قد » هنا : حرف يفيد التحقيق . و « قد يعلم الله » : أسلوب يؤدّى معنى القسم ؛ كأنه قال : « والله » . ومبرأة : بريئة ، خالصة ، خالية ، نقية . والغى : الإمعان فى الضلال ، والانهماك فى الجهل . والباطل : ما لا ثبات له عند الفحص عنه . وضده الحق . ويراد بالباطل هنا : الغواية ، والفساد . والشطر الثانى تأكيد لمعنى « العفة » ؛ لأن العفة لا تكون إلا مبرأة من كل غى وباطل .

والبيت كله تأكيد وتوضيح لمعنى « كرام المحاصل » فى البيت السابق ؛ فلقد كان حبهما قائماً على العفة ، والنقاء ، والطهارة ، بعيداً كل البعد عما يعيبه ، أو يشينه ، أو يدنّسه من الغواية ، أو الجهل ، أو الفساد أو الضلال ، أو البطلان .

(١٩) أتى الأمر : فعله . ولم تأت صالحاً : لم تفعل صالحاً . و « من » : بيانية . والأمر : الشأن ، والحال ، أو الشىء . وأعقبه : خلَفَه ، وجاء بعده . وتنازل القوم تنازلا : نزلوا إلى ساحة القتال ، فتضاربوا . ويراد به هنا النزول مطلقاً : مصدر نزل عن الأمر : أى تركه ؛ يريد أن الأيام قد تسرّ الناس بتحقيق شىء من أمانيهم ، أو صالحات أمورهم ؛ ولكنها لا تلبث أن تحزنهم بإفساد ما حققته ، أو هدمه ، ونقضه ، وتبديده .

والبيت فى شكوى الدهر ، أو الزمان ، فإنه سريع التحوّل والتقلّب ، يهدم ما يبنى ، وينقض ما يُبرم ويستردّ ما يهَبُ .

ولأبى الطيب المتنبى فيما يقرب من هذا المعنى :

أبداً تستّرد ما تهب الدنـ ـيا ، فياليت جودها كان بخلا

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ الزَّمَانَ الَّذِى مَضَى ... تَسَاقَطُ نَفْسِي إِثْرَ تِلْكَ الْقَبَائِلِ (٢٠)
قَبَائِلُ أَفْنَتْهَا الْحُرُوبُ ، وَلَمْ تَكُنْ ... لِتَفْنَى كِرَامُ النَّاسِ مَالَمْ تُقَاتِلِ (٢١)
قَضَتْ بَعْدَهُمْ نَفْسِي عَزَاءً ،وَأَصْحَبَتْ ... عَشَوْزَنَتِي ،وَانْقَادَ لِلذُّلِّ كَاهِلِي (٢٢)

ولغيره :

فلا تغرنك من دهر عطيته ... فليس يترك ما أعطى على أحد

وفى الأبيات الآتية انتقل الشاعر من الغزل وشكوى الزمان إلى رثاء من أفنتهم الحروب من شجعان المحاربين . وتمجيد ذكرياتهم ، وماكان لهم من أعمال الشجاعة ، و إعلان جزعه لفنائهم ، وفخره بما كان له عليهم من ولاية وقيادة ؛ كل هذا فى تصوير عربى بدوى بحت ؛ تصديقاً للعنوان الذى اختاره لهذه اللامية ، وهو : « وقال على طريقة العرب » .

(٢٠) « ما » بعد « إذا » زائدة لتوكيد الكلام . وتساقط : أصلها « تتساقط » ثم حذفت إحدى التاء ين تخفيفاً : مضارع تساقط الشيء : أى تتابع سقوطه. وسقط إثره ، وفى أثره : سقط فى عقبه : أى بعده على التعقيب ، بلا تراخ . والقبائل: جمع القبيلة : وهى الجماعة من الناس تنسب إلى أب واحد .

يقول : كلما تذكرت الزمان الماضى ذهبت نفسى حسرات على من فنى من القبائل .

(٢١) أفنتها : أبادتها ، وأهلكتها . وكرام الناس : خيارهم : جمع كريم : وهو السخى الجواد ، الطيب ، المرضى الفعال ، الجامع للفضائل والمحامد والمكرمات : صفة من الكرم بمعنييه الخاص والعام .

يأسى على انقراض تلك القبائل العظيمة الكريمة التى أهلكتها الحروب، وعفت آثارها؛ ويشير إلى ماكان من شجاعتهم وشدة بأسهم ، وامتيازهم بالمحامد والمكرمات ، ويقول : إنه لولا القتال ما فنى هؤلاء الكرام .

(٢٢) قضت : هلكت ، وبادت ، وفنيت ، وبعدهم : بعد هؤلاء الأعزة الكرام الأخيار الذين أشار إليهم ، ونوه بهم فى البيتين السابقين: أى قضت نفسى بعد هلاكهم وفنائهم : والمراد كادت نفسى تقضى: أى تهلك ، وتذهب بعدهم . و إحلال الفعل الماضى هنا محل فعل المستقبل للدلالة على تحقق وقوعه . وعزاء : مفعول لأجله : أى هلكت نفسى بعدهم بسبب العزاء : وهو الصبر . ومعنى « قضت نفسى بعدهم عزاء » : أنه بعد أن طوى الردى هؤلاء الكرام الأعزاء — اشتد أسفه عليهم ، و بات يغالب الحزن ، ويكافح الأسى ، ويتكلف العزاء والصبر والسلوان ، حتى غاضت منته ، وذهبت قوته ، وأرداه الجزع . ولو قال : « قضت نفسى بعدهم أسى » لكان أوضح ، وأبعد عن التكلف . أو كأنه يقول : لم أجد وسيلة للصبر على مصيبتى فيهم إلا أن أموت كما ماتوا . وأصحبت : انقادت ، وخضعت . وعشوزنتى : يريد نفسه القوية الأبية : مؤنث العشوزن : وهو الصلب ، القوى ، الشديد ، الغليظ من كل شىء . وانقاد : خضع ،=

وَأَصْبَحْتُ مَغْلُولَ الْيَدَيْنِ عَنِ الَّتِى ... أُحَاوِلُهَا ، وَالدَّهْرُ جَمُّ الْغَوَائِلِ(٢٣)

صَرِيعُ لُبَانَاتٍ تَقَسَّمْنَ نَفْسَهُ ... وَغَادَرْنَهُ نَهْبَ الْأَكُفِّ الْخَوَاتِلِ(٢٤)

=واستكان . وكاهل الإنسان : ما بين كتفيه . أو أعلى الظهر مما يلى العنق .

والمعنى: أن تصبره على مصيبته فى هؤلاء الكرام أغاض مُنَّتَه ، وأذهب قوته ؛ وقد كانوا له عزًّا ومَنَعَة ؛ فلما هلكوا انقاد بعد امتناع ، وخضع بعد إباء ، وذل بعد عزة .

(٢٣) مغلول اليدين : مقيد اليدين : كناية عن ضعفه ، وعجزه ، وذهاب حيلته . وعن التى أحاولها: عن الغايات والمقاصد والمطالب التى أرومها وأريدها . وحاول الشىء: طلبه ، وعالج تحصيله بالحيلة : وهى الحذق ، وجودة النظر ، وإحكام التدبير ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور . وجم : كثير . والغوائل: الدواهى ، والمصائب ، والشرور ، والمفاسد ، والبلايا ، والآفات . الواحدة غائلة : اسم فاعل من غاله (من باب قال) : أى أخذه من حيث لا يدرى ، فأهلكه . والجملة الاسمية فى نهاية البيت تذييل فى شكوى الدهر الذى رماه بالأرزاء ؛ فقيده وأعجزه .

يقول : إن الدهر كثير الشرور والنكبات ، جم البلايا والشدائد ؛ وقد رمانى بموت من كنت بهم طويل الباع ، عزيز الجانب ، موفور القوة ؛ فكانت الداهية الدهياء ، والخطب الفادح ، والمصيبة الجُلَّى ؛ وأصبحت بعدهم عاجزاً كل العجز عن بلوغ ما أرومه من الحاجات والمقاصد .

والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ويؤكده .

(٢٤) صريع (بالرفع) على أنه خبر لمبتدإ محذوف : أى هو صريع . أو (بالنصب) على أنه خبر ثان لأصبح فى البيت السابق: أى أصبحتُ مغلول اليدين، صريعَ لبانات . ويلاحظ أن الشاعر هنا التفت عن ضمير المتكلم فى البيت السابق إلى ضمير الغائب فى هذا البيت ؛ ويريد بصريع اللبانات نفسه . وصريع : فعيل بمعنى مفعول ، من صرعه (كمنعه) : أى طرحه على الأرض . ولبانات : جمع لبانة : وهى الحاجة من غير فاقة ، بل من همّة ، أو من نَهْمة. وتقسَّمن نفسه: فرقنها . والنون : ضمير اللبانات. ومن كلامهم : « تَقَسَّمته الهموم » : أى شتتتْ خواطره ، ووزّعت هواجسه . وغادرنه : تركنه . والنهب : الغنيمة ؛ وكل ما انتهب : أى أُخِذ بالقوة ، والقهر ، والغلبة. والأكف : جمع الكف : وهى الراحة بين الأصابع ، أو الراحة مع الأصابع ؛ ويراد بها هنا : اليد . والخواتل : جمع خاتلة : اسم فاعل من ختله (من بابى ضرب وقتل) : أى خدعه ، وأراد به المكروه من حيث لا يشعر .

يشير إلى بعض آثار مصيبته فيمن أفنتهم الحروب من الأبطال الكرام الذين ذهبت نفسه عليهم حسرات ؛ فقد كانت له لبانات وحاجات ، حاولها بعدهم ، فاستعصت عليه ، واستنفدت ما بقى من قوته ، وتركته مبلبل النفس ، مشتت القلب ، عاجزاً ضعيفاً ، صريعاً طريحاً ، نُهْبة لكل ناهب ، وغرضاً لكل رام ، وصيداً سهلاً للخاتل المخادع .

كَأَنِّىَ لَمْ أَعْقِدْ مَعَ الْفَجْرِ رَايَةً وَلَمْ أُدْعَ بِاسْمِى لِلْكَمِىِّ الْمُنَازِلِ(٢٥)
وَلَمْ أَبْعَثِ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ فِى الضُّحَا بِكُلِّ رَكُوبٍ لِلْكَرِيهَةِ بَاسِلِ(٢٦)

(٢٥) عاد الشاعر فى هذا البيت إلى ضمير المتكلم . عقد الحبل ونحوه (من باب ضرب) : جعل فيه عقدة . وعقَدَ طرفيه : جمعهما بعقدة . ومن المجاز عَقْدُ الألوية لأمراء الجيوش : أى توليتهم الرياسة والقيادة . والراية : العَلَم ، واللواء . وعقد مع الفجر راية : أى نظَّم المحاربين تحت راية الحرب ، وقادهم ، وشن بهم الغارة على الأعداء وقت الفجر ؛ وكان خير أوقات الإغارة والهجوم عندهم . ولم أدع باسمى (بالبناء للمعلوم) : أى لم أجهر باسمى . دعا يدعو باسمه فى الحرب : صاح قائلاً : أنا فلان ؛ ليوقع باسمه الرعب فى قلوب المحاربين من أعدائه ؛ فإنه كان مهيباً معروفاً بشدة البأس ، وقوة البطش . أو « لم أدع » (بالبناء للمجهول) : ومعناه أن المحاربين من جنده وأوليائه كانوا ينادونه فى الحرب باسمه ، لمنازلة الأبطال من أعدائهم ، والفتك بهم . وإلى هذا المعنى يشير عنترة بن شداد العبسى بقوله :

دعانى دعوة والخيل تجرى فما أدرى : أباسمى كان يدعو ، أم كنانى

والكمى : لابس السلاح : فعيل بمعنى فاعل ، من كمى نفسه (من باب رمى) : أى سترها بالدرع والبيضة والسلاح ؛ وقد يطلق الكمى على المحارب الباسل القوى الشجاع الجرىء المقدام ، ولو لم يكن متكمّياً فى الدرع والبيضة . والمنازل : المقاتل المحارب .

ما زال الشاعر يشكو تبدل الحال ، وسوء المآل ، ويشير إلى بعض آثار الكارثة الفادحة ، والكرب الشديد الذى لازمه بعد فقدانه من أفنتهم الحروب من أوليائه وأتباعه الكرام الأبطال ؛ فهو فى هذا البيت يتحسر ويأسَى لما يعانيه اليوم من عجز وكد ؛ ولقد كان قبل اليوم يعقد ألوية القتال للمحاربين من صحبه وجنوده ، ويشُن بهم الغارات وقت الفجر ، ويُوقع باسمه الرعب والفزع فى قلوب أعدائه ، ويبطش بهم على قوتهم ، وشدة بأسهم .

(٢٦) « ولم أبعث » : معطوف على «لم أعقد» فى البيت السابق : أى كأنى لم أعقد ، وكأنى لم أبعث . وبَعَثَ الخيل المغيرة على أعدائه : سلطها عليهم : من قولهم : « بَعَثَ عليهم البلاء » : أى صبه عليهم ، وأحله بهم . والخيل : جماعة الأفراس (لا واحد لها من لفظها) . والمغيرة : اسم فاعل من أغار إغارة : أى اشتد فى العَدْو ، وأسرع . وأغار على أعدائه : هجم ، ودفع عليهم الخيل ، وأوقع بهم . والضحا وقت ارتفاع النهار ، أو امتداده بعد طلوع الشمس . أو هو جمع ضحوة بهذا المعنى (بوزن قرية وقرى) . أو الضحا : حين تشرق الشمس . والضحوة : ارتفاع النهار ، بعد طلوع الشمس . ورَكوب (بوزن شَروب) : صيغة مبالغة من ركبه (كسمعه) رُكوباً . وبكل رَكوب : بكل رجل كثير الركوب ، متمرس به ، مقتدر عليه . والكريهة : الحرب ، أو الشدة فيها . وكثرة ركوبه الكرائه : كناية عن تمرسه بالحروب ، وكثرة معاناتها .=

نَزَائِعُ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ عَلَى الْوَجَى ... إِذَا عُرِّيَتْ أَمْثَالُهَا فِى الْمَنَازِلِ (٢٧)

مِنَ الْقَوْمِ ،بَادٍ مَجْدُهُمْ فِى شِمَالِهِمْ ... وَلَا مَجْدَ إِلَّا دَاخِلٌ فِى الشَّمَائِلِ (٢٨)

=وباسل : بطل، شجاع : من البسالة : وهى الشجاعة ، أو عبوس المحارب الشجاع .

يقول ؛ إنه كان يغير – فى وضح النهار على الأعداء – بفرسان شجعان ، تعودوا الحروب ، وتمرسوا بالكرائه ؛ وهؤلاء هم كرام الناس الذين أفناهم القتال والنزال ، واشتد جزع الشاعر عليهم ، حتى كادت نفسه تهلك بعدهم أسًى وكمدا . ردد الشاعر هذا المعنى ، وبسطه ، وفصله ، وطوّله من البيت العشرين إلى نهاية هذه اللامية ، واندمج كل الاندماج فى البيئة العربية البدوية ؛ فجاءت تعبيراته وتصويراته كلها شاهدة بصحة العنوان الذى اختاره لهذه القصيدة ، وهو : « وقال على طريقة العرب » .

(٢٧) « نزائع »: حال من « الخيل » فى البيت السابق : أى بعثت الخيل على الأعداء والحال أنها نزائع . أو خبر لمبتدإ محذوف ، والتقدير : هى نزائع : أى نجائب ، وكرائم ، واحدتها نزيعة (بوزن كريمة) : أى تنزع إلى أصل كريم . أو انتُزِعت من أيدى الغرباء ، وجُلِبت إلى بلاد غير بلادها ؛ وهذه أيضاً تعد من نجائب الخيل ، وكرائمها النازعة إلى عرق كريم أصيل . وعلكت الدابة اللجام (من بابى نصر ، وضرب) : لاكته ، وحركته فى فمها . والشكيم : جمع شكيمة (بوزن سفينة) : وهى من اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس . والوجى : مصدر وجى الماشى (كتعب) : أى حفى ، ورقت قدمه ، أو حافره ، أو خفه ، وكلّ من كثرة المشى وتتابعه . وعريّت : المراد تُركت فى إصطبلاتها مُعراة : أى مجردة من معدّات الركوب والسفر ، وأدوات الحرب والقتال . وأمثالها : أمثال النزائع : أى أشباهها ونظائرها ، جمع مثل (بوزن فعل وأفعال) : وهو المماثل ، والشبه ، والنظير . ويراد بالمنازل : إصطبلات الخيل ، وحظائرها .

يصف الخيل التى كان يغير بها مع صحبه وأتباعه على الأعداء ، ويعتمدون عليها فى الحرب والقتال بأنها أصيلة كريمة نجيبة ؛ أو أنها – مع أصالتها ونجابتها – غريبة مجلوبة من بلاد بعيدة ؛ وأنها كانت تلوك الشكائم واللُّجُم ، مع ما بها من الحفى ، والكلال ، ورقة الأقدام ؛ على حين أن أشباهها ، ونظائرها مُخلاة ناعمة رافهة فى حظائرها ؛ نوه بها ، وعظّم شأنها لما كان لها من عظيم النفع فى الحروب ، ولأنها كانت وسيلة من أهم وسائل النصر والغلبة ؛ وضاعف هذا التنويه والتعظيم بالإشارة إلى المعريات الرافهات الآمنات من أمثالها فى الحظائر .

(٢٨) « من » : بيانية . و « من القوم » : بيان لقوله فى البيت السادس والعشرين : « بكل ركوب للكريهة باسل » . وباد : ظاهر . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ، والكرم ، والنبل ، والجلال . وقد يضاف إلى هذا كله ما يعده المرء من مفاخر آبائه ، والمكارم المأثورة عنهم . والشمال (بوزن كتاب) : الخُلق ، والطبع ، والسجية التى جُبل الإنسان عليها ، والجمع الشمائل . =

إِذَا مَا دَعَوْتَ الْمَرْءَ مِنْهُمْ لِدَعْوَةٍ ... عَلَى عَجَلٍ- لَبَّاكَ غَيْرَ مُسَائِلِ(٢٩)

يُكَفْكِفُ أُولَى الْخَيْلِ مِنْهُ بِطَعْنَةٍ ... تَمُجُّ دَمًا ، مَطْعُونُهَا غَيْرُ وَائِلِ(٣٠)

يبكى أعوانه وأنصاره ، أو خُلانه وأخدانه الذين كان يقودهم فى الإغارة على أعدائه ، ويصفهم بالمجادة والكرم ، ويقول : إن شمائلهم وأخلاقهم تنم على ما امتازوا به من الشرف والنبل ، والرفعة والجلال .

والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فإن المرء إذا كان ماجداً لابست شمائله خصائص مجده ، وظهرت حتماً فى سجاياه . أو أن الشمائل الكريمة تتضمن المجد ، وتشير إليه ، وتنم عليه ، كما تنم على المسك رائحته .

(٢٩) دعاه إلى كذا يدعوه : صاح به ، وناداه ؛ وفى الدعاء هنا معنى الاستعانة ، والاستنجاد. والدعوة : مصدر بمعنى الدعاء ، أو اسم مصدر ، أو اسم مرة . ويراد بها هنا : الأمر المدعو إليه ، المستعان عليه ، المستنجد من أجله . ومنهم : من الأماجد الكرام الذين نوه بهم ، وبكاهم فى البيت السابق . وعلى عجل : مسرعاً ؛ وهو متعلق بـ « لباك » . ولباك : أجاب دعوتك ، وسارع إلى إنجادك . ومسائل : اسم فاعل من ساءله مساءلة : بمعنى سأله عن كذا : أى استخبره .

والمعنى : إذا استنجدت الواحد من هؤلاء الأماجد الكرام لأمر يكْرُبك ، سارع إلى إنجادك فى فى غير تردد .

وهذا قريب من قول قريط بن أنيف ، من بنى العنبر ، فى مدح مازن تميم :

لا يسألون أخاهم – حين يندبهم ... فى النائبات – على ما قال برهانا

(٣٠) يكفكف : يرد ، ويصد ، ويدفع ، ويمنع . وفاعله ضمير المرء فى البيت السابق . ويريد بأولى الخيل : فرسان المحاربين فى مقدمة جيش أعدائه ، أى فى الصفوف الأولى . و « منه » : متعلق بـ « طعنة » : أى يصد بطعنة منه هجمات المحاربين على ظهور الخيل فى مقدمة جيش أعدائه . والطعنة : اسم مرة من طعنه بالرمح ونحوه : أى وخزه به ، وضربه ، وأصابه . وجملة « تمج دماً » : صفة لـ « طعنة » وكذلك جملة : « مطعونها غير وائل » . وتمج الطعنة دماً : تفجر الدم ، وتُسيله ، وتُجريه من جسم المطعون . ومطعونها : المصاب بالطعنة . وغير وائل : غير ناج : اسم فاعل من وأل من كذا : أى طلب النجاة منه . ووأل إليه : لجأ إليه ، واحتمى به . ووأل إلى المكان : بادر إليه ، وسارع . (وبابه وعد) .

ما زال الشاعر يبكى هؤلاء الأماجد الكرام الأبطال ، ويرثيهم ، ويذكرهم بعد مماتهم بالخير ، وحسن الثناء ، ويقول : إن كل واحد منهم كان أمةً ، يحارب فى الصفوف الأولى بشجاعة وبسالة وإقدام ، ويدفع عن نفسه وجيشه المنازلين له من طليعة جيش أعدائه ، ويردهم على أعقابهم بطعنات داميات قاتلات .

يَكُونُ عَشَاءَ الزَّادِ آخِرَ آكِلٍ وَيَوْمَ اخْتِلَاجِ الطَّعْنِ أَوَّلَ حَامِلِ(٣١)

قَضَوْا مَاقَضَوْا مِنْ دَهْرِهِمْ ، ثُمَّ فَوَّزُوا إِلَى دَارِ خُلْدٍ ظِلُّهَا غَيْرُ زَائِلِ(٣٢)

---

(٣١) «عشاء» : مفعول به لـ «آكل» ، قدم عليه . والعشاء . طعام العشى : أى الوجبة التى يتناولها الآكل آخر النهار ، أو من المغرب إلى العتَمة . والزاد : طعام يتخذ للسفر . ومعنى الشطر الأول : أن كل امرئ من الكرام الذاهبين الذين يرثيهم ويبكيهم كان آخر الآكلين إذا حضر عَشاء الزاد. والاختلاج : التحرك ، والاضطراب . واختلاج الطعن : من إضافة المصدر إلى فاعله : أى اضطراب حركات الطعن ، واختلاف رماح المتحاربين ، واشتباكها فى الطعان : وهوكناية عن استحرار القتال ، وعنف المعركة إذا التحم الجيشان ، وحمى الوطيس ، واشتد البأس . وحامل : اسم فاعل من حمل المحارب على عدوه : أى كر عليه . وهجَم .

يقول : إن كل واحد من هؤلاء الكرام المرثيين كان آخر الآكلين إذا حضر الطعام ، وأول الهاجمين إذا حَمِىَ الوطيس ، واستحر القتال ، واشتد الطعان والنزال. وهذا المعنى قريب من قول سيدنا ومولانا محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مدح الأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » .

(٣٢) قضى حاجته : أتمها وفرغ منها . وقضى وطره : بلغ مراده . ودهرهم : زمانهم . ودهر فلان : مدة حياته . وفوزوا : هلكوا وماتوا . وفوّزوا : رحلوا ، وانتقلوا ، ومضوا . والخلد : البقاء ، والدوام . ودار الخلد : الجنة . وفى القرآن الكريم : « ومن عمل صالحاً من ذكر ، أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب» الآية رقم ٤٠ من سورة غافر . والظل : ضوء شعاع الشمس إذا استترت عنك بحاجز . أو هو الموضع لا تصل إليه أشعة الشمس . ويعبر بالظل عن العزة والمنَعة ، وعن الأمن والطمأنينة ، وعن الراحة والدعة ، والرفاهية والنعيم ، وغَضارة العيش ، وسعادة الحياة . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن المجيد : « مَثَلُ الجنة التى وُعد المتقون ، تجرى من تحتها الأنهار ، أُكُلُها دائم وظِلُّها » الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد . وغير زائل : غير ذاهب : أى دائم خالد ، لا يعتريه زوال ، أو تحول ، أو انتقال ، أو نقص ، أو اضمحلال .

والمعنى : أن هؤلاء الأبطال الكرام الذين أفنتهم الحروب الطاحنة — قد بلغوا مرادهم فى حياتهم الدنيا ، وحققوا ما قُدِّر لهم تحقيقه من آمالهم ومطالبهم الكبيرة ، وظفروا بخلود الذكر ، وحسن الثناء ؛ فلما ماتوا انتقلوا — برحمة الله ، وصالح أعمالهم — إلى جنات لهم فيها نعيم مقيم .

تعليق وجيز

نظم الشاعر هذه القصيدة متوخياً طريقة العرب ، سالكاً سبيلهم ، متشبهاً بهم ، ناسجاً على منوالهم ؛ ولا ريب أنه أتقن التشبه والتمثيل ، وأجاد التعبير والتصوير ، وعَرَض علينا صوراً حية قوية من حياة العرب فى باديتهم ؛ ففى ستة الأبيات الأولى من هذه اللامية ارتدى ثياب القدامى من شعرائهم ؛ فوقف=

وَقَالَ يَرُوضُ* الْقَوْلَ فِى بَعْضِ الْأَسَالِيبِ** :

رَدَّ الصِّبَا بَعْدَ شَيْبِ اللِّمَّةِ الْغَزَلُ وَرَاحَ بِالْجِدِّ مَا يَأْتِى بِهِ الْهَزَلُ(١)

=بالأطلال ورسوم الديار محيياً ، واصفاً ، باكياً ، متحسراً على ما كان له فى تلك الديار من لهو ومرح ، وحب وغرام .

وفى ثلاثة عشر بيتاً بعدها شبّب بمحبوبته التى تعلق بها ، وتعلّقت به فى طفولتهما ، ونوّه بعفاف حبهما ؛ وتمنى لو بقى ذلك العهد الذى ذهبت به صروف الدهر ، وتقلبات الأيام .

واشتد اندماجه فى البيئة العربية ؛ فانتقل من التشبيب إلى بكاء القبائل التى أفنتها الحروب . ووصف أثر هذه الكوارث فى نفسه ، ورثى الأبطال الخالدين من رجال تلك القبائل ، ومجّد أعمالهم ، وخلد صالحاتهم فى ثلاثة عشر بيتاً ، ختامها يدل على إيمانه بيوم الدين ، ودار الجزاء .

وفى هذه الأثناء جنح — فى نطاق ضيّق محدود — للفخر بنفسه ، ووصف خيل المقاتلين ، والابتهاء بما عقده من رايات القتال ، وما قاده من غارات الفرسان ، وما خاضه معهم من المعامع والوقائع .

* * *

* يروض القول : يعالج الشعر ، ويزاوله ، ويمارسه ، ويمرن نفسه عليه ؛ مستعار من راض الإنسان المهر (من باب قال) : أى ذلله ، وطوّعه ، وعلّمه السير ؛ ومن كلامهم : « راض الشاعر القوافى الصعبة ، فارتاضت له : أى انقادت ، وانطاعت له ، وسهلت عليه .

** الأساليب : جمع أسلوب (بوزن عصفور) : وهو هنا : المذهب . وأساليب الكلام : مذاهبه ، وفنونه ، وأنواعه .

والشاعر فى هذه القصيدة الطويلة سلك مسلك الفحول من قدامى الشعراء ؛ فآثر جزالة اللفظ ، وقوته ، وصلابته ؛ وحاكاهم فى أغراضهم ، ومعانيهم ، وأخيلتهم ؛ إذ افتتح قصيدته بالغزل ، ثم افتخر بإقدامه وشجاعته فى الحروب ، ووصف جواده وسيفه ، ثم وصف يوماً من أيام الطرد والصيد ، ثم أورد أبياتاً فى الحكمة ، ثم ختم القصيدة مفتخراً بأدبه وشعره ؛ كل هذا فى ديباجة عربية نقية ، وفى تشبه تام بمن نهج نهجهم ، وضرب على غرارهم ، وراض قوله بأساليبهم ؛ وفى تعبير وتصوير وثيق الاتصال بالبيئة العربية البدوية ، وجرْى على الطبيعة والسليقة الفياضة المتدفقة .

(١) رد الغزَلُ الصبا : رجعه ، وأعاده إلى الشاعر ؛ فالغزل فاعل « رد » . والصبا مفعوله : وهو الصغر ، والحداثة ؛ ويراد به هنا : الفتوة والشباب . واللمة (بوزن القِمة) : الشَّعَر الذى يجاوز شحمة الأذن ؛ ويراد به هنا : شعر الرأس كله . وشيْبه : بياضه . والغزل : مصدر غزل الرجل بالمرأة (من باب فرح) : أى حادثها ، وتودد إليها ، ولها معها ، وأفاض بذكرها ، وتغنى بمحاسنها ومفاتنها . وراح به :=

وَعَادَ مَا كَانَ مِنْ صَبْرٍ إِلَى جَزَعٍ ... بَعْدَ الْإِبَاءِ ؛ وَأَيَّامُ الْفَتَى دُوَلُ(٢)

= ذهب به ، وأبعده ، وقضى عليه ، وأزاله ، وأقصاه . وفاعله كلمة « ما » : وهى اسم موصول بمعنى الذى : أى راح الهزل وملابساته بالجد وملابساته . والجد (بفتح الجيم ، وتشديد الدال) : مصدر جَدّ فى كلامه (من باب ضرب) : ضد هزَل ؛ والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . وملابسات الجد : الصرامة ، والرزانة ، والوقار ، والحلم ، ونحوه . وهزل فى كلامه (من بابى ضرب وفرح) : مزح : وهو ضد الجد . وملابسات الهزل ، وما يأتى به ، وينتجه : الخفة ، والمرَح ، والطيش ، والدعابة ، والمزاح ، وما إليه . والصلة بين شطرى هذا البيت : أن الجد والرزانة والوقار والحلم والعقل والأناة ونحوها من ملابسات الشيب ودواعيه ؛ أما الهزل والمرح والمزاح والخفة والطيش والدُعابة ونحوها فإنها من ملابسات الشباب ودواعيه ونتائجه فى الكثير الغالب ؛ والغزل كذلك يوائم الشباب ، ويشاكله ، ويسايره ، ويجاريه ، ولا يكاد يوائم الشيب ، أو يناسبه ، أو يليق به ، أو يحسن فيه .

والمعنى : أن غزله ، وعبثه ، ولهوه قد رده إلى عهد الصبا والفتاء ، ونزوات الشباب وجهالاته ، بعد أن وهَن العظم منه ، واشتعل الرأس شيباً ؛ وأن ما يصدر عنه اليوم من ضروب الهزل والمزاح والمجانة قد جرده من الجد والوقار والرزانة ؛ وحرمه ما يليق بمثله ، فى جلال مشيبه ، وتقدم سنه ، ورجحان عقله .

(٢) عاد الأمر كذا : صار إياه ؛ كما يقال : عاد الماء ثلجاً ، وعاد فلان شيخاً ، ومثله عاد الصبر جزعاً . والجزع : أشد الحزن ، أو هو حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه عنه ، (وفعله من باب تعب) ، ونقيضه الصبر . والإباء : الامتناع ، والاستعصاء : مصدر أبى الشىء علىّ : أى امتنع ، واستعصى . وأبيتُ الشىء : عفتُه ، وكرهته ، ولم أرضه . وأبيته : استنكفتُ منه ، وترفّعتُ عنه ، والدول : جمع دولة (بفتح فسكون) : مصدر دال الزمان : أى دار ، وانقلب من حال إلى حال . أو هو جمع دولة : بمعنى الشىء المتداول الذى يكون مرة لهذا ، ومرة لذاك . والدهر دُول : أى لاثبات له ، ولا استقرار فيه . وأيام الفتى دُول : أى تسالمه أحياناً ، وتحاربه أحياناً ، وهكذا تياسره وتعاسره ، وتصالحه وتخاصمه ، وتُقْبل عليه ، وتعرض عنه ، فرة له ، ومرة عليه ؛ لأن فى طبعها التحول والتقلب . وهو تذييل جار مجرى المثل . ويراد بالفتى هنا : الإنسان مطلقاً ، فى كل أطوار حياته ، ومراحل سنه وعمره .

يقول : إنه كان – بعد أن وَخَطَه الشيب ، وتقدمتْ به السن – صبوراً ، لا يستجيب لدواعى الشباب ، ولا يجزعه ما فات من متعه وملاهيه ؛ فلما عاد إلى الغزل واللهو والمجانة – انقلب صبره جزعاً بعد طول التأبِّى ، والتحرج ، والتمنع . ويراد بالجزع هنا : ما يعتوره ، أو يساوره أحياناً من الحزن ، والأسى ، وانقباض النفس ، كلما استيقظ وجدانه ، وفطِن لما غرِق فيه من الهزل والعبث والمجون ، وعلم أن هذا كله لا يليق بشيبته وتقدم سنه ، ورجحان عقله .

وقد يكون المعنى : أنه كان فى مشيبه جاداً عازفاً عن اللهو ، صابراً على حياة الجد والصرامة ؛ فلما =

فَلْيَصْرِفِ اللَّوْمَ عَنِّى مَنْ بَرِمْتُ بِهِ ... فَلَيْسَ لِلْقَلْبِ فِى غَيْرِ الْهَوَى شُغُلُ(٣)

وَكَيْفَ أَمْلِكُ نَفْسِى بَعْدَ مَا ذَهَبَتْ ... يَوْمَ الْفِرَاقِ شَعَاعًا إِثْرَ مَنْ رَحَلُوا؟(٤)

تَقَسَّمَتْنِى النَّوَى مِنْ بَعْدِهِمْ ،وَعَدَتْ ... عَنْهُمْ عَوَادٍ؛ فَلَا كُتْبٌ ، وَلَا رُسُلُ(٥)

فَالصَّبْرُ مُنْخَذِلٌ ، وَالدَّمْعُ مُنْهَمِلٌ ... وَالْعَقْلُ مُخْتَبِلٌ؛ وَالْقَلْبُ مُشْتَغِلُ(٦)

=أنساه الغزل والهزل تلك الحياة ، وأعاده إلى شبابه وصباه – استشعر الجزع : أى الضجر والقلق ، خوفاً من ذهاب هذه المتعة الطارئة ، وفوات هذه اللذة المستحدثة ؛ لعلمه أن الأيام من شأنها التحوّل والتقلب؛ ويلاحظ أن هذا البيت وثيق الاتصال بالبيت الذى قبله .

(٣) صرفه : دفعه ، وردّه . واللوم : العذل . وبرم به (من باب تعب) : سئمه ، ومله . وضَجِر منه ، وضاق صدره به . والهوى : الحب ، والعشق . وشغل (بوزن عُنُق ، وسبب) : ضد الفراغ . وشُغِل عنه بكذا (على ما لم يُسَمّ فاعله) : أى اشتغل ، وتعلق به ، وتلهى ، وانصرف إليه ، وانهمك فيه ، وترك ما عداه .

والمعنى : أن الحب شغل قلبه ، واستأثر به ، وصرفه عما عداه؛ فإذا عذله عاذل تبرّم به ، وضجر منه ، وضاق بالعذل ذَرْعُه ، وأمره بالكف عنه .

(٤) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ؛ فالشاعر لا يملك نفسه بعد ارتحال أحبائه . وذهبتْ نفسه شَعاعاً : تمزقتْ ، وتبددت من الهم ونحوه . أو تفرقت همها وآراؤها؛ فلا تتجه لأمر جَزْمٍ . وذهب فى إِثْره ، وذهب إِثرَه : ذهب فى عقبه ، بلا توانٍ ، أو تراخ . ورحلوا : ارتحلوا ، وساروا ، وانتقلوا ، ومضوْا .

يقول : لما فارقه أحباؤه ، افترق شمله ، وتمزق من الوجد قلبه ، وذهبتْ نفسه عليهم حسرات .

(٥) النوى : البُعد ، وهى مؤنثة ؛ ويريد بها : بعد أحبائه ، وارتحالهم عنه . وتقسَّمتْنى النوى : فرّقت شملى ، وشتتت خواطرى . وعداه عن الأمر (كدعاه) : صرفه عنه ، وشغله . والعوادى : جمع العادية : وهى الشغل يصرفك عن الشىء . وعوادى الدهر : عوائقه ، ونوائبه . والكتب : جمع كتاب : وهو الرسالة . والرسُل : جمع الرسول ، أو الرسيل : بمعنى الرسالة . أو من ترسله إلى غيرك . و « تقسمتنى النوى من بعدهم » : شبه تكرار لمعنى البيت السابق ؛ فعلى إثر رحيلهم برّح به الوجد والبعد ، وتقسمته الهموم والأوصاب .

يشكو فُرقة هؤلاء الأحباب ، وبُعدهم عنه ؛ فالفُرقة والبُعد شغلا باله ، ومزّقا شمله ، وشتّتا خواطره ؛ وحالت بينه وبينهم العوادى والعوائق ؛ فانبتّت الصلات ، وتقطعت الأسباب .

(٦) منخذل : ضعيف . ومنهمل : منصب غزير . ومختبل (بصيغة اسم المفعول ، أو صيغة=

أَرْتَاحُ إِنْ مَرَّ مِنْ تِلْقَائِهِمْ نَسَمٌ تَسْرِى بِهِ فِى أَرِيجِ الْعَنْبَرِ الْأُصُلُ(٧)

سَارُوا ،فَمَا اتَّخَذَتْ عَيْنِى بِهِمْ بَدَلًا إِلَّا الْخَيَالَ ؛ وَحَسْبِى ذَلِكَ الْبَدَلُ(٨)

=اسم الفاعل) : مضطرب ، فاسد . ومشتغل : مشغول ، مهموم . وفى البيت محسّن بديعى لفظىّ ، يسمونه السجع المطرف ؛ ومن أمثلته قول أبى تمام فى المديح :

تَجَلَّى به رشدى ، وأثرتْ به يدى وفاض به ثُمْدِى ، وأورى به زَنْدِى

يشير إلى ما يكابده ويضانيه بعد فرقة أحبابه من قلة الصبر ، وضعف التجلد ، وغلبة الجزع ، وكثرة البكاء ، واختبال العقل ، واضطراب الفكر ، واشتغال القلب بمساورة الهموم ، ومغالبة الأحزان .

(٧) ارتاح للأمر : سُرَّ به ، ونشط . ومن تلقائهم : من تلقاء أحبابه : أى من جهتهم . ونَسَم الريح : أولها حين تُقبل بلين ، قبل أن تشتد . وتسرى به : أى تَسرى بالنسَم : أى تُحركه ، وتسيِّره ، وتدفعه . وفاعله « الأصُل » : جمع أصيل : وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب . أو هو الوقت حين تصفرّ الشمس لمغيبها . وفيه تَنَسم الريح لطيفة لينة طيبة . وفى أريج العنبر : فى مثل أريج العنبر : أى رائحته الفائحة ، المتوهجة ، الطيبة ، الذكية ، العطرة . والعنبر : نوع من العطور التى يُتطيب بها لحسن رائحتها . أو هو مادة صُلبة ، لا طعم لها ، ولا ريح إلا إذا سُحقت ، أو أُحرقتْ . ويقال : إنه رَوْث دابة بحرية .

يقول : إنه يُسرّ وينشط ، وتطيب نفسه ، ويهدأ باله ، ويستشعر الارتياح والانشراح إذا مر به من جهة أحبابه ، وقت الأصيل — نسيم لطيف ، لين هادئ ، طيب عَطِر .

وربط النَّسم المعطَّر بأحبابه ؛ لأن مثله لا يستقبل من تلقائهم غير هذا النسم ، ولا يتلقاه إلا بالارتياح . واختار وقت الأصيل ؛ لأنه خير الأوقات فى مثل هذا المقام . والبيت كله أسلوب لطيف من أساليب الغزَل .

(٨) البدل من الشىء : الخلف ، والعوض . والخيال : الطيف . وما تشبه لك فى اليقظة والمنام من صورة . ويريد بأخيلة أحبابه : صورهم الحية فى ذهنه . وحسبى : يكفينى ، ويغنينى . واتخذت عينى خيالهم بهم بدلاً : أى جعلت عينى خيالهم خلَفاً لهم ، وبدلاً منهم ، وعِوضاً عنهم ؛ كما تقول : اتخذتُ فلاناً خليلا .

والمعنى : ارتحل أحبابه ، وغابت عنه أشخاصهم ، وفرقتْ النوى بينه وبينهم ، واستعصى عليه لقاؤهم ؛ فلم يسعه إلا أن يقنع برؤية أخيلتهم ، ومناجاة أطيافهم ، ويبقى على الدوام حافظاً لعهدهم ، مقيماً على ودهم ، يتخيلهم آناء الليل ، وأطراف النهار ، ولا يرى بعد غيابهم غير صورهم ، ولا يشتغل قلبه بسواهم ، ولا تصرفه عنهم عوادى الدهر ، وعوائق الزمان .

فَخَلِّ عَنْكَ مَلَامِي يَا عَذُولُ ؛ فَقَدْ ... سَرَّتْ فُؤَادِي -عَلَى ضَعْفٍ بِهِ- الْعِلَلُ (٩)

لَا تَحْسَبَنَّ الْهَوَى سَهْلًا ؛ فَأَيْسَرُهُ ... خَطْبٌ -لَعَمْرُكَ لَوْ مَيَّزْتَهُ- جَلَلُ (١٠)

يَسْتَنْزِلُ الْمَلْكَ مِنْ أَعْلَى مَنَابِرِهِ ... وَيَسْتَوِي عِنْدَهُ الرِّعْدِيدُ وَالْبَطَلُ (١١)

---

(٩) خلِّ عنك ملامى: لا تلمنى. خلَّى الأمر عنه تخلية: تركه. وعذول: صيغة مبالغة من العذل: وهو اللوم. وسرّه (من باب رد): طعنه فى سُرته: أى فى وسط بطنه. والمراد هنا: مطلق الطعن والإصابة. وسره سروراً: أفرحه. و «فؤادى» مفعوله. و «العلل» فاعله: جمع علة: وهى المرض الشاغل؛ ويراد بالعلل هنا: أوصاب الحب، وتباريح الشوق، ومرارة الفراق.

يقول: إن قلبه -على رقته، وضعف احتماله- قد أصابته أوصاب الهوى والغرام، وأضنته تباريح الصبابة والشوق، وبرّحت به مرارة النوى والفراق. أو أنه يجد فى هذا كله المتعة واللذة، والارتياح والسرور.

ومعنى هذا: أن العشق دلهه وتيّمه، والوجد ولهه وعبّده، وحال بينه وبين الاستماع لعذل العاذل، والإنصات للوم اللائم، وقد أعلن فى البيت الثالث تبرمه به، وضجره منه؛ فالعذل لمثله عقيم، لا ينتج، ولا يُجدى؛ بل يضايقه ويعاسره، ويضاعف أوصابه ومتاعبه.

(١٠) لا تحسبن: لا تظنن. والهوى: الحب، والعشق، والغرام. وأيسره: أيسر الهوى: أى أسهله، وأهونه، وأقله. والخطب: الأمر الشديد، والنازلة الفادحة، وجمعه خطوب. وجلل: عظيم؛ وهو نعت لـ «خطب». و «لعمرك لو ميزته»: كلام معترض بين النعت ومنعوته. و «لعمرك»: قسَم بحياة المخاطب؛ وهم يرفعونه بالابتداء؛ ويضمرون الخبر؛ والتقدير: لعمرك قسمى، أو يمينى، أو ما أحلف به. واللام الداخلة على المبتدإ هنا: لام الابتداء؛ وفائدتها توكيد مضمون الجملة. ولو ميزته: لو عرفته، وفطنت له، وأدركت حقيقته.

يقول لكل مخاطب، وبخاصة العاذل اللائم: إن العشق صعب المراس، مستعص على العلاج؛ يزيده اللوم ويضاعفه، ويُذْكيه العذل ويؤجّجه؛ ولو عرفته، وأدركت حقيقته، أو وقفت على شىء من كنهه وسره، لعلمت أنه -فى أيسر حالاته، وأقل مراتبه- خطب جلل، وأمر شديد، يذهل العاشق ويضنيه، ويذهب بلبه ويتيّمه.

(١١) يستنزله: يُنْزله، ويحطه. وفاعله ضمير «الهوى» فى البيت السابق. والمنابر: جمع منبر (بوزن منجل ومناجل): وهو مرْقاة يرتقيها الخطيب، أو الواعظ؛ ليخاطب من فوقها جموع المستمعين؛ ويراد بمنابر الملك هنا: مرتبته العالية، ومنزلته الرفيعة، ووقاره المهيب، وحصنه الحصين. =

فَكَيْفَ أَدْرَأُ عَنْ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنْ لَيْسَ لِي بِمُنَاوَاةِ الْهَوَى قِبَلُ ؟(١٢)

فَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى شَيْءٍ هَمَمْتُ بِهِ ... فِي الْحُبِّ ، لَكِنْ قَضَاءٌ خَطَّهُ الْأَزَلُ(١٣)

= واستوى الشيئان : تساويا ، وتماثلا ، وتشابها . وعنده : عند الهوى : أى أمامه ، وفى حضرته ، وتحت إمرته وسلطانه . والرعديد : الجبان يشتدّ به الجبن ؛ فيكثر ارتعاده ، واضطرابه ، وارتعاشه . وضدّه البطل : وهو الجرىء الشجاع المقدام ، وجمعه أبطال .

والمعنى : أن سلطان الحبّ قاهر غلاّب ، يستعبد الملوك والسُّوقة ، ولا تصمد أمامه البطولة والشجاعة ؛ فالبطل الشجاع كالرعديد الجبان ؛ يتساويان تحت سيطرة الحبّ وسطوته .

(١٢) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى . ودرأه (كنعه) : دفعه ، وصدّه . وناواه مناواة : عاداه ، وقاومه ، وناهضه ؛ وأصله الهمز . وقِبَل (بوزن عنب) : طاقة ، ومقدرة . وفى القرآن الكريم : « فلنأتينّهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها » الآية رقم ٣٧ من سورة النمل : أى لا طاقة لهم بها ، ولا قدرة لهم على مقاومتها .

فى البيت السابق أشار إلى ضخامة سلطان الهوى ، وسيطرته على الملوك والسوقة ، والأبطال والرعاديد . وفى هذا البيت شِبْه اعتذار ، واحتجاج لنفسه ، وقطعٍ لما قد يأمله العاذلون من سلوانه ؛ فكيف يدرأ عن نفسه ذلك السلطان القاهر ، وهو يعلم أن لا طاقة له به ، ولا قدرة له عليه ، ولا مَنَاصَ منه ؟

(١٣) قدر على الشىء (كضرب ، وعلم ، ونصر) . وهمّ به (من باب ردّ) : أراده ، وقصده ، وعزم على القيام به ، ولكنّه لم يفعله . و « فى الحبّ » متعلّق بمحذوف ، صفة لشىء . وجملة « هممت به » جواب « لو » : أى فلو قَوِيت على شىء مستطاعٍ فى أمر الحبّ ، يدفعه ، أو يصدّه ، أو يصرفه ، أو يَحُدّه — لهممت به . ومعنى هذا : أنه لم يقدر ، ولم يهمّ . والتعبير بـ « هممت » هنا يشعر بضعف هذا المحبّ أمام سلطان الحبّ وسطوته ؛ فعلى فرض أنه أوتى القوّة ، والمقدرة على مقاومة هذا السلطان ومكافحته ، لم يجرؤ على المقاومة نفسها ، ولم يتجاوز نطاق الهمّ : وهو الإرادة ، أو الرغبة المجرّدة من الإقدام والعمل والتنفيذ . ولكن قضاء : أى ولكنّ الحبّ قضاء : أى حكم فاصل ، لا مردّ له ، ولا استئناف . وخطّه : كتبه ، ورسمه ، وقدّره ، وقضى به . والأزل : القِدَم ، ويراد بالقضاء الذى خطّه الأزل : أنه قضاء أزلىّ مُغْرِق فى القدم ، لا سبيل إلى نقضه ، أو ردّه ، أو الفرار منه .

والمعنى : أن الحبّ من الأمور المقدّرة المقضيّة التى لا معدى عنها ، ولا مفرّ منها ؛ وقد كتب عليه قبل أن يوجد ؛ ولو استطاع أن يتخلّص منه ، أو يُجْرِيه على حسب مشيئته — لفعل ؛ ولكن هيهات . ويلاحظ أن الشاعر عُنِىَ عناية ظاهرة فى البيت الثالث ، ثم فى الأبيات (٩–١٤) بملاحاة عاذليه ، والاحتجاج لنفسه ، وتأكيد عجزه عن مغالبة الهوى ؛ ليستيئسوا منه ، وينصرفوا عنه .

وَلِلْمَحَبَّةِ قَبْلِي سُنَّةٌ سَلَفَتْ فِي الذَّاهِبِينَ ؛ وَلِي فِيمَنْ مَضَى مَثَلُ (١٤)
فَإِنْ تَكُنْ نَازَعَتْنِي النَّفْسُ بَاطِلَهَا وَأَطْلَعَتْنِي عَلَى أَسْرَارِهَا الْكِلَلُ (١٥)
فَقَدْ أَسِيرُ أَمَامَ الْقَوْمِ ضَاحِيَةً وَالْجَوُّ بِالْبَاتِرَاتِ الْبِيضِ مُشْتَعِلُ (١٦)

---

(١٤) سنّة : مذهب ، وطريقة ، وسيرة . وسلفتْ : مضت ، وتقدمتْ ؛ وفاعله ضمير « سنّة »، والجملة صفة لها : أى وللحبّ قبلى سنّة سالفة فى الذاهبين : أى الماضين من الناس فى سالف الزمان . والمثل (بوزن سبب) : المثل (بكسر فسكون) ، والشَّبَه ، والنظير ؛ و « فيمن » متعلق بمثل : أى ولى مثل فيمن مضى .

والمعنى : أن الحبّ شىء يعرفه الناس من قديم الزمان ؛ وله فيهم سُنّة ثابتة ، وصفات متميّزة ، وطريقة مرسومة ، وخصائص واضحة ، وآثار خفيّة وظاهرة ، وسيرة لا تتخلّف ؛ وللشاعر أشباه ونظراء من المحبين العاشقين فى الذاهبين الأوّلين ؛ يسلك مسلكهم ، ويجرى على سننهم . والغرض من مثل هذا البيت محاولة إقناع العاذلين، والاحتجاج لنفسه ، وتخفيف حمّلات العذل ؛ وهو ختام سبعة أبيات دارت كلّها حول هذا الغرض .

(١٥) جواب « إن » الشرطيّة فى البيت الآتى : « فإن تكن نازعتْنى النفس باطلها فقد أسير .. » ونازعتْنى النفس باطلها : عاطتْنى نفسى ذلك الباطل : أى ناولتْنى إيّاه : والمراد أنها مهّدتْ لى سبيله ، وسوّلتْه لى ، وأغرتْنى به ، وأوقعتْنى فيه . أو هو من قولهم : نازعته الثوب : أى جاذبته إيّاه : والمراد أنى شاركتْها فى الباطل، وشاركتْنى فيه . ويراد بالباطل هنا: اللهو ،والحبّ ، والغزل . والكِلل : جمع كِلّة (بوزن علّة وعلل) : وهى هنا ثوب رقيق، يخاط كالبيت ، تستتر فيه المرأة . وإطْلاع الكلل إيّاه على أسرارها : كناية عن إحاطته بشئون الحسان المحجّبات ، ووقوفه على أسرارهن ، وظهوره على الخفىّ المكتوم من أمورهن . وصلة الشطر الثانى بالشطر الأول : أن اطّلاعه على أسرار الغانيات من الأباطيل التى أوقعتْه فيها نفسه . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة كلّها : أنّ ما ردّده الشاعر فيها من الغزل وملاحاة العاذلين ضرب من ضروب الباطل الذى نازعته نفسه إيّاه . وصلته بالبيت الذى بعده: أن الشاعر جمع فى حياته بين الهزل والجدّ ، واللهو والصرامة ، والحبّ والقتال .

جعل الشاعر هذا البيت تمهيداً لانتقاله من اللهو والهزل ، والحبّ والغزل إلى الفخر بشجاعته وبطولته الحربيّة ، والابتهاء بسيره أمام المحاربين يقودهم ، ويتقدّم صفوفهم .

(١٦) « فقد أسير . . . » : جواب « إن » الشرطية فى البيت السابق . ويريد بالقوم : جماعة المحاربين . وضاحية : علانية ،جهاراً . والجوّ : الفضاء بين السماء والأرض .وجوّ كلّ شىء : بطْنه ،=

بِكُلِّ أَشْقَرَ قَدْ زَانَتْ قَوَائِمَـهُ ... حُجُولُهُ غَيْرَ يُمْنَى زَانَهَا الْعَطَلُ [١٧]

كَأَنَّهُ خَاضَ نَهْرَ الصُّبْحِ ،فَانْتَبَذَتْ ... يُمْنَاهُ ، وَانْبَثَّ فِي أَعْطَافِهِ الطَّفَلُ [١٨]

= وداخله . ويراد به هنا : جوّ الحرب ، وساحة الوغى ، وميدان القتال . والباترات : جمع باتر : وهو السيف القاطع . والبيض : جمع أبيض : وهو السيف . ومشتعل : ملتهب ، متّقد ، مضطرم . وهو هنا من مجاز اللغة ؛ فبريق السيوف ، ولمعانها ، واضطراب حركاتها فى جوّ القتال يشبه اشتعال النيران وتوقّدها . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال ، والجملة الاسميّة بعدها حاليّة ، وصاحب الحال فاعل « أسير » ، وبالباترات متعلّق بمشتعل .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أنه إذا كان ينقاد للهوى ، ويجرى مع اللهو أحياناً ، ويغازل الغانيات من ربّات الحجال – فإنه إذا جَدَّ الجِدّ ، واتّقدتْ الحرب ، وحَمِيَ الوطيس ، قَدَمَ المحاربين ، وقاد المقاتلين ، وبرز لأعدائه فى جرأة وشجاعة وإقدام ؛ وفى غير مبالاة ، أو تردّد ، أو اكتراث . وفى عشرة الأبيات الآتية يصف الشاعر جواده .

(١٧) بكلّ أشقر : بكلّ فرس أو جواد أشقر ، وهو متعلّق بالفعل « أسير » فى البيت السابق . وأشقر : صفة من الشُّقْرة : وهى فى الخيل : حمرة صافية ، يحمرّ معها العُرْف والذَّنَب . والعرب تقول : « أكرم الخيل ، وذوات الخير منها شُقْرها » . وقوائمه : يداه ، ورجلاه ، الواحدة قائمة ، وهو مفعول به للفعل « زان » . وفاعله « حجوله » : جمع حجل (بكسر فسكون أو بفتح فسكون) : وهو البياض فى قائمة الفرس ، يكون فى موضع القيد منها ؛ وفى مثل الموضع الذى يكون فيه حجل المرأة : وهو الخلخال الذى تزيّن به رجلها . وفرس محجّل : فى قوائمه حجول . وزانت حجوله قوائمه : جمّلتْها ، وحسّنتْها . وغير يمنى : غير قائمة يمنى . والعطل هنا : خلاف التحجيل . يقال : عطلت المرأة (من باب فرح) ؛ إذا لم يكن عليها حلىّ . والمراد أن يمنى هذا الجواد خلت من التحجيل .

يقول : إنه يَقْدُمُ قومه محارباً بكلّ جواد أشقر ، ازدانتْ ثلاث من قوائمه بالتحجيل ، وخلَتْ منه الرابعة ، وهى رجله اليمنى ؛ فزانها هذا الخلوّ ، وحسّنها ، وجمّلها .

(١٨) كأنه : كأنّ هذا الجواد الأشقر . وخاض الماء : دخله ، ومشى فيه . ونهر الصبح : الصبح الشبيه بالنهر . وانتبذتْ : اعتزلتْ ، وتنحّتْ . يريد أنه خاض نهر الصبح بثلاث من قوائمه ؛ أمّا الرابعة ، وهى اليمنى ، فإنها انتبذت عن هذا النهر : أى ابتعدتْ عنه ، ولم تخضه . وانبثّ : تفرّق ، وانتشر . وأعطافه : جوانبه : جمع عطف (بكسر فسكون) ؛ ويراد بأعطافه : جسمه . وطَفَل الغداة : الوقت بُعَيْدَ طلوع الشمس . وطَفَل العشىّ : قُبَيْلَ غروبها ، حين اختلاط أوّل الليل بآخر النهار . ومثله ، أو قريب منه الشفق : وهو بقيّة ضوء الشمس ، وحمرتها فى أوّل الليل .

وهذا البيت تكرار لمعنى البيت السابق ؛ فالجواد مُحَجَّل فى ثلاث من قوائمه ، وبياض تحجيله كبياض ضوء الصبح ؛ وشُقْرة أعطافه وجسمه كحمرة الشَّفَق .

زُرْقٌ حَوَافِرُهُ ، سُودٌ نَوَاظِرُهُ ... خُضْرٌ جَحَافِلُهُ ، فِي خَلْقِهِ مَيَلُ (١٩)

كَأَنَّ فِي حَلْقِهِ نَاقُوسَ رَاهِبَـةٍ ... بَاتَتْ تُحَرِّكُهُ ، أَوْ رَاعِدٌ زَجِلُ (٢٠)

يَمُرُّ بِالْوَحْشِ صَرْعَى فِي مَكَامِنِهَا ... فَمَا تَبِينُ لَهُ شَدًّا ، فَتَنْخَذِلُ (٢١)

---

(١٩) زرق : جمع أزرق : صفة من الزرقة . والحوافر : جمع الحافر : وهو للدابّة كالقدم للإنسان . وسود : جمع سوداء . والنواظر : جمع ناظرة : وهى العين . وخضر : جمع خضراء : صفة من الخضرة : وهى فى ألوان الخيل والإبل : غُبْرَة تخالطها دُهْمَة : أى سواد . والجحافل : جمع جَحْفَلَة (بوزن كوكبة) : وهى لذوات الحافر من الخيل والبغال والحمير : كالشَفَة من الإنسان . وفى خَلْقه : فى خِلْقته : أى فى فِطْرته التى فُطِرَ عليها . والميل : مصدر مَيِلَ (من باب فرح) : أى كان مائلاً خِلْقة ، فهو أمْيَل ، وهى مَيْلاء ؛ ويراد بالميل هنا : ما يُعْرَف فى الصافنات الجياد ، ونجائب الخيل من التبختُر ، والتمايل ، والتثنّى ، وحسن المِشْية .

استوعب الشاعر فى هذا البيت وصف حوافر جواده ، وعينيه ، وجحفلتيه – بالزرقة ، والسواد ، والخضرة على الترتيب ؛ وهى الألوان المعروفة فى نجائب الخيل وجيادها . ثم أشار إلى بعض محاسنه الخِلْقيّة الوراثيّة المتأصّلة فيه ، كالميل : أى التبختر ، وجمال المِشْية ، والمرونة ، وحسن التثنى .

(٢٠) فى حلقه : فى حلق جواده الأشقر . والناقوس : جرس كبير ، يضرب به النصارى فى كنائسهم إيذاناً بحلول وقت صلاتهم . والراهبة : مؤنث الراهب من رُهْبان النصارى : وهو من اعتزل الناس ، وتفرّغ للعبادة فى دَيْر أو صومعة . وبات يفعل كذا : أى فَعَلَه ليلاً . وباتت هنا : بمعنى صارتْ ، أو جعلتْ . والجملة نعت لراهبة . وجملة « تحركه » : خبر « بات » الناقصة . أو : حال من فاعل « بات » التامة : وهو ضمير الراهبة . و « راعد » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : أو هو : أى الجواد الأشقر راعد : أى صائت كصوت الرعد . أو التقدير : فى حَلْقة راعد : أى سحابٌ راعد . وزَجِل : صائح صاخب : صفة منزجل (من باب فرح) : أى رفع صوته ، وأجْلَبَ .

والبيت فى وصف صهيل ذلك الفرس بالقوّة والشدة ؛ فهو كصوت أجراس الأديرة والكنائس ، أو صوت السحاب الراعد الزاجل .

(٢١) الوحش : ما لا يستأنس من دواب البرّ وحيوانه ؛ يذكّر ، ويؤنّث ، واحدها وَحْشِىّ ، والجمع وُحُوش . وصَرْعَى : حال من الوحش : أى ملقاة على الأرض : جمع صريع : فعيل بمعنى مفعول . ومكامنها : مخابئها : جمع مكمن (بوزن مذهب) : اسم مكان من كمن (كقعد) : أى توارى ، وتَستّر ، واستخفى . وتبين : تستبين ، وتكشف ، وتعرف ؛ مضارع « بان » المتعدّى ، وفاعله ضمير الوحش ، ومفعوله « شدًّا » : أى عَدْوا ، وجرياً ، وَرَكْضاً : مصدر شدّ الفرس =

يَرَى الْإِشَارَةَ فِي وَحْيٍ ؛ فَيَفْهَمُهَا   وَيَسْمَعُ الزَّجْرَ مِنْ بُعْدٍ ؛ فَيَمْتَثِلُ (٢٢)

لَا يَمْلِكُ النَّظْرَةَ الْعَجْلَاءَ صَاحِبُهَا   حَتَّى تَمُرَّ بِعِطْفَيْهِ فَتُحْتَبَلُ (٢٣)

= وغيره : أى عدا ، وركض ، وأحضر ، وجرى . وله : الفرس . وتتخذل : تضعف ، وتنهار ، وتسقط على الأرض مغلوبةً مأخوذة ، أو تنهزم ، وتحاول الفرار والنجاة ؛ وهو فى الأصل مطاوع « خذله » : أى تخلّى عن عونه ونصرته .

والمعنى : أن هذا الفرس يمرّ بالوحوش وهى مختبئة فى مكامنها آمنة مطمئنة ، لا تخاف عَدُوًّا ؛ ولكنّه يفاجئها ويباغتها ، قبل أن تلمح ركضه ، أو تحسّ به ؛ فلا تكاد تجد وسيلة للفرار منه ؛ ولهذا تسقط بين يديه مغلوبة مأخوذة .

والغرض : وصفه بسرعة العَدْو ، والتمرّس بالصيد ، وإعانة راكبه عليه ، وتمكينه منه ؛ وقد غالى فى هذا المعنى ، كما غالى غيره من الشعراء ؛ فقال : إن الصيد ، أو الوحوش تنصرع وتسقط فى أماكنها وهو يمرّ بها ، ويطوى إليها الأرض طيًّا ؛ وإنما سقطت ؛ لأنها لم تكد تستبين ركضه ، أو عَدْوَه إليها ؛ ولو استبانتْه ، أو أحسّتْ به لفرّتْ من وجهه ، وحاولتْ النجاة . وأبلغ من هذا قول امرئ القيس فى معلّقته ، واصفاً جواده :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد ، قيد الأوابد ، هيكل

مكر ، مفر ، مقبل ، مدبر معاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل

(٢٢) يراد بالإشارة : إشارة صاحبه ، أو راكبه : مصدر أشار إليه ، وأشار بيده ، أو نحوها : أى أوْمَأَ إليه : معبّراً بالإيماء والإشارة عن معنى من المعانى التى يقصدها ، كالدعوة إلى الدخول ، أو الخروج ، أو الوقوف ، أو السير ، أو القفز والتخطّى . . . وفى وَحْيٍ : فى سرعة ، أو فى خفاء . والزجر : مصدر زجره (من باب نصر) : أى منعه ، وكفّه ، ونهاه ، وانتهره ، وصاح به ، وأثاره ؛ أو حثّه ، وحمله على السرعة . ويمتثل : يطيع ، وينقاد .

يقول : إنه يرى الإشارة فى سرعة ، فيفهمها ، ويستجيب لها مهما خفيتْ ؛ ويسمع الزجر ، فيمتثله ويحتذيه ، وينقاد له ، ولو جاءه من مكان بعيد .

وصفه بدقّة الإحساس ، ورهافة الحواسّ ، وقوة الإدراك ، وسرعة فهمه لإشارات صاحبه أو راكبه ولو خفيتْ ؛ وسرعة السمع والطاعة ، والانقياد له إذا اضطر إلى زجره فى بعض الأحيان ؛ وهذه كلّها من صفات كرائم الخيل وجيادها .

(٢٣) النظرة : المرّة من النظر : بمعنى الإبصار . والعَجْلَى (بوزن السَّكْرَى) : السريعة : صفة من العجلة ؛ أمّا « العجلاء » (بالمدّ) ، فلا نعرف وجهها ؛ ولعلّ الشاعر لمح مذهب الكوفيين الذين يجيزون مدّ المقصور لضرورة وزن الشعر . وعطفاه : جانباه . وعِطْف كلّ شئ : جانبه ؛ ويراد بعطفى الجواد : محاسن جسمه التى أشار الشاعر إلى بعضها فى الأبيات السابقة . وفى جياد الخيل =

إنْ مَرَّ بِالْقَوْمِ حَلُّوا عَقْدَ حَبْوَتِهِمْ وَاسْتَشْرَفَتْ نَحْوَهُ الْأَلْبَابُ وَالْمُقَلُ(٢٤)
تَقُودُهُ بِنْتُ خَمْسٍ؛ فَهْوَ يَتْبَعُهَا وَيَسْتَشِيطُ. إذَا هَا هَى بِهِ الرَّجُلُ(٢٥)

=محاسن تسترعى انتباه المولعين بها، وتقيد أنظارهم. وتحتبل (بالبناء للمجهول): تصاد . احتبل الصائد الصيد : نصب له الحبالة : وهى المصيدة ، فصاده بها . أو هى « تحتبل » (بالبناء للمعلوم) : أى تقع فى الحبالة . وفاعله ، أو نائب فاعله ضمير النظرة العجلى .

والمعنى : أن الناظر إلى هذا الجواد لا يكاد يلقى عليه نظرة سريعة خاطفة، حتى تمر بعطفيه ، فتصيدها محاسنهما ، وسائر محاسن جسمه ؛ فلا يملك صاحب تلك النظرة استردادها ، بل يظل شاخص البصر ، رانياً إلى الفرس فى انبهار وإعجاب . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويعززه ، ويؤكده .

(٢٤) فاعل « مر » : ضمير الفرس ، أو الجواد الأشقر ، الموصوف فى هذا البيت ، وسبعة الأبيات قبله ، والبيتين اللذين بعده . وحل العقدة (من باب نصر) : فكها ، ونقضها ، وفتحها . والعقد : مصدر عقد الحبل ونحوه (من باب ضرب) : أى جعل فيه عقدة . وعقد طرفيه : وصل أحدهما بالآخر بعقدة تمسكهما . والعقد : نقيض الحل . والحبوة (بفتح الحاء وضمها) : الاسم من الاحتباء : مصدر احتبى الإنسان بثوب ، أو حبل ، أو نحوهما : أى أداره على ساقيه وظهره ، فجمع بينهما وهو جالس ، ليستند ؛ وذلك لأن الأعراب لم يكن لهم فى باديتهم حيطان أو نحوها يستندون إليها فى مجالسهم ؛ فكان الرجل منهم يقيم ركبتيه فى جلوسه ، ويعقد عليهما يديه ، أو يشدهما إلى ظهره بثوب أو نحوه ، فيستريح فى جلسته ، ويقوم له هذا مقام الاستناد . ويقال : حل فلان حبوته : أى ما يحتبى به من ثوب وغيره : أى قام ونهض . وعقد حبوته : أى جلس ، أو قعد . ثم كنوا بحل الحبوة عن القيام للأمر ، والاهتمام به . واستشرفت : نظرت ، وطمحت ، وارتفعت ، وتطلعت . ونحوه : نحو الجواد : أى جهته . والألباب : العقول ، أو القلوب ، واحدها لب . والمقل : العيون ، واحدتها مقلة (بوزن غرفة) .

فى البيت السابق قال : إن النظرات السريعة العاجلة تتعلق بمحاسن جواده ، وتحتبس فيها . وفى هذا البيت أكد هذا المعنى بقوله : إذا مر بقوم جالسين نهضوا من مجالسهم ، فأقبلوا عليه ، واتجهوا إليه بعيونهم ، وعقولهم ، وقلوبهم معجبين ، منبهرين ، مفتونين .

(٢٥) تقوده : تمشى أمامه آخذة بمقوده ، وهو يتبعها فى يسر وانقياد . وبنت خمس : طفلة بنت خمس سنوات ؛ يريد أنها جمعت بين ضعف الطفولة ، وضعف الأنوثة . ويستشيط : المراد يشتد نشاطه ، وتبدو قوته فى أشد حالاتها ؛ من قولهم استشاط فى الحرب : أى استقتل ، ولم يبال المهالك ، أو يستشيط غضباً ، ويلتهب غيظاً ، ويشتد هياجه . وها هى به : دعاه وناداه . أو زجره ، ونهره .

والمعنى على الأول : أنه كريم أصيل فى السلم والحرب ؛ ففى السلم ينقاد لمن يقوده ولو كان أضعف =

أَمْضِي بِهِ الْهَوْلَ مِقْدَامًا ،وَيَصْحَبُنِي ... مَاضِي الْغِرَارِ إِذَا مَا اسْتَفْحَلَ الْوَهَلُ (٢٦)

يَمُرُّ بِالْهَامِ مَرَّ الْبَرْقِ فِي عَجَلٍ ... وَقْتَ الضِّرَابِ ، وَلَمْ يَعْلَقْ بِهِ بَلَلُ (٢٧)

= الناس. وفى الحرب يستجيب لفارسه إذا حَمَلَ به على الأعداء، فيستقتل معه، ويستميت حتى يدرك النصر، ويبدد الهول. والبيت الآتى يرجح هذا المعنى، ويعززه.

والمعنى على الثانى : أن اللين يطويه ؛ فيخضع للضعيف. والعنف يهيجه ؛ فيثور فى وجه القوى، ويستشيط غضباً إذا زُجِر أو انْتُهِر.

(٢٦) أمضى : أذهب، وأزيل : مضارع أمضيت الشىء : أى أذهبته، وأزلته. أو هو « أمضى » مضارع « مضى » إلى الشىء : أى ذهب إليه. وبه : بهذا الجواد. والهول: المخافة، والفزع، أو الأمر المخيف المفزع الشديد؛ ويراد به هنا : الحرب، وجمعه أهوال؛ وهو منصوب على نزع الخافض؛ والأصل : أمضى بجوادى إلى الهول. أو تعديته هنا على تضمينه معنى فعل متعد، مثل « أقتحم » و « أخوض ». أو « الهول » مفعول لأجله. والمعنى : أذهب بجوادى من أجل ملاقاة الهول. ومقداماً : كثير الإقدام على العدو؛ شجاعاً، جريئاً فى الحروب؛ وهو حال من فاعل « أمضى ». ويصحبنى (من باب سلم) : يصاحبنى، ويرافقنى، ويلازمنى. والماضى : الحاد، البتار، السريع القطع. والغرار (بوزن كتاب) : حد السيف والرمح ونحوهما. والشاعر هنا ينتقل من وصف فرسه إلى وصف سيفه. واستفحل الأمر : تفاقم واشتد، وعَظُمَ. والوَهَل : الخوف، والذُّعْر. والفَزَع.

يعتز بشجاعته وإقدامه، واعتماده على سلاحه وجواده إذا اشتد الفزع، وتفاقم الخطب، وقامت الحرب على ساق؛ وبهذا يستطيع مغالبة الأهوال، وتبديد المخاوف، وكسب النصر.

(٢٧) فاعل « يمر » ضمير مستتر، يعود على « ماضى الغرار » : أى سيفه البتار فى البيت السابق. والهام هنا : رءوس المحاربين من الأعداء، وأجسادهم، الواحدة هامة : وهى الرأس، أو أعلاه، أو وسطه. وتجمع أيضاً على «هامات». وفى عجل : تكرار وتأكيد لمعنى مرور البرق. والضراب: الجلاد، والقتال : مصدر ضاربه : أى غالبه فى الضرب، أو ضرب كل منهما الآخر. ولم يعلق به : لم يعلق بالسيف : أى لم يتصل به، أو لم يصل إليه، أو لم يصبه. والبلل : الندى، والماء؛ ويراد به هنا : دم القتلى، والجرحى من الأعداء.

والمعنى : أنه يفلق بسيفه البتار هامات المحاربين من أعدائه إبان الجلاد والقتال تفليقاً عاجلاً سريعاً، كأنه البرق الخاطف؛ وسيفه لا يكاد يصيب مقتل الرجل حتى يفارقه قبل أن يتفجر منه الدم؛ ليصيب غيره، وهكذا؛ ولهذه السرعة الخاطفة لم يبتل بشىء من دماء المصابين.

والبيت الآتى تكرار وتأكيد لمعنى هذه السرعة الخاطفة المذهلة؛ والغرض الفخر بشجاعته وإقدامه، وسرعة حركاته فى الحروب، ومهارته فى استخدام أسلحة القتال.

تَرَى الرِّجَالَ وُقُوفًا بَعْدَ فَتْكَتِهِ ... بِهِمْ . يُظَنُّونَ أَحْيَاءً وَقَدْ قُتِلُوا(٢٨)

كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ ... تَهْفُو بِهَا الرِّيحُ أَحْيَانًا ،وَتَعْتَدِلُ(٢٩)

لَوْلَا الدِّمَاءُ الَّتِي يُسْقَى بِهَا نَهَلًا ... لَكَادَ مِنْ شِدَّةِ الْلَأْلَاءِ يَشْتَعِلُ(٣٠)

يَفُلُّ مَا بَقِيَتْ فِي الْكَفِّ قَبْضَتُهُ ... كُلَّ الْحَدِيدِ ،وَلَمْ يَثْأَرْ بِهِ فَلَلُ(٣١)

---

(٢٨) وقوفاً : واقفين : جمع واقف. والفتكة : اسم مرة من فتك به (من بابى ضرب ونصر) : أى اغتاله ، أو قتله مجاهرة .

يقول : إن سيفه يفتك بأعدائه فتكاً سريعاً خاطفاً ذريعاً ؛ وهذه السرعة الخاطفة المذهلة يظلون برهة واقفين بعد فتكه بهم ؛ فيخيل إلى من يراهم أنهم أحياء ، وهم فى الحقيقة قتلى : وهو تكرار وتأكيد لمعنى البيت السابق .

(٢٩) كأنه : كأن « ماضى الغرار » : أى سيفه البتار . والشعلة : لهب النار . وقائمة: ظاهرة. و « فى الكف » متعلق بقائمة . وتهفو بها الريح : تحركها ، وتميلها .

يشبه سيفه فى يده – لامعاً ، مشرقاً ، متلألئاً ، مستطيلا ، كثير الحركة ، سريعها – بشعلة من النار قائمة فى كفه ، منتصبة ، ظاهرة ، يحركها الهواء ؛ فتميل وتضطرب ، ويسكن عنها ؛ فتستقيم ، وتعتدل ؛ وهذه صورة دقيقة صحيحة للسيف فى يد مثله وقت الجلاد والضراب .

(٣٠) « لولا » : حرف يدل على امتناع شىء لوجود غيره ، وهى هنا داخلة على جملتين : اسمية ، ففعلية؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى؛ فالاشتعال ممتنع لوجود الدماء التى يسقى بها. ونائب فاعل « يسقى » ضمير السيف ، الموصوف فى هذا البيت ، والبيت الآتى ، وأربعة الأبيات السابقة . ويسقى بها نهلا : يسقى بها سقيا مروياً تاماً : مصدر نهل (من باب فرح) : أى شرب حتى روى . وكاد يفعل كذا : هم به ، وقاربه ، ولم يفعله . ويلاحظ أن هذا الفعل لا يلائم المبالغة المقصودة هنا ؛ إذ المراد : لولا الدماء التى يسقى بها ، ويروى منها « ماضى الغرار : أى سيفه البتار» لا شتعل اشتعالا من شدة لألائه . أما مقاربة الاشتعال فلا تنهض بالمبالغة ؛ ولو وضع «كان» مكان «كاد» لا ستقام له ما يريده . واللألاء : ضوء فيه لمعان واضطراب وحركة . ويشتعل : يتقد ، ويلتهب ، كما تشتعل النار .

وصف سيفه بشدة التألق والتلألؤ ، والبريق واللمعان ، وأشار إلى كثرة ما يسيله من دماء أعدائه المحاربين ، وكثرة قتلاهم وجرحاهم ؛ وقال : إن هذه الدماء الكثيرة الغزيرة المتدفقة تسقيه وترويه ؛ فتخمد حدة تألقه وتلألئه ، ولولاها لا شتعل اشتعالا من شدة لألائه وتوهجه .

(٣١) يفل : يثلم ، ويكسر . (وبابه رد) . وفاعله ضمير « ماضى الغرار » : أى السيف البتار فى البيت السادس والعشرين . ومفعوله «كل الحديد». و « ما »: مصدرية ظرفية : أى يفل مدة=

بَلْ رُبَّ سَارِيَةٍ هَطْلَاءَ دَانِيَــةٍ ... تَنْمُو السَّوَامُ بِهَا ، وَالنَّبْتُ يَكْتَهِلُ (٣٢)

كَأَنَّ آثَارَهَا فِي كُلِّ نَاحِيَــةٍ ... رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ فِي الأَرْضِ ، أَوْ حُلَلُ (٣٣)

= بقائه فى كف صاحبه المقاتل به : وهو الشاعر : أى يفل ما بقيت قبضته فى كفى. وقبضة السيف : مقبضه ، حيث تمسكه كف الضارب به . ويراد بـ « كل الحديد » : الدروع ، والبيضات ، والخوذات ، وسائر الحلق والأسلحة . وثأر بالقتيل (من باب منع) : أخذ بدمه ، وقتل قاتله . ولم يثأر به : لم يثأر بكل الحديد ؛ لأنه هو المفلل المثلم ، المشبه بالقتيل . والفلل : انثلام حد السيف ونحوه : أى تكسر شفرته وتلفها . وهوفاعل « يثأر » : أى ولم يصب هذا السيف شىء من التفلل ، أو التثلم ، أو التكسر ؛ فيكون كالثأر منه للحديد الكثير الذى فلله ، وثلمه ، وأتلفه . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الفعلية بعدها حالية .

يقول : إن سيفه هذا يفل كل ما يصادفه ، أو يقف فى طريقه من أسلحة التوقى والقتال ، ما دام ممسكاً بمقبضه ، ضارباً به ، مجالداً ؛ ويبقى مع هذا كله ، وبعد هذا كله سليما قاطعاً ، لا تتفلل مضاربه ، ولا يكاد يصيبه شىء من الانثلام .

ختم الشاعر بهذا البيت ستة أبيات فى وصف سيفه؛ وانتقل فى الأبيات الآتية إلى وصف يوم من أيام الطرد والصيد .

(٣٢) السارية : السحابة تأتى ليلا : فاعلة من السرى (بوزن الهدى) : وهو سير عامة الليل . وهطلاء : هاطلة : أى : ممطرة ، يهطل مطرها متتابعاً ، متفرقاً ، عظيم القطر . ودانية : قريبة. وتنمو : تزيد ، وتكثر . والسوام ، والسائمة : الماشية والإبل الراعية . سامت الماشية (من باب قال) : أى رعت ، ورتعت ، وأكلت كيف شاءت فى خصب وسعة . وبها : بالسارية الهطلاء : أى بما ينبته مطرها من الكلأ والمرعى . والنبت : النبات . واكتهل النبت : تم طوله ، وظهر نوره .

وصف هذه السحابة الليلية بأنها غزيرة المطر ، عظيمة الفائدة ، قريبة من الأرض ، وأشار إلى بعض آثارها من كثرة المرعى ، واكتهال النبات ، ونماء الماشية .

انتقل الشاعر فى هذا البيت والأبيات التالية إلى وصف يوم من أيام الطرد والصيد ، بعد أن وصف سيفه فى ستة الأبيات السابقة . ويلاحظ أنه لم يمهد لهذا الانتقال ، كما يلاحظ أن الاقتضاب ، والطفرة ، وضعف الروابط بين أغراض القصيدة ، وفنون القول – من صفات الشعر الجاهلى الذى يحاكيه الشاعر هنا ، ويجرى على أسلوبه .

(٣٣) آثارها : آثار السارية الهطلاء فى البيت السابق . وفى كل ناحية : إشارة إلى اتساع هذه الآثار ، وعظمها . والريط : جمع ريطة : وهى الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ، ونسجاً واحداً . وكل ثوب يشبه الملحفة . ومنشرة : منشورة ، مبسوطة ، غير مطوية . اسم مفعول من نشر الثوب ونحوه =

يَمَّمْتُهَا بِرِفَاقٍ إِنْ دَعَوْتُ بِهِمْ لَبُّوْا سِرَاعًا ، وَإِنْ أَنْزِلْ بِهِمْ نَزَلُوا(٣٤)

قَصْدًا إِلَى الصَّيْدِ ، لَا نَبْغِي بِهِ بَدَلًا وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا فِي شَأْنِهَا عَمَلُ(٣٥)

= تنشيراً : أى نشر ، وبسط . وتشديده للكثرة والمبالغة . والحلل : جمع حلة (بوزن قاة وقلل) : وهى الثوب الجيد الجديد ، أو الثوب الساتر لجميع البدن ، أو الثوب ببطانته ، أو ثوبان من جنس واحد ، أو ثلاثة أثواب ، وقد تكون قميصاً ، وإزاراً ، ورداء .

صور بالتشبيه آثار هذه السحابة الممطرة ، أو السارية الهاطلة الدانية ؛ فبها أخذت الأرض زخرفها وازينت — فى مساحة واسعة — بخضرة الكلأ ونضرته ، وأنوار النبات وأزهاره ؛ فكأنها اكتست بالجيد الجديد من الحلل ، والفاخر البهيج من الثياب ، والمطرز الموشى من الرياط ، والملاحف ، والملاءات .

(٣٤) يممتها : يممت آثار هذه السحابة : أى قصدتها ، وأردتها ، واتجهت إليها . ويراد بآثارها : المروج ، والمراعى ، والرياض التى جادتها هذه السارية ، وعمتها بأمطارها . وبرفاق : مع رفاق : أى صحاب : جمع رفقة : وهم جماعة المرافقين : أى المصاحبين . ودعوت بهم : استحضرتهم ، وصحت بهم ، وناديتهم . ولبُّوا : أجابوا ، وأطاعوا . وأصله الإقامة . يقال : لب بالمكان (من باب رد) : أى أقام به ، ولزمه ، ثم توسعوا فى استعماله ؛ كأن من استدعى ، فلب — قال للمستدعى : أنا مقيم على طاعتك ، مستجيب لك . أو هو « لَبَّوْا » . يقال : دعا المرء أخاه ، فلباه تلبية : أى قال له : « لبيك » : وهو مصدر منصوب ، ثنى على معنى التأكيد : أى إجابة لك بعد إجابة ، وإقامة على طاعتك بعد إقامة . وسراعاً : حال من فاعل « لبى » أو « لب » وهو واو الجماعة : أى لبوا مسرعين . ومفرده سريع (بوزن ظريف وظراف) . ونزل (من باب جلس) : هبط من علو إلى سفل . ونزل بالمكان ، ونزل فيه : حل به ، وأقام . و « بهم » : مصاحباً لهم ؛ فالباء هنا للمصاحبة . أو هى للتعدية ؛ لتناسب « إن دعوت بهم لبوا سراعاً » : أى إن ناديتهم أجابونى مسرعين ، وإن أنزلتهم فى مكان نزلوا معى مطيعين .

يقول : إنه قصد إلى المروج التى جادتها هذه السحابة ، ومعه رفقة يتبعونه ، ويسايرونه مطيعين ، مستجيبين سراعاً لنداءاته ودعواته .

وهو بهذا يمهد لوصف يوم من أيام الطرد والصيد ، فى خمسة الأبيات الآتية ؛ ففى المروج والمراعى تكثر الظباء والوحوش ، وما يصاد من حيوان البر .

(٣٥) « قصداً » : حال ، بمعنى « قاصدين » من فاعل « يمم » فى البيت السابق ، أو مفعول لأجله ، أو مفعول مطلق لفعل محذوف : أى قصدنا إلى الصيد قصداً . والصيد : مصدر صاده ، واسم لما يصاد . ولا نبغى : لا نبتغى ، ولا نطلب . والشأن : الأمر والحال .

يقول : إننا عمدنا إلى الصيد ، لا نبتغى غيره ، ولا نطلب بدلا منه ، ولا نريد شيئاً سواه ، ولم نشتغل فى ذلك اليوم إلا به . والشطر الثانى تذييل فى هذا المعنى ، مؤكد له ؛ فكل نفس تعمل للأمر الذى تقصده . أو كل نفس لها عملها فيما يهمها من شئون العيش والحياة .

وَجَاءَ فَارِطُهُمْ يَعْلُو وَيَسْتَفِلُ (٣٦) — حَتَّى إِذَا أَلْمَعَ الرُّوَّادُ مِنْ بَعَدٍ
يَذْهَبْنَ فِي الْأَرْضِ لَوْلَا اللُّجْمُ وَالشُّكُلُ (٣٧) — تَغَاوَتِ الْخَيْلُ ،حَتَّى كِدْنَ مِنْ مَرَحٍ
إِلَّا وَلِلصَّيْدِ فِي سَاحَاتِنَا نُزُلُ (٣٨) — فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ ،أَوْ بَعْضُ ثَانِيَةٍ

(٣٦) « إذا » : ظرف لما يستقبل من الزمان، وفيها معنى الشرط ، وجواب الشرط فى البيت الآتى ، وهو « تغاوت الخيل » . وجملتا الشرط والجزاء : « حتى إذا ألمع الرواد تغاوت الخيل » . وألمع بيده أو بغيرها أشار. والروّاد : جمع الرائد : وهو من يتقدّم القوم ؛ ليبصر لهم الكلأ، ويرود المرعى ، ويكشف مساقط الغيث، ويلتمس النُجْعة؛ وقد يرسل القوم رائدهم فى غيرهذا من الأمور . والروّاد هنا : من أرسلهم الشاعر ورفاقه للبحث عن الصيد : أى عما يستطاع صيده من الظباء وغيرها . ومن بَعَد : من مكان بعيد . أو من بُعْد (بضم فسكون) . وفارطهم : فارط الرواد: أى متقدمهم ، وسابقهم ، ورسولهم الذى أرسلوه إلى الشاعر ورفاقه يبشرهم بما عثروا عليه من الصيد، بعد إلماعهم بهذا من بُعْد . ويعلو ، ويستفل : يرتفع ، ويهبط : أى يجتاز فى عَدْوه ، أو سيره إليهم النجاد والوهاد، ومرتفعات الأرض ، ومنخفضاتها . واستفل يستفل : ضد علا يعلو.

(٣٧) تغاوت (بالغين المعجمة): جواب « إذا » الشرطية فى البيت السابق. ومعناه : تألّبَتْ، وتجمعت، ونَشطَتْ لمطاردة الصيد؛ لأنها أحست إشارة الروّاد، وفطنت لما حمله فارطهم من البشرى . أو هو « تعاوت » (بالعين المهملة) بالمعنى السابق أيضاً . والمرح : فرط النشاط ، وشدّة الفرح. ويذهبن فى الأرض : ينطلقن . واللجم : جمع لجام (بوزن كتاب وكتب) : وهو الحديدة فى فم الفرس . ثم سموها مع مايتصل بها من الحكتين ، والعذارين، والسير — لجاما . والشكل: جمع شكال (بوزن كتاب وكتب): وهو القيد ، وحبل تشدّ به قوائم الدّابة ، ووثاق بين يد الدابة ورجلها كالقيد .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الرواد أشاروا من بعُد للشاعر وأصحابه بالعثور على الصيد، وأرسلوا فارطهم يطوى الأرض مبشراً ، مؤكداً إشارتهم؛ فاشتد لهذا مرح الخيل، وتجمّعتْ، ونَشطَت للطراد، وكثرت حركاتها ؛ ولولا قيودها وألجمتها لانطلقت فى الأرض، وسبقت أصحابها إلى الطرَد والصيد ؛ فإنها مدرّبة عليهما ، متمرّسة بهما ، ماهرة فيهما .

(٣٨) الساعة : جزء من أجزاء الوقت، والحين وإن قلّ، وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من الليل والنهار : أى ستون دقيقة ؛ ويبدو أن هذا المعنى هو المراد هنا . و« أو »: حرف عطف ، وهى هنا بمعنى « الواو » ، وتفيد مطلق الجمع. وبعض ثانية : أى وبعض ساعة ثانية : يريد أن أعمال الطرد والصيد لم تستغرق من الوقت غير ساعة واحدة ، وجزء من ساعة أخرى. وإذا كانت « أو» هنا مفيدة للشكّ ، كما فى قول الله تبارك وتعالى: « قالوا : لبثنا يوماً ، أو بعض يوم » الآية رقم ١٩ من سورة الكهف — كان =

فَكَانَ يَوْمًا قَضَيْنَا فِيهِ لَذَّتَنَا كَمَا اشْتَهَيْنَا ؛ فَلَا غِشٌّ ، وَلَا دَغَلُ(٣٩)
هٰذَا هُوَ الْعَيْشُ ، لَا لَغْوُ الْحَدِيثِ ، وَلَا مَا يَسْتَغِيرُ بِهِ ذُو الْإِفْكَةِ النَّمِلُ(٤٠)

= المعنى: أن أعمال الطرد والصيد استغرقت من الوقت ساعة ؛ أو بعض ساعة ؛ فهم غير متثبّتين فى تقدير وقت الطّرد ، وقد قدّروه على وجه الشكّ والظنّ والتخمين ، لا على الاستيثاق والتثبت واليقين . ويراد بالصيد هنا : ما صادوه . والساحات : جمع ساحة : وهى المكان الواسع ، وفضاء بين الدور ، لابناء فيه ، ولاسقف له. والنزل (بضمتين ، أوبفتحتين ، أو بفتح فكسر) : المنزل ، أو المكان يُنْزَل فيه. ومعنى البيت على هذ : أننا على إثر ما بشّرنا به فارطنا ، سارعنا بخيلنا إلى الطّرد ، فما هى إلاّ برهة يسيرة ، حتى كانت ساحاتنا مستقراً لما ظفرنا به من الصّيد النافر . والنزل (بضمتين، أو بضم فسكون) : طعام يهيّأ للنزيل : أى الضيف . والمعنى على هذا : أننا أعددنا فى ساحاتنا للصيد الذى صدناه ما يحتاج إليه من الطعام والشراب . والنزل (بضمتين ، أو بضم فسكون ، أو بفتحتين ، أو بفتح فكسر) : الطعام الكثير ، الزاكى النامى ، ذو الخير والبركة ؛ أو نماء الطعام ، وزكاؤه ، وزيادته ، وبركته ، وكثرة ريعه. واللام فى « للصيد » : بمعنى « من » . والمعنى على هذا : أننا جعلنا مما صدناه قِرًى لمن ينزل بنا . أو : وكان لنا مما صدناه طعام زاك نام ، كثير الخير والفائدة .

(٣٩) فكان يوماً . . . يريد يوم الطّرد والصيد الذى وصفه فى هذا البيت ، وأربعة الأبيات السابقة . وقضى وطَرَه أو حاجته: بلغها ، ونالها . وقضى لذته : أتمها ، وبلغ غايتها . واشتهى الشىء : اشتدّت رغبته فيه ، وتمناه . والدغَل : الفساد ، والريبة . وعيب فى الأمر يفسده .

ينوّه بيوم الطّرد والصيد ، واجتماعه فيه برفاقه على الإخلاص والصفاء والنقاء ، وصدق الوداد ، وحسن التعاون ؛ وبهذا قَضَوا فى ذلك اليوم وطرهم ، وبلغوا غاية ما تمنّوه واشتهته نفوسهم من المتعة واللذّة .

(٤٠) هذا : إشارة إلى يوم الطرد والصيد ، وما كان لهم فيه من متعة ولذة ، وصفاء ، ورخاء بال . والعيش : المعيشة ، والحياة . والحديث : كل ما يُتَحَدَّث به من كلام وخبر . ولغو الحديث : سَقَطه ، وما لا يُعْتَد به منه ، وما لا خير فيه ، ولا فائدة . ويستغير : يغير ، ويهجُم ، ويعتدى . والأفكة (بكسر الهمزة وفتحها) : الكذب ، والخداع . وذو الإفكة : الكذاب المخادع . والنمل : النمام . والنميلة : النميمة ، والوشاية ، والتوريش ، والتحريش ، والإغراء ، وتزيين الكلام بالكذب ، والسعى بالفساد بين الناس .

يشير إلى يوم الطرد والصيد الذى صاحب فيه جماعة من إخوان الصفاء ؛ فقَضَوا فيه وطَرهم ، وحقّقوا مآربهم ، فى مرح ولذة ، ومتعة ، وعفة قلب ولسان ، وصدق وداد ، ورخاء بال ، وهناءة حال . =

إِنَّ النَّمِيمَةَ وَالْأَفْوَاهُ تُضْرِمُهَا نَارٌ مُحَرِّقَةٌ لَيْسَتْ لَهَا شُعَلُ(٤١)
فَاتْبَعْ هَوَاكَ، وَدَعْ مَايُسْتَرَابُ بِهِ فَأَكْثَرُ النَّاسِ-إِنْ جَرَّبْتَهُمْ-هَمَلُ(٤٢)

= ويقول : إن هذه هي الحياة الطيّبة الممتعة ، الهنيئة المحمودة ؛ وليست الحياة في مجالسة ذوي الإفك والكذب والنميمة ، ومصاحبة الواشين ، المخادعين ، الساعين بين الناس بالفساد ؛ وليست في تضييع الوقت في لغو الكلام وسقطه وباطله ، ومالا خير فيه ، ولا فائدة منه .

وهذا كلّه توطئة وتمهيد للانتقال من وصف يوم الصيد إلى تسعة أبيات أجراها مجرى الحكم والأمثال، وضمّنها بعض نصائحه وإرشاداته .

(٤١) النميمة : اسم من نم الحديث (من بابي قتل وضرب) : أي سعى به ليوقع فتنة ، أو وحشة . أو أظهره بالوشاية ، ورفعه على وجه الإشاعة والإفساد . ونمّ بين الناس: ورّش، وأغرى . ونم الكلام : زيّنه بالكذب . والأفواه: جمع الفوه : وهو الفم . ويراد بالأفواه هنا : الألسنة . وتُضرمها: تُوقدها، وتُلهبها ، وتُشعلها : أي تُضرم النميمة، على تشبيهها بالنار . وجملة: « والأفواه تضرمها » : حال من النميمة . ومحرّقة : اسم فاعل من التحريق؛ وتشديد الراء للدلالة على الكثرة . والشعل: جمع شعلة (بوزن غرفة وغُرف) : وهي لهب النار ، وما أشعلتها به من الحطب ونحوه . وليست لها شعل : كناية عن خفاء هذه النار ، واستتارها ، على الرغم من أنها فظيعة التحريق ، شديدة الإتلاف والتمزيق ، ويلاحظ أن أصل النميمة في اللغة : الهمس ، والحركة الخفيفة الخفية .

في البيت السابق استقبح استغارة النمّام الأفّاك، واستشنع إفكه ونميمته، وأخرجه من عداد ذوي الحياة الطيبة الكريمة ، النقية المحمودة . وفي هذا البيت شبه النميمة يوقدها لسان النمّام — بالنار الشديدة الحامية الخفيّة، تُحرق المودّة بين المنقول عنه والمنقول إليه ، وتفسد أحوال الناس، وتمزّق الأواصر ، وتقطع الصلات ، وتوقظ الفتنة ، وتبعث الخصومات والعداوات .

(٤٢) الهوى : مصدر هويه يهواه (كرضيه يرضاه) : أي أحبّه ، واشتهاه ، وجمعه أهواء . والهوى: الشيء الذي تهواه . ودع : اترك ، واجتنب. واستراب به: رأى منه،ما يكرهه، ويريبه: أي يجعله شاكاً غير مستيقن . أو يرميه بالريبة: وهي الظن ، والشك ، والتهمة . وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . ودع ما يستراب به : اجتنب الأمور التي يراها الناس ، أو تراها أنت مدعاة للظنة، والشك ، والتهمة: أي الاتهام . والهمل : المهمل ، المتروك ليلا ونهاراً بلا رعاية ، ولا عناية .

والمعنى : استجب لأهوائك ، واتبع ميول نفسك ، وحقّق لها رغباتها ما دامت سليمة مستقيمة ، وما دمت بعيداً عن الريب والشكوك، والتهم والشبهات، مجتنباً كل ما يشينك ويعيبك ، ويُسيء ظنّ الناس بك ؛ فإذا التزمت هذا المنهج ، فلا تكترث لنقد الناس ، ولا تباله ؛ فإن أكثرهم — مع التجربة — همل لا يؤبه له ، ولا يعتد به ، ولا يعول عليه .

وَاحْذَرْ عَدُوَّكَ تَسْلَمْ مِنْ خَدِيعَتِهِ ... إِنَّ الْعَدَاوَةَ جُرْحٌ لَيْسَ يَنْدَمِلُ(٤٣)

وَعَالِجِ السِّرَّ بِالْكِتْمَانِ تَحْمَدُهُ ... فَرُبَّمَا كَانَ فِى إِفْشَائِهِ الزَّلَلُ(٤٤)

وَلَا تَكُنْ مُسْرِفًا غِرًّا، وَلَا بَخِلًا ... فَبِئْسَتِ الْخَلَّةُ: الْإِسْرَافُ وَالْبَخَلُ(٤٥)

---

(٤٣) الخديعة : اسم من خدعه (من باب قطع) : أى ختله ، وغرّر به ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به السوء والمكروه من حيث لا يدرى . ويندمل : يلتئم ، ويتماثل ، ويبرأ .

يدعو إلى الاحتراز من العدو ، والإقامة على توقّيه ؛ وبهذا يسلم المحترز من شر أعدائه ومكرهم ، وختْلهم ، وخديعتهم .

والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشطر الأول ؛ وفيه زيادة تحضيض على الحذر ، والتوقى ، والاحتراس ؛ فإن عداوة العدو داء عياء ، لا دواء له ، وجرح دام لا يرجى برؤه ، أو اندماله والتئامه؛ والعداوة — قطعاً — تنتج الشر والأذى ، وتدعو إلى الختل والخديعة ، وتغرى بالكيد والمكر السيئ ، والتربص بالمعادى ، و إضمار الحقد والعدوان .

(٤٤) عالج الشىء معالجة وعلاجاً : زاوله ومارسه ، وعالج المريض: داواه ، ويراد بعلاج السر بالكتمان : المحافظة عليه ، وصيانته ووقايته ؛ لأن إفشاءه ، أو التفريط فى كتمانه ، والتهاون بإخفائه يذهب بقيمته ، ويضيع فائدته ، ويجعله مصدر شرّ وأذى ، وسبب آفات وأضرار . وتحمده : مضارع حمده (كفهمه) . أو تُحْمِده : مضارع أحمده إحماداً: أى تجده محموداً ، وترضى عنه ، وترتاح له: أى تجد الكتمان محموداً ، أو تجد السر محمود العاقبة بالكتمان ؛ وذلك لأن السر لا يرجى خيره إلا بكتمانه ، والمبالغة فى ستره وإخفائه ؛ ويلاحظ أن الفعل « تحمد » مرفوع ؛ وحقه أن يجزم جرياً على الكثير الغالب ، واللغة العالية الفصيحة ؛ لأنه واقع فى جواب الأمر ، وهو « عالج » . ويجوز أن نعرب جملة « تحمده » حالا من فاعل « عالج » : أى عالج السر بالكتمان وأنت تحمده . أو حامداً له ؛ وبهذا الإعراب يجرى الكلام على الفصحى ، ويستقيم على الطريقة المثلى . و « ربّ » : حرف جرّ ، معناه هنا التكثير . وقد اتصلت به « ما » الزائدة ، فكفّته عن جرّ ما بعده ، وهيأته للدخول على الجمل الفعلية . والزلل : السقوط والضرر .

والمعنى : أن السر لا قيمة له ، ولا فائدة منه ؛ ولا تحمد عاقبته إلا إذا حوفظ عليه ، وبولغ فى صيانته ووقايته ، بإخفائه وكتمانه ؛ أما التفريط فيه ، أو التهاون به ، فإنه يجلب الندم والضرر ، والأذى والزلل ، وسوء العواقب ، وشرّ المغبات .

(٤٥) أسرف إسرافاً : جاوز القصد . وأسرف فى ماله : بذره تبذيراً ، وأنفقه فيما لا ينبغى . والمسرف : اسم فاعل منه . والغر : من يجهل الأمور ، ويغفل عنها ، وينخدع إذا خُدع ؛ لقلة =

وَلا يَهُمَّنْكَ بَعْضُ الْأَمْرِ تَسْأَمُهُ لا يَنْتَهِي الشُّغْلُ حَتَّى يَنْتَهِي الْأَجَلُ (٤٦)
وَاعْرِفْ مَوَاضِعَ مَا تَأْتِيهِ مِنْ عَمَلٍ فَلَيْسَ فِي كُلِّ حِينٍ يَحْسُنُ الْعَمَلُ (٤٧)

= تجربته، وعدم فطنته؛ وقد جعله الشاعر صفة للمسرف ؛ كأن الإسراف فى المال من الغرارة ، والغفلة ، وقلّة الفطنة ، ونقص التجربة . وبخل (من أبواب تعب ، وقرب ، وفهم) ، فهو بخل (بوزن شره) . أو بخل (بفتحتين) : وصف بالمصدر . والخلة : الخصلة (بفتح فسكون فيهما) : وهى خلق فى الإنسان، يكون فضيلة ، أو رذيلة . يقال : فيه خلة حسنة ، وخلة سيئة . وجمعها خلال . وتفصيل الكلام هنا : فبئست الخلة الإسراف والتبذير ومجاوزة القصد فى الإنفاق ؛ وبئست الخلّة البخل والشح والتقتير والحرص الممقوت .

يدعو إلى فضيلة القصد والاعتدال ، ويذم رذيلتى البخل والإسراف ، وينهى عنهما ، وعما يلابس الإسراف من الغرارة والجهل ، والغفلة والانخداع .

(٤٦) لا يهمنك : لا يحزننك . همه الأمر (من باب ردّ) ، وأهمّه : أقلقه ، وحزنه، وأزعجه ، وأثار اهتمامه واغتمامه . والأمر : الحال ، والشأن . وجمعه أمور . والأمر : الطلب ، أو الشيء المأمور به ، وجمعه أوامر. وأمرته بكذا : إذا فرضته عليه ، وكلفته أن يفعله . وسئمه (من باب تعب) : ملّه ، وضجر منه ، وتبرم به . وانتهى الشيء : بلغ نهايته وغايته ومداه . والشغل (بضم فسكون): ضدّ الفراغ ؛ ويطلق على العمل، وعلى ما يعمل . أو هو بفتح الشين وسكون الغين : مصدر شغله بكذا (من باب نفع) : أى جعله مشغولا به . وشغله الأمر كذلك . والأجل : المدّة المضروبة لحياة المرء . وجاء أجله: حان موته . وجمعه آجال .

ومعنى البيت : إذا مارست أمراً من أمور الحياة ، أو أوامرها ؛ فأهمك بعضه وحزنك وأضجرك ؛ فلا تبتئس ، ولا تيئس ، واطرد الملل والسآمة والضجر ، واستعن عليه بالصبر والرفق والأناة ، وعالجه بالجدّ والدأب والمعاناة ؛ حتى ينطاع لك ، وتتغلب عليه .

والشطر الثانى تذييل يؤكد هذا المعنى ويعززه ؛ فالحياة الدنيا كلها عمل ونصب وجهاد ؛ والإنسان إنما خلق فيها ليجد ويعمل ويدأب ما دام حياً ، ولا ينتهى عمله فيها إلا بانتهاء حياته .

(٤٧) مواضع : أماكن : جمع موضع (بوزنى مسجد ، ومذهب) . وأتى الأمر يأتيه (من باب رمى) : فعله . والحين : الوقت ، وجمعه أحيان .

ومعنى الشطر الأول : أن نجاح الأعمال وإحسانها يتطلب تنظيمها وترتيبها فيما يلائمها ويناسبها من الأزمنة والأمكنة ؛ فإذا أحسن المرء تقسيم أعماله وأوقاته ، وعرف كيف يتخير لكل عمل موضعه من وقته — نجحت أعماله ، واستيسرت له أموره ، وأعانته هذه المعرفة ، وهذا التقسيم والتنظيم على الإحسان والإتقان . =

فَالرَّيْثُ يُحْمَدُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ، كَمَا　　فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ يُسْتَحْسَنُ الْعَجَلُ(٤٨)

هَذَا هُوَ الْأَدَبُ الْمَأْثُورُ ، فَارْضَ بِهِ　　عِلْمًا لِنَفْسِكَ ؛ فَالْأَخْلَاقُ تَنْتَقِلُ(٤٩)

= والشطر الثانى تذييل فى هذا المعنى ؛ فالعمل يحسن ، ويجود ، ويسهل إذا عمل فيما يناسبه من الوقت . وعلى العكس يسوء ؛ ويقبح ، ويصعب ، ويتعثر إذا وقع فى زمن لا يلائمه .

(٤٨) الريث : الإبطاء: مصدر راث (من باب باع). وضده العجل . ومثله العجلة ، (وفعله من باب طرب) وفى مثل : « رب عجلة أعقبت ريثا » . والامور : الاحوال ، والشئون ، واحدها أمر .

يدعو إلى مراعاة ما يتطلبه كل أمر من الريث ، أو العجلة ؛ فنى بعض الأحوال يستحسن التأنى ، ويطلب ، فتحمد عواقبه . وقد تتطلب الحال العجلة ، فتنتج النجح والسلامة . وفى البيت السابق دعا إلى حسن تنظيم الأعمال فيما يناسبها من الأزمنة والأمكنة ؛ ومما يتصل بهذا التنظيم ويلائمه ، مراعاة ما تتطلبه الأمور من الريث ، أو العجلة ؛ وهو ما دعا إليه فى هذا البيت الذى أخذه من البيتين الآتيين :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته　　وقد يكون مع المستعجل الزلل

وربما ضر بعض الناس بطؤهم　　وكان خيراً لهم لو أنهم عجلوا

(٤٩) هذا : يشير إلى ما حض عليه ، ودعا إليه فى تسعة الأبيات السابقة من الفضائل والمحامد ، وما نفر منه ، ونهى عنه من الرذائل والمقابح . والأدب : رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغى من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الخصال . والمأثور : المنقول ، ينقله الخلف عن السلف . وأثر الحديث عن غيره (من بابى نصر ، وضرب) : نقله ، وذكره ، ورواه . والعلم : المعرفة . وعلماً لنفسك : علماً يروض نفسك ، ويؤدبها ، ويهذبها ، ويمهد لها طرق الخير والسعادة. والأخلاق : جمع خلق (بضمتين ، أو بضم فسكون) : وهو السجية ، والغريزة ، والطبيعة ، والعادة ، أو هو حال للنفس راسخة ، تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية . وانتقال الأخلاق – بالمعانى المتقدمة – يكون بالقدوة ، والتوجيه ، والدعاية ، والتعليم ، ورواية المأثور من الحكم والأمثال ، والإفادة من الوصايا والمواعظ ، والإقبال على الأدب الرفيع العالى شعره ونثره .

ينوه بما تضمنته الأبيات التسعة الماضية من نصح وإرشاد ، ومثل وحكمة ، وتنبيه وتوجيه ، وترغيب وترهيب تناول بعض الفضائل والرذائل .

ويقول : إن هذا هو الأدب الذى ينبغى أن يؤثر ويروى ، ويتناقله الناس راضين مغتبطين ، يعرفونه =

مِنْ كُلِّ بَيْتٍ إِذَا الْإِنْشَادُ سَيَّرَهُ فَلَيْسَ يَمْنَعُهُ سَهْلٌ، وَلا جَبَلُ (٥٠)

لَمْ تُبْنَ قَافِيَــةٌ فِيهِ عَلَى خَلَلٍ كَلَّا، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي رَصْفِهَا الْجُمَلُ (٥١)

= ويتعلّمونه ، ويؤدبون به أنفسهم ، ويأخذونها باستقامة السلوك ، ومكارم الأخلاق ؛ ولا غرو ؛ فإن الأخلاق تنتقل بالقدوة والتوجيه ، والتعليم والترغيب .

والشاعر فى هذا البيت وفى خمسة الأبيات الآتية إلى نهاية هذه القصيدة — ينتقل من الحكمة والنصح والإرشاد إلى الفخر بأدبه وشعره .

(٥٠) « من » : بيانية . و « كل بيت » : بيان لأدبه الذى نوه به فى البيت السابق : يريد تسعة الأبيات التى وردت قبله ، وجرت مجرى الحكم والأمثال . وقد يقصد التعميم ، ويعنى كل بيت من أبيات هذه اللامية المطولة ، أو كل بيت فى ديوان شعره الذى لا يفتأ يبتهى به ، ويفخر فى غير سرف أو مغالاة . والإنشاد : مصدر أنشد شعراً : أى قرأه ، رافعاً به صوته . وسيره : أساره ، وأذاعه : أى جعله سائراً منشوراً ذائعاً بين الناس . ويمنعه : يكفه ، ويصده ، ويعوقه ، ويقفه. والسهل : ما انبسط من الأرض : وهو خلاف الحزن ، والهضبة ، والجبل . وجمعه سهول .

يفتخر بأن شعره كله ذائع شائع فى كل مكان ، وعلى كل لسان ، تجرى به الرواية والإنشاد ، ولا يكاد يعوقه شىء .

(٥١) بنى الشاعر القافية أو القصيدة : أقامها ، وأحكم نظمها ، وأجاد إنشاءها ، وأحسن تأليفها : مستعار من المعنى الأصلى للبناء ، أو البنيان . والقافية من قوافى الشعر : آخر كلمة فى البيت . وفى علم القوافى : من آخر حرف ساكن فى البيت إلى أول حرف متحرك ، قبل ساكن بينهما . وبتعبير آخر : هى الحروف التى تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين فى آخر البيت ؛ فقافية هذا البيت مثلا : « ها الجمل » ؛ لأن الواو الناشئة من إشباع ضمة اللام فى آخر البيت — هى آخر حرف ساكن فيه ، والهاء أول حرف متحرك قبل لام « ال » ، وهى الحرف الساكن الذى بينهما . وبيت زهير بن أبى سُلْمَى :

ومن يك ذا فضل ، فيبخل بفضله على قومه — يستغن عنه ، ويذمم

قافيته كلمة : « يذمم » . ويلاحظ أن كسرة الميم الأخيرة مشبعة ، تلد بعدها ياء ساكنة . وفيه : فى البيت . والخلل : وهن ، وضعف ، وفساد . وخلل القافية : عيوبها ؛ ومن هذه العيوب : « السناد » (بوزن كتاب) ، وسيأتى تفسيره فى البيت الآتى . و « كلّا » : حرف يفيد الردع والزجر . ورَدَعه ، وزَجَره : كفه ، ومنعه ، ونهاه بشدة وصرامة ؛ كأن الشاعر يؤكد نفى الوهن ، أو الضعف ، أو الفساد فى بناء قوافيه ، ويؤكد سلامة هذه القوافى من كل العيوب بردع من يفرض فيها ، أو فى شىء منها الخلل ، أو يظنه ، أو =

فَلاَ سِنَادٌ ، وَلا حَشْوٌ ، وَلاَ قَلَقٌ   وَلا سُقُوطٌ ،وَلاَ سَهْوٌ ، وَلاعِلَلُ(٥٢)

= يتوهمه . وتأتى « كلا » بمعنى « حقاً » ، وهو من المعانى المناسبة هنا ؛ إذ يؤكد معنى الشطر الأول ، وهو نفى العيوب ، وتقرير السلامة والإتقان . والرصف : مصدر رصف الحجارة ونحوها فى البناء (من باب قصر) : أى رصها ، وضم بعضها إلى بعض فى نظام ، واتساق ، وإحكام . ومن المجاز : كلام رصيف : أى رصين ، محكم النظم ، جيد التأليف ، جميل التنسيق . واختلاف الرصف : معناه اختلال البنيان . ومعنى « لم تختلف الجمل فى رصفها » : أن الجمل فى هذا الشعر متلاحقة ، متسقة ، منتظمة ، منسجمة ، تجرى على نمط متقارب .

والمعنى : أن قوافيه كلها سليمة البناء ، مبرأة من العيوب . وجمله كذلك : لا يعيبها اختلاف ، أو تنافر ؛ بل يزينها الاتساق ، والانسجام ، وإتقان النسج ، وحسن التأليف .

(٥٢) السناد فى القافية : اختلاف ما يراعى قبل الروى من الحروف ، والحركات ؛ وهو من عيوب الشعر ؛ وتوضيح هذا : أن من حروف القافية الروى : وهو حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه ؛ فهذه القصيدة — مثلا — لامية : أى رويها اللام . ومن حروف القافية أيضاً : الردف (بكسر فسكون) : وهو حرف ساكن من حروف المد واللين ، يقع قبل حرف الروى ، متصلا به ، كالواو والياء فى قول امرئ القيس الكندى :

أجارتنا ، إن الخطوب تنوب   وإنى مقيم ما أقام عسيب

فهذا بيت مصرع ، رويه الباء ، وردفه فى المصراع الأول الواو فى « تنوب » ، وفى المصراع الثانى الياء فى « عسيب » . والسناد (بوزن كتاب) : أحد عيوب القافية ، وهو أنواع ، منها سناد الردف ، ومعناه : أن يأتى الشاعر بحرف الردف فى بيت ، ويتركه فى بيت آخر من قصيدته ، كقول القائل :

إذا كنت فى حاجة مرسلا   فأرسل لبيبا ، ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى   فشاور حكيماً ، ولا تعصه

فالشاعر أتى بالردف فى البيت الأول : وهو الواو التى قبل الصاد فى « توصه » ، ولم يأت به فى البيت الثانى . والحشو : زيادة فى الكلام ، لا قيمة لها ، ولا فائدة منها . والقلق : الاضطراب ، وعدم الاستقرار . وكلام قلق : مضطرب ، فاسد ، غير فصيح ، ولا بليغ ، ولا واضح الدلالة . وقافية قلقة : نابية ، متجافية ، غير مستقرة فى مكانها ، ولا ملائمة ، يأباها ذوق الأديب . والسقوط : مصدر سقط (من باب قعد) فى الكلام : أى زل ، وأخطأ . والسهو : مصدر سها عن الشىء (من بابى عدا ، وسما) : أى غفل عنه ، وذهب قلبه إلى غيره . ويراد بالسهو هنا : العيوب التى تقع فى الكلام والشعر بسبب سهو المتكلم والشاعر ، أو غفلته ، أو قلة فطنته ، أو اضطراب تفكيره ، وتشتت ذهنه . والعلل : جمع علة : =

تَغَايَرَتْ فِيهِ أَسْمَاعٌ وَأَفْئِـدَةٌ فَكُلُّ نَادٍ «عُكَاظٌ» حِينَ يُرْتَجَلُ(٥٣)

=ويراد بها التغير الذى يلحق بعض أجزاء الشعر ؛ فينقص جمال وزنه ، وروعة موسيقاه .

أشار إلى ستة من عيوب الكلام : نظمه ، ونثره ؛ ونفى عن شعره كل ما يشينه ويعيبه فى نسجه وتأليفه ، ووزنه وموسيقاه ، ومعناه ومغزاه .

(٥٣) تغايرت : اختلفت : بمعنى ترددت : أى رجعت مرة بعد أخرى . وفيه : إليه ؛ ف « فى » هنا : بمعنى « إلى » : أى تغايرت أسماع وأفئدة إلى هذا الشعر الرائق الفائق ، المعجب المطرب . وقد يكون التغاير هنا : بمعنى الاختلاف والاختصام ؛ وكأن البارودى ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ، ويختصم

والمعنى : أن الناس يختلفون فى تعرّف هذا الشعر ونقده ، ويختصمون فى دراسته وتفهمه ؛ فهو مادة غزيرة فياضة ، ومجال واسع فسيح لاختلاف النظرات والدراسات .

أو لعل هذه الكلمة محرفة فى أصل الديوان عن « تغاورت » : بمعنى تناحرت ، وتخاصمت ، وتشاحت . يقال : تشاحّ الناس فى كذا ، أو عليه : إذا شح به بعضهم على بعض ، وحرصوا عليه ، وتسابقوا إليه ، وتنافسوا فيه . والنادى : مجلس القوم ما داموا مجتمعين فيه ، وجمعه أندية . وتعاكظوا : تناشدوا الأشعار ، وتفاخروا ، وتجادلوا وتبايعوا . ومنه « عكاظ » (يذكر ، ويؤنث) : وهو أشهر أسواق العرب فى جاهليتهم . وكان يقام عشرين يوماً كل عام ، فى شوال ، أو ذى القعدة ، بين «نخلة» و «الطائف» ، على بعد ثلاث ليال من مكة ، وفيه تجتمع قبائل العرب للتعاكظ . ويرتجل : المراد : يلقى ، وينشد ، ونائب فاعله : ضمير مستتر يعود على « كل بيت » فى البيت الخمسين . والارتجال (فى الأصل) : ابتداع الكلام بلا روية . يقال : ارتجل الخطيب خطبته والشاعر قصيدته : إذا ابتدرها من غير تهيئة ، أو إعداد .

يفتخر بأن شعره قد جمع من المزايا والخصائص ما جعله شديد التأثير فى عواطف الناس ، وعقولهم ، وأسماعهم ، وقلوبهم ؛ فهى تتسابق إليه ، وتتنافس فى روايته وحفظه ، وتختلف فى دراسته ونقده ، وتضن به ، وتحرص عليه .

وإذا تناشده المتناشدون فى أندية الأدب ، ومعاهده — رأيت كل ناد منها شبيهاً بسوق «عكاظ» . ولا غرو ؛ فهذه القصيدة وكثير من شعر البارودى يضاهى شعر الفحول من شعراء العصر الجاهلى فى جزالة لفظه ، ورصانة تأليفه ، واستحكام نسجه ، وقوة جرسه ، وجريانه على السليقة والطبيعة .

لاَ تُنْكِرُ الْكَاعِبُ الْحَسْنَاءُ مَنْطِقَهُ   وَلا يُعَادُ عَلى قَوْمٍ . فَيُبْتَذَلُ (٥٤)

(٥٤) نكر الأمر (من باب فرح) ، وأنكره إنكاراً : جهله ، ولم يعرفه . وأنكر عليه فعله ، أو قوله : عابه ، واستهجنه ، ونهاه عنه. والكاعب : الناهد : وهى الفتاة التى كعب ثديها : أى نهد ، وانتبر ، ونتأ ، وارتفع ، وبرز ، وظهر ، والجمع كواعب . والمنطق : الكلام ، ومصدر نطق : أى تكلم . و « منطقه » : منطق أدبه المأثور الذى نوه به فى البيت التاسع والأربعين . أو منطق كل بيت من أبيات شعره . ويراد بمنطق الشعر : جرسه ، ووقعه ، وتأثيره ، وحسن بيانه ، وجمال موسيقاه . ويعاد : يكرر : من الإعادة : وهى التكرار . ويبتذل : يمتهن : من ابتذال الثوب ونحوه : أى امتهانه : والاستهانة به ، وعدم صيانته. وجملة « يبتذل » : خبر لمبتدإ محذوف ، والتقدير : فهو يبتذل . والفاء هنا : للاستئناف ، كما فى قول الله تبارك وتعالى : « ولا يؤذن لهم ، فيعتذرون » . الآية رقم ٣٦ من سورة المرسلات .

والمعنى : أن الكواعب الحسان يعرفن شعره ، ويقدرنه . أو أنه إذا أنشد للناهد الحسناء لم تجهل جرسه ووقعه ، وحسن بيانه ، وجمال موسيقاه . أو أنها لا تستهجن منه شيئاً ؛ إذ ليس فيه ما يخجل الغانيات ، أو يندى له جبين الحياء ؛ وإنه ليعاد ، ويردد ، ويكرر ؛ فتبقى له — مع الإعادة ، والترديد ، والتكرار — قيمته ، ونفاسته ، وروعته .

ختم الشاعر هذه القصيدة بستة أبيات نظمها فى الفخر بشعره ، والتنويه بمزاياه ، وسلامته من العيوب والمشاين ، وتعلق الأسماع والقلوب به ، واشتماله على ما يهذب النفوس ، ويبنى مكارم الأخلاق ؛ وسيرورته وذيوعه وانتشاره فى كل مكان ، وعلى كل لسان ، وتنافس الناس فى روايته وحفظه وإنشاده والتغنى به ، وارتياح الكواعب الحسان لجرسه ووقعه وموسيقاه ، واحتفاظه بقيمته ونفاسته مع الإعادة والتكرار .

تلخيص وتعليق

افتتح الشاعر هذه القصيدة بالغزل ، وبيان أثر الحب فى نفسه ، وشكوى البين والفراق ، والتمدح بالوفاء لأحبائه ، وإظهار التبرم بعاذليه ؛ فاستغرق فى هذا الغرض خمسة عشر بيتاً . ومنه انتقل إلى الفخر بإقدامه وشجاعته فى الحروب ، ووصف جواده ، وسيفه فى ستة عشر بيتاً . وبلا توطئة أو تمهيد انتقل من هذا إلى وصف سحابة ممطرة ، ويوم ممتع من أيام الطَّرد والصيد فى تسعة أبيات ؛ وكأنه أبى إلا محاكاة الشعر الجاهلى فى كل خصائصه وهنواته ، ومنها الاقتضاب والطفرة ، وضعف الروابط والصلات بين أغراض القصيدة ، وفنون الكلام . وبعد هذا أورد ثمانية أبيات فى الحكمة والنصح ، ثم ختم القصيدة بستة أبيات فى الفخر بأدبه وشعره .

. فهذه أربعة وخمسون بيتاً سلك فيها مسلك الفحول من قدامى الشعراء فى جزالة اللفظ وصلابته ، واستحكام التأليف ورصانته ، وجريان القول على السليقة والطبيعة ، وحاكاهم فى أغراضهم ، ومعانيهم ، وأخيلتهم ، وتشبيهاتهم ؛ وعرض ما اقتضاه الحال من صور البيئة البدوية الصحراوية ، ومظاهر الحياة والأحياء فى تلك الصحارى والقفار .

وَقَالَ يَصِفُ أَيَّامَ الرَّبِيعِ :

عَمَّ الْحَيَا ، وَاسْتَنَّتِ الْجَدَاوِلُ وَفَاضَتِ الْغُدْرَانُ وَالْمَنَاهِلُ (١)

وَازَّيَّنَتْ بِنَوْرِهَا الْخَمَائِلُ وَغَرَّدَتْ فِي أَيْكِهَا الْبَلَابِلُ (٢)

وَشَمِلَ الْبِقَاعَ خَيْرٌ شَامِلُ فَصَفْحَةُ الْأَرْضِ نَبَاتٌ خَائِلُ (٣)

وَجَبْهَةُ الْجَوِّ غَمَامٌ حَافِلُ وَبَيْنَ هَذَيْنِ نَسِيمٌ جَائِلُ (٤)

---

(١) الحيا : المطر . واستنّت : انصبت ، وجرت . والجداول : الترع ، والأنهار الصغيرة . مفردها جدول . والغدران : جمع غدير : وهو القطعة من الماء يغادرها السيل . ويراد بالغدران هنا : القنوات ، ومجارى المياه المتفرعة من النيل وفروعه . والمناهل : الموارد : أى المشارب : جمع منْهل (بوزن مذهب) : اسم مكان من نهل (من باب طرب) : أى شرب .

(٢) ازيّنت : ازدانت ، وتجمّلت . والنَّوْر : الزهر ، واحدته نَوْرة ، وجمعه أنوار . والخمائل : جمع خميلة : وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف . وغرد الطائر تغريداً : رفع صوته فى غنائه ، ورجّعه ، ومده ، وحسنه ، وطرب به . والأيك : الشجر الكثير المجتمع الملتف . الواحدة أيكة . والبلابل : جمع بلبل : وهو طائر صغير ، من فصيلة الجواثم ، يضرب به المثل فى طلاقة اللسان ، وحسن الصوت .

فى البيت السابق عظّم الشاعر شأن الحيا ، فافتتح به قصيدته ، وأشار إلى بعض آثاره ، من استنان الجداول ، وفيضان الغدران والمناهل .

وفى هذا البيت أشار إلى نماء الأشجار ، وكثرتها ، والتفافها ، ونضرتها ، وتزينها بأزهارها ، وارتياح طيور الغرد لهذه المشاهد البهيجة ، وانطلاق ألسنتها بالتغريد والتطريب . وهذه كلها بعض آثار المطر والماء فى الحياة والأحياء . قال تعالى : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » الآية رقم ٥ من سورة الحج . وقال تعالى : « ونزلنا من السماء ماء مباركاً ؛ فأنبتنا به جنات ، وحب الحصيد » الآية رقم ٩ من سورة ق .

(٣) شمل (كفرح ، ودخل) . ويراد بالخير الشامل الذى عم البقاع والأراضى : ما أشار إليه فى البيتين السابقين ، وفى الشطر الثانى من هذا البيت ، وفى الأبيات الآتية من الماء ، والنبات ، والشجر ، والزهر ، والثمر ، وطيور الغرد ، والغمام ، والنسيم ، ومشاهد الطبيعة ومباهجها فى فصل الربيع . وصفحة الأرض : وجهها . وخائل : اسم فاعل من خال بمعنى تكبّر واختال ، أو بمعنى كَنِى ، وأغنى . ونبات خائل : كاف مغن ، أو مهتز بحركة النسيم ، كالمختال المتمايل المعجب بنفسه .

(٤) جبهة الإنسان : ما بين الحاجبين إلى الناصية . والجو : الفضاء بين السماء والأرض . ويراد بجبهة الجو أعلاه . والغمام : السحاب ، واحدته غمامة . وحافل : ممتلىء ، كثير ، مجتمع . وبين هذين : =

تَنْدَى بِهِ الْأَسْحَارُ وَالْأَصَائِلُ ... كَأَنَّمَا النَّبَاتُ بَحْرٌ هَائِلُ (٥)

وَلَيْسَ إِلَّا الْأَكَمَاتِ سَاحِلُ ... وَشَامِخُ الدَّوْحِ سَفِينٌ جَافِلُ (٦)

مُعْتَدِلٌ طَوْرًا ، وَطَوْرًا مَائِلُ ... تَهْفُو بِهِ الْجَنُوبُ وَالشَّمَائِلُ (٧)

وَالْبَاسِقَاتُ الشُّمَّخُ الْحَوَامِلُ ... مَشْمُورَةٌ عَنْ سُوقِهَا الذَّلَاذِلُ (٨)

= بين النبات والغمام . والنسيم : الريح الطيبة اللينة اللطيفة . وجائل : متحرك : اسم فاعل من جال : أى دار وطاف فى غير استقرار .

(٥) تندى : تجود، وتسخو. من قولهم : « وإن يده لَنَدِيَّة بالمعروف » (وبابه صَدِيَ). وبه : بالنسيم . والأسحار : جمع سحر (بوزن سبب) : وهو الوقت آخر الليل ، قبيل الفجر . والأصائل : جمع الأصيل : وهو وقت اصفرار الشمس قبيل غروبها . وهائل : عظيم ، رائع . جعل الأسحار والأصائل نَدِيَّة بالنسيم ؛ لأنهما خير أوقات الليل والنهار ، وبخاصة فى أيام الربيع ؛ وفيهما يطيب الهواء ، ويرقّ ، ويلطف ، ويلين ، وينعش الناس .

(٦) الأكمات : التلال ، الواحدة أكمة (بوزن قصبة) : وهى الموضع يرتفع عما حوله . وشامخ : مرتفع عال . والدوح : جمع دوحة : وهى الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة . والسفين : الفُلْك ، ومراكب البحر ، الواحدة سفينة . وجافل : اسم فاعل من جفل (من باب جلس) : بمعنى مضى وأسرع . أو شرد ونفر . أو فزع وانزعج . ويراد بالجافل هنا : المهتز المتحرك .

فى البيت السابق شبه المساحات الواسعة من الزروع والنباتات بالبحر العظيم الهائل الرائع . وفى هذا البيت تَخَيَّل أن شواطئه وسواحله ما يحيط به من تلال الأرض ومرتفعاتها ، كما تخيل أن شوامخ الأشجار وضخامها المتفرقة فى هذه النباتات سفائن ومراكب فى ذلك البحر ، تهتز وتتحرك بحركات الرياح المتناوحة .

(٧) « معتدل » : خبر لمبتدإ محذوف ، والتقدير : هو : أى شامخ الدوح معتدل . وطوراً : مرة ، أو تارة . وتهفو به : تحركه ، وتهزه . والجنوب : الريح التى تهب من جهة الجنوب ، وجمعها جنائب . وتخالفها الشمائل : جمع شمال : وهى الريح التى تهب من جهة الشمال : وهى الجهة التى تقابل الجنوب ؛ وتكون على شمالك وأنت متجه إلى الشرق : أى إلى مطلع الشمس .

والبيت فى وصف شامخ الدوح المشبَّه بالسفين الجافل ؛ فإن الجنائب والشمائل تتناوبه ، وتتعاقب عليه ؛ فتهفو به ، فيميل تارة ، ويعتدل تارة أخرى .

(٨) الباسقات : طوال النخل ، جمع باسقة . والشُّمَّخ : جمع شامخ : اسم فاعل من شمخ (من باب خضع) : أى طال : وعلا ، وارتفع ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى الباسقات . والحوامل : المثمرات : =

مَلْوِيَّةٌ فِى جِيدِهَا الْعَثَاكِلُ مَعْقُودَةٌ فِى رَأْسِهَا الْفَلَائِلُ(٩)

لِلْبُسْرِ فِيهَا قَانِئٌ وَنَاصِلُ مُخَضَّبٌ ، كَأَنَّهُ الْأَنَامِلُ(١٠)

= جمع حاملة . ومشمورة : مرفوعة . وسوقها : جمع ساق ، وساق النخلة : جذعها . وذلاذل الثوب أو القميص الطويل : أسافله ، وما يلى الأرض منه . ويراد بالذلاذل هنا : سعف النخل ، وأغصانها ، وخوصها الأخضر . والباسقات مبتدأ ، والشُّمَّخ الحوامل نعتان ، ومشمورة خبر المبتدأ ، والذلاذل نائب فاعل مشمورة ، وعن سوقها متعلق بمشمورة .

يصف النخل مشيراً إلى بسوقها وطولها وارتفاعها ، وإلى ما تحمله من الثمر ؛ وكأنه ينظر إلى قول الله تبارك وتعالى : « والنخل باسقات ، لها طلع نضيد » . الآية رقم ١٠ من سورة ق .

أما الشطر الثانى فمعناه أن سعف النخيل وغصونها فى رءوسها وأعناقها ، لا فى سوقها وجذوعها ، على خلاف كثير من الشجر . وللبارودى قصيدة رائيّة فى وصف أيام الربيع ، منها :

والباسقات الحاملات كأنها عُمُد مشعَّبة الذُّرا ، ومنار

عقدت ذلاذل سوقها فى جيدها وسمت ، فليس تنالها الأبصار

(٩) ملوية : مثنيّة ، أو معطوفة ، أو معوجّة . والجيد : العنق . والعثاكل : جمع عثكول : وهو الكِباسة : أى العِذْق : أى القِنو التام بشماريخه وبُسره ؛ وهو من النخل كالعنقود من العنب ، وجمعه عثاكيل (بوزن عصفور وعصافير) . والكوفيون يجيزون حذف الياء للتخفيف من مماثل « مفاعيل » ، فية ولون « عصافر » فى جمع عصفور . ومنه قول الله تبارك وتعالى : « وعنده مفاتح الغيب » (الآية رقم ٥٩ من سورة الأنعام) ؛ إذا جعلناها جمع مفتاح . ومعقودة : مربوطة ، موثقة ، مشدودة . والفلائل : جمع فليلة (بوزن سفينة) : وهى الشعر المجتمع ، ويراد بها هنا : السعف ، والخوص ، على تشبيه بالشَّعَر . وملويّة خبر بعد خبر للباسقات فى البيت السابق . والعثاكل نائب فاعل ملوية . والفلائل نائب فاعل معقودة .

فى الشطر الأول إشارة إلى العثاكيل : أى الأعذاق ، أو الكبائس ، أو القِنْوان الملويّة المتعلقة بما يلى رءوس النخيل على التشبيه بالأعناق ، أو الأجياد . وفى القرآن المجيد : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » الآية رقم ٩٩ من سورة الأنعام . وفى الشطر الثانى إشارة إلى الخوص والسعف الكثير المجتمع فى رءوسها ، المتفرع منها على تشبيهه بخصل الشعر وفلائله .

(١٠) البسر : ثمر النخل قبل أن يُرْطب . أو هو البلح إذا لوّن ، ولم ينضج ، الواحدة بُسرة . وفيها : فى العثاكل ، أو فى الباسقات . وقانئ : أحمر شديد الحمرة . وناصل : يراد به هنا البلح الأخضر إذا أخذ فى الاحمرار ، قبل أن يقنأ وتشتد حمرته ، أو قبل أن تتم الحمرة البلحة وتستوعبها . وهو (فى الأصل) : اسم فاعل من نصل اللون (من باب خرج) : أى زال ، وخرج من الشىء الملون . =

كَأَنَّهُ مِنْ ذَهَبٍ قَنَـادِلُ مِنَ الْعَرَاجِينِ لَهَـا سَلاسِلُ(١١)
لِلْمَنْجَنُونِ بَيْنَهَا أَزَامِـلُ تَخَالُهَـا مَحْزُونَةً تُسَـائِلُ(١٢)

= ونصل الشعر ، أو الثوب ، أو نحوهما : زال عنه خضابه ولونه . ومخضّب : اسم مفعول من التخضيب : وهو التلوين ، ومنه الخضاب (بوزن كتاب) : وهو ما يخضب به ، كالحناء ونحوه . والأنامل : رءوس الأصابع ، وأطرافها . ويراد بها هنا : الأصابع . وترتيب الكلام فى هذا البيت : للبسر فى العثاكيل ناصل ، وقانئ مخضب كأنه الأنامل .

يصف البسر فى الباسقات ، أو فى الأعذاق والكبائس والعراجين ، إذا أخذ فى النضج وتلون ؛ فبعضه خفيف الاحمرار ، لم تعمه الحمرة ، كأنه الشيء الناصل ، إذا خرج من معظم خضابه ، أو ذهب عنه معظم لونه . وبعضه أحمر قانئ شديد الحمرة ، كأنه الأصابع المخضوبة .

(١١) كأنه : كأن البسر ؛ وهو هنا يصف البلح الأصفر الفاقع الذهبىّ . و « من » فى شطرى هذا البيت : بيانية ؛ فما بعدها يوضّح ما قبلها . وترتيب الكلام : «كأن البسر قنادل من ذهب ، لها سلاسل من العراجين» ؛ فـ «من ذهب » : بيان لقنادل . و « من العراجين » : بيان لسلاسل . وقنادل : مصابيح : جمع قنديل (بوزن مسكين) : وهو مصباح كالكوب ، يملأ ماء فوقه طبقة من الزيت وفى وسطه فتيل ، يشعل ، فيضىء بالزيت ، وجمعه القياسى قناديل ؛ وقد تقدم أن الكوفيين يجيزون حذف ياء « مفاعيل » فيقولون : عصافير وعصافر ، وقناديل وقنادل . والعراجين : جمع عرجون (بوزن عصفور) : وهو ما يحمل الثمر . أو هو العذق : وهو من النخل كالعنقود من العنب . أو هو أصل العذق الذى يعوجّ ، ويبقى على النخلة يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ . ويراد بالعراجين هنا : الشماريخ : جمع شِمراخ ، وشُمروخ : وهو الذى يجمع البسر وينتظمه ، وأصله فى العِذْق ، أو الكِباسة التى تجمع الشماريخ . والسلاسل : جمع سلسلة ؛ والقنديل يعلّق عادة فى سلسلة تحمله .

شبّه البُسْر الأصفر الفاقع الذهبى المشرق البهيج — بقناديل من ذهب ، سلاسلها الشماريخ .

(١٢) المنجنون : الدولاب ، أو المحالة يستَقَى عليها الماء ، أو الناعورة ، أو الساقية : وهى آلة يرفع بها الماء من الترع ، والأنهار ، والآبار ، والمناهل ؛ لسقى النبات ، وإروائه . والمنجنون مؤنثة . وبينها : بين باسقات النخيل . وأزامل : أصوات مختلطة ، مفردها أزمل (بوزن أفضل) . وتخالها : تخال المنجنون : أى تحسبها ، وتظنها . ومحزونة : حزينة . وتُسائل : تَسْأل : مضارع ساءله : بمعنى سأله عن كذا ، وسأله بكذا سؤالاً : أى استخبره عنه ، ومن عادة المحزون الذى اشتد به الجزع أن يردد أسئلة التحسّر والتفجّع .

انتقل الشاعر هنا من وصف باسقات النخل ، وأعذاقها ، أوقِنْوانها ، وطلْعها وبُسرها إلى وصف ساقية ، أو ساقيات : أى محالات ، أو ناعورات تدور بين هذه الباسقات لإرواء الزرع ، =

لَهَا دُمُوعٌ ذُرَّفٌ هَـوَامِلُ   كَأَنَّهَا أُمٌّ بَنِينَ ثَاكِلُ(١٣)

فِى جِيدِهَا مِنْ ضَفْرِهَا حَبَائِلُ   مِنَ الْقَوَادِيسِ ، لَهَا جَلاجِلُ(١٤)

تَدُورُ كَالشُّـهْبِ لَهَا مَنَـازِلُ   فَصَاعِدٌ ، وَدَافِقٌ ، وَنَازِلُ(١٥)

= وسق النبات، منبهاً على أصواتها ، أو أنينها الذى ينم على الحزن والأسى ، ويشعر بالتوجع والتفجع . ولا ريب أن صوت الناعورة أول شىء يطرق سمع المرء ، ويسترعى انتباهه .

(١٣) لها : للمنجنون . وذُرَّف : جمع ذارف (بوزن راكع وركّع) : أى سائل ، منصب ، منهمر . وهوامل : تكرار ، وتأكيد لمعنى « ذُرَّف » : جمع هامل : اسم فاعل من همل الدمع (من بابى ضرب وقعد) : أى فاض ، وسال ، وجرى . وكأنها : كأن المنجنون . والبنون : الأبناء ، جمع ابن : وهو الولد الذكر . وثاكل : فقدت ولدها ، يقال : امرأة ثاكل ، وثكلى ، وثاكلة .

فى البيت السابق جعل صوت المنجنون أنيناً ينم على الأسى والحزن ، والتفجع والتوجع . وفى هذا البيت شبهها بمن فقدت أبناءها ؛ فهى لا تفتأ تبكيهم بدموع غزيرة ، فياضة ، متتابعة ، منهمرة .

(١٤) فى جيدها : فى جيد المنجنون . والجيد : العُنُق . ومن ضفرها : من ضفر باسقات النخيل ؛ يريد ليفها المضفور : أى المفتول . وحبائل : حبال . كأنه جمع حبل على غير قياس . و « من » فى الشطر الأول للتبيين والتوضيح : أى وللمنجنون فى عنقها حبال من ليف النخل المضفور . و « من » فى الشطر الثانى تفيد التعليل : أى بيان العلة والسبب : أى وللمنجنون جلاجل ، سببها حركة القواديس : جمع قادوس (بوزن ناقوس ونواقيس) : وهو وعاء خزفىّ ، أصغر من الجرة ، تنتظم منه ، ومن أمثاله سلسلة تديرها الناعورة ، فتغرف الماء من البئر ، أو الترعة ، أو النهر ، أو المنهل إلى المزرعة لإرواء النبات والزرع ؛ وقد تكون القواديس من غير الخزف ؛ وقد تكون على هيئات أخرى غير هيئة الجرة ؛ وهى تصعد ملأى من الماء ، وتهبط فارغة ؛ وبحركات الصعود والهبوط ، واغتراف الماء وتفريغه وصبه تسمع الجلاجل : جمع جلجلة (بوزن زوبعة) : وهى صوت شديد ، سببه الحركة والتحاكّ . ولها : للمنجنون ، أو لحبالها التى رُبِطَت فيها القواديس .

والبيت فى وصف القواديس الموثقة فى عنق المنجنون بحبال متينة مضفورة من ليف النخل ؛ وهى فى هبوطها ، وصعودها ، وغرف الماء وإفراغه — تحدث جلاجل وأصواتاً شديدة .

وقد يراد بالحبائل : العقود ، والقلائد ، على التشبيه ؛ وعلى هذا يكون المعنى : أن فى عنق المنجنون من ليف النخيل المفتول ، والقواديس المنظومة فيه ما يشبه العقود والقلائد ؛ وأن لحركات هذه القواديس فى هبوطها وصعودها ، واغترافها وتفريغها جلاجل وأصواتاً شديدة .

(١٥) فاعل « تدور » : ضمير القواديس فى البيت السابق . والشُّهب : الدرارى : أى الكواكب والنجوم المتلألئة اللامعة المضيئة ، واحدها شهاب (بوزن كتاب وكتب) . ولها : للقواديس المشبهة =

وَالْمَاءُ مَا بَيْنَ الْغِيَاضِ سَائِلُ تَحْنُو عَلَى شُطَّانِهِ الْغَيَاطِلُ (١٦)

كَأَنَّهَا حَوَائِمٌ نَوَاهِلُ وَالطَّيْرُ فِي أَفْنَانِهَا هَوَادِلُ (١٧)

تَزْهُو بِهَا الْأَسْحَارُ وَالْأَصَائِلُ فَانْهَضْ إِلَى نَيْلِ الْمُنَى يَا غَافِلُ (١٨)

= بالشهب . ومنازل : أماكن تتنقل بينها . ومنازل القمر : مداراته التى يدور فيها حول الأرض . ودافق : اسم فاعل من دفق الماء : أى صبه بشدة . (وبابه نصر) .

يقول : إن هذه القواديس تدور كما تدور النجوم فى منازلها ؛ ثم فصّل هذه المنازل فى الشطر الثانى ، فقال : إنها ثلاث : منزلة نزول التادوس لاغتراف الماء من بئر المنجنون ، ومنزلة صعوده وهو مملوء ، ومنزلة دفقه ما يحمله من الماء فى المجرى ، أو القناة على سطح الأرض لإرواء النبات : ثم تعود الدورة كما بدأت ، وهكذا دواليك .

(١٦) الغياض : جمع غيضة (بوزن ضيعة) : وهى الموضع يكثر فيه الشجر ، ويلتف . أو هى الأجمة : أى الشجر الكثير الملتف . أو هى مجتمع الشجر فى مغيض الماء . وتحنو : تميل ، وتنعطف . وشطانه : شطان الماء : أى شطان القنوات ومجارى المياه : جمع شط : وهو الشاطئ ، وجانب النهر . أو هى شطآن : جمع شاطئ . والغياطل : جمع غيطلة (بوزن جوهرة) : وهى الشجر الكثير الملتف ، أو جماعة الشجر والعشب .

يصف غزارة مياه المنجنون ، وجريانها بين الأشجار الكثيرة المجتمعة الملتفة ؛ ونمو الأعشاب والأشجار فى انعطاف وحنو على جوانب هذه المياه ، وشطآن قنواتها ومجاريها .

(١٧) كأنها : كأن الغياطل : وهى الأشجار الكثيرة المجتمعة الملتفة القائمة فى حنو وانعطاف على جوانب المياه ، وشطآن مجاريها . وحوائم : طيور حوائم : أى عطاش : جمع حائم ، أو حائمة : وهو الطائر يحوم على الماء : أى يدور حوله قبيل وروده . ونواهل : شاربات مرتويات : جمع ناهلة : اسم فاعل من نهل (من باب طرب) : أى شرب حتى روى . وأفنانها : أفنان الغياطل : أى أغصانها : جمع فنن (بوزن سبب وأسباب) . وهوادل : جمع هادل ، أو هادلة : اسم فاعل من الهديل : وهو صوت الحمام ، وسجعه ، وتطريبه ، وغناؤه .

شبه الأشجار الكثيرة القائمة على شواطئ المياه الغزيرة التى أجرتها الناعورة أو النواعير الدائرة بين الباسقات فى هذه المساحات الواسعة من الزروع والنباتات — شبهها بالطيور تحوم حول الماء ؛ لتنهل منه وترتوى ، ثم أضاف إلى هذه الصورة هديل الحمام ، وتغريد الأطيار على أغصان هذه الأشجار مرحاً وابتهاجاً بجمال الطبيعة ونضرتها ، وكثرة خيراتها .

(١٨) تزهو : تشرق ، وتجمل ، وتزدان . أو تتيه ، وتتعاظم ، وتفتخر . وبها : بالغياطل ، والماء ، والغياض ؛ أو بما وصفه ، وأشار إليه فى الأبيات السابقة من محاسن الطبيعة فى فصل الربيع . والأسحار : =

وَانْعَمْ ؛ فَأَيَّامُ الصِّبَـــا قَلَائِلُ   وَالْمَرْءُ فِى الدُّنْيَا خَيَالٌ زَائِلُ (١٩)

وَالدَّهْرُ لِلْإِنْسَانِ يَوْمًا آكِلُ   وَكُلُّ شَىْءٍ فِى الزَّمَانِ بَاطِلُ (٢٠)

= جمع السحر : وهو الوقت قبيل الفجر . والأصائل : جمع الأصيل : وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها ، أو الوقت بعد العصر إلى المغرب . ونهض إلى كذا (من بابى قطع وخضع) : قام إليه ، وأقبل عليه فى يقظة ونشاط وسرعة . ونال الشىء يناله نيلا : أدركه ، وبلغه ، وأصابه ، وظفر به . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) : وهى الأمنية : أى ما يتمناه المرء ، ويرغب فيه . وغافل : اسم فاعل من غفل عن الشىء (من باب قعد) : أى سها عنه ، وتركه ، من قلة التحفظ ، وضعف التيقظ . ويراد بالأسحار والأصائل : أوقات النهار والليل ؛ وإنما خصهما بالذكر ؛ لأن الطبيعة تبدو فيهما على أتم حسنها ، وفى أبهى حللها .

يقول : إن الدنيا فى النهار والليل تزدان وتزهى بمحاسن الطبيعة فى أيام الربيع ؛ وينبه الغافل ، ويستنهضه لإدراك ما يتمناه من نعيم الحياة ، وبهجة الدنيا ، ولذة العيش ، ورخاء البال فى هذا الفصل البهيج الممتع ، وهذه البيئة الناعمة الزاهية .

(١٩) انعم : تمتع ، وتنعم . والصبا : الصغر ، والحداثة . ويراد بأيام الصبا : زمن الفتوة ، وعصر الشباب . والخيال : الطيف . وخيال كل شىء : ما تراه كالظل . وزائل : ذاهب ، فان ، هالك .

فى البيت السابق نبه الغافلين على محاسن الطبيعة فى فصل الربيع ، واستنهضهم لإدراك ما يتمنونه من متعة النفس ، ورخاء البال فى أحضان هذه الطبيعة المجلوة البهيجة الممتعة .

وفى هذا البيت حض على اغتنام زمن الفتاء والشباب للاستمتاع بطيبات العيش ، ونعم الحياة قبل فوات هذا الزمن ؛ فإنه قصير ، قليل ، محدود ؛ بل العمر كله كذلك ، والإنسان فى الدنيا كالظل ، أو الطيف الذى يظهر برهة ، ولا يلبث أن يذهب ويزول . والبيت الآتى تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من هذا البيت .

(٢٠) الدهر : الزمان . وباطل : اسم فاعل من بطل الشىء (كقعد) : أى ذهب ضياعاً وخسراً .

هذا البيت فى معنى الشطر الثانى من البيت السابق ؛ فالدهر يهلك الإنسان لا محالة ، ويقضى عليه يوم يأتى أجله ؛ وكل مخلوق مصيره فى الدنيا إلى البطلان والضياع ، والفناء والهلاك . « ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم ، وإليه ترجعون » . الآية رقم ٨٨ من سورة القصص .

وصلة هذين البيتين الأخيرين بموضوع هذه القصيدة : أن الطبيعة فى أيام الربيع تبدو فى أبهى حللها ، وخير أحوالها ، وأنها تتيح للناس جميعاً من المتعة والبهجة ما لا يتاح لهم فى غير هذا الفصل الممتع البهيج ؛ ولهذا ينبغى أن يغتنم الإنسان الفرص المواتية ، فينعم بما أتيح له من أطايب العيش وخيراته ، =

وَقَالَ يَصِفُ الْبَحْرَ :

وَذِى حَدَبٍ يَلْتَجُّ بِالسُّفْنِ كُلَّمَا زَفَتْهُ نَئُوجٌ ؛ فَهْوَ يَعْلُو وَيَسْفُلُ[1]

كَأَنَّ اطِّرَادَ الْمَوْجِ فَوْقَ سَرَاتِهِ نَعَائِمُ فِى عُرْضِ السَّمَاوَةِ جُفَّلُ[2]

= وزينة الدنيا وبهجتها قبل أن تهصر الشيخوخة عوده ، ويأكله الدهر . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف .

تلخيص

جاءت هذه القصيدة فى عشرين بيتاً : سبعة الأبيات الأولى منها فى المطر الشامل ، والمياه الفياضة والخصب ، والزرع ، والنبات ، والشجر ، والغمام ، والندى ، ونشاط طيور الغرد ، ولطف النسيم ورقته ، وكثرة الخير وشموله . وفى أربعة الأبيات التالية وصف النخيل وثمارها . ثم انتقل إلى ناعورة ، أو ناعورات تدور بينها ، فوصفها فى أربعة أبيات أخرى . ثم عاد بعدها فى بيتين آخرين إلى الماء ، والشجر ، والطير . وفى ثلاثة الأبيات الأخيرة شبه تلخيص للأبيات السابقة ؛ فقد أخذت الأرض زخرفها وازينت فى هذا الفصل البهيج الممتع ، ونبهت الغافلين ، واستنهضتهم ، وحضتهم على اغتنام فرصة الفتاء والشباب ، بل فرصة العمر لاجتلاء محاسن الطبيعة ، والاستمتاع ببهجة الدنيا وزينتها ، ومتع الحياة وطيباتها قبل أن يهصرنا المشيب ، ويدركنا الموت .

* * *

(١) هذه القصيدة من لزوم ما لا يلزم ؛ فقد التزم الشاعر فيها الفاء قبل الروى ، وهو التزام لا تحتمه قواعد القافية .

حدب الماء : تراكبه فى جريه . وحدب البحر : ارتفاع موجه ، على التشبيه بالرجل المحدودب . وذى حدب : ورب بحر صاحب حدب : أى مائج ؛ فالواو فى أول هذا البيت : واو « رب » : أى الواو الدالة على « رب » المحذوفة بعدها . و « رب » : حرف جر ، ومعناها هنا : التكثير . ويلتج : يهيج ، ويضطرب ، وتتلاطم أمواجه . ويلتج بالسفن : يضطرب بها ، ويهزها بعنف . وزفته : حركته ، وهاجته . والنئوج : ريح شديدة الهبوب ، سريعة ، ذات صوت شديد . وعلو البحر وسفوله : تصوير لشدة تموجه وهيجانه واضطرابه .

افتتح الشاعر هذه القصيدة بالإشارة إلى تموج البحر ، وإلى الرياح الشديدة السريعة التى تستخفه وتستفزه ، وتضاعف ثورانه وهيجانه ؛ فيلتج بالسفن ، ويلاطمها ، ويحرمها الأمن والطمأنينة .

(٢) اطراد الموج : تتابعه ، وتلاحقه ، كأنما يطرد بعضه بعضاً . وسراة البحر : ظهره ، وسطحه . والنعائم : جمع النعامة ؛ ويضرب بها المثل فى الخوف والإجفال والنفور والهرب وشدة العدو وسرعته . =

إِذَا شَاغَبَتْهُ الرِّيحُ جَاشَ عُبَابُهُ ... وَظَلَّ أَعَالِي مَوْجِهِ يَتَجَفَّلُ(٣)

يَهِيجُ ؛ فَيَرْغُو ، أَوْيَعِجُّ ، كَأَنَّمَا ... تَخَبَّطَهُ مِنْ أَوْلَقِ الضِّغْنِ أَزْفَلُ(٤)

تَقَسَّمَهُ خُلْقَانِ : لِينٌ ، وَشِدَّةٌ ... بِعَصْفَةِ رِيحٍ ؛ فَهْوَدَاهٍ ، وَأَرْفَلُ(٥)

= والعرض (بفتح فسكون) : السعة ، وخلاف الطول . أو هو «عرض» (بضم فسكون) : بمعنى الجانب ، والناحية ، أو الوسط . والسماوة : صحراء مشهورة بين الشام والعراق . وتعرف ببادية السماوة . وجفل : نافرات ، عاديات ، مسرعات : جمع جافل (بوزن راكع وركع) .

شبه تتابع الموج وتلاحقه فى سرعة وقوة فوق سطح البحر — بنعام انزعجت فأجفلت ، وندت ، ونفرت متلاحقة متتابعة فى عرض البادية .

(٣) شاغبته الريح : هيجته ، وأثارته . وجاش (من باب باع) : اهتاج ، وثار ، واضطرب . وعبابه : موجه ، ولجه . وظل : صار . ويتجفل : يتنفش ، كما ينتفش الصوف ، أو القطن : أى يتشعث ، ويتفرق ، وينتشر بعد تلبد . ويقال : تجفل الديك : إذا تنفش ريش عنقه .

يقول : إذا أثارت الرياح البحر ، اهتاجت لجه ، واضطربت أمواجه ، وارتفعت ، واصطخبت ، وانتفشت أعاليها ، كأنها الديك ينفش ريش عنقه إذا ثار واهتاج ، وأراد القتال؛ ولعله مع هذا يشير بالتجفل إلى الرغوة ، أو الزبد المنفوش فى أعالى الموج إذا اهتاج البحر .

(٤) يهيج : يثور ، ويهتاج ، ويضطرب . ويرغو : يقذف بالزبد والرغوة ، أو يضج ، ويصوت : من الرغاء : وهوصوت الإبل والنعام ونحوها ؛ فهياج البحر ينتج الضجيج ، وما يشبه الرغاء ، كما ينفش فى أعالى موجه الزبد والرغوة . ويعج (كيضج ، ويمل): يصيح ، ويرفع صوته ، أو يشتد . وقد تكون « أو » هنا : بمعنى واو العطف ؛ فالإرغاء ، والرغاء ، والعجيج من لوازم هيجان البحر ونتائجه . وتخبطه : مسه ، وأصابه ؛ وتخبط الشيطان فلاناً : أى مسه بأذى ، أو بخبل ، أو بشيء من الجنون . والأولق (بوزن الأوثق) : الجنون ، أو شبهه ، أو مس منه . والضغن : الحقد ، وإضمار العداوة والبغضاء. والأزفل : الغضب ، والحدة . و « من » : بيانية . وترتيب الكلام : كأنما تخبطه أزفل من أولق الضغن .

والبيت تكرار وتأكيد وتفصيل لمعنى البيت السابق ؛ فالبحر يثور ، ويهيج ، ويضطرب ؛ فيرغى ويزبد ، ويضج ويجلب ، كأنما اشتد به الغضب ، فسته حدة من جنون الحقد والبغضاء .

(٥) تقسمه : اقتسمه . من قولهم : تقسموا الشيء بينهم : أى اقتسموه ، فأخذ كل منهم قسماً منه : أى حظاً ونصيباً . وخلقان : مثنى خلق (بضم فسكون) : وهو السجية ، والطبع ، والغريزة ، ومثله الخلق (بضمتين) ، أو هو حال للنفس راسخة ، تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية ، وجمعه =

عَلَوْنَا مَطَاهُ وَهْوَ سَاجٍ ، فَمَا انْبَرَتْ لَهُ الرِّيحُ حَتَّى ظَلَّ يَهْفُو ، وَيَرْفُلُ(٦)

كَأَنَّا عَلَى أُرْجُوحَةٍ ، كُلَّمَا وَنَتْ أَحَالَ عَلَيْهَا قَائِمٌ ، لَيْسَ يَغْفُلُ(٧)

= أخلاق . ولين ، وشدة ، بدل من خلقان . و« بعصفة ريح » : متعلق بشدة . والباء هنا : للسببية : أى شدة سببها عصفة ريح : اسم مرة من عصفت الريح (من باب ضرب) : أى عنفت ، واشتدت . وداه : اسم فاعل من الدهاء : وهو النكر ، والمكر ، والاحتيال ، والحذق ، وجودة الرأى ، وصحة البصر بالأمور . والأرفل هنا : ضد الداهى : أى الأخرق الأحمق : صفة من الرفل (بوزن التعب) : وهو الخرق ، والحماقة ، وقلة العقل ، وضعف الرأى ، وفساد التصرف ، وسوء التدبير . والدهاء والرفل هنا متضادان ، يقابلان اللين والشدة ؛ فالبحر فى لينه داه ، وفى شدته أرفل .

والمعنى : تناوب البحر خلقان مختلفان ، متباينان ، متناقضان ؛ فهو أحياناً لين هادئ ، كالداهى الماكر ، وأحياناً تعصف به الريح ؛ فيثور ، ويهيج ، ويفقد هدوءه واعتداله ، ويبدو كالأخرق الأحمق ، السفيه ، الطائش .

(٦) علوناه : صعدناه ، وركبناه . ومطاه : ظهره . وساج : ساكن ، هادىء . وجملة « وهو ساج » حال من الضمير فى « مطاه » . وانبرت له الريح : اعترضت له ، وتصدت . وظل : صار ، أو جعل ، وطفق . ويهفو : يهتز ، ويضطرب . ويرفل : يخرج عن سجوه ، وسكونه ، وهدوئه إلى الخرق ، والحمق ، والطيش : مضارع « رفل » (كفرح ، ونصر) : بمعنى خرق ، وحمق . أو « رفل » (كنصر ، وقعد) : بمعنى تبختر ، واهتز ، وتمايل . أو مضارع أرفل إرفالاً : بمعنى التبختر ، والاهتزاز ، والتمايل .

يقول : ركبنا هذا البحر وهو هادئ ساكن ، فلما تصدت له الريح انقلب حاله ، فجعل يهتز ويضطرب .

وفى البيت إشارة إلى شدة تأثر البحر بالريح ؛ فإنها لا تكاد تنبرى له حتى تخرجه من سجوه وهدوئه إلى الثورة والنزق ، والخرق والحماقة .

(٧) الأرجوحة : ما تترجح براكبها ؛ وهى على أشكال وأنواع كثيرة مختلفة : فقد تكون خشبة ، أو شبهها ، تعلق بحبل ، ويركبها الصبيان للهو ، أو الرياضة ، فترتجح بهم ، وتميل ، وتهتز ، وتعلو ، وتهبط . وقد تكون حبلاً يشد طرفاه فى مكان مرتفع ، ويقعد فى وسطه الصبيان واحداً بعد واحد ، ويميلون به ؛ فيجىء ، ويذهب ، ويهبط ، ويرتفع ، معلقاً فى الهواء . ونت : (من باب وعد) : توانت ، وفترت ، وهدأت ، وضعفت حركتها . وأحال عليها : دفعها إلى الحركة ، والاهتزاز ، والترجح . من قولهم : أحال عليه بالسوط : أى أقبل عليه يضربه به . وقائم : اسم فاعل من قام على الأمر : أى دام وثبت . وقام للأمر : أى تولاه ، ونهض به . ويغفل (مضارع غفل من باب قعد) : أى يسهو ، أو يهمل . =

فَطَوْرًا لَنَا فِى غَمْرَةِ اللُّجِّ مَسْبَحٌ وَطَوْرًا لَنَا بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ مَحْفِلُ(٨)

فَلَا هُوَ إِنْ رُعْنَاهُ بِالْجِدِّ يَرْعَوِى وَلَا إِنْ سَأَلْنَاهُ الْهَوَادَةَ يَحْفِلُ(٩)

= فى البيت السابق قال : إن الريح انبرت للبحر ، فقلبت حاله ، وأخرجته من سُجُوّه وهدوئه ، وجعلته يهتزّ براكبيه فى خُرْق وحماقة .

وفى هذا البيت والبيت الذى بعده تصوير حسىّ بليغ لهذا الاهتزاز ؛ فلقد كنا فيه كركّاب الأرجوحة التى لا تفتأ تهتزّ براكبيها فى عنف وقوّة ؛ وكلّما فترت حركتها جددها ، وأنشطها ، وقواها قائم عليها ، متكفل بها ، دائب ، يقظ ، لا يتركها ، ولا يهملها ، ولا يكاد يسهو عنها : يريد أن الرياح لا تفتأ تهب على البحر ، وتعصف به ؛ فيتموج ، ويثور ، ويهتاج ، ويضطرب بنا .

(٨) الطور : التارة ، والمرة . واللج : معظم الماء ، وكثرته ، وزحمته . وغمرة اللجّ : كثرته ، وشدته ، وزحمته : أى ما يغمر السابح ، ويغطّيه ، ويزدحم حوله من اللجج والأمواج المترددة . ومسبح : اسم مكان من السباحة : وهى العَوْم . والسماكان : نجمان نيران : أحدهما فى جهة الشمال ، ويسمى السماك الرامح ؛ لأن أمامه كوكباً صغيراً ، يقال له : راية السماك ، ورُمحه . والآخر فى جهة الجنوب ، ويسمى السماك الأعزل ؛ لأنه لا شىء بين يديه من النجوم والكواكب ؛ فكان كالأعزل الذى لا رمح معه . والمحْفِل : المجلس ؛ أو مكان الحفول : وهو الاجتماع والاحتشاد .

والبيت توضيح ، أو تكملة ، أو تفصيل لصورة الارتجاح فى البيت السابق ؛ فإن السفينة المشبّهة بالأرجوحة كانت تهبط بركابها تارة ؛ فيسبحون فى غمرات ذلك البحر اللّجىّ الهائج الثائر . وتارة تعلو بها الأمواج الهائلة علواً كبيراً . وقد غالى الشاعر فى هذا المعنى ، وتزيّد وبالغ حتى جعل الموج يصل بهم إلى السماكين .

(٩) هو : أى البحر . ورعناه : أفزعناه ، وأخفناه . والمراد خاشنّاه ، وصارمناه ، ولم نعبأ به . والجد (بفتح الجيم وكسرها) : ضد الهزل . ويراد به هنا : الصبر ، والصرامة ، والجلد ، والثبات . ويرعوى : يرجع ، ويكف ، ويرتدع ؛ والمراد يكف عن هيجانه واضطرابه ، ويعود إلى السجو ، والهدوء . والهوادة : الرفق ، واللين . ويحفل : يحتفل : أى يبالى ، ويكترث ، ويأبه ، ويهتمّ (وماضيه حفل من باب ضرب) .

والمعنى : لما رأينا البحر سادراً فى هيجانه وطغيانه — أخذنا نغالبه ؛ فحاولنا بالملاينة ، ثم بالمخاشنة أن نكفه ، أو نحد من تهيجه واضطرابه ، فلم يبالنا ، ولم يكترث لنا ، بل تمادى وتغالى فى ثورانه وهياجه ؛ =

عَرَوْنَا ـ فَأَبْخَلْنَاهُ ـ فَضْلَ حِبَائِهِ ۞ وَمِنْ عَجَبٍ إِمْسَاكُهُ وَهْوَ نَوْفَلُ (١٠)

قَلِيلٌ عَلَى عَهْدِ الْإِخَاءِ ثَبَاتُهُ ۞ فَأَسْفَلُهُ عَالٍ ، وَعَالِيهِ سَافِلُ (١١)

إِذَا حَرَّكَتْهُ غَضْبَةٌ مَاتَ حِلْمُهُ ۞ وَظَلَّ عَلَى أَضْيَافِهِ يَتَأَفَّلُ (١٢)

= كأنه يريد أن يملأ قلوبنا خوفاً وفزعاً ، ولم يعمد إلى هدوئه وسكونه حتى بعد أن رآنا ثابتين مطمئنين ، غير آبهين لثورته .

أو المعنى : أننا سألنا البحر بالرفق واللين ، ثم سألناه بالمخاشنة والصرامة أن يقلع عن ثورته ، ويعود إلى هدوئه ؛ فلم يحفل بنا ، ولم يبالنا .

(١٠) عراه يعروه : قصده طالباً رفده ومعروفه . وأبخلناه وجدناه بخيلا غير كريم . وهي جملة معترضة بين « عرونا » ومفعوله ، وهو « فضل حبائه » . والفضل : الزيادة ، أو الإحسان ، أو الابتداء بالإحسان بلا علة . وحباه كذا ، وبكذا : أعطاه إياه بلا جزاء . والحباء (بوزن الكتاب) : العطية ، وما يحبوبه الكريم من يقصده ، ويكرمه به من الهبات ، والجود ، والسخاء ، وحسن اللقاء . وبخل البحر هنا : إساءته إلى ركابه ، وإزعاجهم بثورانه وهيجانه . والحباء المقصود هنا : أن يسالم البحر من يعروه ؛ ويحبوه بالأمن والطمأنينة . وعجب من الشيء (من باب تعب) : أنكره لقلة اعتياده إياه . والعجب : روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء . والإمساك هنا : الشح ، والبخل . والمعنى : أن إمساك البحر وشحه وبخله من الأمور المنكرة المستغربة التي تثير العجب ، وتدعو إلى الدهش . والنوفل : من أسماء البحر . ورجل نوفل : كريم ، سخي ، جواد ، معطاء ، وجملة « وهو نوفل » جملة حالية .

يقول : طلبنا من هذا البحر أن يعاملنا معاملة الكريم لمن نزل به ؛ فرأيناه بخيلا يسيء إلى أضيافه ؛ فكان هذا عجباً مع شهرته بالجود والسخاء .

(١١) « قليل » : خبر « ثباته » مقدم عليه . و « على عهد الإخاء » متعلق بـ « ثباته » . وعهد الإخاء : ميثاقه ، وجمعه عهود ، أو هو مصدر عهد الشيء (من باب فهم) : أي حفظه ، وراعاه ، حالا بعد حال . والإخاء : مصدر آخاه : أي اتخذه أخاً ، وصار له صديقاً . ومثله المؤاخاة ، والأخوة . والشطر الثاني تصوير لتقلب البحر ، وتغيره ، وعدم استقراره ؛ وهو تأكيد وتعزيز لمعنى الشطر الأول .

يقول : إن البحر لا يحفظ موثق الأخوة ، ولا يراعي صحبة صاحب ، ولا يصون عهد صديق ؛ فهو متقلب ، متغير ، متنكر ، خئون ، غدار .

(١٢) حركته : حركت البحر : أي هاجته ، وأثارته . والغضبة : اسم مرة من الغضب . والحلم : الأناة ، والصبر ، والرزانة ، والطمأنينة . وضده الطيش ، والنزق ، والجهل ، والسفه . وموت حلم البحر : =

شَدِيدُ الْحُمَيَّا ،يَرْهَبُ النَّاسُ بَطْشَهُ ... وَلٰكِنَّهُ مِنْ نَفْخَةِ الرِّيحِ يُجْفِلُ(١٣)

كَأَنَّ أَعَالِي الْمَوْجِ عِهْنٌ مُشَعَّثٌ ... بِهِ ،وَانْحِدَارَ السَّيْحِ شَعْرٌ مُفَلْفَلُ(١٤)

=كناية عن ثورته وهياجه . وظل : صار . وظل يفعل كذا : دام على فعله نهاراً وليلا . والأضياف : جمع الضيف ؛ ومثله الضيوف ، والضيفان . ويتأفل : يتكبر .

جعل المبحرين ضيوفاً على البحر ،ووصمه بأنه لايراعى حقوق الضيافة ؛ بل سرعان ما يتنكرلهم ، ويتكبر عليهم ، ويفقد حلمه واعتداله إذا أثارته غضبة من الغضبات التى لا تفتأ تنتابه وتهيجه .

(١٣) شديد الحميا : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هو : أى البحر شديد الحميا . وحُمَيَّا كل شىء : شدته ، وحدته ، والمراد هنا : حميا الغضب : أى شدته وعنفه وحدته . والبطش : الأخذ الشديد العنيف عند الغضب : مصدر بطش به (من بابى ضرب ونصر) : أى أخذه بصولة ، وشدة ، وعنف ، وبأس ، وفتك به . ونفخة : اسم مرة من النفخ . وأجفل إجفالا : خاف ، وفزع ، وانزعج ؛ فند ، وشرد ، ونفر ، وأسرع فى الهزيمة والهرب . ومثله جفل (كضرب ، وقعد ، وجلس) .

والمعنى : أن البحر – على شدة بأسه ، وخوف الناس من عنفه وبطشه ، – يجبن ، ويستخذى ، أمام الريح ، ولا يكاد يصمد لها ، أو يقوى عليها ؛ بل إن نفخة واحدة من نفخاتها تزعجه ؛ فيرتعد ، ويضطرب خوفاً وفزعاً .

(١٤) العهن : الصوف . والقطعة منه عهنة . ومشعث : منتشر ، متفرق ، منفوش . وبه : بالبحر . وساح الماء ونحوه (من باب باع) : سال ، وجرى . والسيح : الماء الجارى (تسمية بالمصدر) وانحدار السيح : هبوطه ، وانحطاطه من علو إلى سفل . والمراد هنا : مطلق جريانه . وشعر مفلفل : مجعد ، شديد الجعودة : وهى اجتماع الشعر ، وتقبضه ، والتواؤه مع قصره . وضده الشعر السبط : وهو الطويل ، المسترسل ، السهل المعتدل .

شبه ما علا وارتفع من الزبد والرغوة فوق أمواج البحر إبان هيجانه واضطرابه – بالصوف المنفوش . وشبه ما سال وجرى من مياهه وقت هدوئه وسكونه ، بالشعر الجعد؛ فإن الرياح اللينة اللطيفة إذا جرت فوق سطح الماء ، حركته حركات واهية ضعيفة؛ وبهذه الحركات ترسم فوقه حبائك وطرائق ؛ فيبدو كالشعر المجعد . وصف البحر فى حالى هياجه وهدوئه ؛ فهو إذا هاج وماج ، أرغى وأزبد ، وإذا هدأ وسجا ، جرت مياهه متجعدة ، كأنها الشعر المفلفل .

ويلاحظ أن الصورة الأولى من هاتين الصورتين تقدمت فى الشطر الثانى من البيت الثالث : « وظل أعالى موجه يتجفل » .

ذَكَرْنَا بِهِ مَا قَدْ مَضَى مِنْ ذُنُوبِنَا ... وَفِى النَّاسِ -إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللّٰهُ- غُفَّلُ (١٥)

وَكَيْفَ تُرَانَا صَانِعِينَ . وَكُلُّنَا ... بِقَارُورَةٍ صَمَّاءَ . وَالْبَابُ مُقْفَلُ ؟ (١٦)

---

(١٥) ذكر الشىء : استحضره ، وجرى على لسانه ، أو فى ذهنه . ومثله تذكره . وبه : الباء هنا بمعنى «فى» : أى تذكرنا ونحن فى البحر ماضى ذنوبنا . أو هى للسببية : أى تذكرنا ماضى ذنوبنا بسبب ما رأيناه من أهوال البحر ، وشدائده ، وأخطاره ، ومخاوفه . و « من ذنوبنا » : بيان لـ « ما قد مضى » و « فى الناس » : خبر لـ « غفل » مقدم عليه . وجملة : «إن لم يرحم الله » : معترضة بين الخبر المقدم والمبتدإ المؤخر . ويراد برحمة الله هنا : المغفرة ، والتجاوز عن الخطايا والذنوب والآثام . وغفل : جمع غافل (بوزن راكع وركع) : اسم فاعل من غفل عن الشىء : أى سها عنه من قلة التحفظ ، وعدم التيقظ ، أو تركه إهمالا من غير نسيان ؛ أى : وفى الناس كثرة منهم سادرون فى خطاياهم ، غافلون عن جرائرهم ؛ وهم مجزيون بها إلا إذا أدركتهم رحمة الله ومغفرته .

والمعنى : أنهم لما رأوا أهوال البحر وشدائده ، وأحاطت بهم أخطاره ومخاوفه — تذكروا ما اقترفوه فى ماضيهم من الذنوب والآثام؛ وهذه عادة الإنسان ، أو طبيعته ؛ يرتكب الإثم والخطيئة ، ويتمادى فى غيه وعصيانه ، ويغفل عن ذكر الله ، والدار الآخرة ، ويوم الدين ، ولا يبالى ما أعد لمثله من العقوبة؛ ولا يأبه لمغبة عمله السىء ، وسوء جزائه ؛ حتى إذا حضره الموت ، أو وقع فى شدة ، أو مسه ضر ، أو أشرف على هلكة — ذكر ما كان له ناسياً ، وانتبه لما كان عنه غافلا ، وفزع إلى الله تعالى يسترحمه ، ويستغفره .

والشطر الثانى تذييل فى هذا المعنى؛ فالناس غافلون عن عواقب خطاياهم ، مجزيون بجرائرهم ، إلا إذا أدركتهم رحمة الله وغفرانه وإحسانه . وفى القرآن الكريم : « وإذا مسكم الضر فى البحر ، ضل من تدعون إلا إياه » الآية رقم ٦٧ من سورة الإسراء . وفى القرآن كذلك: « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين» ؛ الآية رقم ٦٣ من سورة الأنعام ؛ وبهذا المعنى مهد الشاعر لأربعة الأبيات الآتية التى ساقها مساق الحكمة، وختم بها هذه القصيدة.

(١٦) رآه : أبصره ، أودبره ، أوعلمه ، أوظنه . و« كيف ترانا صانعين ؟ » : أى على أى حال ترانا صانعين ؟ : أى ماذا نصنع فيما ترى؟: أى فيما تظن ؛ أوفيما تدبر ، أو فيما تعلم . أوفيما تذهب إليه ؟ . والذى أراه (بالبناء للمجهول) : بمعنى الذى أظن . و (بالبناء للمعلوم) : بمعنى الذى أذهب إليه ؛ فمضارع رأى بمعنى الظن يبنى للمجهول . وجملة « وكلنا بقارورة صماء» : جملة حالية . وكذلك جملة « والباب مقفل » . والقارورة: وعاء أوإناء من الزجاج أو غيره ، يحفظ فيه الشراب ، أوالسوائل . وصماء: =

فَلَا تَبْتَئِسْ إِنْ فَاتَ حَظٌّ ، فَرُبَّمَا   أَضَاءَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَى وَهْيَ أُفَّلُ (١٧)

= مصمتة ، مسدودة ، لا يستطاع فتحها ، ولا سبيل إلى انطلاق ما فى جوفها . و « الباب مقفل » : تأكيد وتعزيز لهذا المعنى . ومقفل : مغلق : اسم مفعول من إقفال الباب : بمعنى إغلاقه وسده .

ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكمة ، أو العظة والنصح والإرشاد . ومعناه : أن الناس جميعاً محصورون فى هذه الحياة ، تحيط بهم قدرة الله تعالى ، ويجرى عليهم قضاؤه ؛ فلا معدى لهم عنه ، ولا مفر منه ، ولا منجى من حسابه ، ولا مرجع إلا إليه ؛ ولهذا شبههم بالشراب المحصور فى زجاجة مسدودة ؛ وأكد هذا المعنى بقوله : « والباب مقفل » ، كما أكده بالاستفهام الذى صدر به هذا البيت ، ومعناه النفى : أى لن نستطيع أن نفتح الباب المغلق علينا ، وليس فى وسعنا عمل شىء يخرجنا من هذه القارورة الصماء ؛ ولا حيلة لنا فى دفع ما يجرى علينا من قضاء الله . وصلة هذا البيت بما قبله واضحة وثيقة ؛ فإن راكب البحر الهائج يسيطر عليه هذا المعنى ، وهذا الشعور ؛ فهو محاصر فى ذلك الخضم الهائل الواسع ، ضيق الصدر ، مبلبل الخاطر ، ضعيف الحيلة ، قليل الرجاء .

(١٧) لا تبتئس : لا تكتئب ، ولا تحزن . والحظ : النصيب ، والجد ، أو هو خاص بالنصيب من الخير والفضل ؛ أو هو اليسر والسعادة . و « ربما » : « رب » زيدت بعدها « ما » ، واتصلت بها ، ومعناها هنا : التكثير . والدجى : الظلمات ، واحدتها دجية . وهى : أى المصابيح . وأفل : جمع آفل (بوزن راكع وركع) : اسم فاعل من أفل النجم (من بابى دخل وجلس) : أى غاب . وجملة : « وهى أفل » : جملة حالية . ومعنى أضاءت مصابيح الدجى فى حالة أفولها : أن وقت الأفول ، ووقت الإضاءة متقاربان ، أو متداخلان ؛ وفيه تأكيد لتحقق وقوع الإضاءة ، وقرب وقتها . ويراد بمصابيح الدجى : النجوم والكواكب النيرة .

فى البيت السابق حصر الناس جميعاً فى نطاق قدرة الله تعالى ، وأغلق عليهم الباب ؛ فلا مفر من قضاء الله وقدره ، ولا حيلة لهم بإزاء ما كتب عليهم فى هذه الحياة .

وفى هذا البيت ترويح وعلاج لما قد يتركه هذا المعنى فى نفوس بعض الناس من الضيق ، أو الضجر أو الحزن ، أو الكآبة ؛ فهو يقول : إن فاتك حظك من الخير ، أو لم يواتك النجح والتوفيق فى بعض مساعيك ؛ فلا يشتد عليك الأمر ، ولا تظلم الدنيا فى وجهك ، ولا تيئس من رحمة الله ؛ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ؛ وإنك لترى الليل بهيماً ، حالك الظلمة ، فلا تلبث الكواكب والنجوم النيرة أن تطلع بعد أفولها ، فتضىء وتنير ، وتبدد الظلمات ، وتحل الأمن والطمأنينة محل الخوف واليأس والضجر . وفى البيتين الآتيين مثل هذا الترويح والعلاج ، وطرد أشباح اليأس والقنوط ، وتفتيح أبواب الأمل والرجاء .

فَقَدْ يَبْرَأُ الدَّاءُ الْعُضَالُ ، وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الرَّزَايَا ، وَالْمُسَافِرُ يَقْفُلُ(١٨)
وَكَيْفَ يَخَافُ الْمَرْءُ حَيْفًا ، وَرَبُّهُ بِأَحْسَنِ ما يَرْجُو مِنَ الرِّزْقِ يَكْفُلُ ؟(١٩)

(١٨) « قد » فى مثل هذا المقام تفيد التوقع : أى ارتقاب وقوع البرء والشفاء ، أو هى للتكثير : أى وكثيراً ما يبرأ الداء العضال ، أو هى للتحقيق . أو هى لهذه المعانى الثلاثة مجتمعة . وبرئ المريض من مرضه (كعلم ، ومنع ، وكرم) : شفى منه ، وتخلص . ويراد بالداء : ذو الداء . والعضال : الشديد المعجز ، يعضل الأطباء : أى يعييهم ، ويعجزهم ، فلا يعرفون وجهه ، ولا يستطيعون مداواته ، ولا يجدون له طباً ؛ ومثله العياء . وينجلى : ينكشف ، ويذهب . والضباب : سحاب كالدخان ، يغشى الأرض ، ويكثر فى الغداة الباردة ؛ واحدته ضبابة (بوزن سحابة) . والرزايا : المصائب ، والبلايا . وآحدتها رزية (بوزن بلية) ، وأصلها رزيئة بالهمز . وقفل المسافر (من بابى قعد ، وجلس) : عاد من سفره ، ورجع .

وقد تضمن هذا البيت ثلاثة أمثلة ، كلها فى معنى قوله فى البيت السابق : « فربما أضاءت مصابيح الدجى وهى أفل » : برء المريض بالداء العضال . وانجلاء ضباب الرزايا . وقفول المسافر ؛ وهذه الأمثلة الأربعة كلها للترويح والتبشير ، وتفتيح أبواب الأمل والرجاء ، وطرد أشباح اليأس والقنوط ، وتأكيد معنى اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الضيق ، والرخاء بعد الشدة ؛ وكلها فى علاج ابتئاس من فاته حظ .

(١٩) الاستفهام فى أول هذا البيت معناه النفى . والحيف : الجور ، والظلم . والرزق : كل ما ينتفع به . وما به قوام الجسم ، ونماؤه ، وزينته من الأغذية ، والأقوات ، والملابس ، وجمعه أرزاق . ويكفل الله الرزق ، ويكفل به : يتكفل به ، ويضمنه : من الكفالة : وهى الضمان . (وفعله كنصر ، وضرب ، وفرح ، وكرم) . و « بأحسن ما يرجو » متعلق بـ « يكفل » . و « من الرزق » : بيان لـ « ما يرجو » : أى أن الله تعالى يتكفل لعبده بأحسن ما يرجوه من الرزق .

والمعنى : لا ينبغى أن يخشى الإنسان ظلماً ، أو هضماً ، أو نقصاً فى رزقه ؛ فإن الله تبارك وتعالى قد كفل لعباده الأرزاق ، وضمن لك أحسن ما ترجوه منها ؛ ولعل الغرض من مثل هذا البيت توجيه الناس إلى الإيمان . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ، ولا هضماً » (الآية رقم ١١٢ من سورة طه) ، وقال عز وجل : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم » (الآية رقم ٥٠ من سورة الحج) .

تلخيص وتعليق

عنى الشاعر فى هذه القصيدة بوصف البحر ، وتصوير كثير من خصائصه ، وتقلباته ؛ فهو فى بعض الأحيان ساج هادئ ، داه مساه ، لين رفيق ، يداعب النسيم ماءه ؛ فيرسم فوقه حبائك وطرائق تجعله كالشعر الجعد .

=

وهو فى أكثر أحواله أخرق أحمق ، ثائر فائر ، هائج مائج ، مضطرب مصطخب ، متقلب متلون ، خئون غدور ، لا يحفظ عهداً ، ولا يصون وداً ، ولا يرعى إخاء من آخاه ؛ عنيد عنيف ، لا يرعوى بالجد والصرامة ، ولايلين بالملاينة والمحاسنة ؛ بخيل شحيح على الرغم من شهرته بالجود والسخاء ؛ يموت حلمه إذا غضب ، ويسىء إلى ضيوفه ، ويستعلى عليهم ، ولا يكاد يحفل بشىء من حقوق الأضياف ، وواجبات الضيافة ؛ وهو مهيب مرهوب ، يخشى الناس بأسه ، ويخافون صولته ؛ ولكنه على رهبوته وجبروته لا يكاد يطيق الريح ؛ فإذا مسته بنفخة واحدة من نفخاتها جبن وضعف ، وارتعد واضطرب . كذلك عنى الشاعر عناية ظاهرة بوصف الموج ، وكرر ذكره فى عدة مواضع من القصيدة بعدة مترادفات وأوصاف ؛ فهو ملتج متلاطم ، مطرد متتابع ، يعلو ويسفل ، ويرغى ويزبد ، ويتجفل ويتنفش ، ويعج ويضج ، ويطيش ويحتد ، ويعاسر السفن ويلاطمها ، ويهزها براكبيها هزا عنيفاً ، كأنهم فى أرجوحة يقوم عليها من يوالى دفعها وتحريكها ، وتجديد قوتها ؛ فهى تعلو بهم حتى تكاد تناطح السحاب ، وتهبط لتسبح بهم فى غمار الماء . ومن تشبيهاته التى استعان بها على توضيح الوصف وتفصيله — تشبيهه الزبد أو الرغوة بالعهن المنفوش ؛ وتمثيله الماء الجارى فى يسر وسهولة وسلاسة بالشعر المجعد ، أو المحبك ، أو المفلفل ؛ وتشبيهه الأمواج المطردة المتتابعة السريعة فوق سطح البحر بنعائم جافلة متلاحقة فى عرض الصحراء . وقد يكرر الصورة الواحدة مع اختلاف يسير فى التعبير ، كما ترى فى الشطر الثانى من البيت الثالث ، والشطر الأول من البيت الرابع عشر .

ومن المفردات اللغوية الغريبة التى جاءت فى هذه القصيدة : النئوج ، والتجفل ، والأولق ، والأزفل ، والأرفل ، ويتأفل ؛ ويلاحظ أن أكثرها فى القافية . وقد قدمنا أن الشاعر التزم حرف الفاء قبل روى هذه اللامية ، وهو التزام لا تحتمه قواعد القافية ، أى أن الشاعر لم يكتف بالقيود التى يفرضها علم العروض والقافية ؛ بل زاد عليها ، وأضاف إليها قيداً جديداً ؛ فدل على مقدرته الشعرية الفائقة ، وتمكنه من صناعته ، وفيضان قريحته ، وإحاطته بكثير من غريب اللغة .

ولم يفته ذكر الرياح وتأثيرها فى البحر ، وتأثره بها ؛ فهى تشاغبه وتشاكسه ، وتنبرى له ، وتعسف به ، وتهيجه وتثيره ، وتهزه وترفله ، وترهبه وتخيفه ، وتزعجه وتجفله .

وصف الشاعر البحر فى أربعة عشر بيتاً . وفى البيت الخامس عشر أشار إلى أهوال البحر وشدائده التى تزعج ركابه ، وتنبههم من غفلتهم ، وتذكرهم بماضى خطيئاتهم ، وتتوعدهم بالعقاب الإلهى العادل ، إلا إذا أدركتهم رحمة الله ومغفرته . وفى البيت السادس عشر قال : إن الناس جميعاً تحيط بهم قدرة الله ، ويحصرهم ملكوته وجبروته ، ولاحيلة لهم بإزاء هذا ، ولامفر منه ؛ كأنه عاد مرة أخرى إلى تذكيرهم بما يرتقبهم من جزاء الخطايا والذنوب . ثم ختم القصيدة بثلاثة أبيات فى معنى الترويح أو التبشير ، أو تفتيح=

وَقَالَ يَفْتَخِرُ :

أَهِلَالٌ بَيْنَ هَـالَهْ ؟ أَمْ غَزَالٌ فى غِلَالَهْ ؟(١)

صَادَ بِاللَّحْظِ فُؤَادِي أَتُرَى الْهُدْبَ حِبَالَهْ ؟(٢)

= أبواب الأمل والرجاء ، أو الإطماع فى رحمة الرحمن الرحيم .

فهذه تسعة عشر بيتاً تضمنت وصف البحر وأمواجه ، وذكر الرياح والسفن وركابها : وشيئاً يشبه العظة أو الحكمة المناسبة لهذا المقام ؟

* * *

(١) افتتح الشاعر هذه القصيدة بالغزل، وجعله مقدمة للفخر بشعره ، على عادة بعض الشعراء الذين روى عنهم ، وأعجب بشعرهم ؛ فحفظ لهم ، واحتذى مثالهم ، ونسج على منوالهم .

الهلال : غرة القمر إلى سبع ليال من الشهر العربى ؛ أو لليلتين ، أو إلى ثلاث ؛ ولليلتين من آخر الشهر ؛ وهو هنا : القمرالتام : أى البدر ، ويريد به : الفتاة الحسناء التى يتغزل بها ؛ يشبهها بالقمر فى حسن طلعتها ، وإشراق وجهها ، وبياض بشرتها ، وسمو قدرها . وهالة القمر : دارته : وهى سطح مستدير يحيط بجسمه المضيء . ويراد بالهالة هنا : ما ترتديه هذه الحسناء من أثواب رقيقة، يشرق منها وجهها ، كما يشرق القمر وسط هالته ؛ أو النسوة الحسان اللاتى كن يحطن بهذه الحسناء كما تحيط الهالة بالقمر ، وتدور حوله . والغزال : الظبى إذا شدن : أى نما ، وترعرع ، وقوى، وتحرك ، ومشى ، واستغنى عن أمه ؛ وتشبه به الفتاة فى جمال الجيد والعينين . والرشاقة ، والخفة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنى . والغلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الدثار ، أو قميص رقيق ، يلبس تحت الثياب ملاصقاً للجسم ؛ والاستفهام فى هذا البيت : من تجاهل العارف ، للمبالغة فى التغنى ببهجتها ، وإشراق وجهها ، وحسن طلعتها ، وجمال جيدها ، وحور عينيها ، ورشاقتها ، ولطف حركتها ، وسائر المشابه والمحاسن التى تجمع بينها و بين القمر والغزال . ومن تجاهل العارف لمثل هذا الغرض قول البحترى :

ألمع برق سرى ، أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى ؟

و يبدو أن هذه اللامية من فخرياته فى شبابه ، وهو فى نحو العشرين من عمره .

(٢) اللحظ : مصدر لحظه (من باب قطع) ، ولحظ إليه : أى نظر إليه بمؤخر عينه . ومن كلامهم : « فتنته ألحاظها ولحظاتها . وهدب العين : الشعر النابت على أشفارها : أى حروف أجفانها ، واحدته هدبة ، وجمعه أهداب . والحبالة : المصيدة ، وجمعها : حبائل . والهدب حبالة : تشبيه بليغ ، ضاعف بلاغته الاستفهام الذى قبله . وترى (بالبناء للمفعول) : بمعنى تظن . و (بالبناء للفاعل) : بمعنى تنظر بالعين، أو بالعقل . وفى الشطر الثانى تنويه بأهداب عينيها ، وتصوير بليغ لشدة تأثير هذه الأهداب فى قلوب العشاق .

استمالته هذه الحسناء ، وولهته بفتون لحظاتها ، وحلاوة نظراتها ، وسحر عينيها ، وجمال أهدابهما .

غَرَّنِى . ثُمَّ تَـوَلَّى لَيْتَ شِعْرِى . مَا بَدَا لَهْ ؟[٣]

أَنَا مِنْ شَـوْقِى إِلَيْـهِ وَاقِعٌ بَيْنَ ضَـلَالَهْ[٤]

أَيُّهَا الظَّالِمُ ! هَبْ لِى مَرَّةً مِنْكَ الْعَـدَالَهْ[٥]

وَارْعَ لِى حَقَّ وِدَادٍ فِيكَ ، لَمْ أَقْطَعْ حِبَـالَهْ[٦]

---

(٣) غرنى : خدعنى ، وأطمعنى بالباطل . وتولى عنه : صدف عنه : أى أعرض عنه ، وتركه . و « ليت » » : حرف يفيد التمنى . والشعر : العلم : مصدر شعر به : أى علم ، أو أحس به ، أوفطن له . وليت شعرى : ليتنى أعلم ، أوأدرى ، أو أعرف . وبدا : ظهر ، وبان ، واتضح . وبدا له فى الأمر كذا : أى خطر ، أونشأ ، أو جد له فيه رأى يخالف رأيه الأول ؛ فصرفه عنه .

والمعنى : أنها خدعته بإقبالها عليه ، وأطمعته فى وصالها ، ولكنها ما لبثت أن صدت عنه ، وتركته مبتئساً متحسراً ، يتمنى أن يعرف ما بدا لها ؛ فكان سبب إعراضها عنه ، بعد ارتياحها له .

(٤) « من » هنا : تعليلية : أى تبين العلة ، والسبب : أى أنا بسبب شوقى إليه واقع بين ضلالة : أى تغمرنى الضلالة ، وتحيط بى : مصدر ضلّ الطريق ، أو ضل عنه : أى لم يهتد إليه . وضل عنه الشىء أى ضاع ، وذهب ؛ وضل سعيه : لم ينجح . وضل الشىء : نسيه . أو فقده . ومن معانى الضلالة : التلف ، والهلاك . ويراد بها هنا : ما يضانيه العاشق المشوق ، والصب المستهام من الحيرة ، والقلق ، والضجر ، والتوله ، والتدله ، والافتتان ، والولوع ، والهيام ، وتباريح الشوق ، والصبابة ، والغرام .

(٥) وهب له الشىء : أعطاه إياه بلا عوض . و « هب » : أمر من وهب .

جعل إعراضها عنه ظلماً له ، وجوراً عليه ؛ لأنها قطعت ما وصله من حبل الود والوفاء ؛ فظلمته بهذه القطيعة ، وهذا الصدود ، وأراد بعدالتها : إقبالها عليه ، وإلقاءها بالمودة إليه .

والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويفصله ، ويعززه .

(٦) ارع : أمر من رعى الإنسان الشىء : أى حفظه ، ووقاه ، وصانه ، ولم يهمله . ورعى عليه حرمته ، أو حقه ، أو عهده : أى حفظه . والوداد (بتثليث الواو) : المودة ، والمحبة . ووادّه موادة ووداداً (بكسر الواو) : أى حابه ، وصادقه ، وخادنه . وحق الوداد : ما يستحقه الود ، ويستوجبه من الإقبال على المتودد ، والبر به ، والوفاء له . و « فيك » : لك ، أو إليك : أى وارع حق توددى إليك .

يطلب إليها أن ترعى عليه حق مودته لها ، وتحفظ ما تستوجبه هذه المودة من وصاله ، والإقبال عليه ، والوفاء له . ويقول : إنه لم يقطع حبال الود ، ولم يفرط فيه ، ولم يتهاون به ؛ بل حرص كل الحرص على قوته ، واستدامته ، ورجا أن يكون حرصها مكافئاً لحرصه ، وتوددها مماثلا لتودده .

والشاعر فى ستة الأبيات الآتية ينتقل من الغزل إلى الفخر بشعره .

مَنْطِقٌ عَــذْبٌ ، وَمَعْنَى يَبْسِمُ السِّحْرُ خِــلَالَهْ(٧)

كُلُّ بَيْتٍ كَنَسِيجِ الرَّ وْضِ حُسْنًا وَطَلَالَهْ(٨)

أَنَا فِي الشِّعْرِ عَــرِيقٌ لَمْ أَرِثْهُ عَنْ كَلَالَهْ(٩)

---

(٧) « منطق » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : منطق : أى كلامى : منطق عذب : أى سائغ سهل ، سلس ، مسترسل ، حلو الوقع ، جميل التأليف ؛ على التشبيه بما عذب من الطعام والشراب : أى ساغ ، ولذ ، وطاب . ويبسم : من البسم : وهو أخف الضحك ، وأقله ، وأحسنه . (وفعله من باب ضرب) . ومثله التبسم ، والابتسام . والسحر : كل ما لطف مأخذه ، ودق . وكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ؛ ومنه الحيل اللطيفة الخفية المستغربة . وسحر الكلام : حسنه ، ولطافته ، وبلاغته ، وشدة تأثيره فى الأسماع والقلوب والعقول ؛ وفى المثل : « إن من البيان لسحراً » . وتشبيه بعض البيان بالسحر فى شدة تأثيره ، وسرعة قبوله ، وانبهار النفوس به . وخلاله : بينه ، أو فى أثنائه وأطوائه . ويبسم السحر خلال كلامه ومعانيه : كناية عن بهاء شعره وجماله ، وحسنه وروعته ، واجتذابه الأسماع والقلوبَ والعقول ، وشدة تأثيره فيها ، وشدة تأثرها به .

انتقل الشاعر هنا من الغزل إلى الفخر بشعره ؛ ولعل الصلة بين هذين الفنين أو الغرضين : أنه كان يغازل هذه الحسناء بشعره العذب الحلو السائغ ، وأدبه البليغ الباهر الساحر .

(٨) نسيج : فعيل بمعنى مفعول ، من نسج الغيث النبات : أى أنبته ، وأنماه حتى التف . والروض جمع ، أو اسم جنس جمعى لروضة : وهى أرض مخضرة بأنواع النبات ، ذات مياه وأزهار . والطلالة : البهجة ، والحسن ، وجمال الهيئة .

يشبه كل بيت من شعره الباهر الساحر بالروض النضير البهيج ؛ ووجه الشبه بينهما الحسن والرونق ، والإقبال عليهما ، والارتياح لهما ، والاستمتاع بهما .

(٩) هو عريق فى كذا : له فيه عرق : أى أصل ثابت راسخ . والكلالة هنا : القرابة الضعيفة البعيدة : من كلّ (بوزن قل يقل) : أى ضعف . والعرب تقول : هو ابن عمى لحًّا : إذا كان لاصق النسب ، قريب القرابة . وتقول : هو ابن عم الكلالة . وابن عم كلالة : إذا لم يكن لحًّا ، بل كان رجلا من العشيرة .

يفتخر بأنه أصيل ، معرق له فى الشعر ، وأنه ورث هذه الموهبة الشعرية العالية عن آبائه وأقربائه الأدنين ، ولم يرثها عن كلالة . وفى الأبيات الثلاثة الآتية توضيح ، وتفصيل ، وتأكيد لهذا المعنى .

كَانَ «إِبْرَاهِيمُ» خَالِي فِيـــهِ مَشْهُورَ الْمَقَالَهْ[١٠]
وَسَمَا جَدِّي «عَلِيٌّ» يَطْلُبُ النَّجْمَ ، فَنَـــالَهْ[١١]

---

(١٠) إبراهيم بن على أغا البارودى . اخترمته المنية شاباً فى الخامسة والعشرين ؛ وكان أديباً ، شاعراً ، مولعاً بقراءة دواوين النابهين من شعراء العرب والترك ، راوية لأشعارهم ؛ وكانت داره (وهى دار شقيقته فاطمة البارودية ، والدة «محمود سامى البارودى») منتدى لأنداده من الشعراء والأدباء فى زمانه ؛ ولما مات عنيت شقيقته بجمع شعره ، وأمرت بكتابته فى ألواح ، زينت بها غرف الطبقة العليا من دارها . ولما ترعرع الغلام الناشىء «محمود سامى البارودى» أقبل على هذه الألواح ، فقرأها ، ورواها ؛ وانتفع بمكتبة خاله ، وشعره ، وأدبه ، وجاراه فى هوايته ؛ ونوه به فى هذه اللامية ، وجعل الشعر نسباً عريقاً ، وآصرة قوية عطفته إلى خاله ، وأوثقت الصلة بينهما ، كما جعله إرثاً أدبياً امتد إليه منه .

وفيه : أى فى الشعر . وهو متعلق بـ «مشهور» . والمقالة : القول . يريد أن خاله «إبراهيم» نظم الشعر ، وقاله ، وأنشده ، ونبه فيه ، واشتهر به

(١١) سما يسمو سمواً : علا ، وارتفع . و «على» المنوه به هنا : هو جد «محمود سامى البارودى» لأمه ، أى والد خاله «إبراهيم» ، واسمه : «على أغا البارودى» ، وكان من فرسان المماليك الجراكسة ، وأبطالهم الذين كافحوا جيش الاحتلال الفرنسى فى صعيد مصر . ولما ولى الحكم «محمد على باشا» رأس الأسرة العلوية الخديوية — أضمر كسر الشوكة العسكرية لهؤلاء المماليك ؛ فدبر لهم مذبحة القلعة ، وكان «على أغا البارودى» ممن قتلوا سنة ١٨١١ فى تلك المذبحة غيلة وغدراً ، كما قتل فيها «عبد الله الجركسى الألفى» جد الشاعر لأبيه .

والنجم : الكوكب . وإذا أطلقت العرب النجم أرادت به الثريا : وهى علم على عدة كواكب مجتمعة متناسقة فى عنق «الثور» : وهو برج من بروج السماء ؛ سميت بذلك لكثرة كواكبها ، مع ضيق المحل ، وصغر المنظر . وناله : بلغه ، وأدركه . والشطر الثانى : كناية عن نباهة شأن جده «على» ، وسمو مكانته ، ورفعة قدره ، وبعد همته . ويبدو أنه كان على صلة وثيقة بالأدب والبيان العربى ؛ بدليل البيت التاسع ، والبيت الثانى عشر .

فى البيت السابق اعتز بخاله «إبراهيم» . وقال : إنه كان أديباً ، شاعراً ، نابهاً . ويبدو أنه اقتدى به ، فأقبل على الأدب والشعر حتى نبغ فيهما ؛ ولا ريب أنه تأثر بما رواه وحفظه من تراث خاله .

وفى هذا البيت اعتز بجده «على» ، ونوه بمجادته ، وبعد غايته ، وسمو همته ، واعتلائه غارب العلياء ، ووثاقة صلته بالأدب والبيان العربى .

١٩٧

فَهْوَ لِي إِرْثٌ كَرِيمٌ سَوْفَ يَبْقَى فِى السُّلَالَةْ(١٢)

---

(١٢) هو : أى الشعر . وإرث : ميراث ، يرثه الخلف عن السلف . والكريم : صفة ما يرضى ويحمد فى بابه؛ فالقول الكريم – مثلاً – : هو الكلام المرضى المحمود ؛ لفصاحته ، وبلاغته، وصدقه ، وحسن تأثيره ، وجزيل منفعته . والكريم أيضاً : العزيز النفيس ؛ والشريف العظيم . والسلالة : النسل والولد .

يقول : إن الشعر تراث كريم نفيس ، ورثه عن آبائه وأصوله . وسوف يبقى فى ذريته وأولاده .

تلخيص وتعليق

هذه القصيدة من مجزوء الرمل . ومن السهل الممتنع ؛ فألفاظها كلها قريبة مألوفة، وستة الأبيات الأولى منها فى الغزل الذى جعله الشاعر مقدمة لفخره بشعره فى ستة الأبيات الأخيرة .

وتقديم الغزل بين يدى الفخر من عادة بعض الشعراء الذين روى البارودى عنهم ، وأعجب بشعرهم ؛ فحفظ لهم ، واحتذى مثالهم ، ونسج على منوالهم؛ ولم يزد غزله على بعض الأوصاف العامة الحسية الجسمانية التى لهج بها الشعراء قبله ؛ فالمتغزل بها قمر وغزال ، وعيناها وأهدابهما ولحظاتها فاتنة ساحرة ؛ ويبدو أنها أقبلت عليه برهة يسيرة ، أو أظهرت له الإقبال ، ولكنها ما لبثت أن أعرضت عنه ، فأججت بصدودها شوقه وهيامه ، وضاعفت تعلقه وغرامه ، وأوقعته فى الحيرة والضلالة ؛ فرماها بالظلم ، وطالبها بالعدالة ، ومراعاة حقوق الود فى البيتين الخامس والسادس ، وبهما ختم حديث الغزل ، ومنهما انتقل بلا توطئة أو تمهيد – إلى الفخر بشعره ؛ ولعل المناسبة بين هذين الغرضين : أنه كان يغازل هذه الفتاة بشعره العذب الساحر ، ويلاحظ أن أكثر أبيات الفخر تقرر إعراقه فى الشعر ، وتأصله فيه ، وأنه وراثى فى أسرته ، وأن هذا التراث الكريم النفيس انتقل إليه من آبائه وأصوله ، وسوف يبقى فى ذريته وأولاده .

وقد يكون فى هذا شىء من التزيد ، أو التجافى عن الحقيقة ، ولكن الذى لا شك فيه أن شعر البارودى كله أو أكثره يجرى على الطبع والسليقة ، ولا يعيبه التكلف أو التصنع ؛ فكأنه وراثى فيه ، وفى أسرته على نحو ما يقرره مؤرخو الأدب عن الشاعر الجاهلى «زهير بن أبى سلمى» ، وإن كنا لا نعرف من أسرة البارودى من ظهر فى الشعر ، واشتهر به غيره .

وَقَالَ يَذْكُرُ مَا لَحِقَهُ . وَهِيَ مِنْ لُزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ :

يَا نَاصِرَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ! خُذْ لِي بِحَقِّي مِنْ يَدَيْ مَاطِلِي (١)

جَارَ عَلَى ضَعْفِي بِسُلْطَانِهِ وَمَا رَثَى لِلْمَدْمَعِ الْهَاطِلِ (٢)

---

(١) يشير البارودى بهذا البيت والأبيات التى تليه إلى بعض النكبات التى حلت به عقب إخفاق الثورة العرابية ، كتجريده من ثروته ، والاستيلاء على أمواله؛ ويلاحظ أنه كان من زعماء تلك الثورة وقادتها ، الضاربين فى غمرتها .

وقد التزم حرف « الطاء » قبل روى هذه الأبيات ، وهو اللام ، وهذا التزام لا تحتمه قواعد القافية ؛ وهو من المحسنات اللفظية التى يتكلفها الشاعر ، ويعمد إليها أحياناً لإظهار براعته فى نظم الشعر ؛ إن الشاعر بالتزامه ما لا يلزم يضيف باختياره إلى قيود القافية قيداً ، أو قيوداً جديدة ؛ ليدل على مقدرته الشعرية ، وتمكنه من اللغة ، وإحاطته بكثير من مفرداتها . وهذا الالتزام غير قليل فى شعر البارودى .

وقد افتتح البيت الأول من هذه المقطوعة بنداء الله تبارك وتعالى ، واستنصاره ؛ أو هو ينادى ، ويستنصر كل من ترجى نصرته ، وحسن معونته ، ومقدرته على دفع الشر ، ورد العدوان ، واستنقاذ الحقوق . ويريد بحقه : ما كان حقاً ثابتاً له ، فاستولت عليه الحكومة ، وجردته منه ، وحرمته إياه ، كثروته ، وحريته ، ومنصبه ، وجاهه . وماطل : اسم فاعل من مطله حقه ، ومطله بحقه (من باب قتل) : أى أجل موعد الوفاء به مرة بعد أخرى ؛ فالمطل : التسويف ، والتأخير بالوعود المخلفة الكاذبة . ويريد بماطله ، ظالمه الذى هضمه حقه ، وجار عليه ، بدليل البيت الآتى .

ينادى الله تبارك وتعالى ، أو كل مستمع للنداء ، محب للعدل ، مقتدر على الإنصاف ، ممن يحقون الحق ، ويبطلون الباطل ، وينصرون المستنصر ؛ راجياً أن يعينوه على استنقاذ حقوقه من أيدى ظالميه الذين جاروا عليه ، وحرموه ثراءه ، وماله ، وجاهه .

(٢) جار عليه : عدا عليه ، وظلمه ، وتجاوز الحد فى ظلمه وعدوانه . ويريد بضعفه : استسلامه ، وضعف حيلته ، وعجزه عن المقاومة ، وقصوره عن الدفاع عن نفسه وماله . والسلطان : القوة ، والقهر ، والتسلط ، والسيطرة ، والحكم ، ومقدرة الحاكم ، وبأسه ، وسطوته . ورثى له (من باب رمى) : رق له ، ورحمه ، وأشفق عليه . والمدمع (بوزن المذهب) : مصدر ميمى من دمعت العين (من بابى نفع وتعب) : أى سال دمعها . والمدمع أيضاً : موضع الدمع ، ومسيله ، ومجراه من العين . أو هو مجتمع الدمع فى نواحى العين . ويستعار المدمع للدمع : أى لماء العين ، وجمعه مدامع (بوزن مذاهب) . ويقال : فاضت مدامعه . والهاطل : الغزير الكثير ، الجارى المنصب : اسم فاعل من هطل الدمع (من باب ضرب) : أى سال ، =

أَخْـرَجَنِي عَمَّا حَوَتْهُ يَدِي مِنْ كَسْبِيَ الْحُرِّ بِلَا نَاطِلِ (٣)
مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ ، سِوَى مَنْطِقٍ ذِي رَوْنَقٍ ، كَالصَّارِمِ الْقَاطِلِ (٤)

= وجرى ، وانصب . وهطلت العين بالدمع : أسالته ، وصبته .

يقول : — مستنصراً ، مسترحماً — : إن ماطله أو ظالمه اعتدى بسطوته وجبروته على شخصه الضعيف فسلبه حقوقه ، ولم يرقّ لبكائه ، أو لبكاء من بكى عليه من أهله وعيانه .

(٣) فاعل « أخرجنى » : ضمير يعود على « ماطلى » فى البيت الأول : وهو الذى ظلمه ، وقسا عليه ، وهضمه حقه . و « من كسبى الحر » : بيان لـ « ما حوته يدى» . وكسبه : رزقه ، وثروته ، وماله ؛ ويراد بالحر : الطيب الحلال ، الخالص من شوائب الريب والشبهات . والناطل : القليل ، والفضلة تبقى فى المكيال ، والجرعة من الماء ونحوه ؛ ويقال : « ما ظفرت منه بناطل» : أى لم أنل منه شيئاً . و بـ « لا ناطل» متعلق بـ « أخرجنى » . والترتيب الأصلى لكلمات هذا البيت : « أخرجنى بلا ناطل عما حوته يدى من كسبى الحر » .

يقول : إن ظالمه الذى جار عليه ، وهضمه حقه — قد جرده من كل كسبه الحر الطيب ، واستولى على كل ما كان فى حيازته ، ولم يبق له شيئاً .

(٤) من غير ما ذنب : من غير ذنب . و « ما » : زائدة بين المضاف والمضاف إليه ؛ والغرض من زيادتها تأكيد المعنى وتقويته . والمنطق : الكلام . ويراد به هنا : البيان الفصيح البليغ ، المنطق المقنع ، الذى يحق الحق ، ويبطل الباطل ، بدليل الشطر الثانى من هذا البيت ، والبيت الآتى . ورونق السيف : ماؤه ، وصفاؤه . ورونق الضحا : إشراقه ، وبهاؤه . ورونق الكلام : طلاوته ، وحسنه . ومنطق ذو رونق : كلام مشرق ، واضح ، قوى ، بليغ ، وكالصارم : كالسيف القاطع : أى يقطع بالحجة الدامغة — الجدل والخصومات ، ويميز الحق من الباطل . والقاطل : بمعنى الصارم ؛ فهو تكرار ، وتأكيد له : اسم فاعل من قطله (من بابى ضرب ، ونصر) : أى قطعه . وتشبيه كلامه بالسيف الصارم القاطل تمهيد لمعنى البيت الآتى .

برّأ الشاعر نفسه من الذنب ، ونفى عنها الإثم والخطيئة ، ثم أتى بأداة استثناء هى « سوى» ؛ فسبق إلى وهم القارئ والسامع أن فيه ذنباً سيعترف به فى جرأة وصراحة ، ولكنهما لم يلبثا أن وجدا بعد أداة الاستثناء صفة من صفات التمدح والفخر : وهى امتياز منطقه بالبهجة والطلاوة ، والقطع والصرامة ؛ فراعهما هذا الأسلوب ، وعلما أن الشاعر خدعهما ، فلم يذكر عيباً ، أو ذنباً ؛ بل أكد براءته من الذنب فى صورة توهم الذم : أى أنه أكد المدح بما يشبه الذم ؛ فاستثنى من صفة ذم منفية ، وهى « ذنب » صفة مدح ، وهى « منطق رائق قاطع » . وتأكيد المدح بما يشبه الذم من المحسنات البديعية المعنوية التى تجمل الكلام ، وتزينه ، وترفع درجته فى مراتب البلاغة ، وسحر البيان . =

أَتْلُو بِهِ الْحَقَّ ، وَأَرمِي بِهِ نَحْرَ الْعِدَا فِى الرَّهَجِ السَّاطِلِ (٥)
فَإِنْ أَكُنْ جُرِّدْتُ مِنْ ثَرْوَتِى فَفَضْلُ رَبِّى حِلْيَةُ الْعَاطِلِ (٦)

= يقول فى هذا البيت والذى قبله : إن هذا الماطل الجائر جرده من ماله وكسبه الطيب الحلال ، ولم يبق له منه شيئاً ، على حين أنه برىء ، لم يرتكب خطيئة ، ولم يقترف ذنباً ، إلا ما كان من قوله الفصيح البليغ ، المنطق الصادق ، القوى القاطع .

(٥) تلاه يتلوه (من باب سما) : اتبعه . وتلا الكتاب وغيره تلاوة : قرأه . وتلا الخبر : أخبر به . فهذه ثلاثة معان : أى أتبع بمنطق الحق ، ولا أحيد عنه . أو أظهره ، وأوضحه ، وأبينه ، كما يظهر التالى بحسن تلاوته ما يتلوه . أو أخبر بمنطق خبر الحق ، أو أخبر به مراعياً الحق ، ملتزماً إياه . والنحر : الصدر ، أو أعلاه . والعدا : الأعداء . والرهج : الغبار الثائر . والرهج : الفتنة ، والشغب . والساطل من الغبار : المرتفع . ويراد بالرهج الساطل : الفتنة ، أو الثورة ، أو الحرب ، أو نحوها .

والمعنى : أنه يظهر الحق بمنطقه ، ويلتزمه ، ولا يكاد يحيد عنه ؛ وإذا أخبر تحرى الحق والصدق ، والرشد والصواب ؛ وإذا رمى به الأعداء نال منهم ما لا تناله الأسلحة فى الفتن والحروب .

(٦) الفضل : الإحسان ، أو الابتداء به بلا علة ، وكل عطية يتبرع بها المتفضل من غير سؤال ، أو إلزام ، وبلا عوض ، أو جزاء . وفضل الله تبارك وتعالى على المرء فى النكبات والشدائد : أن يلطف به فى قضائه ، ويحفظ له قوة الإيمان ، وينعم عليه بالجلد والثبات ، ويقويه على احتمال ما نزل به ، ويلهمه الصبر الجميل ، ويثيبه عليه . وحلية : زينة . والعاطل : ضد الحالى . ورجل عاطل : خال من المال ، أو غيره .

والمعنى : إذا كان قد جرد من ثروته وماله ، فما زال يزدان بسجايا عالية ، وأخلاق كريمة فضله الله بها ، كعزة النفس ، وإباء الضيم ، وسحر البيان .

أو المعنى : أن المال زينة الحياة الدنيا ، وقد جرد منه الشاعر ؛ فتداركه الله برحمته ولطفه ، ومن عليه بفضله وإنعامه ، ووهب له قوة الإيمان والصبر ؛ فكان هذا حليته وزينته ، وخير عوض له من ثروته وماله .

تعليق وبيان

جاءت هذه المقطوعة فى ستة أبيات أشار فيها الشاعر إلى بعض ما أصابه بعد إخفاق الثورة العرابية ، وكان من زعمائها النابهين ، وقادتها الضاربين فى غمرتها .

وقد أدار هذه الأبيات كلها أو أكثرها حول تجريده من ثروته وماله وكسبه الحر ، فى أعقاب الهزيمة . ويبدو أن هذه العقوبة أو الكارثة كانت شديدة الوقع عليه ، بالغة الأثر فى نفسه ؛ ولهذا بكى ، واستبكى ، وأقر بضعفه وقلة حيلته أمام سطوة السلطان ، وبأس الحكام . واستنصر ، =

وَقَالَ أَيْضًا ، وَهِيَ مِنْ لُزُومِ مَالَا يَلْزَمُ* :

لِأَمْرٍ مَا تَحَيَّرَتِ الْعُقُولُ فَهَلْ تَدْرِى الْخَلَائِقُ مَا تَقُولُ ؟[1]

= واستنجد ، واستجار الله رب العالمين ، ودعاه أن يأخذ له حقه من يدى هذا السلطان الذى وصفه بالمطال ، ووصمه بالجور والعدوان .

ولم يفته أن يتبرأ من الذنب ، ويتنصل من التبعات ؛ ويؤكد براءة ساحته ، واستقامة سيرته ، وإخلاصه لوطنه ويفتخر بطلاوة منطقه ، وقوة حجته ، وسحر بيانه ، وإدارته على الدوام فى نطاق الحق والصدق ، والتزامه به جانب السداد والرشاد ، واستخدامه فى ملاحاة الأعداء إبّان الفتن والثورات ؛ يكشف به خدعهم ، ويحبط أباطيلهم ، ويفضح ما يضمرونه من الشر والأذى ، والبغى والإفساد ، وينال منهم بهذا السلاح الفتاك ما لا ينال بالسهام والنبال .

ولعله يشير بهذا إلى بيان ، أو تصريح ، أو خطبة سياسية ألقاها إبّان الثورة ، فغاظ بها الأعداء ، ونال بها منهم ، وكشف كيدهم ؛ فكانت من أسباب نكبته ، وقسوتهم عليه ، وتجريده من ثروته ؛ ولعله نظم هذه الأبيات بعد التجريد ، وقبل نفيه إلى جزيرة « سيلان » .

وإذا كان الجو النفسى لهذه المقطوعة ينم فى بعض نواحيه على ضعف الشاعر بإزاء هذه الكارثة ، كما ترى فى البيت الثانى ؛ وعلى شدة تأثره بالفجيعة المالية كما ترى فى أكثر الأبيات — فإن فى هذا الجو نفسه ما يشهد له بالقوة والجرأة والشجاعة الأدبية ، كما ترى فى المقابلة بين حقه وباطل ظالمه ، ورميه بالجور ، والتنكيل بالأبرياء ، وافتخاره بمنطقه الرائق المشرق الذى التزم به جانب الحق ، ورمى به هؤلاء العدا فى نحورهم إبان الفتنة ، أو الثورة ؛ فغاظهم ، وكشف كيدهم ، وكان أمضى من أسلحة الحرب والقتال .

وفى البيت الأخير تعزية شافية لنفسه ، واتجاه دينى واضح ، واعتزاز بفضل الله عليه ، ولطفه به فى محنته .

وقد أشرنا فى مقدمة الشرح إلى أن الشاعر التزم فى نظم هذه الأبيات ما لا يلزم ، وأضاف باختياره إلى قيود القافية قيداً ، أو أكثر ؛ ليظهر براعته فى نظم الشعر ، ورياضة قوافيه ، ويدل على تمكّنه من اللغة ، وإحاطته بكثير من مفرداتها ، وسلامة ذوقه فى اختيار الكلمات ، ونسج العبارات ؛ وهذا الالتزام غير قليل فى ديوان البارودى .

* * *

(*) التزم الشاعر فى هذه الأبيات « الواو » قبل الروىّ ، وهو « اللام » . والتزم قبل « الواو » « القاف » ؛ وهو التزام لا تفرضه قواعد القافية ؛ وإنما هى قيود زائدة يقيّد بها الشاعر نفسه ، لإظهار فائق مقدرته على رياضة القوافى ، ونظم الشعر .

(١) لأمر ما : لأمر مبهم خفىّ غير معلوم . و « ما » هنا : للإبهام : أى إخفاء المراد بالاسم الذى

تَغِيبُ الشَّمْسُ ، ثُمَّ تَعُودُ فِينَا   وَتَذْوَى ، ثُمَّ تَخْضَرُّ الْبُقُولُ(٢)
طَبَــائِعُ لَا تُغِبُّ . مُرَدَّدَاتٍ   كَمَا تَعْرَى وَتَشْتَمِلُ الْحُقُولُ(٣)

= قبلها . وهو نكرة مبهمة غير محدودة . والأمر : الشأن، والشيء ، وجمعه أمور . وتحير : حار ، وتردد ، واضطرب ، وضل الطريق ، ولم يهتد إلى قصده . والاستفهام فى أول الشطر الثانى : معناه النفى . والخلائق : المخلوقات ؛ والمراد الناس ، واحدتها خليقة (بوزن طبيعة) .

والمعنى : أن الناس — على ما امتازوا به من عقل ، وفطنة ، وقوة إدراك — ما زالوا يجهلون كثيراً من حقائق الكون وظواهره . وأسرار الخلق وعجائبه ، ولا يعرفون جواباً لكثير مما يحيط بهم ، ويتصل كل الاتصال بحياتهم ؛ ولهذا يبيتون فى حيرة وتردد ، وشك وضلال . وفى الأبيات الآتية توضيح وتعزيز لبعض هذا المعنى .

(٢) تعود فينا : تعود إلينا . وتذوى : تذبل : مضارع ذوى النبات (كرمى ، ورضى) . والبقل : النبات ، والعشب ، واحدته بقلة ، وجمعه بقول .

(٣) « طبائع » : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هى طبائع : جمع طبيعة : وهى السجية التى جبل الإنسان عليها ؛ والمخلوقات التى يتألف منها الكون ؛ والقوة التى تسرى فى الأجسام ، ويصل بها الجسم إلى كماله الطبيعى . ويراد بالطبائع هنا : طبائع الكون ، وخصائصه ، وميزاته ، وقوانينه التى لا تختلف ، ولا تتخلف . ولا تغب : لا تتخلف ، ولا تتأخر : مضارع أغب إغباباً . أو مضارع غب (كخف ، ورد) . ومرددات : متكررة : اسم مفعول من الترديد : بمعنى التكرار ، وتعرب حالا من فاعل « تغب » ، أو تعرب نعتاً لـ « طبائع » ، وجملة « لا تغب » : نعت لها كذلك : أى هى طبائع مرددات غير مغبة . وتعرى : تتجرد من ثيابها : والمراد تخلو من النبات . وتشتمل : تكتسى : والمراد تكتسى بالنبات : مضارع اشتمل بثوبه : أى تلفف به ، وأداره على جسده كله . والحقول : جمع حقل (بوزن قلب وقلوب) : وهو الأرض الفضاء الطيبة ، يزرع فيها .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن غيبة الشمس عنا بالليل ، ثم عودتها إلينا بالنهار ، واخضرار النبات وذبوله ، وخلو الأرض منه ، واكتساءها به — من طبائع الكون وظواهره المكررة التى تجرى على قوانين ثابتة دقيقة ، لا يعتريها خلل ، أو فساد ، أو تخلف ، أو اختلاف .

وصلة هذين البيتين بالبيت الأول : أن الظواهر المشار إليها فيهما أمثلة قليلة لما يسترعى الانتباه ، ويبهر الناظرين من حقائق الكون وعجائبه ، وإذا كان النظر ، والبحث ، والدرس قد هدى العلماء إلى شىء من أسرار ذلك الكون وطبائعه ، فإن كثيراً منها ما زال مبهماً خفياً ، غامضاً مجهولا ، يحير =

فَسِيَّانِ الْجَهُولُ إِذَا تَنَـاهَتْ   بِهِ الْأَيَّامُ ، وَالْفَطِنُ الْعَقُولُ[٤]

= العقول ، ويعيى الأفهام ، ويضنى الأذهان .

والغرض تنبيه الناس على ملكوت السموات والأرض ، وحضهم على النظر والتدبر ؛ لاجتلاء آيات الله فى خلقه . وفى القرآن الكريم : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ؛ فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض — لآيات لقوم يعقلون » . الآية رقم ١٦٤ من سورة البقرة .

(٤) سيان : مثلان ، متساويان : مثنى « سى » . وتناهى الشىء : بلغ نهايته . وتناهت به الأيام : جاء أجله ، وانتهت حياته . والفطن (بفتح فكسر ، أو بفتح فضم ، أو بفتح فسكون) : ذو الفطنة : وهى الحذق ، وحدة الذهن ، وصحة الفهم ، ولطف الإدراك . والعقول (بوزن الرسول) : العاقل .

والمعنى : أن الجاهل الغر ، والعاقل الفطين يستويان عند الموت ، ولا يكادان يتمايزان ، أو يفترقان . وكأن كل ما يحصل فى هذه الحياة من علم ومعرفة ، وحكمة وخبرة — أمده قصير ، ولا ينتهى بالمرء إلى غاية ، ولا يكاد ينفعه ، أو يجدى عليه إذا جاء أجله ، وحان حينه . والشاعر هنا ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى :

يموت راعى الضأن فى جهله   ميتة « جالينوس » فى طبـه

وربمـا زاد على عمـره   وزاد فى الأمن على سربه

كما ينظر إلى قول أبى العلاء المعرى يخاطب الدهر :

أرى ذوى الفضل وأضدادهم   يجمعهم سيلك فى مـده

إن لم يكن رشد الفتى نافعـاً   فغيه أنفع من رشـده

وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة : أن تسوية الموت بين العالم والجاهل من الأمور التى تحير العقول . وتضنى الأذهان ؛ فإنهما عاشا فى الحياة الدنيا على طرفى نقيض : العالم يستضىء بعلمه ، ويضىء ، ويهتدى ويهدى ؛ والجاهل يركب التعاسيف ، ويضرب فى الظلمات ، ويخبط فى عمياء ؛ والفهم البدهى القريب الضرورى يقتضى أن يكون لتناقضهما فى حياتيهما أثر ظاهر ، كطول عمر العالم ، وزيادة أمنه على نفسه ، وتوديعه الدنيا وداع الذى أحاط بكثير من أسرارها ؛ ولكن الغريب المحير للأفهام أنك لا تكاد تجد فارقاً بين موتيهما إذا جاء أجلهما ؛ وربما كان حظ الجاهل من الحياة أعظم وأهنأ . يضاف إلى هذا : أن الموت والحياة من طبائع الكون التى لا تغب ؛ وأمرهما فى معنى البيت الثالث واضح ، ومثلهما مثل الحقول ؛ يكسوها النبات ، فتكسوها نضرة الحياة ، وتتعرى منه ، فتعلوها كآبة الموت .

يَزُولُ الْخَلْقُ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ ... وَتَخْتَلِفُ الْحَقَائِقُ وَالنُّقُولُ(٥)
فَمَا جَرَتِ الظُّنُونُ عَلَى يَقِينٍ ... تَفِيءُ بِهِ، وَلَا صَحَّ الْمَقُولُ(٦)

---

(٥) الخلق : الناس ، وسائر المخلوقات ؛ فهو فعل بمعنى مفعول . والطور : التارة ، والمرة ، والحال ، والهيئة ، والضرب، والنوع ، وجمعه أطوار . والنقول : جمع النقل : مصدر نقلت الكلام ، أو الخبر : أى رويته عن قائله . والمنقول : ما عرف عن طريق الرواية ، أو السماع . ويقابله المعقول : وهو ما استقل العقل بإدراكه ومعرفته . ومعنى « زوال الخلق طوراً بعد طور » : فناء المخلوقات والناس جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً فى إثر قبيل : أى هلاكهم على مرات ودفعات . ومعنى « اختلاف الحقائق والنقول » : أن ما عرفه الناس عن طريق النقل والرواية ، أو السماع – قد يخالف الحقائق الثابتة اليقينية التى لا ريب فيها . وقد يراد بالاختلاف هنا : التوالى والتتابع : من قولهم : اختلف المتعلم إلى مجالس العلم : أى تردد إليها ورجع مرة بعد أخرى . وعلى هذا يكون معنى الشطر الثانى : أن المعارف والمعلومات – على اختلاف أنواعها ، وطرق تحصيلها – ما زالت تتوالى على الناس ، وتتتابع . ومنها الحقائق الثابتة التى لا مراء فيها ، والتى انفرد العقل بمعرفتها وإدراكها على وجه الاعتقاد واليقين ، ومنها المعارف والمعلومات الواردة عن طريق النقل ، أو الرواية ، أو السماع . وكأن الشاعر جعل هذا النوع : أى المعارف المروية ، أو المسموعة ، أو المنقولة القائمة على الظن والتخمين – مقابلاً للنوع الأول : أى المعارف التى أدركها العقل ، وقامت على الحق واليقين .

(٦) الظنون : جمع الظن : وهو أن يدرك الذهن الشىء مع ترجيحه . واليقين : أن يدركه مع استيقانه؛ فالمعارف الظنية قائمة على الشك والتخمين ؛ والمعارف اليقينية ثابتة واضحة صحيحة محققة ، لا شك فيها ؛ لأنها قائمة على النظر والاستدلال واطمئنان النفس ، والاعتقاد الراسخ . وتفىء : تعود ، وترجع . والمقول : القول ، والكلام .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الإنسان منذ أقدم العصور إلى اليوم ما زال يقف أمام كثير من طبائع الكون وظواهره ، وحقائق الوجود وخفاياه ، وسر الموت والحياة – موقف الحيرة والشك والجهل والتردد ؛ على الرغم من شيخوخة الزمان ، وازدهار العمران ، وفناء الأجيال جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً فى إثر قبيل. وعلى الرغم من كثرة المعارف والمعلومات وتتابعها بين معقول ومنقول ، وحقيقى وظنى ، فإن كثيراً من نظرات المرء فى الحياة يختلف ويتغير حيناً فحيناً ؛ ومع هذا كله لم تصل الظنون الحيرى إلى ما يقنع من الحقائق النيرة ، ويسمو إلى مرتبة اليقين. وكذلك ما نقل عن العلماء والحكماء ؛ فإن كثيراً منه لم يسلم من الخطأ ، أو الغموض ؛ ولم يثبت على البحث والتمحيص .

=

وَقَالَ ، وَهِيَ مِنْ لُزُومِ مَالَا يَلْزَمُ* :

مَا الدَّهْرُ إِلَّا ضَوْءُ شَمْسٍ عَلَا   وَكَوْكَبٌ غَامَ ، وَنَبْتٌ بَقَلْ(١)

= ولعل البارودى هنا يجارى أبا العلاء المعرى ، ويرمى إلى ما يرمى إليه فى قوله :

سألت يقيناً من جهينة عنهم   ولم تخبريني – ياجهين – سوى الظن

تعليق وتلخيص

اتجه الشاعر فى هذه الأبيات الستة إلى مثل ما اتجه إليه فلاسفة شعراء العرب وحكماؤهم ، كأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى. وقد أشرنا فى شرح البيت الرابع إلى شىء من حكمتهما ، أو فلسفتهما النيرة الواضحة .

ورجحنا أن شاعرنا يقصد فى هذا البيت إلى مثل ما قصد إليه ، أو إلى قريب منه. وكذلك قلنا فى شرح غيره من هذه الأبيات التى بدا لنا أن الشاعر ناظر فيها إلى من سبقوه ، متأثر بهم ، ناسج على منوالهم. وعلى الرغم من كثرة الحكم والأمثال فى شعره ، وامتياز أكثرها بقرب المأخذ ، ووضوح الفكرة ، وحسن العرض ، وإشراق العبارة – نراه فى هذه المقطوعة ، أو فى أكثر أبياتها يجنح للغموض ، ويميل إلى التعمية ، ويصعب على القارئ كشف فكرته ، وفهم مقصده ، وإدراك ما يعنيه .

والشرح الذى عرضناه لهذه الأبيات ظنى اجتهادى ، غير مقطوع بصحته وسداده . ولقد حاولنا جاهدين بيان الغرض ، وتحديد المعنى المراد . وخلاصته : أن الناس ما زالوا يجهلون كثيراً من حقائق الكون وطبائعه ، وأن قوانينه ونظمه ثابتة دقيقة ، لا يعتريها وهن ، أو تخلف ، أو اختلاف ، أو فساد ؛ وأن الجاهل والعالم يستويان عند الموت ، ولا يكادان يتمايزان ، وأن ما نقل عن العلماء والحكماء لم يسلم من الخطأ ، أو الاستبهام ، ولم يثبت على البحث والتمحيص ؛ ولهذا ظل كثير من معارف الناس عن بعض أسرار الوجود ، وطبائع الكون ظنياً لا يسمو إلى مرتبة اليقين ، على الرغم من شيخوخة الزمان ، وفناء الأجيال ، وكثرة ما صادفه الناس من التجارب والصدمات .

* * *

(*) التزم الشاعر القاف المفتوحة قبل روى هذه الأبيات ، وهو اللام . ومثل هذا الالتزام لا تحتمه قواعد القافية .

(١) الدهر (فى الأصل) : اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى نهاية أجله . ويراد به هنا : ظواهر الكون ، وطبيعة الحياة الدنيا . وغامت السماء (من باب باع) : ظهر فيها الغيم ، وغطاها . وغام الكوكب : اختفى ضوءه واحتجب وراء الغيم : وهو السحاب . والنبت : النبات ، وهو (فى الأصل) : مصدر نبت (من باب نصر) . وبقل النبات (من باب نصر) : نبت ، ونشأ ، وظهر ، وخرج من الأرض ، واخضر . =

وَرَاحِـلٌ أَعْقَبَـهُ نَـازِلٌ ۞ مَا قِيلَ قَدْ خَيَّمَ حَتَّى اسْتَقَلّ[٢]

عَمَـايَةٌ يَخْبِطُ فِيهَـا النُّـهَى ۞ عَجْزًا ، وَلَا تُبْصِرُ فِيهَا الْمُقَلْ[٣]

= مثّل لبعض ظواهر الخلق أو العالم الذى نعيش فيه بمثالين : هما الكواكب ، والنبات : أى الحى النامى الذى لا يملك ، فراق منشئه ، ويعيش بجذور ممتدة فى الأرض ، أو فى الماء . وقال : إن الشمس والنجوم والكواكب النيرة تشرق ، ويسطع نورها ، ثم لا تلبث أن تحتجب وتختفى ويذهب بذهابها ضياؤها . وكذلك النبات ، ينمو ، ويزكو ، ويترعرع ، ويخضر ، ويزهو ؛ ثم لا يلبث أن يذبل ، ويذوى ، ويتهشم ، وتذهب بذبوله بهجته ونضارته . وفى القرآن المجيد : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » . الآية رقم ٤٥ من سورة الكهف .

(٢) « راحل » : معطوف على « ضوء شمس » فى البيت الأول : أى ما الدهر إلا كوكب سطع ضياؤه ، ثم أفل . ونبت نبت واخضر وزها ، ثم ذوى وذبل وذهبت نضارته . وراحل أعقبه نازل . وأعقبه : خلفه ، وجاء بعده . وخيم بالمكان : نصب فيه خيمته ؛ ثم كنوا بهذا عن الإقامة والاستقرار . واستقل استقلالا : سار ، ومضى ، وذهب ، وارتحل .

فى البيت السابق مثل الشاعر بمثالين لبعض ظواهر الكون ، أو الخلق ، أو العالم . وفى هذا البيت أضاف إليهما مثالا ثالثاً ؛ فالمرء يرتحل عن الدنيا ، ويعقبه فيها ولده ، أو خلفه ، ثم لا يلبث هذا العاقب أن يشرب من الكأس التى شرب منها سلفه ، ويسلك فى الرحيل طريقه ، ويذهب ذهابه ، وهكذا .

ويلاحظ أن الشاعر حصر الدهر — أى ظواهره ، وتقلباته ، وموجوداته — فى هذه الأمثلة الثلاثة : الكواكب والنجوم فى حالتى الإشراق والأفول ، والنبات فى طورى النضارة والذبول ، والإنسان والحيوان فى قيود الحياة والموت ؛ ولعل سبب هذا الحصر ، أو القصر ، أو التخصيص أنها أهم ، أو أظهر ما فى العالم ، أو الخلق ، أو الدهر ، أو الكون ، أو الوجود ، أو الدنيا . ويمكن ردّ هذه الأحوال كلها إلى الحياة والموت ؛ فالإشراق والأفول : حياة وموت على التجوّز ؛ وكذا النضور والذبول .

ومعنى البيتين : أن أحوال الكائنات متقلبة ، متنقلة ، سريعة التحول والتغير ؛ فالكواكب تضىء وتظلم ، والنبات يزهو ويذوى ؛ والناس يحيون ويموتون ، والحياة متداولة بينهم ، يتعاقب الراحلون عنها ، والواردون عليها ؛ فالراحل عنها يعقبه النازل بها ، فى غير مهل ، أو توان ، أو إبطاء ؛ ولعل الشاعر يقصد إلى الوعظ والإرشاد ، والنصح والهداية ، والتذكير بالعواقب ، والترغيب فى الإيمان والاستقامة وصالح الأعمال . والبيتان الرابع والخامس يرجحان هذا ، ويزكيانه .

(٣) يراد بالعماية هنا : الحيرة والجهل ، والضلال . وعمى عليه طريقه (كرضى) : إذا ضل عنه ، ولم يهتد إليه . ويخبط : يسير على غير هدى : (مضارع خبط من باب ضرب) . والنهى : العقل ، أو العقول ، واحدتها نهية (بضم فسكون) . وعجزاً : مفعول لأجله : =

فَبَادِرِ النُّقْلَةَ ، وَاعْمَلْ لَهَا مَا شِئْتَ ؛ فَالدَّهْرُ سريعُ النُّقَلْ (٤)
وَاصْمُتْ عَنِ الشَّرِّ إِذَا لَمْ تُطِقْ دَفْعًا ، وَإِنْ صَادَفْتَ خَيْرًا فَقُلْ (٥)
وَسِرْ إِذَا مَا عَرَضَتْ فُرْصَــةٌ فَالْبَدْرُ قَدْ يَنْمُو إِذَا مَا انْتَقَلْ (٦)

= أى يخبط العقل فى هذه العماية بسبب عجزه عن إدراك الحقيقة الهادية . والمقل : العيون ، واحدتها مقلة (بوزن مهجة) .

والمعنى : أن تبدل أحوال الكائنات فى هذه الحياة ، وسر تغيرها وتقلبها من الأمور الخفية التى يعجز المرء عن إدراكها بالعقل والحواس .

(٤) النقلة : اسم بمعنى الانتقال والرحيل ، وجمعها نقل (بوزن غرفة وغرف) . وبادر النقلة : عاجلها ، وسارع إليها .

والمعنى : أن الدهر يتنقل بالناس والمخلوقات تنقلا سريعاً ، وتتغير فيه أحوالهم تغيرات كثيرة مفاجئة ، وتتبدل شئونهم كل يوم ؛ فلا يستقر لهم قرار ؛ ولهذا ينبغى أن تتدبر هذا الانتقال قبل وقوعه ، وتعاجله بصالح الأعمال ؛ فتأخذ من شبابك لهرمك ، ومن صحتك لمرضك ، ومن دنياك لآخرتك .

أو المعنى : أن كل ما حولك من ظواهر الكون يتبدل ويتغير من خير إلى شر ، ومن شر إلى خير ، فإذا أحسست أن بقاءك فى مكان ما سينالك بمكروه ، فسارع إلى الرحيل عنه ، والانتقال إلى ما هو خير منه ، وجار فى ذلك دهرك ، واقتد به فى كثرة تحوله ، وتغيره ، وتنقله .

(٥) الشر : اسم جامع لكل الرذائل والخطايا ؛ ومنها السوء ، والفساد ، والظلم . وطاق الإنسان الشىء (من باب قال) ، وأطاقه إطاقة : قدر عليه ، وتيسر له ، واستطاعه . ودفعت الشىء (من باب منع) نحيته بقوة ، وأزلته ، وصرفته ، وأبعدته . وصادفته مصادفة : لقيته ، ووجدته .

والمعنى : اسكت عن الشر ، ونزّه عنه لسانك وقلبك ، ولا تجار فيه غيرك إذا لم تستطع دفعه عنه ، وحمله على تركه ؛ وقل الخير كلما وجدته ، واعمل له ما استطعت .

وقد يكون المعنى : إذا جاش الشر فى نفسك ، ولم تستطع دفعه عنها ، فعالجه بالصمت والسكوت ، وقول الخير ، وإيثاره كلما وجدته واستطعته . وفى الحديث : « تكلم بخير ، وإلا فاسكت » .

(٦) عرضت : أمكنت ، وسنحت . والبدر : القمر ليلة تمامه وكماله وامتلائه فى منتصف الشهر القمرى . ويراد به هنا : القمر قبل أن يتم ويكمل ويمتلىء ؛ ليصح قوله بعد « قد ينمو إذا ما انتقل » . و « قد » هنا : حرف يفيد التحقيق : أى نمو القمر بتنقله من الأمور المحققة التى لا مراء فيها ، ولا ارتياب . وينمو : يزيد ، ويكثر . والمراد يزيد ضياؤه ، ويكثر ، ويتم ، ويكمل . و « ما » فى شطرى هذا البيت زائدة بعد « إذا » لتأكيد الكلام ، وتقوية مضمونه ومعناه .

=

مَــنْ طَلَبَ الْأَمْــرَ بِأَسْبَابِــهِ سَاعَدَهُ الْمَقْدُورُ إِمَّــا عَقَلْ[٧]

قَدْ يَجْبُنُ الْأَعْزَلُ وَهْوَ الْفَتَى وَيَشْجُعُ النِّكْسُ إِذَا مَا اعْتَقَلْ[٨]

=يحض على انتهاز الفرصة كلما سنحت بالسير وراءها، والانتفاع بها ، والمشى فى مناكب الأرض من أجلها .

ويضرب المثل بالقمر يتنقل فى منازله ؛ فينمو بهذا التنقل ، ويزيد ضياؤه ، ويبلغ منزلة التمام والكمال والامتلاء .

(٧) الأمر : الشىء المطلوب . والمقدور : الأمر المحتوم الذى لا محيص عنه ، ولا مهرب منه . ويراد به هنا : ما يقدره الله تبارك وتعالى للمرء ، ويقضى به ، ويكتبه له من الرزق والخير . و « إما » : « إن » الشرطية المدغمة فى « ما » الزائدة بعدها . وعقل : أدرك الأشياء على حقيقتها . واستخدم فى مساعيه وتصرفاته عقله ، وأحسن الانتفاع به ، واعتمد فى مطالبه على الفهم ، وإتقان الرأى ، وحسن التدبير .

والمعنى : من اتخذ للأمر عدته ، وفكّر فيه وقدّر ، وحاوله بأسبابه وعلله ووسائله ؛ وقصده من الطرق الموصلة إليه — أعانه على تحقيقه قدر الله تعالى وحكمه وقضاؤه ؛ لأن من مقدور الله تبارك وتعالى أن يقرن الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، وييسر المطالب إذا عززها المسعى ، وحاطها العقل ، وتعهدها حسن التدبير .

(٨) « قد » : حرف يفيد التكثير ؛ لأنه فى مقام الحضّ على إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة ، وطلب الأمور بأسبابها . والأعزل : من لا سلاح معه . والفتى : الشجاع ، المقدام ، ذو النجدة . والسخى الكريم الجواد . والنكس (بكسر فسكون) : الضعيف ، والرذل ، والمقصر عن غاية النجدة والكرم . واعتقل : حمل سلاحه ؛ يقال : اعتقل الرجل رمحه : إذا جعله بين ركابه وساقه ، أو جعله تحت فخذه وهو راكب ، وجر آخره على الأرض وراءه . وفى البيت محسّن بديعى معنوى ، يسمى المقابلة : وهى أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ؛ فالفعل « يجبن » فى الشطر الأول يقابله الفعل « يشجع » فى الشطر الثانى . والجبن : ضد الشجاعة . والأعزل : أى المجرد من السلاح يقابله المعتقل (بصيغة اسم الفاعل) : أى المتسلح بالرمح وغيره . والفتى : بمعنى السخىّ ، الشجاع ، ذى النجدة ، يقابله النكس : بمعنى الضعيف ، الرذل ، المقصر ، الذى لا خير فيه . والمقابلة هنا ليست متكلفة ؛ ولهذا كانت من عوامل تحسين الكلام ، وإيضاح معانيه ، وزيادة حظه من البلاغة والبيان .

يقول : قد يكون المرء شجاعاً مقداماً ، ولكن تجرده من السلاح يضطره إلى الجبن والنكوص والإحجام عن القتال . وقد يكون المرء خائراً ضعيفاً ، فإذا ما تسلّح أقدم على الحرب بسلاحه إقدام الجرىء الشجاع .

=

وَقَالَ مُلْتَزِمًا * :

لَا تَرْكَنَنَّ إِلَى الزَّمَانِ ، فَرُبَّمَـــا خَدَعَتْ مَخِيلَتُهُ الْفُؤَادَ الْغَافِلَا(١)

=ومعنى هذا البيت متصل بمعنى البيت الذى قبله ؛ لأن الذى يعتقل رمحه، ويلبس سلاحه قبل أن يقتحم المعامع ، يطلب الأمر بأسبابه ، ويأخذ له أهبته ، ويعدّ له عدّته ، ويقصده من الطريق الموصل إليه . وعلى العكس منه الذى يهمل سلاحه ، أو يتجرد منه ، أو يحاول أمراً بغير وسائله وأسبابه .

تلخيص وتعليق

مثّل الشاعر فى هذه الأبيات الثمانية لبعض ظواهر الكون ، وطبائع الكائنات ، وأشار إلى ما فيها من التقلب والتحول ، ونبه على تعاقب الحياة والموت ، وقال : إن سر هذا مما لا تدركه الأبصار ولا البصائر . ودعا إلى تدبر الأمر قبل مجىء الأجل ، والاستعداد للرحيل عن الدنيا بصالح الأعمال ، ونصح بمدافعة الشر ، وإيثار الخير ، وحضّ على اغتنام الفرص السانحة ، والتنقل فى سبيل إدراكها ، والفوز بها ، كما حضّ على طلب الأمور بأسبابها ، وأخذ الأهبة لها ، وبشّر الآخذ بالأسباب بأن قدر الله تبارك وتعالى يسايره ويعاونه . ثم ختم هذه المقطوعة ببيت يجرى مجرى المثل ، ويتصل بالمعنى الأخير ، ويعززه ؛ فهذه مجموعة من الحكم والنصائح والعظات جاءت مشابهة لأكثر شعر البارودى فى قرب المأخذ ، ووضوح الفكرة ، وحسن البيان .

* * *

(*) التزم الشاعر « الفاء المكسورة » قبل روىّ هذه الأبيات ، وهو « اللام » . وهو التزام لا تحتمه قواعد القافية : أى قيد اختيارى أضافه الشاعر بمحض إرادته وحريته إلى قيود القافية ؛ لإظهار مقدرته الشعرية ، وسعة معجمه اللغوىّ ، وتملّكه ناصية القوافى ، وسيطرته عليها ، وتمكنه من رياضتها .

(١) ركن إليه (كخضع ، ونصر، وعلم) : مال إليه، وسكن، واطمأن، ووثق به ، واعتمد عليه . ويريد بالزمان : الدهر : وهو مدة الحياة الدنيا كلها . وقد درج الناس – وبخاصة الشعراء – على شكواه ، والتظلم منه ، والإخبار بسوء فعله ؛ وهم يضيفون إليه الخير والشر ، والمسرة والمساءة . ومن كلام البارودى فى مقدمة ديوانه : « وقد يقف الناظر فى ديوانى هذا على أبيات قلبها فى شكوى الزمان ، فيظن بى سوءاً من غير روية يجيلها ، ولا عذرة يستبينها ؛ فإنى إن ذكرت الدهر فإنما أقصد به العالم الأرضى لكونه فيه ؛ من قبيل ذكر الشىء باسم غيره لمجاورته إياه » . و « ربما » : « رب » : حرف يفيد التكثير فى مثل هذا المقام ، وقد زيدت بعدها « ما » واتصلت بها : أى فكثيراً ما خدعت مخيلته الفؤاد الغافل . وخدعه : (من باب منع) : ختله، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والمخيلة (بوزنى المعيشة، والمصيبة) : السحابة تظنها ماطرة . والمخيلة (بوزن المعيشة) : المظنة . وجمعها مخايل : ومنه : « ظهرت فى فلان مخايل النجابة » : أى مظناتها ، وأماراتها . ويراد بمخيلة الزمان هنا : مظهره ، وما قد=

وَاصْبِرْ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ؛ فَكُلَّمَا ذَهَبَ الْغَدَاةَ أَتَى الْعَشِيَّةَ قَافِلَا (٢)

كَفَلَ الشَّقَاءَ لِمَنْ أَنَاخَ بِرَبْعِهِ وَكَفَى ابْنَ آدَمَ بِالْمَصَائِبِ كَافِلَا (٣)

= يبديه من المسالمة والمهادنة ، وما قد يتخيل فيه من الخير ، ويتفرس من الموادعة . والنهى فى أول البيت يراد به النصح والإرشاد .

يقول — ناصحاً مرشداً — : لا تثق بالزمان ، ولا تطمئن إليه ؛ فقد يخدع — بحسن مظهره — الغافل الذى لا فطنة له ، ويوهمه خلاف ما يضمره له من الشر والغدر ، والبطش والنكال .

(٢) «كان» هنا : تامة ، تكتفى بمرفوعها : أى باسمها ، ولا تحتاج إلى خبر ؛ ومعناها : حدث ووقع . ومنه : من الزمان . وكلما : «كل» : ظرف زمان يفيد التعميم . و« ما » : حرف مصدرى توقيتى ، جاء بعد «كل» ، واتصل بها . أو هما منفصلان ، وعلى الانفصال تكون «كل» مبتدأ ،وتفيد الاستغراق لأفراد ما تضاف إليه ، أو أجزائه . و « ما » : اسم موصول بمعنى الذى ، فى محل جر مضاف إليه. والمعنى على الاتصال : «اصبر على شر الزمان ؛ فإنه معاود ، كلما ذهب رجع » . والمعنى على الانفصال : « اصبر على شر الزمان ؛ فإنه معاود، وكل الذى يذهب من هذا الشر ، لا يلبث أن يعود إليك مرة أخرى » والغداة : أول النهار ، ما بين الفجر وطلوع الشمس ، وجمعها غدوات . والعشية : آخر النهار : من زوال الشمس إلى المغرب ؛ أو من صلاة المغرب إلى العتمة ، وجمعها عشيات ، وعشايا . وقافل : اسم فاعل من قفل (كقعد ، وجلس) : أى عاد ، ورجع .

يحض على التجلد للزمان ، والصبر على ما يصيبنا من أحداثه وبلاياه؛ فإنه يغدو ويروح علينا بها كل يوم ؛ فهى متتابعة متوالية ، لا تهادن ، ولا توادع ، ولا علاج لها إلا التجلد والصبر . وفى القرآن الكريم : « يا بنى ! أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك؛ إن ذلك من عزم الأمور» الآية رقم ١٧ من سورة لقمان . ويلاحظ أن الشاعر هنا يسىء الظن بالزمان ، ويتشاءم به ، ويتطير منه ، ويجنح فى هذا التزيد والمغالاة .

(٣) كفل الزمان الشقاء للناس : ضمنه لهم ، والتزمه ، وأوجبه على نفسه . من قولهم : كفلت المال ، وكفلت بالمال عن فلان لغريمه : أى ضمنته له ، والتزمته ، وأوجبته على نفسى . وأناخ بالمكان : نزل به ، وخيم ، وأقام . والربع : المنزل ، أو الدار ، أو المحلة ، أو ما حول الدار ؛ وكفاه الشىء يكفيه كفاية : أغناه عن غيره. وكثيراً ماتزاد الباء قبل فاعل « كفى » . وفى التنزيل العزيز : « وكفى بالله حسيباً » (الآية رقم ٦ من سورة النساء) . « وكفى بجهنم سعيراً » (الآية رقم ٥٥ من سورة النساء) و « المصائب : فاعل « كفى » بزيادة « الباء » . و «كافلا » : ضامناً ، أو ملتزماً . ويعرب تمييزاً . و « ابن » : مفعول به مقدم لاسم الفاعل « كافلا » . =

يَمْشِي الضَّرَاءَ إِلَى النُّفُوسِ ، وَتَارَةً يَسْعَى لَهَا بَيْنَ الْأَسِنَّةِ رَافِلَا(٤)
لَا يَرْهَبُ الضِّرْغَامَ بَيْنَ عَرِينِهِ بَأْسًا ، وَلَا يَدَعُ الظِّبَاءَ مَطَافِلَا(٥)

=والترتيب الأصلى لكلمات الشطر الثانى : « وكفى بالمصائب كافلاً ابن آدم » : أى أن مصائب الدهر تكفل الإنسان ، وتضمه إليها ، وتحيط به ، وتتولاه . وفى هذه الكفالة الكفاية ، والغناء ، والاستغناء بها عما عداها . وكلمة « المصائب » فى الشطر الثانى ترديد وتكرار وتأكيد لمعنى « الشقاء » فى الشطر الأول .

والمعنى : أن الزمان أوجب على نفسه أن يشقى من عاش فيه ، ويصب عليه العذاب صباً . وبحسب ابن آدم أن تكفله مصائب الدهر وبلاياه ؛ فهذا شر فظيع ، ليس فوقه من مزيد . وهو قريب من قول أبى الطيب المتنبى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم فى شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم من ـه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـ ـه ، ولكن تكدر الإحسانا

(٤) فاعل « يمشى » : ضمير مستتر يعود على « الزمان » فى البيت الأول . والضراء (بفتح الضاد) : الاستخفاء . يقال : « هو يمشى الضراء » : إذا مشى مستخفياً متوارياً فيما يواريه من الأشجار ونحوها . وأصل الضراء : ما وارى وستر من شجر وغيره . ومن كلامهم : « هو يمشى لك الضراء » و « يدب لك الضراء » : أى يختلك ، ويخدعك ، ويمكر بك ؛ ليرميك بما يخفيه لك من الشر والضر ، والأذى والمكروه . ويسعى لها : يسعى للنفوس . والأسنة : جمع سنان (بوزن كتاب) : وهو نصل الرمح : أى حديدته التى تصيب المطعون . ورافلاً : حال من فاعل « يسعى » : وهو الزمان : أى يسعى متبختراً : اسم فاعل من « رفل » (من باب نصر) : أى جر ذيله ، وتبختر فى سيره ، وخطر بيديه .

يقول : إن الزمان يؤذى الناس ويضيرهم أحياناً بالختل والغرة والمكر والدهاء ، فى ضراء واستخفاء ؛ وأحياناً فى علانية ومجاهرة ، لا يعبأ بما يحيط به ، ويعترض له من قوى الحماية ، وأسلحة الدفاع .

(٥) لا يرهب : لا يخاف . وفاعله ضمير مستتر يعود على « الزمان » فى البيت الأول . والضرغام : الأسد الضارى الشديد ، ومثله الضرغامة . وعرين الأسد : مأواه ، ومسكنه . وهو فى الأصل : جماعة الشجر ؛ وقد يطلق العرين ، ويراد به العز والمنعة . والبأس : القوة ، والشدة ، والشجاعة ، والبسالة . و « بأساً » : تمييز محول عن المفعول به . والأصل : « لا يرهب الزمان بأس الضرغام » . ولا يدع : لا يترك ، وفاعله ضمير الزمان . والظباء : جمع ظبى وظبية : وهو جنس حيوانات من ذوات الأظلاف ، المجوفات القرون ، أشهرها الظبى العربى : وهو الغزال الأعفر . ومطافل : جمع مطفل : اسم فاعل من=

بَيْنَا تَرَى نَجْمَ السَّعَادَةِ طَالِعًا ... فَوْقَ الْأَهِلَّةِ إِذْ تَرَاهُ آفِلَا(٦)
فَإِذَا سَأَلْتَ الدَّهْرَ مَعْرِفَةً بِهِ ... فَاسْأَلْ لِتَعْرِفَهُ النَّعَامَ الْجَافِلَا(٧)
فَالدَّهْرُ كَالدُّولَابِ . يَخْفِضُ عَالِيًا ... مِنْ غَيْرِ مَا قَصْدٍ . وَيَرْفَعُ سَافِلَا(٨)

=أطفلت الأنثى : أى صارت ذات طفل .

يقول : إن الزمان يقتحم على الضرغام عرينه ، لا يتهيب بأسه ، ولا يخشى صولته ، ولا يبالى عزته ومنعته ؛ ولا يمسك أذاه عن الظبيات المطفلات ؛ فهو معتد قاس غليظ الكبد ؛ يصيب بشروره وأحداثه كل الذى يصادفه ؛ لا يخاف قوياً ، ولا يرحم ضعيفاً .

(٦) « بينا » : ظرف زمان ، بمعنى المفاجأة : أى أنك ترى نجم السعادة طالعاً ، فلا يلبث أن يفاجئك بأفوله . والأهلة : جمع هلال : وهو غرة القمر إلى سبع ليال من الشهر القمرى . والقمر فى أواخر الشهر لليلتين : السادس والعشرين والسابع والعشرين . ويراد بالأهلة : النجوم . وطلوع نجم السعادة فوق النجوم : كناية عن تمام سعادة المرء ، وتمام ظهورها ، وسمو درجتها . وآفل : اسم فاعل من أفل النجم (كضرب ، ونصر ، وعلم) : أى غاب .

والمعنى : أن سعادة الزمان لا بقاء لها ، ولا ثبات ، ولا استقرار ؛ فهى تعلو كل العلو ، وتظهر أتم الظهور ، ولكنها لا تلبث أن تزول وتختفى ؛ كأنها لم تكن ؛ يشير بهذا إلى سرعة تقلب الدهر بالناس ، وكثرة تغيره ؛ فهو لايكاد يسعد إنساناً حتى يسارع إلى مساءته وإشقائه .

(٧) الجافل : اسم فاعل من جفل النعام ونحوه (من بابى جلس وقعد) : أى نفر ، وشرد ، وندّ ، وهرب مسرعاً .

يقول : إذا حاولت أن تسأل الدهر ؛ لتعرف حقيقته ، أو تقف على شىء من أمره وسره — فاعلم أنه كالظليم الجافل الذى لا يكاد يستقر أمامك ، أو يثبت للسؤال ، أو يعطيك فرصة تعرّفه وتفهّمه ، أو يحفل بالموادعة والمهادنة ؛ فالشطر الثانى معناه : أنه لا سبيل إلى معرفة الدهر . وهذا البيت كسابقه ولاحقه فى معنى سرعة تقلب الزمان ، وكثرة تغيره . يضاف إلى هذا أنه لا سبيل إلى معرفته ، أو تفهم حقيقته وسره ، أو اتقاء شروره وحوادثه .

(٨) الدولاب (بضم الدال وفتحها) : كل آلة تدور على محور من خشب أو غيره ، كالمنجنون ، أو الناعورة ، أو السّاقية ، أو الآلة التى تديرها الدابة لسقى الزرع . فارسية مركبة من « دول » ، ومعناها إناء ، أو دلو . و « آب » ، ومعناها الماء ؛ فمعنى الدولاب : دلو الماء ، أو إناء الماء ، وجمعه دواليب . ولدولاب البئر قواديس مركبة عليه ، يخفض العالى منها ، ليغترف به الماء من البئر ، ويرفع السافل ؛ ليصب ماءه فى القناة التى تجرى على سطح الأرض لسقى الزرع .

شبّه الدهر بالدولاب ؛ فهو يحطّ الرفيع ، ويرفع الوضيع ؛ بلا قصد ، ولا إرادة ، ولا تفكير ، ولا تدبير . =

وَقَالَ فِى الْحِكْمَةِ * :

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْوِى الْمَعَالِىَ ، فَادَّرِعْ صَبْرًا ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ غُنْمٌ عَاجِلُ[1]

وَاحْلُمْ كَأَنَّكَ جَاهِلٌ ، وَاذْكُرْ كَأَنْ نَكَ ذَاهِلٌ ، وَافْطُنْ كَأَنَّكَ غَافِلُ[2]

* من معانى الحكمة : العدل ، والحلم ، والعلم ، والفلسفة ، والتفقه ، وصواب الأمر ، وسداده ، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ووضع الشىء فى موضعه ، وإتقان الأفعال والأقوال . ويعد الكلام من الحكمة إذا وافق الحق، وقلّ لفظه ، وجلّ معناه، وأفاد أدباً وعظة . ومن شأن الحكمة أن تمنع صاحبها من الجهل والسفه ، وتعصمه من أخلاق الأرذال ،وترفعه عما لا ينبغى . وقد تجرى الحكمة مجرى المثل . وجمعها حكم (بوزن نعمة ونعم) .

(١) حوى الشىء يحويه (من باب طوى) : جمعه ، وحازه ، وأحرزه. ومثله احتواه. ويلاحظ أن الفعل « تحوى » منصوب بفتحة ظاهرة على الياء . ولكن وزن الشعر اقتضى أن تسقط الياء فى النطق ، وتسقط معها فتحتها . والمعالى: جمع المعلاة (بفتح فسكون) : وهى الرفعة والشرف. والدرع (بكسر فسكون) : الزردية: وهى قميص من زرد الحديد : أى حلقاته المتشابكة ، يلبس وقاية من سلاح العدوّ. يذكّر ، ويؤنث . وادّرع الدرع : لبسها . وادّرع الصبر : تجمّل به ، واتخذه وقاية لنفسك ، واستعن به على اقتحام العقاب، وتذليل الصعاب . والغنم : ما تفوز به بلا مشقة ، وتناله بلا بدل . وما يأخذه المحارب من عدوه فى الحرب قهراً . ومثله الغنيمة .

يحضّ على ادراع الصبر ؛ فإنه يعين على اقتحام العقبات ، وتذليل الصعوبات ، وييسر العسير ، ويقرب البعيد، ويرفع الصابر إلى المعالى ، ويبلغه مراتب الرفعة والشرف ؛ والصبر غنيمة طيبة ، حاضرة لمن أرادها ، عاجلة غير آجلة .

(٢) احلم : أمر من الحلم (بوزن العلم) : وهو الصبر ، والأناة ، والعقل ، والستر ، والرزانة ، والوقار ، والسكون ، والصفح مع القدرة والقوة . وفعله (كقرب يقرب) . وضده الجهل ، والخفة ، والطيش ، والحمق ، والسفه ، قال الشاعر :

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

وجاهل : اسم فاعل من الجهل : وهو ضد العلم . وضد الحلم . واذكر : أمر من الذكر (بكسر فسكون) : وهو ضد النسيان . وذاهل : اسم فاعل من الذهول : وهو النسيان . وافطن : أمر من الفطنة : وهى حسن الفهم ، ولطف الإدراك ، ودقة الوعى ، والحذق ، والمهارة ، وجودة استعداد الذهن لإدراك مايرد عليه . (وفعله كعلم ، ونصر ، وكرم) . وغافل : اسم فاعل من الغفلة : وهى غيبة الشىء عن بال =

فَلَقَلَّمَا يُفْضِى إِلَى آرَابِهِ فِى الدَّهْرِ إِلاَّ الْعَالِمُ الْمُتَجَاهِلُ(٣)

وَقَالَ :

لاَتَحْسَبِ النَّاسَ فِى الدُّنْيَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، بَلْ عَلَى ظَنٍّ وَتَخْيِيلِ(١)

= الإنسان ، وعدم تذكره إياه . يقال : غفل عن الشيء (من باب دخل) : إذا سها عنه من قلة التحفظ والتيقظ ، أو تركه إهمالا من غير نسيان .

يحض على التحلى ببعض الفضائل ، والصفات الحميدة ، كالحلم ، والذكر ، والفطنة ، على أن يظهر المتحلى بها ما يناقضها : كالجهل ، والذهول ، والغفلة ؛ ليدخل فى غمار الناس ، ويتشبه بجمهورهم ، ويتقى أحقادهم ومكايدهم ، ويفوز برغائبه ومطالبه. والبيت الآتى يظهر هذا المعنى ويوضحه ، ويؤكده .

(٣) « فلقلما » : اللام واقعة فى جواب قسم مقدر : أى « فوالله لقلما يفضى إلى آرابه . . . أو هى لتوكيد مضمون الجملة بعدها . و« قل » : فعل ماض ، اتصلت به « ما » فكفَّته عن العمل ، واستغنى عن الفاعل. والمعنى : فقليل من يفضى إلى آرابه فى الدهر إلا العالم المتجاهل . ويجوز أن تكون « ما » موصولا حرفياً سابكاً للفعل بعده ، مؤولا معه بمصدر ، هو فاعل « قلّ » : أى قلّ الإفضاء إلى الآراب إلا للعالم المتجاهل : أى أن العالم المتجاهل يكثر أن يفضى إلى آرابه ، وغيره قلما يظفر بشيء منها . ويفضى إلى آرابه : يصل إليها ، ويبلغها ، ويدركها ، ويظفر بها . والآراب : الحاجات ، والغايات ، والمقاصد : جمع أرب (بفتحتين : أو بكسر فسكون) : وهو الحاجة ، أو الحاجة الشديدة ، أو البغية ، أو الأمنية. ودهر المرء : مدة حياته . والمتجاهل : اسم فاعل من تجاهل تجاهلا : أى أظهر أنه جاهل ، وليس به .

والمعنى : أن العالم إذا تكلف إظهار الجهل ، استطاع أن يساير العامة والدهماء ، ويتحبب إليهم ويندمج فيهم ، ويسخرهم فى إدراك حاجاته ، وتحصيل مآربه ، وبلوغ مقاصده ؛ لأن الجهل فى الناس كثير غالب ، وتجاهل العالم صورة من صور الكياسة والدهاء ؛ وانحيازه إليهم بتجاهله أهون وأيسر عليه من تعليمهم ، ومضاناة إرشادهم ، وتغيير طباعهم وعاداتهم :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً تجاهلت ، حتى ظن أنى جاهل

* * *

(١) الأمر : الشأن ، والحال ، وجمعه أمور . وعلى ثقة من أمرهم : على ثبات ويقين . والظن : إدراك الذهن الشيء مع ترجيحه ، وجمعه ظنون ، وأظانين . والتخييل : التوهّم . وهو قريب من الظن : مصدر خُيِّل إليه أنه كذا : أى لُبِّس ، وشبه ؛ فتوهَّم أنه كذا . وفى القرآن الكريم : « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » (الآية رقم ٦٦ من سورة طه) .

حُبُّ الْحَيَاةِ ، وَبُغْضُ الْمَوْتِ أَوْرَثَهُمْ جُبْنَ الطِّبَاعِ ، وَتَصْدِيقَ الْأَبَاطِيلِ (٢)

وَقَالَ فِى الْحِكْمَةِ :

أَلَا ، إِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ وَإِنْ نَمَتْ فَأَرْبَعَةٌ مِنْهَا تَفُوقُ عَلَى الْكُلِّ : (١)

وَقَارٌ بِلَا كِبْرٍ ، وَصَفْحٌ بِلَا أَذًى وَجُودٌ بِلَا مَنٍّ ، وَحِلْمٌ بِلَا ذُلٍّ (٢)

---

(٢) الأباطيل : جمع على غير قياس للباطل : وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه ، وضده الحق ؛ أوكأنهم جمعوا إبطيلاً أو إبطالاً . وقيل: إن واحدة الأباطيل : أبطولة (بوزن أكذوبة) ، أو إبطالة (بوزن إضمامة) .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الناس بطبعهم يكرهون الموت ، ويحبون الحياة ؛ وبمغالاتهم فى هذا جبنوا عن مواجهة حقائق الأشياء؛ فعميت عليهم ، والتبست ، وفقدوا اليقين ، والثقة بأمورهم ، وجروا وراء الظنون والأوهام ، وصدقوا ما يرضى غرائزهم من الترهات والأباطيل .

* * *

(١) « ألا » : حرف استفتاح ، وتنبيه . ويراد بأخلاق الرجال : ما ينبغى أن يتخلق به كملة الرجال من حميد السجايا ، وكريم الخلال . ونمت (من بابى رمى ، وسما) : كثرت ، وزادت . وفاق الرجل أصحابه (من باب قال) : فضلهم ، ورجحهم . وصار خيراً منهم . أو علاهم بالشرف : أى كان أعلى وأشرف منهم ؛ كأنه صار فوقهم فى المرتبة . وهذا الفعل يتعدى إلى المفعول بنفسه ؛ ويلاحظ أن الشاعر عداه هنا بـ «على» ؛ كأنه ضمنه معنى «زاد» أو نحوه. ويقال: تفوق على قومه: أى ترفع عليهم.

يقول : إن الفضائل التى ينبغى أن يتصف بها كملة الرجال كثيرة : ولكن المختار الفائق منها أربع . وفى البيت الآتى تفصيلها .

(٢) الوقار : الرزانة ، والحلم ، والسكون ، والثبات . والكبر : العظمة الممقوتة ، والتجبر . ومثله الكبرياء . والصفح : مصدر صفح عنه (كمنع) : أى أعرض عن ذنبه ، وعفا عنه . والأذى : الضرر اليسير ، والشر الخفيف . والجود : البذل ، والعطاء ، والسماح ، والكرم ، والسخاء . والمن : مصدر من عليه بما صنع (من باب رد) : أى فخر بنعمته عليه حتى كدرها بهذا الفخر ؛ وعدد له ما فعله له من الخير ؛ كأن يقول : « أعطيتك كذا ، وفعلت لك كذا » : وهو تكدير وتعيير تنكسر منه القلوب . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . الآية رقم ٢٦٤ من سورة البقرة . والحلم : الأناة ، والصبر . والذل : الهوان ، والضعف . وضده العز ، والمنعة . فصل الشاعر فى هذا البيت الفضائل الأربع التى أشار إليها فى البيت السابق ؛ وهى : الوقار ، والصفح ، =

وَقَالَ فِي الْحِكْمَةِ أَيْضًا ؛ وَهِيَ مِنْ لُزُومِ مَا لا يَلْزَمُ* :

تَسَابَقْ فِي الْمَكَارِمِ تَعْلُ قَدْرًا فَسَبْقُ النَّاسِ لِلْخَيْرَاتِ نَضْلُ[1]

إِذَا ذَهَبَ الْكِرَامُ ، فَلَا رَجَاءٌ وَإِنْ ذَهَبَ الرَّجَاءُ ، فَلَيْسَ فَضْلُ[2]

= والجود ، والحلم ؛ على أن تكون خالصة مما يكدّرها ، أو يفسدها . والمكدّرات ، أو المفسدات على الترتيب : الكبر ، والأذى ، والمنّ ، والذلّ . ومن حكم أبي الطيب المتنبي في المعنى الأخير : وهو الحلم بلا ذلّ :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

* * *

(*) التزم الشاعر في هذين البيتين الضاد قبل الروى ، وهو اللام .

(١) « تسابق » : أمر من التسابق . يقال : تسابق المتسابقان : أي سابق كل منهما صاحبه . وتسابق القوم : أي سابق بعضهم بعضاً ؛ ومن هذا الشرح يتبين أن الفعل « تسابق » من الأفعال التي لا يكون فاعلها مفرداً .ومن أمثلته : تقابلوا ، وتشاركوا ،وتخاطروا ، وتراهنوا ؛ وتناضلوا ؛ويشفع للشاعر هنا أنه يخاطب الناس ؛ فالضمير المفرد في « تسابق » في معنى المتعدد . كأنه قال : أيها الناس! تسابقوا في المكارم ... والمكارم : جمع مكرمة (بفتح ، فسكون ، فضم) : وهي فعل الكرم . واسم من الكرم : مصدر كرم (كشرف) : أي أعطى بسهولة ، وسخا ، وجاد ، وبذل . والكرم بمعناه العام : اسم للأفعال الحميدة ، والأخلاق العظيمة ، والمحاسن الكبيرة التي تظهر من الإنسان . وعلا يعلو علوًّا (كسما يسمو سموًّا) . وعلي يعلي (كرضي يرضى) علاء (كصفاء) . والقدر : الحرمة ، والوقار ، وجمعه أقدار . ويراد بالقدر هنا : الشأن ، والمرتبة ، والمنزلة . و « سبق » في أول الشطر الثاني : مصدر سبقه إلى الشيء (من باب ضرب) :أي تقدمه ؛ وإضافته إلى الناس : من إضافة المصدر إلى مفعوله : أي وسبقك الناس إلى الخيرات نضل . وناضله مناضلة ونضالاً : باراه في رمي السهام . ونضله (من باب نصر) ، نضلاً : سبقه ، وغلبه في النضال والرماء . ويقال : ناضله فنضله : أي باراه فغلبه . ويراد بالنضل هنا : مطلق التغلب ، أو الظفر ، أو الفوز . و « اللام » في « للخيرات » : بمعنى « إلى » . والخيرات : جمع خيرة (بوزن بيضة و بيضات) : اسم بمعنى الخير .

يقول : إذا سابقت الناس في المكرمات علا قدرك ، وسمت منزلتك بينهم ، وعظم شأنك فيهم . وإذا تقدمتهم إلى الخيرات نضلتهم : أي سبقتهم في الشرف ، وغلبتهم على المفاخر : يريد أن المسابقة في الكرم والخير ميسرة لمن أرادها ، وأنها تعلي قدر الخيّر ، الكريم ، وتحقق له الغلبة ، والفوز بالمفاخر . ...

(٢) الكرام : جمع الكريم : وهو الجواد ، السخي ، المعطاء ، الكثير النفع : صفة من الكرم بمعناه الخاص . وقد يراد به : جماع الفضائل ، والمحامد ، والخيرات ، والأفعال الكريمة ، والأخلاق =

وَقَالَ :

إِذَا سَتَرَ الْفَقْرُ امْرَأً ذَا نَبَـاهَةٍ فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُشِيدَ بِهِ الْفَضْلُ[1]

فَإِنَّ لَهِيبَ النَّارِ مَهْمَا كَفَأْتَـهُ إِلَى أَسْفَلٍ قَسْرًا ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلُو[2]

= الحميدة ، والمحاسن الكبيرة التي تظهر من الإنسان . والرجاء : الأمل : مصدر رجاه يرجوه : بمعنى أمله (من باب طلب) . والفضل : الإحسان ؛ أو الابتداء به بلا علة له ؛ ويراد به : الخير ، والبر ، والكرم بمعنييه العام والخاص .

والمعنى : إنما يرجى للخير الكرماء من الناس ؛ فإذا ذهبوا ذهب الرجاء بذهابهم ، وانقضى بانقضائهم ؛ ولم يبق من يأمله الناس لمكرمة ؛ أو يرجونه لمبرة ، أو يندبونه لمهمة ؛ وإن ذهب هذا الرجاء ذهب معه الفضل ، والبر ، والخير ، والنجدة ، والمروءة ، والإحسان ؛ وصلة هذا البيت بالذى قبله واضحة وثيقة ؛ فالبيتان كلاهما فى الحض على التسابق فى أعمال البر والخير والكرم .

* * *

(١) النباهة : الشرف ، والفطنة ، والفضل ، وعلاء الذكر ، وعظم الشأن : مصدر نبه (من باب ظرف) . وأشاد به : نوّه به ، وشهره ، وأظهره ، ورفعه . والفضل : الإحسان ، والخير ، والبر ، والمروءة .

والمعنى : أن الفقر قد يخمل — إلى حين — فقيراً شريفاً ، فاضلاً ، فطيناً ؛ ولكن فضله ومحامده ومزاياه لا تلبث أن تكشف عنه هذا الخمول المؤقت ، وتظهر نباهته ، وتنوه به ، وتعظمه ، وتشهر ذكره ، وترفع فى الناس قدره .

والبيت الآتى تمثيل وتصوير حسى لهذا المعنى .

(٢) كفأته : أملته ، ونكسته . كفأ الإناء (من باب فتح) : أى كبّه ، وقلبه . والقسر : الإكراه ، والقهر : مصدر قسره (من باب ضرب) : أى قهره على كره . وقسره على الأمر : أكرهه عليه .

صوّر الشاعر بهذا البيت معنى البيت السابق تصويراً حسيّاً بليغاً ؛ فإن النابه الفاضل ، الفطن الشريف — لا يستطيع فقره أن يخمله طويلاً ؛ بل لا بد أن يظهره للناس فضله ، وشرفه ، وفطنته ، ونباهته ؛ مثله فى هذا كمثل لهب النار ؛ إذا حاولت أن تنكسه غليك على أمرك ، وزاد توقّده ، واشتد تلهّبه ، وعلا اشتعاله .

وَقَالَ :

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ   وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا لُبْثَـةٌ وَزِيَالُ[١]

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا دَفْتَرٌ فِي خِلَالِهِ   تَصَاوِيرُ لَمْ يُعْهَدْ لَهُنَّ مِثَالُ[٢]

فَفِي صَفْحَةٍ مِنْهُ زَمَانٌ قَدِ انْقَضَى   وَفِي وَجْهٍ أُخْرَى دَوْلَةٌ وَرِجَالُ[٣]

---

(١) لعمرك: قسم بحياتك. اللام للابتداء. وعمر: حياة، وهو مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: لعمرك قسمي، أو يميني. وابن يومه: أي عرضة لأن يموت فى كل يوم؛ فكأن كل يوم نهاية أجله: أى ينبغى أن يقدر أن كل يوم يمر به هو نهاية أجله، ويستيقن أن عمره فى الدنيا قصير مهما طال، وأن الموت متربص به، مدرك له لا محالة؛ وأن الكيس من دان نفسه، وعمل لآخرته؛ كأنه يموت غداً. والعيش: الحياة. واللبثة (بضم فسكون): التوقف اليسير، والمكث القليل. وزايله مزايلة وزيالا: بارحه، وباينه، وفارقه. والشطر الثانى فى معنى الشطر الأول: أى ما الإنسان إلا ابن يومه، وما حياته فى الدنيا إلا لبثة قصيرة.

أقسم بحياة المخاطب أن عمر الإنسان فى الدنيا قصير، وإقامته فيها قليلة مؤقتة محدودة، وأنه سرعان ما يزايلها ويفارقها. وقد استعمل فى شطرى البيت أسلوب القصر، أو الحصر، أو التخصيص، وأكد الخبر بالقسم؛ لأنه فرض فى المخاطب الغفلة، فاقتضى الحال إيقاظه من غفلته بقوة القسم، وقوة التخصيص.

ولا ريب أن الغرض من مثل هذا البيت: تنبيه الأذهان على هذه الحقيقة التى يغفل الناس عنها، ويغترون بالدنيا، ويتكالبون عليها، ويهملون ما ينبغى أن يحرص عليه العقلاء الأخيار من الإيمان، والاستقامة: والمثل العليا، ومكارم الأخلاق.

(٢) الدهر: مدة الحياة الدنيا كلها. والدفتر (كجعفر، ودرهم): جماعة الصحف المضمومة، أو الكراسة. وفى خلاله: المراد فى صفحاته. والخلال (فى الأصل): جمع خلل (بوزن جبل وجبال): وهو المنفرج بين الشيئين. والتصاوير: الصور، أو التماثيل، واحدتها تصويرة. ولم يعهد: لم يعرف. ولهن: للتصاوير. ومثال: شبه، ومثل، ونظير.

(٣) الصفحة من الكتاب، أو الكراسة، أو الدفتر: الوجه من الورقة. والدولة (بفتح الدال وضمها مع سكون الواو): الغلبة، والاستيلاء، والشيء المتداول من مال وغيره، فيكون مرة لهذا، ومرة لذاك. والدولة (بفتح فسكون): جمع من الناس مستقرون فى إقليم معين الحدود، مستقلون وفق نظام خاص.

=

وَقَالَ :

طَهِّرْ لِسَانَكَ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَكُنْ إِلْـ خَبًّا يُقَرِّبُ لِلنُّفُوسِ ضَلَالَهَا[١]

إِنَّ الْوَقِيعَةَ لَا تَعُودُ بِخِزْيَةٍ أَوْ سُبَّةٍ إِلَّا عَلَى مَنْ قَالَهَا[٢]

= وتطلق الدولة على البلاد ، وعلى الهيئة الحاكمة فى البلاد ؛ وكانت لنا عليهم الدولة : أى الغلبة ، وجمعها دول (بضم الدال وكسرها) . ويقال : « لكل زمان دولة ورجال » . ومن كلامهم : « الدهر دول » : أى لاثبات فيه ، ولا استقرار .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الدهر ، أو عمر الدنيا كالدفتر . يحوى ما لا يعرف له نظير من الصور والتماثيل ، والأشكال والأحوال ، وألوان العيش ، وضروب الحياة ؛ وسير الموتى والأحياء ؛ وإذا تصفحته رأيت فى بعض صفحاته زماناً قد انقضى ، وطوى الموت أهله ؛ ورأيت فى بعضها دولة ورجالا يضطربون فى الحياة .

والغرض من هذه الأبيات الثلاثة العظة ، والنصح ، والإرشاد ، والتبصير بقصر عمر الإنسان ، وقلة إقامته ، وسرعة فنائه ، وكثرة ما يحويه سجل الدهر ، وكتب التاريخ من العبر والعظات التى تنبه الغافل ، وتنذر الجاهل ، وتقفه على حقيقة الحياة الدنيا ، وتريه أنها قصيرة فانية ، متقلبة متغيرة ، لاثبات فيها ، ولا قرار ؛ « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران .

* * *

(١) خبّ (من باب علم) : خدع ، وغش ، وخبث ؛ ومنه الخب (بكسر الخاء وفتحها) : وهو الخداع الخبيث ، الذى يسعى بالفساد بين الناس ، ويظهر لك خلاف ما يخفيه ؛ ويلحق بك المكروه من حيث لا تعلم . والضلال : ألا يجد السالك إلى مقصده طريقاً : مصدر ضل : ضد اهتدى .

(٢) الوقيعة : اغتيابك الناس : مصدر وقع فى فلان : أى سبه ، وعابه ، واغتابه . والخزية (بفتح الخاء وكسرها) : الخزى ، والعار ، والفضيحة ، والبلية ، والخصلة يستحيا منها : مصدر خزى (من باب علم) : أى وقع فى بلية وشر ، وافتضح ؛ فذل بذلك وهان . والسبة : العار . وما يجلب لصاحبه السب ، والشتم ، واللعن .

وهذان البيتان فى النصح والإرشاد لعفة اللسان والقلب ، وتطهيرهما من دنس الكذب والغيبة والنميمة ، والسعى بين الناس بالشر والفساد ، والترفع بهما عن الخبث ، والغش ، والخداع ، والمكر السيئ الذى يضل النفوس ، ويوقعها فى المكروه ، ويعميها عن الهدى والرشاد ؛ فإن العائب للناس ، الواقع فى أعراضهم لا ينال منهم بوقيعته واغتيابه بقدر ما يسىء إلى نفسه ، ويجلب لها المقت والخزى والعار ، ويبوء بالفضيحة والذل والهوان . ويقرب من معنى البيت الثانى قول كعب بن زهير بن أبى سلمى :

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

وَقَالَ :

لَيْسَ الصَّدِيقُ الَّذِى تَعْلُو مَنَاسِبُهُ   بَلِ الصَّدِيقُ الَّذِى تَزْكُو شَمَائِلُهُ[١]
إِنْ رَابَكَ الدَّهْرُ لَمْ تَفْشَلْ عَزَائِمُهُ   أَوْ نَابَكَ الْهَمُّ لَمْ تَفْتُرْ وَسَائِلُهُ[٢]

---

(١) النسب : القرابة ، وجمعه أنساب (بوزن سبب وأسباب) ، ومثله المنسب ، وجمعه مناسب (بوزن مذهب ومذاهب) ؛ ورجل عالى المناسب : نابه الأصول ، معروف حسبه ونسبه ، شريف الآباء والقرابات . وتزكو : تصلح ، وتطهر ، وتطيب . وشمائله : سجاياه ، وطباعه : جمع شمال (بوزن كتاب) .

والمعنى : أن المرء بعقله وأدبه ، لا بحسبه ونسبه ؛ وأن صديقك الجدير بثقتك واحترامك ، من صدق وده ، وزكت خصاله ، وكرمت أخلاقه ، لا من علا نسبه وحسبه ، ونبهت أصوله وآباؤه . وفى البيت حض على حسن اختيار الأصدقاء .

(٢) رابك : ساءك ، وأزعجك ، ونابك ، وأصابك ، وأراك ما تكره . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة حياة المرء ، ومدة الحياة الدنيا كلها ؛ وقد جرى الناس على أن ينسبوا إليه الخير والشر ، والمسرة والمساءة . ولم تفشل : لم تضعف : مضارع فشل (من باب تعب) : أى ضعف ، وتراخى . والعزائم : جمع العزيمة : وهى الإرادة المؤكدة . ولم تفشل عزائمه : لم تضعف هماته ، ولم يقصر فى حقك ، ولم يخن أخوتك ، ولم يقعد عن نصرتك ومعونتك . ونابك : أصابك ، ونزل بك . والهم : الحزن ، والغم . ولم تفتر : لم تضعف ، ولم تقصر : مضارع فتر (من بابى قعد ، وجلس) : أى ضعف ، وسكن بعد حدة ، ولان بعد صلابة وشدة . والوسائل : جمع الوسيلة : وهى الوصلة ، وما تتقرب به إلى غيرك . والوسيلة : التقرب . ويراد بالوسائل هنا : الصلات الوثيقة ، والروابط المتينة التى تتطلبها الصداقة الصادقة ، والأخوة الصحيحة . والشطر الثانى فى معنى الشطر الأول .

فى البيت السابق قال : إن الصداقة الصادقة ليست فى علو الأنساب والأحساب ، ونباهة الآباء والأجداد ، وإنما تكون فى زكاء الشمائل ، وكرم الطباع ، ونبل السجايا ، وشرف الخلال والخصال .

وفى هذا البيت والأبيات التالية تفصيل لهذا الإجمال ؛ فالصاحب الصادق الود ، والصديق الزكى الشمائل من أقام على الوفاء لك ، وثبت فى العسر واليسر ، والضراء والسراء ، والشدة والرخاء ، وأعانك على ريب الدهر ، وحدثان الزمان ، ولم يخذلك فى الأزمات والملمات ؛ ولا ريب أن النكبات والشدائد تميز العدو من الصديق ، والخبيث من الطيب :

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوى من صديقى

يَرْعَاكَ فِى حَالَتَىْ بُعْدٍ وَمَقْرَبَةٍ ... وَلَا تُغِبُّكَ مِنْ خَيْرٍ فَوَاضِلُهُ(٣)
لَا كَالَّذِى يَدَّعِى وُدًّا ، وَبَاطِنُهُ ... بِجَمْرِ أَحْقَادِهِ تَغْلِى مَرَاجِلُهُ(٤)
يَذُمُّ فِعْلَ أَخِيهِ مُظْهِرًا أَسَفًا ... لِيُوهِمَ النَّاسَ أَنَّ الْحُزْنَ شَامِلُهُ(٥)

(٣) يرعاك : يحفظك . والمراد يرعى عهد الصداقة وحرمتها ، ويحفظ لك المودة والمحبة ، ويخلص لك ، ويصون حقوقك عليه فى بعدك وقربك ، وغيبتك وحضورك. والمقربة (بتثليث الراء) : ضد البعد : مصدر ميمى من قرب (من باب حسن) . ولاتغبك : لا تنقطع عنك : من الإغباب : مصدر أغب. أو من الغب : مصدر غب (كرد ، وخف) . يقال: فلان لا يغبنا عطاؤه : أى يتوالى علينا كل يوم . والغب ، والإغباب (فى الأصل) : خلاف التتابع ، أو التوالى : أو الاتصال فى الزيارة ، وفى سق الإبل والماشية ، وفى تردد الحمى إلى المحموم ، وفيما شابه هذا. وفى الحديث الشريف : « زر غباً ، تزدد حباً ». وغبت الحمى على المحموم ، وأغبت عليه ، وأغبته : أخذته يوماً ، وتركته يوماً . وغبت الماشية : شربت يوماً ، ولم تشرب يوما . والفواضل : جمع فاضلة : وهى النعمة العظيمة ، والهبة ، والبر : والإحسان . و « من خير » : متعلق بـ « فواضل» . وهو بيان للفواضل ، وتأكيد لمعناها .

يقول : من أمارات صدق الصديق ، وإخلاصه ، ووفائه ، وزكاء شمائله ، وكرم خصاله — أن يحفظ ودك ، ويرعى عهدك ، ويصون حقك فى قربك وبعدك ، وحضورك وغيبتك ، ويصلك على الدوام ببره وخيره ، وإقباله وحفاوته .

(٤) الود (مثلثة الواو) : المودة ، والمحبة. والواو : واو الحال ، والجملة إسمية بعدها حالية . وباطن كل شىء : جوفه . وباطن الإنسان : سريرته : أى ما يكتمه ، ويسره ، ويخفيه . وبجمر أحقاده متعلق بـ « تغلى » . والباء : للسببية : أى يدعى الود والحال أن باطنه تغلى مراجله بسبب جمر أحقاده : أى بسبب أحقاده المتوقدة توقد الجمر : جمع جمرة : وهى النار المتقدة . أو قطعة منفصلة منها . والأحقاد جمع حقد : وهو الضغن (بكسر فسكون فيهما) : أى إضمار الكراهية ، والانطواء على البغضاء ؛ حقد عليه (كضرب) : أمسك عداوته فى قلبه ، وتربص فرصة الإيقاع به . والمراجل : جمع مرجل (بوزن منبر) : وهو القدر (بوزن البئر) التى يطبخ فيها . وغليان مراجله : كناية عن شدة غيظه . والجملة الحالية كلها تصوير بليغ لما يضمره مدعى الود من الحقد المتوقد ، والغيظ الشديد ، والضغن الذى يغلى به قلب هذا المنافق وكبده وسريرته وباطنه .

يقول : ليس الصديق الذى تزكو شمائله كالمنافق المخادع ، الذى يظهر المودة ، ويضمر العداوة الشديدة ، والحقد الدفين المتوقد . وفى البيتين الآتيين تصوير مفصل لخداع هذا المنافق المداهن .

(٥) فاعل « يذم » : ضمير مستتر يعود على مدعى الود : أى الصديق المخاتل المداهن ، الذى تغلى =

وَذَاكَ مِنْهُ عِدَاءٌ فِي مُجَامَلَةٍ   فَاحْذَرْهُ ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ خَاذِلُهُ(٦)

وَقَالَ :

الْحُبُّ مَعْنًى لَا يُحِيطُ بِسِرِّهِ   وَصْفٌ ، وَلَا يَجْرِى عَلَيْهِ مِثَالُ(١)

= مراجله بجمر أحقاده . والأسف : أشد الحزن . والأسف : التألم ، والتوجع . ووهم الإنسان الشيء (كوعد) : تمثله ، وتخيله ، وتصوره ؛ أو دار فى خاطره . وأوهمه كذا : أدخله فى وهمه : أى جعله يتوهمه ، ويظنه ، ويتمثله ، ويتخيله ، وإن لم تكن له حقيقة ، ولم يكن له وجود . والحزن شامله : أى محيط به : اسم فاعل من شملهم الأمر : أى عمهم ، وغطاهم .

والمعنى : أن هذا الحب المنافق الذى يدّعى الصداقة ، ويلقى إليك بمودته الكاذبة لا يضمر لك غير الكراهية الشديدة ، والحقد المتأجج . ومن افتنانه فى تغطية عداوته المتوقدة أن يغتابك ، ويعيبك ، ويذم أفعالك ، ويزرى عليك أعمالك فى غيبتك ، أو فى حضورك ، مظهراً الأسف والحزن ، والتوجع والتألم ؛ ليوهم الناس أنه غير مغتاب ، وغير معاد ، أو مخاصم ؛ وإنما يعيبك إشفاقاً عليك ، وبراً بك ، وإصلاحاً لشأنك ، ورغبة فى تقويمك ، وهدايتك ، وتصحيح أخطائك .

(٦) « ذاك » إشارة إلى الأسف ، والحزن الشامل الذى ذكره فى البيت السابق . ومنه : من مدعى الود . والعداء (بفتح العين) : مصدر عدا عليه : أى ظلمه ، وتجاوز الحد فى ظلمه ، ومثله العدوان ؛ أو هى العداء (بكسر العين) : مصدر عاداه : أى خاصمه ، وصار له عدواً ؛ والاسم منه العداوة . والمجاملة : مصدر جامله : أى عامله بالجميل ، ولم يصفه الإخاء . وجامله : أحسن معاملته وعشرته . وعلم الإنسان الشيء : عرفه ، وتيقنه . وعلمه ، وعلم به : شعر به ، وأحسه ، وأدركه . وخاذل : اسم فاعل من خذله : أى أسلمه ، وخيبه ، وترك نصرته وإعانته .

والمعنى : أن هذا الأسف والحزن الشامل الذى يتكلفه مدعى الود ، إنما هو فى حقيقته عداوة خفية فى صورة مجاملة يتصنعها وهو يعيبك ، ويذم فعلك ؛ ليستر بها ما يضمره لك من الحقد والكراهية ؛ فاحترز منه ، ولا تنخدع بمجاملته الزائفة ، واعلم أن الله لن ينصره ؛ فإن نصر الله تعالى مقصور على الأتقياء الصادقين المخلصين من عباده .

* * *

(١) يراد بمعنى الحب هنا : المعنى الروحى الناشئ من تعلق قلب الإنسان بشيء آخر ؛ وهذا هو المعنى الذى لا يحيط بسره وصف ، ولا يجرى عليه مثال . وخفاء حقيقة الحب بهذا المعنى كخفاء حقيقة الروح ؛ ولهذا قيل : « الحب عظم أن يعرف ، وجلّ أن يخفى » . أما أمارات الحب ، وظواهره ، وآثاره ، ونتائجه ، فإنها فى دائرة معارف الإنسان ، وفى متناول عقله وحواسه . ومثال الشيء : شبهه ، وصورته التى تمثله وتصوره وتبرز معالمه وصفاته .

كَالْكَهْرَبَاءَةِ دَرْكُهَا مُتَعَــذِّرٌ وَنَسِيمُهَا مُتَحَدِّرٌ سَــيَّالُ(٢)
وَكَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ يَظْهَرُ فِعْلُهَــا وَيَغِيبُ عَنَّا سِــرُّهَا الْفَعَّالُ(٣)

= والمعنى : أن الحب الروحى من الأمور الخفية التى لا يكشفها الوصف والبيان ، ولا يظهرها التمثيل والتشبيه ، ولا يجليها التعبير والتصوير . وفى هذا المعنى يقول أبو الطيب المتنبى :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت ، وخلت أنى أسلم

ويقول غيره :

إن المحبــة أمــرها عجب تلقى عليك ، ومالها سبب

وفى البيت الآتى جعل الحب كالكهرباء . وفى البيت الثالث شبهه بالروح ؛ والجامع بين الحب ، والكهرباء ، والروح أن كلاًّ منها مجهول الكنه والحقيقة ، معروف بآثاره ونتائجه .

(٢) الكهرباءة : القطعة من الكهرباء . ودركها متعذر : أى تعذر على العلماء معرفة كنهها ، ولم يستطيعوا الوقوف على حقيقتها ؛ ولهذا أشبهت الحب الروحى الذى أشار إليه الشاعر فى البيت السابق ، وقال : إن الإحاطة بسره غير مستطاعة ، وتمثيل معناه غير ممكن. والنسيم (فى الأصل) : الريح الطيبة اللينة اللطيفة . أو أول الريح حين تقبل بلين ، قبل أن تشتد . أو الريح التى لا تحرك شجراً ، ولا تعفّى أثراً . ويراد بنسيم الكهرباء : التيار الكهربائى : وهو القوة الكهربائية السارية فى المادة ؛ وهو نوعان : موجب ، أو دافع ؛ وسالب ، أو جاذب ؛ ومن آثار هذا التيار ، أو السيال : الإضاءة ، والتسخين ، والتبريد ، والجذب ، وهزّ أعصاب الحيوان ، وتحليل الماء والأملاح ، وغير ذلك . ومتحدر : اسم فاعل من تحدر الدمع ونحوه : أى تنزل ، وانحدر ، وسال . وسيال : صيغة مبالغة من سال الماء ونحوه : أى جرى . وهو تكرار وتأكيد لمعنى « متحدر » .

شبّه الحب الروحى بالكهرباء ؛ فكلاهما مجهول الكنه والحقيقة ، ظاهر الآثار والنتائج .

(٣) الأرواح : جمع الروح (بضم الراء ، وسكون الواو) : وهو النفس (بفتح فسكون) ؛ وما يحيا به الجسم ، فإذا انقطع عن الحيوان فارقته الحياة ، والروح يذكر ويؤنث ؛ وفى مذهب أهل السنّة : أنها النفس الناطقة ، المستعدة للبيان ، وفهم الخطاب ؛ ولا تفنى بفناء الجسد. وفى القرآن الكريم : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ؛ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .الآية رقم ٨٥ من سورة الإسراء . سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن كنه الروح وحقيقتها ، فنزلت هذه الآية القرآنية الكريمة . ومعنى « قل الروح من أمر ربى » : قل لسائليك عن كنه الروح وحقيقتها : إن الروح من أمر الله تبارك وتعالى : أى مما استأثر الله تعالى بعلمه . قال بعض العلماء : « إن الله تعالى لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً » ؛ بدليل هذه الآية. وقيل : إن المراد بالروح فيها : القرآن ؛ على أنه لو كان المراد : روح الحياة ، فليس فى الآية أكثر من أن الروح من أمر الله ؛ =

حِكَمٌ تَمَلَّكَهَا الْغُمُوضُ فَلَمْ يُحِطْ ... بِرُمُوزِهَا فِى الْعَـالَمِينَ مَقَالُ(٤)

وَقَالَ فِى الْغَزَلِ* :

لَيْسَ لِى غَيْرَ خَالِكَ الْحَجَرِ الْأَسْـ ... ـوَدِ فِى كَعْبَةِ الْمَحَاسِنِ قِبْـلَهْ(١)

وباب البحث عن حقيقتها مفتوح ، لم يمنع منه نص دينى . وفعّال: مبالغة « فاعل » . وسرها الفعال: كنهها الذى به تحصل الحياة ، والتحرك ، واستجلاب المنافع ، واستدفاع المضار . . .

نظم الحب ، والكهرباء ، والروح فى سلك واحد ؛ فكل منها مجهول يظهر بآثاره .

(٤) حكم: جمع حكمة (بكسر فسكون) : وهى (فى الأصل) : إصابة الحق بالعلم والعقل، أو معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات ، أو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . والحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام والإتقان. ويراد بالحكم هنا: أمور ثلاثة ، يجمعها الإحكام والإتقان وخفاء حقائقها وأسرارها ، وظهور نتائجها وآثارها : وهى : الحب ، والكهرباء ، والروح . وتملكها : ملكها ، وسيطر عليها ، وأحاط بها . والرموز : جمع رمز : وهو الإيماء ، والإشارة . والعالمون : جمع العالم (بفتح اللام) : وهو الخلق كله . والمقال : القول . ومثله المقالة : مصدر « قال » .

والمعنى : أن الحب ، والكهرباء ، والروح من الأشياء التى أحكم الله خلقها ، وأتقن إيجادها ، وأظهر للناس آثارها ؛ ولكنه — جل وعلا — أخفى عنهم حقائقها ؛ فعجزوا كل العجز عن إدراك شىء من أسرارها وخفاياها ، بعد ما أنفقوا الأعمار الطويلة ، والجهود المضنية فى بحوث ومقالات قصرت كلها عن الإحاطة بكنه هذه الأشياء الثلاثة ، أو إدراك شىء من حقائقها على الرغم من ظهور آثارها .

ولعل الحكمة فى ذلك تعجيز العقل البشرى عن إدراك حقائق مخلوقات مجاورة له ، متصلة به أوثق اتصال ؛ ليعلم أنه عن إدراك ذات الله أشد عجزاً وقصوراً .

* * *

(*) الغزل : مصدر غزل الرجل بالمرأة (من باب طرب) : أى حادثها ، ولها معها ، وتودد إليها ، وأفاض بذكرها . ويرادف الغزل ، أو يقرب منه النسيب ، والتشبيب ؛ فالأول : مصدر نسب الشاعر بالمرأة (كضرب ، ونصر) : أى عرّض بهواها وحبها . أو شبب بها وتغزل . والنسيب : رقيق الشعر فى النساء . والثانى: مصدر شبب الشاعر بالمرأة : أى تغزل بها ، ووصف محاسنها . أو ذكر أيام الشباب واللهو والغزل . وشبب قصيدته: حسّنها وزينها بحديثه عن المرأة . وكان من عادات قدامى الشعراء : أن يفتتحوا قصائد المديح بالتشبيب ، كقصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير بن أبى سلمى فى مدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم . والشاعر فى هذين البيتين ، وفى كثير من غزلياته يستخدم ضمير المذكر على عادة كثير ممن روى عنهم ، ونسج على منوالهم من شعراء العصر العباسى .

(١) الخال: شامة، أو نكتة سوداء فى البدن ؛ والكثير الغالب المشهور أن يطلق الخال على شامة الخد ، =

فَأَثِبْنِى عَلَى الْجَمَالِ زَكَاةً وَزَكَاةُ الْجَمَالِ فى الْخَدِّ قُبْلَهْ (٢)

وَقَالَ :

يَا هَاجِرِى ظُلْمًا بِغَيْرِ خَطِيئَةٍ هَلْ لِى إِلَى الصَّفْحِ الْجَمِيلِ سَبِيلُ ؟ (١)

= وقد يكون خلقة. وقد تصنعه الحسناء للتجمل والزينة. والكعبة: البيت الحرام الذى رفع قواعده بمكة المكرمة سيدنا إبراهيم الخليل ، بمعاونة ابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام . ولما أتمه أذن فى الناس بحجه . قال تعالى فى القرآن المجيد : « وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق » الآية رقم ٢٧ من سورة الحج . والبيت الحرام قبلة المسلمين ، يتجهون إليه فى صلاتهم . قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » الآية رقم ١٤٤ من سورة البقرة . وفى الركن اليمانى من الكعبة الحجر الأسود الذى يقدسه المسلمون ، ويلمسونه ، أو يقبلونه إذا مروا به وهم يطوفون بالكعبة . والمحاسن : جمع على غير قياس للحسن . أوهو جمع محسن (بوزن مذهب) . والقبلة : الكعبة المشرّفة ؛ لأن المسلمين يستقبلونها فى صلاتهم . والقبلة أيضاً: الجهة . و « الحجر» بدل من « خال » . وترتيب الكلام : « ليس لى قبلة فى كعبة المحاسن غير خالك الحجر الأسود » .

جعل محاسن وجه الحبيب كعبة يستقبلها عشاقه . كما يستقبل المصلون البيت الحرام . وفتن فتوناً بشامة سوداء فى خده ؛ فولى وجهه شطرها ، وتعلق بها بصره ، كأنها الحجر الأسود فى الكعبة المشرفة ، ينظر إليه الطائف بها ، ويحرص على تقبيله .

(٢) « أثبنى » : أمر من « أثاب » : بمعنى منح ، وأعطى ، ووهب . والزكاة: حصة ، أوقدر محدود يخرجه المزكى من ماله للفقراء والمستحقين . والزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة . وسمى القدر المخرج من المال زكاة ؛ لأنه يزكى المال : أى يطهره ويصلحه ، أو لأنه يزيده ويباركه وينميه . والقبلة (بضم فسكون) : اللثمة . وقد قبله تقبيلا : أى لثمه .

يقول لمن يتغزل بها : إن الجمال كالمال ، يستحق أن تخرج عنه الزكاة ، وأنا ممن يستحقونها . وزكاة الجمال أن يسمح للعاشق بتقبيل الجميل فى خده .

* * *

(١) الخطيئة : الذنب ، والإثم ، والجريرة . والاستفهام فى أول الشطر الثانى : معناه التمنى . والصفح : مصدر صفح عنه (من باب نفع) : أى أعرض عن ذنبه ، وعفا عنه . وجمال الصفح : أن =

مَاذَا يَضُرُّكَ لَوْ سَمَحْتَ بِنَظْرَةٍ تَحْيَا بِهَا نَفْسٌ عَلَيْكَ تَسِيلُ ؟[٢]

وَقَالَ :

مَنْ ظَنَّنِي مَوْضِعًا يَوْمًا لِحَاجَتِهِ كُنْتُ الْحَرِىَّ بِأَنْ أُعْطِيهِ مَاسَأَلَا[١]

لَهُ عَلَىَّ بِحُسْنِ الظَّنِّ مَأْثُرَةٌ لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا شُكْرِى وَإِنْ جَمُلَا[٢]

= يكون من مقتدر عليه لمحتاج إليه ، وأن يأتى فى وقته المناسب ، وتأتلف به القلوب النافرة . وسبيل : طريق .

فى الشطر الأول شكا حبيبه ، ورماه بالظلم ؛ لأنه صد عنه ، وهجره بغير جريرة ؛ ولكنه ما لبث أن عدل عن هذا فى الشطر الثانى ، وتطامن ، وفرض أنه قارف ما استوجب هذا الصدود والإعراض ، وتمنى أن يجد السبيل إلى صفح جميل من هذا الحبيب يحيى آماله ، ويحقق له ما يرجوه من الإقبال والوصال .

وفى البيت الآتى توضيح وتفصيل لبعض هذا المعنى .

(٢) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى : أى لن يضيرك سماحك بنظرة تُحْيِى بها نفس من أحبك ، وتعلق بك . وعليك : من أجلك : أى بسببك ؛ وهو متعلق بـ « تسيل » ؛ ومعناه : تهلك وتردى ؛ على التجوز من سال الماء ونحوه : إذا جرى ، وفارق موضعه . أو تسيل عليك : تتدفق عليك ، وتسرع إليك ، وتمتزج بك ؛ وهو أيضاً تعبير مجازى من قولهم : « سالت عليه الخيل وغيرها » : أى جرت من كل وجه ، وتدفقت . قال الشاعر :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فى الشطر الثانى من البيت السابق تمنى أن يصفح عنه الحبيب صفحاً جميلا .

وفى هذا البيت أشار إلى ما يضانيه ، ويكاد يرديه من لواعج الهوى ، وحرق الصبابة ، وإعراض الحبيب وصدوده ؛ ورجا أن يقرن هذا الصفح الجميل بنظرة منه لن تضيره إذا سمح بها ، ولكنها تحيى نفس محبه ، وتنقذه ، أو تخفف عنه ضنى الوجد ، وأوصاب الغرام .

* * *

(١) الحرىّ : الخليق ، والحقيق ، والجدير ، والمستحق . يقال : هو حرىّ بكذا ، وحرىّ أن يفعل كذا : أى جدير به ، أهل له : أى من جعلنى أهلا لحاجته ، كنت أهلا أن أقضيها له ، وأنيله إياها ، وأعطيه ما سألنى إياه . و « أعطيه » منصوب بـ « أن » الناصبة للمضارع ؛ وإنما سقطت فتحة « الياء » هنا لضرورة وزن الشعر .

(٢) المأثرة (بفتح الثاء وضمها) : الفعل الحميد ، والمكرمة التى تؤثر : أى تروى ، وتنقل ، وتذكر ؛ وجمعها مآثر . ولا يستقل : لا ينهض : مضارع استقلّ الشىء : أى حمله ، ورفعه ، ونهض به =

وَقَالَ فِى الْغَزَلِ :

عَاتَبْتُهُ ، لَا لِأَمْرٍ فِيهِ مَعْتَبَةٌ عَلَيْهِ . لَكِنْ لِأَرْعَى وَرْدَةَ الْخَجَلِ (١)

فَأَلْبَسَتْ يَاسَمِينَ الْخَدِّ خَجْلَتُهُ وَرْدًا جَنِيًّا . جَنَاهُ رَائِدُ الْمُقَلِ (٢)

= أو معنى « لا يستقل » : لا ينفرد . من قولهم : « استقل الوالى بالولاية » : أى تفرد بها ، ولم يشركه فيها غيره . والمراد أن شكره لا يكافئ مأثرة من أحسن به الظن ، وجعله أهلا لحاجته . وجمل الشكر (بوزن كرم) : حسن ، وكمل ، وتم . و « إن » هنا : مجردة من معنى الشرط : أى لا يستقل بها شكرى ولو جمل : أى ولو فى حال جماله وكماله وتمامه .

ومعنى هذين البيتين : إذا قصدنى امرؤ بسؤاله ؛ فقد جعلنى أهلا لحاجته ، وأحسن الظن بى ، وأسدى إلىّ بحسن ظنه مكرمة وجميلا ؛ ولهذا كنت أهلا أن أمنحه سؤله ، وأحقق له طلبته ، وأقضى حاجته . وكان من حقه علىّ فوق هذا أن أشكر له ، وأحسن الثناء عليه ، وأنوه بمأثرته وجميله . ويلاحظ أنه بالغ ، فقال : إن شكره — وإن كمل وتم — لا يكاد ينهض بمأثرة قاصده ، أو يكافئها ويوازنها ؛ وهى مبالغة محمودة ، ومعنى جميل رائع .

* * *

(١) أرعى : أراقب : والمراد أستمتع بالنظر : من قولهم : « رعى النجوم » : أى راقبها ، (وبابه سعى) . أو المعنى : أجنى ، وأقطف . من قولهم « رعت الماشية الكلأ » : أى سرحت فيه وأكلته .

لم يكن من حبيبه المتغزل به شىء يستحق العتاب ؛ وإنما عاتبه ليخجله ، فيستمتع بالنظر إلى حمرة الخجل فى خديه ؛ أو ليقتطف منهما وردتين كانتا نتيجة العتاب .

(٢) ياسمين الخد : الخد الشبيه بالياسمين : وهو زهر أبيض ذكى الرائحة . والجنىّ (بوزن الغنىّ) : الغض ، الناضر ، الطرى ، الذى جنى لساعته . وجناه : قطفه ، وتناوله من شجرته . والرائد : اسم فاعل من راد قومه ، أو راد لهم المياه ، والمراعى ، والمنازل : أى تلمسها ، وطلبها ، وسعى فى أن يجدها لهم . والمقل : العيون ، واحدتها مقلة . ورائد المقل : المقل الشبيهة بالرائد . و « خجلته » فاعل « ألبس » . و « ياسمين الخد » مفعوله الأول . و « وردًا » مفعوله الثانى .

فى البيت السابق قال : إن حبيبه لم يقترف شيئاً يلام عليه ؛ وإنما أراد إخجاله باللوم أو المعتبة ليستمتع برؤية نتيجتهما الحسية ، وهى حمرة الخجل فى وجنتيه .

وهذا البيت شبه تكرار لمعنى البيت السابق ؛ فبياض خديه قبل الخجل كبياض الياسمين ؛ وحمرتهما =

وَقَالَ فِى الْحِكْمَةِ* ، وَهِىَ مِنْ لُزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ :

دَعِ الْمَخَافَةَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَهَا ‏ ‏ وَإِنْ تَحَصَّنَ لَا يَنْجُو مِنَ الْغِيَلِ (١)

=بعد الخجل كحمرة الورد الجنى . والاستمتاع والبهجة فى هاتين الحالتين المتتابعتين—لعينيه وعيون العاشقين الهائمين بمثل هذا الجمال الحسى .

* الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . أو معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات . أو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . أو صواب الأمر ، وسداده . أو القول الوجيز الرائع الذى يتضمن حكماً صحيحاً مسلَّماً . أو الكلام الذى يوافق الحق ، ويقلّ لفظه ، ويجلّ معناه . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمة » : أى قضيّة صادقة . والمثل : قول محكى سائر ، يقصد منه تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله . والحكم والأمثال كثيرة فى المنثور والمنظوم من الأدب العربى . وبها يتمثّل الناس ، وترتاح نفوسهم لها ، وتنشط لحفظها . وحظّ البارودى منها غير قليل ، وإن كان أكثرها فى ديوانه وفى أدبه ترديداً ، أو تجديداً لمعان سبقه إليها شعراء العرب وحكماؤهم . وقد التزم فى هذين البيتين الياء المفتوحة قبل الروىّ ، وهو اللام ؛ وهذا الالتزام لا تحتمه قواعد القافية .

(١) دع المخافة : اترك الخوف ، واجتنبه : أى لا تخف ، ولا تحجم ، ولا تجبن حيث ينبغى الإقدام ، وتحمد الشجاعة . و « إن » فى أول الشطر الثانى متجردة من معنى الشرط ، مستعملة هنا بمعنى « لو » : أى واعلم أن الوجل الخائف لا ينجو من الغيل ولو تحصّن : أى حتى فى حال تحصّنه وتمنّعه . وتحصّن : اتخذ لنفسه حصناً يقيه ، ويمنعه ، ويجيره ، ويحميه . والغيل : جمع غيلة (بوزن حيلة وحيل) : اسم من الاغتيال : مصدر اغتاله : أى أخذه من حيث لا يدرى ، فأهلكه ؛ ومثله غاله (من باب قال) . وقتله غيلة : قتله على غفلة منه .

يحضّ على الإقدام والشجاعة . ويقول : إن الخائف الحذر لا ينفعه خوفه وحذره . ولا ينجيانه من المهالك والآفات ، ولو احتمى بالحصون المحصنة ، والبروج المشيّدة ؛ وإذا كان الخائف الجبان عرضة للاغتيال ، حتى وهو متحصّن بحصنه ، متمنّع بمأواه ؛ فلا معنى للمخافة والجبن ، ولا فائدة منهما ، ولا خير فيهما . وفى هذا حضّ على الإقدام والشجاعة . وفى الحضّ عليهما يقول أبو الطيب المتنبى :

إذا غامرت فى شرف مروم ‏ ‏ فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر صغير ‏ ‏ كطعم الموت فى أمر عظيم
يرى الجبناء أن العجز عقل ‏ ‏ وتلك خديعة الطبع اللئيم

لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ عِلْمٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الْعَوَاقِبِ ،لَمْ يَرْكَنْ إِلَى الْحِيَلِ (٢)

وَقَالَ فِي فَقْدِ الشَّبَابِ :

يُعَزَّى الْفَتَى فِي كُلِّ رُزْءٍ ، وَلَيْتَهُ يُعَزَّى عَلَى فَقْدِ الشَّبَابِ الْمُزَايِلِ (١)

فَكَمْ بَيْنَ مَفْقُودٍ يُعَاشُ بِغَيْرِهِ وَآخَرَ يُزْرِي بِالْهَوَى وَالْوَسَائِلِ (٢)

---

(٢) « يستدل » بالبناء للمعلوم ، أو بالبناء للمجهول . والعواقب : جمع عاقبة : وهى آخر كل شيء ، ونهايته ، وخاتمته . وركن إليه (كخضع ، وقعد ، وفهم ركوناً وركْناً) : مال إليه ، واستند ، واعتمد عليه . والحيل : جمع الحيلة (بوزن قيمة وقيم) : وهى الحذق ، وجودة النظر ، وحسن التدبير ؛ والقدرة على دقة التصرف فى الأمور .

والمعنى : أن علم الإنسان قاصر محدود ، لا يكاد يكشف شيئاً من المغيب المجهول ؛ ولو استطاع الإنسان تعرّف نهايات الأمور ، وإدراك مصايرها ، وكشف عواقبها — ما جهد نفسه فى كد الذهن ، واستنباط الحيل التى يحاول بها جلب المنافع ، واتقاء المضار .

وأعلم علم اليوم ، والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

وفى القرآن الحكيم : « ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء » .الآية رقم ١٨٨ من سورة الأعراف .

ووجه الاتصال بين هذا البيت والذى قبله : أنه ما دام الإنسان يجهل ما يخبؤه له القدر ، ولا يستطيع اتقاء ما يفجؤه به من الغيل والمكاره مهما فكّر وقدر ، واحتال ودبّر — فمن الخير والفضيلة أن يواجه شدائد الحياة شجاعاً مقداماً ، غير هياب ، ولا وجل .

* * *

(١) يعزى : يدعى له بالعزاء ، ويحمل على الصبر والسلوان . عزى يعزى (كرضى يرضى) عزاء : حسن صبره على ما نابه . وعزاه تعزية : سلاه وصبره . والفتى : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . وهذا المعنى هو المراد هنا . والرزء : المصيبة ، وجمعه أرزاء . و « ليت » : حرف يفيد التمنى . والمزايل : المفارق .

والمعنى : أن الناس يعزون المرزوء المصاب : أى يدعون له بحسن العزاء ، ويحضونه على الصبر الجميل والسلوان ؛ فليتهم يتقدمون بمثل هذه التعزية إلى من أصيب بفقد شبابه ؛ فإنه أحوج المصابين إليها ، وأحرص المحزونين عليها ؛ إذ فقدان الشباب من الأرزاء الفادحة ، والكوارث الشديدة ، والمصائب الجلى . وفى البيتين الآتيين مزيد توضيح ، وبيان ، وتعزيز لهذا المعنى .

(٢) « كم » : اسم ثنائى ، مبنى على السكون ؛ وهى هنا خبرية بمعنى « كثير » . وتمييزها محذوف : أى كم فارق ، أو كم مسافة : أى بين المفقودين المشار إليهما فى هذا البيت فوارق كثيرة ، ومسافات بعيدة . والمفقود الذى يعيش المرء بغيره : كل شيء عدا الشباب. وآخر : أى ومفقود آخر : والمراد به الشباب . =

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَبْكِ الشَّبَابَ . فَمَا الذى يَعِزُّ عَلَيْهِ : وَهْوَ أَكْرَمُ رَاحِلِ ؟[٣]

وَقَالَ يَهْجُو* :

كُلُّ صَعْبٍ سِوَى الْمَذَلَّةِ سَهْلُ وَحَيَاةُ الْكَرِيمِ فِى الضَّيْمِ قَتْلُ[١]

=ويزرى بالهوى : أى يزرى فقدانه بالهوى : أى يتهاون به ، ويتوانى عنه ، ويقصر فيه ، وأزراه ، وأزرى به : عابه ، ووضع من حقه ، واستخف به ، وأهانه . والهوى : الحب ، والعشق ، والغرام . والهوى : ميل النفس إلى شهواتها . والهوى : الشىء المهوى : أى الذى تهواه النفس ، وتحبه ، وتميل إليه ، وتتعلق به .

والوسائل : جمع الوسيلة : وهى الوصلة : والقربى : أى ما يوصلك إلى الشىء ، وتتقرب به إلى غيرك . ويراد بالوسائل هنا : وسائل الهوى : أى وسائطه ، وصلاته ، وأسبابه ، وعلاقاته ، وملابساته ، وما يقرب المحب من الحبيب .

والمعنى : شتان بين فقدان الشباب وفقدان غيره ؛ فكل شىء يفقده الإنسان غير شبابه يمكنه أن يسلوه ، ويتعزى عنه ، ويحيا بدونه ، ويجد عوضاً منه ؛ أما الشباب فلا يستعاض ؛ وذهابه يحرم المرء لذة الهوى ووسائله ؛ فإذا ذهب شباب الإنسان فسدت عيشته ، وساءت حياته ، وقعد به ضعف الشيخوخة وجدبها وجفافها عن الاستمتاع بما يحبه ويهواه من متع الحياة ولذاتها . وهذا قريب من قول أبى الطيب المتنبى :

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولى

(٣) يعز عليه (بوزن يذل) : يكرم عنده ، ويعظم قدره . ويعز عليه (كيقل ، ويمل) : يشق عليه ، ويصعب ، ويشتد . وأكرم : أفضل ، وأعز ، وأمثل . والاستفهام فى هذا البيت : معناه النفى ، وجملة « وهو أكرم راحل» : جملة حالية .

يحض على بكاء الشباب ، والتحسر على فواته . ويقول : إذا لم يبك المرء شبابه الذاهب ، فلا شىء سواه يكرم عنده ، أو يشق عليه ذهابه ؛ فإن الشباب أعظم مفقود ، وأكرم راحل .

* * *

* « عثمان رفقى» ضابط شركسى الأصل ؛ كان ناظراً للجهادية فى وزارة « مصطفى رياض » سنة ١٨٨٠ ، وعرف بتعصبه للضباط الجراكسة فى الجيش المصرى ؛ فسخط عليه الضباط المصريون بزعامة « أحمد عرابى » وطلبوا إقالته ، فحاولت الحكومة محاكمتهم ، فلم تستطع ؛ فاضطر الخديو « توفيق » إلى الصفح عنهم ، وإجابة مطالبهم . وفى السادس من فبراير سنة ١٨٨١ صدر الأمر بعزل « عثمان رفقى » وتعيين « محمود سامى البارودى » ناظراً للجهادية بالإضافة إلى وزارة الأوقاف التى كان يشغلها من قبل . وفى اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٨٨١ استقال من وزارتى الجهادية والأوقاف لما أحس أن الخديو « توفيقا » يسىء به الظن ، ويستمع للذين يتهمونه بممالأة الضباط الثائرين وتشجيعهم . وعلى إثر استقالته هجا بهذه اللامية من سعى به إلى الخديو « توفيق » ، وزعزع ثقته به ، ونكبه فى مطامحه الشخصية ، وآماله الوطنية .

(١) الكريم هنا : الحر ، الأبى ، العزيز ؛ صفة من الكرم بمعناه العام : وهو ما يظهر من=

لَيْسَ يَقْوَى امْرُؤٌ عَلَى الذُّلِّ مَا لَمْ يَكُ فِيهِ مِنْ صِبْغَةِ اللُّؤْمِ دَخْلُ(٢)

=أفعال الإنسان المحمودة ، وأعماله العظيمة ، وأخلاقه المرضية ، كالحرية ، والعزة ، وإباء الضيم ، والترفع عن الدنايا ، والتنزه عن الشوائن . وضده اللؤم . والضيم : مصدر ضامه (من باب باع) : أى ضاره ، وظلمه ، وقهره ، وأذله ، وأهانه ، وهضمه . وضامه حقه : انتقصه ، وغبنه .

ومعنى الشطر الثانى : أنك تقتل الكريم إذا أفسدت بالضيم حياته ؛ ولا غرو ؛ فإن فى طبعه العزة ، والحرية ، والأنفة ، والحمية ، والكرامة والاستقامة . . . وبهذه المزايا وأشباهها يحيا الحياة الطيبة العزيزة الكريمة اللائقة بمثله ؛ فإذا مسه الضيم فقد الحياة بمعناها الإنسانى العالى الكريم ؛ ولهذا كان شديد الحرص عليها بهذا المعنى ، شديد الإباء لكل ما ينقصها ، أو يضيرها ، أو يشينها ، أو ينزل بها عن مستواها الرفيع .

وصلته بالشطر الأول : أن المذلة والضعف والهوان من الضيم ، أو من نتائجه ، وكيف يقيم الكريم على الضيم والذل وهما قتل لحريته وكرامته ، وهدم لحياته العزيزة الكريمة ؟ .

وقد غالى الشاعر فى الشطر الأول ، فقال : إن كل صعوبات الحياة وشدائدها ومشقاتها من السهل الهين اليسير إذا قيست بصعوبة المذلة والضيم ، والتخاذل والضعف ، والانكسار والهوان ؛ وهى مغالاة مقبولة محمودة ؛ يريد أن كل صعب يمكن احتماله إلا المذلة .

وللمتنبى فيما يقرب من هذا المعنى :

ذل من يغبط الذليـــل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

(٢) يقوى امرؤ على الذل : يحتمله ، ويرضى به ، ويقيم عليه . والصبغة (بكسر فسكون) : ما يصبغ به الثوب ونحوه : أى يلون . أو الهيئة المكتسبة بالصبغ والتلوين . ويراد بصبغة اللؤم : نحيزته ، وطبيعته ، وخصيصته . أو صبغة اللؤم : اللؤم الذى يصبغ اللئيم ، ويظهره ، ويميزه ، كما تظهر الصبغة الشىء المصبوغ وتميزه . واللؤم : المهانة ، والحقارة ، والضعف ، والذلة ، وشح النفس ، ودناءة الأصل . وضده الكرم بمعناه العام : وهو اسم للأخلاق العظيمة ، والأفعال المحمودة ، والمحاسن الكبيرة التى تظهر من الإنسان . أو هو جماع الفضائل ، والمحامد ، والمكرمات ، والمحاسن الظاهرة الكبيرة . واللؤم يجمع الرذائل والنقائص ، والعيوب النفسية مع خسة الطبع ، ودناءة الأصل . والدخل (بفتح الدال وسكون الخاء) : الداء الداخل فى أعماق البدن ، والفساد ، والعيب ، والريبة . ودخل المرء : داخلته : أى نيته ، وسريرته ، وباطن أمره . و« من صبغة اللؤم » : بيان لـ « دخل » : أى أن المرء لا يرضى بالذل إلا إذا كان فيه عيب ، أو فساد ، أو داء من طبيعة اللؤم ونحيزته .

فى البيت الأول قال : إن الكريم يأبى الضيم والظلم ، ويعاف الذل والهوان . وفى هذا البيت قال : =

إِنَّ مُرَّ الْحِمَـامِ أَعْذَبُ وِرْدًا مِنْ حَيَـاةٍ فِيهَا شَقَاءٌ وَذُلُّ(٣)

أَنَا رَاضٍ بِتَرْكِ مَـالِي وَأَهْلِي فَالْعَفَافُ الثَّرَاءُ ، وَالنَّاسُ أَهْلُ(٤)

لَا يَلُمْنِي عَلَى الْحَفِيظَةِ قَوْمٌ غَرَّهُمْ مَنْظَرُ الْحَيَاةِ ؛ فَضَلُّوا(٥)

= ولا يحتمل الضيم والمذلة إلا اللئيم المهين. وفى البيت الآتى تعزيز وتأكيد لمعنى هذين البيتين، وتنفير من حياة الشقاء والصغار ، والضيم والظلم ، والذل والهوان ؛ وترغيب فى حياة العزة والحرية ، والإباء والاستعلاء، والقوة والكرامة .

(٣) الحمام : الموت . والورد : الماء الذى يورد : أى يقصد إليه العطاش للشرب والارتواء . ويراد بالورد هنا : المذاق .

والمعنى : أن حياة التعس والشقاء، والمذلة والهوان كريهة قبيحة، صعبة مرة ، لا تحتمل، ولا تطاق . وبإزائها تتضاءل مرارة الحمام وقسوته وشدته؛ وفى سبيل مكافحتها ، وغسل عارها وشنارها يلذ الموت للكرام، ويطيب ، ويستسيغه الأحرار ، ويستعذبونه .

والبارودى هنا ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى :

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

(٤) العفاف : العفة : مصدر عف (بوزن خف) : أى كف ، وامتنع عما لا يحل ، ولا يجمل من قول ، أو فعل . والثراء : الثروة ، وكثرة المال .

فى الأبيات الثلاثة السابقة مجد الشاعر العزة، وإباء الضيم ؛ ونوه بالأعزة الكرام ، وأزرى بالأذلة اللئام ؛ واستعذب الموت ، وفضله على حياة المذلة والشقاء .

وفى هذا البيت افتخر بأنه من هؤلاء الذين مجدهم ، ونوه بهم ، وعظم شأنهم؛ وفى سبيل حرصه على العزة والحرية والكرامة أصابه ما يصيب الأعفاء الأحرار أباة الضيم ؛ فجرد من ماله وثرائه ، وأبعد عن أهله ووطنه ؛ فاستقبل هذه البلايا بالرضا والتجلد والطمأنينة ، وعزى نفسه فى الشطر الثانى بأن عفته ثروته، والناس أهله وعشيرته .

وفى هذا البيت دليل على أن الشاعر نظم هذه القصيدة بعد إخفاق الثورة العرابية، وبعد الحكم عليه، وعلى أمثاله بالتجريد والنفى .

(٥) الحفيظة : اسم من حافظ على الشىء : أى رعاه ، وصانه ، وذب عنه ، وحماه . ومن معانى الحفيظة : الأنفة ، والحمية ، والغضب المحمود فى المحافظة على الحرمات ، وكل ما ينبغى أن يحافظ عليه . وجمع الحفيظة حفائظ . وأهل الحفائظ : هم المدافعون عن أعراضهم وحرماتهم . وغره : خدعه ، وأطمعه بالباطل .

=

أَلِفُوا الضَّيْمَ خَشْيَةَ الْمَوْتِ ،وَالضَّيْـ ـمُ ـلَعَمْرِى ـ فَجْعٌ خَسِيسٌ ،وَثُكْلُ (٦)

كَيْفَ لَا أَنْصُرُ الرَّشَادَ عَلَى الْغَىْ ـىِ ،وَعَقْلِى مَعِى ،وَفِى النَّفْسِ فَضْلُ ؟ (٧)

= والمعنى : لا ينبغى أن يلومنى على حماية المحارم ، والغضب لها جماعة خدعتهم الحياة الدنيا بزخرفها وباطلها ، فاغتروا بها ، واستكانوا لها ، وحرصوا عليها ؛ وفى سبيل هذا الحرص الممقوت رضوا بالذلة ، وألفوا الهوان ، وفرطوا فى حرماتهم ، وقعدوا عن صيانتها ؛ فانحرفوا عن الجادة ، وضلوا سبيل الرشاد .

(٦) ألف الشىء (من باب علم) : تعوده ، وأنس به ، واطمأن إليه ، وأحبه . وواو الجماعة فى « ألفوا » : ضمير من لاموه على الحفيظة ، وغرهم منظر الحياة ، فضلوا . وجملة « والضيم فجع » : جملة حالية . و « لعمرى » : جملة معترضة بين المبتدإ وخبره . واللام للابتداء . وعمر : مبتدأ . ومعناه : حياة . وخبره محذوف ، تقديره « قسمى » : أى لعمرى قسمى : أى ما أقسم به : أى أحلف بحياتى ؛ والغرض من هذا القسم المعترض : تأكيد معنى الشطر الثانى ، وإثارة هؤلاء الذين ألفوا الضيم ، وحملهم على الاقتناع والإيمان والتصديق . وفجع : مصدر فجعته المصيبة (من باب قطع) : أى أوجعته ، وآلمته إيلاماً شديداً . وفجعه : أوجعه بإعدامه ما يتعلق به ، و يعز عليه من أهل ، أو مال ، أو نحوهما . وخسيس : رذل ، دنىء ، دون ، حقير . وثكلت المرأة ولدها ، وثكل المرء حبيبه (من باب تعب) : أى فقده ؛ (والاسم الثكل (بضم فسكون) . والثكل (بضم فسكون) : الموت والهلاك . والضيم فجع وثكل : أى الضيم موت وهلاك فاجع موجع مؤلم .

والمعنى : أن هؤلاء الجبناء الأذلاء إنما تعودوا احتمال الضيم والمذلة حرصاً على الحياة ، وخوفاً من الموت ؛ فهم يخشون أن يبطش بهم الضائم الظالم ، المذل المستبد إذا قاوموه ، أو كافحوه ؛ ولو فطنوا لعلموا أن الموت فى سبيل الدفاع عن العزة والكرامة ، والحرية والآدمية — مجد وشرف ، وعزة وإباء ، وبر ووفاء ؛ وأن هذا هو الموت الكريم المجيد الذى يخلد الذكر والصيت ، وينفع الأحياء ، ويديم حسن الثناء ؛ أما حياة المهين الذليل ، فإنها — فى حقيقة أمرها — موت خسيس دنىء ، وهلاك مهين معيب ؛ ويلاحظ أن الشاعر ما زال ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى :

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

(٧) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه التعجب : أى لو لم أنصر الرشاد على الغى لكان هذا مثار العجب والدهش . والجملتان الاسميتان فى الشطر الثانى حاليتان ؛ وهو يسائل نفسه متعجباً : كيف لا ينصر الرشاد على الغى والحال أن معه عقله ، وفى نفسه فضل ، وهمة ، وعزة ، وإباء ، وكمال ؟ ! .

والمعنى : أن عقله ونفسه الفاضلة يدعوانه إلى نصرة الراشدين ، أباة الضيم ، وطلاب العزة والحرية على =

إِنَّمَا الْمَرْءُ بِاللِّسَانِ وَبِالْقَلْـ ... ـبِ ، فَإِنْ خَابَ مِنْهُمَا ، فَهُوَ فَسْلُ (٨)

قَدْكِ يَا نَفْسُ . فَالتَّصَبُّرُ إِلَّا ... فِي لِقَاءِ الْحُرُوبِ غَبْنٌ وَجَهْلُ (٩)

فَابْعَثِيهَا شَعْوَاءَ . يَحْكُمُ فِيهَا ... مُنْصُلٌ صَارِمٌ . وَرُمْحٌ مِتَلُّ (١٠)

= الغواة الأذلاء الراضين بالمهانة والمذلة والصغار .

أو المعنى : أن عقله ونفسه الفاضلة حملاه على مكافحة الضائمين الظالمين ، ومقاومة الغواة المستبدين ، ونصرة الأحرار الراشدين ، أباة الضيم ، وطلاب العزة والكرامة . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة واضحة وثيقة .

(٨) يراد بالقلب : العقل . وخاب منهما : خسرهما ، أو حرمهما ، أو منع منهما ؛ والمراد لم يحسن الانتفاع بهما ، أو كانا ضعيفين عنده ، أو لم يستخدمهما فيما يحفظ كرامته وإنسانيّته ، وينفع بلاده وأمته . وفسل : ضعيف ، عاجز ، مسترذل ، ردىء ، لا مروءة له ، ولا جَلَد .

من الحكم المأثورة : «المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه» ؛ وهذا البيت فى معنى هذه الحكمة ؛ فالإنسان لا قيمة له إلا بعقله ولسانه ، فإن ضيعهما ، أو فرط فى المحافظة عليهما ، أو لم يحسن الانتفاع بهما ؛ فقد خسر معهما كل صفات الإنسانية ، ومزاياها الرفيعة ، وبخاصة المروءة ، والشجاعة ، وإباء الضيم ، والإقدام على مكافحة الظلم والبغى ، ودفع الهوان والعدوان ؛ ولم يبق فيه غير الضعف والعجز ، والفسالة والرذالة ؛ ولعل صلة هذا البيت بالبيت الذى قبله : أن الشاعر نصر الرشاد على الغى بقلبه ولسانه .

(٩) «قد» : اسم بمعنى «حسب» ، أو اسم فعل بمعنى «كفى» أو «يكفى» . «وقدك يا نفس» : أى حسبك ، أو يكفيك . والتصبر : تكلف الصبر ، أو حمل النفس على الصبر . وتصبر على الشىء : صبر . وغبن : خسران ، أو نقص ، أو خديعة ، أو ضعف . ومن معانى الجهل : الحماقة ، والسفه ، وقلة العقل ، وسوء التصرف . وجهل الحق (من بابى فهم ، وسلم) : أضاعه .

يقول : حسبك يا نفسى : أى قفى عند هذا الحد ، ولا تتجاوزيه ؛ وإياك أن تصبرى على احتمال الذل والهوان ؛ فإن الصبر فى غير الحروب جهل وخسران . ينهى عن الصبر الممقوت ، والرضا بالهوان ؛ ويحض نفسه وغيره على الثورة فى وجه الضيم والطغيان . ويقول : إنما يحمد الصبر فى الحروب : أى فى أن يلقى المحارب عدوه بشجاعة ، وقوة قلب ، ويثبت لقتاله ، ويصبر على شدة الحرب ولأوائها إلى أن يَقتل ، أو يُقتل . وفى البيتين الآتيين تعزيز وتأكيد لهذا المعنى .

(١٠) الأمر فى أول البيت لنفسه ؛ والغرض منه الإرشاد ، أو التحريض ، أو تهديد الطغاة الضائمين. وبعث الحرب أو الغارة : أثارها ، وهيجها ، وأوقد نارها . وشعواء : منتشرة ، متفرقة ، فاشية فى ميدان=

هُوَ إِمَّا الْحِمَامُ ، أَوْ عِيشَةٌ خَضْـ ـرَاءُ فِيهَـا لِمَنْ تَفَيَّأَ ظِلٌّ(١١)

=كبير ، ونطاق واسع. ويحكم : يقضي ، ويفصل . وفيها : في الحرب والقتال من أجل استرداد حياة العزة والحرية والكرامة ؛ ومكافحة طغيان الطغاة المستبدين الظالمين . والمنصل : السيف . وصارم : حاد ، باتر ، ماض ، قاطع . والرمح : قناة في رأسها سنان يطعن به . ومتلّ : قويّ ، شديد ، يتلّ المطعون : أي يصرعه ، ويهلكه ، ويرديه .

في البيت السابق قال : إن الصبر لا يحمد إلا في لقاء الحروب ، ومكافحة الأعداء ؛ وإنه فيما عدا هذا جهل وجبن ، وغبن وخسران ؛ وحذر نفسه أن ترضى بالذل والهوان ، أو تستكين للبغي والعدوان . وفي هذا البيت تهديد للطغاة المعتدين ، وتحريض صريح على شن الحرب ، وتوسيع مداها ، والاحتكام إلى أسلحة القتال والنزال ، حتى ينتهي الأمر ، إما بالاستشهاد في سبيل العزة والكرامة ، وإما بحياة العزة والكرامة . وفي البيت الآتي تصريح بهذا المعنى ، وتعزيز له .

(١١) «هو» : أي أمرنا ، أو شأننا ؛ أو حالنا ؛ يريد أن أمرنا بين اثنين لا ثالث لهما : إما الحمام ، وإما العيشة الخضراء . و «إما» : حرف رباعي ، يفيد هنا التخيير ، وتكرارها واجب ، كما في قول الله تبارك وتعالى : «قلنا : يا ذا القرنين ، إما أن تعذب ، وإما أن تتخذ فيهم حسناً» الآية رقم ٨٦ من سورة الكهف . وقوله عز وجل : «قالوا : يا موسى ، إما أن تلقي ، وإما أن نكون أول من ألقى» . الآية رقم ٦٥ من سورة طه . والحمام : الموت . والعيشة : المعيشة والحياة . وخضراء : ذات خير ، وخصب ، وسعة ، ونعيم . ويراد بالعيشة الخضراء هنا : حياة العزة ، والحرية ، والإباء ، والكرامة . وفيها : في العيشة الخضراء . وتفيأ الشجرة ونحوها ، وفي الشجرة ، وبها ، وعليها : استظل بها . والظل : ضوء شعاع الشمس إذا استترت عنك بحاجز ، وجمعه ظلال ، وأظلال . وجملة «فيها لمن تفيأ ظل» : صفة لـ «عيشة» : أي عيشة خضراء يتفيأ ظلالها . والعرب تكنى بالظل عن العز والمنعة .

في هذا البيت والذي قبله حرض الشاعر نفسه وغيره على الشجاعة والإقدام ؛ لإثارتها حرباً شعواء تحكم فيها أسلحة القتال والنزال ، إما بالموت في سبيل العزة والحرية والكرامة ، وإما بحياة العزة والحرية والكرامة .

وفي مثل هذا المعنى ، أو فيما يقرب منه يقول أبو الطيب المتنبي :

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا ، وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغيـ   ـظ ، وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد   وإذا مت مت غير فقيد =

إنَّ مُلْكًا فِيهِ «فُلانٌ» وَزِيرًا لَمُبَــاحٌ لِلْخَائِنِينَ وَبِلٌ(١٢)

أَهْوَجٌ ، أَحْمَقٌ ، شَتِيمٌ ، لَئِيمٌ أَغْتَمٌ ، أَبْلَهٌ ، زَنِيمٌ ، عُتُلٌ(١٣)

= فاطلب العز فى لظى ، وذر الذلـ ـل ولو كان فى جنان الخلود

يقتل العـاجز الجبان وقد يعـ ـجز عن قطع بخنق المولود

ويوقى الفتى المخش وقد خو ض فى ماء لبة الصنـديد

وفيه يقول أيضاً :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ، ولا يلاقى الهوانا

ولو أن الحيـاة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

كل مالم يكن من الصعب فى الأنـ ـفس سهل فيها إذا هو كانا

* * *

أدار الشاعر معنى هذا البيت وعشرة الأبيات قبله حول إباء الضيم ، ووجوب الحرص على حياة العزة والحرية ، ومقاومة الإذلال والاستعباد . وأزرى بالجبناء الأذلاء الذين ألفوا الضيم ، ورضوا بالشقاء والهوان . وأشار إلى بعض ما أصابه ؛ أو ما قد يصيبه ، كتجريده من ماله ، وإبعاده عن أهله ووطنه . وافتخر بأنه من أهل الحفائظ الذين يدافعون عن الحرمات ، وينصرون الرشاد على الغى . وأجرى بعض هذه الأبيات مجرى الحكم والأمثال . وهو فى البيت الآتى ينتقل إلى صريح الهجاء الذى نظم فيه هذه القصيدة ، وجعله عنواناً لها ؛ وكأنه جعل الأبيات ١ — ١١ تمهيداً للهجاء ، ومقدمة بين يديه .

(١٢) «فلان» : كناية عن علم لمذكر عاقل : أى عن اسم المهجو بهذه القصيدة ؛ وقد صرح به الشاعر ، فتحرجنا أن نصرح به ، وآثرنا أن نكنى عنه . وبل : مباح .

وصم المهجو بالغدر والخيانة . وقال : إن الدولة ، أو المملكة التى تستوزر مثله معتلة مختلة ، فاسدة مفسدة ، ومرعى ممرع خصيب لكل خئون غدار ، لا يرقب فى مواطن إلاً ، ولا ذمة ، ولا يرعى لوطنه عهداً ، أو حرمة .

(١٣) أهوج : طويل فى حمق ، وطيش ، وتسرع . وأحمق : صفة من الحمق ، أو الحماقة : وهى قلة العقل ، وضعف الرأى ، وسوء التصرف ، وفساد التدبير . وشتيم : كريه الوجه ، باسر ، كالح . أو هى فعيل بمعنى مفعول ، من شتمه : أى سبه ، وانتقصه ، وثلبه ، وعابه . ولئيم : صفة من اللؤم : =

صَغُرَتْ رَأْسُهُ . وَأَفْرَطَ فِى الطُّولِ شَوَاهُ ، وَعُنْقُهُ ؛ فَهْوَ صَعْــلُ(١٤)
أَبْرَزَتْ قُدْرَةُ الطَّبِيعَــةِ مِنْــهُ شَكْلَ لُؤْمٍ ،إِنْ كَانَ لِلُّؤْمِ شَكْلُ(١٥)

= وهو خسة الطبع ، وشح النفس ، ودناءة الأصل ، والمهانة . وأغتم : عَيِىٌّ ، لا يفصح ، ولا يكاد يبين . وأبله : أحمق ، ضعيف العقل ، عاجز الرأى ، لا يستطيع التمييز . والزنيم : الدعىّ : أى اللاحق بقوم لا ينتسب إليهم ، وليس منهم . وهم لا يحتاجون إليه ، ولا يحترمونه ، ولا يقرونه على ادعائه وانتسابه . والزنيم أيضاً : اللئيم الشرير ، المشهور بلؤمه وشره . والعتل : الجافى ، الغليظ ؛ أو الشديد الخصومة بالباطل ؛ أو الأكول الشره ؛ أو الشحيح الممسك : البخيل ، المناع للخير؛ ويلاحظ أن فى هذا البيت أربع صفات على وزن « أفعل » : هى أهوج ، وأحمق ، وأغتم ، وأبله ؛ وحقها أن تمنع من الصرف : أى التنوين ؛ وإنما نونت هنا لضرورة وزن الشعر .

رمى الشاعر مهجوه فى هذا البيت بثمانى وصمات جمعت أكثر النقائص والمخازى : والرذائل والعيوب التى تعيب المرء وتزدريه ، وتفضحه وتخزيه .

(١٤) الرأس من أعضاء الجسم مذكر . وصحة الكلام : « صغر رأسه » . ولعله يكنى بصغر رأس المهجو عن صغر مخه ودماغه ، وما يتبع هذا من قلة فطنته ، وضعف إدراكه ؛ وإذا صرفنا النظر عن تقدير هذه الكناية : فإن صغر الرأس مع الإفراط فى طول الأطراف من العيوب الخلقية ، أو الجسمانية الظاهرة . وأفرط : زاد ، وجاوز الحد . وشواه : أطرافه : أى يداه ورجلاه . والعنق (بضم النون وسكونها) يذكر ، ويؤنث . و « فهو » : أى فعنقه ، أو فالمهجو . وصعل : دقيق الرأس والعنق . أو طويل .

صورة المهجو فى هذا البيت : رجل صغير الرأس ، دقيقه ؛ طويل العنق ، دقيقه . وفى يديه ورجليه طول مفرط ، ضاعف قبح هذه الصورة المعيبة القبيحة .

(١٥) الطبيعة (فى الأصل) : السجية ، والغريزة ، والخُلُق : والجبلة الراسخة التى جبل الإنسان عليها : أى فطر عليها ، وخُلِقَ . وطبائع الأشياء : ما ركزه الله فيها من القوى والخصائص . والطبيعة : المخلوقات التى يتألف منها الكون . وطبيعة الكون : سننه ، وظواهره ، وقواه . وقد يراد بقدرة الطبيعة : قدرة خالق الطبيعة: وهو الله سبحانه وتعالى . ومنه : من المهجو . واللؤم : مصدر لؤم (من باب قبح) : أى شحت نفسه ، ودنؤ أصله ، وكان مهيناً ، خسيس الطبع .

والمعنى : أن المهجو مطبوع على اللؤم ، مجبول عليه ؛ فهو مركوز فى طبعه ، راسخ فى جبلته . ولو شُكِّلَ اللؤم ، أى صُوِّرَ ومُثِّلَ لكان المهجو صورة محسوسة لصفاته وخصائصه ، وتمثالاً متحركاً لمثالبه ونقائصه .

أو المعنى : لو كان للؤم صورة ترى لرأيتها بارزة فى هذا المهجو .

هَدَفٌ لِلْعُيُوبِ ، فِي كُلِّ عُضْوٍ ... مِنْهُ سَهْمٌ لِلطَّاعِنِينَ وَنَصْلُ (١٦)
نَسَلَتْهُ مِنَ اسْتِهَا أُمُّ سُوءٍ ... مَا لَهَا غَيْرَ طَائِفِ اللَّيْلِ بَعْلُ (١٧)
كُنْ كَمَا شِئْتَ يَا فُلانُ . وَمَا شَا ... ءَتْ رِجَالٌ ؛ فَأَنْتَ لِلُّؤْمِ أَهْلُ (١٨)

(١٦) هدف : خبر لمبتدإ محذوف ، تقديره « هو » أى المهجو هدف . والهدف : الغرض توجه إليه السهام ونحوها . أو يرمى ، ويصاب . ومنه : من المهجو . والسهم : واحد النبل : وهو ما يرمى به الصائد أو المحارب أو نحوهما عن القوس أو نحوها ، وجمعه سهام . والطاعنون : جمع الطاعن : وهو اسم فاعل من طعنه بالرمح ونحوه : أى ضربه ووخزه به . ومن المجاز : طعن فيه ، وطعن عليه بلسانه ، أو بقوله : أى عابه ، وثلبه ، وانتقصه . والنصل : الحديدة القاطعة الجارحة ، تكون فى رأس السهم ، والرمح ، والسكين ، ونحوها . وجمعه نصال ، ونصول .

جعل المهجو غرضاً تلاقت فيه العيوب والرذائل ، وهدفاً جمع النقائص والمثالب ؛ كما تتلاقى السهام والنصال فى الهدف الذى يقصده الرماة . وقال : إن كل عضو من أعضائه فيه سهم أو نصل من سهام الطاعنين ونصالهم ؛ وهذا كله كناية عن كثرة عيوبه ومثالبه ، وكثرة الطاعنين فيه ، والعائبين له ، وكثرة ما أصابه من طعنات التجريح والتقبيح .

(١٧) نسلته (من بابى ضرب ، ونصر) : ولدته . واست المرأة : عجيزتها ، (مؤنث) ؛ وقد يراد بها : حلقة الدبر ، ومثلها السه ، وهو الأصل ، والجمع أستاه (بوزن سبب وأسباب) . وابن استها : ولد الزنا . والسوء (بضم السين) : العذاب ، والضرر ، وكل ما يغم ، وكل ما يقبح ؛ واسم جامع للآفات . والسوء (بفتح السين) : الذم ، والعيب ، والفساد ، والشرّ ؛ أو هما بمعنى واحد ؛ فالمفتوح السين : مصدر ساءه (من باب قال) ؛ إذا فعل به ما يكرهه . والمضموم السين : اسم منه . وطائف الليل : الطائف بالليل : أى الذى يتخذ من الليل ستاراً لطوافه المريب المزرى . وطاف الرجل بالنساء : ألمّ بهن . وبعل المرأة : زوجها .

(١٨) كن كما شئت : لك ما أردت من المناصب الرفيعة فى الحكومة المصرية . ويريد بالرجال : أولئك الذين أرادوا أن يكون هذا المهجو عالى الجاه والمنصب ، ظاهراً فى دست الحكم والسلطان . وهو أهل لكذا : هو جدير به ، مستحق له . وأنت أهل للؤم : أنت متصف به ، مستحق له . أو أنت أوثق اللئام صلة باللؤم ، وأشدهم تعلقاً به ، وإغراقاً فيه .

والمعنى : لتكن كما أردت ، وأراده لك أولو الأمر فى مصر من علو المنصب ، وبسطة السلطان ، وعظم الجاه ، وفخامة الألقاب ؛ فإن هذا كله لن يمحو شيئاً من لؤمك ، ومهانتك ، وخسة طبعك ، وشح نفسك ، ودناءة أصلك ؛ إذ اللؤم متأصل فيك ، يحيط بك عاره وشناره . والبيت الآتى يعزز هذا المعنى ويؤكده .

لَيْسَ تُغْنِي الْأَلْقَابُ عَنْ كَرَمِ الْأَصْـ ... لِ ؛ فَمَجْدُ الْفَتَى عَفَـافٌ وَعَقْلُ(١٩)

أَنْتَ مِنْ عُنْصُرٍ ، لَوِ اتَّكَأَ الـذَّرْ ... رُ عَلَيْهِ ، لَآدَهُ مِنْهُ حَمْلُ(٢٠)

نَازَعَتْكَ الْيَهُودُ ، واخْتَلَفَتْ فِيـ ... كَ النَّصَارَى ؛فَأَنْتَ ـلَا شَكَّ ـبَغْلُ(٢١)

---

(١٩) اللقب : اسم وضع بعد الاسم الأول للتعريف ، أو التشريف ، أو التحقير ، وجمعه ألقاب ؛ ويراد بالألقاب هنا:ما كان لكبار المستخدمين فى الحكومة المصرية من رتب وألقاب مشعرة بالرفعة والمدح ، مثل صاحب المقام الرفيع ، وصاحب الدولة ، وصاحب المعالى ، وصاحب السعادة ، وصاحب العزة . وكرم الأصل : شرف المحتد ، ومجادة الحسب والنسب ، ونباهة الآباء والأجداد . والمجد العز ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء . والفتى (فى الأصل) : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . ويراد به هنا : الرجل فى كل طور من أطوار حياته . والعفاف : مصدر عف (بوزن خف) : أى كف ، وامتنع ، وترفع عما لا يحل ، ولا يجمل من قول أو فعل ؛ فهو عف ، وعفيف .

أراد الشاعر توضيح البيت السابق وتعزيزه؛ فساق هذا البيت مساق الحكم والأمثال : ومعناه : إنما يمجد المرء ، ويشرف ، ويسمو فى مراتب الرفعة والعلاء برجحان عقله ، وصحة تفكيره ، وسداد رأيه ، وكرم محتده ، وشرف منبته ، ومجادة آبائه وأصوله ؛ هذا إلى عفته ، ونزاهته ، واستقامته ، وترفعه عن الدنايا والسفاسف ، وبعده عن الريب والشبهات ؛ أما ما يحمله من ألقاب الفخامة والرفعة ، أو يتربع فيه من المناصب الحكومية الكبيرة – فلا قيمة له ، ولا خير فيه ؛ ولن يغنى عنه ، أو ينفعه ، أو يرفع من شأنه ، أو يدرأ عنه السبة والعار ، والخزى والشنار إذا كان لئيم الطبع ، ضعيف العقل ، غارقاً فى السوء والشر ، والانحراف والفساد .

(٢٠) العنصر (بضم الصاد وفتحها) : الأصل . واتكأ : توكأ ، واعتمد ، واستند . والذر : صغار النمل ، الواحدة ذرة . وآده الحمل : أثقله ، وأجهده . والحمل (بكسر الحاء وفتحها) : اسم للشىء المحمول . والحمل (بفتح الحاء) : مصدر حمله (من باب ضرب) .

يقول : إن المهجو من أصل لو استند إليه أصغر النمل لآده ، وجهده ، وأثقله ، وعجز عن حمله ، أو النهوض به . والبيت كناية عن ضعف هذا الأصل وخسته ودناءته وهوانه ؛ فالأصل القوى كريم مجيد ، عزيز شريف ؛ والأصل الضعيف مهين حقير ، لئيم خسيس .

(٢١) نازعتك اليهود : اتصلت بك اتصال القرابة والرحم ؛ من قولهم : أرضى تنازع أرضه : أى تتصل بها وتلاصقها . أو خاصموا غيرهم وغالبوه فى ادعاء هذه القرابة ؛ من قولهم : نازعه فى كذا : أى خاصمه وغالبه . أو نسبوك إليهم ، وإن حاولت التنصل منهم ؛ من نازعته الثوب ونحوه : أى جاذبته إياه . =

إِنَّ بَيْتَ الْوَزَّانِ (لَمْ) يَزِنُوا شَيْـ ـئًا ، وَلَكِنَّ فِيهِمْ عَلَى ذَاكَ ثِقْلُ(٢٢)

كَثُرُوا عِدَّةً ، وَلَوْ أَحْصَنَ الْبَا بَ أَبُوهُمْ عَنِ الزُّنَاةِ ، لَقَلُّوا(٢٣)

لَوْ عَزَوْنَا كُلَّ امْرِئٍ لِأَبِيــهِ مِنْ فِرَاخِ الْوَزَّانِ ، لَمْ يَبْقَ نَسْلُ(٢٤)

= واختلفت فيك النصارى : تنازعوا ، وافترقوا فى شأنك : ففريق منهم يعزوك إلى نفسه ويدعيك ، وفريق ينكرك ، ويلفظك ، وينفيك . والبغل : هجين الخيل والحمير ؛ يولد من اتصال الحمار بالفرس ؛ أو اتصال الأتان بالحصان ؛ وله صبر الحمار ، وقوة الفرس ؛ والأنثى بغلة ؛ وهى عقيم بطبعها ، لا تلد : والجمع بغال . والغرض من تشبيه المهجو بالبغل : التنديد باختلاط نسبه ، وانحطاطه ، وضياعه بين اليهود والنصارى .

شبَّه المهجو بالبغل فى اختلاط أصله ، وانحطاط محتده ، وضياع نسبه ، بعد أن مهد لهذا التشبيه بأن المهجو تائه حيران بين اليهود والنصارى : والغرض تجريده من مجادة الإسلام ، وآدابه ، وفضائله ، ومحاسنه ، ومزاياه .

(٢٢) يريد ببيت المهجو : أهله ، وعترته ، وأسرته . وفى الأصل المخطوط الذى تحت أيدينا « لا يزنوا شيئاً » . وصحة الإعراب « لم يزنوا » أو « لن يزنوا » . ولا يزنون شيئاً : أى لا قيمة لهم ، ولا قدر ولا اعتبار ، ولا احترام . يقال : « فلان لا يزن شيئاً » : إذا كان ساقط القدر ، والاعتبار . وفيهم : فى بيت المهجو : بمعنى أهله وعشيرته . و « على ذاك » : أى مع سقوط قدرهم ، وحقارة شأنهم ، وهوان أمرهم . وثقل الشىء على النفس (من باب عظم) ثقلا (بوزن عنب) : أى كرهته ، ومقتته ، وأبغضته . وقد تسكن قاف « ثقل » للتخفيف .

يهجو بيت المهجو وأهله وعترته وعشيرته بسقوط القدر ، وهوان الأمر ، وحقارة الشأن ، وأنهم مع هذا ثقال الظل على الناس : مكروهون ، ممقوتون .

(٢٣) العدَّة : مقدار ما يعدّ ، ومبلغه . والعدَّة : الجماعة . وكثروا عدَّة : أى كثر عددهم . يريد أن عترة المهجو وعشيرته عددهم كثير . وأحصن الباب : جعله حصيناً منيعاً ، لا يقرب ، ولا يفتح ، ولا يجترأ عليه .

يقول : إن أهل المهجو وعشيرته كثيرون ، وإن كثرتهم الغالبة أولاد زنا ، ولولا هذا لقلّ عددهم .

(٢٤) عزوناه لأبيه : نسبناه إليه ، وألحقناه به . والفراخ : جمع فرخ : وهو (فى الأصل) : ولد الطائر . ويراد بفراخ الوزان : ذريته ، ونسله ، وأطفاله ، وأولاده الذين ينسبون إليه فى ظاهر الأمر ، وهم فى نظر الشاعر ، وفى لغة الهجاء أولاد زنا . والنسل : الولد ، والذرية ؛ فهو « فعل » بمعنى « مفعول » : أى منسول : بمعنى مولود .

كُلُّ وَغْدٍ أَهْدَى إِلَى اللُّؤْمِ مِنْ بَا زٍ ، وَلَكِنْ مِنَ الْحِمَارِ أَضَلُّ (٢٥)

قَدْ تَغَذَّى بِاللُّؤْمِ إِذْ هُوَ طِفْلٌ وَتَمَادَى فِي الْغَيِّ إِذْ هُوَ كَهْلُ (٢٦)

لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ تَحْمَدُ الْعَيْنُ رُؤْيَا هُ ، وَلَا مِنْهُمُ إِلَى النَّفْسِ خِلُّ (٢٧)

---

(٢٥) كل وغد : يريد أن كل فرد من أسرة المهجو وأهله ، وعترته وعشيرته — وغد : أى دنىء ، رذل ، أحمق ، ضعيف العقل . وأهدى : أكثر اهتداء: وهو اسم تفضيل من « هدى » بمعنى « اهتدى» . والباز ، والبازى : طائر من جوارح الطير : أى الطير المفترسة الصائدة . أو هو ضرب من الصقور يصاد به ؛ وقد جعله الشاعر مثلاً في سرعة الاهتداء إلى صيده ؛ وقال : إن كل وغد من هؤلاء الأوغاد يعرف اللؤم ويهتدى إليه، ويتشبث به ، كما يهتدى البازى إلى صيده، بل أشد وأسرع ، وأمضى وأبرع . وهو — مع تمام اهتدائه إلى اللؤم —أضل عن الكرم من الحمار ؛ أو لعل المراد بالضلال هنا: الغباوة ، وقلة الفطنة ، وبلادة الذهن، وضعف الإدراك ؛ أى وهو مع اتصافه باللؤم، وسرعة اهتدائه إليه، أغبى من الحمار وأبلد .

(٢٦) فاعل « تغذى » : ضمير مستتر ، يعود على «كل وغد » فى البيت السابق . و « إذ » فى شطرى البيت : ظرف للزمان الماضى . وتمادى فى الأمر : أمعن فيه ، وبلغ المدى : أى بلغ الغاية والمنتهى . وتمادى فى غيه : لج فيه ، ودام عليه ، ولم يقلع عنه. والغى : الإمعان فى الضلال . وضده الهدى ، والرشاد والاستقامة . والكهل : من وخطه الشيب ، وجاوز الثلاثين . أو هو من بلغ الأربعين . أو من كانت سنه بين الثلاثين والخمسين ، وجمعه كهول . والجمع بين الطفولة والكهولة هنا : معناه أن اللؤم والغى لازما كل وغد ولازمهما طوال حياته .

فى البيت السابق قال : إن المهجو وبيته ، وأهله وأسرته ، وعترته وعشيرته أوغاد أدنياء ، وأرذال لؤماء ، يهتدون بطباعهم إلى كل مقابح اللؤم ونقائصه ، ولا يكادون يحيدون عن الخسة والدناءة ؛ وهم مع هذا حمق أغبياء ، مجردون من الفطنة والذكاء .

وفى هذا البيت أكد هذا المعنى وعززه ؛ فأطفالهم قد اغتذوا باللؤم ، وربوا عليه ؛ وكهولهم قد تمادوا فى الغواية والضلال ، وأمعنوا فى الانحراف والفساد ؛ أو أن اللؤم والغواية لازما كل واحد منهم ؛ ولازمهما طفلاً وكهلاً ، أى طوال حياته .

(٢٧) ليس فيهم : ليس فى بيت المهجو وأهله ، وأسرته وعترته . والرؤيا : الحلم (بضمتين أو بضم فسكون) : وهو ما يراه النائم . والشاعر يريد الرؤية : وهى النظر بالعين . يقال : رآه رؤية : أى أبصره بحاسة البصر ؛ ورآه فى منامه رؤيا : أى حلم به . ولا نرى مانعاً من استعمال « الرؤيا » =

أَدْرَكُوا فِى الْعُيُوبِ أَبْعَدَ خَصْلٍ ... كُلُّ حَىٍّ لَهُ بِمَا شَاءَ خَصْلُ(٢٨)

كَيْفَ لَا تَشْمَلُ الدَّنَاءَةُ قَوْمًا ... نَشَئُوا فى الصَّغَارِ حِينَ اسْتَهَلُّوا ؟(٢٩)

هُمْ ـ لَعَمْرِى ـ أَذَلُّ مِنْ قَدَمِ النَّعْـ ... لِ نُفُوسًا ، وَالنَّعْلُ مِنْهُمْ أَجَلُّ(٣٠)

= بمعنى « الرؤية » ؛ فكلاهما مصدر « رأى » . والتفريق بينهما إنما جاء من كثرة استعمال « الرؤيا » فيما يراه النائم . والخل : (بكسر الخاء وضمها) : الصديق المختص ، وجمعه أخلال .

نفى أن يكون فى بيت المهجو وأهله وعترته من يستأهل الحمد وحسن الثناء ، أو من يرضى عنه الناس ، ويرتاحون له ؛ ونفى أن يكون فيهم كذلك من يصلح للخلالة ، أو الصداقة ، أو الأخوّة ؛ بمعنى أنك لن تجد فيهم خليلا وفياً ، أو أخاً مخلصاً ، أو صديقاً صادق الود .

(٢٨) واو الجماعة فى « أدركوا » : ضمير المهجوين فى الأبيات السابقة ؛ وهم المهجو الأصلى ، وأهله ، وبيته ، وأسرته ، وعترته ، وعشيرته . والخصل : الغرض ، أو الهدف الذى يتراهن المتخاصلون على رميه وإصابته ، أو بلوغه . ومن كلامهم : « أحرز فلان خصله ، أو أصاب خصله » : إذا غلب ، وسبق ، وفاق غيره . ومعنى الشطر الأول : أن المهجوين فاقوا فى العيوب والنقائص أهل العيوب والنقائص ، أو انحطوا إلى الدرك الأسفل من المثالب والمناقص ، وبلغوا أبعد غاياتها .

أما الشطر الثانى فإنه تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول : فكل امرئ له ما يريده من الأهداف والغايات ، مولع بما طبع عليه ، أو مال إليه من الكرم أو اللؤم ؛ فهو يسعى إلى إحدى هاتين الغايتين بمشيئته ، ويجرى فيها على طبيعته .

(٢٩) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى . ويلاحظ أن أداة الاستفهام وهى « كيف » تليها « لا » النافية . ونفى النفى إثبات : أى أن الدناءة تشمل هؤلاء القوم ، وتعمهم أجمعين ؛ وبهذا أثبت الشاعر للمهجوين كلهم الخسة والمهانة بأسلوب قوى بليغ ، وصورة حاسمة قاطعة ، لا يساورها شك أو ارتياب . وقد يكون الاستفهام هنا للتعجب . والمعنى : أن الدناءة ينبغى أن تشمل المهجوين كلهم أجمعين ، فإذا لم تشملهم كان ذلك مثار العجب والدهش . والصغار : الذل والهوان ، والضعة والدناءة . واستهلوا : نشئوا ، وولدوا : من قولهم : « استهل الطفل » : إذا رفع صوته بالبكاء وقت الولادة .

وصم المهجوين جميعاً بالخسة والدناءة ، والضعة والمذلة ، والصغار والهوان . وقال : إنهم نشئوا فى هذه العيوب ، وولدوا بها ، وربوا عليها ؛ فأصبحت جزءاً لا ينفصم من طباعهم الذميمة ، وخصالهم السيئة .

(٣٠) « هم » : ضمير المهجوين فى الأبيات السابقة ؛ وهو مبتدأ ، خبره « أذلّ » . و « لعمرى » جملة قسم معترضة بين المبتدأ وخبره . والنعل : الحذاء ، وما وقيت به القدم من الأرض ، وهى مؤنثة =

كُنْتُ لَا أُحْسِنُ الْهِجَاءَ ، وَلٰكِنْ عَلَّمَتْنِى صِفَاتُهُمْ كَيْفَ أَتْلُو(٣١)
كُلُّ شَىْءٍ يَفْنَى ، وَلٰكِنْ هِجَائِى فِيكَ بَاقٍ مَا عَاقَبَ السَّيْفَ صَقْلُ(٣٢)

= وجمعها نعال . وقدم الإنسان : ما يطأ الأرض من رجله ، وهى أنثى ، وفوقها الساق ، وبينهما الرسغ . ويراد بقدم النعل : ما مس الأرض من الحذاء . و « نفوساً » : تمييز . و « منهم » متعلق بـ « أجل » : أى النعل أجل منهم قدراً ، وأرفع منزلة ، وأعظم قيمة ، وأعلى مكانة . وهو اسم تفضيل من « جل » : بمعنى كبر ، وعظم . أومن جل عن كذا بمعنى ترفع وتمنع .

وصم نفوس المهجوين بالذلة والضعة ، ونزل بهم فى هجائه إلى الدرك الأسفل من الحقارة والمهانة ؛ فهم دون النعل التى يطأ بها الإنسان الأرض ، والنعل أجل منهم وأعظم . وقد أكد كلامه هذا بالقسم المعترض فى الشطر الأول بين المبتدإ وخبره .

(٣١) هجاه يهجوه هجواً (من باب عدا) : وقع فيه بالشعر ، وذمه ، وسبه ، وعدد معايبه ، والاسم الهجاء (بوزن الرثاء) . وصفاتهم : صفات المهجو الأصلى وأهله وعشيرته . والمراد صفاتهم الذميمة ، ومعايبهم ، ونقائصهم . وتلاه يتلوه (من باب سما) : تبعه ، ولحقه ، واقتدى به . والمراد كيف أتلو الهجائين من الشعراء ، وأقتدى بهم ، وأنسج على منوالهم . وتلا الكتاب وغيره تلاوة : قرأه . وتلا الخبر : أخبر به . والمراد : علمتنى مشاينهم ومقابحهم كيف أقرؤها ، وأخبر بها ، وأذيعها فى الناس .

يقول : إنه لم يكن يحسن الهجاء ؛ فلما عرف هؤلاء الأوغاد ، وتأذى بشرورهم ومقابحهم — علمته مناقصهم ومثالبهم كيف يتبع الهجائين ، ويسلك سبيلهم ، ويحتذى مثالهم .

(٣٢) « فيك » : الخطاب للمهجو الأصلى الذى قصد إليه الشاعر فى البيت الثانى عشر من أبيات هذه القصيدة ، قبل أن ينتقل إلى هجاء بيته : أى أهله وأسرته وعشيرته . و « ما » : مصدرية ظرفية : أى هجائى فيك باق مدة معاقبة الصقل للسيف . وعاقبه : جاء بعقبه ، وعلى إثره . والصقل : مصدر صقل الصاقل السيف ونحوه (من باب نصر) : أى جلاه ، وملسه ، وكشف صدأه . وقد يراد بالصقل : الشحذ ، وإحداد السنان ؛ ليكون المشحوذ ماضياً قاطعاً بتاراً ؛ ومنه الصيقل : وهو شحاذ السيوف ، وجلاؤها . وعاقب الصقل السيف : المراد توالى عليه ، وتتابع . ولعل الشاعر ربط بقاء هجائه ببقاء احتياج السيف إلى الصقل ؛ ليشير إلى أن مثل هذا الهجاء المقذع يعمل فى المهجو ، أو المهجوين عمل الأسلحة المصقولة المشحوذة الماضية القاتلة . أو لعله يشير بهذا الربط إلى أن هذا الهجاء القذيع اللاذع لا يفتأ يتأجج ويتجدد ، كما يتجدد السيف ونحوه بالصقل والإحداد . ولعل هذه الأهجية تفوق كل أهاجى البارودى فى الحدة والعنف ، والإفحاش والإقذاع . ولاريب أنه نظمها تحت سيطرة نزوة غضبية جامحة ؛ أخرجته عن حد القصد والاعتدال . ويلاحظ أنه كرر مادة « اللؤم » ست مرات فى خمسة أبيات ؛ واللؤم جماع المناقص والرذائل .

يقول : كل شىء إلى فناء وزوال ماعدا هجاءه فى هذا المهجو ، فإنه دائم باق ما بقى احتياج السيف ونحوه إلى الصقل والشحذ .

وَقَالَ يَهْجُو* :

وِصَالُكَ لِي هَجْرٌ . وَهَجْرُكَ لِي وَصْلٌ فَزِدْنِي صُدُودًا مَا اسْتَطَعْتَ ،وَلَا تَأْلُ(١)

إِذَا كَانَ قُرْبِي مِنْكَ بُعْدًا عَنِ الْمُنَى فَلَا حُمَّتِ اللُّقْيَا ، وَلَا اجْتَمَعَ الشَّمْلُ(٢)

---

* قيل إن هذه القصيدة فى هجاء « نوبار » (١٨٢٥–١٨٩٩) : وهو رجل أرمنى الأصل، له صلة قرابة بـ « بوغوص » و « إرتين » وزيرى « محمد على » . دعاه الأول إلى مصر ؛ فعمل فى الترجمة ، وقرأ لمحمد على تاريخ الثورة الفرنسية . وكان كاتب أسرار « إبراهيم » ثم « عباس الأول » ثم مديراً لسكك الحديد المصرية فى عهد « سعيد » . ثم وزيراً مقرباً إلى الخديو « إسماعيل » سنة ١٨٦٧ ثم رئيساً للوزارة فى أغسطس سنة ١٨٧٨ وبكفايته وتجاربه مارس السياسة الدولية بنجاح ، وكانت له فيها شهرة ومكانة .

(١) الوصال : مصدر واصله . والوصل : مصدر وصله (من باب وعد) ؛ وكلاهما : ضد الهجر : مصدر هجره (من باب نصر) ؛ ومثله الهجران . وصد عنه (كرد) صداً ، وصدوداً : أى أعرض عنه ، ومال ، وانصرف ؛ وهو قريب من معنى القطيعة والهجران . وضده الإقبال والوصال . ولا تأل : لا تقصر ، ولا تتوان ، ولا تبطئ : مضارع « ألا » (من باب عدا) : أى قصر ، وتوانى ، وأبطأ ، وفتر ، وضعف .

والمعنى : أن المحب يشقى ويضنى إذا صد عنه حبيبه وهجره . ويستشعر الهناءة والارتياح إذا أقبل عليه ووصله . والشاعر يبغض المهجو ويمقته ؛ ولهذا يتألم من وصاله ، ويتبرم بإقباله ، ويرتاح لصدوده وهجرانه ، وتطيب نفسه ببعده وقطيعته . وفى الشطر الثانى طلب إليه أن يزيده جهد استطاعته إعراضاً وصدوداً ، ويبالغ فى التطيعة والهجران ، بلا توان ، أو تقصير ، أو فتور ، أو إبطاء .

(٢) المنى : جمع منية (بوزن مدية ومدى) : وهى ما يقدره الإنسان ، ويريده ، ويرغب فيه ، ويبتغيه ، ويتوق إليه ، ويتمناه . وحمّت : قدّرت ، وقضيت . تقول : حمّ الله له كذا (من باب رد) : أى قيّضه ، وقدّره ، وهيّأه ، وأتاحه ، وأراده ، وقضاه . واللقيا : اللقاء ، والوصال : مصدر لقيه (كرضيه) : أى صادفه ، ووجده ، واستقبله . والشمل : ما اجتمع من الأمر . وما تفرق منه (ضد) . يقال : فرق الله شملهم : أى ما اجتمع من أمرهم . وجمع الله شملهم : أى ما تفرق من أمرهم . والجملتان المنفيتان فى الشطر الثانى دعائيتان ؛ فهو يدعو الله تعالى ألا يجمع شمله بالمهجو ، وألا يقدّر تلاقيهما .

يقول : إن قربه من المهجو يبعده عما يرغب فيه ويتمناه ؛ ولهذا دعا الله تعالى ألا يقدّر لقاءهما ، وألا يجمع ما افترق من أمرهما .

وَكَيْفَ أَوَدُّ الْقُرْبَ مِنْ مُتَلَوِّنٍ ... كَثِيرِ خَبَايَا الصَّدْرِ ،شِيمَتُهُ الْخَتْلُ (٣)

فَلَيْتَ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَكَ يَنْتَهِى ... إِلَى حَيْثُ لَا طَلْحٌ يَرِفُّ وَلَا أَثْلُ (٤)

خَبُثْتَ ،فَلَوْ طُهِّرْتَ بِالْمَاءِ لَاكْتَسَى ... بِكَ الْمَاءُ خُبْثًا لَا يَحِلُّ بِهِ الْغَسْلُ (٥)

---

(٣) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ، أو الإنكار : أى الاستهجان والاستقباح ؛ فهو ينفى إرادة التقرب إلى المهجو ، أو يستنكرها إن وجدت . ومتلون : مختلف الأخلاق ، لا يثبت على خلق واحد ؛ والمراد أنه مخادع ، مخاتل ، مداهن ، مراوغ . ويراد بخبايا الصدر : الأحقاد ، والضغائن ، وما يضمره المداهن من السوء والشر . وشيمته : خلقه ، وطبيعته ، وعادته . والختل : مصدر ختله (من بابى ضرب ونصر) : أى خدعه ، وغرر به . وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وألحق به المكروه من حيث لا يعلم .

ينفى ، أو يستنكر أن تكون له رغبة فى التقرب إلى المهجو ؛ فإنه متلون متقلب ، لا يثبت على حال ؛ منطو على الحقد والضغينة ، يضمر لصاحبه الشر والأذى ؛ وفى خلقه النفاق والختل ، والخداع والغدر ، والتغرير ، والخيانة .

(٤) الطلح : شجر من العضاه (وهى الأشجار العظيمة الشائكة) ، ترعاه الإبل ، واحدته طلحة (بوزن تمرة) . والطلح أيضاً : شجر الموز . ورف النبات : اهتز من الرى والنضارة . والأثل : شجر طويل مستقيم ، جيد الخشب ، كثير الأغصان ، دقيق الورق طويله . واحدته أثلة (بوزن نخلة) .

يتمنى أن ينتهى ما بينه وبين المهجو إلى وادٍ غير ذى زرع ، ومكان قفر قاحل مجدب ، ويصير أمرهما إلى الجفوة والخشونة ، واليبس والجفاف ؛ وهذا كله كناية عن تمنى الانقطاع التام للصلة التى لا تزال تربطه بالمهجو .

(٥) خبث (من باب قرب) : صار فاسداً ، رديئاً ، مكروهاً ، فهو خبيث ، وضده الطيب . والخبيث : القذر النجس . وضده النظيف الطاهر . والخبيث : الخب ، الخداع ، الشرير . والخسيس الدنىء المهين . واكتسى بك الماء خبثاً : أى خالطه قذرك ونجسك ، ومازجه ، وغطاه ، وأفسده ، وقذّره ، ونجّسه . ولا يحل : لا يجوز : أى يحرم . وبه : بالماء . والغسل : مصدر غسلت الشىء بالماء (من باب ضرب) ؛ والاسم منه الغسل (بضم الغين) .

هجاه بأنه خبيث شرّير ، خسيس مهين ، خب مخادع ، قذر نجس ، لا يطهره الماء ، ولا يقبل التنظيف والإصلاح .

ثم غالى فى هجائه ، فقال : إنه بخبثه وفساده ، وقذارته ونجاسته يلوث الماء النقى الطاهر ، ويقذّره ؛ فلا يجوز الاغتسال به ، ولا يحل للتطهير ، ولا يصلح للاستعمال .

فَوَجْهُكَ مَنْحُوسٌ ، وَكَعْبُكَ سَافِلٌ وَقَلْبُكَ مَدْغُولٌ ، وَعَقْلُكَ مُخْتَلٌّ (٦)

بِكَ اسْوَدَّتِ الْأَيَّامُ بَعْدَ ضِيَائِهَا وَأَصْبَحَ نَادِي الْفَضْلِ لَيْسَ بِهِ أَهْلُ (٧)

---

(٦) منحوس : مشئوم . والكعب (فى الأصل) : العظم الناشز : أى الناتئ ، أو البارز عند ملتقى الساق والقدم ؛ وفى كل قدم كعبان . والكعب : كل مفصل من العظام . والكعب فى القنا والقصب : العقدة بين الأنبوبتين ؛ وجمعه كعوب وكعاب ؛ ومن المجاز : أعلى الله كعبه : أى رفع شأنه . ولا يزال كعبك عالياً : دعاء له بدوام العلو والرفعة ، والشرف . ورجل عالى الكعب شريف ، مظفر . وضده سافل الكعب : أى منحط الشأن ، نذل ، خسيس ، دنىء ، مهين ، مجرد من الشرف . وقلبه مدغول : خالطه الدغل (بوزن التعب) : وهو الدخل ، والريبة ، والفساد . وعقله مختل : واهن ، ضعيف ، مضطرب ، فاسد .

هجاه فى هذا البيت بكثير من المعايب والنقائص ؛ وخصال السوء ؛ فوجهه ممقوت ؛ يتشاءم الناس به ، ويتوقعون منه النحس والشر ، والأذى والضر . وقلبه منطو على الدغل والدخل ، والفساد والغدر ، والختل والخديعة . وعقله مختل معتل ، مضطرب مختلط . وهو إلى هذا كله سافل الكعب ، منحط الشأن ، رذل ، نذل ، خسيس ، دنىء ، مجرد من الشرف .

(٧) « بك » : بالمهجو . و « بك اسودت الأيام » : أسلوب قصر : أى تخصيص : أى بك لا بغيرك اسودت الأيام ؛ وطريقته تقديم ما حقه التأخير : أى تقديم الجار والمجرور « بك » . واسوداد الأيام : ظلامها : أى بسبب المهجو عاسر الزمان الناس ، وشاكسهم ، وتجهمت لهم الأيام ، ولقيتهم بما يكرهون ؛ وكانت قبله مضيئة مشرقة ، مياسرة مسالمة ، ذات بهجة ورواء . وأصبح : صار . والفضل : الإحسان ، أو الابتداء به بلا علة . ونادى الفضل : مكانه ، ومجتمعه . وأهل المكان : سكانه . وأهل النادى : أصحابه ، والمترددون إليه ، ومن يجتمعون فيه . ويراد بالشطر الثانى : أن المهجو كان سبب نضوب الفضل والخير ، وذهاب البر والإحسان ؛ أو لعله اضطهد الأفاضل المحسنين ، الأحرار الأخيار ، وبالغ فى ظلمهم وإذلالهم ، فنضبت بنضوبهم ينابيع الفضل والخير ، والبر والإحسان .

والمعنى : أن الأيام كانت مشرقة مضيئة ، مسالمة للناس ، تسعدهم ، وتياسرهم ، وتلقاهم بما يحبون قبل أن يتولى المهجو أمور الحكم والرياسة ، فلما تولاها ، وسيطر على الناس بها ، عمت المفاسد والمظالم ، وتجهمت لهم الدنيا ، ورمتهم بأنواع البلاء والشقاء ، وأقفرت أندية الفضل والخير ، وغاضت ينابيع البر والإحسان .

وفى الأبيات الآتية تفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

فَلَوْلَمْ تَكُنْ فِى الدَّهْرِ مَا انْقَضَّ حَادِثٌ ... بِقَوْمٍ ، وَلَا زَلَّتْ بِذِى أَمَلٍ نَعْلُ(٨)

فَمَا نَكْبَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ رَسُولُهَا ... وَلَا خَيْبَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ لَهَا أَصْلُ(٩)

أَذُمُّ زَمَانًا أَنْتَ فِيهِ ، وَبَلْدَةً ... طَلَعْتَ عَلَيْهَا ؛ إِنَّهُ زَمَنٌ وَغْلُ(١٠)

ذِمَامُكَ مَخْفُورٌ ، وَعَهْدُكَ ضَائِعٌ ... وَرَأْيُكَ مَأْفُونٌ ، وَعَقْلُكَ مُخْتَلٌّ(١١)

---

(٨) انقض : نزل ، ووقع . والحادث : النائبة ، والكارثة ، والمصيبة ، والنازلة من نوازل الدهر وبلاياه ، وزلت قدمه : زلقت، وسقطت ، وكبت ، وعثرت . والنعل : الحذاء ، وما وقيت به القدم من الأرض ، وهى مؤنثة ، وجمعها نعال . وزلت النعل بذى الأمل ، أو زلت بالآمل قدمه : أى أخفق ، وخاب أمله ، ولم يتحقق رجاؤه .

يقول : إن المهجو سبب النكبات والبلايا والكوارث التى يصبها الزمان على الناس ، وسبب عثراتهم وكبواتهم وخيبة مساعيهم ، وضياع آمالهم ؛ يريد أن زمنه زمن كرب وبلاء ، وحكمه حكم إفساد وإشقاء . والبيت الآتى صريح فى هذا المعنى .

(٩) النكبة : المصيبة ، والكارثة ، والنازلة من نوازل الدهر ، وجمعها نكبات . والمهجو رسول النكبات إلى الناس ؛ لأنه يصلها بهم ، ويمكنها منهم ، ويهيء فيهم أسبابها ودواعيها ، ويحمل إليهم شرورها وأوزارها ، بخبثه ، وسوء طويته ، وفساد ولايته . وهو أصل الخيبة والخسار والبوار ؛ ومعدن الشر والبلاء والإخفاق ؛ ولولا المهجو ما وجد شيء من هذا ، ولا صلى الناس ناره ؛ ويلاحظ أن شطرى البيت قائمان على القصر : أى التخصيص ؛ وطريقته فيهما النفى والاستثناء . ومعناه : أن المهجو وحده هو رسول كل نكبة ، وأصل كل خيبة .

وهذا البيت تعزيز وتأكيد وتكرار لمعنى البيت السابق .

(١٠) الوغل من الناس : الضعيف ، النذل ، الدنيء ، الساقط ، المقصر فى كل شيء .

اشتد سخط الشاعر على هذا المهجو ؛ فذم الزمان الذى أنبته ووسعه ؛ ورماه بالضعف والمهانة ، والنذالة والدناءة ، والسقوط والهوان ، والعجز والتقصير ؛ وهذه فى الحقيقة عيوب المهجو التى رددها الشاعر فى الأبيات السابقة .

نذم زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

ولم يقتصر الشاعر على ذم زمان هذا المهجو ، بل ذم البلدة التى ظهر فيها ، وسمحت له بالإقامة والحياة !؟ ولو كانت طيبة للفظته ، وأخرجته من أرضها مذموماً مدحوراً .

(١١) الذمام (بوزن الكتاب) : العهد ، والأمان ، والكفالة ، وكل حرمة ينبغى أن تصان وتحفظ ، وتلزمك المذمة إذا ضيعتها . وكل ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه من حقوق الله تعالى =

مَخَازٍ لَوَانَّ النَّجْمَ حُمِّلَ بَعْضَهَا لَعَاجَلَهُ مِنْ دُونِ إِشْرَاقِهِ أُفُـولُ (١٢)
فَسِرْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْكَ ، فَإِنَّمَا قُصَارَى ذَمِيمِ الْعَهْدِ أَنْ يُقْطَعَ الْحَبْلُ (١٣)

= ومخفور : منقوض ، مضيع ، غير مصون . والعهد : الميثاق ، واليمين ، والذمة ، والأمان ، والوفاء ، والضمان ، والمودة . والرأى : الاعتقاد ، والتدبير ، والعقل . ومأفون : ضعيف ، ناقص . ومختل : معتل ، مضطرب ، مختلط ، فاسد . ويلاحظ أن الشاعر أعاد هنا جملة « وعقلك مختل » التى ختم بها البيت السادس من أبيات هذه القصيدة ؛ فوقع فى « الإيطاء » : ومعناه إعادة كلمة الروى لفظاً ومعنى ؛ وهو من عيوب القافية ؛ ولو قال مثلاً : « وعقدك منحل » لا ستقام له الأمر . والعقد : العهد ؛ واتفاق بين طرفين ، يلتزم كل منهما – بمقتضاه – تنفيذ ما اتفقا عليه ، كعقود البيع والشراء والعمل . . .

وصمه بالتفريط فى الحقوق والواجبات ، وتضييع الحرمات والعهود ، ونقض الأذمة والمواثيق ، وفساد الرأى ، وسوء التدبير ، واختلاط العقل واضطرابه .

(١٢) المخازى : المعايب ، والفضائح ؛ الواحدة مخزاة (بوزن مدعاة) : وهى ما يجلب الخزى والعار ، والذل والهوان ؛ أو هو جمع على غير قياس لخزى ، أو خزى (بوزن إثم وصدى) ، كجمع حسن على محاسن ؛ وشبه على مشابه . وخزى (من باب صدى) : أى وقع فى بلية وشر ؛ فافتضح ، وذل ، وهان . و « دون » : ظرف بمعنى « قبل ». وأفل : أفول ، ومغيب : مصدر أفل (كضرب ، وقعد ، وعلم) : أى غاب ، وغرب .

يقول : لو حمل النجم بعض ما يدنس المهجو من المخزيات والفضائح لأفل مسرعاً ، واستحيا من الإشراق ؛ يريد : لوكان فى المهجو مثقال ذرة من الخجل والحياء ، لا نزوى بمخازيه ، وتوارى عن الناس ؛ والغرض تفظيع هذه المخازى التى لو حمل النجم بعضها لأطفأت ما فى طبيعته من الإشراق والضياء .

(١٣) القصارى : الجهد ، والغاية ، وآخر الأمر . ويراد بالعهد : الالتقاء ، والمعرفة ، والصحبة . ويراد بالحبل : صلة التعارف ، والمودة ، والتلاقى ، والصحبة .

ختم الشاعر هذه الأهجوة بإعلان قطيعته للمهجو ؛ وقال : إن مثله لا يؤسف عليه ؛ إذ كان مخفور الذمام ، سيئ الصحبة ، لا يحفظ عهداً ، ولا يرعى موثقاً ، ولا يكاد يحفل بشىء من حقوق الإخاء ؛ وحسبه أن يجتنب ويقاطع . ويلاحظ أن هذا البيت شبه تكرار ، أو تلخيص لمعنى أربعة الأبيات الأولى .

ويبدو أن المهجو كان يشغل منصباً كبيراً عالياً من مناصب الحكومة ، فلما اعتزله ، أو أقيل منه – استشعر الناس السرور ، وانفرج الغم الكارب .

أشار الشاعر بهذا البيت إلى سوء عهد المهجو ، أى سوء زمانه ، وارتياح بنى وطنه لإقالته ، أو اعتزاله ؛ فإن مثله لا يؤسف عليه ، ونهاية أمره أن تقطع صلته بالحكومة ، أو تنقطع صلاته بالناس ، وتطوى سيرته ، ويخمل ، ولا يكاد يذكره أحد إلا بالمقت والإزراء .

وَقَالَ :

إِلَى اللهِ أَشْكُو طُولَ لَيْلِي ، وَجَارَةً تَبِيتُ إِلَى وَقْتِ الصَّبَاحِ بِإِعْوَالِ (١)

لَهَا صِبْيَةٌ لَا بَارَكَ اللهُ فِيهِمُ قِبَاحُ النَّوَاصِي ، لَا يَنَمْنَ عَلَى حَالِ (٢)

---

(١) « إلى الله أشكو » : أسلوب قصر : أي تخصيص ، وطريقته تقديم ما حقه التأخير : أي تقديم الجار والمجرور « إلى الله » . والمعنى : أشكو إلى الله وحده ، ولا أشكو إلى أحد سواه ؛ وفزع الشاعر بشكواه إلى الله دليل على شدة ما كان يضانيه من سوء جوار هذه الجارة ؛ وإنما شكا طول ليله لأن الليل يثقل ، ويمل ، ويمتد ، ويطول فى حس المتألم ، والمهموم ، والمحزون ، والقلق الضجر ، وأمثالم . ولا ريب أن صياح هذه الجارة طوال الليل يضجره ، ويزعجه ، ويمضه ، ويؤلمه ، ويؤرقه ، ويقض مضجعه ، ويطيل ليله ، ويمدده . وبات يفعل كذا : أى فعله ليلاً . والإعوال : مصدر أعول : أى رفع صوته بالبكاء والصياح .

اعتادت هذه الجارة أن تبيت الليل كله صاخبة صائحة معولة ؛ فأزعجت الشاعر بإعوالها وجلبتها وضجيجها ، وأقضت مضجعه ، وأرقته ، وأطالت ليله ، وكدرت حياته ؛ ففزع إلى الله تعالى يشكو إليه ما يكابده ويقاسيه .

(٢) لها : للجارة . والصبية (بتثليث حركة الصاد) : جمع صبى : وهو الصغير دون الغلام . أو الطفل قبل أن يفطم . وجملة « لا بارك الله فيهم » : جملة دعائية ؛ فهو يدعو الله تعالى أن يحرمهم البركة : وهى النماء ، والزيادة ، والخير ، والسعادة . والنواصى : جمع الناصية : وهى مقدم الرأس ، أو منبت الشعر فى مقدم الرأس . أو شعر مقدم الرأس إذا طال . ويراد بالنواصى هنا : الوجوه ؛ فالناصية فى أعلى الوجه . وهى متصلة به . أو هى جزء منه . والعرب قد تطلق الجزء ، وتريد الكل . وحال الشىء : صفته ، وهيئته . و « لا ينمن على حال » : أى لا ينمسون طوال الليل ؛ فالسهر يلازمهم ، ولياليهم كلها ساهرة فى كل الأحوال من عطش ورىّ ، وجوع وشبع . . .

فى البيت السابق شكا جارته المعاسرة المشاكسة ، وتبرم بصخبها وجلبتها ، وإغراقها الليل كله فى الضجيج والعويل . وقال : إنه من جراء هذا يعانى ما يثقله ويضنيه من الضجر والقلق والأرق ، وطول الليل وامتداده .

وفى هذا البيت أضاف إلى ما تقدم صخب أطفالها وضجيجهم . وقال : إنهم — فى جميع الأحوال — لاينامون الليل ، ولايدعون غيرهم يستمتع بنعمة النوم وراحته ؛ ثم اشتد تبرمه بهم ، وسخطه عليهم ، فرماهم بدمامة الوجوه وقبحها ، ودعا الله تعالى أن يحرمهم الخير والبركة ، كما حرموا غيرهم أمنة النعاس ومتعته .

صَوارِخُ . لَا يَهْدَأْنَ إِلَّا مَعَ الضُّحَا ... مِنَ الشَّرِّ . فِى بَيْتٍ مِنَ الْخَيْرِ مِمْحَالِ (٣)
تَرَى بَيْنَهُمْ - يَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُمْ - ... لَهِيبَ صِيَاحٍ يَصْعَدُ الْفَلَكَ الْعَالِى (٤)

(٣) الترتيب الآتى يوضح هذا البيت كل التوضيح : « صوارخ من الشر ، فى بيت ممحال من الخير ، لا يهدأن إلا مع الضحا » .

وصوارخ : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : « هن » : أى صبية هذه الجارة صوارخ : جمع صارخة اسم فاعل من الصراخ ، أو الصريخ : وهو الصياح الشديد . والضحا : حين تشرق الشمس ، ويمتد النهار . و « من الشر » : متعلق بـ « صوارخ » : أى صوارخ من أجل الشر : أى بسببه . ويجوز أن يتعلق بـ « يهدأن » : أى لا يهدأن من الشر : أى شرهن متصل ، لا يقطعه شىء من الهدوء . ويراد بالشر : المشارة ، والمشاجرة ، والخصام ، فى إعوال ، وجلبة ، وصياح ، وضجيج . و « فى بيت » : متعلق بـ « صوارخ » . و « ممحال » : صفة لـ « بيت » . والممحال : الماحل ، المقفر ، المجدب . و « من الخير » متعلق به .

ما زال الشاعر شديد التبرم بجارته وصبيتها اللائى يؤرقنه ويؤذينه أذى شديداً بما يؤججنه طوال الليل من الشجار والمشارة ، والصراخ والإعوال .

ويقول : إنهن لا يهدأن إلا حين تشرق الشمس ، ويرتفع النهار ؛ وإن بيتهن محل مقفر مجدب ، لا خير فيه ؛ فالخير لا يكون مع الشر والجلبة ، والضجيج والعجيج ، والصراخ والإعوال .

(٤) « بينهم » : بين هؤلاء الصبية . و « يا » حرف لمجرد التنبيه ، أو هى حرف نداء ، والمنادى محذوف ؛ فالشاعر ينادى كل من يستمع له ، ويشفق عليه ، ويشكيه : أى يزيل سبب شكواه . و « فرق الله بينهم » : جملة دعائية ؛ فهو يدعو عليهم بالتفرق ، وتبدد الشمل ؛ لأنه إذا افترق شملهم ، انتهى صياحهم ، واستراح منه الشاعر ، واستطاع أن يطعم لذة النوم . ولهيب صياح : أى صياحاً كلهيب النار فى توقده ، وشدته ، وارتفاعه ، وإيذائه . والفلك : الفضاء فى السماء ، يدور فيه النجم . والعالى : صفة مؤكدة له ؛ لأن الفلك لا يكون إلا عالياً . ويلاحظ أن الشاعر عبر فى أول البيت بالفعل المضارع « ترى » مراعياً اللهيب ؛ فإنه يدرك بحاسة البصر . أما الصياح فيدرك بحاسة السمع . كما يلاحظ أنه فى هذا البيت والبيتين السابقين والبيت الآتى يذكّر الضمير أحياناً باعتبار معنى « الصبية » (جمع صبى) ، ويؤنثه أحياناً باعتبار اللفظ .

شبه صياح هؤلاء الصبية بلهيب النار المتوقدة المتأججة فى عنفه وقسوته ، وشدته وقوته ، وإيذائه وإضراره ، وعلوه وارتفاعه ؛ وبالغ فى هذا المعنى الأخير ؛ فقال : إنه يبلغ الأفلاك والكواكب ؛ ودعا على هؤلاء الصوارخ بتمزق الرابطة ، وافتراق الشمل ؛ ليستريح من جلبتهم وضوضائهم ؛ ويجد ما يتمناه ويشتهيه من النوم والراحة ، والطمأنينة ، ورخاء البال .

كَأَنَّهُمُ ـ مِمَّا تَنَازَعْنَ ـ أَكْلُبٌ طُرِقْنَ ـ عَلَى حِينِ الْمَسَاءِ ـ بِرِئْبَالِ(٥)

فَهِجْنَ جَمِيعًا هَيْجَةً فُزِّعَتْ لَهَا كِلَابُ الْقُرَى ، مَا بَيْنَ سَهْلٍ وَأَجْبَالِ(٦)

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ كَلْبٍ عَقُورٍ وَكَلْبَةٍ مِنَ الْحَىِّ إِلَّا جَاءَ بِالْعَمِّ وَالْخَالِ(٧)

---

(٥) « مما تنازعن » : « من » : تعليلية . و « ما » : مصدرية : أى من أجل تنازعهن : أى اختلافهن وتخاصمهن. وأكلب : جمع كلب . وطرقت القوم : أتيتهم ليلاً . و « على حين المساء » : تكرار وتأكيد لمعنى الطروق ؛ فإنه لا يكون إلا ليلا . والرئبال (بالهمز ، وبالتخفيف) : الأسد . والذئب الخبيث .

شبه هؤلاء الصبية الصاخبين الصارخين المتنازعين بكلاب طرقها مفاجئاً ذئب أو أسد ، فثارت وهاجت ، واضطربت وماجت ، وعلا نباحها . وفى ستة الأبيات الآتية ، أى فى أكثر من نصف هذه القصيدة فصّل الشاعر هذا المعنى ، وأطنب فى وصف هذه الحالة ونتائجها ، وبالغ وغالى ، واتسع خياله ؛ وبهذا خفف عن نفسه : بل خفف هذه الأهجية الاجتماعية بما يشبه التهكم والسخرية ، أو المزاح والدعابة .

(٦) « هجن » : الضمير المتصل بهذا الفعل يعود على « أكلب » فى البيت السابق ؛ وقد شبه بها الشاعر صبيان جارته المتنازعين المتشاجرين فى صخب وصراخ ، وإعوال وصياح عال ، وهاج (من باب باع) : ثار ، واضطرب . وهيجة : اسم مرة منه . وفزعت (من بابى تعب ومنع) : ذعرت ، وخافت . أو هى « فزعت » (بالبناء للمجهول ، وتشديد الزاى) : من فزعه تفزيعاً : أى خوفه ، وروعه ، وذعره ، وأثاره . والفزع (فى الأصل) : الخوف والذعر ؛ وقد يستعمل فى هيجان الناس ، وخروجهم مسرعين على عجل ؛ لدفع عدو ونحوه إذا جاءهم بغتة . ولها : للهيجة : أى من أجلها ، وبسببها . والسهل من الأرض : ما كان ممتداً منبسطاً ، مستقيم السطح . والأجبال : جمع جبل . ويراد بالسهول والجبال : ما انبسط من الأرض واستوى ، وما هبط وانخفض ، وما علا وارتفع : أى يراد التعميم ، واستيعاب أراضى القرى فى أوسع المساحات .

بدأ الشاعر فى هذا البيت يفصّل الصورة التى أجملها فى البيت السابق ؛ فالذئب أو الأسد فاجأ الكلاب ليلاً ، فهاجها وأثارها إثارة هائلة أفزعت كلاب القرى والبلاد المجاورة ، وهيجتها ؛ فتنادت ، واجتمعت ، وأتت مسرعة من السهول والجبال تنبح نباحاً عالياً فى وجه ذلك العدو الهاجم المباغت .

(٧) « من » فى الشطر الأول زائدة لتأكيد المعنى ، وهو استيعاب الكلاب كلها ، أى أنها كلها بلا استثناء تنادت واجتمعت ، وجاء كل كلب وكلبة بالعم والخال . وعقور : صيغة مبالغة من عقره (من =

وَفزِّعَتِ الْأَنْعَامُ وَالْخَيْلُ، فَانْبَرَتْ تُجَاوِبُ بَعْضًا فِى رُغَاءٍ وَتَصْهَالِ(٨)

فَقَامَتْ رِجَالُ الْحَىِّ تَحْسَبُ أَنَّهَا أُصِيبَتْ بِجَيْشٍ ذِى غَوَارِبَ ذَيَّالِ(٩)

= باب ضرب) : أى عضه ، وجرحه . ومن الحى : أى من كلاب الحى . أو « من » بمعنى « فى » : أى فلم يبق كلب وكلبة فى الحى : وهو محلة القوم : أى ديارهم ، ومنازلهم ، وجمعه أحياء ، وجاء بالعم والخال : أى استدعى جميع ما اتصل به من الكلاب .

والبيت فى تصوير كثرة الكلاب التى فزعت وتجمعت لما طرقها الرئبال ؛ والغرض من هذا البيت والأبيات التى قبله ، وأربعة الأبيات بعده المغالاة فى وصف ضجيج هذه الجارة وإعوالها ، وصخب صبيانها وصراخهم .

(٨) فزعت (بالبناء للمجهول) : من فزعه تفزيعاً : أى روعه ، وأخافه ، وذعره ، ونفره . والأنعام : جمع النعم (بفتحتين) : وهى الإبل ، والبقر ، والغنم . والخيل : جماعة الأفراس ، (لا واحد له من لفظه) ، بل الواحد فرس ، وحصان . وجمع الخيل خيول ، وأخيال . وانبرى له الشىء : اعترض له ، ووقف فى سبيله ، كالجبل ونحوه ينبرى للسائر ، ويعترض له فى طريقه ، فيعوقه عن السير . ومعنى انبراء الأنعام والخيل هنا : أنها لما فزعت نهضت من مباركها ، وقامت من مرابضها ، فى سرعة ، وعنف ، وصلابة ، وشدة ، وجموح ؛ لمقاومة العدو المفاجىء ، والتصدى له . وجاوبه يجاوبه مجاوبة : حاوره ، ورد كل منهما على الآخر . أو أجاب سؤاله . والكلام الفصيح : « يجاوب بعضها بعضاً » . ولم تستعمل كلمة « بعض » فى القرآن الكريم ، فى مثل هذا المقام إلا مكررة . قال تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » الآية رقم ٦٣ من سورة النور . و « فى » : بمعنى « الباء » . والرغاء : صوت الإبل وضجيجها . والتصهال ، والصهيل ، والصهال : صوت الخيل : وهو مصدر على وزن « تفعال » يأتى من الفعل الثلاثى المجرد قياساً مطرداً ؛ للدلالة على الكثرة والمبالغة .

من نتائج طروق الرئبال ، وهيجان الكلاب ونباحها : أن الإبل ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، والبقر ، والغنم ، وسائر دواب القرى ، وبهائمها وحيواناتها — فزعت وروعت وذعرت ؛ فهاجت ، وماجت ، ونفرت ، ونهضت من مباركها ومرابضها فى سرعة وقوة ، وعنف وصلابة ؛ وبرغائها وصهيلها وأصواتها الكثيرة المختلفة المختلطة — تنادت ، وتجاوبت ، وتحاورت منبرية متصدية لهذا العدو المفاجىء .

(٩) الحى : البطن من بطون العرب . وهو أصغر وأقل عدداً من القبيلة . والحى أيضاً : محلة القوم : أى ديارهم ومنازلهم التى ينزلون فيها . ويراد برجال الحى هنا : رجال القرى والبلاد التى عم التفزيع والهياج كلابها ودوابها . والغوارب : جمع الغارب : وهو الكاهل : أى أعلى الظهر ، مما يلى العنق . ومن المجاز =

فَمِنْ حَامِلٍ رُمْحًا ،وَمِنْ قَابِضٍ عَصًا   وَمِنْ فَزِعٍ يَتْلُو الْكِتَابَ بِإِهْلَالِ(١٠)

وَمِنْ صِبْيَةٍ رِيعَتْ لِذَاكَ ، وَنِسْوَةٍ   قَوَائِمَ دُونَ الْبَابِ يَهْتِفْنَ بِالْوَالِى (١١)

= « بحر ذو غوارب » : أى متموج ، مرتفع الموج . وغواربه : أعالى موجه . وجيش ذو غوارب : كثير ، جرار ، عرمرم ، لجب ؛ كأنه البحر الزاخر المتموج . وذيال : نعت ثان لجيش . والمراد أنه ممتد لهام ، كثير جرار ؛ على التشبيه بالفرس الذيال : وهو الطويل الذيل .

يقول : ومع تفزيع الكلاب والدواب وتهييجها — استيقظ رجال القرى والبلاد مفزعين ، مروعين ؛ كأنهم فوجئوا بهجوم جيش عظيم جرار ؛ فأعدوا له العدة ،وأخذوا — على عجل — أهبتهم لصده ورده . والبيت الآتى يفصّل هذا المعنى .

(١٠) « من » فى هذا البيت : بيانية ؛ وقد كررت ثلاث مرات لبيان ثلاث طوائف ، أو ثلاث جماعات ، أو ثلاث حالات لرجال الحى فى البيت السابق . والرمح : قناة فى رأسها سنان من الحديد الصلب يطعن به . وقابض : اسم فاعل من قبض الشىء ، وقبض عليه . ويتلو : يقرأ . ويريد بالكتاب : القرآن الكريم ؛ وقد سماه الله الكتاب فى مواضع كثيرة من القرآن العظيم . قال تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين » الآية رقم ٢ من سورة البقرة . والإهلال : مصدر أهل : أى رفع صوته .

فى الأبيات (٥ — ٨) : أن الكلاب والدواب فوجئت ليلاً بالرئبال ؛ ففزعت ، وهاجت . وفى هذا البيت والبيت السابق تصوير مفصّل لفزع الرجال فى القرى والبلاد المجاورة ، وتصديهم لهذا العدو المباغت ؛ فمنهم من حمل له رمحه وسلاحه ، ومنهم من استخف عصاه ، فأمسك بها . ومنهم من لجأ إلى الله تعالى رافعاً صوته بتلاوة القرآن .

(١١) « من » فى أول هذا البيت : بيانية ، توضح طائفتين أخريين ممن شملهم الذعر والفزع ، وهما صبيان القرى ونساؤها . وريعت : أفزعت ، وأخيفت. ولذاك : من أجل ذاك : أى بسبب هيجان الكلاب والدواب واستيقاظ الرجال وتأهبهم للدفاع . وقوائم : قائمات : جمع قائمة . ودون الباب : وراءه . أو أمامه . أو على مقربة منه . وهو ظرف لـ « قوائم » . وهتف به (من باب ضرب) صاح به ، ودعاه . وجملة « يهتفن » : نعت ثان لـ « نسوة » : أى ونسوة قائمات ، هاتفات . والوالى : الحاكم .

فصّل الشاعر فى هذا البيت والبيتين قبله بعض مظاهر الفزع الذى استولى على الحى ، وشمل رجاله ، ونساءه ، وصبيانه : فالرجال هبوا مذعورين ، كأنما رموا بجيش لجب ؛ فتسلح جمهورهم بالرماح والأسلحة والعصى . وفزعت طائفة منهم إلى الله تعالى يدعونه جهراً بتلاوة القرآن الحكيم ؛أما الصبيان فإنهم ريعوا =

فَيَارَبِّ ، هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ تَصَبُّرًا   عَلَى مَا أُقَاسِيهِ ، وَخُذْهُمْ بِزَلْزَالِ (١٢)

وَقَالَ* فِي الزُّهْدِ** :

يَا قَلْبُ ، مَالَكَ لَا تُفِيـ   قُ مِنَ الْهَوَى ؟ يَا قَلْبُ ، مَالَكْ ؟ (١)

= وارتجفوا لهذا الخطب المدلهم ؛ وقامت النساء دون أبواب الدور يصحن بالوالى ، ويستنجدنه ؛ ليدفع عن الحى — بسلطان الحكومة — هذا الشر المغير ، والبلاء المستطير .

(١٢) تصبر على الامر : صبر . وتصبر : حمل نفسه على الصبر . وتصبر : تكلف الصبر : أى تجشمه على مشقة . وخذهم : أمر من أخذه بذنبه : أى جازاه وعاقبه . وزلزل الله الأرض زلزلة ، وزلزالا (بتثليث حركة الزاى فى الزلزال) : أى أرجفها ، وحركها تحريكاً شديداً ، وجمع الزلزال زلازل ؛ وقد يراد بها : البلايا ، والشدائد ، والكوارث ، والأهوال .

افتتح الشاعر هذه القصيدة بالشكوى إلى الله وحده . واختتمها بدعاءين : أولهما أن يمنحه الله القوة والصبر على احتمال ما يكابده ويضانيه من شرور جارته وصبيانها ، والآخر أن ينتقم له منها ومنهم ، ويعاقبهم عقوبة رادعة زاجرة ؛ فهو يرجو من الله أن يعينه على احتمال شرورهم إلى أن يؤاخذهم بهذه الشرور . وقد تكون « الواو » فى الشطر الثانى بمعنى « أو » فهو يدعو الله أن يستجيب لأحد هذين الدعاءين .

* * *

* هذه القصيدة لامية ، أى رويها اللام ، والكاف بعده حرف وصل ؛ ويصح أن تكون كافية : أى رويها الكاف ؛ وقد التزم الشاعر قبله اللام ، وهو من لزوم ما لا يلزم ؛ فالوجهان جائزان صحيحان . والأول مستحسن راجح .

** زهد فيه (كمنع ، وسمع ، وكرم) زهداً ، و زهادة : أعرض عنه ، وتركه ؛ لاحتقاره ، أو لتحرجه منه ، أو لقلته وتفاهته . وزهد فى الدنيا : ترك حلالها مخافة حسابه ، وترك حرامها مخافة عقابه . وأدب الزهد (شعره ، ونثره) يقصد به التزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الآخرة ؛ والزهد فى شعر البارودى غير قليل ؛ ومكانته فى البلاغة مكانة سائر شعره . وأصدقه وأعمقه ، وأشده تأثيراً فى النفس ما نظمه وهو فى منفاه .

(١) « يا » فى أول البيت لنداء البعيد. وقد نزّل القريب هنا (وهو قلبه) منزلة البعيد ، إشارة إلى غفلته ، وانهماكه فى الهوى ، وإبعاده فى الغى . والغرض من النداء الزجر . و « مالك » : « ما » اسم استفهام مبتدأ ، والجار والمجرور « لك » خبره . وأفاق يفيق إفاقة : انتبه ، وصحا . يقال : أفاق المريض من مرضه ، والسكران من سكره ، والنائم من نومه . والهوى (فى الأصل) : مصدر هوى الإنسان الشىء (من باب صدى) : أى مال إليه ، ورغب فيه ، وتعلق به ؛ ثم كثر استعماله فى ميل النفس إلى =

أَوَ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَعُو دَ عَنِ الصِّبَا ؟ أَوَ مَا بَدَا لَكْ ؟ (٢)
أَمْ خِلْتَ أَنَّ يَدَ الزَّمَا نِ قَصِيرَةٌ عَنْ أَنْ تَنَالَكْ (٣)
هَيْهَـاتَ ، صَـدَّ بِكَ الْهَوَى عَنْ أَنْ تَرِيعَ ، وَلَنْ إِخَالَكْ (٤)

= الشهوات ، وجمعه أهواء ؛ وربما أطلق الهوى على الشيء المهويّ ، أى المرغوب فيه . وقد ذم القرآن الهوى ونهى عن اتباعه ؛ قال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . الآية رقم ٤٠ والآية رقم ٤١ من سورة النازعات . وقال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً » الآية رقم ٢٨ من سورة الكهف .

كرر الشاعر النداء والاستفهام « يا قلب ، مالك ؟ » مرتين ؛ لتأكيد المعنى ، والإلحاح به ؛ فهو بالنداء ينبه قلبه ، ويزجره ؛ وبالاستفهام يلومه فى تعجب ، ويأمل أن يفيق من الهوى ، ويعود إلى الرشاد.

وهو فى هذا البيت وستة الأبيات الآتية يخاطب قلبه واعظاً ، ناصحاً ، مرشداً ، مبصراً بالعواقب ، داعياً إلى الهدى والتقى ، وتسليم الأمر لله .

(٢) الهمزة فى أول البيت للاستفهام المراد به التوبيخ . و « الواو » بعدها عاطفة . والمعطوف عليه محذوف ، أى « أتماديت فى الصبا ، وما بدا لك أن تعود عنه ؟ » . وبدا (من باب سما) : ظهر ، وبان ، واتضح . وتعود عن الصبا : أى تقلع عنه ، وترجع ، وتكف ، وتنصرف . والصبا (بكسر الصاد) : مصدر صبا (كعدا وسما) : أى مال إلى اللهو واللعب ، والجهل والفتوة ، وفعل فعل الصبيان ، وانطاع لدواعى الهوى ، وعبث الشباب . وصبا إلى المرأة : تعلق بها ، ونزع إليها ، وحن ، واشتاق . وفى القرآن الكريم : « وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن ، وأكن من الجاهلين » الآية رقم ٣٣ من سورة يوسف .

كرر الشاعر « أو ما بدا لك » مرتين ، كما كرر فى البيت السابق « يا قلب مالك ؟ » . ويلاحظ أن معنى العودة عن الصبا فى هذا البيت تكرار ، أو شبه تكرار لمعنى الإفاقة من الهوى فى البيت السابق . وفى الاستفهام معنى اللوم والإنكار ؛ فهو ينكر على قلبه تماديه فى الصبا ، ويعيبه ، وينهاه عنه .

(٣) « أم » هنا : بمعنى « بل » . وتفيد الانتقال من معنى إلى معنى آخر ، هو فى الغالب أهم من المعنى السابق ، وأحق منه بالانتباه والاحتفال . وخال الشيء يخاله (من باب نال) : ظنه .

يقول : بل ظننت أن الزمان عاجز عن أن يدركك بآفاته وأسوائه ، وهو أسلوب آخر من أساليب الوعظ والنصح والإرشاد والتحذير أشد من أسلوب البيتين السابقين ؛ كأنه يقول : أفق من الهوى ، وارجع عن الصبا قبل أن تفجعك فواجع الزمان ، وتردعك نوازل الحدثان .

(٤) « هيهات » (بتثليث التاء) : اسم فعل بمعنى « بعد » : أى بعد ما آمله من إفاقتك ، وإقلاعك عن الهوى . وصده عن كذا : منعه ، وكفه ، وصرفه عنه . وصد بك الهوى : أى أمعنت فيه ، =

سَلِّمْ أُمُورَكَ لِلَّذِى أَنْشَاكَ مِنْ عَدَمٍ وَعَالَكْ (٥)
وَدَعِ التَّعَلُّقَ بِالْمُحَا لِ ؛ فَإِنَّهُ يَبْرِى مِحَالَكْ (٦)
فَعَسَاكَ تَنْزِعُ مِنْ يَدِ الْ أَهْوَاءِ - يَا قَلْبِى - حِبَالَكْ (٧)

= فابتعد بك . وراع يريع (من باب) باع : عاد ، ورجع . ولن إخالك : أى ولن أظنك مقلعاً عن الهوى ، عائداً إلى الهدى . وطيء تكسر همزة « إخال » على غير قياس . و بنو أسد يفتحونها على القياس . والكسر أكثر وأشهر .

يقول : إن الهوى استبد بقلبه ، وتمكن منه ، وسيطر عليه ؛ فحال بينه وبين العودة إلى الهدى . وقد أكد هذا المعنى بـ « هيهات » : وهى كلمة تبعيد ، ثم بقوله : « ولن إخالك » ، وهو كالبيت السابق أسلوب شديد من أساليب الوعظ والإرشاد . وفى ثلاثة الأبيات الآتية عظة ، ونصح ، وأمل فى الإقلاع عن الأهواء ، والإنابة إلى الله .

(٥) الأمر فى أول هذا البيت ، وفى أول البيت الآتى : « سلم » و « دع » : معناه النصح والإرشاد . والأمور : جمع الأمر : بمعنى الشأن والحال . وفى القرآن الكريم : « وأفوض أمرى إلى الله ؛ إن الله بصير بالعباد » الآية رقم ٤٤ من سورة غافر . وأنشاك : أصله الهمز : من الإنشاء : وهو الخلق والإيجاد . وعالك (من باب قال) : كفلك ، ورزقك ، ويسر لك أسباب المعيشة والحياة .

ولاريب أن الخير كله فى التسليم الذى دعا إليه الشاعر ، وحض عليه ؛ والله تبارك وتعالى هو الخالق المقتدر الذى أنشأ الإنسان من العدم ، ووهب له نعمة الوجود ، ورزقه وعاله ، ورعاه ورباه ؛ وتفويض الأمور إليه من التقوى والإيمان الذى يضىء القلب ، ويدعو إلى تحرى الرشد فى الأقوال والأعمال ، ويعالج ما شكاه الشاعر فى الأبيات السابقة من سيطرة الهوى ، والانطياع للهو والصبا ، وجهل الشباب .

(٦) دع : اترك ، واجتنب . والمحال (بضم الميم) : ما اقتضى الفساد من كل وجه . ومن معانيه : الباطل ، والمعوج ، وغير الممكن . ويبرى : يضعف ، أو يهدم . (وبابه رمى) ؛ وهو من مجاز اللغة ؛ والأصل : بريت القلم ونحوه . والمحال (بكسر الميم وفتحها) : القوة ، والقدرة .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالأبيات السابقة ؛ فإن الهوى والصبا من الاباطيل والمفاسد ؛ ولا ريب أن التشبث بها يضعف أو يتلف ما أنعم الله به على الإنسان من قوى الروح ، والعقل ، والجسم ، والحواس ، ويفسد الأخلاق ، وينتهى بالمرء إلى البوار والخسران .

(٧) « عسى » : فعل ماض جامد ، معناه الترجى ، ويفيد الطمع . أو هو حرف بمعنى « لعل » ويفيد الترجى والتوقع . وتنزع (من باب ضرب) : تنتزع ، وتقتلع . ونزع الحبال من يد الأهواء : كناية عن الإفاقة منها ، والإقلاع عنها ، واجتناب اللهو والمجانة .

وَقَالَ فِى الزُّهْدِ ، وَهِىَ مِنْ لُزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ * :

أَيُّهَا الْمَغْرُورُ ، مَهْلَا لَسْتَ لِلتَّكْرِيمِ أَهْلَا (١)

كَيْفَ صَادَفْتَ الْأَمَانِى ؟ هَلْ رَأَيْتَ الصَّعْبَ سَهْلَا ؟ (٢)

---

* التزم الشاعر « الهاء » قبل روى هذه الأبيات ، وهو التزام لا تحتمه قواعد القافية ، وقيد اختيارى قيد به الشاعر نفسه على عادته فى كثير من مقطوعاته وقصائده ؛ كأنه يفخر بقوة شاعريته ، وفيضان قريحته ، وانطياع القوافى له ، ويسرها بين يديه ؛ فليس فى هذه الأبيات ، ولا فى أمثالها شيء من التكلف ، أو التعمل ، أو العسر ، أو الالتواء ، بل تراها كلها على الدوام جارية على الطبع والسليقة .

(١) المغرور : المخدوع . ويراد به هنا : المشغوف بالدنيا ، المقبل عليها فى غير قصد أو اعتدال ؛ لأنها تغره بزخرفها وزينتها ، وتخدعه ، وتطمعه بالباطل . والمهل : التؤدة ، والرفق ، والتأنى . وهو مصدر ناب مناب فعل الأمر : أى تمهل ، واتئد ، ولا تعجل . والمراد : تفكر ، وتدبر ، ولا تنخدع بالدنيا ، ولا تتهافت عليها . وكرمه تكريماً : عظمه ، وشرفه ، ونسبه إلى الكرم الذى يجمع حميد الخلال ، وشريف الخصال ، وصالح الأعمال والأقوال . وفلان أهل لكذا : مستحق له ، جدير به .

يذم التكالب على الدنيا ، والاغترار بها . ويقول لمن انخدع بزخرفها ، ووقع فى أشراكها : تمهل ، واتئد ، وفكر ودبر ؛ فقد جانبت الرشد ، وانحرفت عن الجادة ، ولم تعد أهلاً للتوقير والتكريم .

(٢) الاستفهامان فى شطرى هذا البيت : معناهما النفى . وهما يحملان مع هذا معنى التقريع والتوبيخ ، ومعنى التهكم والسخرية ؛ فإن الدنيا لم تحقق للمخدوعين بها أمانيهم ، ولم تيسر لهم الصعوبات كما يشتهون ؛ وهى إن ياسرتهم حيناً عاسرتهم أحياناً ، وإن أحسنت الصنيع لا تلبث أن تكدر الإحسان . وصادفت : وجدت ، ولقيت . والأمانى (بالتخفيف ، والتشديد) : جمع الأمنية : وهى المنية ، والبغية : أى ما يتمناه الإنسان ، ويبتغيه ، ويتوق إليه ، ويرغب فيه .

والمعنى : أن الدنيا تغر أصحابها بالأمانى الكاذبة ، وتخدعهم بالآمال الخلابة ؛ فيتهافتون عليها ، ويتكالبون ؛ فلا تلبث أن تنحرف بهم عن الصراط السوى ، وتصرفهم عن الزهد والعبادة ، والعمل للدار الآخرة ؛ فتكون عاقبة أمرهم خسراً ؛ لأن كثيراً من الآمال التى انخدعوا بها ، وجروا وراءها من الصعوبة بمكان ؛ وقلما تتحقق لإنسان « كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه . والله سريع الحساب » . (الآية رقم ٣٩ من سورة النور) .

خِلْتَهَا مَـاءً نَمِيرًا فَاشْرَبَنْ عَلاًّ ، وَنَهْلَا (٣)

أَيْنَ أَهْلُ الدَّارِ ؟ فَانْظُرْ هَلْ تَرَى بِالدَّارِ أَهْلَا ؟ (٤)

رُبَّ حُسْنٍ فِى ثِيَابٍ عَـادَ غِسْلِينًا وَمُهْلَا ؟ (٥)

---

(٣) خلتها : خلت الأمانى ؛ أى ظننتها . والخطاب للمغرور بالدنيا . والماء النمير : الطيب ، الزاكى ، الكثير ، الهنىء ، المرىء ، الناجع فى الرى . والنهل (بوزن الطرب) : الشرب الأول . أو الشرب المروى ؛ وتسكين الهاء هنا لضرورة وزن الشعر . والعل (ومثله العلل ، بوزن الملل) : الشرب الثانى . أو هو الشرب بعد الشرب تباعاً .

فى هذا البيت ، والبيت السابق سأل الشاعر المغرور بالدنيا فى تهكم وسخرية ، أو تقريع وتوبيخ : كيف وجد ما كان يأمله ؟ وهل تيسرت له أطماعه ؛ فاطمأن للدنيا ، وظنها عذبة الموارد ، فنهل منها وعل ؟ . والغرض نفى هذا كله ، وإثبات نقيضه من خيبة أمل الآمل ، وضياع رجائه ، وغدر الدنيا به ، وتجريعه مرارة الحسرة والندامة ، والبوار والحرمان . والأبيات الآتية توضح هذا المعنى ، وتفصله ، وتؤكده .

(٤) فى سبيل العظة والاعتبار وجه الشاعر الأنظار إلى من طواهم الردى ، وأخنى عليهم الدهر من أهالى الديار الخاوية ، والمنازل الخالية ، والقرى والبلاد الدوارس التى تردع المغرور ، وترد المعتبر إلى الهدى والرشاد . وفى القرآن الكريم : « أو لم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق » . الآية رقم ٢١ من سورة غافر .

(٥) « رب » : حرف يفيد التكثير فى مثل هذا المقام ؛ فإن الحسن والجمال الجسمانى الذى ينتهى أمره إلى الغسلين والمهل من الكثرة بمكان . ويراد بالحسن : محاسن الحسان الغانيات . ويراد بالثياب : ثيابهن التى كن يتبخترن فيها ، ويزدهين بها قبل أن يدركهن الموت . أو يراد بها : الأكفان التى غطت محاسنهن بعد أن طواهن الردى . وعاد : صار : أى الحسن ، والجمال . والمراد صار بعد الموت . والغسلين (فى الأصل) ما يخرج من الثياب ونحوها بالغسل : أى الماء الذى يسيل منها مختلطاً بأقذارها بعد غسلها وعصرها . ويراد بالغسلين هنا : ما يسيل من أجساد الموتى إذا انحلت ، وتعفنت ، وتقيحت بعد الموت . والمهل (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : القيح ، وصديد جسد الميت .

ينبه على ماتصير إليه أبدان الحسان الغانيات بعد الموت من تعفن ، وتقيح ، وقيح ، وفساد . والغرض تبصير المغرور بهذه المحاسن ونحوها ؛ لعله يتعظ ويعتبر ، ولا ينخدع بزخرف الدنيا وباطلها . « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) .

وَعُيُــونٍ كُنَّ سُودًا صِرْنَ عِنْدَ الْمَوْتِ شُهْلَا(٦)

سَوْفَ يَلْقَى كُلُّ بَاغٍ فِى الْوَرَى خِزْيًا وَبَهْلَا(٧)

إِنَّمَـا الدُّنْيَـا غُرُورٌ لَمْ تَدَعْ طِفْلًا وَكَهْلَا(٨)

---

(٦) « وعيون » : معطوفة على « حسن » فى البيت السابق : أى رب حسن ، ورب عيون . وشهل : جمع شهلاء : صفة من الشهل ، أو الشهلة : وهو أن يشوب سواد العين أو إنسانها حمرة ، أو زرقة ، أو أن يخالط بياضها كدرة ، أو غبرة . (وفعله من باب تعب) .

يصف شهلة عيون الحسان الغانيات عند الموت ؛ فالحسن ، والسحر ، والفتنة ، والجمال — يجعله الموت شهلاً وقبحاً مروعاً محزناً ، يدعو إلى العظة والاعتبار ، ويكشف للبصير العاقل زخرف الدنيا وباطلها ، وخداعها ، وتغريرها بالمغرورين بها الذين يؤثرونها على الآخرة .

(٧) « سوف » : حرف مبنى على الفتح ، يخصص المضارع للاستقبال ، وأكثر استعماله فى الوعيد والتهديد ، كما فى هذا البيت . وكما فى قول الله تبارك وتعالى : « كلا ، سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ». الآية رقم ٣ والآية رقم ٤ من سورة التكاثر . والباغى : الظالم ، والمعتدى . والورى : الخلق ، والناس . و « فى الورى » ، متعلق بـ « باغ » . والباغى فى الورى : الظالم للناس ، والمعتدى عليهم . والخزى : الذل ، والهوان ، والشر ، والبلاء ، والفضيحة ، والعار . والبهل : اللعن : مصدر بهله الله (من باب منع) : أى لعنه ، وطرده من رحمته ، وأبعده عن الخير . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة : أن الباغى مغرور بالدنيا ، غافل عن الآخرة .

يتوعد الباغى الظالم للناس ، المعتدى عليهم بشر العواقب ، وأفظع العقوبات ؛ فهو ملعون منبوذ ، مبعد عن الخير ، مطرود من رحمة الله ؛ مستأهل غضب الله . وسوف يلقى الخزى والذل ، والفضيحة والعار ، والبلاء والشقاء ، والشر والهوان ؛ ولا ريب أن البغاة الظالمين من الذين غرتهم الحياة الدنيا ، وغرهم بالله الغرور .

(٨) غرور (بضم الغين) : خداع ، وباطل : مصدر غره : أى خدعه ، وختله ، وغرر به ، وأطمعه بالباطل . أو هى « غرور » (بوزن صبور) : أى غرارة ، خداعه . ولم تدع : لم تترك . والكهل : من وخطه الشيب ، وكانت سنه بين الثلاثين والخمسين ، وجمعه كهول . ومعنى الشطر الثانى : أن الدنيا غرت الأطفال والشبان والكهول : أى الإنسان فى جميع أطوار حياته ، والناس كلهم إلا من أدركته عصمة الله ورحمته . أو المعنى : أنها أتت عليهم جميعاً ، ولم تدع أحداً يهنأ بها ، ويتملاها .

يقول : ليست الدنيا إلا خدعاً وأباطيل ؛ وهى بزخرفها وبهرجها تفتن أكثر الناس ، وتغرهم أطفالاً ،

كَمْ حَكِيمٍ ضَلَّ فِيهَا فَاكْتَسَى بِالْعِلْمِ جَهْلَا (٩)

وشباناً وكهولاً ، وشيوخاً. قال تعالى فى القرآن الحكيم : « يأيها الناس: اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ؛ إن وعد الله حق ؛ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور» . الآية رقم ٣٣ من سورة لقمان .

(٩) «كم» : اسم ثنائى ، مبنى على السكون ؛ وهى هنا خبرية ، تفيد التكثير . والحكيم: العالم الفيلسوف ، وذو الحكمة : وهى العلم الشامل ، والمعرفة الواسعة ، والتفكير العميق السديد ، وإحكام الفعل والقول وإتقانهما . وضل فيها : ضل فى الدنيا . واكتسى : لبس الكسوة : أى الثياب . والمراد « استبدل » . وبالعلم : بدل العلم ؛ فالباء هنا : للبدل : أى المقابلة ، والتعويض ؛ وهى داخلة على المتروك .

والمعنى : أن كثيراً من الفلاسفة والحكماء والعلماء تعمقوا فى بحث أصل الدنيا ، وفى أمور الغيب الذى استأثر الله به ؛ وأرادوا أن يدركوا بعقولهم ما وراء هذا العالم من خفايا ، وأسرار ، وغايات ، غير مهتدين بشريعة الله ، ولا منصتين لكتاب الله ، فتفرقت بهم السبل ، وتقطعت بهم الأسباب ، وانتهى أمرهم إلى الحيرة والضلال ، وأصبح علمهم المزعوم جهلاً وغواية .

قافية الميم

وَقَالَ فِى صِبَاهُ :

بِقُوَّةِ الْعِلْمِ تَقْوَى شَوْكَةُ الْأُمَمِ ... فَالْحُكْمُ فِى الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ (١)

كَمْ بَيْنَ مَا تَلْفِظُ الْأَسْيَافُ مِنْ عَلَقٍ ... وَبَيْنَ مَا تَنْفُثُ الْأَقْلَامُ مِنْ حِكَمِ (٢)

(١) يراد بقوة العلم : اتساعه ، وانتشاره ، وشموله ، وإثماره . والشوكة : القوة ، والبأس . والحكم : القضاء ، والفصل فى الخاصمات والمنازعات . والحكم : الولاية ، والإدارة ، والملك ، والسلطان . والقلم : أداة الكتابة . والكتب : أوعية العلم والحكمة والثقافة والعرفان . وبالقلم دوّنت كتب الله المنزلة التى رسمت للناس سبل الهدى والرشاد ، وسعادة الدين والدنيا والآخرة . ومن سور القرآن الكريم سورة القلم . وأولها : « ن ، والقلم وما يسطرون » . أقسم الله تبارك وتعالى بالقلم ، وما يكتب به ، تعظيماً لشأنه ، وتنبيهاً على فضله . وفى سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم » . علّم بالقلم : أى علم الإنسان الكتابة بالقلم . وهذا أول ما نزل من القرآن الكريم فى رأى بعض العلماء .

والمعنى : أن الأمم يشتدّ بأسها ، ويعظم سلطانها إذا انتشر فيها العلم ، وأثمر . والشطر الثانى تذييل مؤكد لمعنى الشطر الأول : فالحكم ينتسب إلى القلم ، أى إلى الكتابة والعلم ، ويتصل بهما ، ويستند إليهما ، ويعتمد عليهما . وبهما يقوى الملك ، وتنتظم الحكومات والإدارات ، وتصلح المعايش ، وتستقيم أمور الدين والدنيا .

(٢) «كم» هنا : خبرية : بمعنى كثير : يشير بها الشاعر إلى كثرة الفوارق بين السيف والقلم . ولفظ الشىء من فمه ، ولفظ به (من بابى ضرب وسمع) : رمى به ، وطرحه، وألقاه . و «من» : بيانية . و «علق» : بيان لما تلفظه الأسياف . والعلق : الدم الغليظ ، أو الجامد . ويراد به هنا : الدم مطلقاً . ويلاحظ أن الشاعر كرر كلمة «بين» فى هذا البيت مرتين قبل «ما» . والذى نعرفه فى الكثير من استعمالاتها أنها تفرد إذا جاءت قبل اسمين مظهرين . وتكرر إذا جاءت قبل ضميرين، أو قبل اسم ظاهر وضمير . فيقال : كم بين العلق الذى تلفظه الأسياف والحكم التى تنفثها الأقلام . ونفث الشىء من فيه (من بابى ضرب ونصر) : رمى به . ونفث الأقلام : تعبير مجازىّ يراد به الكتابة . نفث القلم : كتب . ونفث الحكمة : سطّرها ، وكتبها بالحبر الذى ينفثه . و «من» : بيانية . و «حكم» : بيان «لما تنفثه الأقلام : جمع حكمة : وهى الفلسفة . أو القول الوجيز الرائع الذى يتضمن حكماً صحيحاً مسلّماً . أو الكلام الذى يوافق الحق ، ويقلّ لفظه ، ويجلّ معناه . أو إصابة الحق بالعلم والعقل . أو معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات . أو صواب الأمر ، وسداده . أو ما يطابق الحلم والعدل من الأقوال=

لَوْ أَنْصَفَ النَّاسُ كَانَ الْفَضْلُ بَيْنَهُمُ بِقَطْرَةٍ مِنْ مِدَادٍ، لَا بِسَفْكِ دَمِ (٣)
فَاعْكُفْ عَلَى الْعِلْمِ تَبْلُغْ شَأْوَ مَنْزِلَةٍ فِي الْفَضْلِ مَحْفُوفَةٍ بِالْعِزِّ وَالْكَرَمِ (٤)

= والأعمال . أو ما يكون من الكلام ثمرة التفكير السديد العميق الشامل الواسع ، والتجربة المحكمة الصادقة المطّردة .

يقول : شتان ما بين السيوف والأقلام ؛ فالسيوف تسيل الدماء ، وتمزّق الأشلاء ، وتحطّم الأشباح ، وتزهق الأرواح . وبالأقلام تسطّر الحكمة والموعظة الحسنة وفصل الخطاب . وبها تصحّ الأفهام ، وتتسع العقول ، وتزداد المعرفة ، وتستقيم الأخلاق ، وتصلح المعايش ، ويحيا الناس حياة طيبة كريمة .

نوّه فى هذا البيت والبيت السابق بفضل العلم والقلم . وعظّم شأن الحكمة ، وجعلها من ثمار الأقلام .

(٣) يشير بقطرة المداد : أى الحبر إلى ما ينفثه القلم من الحكم البالغة ، وأخبار الماضين ، والعلوم النافعة فى الدنيا والآخرة . وسفك الدم : سفحه ، وإراقته ، وتفجيره ، وصبّه ، وإسالته .

والمعنى : لو آثر الناس العدل والإنصاف ، واستقام تفكيرهم وسلوكهم لتفاضلوا بالعلم والحكمة والمعرفة النافعة ، وتنافسوا فى المكرُمات ، وخدمة الأمن والسلام العامّ ، لا فى البطش والفتك . وإراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح ، والتدمير والتخريب ، والبغى والعدوان .

وبعبارة أخرى لو عدل الناس ، لاعتبروا حيازة الفضل بينهم بالعلم والحكمة والمعرفة النافعة ، لا بإراقة الدماء والبغى والعدوان ؛ فالفاضل منهم هو العالم المسالم ، الفقيه الحكيم ، لا المحارب السفّاح المتعطّش إلى سفك الدماء ، وإزهاق الأرواح .

وهذا البيت وثيق الصلة بالبيتين اللذين قبله ؛ فالأبيات الثلاثة فى التنويه بالقلم ، ورفع شأنه ، وتعظيم قدره ، وبيان أثره ، وتفضيله على السيف ، وإظهار ما بينهما من فوارق هائلة ، ومسافات بعيدة ، وتباين واختلاف .

(٤) عكف على الشىء (من بابى قعد ، وضرب) : أى أقبل عليه مواظباً ، ولازمه ، ولم ينصرف عنه . والشأو : الأمد ، والغاية ، ومنتهى الشىء ، ومداه . والمنزلة : المكانة ، والمرتبة . وجمعها منازل . والفضل (فى الأصل) : الزيادة . وأكثر ما يستعمل فى الزيادات المحمودة ، كفضل العلم والمعرفة ، والحلم والوقار ، والبرّ والخير ، والمروءة والإحسان . وفضل المسكنة ، والجاه ، وقوة النفس والخلق ، وقوة العقل والإدراك . وقد يأتى مرادفاً للفضيلة : فالفضل والفضيلة : ضد النقص والرذيلة . والفضل : كل عطية ، أو هبة ، أو معونة يتبرّع بها المرء من غير إلزام ، وبلا سؤال ، أو قبل السؤال . يقال : تفضّل فلان بما لا يجب عليه ، لا يريد عوضاً ، أو جزاء ، أو شكوراً . ومحفوفة : صفة لمنزلة . ومحفوفة بالعزّ : يحدق بها العزّ : أى يحيط بها من كل وجه ، ويدور حولها ، ويطيف بها . والعزّ : مصدر عزّ ، فهو عزيز : أى قوى ، وبرئ من الذل . وعزّ علينا فلان : أى كرم علينا ، وعظم قدره فينا . ومثله العزّة . وضده الذل ، والضعف ، والمهانة . والكرم (بمعناه العامّ) : جماع الفضائل ، والمحامد ، والمكرُمات . =

فَلَيْسَ يَجْنِى ثِمَارَ الْفَوْزِ يَانِعَةً ... مِنْ جَنَّةِ الْعِلْمِ إِلَّا صَادِقُ الْهِمَمِ (٥)

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِى الْمَسَاعِى مَا يَبِينُ بِهِ ... سَبْقُ الرِّجَالِ تَسَاوَى النَّاسُ فِى الْقِيَمِ (٦)

= يقول : إذا اعتكفتَ على العلم ، واحتفلتَ به ، وحصّلْته ، بلغتَ به أعلى مراتب الفضل ، وأبعد غاياته ، وكنت جديراً بالإعزاز والتكريم .

(٥) يانعة : حال من « ثمار » . وهى اسم فاعل من ينع الثمر : أى أدرك ، ونضج ، وطاب ، وحان قطافه . وجنة العلم : العلم الشبيه بالجنة ؛ فهو من إضافة المشبّه به إلى المشبّه . والجنة : البستان . والفردوس . والحديقة ذات النخيل والأشجار . سميتْ جنة ؛ لأنها تجنّ الأرض : أى تسترها بظلالها . والهمم : جمع الهمّة : وهى العزم القوىّ ، والإرادة القاطعة .

ما زال الشاعر ينوّه بالعلم ، ويرغّب فيه ، ويحضّ على طلبه ، والاجتهاد فى تحصيله وتوسيعه . وهو هنا يشبّهه بالبستان الناضر ، والحديقة ذات النخيل والأشجار . ويقول بأسلوب القصر ، أى التخصيص : إنما يفوز بأثماره اليانعة الناضجة ، ويجنى جناه الحلو الشهىّ مَنْ صدقتْ عزيمته ، وسمتْ همته ، وقويتْ إرادته ، وثابر عليه ، واقتحم العقبات التى قد تعترض له ، وصابر وصبر على متاعب الدراسة والبحث ، والتقصّى والتحصيل .

(٦) المساعى : جمع المسعاة : وهى المَكْرُمة . أو السعى فى تحصيل المجد ، وأعمال الكرم . وفلان من أهل المساعى . وله مسعاة جميلة ، أو حميدة : إذا كان سعيه فى الكرم والجود ، والأعمال الفاضلة الكريمة المحمودة . ويبين : يظهر ، ويتّضح . وقيمة الشىء : قدره . وجمعها قيم (بوزن همّة وهمَم) .

والمعنى : أن خيار الناس يتساعون إلى الخيرات ، ويتسابقون فى المكرمات ، ويتنافسون فى ميادين المجد والعلاء والبطولة والشرف ؛ فتتفاوت درجاتهم بتفاوت هممهم وكفاياتهم ، وتختلف أقدارهم باختلاف مساعيهم ومقدراتهم ؛ ولولا هذا لتساووا فى القيم ، أو المنازل ، أو المراتب ، أو الأقدار ؛ فلم يكن فيهم سابق ومسبوق ، ولا فاضل ومفضول .

أو المعنى : أن الناس يتساعون فى الحياة ، ويتنافسون ويتسابقون ؛ فلا تظهر أقدارهم إلا بمساعيهم الجميلة الحميدة ، وأعمالهم المجيدة الكريمة . ولولاها لتساوى العامل والخامل ، والكريم واللئيم ، والخيّر والشرير ، والنافع والضار . وبعبارة أخرى أن مساعى الناس ، وتصرفاتهم ، وأعمالهم فى الحياة تظهر فضل الفاضل ، واجتهاد المجتهد ، وبطولة البطل ، وعبقرية العبقرىّ ، وتميز السابق من المسبوق ، والفائق من اللاحق . ولولاها لتساوى النابه والخامل ، والعامل والعاطل . وفى قريب من هذا المعنى يقول الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجـود يفقر ، والإقدام قتّال

وصلة هذا البيت بما سبقه من الأبيات : أن طلب العلم ، والسعى إليه ، والاجتهاد فى تحصيله وتوسيعه ، والصبر على الدرس والبحث ، والاستقراء والاستقصاء — من الخيرات التى يتساعى إليها الأخيار ، ومن وسائل المجد والشرف ، والعلاء والرفعة التى يتنافس فيها ذوو الهمم والعزائم . ولا ريب أن العلماء والفقهاء =

وَلِلْفَتَى مُهْلَةٌ فِى الدَّهْرِ. إِنْ ذَهَبَتْ أَوْقَاتُهَا عَبَثاً، لَمْ يَخْلُ مِنْ نَدَمِ (٧)
لَوْلَا مُدَاوَلَةُ الْأَفْكَارِ مَا ظَهَرَتْ خَزَائِنُ الْأَرْضِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْعَلَمِ (٨)
كَمْ أُمَّةٍ دَرَسَتْ أَشْبَاحُهَا، وَسَرَتْ أَرْوَاحُهَا بَيْنَنَا فِى عَالَمِ الْكَلِمِ (٩)

= والحكماء والمثقّفين يتفاوتون فى مراتب العلم والفقه ، ويتمايزون فى درجات الحكمة والمعرفة .

(٧) الفتى : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . وهذا المعنى هو المراد هنا . والمهلة (بضم فسكون) : التؤدة ، والرفق : اسم من أمهلته إمهالاً . ومهّلته تمهيلاً : أى أنظرته ، وأجّلته ، ولم أعاجله . ويراد بالمهلة هنا : زمن الفتاء والشباب ، وصحة الجسم ، وقوة الإدراك ؛ وهو زمن السعى، والنشاط ، والعمل ، والإنتاج . وفى الدهر : أى فى دهر الفتى : أى فى عمره وزمن حياته . والعبث : اللعب واللهو ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال . وذهبت الأوقات عبثا : ضاعت فى غير فائدة . وفاعل « يخلو » : ضمير « الفتى » . ولم يخل : المراد لم يسلم .

والمعنى : أن زمن الشباب هو الفرصة التى تتاح للمرء ، ثم لا تعود أبداً . وفيها يتمكّن من بناء المجد ، وتحصيل المعارف ، وكسب المكرمات ، والنهوض بالمساعى الحميدة ، والعمل لدنياه وآخرته ؛ فإذا قضى زمن شبابه لاهياً عابثاً ، ندم فى شيخوخته ، وتحسّر ، وأسف حيث لا ينفعه ندمه بعد فوات الفرصة .

(٨) مداولة الأفكار : إدارتها بين المفكرين ، وتبادلها ، وتقليبها . والأفكار : جمع فكر : وهو إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . أو هو تردّد الخاطر بالنظر والتأمّل والتدبّر لطلب المعانى . أو هو ما يخطر بالقلب من المعانى . ولى فى هذا الأمر فكر : أى نظر، وروية وتدبير ؛ وهو اسم من تفكّرت فى الأمر : أى تأملته وتدبرته . ويراد بخزائن الأرض : كنوزها ، وذخائرها وخيراتها الخفية ، ومنافعها المستورة . واحدتها خزانة (بكسر الخاء) : وهى (فى الأصل) : المكان ، أو الوعاء الذى يخزن فيه المال : أى يدّخر ، ويصان ، ويحفظ . والسهل من الأرض : ما كان ممتداً ، منبسطاً ، مستوى السطح . وهو خلاف الحزن (بفتح فسكون) . والعلم (بفتح العين واللام) : الجبل .

والمعنى : أن مداولة الأفكار بين المفكرين والباحثين والعلماء تنتج العلوم والمعارف . وبها يكشف الإنسان ما خفى واستتر فى سهول الأرض وحزونها ، وأوديتها وجبالها من كنوز وذخائر ، ومنافع وخيرات ؛ ولولا الاجتهاد فى البحث والدرس ، ومداولة الأفكار ، والتقصّى فى المعرفة ، والتعمق فى العلم — لظلت خزائن الأرض مقفلة ، وكنوزها مدفونة ، لا ينتفع الناس بشىء منها .

(٩) « كم » : خبرية : بمعنى كثير : يشير بها الشاعر هنا إلى كثرة الأمم التى درست أشباحها .. ودرست : فنيت ، وزالت . من قولهم : درس المنزل ونحوه (من باب قعد) : أى عفا ، وامحى ، وخفيت آثاره . والأشباح : جمع شبح (بفتحتين ، أو بفتح فسكون) : وهو ما بدا لك شخصه غير جلىّ من بعيد . وشبح الشىء : ظله وخياله . ويراد بالأشباح هنا : أشخاص الناس وأجسادهم بعد الموت . يقال: =

فَانْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ الْمَاثِلَيْنِ تَجِدْ ... غَرَائِباً لَا تَرَاهَا النَّفْسُ فِى الْحُلُمِ (١٠)

= هم أشباح بلا أرواح . وسرت : سارت : من السرى (بوزن الهدى) : وهو السير ليلاً . ويراد به هنا : الحركة والحياة . والعالم : الخلق . والكلم : الكلام . واحدته كلمة . ويراد بعالم الكلم : ما نقرؤه ، وندرسه ، ونسمعه ، ونرويه ، ونتداوله من أخبار الأمم الخالية وسيرها ، وعلومها ، وفنونها ، وآدابها ، وكتب القصص والتاريخ .

والمعنى : أن كثيراً من الأمم وأجيال الناس وجماعاتهم قد طواهم الموت ، وأكلت الأرض أجسادهم ، ولكن ذكرياتهم ما زالت حية خالدة بيننا بما نرويه من سيرهم ونتحدث به من أخبارهم ، ونقرؤه وندرسه من تاريخهم وعلومهم ، وفنونهم وآدابهم ، وبما نراه بين أعيننا من آثارهم الباهرة العظيمة الخالدة .

وبهذا البيت مهد الشاعر لذكر الهرمين وأبى الهول ، والتنويه بالعظماء الخالدين من قدماء المصريين فى عشرة الأبيات الآتية . ويلاحظ أن هذه القصيدة كلها فى تعظيم شأن العلم ، والحض على طلبه وتحصيله والاجتهاد فيه . وتمجيد العلماء والحكماء والأدباء الذين نفعوا الناس بمعارفهم ، وعمروا بها الأرض ، وذللوا صعابها ، ورفعوا بنيان الحضارة . وقد ختمها الشاعر منوها بالفضيلة ، داعياً إليها ، حاضاً عليها ، مرغباً فيها .

(١٠) الهرم : بناء ضخم ، من الحجارة الضخمة الصلدة . قاعدته — فى الغالب — مربعة . وله أربعة جدران كل منها على شكل مثلث ، رأسه إلى أعلى . وترتفع هذه الجدران مائلة ، حتى تلتقى رءوسها الأربعة ، فتكون رأسا واحداً ، هو قمة الهرم . وبعبارة أخرى : الهرم : جسم ضخم تحده مثلثات ، لها رأس عال مشترك ، ومضلع راس على الأرض ، هو قواعد هذه المثلثات ؛ فالرأس المشترك : قمة الهرم. والمثلثات : وجوهه الجانبية . والمضلع : قاعدته . وجمع الهرم : أهرام . وهى طراز من الأبنية المخصصة ليدفن فيها الموتى من فراعنة مصر ، وملكاتها ، وعظماء رجالها ونسائها . وقد كثر هذا الطراز فى أيام الدولتين المصريتين القديمة والوسطى . وظل معروفاً بمصر من سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى منتصف القرن الرابع لميلاد المسيح عيسى عليه السلام . ويظن أن الأهرام تسمية عربية ، أشير بها إلى إغراقها فى القدم . من هرم الرجل (من باب فرح) : أى بلغ أقصى الكبر .

وأعظم الأهرام وأشهرها : الهرمان القائمان على مقربة من مدينة الجيزة فى جنوبيها الغربى . ويعدان من عجائب الدنيا . شيد أكبرهما « خوفو » وشيد الثانى ابنه « خفرع » : وهما من ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٢٦٨٠ — ٢٥٦٠ ق‌م) وكان عصر هذه الأسرة من أزهى عصور الدولة المصرية القديمة . وكان ملوك مصر الأقدمون وعظماؤها فيما بين سنتى ٢٩٨٠ و ٢٤٧٥ ق‌م يبنون الأهرام ؛ لتكون مقابر لهم ، يدفنون فيها بعد موتهم ؛ ولهذا يسمى المؤرخون ذلك العصر « عصر بناة الأهرام » . والماثلان : القائمان الشاخصان المنتصبان : مثنى الماثل . و « غرائب » ممنوع من الصرف : أى التنوين . وإنما نون هنا لضرورة وزن الشعر . والحلم (بضمتين ، أو بضم فسكون) : رؤيا النائم ؛ ولا ريب أنها مجال فسيح لما ينسجه الخيال والعقل الباطن من عجائب وغرائب .

يقول : إن الهرمين العظيمين القائمين على الهضبة الغربية تجاه الجيزة مما يدهش الألباب ، ويثير العجب العجاب ؛ وإنهما أغرب من غرائب حلم الحالم ، ورؤيا النائم .

صَرْحَانِ .مَادَارَتِ الْأَفْلَاكُ مُنْذُ جَرَتْ ـ عَلَى نَظِيرِهِمَا فِى الشَّكْلِ وَالْعِظَمِ (١١)
تَضَمَّنَا حِكَماً بَادَتْ مَصَـــادِرُهَا لَكِنَّهَا بَقِيَتْ نَقْشاً عَلَى رَضَمِ (١٢)
قَوْمٌ طَوَتْهُمْ يَدُ الْأَيَّامِ ،فَانْقَرَضُوا وَذِكْرُهُمْ لَمْ يَزَلْ حَيّاً عَلَى الْقِدَمِ (١٣)

---

(١١) « صرحان » . خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هما (أى الهرمان) صرحان : مثنى صرح : وهو البناء العالى ، الذاهب فى السماء . أو البيت يبنى متفرداً ، ضخماً ، طويلاً : أى عالياً ، مرتفعاً ، ذاهباً فى السماء . والأفلاك : جمع فلك (بفتحتين) : وهو الفضاء فى السماء ، يدور فيه النجم أو الكوكب . ويراد بالأفلاك هنا : النجوم ؛ فالعرب قد تطلق المحلّ ، وتريد الحالّ به . وجرت : دارت ، وتحركت . وعلى نظيرهما : أى على نظير الهرمين . ونظير الشىء : مثله ، ومُساويه . وعلى نظيرهما : متعلق بالفعل « دار » . والشكل : الهيئة والصورة .

والمعنى : أن الدنيا لم تعرف لهذين الهرمين العظيمين مثيلاً ، أو شبيهاً ، أو نظيراً فى الهيئة والصورة ، والعظامة والضخامة .

(١٢) تضمنا : اشتملا ، وحرزا ، واحتويا . وألف الاثنين : ضمير الهرمين المشبّهين بالصرحين فى البيت السابق . والحكم : جمع حكمة : وهى العلم ، والتفقّه ، والفلسفة ، والعدل . ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . وصواب الأمر ، وسداده . والكلام الذى يوافق الحق، ويقلّ لفظه ، ويجلّ معناه. وعلم الحكمة : الكيمياء ، والطب . ويراد بالحكم هنا : كل ما سجّله بناة الأهرام من علومهم ومعارفهم وتجاربهم وأخبارهم وفنونهم وآدابهم . وبادت : هلكتْ ، وفنيتْ . ومصادرها : مصادر الحكم . والمراد أولئك الحكماء والعلماء والفلاسفة الذين ضمّنوا الأهرام حكمهم وعلومهم وسيرهم وأخبارهم ، فخلّدوها لمن يأتى بعدهم – بخلود الأهرام ، وبقائها على مدى الدهر . والمصادر (فى الأصل) : جمع مصدر : اسم زمان ، أو اسم مكان ، أو مصدر ميمىّ من صدر الشىء عن غيره : أى نشأ . وصدر عن المكان ، وعن الماء : أى رجع عنه . وصدر إلى المكان : أى صار إليه ، أو انتهى إليه . و « لكنها » : لكن الحكم . والنقش : الأثر . أو هى فَعْل بمعنى مفعول : أى بقيتْ منقوشة : أى مكتوبة بالحفر. والرضم : الصخور العظيمة ، يُرْضَم (أى يوضع ، أو يُضمّ) بعضها فوق بعض فى الأبنية . واحدتها رضمة (بوزن قصبة وقصب) .

أشار الشاعر فى هذا البيت إلى ما خلّده بناة الأهرام فى داخلها من صور ورسوم ونقوش وكتابات محفورة فى الصخور ، تحكى عنهم سيرهم ، وأخبارهم ، وعلومهم ، وحكمهم ، وفنونهم . ويقول : إن هذا كله باق دائم ما بقى الزمان . أما أصحابه فقد طواهم الردى ، وأبادهم الدهر منذ آلاف السنين . والبيت الآتى يعزز هذا المعنى ويؤكّده .

(١٣) « قوم » : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هم قوم . أو هؤلاء قوم . والإشارة إلى قدماء المصريين ،وبناة الأهرام . وطوتهم يد الأيام : أبادهم الدهر ، وأفناهم ؛ وهو تعبير مجازىّ، كقولهم : =

فَكَمْ بِهَا صُوَرٌ كَادَتْ تُخَاطِبُنَا   جَهْرًا بِغَيْرِ لِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمِ (١٤)

تَتْلُو لِـ «هِرْمِسَ» آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى   فَضْلٍ عَمِيمٍ، وَمَجْدٍ بَاذِخِ الْقَدَمِ (١٥)

= « طوى الله عمره » . وقولهم: « طوى فلان وهو منشور » : إذا بقى له بعد موته ذكر حسن ، أو أثر جميل ، أو عمل خالد . والأصل : طوى الثوب ونحوه (من باب رمى) : أى ضم بعضه إلى بعض . أولف بعضه فوق بعض . وانقرضوا : هلكوا ، وبادوا ، ولم يبق منهم أحد . والذكر : الصيت ، والشرف ، والثناء ، والعلاء . ويراد بحياة الذكر : خلوده ، وبقاؤه فى قوة وشهرة . و « على القدم » : مع القدم ، أو على الرغم من القدم ، وطول الأمد ، وتوالى الأيام والسنين .

والمعنى : أن قدماء المصريين ، وبخاصّة بناة الأهرام ، قد هلكوا ، وبادوا ، ولم يبق منهم أحد ؛ ولكنهم خلّدوا لأنفسهم — بآثارهم الخالدة — الصيت والشرف والعلاء وحسن الثناء ؛ وسيبقى لهم هذا كله حياً قوياً لامعاً مشرقاً ما بقى الجديدان ؛ على الرغم من طول الأمد ، وتقادم الزمان ، وتتابع الليالى والأيام .

(١٤) « كم » : خبرية : بمعنى كثير ؛ تشير إلى كثرة الصور التى نوّه بها الشاعر فى هذا البيت . وصور : تمييزها ، وهو مجرور . وبها : أى بالرضم والصخور التى حفرت عليها النقوش والرسوم والصور . ويلاحظ أن الجار والمجرور « بها » فصل بين « كم » الخبرية وتمييزها المجرور ؛ وهذا جائز . وكاد يفعل كذا : همّ ، وقارب ، ولم يفعل : وهو فعل ماض ناقص ، يدل على قرب الخبر ، واسمه ضمير « الصور » . وخبره جملة « تخاطبنا » .

يشير إلى كثرة ما يرى فى داخل الهرمين على الرضم والصخور والجدران من صور غاية فى الإتقان والوضوح ، تدل على مهارة راسميها ، وتنطق بنبوغهم ، وتشهد بفضل أصحابها ، وتحدثك بما كان لهم من عزّ ومجد ، وبأس وسلطان .

(١٥) « تتلو » : تقرأ . والمراد : تدل دلالة واضحة ، وتظهر أتمّ إظهار . وفاعله : ضمير « صور » فى البيت السابق . ويجوز أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً تقديره « أنت » .

و « هرمس » (بالسين أو الزاى) : الاسم اليونانى للمعبود المصرى القديم « توت » تصحيف « تحوتى » وكان — فيما يزعمون — رسول السماء إلى الأرض ، يحمل إلى الناس العلم ، والحكمة ، والمعرفة ؛ ولعل الشاعر يشير به إلى بناة الأهرام ، وعلماء مصر الأقدمين وحكمائها وفنانيها الذين نبغوا فى الهندسة ، والعمارة ، والرسم ، والنقش ، والنحت والتصوير والتحنيط ، وكثير من العلوم ، والفنون ، والآداب ؛ كأنه أطلق هذا المعبود ، وأراد عابديه الذين حملوا عنه العلم ، والفن ، والحكمة ، والعرفان .

وفى تعريف آخر لـ « هرمس » ، (أو لعله تفصيل للتعريف السابق) : أنه — فيما يزعم الرواة الأقدمون — أول من بنى الهياكل ، وتكلم فى الأشياء العلوية ، ونظر فى الطب والحكمة . عاش قبل الطوفان وسكن صعيد مصر ؛ ولما خاف على العلم أن يضيع بنى البرابى ، وصوّر فيها ما عُرف لعهده من الصناعات ، وآلاتها ، وصناعها ، وأشار بالرسوم إلى مسائل العلوم ، حرصاً منه على تخليدها للناس من بعده .

وآيات : علامات ، وأمارات ، ودلائل ، الواحدة آية . والآية من القرآن الكريم : جملة ، أو جمل =

آيَاتُ فَخْرٍ . تَجَلَّى نُورُهَا ؛ فَغَدَتْ مَذْكُورَةً بِلِسَانِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ (١٦)

وَلَاحَ بَيْنَهُمَا « بَلْهِيبُ » مُتَّجِهاً لِلشَّرْقِ ، يَلْحَظُ مَجْرَى النِّيلِ مِنْ أَمَمِ (١٧)

= أثرَ الوقوفُ فى نهايتها . أو كلام منه منفصل بفصل لفظىّ : فسورة الإخلاص مثلاً آياتها أربع : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ، ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » . ويراد بالآيات هنا : ما تشير إليه الصور والرسوم والنقوش والكتابات من فن الأقدمين ، وأخبارهم ، وعلومهم ، وخبراتهم ، ومعارفهم. والفضل (فى الأصل) : الزيادة . وكثر استعماله فى الزيادة المحمودة كفضل العلم ، والعقل . ويمكن الإشارة به هنا إلى العبقرية والنبوغ ، والتفوّق ، والإحكام والإتقان ، والمهارات الفنية العالية الفائقة ، وقوة المدارك . وغزارة المعارف . وعميم : عامّ ، شامل ؛ أو كثير مجتمع ؛ أو تامّ وافر . والمجد . العزّ ، والشرف ، والنبل ، والرفعة ، والمكارم المأثورة عن الآباء . وباذخ : عال ، مرتفع ، عظيم الشأن . ومجد باذخ القَدَم : مجد عظيم مرتفع شامخ ؛ وهو تعبير مجازىّ ، كقولهم : فلان عالى الكعب : للرجل الشريف الماجد العظيم . وأعلى الله كعبه : أى شرّفه ، ورفع قدره .

والمعنى : أن الأهرام ، وما فيها من نقوش وصور تدل أوضح دلالة على ما كان لأصحابها من فضل تامّ شامل ، وشرف رفيع باذخ ، ولا غرو ؛ فإنها آثار خالدة تشهد لملوك ذلك الزمان بشدة البأس ، وعظم السلطان ، ولحكوماتهم بالمقدرة المالية ، وحسن السياسة والإدارة ، ولهندسة العمارة ، وفنون النقش والرسم ، والنحت والتصوير بالتقدم والارتقاء ، وللشعب بالمدنية ، والحضارة ، والرفاهة ، والرخاء ، وكثرة علمائه وخبرائه ، وفنّانيه ، ومهارة عماله وصناعه ومهندسيه .

(١٦) « آيات » بالجرّ : بدل من « آيات » فى البيت السابق . أو هى بالرفع : خبر لمبتدإ محذوف ، والتقدير : هى آيات فخر ، أو آياتهم آيات فخر . وتجلّى : ظهر ، وبان ، واتضح ، وسطع . وغدتْ : صارتْ . والعُرْبُ : العَرَب . والعَجَم : خلاف العَرَب ، الواحد عجمى .

والمعنى : أن الأهرام من مفاخر أصحابها ، وأمجاد بُناتها . وقد ظهرتْ ، ولمعتْ ، واشتهرتْ فى بطون التاريخ ، وفى كل زمان ومكان ، ولهجتْ بتمجيدها والإعجاب بها جميع الأمم والشعوب فى مشارق الأرض ومغاربها ، بكل الألسنة واللغات ، والجنسيات واللهجات .

(١٧) لاح : بدا ، وظهر ، وبرز ، واتضح . وبينهما : بين الهرمين . و « بلهيب » : أبو الهول . ويسميه الإغريق « سفنكس » . وفى أيام الأسرة الثامنة عشرة اشتدّ إقبال الناس عليه ، وقدّسه الكنعانيون الوافدون على مصر فى عهد دولة الفراعنة الحديثة ، وأقاموا فى جواره ، وسمّوا المكان كله من حول هذا الصنم « بوحول » . ثم صحّف ، فصار : « أبو الهول » : وهو تمثال عظيم ضخم هائل ، له رأس إنسان ، وجسم أسد : رمزاً للعقل والقوة معاً . وقد نحت من صخرة واحدة ضخمة من الحجر الجيرى . طوله : ثلاثة وسبعون متراً ونصف متر ، وارتفاعه عشرون متراً . ويظن أنه أنشئ فى عهد الملك « خفرع » من ملوك الأسرة الرابعة فى الدولة المصرية القديمة ، قبل ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بنحو ألفين وثمانمائة عام . ويعدّ « أبو الهول » عجيبة من أروع العجائب التى خلدها الإنسان الفانى . وهو يرمز إلى هيبة فرعون =

كَأَنَّهُ رَابِضٌ لِلْوَثْبِ، مُنْتَظِرٌ   فَرِيسَةً؛ فَهْوَ يَرْعَاهَا، وَلَمْ يَنَمِ (١٨)

= وجلاله؛ فهيبته فى بدن الأسد، وجلاله فى سلطان العقل، يشير إليه ذلك الرأس الآدمى الوقور. وقد اجتمعتْ فى ذلك الأثر البديع الفريد الخالد روائع القدّم، والضخامة، والإتقان، والخلود، وجمال الفن. ويلحظ: ينظر، ويرى، ويراقب. لحظه، ولحظ إليه (من باب قطع): نظر إليه بمؤخر عينه من أحد جانبيه. ومجرى النيل: جريانه. أو مكان جريانه. ومن أَمَم: من كَثَب: أى من قرب.

يقول: وترى بين الهرمين الكبيرين أبا الهول ظاهراً بارزاً، يقبل بوجهه على مشرق الشمس، وينظر من كثب إلى نهر النيل العظيم.

ولأمير الشعراء «أحمد شوقى» قصيدة طويلة رائية رائعة، عنوانها «أبو الهول»، وعدّتها سبعة وسبعون بيتا. منها:

أبا الهول، طال عليك العُصُرْ   وبلّغت فى الأرض أقصى العُمُرْ

فيالدة الدهر، لا الدهر شبّ   ولاأنت جاوزت حدّ الصغر

إلام ركوبك متن الرمال   لطىّ الأصيل، وجوب السحر؟

تسافر منتقلاً فى القرون   فأيان تلقى غبار السفر؟

أبينك عهد وبين الجبـال   تزولان فى الموعد المنتظر؟

ومنها:

أبا الهول، ماأنت فى المعضلات؟   لقد ضلّت السبل فيك الفكَر

تحيّرت البدو، ماذا تكون؟   وضلّتْ بوادى الظنون الحضر

فكنت لهم صورة العنفوان   وكنت مثال الحجا والبصر

وسرّك فى حجبه، كلّما   أطلّتْ عليه الظنون استتر

وماراعهم غير رأس الرجال   على هيكل من ذوات الظفر

(١٨) كأنه: كأن «بلهيب»: أى أبا الهول. ورابض: مقيم. والمراد إقامة تربّص، وتأهّب واستعداد. اسم فاعل من ربضتْ الدابة: أى طوتْ قوائمها، ولصقتْ بالأرض، وأقامت. والوثب: مصدر وثب (كوعد): أى نهض، وقام، وطفر، وقفز، وهجم. والفريسة: مايفرسه السبع من الحيوان: أى يصيده، ويقتله. وجمعها فرائس. ويرعاها: يراقبها، ويتربّص بها.

فى البيت السابق قال: وإنك لترى أبا الهول بين الهرمين الكبيرين ظاهراً بارزاً، هائلاً مهيباً، متجلّياً فى عظمته وجلاله، يُقْبل بوجهه على الشمس فى مشرقها، وينظر من كثب إلى نهر النيل العظيم نظرات فيها معنى الملاحظة والمراقبة، والمراعاة، والارتياح لجريانه بالخير والخصب فى هذا الوادى السعيد.

وفى هذا البيت عرض صورة أخرى من صور الخيال الشعرى؛ فأبو الهول مقيم فى مكانه إقامة تربّص وانتظار، وتأهّب، واستعداد للوثوب، والصيد، والافتراس؛ وهو لايفتأ يراقب فريسته، ويتربّص بها، ويتحيّن الفرصة فى يقظة تامة دائمة، وانتباه قوىّ شديد؛ لايكاد يقاربه النوم، أو تساوره الغفلة.

رمزٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُلُومَ إذَا ... عَمَّتْ بِمِصْرَ نَزَتْ مِنْ وَهْدَةِ الْعَدَمِ (١٩)

فَاسْتَيْقِظُوا يَابَنِي الأَوْطَانِ ، وَانْتَصِبُوا ... لِلْعِلْمِ ؛ فَهْوَ مَدَارُ الْعَدْلِ فِي الأُمَمِ (٢٠)

وَلَا تَظُنُّوا نَمَاءَ الْمَالِ ، وَانْتَسِبُوا ... فَالْعِلْمُ أَفْضَلُ مَا يَحْوِيهِ ذُو نَسَمِ (٢١)

(١٩) رمز : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هو (أى أبو الهول) رمز . والرمز (بفتح فسكون ، أو بضم فسكون ، أو بفتحتين) : الإيماء والإشارة . ونزت (من باب عدا) : وثبت . والمراد تخلّصت ، ونجت ، ونهضت . والوهدة : الأرض المنخفضة ، والهُوّة فى الأرض : أى الحفرة البعيدة القعر . والعدم : ضد الوجود . والعدم : الفقر . وهى فى الأصل المخطوط « القَدَم »

والمعنى : أن تمثال أبى الهول شاهد صدق ، ودليل واضح على نهضة مصر وعظمتها فى زمانه ، وازدهار العلوم والفنون والصناعات ، وشيوع الغنى والثراء والرخاء ؛ ولاريب أن مصر تنجو ، وتحيا ، وتنهض ، وتقوى ، وتستعيد مجدها القديم ، وعزّها التالد إذا عاودت الاهتمام بالعلوم ، ونشرها ، وتعميمها ، وحسن الانتفاع بها .

(٢٠) يراد بالأوطان : مصر : جمع وطن ؛ والجمع باعتبار أن كل جزء ، أو كل بلد من بلدان مصر وطن لأهله وبنيه وسكانه . وبنو الأوطان : المصريون . وقد يكون النداء للمصريين وغيرهم من بنى الأوطان المتخلفة ، وأهلها الغافلين عن العلم ، المتهاونين به ، المقصّرين فيه . وانتصبوا للعلم : تهيئوا له ، وانهضوا به . ومدار الأمر : مايجرى عليه غالباً . والعلم مدار العدل : أى العدل يدور على العلم : أى يقوم عليه ، ويستند إليه ، ويحيابه .

فى البيت السابق نوّه بنهضة العلوم والمعارف ، وازدهار الفنون والصناعات ، وانتشار الغنى واليسر فى عصر بناة الأهرام ، وصانعى أبى الهول . ثم أشار إلى تفريط الخلف فى مجد السلف ، وما أصاب العلوم والفنون من الجزر والضعف ، والإهمال والإغفال . وحضّ على معاودتها وإحيائها والنهوض بها ؛ فهى وحدها التى تنقذ مصر وأهلها من هُوّة الفقر والبؤس والتأخّر والركود ، وتردّها إلى حياة العزة والقوة ، والمجد والعظمة ، والرخاء والثراء .

وفى هذا البيت أكّد هذا التحضيض ، فدعا المصريين إلى اليقظة والانتباه ، ونهاهم عن الغفلة والخمول ، وحثّهم على الانتصاب للعلم ، والحفاوة به ، والاضطلاع بأعبائه ؛ فبالعلم يكافحون الجهل والتخلّف ، والبغى والظلم ، والعدوان والطغيان ، ويقُرّون العدل والإنصاف ، والأمن والسلام .

(٢١) لاتظنوا نماء المال : أى لاتظنوا الخير بنماء المال . أولاتستيقنوا نموّ المال ، ولاتؤمنوا بكثرته : بمعنى : لا تنصرفوا إلى تنميته ، وتقتصروا على حيازته ، وتهملوا ماعداه . أو المعنى : لاتحسبوا نماء المال وحده منهضاً لجامعه ومنميه ؛ فحذف المفعول الثانى ، اعتماداً على أنه مفهوم من سياق الكلام . وانتسب : ذكر نسبه : أى عدّ آباءه وأقرباءه من جهتى أبيه وأمه . وانتسب إلى فلان : اعتزى إليه ، واستمسك بما ادّعاه من أواصر القربى والنسب . والمعنى على الأول : اذكروا العلماء الأجلاء من آبائكم فى عصر =

فَرُبَّ ذِى ثَرْوَةٍ بِالْجَهْلِ مُحْتَقَرٍ وَرُبَّ ذِى خَلَّةٍ بِالْعِلْمِ مُحْتَرَمِ (٢٢)

شِيدُوا الْمَدَارِسَ ؛فَهِىَ الْغَرْسُ إِنْ بَسَقَتْ أَفْنَانُهُ أَثْمَرَتْ غَضًّا مِنَ النِّعَمِ (٢٣)

= بناة الأهرام، وتشبّهوا بهم، وحافظوا على تراثهم ، واجتهدوا فى إحياء مجدهم ، لتكونوا أمثالهم . والمعنى على الثانى : انتسبوا للعلم ، واجتهدوا فى طلبه وتحصيله ، ونشره وتعميمه ، وحسن الانتفاع به ، لتجددوا مجد آبائكم . ويحويه : يجمعه، ويحصّله ، ويحوزه ، ويحرزه ،. وذو النسم : الإنسان. النسمة : الإنسان أو النفس . أو تَنَفّس الروح . وجمعها نسم (بوزن قصبة ، وقصب) . والله بارئ النسم : أى خالق النفوس . والشطر الثانى : تذييل جار مجرى المثل ، وتعليل لما نُهى عنه ، ولما دعا إليه فى الشطر الأول ؛ ولاريب أن العلم خير ما يحرزه الإنسان .

نهى عن الاقتصار على تنمية المال وتكثيره . وحض على الانتساب إلى العلم ، والاجتهاد فى تحصيله ، والاقتداء فى هذا بالعلماء الأجلاء من آبائنا الأماجد الذين شيدوا الأهرام ، وخلّدوا الآثار . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويفصّله ، ويؤكّده .

(٢٢) « ربّ » فى شطرى هذا البيت تفيد التكثير . والباء فيهما للسببية : أى الجاهل محتقر بسبب جهله ولو كان ثرياً ، والعالم محترم بسبب علمه ولو كان فقيراً . والجار والمجرور فى الشطرين متعلق بما بعده . والخلة (بفتح الخاء) : الحاجة والفقر . وذو الخلة : الفقير المحتاج . وفى البيت مقابلة : وهى أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ، فذو الثروة المحتقر بالجهل يقابله ذو الخلة المحترم بالعلم . والمقابلة من المحسنات البديعية المعنوية التى توضح المعنى ، وتحسّن الكلام ، وترفع درجته فى مراتب البلاغة والبيان . والمنهج النحوىّ الواضح يقتضى رفع كلمتى « محتقر» و« محترم » ؛ فكل منهما خبر المبتدأ « ذى » ومجرور « ربّ » هنا فى موضع المبتدأ : أى هو مبتدأ فى المعنى ، وإن كان مجروراً فى الظاهر . ورفع هاتين الكلمتين يعيب البيت بالإقواء : وهو اختلاف حركة الروىّ ؛ فروىّ هذه القصيدة الميم ، وحركته فى الأبيات كلها الكسرة ، لا الضمة . والإقواء من عيوب القافية ، وتفاديا من هذا العيب تكلّفنا جرهما ، بجعل كل منهما صفة لـ « ذى» ، وتقدير خبر محذوف : أى فربّ ذى ثروة محتقر بجهله لاتنفعه ثروته : أى لاتدفع عنه احتقار الناس له ، واستخفافهم به . وربّ ذى خلّة محترم بعلمه لاتضيره خلّته : أى لاتنقص شيئاً من احترام الناس له ، وإجلالهم لشأنه .

يقول : إن الجهل يدعو إلى احتقار الجاهل ولو كان مثرياً غنياً . والعلم يدعو إلى احترام العالم ولو كان فقيراً معدماً .

(٢٣) شيدوا : أمر من شاد البناء (من باب باع) : أى رفعه ، وأعلاه . والغرس : المغروس من الشجر : فعل بمعنى مفعول . ويراد بالغرس : تلاميذ المدارس وطلابها الذين يمرون فى مراحل تعلّمهم بما يشبه أطوار مايغرس من الشجر . فإذا تخرجوا فى مختلف العلوم والفنون والآداب — أضفَوا على بلادهم مالايستطاع عدّه من النعم والخيرات ، والخدمات والمبرات . وبسقت : طالت ، وتم ارتفاعها . =

مَغْنَى عُلُومٍ ، تَرَى الْأَبْنَاءَ عَاكِفَةً عَلَى الدُّرُوسِ بِهِ ، كَالطَّيْرِ فى الْحَرَمِ (٢٤)

مِنْ كُلِّ كَهْلِ الْحِجَا فى سِنِّ عَاشِرَةٍ يَكَادُ مَنْطِقُهُ يَنْهَلُّ بِالْحِكَمِ (٢٥)

= وأفنانه : أفنان الغرس : جمع فنن (بوزن سبب وأسباب) : وهو الغصن المستقيم من الشجرة . والغضّ : الطرىّ ، الناضر ، الناعم من النبات والثمر ونحوه . وثمار المدارس ونعمها الغضة : هم خيار المتعلمين الذين تخرّجوا فى مختلف العلوم والفنون والآداب .

يحضّ على تشييد المدارس ومعاهد التعليم ، وتفتيح أبوابها ، وإحكام إدارتها ، والاهتمام بها ، ورفع شأنها ؛ ويشبّهها بما يغرس من الشجر ، لايلبث أن يتأصّل ، وينمو ، ويتفرع ، وتبسق أغصانه ، ويثمر أطيب الثمار .

(٢٤) المغنى : المنزل الذى غنى به أهله : أى أقاموا فيه . وجمعه المغانى . وهو خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هى (أى المدارس) مغنى علوم . ويراد بالأبناء : تلاميذ المدارس وطلبتها . وعاكفة : حال من الأبناء : أى تبصر الأبناء وهم عاكفون على دروسهم . . . : اسم فاعل من عكف على الشىء (من بابى قعد ، وضرب) : أى أقبل عليه مواظباً ، ولزمه ، ولم ينصرف عنه . وبه : بمغنى العلوم . والحرم : ما لايحلّ انتهاكه ، ومايحميه الرجل ، ويدافع عنه . والحرم : البيت الحرام ، أو المسجد الحرام بمكة المكرمة ، ومايتصل به ، ويحرم حرمته . والحرمان : مكة ، والمدينة . والحرم الأقصى : المسجد الأقصى ، فى بيت المقدس ، بفلسطين .

يقول : إن المدارس : مغانى العلوم ، ودور المعارف ، ومعاهد البحوث والدراسات ، والثقافات ؛ وإن تلاميذها وطلبتها يعكفون فيها على الدرس ، والبحث ، والعمل ، والتجربة ، والتحصيل فى أمن ودعة ، وطمأنينة وانشراح لايكدر صفوهم مكدر ، ولايعوقهم عن غاياتهم عائق ؛ كأنهم طير المسجد الحرام بمكة ، أو فى كل حرم من الأحرام ، تلجأ إليه ، فتلقى فيه الأمن والطمأنينة ورخاء البال .

(٢٥) « من » : بيانية . ومابعدها بيان للأبناء فى البيت السابق . والكهل : من وخطه الشيب : أى خالط بياض الشيب سواد شعره ، ورأيت له بجالة (بوزن سماحة) : أى رأيته جديراً بالتبجيل ، أهلاً للاحترام والتعظيم . وسنّ الكهولة بين الثلاثين والخمسين ؛ وفيها ينضج العقل ، ويتمّ الرشد ، ويتسع الإدراك . والحجا : العقل ، والفطنة . وتلميذ كهل الحجا : ناضج العقل ، قوىّ التفكير ، تام الفطنة ، واسع الإدراك . وفى سنّ عاشرة : مبالغة ، قصد بها تعظيم شأن التلاميذ ، والحض على طلب العلم . وكاد يفعل كذا : همّ ، وقارب ، ولم يفعل . وهو من أفعال المقاربة . والمنطق : الكلام . ومصدر نطق (من باب ضرب) : أى تكلم . وينهلّ : يجرى . مستعار من انهلال السماء بالمطر : وهو انصبابه بشدة وقوة ، مع صوت . والحكم : جمع حكمة : وهى العلم . والفلسفة . والتفقه . وصواب الأمر ، وسداده . ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . وكل كلام بليغ ، قلّ لفظه وجلّ معناه ، وازدان بالصدق ، وطابق الحق ، ودعا إلى الهدى والرشاد .

يقول : إن تلاميذ المدارس — على الرغم من حداثة أسنانهم ، وصغر أعمارهم ، وقرب عهدهم بالحياة — =

كَأَنَّها فَلَكٌ لَاحَتْ بِهِ شُهُبٌ ... تُغْنِى بِرَوْنَقِهَا عَنْ أَنْجُمِ الظُّلَمِ (٢٦)

يَجْنُونَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ زَهْرَةً عَبِقَتْ ... بِنَفْحَةٍ تَبْعَثُ الْأَرْوَاحَ فى الرِّمَمِ (٢٧)

=يمتازون برجحان العقل ، وقوة الإدراك ، وصحة التفكير ، وحسن التعبير ، وتمام الفطنة ، واتسام كلامهم بالسداد ، وجريان الحكمة على ألسنتهم . والغرض من المغالاة فى هذا الإطراء : التنويه بالعلم ، والترغيب فيه ، وتشويق الطلاب إليه ، وحضهم على تحصيله ؛ ولاريب أن مايقرءونه ، ويدرسونه ، ويتعلمونه كل يوم يضيف إلى عقولهم عقولاً مكتسبة ، ويكثر تجاربهم ، ويفتح أذهانهم ، ويطلق ألسنتهم بالحكمة ، وفصل الخطاب .

(٢٦) كأنها : كأن المدارس ومغانى العلوم . والشاعر يريد بها دور العلم فى مراحل التعليم كلها ، ومانسميه الآن بالمعاهد العليا ، والكليات النظرية والعملية على اختلاف مناهجها من آداب ، ورياضة ، وعلوم ، وفنون . والفلك : الفضاء فى السماء ، يدور فيه النجم أو الكوكب ، وجمعه أفلاك . ولاحت : بدت ، وظهرت . وبه : بالفلك . والشهب : الدرارى من الكواكب ، واحدها شهاب (بوزن كتاب وكتب) : وهو النجم المضىء النير اللامع . ومن المجاز : هو شهاب علم . وشهاب حرب : الماضى الماهر . وتغنى : تكفى . يريد أن ضياء العلم يبدد ظلمات الجهالة ، وأن الناس يستطيعون الاستغناء بشهب العلم عن النجوم والكواكب . والرونق : الطلاوة ، والحسن ، والإشراق ، والبهاء . وأنجم الظلم : النجوم التى تبدد ظلمات الليل .

شبه دور العلم بالأفلاك ، وطلابها بالكواكب المضيئة . وقال : إنهم — برونق العلم وإشراقه ونوره وضيائه — يسدون مسد النجوم ، ويغنون عنها .

(٢٧) جنى الثمر يجنيه (من باب رمى) : قطفه ، والتقطه ، وتناوله من شجره . وفاعل « يجنى » : واو الجماعة : وهو ضمير « الأبناء » أى تلاميذ المدارس وطلابها المشار إليهم فى البيت الرابع والعشرين . وعبق به الطيب ونحوه (من باب طرب) : لزق به ، ولزمه ، وظهرت فيه رائحته . وعبق المكان بالطيب : انتشرت رائحة الطيب فيه . ولايكون العبق إلا الرائحة الطيبة الذكية العطرة . ونفح الطيب (من باب نفع) : فاح ، وتضوع ، وانتشرت رائحته . والنفحة : اسم مرة منه . وعبقت الزهرة بنفحة : انتشرت لها رائحة عطرية ذكية . والرمم : جمع رمة (بوزن قمة وقمم) : وهى العظام البالية ومثلها الرميم . وفى القرآن الكريم : « يحيى العظام وهى رميم » . الآية رقم ٧٨ من سورة يس .

يقول : إن هؤلاء التلاميذ والطلاب يقطفون من كل علم يدرسونه زهرة ذات رائحة عبقة ذكية عطرية ، ترد الحياة إلى الموتى . والغرض المبالغة فى تمجيد العلم ، وتعظيم شأنه ، وبيان فضله ، والإشادة بآثاره . ولاريب أن مايجنى من ثمار العلوم يحيى الموات ، ويعمر الأرض ، ويفجر ينابيع الخير والثراء ، وينشر الرفاهية والرخاء . ولاريب كذلك أن الجاهل ميت بجهله ، وأن العالم حى بعلمه . وفى القرآن الكريم : « قل : هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لايعلمون ؛ إنما يتذكر أولو الألباب » . (الآية رقم ٩ من سورة الزمر).

فَكَمْ تَرَى بَيْنَهُمْ مِنْ شَاعِرٍ لَسِنٍ أَوْ كَاتِبٍ فَطِنٍ، أَوْ حَاسِبٍ فَهِمٍ (٢٨)
وَنَابِغٍ نَالَ مِنْ عِلْمِ الْحُقُوقِ بِهَا مَزِيَّةً أَلْبَسَتْهُ خِلْعَةَ الْحَكَمِ (٢٩)

---

(٢٨) «كم» : اسم ثنائى ، مبنى على السكون . وهى هنا خبرية بمعنى كثير . وتمييزها « شاعر». وهو مجرور بمن . وبينهم : بين الأبناء العاكفين على الدروس : وهم تلاميذ المدارس ، وطلاب العلم . و «أو» هنا : بمعنى « واو » العطف : أى وإنك لترى بين طلبة المدارس وخريجيها كثيرا من الشعراء، والكاتبين ، والحاسبين ... ولسن : فصيح بليغ ، منطلق اللسان ، ساحر البيان . ويراد بالكاتب : الأديب الناثر الذى يجيد الكتابة الفنيّة الإنشائية ، ويعرض المعانى والأفكار عرضا شائقاً رائقاً ، مؤثراً بليغاً . وقد يجرى النثر الأدبى على منهج الشعر فى التخييل وقوة التأثير . وفطن (بكسر الطاء وضمها) : صفة من الفطنة ، أو الفطانة : وهى الحذق والمهارة ، وجودة استعداد الذهن لإدراك مايرد عليه . (وفعله كفرح ، ونصر ، وكرم) . وحاسب : اسم فاعل من حسب المال ونحوه (من باب نصر) : أى عدّه وأحصاه . أو قوّمه وقدّره . وفهم (بفتح فكسر) : سريع الفهم ، قوى الإدراك . صيغة مبالغة من الفهم .

عدّد ، ووصف بالكثرة بعض طوائف النابهين من طلاب المدارس والمعاهد وخريجيها : ففيهم الشعراء المفلقون ذوو اللسن وحسن البيان ؛ والكتاب الأدباء الناثرون ذوو الفطانة والحذق والمهارة . والنابغون فى الحساب وعلوم الرياضة المعروفون بالذكاء ، وصفاء الذهن ، وسرعة الفهم ، وقوة الإدراك .

وفى ثلاثة الأبيات الآتية إشادة بطوائف أخرى من خيار الطلاّب ، ونبهاء المتعلمين . والشاعر بهذا كله يلحّ فى الغرض الأساسى من هذه القصيدة ، وهو التنويه بالعلم ، وتعظيم شأنه ، وبسط أنواعه وفوائده ، والترغيب فيه ، والحض على طلبه وتحصيله . ولم يفت الشاعر أن يشير إلى الخلُق فى بعض هذه الأبيات ؛ فالعلم إذا فارق مكارم الأخلاق كان شراً وو بالاً على الإنسانية .

(٢٩) الواو فى أول البيت : عاطفة . ونابغ معطوف على « شاعر» فى البيت السابق : اسم فاعل من نبغ فى العلم ، أو الفن ، أو الأدب ، أو الشعر ، أو الصناعة ، أو نحوها : أى برع ، وأجاد ، وظهر ، واشتهر (وبابه نصر ، وقطع ، وضرب ، ودخل) . والحقوق : جمع حق : مصدر حق الشيء : أى وجب ، وثبت . والحق : ضد الباطل . ويراد بعلم الحقوق : القوانين والأحكام والشرائع والدراسات التى تعين القاضى ، والمحامى ، والمحقق ، والحاكم على إحقاق الحق ، وإقامة العدل بين الناس . وبها : بالمدارس . والمزية : الفضيلة التى يمتاز بها المرء من غيره ، كمزية العلم ، أو الفن ، أو الأدب ، أو الكرم ، أو الشجاعة ، أو الشرف ، أو نحو ذلك . والمزية فى كل شيء : التمام ، وجمعها مزايا (بوزن عطية وعطايا) . وألبسته : ألبست النابغ . والخلعة : ماتمنحه غيرك من الثياب . وجمعها خلع (بوزن منحة ومنح) . والحكم (بفتح الحاء والكاف) : الحاكم . أو القاضى الذى يختار للفصل بين المتحاكمين ، والقضاء بين المتنازعين . وألبسته مزيته خلعة الحكم : أى جعلته أهلاً لأن يكون حكماً بين الناس ، يحقق المنازعات ، ويفصل الخصومات . ولاريب أن النبوغ فى علم الحقوق فضيلة تؤهل النابغ للقضاء ، =

وَلُجٌّ هَنْدَسَةٍ تَجْرِى بِحِكْمَتِهِ جَدَاوِلُ الْمَاءِ فى هَالٍ مِنَ الْأَكَمِ (٣٠)

بَلْ ، كَمْ خَطِيبٍ شَفَى نَفْسًا بِمَوْعِظَةٍ وَكَمْ طَبِيبٍ شَفَى جِسْمًا مِنَ السَّقَمِ (٣١)

= والحكم ، والولاية ، والإمارة ، والإدارة ، والسلطان .

يقول : إن المدارس تخرج علماء الحقوق ، وأساتذة القانون ، وتؤهلهم الحكم والقضاء .

(٣٠) « ولج » : الواو عاطفة . ولج : معطوف على « شاعر » . والكلمات المتعاطفة فى هذا البيت والبيتين السابقين على الترتيب : فكم شاعر ، وكاتب ، وحاسب ، ونابغ فى الحقوق ، ولج هندسة . واللج : معظم الماء ، حيث لايدرك قعره . ومنه بحر لجى : أى عظيم متموج . ويراد بلج الهندسة : العالم المستبحر فى العلوم والفنون الهندسية . والهندسة . العلم الرياضى الذى يبحث فى الخطوط ، الأبعاد ، والسطوح ، والزوايا ، والكميات ، أو المقادير المادية ، من حيث خواصها ، وقياسها ، أوتقويمها ، وعلاقة بعضها ببعض . والهندسة النظرية : المبادئ والأصول العلمية المتعلقة بخواص المادة ، ومصادر القوى الطبيعية ، وطرق استخدامها ؛ لتحقيق أغراض مادية . والهندسة التطبيقية أو العملية : فن الإفادة من المبادئ والأصول العلمية فى بناء الأشياء ، وتنظيمها ، وتقويمها . وللهندسة العملية أنواع ، لكل منها غرض معين : منها الهندسة الآليّة : أى (الميكانيكية) . والهندسة الكهربية. والهندسة الحربية . وهندسة المعادن . والهندسة الكيماوية . والهندسة المدنية ، كالهندسة المعمارية ، وهندسة الطرق والجسور . وهندسة سكك الحديد . والهندسة الصحية . والهندسة الزراعية . . . وهندس المهندس القنوات ، ومجارى المياه ، والأبنية ونحوها هندسة : أى قدّرها ، ورسم أشكالها . والحكمة : العلم . وصواب الأمر ، وسداده ، وإحكامه ، وإتقانه . والجداول : جمع جدول (بوزنى ، جعفر ، وخروع) : وهو النهر الصغير . و « جداول » فاعل «تجرى » . أو هى «يُجْرِى جداول» . ففاعل «يُجْرِى» ضمير « لج الهندسة » و « جداول » مفعوله . والهال من الرمال ونحوها : مايَنْهيل فى تتابع : أى ينهال ، وينهار ، ويسقط ، وينصبّ بعضه فى إثر بعض . والأكم : جمع أكة (بوزن قصبة وقصب) : وهى التل . أو الموضع يرتفع عما حوله . و « من » : بيانيّة . والأكم بيان للهال . ولاريب أن إجراء القنوات ، وشقّ جداول مياه الرى فى تلال الرمال المتداعية — والرمال بطبيعتها متداعية ، سريعة الانهيال والانهيار والتساقط — يتطلب الحكمة ، وغاية الدقة والحذق والمهارة والدربة والمرانة ، والإتقان والإبداع والإحكام ؛ ولا يستطيع مثل هذا إلا عالم بارع حكيم نابغ مستبحر فى الهندسة المدنية .

فى البيتين السابقين نوه الشاعر بطلاب المدارس وخريجيها من الأدباء والشعراء ، والكتّاب ، والحاسبين الرياضيين ، وعلماء الحقوق ، وأساتذة القانون. وفى هذا البيت تنويه بالمستبحرين فى علوم الهندسة وفنونها . وقد مثّل بالهندسة المدنية ، أو بنوع منها .

(٣١) « بل » : حرف إضراب ، وتفيد هنا الانتقال من معنى إلى آخر . و « كم » فى شطرى البيت : اسم ثنائى ، مبنى على السكون ، مبهم ، مفتقر إلى التمييز . وهى هنا خبرية ، تدل على عدد كثير . وتمييزها هنا مفرد مجرور . وهو فى الشطر الأول « خطيب» . وفى الشطر الثانى « طبيب» . والمعنى : أن كثيراً من الخطباء شفوا نفوس كثير من الناس بمواعظهم ؛ وكثيراً من الأطباء شفوا بطبهم كثيراً من =

مُؤَدَّبُونَ بِآدَابِ الْمُلُوكِ ، فَلَا تَلْقَى بِهِمْ غَيْرَ عَالِي الْقَدْرِ مُحْتَشِمِ (٣٢)

قَوْمٌ بِهِمْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا إِذَا فَسَدَتْ وَيَفْرُقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الذِّئْبِ وَالْغَنَمِ (٣٣)

=الأجسام السقيمة . والموعظة : اسم من وعظه (كوعده) : أى نصح له ، وأمره بالطاعة ، ووصّاه بها ، وذكّره بالعواقب ، وحمله على التوبة إلى الله ، وإصلاح السيرة والسلوك . وتطلق الموعظة كذلك على مايوعظ به من قول أوفعل . وجمعها مواعظ . والسقم : المرض (وفعله من باب طرب) .

ختم الشاعر بهذا البيت تعداد من أراد التنويه بهم ، والإشارة إلى كثرتهم من طلاب المدارس وخريجيها فى أربعة أبيات . ولم يقصد إلى الحصر والاستقصاء ، وإنما أراد التمثيل لبعض طوائف الخريجين وجماعاتهم الذين ينفعون البلاد والمواطنين ، ويخدمون الإنسانية أجلّ الخدمات بماحصّلوه فى المدارس والمعاهد والجامعات من علوم ، وفنون ، ومعارف ، وآداب ، وثقافات ، وتجارب .

(٣٢) مؤدبون : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير هم مؤدبون : يريد من نوه بهم فى ثمانية الأبيات السابقة : جمع مؤدب : اسم مفعول من التأديب : وهوالتهذيب والتربية ، ورياضة المؤدب على الظرف والكياسة ، ومحاسن الخلال ، ومكارم الأخلاق . والأدب : ملكة تعصم من كانت فيه عما يشين ، أو يقبح ، أويستهجن ، وجمعه آداب . وإضافة الآداب إلى الملوك مبالغة محمودة فى التنويه بطلاب المدارس وخريجيها ؛ فآداب الملوك أرفع الآداب ، وأجلّها ، وأسماها ، وأشملها و « فلا تلقى بهم » : أى فلاتلقى بلقائهم . أوفلا تلقى فيهم ؛ فالباء للظرفية . أوفلاتلقى منهم ؛ فالباء بمعنى « من » . والقدر : الحرمة ، والوقار ، وجمعه أقدار . وعالى القدر : مهيب ، وقور ، رفيع المقام ، عالى المنزلة والمكانة. ومحتشم : اسم فاعل من احتشم الإنسان : أى تخلّق بفضيلة الحياء ، وانقبضت نفسه عن كل قبيح ، أو شائن ، أو مستهجن ، وسلك فى حياته مسلكاً معتدلاً محموداً . والاسم منه الحشمة : وهى الحياء والأدب. أو هى محتشم (بصيغة اسم المفعول) : بمعنى مهيب ، وقور ، يستحيا منه ، ويغضى من مهابته . يقال : أنا أحتشمك ، وأحتشم منك : أى أستحيى ، وأخجل ، وأتهيب .

فى سبيل الحض على طلب العلم ، نوه الشاعر فى ثمانية الأبيات السابقة بطلاب المدارس وخريجيها ، وأشاد بكثير من فضائلهم ومزاياهم . وفى هذا البيت عظّم مااجتمعوا عليه من الأدب والاحتشام ، وماوصلوا إليه من علو القدر ، وسمو المكانة . ولمانوه بالعلم ورغّب فيه ، لم يفته — فى هذا البيت ، وفى غيره من الأبيات — أن ينوه بالأدب ، ويرغّب فيه ، وفى مكارم الأخلاق ؛ فالعلم بلاأدب شر ووبال ، وفساد وبلاء .

(٣٣) « قوم » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هم قوم . والقوم : الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها ، ويجتمعون حولها ؛ ويراد بالقوم هنا : من أطراهم الشاعر فى هذا البيت ، وتسعة الأبيات السابقة و « بهم » متعلق بـ « تصلح » . والباء هنا : للسببية : أى تصلح الدنيا بسببهم . ويراد بالدنيا : معايش الناس وأمورهم فى الحياة الدنيا ؛ ويراد بالعدل : عدل هؤلاء القوم من المتعلمين المثقفين الذين جمعوا بين المعارف الواسعة ، والعلوم النافعة ، والأخلاق الكريمة ؛ فهم فى قضائهم وأحكامهم وولايتهم وإدارتهم يتحرّون العدل ، ويحقّقون الحق ، ويلتزمون الاستقامة والرشاد.=

وَكَيْفَ يَثْبُتُ رُكْنُ الْعَدْلِ فِى بَلَدٍ لَمْ يَنْتَصِبْ بَيْنَهَا لِلْعِلْمِ مِنْ عَلَمِ ؟[٣٤]
مَا صَوَّرَ اللهُ لِلْأَبْدَانِ أَفْئِدَةً إِلَّا لِيَرْفَعَ أَهْلَ الْجِدِّ وَالْفَهَمِ[٣٥]

= ويراد بالذئب والغنم : القوىّ والضعيف . أو المعتدى والمعتدى عليه . أو من يميلون بطبعهم إلى الشر والأذى والعدوان ، ومن يساورهم الخوف من الشر والأذى والعدوان ؛ فعدل هؤلاء القوم يردع القوىّ المعتدى ، ويطمئن الضعيف الخائف ، ويجمع الناس على الأمن والسلام .

والمعنى : إذا فسدت الدنيا أصلحها هؤلاء المتعلمون المهذّبون . وهم بعلومهم ومكارم أخلاقهم يقيمون بين الناس دعائم العدل ، ويرفعون منائره ، ويوفّرون لهم الأمن والطمأنينة ، والسلامة ورخاء البال . ويفصلون بين القوىّ والضعيف لمنع البغى ، وحسم الشر ، ودفع العدوان .

(٣٤) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ، أو الاستبعاد . ويراد بركن العدل : دعائمه وقواعده التى لا يقوم بدونها ، ولا يحيا إلا بها . وينتصب : يقوم ، ويرتفع . و « بينها » : بين أجزاء البلد ونواحيها . (والبلد يذكّر ويؤنث) . و « من » زائدة بعد النفى لتقوية الكلام ، وتوكيد معناه . كما فى قول الله تبارك وتعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » (الآية رقم ٣ من سورة الملك « تبارك ») . والعلم (بفتحتين) العلامة ، والمنارة ، والأثر ، وماينصب فى الطريق لهداية السائر ؛ وهوفاعل « ينتصب » ، وجمعه أعلام . وانتصاب علم العلم فى بلد : كناية عن حفاوة أهلها به ، وإقبالهم عليه ، وتعظيمهم لشأنه ، واجتهادهم فى طلبه وتحصيله .

جعل العدل قرين العلم وملازمه ؛ ولهذا نفى ، أواستبعد أن يقوم الأول بدون الآخر ؛ فإذا أهمل العلم فى بلد انهدت فيها أركان العدل ، وعمّ الظلم والضيم ، وشاعت الفوضى والمفاسد . ولا ريب أن الشاعر يريد العلم المقترن بالاستقامة ومكارم الأخلاق ؛ فإن العدل لايحيا إلا بهما .

(٣٥) صور الله الأفئدة : خلقها ، وأبدعها ، وجسّدها . والأبدان : الأجساد والأجسام . واحدها بدن (بوزن جسد) . والأفئدة : القلوب . ويراد بها هنا : العقول ، والأفهام ، والأذهان ، والبصائر . واحدها فؤاد . والجد (بفتح الجيم) : الاجتهاد : مصدر جد فى الأمر (من بابى ضرب ونصر) : أى اجتهد فيه . والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . أوهو الجد (بفتح الجيم) : ضدّ الهزل : مصدر جدّ فى كلامه (من باب ضرب) . والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . والفهم : الإدراك ، والعلم ، والمعرفة ، وحسن تصوّر المعنى ، وجودة استعداد الذهن للاستنباط ، وجمعه أفهام ، وفهوم . (وفعله من باب فرح) . وتسكين الهاء فى المصدر لغة . أوساكن الهاء : اسم مصدر .

والمعنى : أن المرء إنما يعلوقدره ، وتسمومكانته عندالله والناس بعلمه وعرفانه ، وجده واجتهاده ، ورجاحة عقله ، وصحة فهمه ، وحدة ذهنه ، وسعة إدراكه . وأن عقل العاقل ينهاه عن العبث واللهو والمجون والمزاح الفارغ ، ومالاخير فيه من الأقوال والأفعال ، ويأمره بالاستقامة ، والفضيلة ، والعالى من الشيم ، ومكارم الأخلاق . وأن الله تبارك وتعالى إنما خلق الأفئدة فى أجساد الناس ، ليهذّب بها شهوات الجسد ونزواته ، ويرفع شأن العقلاء الذين يقدرون هذه النعمة الكبرى حق قدرها ، ويحسنون الانتفاع بها ، ويستخدمونها فيما يصلح الحياة ، ويسعد الإنسانية .

=

وَأَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ أَفْضَى إِلَى أَمَدٍ فِى الْفَضْلِ .وَامْتَازَ بِالْعَالِى مِنَ الشِّيَمِ (٣٦)

لَوْلَاالْفَضِيلَةُ لَمْ يَخْلُدْ لِذِى أَدَبٍ ذِكْرٌ عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَدَمِ (٣٧)

= وصلة هذا البيت بموضوع هذه القصيدة بيّنة واضحة ؛ فبالأفئدة ، أى بالعقول ، والأفهام والبصائر ، مع الجد والاجتهاد والاستقامة – يستطاع تحصيل العلم ، وتوسيعه ، وتمام الانتفاع به . والأبيات الآتية تعزز هذا المعنى وتؤكده ، وتفصّله .

(٣٦) أسعد : اسم تفضيل من السعد ، أو السعادة : وهى أن يوفق الله الإنسان للطاعة ، ويعاونه على نيل الخير . وضدها الشقاوة . وأفضى إلى كذا : بلغه ، ووصل إليه ، ووافاه . وأمد الشيء : غايته ، وأقصاه ، ومنتهاه ، وجمعه آماد . والفضل : الفضيلة ، والخير ، والبر . والإحسان ، أو الابتداء به بلاعلة . وضده النقص ، والنقيصة ، والرذيلة. والفضل (فى الأصل) : الزيادة. وأكثراستعماله فى الزيادة المحمودة ، كفضل العلم ، والحلم ، والعقل ، والمروءة . والشيم : جمع شيمة (بوزن قيمة وقيم) : وهى الخلّة ، والخصلة ، والخلُق ، والطبيعة ، والعادة .

يتفاضل السعداء فى مراتب السعادة . وأعظم السعادات للممتازين بعالى الخصال ، ومكارم الأخلاق ، السابقين إلى غايات الفضل والبرّ ، والخير والإحسان ، الخالدين بفضائلهم وآدابهم . والبيت الآتى يكرر هذا المعنى ويؤكده .

فى الأبيات السابقة مجّد الشاعر العلم ، ونوه بمنافعه وآثاره ، وحضّ على طلبه وتحصيله ، وتيسيره للناس بإنشاء دوره ومعاهده ، وفضّله على المال ، كما فضّل القلم على السيف ، وعظّم العالم وإن كان فقيراً ، وأزرى بالجاهل وإن كان ثريا . وأشاد بطوائف المتعلمين وجماعاتهم ، وأثرهم فى إصلاح الحياة . وإقامة العدل ؛ فإن العدل قرين العلم ، ولايحيا أحدهما إلا بحياة الآخر . ثم دعاه تمجيد العلم إلى تمجيد نعمة العقل والفهم ، والحث على الجد والاجتهاد. ثم انتقل فى هذا البيت والبيت الآتى إلى تمجيدالفضيلة ، وتعظيم شأنها ، والترغيب فيها ؛ ولاغرو ؛ فإن العلم لا قيمة له إلابها . والسعادات كلها فى حيازة غاية الفضل ، والتجمّل بالعالى من الشيم ، والتأدّب بمكارم الأخلاق .

(٣٧) الفضيلة : أدب النفس . والدرجة الرفيعة فى الفضل ، وحسن الخلُق . وضدها النقيصة والرذيلة ، وجمعها فضائل . ويخلد : يدوم ويبقى (وبابه دخل) . ويراد بذى الأدب : المتصف بالفضيلة والأدب : وهو رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغى ، والترفّع عن كل ما لا يليق ، ولا يجمل . والذكر : الصيت ، والشرف ، وحسن الثناء . وذكر الميت : بقاء اسمه جارياً على ألسنة الناس بحسن الثناء بعد موته . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها ، وخلود الذكر على الدهر : بقاؤه ما بقى الدهر . والعدم : ضد الوجود . وهو تأكيد لمعنى « الموت » .

يقول : إنما يخلد ذكر الفضلاء ، ويبقى لهم – بعد موتهم – الصيت ، والشرف ، وطيب الأحدوثة وحسن الثناء ، بما كانوا يتحلّون به فى حياتهم من الآداب والمحامد ، والفضائل والمكرمات .

فَلْيَنْظُرِ الْمَرْءُ فِيمَا قَدَّمَتْ يَدُهُ قَبْلَ الْمَعَادِ ؛ فَإِنَّ الْعُمْرَ لَمْ يَدُمِ (٣٨)

---

(٣٨) نظر الإنسان فى الأمر : تدبّره ، وتأمّله ، وفكر فيه ، يقدره ، ويزنه ، ويقيسه ، ويحسب حسابه . و« فيما قدمتْ يده » : فى أعماله ، وسلوكه ، وتصرفاته ، ومعاملاته . ويراد باليد : النفس : أى فلينظر المرء فيما قدمته نفسه ؛ فإن اليد آلة الكسب ، وأداة العمل . وبها يكون أكثر الأعمال ؛ فكل عمل من أعمال الإنسان كأنه واقع بيده ، على سبيل التغليب . واليد — إلى هذا — تفيد — فى مثل هذا المقام — التحقيق والتأكيد : أى فلينظر المرء فيما قدمه هو نفسه . والشاعر ينظر هنا إلى كثير من آى الذكر الحكيم التى ذكرتْ فيها الأيدى بهذا المعنى . ومنها قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمتْ أيديهم » . (الآية رقم ٩٥) وقوله عز وجل فى سورة آل عمران : « ذلك بما قدمتْ أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » (الآية رقم ١٨٢) . وقوله تبارك وتعالى فى سورة الحج : « ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » (الآية رقم ١٠) . ويراد بالمعاد : المرجع والمصير إلى الله عز وجل فى الدار الآخرة يوم القيامة ، وهو يوم الدين : أى يوم الحساب والجزاء . وهو مصدر ميمى ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان من عاد (من باب قال) : أى رجع إلى الشىء بعد الانصراف عنه .

والمعنى : أن عمر الإنسان فى الدنيا قصير ، وأن الموت يرقبه ويتعقبه ، وأن مرجعه ومصيره إلى الله عز وجل ، وأن حسابه جدّ عسير . « و« كل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه . ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (الآية رقم ١٣ والآية رقم ١٤ من سورة الإسراء) . والعاقل الكيّس من أدام النظر والتدبر والتفكّر فى أعماله وأقواله وسيرته وسلوكه . وحاسب نفسه ، وأقام من عقله ودينه رقيباً عليها ، يسير بها فى طريق الاستقامة والرشاد ، ويعصمها من الغواية والفساد ، ويعدّ العدّة ليوم المعاد « يوم يقوم الناس لرب العالمين » « يوم تجد كل نفس ما عملتْ من خير محضراً . وما عملتْ من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم . ولهم اللعنة . ولهم سوء الدار » « يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم ينصرون » « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . والأمر يومئذ لله » .

ولا ريب أن الشاعر فى هذا البيت ينظر إلى قول الله تبارك وتعالى فى سورة الحشر : « يأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لغد . واتقوا الله ؛ إن الله خبير بما تعملون » . (الآية رقم ١٨)

* * *

ختم الشاعر هذه القصيدة بهذه الحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، المؤثرة المتأثرة بروح القرآن ولفظه ، ومعناه . ولا ريب أنها وثيقة الاتصال بما قبلها من الأبيات ؛ فإن الفضيلة ، والخير ، والعقل ، والهدى ، والعلم النافع : كل هذا يدعو الإنسان إلى تدبر أعماله ، ومحاسبة نفسه ؛ ليخرج من هذه الحياة القصيرة بما يرضاه الله العلى الكبير ، القوى العزيز ، السميع البصير ، المنتقم الجبار ، الذى =

وَقَالَ يَمْدَحُ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا* خِدِيو مِصْرَ** :

= يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام .

* * *

عدد أبيات هذه القصيدة في الأصل المخطوط الذى بين أيدينا ثمانية وثلاثون بيتاً : وفى مجلة المنار زيادةعلى هذا – ثلاثة الأبيات الآتية :

أنى يفوز لنـــا قِدْحٌ بفائدة ونحن فى زاخر بالجهل ملتطم

لاتجعلوا اليأس عذراً ؛ فهو داعية إلى المذلة بعد العز والشمم

لو كان يعلم حىٌّ أن خيبته منزلة الرأى لم يعتب على القِسَمِ

مجلة المنار بتاريخ ١٩٠٥/١/٧ صفحة ٨٢٨ – الجزء ٢١ – المجلد ٧ .

* * *

* إسماعيل باشا (١٢٤٥/١٣١٢هـ – ١٨٣٠ – ١٨٩٥م) بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا الكبير : خديو مصر . ولد فى القاهرة . وولى مصر سنة ١٢٧٩ هـ(١٨٦٣م) . وله آثار باقية فى نواحى المدنيّة، والعمران ، والثقافة . وفى عهده تمّ حفر قناة السويس، وافتتحتْ باحتفال رسمىّ كبير سنة١٢٨٦هـ(١٨٦٩م) . وفى سنة ١٢٩٦هـ(١٨٧٩م) خلعتْه حكومة الآستانة عنولاية مصر إجابة لرغبة الحكومتين الإنجليزية والفرنسية لما اشتدّ سفهه ، وإسرافه ، وارتباكه ،وتدهورتْ مالية مصر ،وساءت أحوالها ، وتبرّم بحكمه المصريون والأجانب؛ فقضى بقية حياته فى أوربا وتركيا إلى أن توفى فى الآستانة ، ونقلتْ جثته إلى القاهرة ، ودفنتْ بمسجد الرفاعى بالقلعة يوم ١٣ من مارس سنة ١٨٩٥

** الخديوية : منصب الخديو . و« خديو» : لقب حاكم مصر تحت سيادة العثمانيين ، والكلمة فارسية الأصل ، ومعناها : « سيد » . وخديو مصر : سيد مصر . أو عزيز مصر : وهى رتبة فوق الإمارة ، ودون الخلافة . وقيل : إن معناها فى الأصل الفارسى أكبر من معنى كلمة « العزيز » العربية ، وأنها تكسو صاحبها – أكثر من غيرها – رداء عظمة وجلالة ، واستقلالا فى المركز والعمل . وقد تردّدتْ فىالأوامر والقوانين التى صدرتْ فى عهود محمد على باشا ،وعباس باشا الأول،وسعيد باشا . وفى اليوم الثامن من يونية سنة ١٨٦٧ أنعم بها السلطان عبد العزيز العثمانى على إسماعيل باشا بفرمان سلطانى . وبقيتْ من بعده لتوفيق باشا ، ثم عباس حلمى الثانى باشا . ثم زالت بتقلّص ظلّ الإمبراطورية العثمانية عن مصر فى نهاية سنة ١٩١٤ . ويبدو أن هذا اللقب الفخم لميتجاوز حكّام مصر ، وأن الخلفاء الأتراك العثمانيين لم يمنحوه غيرهم من ولاة الإمارات العثمانية .

تمهيد وبيان

أقام البارودى فى الآستانة نحو ست سنوات (١٨٥٧ – ١٨٦٣) وهو بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين . ولما ارتقى « إسماعيل » عرش مصر بعد وفاة عمه « سعيد » فى الثامن عشر من يناير سنة ١٨٦٣ سافر إلى دار الخلافة ليرفع فروض الشكر والولاء إلى السلطان « عبد العزيز العثمانى » ، فنظم البارودى هذه الميمية الطويلة فى استقباله ، ومدحه ، وتهنئته بالولاية . =

لِعِزَّةِ هَـٰـذِى اللَّاهِيَــاتِ النَّوَاعِمِ تَذِلُّ عَزِيزَاتُ النُّفُوسِ الْكَرَائِمِ [١]
فَمَا كُنْتُ لَوْلَاهُنَّ تَهْتَاجُنِى الصَّبَا أَصِيلًا ،وَيُشْجِينِى هَدِيرُ الْحَمَائِمِ [٢]

= وفى القصيدة ما يدل دلالة ظنية على أن البارودى نظمها وهو فى الرابعة والعشرين من عمره – وكان يومئذ مقيماً فى الآستانة ، يعمل فى وزارة الخارجية التركية – نظمها ليستقبل بها الخديو إسماعيل حينما زار الآستانة فى فبراير سنة ١٨٦٣ ؛ فكانت من أسباب اتصاله به،ودخوله فى حاشيته، وعودته معه إلى مصر ؛ ولكن مما يضعف هذه الدلالة،ويضاعف الشكّ فى زمان نظمها ومكانه:أن الشاعر لم يشر فى هذه الأمدوحة الطويلة إلى السلطان عبد العزيز العثمانى خليفة المسلمين ، وصاحب الفضل على تابعه «الخديو إسماعيل» وهى إلى هذا – على طولها – لا تكاد تمتّ بصلة إلى الآستانة ، وهى بطبيعتها بيئة فاتنة ساحرة بهيجة شاعرة .

وقد يقال : إن البارودى أنشأها وهو شابّ ناشئ يعالج الشعر على استحياء ، قبل أن يقوى أمره وينبه شأنه ؛ فلم يفطن لحقّ السلطان فى مثل هذا المقام ، ولم ينتبه للبيئة. وربما نظمها فى الآستانة، ولكنه لم ينشرها إلا بعد عودته إلى مصر مع الخديو إسماعيل فى حاشيته ، فى فبراير سنة ١٨٦٣ .

* * *

(١) العزة : القوة والغلبة . واللاهيات: اللاعبات: جمع لاهية. والنواعم : الرافهات، والمترفات المتنعمات : جمع ناعمة . وتذلّ : تضعف وتهون . أو تخضع ، وتنقاد . والكرائم : جمع كريمة ، صفة من كرم الشىء (كعظم) : أى عزّ ، وكان نفيساً . أو هى صفة من الكرم : ضد اللؤم . والكرائم : نعت للنفوس . وعزيزات النفوس الكرائم : العزيزات الكرائم من نفوس العاشقين .

افتتح الشاعر هذه القصيدة الطويلة بالغزل ، وجعله مقدمة للمدح . وقال : إن النفوس العزيزة الكريمة ، الحرة القوية ، الكبيرة العالية، المترفّعة الأبيّة – تُفْتَن فتوناً، وتُجنّ جنوناً بهؤلاء الغانيات الجميلات اللائى يلهون ويمرحن فى دعة ورفاهة ونعيم ؛ فلا يسعها إلا أن تذلّ لعزتهن ، وتتطامن لدلالهن .

(٢) لولاهن : لولا هؤلاء اللاهيات النواعم : أى لولا تعلّقى بهن ، وعشقى لهن . وتهتاجنى : تهيجنى ، وتثيرنى ، مضارع اهتاج : أى ثار لمشقّة أو ضرر . والمفهوم من المعجمات التى بين أيدينا أن هذا الفعل لازم غير متعدّ . والصبا (وزان العصا) : ريح ، مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار . وهى مؤنثة . والأصيل :الوقت بين العصر والمغرب . أو هو الوقت حين تصفرّ الشمس لمغربها . وجمعه آصال وأصائل . ويشجينى : يحزننى . أو يطربنى . أو يهيج لوعتى وصبابتى وشوقى . والهدير : صوت الحمام. ومثله الهديل .

والمعنى : أنه عاشق صبّ ، مشوق مستهام ؛ ولهذا تهيجه ريح الصبا وقت الأصيل ، ويطربه سجع الحمام .

وهذا المعنى كثير فى كلام الشعراء الغزلين؛ ولعل سبب اهتياج العاشق بريح الصبا أنه يتخيلها تحمل إلى معشوقته تحيته ، وتحمل إليه سلامها، وريّا أنفاسها ، وتذكّره باللطيف المنعش من روحها . وهى إلى=

وَلَا شَاقَنِى بَرْقٌ تَأَلَّقَ مَوْهِنًا ... كَزَنْدٍ تَوَالِى قَدْحَــهُ كَفُّ ضَارِمِ (٣)

وَبَيْضَاءَ رَيَّا الرِّدْفِ . مَهْضُومَةِ الْحَشَا ... يُقِلُّ ضُحَاهَا جُنْحَ أَسْــوَدَ فَاحِمِ (٤)

=هذا كله ألطف الرياح فى شبه جزيرة العرب ، وأفضلها عندهم ، وأحبها إليهم . أمّا وقت الأصيل ففيه تلطف الرياح ، ويعتدل الجو ، ويرقّ النسيم ، وتجمل مناظر الكون ، وتحلو ظواهر الطبيعة. وهو إلى هذا وقت المرح واللهو والطرب ، والفراغ من العمل . والحمام بسجعاته ، ونبراته ، وترديده صوته فى حنجرته — يهيج أشجان العاشق الولهان ، ويضاعف وجده وتولّهه ، ويؤجّج لوعته وصبابته .

وتزعم العرب أن الهديل فرخ للحمام ، كان على عهد نوح عليه السلام، ثم مات عطشاً . أو ضيعة ، أو صاده جارح من الطير ؛ فما من حمامة إلاّ وهى تحنّ إليه ، وتبكى عليه .

(٣) شاقنى: هاجنى ، وأثار شوقى . (وبابه قال) . والبرق : الضوء يلمع فى السماء على إثر انفجار كهربىّ فى السحاب . وتألّق : ائتلق ، ولمع ، وأضاء . وموهناً : فى منتصف الليل ، أو بعد ساعة منه . والزند : العود الأعلى الذى تقدح به النار . والزندة : العود الأسفل الذى فيه الفرضة : أى الثقب . فإذا اجتمعا قيل زندان . وتوالى : تتابع وتكرر . والقدح ، والاقتداح : معالجة إيراء النار ، وإخراجها من الزند . قَدَحَ الزند (من باب قطع) : ضربه بحجره؛ ليخرج النار منه . وضارم: اسم فاعل من ضرمت النار (من باب طرب) : أى اتقدتْ ، واشتعلتْ ، والتهبتْ . والمفهوم من المعجمات التى بين أيدينا أن « ضرم » فعل لازم غير متعدّ . والشاعر يريد هنا : كفّ امرئ مضرم : اسم فاعل من أضرمتُ النار إضراماً ، أو ضرّمتها تضريماً : أى أوقدتها ، وأشعلتها . وقد يكون « ضارم» : اسم فاعل من «ضرم » فى الأمر (كتعب) : بمعنى جدّ ، واجتهد ، وأسرع : أى كزند تُوالى قدحه كفّ امرئ جادّ مسرع فى قدح الزند ، وإيراء النار منه .

شبّه البرق الخاطف المتقطّع المتألّق فى ظلمة الليل بشرر النار يتطاير من زند تقتدحه كفّ مقتدح . ويلاحظ أن المشبّه أقوى من المشبّه به ، وأنه بإزائه ضئيل قليل ، ضعيف هزيل .

يقول : ولولا هيامى بهؤلاء الحسان اللاهيات النواعم ما شاقنى برق تألّق فى منتصف الليل .

وفى البيت إشارة إلى أن العشق يؤرّقه ، ويحرمه لذة النوم؛ فهو يقضى الليل كله ساهراً يرعى النجوم؛ فإذا ائتلق البرق هاجه ، وأثار لواعج شوقه . وربما كان من خيال الشاعر أن تألّق البرق ولمعانه أثر من آثار تعلّق الطبيعة بهؤلاء الحسان ، وهيامها بمفاتنهن . وسيصرّح بهذا المعنى فى بعض الأبيات الآتية .

(٤) « الواو » فى أول هذا البيت : واو « ربّ » : أى وربّ فتاة بيضاء ... عشقتها . و« ربّ » : حرف جر . ومعناها هنا : « التقليل » . ويلاحظ أن الشاعر تغزل فى ثلاثة الأبيات الماضية باللاهيات النواعم . ثم خصّ بغزله هذه الفتاة البيضاء ، فى هذا البيت والأبيات التالية . والردف : مؤخّر كل شىء . وردف الإنسان وغيره : كَفَلُه : أى عَجزُه . وروى من الماء (كرضى) : شرب، وارتوى ، وشبع . ومن المجاز : رِدْف ريّان : أى ممتلئ غضّ ، ناضر ، كثير اللحم . وامرأة ريّا الردف : أى ردفها ممتلئ . ومهضومة : خميصة ، ضامرة ، لطيفة ، دقيقة ، قليلة اللحم : ضدّ « ريّا » . والحشا : البطن ، وما حواه من الأمعاء والمصارين . ويقلّ : يحمل ، ويرفع . وضحاها : قامتها وجسمها الأبيض النضير =

مِنَ الْعِينِ يَحْمِى خِدْرَهَا كُلُّ ضَيْغَمٍ   بَعِيدِ مَشَقِّ الْجَفْنِ ، عَبْلِ الْمَعَاصِمِ (٥)

فَلَوْلَا هَوَاهَا مَا تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ   بِغُصْنٍ ، وَلَا انْهَلَّتْ شُئُونُ الْغَمَائِمِ (٦)

=الجميل ، المشرق إشراق الضحا : وهو ضوء الشمس . أو ارتفاع النهار ، وامتداده بعد أن تشرق الشمس ، أو وقت هذا الارتفاع والامتداد . أو هو جمع ضحوة . وجنح الليل (بضم الجيم وكسرها) : ظلامه واختلاطه . أو طائفة منه . وفاحم : شديد السواد . وجنح الليل الأسود الفاحم : كناية عن شعر هذه المحبوبة .

يتغزل بفتاة بيضاء ، ممتلئة الردف ، ريانة الكفل ، خميصة البطن ، لطيفة الكشح ، ضامرة الحشا . يشرق جسمها و وجهها إشراق الشمس ، ويَبْهج بهجتها . ويزينها فوق هذا كله شعر شديد السواد ، كأنه جنح الليل البهيم .

(٥) عين (من باب فرح) : عظم سواد عينه ، واتسعت فى حسن وجمال ، فالمرأة عيناء ، والجمع عين (بوزن بيضاء وبيض) . ويحمى خدرها : يمنعه ، ويصونه ، ويدفع عنه ، ويحافظ عليه . والخدر (بكسر فسكون) : كل ما واراك وسترك من بيت ونحوه . وستر يمدّ للمرأة فى ناحية البيت . وما يفرد لها من السكن . وفتاة مخدّرة : أى محجّبة ، مصونة فى خدرها . والضيغم : الأسد الواسع الشدق ، وجمعه ضياغم ، وضياغمة . ويراد بالضيغم هنا : الرجل الشجاع الجرىء القوىّ المقدام ، الشديد البأس . والجفن : غطاء العين من أعلاها وأسفلها . ومشقّ الجفن : كناية عن العين : اسم مكان من شققت الشئ (من باب رد) فانشقّ . وبعيد مشقّ الجفن : كناية عن سعة عينيه ، وقوة بصره ، وتمام يقظته وانتباهه . وعبل : ضخم ، غليظ ، قوىّ . والمعاصم : جمع معصم (بوزن منبر) : وهو موضع السوار من الساعد . ويراد به هنا : اليد ، أو الساعد .

يصف عينيها بعظم السواد ، والسعة ، والحسن . ويقول : إنها مخدّرة محجّبة ، يصون حجابها ، ويحمى حماها ، ويقوم على حراستها رجال شجعان أولو بأس شديد ، ونظر حديد ، وسواعد قوية ؛ فليس إلى لقائها من سبيل .

(٦) الهوى : الحب والعشق ، والغرام . وتغنت الحمامة : غنت ، وطربت ، وترنمت ، وسجعت . وانهلّ المطر : اشتدّ انصبابه مع صوت . وشئون العين : مجارى دموعها ، الواحد شأن . والغمائم : جمع غمامة : وهى السحابة . وشئون الغمائم : المطر .

ادّعى ، أو تخيّل ، أن الطبيعة تعشق هذه الحسناء التى يتغزل بها ، وأن الحمام إنما يتغنّى بحبها ، وأن الغمام لا يهطل إلا هياماً بها ، وشوقاً إليها . وفى البيت الآتى تكملة لهذا الادّعاء ، أو التخيّل . وفى البيت الثالث أن البرق المتألق فى منتصف الليل شاقه ، وهاج صبابته .

وَلَا الْتَهَبَ الْبَرْقُ اللَّمُوعُ ،وَلَا غَدَتْ تَحِنُّ مَطَايَا نَا حَنِينَ الرَّوَائِمِ (٧)

أَمَا ، وَهِلَالٍ فِى دُجُنَّةِ طُرَّةٍ يَلُوحُ ، وَدُرٍّ فِى عَقِيقِ مَبَاسِمِ (٨)

(٧) التهب البرق : اتقد ، واشتعل اشتعال النار ، وتدارك تألقه : أى توالى لمعانه وتتابع ، فلم يكن بين البرقتين فُرْجة . واللموع : اللامع ، المضيء ، المتألق ، المتلألئ ، وغدت : صارت. أو سارت غدوة : أى أول النهار ، من الفجر إلى طلوع الشمس . وحنّ حنيناً (بوزن رنّ) : طرّب ، وترنم ، وتغنى عن طرب : أى عن حزن، أو توجع ، أو فرح ، أو ارتياح ، أو اشتياق وتوقان نفس . وحنت الناقة : مدت صوتها شوقاً إلى ولدها . . والمطايا : جمع مطية : وهى ما يمتطى : أى يركب من الدواب كالإبل ، والخيل . وتطلق المطية على الذكر والأنثى ؛ فالبعير مطية ، والناقة مطية . والروائم : جمع رائمة: اسم فاعل من رئمت الناقة ، وكل أنثى ولدها (من باب سمع) : أى أحبته ، ولزمته، وعطفت عليه ، وحنّت إليه ، ولم تطق صبراً على فراقه .

وهذا البيت تكملة لما تخيله الشاعر ، أو ادعاه فى البيت السابق من هيام الطير ، والطبيعة ، والسحاب ، والحيوان بهذه المعشوقة الحسناء ؛ فالمطايا تحن إليها حنين الروائم ، والبرق الملتمع المتتابع يشتعل اشتعالاً من حرق الوجد ، وتباريح الصبابة والغرام .

وقد يكون معنى هذا البيت والذى قبله : أن شدة تعلقه بهذه المحبوبة يفتح ذهنه وحواسه لتطريب الطير على الأغصان ، وانهلال المطر من السحاب ، وتألق البرق فى السماء ، وحنين المطايا والروائم ؛ فإن هذا وأمثاله مما يثير أشجان العاشق الصبّ المستهام ، ويهز مشاعره وعواطفه ، ويجدد لوعته وصبابته .

(٨) « أما » : حرف استفتاح وتنبيه؛ فهى بمنزلة : « ألا » . ويكثر بعدها القسم . و« الواو» حرف قسم وجر . و« هلال » : مقسم به مجرور . وجواب القسم فى البيت الآتى : « لقد أودع البين المشتّ ... » . والهلال : غرة القمر إلى ليلتين من أول الشهر . أو إلى ثلاث . أو إلى سبع ليال . ويراد بالهلال هنا : القمر المتلئ الكامل ، التام الضياء . ويراد به وجه المحبوبة المشرق البهيج الباهر . والدجنّة (بضمتين أو بكسرتين) : الظلمة ، والسواد . و« فى دجنة » متعلق بـ« يلوح » . والطرّة : الناصية: وهى شعر مقدم الرأس إذا طال . أو ما تطرّه المرأة (أى تصفّفه) من الشعر الموفى على جبهتها. ويسمى القُصّة . ودجنة الطرّة: سواد شعر هذه المحبوبة . ويلوح : يبدو ، ويظهر . وفاعله : ضمير « الهلال » . والدرّ : اللؤلؤ ، الواحدة درّة . ويراد بالدر هنا : أسنان المتغزل بها ، وثناياها البيض الحسان . والعقيق : خرز ، أو حجر نفيس أحمر اللون ، واحدته عقيقة . ومباسم : جمع مبسم (بوزن مجلس) : وهو الثغر ، وما يبدو من الأسنان عند الابتسام . ويراد بالمباسم هنا : الشفاه . وعقيق مباسم : مباسم كالعقيق ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه .

شبّه وجه الحبيبة يشرق تحت شعرها الفاحم بالبدر يبدو فى ظلمة الليل . وقال : إن شفتيها فى حمرة العقيق وقنوئه ، وثناياها فى بياض اللؤلؤ وصفائه ونقائه . وأقسم بمحيّاها وثغرها حفاوة بهما ، وتعظيماً لشأنهما ، وإظهاراً لهيامه بمحاسنهما . وجواب هذا القسم فى البيت الآتى .

لَقَدْ أَوْدَعَ الْبَيْنُ الْمُشِتُّ بِمُهْجَتِي ... نُدُوبًا ، كَأُثْرِ الْوَشْمِ مِنْ كَفِّ وَاشِمِ (٩)

وَكَمْ لَيْلَةٍ سَاوَرْتُهَا نَابِغِيَّـةٍ ... سَقَتْنِي بِمَا مَجَّتْ شِفَاهُ الْأَرَاقِمِ (١٠)

---

(٩) « لقد أودع ...» : جواب القسم فى البيت السابق . وأودعت فلاناً الشىء : دفعته إليه ؛ ليكون وديعة عنده . وهذا الفعل يتعدى بنفسه إلى مفعولين . ويلاحظ أن الشاعر عداه بالباء إلى المفعول الأول « مهجة » ، على تضمينه معنى « ترك » أو « خلّف » أو « أبقى » أو نحوها . والبين : الفراق . والمشتّ : المفرّق ، وهو تأكيد لمعنى البين : اسم فاعل من أشتّ المتصلين إشتاتاً : أى فرّقهما ، وفصل بينهما . والمهجة : القلب . أو النفس ، والروح . والندوب : آثار الجروح الباقية على الجلد . ومثله الأنداب . والأثر (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : الأثر (بفتحتين) . والأُثر (بضم فسكون) : أثر الجرح ، يبقى على الجلد بعد البرء . ووشم الواشم المستو شم وشماً (من باب وعد) :غرز يده ، أو غيرها بإبرة ، وذرّ على الجلد فى مكان الغرز النئور ، واسمه النيلج : وهو دخان الشحم ، وبموالاة الغرز والذرّ يرسم الواشم فى جسم الموشوم ما يريده من الخطوط ، والكتابات ، والصور ، والرسوم ، والنقوش بلون أخضر يبقى فى الجلد ،ولا يكاد ينمحى . وكذلك الأنداب يبقيها الفراق فى مهجة الواله المستهام المشتاق . وكأثر الوشم من كف واشم : أى كأثر الوشم ترسمه يد الواشم فى جلد المستوشم .

أقسم بمحيا الحبيبة وثغرها أن الفرقة جرّحت قلبه تجريحاً لا تنمحى آثاره ؛ فهو لا يفتأ يعانى ما يعانيه الجريح من آلام جراحه .

(١٠) « كم » هنا: خبرية : بمعنى كثير : يشير بها إلى كثرة ليالى أرقه وهمه وضناه بسبب الفراق المشار إليه فى البيت السابق . وساورتها : قاسيت طولها ، وشدائدها ، ومتاعبها : من المساورة : وهى المواثبة ، والمغالبة ، والمصارعة . ومن المجاز : ساورته الهموم والوساوس والهواجس ونحوها ؛ فالمساورة هنا تعبير مجازى يراد به : المكابدة ، والمضاناة ، والمعاناة . ونابغية : صفة لليلة ، ومعناها طويلة ، قاسية ، مضنية ؛ وهى منسوبة إلى النابغة الذبيانى المتوفى سنة ٦٠٤ م (السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة). وكنيته: « أبو أمامة» . واسمه : « زياد بن معاوية الذبيانى الغطفانى المضرى» : شاعر جاهلى من أهل الحجاز : نبغ فى الشعر فجاءة وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير . واتصل بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة، فقربه إليه ، ثم وشى به عنده ، فغضب عليه ، فهرب منه النابغة قبل أن يبطش به . ثم جعل يعتذر إليه ، ويثبت براءته وإخلاصه بشعر بليغ ؛ حتى استردّ ثقته ورضاه . ومن اعتذارياته المشهورة : قوله فى الأليم المهموم ، يقضّ عليه المضجع . وينبو جنبه عن الفراش، ويطول ليله ، ويساوره الهم والغم والأرق والألم :

فبتّ ، كأن العائدات فرشن لى ... هراساً ، به يعلى فراشى ، ويقشب

والباء فى « بما » : بمعنى « من » فهى للتبعيض : أى سقتنى مما مجّت . أو هى زائدة : أى سقتنى ما مجّت . أو هو محمول على المعنى: أى أروتنى بما مجّت . وفاعل « سقتنى » . ضمير الليلة النابغية: =

كَأَنَّ الثُّرَيَّا كَفُّ عَذْرَاءَ طَفْلَةٍ ... بِهِ رَعْشَةٌ لِلْبَيْنِ ،بَادِى الْخَوَاتِمِ (١١)

إِذَا اضْطَرَبَتْ تَحْتَ الظَّلَامِ تَخَالُهَا ... دُمُوعَ الْعَذَارَى فِى حِدَادِ الْمَآتِمِ (١٢)

= أى سقتنى هذه الليلة مثل الذى تمجه شفاه الأراقم . أو الفاعل « شفاه » أى سقتنى شفاه الأراقم ما مجته فى هذه الليلة النابغية . والمعنى فى الحالين واحد ؛ فإنه يكنى بـ « ما مجت شفاه الأراقم » عن أرقه وتألمه وتوجعه . ومج الشراب ونحوه من فه : رمى به . (وبابه رد) . ويراد بالشفاه هنا : الأفواه . الواحدة شفة . والأراقم : أخبث الحيات : جمع الأرقم : وهو الثعبان فيه سواد وبياض . ومثله الأرقط . وحية رقطاء ، أو رقشاء . وما مجته شفاهها : كناية عن سمها القاتل .

والمعنى : أنه عانى بسبب الحب ، وفرقة الحبيب ليالى كثيرة طويلة مضنية ، يؤرقه الهم ، ويقض الألم مضجعه ، ويتلوّى كالملدوغ . وفى البيتين الآتيين استطراد لوصف الثريا . وصلة هذا بالغزل : أن العاشق المسهّام لا ينام ، بل يبيت أرقاً يرقب النجوم ويرعاها .

(١١) الثريا : مجموعة كواكب فى عنق الثور (أحد أبراج السماء) : تصغير « ثروى» بمعنى : كثيرة المال ؛ فنى هذه التسمية إشارة إلى كثرة نجوم الثريا ، مع صغر منظرها ، وضيق محلها . والكف الراحة بين الأصابع . أو الراحة مع الأصابع . وقد تطلق ، ويراد بها اليد . والعرب تقول : هذه كف واحدة ؛ فتأنيثها هو الكثير الفصيح المشهور . وتذكيرها قليل . والعذراء من النساء : البكر . والجمع العذارى (بفتح الراء وكسرها) . وطفلة (بفتح فسكون) : رَخْصة ، ناعمة ، بضّة ، لينة ، رقيقة . وبه بالكف . ورعشة (بفتح الراء وكسرها) : اسم مرة أو اسم هيئة من الرعش : وهو الارتعاش ، والارتعاد والارتجاف والاضطراب . ورعشة للبين : رعشة سببها البين . وباد : ظاهر ، بيّن ، واضح . والخواتم : جمع خاتم (بفتح التاء وكسرها) : وهو حلقة من الذهب ، أو الفضة ، أو غيرهما ، ذات فص ، تلبس فى الإصبع ، حلية وزينة .

رأى الشاعر الثريا نجوماً كثيرة صغيرة متقاربة متلألئة لامعة فى اضطراب واهتزاز قليل ؛ فشبهها بكف فتاة عذراء ، بضّة ناعمة ، رخصة لينة ، ازدانت بخواتم بارقة متلألئة ، واهتزت لوداع من تحب .

(١٢) فاعل « اضطربت » : ضمير « الثريا» فى البيت السابق . وتخالها : تظنها . وحدّت المرأة حداداً : تركت الزينة ، ولبست السواد بعد وفاة زوجها . والحداد ثياب سود تلبسها الحزينات فى المآتم : جمع مأتم (بوزن مذهب) : وهو فى الأصل : مجتمع الناس ، ثم غلب استعماله فى مجتمعات الأحزان .

يقول : إذا نظرتَ إلى الثريا فى ليلة مظلمة ، ظننتَ نجومها الصغيرة المهتزة المتألقة دموع الأبكار يجللهن سواد الثياب فى المآتم . وهذا من تشبيه التمثيل . ووجه الشبه فيه : هو الهيئة ، أو الصورة المؤلفة من أجسام صغيرة كريّة نقية لامعة متألقة ، تضطرب وتهتز فى محيط من السواد . وفى البيتين الآتيين وصف للرعد ، والبرق .

وَبَرْقٍ يَمَانٍ أَرِقْتُ لِوَمْضِــهِ   يَطِيرُ بِهُــدَّابٍ كَثِيرِ الزَّمَــازِمِ (١٣)

كَأَنَّ اصْطِخَابَ الرَّعْدِ فِى جَنَبَاتِهِ   هَدِيرُ فُحُولٍ ، أَوْ زَئِيرُ ضَرَاغِمِ (١٤)

---

(١٣) « الواو » : عاطفة . و« برق » : معطوف على « ليلة » فى البيت العاشر : أى وكم ليلة ساورتها ، وبرق أرقت لومضه . ويمان : نسبة إلى اليمن : وهو الجزء الجنوبى الغربى من شبه جزيرة العرب . والمراد بهذه النسبة : أن هذا البرق ظهر فى الأفق الجنوبى الغربى ، ناحية اليمن . والبرق اليمانى كثير فى الشعر العربى ، والبارودى متأثر بالبيئة العربية فى غزله وسائر فنون شعره ، مقتد بشعراء العرب ، ناسج على منوالهم ، مقتف أثرهم . وأرق (من باب طرب) : امتنع عليه النوم ليلاً . وومض البرق (من باب وعد) : لمع لمعاناً خفيفاً ، وظهر . واللام للتعليل : أى أرقت بسبب ومضه . وفاعل « يطير » : ضمير « البرق » . ويراد بالطيران : سرعة الحركة . وهداب الثوب : خيوط تبقى فى طرفيه ، دون أن يكمل نسجها . وهداب السحاب : ما يرى منه كهداب الثوب . أو كأغصان الشجرة إذا طالت ، وتدلت ، وقاربت الأرض . والزمازم : جمع زمزمة : مصدر زمزم : أى صوت من بعيد تصويتاً له دوىّ غير واضح . وزمزمة الرعد : ضجيجه .

يصف برقاً يمانياً أرقه وميضه ، ورآه يتحرك بسرعة ، وينتشر فى سحاب مهدّب متناثر ، متفرق يزمزم فيه الرعد .

انتقل الشاعر من وصف الثريا فى البيتين السابقين إلى وصف البرق والرعد فى هذا البيت والبيت الآتى . وقد أوضحنا من قبل صلة هذا كله بالغزل ؛ فالمحب — بسبب الحب ، وفرقة الحبيب — يساور ليالى كثيرة نابغية ، ويعانى الأرق والهمّ ، ويراعى النجوم ، ويراقبها ، وهو على الدوام مرهف الحواسّ ، شديد اليقظة والانتباه لظواهر الطبيعة ، وتقلبات الجو ، وومضان البرق ، وزمزمة الرعد ، وحركات السحاب ...

(١٤) الرعد : صوت يدوى فى السحاب عقب وميض البرق . واصطخاب الرعد : اختلاط أصواته ، وارتفاعها . وفى جنباته : فى جنبات السحاب المهدب : أى فى جوانبه ونواحيه ، الواحدة جنبة (بفتحتين ، أو بفتح فسكون) . وهدير البعير ونحوه : صوته . وهدر (من باب ضرب) : ردد صوته فى حنجرته . والفحول : جمع فحل (بفتح فسكون) : وهو الذكر القوى من كل حيوان . والزئير : صوت الأسد من صدره . والضراغم : جمع ضرغم (بوزن جعفر) : وهو الأسد الضارى الشديد .

شبّه دوىّ الرعد وأصواته العالية المختلطة المترددة فى جوانب السحاب المهدّب ونواحيه — بهدير الإبل ونحوها ، أو زئير الآساد .

تَخَالَفت الأَهْوَاءُ فِيهَا : فَعَاذِرٌ هَوَايَ الَّذِى أَشْكُو ، وَآخَرُ لَائِمِى (١٥)

وَنَافَسَنِى ، فِى حُبِّهَا كُلُّ كَاشِحٍ يَلُفُّ عَلَى الشَّحْنَاءِ عُوجَ الْحَيَازِمِ (١٦)

فَكَمْ صَاحِبٍ أَلْقَاهُ يَحْمِلُ صَدْرُهُ فُؤَادَ عَدُوٍّ فِى ثِيَابِ مُسَالِمِ (١٧)

---

(١٥) تخالفت : اختلفت . والأهواء: جمع الهوى : وهو إرادة النفس ، وميلانها إلى الشيء. ويراد بالأهواء هنا : أقوال الناس ، واتجاهاتهم المبنية على الأهواء : أى على الميول والعواطف والمشاعر. وفيها : فى أمر هذه المحبوبة : أى فى شأنى معها ، أى فى حبى لها ، وتعلق بها . وعاذر هواى : أى يعذرنى فى هواى : أى يلتمس لى المعاذير فى عشقى وغرامى ، ويرفع عنى اللوم والعذل . وهواى الذى أشكو : أى غرامى الذى أشكو ملابساته وآثاره . ومنها إعراض الحبيب وصدوده ، وتباريح الشوق ، وحرق الوجد ، ولواعج الصبابة .

يقول : رأى الناس هيامى بهذه الحسناء ، فاختلفوا فى شأنى معها ، وتباينت آراؤهم ومشاعرهم : فنهم من رمانى بسهام اللوم والعذل ، ومنهم من التمس لى المعاذير ، ورفع عنى اللوم ، ورق لشكواى .

استطرد الشاعر فى أربعة الأبيات السابقة لوصف الثريا ، والبرق ، والرعد ، والسحاب المتهدب . ثم عاد فى هذا البيت والبيت الآتى إلى صريح الغزل ، أو التشبيب .

(١٦) نافسه فى كذا : سابقه فيه ، وباراه ؛ ولا ريب أن منافسيه يوغرون صدره ، ويفسدون عليه أمره ، ويلحقون به أعظم الضرر ؛ ولهذا سلكهم فى عداد أعدائه . وتنافس المتنافسين فيها دليل على سموها فى مراتب الحسن والبهجة والجمال . و « حبها » فى أصل الديوان المخطوط « حبسها » . وهو من خطأ الناسخ وتحريفه . والكاشح : العدو المبغض الذى يطوى كشحه على العداوة ، ويضمر البغضاء . ولف الشيء على الشيء (من باب رد) : غطاه به ، وأخفاه تحته . والشحناء : الحقد ، والعداوة والبغضاء إذا امتلأت النفس منها . وعوج : جمع أعوج ، وعوجاء : صفة من عوج العود ونحوه (من باب طرب) : أى انحنى ، والتوى . والحيازم : جمع الحيزوم (بوزن الخيشوم) : وهو الصدر ، أو وسطه . ويراد بعوج الحيازم هنا : أضلاع الصدر . ويلف عوج الحيازم على الشحناء : أى يطوى صدره على عداوة شديدة تملأ قلبه . وهذه الجملة : صفة لـ « كاشح » . وهى تكرار وتأكيد لمعناه ؛ فالكاشح : من يطوى صدره على البغضاء والحقد .

يشكو ، ويتبرم بمنافسة غيره له فى حب هذه الحسناء ، ويرمى منافسيه بإضمار الحقد والعداوة والبغضاء .

وبهذا المعنى مهد الشاعر لثلاثة الأبيات الآتية التى نحافيها إلى الحكمة ، أو مايشبهها . ثم عاد بعدها إلى صريح الغزل .

(١٧) « كم » هنا : خبرية : بمعنى كثير . و « صاحب » تمييزها : أى ولقد كثر عدد من ألقاهم من الصحاب المنافقين . ومسالم : اسم فاعل من المسالمة : وهى المصالحة ، والمصافاة . =

أُغَالِطُهُ قَوْلِي . وَأَمْحَضُهُ الْوَفَا ... كَأَنِّي بِمَا فِي صَدْرِهِ غَيْرُ عَالِمِ (١٨)
وَمَنْ لَمْ يُغَالِطْ فِي الزَّمَانِ عَدُوَّهُ ... وَيُبْدِي لَهُ الْحُسْنَى فَلَيْسَ بِحَازِمِ (١٩)

= في البيت السابق شكا منافسيه في حبه وغرامه ، وتبرم بهم ، ورماهم بإضمار العداوة والبغضاء . وهذا البيت وثيق الاتصال بهذا المعنى ؛ فإن كثيراً من الناس يلبسون له ثياب المسالمة والمصاحبة ، مع انطواء قلوبهم على الحقد والضغن .

وهذا المعنى كثير في الشعر العربي . قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

فيارب وجه كصافي النمير ... تشابه حامله والنمر

وقال غيره :

لا يغرنك ما ترى من أناس ... إن تحت الضلوع داء دويا

وقال آخر :

يعطيك وداً صادقاً بلسانه ... ويجن تحت ضلوعه ألوانا

وقال أبو فراس الحمداني :

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ... ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقال أبو تمام :

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً ... متبسماً عن باطن متجهم

(١٨) غلط في الأمر (من باب تعب) : أخطأ فيه ، ولم يعرف وجه الصواب . وغالطه مغالطة وغلاطاً : أوقعه في الغلط . والمفهوم من المعجمات التي بين أيدينا أن الفعل « غالط »لا يتعدى بنفسه إلى مفعولين . ويراد بالمغالطة القولية هنا: المحاسنة الكلامية الظاهرة . والمجاملة اللسانية ، يقصد بها استلال حقد صاحبه ، أو تضييق دائرة ضغنه . ومحضته الود ، أو النصح ، أو الوفاء ، أو نحوه(من باب نفع) . وأمحضته إياه : أخلصته ، وصدقته . والوفا: أصله الوفاء . وقصر لضرورة وزن الشعر .

في البيت السابق قال : إن كثيراً من الناس يلبسون له ثياب المصاحبة والمصافاة ، على حين أن قلوبهم تنطوي على الشحناء والبغضاء . وفي هذا البيت يقول : إنه على الرغم من استيقانه حقيقة هؤلاء الصحاب ، وعلمه بما يضمرونه له من الضغن والعداوة ، فإنه يمحضهم الوفاء ، ويحاسنهم بكلامه ، ولا يضمر لأحد منهم شيئاً مما يضمرونه له ، كأنه يجهل حقيقة ما انطوت عليه صدورهم .

(١٩) يبدي له الحسنى : يظهر لعدوه المعاملة الحسنى ، القائمة على الخير ، والبر ، والصدق ، والوفاء ، والمجاملة القولية المشار إليها في البيت السابق ، وفي الشطر الأول من هذا البيت ، فهو يحاسنه بكلامه ، ويجامله بقوله ، كأنه يغالطه ، أو يغالطنفسه بهذه المحاسنة ، لمايعلمه من فساد طوية صاحبه ، =

فَيَا رَبَّةَ الْخَالِ الَّتِي هَدَرَتْ دَمِي ... وَأَلْقَتْ إِلَى أَيْدِي الْفِرَاقِ شَكَائِمِي [٢٠]

إِلَيْكِ اسْتَثَرْتُ الْعَيْنَ مَحْلُولَةَ الْعُرَا ... وَفِيكِ رَعَيْتُ النَّجْمَ رَعْيَ السَّوَائِمِ [٢١]

= وسوء سريرته ، وانطوائه على الشحناء والبغضاء . وحازم : اسم فاعل من حزم رأيه ، أو أمره (من باب ضرب) : أى ضبطه ، وأحكمه ، وأتقنه ، وأخذ فيه بالثقة .

جعل محاسنة المرء عدوه من الحزم ، وإتقان الرأى ، وإحكام التفكير ، وسداد التدبير . وهذا كله عين الحكمة والصواب ؛ فإن المحاسنة قد تنزع الغل من الصدور ، وتجعل العدو صديقاً صادق الود حريصاً على البر والوفاء :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

ولم يفت الشاعر أن يتحصن بتمام اليقظة والاحتراس ؛ فإنه مع محاسنته لعدوه ، وإيثاره الوفاء له ، والبر به — يعلم ما تنطوى عليه نفسه من الحقد والضغن ، والعداوة والبغضاء . ولا يستطيع كظم غيظه ، والعفو عن عدوه ، والإحسان إلى المسيء إلا أولو العزم ، والصبر الجميل ، كبار القلوب والنفوس الذين ينظرون إلى الحياة والناس من آفاق واسعة فسيحة .

أجرى الشاعر هذا البيت والبيتين اللذين قبله مجرى الحكمة ، أو ما يشبهها . ثم عاد فى البيت الآتى والأبيات التى بعده إلى صريح الغزل أو التشبيب .

(٢٠) ربة : صاحبة . والخال : شامة ، أو نكتة سوداء فى البدن . وغلب على شامة الخدّ . وقد تكون طبيعية . وقد تصنعها المرأة للتجمل والتزين . وهدر السلطان دم فلان (من بابى قتل وضرب) وأهدره إهداراً : أباحه ، وأبطله ، وأسقط القصاص فيه ، وكذا الدية . والتعبير هنا مجازىّ ؛ فإن المحبوبة بإعراضها عن أحبها ، وتعلق بها ، تجرعه مرارة الهجران والفراق ، وتعرضه للموت بسبب هذا ؛ فكأنها أهدرت دمه . والشكائم : جمع الشكيمة : وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس ونحوه من اللجام. ويراد بالشكائم هنا : اللجُم . والشطر الثانى : كناية عن أنها باعدته ، وصدّتْ عنه ، وهجرته ، وضنّتْ عليه بالإقبال واللقاء والوصال . وأسلمتْه إلى الفراق يذهب به كل مذهب .

كنى عن اسمها ببعض ما يزينها ، وهو الخال . وناداها شاكياً باكياً ؛ فقد أهدرتْ دمه بصدودها عنه ، وخذلتْه ، وتركتْه نهبة فى يد الهجر والفراق .

(٢١) « إلى » و « فى » : معناهما هنا التعليل : أى من أجلك أو بسببك . واستثرت العين : أثرتها ، وهيجتها بكثرة البكاء ، وغزارة الدموع . والعرا : جمع عروة : وهى من الثوب ما يدخل فيه الزرّ عند شده . و « محلولة » حال من العين . وعين محلولة العرا : مفتوحة ، غير مغمضة : كناية عن السهاد والأرق . ورعيت النجم : راقبته ، ولاحظته ، وأدمت النظر إليه . (وبابه سعى) . والعرب تكنى برعى النجوم عن الأرق مع الغمّ والهمّ . قالت الخنساء :

أرعى النجوم ، وما كُلّفت رعيتها ... وتارة أتغشى فضل أطمـــارى =

فَلَا تَتْرُكِي نَفْسِي تَذُوبُ . وَمُهْجَتِي　　تَسِيلُ دَمًا بَيْنَ الدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ (٢٢)

أَقُولُ لِرَكْبٍ مُدْلِجِينَ ، هَفَتْ بِهِمْ　　رِيَاحُ الْكَرَى ، مِيلِ الطُّلَى وَالْعَمَائِمِ (٢٣)

= ورعت الماشية (من باب سعى أيضاً) : سرحت فى المرعى والكلأ والعشب : أى تنقلت ، تأكل فى رغد وسعة . ورعاها راعيها : أطلقها ترعى ؛ فهذا الفعل يتعدى ، ويلزم . والسوائم : جمع سائمة : وهى الماشية ، والإبل الراعية : اسم فاعل من سامت الماشية (من باب قال) : أى رتعت فى المرعى ورعت حيث شاءت ، وأقامت ، وأكلت ، وشربت فى خصب وسعة . وفيك رعيت النجم رعى السوائم : أى من أجلك رعيت النجوم رعياً كرعى السوائم ، فهو يسرح فيها بعينيه كما تسرح الماشية فى المرعى ، متنقلة فى جوانبه ونواحيه ، فى إقامة طويلة ، وزمن ممتد . أو هو يرعى النجوم كما يرعى الراعى ماشيته ؛ فلا يكاد يغفل عنها ، أو يتوانى فى رعايتها . والغرض تصوير ما يكابده ويضانيه من الأرق والسهاد ، والهم والبكاء بسبب حبه وغرامه ، و إعراض الحبيبة وصدودها .

(٢٢) « فلا تتركى ... » مضارع مسبوق بلا الناهية ؛ فهو أسلوب نهى ، يراد به هنا : الالتماس أو التمنى . ويراد بذوبان نفسه : فناؤها ، وهلاكها . والمهجة القلب ، أو الروح . والسواجم : المنهمرة ، المنسكبة ، المنصبة بغزارة : جمع ساجم ، أو ساجمة .

فى الأبيات السابقة شكا البين المشت ، ولياليه الكثيرة النابغية ، وحرق الصبابة ، وتباريح الشوق ، وصدود الحبيبة .

وفى هذا البيت التمس منها ، أو تمنى عليها أن تتداركه بإقبالها قبل أن تذوب نفسه وجداً وأسى ، ويسيل قلبه دما بين دموعه الغزيرة المتتابعة . وفى البيت الآتى وثمانية الأبيات بعده يتجه إلى جماعة من صحبه ومرافقيه ركبان الإبل فى الصحراء ، فيصفهم ، ويصف مطاياهم ، ويستوقفهم فى بعض الطريق ، ويتحدث إليهم ، ويذكر — فى أسى وحرقة ، ووجد وحسرة — ما مضى من عهود الهوى والغرام ، ومواطن الحب والوصال . ويشير إلى طول هذه الرحلة ومشقاتها ، ويمهد بها ، للغرض الأصلى من هذه القصيدة الطويلة ، وهو مدح الخديو إسماعيل . والبارودى فى مناهجه ، وتصويره ، وتعبيره ، وخياله ، وفنه الشعرى مولع هنا بالبيئة العربية البدوية الصحراوية ، مقتد بمن روى عنهم ، وحفظ لهم ، وأعجب بهم من الشعراء الذين سلكوا هذا السبيل ، وجعلوا الغزل مقدمة للمديح . ومنهم كعب بن زهير بن أبى سلمى ، صاحب اللامية المشهورة التى مطلعها :

بانت « سعاد » ؛ فقلبى اليوم متبول　　متيم إثرها ، لم يفد ، مكبول

ومنها (بعد تقديم الغزل) :

إن الرسول لنور يستضاء بـه　　وصارم من سيوف الله مسلول

(٢٣) « أقول ... » : مقول هذا القول يأتى فى البيتين الثامن والعشرين ، والتاسع والعشرين : « ألا ، أيها الركب ... » و« قفا بى قليلاً ... » . والركب : الراكبون . مفرده راكب (بوزن صاحب وصحب) . ومن اللغويين من يخص الركب بركبان الإبل فى السفر ، دون غيرها من الدواب . وهم العشرة ، =

تَجِدُّ بِهِمْ كُومُ الْمَهَارِى لَوَاغِبًا عَلَى مَا تَرَاهُ ، دَامِيَاتِ الْمَنَاسِمِ(٢٤)

=فا فوقها . والمدلجون : جمع مدلج : اسم فاعل من أدلج القوم إدلاجاً : أى ساروا الليل كله . أو من أوله . أو فى آخره . وهفت بهم : أمالتهم ، وهزتهم . والكرى : النعاس . ورياح الكرى : الكرى الشبيه بالرياح ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . وإذا كانت الرياح تهفو بالشيء : أى تحركه ، وتذهب به ؛ فإن ركبان الإبل فى الصحارى إذا جهدهم السفر الطويل المضنى ، واشتد احتياجهم إلى النوم ، ذهب الكرى ، أو النعاس ، أو التهويم بحواسهم ، وحرك رءوسهم ، وأمال أعناقهم ؛ فمالت معها عمائمهم . وميل : جمع أميل ، أو ميلاء : بمعنى مائل ، أو مائلة . والطلى : الأعناق . أو أصولها أو صفحاتها . الواحدة طلية (بوزن مدية) . أو طلاة (بضم الطاء) . والعمائم جمع عمامة (بكسر العين) : وهى مايلف على الرأس .وفى البيت ثلاثة نعوت ل « ركب » : « مد لجين » . وجملة : «هفت بهم » . و« ميل الطلى والعمائم » .

يصف رفاقه ركبان الإبل الذين استوقفهم فى بعض الطريق على منازل حبه وهواه ؛ لتجديد ذكريات عزيزة عليه ، أثيرة لديه ، وقد ساروا الليل كله ؛ حتى جهدهم السفر ، وبرح بهم التعب ؛ فهوموا ؛ ومالت للنعاس أعناقهم ورءوسهم ، ومالت معها عمائمهم .

وفى أربعة الأبيات التالية لهذا البيت وصف ركائب هؤلاء المسافرين .

(٢٤) تجد (بكسر الجيم وضمها ، من بابى ضرب ، ونصر) : تجتهد . والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . ومثله تجد : مضارع أجد إجداداً . و« بهم » بالركب المد لجين . وكوم : جمع أكوم ، أو كوماء : وهو ما ضخم سنامه من الإبل . والمهارى (بفتح الراء وكسرها) : نجائب الإبل التى تسبق الخيل ؛ جمع مهرية : نسبة إلى قبيلة « مَهْرة بن حيدان » : من عرب اليمن . ولواغباً : حال من كوم المهارى : جمع لاغب ، أو لاغبة : اسم فاعل من اللغوب ، أو اللغب : وهو الإعياء ، والتعب الشديد . و« لواغب » ممنوع من الصرف أى التنوين . وإنما نون هنا لضرورة وزن الشعر . وفاعل « ترى » : ضمير المخاطب . أو ضمير « كوم المهارى » : أى تجد بالركب المدلجين كوم المهارى لواغب داميات المناسم ، كما تراها على الرغم من لغوبها ، وتجريح مناسمها . أو مع ما تراه هذه المهارى ، وتحس به من اللغوب وآلام المناسم . أوهى لواغب داميات المناسم بسبب ما تراه أى تكابده ، وتضانيه من طول السفر ومشقاته ، ووعورة الطريق وعقباته . وداميات : حال من « كوم المهارى » : جمع دامية : اسم فاعل من دمى الجرح (من باب صدى) : أى خرج منه الدم ، ولم يسل . والمناسم : جمع منسم (بوزن مجلس) : وهو طرف خف البعير ونحوه . وهو من الإبل كالظفر من الإنسان .

يقول : تسرع بهؤلاء الركبان فى السير — ركائبهم من الإبل الضخمة ، وقد دميت خفافها ، ومسها اللغوب ، وبرح بها التعب لبعد الشُّقّة ، وعظم المشقة ، وطول السفر ، وصلابة الأرض ، وصعوبة الطريق .

تُصِيخُ إِلَى رَجْعِ الْحُدَاءِ، كَأَنَّهَا ... تَحِنُّ إِلَى (إِلْفٍ) قَدِيمٍ مُصَارِمِ (٢٥)

وَيَلْحَقُهَا مِنْ رَوْعَةِ السَّوْطِ جِنَّةٌ ... فَتَمْرُقُ شُعْثًا مِنْ فِجَاجِ الْمَخَارِمِ (٢٦)

---

(٢٥) تصيخ : تصغى ، وتستمع ، وتنصت : من الإصاخة . وفاعله ضمير « كوم المهارى» فى البيت السابق . والحداء : الغناء للإبل ، لسوقها وتنشيطها ، وحثها على السير . ورجع الحداء : صداه ، وترديده ، وتكراره . وتحن : تشتاق . وفى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا نقص ، وخطأ ، وتصحيف ، وتحريف غير قليل . والكلمة التى بين قوسين ، وهى« إلف » تكملة من عندنا ، استقام بها المعنى ووزن البيت .والإلف : الأنيس ، والحبيب . ومصارم : مقاطع ، متباعد .

كان الحداة يحدون هذه الركائب لتنشيطها ، وتخفيف متاعب السفر والطريق ، وحثها على السير ؛ فتصغى إلى ترديد الحداء باهتمام واحتفال ، ويبدو عليها التأثر والانفعال ، كمن فارقه أليفه وحبيبه ، وطال عليه البعد والفراق ، فبرّح به الوجد والحنين .

والغرض تصوير شدة تأثير الحداء فى أسماع الإبل ومشاعرها ، وما ينتجه من نشاطها وخفتها .

(٢٦) ويلحقها : يلحق كوم المهارى : أى يدركها ويصيبها . (وبابه سمع) . و« من » هنا : للتعليل : أى بيان العلة والسبب : أى تلحقها الجنة بسبب روعة السوط . والروعة الفزعة : اسم مرة من راع منه : أى خاف ، وفزع . أو من راعه : بمعنى أخافه ، وأفزعه . (وبابه قال) . والسوط : ما يضرب به من جلد مضفور ، أو غير مضفور . سمى بذلك ؛ لأنه يخلط الدم باللحم . والجنة (بكسر الجيم) : الجنون ، وفساد العقل . ويراد بها هنا : فرط النشاط فى السير . وتمرق : تجتاز ، وتخرج فى سرعة . مستعار من « مرق السهم من الرمية » : أى اخترقها وخرج من الجانب الآخر فى سرعة (وبابه دخل) . وشعثاً : حال من فاعل « تمرق » جمع أشعث ، أو شعثاء : صفة من شعث الشعر (من باب تعب) : أى انتشر ، وتفرق ، واغبر ، واتسخ . أو تلبد ، وتغبر ، كشعر المسافر . والفجاج : جمع فجّ (بفتح الفاء) : وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين . والمخارم : جمع مخرم (بوزن مجلس) : وهو أنف الجبل . ويراد بالمخارم هنا : الجبال . وفجاج المخارم : الطرق والمسالك الجبلية . ومن معانى المخارم : الطرق الجبلية ، وأفواه الفجاج . وإضافة الفجاج إليها بهذا المعنى : من إضافة الشىء إلى مرادفه .

فى البيت السابق قال : إن الحداة ينشطون بالحداء هذه المطايا ، ويخففون به متاعبها ، ويحثونها به على ذلك السفر الشاق ، الطويل البعيد المضنى . وفى هذا البيت يقول: إنهم قد يضربونها ، أو يهددونها بما يحملونه من السياط ونحوها ؛ فترتاع ، وتنشط فى سيرها غاية النشاط ، وتجدّ ، وتسرع حتى تمرق من تلك الطرق الجبلية ، والمسالك الصحراوية ، كما يمرق السهم من الرميّة .

لَهُنَّ إِلَى الْحَادِى الْتِفَاتَةُ وَامِقٍ ؛ فَمِنْ رَازِحٍ مُعْىٍ ، وَآخَرَ رَازِمِ (٢٧)
أَلَا ، أَيُّهَا الرَّكْبُ الَّذِى خَامَرَ السُّرَى بِكُلِّ فَتًى لِلْبَيْنِ أَغْبَرَ سَاهِمِ (٢٨)

---

(٢٧) لهن : لكوم المهارى : أى لمطايا هؤلاء الركبان ورواحلهم . والحادى : من يسوق المطايا ويحثها على السير بالحداء : وهو الغناء لها . والتفاتة : اتجاهة : اسم مرة من التفت إلى الشيء : أى أقبل عليه ، وصرف وجهه إليه. ووامق : محبّ : اسم فاعل من ومقه (من باب وثق) : أى أحبّه ، وتعلق به . ويراد بالوامق هنا : المستعطف ، المسترحم . و« من» : بيانية : فهى تبين حال المطايا ، وتوضحها وتفصّلها . ورازح : ضعيف ، منهوك : اسم فاعل من رزح البعير (كمنع) : أى نُهِك ، وضعف وسقط ، ولصق بالأرض ، ولم يستطع النهوض أو الحركة ؛ بسبب الإعياء والتعب الشديد ، أو الضعف والهزال . والجمع روازح . ومعى : اسم فاعل من أعيا فى سيره إعياء : أى تعب تعباً شديداً ، وكَلَّ ، ونفدت قوّته . أو بصيغة اسم المفعول ، من أعياه السير إعياء : أى جهده ، وأعجزه ، واستنفد قواه . ورازم : رازح ، شديد الإعياء : اسم فاعل من رزم البعير ونحوه (من بابى دخل وجلس) : أى سقط من الإعياء ، أو الهزال ، ولم يتحرك . ويلاحظ أن « رازح » ، و« معى» و« رازم » بمعنى واحد . أو بمعان متقاربة ؛ فالشطر الثانى كله يؤكد — بهذه الكلمات المترادفة — ما انتهى إليه حال المطايا من الضعف والعجز والإعياء ؛ بعد أن براها طول السفر ومشقاته ، ووعورة الطريق وعقباته .

يقول : إن هذه المطايا جعلتْ تنظر إلى حاديها نظرات الاستعطاف والاسترحام ، لعله يقف بها قليلاً حتى تسترد بعض قواها التى استنفدها توالى السرى ، وطول السفر ، ومشقات الرحلة . والغرض من هذا البيت وأمثاله المغالاة فى تصوير هذه المشقات التى نهكت المسافرين ورواحلهم . وفى هذا كله تعظيم لشأن الممدوح ، وتنويه بقدره ، وطمع فى المزيد من إقباله على المادح ، وحفاوته به . وهو منهاج قديم مألوف فى شعر المديح الذى تأثّر به الشاعر ، كما تأثر بغيره من فنون الشعر العربى وأغراضه ومناهجه وخصائصه .

(٢٨) هذا البيت وما بعده مقول القول فى البيت الثالث والعشرين : « أقول لركب مدلجين ..» . و« ألا » : حرف استفتاح وتنبيه . وخامر السرى : خالطه ، ومارسه . أو لزمه ، ولم يفارقه . والسرى : السير ليلاً . أو سير عامة الليل (يذكر ، ويؤنث) . والفتى : الشابّ الحدث ، أول شبابه فى طراءة السن ، بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : فتى من صفته كيت وكيت . من غير تمييز بين الشيخ والشاب . والبين : الفراق . واللام فى « للبين » : معناها التعليل : أى فتى أغبر ساهم بسبب البين ؛ فالفراق علة غبرته وسهومه . وأغبر : مغبرّ اللون ، أو يعلوه الغبار : وهو مادق ونعم من التراب ، أو الرماد . وساهم : متغير اللون من همّ ونحوه . أو ضامر ضعيف ، مهزول ، نحيل . وأغبر وساهم صفتان لـ « فتى» . ولعله يشير بالشطر الثانى إلى نفسه ؛ فإنه الفتى المحب المستهام الذى خامر السرى ، وغبّره ، وضمّره ، وهزله ، وأضناه طول السفر ، وتتابع السهر ، وحرقة الوجد ، ولوعة الفراق .

قِفَا بِى قَلِيلًا، وَانْظُرَا بِىَ؛ أَشْتَفِى ... بِلَثْمِ الْحَصَى بَيْنَ اللِّوَى فَالنَّعَائِمِ (٢٩)

فَكَمْ عَهْدِ صِدْقٍ مَرَّ فِيــهِ، وَأَعْصُرٍ ... تَوَلَّتْ عِجَالًا دُونَ تَهْوِيمِ نَائِمِ (٣٠)

(٢٩) «قفا»: فعل أمر من الوقوف، مسند إلى ألف الاثنين. والشاعر يأمر الركب الذين يرافقهم فى ذلك السفر الطويل الشاق المضنى. ومعنى الأمر هنا: الالتماس. ويلاحظ أن الشاعر استعمل «الركب» استعمال الجمع فى البيت الثالث والعشرين: «أقول لركب مدلجين هفتْ بهم ...». وهو استعمال صحيح لاشكّ فيه. ثم استعمله فى البيت السابق: أى فى البيت الثامن والعشرين استعمال المفرد: «ألا، أيها الركب الذى خامر السرى ..». وهذا أيضاً استعمال صحيح، لا غبار عليه. وهو فى هذا البيت يأمر الركب، ويخاطبه خطاب المثنى: «قفا بى قليلاً، وانظرا بى، أشتفى ..». وهذا أيضاً جائز؛ فالعرب قد تقول: «افعلا» والمخاطب، أو المأمور واحد ليس غير. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لرفيقين اثنين من رفقاء الشاعر فى هذا الركب. ومخاطبة الرفيقين كثيرة فى لغة الشعر، وتعدّ من ميزاتها وخصائصها. ونرجّح بعد هذا كله أن تكون الألف فى «قفا» و«انظرا» بدلاً من نون التوكيد الخفيفة. والخطاب للركب، كما فى البيت السابق «ألا، أيها الركب الذى خامر السرى ... قفن ... وانظرن ...». كما فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة العلق: «كلاّ. لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية». وعلى هذا ضبطنا الألف منونة فى «قفاً بى ... وانظراً بى ...». وانظر: أى انتظر: أمر من النظر: بمعنى الانتظار. واشتفى بكذا: نال به الشفاء، وبرئ به من علّته. واللثم: التقبيل. (وفعله من بابى سمع، وضرب). والحصى: صغار الحجارة. واللوى (بوزن إلى): ما التوى من الرمل وانعطف، أو هو منقطع الرمل. أو مسترقّه. وجمعه ألواء، وألوية. والنعائم: أعلام مرفوعة يهتدى بها فى المفاوز والصحارى. واحدتها نعامة. والنعامة أيضاً: المحجّة، والطريق الواضح. وكل بناء على جبل يشبه الظلّة. والفاء المقترنة بالنعائم لا تفيد الترتيب فى مثل هذا الكلام. وإنما هى لمجرد العطف، ومطلق الجمع. شأنها هنا شأن الواو العاطفة. ويريد بـ«ما بين اللوى والنعائم»: منبت الحب، وموطن الهوى، والمكان الذى طالما رأى فيه حبيبته، ووجد فى لقائها راحته وسعادته. وهو يجد فى لثم حصاه علاجاً وراحة وشفاء لما يعانيه من تباريح الوجد والصبابة، ولواعج الهوى والغرام. ومن هذا القبيل قول الشاعر:

أمر على الديار ديار «ليلى» ... أقبّل ذا الجدار، وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حبّ من سكن الديارا

نادى رفاقه الذين طال به وبهم السرى فى ذلك السفر الطويل المضنى، والتمس منهم أن يقفوا به قليلاً فى منزل الحب والهيام، وموطن الهوى والغرام، ورأى فى تقبيل صخوره ورماله، ولثم أحجاره وحصاه علاجاً شافياً لما يكابده ويضانيه من حرارة الشوق والحنين، وحرق الوجد والصبابة.

(٣٠) «كم»: اسم ثنائى مبنى على السكون. يعبر به عن عدد مبهم القدر والجنس. وهى هنا خبرية تدل على عدد كثير. وتمييزها: «عهد صدق». والمعنى: أنه قد مر بالشاعر وحبيبته فى هذا المكان: =

أَبِيتُ لَهَا (دَامِي) الْجُفُونِ مُسَهَّدًا طَرِيحَ الثَّرَى مُحْمَرَّ طَرْفِ الْأَبَاهِمِ (٣١)

= « بين اللوى والنعائم » عهود كثيرة كلها صدق ووفاء . ومن معانى « العهد » : الزمان ، والموثق ، والحفاظ ، والالتقاء ، والمعرفة ، والوفاء ، والأمان ، والضمان ، والمودة ، ورعاية الحرمة ، والمنزل المعهود به الشيء ، وحفظ الشيء ، ومراعاته حالاً بعد حال . وكل هذه المعانى مناسبة هنا . و « فيه » : فى الحصى الذى ذكره فى البيت السابق ، وطلب أن يستشفى بلثمه وتقبيله . وأراد به منزل حبه ، وموطن غرامه ، بين اللوى والنعائم . ومر فيه : مر به . أو مر عليه ؛ فـ « فى » هنا : بمعنى الباء . أو بمعنى « على » . أو المعنى : أن عهود الصدق مرت بنا ونحن فى هذا المكان . والأعصر : جمع العصر (بفتح فسكون) : وهو اليوم ، والليلة ، والغداة ، والعشى إلى احمرار الشمس . وتولت : أدبرت ، وذهبت ، ومضت . وعجالاً : سراعاً : جمع عجلان ، وعجلى ، وتعرب حالاً من فاعل « تولت » : وهو ضمير الأعصر . و « دون » هنا : ظرف منصوب بمعنى « أقرب » . يقال هذا دون ذلك : أى أقرب منه . وهوم تهويماً : هز رأسه من النعاس . أو نام نوماً خفيفاً . أو شعر بحاجته إلى النوم . وتهويم النائم بهذه المعانى كلها : كناية عن العجلة والسرعة ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى « عجالاً » أى أن هذه العصور تولت فى برهة ، هى أقرب وأسرع من برهة تهويم النائم . وقد تكون « دون » هنا : بمعنى « قبل » : أى أن هذه الأعصار ذهبت فى سرعة وعجلة قبل أن يهوّم النائم : أى فى الفترة القصيرة التى بين يقظته وتهويمه . والغرض المغالاة فى تصوير سرعة التولى والإدبار والذهاب . وإذا كان الليل ، أو الزمن يطول فى حس المهموم ، أو الحزين ، أو المريض ، أو المفارق المشوق ، أو الصب العاشق الذى صد عنه حبيبه وهجره — فإن العصور والدهور ، والأيام والليالى ، على العكس من هذا فى حس المرح السعيد ، الهانئ المسرور ، الناعم البال مع أحبائه وأصفيائه ؛ إذ تمر بهم الأزمنة الطويلة عجالاً سراعاً ، قصيرة فى نظرهم غاية القصر .

يأسى ويتحسر على عهود ، وأزمنة ، والتقاءات ، ومودات كثيرة صادقة مرت به وبحبيبته فى هذا المكان « بين اللوى والنعائم » ؛ فسعد بها برهة ما لبثت أن تولت فى عجلة وسرعة . شأنها شأن كل أوقات الهناءة والسعادة ، وخلفت له بذهابها الهم والغم ، والأسى والوجد ، والقلق والأرق ، واللوعة والحرقة ، والذكريات والحسرات .

(٣١) « لها » : لعهود الصدق ، والعصور الذاهبة التى أشار إليها فى البيت السابق . واللام هنا تعليلية : أى أقضى الليالى ساهراً من أجل تلك العهود والأعصر : أى بسبب تلهفى عليها ، وحزنى على فواتها . وقد أشرنا من قبل إلى كثرة ما يعيب الأصل المخطوط الذى بين أيدينا من النقص ، والخطأ ، والتحريف والتصحيف . وكلمة « دامى » تكملة من عندنا استقام بها وزن هذا البيت ، وصح معناه : اسم فاعل من دمى الجرح (من باب صدى) : أى خرج منه الدم ، ولم يسل . ودمى الجفون : كناية عن كثرة البكاء وتتابعه . ومسهداً : مؤرقاً : اسم مفعول من التسهيد : وهو الإسهاد ، والتأريق ، وعدم النوم . وطريح : (فعيل بمعنى مفعول) : أى : ملقى مطروحاً على الثرى : وهو الأرض . والأباهم : جمع الإبهام : =

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا عُصَيْفِيرُ رَوْضَةٍ عَلَى مَلْعَبٍ مِنْ دَوْحَةِ الضَّالِ نَاعِمِ (٣٢)

يَصِيحُ ،فَمَا أَدْرِي : لِفُرْقَةِ صَاحِبٍ كَرِيمِ السَّجَايَا ،أَمْ يُغَنِّي لِقَادِمِ ؟ (٣٣)

= وهى الإصبع الغليظة الخامسة: كبرى أصابع اليد والرجل. مؤنثة، وقد تذكّر. ويراد بالأباهم هنا: إبهام اليد. واحمرار طرفها: إشارة، أو كناية عن لهفته وحسرته؛ إذ كان يعضّ أنامله على فوات تلك العهود والعصور فيجرّحها العضّ، فتدمى، وتلتّهب، وتحمر. أو أنه كان يمسح بأصابعه عينيه، فيعلق بأطرافها شىء من دم جفونه الدامية. و«دامى الجفون»، و«مسهّداً»، و«طريح الثرى»، و«محمر طرف الأباهم»: أربع أحوال من فاعل: «أبيت».

فى البيت السابق أسى وأسف، وتلهف وتحسر على فوات عهود وأزمان كانت مجالاً لمغامرات حبه وغرامه. وفى هذا البيت اشتدتْ حسراته ولوعاته؛ فبكى حتى دميتْ أجفانه. وعض أنامله من اللهفة والحسرة حتى التهبتْ واحمرتْ. وبرّح به الوجد والهم حتى بات الليالى ساهراً مؤرقاً، وأنهكه الضنى والسهاد حتى انطرح على الأرض، لا يستطيع الحركة أو النهوض. وفى ثلاثة الأبيات الآتية قصة عصفور وصلها الشاعر بغزله، ومهد بها للغرض الأساسى من هذه القصيدة، وهو مدح «الخديو إسماعيل».

(٣٢) هاجنى: أثارنى. والمراد حرك أشجانى، وضاعف أشواقى. وعصيفير: تصغير عصفور. وقد يكون المراد بالتصغير هنا: التمليح: أى الإشارة إلى ملاحته، وبهجته، وحسن منظره، وجمال هيئته، ولطافته، وخفة حركته. والروضة: أرض مخضرّة بأنواع النبات. وجمعها روض، ورياض. و«من» بيانية، ودوحة الضال بيان الملعب، والدوحة: الشجرة العظيمة المتشعّبة ذات الفروع الممتدة. وجمعها دوح. وجمع الدوح أدواح. والضال: السدر البرىّ. أو ما يسقيه المطر منه: وهو شجر النبق. واحدته ضالة. وناعم: نعت لملعب. ومعناه: ناضر، بهيج، طيب الورق، لين الملمس.

وصف الشاعر فى الأبيات ٢٣ – ٣١ سفره مع الركب المدلجين، كما وصف رواحلهم، وشكا ما أصابها وأصابهم فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة من الجهد والإعياء. ومر بموطن عزيز عليه، أثير لديه، فبكى عهود صدق كانت له فيه. وفى هذا البيت رأى عصفوراً مليحاً فى روضة أريضة زاهرة فوق شجرة عظيمة ضخمة من أشجار السدر البرى، هى ملعب كبير نضير من ملاعب الطير؛ فأثارت رؤيته أشجانه، وهاجت مشاعره، وجددتْ ذكرياته، وأججتْ أشواقه إلى من يحب. ولا غرو، فإن هذا المنظر البهيج فى هذا الملعب النضير ذكّره بماضيه السعيد فى نشوة الحب والغرام، وبهجة التلاقى والوصال.

(٣٣) كريم السجايا: كريم الأخلاق، حميد الخصال: جمع سجيّة: وهى الطبيعة، والخلُق. وفى البيت استفهام «همزته محذوفة». وحذفها كثير مألوف فى الشعر العربى. والغرض منه التمهيد للمديح. وتقدير الكلام: يصيح هذا العصيفير؛ فلست أدرى: أيصيح حزناً، وأسى؛ لأنه فارق صاحباً كريم السجايا، أم يغنى ابتهاجاً وسروراً بقدوم قادم عزيز عظيم؟. والبيت الآتى يعين المعنى الثانى. وفيه، وفى الأبيات التالية انتقال إلى صريح المديح.

كَأَنَّ الْعُصَيْفِيرَ اسْتُطِيرَ فُؤَادُهُ ... سُرُورًا بِرَبِّ الْمَكْرُمَاتِ الْجَسَائِمِ (٣٤)

أَبُو الْمَجْدِ، نَجْلُ الْجُودِ، خَالُ زَمَانِهِ ... أَخُو الْفَخْرِ «إِسْمَاعِيلُ»، خِدْنُ الْمَكَارِمِ (٣٥)

قَشِيبُ الصِّبَا، كَهْلُ التَّدَابِيرِ، جَامِعٌ ... صُنُوفَ الْعُلَا وَالْمَجْدِ فِي صَدْرِ جَازِمِ (٣٦)

---

(٣٤) استطير فؤاده : طُيِّر قلبه : أى ذُهِب به بسرعة، كأن الطير حملتْه ، وطارتْ به . وهو تعبير عن فرط الفرح ، وعظم السرور . كما يقال : استخفّه الطرب : إذا هزه الفرح ، وأثاره السرور ، أو ارتاح أشد الارتياح . وسروراً : مفعول لأجله . والمكرمات : أفعال الكرم والخير والبرّ والجود والإحسان . واحدتها مكرمة . وربها : صاحبها ، والمنعم بها . والجسائم : العظيمات : جمع جسيمة أو جُسامة .

أطرى الشاعر ممدوحه ، ونوه بمكارمه العظيمة ، وما يسديه إلى الناس من النعم الجليلة ، وتخيل أن العصفور أدرك فيه هذه الفضائل ؛ فاستخفّه الطرب ، وهزه الفرح بمقدمه ، أو بتوليه ملك مصر .

(٣٥) المجد : العز ، والنبل ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء ، والمكارم المأثورة عن الآباء . وأبو المجد : صاحبه . أو أصله ، ومعدنه . والنجل : الولد . أو النسل . أو الأصل . أو الوالد . والجود : البذل والسماح ، والعطاء والسخاء فى المكرمات والمحامد ، والمبرّات ، والخيرات . وخال : سمح : أى سخى ، جواد ، كريم ، معطاء . وخال زمانه : جواد زمانه الذى لا يجارى ، ولا يبارى فى كرمه وجوده وسخائه . وخال الشيء : صاحبه ؛ فهو صاحب زمانه ، المهيمن عليه ، المتصرف فيه : بمعنى أن الزمن يسعده ، ويواتيه ، ويجرى على ما يحبه ويرتضيه . أو هو من قولهم : رجل خال مال : أى يتعهده ويصلحه ، ويرعاه ، ويحسن القيام عليه ؛ فالممدوح يشغل زمانه ويعمره بالنافع المفيد ، القيم الصالح من الأقوال والأعمال . والخال : ما توسمت فيه خيراً ؛ فالممدوح حسن المخيلة ، يتوسم فيه الخير : أى يتفرس ، ويتخيل : أى يرتقب الناس خيره فى ثقة واطمئنان . وفى الخال هنا تورية بالخال أخى الأمّ . والفخر : الافتخار والابتهاء ؛ فمن حق الممدوح أن يفتخر بمزاياه وفضائله . وقد يراد بالفخر هنا : المفاخر : أى المحامد والأعمال الكبيرة الكريمة التى يتباهى بها الناس ويتفاخرون . وأخو الشيء : صاحبه وملازمه . والخدن : الصديق ، والصاحب ، والخليل ، والحبيب . والمكارم : المكرمات ، الواحدة مكرمة : وهى ما يحمد ويمدح ، ويتصل بالخير والبر والإحسان من الأعمال والأقوال والسجايا والأخلاق والصفات .

(٣٦) قشيب : جديد . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر ، والحداثة . ويراد به هنا : الفتاء والشباب . ويلاحظ أن الخديو إسماعيل تولى حكم مصر سنة ١٨٦٣ وسنه يومئذ نحو اثنتين وثلاثين سنة . وهى قريبة من سنّ الفتاء والشباب . أو هى فى دائرة الفتاء والشباب . كما يلاحظ أن هذه القصيدة فى تهنئته بالولاية والحكم . ويراد بقشابة الصبا ، وجدّة الشباب : ما يمتاز به الشبان من الفتوة ، والنجدة ، والطموح ، والنشاط ، وبُعد الهمة ، واتساع الآمال . وكهل : صفة من الكهولة : وهى سنّ الإنسان فوق الثلاثين =

تَجَمَّعَ فِيهِ الْحِلْمُ، وَالْبَأْسُ، وَالنَّدَى فَلَيْسَ لَهُ (فِي) مَجْدِهِ مِنْ مُزَاحِمِ (٣٧)

ذَكَاءُ «أَرِسْطَالِيسَ» فِي حِلْمِ «أَحْنَفٍ» وَهِمَّةُ «عَمْرٍو» فِي سَمَاحَةِ «حَاتِمِ» (٣٨)

= إلى الخمسين . وفيها ينضج عقله ، ويتمّ رشده ، ويقوى إدراكه ، ويسمو تفكيره ، ويستحكم تدبيره . والتدابير : جمع التدبير : مصدر دبر الإنسان الأمر : أى تفكّر فيه ، وساسه ، ونظر فى عاقبته . والعلا : الرفعة والشرف . ومثله العلاء . أو هو جمع العليا : مؤنث الأعلى . وصنوف العلا : أنواعها وصفاتها . ويراد بصدره : شخصه . وحازم : صادق العزم ، قوى الإرادة ، قاطع الرأى ، لا يساوره ضعف أو تردد . أو هى « حازم » : من حزم الرجل رأيه ، أو أمره (من باب ضرب) : أى ضبطه ، وأتقنه ، وأحكمه ، وأخذ فيه بالثقة .

مدحه بقشابة الصبا ، مشيراً إلى نضرة شبابه يوم تولى حكم مصر ، منوّها بما يمتاز به الشبان الأخيار — وبخاصة شبّان الحكّام ، وأبناء الملوك — من الفتوة والنجدة ، والنشاط ، والطموح ، وبعد الهمم وسمو المقاصد ، واتساع الآمال . وقال : إنه مع هذا كله — امتاز بسداد الرأى ، ونضج العقل ، وتمام الرشد ، وقوة الإدراك ، وصحة التفكير . وإحكام التدبير . وجمع فى شخصيته الفذّة صدق العزم والحزم ، وصفات المجادة والنبل ، وأنواع المعالى والمكرمات .

(٣٧) الحلم : الأناة ، وضبط النفس ، والصفح ، والصبر ، والعقل . والبأس : القوة ، والشجاعة ، والشدة . والندى : الجود ، والسخاء ، والفضل ، والخير . وكلمة « فى » فى الشطر الثانى تكملة من عندنا للأصل المخطوط الذى بين أيدينا ؛ وبها استقام وزن البيت ومعناه . و« من » زائدة لتقوية الكلام ، وتوكيد معناه ، والتنصيص على العموم . ومن أمثلة زيادتها بعد النفى قول الله تبارك وتعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » (الآية رقم ٥٩ من سورة الأنعام) . وقوله عزّ وجلّ : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » (الآية رقم ٣ من سورة الملك أى سورة تبارك) . ومزاحم : مقارب ، مدان : أى لا يدانيه أحد فى مجده ، ولا يقاربه ، ولا ينافسه . ومزاحم : اسم ليس مؤخر . ومتعلق الجار والمجرور « له » خبرها المقدم . و« فى مجده » متعلق بـ « مزاحم »

(٣٨) « ذكاء » خبر لمبتدإ محذوف : أى ذكاء الممدوح ذكاء أرسطو . أو مبتدأ وخبره محذوف أى له ذكاء أرسطو . والذكاء : سرعة الفهم ، وتوقد الذهن ، وقوة العقل ، وحدة التفكير وعمقه . و« أرسطاليس » . أو أرسطو . أو أرسطو طاليس (٣٨٤ — ٣٢٢ق م) : فيلسوف يونانى من كبار مفكّرى البشرية . تعلّم فى أثينا ، وأخذ الفلسفة عن « أفلاطون » فيلسوف اليونان قبله ، واتصل بالملك « فيليبس » حاكم « مقدونيا » ، وتولى تأديب ابنه « الإسكندر الأكبر » . وألّف فى الفلسفة ، والمنطق ، والأخلاق ، والسياسة ، والفن ، والبلاغة ، والفلك ، والحيوان ، والطبيعيات ، والإلهيات وما بعد الطبيعة ، أى ما وراء المادة . وبمؤلفاته الكثيرة — التى نقلها التراجمة السريان إلى اللغة العربية تأثرت بوادر التفكير الفلسفى العربى . و« فى » فى شطرى هذا البيت : معناها المصاحبة : أى للممدوح ذكاء أرسطو مع حلم « أحنف » . وله همة « عمرو » مع سماحة « حاتم » . و« الأحنف بن قيس » =

لَهُ تَحْتَ أَسْتَارِ الْغُيُوبِ . وَفَوْقَهَا عُيُونٌ تَرَى الْأَشْيَاءَ . لَا وَهْمُ وَاهِمِ (٣٩)

= (٣ ق هـ – ٦٧ هـ) (٦١٩ – ٦٨٦ م) : أبو بحر ، الضحاك بن قيس ، بن معاوية التميمي ، الملقب بالأحنف ، سيد تميم ، وأحد العظماء ، الدهاة ، الفصحاء ، الشجعان ، الفاتحين . يضرب به المثل فى الحلم ، ورجاحة العقل . ولد بالبصرة ، وأدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يره . ووفد على عمر بن الخطاب فى المدينة حين آلت إليه الخلافة . وشهد الفتوح الإسلامية فى خراسان. ثم شهد موقعة « صفين » مع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وولى خراسان . وكان صديقاً لمصعب بن الزبير أمير العراق ، فوفد عليه بالكوفة ، فتوفى فيها عنده . و« أحنف » ممنوع من الصرف أى التنوين : وإنما صرف هنا : أى نون لضرورة وزن الشعر. والأحنف (فى الأصل) : الملتوى الساقين : من الحنف : وهو الاعوجاج فى الرجْل . والهمة : العزم القوىّ . وجمعها همم . وعمرو بن معدى كرب الزبيدى : فارس اليمن المضروبَ به المثل فى شدة البأس والشجاعة والإقدام . ومن أصحاب النجدة والقوة البدنية فى الجاهلية والإسلام . شهد معركة القادسية ، ثم توفى فى حصار نهاوند سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) . وهو الذى عناه أبو تمام فى بيته المشهور من قصيدته السينية الذائعة التى مدح بها الأمير أحمد بن الخليفة المعتصم بالله العباسى :

إقدام « عمرو » فى سماحة « حاتم » فى حلم « أحنف» فى ذكاء إياس

والتشابه قوى واضح بين البيتين : بيت أبى تمام ، وبيت البارودى . وربما أراد البارودى فى بيته : « عمرو بن العاص » (٥٠ ق هـ – ٤٣ هـ) (٥٧٤ – ٦٦٣م) : فاتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب ، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأبطالهم الفاتحين ، وأولى الهمة والرأى والحزم والعزم والمكيدة فى الجاهلية والإسلام . والسماحة : الجود والعطاء والبذل فى العسر واليسر عن كرم وسخاء . و« حاتم بن عبد الله الطائى » : أبو عدى ، المتوفى سنة ٤٥ ق هـ (٥٧٨م) : فارس شاعر من أجواد العرب فى الجاهلية ، صيته ذائع خالد . وبجوده وسماحته يضرب المثل .

جمع الشاعر لممدوحه فى هذا البيت أربع فضائل ، وقرنه بأربعة من عظماء العرب والعجم . وقد أشرنا من قبل إلى التشابه ، بل التوافق الظاهر بين هذا البيت وبيت أبى تمام .

(٣٩) الأستار : جمع ستر (بوزن شبر وأشبار) : وهو ما يستر به الشىء : أى يغطى ، ويحجب . والغيوب : جمع غيب : وهو كل ما غاب عنك : أى استتر ، وخفى ، واحتجب . والوهم : التوهم ، والتخيل . وهو أضعف من الظن فى مراتب الإدراك . وواهم : اسم فاعل منه (وبابه وعد) .

يمدحه بالفطنة ، وقوة الإدراك ، والبصيرة النافذة التى تهتك ستور الخفايا ، والذكاء الخارق الذى يكشف محجّبات الأمور ، ويرى الأشياء عياناً ويقيناً ، لا توهّماً أو تخيّلاً .

فَنَظْرَتُهُ وَحْىٌ . وَسَاكِنُ صَدْرِهِ فُؤَادُ خَبِيرٍ . نَاطِقٍ بِالْعَظَائِمِ (٤٠)

تَكَادُ لِعُلْيَــاهُ الْمَلَائِكُ تَرْتَمِى عَلَى كَتِفَيْهِ . كَالطُّيُورِ الْحَوَائِمِ (٤١)

أَرَاهُ . فَيَمْحُونِى الْجَلَالُ . وَأَنْتَحِى أُغَالِطُ أَفْكَارِى . وَلَسْتُ بِحَالِمِ (٤٢)

---

(٤٠) النظرة : اسم مرة من نظر الشيء ، ونظر إليه : بمعنى أبصره ، وتأمله بعينيه . أو هى من نظر فى الأمر : بمعنى فكر فيه ، وتدبره . أو هى من نظر بين الناس : بمعنى حكم بينهم ، وفصل . والوحى مصدر وحى الله فى قلب عبده كذا (من باب وعى) : أى ألقاه فى روعه . أو ألهمه إياه . أو وفقه له . و يطلق الوحى على ما يوحى به . ونظرة الممدوح وحى : أى نظرته ثاقبة سديدة ، صادقة صائبة ، كأنها من إلهام الله . والفؤاد : القلب . وقد يراد به العقل والوعى والفهم والإدراك . قال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » (الآية ٤٦ من سورة الحج) . وفؤاد خبير : عقل امرئ خبير : صفة من الخبرة : وهى العلم عن تجربة . وناطق : صفة لخبير . والعظائم : جمع عظيمة : صفة من عظم الشيء : أى جل وكبر ، وفخم . أو من عظم عليه الأمر : بمعنى شق ، وصعب ، وعزّ ، واستعصى : يريد أن لسان الممدوح يجرى بالعظيمات : أى بالحكم ، وجوامع الكلم . أو بما يناسب عظمته وهيبته وجلاله ، أو يوضح بمنطقه ما يستعصى على غيره من مشكلات الأمور ، وصعاب المسائل .

والمعنى : أن نظرات الممدوح ثاقبة صائبة ، سديدة رشيدة ، كأنها إلهام من الله الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور . وبهذه النظرات يحيط الممدوح بما خفى ودقّ وغمض على غيره من صفات المنظور وأحواله ، ودقائقه وخفاياه . أما عقله فإنه عقل رجل عظيم ، واسع الخبرة ، ناضج التجارب . وإذا تكلم سمع الناس منه ما يناسب عظمته وجلاله ، و ينم على فطنته وخبرته .

(٤١) كاد يفعل كذا : همّ به ، وقاربه ، ولم يفعله . والعليا (بوزن الكبرى) : مؤنث الأعلى اسم تفضيل من العلو . أو هى العلياء (بوزن الحسناء) ، وقصرتْ لضرورة وزن الشعر . ومعناها الشرف ، وكل شيء مرتفع . ويراد بعليا الممدوح أو عليائه : شرفه ، ومجده ، وسودده . وسمو مكانته ، وارتفاع قدره . والملائك : الملائكة . واحدها ملك (بفتح الميم واللام) . وترتمى : تقع ، كما يقع الطير على الشجرة . مطاوع رماه ، فارتمى . والحوائم : جمع حائم ، أو حائمة : اسم فاعل من حام على الشيء وحوله : أى دار به ، وطاف . أو من حام الشيء : بمعنى رامه ، وأراده ، وطلبه . أو من حام : بمعنى عطش . (وبابه قال) .

نوه الشاعر بشرف ممدوحه وسودده ، وعلو منزلته . وغالى فى مدحه ؛ فقال : إن الملائكة تكاد تقصد إليه ، وتقع على كتفيه . وشبهها بالطيور الحوائم ، تطلب الماء ، فتقصد إليه . أو تطلب منازلها من الأشجار العالية ، فتحوم ، وتدور ، ثم تقع عليها ، وتسكن إليها .

(٤٢) محاه يمحوه ، ويمحيه ، ويمحاه : أزاله ، وأذهب أثره . والمراد أن جلال الممدوح : أى عظمته ومهابته بهرتْه ، وأدهشتْه ؛ حتى تضاءل فى حضرته . وأنتحى : أميل إلى ناحية . وغالطه : —

وَتُوهِمُنِي نَفْسِي الْكِذَابَ سَفَاهَةً ... أَلَا ـ إِنَّمَا الْأَوْهَامُ طُرْقُ الْمَآثِمِ (٤٣)

هُوَ السَّيْفُ، فِي حَدَّيْهِ لِينٌ وَشِدَّةٌ ... فَتَلْقَاهُ حُلْوَ الْبِشْرِ، مُرَّ الْمَطَاعِمِ (٤٤)

= أوقعه فى الغلط . والأفكار : جمع فكر : وهو ما يخطر بالقلب من المعانى . أو إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . أو أن يطلب الخاطر المعانى بترديد التأمّل ، وطول التدبّر . أو النظر والروية . ويريد بأفكاره هنا : خواطره ، وهواجسه ، وما تحدثه به نفسه فى جو الدهش والانبهار . ومغالطة الأفكار : تخطئتها . وحالم : اسم فاعل من الحلم : وهو رؤيا النائم .

والمعنى : أنظر إلى الممدوح ، فأتهيبه ، وتبهرنى جلالته ، وأتضاءل فى حضرته ، وأخلو بنفسى تساورنى خواطرى وهواجسى ، فتوهمنى ، أو تخيل إلىّ — لفرط الدهش والانبهار ، والمهابة والجلال — أنى نائم حالم ؛ فأخطئها بحقيقة الحال ، وهى أنى متيقظ ، ولست بنائم ، ولا حالم . ويلاحظ أن الشاعر — على غير عادته — جانب مذهب القصد والاعتدال فى هذا البيت ، والبيتين السابق واللاحق ، وجنح للتزيد والمغالاة ، فأسرف وأفرط ، وركب لهذا متن التكلف والتعسف .

(٤٣) الوهم : ما يقع فى الخلد : أى يخطر بالبال : أى الذهن ، أو القلب من الخواطر ، والهواجس ، والوساوس ، وجمعه أوهام . ووهمتُ الشىء (من باب وعد) : دار فى خاطرى ، ووقع فى خلدى . وأوهمنيه غيرى : أداره فى بالى . والكذاب : الكذب . والسفاهة : الجهل . وتوهمنى نفسى الكذاب : أى توقع فى ذهنى الوهم المشار إليه فى البيت السابق ، وهو أنى حالم . وهذا وهم كاذب ، لا حقيقة له . و «ألا» : حرف استفتاح ، وتنبيه . وتدل على تحقق مابعدها . والمآثم : جمع مأثم (بوزن مذهب) : وهو الإثم والذنب .

يقول : إن نفسه — لشدة تأثرها بجلالة الممدوح وعظمته — تذهل عن الحقيقة والواقع المذهل ، وتجنح للجهل والسفاهة ؛ فتوهمه أنه حالم ، وهو وهم كاذب . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فما الأوهام إلا طرق تنتهى بالواهمين إلى الخديعة والكذب ، والإثم والضلال . وقد أشرنا من قبل إلى المغالاة التى أخرجتْ هذا البيت والبيتين اللذين قبله من دائرة القصد والاعتدال .

(٤٤) حد السيف ونحوه : مقطعه وشفرته ، وطرفه الرقيق الحاد القاطع . والبشر : البشاشة ، وطلاقة الوجه . والمطاعم : الأطعمة جمع مطعم (بوزن مذهب) : وهو الطعام الذى يؤكل . أو هو مصدر ميمى من طعم الشىء (من باب فهم) : أى ذاقه ، أو أكله . ومرارة مطاعم الممدوح : كناية عن أن عرضه مصون موفور ، لا يؤكل ، ولا ترقى إليه إساءة أو تجريح . أو كناية عن شدة بأسه ، ومرارة عقوبته إذا غضب . وتلقاه : تلقى الممدوح : أى تلقاه حلو البشر إذا رضى ، ولان ؛ ومر المطاعم إذا غضب واشتد . أو تلقاه : تلقى السيف . وحلاوة بشره فى رونقه وتلألئه . ومرارة طعمه فى أنه أداة الفتك والإهلاك .

يقول : إن ممدوحه كالسيف فى حده لين ورقة . وفيه مع هذا صلابة وشدة ؛ فإذا رضى كان حلو البشر ، طلق الوجه ، رحيب الباع ، خصيب الجناب ؛ وإذا غضب كان قوى البأس ، شديد البطش ، صعب المراس ، مرّ العقاب .

تَرَاهُ لَدَى الْخَطْبِ الْمُلِمِّ مُجَمِّعًا عُرَا الْحِلْمِ ، ثَبْتَ الْجَأْشِ ، مَاضِي الْعَزَائِمِ (٤٥)

لَهُ النَّظْرَةُ الشَّزْرَاءُ ، يَعْقُبُهَا الرِّضَا لإِسْعَافِ مَظْلُومٍ ، وَإِرْغَامِ ظَالِمِ (٤٦)

فَلَوْلَا نَدَى كَفَّيْهِ أَوْقَدَ بَأْسُـهُ لَدَى الرَّوْعِ أَطْرَافَ الظُّبَا وَاللَّهَاذِمِ (٤٧)

---

(٤٥) « لدى » : ظرف مكان ، أو زمان : بمعنى « عند » . والخطب : النازلة ، والحادث الجلل ، والشديدة من شدائد الدهر ، والأمر العظيم المكروه يكثر فيه التخاطب . والملمّ : اسم فاعل من ألمّ به إلماماً : أي حل ، ونزل . والعرا : جمع عروة : وهي من القميص أو الثوب : ما يدخل فيه الزر عند شده . وتجميع عرا الحلم : تعبير مجازيّ ، يراد به ضبط النفس ، والاستمساك بالحلم ، وادراع الصبر ، وتحكيم العقل ، والاهتداء بوحيه وتوجيهه . وثبت : ثابت ، رابط . والجأش : القلب أو النفس . وماض : قاطع ، نافذ . والعزائم : جمع العزيمة : وهي الإرادة القوية المؤكّدة ، وما عزمت عليه : أي أردت فعله ، وعقدت عليه نيتك ، وصممت فيه .

مدحه بما ينبغي أن يتدرع به الرجل العظيم في الخطوب والملمّات من رباطة الجأش ، وقوة الإرادة ، والاعتصام بالصبر ، والاهتداء بالعقل ، وتجميع عرا الحلم ، ولقاء المكاره في شجاعة وبسالة وإقدام . ولا ريب أن هذه المزايا تعين المرء على مكافحة البلايا والنوازل ، وترد عنه عاديات الدهر ، ونوائب الزمان ، أو تخفف وقعها ، وتضعف أثرها ؛ لأنه يلقاها بما يكافئها ، بل يفوقها من قوى النفس والعقل والتدبير والإيمان .

(٤٦) نظرة شزراء : نظرة غضب ، أو إعراض ، أو بغض وكراهية . ويعقبها (من بابي نصر وضرب) : يخلفها ، ويتلوها ، ويأتي على إثرها . أو هي يعقبها : مضارع أعقبه إعقاباً : بالمعنى السابق . وأسعفه إسعافاً : ساعده ، وأعانه . أو واتاه ، وقرب منه في مصافاة ومعاونة . والرغام (في الأصل) : التراب . وأرغمه إرغاماً : ألصقه بالرغام : أي ألقاه في التراب . ومن المجاز : أرغمه : أي أذله ، وقسره وقهره ، وأهانه .

والمعنى : أن الممدوح يرضى ، ويغضب لإقامة العدل ، وفي سبيل الإصلاح ، ورد المظالم ؛ فالمظلوم منه الرضا والاهتمام ، والإسعاف وعاجل الإنصاف . وللظالم الغضب والمقت ، والإرغام والقسر حتى يقلع عن ظلمه ، ويسلك سبيل الرشاد . وفي البيت مبالغة لطيفة محمودة ؛ فالنظرة الشزراء من الممدوح إلى الظالم تكفي لردعه وزجره وكفّه عن الظلم والعدوان . ومعنى هذا البيت قريب من معنى البيت الرابع والأربعين : « هو السيف في حديه لين وشدّة .. »

(٤٧) « لولا » حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره . وهي هنا داخلة على جملتين اسمية ففعلية ، لربط امتناع الثانية بوجود الأولى ؛ فالموجود ندى كفّيه . والممتنع إيقاد بأسه أطراف الظبا واللهاذم . والندى : البلل والمطر . وبخار الماء يتكاثف في طبقات الجوّ الباردة في أثناء الليل ، ويسقط على الأرض قطرات صغيرة . ويستعمل الندى مجازاً في الجود والخير ، والفضل والسخاء . والبأس : الشجاعة ، =

وَلَوْلَا ذَكَاهُ أَعْشَبَتْ بِيَمِينِـــهِ قَنَا الْخَطِّ .وَاخْضَلَّتْ طُرُوسُ الْمَظَالِمِ (٤٨)

لَهُ (بَيْتُ) مَجْدٍ .رَفْرَفَتْ دُونَ سَقْفِهِ حَمَامُ الدَّرَارِى . مُشْمَخِرُّ الدَّعَائِمِ (٤٩)

ـــ والقوة ، والشدة فى الحرب . والروع : الفزع . ومن المجاز : شهد الروع : أى الحرب . والظبا : جمع ظبة : وهى حد السيف ، أو السنان ، أو نحوهما . واللهاذم : جمع لهذم (بوزن جعفر) : وهو الحاد القاطع من السيوف والأسنة ونحوها .

ورّى الشاعر بالمعنى الحقيقى للندى (وهو قريب ظاهر غير مراد) عن المعنى المجازى (وهو البعيد المراد) ، وستره بالإيقاد ؛ فالندى بمعنى الماء هو الذى يطفئ النار الموقدة . والممدوح شجاع ، قوى ، شديد البأس فى الحروب . ومن شأن هذه الشدة أن تكثّر الجلاد والضراب ، والوخز والطعان . ، ومن شأن هذه الكثرة أن تجعل أطراف الظبا واللهاذم ، وما يستخدمه من أسلحة الحرب وأدوات القتال – تتقد فى كفيه لولانداهما . والمعنى المجازى البعيد المراد : أنه سخى جواد كريم معطاء ؛ فكفاه نديتان بالمعروف والإحسان . ويداه مبسوطتان بالخير والإنعام . وفى ظل المعنى القريب لهذه التورية نوه الشاعر بشجاعة الممدوح ، وإقدامه ، وشدة بأسه فى الحروب ، وتمرسه باستخدام أسلحة القتال والنزال « أو قد بأسه لدى الروع . . »

(٤٨) الذكا : الذكاء (يقصر ، ويمد) . وأعشب المكان : نبت فيه العشب : وهو الكلأ الرطب . ولو قال : « أورقت » بدلاً من « أعشبتْ » لكان أولى وأليق . وأورق الشجر : نبت ورقه وظهر . ويمينه : يده اليمنى . والقنا : جمع قناة : وهى الرمح الأجوف . و« قنا الخط » فاعل « أعشبتْ » والقنا (فى الأصل) : أغصان مستقيمة من الشجر . والشجر إذا وجد الندى أورق واخضر ونضر . والخط : موضع ، أو مرفأ للسفن فى بلاد البحرين تباع فيه الرماح ، وتنسب إليه . واخضلتْ : نديتْ ، وابتلتْ . والطروس : جمع طرس (بوزن ضرس) : وهو الصحيفة . والمظالم : جمع مظلمة : وهى ما تطلبه عند الظالم . أو ما احتملته من الظلم . أو ما أخذ منك ظلماً . والمظلمة : مصدر بمعنى الظلم . وطروس المظالم : صحائف شكوى الظلم .

يقول : إن يد الممدوح ندية كريمة سخية ، مبسوطة بالخير والبر والمعروف والإحسان . ولولا ذكاؤه أى حدة ذهنه ، وتوقد قريحته لأورق بندى يمناه ما يمسكه من الرماح ، وابتل بهذا الندى ما بين يديه من صحائف الظلامات التى يرفعها إليه المظلومون . والشاعر فى هذا البيت والبيت السابق يجنح للتكلّف ، ويغالى فى المدح ويتزيد ، ويتجاوز حد القصد والاعتدال ، ويتلاعب بالألفاظ ؛ فالذكاء يحمل معنى التوقد والتلهب والاشتعال ، ولولاه لأورقتْ الرماح فى يديه النديتين ، وابتلتْ صحف الظلامات : إذ التوقّد يجفف الندى ، ويزيل أثره . والندى يطفىء التوقّد ويخمده . ولولاه لاتقدتْ فى يده أسلحة القتال .

(٤٩) أسلفنا أن الأصل المخطوط الذى بين أيدينا يعيبه نقص ، وخطأ ، وتحريف ، وتصحيف غير قليل . والكلمة التى بين القوسين « بيت » تكملة من عندنا ، أضفناها إلى هذا الأصل الناقص ؛ ـــ

فَمَنْ رَامَهُ . فَلْيَتَّخِذْ مِنْ قَصَائِدِى سُطُورًا إِلَى مَرْقَاهُ مِثْلَ السَّلَالِمِ (٥٠)

فَيَابْنَ الْأُلَى سَادُوا الْوَرَى ،وانْتَهَوْا إِلَى تَمَامِ الْعُلَا مِنْ قَبْلِ نَزْعِ التَّمَائِمِ (٥١)

أُهَنِّيكَ بِالْمُلْكِ الَّذِى طَالَ جِيدُهُ بِعِزِّكَ ، حَتَّى حَلَّ بَيْتَ النَّعَائِمِ (٥٢)

= فاستقام بها انتظم والمعنى . ويراد بالبيت : بيت الولاية ، والملك الذى أسّسه جدّ الممدوح : وهو محمد على باشا الكبير . أو يراد بالبيت : الأسرة المحمدية العلوية . ورفرف الطائر : بسط جناحيه وحركهما . و « دون » هنا : بمعنى « تحت » . والدرارىّ : النجوم الثاقبة المضيئة ، والكواكب اللامعة المتلألئة ، واحدها درىّ . نسبة إلى الدرّ : وهو اللآلئ العظام . وحمام الدرارىّ : الدرارىّ المشبّهة بالحمام ؛ فهو من إضافة المشبّه به إلى المشبّه ؛ ومشمخرّ : عظيم الطول والعلوّ والارتفاع . وهو صفة لـ « بيت » . والدعائم : جمع دِعامة (بوزن رسالة) : وهى عماد البيت الذى يقوم عليه . ورفرفة الدرارىّ تحت سقف البيت : كناية عن إغراقه فى السموّ والارتفاع . وكذلك اشمخرار دعائمه . وهذا كله تصوير حسّىّ لمجادة أسرة الممدوح ، وشرف محتده . وقد رفع الشاعر ذلك البيت فوق الكواكب والنجوم .

(٥٠) رامه : رام بيت الممدوح : أى أراده ، وقصده . والسطور : جمع السطر : وهو الصف من كل شىء . والسطور المتخذة من قصائده : كلما ته فى مدح ذلك البيت وتمجيده . والمرقى : مصدر ميمى بمعنى الرقى : مصدر رقى الجبل ونحوه (كرضى) : أى صعد فيه ، وعلاه . والسلالم : جمع السلم . والمعنى : من أراد الإلمام بشىء من عظمة ذلك البيت الرفيع الكريم ، فليتخذ من قصائدى فى تمجيده سلماً يرقى به إلى تلك المعرفة . أو المعنى : من أراد التقرب إلى ذلك البيت المجيد العظيم ، فليسلك سبيلى ، وليحتذ مثالى ، وليتغنّ بمدائحى . وفى هذه القصيدة ما يرجّح أن الشاعر نظمها فى الطور الأول من أطوار حياته الأدبية ، قبل أن تنضج سليقته الشعرية ، ويرقى فى مراتب الإجادة والإتقان .

(٥١) الألى : الذين : اسم موصول لجماعة الذكور العقلاء . والورى : الخلق والناس . والتمائم جمع تميمة : وهى خرزة ، أو ما يشبهها ، كان الأعراب يعلقونها فى عنق الطفل ؛ لتقيه — فى زعمهم — العين والحسد ، وتدفع عنه الأرواح الشريرة . وتطلق التميمة على كل ما يحمله الطفل ، أو يعلّق فى عنقه للغرض السالف . ونزع التمائم ، أو اقتلاعها ، أو إماطتها : كناية عن أن الطفل قد كبر ، وجاوز مرحلة الطفولة .

يقول : إن الممدوح من سلالة أمجاد شرفاء ، يدين لهم الناس ، ويحتلون فيهم مناصب الرياسة والزعامة والسيادة . وقد بالغ وغالى ، فرفع ولدان هذه الأسرة وأطفالها إلى قمة العلاء والسناء .

(٥٢) هنأه بالأمر تهنئة : خاطبه راجياً أن يكون هذا الأمر مبعث سرور له . والأصل أهنئك بالملك . وسهّل الشاعر الهمزة ، فقلبها ياء . وقد تولى الخديو إسماعيل ملك مصر فى السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٧٩ هـ (١٨ من يناير سنة ١٨٦٣ م) وكان عمره يومئذ نحو ٣٢ سنة . والجيد : العنق . وطول جيد الملك : كناية عن عظم شأنه ، وسمو مكانته ، وزهوه ، وإعجابه ، وابتهاله بعزة =

لَسَوَّدْتَهُ بِالْفَخْرِ ؛ فَابْيَضَّ وَجْهُهُ ... بِأَسْمَرَ خَطِّيٍّ ، وَأَبْيَضَ صَارِمِ (٥٣)

تَدَارَكْتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ كَادَ يَنْمَحِي ... لِفَرْطِ تَبَارِيحِ الدُّهُورِ الْغَوَاشِمِ (٥٤)

بَكَى زَمَنًا ، وَاغْبَرَّ . حَتَّى أَتَيْتَهُ ... فَعَادَ رَحِيبَ الصَّدْرِ ، طَلْقَ الْمَبَاسِمِ (٥٥)

= الممدوح وقوته وعظمته . والنعائم : منزلة من منازل القمر ، صورتها كالنعامة .

هنأ الممدوح بملك مصر ، راجياً أن يكون مبعث سروره وهناءته وسعادته . وقال : إنه بعزة الممدوح وقوته عزّ الملك وزها ، وابتهى وسما ، وارتفع شأنه حتى احتل الأفلاك ومنازل النجوم والكواكب .

(٥٣) «اللام» فى أول هذا البيت : لام الابتداء ، وفائدتها توكيد مضمون الجملة بعدها . أو هى واقعة فى جواب قسم مقدّر : أى والله لسوّدته بالفخر . وسوّد الملك بالفخر : جعله سيداً شريفاً : أى عظيماً نابهاً ، رفيع الشأن بمفاخره ومناقبه ، وعظمته ، وعالى كفايته . وكنى ببياض وجه الملك عن صلاح شأنه ، واستقامة أمره ؛ فإنهم يجعلون البياض مثلاً للصلاح والاستقامة ، والسواد مثلاً للفساد والانحراف . والأسمر : الرمح . والخطّى : المنسوب إلى الخطّ : وهو موضع ، أو مرفأ للسفن ببلاد البحرين . وفيه تباع الرماح ، وتنسب إليه . والأبيض : السيف . والصارم : القاطع .

والمعنى : أن الممدوح جعل – بمناقبه ومفاخره – ذلك الملك عظيماً ، عالى القدر ، رفيع الشأن . وأنه أصلحه وقوّمه وقوّاه بقوة الجند والسلاح .

(٥٤) تدارك الشىء : طلبه ، وأدركه ، وأثبته ، وأصلح شأنه . أو هو من قولهم : تدارك الخطأ بالصواب ؛ فالممدوح تدارك الملك بالتقويم والإصلاح . وينمحى : مطاوع محاه يمحوه . ويجوز قلب النون ميماً ، و إدغامها فى الميم الأصلية ، فيقال : امّحى يمّحى امّحاء . وفرط : اسم من الإفراط : وهو مجاوزة الحد . وبرّح به الأمر تبريحاً : جهده ، وأتعبه ، وألحّ عليه بالمشقّة ، وآذاه أذى شديداً . وتباريح الدهر : صروف الزمان وشدائده . والغواشم : صفة للدهور : جمع غاشم : اسم فاعل من غشمه (من باب ضرب) : أى ظلمه أشد الظلم .

يقول : إن الممدوح تدارك ملك مصر ، فأثبته وأرساه وقوّاه ، وأصلح شأنه ، وأقامه ، وعدّله ، وأزال عوجه ، بعد أن بلغ غاية الضعف ؛ لكثرة ما توالى عليه من شدائد الزمان ، ومظالم الأيام . ولعله يشير بهذا البيت والبيت الآتى إلى النكسة ، أو الركود ، أو الجمود ، أو التوقّف ، أو التأخّر الذى أصاب الملك والبلاد المصرية فى بعض العهود بعد عهد محمد على .

(٥٥) فاعل « بكى » : ضمير « الملك » فى البيت الثانى والخمسين . واغبرّ : علاه الغبار : وهو التراب أو الرماد الدقيق الناعم . وأغبر : صار أغبرّ : أى بلون الغبار . وبكاء الملك واغبراره : كناية عما أصابه ، وأصاب النهضة المصرية من الركود أو النكسة . وأتيته : توليته . وعاد : صار . ورحابة الصدر : كناية عن الانشراح والارتياح . وكذلك طلاقة المباسم . والطلق من الوجوه : المنطلق الضاحك ، المتهلل المستبشر . والمباسم : جمع المبسم (بوزن المجلس) : وهو الثغر ، وما يبدو من الأسنان عند الابتسام . ويراد بالمباسم هنا : الوجوه ؛ فإن الطلاقة للوجوه ، لا للمباسم . =

وَسُسْتَ الْوَرَى بِالْعَدْلِ حَتَّى تَشَوُّقًا ... إِلَيْكَ الْتَوَى جِيدُ الدُّهُورِ الْقَدَائِمِ (٥٦)

وَجِئْتَ مَجِىءَ الْبَدْرِ مَدَّ شُعَاعَهُ ... عَلَى أُفُقٍ بِالْجَوْنِ وَحْفِ الْقَوَادِمِ (٥٧)

= والمعنى : أن ملك مصر ساءت حاله ، واعتلّت أموره فترة من الزمان ، فلما تولاه الممدوح نهض به إلى مثل ما كان عليه فى عهد جده . من القوة والازدهار ، والعظمة والإشراق .

(٥٦) ساس الوالى أو الحاكم الناس يسوسهم سياسة : تولّى رياستهم وقيادتهم ، ودبّر أمورهم ، ونظر فى مصالحهم . ويراد بالورى الرعية : أى الأمة التى تولّى حكمها ، ورعاية مصالحها . وتشوقاً . مفعول لأجله : مصدر تشوّق إلى الشىء : أى اشتد شوقه إليه . أو هى تشوفاً (بالفاء) : مصدر تشوّف إلى الشىء : أى تطلّع إليه . والتوى : مال وانعطف . والقدائم : جمع سماعىّ لقديم ، وقُدّام . ولعل الشاعر يريد بالدهور القدائم : عهود المشهورين بالعدل من عظماء الخلفاء والملوك ، كعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز بن مروان وأمثالهما . والتواء أجياد الدهور القدائم متشوّقة إلى الممدوح : تصوير حسىّ بليغ لإعجاب القدامى من عظماء الملوك والحكام العادلين بسياسة الممدوح القائمة على العدل والرشد ، والمساواة والإنصاف .

يمدحه بأنه ساس رعيته سياسة رشيدة سديدة ، فبسط عليهم ظلال العدالة والإحسان ؛ وأحيا سُنّة المشهورين من عظماء الخلفاء والملوك ، فانعطفتْ إليه أعناق عهودهم فى شوق شديد ، وحنين وإقبال . أو فتشوّفتْ إليه تلك العهود الغابرة ، ونظرتْ إلى طلعته نظرات التحية والإكبار ، والإجلال والإعجاب .

وقد يكون المعنى : أن الممدوح لما ساس أمته بالعدل والإحسان تشوّفتْ إليه الأزمنة القديمة التى حُرِمتْ نعمة العدالة ، وشَقِيَتْ بجور حكامها وبغيهم ، وتمنت لو عادتْ إلى الوجود ؛ لتنعم بحكمه الرشيد العادل ، وسياسته الرفيقة الحكيمة .

(٥٧) الشعاع : ضوء الشمس الذى تراه كأنه خيوط ، أو حبال ممتدة . واحدته شعاعة . والجمع أشعة . والأفق : الناحية من نواحى الأرض والسماء . ومنتهى ما تراه العين من الأرض ، كأنما التقتْ عنده بالسماء . وجمعه آفاق . والجون : السواد ، والأسود ، والظلمة ، وجمعه جون (بضم الجيم) . والوحف من الأجنحة : الكثير الريش . ومثله الواحف . والوحف من الشعر ونحوه : الأثيث ، الغزير ، الكثيف ، الطويل ، الأسود . والقوادم الريشات التى فى مقدّم جناح الطائر . وهى كبار الريش . وتحتها الخوافى : وهى صغاره . الواحدة قادمة . ويراد بالقوادم هنا : الأجنحة : أى مد شعاعه على أفق أجنحته واحفة سود . وبالجون : متعلق بوحف : أى على أفق قوادمه واحفة بالجون . وقد يراد بالجون : السحائب الكثيفة السود التى أظلم بها الأفق . والغرض المبالغة فى تصوير ما بدّده ضياء البدر من الظلمات الحالكة التى طَبّقَتْ آفاق السماء والأرض .

بِرَأْيٍ كَخَيْطِ الشَّمْسِ نُورًا تَخَالُهُ　　فِرِنْدًا تَمَشَّى فِى خُدُودِ الصَّوَارِمِ (٥٨)

فَلَوْ مِصْرُ تَدْرِى أَرْسَلَتْ (لَكَ) نِيلَهَا　　لِيَلْقَاكَ فِى جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ قَاتِمِ (٥٩)

وَجَاءَتْ لَكَ الْأَهْرَامُ تَسْعَى تَشَوُّقًا　　إِلَى دَارِ «قُسْطَنْطِينَ» سَعْىَ النَّسَائِمِ (٦٠)

---

(٥٨) «برأى»: متعلق بـ «جئت» فى البيت السابق. والرأى: الإصابة فى التدبير. ورجل ذو رأى: أى صاحب بصيرة، فطن، حاذق، خبير، قوىّ الإدراك. وخيط الشمس: لعابها، أو شعاعها: وهو ضوءها الذى تراه كالخيوط أو الحبال الممتدة. ونوراً: تمييز، أو مفعول مطلق لفعل محذوف أى يتنوّر تنوّراً. وتخاله: تخال رأى الممدوح: أى تحسبه وتظنه. وفرند السيف: جوهره، ووشيه: وهو ما يلمع فى صفحته من أثر تموّج الضوء، أو ما يرى فيه شبه مَدَبّ النمل، أو شبه الغبار. والصوارم: السيوف القواطع، مفردها صارم. وخدودها: جوانبها وصفحاتها.

شبّه رأى الممدوح بنور الشمس، ولمعان السيف الباتر. وفى هذين التشبيهين معنى كشف المعمّيات، وحلّ المشكلات، وحسم الأمور بسداد تدبيره، ونفاذ بصيرته، وقوة فطنته.

(٥٩) «لو» هنا: حرف شرط مقيد بالزمن الماضى. وتفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط؛ فمعنى «لو درت لأرسلت»: نفى الشرط والجواب كليهما: أى فما درت، ولا أرسلت. وما بين القوسين وهو «لك» تكملة من عندنا، سددنا بها نقص هذا البيت فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا. وبهذه التكملة استقام وزن البيت ونظمه. وجنح الليل (بضم الجيم، وكسرها): طائفة منه. أو ظلامه، واختلاطه. وقاتم: أسود شديد السواد. ولعل الشاعر يعنى بالشطر الثانى: شدة الفرح والإعجاب، وسرعة الإرسال والانطلاق. وسرعة اللقاء والاستقبال، حتى ولو كان فى جنح الليل القاتم.

والمعنى: لو عرفت مصر نجاح مساعيك فى القسطنطينية لأرسلت إليك نيلها على عجل: ليلقاك بالتهنئة والتكريم.

وصلة هذا البيت بالذى قبله أن الممدوح امتاز بسداد الرأى، ونفاذ البصيرة، وإحكام التدبير؛ وبهذا نجحت مساعيه فى الآستانة، وتحققت آماله، وعاد إلى بلاده بالخير الكثير، والفوز التام. وفى شرح البيت الآتى زيادة تفصيل وتوضيح لهذا الكلام.

(٦٠) دار قسطنطين: القسطنطينية. وتشتهر بـ «إستنبول» و «الآستانة»؛ واسمها القديم «بيزنطية». وتنسب القسطنطينية إلى قسطنطين الأول الكبير (٢٧٤ – ٣٣٧ م) أمبراطور روما الذى تولى الحكم سنة ٣٠٦، ونقل عاصمة الأمبراطورية من روما إلى بيزنطية سنة ٣٣٠؛ فسميت القسطنطينية. وفى عهد قسطنطين الحادى عشر فتحها الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م، وظلت حاضرة دولتهم إلى أن خُلع فيها آخر سلاطينهم سنة ١٩٢٢ – وفى سنة ١٩٢٣ جعلت الحكومة الكمالية مدينة «أنقرة» حاضرة للجمهورية التركية الحديثة. والنسائم: جمع النسيم: وهو الريح الطيبة اللينة اللطيفة، لا تحرك شجراً، ولا تعفّى أثراً.

فَبُورِكْتَ فِى مُلْكٍ وَرِثْتَ ذَمَـاءَهُ ... وَخَلَّدْتَهُ فِى نَسْلِ مَجْدٍ أَكَارِمِ (٦١)
بِهِمْ كُلُّ غِطْرِيفٍ يَمُدُّ إِلَى الْعُلَا ... يَدًا خُلِقَتْ فِينَا لِبَذْلِ الْمَكَارِمِ (٦٢)

= عطف الأهرام على نهر النيل ؛ فلو علمتْ بما انتهتْ إليه مساعى الممدوح فى القسطنطينية لسعتْ إليه فى شوق شديد ، وفى رقّة الأنسام وطيبها ولطافتها ، لتلقاه فى حاضرة الخلافة بتحيات مصر وتكريماتها .

وفى هذا البيت والبيت الذى قبله ما يدل على أن الشاعر نظم هذه الأمدوحة الطويلة فى القسطنطينية ليكرّم بها الخديو إسماعيل . ومما يضعف هذه الدلالة خلاء القصيدة من الإشارة إلى السلطان عبد العزيز العثمانى صاحب الفضل على تابعه « الخديو إسماعيل » . وهى إلى هذا لا تكاد تتصل بالقسطنطينية ، وهى بطبيعتها بيئة ساحرة فاتنة تفرض على الشاعر أن يصل بها قصيدته .

وفى الزيارة المشار إليها فى هذه القصيدة ، وفى غيرها من الزيارات والاتصالات استطاع « الخديو إسماعيل » — بمساعيه — أن يكسب لنفسه ولأسرته ولمصر مكاسب غير قليلة ، منها أن صارت ولاية مصر وراثة — بلا قيد ولا شرط — لأرشد البنين فى ذرّيته ، بعد أن كانت لأرشد البنين فى الأسرة المحمدية العلوية بشرط موافقة الباب العالى . وقد أقر السلطان هذا التغيير فى ١٢ من المحرم سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ٢٧ من مايو سنة ١٨٦٦ م . وفى ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ (يونيه سنة ١٨٦٧ م) منح السلطان عبد العزيز تابعه إسماعيل باشا والى مصر لقب « خديو » : وهى كلمة فارسية الأصل ، معناها « الأمير العظيم » . وكان الفرس يخصّون بهذا اللقب حاكم الهند حينما كانت تحت سلطانهم . وفى ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) أصدر الباب العالى عهداً (فرماناً) باستقلال مصر الداخلى .

(٦١) بارك الله الشىء ، وبارك فيه ، وبارك عليه : جعل فيه البركة : وهى الخير ، والنماء ، والزيادة ، والسعادة . وبوركت فى ملك : بارك الله لك فى ملكك . أو باركك الله مع ملكك . أو باركك من أجل ملكك . أو مستعلياً على ملكك . والذماء (بفتح الذال) : حركة المذبوح بعد ذبحه . أو بقية الروح فى المذبوح وغيره ؛ ولعله يشير بهذا إلى ضعف الملك ، وسوء حاله قبل أن يصير إلى الممدوح . أو هو من قولهم : «خُذْ منه ما ذَمَّ لك» : أى ما تهيّأ ، وصلح ، وتيسّر . وورثت ذماء الملك : ورثت ما تهيأ لك منه . والنسل : الولد ، والذرّية . والأكارم : جمع الأكرم : اسم تفضيل من الكرم . ولعل الشاعر يشير بالشطر الثانى إلى ما وفّق له الممدوح من حمل السلطان على تغيير نظام الوراثة لعرش مصر ، وجعلها لأرشد الأبناء فى نسل إسماعيل .

(٦٢) « بهم » : أى فيهم . أو منهم : أى من نسل المجد الأكارم ؛ فالباء هنا : للظرفية : بمعنى «فى» . أو هى بمعنى «من» . والغطريف : السيد الماجد ، الكريم الشريف ، السرىّ السخىّ . والمكارم : المبرّات . وأفعال الكرم ، والخير ، والبرّ ، والفضل ، والإحسان . ومثلها المكرُمات .

يشيد بأعضاء الأسرة المحمدية العلوية ، ومن خُلّد فيهم ملك مصر من الممدوح وعترته ونسله الأماجد =

يَجُولُ مَجَالَ الْبَرْقِ وَالْخَيْلُ تَرْتَمِى ... بِأَعْطَافِهَا فِى الْمَأْزِقِ الْمُتَلاحِمِ (٦٣)

فَمَا رَوْضَةٌ غَنَّاءُ بَاكَرَهَا الْحَيَــا ... بِأَوْطَفَ سَاجٍ ، أَشْعَلِ الْبَرْقِ سَاجِمِ (٦٤)

=الأكارم ؛ ويمدحهم بالسيادة والشرف ، والسخاء والمروءة ، وبعد الهمة ، وطلب المعالى . وأنهم مفطورون على البذل والجود ، والبر ، والخير ، والمحامد والمكرمات .

(٦٣) يجول : يطوف ، ويدور . (وبابه قال) . وفاعله ضمير «كل غطريف» فى البيت السابق . والمجال . مصدر ميمى بمعنى الجولان . ويجول جولان البرق : أى يجول فى سرعة خاطفة كسرعة البرق . وجملة « والخيل ترتمى ... » : حال من فاعل «يجول» . وترتمى : مطاوع رماه . والمراد تزدحم ، وتتدافع . والأعطاف : جمع عطف (بكسر فسكون) : وهو من كل شىء جانبه . والمأزق (بوزن المجلس) : المضيق الحرج . وجمعه مآزق . ويراد به هنا : موضع الحرب ، ومكان القتال . والمتلاحم . الضيق ؛ فهو تأكيد لمعنى المأزق : اسم فاعل من تلاحمت الأشياء : أى تضامت ، واجتمعت . وارتماء خيل الفرسان بأعطافها فى المآزق المتلاحمة : كناية عن عنف القتال وشدته واستحراره .

يقول : إذا حمى الوطيس ، واشتد القتال رأيت لكل غطريف من هؤلاء الغطاريف جولات سريعة خاطفة ، تنم على إقدامه وشجاعته ، وشدة بأسه ، وتمرسه بالحروب .

(٦٤) « ما » فى أول هذا البيت : حرف نفى .وروضة : مبدأ . خبره « بألطف » من أخلاقهم وصفاتهم فى البيت الرابع بعد هذا البيت : أى الثامن والستين من أبيات هذه القصيدة . والباء فى « ألطف » زائدة . والروضة : البستان الحسن النضير ، والأرض المخضرة بأنواع النبات والشجر والزهر . وغنّاء : كثيرة الشجر والعشب : صفة من غنّت الروضة ، أو الوادى : إذا كثر شجره ، والتف ، فكثر ذبابه ؛ فسمع له غُنّة ، فهو أغنّ ، وهى غناء . وباكرها : جاءها بكْرة : أى فى أول النهار . أوسبق إليها ، وبادر ، وبدأ بها قبل غيرها . والحيا : المطر . وبأوطف : بسحاب أوطف : أى دان من الأرض . أو منهمر المطر . أو له هيدب وذيول متدلية . أو ثقيل مسترخ ، لكثرة مائه . والباء : بمعنى « مع » ؛ فهى للمصاحبة : أى باكرها الحيا مصاحباً سحاباً أوطف . أو هى بمعنى « من » كما فى قول الله تبارك وتعالى « عيناً يشرب بها عباد الله » : أى منها (الآية رقم ٦ من سورة الإنسان) : أى باكرها الحيا من سحاب أوطف . وساج : ساكن ، ثابت . من قولهم : سجت الحلوبة للحالب : إذا سكنت ، وانطاعت له ، وانقادت . أو دائم : أى بسحاب أوطف دائم المطر . والأشعل من الناس : من كانت عيناه إلى الحمرة خلقة . والبرق الأشعل : المحمر ؛ ولعل حمرته دليل على ثقل السحاب ، وغزارة مائه . وساجم : منصب المطر : اسم فاعل من سجم المطر أو الدمع ، أو نحوهما (من باب دخل) : أى سال ، وانصب . وسجمت السحابة مطرها : أسالته ، وصبته .

وصف هذه الروضة بأنها مجودة ممطورة ، ناضرة بهيجة ، كثيرة الشجر والنبات والأزهار .

يَضُوعُ بِهَا نَشْرُ الْعَبِيرِ . فَتَغْتَدِى ... تَقَاسَمُهُ فِينَا أَكُفُّ النَّوَاسِمِ (٦٥)

إذَا الشَّمْسُ لَاحَتْ مِنْ خِلَالِ ظِلَالِهَا ... عَلَى الْأَرْضِ .لَاحَتْ مِثْلَ دُورِ الدَّرَاهِمِ (٦٦)

يَقِيلُ بِهَا سِرْبُ الْمَهَا وَهْوَ آمِنٌ ... فَمِنْ أَرْبَد سَاجٍ . وَأَحْوَرَ بَاغِمِ (٦٧)

---

(٦٥) يضوع : يفوح ، وينتشر (وبابه قال) : وبها : بالروضة الغنّاء . والنشر : الرائحة الطيبة . والعبير : أخلاط من الطيب . وتغتدى : تبكّر : من الاغتداء : وهو التبكير فى أول النهار . وفاعله « أكفّ النواسم » وتقاسمه : أصلها تتقاسمه . ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً : مضارع تقاسموا الشيء بينهم : أى اقتسموه ، فأخذ كل منهم قسماً منه . ولو قال : تقسّمه : أى تتقسّمه : أى تفرّقه وتوزّعه . أو تُقَسِّمه (من التقسيم) لكان ألصق بالمعنى المراد . والأكفّ : جمع الكفّ : وهى الراحة بين الأصابع . أو الراحة مع الأصابع . أو اليد . والنواسم : جمع ناسم : أو ناسمة : اسم فاعل من نسمت الريح (من باب ضرب) : أى تحركت وهبّت بلين ، ولطف . ورقّة ، واعتدال .

يقول : تفوح بهذه الروضة الغناء روائح أزهارها ورياحينها ، كأنها أخلاط الطيب ؛ فتحملها إلينا ، وتوزّعها علينا الرياح المعتدلة الطيبة اللطيفة الناسمة .

(٦٦) لاحت : بدت ، وظهرت ، والخلال : الفرجات ، والثغرات : جمع خلل (بوزن جبل) . وظلالها : ظلال الروضة الغناء . وفاعل « لاحت » فى شطرى البيت : ضمير الشمس . و « على الأرض » متعلق بـ « لاحت » . والدور : جمع دارة : وهى الحلْقة ونحوها . والدراهم : جمع الدرهم : وهو قطعة من النقود الفضيّة . وقد تطلق الدراهم على النقود مطلقاً .

يشير إلى كثرة أشجار هذه الروضة الأريضة الغنّاء ، والتفاف أغصانها ، واشتباك فروعها ، وكثافة ظلالها ؛ فإذا طلعت عليها الشمس نفذ ضياؤها من ثغراتها الضيقة ، فبدا على الأرض دارات مدوّرة كالدنانير . وهو هنا ينظر إلى قول أبى الطيب المتنبى فى وصف شعْب بوّان :

وألقى الشرق منها فى ثيابى ... دنانيراً تفرّ من البنان

(٦٧) يقيل : ينام فى القائلة : وهى الظهيرة : أى وسط النهار . (وبابه باع) . وبها : بالروضة الغنّاء . والسرب : الفريق ، أو الجماعة ، أو القطيع من الحيوان ، أو من الطير . ومنه سرب القطا . وسرب الظباء . وسرب المها : وهو البقر الوحشىّ . واحدته مهاة (بوزن فلاة) . وجملة « وهوآ من » حال من « سرب المها » . و «من» بيانية . وأربد : أغبر ، بلون الرماد ، وهو ممنوع من الصرف : أى التنوين ، وإنما نون هنا لضرورة وزن الشعر . وساج : ساكن ثابت ، والمراد آمن ، مستقرّ ، مطمئنّ ، لا يزعجه شيء ، ولا يكدّر صفوه مكدّر . وأحور : صفة من حورت العين (من باب فرح) : أى اشتدّ بياض بياضها ، وسواد سوادها ، واستدارت حدَقتها ، ورقّت جفونها ، وابيضّ ما حواليها فى حسن وجمال . وحورت العين : اسودّت كلّها ، كأعين المها والظباء . وهذا المعنى هو المراد هنا . وباغم : اسم فاعل من بغمت الظبية ونحوها (كمنع ، ونصر ، وضرب) : أى صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها . =

بِأَلْطَفَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ إِذَا الْعُودُ ضَمَّتْهُ أَكُفُّ الْعَوَاجِمِ (٦٨)

وَمَا الشِّعْرُ مِنْ دَأْبِى . وَلَا أَنَا شَاعِرٌ وَلَا عَادَتِى نَعْتُ الصُّوَى وَالْمَعَالِمِ (٦٩)

وَلَكِنْ حَدَانِى جُودُهُ ، فَاسْتَثَارَنِى لِوَصْفِ مَعَالِيهِ الْعِظَامِ الْجَسَائِمِ (٧٠)

= والغرض هنا : وصف هذه الروضة بأنها مقيل أمين ، ومرتع خصيب لكل ما يأوى إليها من أسراب الطير والحيوان . وصلة ما عدّده الشاعر من أوصاف الرياض بأخلاق الممدوحين وصفاتهم وثيقة واضحة ؛ فإن فيهم ما فى الرياض من المزايا والمحاسن العامة ، كاللطف ، ورقّة الحواشى ، وارتياح الناس لهم ، وإقبالهم عليهم ، واطمئنانهم إليهم ..

(٦٨) «بألطف» : الباء زائدة . وألطف : خبر روضة فى البيت الرابع والستين : «فما روضة غنّاء ..» وهو اسم تفضيل من اللطف : بمعنى الرفق ، والرأفة . أو الرقّة واللطافة . وأخلاقهم : أخلاق الممدوحين : وهم الأسرة المحمدية العلوية ، ومن عناهم الشاعر فى البيت الحادى والستين : « فبوركْتَ فى مُلْكٍ .. ». والعود : الخشبة . أو الغصن بعد أن يقطع . والعواجم : جمع عاجمة : اسم فاعل من عجم الإنسان الشىء (من باب نصر) : أى عضّه ، ليعلم صلابته من رخاوته . وعجمتُ فلاناً . وعجمتُ عوده : أى امتحنته واختبرته ؛ فالشطر الثانى كناية عن التجربة والاختبار .

والمعنى : إذا اختبرتَ هؤلاء الممدوحين علمتَ أن صفاتهم وأخلاقهم فى لطافة الروضة التى وصفها فى أربعة الأبيات السابقة .

(٦٩) الدأْب : العادة ، والشأن . والنعت : الوصف . والصوى : جمع الصوة (بوزن القوّة) : وهى ما غلظ من الأرض ، وارتفع . وما نُصِب من الحجارة ونحوها ، ليكون دليلاً فى الطريق . والمعالم : جمع معلم (بوزن مذهب) : وهو ما يُسْتَدلّ به على الطريق من أثر ونحوه . ولعله يشير بالشطر الثانى من هذا البيت إلى ما اعتاده شعراء المديح من وصف معالم الطريق ، ومشقّات السفر فى رحلتهم إلى الممدوح تنويهاً بفضله ، وتعظيماً لشأنه ، واستزادة لعطائه . وقد ألمّ الشاعر بشىء من هذا فى هذه المدحة ، فوصف فى نحو ستة أبيات ما ضاناه مع رفاقه ورواحلهم من مخامرة السُرى واللُغوب والإعياء : لبُعْد الشُقّة ، وعظم المشقّة ، وطول السفر ، ووعورة الطريق . وقد مهّد الشاعر بهذا البيت للبيتين الآتيين ؛ فإنما نظم هذا الشعر مدفوعاً بجود الممدوح ومكرُماته وعطاياه ، وأجاده متأثراً بفضائله ومحامده ومزاياه .

(٧٠) « لكن » : حرف ابتداء . وتفيد الاستدراك ؛ ففى البيت السابق قال : إن الشعر ليس من دأْبه ، ولا من عادته . ولعله يقصد شعر المديح . أو يُؤْثِر التواضع فى هذا المقام ، على خلاف ما اعتاده من الافتخار بشعره . أو يعبّر عن حقيقة أمره إن صحّ أنه نظم هذه القصيدة فى الطور الأول من أطوار حياته الأدبية قبل أن تجتمع له عوامل النبوغ والتفوّق ، والازدهار والافتخار . أو لعله يقصد التمهيد لهذا البيت والبيت الذى بعده ؛ ولهذا استدرك ، فقال : ولكن مناقب الممدوح حدَتْنى إلى نظم هذه المدحة . وحداه على كذا : بعثه عليه ، وحثّه . وحدانى جوده : استمالنى الممدوح إليه بكرمه وسخائه =

وَكَيْفَ ، وَجَدْوَاهُ ثَنَتْ ضَبْعَ هِمَّتِي وَهَزَّتْ إِلَى نَظْمِ الْقَرِيضِ قَوَادِمِي (٧١)
فَتِلْكَ لآلٍ ، أَمْ رَبِيعٌ تَفَتَّحَتْ أَزَاهِرُهُ كَالزُّهْرِ ، أَمْ نَظْمُ نَاظِمِ ؟ (٧٢)

=من قولهم : حدا الحادى الإبل : أى غنّى لها ؛ لينشّطها ، ويحثّها على السير ، ويخفّف عنها متاعب الأحمال والأسفار . واسم هذا الغناء : الحُداء . واستحدانى : أثارنى ، وهاجنى . وهو هنا بمعنى حدانى واستمالنى . وفاعله ضمير الجود . ومعاليه : معالى الممدوح : جمع مَعْلاة : وهى الرفعة والشرف . والعظام : صفة للمعالى : جمع عظيمة : صفة من عَظُم الشىء : أى جلّ ، وفَخُم ، وكَبُر ، وكَثُر . والجسائم : صفة أخرى للمعالى : جمع جسيمة : صفة من الجسامة : وهى العظَم والضخامة .

يقول : إنه لم يتعوّد نظم الشعر ، ولكن مناقب الممدوح ومكرُماته أثارت شاعريّته ؛ فنظم هذه المدحة فى وصف معاليه العظيمة ، والتنويه بمحامده الجسيمة ، وتمجيد مفاخره ومزاياه .

(٧١) « كيف » : اسم استفهام ، مبنى على الفتح . ويطلب به تعيين الحال . والواو بعده : واو الحال . والجملة بعدها حاليّة : أى وكيف لا أصف بشعرى معالى الممدوح ومناقبه ومحامده والحال أن جدواه وعطاياه ومكرُماته أثارتْ شاعريّتى ، وحفزتْنى إلى القول والتغنّى والإشادة والتمجيد . والاستفهام هنا : معناه التعجّب ، أو الإنكار ، أو النفى : أى لا يليق بى أن أسكت فى هذا المقام . ولو سكتُّ ، ولم أنظم هذه المدحة لكان سكوتى مثار العجب والدهش . أو لأنكرتُ على نفسى هذا السكوت ، وأنكره الناس علىّ ، واستهجنوه منى وعابوه . وجدواه : جدوى الممدوح : وهى العطيّة . والضبع : وسط العضد . أو العضد كلّها : وهى غليظ الذراع : ما بين المرفق والكتف . والهمة : العزم القوىّ . والقريض : الشعر . والقوادم : الريشات التى فى مقدّم جناح الطائر : وهى كبار الريش ، الواحدة قادمة . ويراد بالقوادم : الأجنحة . وقد كرر الشاعر فى هذا البيت معنى البيت السابق ؛ ففيه أن جود الممدوح حداه ، فاستثاره لوصف معاليه العظام الجسائم . وفى هذا البيت أن جدوى الممدوح ثنتْ ضبع همته ، وهزتْ قوادمه لنظم القريض . وثَنْى ضبع الهمة ، وهزّ القوادم : تعبيران مجازيان . أو كنايتان عن إثارة شاعريته ، وشحذ عواطفه لإكبار الممدوح ، والإعجاب به ، ونظم الشعر فى مدحه ، والتغنّى بمحامده ومزاياه .

(٧٢) « تلك » : إشارة إلى أبيات هذه الأمدوحة ، أو كلماتها . والكلام هنا على الاستفهام مع حذف همزته : أى أفتلك لآلٍ ، أم ربيع ...؟ . واللآلئ : الدُّرَر . الواحدة لؤلؤة . وحذفت همزة الجمع للتخفيف . والربيع : الأخضر الناضر من النبات والشجر . وأزاهره : أزهاره . وكالزُّهْر : أى كالكواكب الزُّهْر : جمع الأزهر : وهو النيّر الزاهر ، المضىء ، المتلألئ . والاستفهام هنا من تجاهل العارف : وهو سوق المعلوم مساق المجهول لغرض بلاغىّ . . والغرض هنا : المبالغة فى التنويه بهذه القصيدة ، وتعظيم شأنها ؛ فالشاعر يعلم الحقيقة ، ولكنه تجاهل ، وادّعى أن الأمر قد التبس عليه ؛ للغرض الذى أشرنا إليه . ومن تجاهل العارف لمثل هذا الغرض — وهو المبالغة فى المدح — قول البحترى :

ألمع برق سرى ، أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى ؟ =

وَمَا هُوَ إِلَّا عِقْدُ مَدْحٍ نَظَمْتُهُ   لِجِيدِ عُلَاهُ فِي صُدُورِ الْمَوَاسِمِ (٧٣)

فَعِشْ مَا تَغَنَّتْ بِالْأَرَاكِ حَمَامَةٌ   وَمَا اتَّجَهَتْ لِلْبَرْقِ نَظْرَةُ شَائِمِ (٧٤)

لَكَ السَّعْدُ خِدْنٌ ،وَالْمَهَابَةُ صَاحِبٌ   وَشَخْصُ الْعُلَا وَالنَّصْرِ فِي زِيِّ خَادِمِ (٧٥)

= بالغ الشاعر فى تعظيم هذه المدحة ، وحسَّنَ كلامه بمحسِّن بديعىّ معنوىّ ، هو تجاهل العارف . وضمَّن هذا التحسين تشبيه شعره فى هذا الشأن باللآلئ والدرر ، وأزهار الربيع المتفتحة العطرة البهيجة ، والنجوم الزاهرة النيِّرة ، المتلألئة اللامعة ؛ ولا ريب أن فى هذا التعظيم تعظيماً لشأن الممدوح .

(٧٣) « وما هو » : أى وما « نظم الناظم » فى البيت السابق . والعقد (فى الأصل) : خيط ينظم فيه الخرز ، أو اللؤلؤ ، أو نحوه ، ويحيط بالعنق للزينة . وجمعه عقود . ونَظْم الناظم ، أو عقد المدح : هو هذه المدْحة . والجيد : العنق . أو مُقَدَّمه . أو موضع القلادة منه . وعُلاه : علا الممدوح : أى رفعته وشرفه . ومثله العَلاء . والصدور : جمع الصدر : وهو مقدَّم كل شىء ، وأوّله . والمواسم : جمع موسم (بوزن مجلس) : وهو مجتمع الناس . ومواسم العرب : أعيادها الكبيرة ،ومحافلها الضخمة ، ومعالمها ، وأسواقها التى كانوا يجتمعون فيها .

جعل الشاعر مدحته هذه قلادة ، نظم فيها المجوَّد النفيس القيم من شعره ؛ ليُنْشَد ، ويتغنّى به فى صدور المحافل والمجتمعات الكبيرة الحاشدة ، ويزدان به شرف الممدوح وعلاؤه . ولا يخفى ما فى هذا البيت من العنت والتكلّف .

(٧٤) « عش » : أمر يراد به الدعاء . و « ما » : فى شطرى هذا البيت . : مصدرية ظرفية ؛ فهو يدعو للممدوح أن يعيش مدة اتجاه كل شائم بنظراته إلى البرق . ومدة تغنّى الحمام على الأراك : جمع أراكة : وهى شجرة يستاك بقضبانها ، طويلة ، ناعمة ، كثيرة الأغصان ، متقابلة الأوراق ، خوّارة العود . ولها ثمر أحمر داكن ، فى عناقيد ، يسمى البرير . وعنقودها يملأ الكفّ ، ويؤكل . وهى من أشجار البادية ، تنبت فى البلاد الحارّة . وتكثر فى شبه جزيرة العرب ، وتوجد فى صحراء مصر الجنوبية الشرقية . وشائم : اسم فاعل من شام الإنسان السحاب والبرق (من باب باع) : أى نظر إليه ؛ ليعرف أين يتجه ، وأين يمطر .

دعا الشاعر لممدوحه بطول العمر ، ورَغَد العيش ، وسعادة الحياة ، ورَبطَ هذا بغناء الحمام ، وشَيْم البرق لما يحملانه من معنى الدوام والبقاء . ولما يدلّ عليه الغناء من الارتياح والطرب ، وما يبشّر به البرق من المطر والخير العامّ .

(٧٥) السعد : السعادة ، والبركة ، واليمن ، وأن يوفّق الله تعالى الإنسان للخير ، ويعينه على تحصيله . والخدن (بكسر الخاء) : الصديق ، والصاحب . وجمعه أخْدان . والمهابة : مصدر هابه : أى أجلّه ، وعظمه ، أو حذِره ، وخافه . ومنه رجل مهيب : أى يهابه الناس ، ويوقّرونه ، ويعظّمونه ، ويخافونه . والشخص : كل جسم له ارتفاع وظهور . وسواد الإنسان وغيره تراه من بعيد . وجمعه أشخاص . والزىّ :=

وَقَالَ يَذْكُرُ أَيَّامَ الشَّبَابِ* :

أَسَلُ الدِّيَارَ عَنِ الْحَبِيبِ وَفِى الْحَشَا دَارٌ لَهُ مَأْهُولَةٌ وَمَقَامُ(١)

= الهيئة ، والمنظر ، والصورة . والزىّ : اللباس ، وجمعه أزياء . وإضافة «شخص» إلى العلا والنصر : يراد بها تشخيصهما . وتجسيمهما ، والتمهيد لقوله : «فى زىّ خادم» . ويلاحظ أن جمل هذا البيت كلّها أخبار يراد بها الدعاء للممدوح .

ختم الشاعر هذه القصيدة الطويلة بهذا البيت الذى جمع فيه لممدوحه السعادة فى صورة صديق صادق الودّ ، وخدين كريم المخادنة . والمهابة فى هيئة صاحب يرافقه ، ولا يكاد يفارقه . والمعالى والنصر فى زىّ خدَم يقومون بخدمته ، وتوفير عزّته ومنعته ، ورفاهته وهناءته .

* * *

* يعارض البارودى بهذه القصيدة قصيدة أبى نواس التى مدح بها الأمير محمد بن هارون الرشيد ، ومطلعها :

يا دار ، ما فعلتْ بك الأيام ؟ لم تبق منك بشاشة تستام

وفى رواية «تشتام» . وفى رواية أخرى :

يا دار ، ما فعلتْ بك الأيــام ؟ ضامتْك ، والأيام ليس تُضام

فالقصيدتان متوافقتان فى الوزن والروىّ .

(١) أسأله عن كذا : مضارع سألته عنه . هذه هى اللغة العالية المشهورة . ومن العرب من يقول: «أسل» بحذف الهمزة للتخفيف ، ونقل فتحتها إلى السين قبلها . والكلام هنا يحتمل الخبر ، ويحتمل الإنشاء : أى الاستفهام التعجّبىّ بحذف همزته . والمعنى على الخبر : إنى أسأل الديار عن حبيبى والحال أنه مقيم فى قلبى . وعلى الاستفهام : أأسأل الديار عن حبيبى والحال أنه مقيم فى قلبى ؟ فهو يتعجّب ، ويعجّب غيره من هذا السؤال . ويريد بالديار : المنازل المهجورة التى ارتحل عنها الحبيب وأهله وعشيرته . والحشا : ما اضطّمتْ عليه الضلوع : أى انطوتْ ، واشتملتْ : أى ما حواه الصدر . أو هو ما حواه البطن . ويراد به هنا : القلب ، وجمعه أحشاء . والواو : واو الحال ، والجملة بعدها حالية «فى الحشا دار» . وله : للحبيب . ومأهولة : عامرة بأهلها . ومُقام (بضم الميم) : اسم مكان من أقام بالمكان إقامة : أى استقرّ فيه ، وتَوَطَّن . وهو تأكيد لمعنى «دار مأهولة» . أو هو «مقام» (بفتح الميم) : بمعنى منزلة ومكانة .

والمعنى : أقف بالديار الخربة ، والمنازل المهجورة أسائلها — فى لهفة وحسرة — عمن كانوا فيها من أحبّائى الذين أحفظ لهم الودّ ، وأحلّهم من قلبى محلّ الإعزاز والإكرام . أو المعنى : أأسأل الديار عن الحبيب . . . ؟ ! فهو يتعجّب من سؤاله ، ويعجّب غيره . ووجه التعجّب والتعجيب : أنه لن يجد عند هذه الديار جواباً عن سؤاله . والبيت الآتى يوضّح هذا .

وَمِنَ الْعَنَاءِ سُؤَالُ خَاشِعَةِ الصُّوَى ... بِيَدِ الْفَنَاءِ ، جَوَابُهَــا إِرْمَامُ(٢)

ذَكَرَتْ بِهَا النَّفْسُ اللَّجُوجُ زَمَانَهَا ... إِنَّ التَّذَكُّرَ لِلنُّفُوسِ غَــرَامُ(٣)

---

(٢) العناء : التعب ، والجَهْد ، والمشقّة . والصُّوَى : جمع صُوَّة (بوزن قُوَّة) : وهى ما غَلُظ من الأرض وارتفع . وحجارة مركومة ، تجعل أعلاماً فى الطريق ، ليهتدى بها المسافرون فى الصحارى ونحوها . ويراد بها هنا : آثار الديار التى هجرها أهلها ، ورحلوا عنها ؛ فأصبحتْ خالية خاوية على عروشها . وخاشعة الصُّوَى : الصُّوَى الخاشعة : بمعنى الساكنة . أو الخربة المجدبة ، التى لاأثر فيها للحياة أو العمران ؛ من قولهم : خشع الجدار ، فهو خاشع : إذا انقضّ ، وتصدّع ، وتَداعَى ، وسقط ، واستوى بالأرض . والفناء : البياد ، والهلاك ، والانقراض . وبيد الفناء : حال من خاشعة الصوى؛ مؤكّدة لمعناها . وجوابها إرمام : جوابها سكوت ، وصمت ، وعجز عن النطق والكلام : أى ولن تجد لسؤالك عندها جواباً .

فى البيت السابق وقف بالديار المهجورة ، والمنازل الخربة يسائلها عمن كانوا فيها من أحبابه ، معبّراً بهذا عن حسرته ولهفته .

وفى هذا البيت يقول : إنه يجهد نفسه ، ويَشُقّ عليها باستخبار هذه الأطلال الخاوية ، والرسوم الفانية ؛ فإنها لن تردّ إليه جوابه ، ولن تخفّف عنه شيئاً مما يكابده ويضانيه من تباريح الشوق ، ولواعج الوجد ، وحرق الصبابة ، ومرارة الحسرات .

(٣) ذكر الشىء ، وتذكّره تذكّراً : أدام حفظه واستحضاره . أو تَجَدّد فى ذهنه ، وجرى على لسانه بعد نسيانه . وبها : بالصُّوَى الخاشعة : أى بالديار المهجورة . والمراد « فيها » أو « بسببها » ؛ فالباء فى « بها » : بمعنى « فى » . أو هى لبيان العلة والسبب . ولَجّ فى الأمر لجاجاً ولجاجة : لازمه ، وأبى أن ينصرف عنه . أو تمادى فيه معانداً ، فهو ، وهى لجوج : أى شديدة اللجاجة . وزمانها : زمان النفس : حينما كانت ناعمة بمتع الهوى ، ودواعى الصبا وملابساته ، ومباهج الحبّ والقُرْب . أو زمان هذه الديار : حينما كانت مرتعاً للحبّ واللهو ، والتلاقى والوصال . والغرام : العذاب الدائم الملازم . وللنفوس : متعلّق بـ « غرام » . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشطر الأول ؛ فالذكريات قد تثير الأشجان المنسيّة ، وتجدّد الهموم والآلام ، وتكون مبعث عذاب دائم ، يلازم المرء ، ولا يكاد يفارقه ؛ ولهذا يُدْعَى للحزين ، أو المهموم بالسُلْوان : أى النسيان .

والمعنى : أنه كان قد أخلد إلى شىء من السلوان ؛ فلما رأى هذه الديار ، ولَجّ فى سؤالها ، وأطال الوقوف بها ، ذكّرته ما كان ناسياً ، فهيّجتْ أشجانه ، ومسّه عذاب الذكرى والحنين إلى ذلك الماضى السعيد البعيد .

إذْ لِلْهَوَى ثَمَرٌ يَرِفُّ ، وَلِلصِّبَا كَأْسٌ تُشَفُّ ؛ وَلِلْمُنَى إلْمَـامُ(٤)

تَسْتَنُّ فِيهَا الْعِينُ بَيْنَ مَخَـانِسٍ فِيهَا السَّلَامُ تَعَانُقٌ وَلِـزَامُ(٥)

فِى فِتْيَةٍ فَاضَ النَّعِيمُ عَلَيْهِمُ وَنَمَاهُمُ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَـامُ(٦)

(٤) الهوى : الحب ، والعشق . وميلان النفس إلى ما تستلذّ . والهوى أيضاً : الشىء المهوىّ : أى المحبوب ، المرغوب ، المشتهى . وثمر الهوى : نتائجه المشتهاة ، ورغائبه المتمنّاة . ويرفّ : يهتزّ ويتلألأ من الرىّ والنضارة والحسن . والصبا (بكسر الصاد) : الحداثة وصغر السنّ . ويقرب منه الفتاء والشباب . ويراد بالصبا أو الشباب : دواعيه وملابساته من اللهو والمرح ، والصحة والنشاط ، وهناءة الحياة ، ورخاء البال . والكأس : القدَح مادام فيه الشراب . أو الإناء يشرب فيه ؛ وهى مؤنثة . . وتُشَفّ (بالبناء للمجهول) : أى تُشْرب كلّها . والمراد استيعاب متع الصبا ، ومسرّات الشباب ، واغتنام كل فرصة للاستمتاع بما يتاح من المباهج واللذات . أو هى تشفّ (بالبناء للمعلوم) : مضارع شَفّ (بوزن خفّ يخفّ) . يقال : شَفّ الإناء وغيره : أى رَقّ ، فظهر ما وراءه . وشَفّ الشراب : أى راق وصفا . والمنى : الأمانىّ ، والآمال . واحدتها مُنْية . والإلمام : مصدر ألمّ الشىء : بمعنى قرب . وألمّ بالقوم ، وعليهم : أى أتاهم ، فنزل بهم ، وزارهم .

يقول : ذكرتنى هذه الديار ذلك الزمان السعيد ؛ إذ كنت أجنى ثمار الهوى رفّافة ناضرة ، وأرتشف كئوس الصبا صافية رائقة ، وأستمتع بلذات الشباب ورغائبه ، وأسعد بقرب الأمانىّ ، وتحقّق الآمال .

(٥) تستنّ : تغدو وتروح مقْبلة مدبرة فى مرح ونشاط . وفيها : فى الديار حينًا كانت عامرة بأهلها . والعين : حسان العيون من النساء : جمع عيناء : صفة من العين (بوزن الفرح) : وهو أن يعظم سواد العين ، وتتسع فى جمال . ويراد بالمخانس : ما يواريهن ويحجبهن من الحجال ، والخدور ، والستور : جمع مخنس (بوزنى مذهب ومجلس) . . ولازمه ملازمة ولزاماً : عانقه .

يصف ما كانت تزدان به تلك الديار الآهلة العامرة ؛ إذ كانت مسرحا ومرتعاً للعين الحسان المخدّرات ، يمرحن فى خدورهن ، ويستشعرن البهجة والسرور والانشراح ، ويجمعهن روح الألفة والمحبة والوداد ، ويتبادلن التحايا بالاشتياق والالتزام والعناق .

(٦) «فى فتية» : متعلق بـ « إلمام » فى البيت الرابع . و « فى » : معناها هنا المصاحبة . وفتية : جمع فتى : وهو الشاب : أى وللمنى إلمام مع فتية . وفيضان النعيم عليهم : رتوعهم فى رغد العيش ، وغضارة الحياة ، ونضارة الشباب ، ورخاء البال . ونماهم : رفعهم ، وأعلى شأنهم . من قولهم : فلان ينميه حسبه . (وبابه رمى) . وبجّله تبجيلاً : عظّمه ، ووقّره ، وكرّمه . وأعظمه إعظاماً : فخمه وكبّره ، وبجّله . أو رآه عظيماً . أو عدّه عظيماً .

يشير إلى ما مضى من زمن اللهو والمرح ، والهوى والشباب ، والمتعة والسرور فى صحبة شُبّان من أمثاله ، تعرف فى وجوههم نَضْرة النعيم ، ويرفلون فى ثياب الدعة والرفاهية ، ويحتلّون فى المجتمع مكانة سامية ، ويلقاهم الناس بالتوقير والتعظيم .

ذَهَبَتْ بِهِمْ شِيَمُ الْمُلُوكِ .فَلَيْسَ فِى تَلْعَـابِهِمْ هَـذَرٌ . وَلَا إِبْرَامُ(٧)

لَا يَنْطِقُـونَ بِغَيْـرِ آدَابِ الْهَوَى سُمُحُ النُّفُوسِ . عَلَى الْبَـلَاءِ كِرَامُ(٨)

مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ . يُسْتَضَاءُ بِنُـورِهِ كَالْبَدْرِ . جَلَّى صَفْحَتَيْهِ غَمَـامُ(٩)

---

(٧) ذهبتْ بهم: صاحبتهم ولازمتْهم . و« بهم»: بالفتية . وشيم الملوك: أخلاقهم، وطبائعهم، وعاداتهم ، وخصالهم ، وسجاياهم : جمع شيمة (بوزن قيمة) : والمراد أن هؤلاء الفتيان قد اتصفوا بما يتصف به الملوك من الشيم العالية ، والعادات الحميدة ، والسجايا الكريمة . والتلعاب : مصدر يفيد الكثرة، من الفعل «لعب» .والهذر : سَقَط الكلام، والخطأ، والباطل ، وما لا خير فيه ، وما لا ينبغى، (وفعله كفرح ، وضرب ، ونصر) . والإبرام : مصدر أبرمه : بمعنى أضجره ، وأملّه ، وأسأمه . برّأ لعبهم ولهوهم من عيوب الهذر والإبرام؛ ولا ريب أن جدّهم وصرامتهم أشدّ بعداً وبراءة من هذه العيوب .

مدح هؤلاء الفتية بأنهم مؤدّبون – فى جدّهم وهزلهم – بآداب الملوك، مبرّءون من العيوب والنقائص التى تلابس الشباب عادة ، وتشين كثيراً من الشبان . ولا ريب أن هذا المدح يتضمن الفخر بنفسه ؛ فإنه صاحبهم وقرينهم ، وشأنه شأنهم . وربما أشار بهذا إلى ما يعتدّ به من حسبه ونسبه ، وأنه من سلالة أمراء وملوك .

(٨) واو الجماعة فى « ينطقون » : ضمير : « الفتية » الذين فاض النعيم عليهم .. ، وذهبتْ بهم شيم الملوك ... ويراد بآداب الهوى : ما يلازم الهوى العذرىّ، ولا يكاد يفارقه من عفّة القلب واللسان، وما يليق به ، ويناسبه من الكلام المستظرف الذى لا يشين قائله ، ولا يخدش الحياء . وسمح (بضمتين) : جمع سمح أو سميح (بوزن خشِن أو فصيح) : صفة من السماحة : وهى الجود ، والبذل فى العسر واليسر عن كرم وسخاء . وسمح النفوس : كرامها . والبلاء : الاختبار بالمحنة ، والشدة ، والمضرّة ، والحادث ينزل بالمرء ؛ فيغمّه ويحزنه . وقد يبلو الله عباده بالمنح والمسرّات ؛ فالمحنة والمنحة جميعاً بلاء . والأولى تقتضى الصبر . والأخرى تقتضى الشكر ، وهى أعظم البلاءين . وفى القرآن الكريم : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » (الآية رقم ٣٥ من سورة الأنبياء). « وعلى البلاء » متعلق بـ « كرام» : أى كرام مع البلاء . أو كرام فى البلاء .

يمدح هؤلاء الفتيان بأن حبهم عذرىّ عفيف ، ومشتهياتهم كلها محصورة فى نطاق العفّة والاستقامة ، وكلامهم فى الهوى يجرى مع الأدب والظرف ، واللباقة والكياسة ، وإذا ابتلوا بالمحن والبلايا والمضارّ ، أو بالمنح والعطايا والمسارّ ، كانوا – فى جميع الأحوال – سمحاء النفوس خيّـرين كراماً . وقد أسلفنا أن مدحه لصحبه يتضمّن الفخر بمحامده ومناقبه .

(٩) «من» : بيانيّة . وما بعدها بيان وتفصيل لهؤلاء الفتية الذين فاض النعيم عليهم ... وذهبتْ بهم شيم الملوك . . . ولا ينطقون بغير آداب الهوى . . . ومن كل أبلج : من كل فتى أبلج : أى طلق الوجه ، مشرق الجبين ، واسع الكرم والمعروف . وصفحة كل شىء : جانبه . ويراد بصفحتى البدر : وجهه . والغمام : السحاب . والقطعة منه غمامة .

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَسُوءُ جَلِيسَهُ بَيْنَ الْمَقَامَةِ ، وَاضِحٌ بَسَّامُ(١٠)
مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ ، تَحْسَبُ أَنَّهُ مَوْلًى لَهُمْ فِي الدَّارِ ، وَهْوَ هُمَامُ(١١)
تَتَقَاصَرُ الْأَفْهَامُ دُونَ فِعَالِهِ وَتَسِيرُ تَحْتَ لِوَائِهِ الْأَقْوَامُ(١٢)

= وصف كل امرئ من هؤلاء الصحاب الشبان بالبشاشة ، ونضارة الوجه ، وإشراق المحيا ، وأشار بالبلج أو البلجة إلى أنه من ذوى المعروف والكرم ، وشبهه بالبدر ، تم ضياؤه ، وتكشف عنه السحاب ؛ فأظهره وجلاه ، وقال : إن الناس يستضيئون بأنوار هؤلاء الممدوحين ، ويهتدون بهديهم . وفى التشبيه بالبدر معنى الرفعة ، ونباهة الشأن .

(١٠) « سهل » : خبر لمبتدإ محذوف : أى هو سهل . أو صفة لـ « أبلج » فى البيت السابق . والخليقة : السجية ، والطبيعة التى يطبع المرء عليها ، ويتخلق بها . وجمعها خلائق . و« بين » : ظرف بمعنى « وسط » . وهو متعلق بـ « واضح » . والمقامة (بفتح الميم الأولى) : القوم ، والجماعة من الناس . وبسام : صيغة مبالغة من البسم : وهو أقل الضحك ، وأحسنه . ويراد به : البشاشة ، والأريحية ، وطلاقة الوجه ، وإشراق المحيا ؛ فهو تكرار لمعنى البلج فى البيت السابق .

ما زال الشاعر يمتدح هؤلاء الصحاب ، وينوه بمحامدهم ؛ فكل امرئ منهم يمتاز بالبشاشة ، والأريحية ، وإشراق المحيا ، وسهولة الطبع ، ولين الجانب ، ورقة القلب ، لا تعيبه الفظاظة والغلظة ، ولا يؤذى جلساءه ، بل يقبل عليهم بوجه طليق ، وخلق سميح ، وثغر بسام ؛ ولهذا كله نبه شأن هؤلاء الممدوحين ، وعظم بين الناس قدرهم ، وسمت فيهم مكانتهم ، واشتهروا بهذه المزايا والفضائل .

(١١) « متواضع » : خبر لمبتدإ محذوف : أى هو متواضع . أو خبر بعد خبر : أى هو سهل الخليقة متواضع . أو هو نعت لـ «أبلج» : أى من كل أبلج سهل الخليقة ، متواضع . والمولى : العبد ، والتابع ، والمسود . والهمام : السيد الشجاع . والسخى الكريم . ورجل همام : عظيم الهمة : وهى العزم القوى ، والإرادة المؤكدة . وجملة « وهو همام » : جملة حالية .

أضاف الشاعر هنا إلى محامد أصحابه الشبان محمدة التواضع ، والبعد عن التجبر ، وبرأهم من الكبرياء الممقوتة ، وقال : إن الواحد منهم يلين للناس جانبه ، ويتواضع ، ويخشع ؛ فتظنه تابعاً ، أو مسوداً ، وهو فى حقيقة أمره سيد كريم ، سخى شجاع : كبير النفس ، عظيم الهمة .

(١٢) تتقاصر : تعجز ، أو تتضاءل ، أو تضعف ، أو تنتهى . و« دون » : ظرف مكان : وهو هنا بمعنى « تحت » ، أو بمعنى « قبل » : أى أن أفهام الناس تتقاصر قبل أن تصل إلى فعال كل امرئ من هؤلاء الفتية . أو أن مستوى تلك الفعال فوق مستوى أفكار الناس ، وأن أعماله فائقة ؛ لأنه فائق الفهم ، والتفكير ، والهمة ، والطموح . والفعال (بكسر الفاء) : الأفعال : أى الأعمال : جمع فعل . أو هى الفعال (بفتح الفاء) : بمعنى العمل الحميد ، والفعل الحسن ، والكرم ، والخير . واللواء : العلم : وهو دون الراية . والأقوام : جمع قوم : وهم الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها . =

فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّءُوسُ خَوَاضِــعٌ وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالصُّفُوفُ قِيَامُ(١٣)

= مدَحَ كل شابّ من هؤلاء الشبان بأن أفعاله عالية حميدة ، فائقة باهرة ، تقْصُر دون تخيُّلها أفهام الناس : أى يدرك بفعله ما يعجز عنه خيال المتخيّل ، أى أن أفعاله أوسع وأسمى وأعظم من تصوّرات الأذهان ، وتخيّلات الأفهام .

وفى الشطر الثانى إشارة إلى سموّ قدره ، وعلوّ منزلته ، وإعجاب الناس به ، وانقيادهم له .

(١٣) فاعل « تكلّم » : ضمير « كل أبلج » فى البيت التاسع . وخواضع : جمع خاضع ؛ ويراد بخضوع الرءوس إذا تكلّم : خشوع المستمعين ، ورهافة أسماعهم ، وحسن إنصاتهم ، وانتفاعهم بكلماته ، واستجابتهم لتوجيهاته ، وانطياعهم لما يأمرهم به . وتناهض: يريد تكلّف النهوض ، وحاول القيام . والذى فى القاموس وغيره : تناهض القوم فى الحرب : أى نهض كل إلى صاحبه ، وأسرع كل فريق إلى مقاومة عدوّه . ويكون التناهض كذلك فيما يشبه الحروب ، كالخصومات والمنازعات . وفى معنى الصفوف أن الناس يجتمعون إليه فى اصطفاف واتساق ونظام . وقيام : جمع قائم . وفى القرآن المجيد : « والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً » (الآية رقم ٦٤ من سورة الفرقان) . وفيه أيضاً : « ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » . (الآية رقم ٦٨ من سورة الزمر) .

ويراد بقيام الصفوف إذا تناهض : أنه إذا همّ بالقيام لمغادرة مكانه بعد الفراغ من كلامه نهضت صفوف الناس تعظيماً له وإجلالاً . أو المراد أنه إذا نهض لأمر من الأمور العامة تبعته الجماهير ، وانقادت له ، ونهضت بنهوضه ؛ فالممدوحون من صحبه ورفاقه يحتلون فى المجتمع مراكز القيادة والرياسة ؛ وصلة الشطر الثانى بالشطر الأول واضحة وثيقة .

أطرى الشاعر فى هذا البيت ، وسبعة الأبيات قبله أصدقاءه الذين كانوا يصاحبونه « إذ للهوى ثمر يرفّ ... » ويمْحَضُونه الودّ ، ويُخْلصون له الإخاء أيام شبابه ؛ ونوّه بكثير من محامدهم ومزاياهم : فهم أهل ترف ورفاهة ونعيم فيّاض . ومنزلتهم بين الناس عالية رفيعة مرموقة ، مقرونة بالتبجيل والتعظيم . وآدابهم فى جدّهم وهزلهم آداب الملوك والعظماء . وكلامهم فى الحبّ والهوى ، واللهو والغرام لا يتجاوز حدود العفّة والكياسة ، والظرف واللباقة . ونفوسهم طيّبة خيّرة ، عظيمة كريمة . وإذا ابتلوا بالمحن والبلايا ، والشدائد والملمّات ، أو بالمنح والعطايا ، والنعم والمسرّات – كانوا سُمَحاء كُرَماء ، أجواداً أعزّة . وفى وجوههم البشر والطلاقة ، والإشراق والضياء . وفى سجايا هم وطباعهم اليسر والسهولة ، والأريحيّة والسماحة ، ولين الجانب ، والتواضع المحمود ، مع الهمّة العالية ، وإكرام الجلساء والخلطاء . وأفعالهم أوسع وأسمى ، وأعظم وأكرم من تخيّلات الأفهام ، وتصوّرات الأذهان ؛ ومن أجل ذلك أعجب الناس بهم ، واستمعوا لكلامهم ، وقاموا لقيامهم ، وساروا تحت لوائهم .

ويلاحظ أن الشاعر فى هذه الأبيات الثمانية (٦ – ١٣) التى اختصّ بها هؤلاء الفتية ، قد كرّر بعض المعانى والأفكار بأساليب مختلفة ؛ فنباهة شأنهم ، والمنزلة المرموقة التى كانت لهم ، أشير إليها فى البيت السادس من أبيات هذه القصيدة . ثم تكرّرت الإشارة فى البيت التاسع وما وليه من الأبيات . والبيت الثامن تأكيد وتكرار لمعنى البيت السابع . والبيت الثالث عشر تفصيل وتكرار لمعنى الشطر الثانى من البيت الثانى عشر .

حَتَّى انْتَبَهْنَا بَعْدَ مَا ذَهَبَ الصِّبَا ... إِنَّ الْخَلَاعَةَ وَالصِّبَا أَحْلَامُ(١٤)

لَا تَحْسَبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتْرَفٍ ... هَيْهَاتَ . لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ(١٥)

تَأْتِي الشُّهُورُ ، وَتَنْتَهِي أَيَّامُهَا ... لَمْعَ السَّرَابِ ، وَتَنْقَضِي الْأَعْوَامُ(١٦)

---

(١٤) الصبا فى الشطر الأول : الفتاء والشباب . والصبا فى الشطر الثانى : الصبوة : أى جهلة الفتوّة ، والميل إلى اللهو ، ومرح الشبان وعبثهم ، وانقيادهم لدواعى الهوى والغرام . والخلاعة : مصدر خلع (من باب ظرف) ، فهو خليع : أى انقاد لهواه ، وخلع رداء الحياء ، وتهتّك ، واستخفّ ، واستهتر . والأحلام : جمع حلم (بضم فسكون ، أو بضمتين) : وهو رؤيا النائم .

والمعنى : مازلنا سادرين فى لذات الهوى ، ومتع الشباب ، ناعمين بأحلام الصبا ، ومرح الفتاء ، حتى أيقظنا المشيب ، فانتبهنا من غفلتنا ، وفطنّا لما كنا فيه ، وما صرنا إليه . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مشعر بالأسف والندم : فإن الخلاعة والمجون ، وعبث الشباب ولهوه ، والانقياد للهوى ودواعيه ، والانطلاق وراء الشهوات واللذات ، لا يعدو أن يكون أحلام نائم ، لا تلبث أن تبددها يقظته ، ولا يبقى بعدها إلا حسرته وندامته. وفى هذا البيت وأربعة الأبيات بعده انتقل الشاعر من إطراء صحابه إلى ما يشبه الحكمة أو العظة ، مذكّراً بسرعة زوال الحياة ، وقصر عمر الإنسان فيها ، وانطوائه بالموت الذى يترقّبه ويترصّده .

(١٥) العيش : الحياة . والمترف (بصيغة اسم المفعول) : المتنعم الرافه الذى لان عيشه ، ورَغُد واتسع وطاب . من أترفه إترافاً : أى وسّع عليه ، ورفّهه ، ودلّله . أو الذى أترفتْه النعمة أو المال : أى أبطره ، وأفسده ، وأطغاه ؛ فتجبّر ، واشتدّ عُتُوّه ، واستكباره ، واستهتاره . أو هو بصيغة اسم الفاعل : من أترف الرجل إترافاً : أى أصرّ على البغى ، وتسلّط ، وظلم ، واستكبر واستطال ، وتجاوز الحدّ . و« هيهات » (بتثليث الآخر) : اسم فعل ماض : معناه بَعُدَ : أى بَعُدَ دوام العيش للمترف ؛ فحياته زائلة . وزوالها قريب محتوم . أو بَعُدَ أن يدوم عيش الترف للمترف ، فقد ينقلب حاله ، فيشقى بشظف العيش والحرمان ، ويتجرّع مرارة الحسرة والخسران . و« ليس على الزمان دوام » : تذييل جار مجرى المثل ، معناه : أن الزمان لا يبقى معه شىء . أو لا يبقى فيه شىء . أو لا يبقى على شىء ؛ فهو يُفْنى الحياة والأحياء . و« على » هنا : معناها المصاحبة . أو الظرفية .

والمعنى : أن الحياة لا تدوم لحىّ غير الله جلّ جلاله ، وأن الزمان كفيل بالقضاء على متع العيش ولذاته ، وطىّ أعمار الناس جميعاً ، مترفين ، وغير مترفين . وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن حياة الترف والنعيم التى كان الشاعر ينعم بها مع أصدقائه فى عهد الفتوّة والشباب قد ذهب بها الزمان ، ولم يبق لهم غير يبْس الشيخوخة وأوصابها ، وغير العظة والعبرة والحسرة والندامة .

(١٦) لمع البرق وغيره لمعاً (من باب قطع) : برَق ، وأضاء ، وتلألأ . وفى اللمع أو اللمعان معنى السرعة . والسراب : ما يشاهد فى نصف النهار ، من اشتداد الحرّ ، كأنه ماء فى المفاوز ونحوها ،=

وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ أَوْ صَــادِرٌ ، تَجْرِى بِهِ الْأَيَّامُ(١٧)
لَا طَائِرٌ يَنْجُو . وَلَا ذُو مِخْلَبٍ يَبْقَى . وَعَاقِبَةُ النُّفُوسِ حِمَامُ(١٨)
فَادْرَأْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ بِالْكَأْسِ ؛ فَهْىَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ(١٩)

= تنعكس فيه أخيلة البيوت ، وصور الأشجار وغيرها . ويضرب به المثل فى الكذب والخداع والتمويه ، فيقال : « هو أخدع من السراب » .

يقول : إن الأيام والشهور والأعوام تمرّ بنا لامعة مسرعة خادعة ، كأنها لمعان السراب . وفى القرآن الكريم : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفّاه حسابه . والله سريع الحساب » . الآية رقم ٣٩ من سورة النور .

(١٧) « ذلك » : إشارة إلى إتيان الشهور ، وانتهاء الأيام ، وانقضاء الأعوام : أى إلى دوران الزمان وحركته المصوّرة فى البيت السابق . والناس فيها بين ذلك : أى فى أثناء حركة الزمان ودورانه . ووارد : أى مقبل على الحياة : أى مولود يستقبل الحياة الدنيا . وهو فى الأصل اسم فاعل من ورد الماء وغيره : أى أشرف عليه ، وصار إليه ، وداناه ، وبلغه ، ووافاه . وصادر : خلاف وارد : أى صادر عن الحياة الدنيا ، مدبر عنها ، مفارق لها . وهو فى الأصل اسم فاعل من صدر عن الماء وغيره : أى رجع عنه ، وانصرف . وتجرى به الأيام : أى تسرع به إلى الموت والهلاك . والجرى ، أو الإسراع هنا حقيقة لا شكّ فيها ؛ فإن عمر الإنسان فى الدنيا محدود قصير :

بينا يرى الإنسان فيها مخــبراً حتى يرى خبراً مـــن الأخبار

والمعنى : أن الناس فى أثناء حركة الزمان ودورانه إمّا مولود يستقبل الحياة الدنيا ، وإمّا مفقود يفارقها فى سرعة . قال تعالى : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم » . (الآية رقم ٤٥ من سورة يونس) .

(١٨) « ينجو » : المراد ينجو من الموت . والمخلب : ظفر كل سبع . والحمام : الموت .

والمعنى : أن الموت لابدّ منه . وهو نهاية كل الخلائق ، ولن يسلم منه طير ، ولا سبع ، ولا حيوان ، ولا إنسان . وفى القرآن الكريم : « كل نفس ذائقة الموت . ثم إلينا تُرجعون » . الآية رقم ٥٧ من سورة العنكبوت .

اتجه الشاعر فى هذا البيت وثلاثة الأبيات قبله إلى ما يشبه الحكمة ، أو العظة ، والتذكير بقصر عمر الإنسان فى الحياة ، وسرعة زوالها بالموت ، وهو قضاء محتوم على كل الخلائق . ومن العجيب المستغرب أن ينتقل الشاعر من هذا إلى الترغيب فى الخمر ، ووصفها فى أحد عشر بيتاً ، أى فى أكثر من ربع هذه القصيدة .

(١٩) ادرأ : أمر من درأ عنه الشىء بكذا (من باب منع) : أى دفعه به عنه دفعاً شديداً ، ونحّاه ، وأبعده ، وردّه بقوّة . والهموم : الأحزان : جمع همّ . واعترتْ : نزلتْ ، وألمتْ ، وأصابتْ . وفاعله ضمير الهموم . والكأس . الإناء يشرب فيه . أو القدح مادام فيه الشراب . وهى مؤنثة . ويراد بها هنا : الخمر . وبالكأس متعلق بـ « ادرأ » . والحسام : السيف القاطع . =

فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِى أَلْوَانِهِ   إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْـهِ الْجَامُ(٢٠)

مِنْ خَمْرَةٍ تَذَرُ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى   بَعْدَ اشْتِعَـالِ الشَّيْبِ وَهْوَ غُلَامُ(٢١)

لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا ، فَغَادَرَ جِسْمَهَا   شَبَحًا تَحَـارُ لِدَرْكِهِ الْأَفْهَامُ(٢٢)

= فى الأبيات الأربعة السابقة تذكير بالموت ، وسرعة زوال الحياة ، وقصر عمر الإنسان فيها . وفى هذا البيت وعشرة الأبيات التالية رغّب الشاعر فى الخمر ، وحضّ على تحسّيها ، وزعم أنها تبدّد المتاعب النفسيّة ، وتذهب بها . ثم وصفها ، وأطال فى وصفها ؛ ولعلّ الصلة بين التذكير بالموت ، والترغيب فى الخمر أن مطاردة الموت للإنسان ، وما يقاسيه فى حياته من عداوة الزمان يؤلّب عليه الهموم والأحزان ؛ والخمر — فى زعم الشاعر — دواؤها والدارئة لها . أو هما غرضان منفصلان ، لا صلة بينهما . وفى بعض شعر البارودى طفرات من هذا القبيل . ومن عادة بعض الشعراء أن يستطردوا فى بعض قصائدهم لوصف الخمر وتزيينها عن رغبة فيها ، وإدمان لها . وقد يكون الوصف والتزيين لمجرد التلهّى ، والانطياع لملكته الشعرية ، والانطلاق فى مجالها ، وإضافة هذا الضرب أو الفنّ إلى ضروب القول ، وفنون الشعر ، وألوان البيان .

(٢٠) يريد بالعيش : المعيشة الهنيئة ، والحياة الممتعة . ويريد بألوان العيش : أنواع النعيم ، وصنوف اللذات ، وضروب المتع . ودارت عليه : دارت على العيش : أى خالطته ، وامتزجت به . والجام : الكأس ، وهى مؤنثة ، فارسية الأصل ؛ ويراد بها الخمر .

يزعم أن جامات الخمر إذا دارت على مدمنيها هيّأتْ لهم عيشاً ممتعاً هنيئاً ، وأدامت لهم ألوان المتع ، وضروب اللذات .

(٢١) « من خمرة » : بيان للجام فى البيت السابق : أى داوت عليه جامات الخمر . وقد يكون المتعلّق محذوفاً ، تقديره « ارتشف » مثلاً . وقد يستعمل هذا التعبير للتعجب المراد به التحسين والتزيين ، والترغيب والتحبيب : أى ناهيك من خمرة ؛ كأنها تنهاك بلذّتها عن تطلّب غيرها . وتذر : تدع ، وتترك . ويريد بالكبير : الأشيب . وانتشى : سكر . واشتعال الشيب : ظهوره وكثرته وانتشاره فى شعر الرأس ؛ مستعار من اشتعال النار . والغلام : الصبى إذا طرّ شاربه ، وشارف البلوغ . ويراد به هنا الشابّ الفتىّ . وجملة « وهو غلام » : جملة حالية .

يقول : إذا احتسى الأشيب الخمر ، وسكر بها تركتْه شاباً فتياً : يريد أنها تردّ إليه قوّة الشباب ونضارته . أو أنها تجرّده من وقار الشيخوخة ورزانتها ، وتغريه بمرح الشباب ولهوه .

(٢٢) لعب الزمان بها : كناية عن تعتيقها : أى تركتْ مع الزمان الطويل حتى قدُمتْ ، وطابتْ ، وصفتْ ، وجادتْ . وغادر : ترك . والشبح : ما بدا لك شخصه غير جلىّ من بعيد . وشبح الشىء : ظله وخياله وصورته . وهو يكنى بصيرورة جسمها شبحاً عن فرط رقّتها وخفتها ولطافتها بالتعتيق . وحار=

حَمْرَاءُ ،دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصَوَّرَتْ   فَلَكًا تَحُفُّ سَمَاءَهُ الْأَجْرَامُ(٢٣)

لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِى لَمَعَانِهَا   وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ(٢٤)

تَعْشُو الرِّكَابُ ،فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا   سَارُوا . وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا(٢٥)

= يحار : نظر إلى الشىء ، فغشى عليه ، ولم يهتد لسبيله . ولدركه : من أجل إدراكه . أو فى سبيل إدراكه .

يقول : إنها خمر جيدة معتّقة : طال عليها الزمان وتملاّها ، حتى رقّتْ وراقتْ ، وصار جسمها — لفرط رقّته ولطافته — كالشبح الخفىّ ؛ تحار العقول فى إدراكه ، ولا تهتدى إلى معرفة حقيقته .

(٢٣) «حمراء» : خبر لمبتدإ محذوف : أى هى حمراء . أو نعت لخمرة فى البيت الحادى والعشرين : أى من خمرة حمراء . والحباب : الفقاقيع التى تعلو على وجه الماء أو الخمر ، كالقوارير : وهى اليعاليل : والنُّفّاخات . ومن كلامهم : « طفا الحباب على الشراب » . وفاعل «صوّرتْ» ضمير الخمر : أى صَوَّرَتْ بحبابها . والفلك : الفضاء يدور فيه الكوكب . وحفّ القوم الرجل (من باب رد) : أى أطافوا به ، وأحدقوا ، واستداروا حوله . والأجرام : الكواكب والنجوم .

أشار فى أول البيت إلى لون الخمر . وقال : إنها إذا صُبَّتْ فى كئوسها ، ومُزِجَتْ بالماء قبل شربها ، دارت فيها اليعاليل ، وظهرتْ فوقها بيضاء لامعة متلألئة ؛ فصَوَّرَتْ لشاربها فلكاً تدور فيه النجوم ؛ فجسم الخمر يشبه الفلك أو سماء الفلك . واليعاليل أو النُّفّاخات ، أو الفقاقيع البيضاء التى تحفّ بالفلك : أى تدور فيه ، وتعلوه ، وتطيف به : هى كواكبه ونجومه . والغرض من هذا الكلام وأمثاله تزيين الخمر والترغيب فيها .

(٢٤) تزلّ : تزلق ، وتسقط .

يقول : إن الخمر — لشدة لمعانها ، وفرط تلألئها — يضطرب نظر الناظر إليها ، ولا تثبت العين عند رؤيتها ، كما لاتثبت عند رؤية شىء شديد الضياء . وإذا تحسّاها شاربها أسكرتْه ، فاضطربتْ من السُّكْر ساقاه ، وترنّح ، وتمايل ، وزلقتْ قدماه .

(٢٥) عشايعشو (كدعا يدعو) . وعشى يعشى (كرضى يرضى) : ساء بصره بالليل . والركاب : الإبل تركب ، ويرحل عليها . واحدتها راحلة . وجمعها ركائب . والمراد هنا : الإبل ورُكْبانها . وتبلّج : أشرق ، وأضاء . وأقاموا : توقّفوا عن السير ، وقعدوا عن السفر ؛ فالإقامة هنا : خلاف السير .

يبالغ الشاعر فى تصوير صفاء هذه الخمر ونقائها وشدة لمعانها ؛ فيقول : أن الإبل وركبانها تسوء أبصارهم فى ظلمات الليل ؛ فإذا صَبُّوا الخمر تلألأتْ فى كئوسها ، وأشرقتْ ؛ فساروا فى ضيائها ، واستبانتْ لهم الطرق ، وتيسر السير والسفر . وإذا زال ضياؤها بعد احتسائها عادت الظلمات ، واستبهمت السبل ، وشقّ السُّرَى ؛ فقعدوا عن الرحيل ، واضطروا إلى اللّبث والإقامة .

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ ، لَمْ يَقُمْ بِفِنَائِهِ نُورٌ ، وَلَمْ يَبْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامُ(٢٦)

حَتَّى إِذَا رَقَدَتْ . وَقَرَّ قَرَارُهَا سَلِسَتْ ؛ فَلَيْسَ لِذَوْقِهَا إِيلَامُ(٢٧)

تَسِمُ الْعُيُونَ بِنَارِهَا ، لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَّابِهَا وَسَلَامُ(٢٨)

فَاصْقُلْ بِهَا صَدَأَ الْهُمُومِ ، وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطِيرُ بِلُبِّهِ الْأَوْهَامُ(٢٩)

---

(٢٦) نائب فاعل « حبست » : ضمير الخمر . ويراد بالحبس هنا : التعتيق . وأكلف : نعت لمنعوت محذوف : أى حبست فى وعاء أكلف ، من الأوعية التى تحفظ فيها الخمر ، للتعتيق : صفة من الكَلَف : وهو حمرة تشوبها كدرة وسواد . يقال : دنّ أكلف : وهو الراقود العظيم ، يحفر له فى الأرض لإقعاده وتثبيته . والكلفاء : مؤنث الأكلف . يقال : خابية كلفاء : أى فى لونها كَلَف . والفناء (بكسر الفاء) : الساحة فى الدار ، أو بجانبها ، أو أمام البيت . ويراد بالفناء هنا : المكان الذى تكون به أوعية التعتيق ، كالدنّ ، والراقود ، والخابية . وجمعه أفنية . وبرح الشىء (من باب تعب) : زال من مكانه . ويقال فى الاستمرار : ما برح يفعل كذا . ولم يبرح الدنّ الأكلف عليه ظلام : أى لم يزايله الظلام ، ولم يفارقه ؛ فهو ملازم له ، محيط به ، مستمرّ حوله ، وهو تأكيد لمعنى «لم يقم بفنائه نور» . ويبدو أن تعتيق الخمر يتطلّب ظلمة المكان الذى يشتمل على دنانها أو خوابيها .

يقول : إن هذه الخمر عُتّقت فى دنّ أكلف ، ظلّ طويلاً فى مكان مظلم معتّم ، لا يكاد يرى شيئاً من الضياء ، ولا تكاد تزايله الظلمات .

(٢٧) رقد (من بابى نصر ودخل) : نام . ويراد بالرقود هنا : الإقامة والاستقرار والسكون . وقرّ قرارها : أى أقامت واطمأنت ، وسكنت ، وثبتت . وهو تكرار لمعنى «رقدت» : أى حتى إذا تمّ تعتيقها سلست : أى سهلت ، ولانت ، وطابت ، وساغت ، ولذّت . (وبابه فرح ، وظرف) . والذوق : مصدر ذاق من (باب قال) . ويراد به هنا : المذاق : أى الطعم . ومذاقها غير مؤلم : أى سائغة ، طيّبة المذاق ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى السلاسة .

(٢٨) وسمه (من باب وعد) : جعل له سمة (بوزن عدة) : أى علامة يعرف بها . وتسم الخمر عيون شاربيها : أى تترك فى عيونهم حمرة كحمرة النار ، كأنها سمة يعرفون بها . والشُرّاب : جمع شارب : اسم فاعل من شرب . أو هى شَرّاب : أى كثير الشرب : صيغة مبالغة من شرب . وفى صيغة المبالغة هنا حضّ ضمنىّ على إدمان الخمر . والسلام : السلامة ، والنجاة من الآفات . وفى القرآن الكريم : « قلنا : يا نار ، كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » . (الآية رقم ٦٩ من سورة الأنبياء) .

(٢٩) اصقل : أمر من صقله (من باب نصر) : أى جلاه ، وملّسه ، وأزال صدأه . وبها : بالخمر . وصدأ الهموم : أى الهموم الشبيهة بالصدأ ؛ فهو من إضافة المشبّه به إلى المشبّه . والهموم ، الأحزان ، واحدها همّ ؛ ولا ريب أنها إذا رانت على القلب والعقل والحواس فعلت بها ما يفعله الصدأ =

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ لَيْسَ بِخَالِدٍ وَالدَّهْرُ فِيهِ صِحَّــةٌ وَسَقَامُ(٣٠)

= بالحديد والمعادن الصدئة ؛ فهو يغطّى جوهرها ، ويتْلفها . والغرّ : من لا خبرة له . ومن ينخدع إذا خُدِع . وتطير بلبّه : تذهب به ، وتزيله . واللبّ : العقل ، وجمعه ألباب . والأوهام : الهواجس والوساوس ، مفردها وهم .

يدعو إلى الخمر ، ويرغّب فيها ، ويزعم أنها تذهب الأحزان والوساوس . ويقول لمن يخاطبه : لا تستمرّ فى غرارتك وجهلك ، ولا تَدَعِ الأوهام تسيطر عليك ، وتذهب بعقلك ؛ ففى استطاعتك أن تزيل هذا كله بمعاقرة بنت الحان .

وصف الشاعر الخمر ، وزينها ، ودعا إليها فى أحد عشر بيتاً (١٩ – ٢٩) أى فيما يقرب من ثلث هذه القصيدة ؛ فزعم أنها تدرأ عن النفس ما يساورها من الهموم والأحزان . وكرّر هذا الزعم وأكّده فى البيتين الأول والأخير من هذه الأبيات ، أى فى التاسع عشر والتاسع والعشرين . كما زعم أنها توفّر لشاربها متع العيش ، ولذائذ الحياة ، وتجعل الشيب شباناً . ثم بالغ فى وصف تعتيقها ، ونقائها ، وصفائها ، ولمعانها ، ولطافتها ، وسلاستها ، ولذتها ؛ فعرض هذه المعانى فى ستة أبيات . وأشار إلى بعض آثار الخمر فى عيون معاقريها وأجسامهم .

وفى عشرة الأبيات الآتية ختم الشاعر هذه القصيدة بالحكمة ، وشىء من فلسفة الحياة والموت .

(٣٠) المرء (مثلثة الميم) : الإنسان . والسقامُ : العلّة ، والمرض . (وفعله من بابى تعب ، وقرب) . ودهر المرء : مدّة حياته .

والمعنى : أنه لا سبيل إلى خلود الإنسان فى هذه الحياة ؛ فالموت مصيره المحتوم ، والهلاك نهايته التى لا مفرّ منها . وأحواله فى الدنيا متغيّرة متقلّبة بين الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والسرور والحزن ، والمتعة والبؤس ... ولعل الصلة بين شطرى هذا البيت أن التقلب المشار إليه فى الشطر الثانى نذير بهلاك الإنسان ، وطىّ حياته ، أو أن الحياة نفسها تهلك المرء وترديه . والبيت الآتى يشير إلى هذا المعنى ويؤكده .

انتقل الشاعر فى هذا البيت وتسعة الأبيات بعده إلى الحكمة ، وشىء من فلسفة الحياة والموت ، وبيان رأيه فى بعض ما يحيط به من ظواهر الكون ، وأحوال الوجود . وبها ختم هذه القصيدة التى ذكر فيها أيام شبابه ، وما كان له فيها من رفقة وصحاب ، ومتعة ولهو ، وصبوة ، ومرح ، وهوى وغرام ... وجرّه هذا إلى ذكر الخمر وتزيينها ؛ لأنها فى زعمه من لذائذ الشباب ومتعه . ثم ثاب إلى رشده ، واستيقظ ضميره لإحباط ما قدّمه من حديث اللهو والهوى ، والخمر والمجانة ، والصبا والخلاعة . وإلغاء هذا كله بسرد الحكمة والموعظة الحسنة ، وتبصير اللاهين والخلعاء بتفاهة الدنيا وحقارتها ، وغرورها وخداعها « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) . ويلاحظ أنه جنح للحكمة والموعظة والتذكير بالموت فى خلال هذه القصيدة مرتين : مرة فى أربعة أبيات ، من البيت الخامس عشر إلى البيت الثامن عشر . ومرة أخرى فى عشرة أبيات ، من البيت الثلاثين إلى التاسع والثلاثين ، أى إلى نهاية =

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ ، وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ دُونَ الشَّغَافِ عُقَامُ[٣١]

فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ ، هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ ؟ وَهَلْ لابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ ؟[٣٢]

= القصيدة ؛ فمجموع أبيات الحكمة أربعة عشربيتاً ، وهى أكثر من ثلث هذه القصيدة . ويحمد له أنه فى حديثه عن لهو الشباب ومرحه قيّد نفسه ، كما قيّد رفاقه بآداب الهوى ، وحدود الاستقامة . ومدحهم وتمدّح معهم بالترفّع عن الهذر ، وإيثار الجدّ ، والتحلّى بعالى الشيم وكثير من الفضائل ؛ ولكن يستغرب منه بعد هذا كله أن يجرى قلمه ، وينطلق لسانه بحديث الخمر وتزيينها والترغيب فيها ، وهى أمّ الكبائر ، وكبرى الرذائل ؛ ولعله قصد أن يجمع فى هذه القصيدة فنوناً شتى من القول بصرف النظر عن مراعاة ما ينبغى أن يكون بينها من صلات وروابط ومناسبات . شأنه فى هذا شأن من يحتذى مثالهم ،ويقتدى بهم ، وينسج على منوالهم من قدامى شعراء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . وقد أسلفنا أن الشاعر قد يذكر الخمر لمجرد إرضاء شاعريته ، أواستيعاب أغراض الشعر ، أو تدريب نفسه على هذا الضرب من ضروب القول ، أو تنويع الكلام ، والافتنان فيه ، أو التشبّه بمن برعوا فى وصف الخمر والدعوة إليها ، كأبى نواس وأمثاله .

(٣١) يهوى : يحب ، ويشتهى . ويراد بالفتى هنا : الإنسان . و « دون » : ظرف مكان منصوب ؛ وهى هنا بمعنى « فوق » . أو بمعنى « قرب » . أو بمعنى الملابسة والمخالطة ؛ فالداء يخالط الشغاف ويلابسه ، ويتصل به أوثق اتصال . والشغاف (كسحاب) : غلاف القلب . أو حبته ، وسويداؤه . وداء عقام (بفتح العين وضمها) : أى عضال ، أو عيَّاء : أى لا طبّ له ، ولا برْء منه ، ولا أمل فى شفاء من يصاب به .

والمعنى : أن كل إنسان يشتهى امتداد حياته ، ويتمنى إطالة عمره ، ولو فطن وتدبّر ، لعلم أنه يشتهى ما يضيره ، ويتمنّى ما يؤذيه ؛ فإن الحياة نفسها داء عيّاء يخامر قلبه ، ولا يرجى شفاؤه . وهى إلى هذا لاتبرح تحمل إليه الهمّ والغمّ ، وترميه بالمتاعب والآلام ، وتسوّد عيشته بالتكدير والتنغيص . وإن تتابع الأيام والليالى لا يفتأ يذيبه ويضنيه ، وينْحله ويبْريه ، حتى يُقيم أخْدَعَيْه ، ويُجْهز عليه . وقد يكون المراد بطول الحياة فى هذا البيت : الخلود ، ليتّسق مع ما قبله وما بعده . ومن شعر أمير الشعراء أحمد شوقى بك فى هذا المعنى :

فإن الحياة تفُلّ الحديـــد إذا لبستْه ، وتُبْلى الحجـــر

(٣٢) اطمح : أمر من طمح بصره إلى الشيء (من باب خضع) : أى ارتفع واستشرف ونظر . وطمح ببصره إليه : أى رفعه ، وحدّق به إليه ، وشدّد النظر . والطرف : العين ، والنظر . و«من» فى الشطر الأول زائدة لتوكيد الكلام ، وتقوية مضمونه . كما فى قول الله تبارك وتعالى : « فارجع البصر ، هل ترى من فطور » (الآية رقم ٣ من سورة الملك) . والاستفهامان فى هذا البيت : معناهما النفى : أى لا خلود لأمّةمن الأمم ، ولا إقامة لابن السبيل . وابن السبيل : المسافر. ولا ريب أن الإنسان فى الدنيا ابن سبيل ، وعابر طريق . والدنيا طريقه إلى الآخرة دار الجزاء والخلود . ومقام (بضم الميم ، أو بفتحها) : مصدر ميمىّ ، أو اسم مكان ، أو اسم زمان من أقام بالمكان إقامة . أى لبث فيه دواماً ، واتخذه وطناً . أو من قام على الأمر (من باب قال) : أى دام وثبت . =

هَٰذِى الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النَّعِيمِ ، وَهَـٰذِهِ الْأَهْرَامُ[٣٣]

لَا شَىْءَ يَبْقَى ، غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِى الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ[٣٤]

= والمعنى : أن النظرة العابرة فى أحوال الحياة والناس تقطع أن الإنسان فى الدنيا ابن سبيل ، وعابر طريق ، وأن إقامته فيها غير ممكنة؛ فالموت وراءه يرقبه ويطلبه ، وهو لا يفتأ يتخرّم الأمم والجماعات ، ويطوى حياة الأحياء « كل نفس ذائقة الموت . وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) .

(٣٣) الأهرام : جمع هرم (بوزن جبل) : وهو بناء ضخم من الحجارة الضخمة ، قاعدته فى الغالب مربّعة ، وجدرانه ، أو وجوهه الجانبية ، أربعة مثلثات ، تلتقى رءوسها فى نقطة واحدة ، هى رأس الهرم ، أو قمته . وقد اشتهر الفراعنة من قدماء المصريين ببناء الأهرام لتكون مقابر لهم . وأكبرها هرم « خوفو » غربىّ مدينة الجيزة . وأقدمها الهرم المدرّج بسقّارة للملك « زوسر » أول ملوك الأسرة الثالثة .

فى البيت السابق قال : إن الإنسان ابن سبيل ، وعابر طريق ، وإن الموت جادّ دائب فى ترقّبه وتطلّبه ، مولع باخترام الأحياء من الناس فرادى وجماعات . وإن الدنيا دار سفر ورحيل ، وليست دار إقامة وخلود . وفى هذا البيت أشار إلى كثرة من طواهم الردى ، وأكلتهم الأرض ، وزايلهم الترف والنعيم ، وحُرموا ما كانوا فيه من رغادة العيش ، وهناءة الحياة ، وتركوا ما شيّدوه وعمروه من الديار والقصور ، والمغانى والآثار ، والمدن والأمصار تنعاهم ، وتروى أخبارهم ، وتحمل لنا العبر والعظات البالغات ؛ وخصّ الأهرام بالذكر لأنها أظهر وأكبر ، وأعلى وأشهر ، وأعظم وأضخم ما خلّده الفانى شاهداً بأنه — مع عبقريّته ، وعظمته ، وبارع حيلته ، وفائق قوّته — قصير العمر ، سريع الزوال ، ضعيف فى يد الموت .

(٣٤) « لا شىء يبقى » : تلخيص وتأكيد لمعنى الأبيات الأربعة السابقة ؛ فالدنيا لا بقاء لها ، والخلائق كلها إلى هلاك وفناء . والخديعة : اسم من خدعه : أى ختله واغترّه ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . و « فى » هنا : بمعنى المصاحبة ؛ فالخديعة تصاحب الدهر ، وتلازمه ، ولا تكاد تفارقه . أو هى بمعنى « من » ؛ فالخديعة من الدهر . والدهر هو الخادع . والإنسان هو المخدوع . أو هى زائدة لتوكيد الكلام ؛ فإنه بدونها يستقيم : أى لا شىء يبقى ، ولكن خديعة الدهر تضلّ العقول . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، وعمر العالم ؛ وقد اعتاد الناس أن ينسبوا إليه الخير والشر ، والمسرّة والمساءة . وقد يراد بالدهر هنا : الدنيا ؛ فإنها فى الحقيقة هى الخادعة . وتنكل : تضعف ، وتعجز ، وتقصر ، وتحجم ، وتنكص : مضارع نكل ، (كضرب ، وقعد ، وتعب) . ودونها : دون الخديعة : أى تحتها ، أو معها ، أو بالقرب منها ، أو قبلها ، أو أمامها : أى تضعف الأحلام تحت تأثير الخديعة : جمع حلْم (بوزن قفْل) : وهو العقل . =

وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ الْأُمُورَ بِغَيْرِهَا ... وَأَتَى عَلَيَّ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ(٣٥)

فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكٌ ، وَإِذَا الْخُمُو ... دُ تَلَهُّبٌ ، وإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ(٣٦)

وَإِذَا الْحَيَاةُ ــ وَلَا حَيَاةَ ــ مَنِيَّةٌ ... تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهْىَ رِمَامُ(٣٧)

= والمعنى : أن العالم يفنى ، والدنيا لا بقاء لها ، والخلائق كلّها إلى هلاك وزوال ، «كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (الآية رقم ٢٦ والآية رقم ٢٧ من سورة الرحمن) . وكان ينبغى ألا يغفل الناس عن هذه الحقيقة التى يرون شواهدها ماثلة بين أيديهم ؛ ولكن الدنيا تغرّهم بزخرفها ، والدهر يخدعهم ، ولا يفتأ يلهيهم عنها بحيل وتمويهات تضعف أمامها عقول الغافلين ، وبصائر المخدوعين .

(٣٥) الأمور : الأشياء ، والأحوال ، والشئون : جمع أمر . يريد أمور الحياة ، وأحوال الناس ، وظواهر الوجود . وتبيّنها : تعرّفها . أو تأمّلتها حتى اتضحت ، وبانت لى ، وظهرت ، وانكشفت . وتبينتُ الشىء : أوضحته ، وأظهرتُه ، وكشفتُه ، وجلّيتُه . وتبيّنتُ الأمور بغيرها : أى تعرّفتها وكشفتها بأشباهها ونظائرها . أو بأضدادها وما يخالفها ؛ فالضدّ يظهره الضدّ . والإنسان يستطيع معرفة الأشياء الخفيّة ، وكشف غوامضها وأسرارها إذا قاسها بأشباهها ، أو قرنها بأضدادها . وأتى علىّ : أى ومرّ بى ، وكان من تجاربى .

فى البيت السابق نبّه ووعظ بفناء العالم ، وهلاك الخلائق . وأشار إلى غفلة كثير من الناس عن هذه الحقيقة التى لا مراء فيها ، وانخداعهم بباطل الحياة الدنيا وزخرفها . وفى هذا البيت أخرج نفسه من غمار هؤلاء الغافلين المخدوعين ، وقال : إنه عرف كثيراً من شئون الحياة ، وأحوال الناس ، وظواهر الوجود ، وأسرار الكون ، وخفايا الأشياء ، ودقائقها ، بتأمّل أشباهها ونظائرها ، وتعرّف أضدادها ونقائضها ، وطول التفكّر والتبصّر والتدبّر ، وكثرة ما مرّ به ، ووقع تحت تجاربه من الأحداث المختلفة ، والأمور المتناقضة . وفى أربعة الأبيات الآتية تفصيل وتمثيل لهذا المعنى .

(٣٦) «إذا» : معناها هنا المفاجأة . وتختصّ بالجمل الاسمية . ولا تحتاج إلى جواب . ولا تقع فى الابتداء . ومعناها الحال : أى ولقد تبينت الأمور بغيرها .. ففوجئتُ بأن السكون تحرّك .. والخمود : مصدر خمدت النار (من باب قعد) : أى سكن لهبها ، ولم يطفأ جمرها . بخلاف همدت . وتلهّبت النار تلهّباً : اتّقدت .

والمعنى : أن ما يبدو من سكون الدهر ومهادنته هو فى حقيقته تأهّب للحركة والبطش والفتك . وهو تحت خموده الظاهر يتّقد ويتلهّب . وهو فى صمته وسكوته متكلم ينطق بالمواعظ والعبر . أو المعنى : أن الحياة متغيّرة متقلّبة ، والدنيا لا تثبت على حال ؛ فهى متنقّلة المشاهد ، مختلفة الألوان ؛ فالذى تراه فيها ساكناً يعود بعد برهة متحرّكاً ، والخامد لا يلبث أن يتلهّب ، والساكت إلى نطق وكلام ، وإفصاح وبيان .

(٣٧) «الحياة» مبتدأ ، خبره «منيّة» : أى موت . يريد أن الحياة فى نظر من تدبّرها موت : أى تُبلى الأحياء ، وتُفنيهم ، كما قال أمير الشعراء «أحمد شوقى بك» : =

هَــذَا يُحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهًا عَنْهُ : فَصُلْحٌ تَارَةً ، وخِصَــامُ(٣٨)
فَالنُّورُ — لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ — ظُلْمَةٌ وَالْبَدْءُ — لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ — خِتَامُ(٣٩)

= فإن الحيــاة تفلّ الحــديد إذا لبسته ، وتُبْلى الحجرْ

أو المعنى : أن الحياة نهايتها التى لابدّ منها موت لا شكّ فيه . وجملة « ولا حياة » معترضة بين المبتدإ وخبره ؛ لتأكيد معنى« منيّة » أو لتقرير تفاهة الحياة الدنيا ، وقلة جدواها ، وسرعة تقضّيها ، وذهاب نعيمها ، واتصالها بالموت . وجملة « تحيا بها الأجساد » صفة لـ« منيّة » : أى تحيا منها . أو تحيا عنها . أو تحيا وهى متلبّسة بها . وجملة « وهى رمام » حال من « الأجساد » : جمع رمة (بوزن ذِمّة) : وهى ما بَلِىَ ، وتَفَتَّتَ من عظام الموتى .

ومعنى الشطر الأول : أنه حينما تبيّنتْ له الأمور ، علم أن الحياة موت ؛ إذ هو نهايتها القريبة المحتومة . وهى إلى هذا تافهة ، قليلة الغناء ، سريعة الزوال . ومعنى الشطر الثانى : أن الموت الذى يطرأ على الإنسان تَعْقُبُه — يوم البعث والنشور — حياة باقية خالدة ، تدبّ فى الأجسام وهى رم بالية ؛ فلا تلبث أن تحيا حياة تامة روحيّة وجسمانية . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلْقه . قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم » . الآية رقم ٧٨ والآية رقم ٧٩ من سورة يس .

(٣٨) « هذا » : إشارة إلى المولود الجديد المقبل على الدنيا . و« ذاك » : إشارة إلى الراحل عنها ، المفارق لها بالموت. وحلّ المكان ، وحلّ به (من بابى ردّ ، وجلس) : نزل فيه . وكارها : حال من فاعل «يرحل» . و«عنه» : متعلق بـ«يرحل» . والضمير المجرور يرجع إلى اسم الإشارة فى أول البيت : أى هذا مولود يحلّ بالدنيا ، وذاك والد مثلاً يرحل عن مولوده كارهاً مُكْرَهاً . والتارة : المرة . أو الحين ، والمدة : أى فالأمر صلح مرة ، وخصام مرة أخرى . جعل الدنيا تصالح الناس بالمواليد ، وتخاصمهم بطىّ حياة الأحياء ؛ فالولادة صلح وسلام . والموت حرب وخصام .

والمعنى : أن الناس يفرحون بالمولود الجديد ، ويحزنون لفراق من يصيبه الموت منهم ؛ وهكذا حال الدنيا ، أو الدهر ؛ فهو أحياناً صلح وسلام ، وأحياناً حرب وخصام .

(٣٩) بيّن الشىء تبييناً : أوضحه ، وأظهره . وبيَّنْتَ أمرك : أى تَبَيَّنْتَ حقيقة حالك فى هذه الحياة بطول التفكّر والتدبّر .

ومعنى الشطر الأول : لو تدبّرْتَ ما يبهرك من نور الحياة ، لعلمت أنه فى حقيقته ظلمة ، لأنه لايلبث أن ينطفئ على الرغم منك ، ويُعْقب لك الأسى والحسرات ؛ فالوجود قريب من العدم ، والموت نهاية الحياة ، والدنيا تغرّ المفتون بها ، وتخدعه بما تبديه من ضيائها ورُوائها ، وبهجتها وزخرفها . ومعنى الشطر الثانى : أن بدء الحياة يبدو — مع التبصّر والتفكّر — ختاماً لها ؛ لشدة الاتصال ، وقصر المسافة بينهما ؛ فالمرء لا يكاد يستقبل الحياة حتى يرغم على توديعها ، واختتام حياته فيها . والغرض من هذا البيت وتسعة الأبيات السابقة تنبيه الغافلين ، ووعظ المغرورين بالدنيا ، والنصح والتذكير بما يفتح البصائر ، ويطهّر القلوب ، ويهدى إلى سواء الصراط .

تعليق وجيز *

جاءت هذه القصيدة فى تسعة وثلاثين بيتاً . وفى مقدّمتها وقف الشاعر بالديار المهجورة : يسائلها فى لهفة وحسرة — عمن رحلوا عنها من أحبّائه ، ويتحدّث عن ماضيه البعيد السعيد فى رحابها . ويصف من كنّ يمرحن فيها من العين الحسان المخدّرات . كل هذا فى خمسة أبيات . وفى تسعة الأبيات التى بعدها أطرى إخوان الصفاء من أصدقاء فتوّته وشبابه . ونوّه بمزاياهم وآدابهم ، وسموّ مكانتهم الاجتماعية . وكأنه أراد بهذا أن يفتخر بنفسه ؛ فإن المرء يصاحب من يشاكله ويناسبه : « وكل قرين بالمقارن يقتدى » .
وفى نهاية هذه الأبيات أيقظه نذير المشيب من أحلام الصبا والخلاعة « إن الخلاعة والصبا أحلام » ؛ فجنح فى أربعة الأبيات بعدها — لما يشبه الحكمة والموعظة والاعتبار بسرعة زوال الدنيا ، وقصر عمر الإنسان فيها . ومن العجيب الغريب أنه جعل هذه الأبيات نفسها توطئة لوصف الخمر وتزيينها ، والدعوة إليها فى أحد عشر بيتاً ، أى فيما يقرب من ثلث هذه القصيدة ؛ ولكنه ما لبث أن صحا من نشوة الخمر ، فاستعاد رشده ، وانطاع لعقله ، وانجابتْ عنه ضبابة الغىّ والهوى؛ فختم القصيدة بعشرة أبيات كرّر فيها بعض معانى الأبيات ١٥ — ١٨ . وضمّنها طائفة أخرى من الحكم ، وشيئاً من ثمار تجاربه ومعارفه ، وشيئاً من ظواهر الوجود والعدم ، وأمر الحياة والموت ، مشيراً إلى ما فى طبيعة الدهر أو الدنيا من الخداع والتغرير ، وتضليل العقول والأحلام ؛ وكانت هذه الأبيات العشرة مسك الختام .
وإذا كان الشاعر قد جعل عنوان هذه القصيدة : « وقال يذكر أيام الشباب » ، فإن تصريحه بتلك الأيام لم يتجاوز ثلاثة عشر بيتاً ، أى ثلث أبيات القصيدة . ويحمد له فيها حرصه على أن يجنّب نفسه وأصدقاء شبابه مواطن الريب والشبهات ، ويترفّع وإياهم عن الدنايا والخطيئات .
وإذا استثنينا أبيات الخمر استطعنا أن نَعُدّ هذه القصيدة من شعر العظة والحكمة ، والتحذير من خداع الدنيا وزخرفها ، وتصوير العفّة والأدب العالى ، ومكارم الأخلاق .
هذا ، ومن عادة بعض الشعراء أن ينظموا بعض شعرهم فى وصف الخمر ، أو يذكروها فى بعض قصائدهم ومقطوعاتهم . وليس فى هذا دليل قطعىّ على الشرب ، أو المعاقرة ، أو الإدمان ؛ فإن منهم من يُحْنَى — على عفّته ، وبعده عنها — بذكرها استطراداً ، وانطلاقاً فى مجال شاعريته ، أو استجابة لهوًى عارض ، ولهوٍ برىء ، أو حرصاً على استيعاب فنون الشعر ، ورغبة فى إضافة هذا الفن إلى ضروب =

* يأتى التعليق قبل شرح القصيدة ، أو فى مقدمة الشرح وفاتحته ، أو فى أثنائه وغضونه ، أو فى خاتمته ونهايته. ويتسع التعليق عندنا للتوطئة والتمهيد ، أو التحليل ، أو التلخيص ، أو البيان والتفصيل ، أو النقد ، أو التخطئة ، أو التصويب ، أو الممايزة ، أو الإحصاء والاستقصاء ، أو الموازنة والمفاضلة ، أو التعقيب ، أو التذييل ، أو التأريخ ، أو التحقيق ... أو غير هذا من التعقيبات .
ويمتاز الجزء الثالث من شرح ديوان البارودى بكثرة التعليقات التى تفتح أبواب الدراسات الواسعة المستفيضة .
وفى التعليق هنا تحليل ، وتلخيص .

= القول ، وألوان البيان ، أو محاكاة لغيره من الشعراء الذين أغرقوا فى وصف الخمر ، وتشبيهها ، وتزيينها ، والدعوة إليها ، والنشوة بها ، وذكر أوعيتها ، وتعتيقها ، وسقاتها ونُدْمانها . وفى عدة مواضع من شرحنا لهذه القصيدة عرَضْنا ملاحظات وتعليقات ذات بال ، واجتهدنا أن نبرئ القصيدة من عيوب الطفرة والاقتضاب والتفكك ؛ فتكلفنا ربط فنونها وأغراضها ومعانيها بروابط واضحة مقنعة .

ولعل الشاعر قَصَدَ أن يجمع فى قصيدته هذه فنوناً شتى من القول ، بصرف النظر عن مراعاة ما ينبغى أن يكون بينها من صلات وروابط ومناسبات . شأنه فى هذا شأن من يحتذى مثالهم ، وينسج على منوالهم من قدامى شعراء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ؛ إذْ كانوا فى كثير من الأحيان يرتجلون الشعر ارتجالاً ، وينتقلون من غرض إلى غرض آخر اقتضاباً ، بلا تحيُّل ، ولا تلطُّف ، ولا تمهيد للغرض الجديد ، والمعنى اللاحق .

وقد أسلفنا أن البارودى بهذه القصيدة — يعارض : أى يبارى ويحاكى فى الوزن والروىّ — أبا نواس فى قصيدته المشهورة التى مدح بها الأمير محمد بن الرشيد . ومطلعها :

يا دار ، ما فعلتْ بك الأيام ؟ لم تبق منك بشاشة تشتام

رواية الوسيلة الأدبية لهذه القصيدة

قرأنا هذه القصيدة فى الجزء الثانى من «الوسيلة الأدبيّة» للشيخ حسين المرصفى ص ٤٨١ — ٤٨٣ ، فرأينا روايتها تخالف ماجاء فى أصل الديوان المخطوط الذى بين أيدينا ؛ ولهذا آثرنا — بعد أن نشرنا القصيدة كما جاءت فى أصل الديوان — أن نعرضها كما روتها الوسيلة الأدبية، ونشرح ماانفردتْ بروايته ، وخالف الأصل ، مع ملاحظة أن تاريخ نسخ هذا الأصل ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ وتاريخ نشر الجزء الثانى من الوسيلة الأدبية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) :

ذَهَبَ الصِّبَا ، وَتَوَلَّتِ الْأَيَّــامُ فَعَلَى الصِّبَا ، وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامُ(١)

تَاللهِ أَنْسَى مَا حَيِيتُ عُهُــودَهُ وَلِكُلِّ عَهْــدٍ فِى الْكِرَامِ ذِمَامُ(٢)

---

(١) الصبا (بكسر الصاد) : الحداثة ، وصغر السن . ويقرب منه الفتاء والشباب . ومن دواعى الصبا والشباب وملابساتهما : اللهو ، والمرح ، وجهلة الفتوّة ، والتشبّه بالصبيان فى خفّتهم وأعمالهم ، والانقياد للهوى والغرام . وتولّتْ : أدبرتْ ، وذهبتْ . ويراد بالأيام والزمان : أيام الصبا ، وزمن الشباب . والسلام : التحيّة . ويراد بالخبر فى الشطر الأول : إظهار الأسى والتحزن ، والتحسّر على ذهاب الصبا، وانقضاء أيامه. ويراد بالشطر الثانى الدعاء للصبا والزمان بالتحية والسلام،وتكريم تلك الأيام.

افتتح الشاعر هذه القصيدة فى الأصل المخطوط لديوانه بالوقوف بالديار المهجورة يسائلها — فى لهفة وحسرة — عمن رحلوا عنها من أحبائه الذين يحفظ لهم الودّ والوفاء، ويُحلّهم من قلبه محلّ الإعزاز والإكرام .

أمّا فى هذه الرواية (أى رواية الوسيلة الأدبية) فقد افتتح القصيدة نفسها بإظهار الحزن والأسى والتحسّر على فوات أيام الصبا والشباب ، وذهاب ما كان له فى تلك الأيام من بهجة ومتعة ، ومرح ولهو، وهوى وغرام . ثم حيّا ذلك الزمان فى الشطر الثانى ، وحيّا ذكرياته تحية تؤكّد معنى الأسف والتحسّر والتلهّف فى الشطر الأول ، وتنمّ على تمام وفائه لذلك العهد ، وخلوده فى قلبه ، وشدّة التعلّق به ، والنزوع إليه ، وما يضانيه فى حاضره من الشوق والحنين إلى ذلك الماضى البعيد السعيد . والبيت الآتى يعزّز هذا المعنى ويوضّحه ، ويؤكّده ، ويفصّله .

(٢) « تالله » : التاء حرف جرّ للقسم . ولفظ الجلالة مقسم به ، مجرور بالتاء . و « تالله أنسى » : تالله لا أنسى ؛ فحذف حرف النفى هنا ، وهو « لا » ؛ لأن الكلام لا يلتبس بحذفه ؛ إذ لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من تأكيد الفعل باللام والنون ، فإذا خلا منهما كان القسم على النفى : أى كان جوابه منفياً لا مثبتاً . ومن أمثلة هذا فى القرآن الكريم : « قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف ، حتى تكون حرضاً ، أو تكون من الهالكين » (الآية رقم ٨٥ من سورة يوسف) : أى تالله لا تفتأ . و « ما » مصدرية ظرفية : أى تالله لا أنسى عهود الصبا مدة حياتى : جمع عهد : وهو الزمان : والمراد ما كان=

إِذْ نَحْنُ فِى عَيْشٍ تَرِفٌ ظِلالُهُ وَلَنَا بِمُعْتَـرَكِ الْهَوَى آثَـامُ(٣)

= له فى صباه وشبابه من متع ولذات ، ولقاءات ومودّات لا يفتأ يفى لها ، ويتعلّق بها ، ويحنّ إليها ، ويحرص عليها . و« فى » : بمعنى المصاحبة : أى ولكلّ عهد مع الكرام ذمام . أو هى بمعنى « اللام » . أو بمعنى « على » . أو بمعنى « من » . أو الكلام على حذف مضاف : أى ولكل عهد فى عنق الكرام وذمّتهم حقّ وحرمة . والكرام : جمع الكريم : صفة من الكرم بمعناه العامّ : وهو اسم للمحاسن الكبيرة : والأخلاق العظيمة ، والأفعال الحميدة التى تظهر من الإنسان . أو هو جماع الفضائل والمحامد والمكرمات . والذمام : الحقّ ، والحرمة ، والكفالة ، والأمان ، والضمان . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشطر الأول ، وفيه فخر ضمنىّ بكرمه ووفائه ، وحرصه على صيانة العهود ، ومراعاة المواثيق ، وتعهّد الأذمّة والحقوق .

أكّدَ بالقسم فى الشطر الأول وفاءه طَوال حياته لأيام صباه وشبابه ، وتعلّقه بذكريات تلك الأيام المحبّبة إليه ، العزيزة عليه . ثم أكّد هذا المعنى مرة أخرى فى الشطر الثانى الذى أجراه مجرى الحكَم والأمثال وضمّنه الفخر بكرمه ومحامده وفضائله التى تفرض على مثله كفالة العهود ، وضمان الأذمّة ، وحسن رعايتها .

(٣) «إذ» : ظرف لِحَدَثٍ وقع فى الزمن الماضى . وهذا البيت متصل بالذى قبله فى المعنى والإعراب ، فالشاعر لن ينسى ما تولى وذهب من عهود الصبا والشباب حينما كانت عيشته مع إخوان الصفاء هنيئة طيبة وارفة الظلال . والعيش : المعيشة والحياة . وترِفّ : تمتدّ ، وتتسع ، وتحيط بنا ، وتستدير حولنا . من قولهم رفّ القوم به : أى أحدقوا به ، وأحاطوا . ورفّت عليه النعمة ، أو السعادة : أى ضفتْ ، وسبغتْ ، واتسعتْ ، وتمتْ . أو هو من قولهم : ذهب من كان يَحُفُّه ويرفّه : أى يضمّه ، ويحبّه ، ويحنو عليه ، ويحسن إليه . والظلال : جمع الظلّ : وهو ضوء شعاع الشمس إذا استترتْ عنك بحاجز . ويراد بظلال العيش : طيّباته ولذائذه ، ومُتَعه ، ورفاهته ، وهناءته ، ونعيمه . والعرب تعبّر بالظل عن العزّة والمنعة ، والرفاهية ، والنعيم ، وغضارة العيش وسعته ولينه وطيبه . والمعترك : موضع الاعتراك : وهو الازدحام . ويطلق أيضاً على موضع الحرب والقتال . وقد يكون مصدراً ميمياً : أى ولنا آثام فى اعتراك الأهواء . وقد يكون اسم زمان : أى حين تعترك الأهواء . والهوى : الحب والغرام . والهوى : ميل النفس إلى الشهوات ، وانحرافها عن الجادّة . والهوى : النفس المنحرفة ، المائلة إلى شهواتها . والهوى : المهويّ : أى الشيء المشتهى ، وجمعه أهواء . والآثام : الذنوب والخطيئات ، وارتكاب ما لا يَحلّ من الأقوال والأعمال . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . ومعناها : أنهم لم يتحرّجوا من الآثام وهم سادرون فى مجال اللهو والمجون ، حيث تتلاقى الأهواء ، والرغائب ، وتعترك الشهوات واللذات .

يذكر بالحسرة واللهفة ، والإعزاز والإكرام ما مضى من أيام الصبا والشباب ، وأوقات اللهو والمجانة ، حينما كان يحيا مع إخوان الصفاء حياة الرفاهة والنعيم ، ولا يتحرّجون أن يسايروا الأهواء ، وينقادوا لها ، وينغمسوا فى حمأتها ، ويعتركوا عليها ، ويرتكبوا فى سبيلها الخطايا والمحرّمات . ويلاحظ أن هذا المعنى لم يرد مطلقاً فى أصل الديوان ، ولا يكاد يوائم معنى الأبيات الآتية التى يُطْرى بها الشاعر صحبه ، وينوّه بمحامدهم ، ويرفعهم إلى مرتبة العفّة والاستقامة ، والتأدّب بآداب الملوك .

تَجْرِى عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ ... فِيهَا السَّلَامُ تَعَانُقٌ ، وَلِزَامُ(٤)

فِى فِتْيَةٍ فَاضَ النَّعِيمُ عَلَيْهِمْ ... وَنَمَاهُمُ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ(٥)

ذَهَبَتْ بِهِمْ شِيَمُ الْمُلُوكِ :فَلَيْسَ فِى ... تَلْعَابِهِمْ هَذَرٌ ، وَلَا إِبْرَامُ(٦)

لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهَوَى ... سُمُحُ النُّفُوسِ ، عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامُ(٧)

مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ ... كَالْبَدْرِ حَلَّى صَفْحَتَيْهِ غَمَامُ(٨)

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَسُوءُ جَلِيسَهُ ... بَيْنَ الْمَقَامَةِ ، وَاضِحٌ ، بَسَّامُ(٩)

مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ ، تَحْسَبُ أَنَّهُ ... مَوْلًى لَهُمْ فِى الدَّارِ وَهْوَ هُمَامُ(١٠)

---

(٤) تجرى علينا (بالبناء للفاعل) : أى تمرّ بنا ، أو تطوف علينا ، أو هى تُجرَى علينا (بالبناء للمفعول) : أى يُجرِيها علينا السُّقاة ، ويمرّون بها فى متابعة وموالاة : أى بلا توقّف أو انقطاع . والكأس : قدح الشُّرْب : أى الإناء يُشْرَب فيه ، وهى مؤنثة ، وجمعها كئوس . وقد تطلق ويراد بها الخمر . ومجالس : جمع مجلس : وهو مكان الجلوس . وقد يطلق على جماعة الجالسين . والسلام : التحية . والتعانق : مصدر تعانقا : أى عانق كل منهما صاحبه : وهو أن يضمه بيديه إلى صدره ، ويجمع عنقه إلى عنقه . ولا يكون التعانق إلا فى المحبة والوداد . ولازمه ملازمة ولزاماً : عانقه ؛ فاللزام تكرار وتأكيد لمعنى التعانق .

يصف – على ما يبدو – مجالس اللهو والمعاقرة والشراب . ويقول : إن كئوس الخمر كانت تدور علينا فيها بتتابع وانتظام ، وإن المجتمعين فى هذه المجالس متوادّون متحابون ، فإذا تلاقوا حَيَّا بعضهم بعضاً بالعناق واللزام . ونصّ هذا البيت فى مخطوطة ١٩٠٨/٩/١٠ :

تستنّ فيها العين بين مُخَانسٍ ... فيها السلام تعانق ولزام

ويلاحظ أن التحية بالتعانق واللزام لائقة مألوفة فى الشُّبّان والرجال ؛ فالشطران فى بيت الوسيلة الأدبية متلائمان متسقان .

(٨) فى أصل الديوان «جَلّى» بالجيم . وفى رواية الوسيلة الأدبية «حَلّى» بالحاء المهملة . وقد تكون من الأخطاء المطبعية . وقد يكون المعنى أن الغمام إذا أحاط بوجه القمر ضاعف حسنه وبهاءه ، وأظهر تلألؤه ورُواءه ، وكان حلية وزينة له .

تَرْنُو الْعُيُونُ إِلَيْهِ فِي أَفْعَالِهِ ... وَتَسِيرُ تَحْتَ لِوَائِهِ الْأَقْوَامُ(١١)

فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّءُوسُ خَوَاضِعٌ ... وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالصُّفُوفُ قِيَامُ(١٢)

نَلْهُو وَنَلْعَبُ بَيْنَ خُضْرِ حَدَائِقٍ ... لَيْسَتْ بِغَيْرِ خُيُولِنَا تُسْتَامُ(١٣)

حَتَّى انْتَبَهْنَا بَعْدَ مَا ذَهَبَ الصِّبَا ... إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصِّبَا أَحْلَامُ(١٤)

لَا تَحْسَبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتْرَفٍ ... هَيْهَاتَ ، لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ(١٥)

---

(١١) ترنو : تديم النظر مع سكون الطرف . (وبابه سما) . وإليه : إلى «كل أبلج يستضاء بنوره» فى البيت الثامن . أو إلى «كل فتى من الفتية الذين فاض النعيم عليهم» فى البيت الخامس . ورُنُوّ العيون إليه فى أفعاله : كناية عن عظيم التقدير والانبهار والإعجاب بتلك الأفعال الحميدة العظيمة الباهرة . والشطر الثانى مطابق لما جاء فى أصل الديوان . أما الشطر الأول فى هذا الأصل فنصّه : «تتقاصر الأفهام دون فعاله» ؛ وفيه مغالاة وتكلّف وتعمّق . ورواية الوسيلة الأدبية جارية على الطبع ، بعيدة عن التكلّف.

(١٣) استامت الماشية : تَنَقَّلَتْ فى المرعى والكلأ والنبات ، ورَعَتْ ، وأكلتْ حيث شاءتْ . والمراد أن الحدائق الخضر والمزارع والحقول والرياض النضيرة الواسعة كانت مجالاً فسيحاً لهم ولخيولهم ، ومرتعاً مقصوراً عليها وعليهم يرتعون فيه ، ويلعبون ، ويلهون ، ويمرحون .

يصف ما كان فيه مع هؤلاء الصحاب من مرح واستمتاع ، ولهو ولعب فى حدائق ناضرة ، ورياض بهيجة ، كانت مقصورة عليهم وعلى خيولهم ، مختصين بها ، يمرحون فيها ، ويرتعون ، وينعمون بلا مزاحم أو منافس . وفى البيت إشارة إلى أنهم من الفرسان الماهرين فى ركوب الخيل ، وأن الفروسية كانت من عاداتهم ، أو الأعمال التى حذقوها ، والرياضات المحببة إليهم . وهذا البيت من الأبيات التى انفردتْ بروايتها الوسيلة الأدبية . ولا وجود له فى مخطوطة ١٩٠٨/٩/١٠ . ويلاحظ أن عدد أبيات هذه القصيدة فى هذه المخطوطة تسعة وثلاثون بيتاً . وعدد أبياتها فى الوسيلة الأدبية أربعون بيتاً .

(١٤) الشطر الثانى من هذا البيت تذييل جار مجرى المثل ، مفصّل ومؤكّد لمعنى الشطر الأول ؛ فقد انتبه الشاعر وصحبه من غفلتهم بعد ذهاب الصبا والشباب ، فاستشعروا الحسرة والندم ، وعلموا أن ما شغلهم من هوى وطرب ، ولهو ولعب ، ولذّات ومسرّات لم يكن غير أحلام ، لا ثبات لها ، ولا اعتداد بها . ونصّ هذا البيت فى أصل الديوان المخطوط :

حتّى انتبهنا بعدما ذهب الصبا ... إن الخلاعة والصبا أحلام

ويلاحظ أن الخلاعة : التّهتّك ، والاستخفاف ، والانقياد للهوى . واللذاذة ، أو اللذة قد تكون فيما لا يستهجنه العقل ، ولا يحرّمه الدين .

تَـأْتِى الشُّهُورُ ، وَتَنْتَهِى سَاعَاتُهَا ... لَمْعَ السَّرَابِ ، وَتَنْقَضِى الْأَعْوَامُ(١٦)

وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ ... أَوْ صَـادِرٌ ، تَجْرِى بِهِ الْأَيَّامُ(١٧)

لَا طَائِرٌ يَنْجُو ، وَلَا ذُو مِخْلَبٍ ... يَبْقَى ، وَعَاقِبَـةُ الْحَيَاةِ حِمَامُ(١٨)

فَادْرَأْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ ... بِالْكَأْسِ ؛ فَهْىَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ(١٩)

فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِى أَلْوَانِهِ ... إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْـهِ الْجَـامُ(٢٠)

مِنْ خَمْرَةٍ تَذَرُ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى ... بَعْدَ اشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهْوَ غُلَامُ(٢١)

لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا ، فَغَادَرَ جِسْمَهَا ... شَبَـحًا تَهَـافَتُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ(٢٢)

حَمْرَاءُ ، دَارَ بِهَا الْحَبَابُ ؛ فَصَوَّرَتْ ... فَلَكًا تَحُفُّ سَمَـاءَهُ الْأَجْرَامُ(٢٣)

لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِى لَمَعَانِهَا ... وَتَزِلُّ عِنْـدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ(٢٤)

تَعْشُو الرِّكَابُ ، فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا ... سَارُوا ، وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا(٢٥)

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ ، لَمْ يَصِلْ لِفِنَائِهِ ... نُورٌ ، وَلَمْ يَسْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامُ(٢٦)

---

(١٦) فى أصل الديوان المخطوط : « تأتى الشهور ، وتنتهى أيامها ... » .

(١٨) فى أصل الديوان المخطوط : « وعاقبة النفوس حمام »

(٢٢) تهافت : أصلها تتهافت ، ثم حذفتْ إحدى التاءين تخفيفاً : أى تتساقط فى تتابع . من قولهم : تهافت الفراش على النار . ودونه : دون الشبح : أى فوقه ، أو عليه ، أو بالقرب منه . والأوهام : أضعف من الظنون : جمع وهم (بوزن وعد) : وهو الشىء يدور فى الخاطر : أى يقع فى الذهن .

ومعنى البيت : أن هذه الخمر عُتِّقتْ زماناً طويلاً حتى صفتْ ، وجادتْ ، ورقّتْ ، وراقتْ ، وصارت لفرط رقّتها ولطافتها كالشبح الخفىّ الذى لا يدرك إلا بالتوهّم والتخيّل . أو الذى تتساقط الأوهام دونه ، ولا تكاد تدركه الظنون . والغرض المغالاة فى تصوير رقّتها وجودتها بعد أن تملّاها الزمان .

وفى الأصل المخطوط : « ... شبحاً تحار لدرْكه الأفهام » .

(٢٦) فى الأصل المخطوط :

« حبستْ بأكلف لم يقم بفنائــه ... نور ، ولم يبرح عليــه ظلام

ومعنى « لم يصل إلى فنائه نور » قريب من معنى « لم يقم بفنائه نور » . والفعل « يسرح » لا يستقيم معناه هنا ؛ فهو من الأخطاء المطبعية . والصواب ما جاء فى أصل الديوان : « لم يبرح عليه ظلام » .

حَتَّى إِذَا اصْطَفَقَتْ . وَطَارَ فِدَامُهَا وَثَبَتْ . فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الأَجْسَامُ(٢٧)

وَقَدَتْ حَمِيَّتُهَا . فَلَوْلَا مَزْجُهَا بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ . شَبَّ ضِرَامُ(٢٨)

تَسِمُ الْعُيُونَ بِنُورِهَا . لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَّابِهَا وَسَلَامُ(٢٩)

فَاصْقُلْ بِهَا صَدَأَ الْهُمُومِ . وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطِيشُ بِلُبِّهِ الآلامُ(٣٠)

---

(٢٧) اصطفقت : تحركت في دنّها وجاشت، واضطربت اضطراباً يشبه غليان الماء في القدر، وفوران السائل بقوّة الحرارة . واصطفقت : مُزِجَت بالماء . والفدام : ما يوضع على فم الوعاء سداداً له . ووثبت : طفرت ، وقفزت . والمراد أنها فارت ، وغلت ، واشتد اضطرابها في آنيتها . ولها : من أجلها . أو بسببها ؛ فاللام هنا : لام التعليل ، و بيان السبب .

والمعنى : أن الخمر إذا مُزِجَت بالماء بعد تعتيقها فارت واضطربت ؛ فأطارت سداد وعائها . وإذا شربها شاربها سكر ، وترنّح بسببها جسمه ، وتمايل من السكر ، وزايله الثبات والاعتدال والاستقرار ، وفقَد الرزانة والاحتشام والوقار .

والبيت السابع والعشرون الذى يقابل هذا البيت في أصل الديوان :

حتى إذا رقدت ، وقرّ قرارها سلست ؛ فليس لذوقها إيلام

(٢٨) وقدت : اتقدت ، واشتعلت ، والتهبت . وحميّة الخمر ، وحميّاها : سَوْرتها ، وشدّتها . أو إسكارها . أو ما أشار إليه في البيت السابق من الاصطفاق والفوران والوثوب والثوران والاضطراب . وشبّت النار : توقّدت . والضرام : لهب النار . أو اشتعالها في الحلفاء ونحوها .

والمعنى : أن هذه الخمر تمزج بالماء مراراً ؛ لتخفيف حدّتها وسورتها، وتلطيف شدّتها وحميّاها . ولولا هذا لاتّقدت اتّقاد النار . والغرض المبالغة في وصف سورتها ،وبيان شدة تأثيرها . ولعله يشير بهذا إلى جودتها وحسن تعتيقها .

وقد انفردت الوسيلة الأدبية بر واية هذا البيت الذى لا وجود له في أصل الديوان .

(٢٩) في أصل الديوان المخطوط : « تسم العيون بنارها » . وكلمة « النار » أليق من كلمة « النور» فإن معاقرى الخمر ومد منيها يتميزون بحمرة في عيونهم تشبه حمرة النار .

(٣٠) الغرّ من الناس : من تُعْوِزه الخبرة والتجربة والفطنة . ومن يسهل خدعه والتغرير به . وتطيش : مضارع طاش (من باب باع) : بمعنى اضطرب وانحرف . أو خفّ ، ونزق ، وزلّ . وطاش عقله : ذهب . أو خفّ ، وتشتّت ؛ فجهل ، أو أخطأ . واللبّ : العقل . ويراد بالآلام : آلام العيش ، ومتاعب الحياة وهمومها . وتطيش بلبه الآلام : أي تذهب الآلام بعقله . أو تضطرب وتثور في قلبه ؛ فتشتّت ذهنه ، وتُزِلّه عن الصواب . أوهو مضارع أطاشه إطاشة : أي جعله يطيش : ى تطيش الآلام لبه (بزيادة الباء في المفعول به لتوكيد الكلام) . =

وَاعْلَمْ بَأَنَّ الْمَرْءَ لَيْسَ بِخَالِدٍ وَالدَّهْرُ فِيـــهِ صِحَّـــةٌ وَسَـــقَامُ(٣١)

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ . وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ ـ لَوْ يَسْتَبِينُ ـ عُقَـــامُ(٣٢)

فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ : هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ؟ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ؟(٣٣)

هَذِى الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْـــدَ النِّظَامِ ، وَهَـــذِهِ الْأَهْـــرَامُ(٣٤)

= زَعَمَ أن الخمر تنسى شاربها همومه وأحزانه ، وتزيل وساوسه ومتاعبه ، وتوفّر له أسباب المتعة والسرور ورخاء البال . وغالى فى الدعوة إليها ، والترغيب فيها ؛ فعكس الحقيقة ، وقال : إن المتعفّفين عنها أغرار تذهب آلام الحياة بألبابهم . وهو يعنى بالشطر الثانى تأكيد الشطر الأول ؛ فالخمر — فى زعمه — تصقل صدأ الهموم ، وتعالج الغرارة والغفلة ، وتوقظ الذهن وتنبهه ، وتصون الألباب من الطيش والخفّة .

والذى فى أصل الديوان : « ... ولا تكن غرًّا تطير بلبّه الأوهام »

(٣٢) استبان الشىء : ظهر وبان واتضح . واستبانه : عرفه . أو استوضحه . أو أبانه وكشفه وأظهره ؛ فالفعل لازم متعدّ . وجملة « يستبين » معترضة بين النعت ومنعوته ؛ فـ « عُقام » نعت لـ « داء » .

والمعنى : أن الإنسان يحبّ أن يطول عمره فى الحياة الدنيا ، ويتمنى هذا ، ويرغب فيه ، ويتوق إليه ، ويحرص عليه

أرى كلّنا يبغى الحيـــاة بسعيه حريصاً عليها ، مستهاماً بها ، صبّا

ولو استبان حقيقة الأمر ، أو استبان له الأمر ، لعلم أن الحياة داء عياء ، لا بُرْءَ له ، ولا شفاء منه . وحسبك منها ما تحمله إليك من الهموم وآلام العيش ومتاعبه ومشكلاته ، وما يدهاك من بلاياها ونوائبها ورزاياها . ولأمير الشعراء أحمد شوقى فيما يناسب هذا المعنى ويشاكله ويعزّزه :

فإن الحيـــاة تفلّ الحديـــد إذا لبستْه ، وتُبْلى الحجر

وفى أصل الديوان المخطوط :

يهوى الفتى طول الحياة ، وإنها داء له دون الشّفاف عُقام

والغرض من هذا البيت وأمثاله التزهيد فى الدنيا ، والتحذير من الاغترار بها ، والتهافت عليها ، والانخداع بزخرفها وباطلها ؛ فإن هذا كلّه سبب كثير من الشرور والآثام .

(٣٤) « بعد النظام » : أى كانت هذه المدن عامرة بأهلها ، يسودها النظام ، ويزينها الترتيب والاتّساق ، فلمّا خلَتْ منهم ، ذهب نظامها بذهابهم ، وأصابها ما يصيب المساكن المهجورة الخاوية من الخراب والدمار . وفى أصل الديوان المخطوط :

هذى المدائن ، قد خلَتْ من أهلها بعد النعيم .. . »

لَا شَيْءَ يَخْلُدُ . غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَـةً ... فِى الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ(٣٥)

وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ الْأُمُـورَ بِغَيْـرِهَا ... وَأَتَى عَلَىَّ النَّقْضُ والْإِبْـرَامُ(٣٦)

فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكٌ ، وَإِذَا الْخُمُو ... دُ تَلَهُّبٌ ، وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ(٣٧)

وَإِذَا الْحَيَاةُ — وَلَا حَيَاةَ — مَنِيَّةٌ ... تَحْيَـا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهْىَ رِمَامُ(٣٨)

هٰذَا يَحُلُّ ، وَذَاكَ يَـرْحَلُ كَارِهًا ... عَنْهُ ، فَصُلْحٌ تَارَةً ، وَخِصَـامُ(٣٩)

فَالنُّورُ — لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ — ظُلْمَةٌ ... والْبَدْءُ — لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ — خِتَامُ(٤٠)

وَقَالَ يَصِفُ رَوْضَةَ الْمِقْيَاسِ* :

أَلَا ، حَىِّ بِالْمِقْيَاسِ رَيَّا الْمَعَالِمِ ... وَقُلْ لَهَـا مِنَّا تَحِيَّـةُ قَـادِمِ(١)

---

(٣٥) فى أصل الديوان : «لا شىء يبقى »

وقد أسلفنا أن عدد أبيات هذه القصيدة فى أصل الديوان المخطوط تسعة وثلاثون بيتاً . وعددها فى الوسيلة الأدبية أربعون بيتاً . وأشرنا إلى ما ورد فيها ، ولم يرد فى أصل الديوان . وإلى مواضع الخلاف كلّها .

* * *

* روضة المقياس : جزيرة فى نهر النيل ، شرقىّ الجيزة ، وغربىّ الفسطاط (مصر القديمة) . وقد كثرتْ فيها الآن العمارات السكنية الكبيرة المرتفعة . ودكاكين البدّالين والكوّائين وغيرهم من أرباب الحرف والمهن والتجارات . وكَثُرَ سكانها من الطبقة المتوسّطة ، وأخذتْ طابع الأحياء الشعبية ؛ فشابهتْ حىَّ المنيل (وهو جزء منها ، متصل بها) ، وفقدتْ أكثر المعالم التى عناها البارودى ، وتَغَنَّى بها ، ولم يبق فيها غير بقيّة قليلة من المساكن الفخمة ، والقصور الجميلة ، والحدائق النضيرة التى تُمَثِّل ماضيها البهيج الفاخر الذى يعنيه الشاعر بهذا الوصف البليغ الممتع . وسميت « روضة المقياس » لأن فى نهايتها من الجنوب مقياساً قديماً كان يقاس به المستوى الذى يصل إليه ماء النيل فى ارتفاعه وانخفاضه .

(١) « ألا » : حرف استفتاح : أى أداة يبتدأ بها الكلام . وتفيد التنبيه ، وتشعر بعظم شأن ما يليها ، وتثير الاهتمام به . وحىِّ : أمر من حيّاه تحيّة : أى سلّم عليه . أو قال له : حيّاك الله : أى أطال حياتك ، وبارك عمرك . وريّا ، وريّانة : مؤنث ريّان : وهو ضد العطشان . والريّا : الريح الطيّبة الذكيّة : والمعالم : جمع معلم (بوزن مذهب) : وهو العلامة ، والأثر ، وما يستدلّ به على الطريق . ويراد بالمعالم هنا : منازل هذه الجزيرة ، وما فيها من مظاهر الحياة ، ودلائل النعيم ، وآثار الحضارة والعمران . وريا المعالم : المعالم الريّانة . وصفها بالرىّ مشيراً إلى ما يزينها من النضرة والبهجة ، والخصب والنماء . =

مَلَاعِبُ آرَامٍ ، وَمَـأْوَى حَمَائِمٍ ... وَمَسْقَطُ أَنْدَاءٍ ، وَمَسْرَى نَسَائِمِ (٢)

أَحَاطَتْ بِهِ لِلنِّيلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... جَدَاوِلُ تُسْقِيهِ سُلَافَ الْغَمَائِمِ (٣)

= وغضارة العيش فيها ولينه وسعته ورفاهته . أو إلى ما طاب وسطع من أنسام هذه المعالم وأنفاسها العطرة . وقَلّ : فعل ماض من القلّة : ضد الكثرة . أو هو أمر من قَلّه (من باب ردّ) : أى حمله ، ورفعه . ومثله أقلّه . ولها : لروضة المقياس . أو لمعالمها . و« تحيّة» : فاعل « قَلّ» بمعناها الأول . ومفعولها بمعناها الثانى . وتحية قادم : أى تحية مقبل عليها ، قاصد إليها ، مشغوف بها .

حيّا الشاعر فى الشطر الأول روضة المقياس ومعالمها العامرة الناضرة تحية إعزاز وتفخيم ، وتكريم وتعظيم ، ونوّه بما يزينها ، ويرفع شأنها من الغضارة والارتواء والخصب والنماء ، وأمارات الحسن والبهجة ، وظواهر العمران ، والحياة الوادعة الهانئة ، الطيبة السعيدة . ولكنه ما لبث أن استقلّ التحية فى الشطر الثانى من البيت ؛ كأنه رأى هذا الوطن الصغير العزيز الكريم جديراً بما يفوق التحية والسلام من شواهد الإعزاز والإكرام .

أو التمس من كل مستمع له ، معنىّ بأمره أن يشاركه فى هذه التحية . أو جرّدَ من نفسه شخصاً آخر ، أو تخيّلَ أن معه رفيقاً ، وطلب إليه فى الشطر الأول أن يحيى روضة المقياس ومعالمها الريانة البهيجة . ثم طلب إليه مرة أخرى فى الشطر الثانى أن يحمل إليها تحيته ، وتحيات أمثاله الذين برّح بهم الشوق والوجد والحنين ، وتملّكهم الإعجاب والإكبار والانبهار .

(٢) « ملاعب » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هى (أى روضة المقياس) ملاعب : جمع ملعب . والآرام : جمع رئم (بكسر فسكون) : وهو الظبى : أى الغزال الأبيض . وتشبّه به الفتاة الحسناء فى جمال الجيد والعينين ، والرشاقة ، وخفّة الحركة ، وحسن التثنى . والأنداء : جمع الندى : وهو المطر . وقطرات صغيرة من الماء تسقط فى أثناء الليل على الأرض ، وعلى أوراق الأزهار والأشجار من بخار الماء المتكاثف فى طبقات الجوّ الباردة . والمسرى : اسم مكان من السرى (بوزن الهدى) : وهو السير ليلاً . ويراد به هنا السير مطلقاً . والنسائم : جمع النسيم : أى الريح اللينة اللطيفة الطيبة .

يصف بعض ما يميز هذا الروض الأريض من مظاهر الحياة ، ومشاهد الطبيعة : ففتياته حسان بيض كالغزلان ، يلعبن ويرتعن فى مرح ودعة ، وخفّة ورشاقة . والطير تأوى إلى أشجاره لخصبه وأمنه . وفى الشطر الثانى إشارة إلى أندائه ونسائمه ، وهى من محاسن جوّه وهوائه ، وأسباب نضرته وغضارته .

(٣) به : بالمقياس المذكور فى البيت الأول . ويراد به : روضة المقياس. و« من كل جانب» : تأكيد لمعنى الإحاطة . والجداول : القنوات والترع ، والأنهار الصغيرة ، واحدها جدول (بوزن جعفر) . وتسقيه : مضارع سقاه . أو أسقاه : أى أرواه . وسلاف كل شىء : خالصه . والسلاف : أفضل الخمر ، وأخلصها . ويراد به هنا : المطر . والغمائم : جمع غمامة : وهى السحابة . وترتيب البيت =

تَدُورُ مَدَارَ الطَّوْقِ مِنْ حَيْثُ تَلْتَقِى مَسِيرًا . وَتَنْسَلُّ انْسِلَالَ الْأَرَاقِمِ (٤)

إِذَا ضَاحَكَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ مُتُونُهَا رَفِيفَ الثَّنَايَا خَلْفَ (حُمْرِ) الْمَبَاسِمِ (٥)

= مع توضيح معناه : أحاطت بروضة المقياس من كل جوانبها جداول للنيل (أى جداول من النيل) تسقى هذه الروضة سلاف الغمائم ، أى مياه الأمطار .

يصف ما كان فى جزيرة الروضة على عهده من جداول كثيرة تُحْدِق بالجزيرة ، ومساق تجرى بالمياه العذبة الغزيرة فى حدائقها وبساتينها ؛ فترويها ، وتكسبها الغضارة والنضارة ، والرونق والبهجة ، والحسن والرواء . ويقول : إن مياه هذه الجداول النيلية سلاف السحاب ، أى مياه الأمطار . ولا غرو ؛ فإن النيل وفيضانه وروافده وفروعه من الأمطار الغزيرة التى تسقط فى منابعه . وقد يكون المراد : تصوير الجزيرة يحدق بها النيل وما تفرّع منه إحداقاً تاماً من كل جهاتها ، ويرويها بمياهه العذبة ؛ وهى فى الأصل سلاف الغمام .

(٤) فاعل « تدور » : ضمير « جداول » فى البيت السابق . و« مدار» : مصدر ميمى بمعنى الدوران . و« حيث » : ظرف مكان مبنى على الضم . وتضاف إلى الجمل . والمسير : السير . وتلتقى مسيراً : أى تلتقى التقاء مسير : أى تتلاقى وتتصل فى سيرها وجريانها . أو تتلاقى سائرة ؛ على استعمال المصدر حالاً . وتنسلّ : تنطلق فى استخفاء وهدوء . ومصدره الانسلال . والأراقم : جمع الأرقم : وهو الحيّة فيها سواد وبياض . أو هو ذَكَر الحيّات . أو أخبثها .

وهذا البيت تكرار وتأكيد لمعنى الإحاطة فى البيت السابق ؛ فالجداول تحيط بروضة المقياس إحاطة تامة ، وتتلاقى فى مسيرها ، وتدور حولها ، دوران الطوق بما يلتفّ حوله . وفى الشطر الثانى إشارة إلى انسياب مياه هذه الجداول فى سرعة وهدوء وتدافع ؛ كأنها الحيّات تجرى وتتدافع ؛ فى مشيها .

وقد يكون المعنى : أن نهر النيل وما تفرع منه يطوّق هذه الجزيرة تطويقاً تاماً ، وتجرى حولها مياهه فى سرعة وهدوء ، كما تنساب الأراقم .

(٥) ضاحكتْها الشمس : ضاحكت الشمس الجداول : أى أشرقتْ بضيائها على مياه هذه الجداول فتلألأت ، ولمعت ، واستنارت كأنما تضحك ضحكاً . ورفت : لمعت ، وبرقت ، وتلألأت ، واهتزّت نضارة وحسناً . ومصدره الرفّ والرفيف .. ومتونها : متون الجداول : جمع متْن : وهو الظهر . ومتن كل شىء : ما ظهر منه . ومتن الماء : سطحه . والثنايا : ما يظهر من الأسنان عند الابتسام . الواحدة ثنيّة (بوزن قضيّة) . وعددها أربع فى مقدّم الفم : ثنتان من فوق . وثنتان من تحت . والكلمة التى بين قوسين وهى (حمر) : جمع أحمر – تكملة من عندنا للأصل المخطوط الذى بين أيدينا . وقد أسلفنا أن النقص ، والخطأ ، والتحريف والتصحيف فيه غير قليل . وبهذه التكملة استقام وزن البيت ومعناه . والمباسم : الثغور . واحدها مبسم (بوزن مجلس) . وهو فى الأصل : اسم مكان من بسم الإنسان (من باب ضرب) أى انفرجتْ شفتاه عن ثناياه ضاحكاً بدون صوت . وهو أخفّ الضحك وأقلّه وأحسنه . ومثله الابتسام =

وَإِنْ سَلْسَلَتْها الرِّيحُ أَبْدَتْ سَبائِكًا مُقَدَّرَةً . كَالْوَشْمِ فَوْقَ الْمَعَاصِمِ (٦)

تَجُوسُ خِلَالَ الْبَاسِقَاتِ ، وَتَنْتَهِي إِلَى سَاعِدٍ فِي غَمْرَةِ النِّيلِ سَاجِمِ (٧)

تَرَى حَوْلَهَا الْأَشْجَارَ وَلْهَى مُكِبَّةً عَلَى الْمَاءِ ، فِعْلَ الصَّادِيَاتِ الْحَوَائِمِ (٨)

= ويراد بالمباسم هنا: الشفاه : جمع شفة . وخلف حمر المباسم : أى وراء الشفاه الحمر . وحمرتها ونضرتها دليل قوة الحياة فى المتبسّم .

والمعنى : أن الشمس تطلع على هذه الجداول ، فتظهر محاسنها ، وتتلألأ مياهها فى صفاء ونقاء ، كأنها ثنايا الحسان ترفّ مع الابتسام .

(٦) سلسلتها الريح : أى جرتْ فوق مياهها ؛ فكان لاحتكاكها بسطحها تغضّن وتجعّد وتثنٍّ يشبه السلاسل . وأبدتْ : أظهرتْ . وفاعله ضمير الريح : أى أظهرتْ الريح فوق مياه الجداول ما يشبه السبائك . أو الفاعل ضمير « الجداول » : أى أظهرتْ الجداول بفعل الريح وسلسلتها لمياهها ما يشبه السبائك : جمع سبيكة : وهى كتلة من الفضة أو الذهب أو نحوهما ، ذُوِّبَتْ ، وصُبَّتْ فى قالب ؛ لتخرج على صورة معلومة ، كالقضبان مثلاً . ومُقَدَّرة : اسم مفعول من التقدير : مصدر قدّر الشىء بالشىء : أى قاسه به ، وجعله على مقداره . وقدَّره : أى جعله على مقدار مخصوص ، ووجه مخصوص . والوشم : خطوط ورسوم وصور وكتابات تكون فى يد الموشوم ، أو وجهه ، أو صدره : من وشمه (كوعده) : أى غرز الموضع المراد وشمه بالإبرة ، ثم ذَرَّ عليه النَّئُور : ويسمى النيلَج : وهو دخان الشحم . ولون أثر الوشم أخضر أو أزرق . والمعاصم : جمع المعصم (بوزن المنبر) : وهو موضع السوار من اليد .

يقول : إن الرياح اللينة اللطيفة تجرى فوق مياه هذه الجداول ، فتسلسلها ، وتظهر على سطحها ما يشبه السبائك المقدّرة . ثم شبّه هذه السبائك فوق سطح الماء بالوشم فوق المعاصم ؛ فالسبائك وشم ؛ لما فيهما من تقدير وصناعة وقياس وإتقان . والماء تحتها معاصم لصفائه ، وتلألئه ولمعانه .

(٧) تجوس خلال الباسقات : تدور فيها ، وتتردّد بينها ، وتتوسّطها . (وبابه قال) . وفاعله ضمير « الجداول » . والباسقات : طوال النخيل والأشجار . وفاعل « تنتهى » : ضمير « الجداول » . والساعد : مجرى الماء إلى النهر ، أو إلى البحر . وغمرة النيل : زحمته ، ولجته ، وكثرة مائه . وجمعها غمار (بكسر الغين) . و« ساجم » : نعت لـ « ساعد » : اسم فاعل من سجم الماء (من باب دخل) : أى سال ، وجرى ، وانصبّ . أو من سجمه : بمعنى أساله وصبه ؛ فالساعد ينصبّ فى النيل . أو يصبّ ماءه فى النيل .

يقول : إن هذه الجداول تدور وتجرى بين طوال النخيل ، والأشجار المرتفعة العالية . ثم ينتهى بها المطاف إلى مجراها المنصبّ فى غمرة النيل ؛ فهى من النيل ، وإليه .

(٨) حولها : أى حول الجداول . وولهى : صفة من وله الصبىّ إلى أمه (كوعد ، ووجل ، وورث) : أى فَزِع إليها ، ولجأ . وولهتْ الأمّ إلى ولدها : أى حنّتْ إليه ، فهى وَلْهَى ، وهو وَلْهان — . ومُكِبّة : اسم فاعل من أكبّ على الشىء إكباباً : أى أقبل عليه ، وشغل به ، ولزمه . والصاديات : جمع =

وَمُنْبَعِثَاتٍ فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّهَـا   بَيَارِقُ لَهْوٍ رُكِّزَتْ فِي الْمَوَاسِمِ (٩)

مِنَ الَّلاءِ قَدْ آلَيْنَ يَشْرَبْنَ ، أَوْ تَلِي   مَنَابِتُهَا غَوْرَ الْبِحَارِ الْخَضَارِمِ (١٠)

= صادية : اسم فاعل من الصدى : وهو العطش الشديد . والحوائم : جمع حائمة أو حائم : اسم فاعل من حام الحيوان (من باب قال) : أى عطش . أو حام الطائر وغيره حول الشيء ، وحام عليه : أى دار به ، وأطاف عليه .

يصف الأشجار الكثيرة القائمة حول الجداول ، وعلى حافاتها وشواطئها . ويتخيلها والهة ، مقبلة على الماء إقبال الحيوان أو الطير التى اشتدّ بها العطش ؛ فهى تحوم عليه ، وتطيف به ، وتدور حوله .

(٩) « الواو » فى أول البيت : حرف عطف . و« منبعثات » : معطوف على « ولهى » فى البيت السابق : أى ترى الأشجار حول الجداول ولهى ... وترى النخيل منبعثات : أى ذاهبات مرتفعات فى الهواء . والبيارق : جمع بيرق (بوزن فيصل) : وهو الراية ، أو العَلَم الكبير . وركِّزتْ : غُرزتْ فى الأرض ، وثبِّتتْ . وفاعله ضمير البيارق . والمواسم : المحافل ، والأعياد الكبيرة ، والمجامع الكثيرة من الناس ، واحدها موسم (بوزن مجلس) .

والشاعر فى هذا البيت وأربعة الأبيات بعده يختصّ النخيل بالوصف والتصوير ؛ فهى منبعثة مرسلة عالية باسقة ذاهبة فى الهواء ؛ ذات سعف كثير أثيث ، وأغصان مرتفعة طويلة ، تهتزّ وتضطرب كأنها رايات كبيرة مضطربة ، أقامها الناس — فى محافل المرح واللعب ، ومواسم اللهو والسرور — على أعمدة طويلة عالية ، مركوزة فى الأرض ، ذاهبة فى السماء .

(١٠) «من» فى أول البيت : لبيان النخيل المنبعثات فى الهواء . واللاء : اللائى : وهو اسم موصول لجمع المؤنث . ومثله « اللاتى » وحذف يائهما جائز . وآلين : أقسمن ، وحلفن . وآلين يشربن : أى آلين ألاّ يشربن؛ فَحَذَف النفى ، وقَدَّره بعد القسم ؛ ولهذا امتنع توكيد الفعل . ولو كان الكلام مثبتاً لوجب توكيده . و« أو» : بمعنى « إلاّ ». أو بمعنى « إلى » . وتلى : تدنو وتقرب . ويراد بمنابت النخيل : جذورها وأصولها الذاهبة فى أعماق الأرض . واحدها منبت (بوزن مجلس) : وهو اسم مكان على غير قياس من نبت الزرع (من باب نصر) : أى نشأ وظهر وخرج من الأرض . وغور البحر : قعره وعمقه . وجمعه أغوار . والخضارم : جمع خضرم (بكسر فسكون فكسر) : وهو البحر الخضَمّ العظيم الواسع العميق الكثير الماء . والمعروف أن النخلة أو الشجرة تسقى بالماء فى أول غرسها وهى صغيرة ، فإذا نمتْ امتدّتْ جذورها فى باطن الأرض ، فأمدّتها بالماء والغذاء .

يقول : إن هذه النخيل أقسمن ألا يشربن الماء من باطن الأرض إلا إذا امتدّتْ جذورهن فيه ، ووصلتْ إلى عمق بعيد يساوى أغوار البحار الزاخرة العظيمة العميقة. والغرض الإشارة إلى بسوق النخل، وتمام نمائها ، وذهاب فروعها فى السماء ببعد ذهاب أصولها فى أعماق الأرض .

إِذَا لَاعَبَتْ أَعْرَافَهَا الرِّيحُ خِلْتَهَا ... فَوَارِسَ تَعْصُو بِالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ (١١)

يَلُوحُ بِهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، كَأَنَّهُ ... فَرَائِدُ سَاوَى بَيْنَهَا كَفُّ نَاظِمِ (١٢)

إِذَا مَا أَتَى مِيقَاتُهَا ، وَتَضَرَّجَتْ ... حَسِبْتَ عَقِيقًا فِى صِحَافِ الْكَمَائِمِ (١٣)

---

(١١) أعراف النخيل : أعاليها : أى فروعها وسعفها وأغصانها المنتشرة فى رءوسها وحول أعناقها . مفردها عرف (بوزن قفل) . ولاعبت الريح أعرافها : عبثت بها ، وحركتها . وخلتها : ظننتها : أى ظننت النخل الباسقات . وفوارس : جمع فارس : وهو الماهر فى ركوب الخيل . وفوارس الجيش أو فرسانه : هم المحاربون على ظهور الخيل . وعصاه يعصوه عصواً (من باب عدا) : : ضربه بالعصا . والمراد هنا : مطلق الضرب . والصوارم : القواطع : جمع صارم : وهو الحاد القاطع .

يقول : إذا حركت الرياح سعف هذه النخيل ظننتها جماعة من الفرسان المحاربين يجالدون أعداءهم بسيوفهم القواطع ؛ وذلك لأن السعفة تحركها الريح ، فتتحرك وهى متصلة بالنخلة ؛ فيخيل إلى من يراها أنها سيف يهتز فى يد محارب .

(١٢) يلوح : يبدو ، ويظهر . وبها : بالنخل الباسقات . وطلع النخلة : مايبدو من ثمرها فى أول ظهوره . وأول البلح : طلع ، ثم خلال ، ثم بلح ، ثم بُسْر ، ثم رطب ، ثم تمر . والطلع أيضاً : شىء يخرج من النخلة كأنه نعلان مطبقتان . والحمل بينهما منضود . والطرف محدد . وبعبارة أخرى هو غلاف يشبه الكوز ، وينفتح عن حب منضود فيه مادة إخصاب النخلة . وهذا الغلاف ، أو الوعاء يسمى الكمامة (بكسر الكاف) . وجمعها كمائم . ونضيد : منضود ، مجتمع ، منسق ، متسق . وفرائد : جمع فريدة : وهى الجوهرة النفيسة . وساوى بينها : ساوى بين الفرائد : أى جعلها متماثلة ، متعادلة ، متشابهة متساوية . والكف مؤنثة : وهى اليد . أو هى الراحة مع الأصابع . وناظم : اسم فاعل من نظم الإنسان اللؤلؤ ونحوه (من باب ضرب) : أى ألّفه ، ونسّقه ، وجمعه فى سلك .

يصف الشماريخ ينتظم فيها الطلع فى أول ظهوره ، ويشبهه بالجواهر أو اللآلىء جمعتْها ، ونسّقتْها وساوتْ بينها كف ناظم ماهر . أو يصف الحب المنضود الذى ينفتح عنه طلع النخلة ، فيبدو منسّقاً فى الكمائم .

(١٣) ميقاتها : ميقات الفرائد : أى وقت نضجها . ويراد بالفرائد : الطلع المنضود فى أعذاقه أو شماريخه . وتضرّجتْ : احمرّتْ . وفاعله ضمير الفرائد فى البيت السابق . وحسبت : ظننت : أى حسبت الفرائد عقيقاً . والعقيق : خرز نفيس أحمر اللون . أو هو حجر كريم أحمر ، يعمل منه فصوص الخواتم ونحوها . يكون باليمن ، وبسواحل البحر الأبيض . واحدته عقيقة . والصحاف : آنية الطعام . واحدتها صحفة . والصحفة أيضاً : قصعة كبيرة منبسطة ، تشبع الخمسة . والكمائم : أوعية الطلع وغُلُفه ، وكيزانه ، وأغشيته . واحدتها كمامة . ويراد بالكمائم هنا : الأعذاق ، أو الشماريخ =

مَسَارِحُ لَهْوٍ . لَوْ رَأَى «الشِّعْبُ» حُسْنَهَا لَعَضَّ عَلَى مَا فَاتَهُ بِالْأَبَــاهِمِ (١٤)

= التى ينتظم فيها البلح ويتسق . وصحاف الكمائم : الكمائم الشبيهة بالصحاف ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه .

يصف البسر إذا لَوَّن واحمرّ . ويشبّهه فى أعذاقه أو شماريخه بالعقيق فى الصحاف .

وصف الشاعر فى هذا البيت وأربعة الأبيات قبله ما كان على عهده فى روضة المقياس من النخل الباسقات ، وعبث الرياح بسعفها ، وعمق جذورها فى باطن الأرض إلى مثل أغوار البحار العظيمة العميقة . وذكر الطلع والبسر . واستعان على الوصف والتمثيل ، والتصوير بعدة تشبيهات قريبة مألوفة فى الجميل من النظم والنثر ؛ فانبعاث النخيل فى الهواء ، واضطراب سعفها الفارع فى الجوّ بين الأرض والسماء — يقرّ بها من صورة البيارق المنتشرة الخافقة فى رءوس أعمدة طويلة عالية . والسعف المهتزّ المضطرب فى رءوسها وأعناقها سيوف ضاربة قاطعة فى أيدى فرسان محاربين . وطلعها النضيد فرائد متسقة منتظمة متماثلة . وبسرها الأحمر فى أعذاقه عقيق فى صحاف .

(١٤) المسارح : جمع مسرح (بوزن مذهب) . وهو فى الأصل : اسم مكان من سرحت الماشية (من باب نفع) : أى تنقلت فى المرعى ، ورعت الكلأ والعشب والنبات . ويراد بمسارح اللهو : ما كان للشاعر ولأمثاله فى هذه الرياض الأريضة ، والمروج الناضرة ، والجنان الزاهرة ، والقصور الفاخرة من ملاعب ، وملاه ، ومنازه ، ومنتديات يجدون فيها كل ما يشتهون من المرح والسرور ، والمتع واللذات . ويراد بالشعب (بكسر فسكون) : شعب بوّان : وهو موضع عند شيراز ، ببلاد فارس (إيران) ، كثير الشجر والمياه ، يعدّ من جنان الدنيا ، وقد اجتازه أبو الطيب المتنبى وهو فى طريقه إلى عضد الدولة بن بويه ؛ فوصفه بقصيدة من عيون شعره ، مطلعها :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى بمنزلة الربيع مــن الزمــان

ومنها :

ملاعب جنّة لو سار فيهــا سليمان ، لسار بترجمــان
طَبَتْ فرساننا والخيــل ، حتى خشيتُ — وإن كرمن — من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيــه على أعرافها مثــل الجمــان
فسرتُ وقد حجبن الشمس عنى وجئن من الضياء بما كفانى

ورأى الشعب حسنها : رأى حسن هذه المسارح . والأباهم : جمع الإبهام : وهى الإصبع الغليظة الخامسة : كبرى أصابع اليد ، أو الرجل . وفيها سلاميتان . وفى غيرها ثلاث . مؤنثة ، وقد تذكّر . ويراد بالأباهم هنا : إبهام اليد . ولعل الجمع يشير إلى كثرة العضّ وتكراره . وعضّ بالأباهم ، وعضّ عليها : كناية عن الندم ، والحسرة ، والغيظ . وفى القرآن الكريم : « ويوم يعضّ الظالم على يديه ، يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً » (الآية رقم ٢٧ من سورة الفرقان) . وعضّ شعب بوّان بأباهمه =

ذَكَرْتُ بِهَا عصْرًا تَوَلَّى ، وَلَذَّةً تَقَضَّتْ . وَمَا عَهْدُ الزَّمَانِ بِدَائِمِ (١٥)
وَمَا تَحْسُنُ الأَيَّامُ إِلَّا بِأَهْلِهَا وَلَا الدَّارُ إِلَّا بِالصَّدِيقِ الْمُلَائِمِ (١٦)

= على مافاته : أى تحسّر وتلهّف على ما لم يصل إليه ، ولم يتهيأ له من محاسن روضة المقياس بالقاهرة .

يقول : إن ما وصفه ، أو أشار إليه من منازل روضة المقياس ومعالمها ، وجداول النيل فيها ، وغياضها ومروجها ورِوْضاتها وجنانها — ملاعب وملاه فاتنة المحاسن ، باهرة المفاتن . ولو رأى شعب بوّان هذه الجزيرة النضيرة ، لعرف أنها سبقتْه وفاقتْه بمباهجها ومحاسنها ؛ فاشتد أسفه وندمه ، وعضّ أصابعه حسرة وكداً .

(١٥) ذكرتُ : تذكّرتُ ، واستحضرت ، وحفظتُ . وبها : أى بمسارح اللهو المشار إليها فى البيت السابق . والعصر : الدهر ، والزمان . وتولى : أدبر ، وذهب . والجملة الفعلية صفة لـ« عصر » . وتقضتْ : انقضتْ ، وفنيتْ ، وانصرمتْ ، وذهبتْ . والجملة الفعلية صفة لـ« لذة » . والعهد : الموثق ، والذمة ، والمودة ، والوفاء ، والضمان ، والأمان ، والحفاظ ، ورعاية الحرمة . « وما عهد الزمان بدائم » : تذييل معناه : أن الزمان لا وفاء له ، ولا أمان . وفى طبعه التحول والتنكّر . ومن دأبه التقلّب والتغير . وشكوى الزمان أو الدهر عادة قديمة فى الناس ، وبخاصة الشعراء . وهم ينسبون إليه ما يلمّ بهم أو يصيبهم من الخير والشر والمسرة والمساءة .

يقول : إنه تذكّر برؤية هذه المسارح والملاعب والملاهى والمنتديات ما قضاه فيها من متع الصبا ، ولذات الشباب ، ومرح الفتاء . وإن الزمان متقلب لا وفاء له ، ولا دوام لوده « من سره زمن ساءته أزمان » . وفى البيت معنى الحسرة والأسف ، والحنين إلى الماضى وذكرياته ، والتلهف على ما فات .

ختم الشاعر بهذا البيت القسم الأول من هذه القصيدة التى اختصّ بها « روضة المقياس » . وفيه وَصَفَ معالمها ، ونوّه بمحاسنها ، وأشاد بمزاياها . ثم تحسر على أيام هانئة عزيزة كانت له فى هذه الجزيرة . وهو فى الأبيات الآتية يعود إلى ذكر العصر الذى تولى ، واللذات التى تقضت ، ويحسن الثناء على صحابه فى ذلك العهد ، عهد الصبا والشباب . ويتمدّح بالمحامد والفضائل التى شابههم فيها وشابهوه . وفى أثناء هذا تلازمه الذكرى والحنين ، ويستشعر الأسى والحسرة ، ثم يختم القصيدة بما يشبه العظة والاعتبار بتقلّب الدنيا ، وقلة وفائها ، وأنها حرب وكرب وبلاء على المغترين بها ، المنخدعين بزخرفها وباطلها « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران)

(١٦) الملائم : الموافق .

يقول : إنما تحسن الأيام بحسن أهلها ، وتصلح بصلاحهم ، وتطيب الحياة فيها للكرام الأحرار ، فإذا خلتْ من هؤلاء ، وسيطر عليها اللئام الأشرار ، كانت حرباً وبلاء، وكرباً ووبالاً على الكريم الصالح . وكذلك الديار لا تحسن عند المرء إلا إذا كان له فيها صديق صادق الود يوائمه ويوافقه فى الأخلاق والمشارب ، والسيرة والسلوك ، وإلا كانت جافية موحشة مقلقة لا تطاق .

فَيَا نِعْمَ مَا وَلَّتْ بِهِ دَوْلَةُ الصِّبَـا ... وَلَمْ تَرْعَهُ مِنْ عهْـدِنَا الْمُتَقَادِمِ (١٧)

إِذِ الْعَيْشُ أَفْنَانٌ . وَنَحْنُ عِصَابَةٌ ... أُولُو تَرَفٍ : مَا بَيْنَ غَـادٍ وَهَائِمِ (١٨)

نَسِيرُ عَلَى دِينِ الْوَفَـاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ ... سِوَى الْحُبِّ مِنْ قَاضٍ عَلَيْنَا وَحَاكِمِ (١٩)

(١٧) «يا» : حرف تنبيه . أو هو حرف نداء . والمنادى محذوف . و«نعم» : فعل جامد يفيد المدح . وفاعله كلمة «ما» . وولّتْ : أدبرتْ ، وذهبتْ . و«دولة» : فاعل «ولّتْ» . والصبا (بكسر الصاد) : الحداثة ، وصغر السن ، والفتاء ، والشباب . ودولة الصبا : ريعانه ، وسطوته ، وغلبته ، وعنفوانه . ويراد بما ولت به دولة الصبا : ما كان لهم فى صباهم من متع ولذات ، وملاه ومسرات . ولم ترعه : لم تحفظه ، ولم تصنه . وفاعله ضمير «دولة» . ورعى له حرمته أو عهده : لاحظه ، وراعاه ، وحفظه ، ووفى به . و«من» بيانية . وما بعدها وهو «عهد» : بيان للضمير المفعول به المتصل بالفعل «ترعى» . والعهد : الزمان . أو هو ما كان بينهم وبين (دولة الصبا) من حرمة ، وذمة ، وموثق ، وأمان . والمتقادم : القديم . ويلاحظ أن المدح بـ «نعم» يشمل ما ولّتْ به دولة الصبا ، وعهدهم المتقادم الذى لم ترعه تلك الدولة .

يمدح فى أسى ولهفة وحسرة ما ذهب بذهاب دولة الصبا والشباب من المرح والطرب ، والهوى واللهو ، واللذات والمسرات . ويقول : إن تلك الدولة لم تبق شيئاً من ملابسات ذلك العهد القديم العزيز . وفى الأبيات الآتية تفصيل وبيان لبعض محاسنه .

(١٨) «إذ» : اسم مبنى على السكون ، يدل على ما مضى من الزمان . وهى هنا مضافة إلى الجملة الاسمية بعدها . وظرف لتلك الأحداث الماضية المشار إليها فى هذا البيت والأبيات التالية . والعيش : المعيشة والحياة . وأفنان : ضروب ، وأنواع ، وأحوال ، ومثلها فنون . والمفرد فنّ . ويراد بأفنان العيش هنا : لذاته ومتعه المتنوعة الكثيرة . والعصابة : الجماعة من الرجال . ومثلها العصبة . وأولو : أصحاب . والترف : النعيم ، ورغد العيش ، وطيب الحياة . وغاد : ذاهب منطلق . وأصله الذهاب فى الغدوة : بين الفجر وطلوع الشمس . وهائم : اسم فاعل من هام (من باب باع) : أى خرج على وجهه فى الأرض ، وذهب لا يدرى أين يتوجّه . أو من هام بالشئ : أى أحبه ، وشغف به . ويراد بالغادى والهائم : الرجل الفارغ من أعمال الجد ، وهموم الحياة ، المنصرف إلى اللهو والنعيم ، المنطلق فى فنون الأهواء واللذات .

يفصّل بعض محاسن ماضيه ، وما ذهبتْ به دولة الصبا والشباب ، فيقول : إنه كان ينعم مع جماعة من صحبه فى فنون الرفاهة والترف ، وينطلقون فى ضروب الأهواء واللذات ، ويتقلّبون فى ألوان المرح والطرب والمتعة واللهو ، لا يشغلهم عن ملاهيهم شاغل ، ولا يحدّهم عنها حادّ من مقتضيات الجدّ ، وهموم الحياة .

(١٩) يراد بالدين هنا : الخُلُق ، والسيرة ، والعادة ، والحال ، والشأن ، والحكم ، والقضاء . و«من» فى الشطر الثانى زائدة . والغرض من زيادتها هنا : التنصيص على العموم . كما فى قول الله تبارك وتعالى : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر . هل ترى من فطور ؟» (الآية رقم ٣ من سورة الملك) . وقاض : اسم فاعل من قضى (من باب رمى) : أى حكم ، وفصل . ومعنى الشطر=

إِذَا قَالَ مِنَّا قَائِلٌ ، قَامَ دُونَـــهُ شَهِيدٌ عَلَيْهِ ، صَادِقٌ ، غَيْرُ آثِمِ (٢٠)

يَحُومُ عَلَيْـــهِ وَالْمَنَـــايَا مُسِفَّةٌ وَيَدْرَأُ عَنْهُ فِى صُدُورِ اللَّهَاذِمِ (٢١)

= الثانى : أن الوشائج والعلاقات كانت بينهم قوية طيبة على الدوام، بسبب الحب والوفاء : فلم يوجد ما يدعو إلى الاختصام والتقاضى والاحتكام . وإن وجد شيء من هذا فسرعان ما يرده الحب والوفاء إلى الألفة والاجتماع والالتئام .

يقول : إنه كان هو وصحبه فى ذلك الماضى السعيد يدينون بالوفاء ، ويتخلقون به ، ويلتزمون نهجه ودينه ، ولا يكادون يحيدون عنه . وأن الحب والوداد والإخلاص وصدق الإخاء — كان رباطهم الوثيق الذى يؤلف بين قلوبهم، ويجمع ميولهم ومشاعرهم ومشاربهم . وإلى الحب وحده كانوا يتقاضون ويحتكمون .

(٢٠) قام دونه : قام أمامه ، أو بين يديه . وشهيد على القائل : أى شاهد عليه . أو نصير له ومعين ، يؤيد بشهادته قول صاحبه وصديقه . وغير آثم : غير خاطئ : أى غير مذنب ؛ وهو تأكيد لمعنى صادق فى شهادته .

والمعنى : أنه كان هو وصحبه متناصرين متفقين ، لا يكادون يختلفون ؛ فإذا تكلم أحدهم ، أو تحدّث ، أو أخبر بخبر ، أو قال قولاً ، أو رأى رأياً ، أو ذهب مذهباً ، أو اجتهد فى أمر ما — أيده إخوانه بشهاداتهم له دون أن يتجاوزوا حدود الصدق والحق ، والاستقامة والصواب .

أو المعنى : أنهم كانوا مجتمعين على النصح والإخلاص والمسارعة إلى إصلاح الخطأ ، وتقويم الاعوجاج ؛ فإذا انحرف أحدهم بمقاله عن السداد قام بين يديه منهم من يشهد عليه فى صدق واستقامة ، وتحرّج من الإثم ، قاصداً بشهادته التنبيه على الخطأ ، وإصلاح الانحراف .

أو المعنى : أنه إذا أومأ أحدهم إلى شدة وقع فيها ، أو خطر تعرّض له ، قام بين يديه من يعينه وينصره فى صدق ، وتحرّج من الإثم .

(٢١) يحوم عليه : يدور به ، ويطيف عليه . والمراد يدافع عنه ، وينصره ، ويحميه . وفاعله ضمير الشهيد فى البيت السابق . والمنايا : جمع المنية : وهى الموت . ومسفّة : دانية قريبة : ويدرأ : يدفع ، ويحامى عنه ، وينتصر له ؛ فهو تأكيد لمعنى « يحوم عليه » . وجملة « والمنايا مسفة » حال من فاعل « يحوم » . وعنه : عن صاحبه . و « فى » هنا : بمعنى « الباء » : أى يدفع عنه الشر والأذى والعدوان بصدور اللهاذم : جمع صدر : وهو مقدّم كل شيء . وصدر الرمح والسيف ونحوهما : أعلاه ، ومقدّمه ؛ وما يكون به الطعن والضرب والإصابة . واللهاذم : جمع لهذم (بوزن جعفر) : وهو الحادّ القاطع من السيوف والأسنّة ونحوها . ويجوز أن يراد بصدور اللهاذم : مجال الموت ، ومواطن الهلاك ، ومعدّات الإصابة والقتل والإهلاك . وعلى هذا تكون « فى » بمعناها الأصلى : وهو الظرفية . والظرفية هنا مكانية .

يقول : وكان الواحد منا يدافع عن صديقه ، ويحوطه بنفسه ، وينصره ويحميه ، ويدرأ عنه الشر والضرر ، والأذى والعدوان ؛ لا يبالى فى سبيل نصرته وحياطته ما يتعرّض له من أسباب الموت ، ومعدّات الهلاك .

إِذَا أَلْهَبَتْهُ غَضْبَةٌ ، وَتَرَجَّحَتْ بِهِ سَوْرَةٌ ، أَغْرى الظُّبَا بِالْجَمَاجِمِ (٢٢)

فَقَدْ مَرَّ ذَاكَ الْعَصْرُ إلاَّ لُبَانَةً مُعَلَّقَةً بَيْنَ الْحَشَا وَالْحَيَازِمِ (٢٣)

إِذَا ذَكَرَتْهَا النَّفْسُ يَوْمًا تَرَاجَعَتْ عَلَيْهَا عَقَابِيلُ الْهُمُومِ الْقَدَائِمِ (٢٤)

---

(٢٢) ألهبته : أثارته وهيجته . مستعار من ألهبت النار إلهاباً : أى أوقدتها وأشعلتها حتى صارت. ذات لهب . وغضبة : اسم مرة من الغضب . وترجّحتْ به : مالت . والسورة : المرة ، أو الاسم من سار (من باب قال) : : أى هاج وثار ، وغضب ، ووثب ، واحتدّ واشتدّ ، وبطش ، وفتك . وأغريته بكذا إغراءً : حضضته عليه ، وأولعته به ، ودفعته إليه . والظبا : جمع ظبة (بضم ففتح) : وهى حدّ السيف والسنان ونحوهما . والجماجم : الرءوس ، واحدتها جمجمة : وهى عظم الرأس المشتمل على الدماغ .

يتمدّح ببسالته وبسالة صحبه ، وشدة بأسهم ، وأنهم أهل حميّة ونجدة ؛ فإذا غضب أحدهم وثار ، فزع إلى أسلحة النزال والقتال ؛ وأعمل فى رءوس أعدائه السيوف والرماح .

وهذا البيت ختام خمسة أبيات (١٨ — ٢٢) نوّه فيها الشاعر بأصدقاء شبابه الذين اجتمعوا معه على الحب والوفاء ، والتناصر والتعاون ، وصدق الإخاء والصفاء . وافتخر بما كان له ولهم من الحميّة والنجدة ، وشدة البأس ، وقوة المراس ، و إطفاء لهب الغضب بالكفاح ، وحدّ السلاح . وفى الأبيات أسف وتلهّف على ذهاب دولة الصبا والشباب ، وما كانوا يتقلّبون فيه من فنون اللهو والمتعة ، وألوان الترف والرفاهة .

وفى أربعة الأبيات الآتية (٢٣ — ٢٦) تكرار لمعنى التحسّر والتلهّف على ذلك العصر ، وما كان لهم فيه من منازل الأنس والطمأنينة والسرور ، ومالم يدركوه فيه من اللبانات والحوائج والمطالب . وفى البيتين الأخيرين (٢٧—٢٨) ختم الشاعر قصيدته هذه بما يشبه العظة والاعتبار بتقلّب الدنيا ، وقلة وفائها ، وانخداع الناس فيها بالآمال الكاذبة ، والأمانى الذاهبة .

(٢٣) « ذاك العصر » : إشارة إلى دولة الصبا ، وزمن الشباب . واللبانة : الحاجة من غير فاقة، ولكن من نهمة : أى من فرط رغبة وولوع . والحشا : ما اضطمّتْ عليه الضلوع ، وما حواه البطن ، وجمعه أحشاء . والحيازم : جمع حيزوم (بوزن خيشوم) : وهو الصدر ، أو وسطه . والشطر الثانى كناية عن شدة تعلّقهم بهذه اللبانة ، واستقرارها فى قلبه وقلوب صحبه .

يأسى ويتحسّر على ذهاب عصر الصبا والشباب . ويضاعف أساه وحسرته أن كانت له فى ذلك العصر لبانة لم يبلغها . ومازالت معلّقة فى قلبه ، مستراداً لآماله . أو أنه بانقضاء ذلك العصر قد استيئس منها ، ومع هذا بقيتْ تشغل باله ، وتثير بلباله .

(٢٤) ذكرتْها : ذكرتْ اللبانة : أى تذكرتها : من الذكر : وهو ضد النسيان . وتراجعتْ : رجعتْ . وعليها : على النفس . والعقابيل : الشدائد ، وبقايا العلل ونحوها . مفردها عقبول(بوزن =

وَمَنْزِلَةٍ لِلْأُنْسِ كُنَّا نَحُلُّهَا ... وَنَرْعَى بِهَا اللَّذَّاتِ رَعْيَ السَّوَائِمِ (٢٥)

عَفَتْ ، وَكَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، وَالْتَقَتْ ... عَلَيْهَا أَعَاصِيرُ الرِّيَاحِ الْهَوَاجِمِ (٢٦)

= عصفور) . والهموم : جمع همّ : وهو الحزن والغمّ . والقدائم : جمع قديم ، أو قدام (بوزن غراب) : وهو خلاف الحديث : من القدم (بوزن العنب) .

يؤكّد هذا البيت معنى الشطر الثانى من البيت السابق ، ويفصّله ؛ فإن اللبانة التى لم يبلغها الشاعر فى عصر فتائه وشبابه قد حزنه فواتها ، وحزّ فى نفسه عدم تحققها له ، وأمضّه انقطاع أمله فيها . وبقى قلبه متعلقاً بها بعد يأسه منها ؛ فكلّما تذكّرها جدّدت له الأسى والحسرات ، وتوالت عليه بقايا تلك الهموم والأحزان القديمة . وقد تكون هذه اللبانة للشاعر وحده . وقد تكون له ولصحبه الذين أشار إليهم ، ونوّه بهم فى الأبيات السابقة .

(٢٥) الواو فى أول هذا البيت : واو « ربّ » : أى وربّ منزلة ؛ فهى محذوفة بعد الواو . ومعناها هنا : التكثير ؛ فمنازل الأنس التى كانوا يحتلّونها فى صباهم كثيرة غير قليلة . والمنزلة : المنزل ، والدار . وجمعها منازل . والأنس : ضد الوحشة . أنس به ، وإليه (مثلثة النون) : ألفه ، وسكنت إليه نفسه ، واطمأنّ به قلبه ، وفرح ، وذهبت به وحشته . ونحلّها : نحتلّها ، ونقيم بها . حلّ المكان ، وحلّ به (من بابى نصر وجلس) : نزل به ، كاحتلّه . ونرعى اللذات : نباشرها ، ونستمتع بها . مستعار من رعت الماشية الكلأ والنبات (من باب سعى) : أى سرحت فيه ، وأكلته . وبها : بمنازل الأنس التى كنا نحتلّها . والسوائم : جمع سائمة : وهى الماشية الراعية : اسم فاعل من سامت الماشية (من باب قال) : أى رعت حيث شاءت . أو دامت على الكلأ . أو خرجت إلى المرعى .

يذكر بتلهّف وتحسّر منازل الأنس واللهو ، والمرح والطرب التى كانوا يحتلّونها إبّان شبابهم فى تلك الجزيرة النضيرة . وما كانوا يرتعون فيه بها من ضروب اللذات والشهوات ، وفنون الملاهى والمسرات .

(٢٦) عفت : زالت ، وامّحت ، ودرست ، وبليت . وفاعله ضمير المنزلة فى البيت السابق . وغنى بالمكان (من باب رضى) : أقام به ، واستقرّ ، وسكن ، واطمأنّ . وكأن لم تغن بالأمس : أى كأن لم تكن . أو كأن لم تكن عامرة بأهلها ، يقيمون بها هانئين مستمتعين . ومن كلامهم : « غَنَوا بديارهم ، ثم فَنَوا » : أى أقاموا بها ، ثم انقرضوا . وفى القرآن الكريم ، فى مثل الحياة الدنيا : «فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس » (الآية رقم ٢٤ من سورة يونس) . والتقت : تلاقت ، واجتمعت . وعليها : على المنزلة . والأعاصير جمع إعصار : وهو ريح تهبّ بشدة ، وتثير الغبار ، وترتفع به ، وتستدير ، كأنها عمود يصعد فى السماء . والهواجم : صفة للرياح : جمع هاجمة : اسم فاعل من هجم عليه (من باب دخل) : أى انتهى إليه بغتة ، على غفلة منه . أو دخل عليه بغير إذن . والتقاء الأعاصير الهواجم على منازل أنسهم ولهوهم بجزيرة الروضة : كناية عن امّحاء تلك المنازل والملاهى ، ودروسها وعفائها وذهاب أثرها .

وصف فى هذا البيت والذى قبله ما صارت إليه منازل أنسهم ولذّتهم ومرح شبابهم من وحشة وخلاء ، وعفاء وخراب . وفى البيتين معنى التحسّر والتلهّف ، والأسى والحسرة على انقضاء ذلك الزمان السعيد ، وذهاب ذلك العيش الرغيد .

وَما خَيْرُ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لِعَهْدِهَا ... وَمَا طِيبُ عَيْشٍ رَبُّهُ غَيْـرُ سَالِمِ (٢٧)

عَلَى هٰذِهِ تَمْضِي اللَّيَالِي، وَيَنْقَضِي ... حَدِيثُ الْمُنَى فِيهَا، كَأَحْلَامِ نَائِمِ (٢٨)

(٢٧) «ما» فى شطرى هذا البيت : اسم استفهام ، يسأل بها عما لا يعقل . والاستفهامان معناهما النفى ؛ فالدنيا لا خير فيها ، ولا بقاء لعهدها . والعيش لا يطيب إلا بسلامة ربّه ، وهى متعذّرة، أو ممتنعة . والعهد: الوفاء . والمودة . والموثق . والأصل فيه: حفظ الشىء ، وتعهّده ، ومراعاته حالاً بعد حال. ثم أطلق على كثير مما ينبغى أن يحفظ ويصان ويراعى. وطاب الشىء يطيب طيباً : لذّ ، وحلا ، وجاد ، وحسن . والعيش : الحياة . وما تكون به الحياة من المطعم والمشرب والدخل . وربّه: صاحبه.

والمعنى : أن الدنيا لا خير فيها ، ولا غناء ، ولا عهد لها ، ولا وفاء ؛ فهى متقلّبة متغيّرة، متلونة متنكّرة ، تعطى لتمنع ، وتسالم لتخدع . والعيش لا يطيب فيها لإنسان إلا إذا سلم من المحن والرزايا ، والبلايا والآفات . وهيهات هيهات .

(٢٨) «على هذه» : الإشارة إلى الخطّة ، أو السنّة ، أو الطبيعة ، أو الحالة التى عناها فى البيت السابق : وهى قلة خير الدنيا ، وانطباعها على الخداع والغدر ، وبُعْدها عن الوفاء والأمان ، ومرارة معيشة الإنسان فيها بكثرة ما يتعرض له من المحن والبلايا، وكثرة ما يضانيه من الرزايا والآفات . وينقضى: يفنى، وينقطع . وحديث المنى : ما يتحدّث به، ويدور فى الأنفس، وعلى الألسنة من الأمانىّ والآمال . وواحدة المنى منية (بوزن بغية ومعناها) : أى ما يبتغيه الإنسان ، ويتمناه ، ويرغب فيه ، ويحبّ أن يصير إليه . والأحلام : جمع حلم (بضم فسكون ، أو بضمتين) : وهو رؤيا النائم . ويضرب المثل بأحلام النائم فى كذب الأمانىّ ، وخيبة الآمال ؛ فيقال : « هذه أحلام نائم » : للأمانىّ الكاذبة التى لا سبيل إليها .

ختم الشاعر هذه القصيدة بهذا البيت الذى أكّد به ما قبله ؛ فى البيت السابق أشار إلى خداع الدنيا وباطلها وغدرها ، وكثرة تنكّرها وتغيّرها ، وقلة وفائها وأمانها . ومرارة عيشة الإنسان فيها بكثرة ما يتعرض له ، ويصاب به من المحن والرزايا ، والبلايا والآفات .

وفى هذا البيت كرّر هذا المعنى نفسه ، وعزّزه فقال : وعلى هذه الخطّة أو الحالة تذهب الليالى والأيام ، وتمضى الأوقات والأعوام ، وتنقضى أحاديث الأمانىّ والآمال. وتنتهى إلى الكذب والخديعة؛ كأنها أحلام نيام .

تعليق *

أولع الشاعر بروضة المقياس ؛ فذكرها فى كثير من شعره ، وخلع عليها كثيراً من صور الحسن والبهاء ، والجمال والرواء . وافتتح هذه القصيدة بتحيتها، ولكنه ما لبث أن رأى التحية قليلة غير وافية =

* ارجع إلى ص ٣٣١ ففيها بيان واف لما يتسع له التعليق . وفى التعليق هنا تحليل وتلخيص .

= بالتعبير عما يكنّه لتلك الجزيرة الأثيرة من الحب والوفاء ، والود والإعجاب ، والإعزاز والإكرام .
وتغنّى بكثير من محاسنها ومزاياها . وما تزدان به من معالم العمران،وآثار النعيم ، وبهجة الرياض والمروج ،
ونضرة الحدائق والبساتين . وأشار إلى فتياتها الحسان الفاتنات ، وطيورها الوادعة الآمنة ،وأمطارها
القليلة الخفيفة ، ونسائمها العليلة اللطيفة ، وجداولها العذبة الجارية التى تكثر فيها ، وتطيف بها .
ووَصَفَ أشجارها الناضرة الوالهة ، ونخلها الباسقات المثمرات . وفضّلها على شعْب بوّان . وهو من أعظم
جنان الدنيا ، وإحدى عجائبها وروائعها . كل هذا فى أربعة عشر بيتاً من ثمانية وعشرين بيتاً ، هى
عدّة أبيات هذه القصيدة .

وفى عشرة الأبيات التى تليها استشعر الأسف على فوات ما كان له فى تلك الجزيرة النضيرة إبّان
فتوّته وشبابه من متعة ولهو ، ومرح وطرب ، وأصدقاء أوفياء حَسُنَتْ بهم تلك الأيام والديار .

ومَدَّح — فى لهفة وأسى — ما ذهب من هذا كله بذهاب دولة الصبا والشباب . وذَكَر — فى ألم
وتوجّع — ما نقضتْه تلك الدولة من عهدهم القديم السعيد . وتمدّح بما اجتمعوا عليه من الوداد والإخلاص ،
والتناصر والتعاون ، والبأس والنجدة ؛ وما نعموا به من لذات العيش ومسراته ، ورفاهته وهناءته . ثم
عاوده الحنين إلى ذلك العهد ، والتلهّف على فواته . وأشار إلى لبانة له ، أوله ولهم لم يبلغوها . وظلوا
متعلقين بها ، وكلما ذكروها جددتْ لهم الهمّ والغمّ ، وضاعفتْ الأسى والحسرات .

وفى أربعة الأبيات الأخيرة كرّر التغنّى بما كانوا يحتلّونه فى تلك الروضة الأريضة من منازل الأنس
واللهو ، ومراتع المتع واللذات ، وكرر الأسف على عفائها وامحائها ، وذهاب كل أثر من آثارها .

ثم ختم القصيدة بما يشبه العظة والاعتبار بتقلّب الدنيا وتغيرّها ، وقلة وفائها وأمانها ، وكثرة خداعها
وغدرها ، ومرارة عيشة الإنسان فيها بكثرة ما يتعرض له ، ويصاب به من الانزعاج والقلق ، والمحن
والرزايا ، والبلايا والآفات .

* * *

وقد أسلفنا أن الصور الجميلة الرائعة التى رسمها الشاعر لروضة المقياس فى هذه القصيدة ، وفى كثير
من شعره — قد عدا عليها الزمان ، وشوّهتْها نوائب الحدثان . ولم يبق منها على نضرته وبهجته إلا القليل .
أمّا الكثرة الغالبة فقد عفتْ واندثرتْ ، أو تغيّرتْ معالمها وشواهدها . وفقدتْ الجزيرة أكثر ما كان
يميزها ويزينها من الهدوء والسكينة ، والبهاء والنظافة . وذهب أكثر حدائقها وقصورها ، وقامت فيها
عمارات سكنية كبيرة . وكثرتْ فى شوارعها المتاجر والدكاكين ؛ وكدّرها صياح الباعة الجوّالين ،
وشابهتْ الأحياء الوطنية فى الازدحام والجلبة والضجيج .

ومثل هذا يقال فى روضة المنيل ، وهى جزء منها ، متصل بها ، وقد تغنّى بها الشاعر ، وصوّرها
تصويراً جميلاً فى بعض شعره .

وفى خلال شرحنا لهذه القصيدة تحليلات أخرى مفصّلة ، وملاحظات ، ونقد ، وتعليقات ذات
بال .

وَقَالَ ، وَكَتَبَ بِهَا مِنْ حَرْبِ الرُّوسِيَا * سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَأَلْف هِجْرِيَّة إِلَى صدِيقِهِ الْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ «حُسَيْنٍ الْمَرْصَفِيِّ ** » :

يَا نَاعِسَ الطَّرْفِ ، إِلَى كَمْ تَنَامْ ؟ أَسْـهَرْتَنِي فِيكَ ، وَنَـامَ الْأَنَامْ (١)

* حرب الروسيا : يريد الحرب التى كانت بين روسيا وتركيا . أعلنتْها روسيا ، وبدأتْ بها فى إبريل سنة ١٨٧٧م (الموافق شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٤هـ) ، وتبعتْها رومانيا ، ثم الصرب ، والجبل الأسود . وانتهتْ بهزيمة تركيا ، وعقد معاهدة « سان استفانوا » فى مارس سنة ١٨٧٨ . وبهذه المعاهدة نالت كل من رومانيا ، والصرب ، والجبل الأسود استقلالها . ومنحتْ البوسنة والهرسك ، وبلغاريا استقلالاً إدارياً . وأخذتْ الروسيا « باطوم » و «أرزن » و « قارص » . وقد استنجدتْ تركيا مصر ، فأنجدها « الخديو إسماعيل » بحملة عسكرية ، نزلتْ فى « وارنة » من ثغور البحر الأسود . وحاربتْ فى « أكرانيا » و « بلغاريا » . وكان « محمود سامى البارودى » من كبار ضباطها . وقدّر الترك حسن بلائه ، فمنحوه فى نهاية تلك الحرب رتبة أمير اللواء ، و « نيشان » الشرف ، والوسام المجيدى من الدرجة الثالثة .

** الشيخ حسين بن أحمد المرصفى (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ ١٨٨٩م) : عالم ، لغوىّ ، أديب . نسبته إلى « مرصفا » من قرى مركز بنها ، بمحافظة القليوبية ، بمصر . تعلم فى الأزهر ، ونبغ فى علوم اللغة العربية وآدابها . ثم اشتغل بتدريسها فى الأزهر ودار العلوم . ومن تلاميذه وأصدقائه : حفنى ناصف ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد الله فكرى . ومن مؤلفاته « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » فى جزأين . وقد نشرت هذه القصيدة بالجزء الثانى منها ص ٤٩٧ — ٤٩٨ طبعة مطبعة المدارس الملكية ، بدرب الجماميز بالقاهرة سنة ١٢٩٢ هجرية .

(١) الطرف : العين . ويراد بنعاس العينين : فتورهما . وهو من محاسنهما . ومن أمارات الخفر ، والاحتشام ، وشدة الحياء . والاستفهام فى الشطر الأول : معناه الاستبطاء . و« فيك » : فى التفكير فيك ، والاشتغال بأمرك . أو بسببك ، ومن أجلك . كما فى قول الله تبارك وتعالى ، فى قصة «يوسف» : « فذ لكن الذى لمتننى فيه » (الآية رقم ٣٢ من سورة يوسف) . والأنام : الخلق ، والناس . واللازم من طول نوم المحبوب : خلوّ قلبه من الحب والهوى ؛ فهو رخىّ البال ، هادئ النفس ، ناعم الخاطر ، لا يكاد يهتمّ بمن أحبه ، وأخلص له ، وتعلق به ؛ ولا يكاد يفكّر فيه ، أو يشفق عليه ، أو يعنى بأمره .

ينادى من يتودد إليه ، ويتغزل به ، متغنياً بفتور عينيه ، منوهاً بما ينمّ عليه هذا الفتور من الخفر والاحتشام والاستحياء المحمود ، شاكياً انصرافه عنه ، وقلة اهتمامه به ، كأنه فى نوم عميق عما يقاسيه محبه ويضانيه من لواعج الوجد ، وتباريح الشوق ، وحُرَق الصبابة التى أرّقتْه ، وأسهرتْه ، وحرمتْه راحة النعاس وأمَنَتَه ، وأطالتْ لياليه ، وضاعفتْ همومه وأوصابه ، على حين أن الناس ينعمون بنوم هادئ ناعم مريح .

=

أَوْشَكَ هَٰذَا اللَّيْلُ أَنْ يَنْقَضِي وَالْعَيْنُ لَا تَعْرِفُ طِيبَ الْمَنَامْ[٢] .

وَيْلَاهُ مِنْ ظَبْيِ الْحِمَى ؛ إِنَّـهُ جَرَّعَنِي - بِالصَّدِّ - مُرَّ الْحِمَامْ[٣]

= ويلاحظ أن الشاعر قدّم هذا الغزل الرقيق اللطيف بين يدَيْ الشكوى والعتاب . وفى البيت براعة استهلال ، أو ما يشبهها ؛ لأنه - مع هذه المعتبة الرقيقة التى ساقها الشاعر فى صورة الغزل - يشعر بشكواه وتألمه من انصراف المرصفى عنه ، وضنّه بالكتابة إليه ، والردّ على رسائله ، والحقيقة أن الشاعر وهو فى الحرب الروسية التركية كان قد كتب إلى بعض أهله وأصدقائه بمصر - ومنهم المرصفى - عدة رسائل تعوّقتْ فى طريقها ، وتأخر وصولها إليهم ؛ فاستبدّتْ به الوساوس والأوهام ، واستشعر القلق والهمّ ، وذهبتْ به الظنون مذهباً بعيداً عن الحق والسداد . وسيأتى بيان واف لهذه الحقيقة التى أجّجتْ هذه العاطفة النبيلة ، وأنتجتْ هذا الأدب الرائع .

(٢) أوشك : أسرع ، ودنا ، وقرب ؛ فهو من أفعال المقاربة ، ويفيد معها المسارعة . وطاب الشيء يطيب طيباً : لذّ ، وحسن ، و حلا ، وجاد .

شكا فى البيت السابق إعراض الحبيب عنه ، وقلة اهتمامه بأمره . وقال : إن الوجد والشوق والصبابة برّحتْ به ؛ فأرّقتْه ، وأسهرتْه ، وحرمتْه لذة النوم ، وأمّتة النعاس . وهذا البيت تكرار وتأكيد لمعنى الأرق والسهر .

والبيت الثالث فى رواية الوسيلة الأدبية . ج ٢ ص ٤٩٧ :

الله فى عين جفاها الكـرى فيكم ، وقلب قد براه الغرام

وهو البيت السادس فى أصل الديوان المخطوط . والبيت الرابع فى رواية الوسيلة الأدبية .

قد رحم العاذل حالى ، فما يرضى لذلى فى الهوى بالملام

وهذا البيت لا وجود له فى أصل الديوان ؛ ولهذا كانت عدّة أبيات هذه القصيدة فى رواية الوسيلة الأدبية تسعة عشر بيتاً . وعدد أبياتها فى أصل الديوان ثمانية عشر بيتاً .

(٣) الويل : حلول الشر ، والهلاك . وكلمة عذاب . و« ويلاه » : أسلوب نُدْبة . وهى هنا : نداء المتوجّع منه . والأصل : « ياويل» ثم حذفتْ « يا » . وختم المندوب : أى المتوجّع منه بالألف وهاء السكت . والظبى : الغزال . وتشبّه به الحسناء من النساء فى الرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنى ، وجمال الجيد والعينين ، وجمعه ظباء . والحمى : ما يحمى ، ويصان ، ويحافظ عليه ، ويدافع عنه . يقال : حمى المكان (من باب رمى) : أى منعه ، ودفع عنه ، وجعله حمى ، لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . والمراد أن المتغزل به مصون محجوب ، فى مكان منيع محمىّ حصين ، لا يجترأ عليه ، ولا يسهل الوصول إليه . وهذا المعنى كثير شائع مألوف فى شعر الغزل القديم الذى أولع البارودى بمحاكاته وترديده . وجرّعه الدواء ونحوه : سقاه إياه شيئاً فشيئاً . والصدّ : الصدود ، والإعراض ، والانصراف . مصدر صدّعنه : أى مال عنه ، وأعرض ، وانصرف . وضده الوصال ، والإقبال ، والاحتفال . والحمام : قضاء الموت ، وقدَره .

=

يَغْضَبُ مِنْ قَوْلِيَ « آه » ، وَهَلْ قَوْلِيَ «آهٍ» — يَا بْنَ وُدِّي — حَرَامْ ؟[٤]

لَا كُتْبُهُ تَتْرَى ، وَلَا رُسْلُهُ تَأْتِي ، وَلَا الطَّيْفُ يُوافِي لِمَامْ[٥]

= تَوَجُّعَ من صدود ذلك الحبيب المحجّب الممنّع . وقال : إن إعراضه عنه شقّ عليه ، وأوجعه ، وآلمه ، وحزنه ، وأضناه . ثم بالغ ، فقال : إنه جرّعه مرارة الموت بسبب هذا الصدّ والهجران .

(٤) فاعل « يغضب » ضمير « ظبى الحمى » المكنىّ به عن الحبيب المتغزل به . و « آه »: اسم فعل : معناه أشكو ، وأتوجّع ، وأتأوّه . والود ، والوداد (بتثليث الواو فيهما) : المودة والمحبة . وابن ودّه: حبيبه الذى يتغزّل به ، ويشكو صدّه وهجره، ويتوجّع من إعراضه عنه . والاستفهام فى البيت : معناه النفى، أو الإنكار : فهو ينفى تحريم التأوّه والتوجّع . وينكر على حبيبه غضبه من التأوّه والتألم : أى يعيب عليه هذا الغضب ، وينْهاه عنه . أو يعجب منه . وعلى هذا يحتمل الاستفهام معنى التعجب ؛ فهويعجب من تحريم التأوه ، والغضب على المتأوّه .

يصدّ عنه حبيبه، ويجرّعه بالصدّ آلاماً جساماً ، ويضطرّه إلى التأوه ، والتوجّع . ثم يغضب من تأوّهه وتوجّعه ؛ كأنه يحرّم هذا عليه ، ويمنعه منه ؛ ولهذا عقّب على الغضب والتحريم باستفهام يفيد النفى ، أو الإنكار ، أو التعجب . والبيت فى جملته أسلوب سهل قريب بليغ من أساليب العتب الرقيق المؤثر اللطيف .

(٥) كتبه : أى كتب «ظبى الحمى» المكنىّ به عن الحبيب الذى يتغزل به، ويشكو صدّه وإعراضه وهجرانه . والكتب (بضمتين ، أو بضم فسكون) : الرسائل : جمع كتاب . وتترى: متواترة ، متتابعة . والرسل (بضمتين، أو بضم فسكون) : جمع رسول : وهو المرسَل (اسم مفعول من الإرسال) . وقد يأتى بمعنى الرسالة: واحدة الرسائل . ولعل هذا المعنى هو المقصود هنا : أى أن حبيبه المتغزل به قاطعه كل المقاطعة ولم يراسله مطلقاً ، لا بالمتواتر المتقارب الكثير من الرسائل؛ ولا باليسير : المتقطّع، المتباعد، القليل منها . والطيف : الخيال الطائف الذى يراه النائم فى نومه: أى طيف الحبيب . ويوافى: يأتى . ولمّ بفلان (من باب ردّ): أى أتاه، فنزل به و زاره، زيارة قصيرة . واسم المرة منه لمّة . وجمعها لمام (بوزن صعاب) . ومثله ألمّ به إلماماً . ويقال : هو يلقانا لماماً : أى يلقانا لقاءً يسيراً قليلاً . وهو يزورنا لماماً : أى يزورنا غبًّا : أى فى الأحايين : أى زيارات قليلة قصيرة، متقطّعة ، متباعدة ، غير متصلة . ويلاحظ أن « لماماً » هنا واجب النصب ؛ على أنه مفعول مطلق : أى يلمّ لماماً . أو على أنه حال : أى يوافينا ملمّاً بنا . ولكن الشاعر سكّنه بحكم القافية ، وجرياً على لغة « ربيعة » التى تجيز الوقوف على الاسم المنصوب المنوّن بالسكون ، كما لو كان مرفوعاً ، أو مجروراً ؛ فيقولون فى « زرتُ صديقاً » : « زرتُ صديق » . ومن شعر أبى الطيب المتنبى فى مثل هذا ، من قصيدة دالية يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع :

أبلج ، لو عاذت الحمام بــه ما خشيتْ رامياً ، ولا صائدْ

قاطعه حبيبه مقاطعة تامة ، وضنّ عليه برسائله ورُسله، ولم يزره حتى بخياله وطيفه، فشقّ هذا عليه وصَعُبَ لديه ، فشكا ، وتألّم ، وتوجّع ، وعاتب . وهذا البيت تفصيل ، وتمثيل ، وتكرار ، وتأكيد لمعنى البيت الثالث .

اللهَ فِى عَيْنٍ جَفَـاهَا الْكَرَى فِيكُمْ ، وَقَلْبٍ قَدْ بَرَاهُ الْغَرَامْ(٦)
طَالَ النَّوى مِنْ بَعْدِكُمْ : وانْقَضَتْ بَشَاشَةُ الْعَيْشِ . وَسَاءَ الْمُقَـامْ(٧)

---

(٦) لفظ الجلالة فى أول هذا البيت منصوب على تقدير : خافوا الله ، أو اتقوا الله . وجفاها : زايلها وفارقها . من قولهم : جفا صاحبه (من باب عدا) : أى أعرض عنه ، وقَطَعَه . وضدّه واصله وآنسه . والكرى : النوم : أو النعاس (وفعله من باب صَدِىَ) . وهو فاعل «جفا» . وفيكم : من أجلكم : أى بسبب الجفوة والإعراض والقطيعة ، وما أكابده وأضانيه من التعلّق بكم ، والتفكير فى أمركم ؛ فـ «فى» هنا : معناها التعليل ، كما فى قول الله تبارك وتعالى ، فى قصة يوسف عليه السلام : « فذ لكن الذى لُمْتُنَّنِى فيه » (الآية رقم ٣٢ من سورة يوسف) . و« قلب» معطوف على « عين » : أى واتقوا الله فى قلب . وبراه : هزله ، وأضعفه ، وأضناه . مستعار من بريتُ القلم ونحوه (من باب رمى) . والغَرام : الوَلوع : وهو أن يتعلّق الإنسان بالشىء تعلّقاً شديداً ؛ فلا يستطيع التخلّص منه . والغرام أيضاً : الحبّ المعذّب للقلب . والغرام : العذاب الدائم الملازم . وقد أسلفنا أن هذا البيت ترتيبه الثالث فى رواية الوسيلة الأدبية .

بَرَّحَ به الشوق والحنين إلى أحبائه، وأذاب الغرام فؤاده ، وجفا النعاس عينيه ، ولازمه الأرق والسهاد؛ فَجَأَرَ إلى الله بالشكوى؛ وطلب إليهم أن يرحموه ، ويرقّوا لحاله، ويتّقوا الله فيه . ويلاحظ أن الشاعر فى خمسة الأبيات السابقة استخدم ضمير المفرد المخاطب؛ ثم ضمير المفرد الغائب . وافتنّ فى الكلام بين الخبر ، والإنشاء، والنداء، والاستفهام، والنُّدْبة، والتوجّع، والإجمال، والتفصيل . وأجاد الشكوى والعتاب ، والاستعطاف والاسترحام ؛ فهزّ المشاعر ، وأثار العواطف . وبلغ بمثل هذا الشعر الرقيق السهل ، العَذْب البليغ غاية الإمتاع والتأثير . وهو فى هذا البيت والبيت الآتى ، أى فى البيتين السادس والسابع ينتقل إلى ضمير المخاطبين ، ويشكو طول النوى والأرق ، وتبريح الغرام ، وسوء المقام ، أى يكرّر بعض المعانى السابقة . ولعله يقصد بضمير المخاطبين فى هذين البيتين : من كتب إليهم فى مصر ، وتأخّرتْ أجوبتهم ، مع شدة حنينه إليهم وإلى الوطن العزيز .

(٧) النوى : الفرقة والبعد . وهى مؤنثة . وانقضى : ذهب ، وانصرم ، وزال ، وفنى . والعيش : المعيشة والحياة . وبشاشة العيش : طيبه ، ولذته ، وبهجته ، وجماله . مستعار من بشاشة الوجه : أى تهلّله ، وإشراقه ، وطلاقته ، واستبشاره . وساء : شاه ، ومَقُتَ ، وقَبُح . والمقام (بضم الميم) : الإقامة ، أو مكانها ، أو زمانها : من أقام بالمكان : أى لَبِث فيه ، ومكث ، واستقرّ ، واتخذه وطناً . أو هو المقام (بفتح الميم) : من قام يقوم قياماً : بمعنى ثَبَتَ ، ورَكَزَ ، واستقرّ ، واستمرّ ، ودام . وقام الماء : أى ثبت فى مكانه متحيّراً لا يجد ، منفذاً .

باعَدَتْ الفرْقة بينه وبين أحبائه وأصفيائه؛ فساء مقامه فى غربته، وذهب ما كان يجده فى حضرتهم من بشاشة العيش ، وطيبه ، ولذته ، وبهجته ، وجماله ، وبهائه ، ، وإشراقه . وشكا طول البين والنوى والبعد والفراق .

أَرْتَاحُ إِنْ مَرَّ نَسِيمُ الصَّبَـــا وَالْبُرْءُ لِي فِيهِ مَعًا ، وَالسَّقَامْ[٨]
يَا لَيْتَنِي فِي السِّلْكِ حَرْفٌ سَرَى أَوْ رِيشَةٌ بَيْنَ خَوَافِي الْحَمَـــامْ[٩]
حتَّى أُوَافِي مِصْـــرَ فِي لَحْظَـــةِ أَقْضِي بِهَا فِي الْحُبِّ حَقَّ الذِّمامْ[١٠]

---

(٨) النسيم : الريح الطيّبة ، اللطيفة ، الليّنة ، لا تحرّك شجراً ، ولا تُعَفّى أثراً . وقد نسمتْ الريح (من باب ضرب) نَسْماً ، ونَسيما ، ونسماناً : أى هبّتْ لطيفة لينة . والصبا (بفتح الصاد) : ريح مهبّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنثة) : وهى أحبّ الرياح إلى العرب ، وألطفها فى جزيرتهم ؛ ولهذا أولع شعراؤهم بها ، وأكثروا من ترديدها فى شعرهم . ونسيم الصبا : هبوبها بلطف ورقة ولين . أو هو من إضافة العامّ إلى الخاصّ . أو هو من إضافة الشىء إلى مرادفه ، أو ما يشبه مرادفه . وفيه : فى نسيم الصبا . والسقام : المرض .

يقول : إن نسيم الصبا الذى يمرّ به من جهة أحبائه وأصفيائه فى مصر يحمل إليه أسباب الشفاء والمرض جميعاً فى وقت واحد ؛ لأن هذا النسيم ينعشه ويريحه بما يحمله إليه من روائح الأحباب ، ورسائل الأصحاب ، ورقّة الوطن ونعيمه . وهو فى الوقت نفسه يسقمه ويضنيه بما يهيجه ، ويثيره ، ويجدّده ، ويؤجّجه فى قلبه من ذكريات الوجد ، وتباريح الشوق ، ولواعج الحب والغرام .

(٩) «يا» : حرف تنبيه . أو هى حرف نداء . والمنادى محذوف : أى يا من أتعلّق به ، وأشكو إليه صبابتى ووجدى . و«ليت» : حرف تمنّ يتعلّق بالمستحيل غالباً . وبالممكن قليلاً . والشاعر هنا يتمنى المستحيل . والسلك : الخيط . وجمعه سلوك ، وأسلاك ؛ ويراد به هنا : أسلاك البرق : «التلغراف» أو المواصلات السلكية التى تربط البلاد والناس بعضهم ببعض ، وتقرّب البعيد ، وتُحْضر الغائب . ويراد بالحرف : الواحد من حروف الهجاء المكونة لكلمات الرسائل البرقية ونحوها . وسرى : سار . من السرى (بوزن الهدى) : وهو السير ليلاً . والخوافى : ريشات من الجناح ، إذا ضم الطائر جناحيه خفيتْ . واحدتها خافية . والقوادم : الريشات الظاهرة فى مقدّم الجناح ، وهى كبار الريش . ويراد بالحمام : حمام الزاجل : وهو نوع من الحمام كانوا يدرّبون الواحدة منه على الطيران إلى مسافات بعيدة ، برسالة يعلّقونها فى عنقها ؛ فتنطلق بها فى الجوّ إلى حيث عوّدوها أن تطير . اسم فاعل من زجل الإنسان الحمام (من باب نصر) : أى أرسله إلى بعد ؛ فهو حمام الزاجل .

برّح الشوق بالشاعر ، واشتدتْ صبابته وحنينه إلى أحبائه بمصر ؛ فتمنى لو كان حرفاً من حروف الرسائل التى تسرى فى أسلاك البرق . أو ريشة من حمام الزاجل الذى كان يحمل الرسائل من قطر إلى قطر بين أقطار الأرض وبلاد العالم ؛ فهو يتوق إلى الإلمام بمصر ، بوسيلة ما ، حتى ولو كانت متعذّرة ، أو مستحيلة . وفى البيت الآتى بيان الغرض أو الغاية من هذا التمنى .

(١٠) أوافى مصر : أنزل بها . وافى القوم موافاة : وفد عليهم ، وأتاهم ، ونزل بهم . واللحظة : الوقت القصير . وهى فى الأصل : اسم مرة من لحظه (كنعه) : أى نظر إليه ، وراقبه . ويقال : =

مَوْلَايَ ! : قَدْ طَالَ مَرِيرُ النَّوى فَكُلُّ يَوْمٍ مَرَّ بِي أَلْفُ عَامْ[(١١)]

= جلست عنده لحظة : أى وقتاً قصيراً ، ومدّة يسيرة ، كقدر لحظة العين . وأقضى : أؤدّى . من قولهم : قضى المدين دينه : أىأدّاه ، ووفّاه . وفى الحب : فى مجال الحب ودائرته . أو بسبب الحب ، ومن أجله ؛ فـ « فى » هنا : ظرفية ، أو تعليلية . والذمام (بوزن الكتاب) : العهد ، والحق ، والحرمة . وجمعه أذمّة (بوزن أعنّة) . ولفلان ذمام : أى عهد يلزم الذمّ من يضيعه ، أو يفرّط فيه . وحقّ الذمام : من إضافة الكلمة إلى مرادفها . أو إلى ما يفسّرها : أى أقضى فى هذه البرهة القصيرة حقّ الحبّ ، أو ذمامه : أى ما يحقّ علىّ أن أفى به ، وأؤدّيه من حقوق الحب ، وما يلزمنى مراعاته من أذمّته وحرُماته .

تمنى أن يلمّ بمصر إلمامة قصيرة سريعة ، يقضى فيها ما يوجبه عليه الحب والوفاء من الحقوق والعهود والأذمّة والحرمات .

سلك الشاعر فى هذا البيت وتسعة الأبيات قبله المسلك المعتاد فى الغزل . وهو فى حقيقته الحنين والشوق ، والشكوى والعتاب ؛ والحب الصادق لأخدانه وخُلانه الذين تعلّق قلبه بهم ، وأخلص لهم الودّ ، وأصفاهم بالإقبال والاحتفال ، والإعزاز والإيثار . وفى مقدّمتهم الشيخ حسين المرصفى . ويلاحظ أنه فى خمسة الأبيات الأولى خاطب الواحد ، وتحدّث عنه . وفى خمسة الأبيات التالية خاطب جماعة الذكور العقلاء ، وتحدّث عنهم . وفى هذه الأبيات العشرة شكا الصدود والإعراض ، والاحتجاب والامتناع ، وطول النوى ، وبعد الشُقّة ، وانقطاع الرسل والرسائل ، وما عاناه لهذا السبب فى غربته من الأرق والوَصَب ، ومرارة العيش ، وتَجهّم الحياة . وقال : إن نسيم الصبا قد يمرّ به من قبَل وطنه ، فيحمل إليه الصحة والارتياح ، والمرض والشقاء فى وقت واحد . وتمنى لو أُتيحتْ له إلمامة قصيرة بمصر يقضى فيها حقوق الحب والغرام . فهذه عشرة أبيات من ثمانية عشر بيتاً (أى نصف القصيدة تقريباً) نظمها الشاعر فيما يشبه الغزل ، وضمّنها أرقّ العواطف ، وأنبل المشاعر ، وأصدق المودّة ، وأتمّ الوفاء لأهله وخلصائه وأصفيائه .

وهو فى ثمانية الأبيات الآتية ، أى فى النصف الآخر من هذه القصيدة ينادى الشيخ حسيناً المرصفى ويخاطبه ، ويشكو إليه مرارة النوى ، وقسوة الفرقة ، وطول الأيام والليالى . ويشير إشارة مجملة إلى ما كان يلابسه ، ويحيط به ، وينغمر فيه من كتائب الجند ، وساحات القتال ، وجماهير المتحاربين ، وخيل فرسانهم ، وصرامة المراقبة والحراسة ، وعظمة البحر الأسود من ورائهم ، وطبيعة الأرض التى كانوا يحاربون فيها ، ويذّم أهلها وسكّانها ، ويعلن الضجر والتبرّم ، ويكرر الشكوى ، وعتاب أحبائه الذين لم يراسلوه ، ولم يجيبوا عن رسائله .

(١١) « مولاى » : منادى مضاف إلى ياء المتكلم . وحرف النداء ، وهو « يا » محذوف . والمولى : الولىّ المحبّ . والسيد والصاحب . والمنعم . والقريب . والشاعر يتّجه بالنداء والشكوى إلى مولاه : أى وليّه وصديقه الشيخ « حسين المرصفى » . ومرير النوى : مرارتها : وهى ضدّ الحلاوة . وشىء مرّ الطعم . ومرير بيّن المرارة . والنوى : الفُرْقة ، والبعد . وهى مؤنثة . يقال : شَطَّتْ بهم النوى : أى أمعنوا فى البعد =

أَنْظُـرُ حَوْلِى ، لَا أَرَى صَـاحِبًا   إِلَّا جَمَـاهِيرَ ، وَخَيْلًا صِيَامْ(١٢)

= والشطر الثانى من هذا البيت ينمّ على تبرّم الشاعر ، وقلقه ، وضجره ، وشدة ما يضانيه من الهمّ ، وضيق الصدر ، والشوق والحنين ، والتعلّق . بالأهل والصحاب ، والوطن والديار ؛ فالأيام ، والليالى ، والأزمنة والأوقات إنما تطول فى حسّ الحزين ، والقلق ، والمهموم ، وأشباههم ؛ كما تقصر وتسرع فى حسّ المرح الفرح ، المسرور ، الناعم البال . ومن شعر الملك الضليل : امرئ القيس الكندىّ ، يشكو طول الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علىّ بأنواع الهمـوم ليبتلى
فقلت له لما تمطّى بصلبـه   وأردف أعجازاً ، وناء بكلكل
ألا ، أيها الليل الطويل ، ألا انجلِ   بصبح . وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل : كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدّت بيذبل

يشكو الشاعر إلى صديقه الشيخ « حسين المرصفى» مرارة البعد ، ووحشته ، وقسوته ، وطول أمد الفراق . وقد ضاعف الهمّ والبلوى انقطاع رسائل الأحباء ، وشدة الحنين إلى اللقاء ؛ فكان كل يوم يمرّ بالشاعر فى غربته كأنه ألف سنة . وفى هذا مغالاة ظاهرة ، ولكنها مستساغة فى مثل هذا المقام .

(١٢) جماهير : جمع جمهور (بوزن عصفور) . وهو من كل شىء : معظمه ، وكثرته ، وما اجتمع منه وتراكم . وجمهور الناس : معظمهم ، وجماعتهم ، وكثرتهم . ويراد بالجماهير هنا : كتائب الجند ، وفرق الجيش ، وجماعات المتحاربين . والخيل : جماعة الأفراس . لا واحد لها من لفظها ، بل الواحد فرس . وجمعها خيول وأخيال . وقد تطلق الخيل على الخيّالة والفرسان ، وهم أصحاب الخيل ، وركبانها . أو الماهرون فى ركوبها ، والمحاربون على ظهورها . ومن كلامهم : « كم عنده من خيّالة ورَجّالة » و « جاءنا بخيله ورَجْله » : أى بفرسانه ومشاته . وصيام : جمع على غير قياس لصائم . والصوم (فى الأصل) : الإمساك عن الطعام ، أو الكلام ، أو المشى . وفرس صائم : أى ممسك عن السير : أى قائم ، ساكن ، واقف فى مصّامه : أى فى موقفه . أو ممسك عن العلف : وهو طعام الحيوان . أو قائم على غير اعتلاف . وصوم الفرسان : صمتهم ، وسكوتهم ، وإمساكهم عن الكلام . وحقّ « صيام » أن يكون منصوباً ؛ لأنه صفة للمنصوب قبله ، وهو « خيلاً » . وقد سكّنه الشاعر بحكم القافية ، ومحاكاة للهجة « ربيعة » التى تجيز الوقوف على الاسم المنصوب المنون بالسكون ، بعد حذف نون التنوين المنقلبة ألفاً ، فيبدو فى صورة المرفوع ، أو المجرور إذا وقفتَ عليه . وقد شرحنا هذا شرحاً وافياً فى البيت الخامس من أبيات هذه القصيدة : « ... ولا الطيف يوافى لمام » . ومثّلنا له بشىء من شعر أبى الطيب المتنبى .

التفت الشاعر حوله ، واتجه يمنة ويسرة ، يتفقّد معارفه وأصحابه ، ومن يؤنسه ، ويخفّف وحشته وحنينه ، ومرارة النوى ؛ فساءه أنه لم يجد غير ما يحيط به ، ويلابسه ويغمره فى ميدان الحرب ، وساحة القتال من كتائب الجند ، وفرق الجيش وجماعات المتحاربين ، وخيولهم القائمة فى سكون ، وعلى غير اعتلاف .

وَدَيْدَبَانًا صَارِخًا فِى الـدُّجَى ... اِرْجِعْ وَرَاءَ ؛ إِنَّهُ لَا أَمَـامْ (١٣)

يُقْتَبَلُ الصُّبْحُ ، وَيَمْضِى الـدُّجَى ... وَيَنْقَضِى النُّورُ ، وَيَأْتِى الظَّلَامْ (١٤)

وَلَا كِتَابٌ مِنْ حَبِيبٍ أَتَى ... وَلَا أَخُو صِدْقٍ يَرُدُّ السَّـلَامْ (١٥)

---

(١٣) الديدبان : الحارس ، والرقيب ، والطليعة . وهو معطوف على « جماهير » فى البيت السابق . ودجى الليل : حنادسه ، وظلماته . واحدتها دجية (بوزن مدية) . ومثلها الدياجى ، كأنه جمع ديجاة . وارجع وراء : أى صارخاً بقوله : « ارجع وراء » . و« وراء » هنا : ظرف مكان : بمعنى «خلف» . وقد قطع عن الإضافة لفظاً وتقديراً ، فنوّن منصوباً . وحكمه فى هذا حكم « قبل » و «بعد» . وإنه لا « أمام » : أى إنه لا يسمح لك أن تتجه فى سيرك إلى الأمام ، وأمام : بمعنى « قدّام » . وهو هنا : ضدّ « وراء » .

يصف الحراس والرقباء فى مشاهد الحرب ، ومواطن القتال ، وما يمتازون به من اليقظة الشديدة ، وما يفاجئون به المارة من الأوامر والنواهى ، والتنبيهات الصارخة الصارمة ، وبخاصة فى الليالى الداجية المظلمة .

(١٤) يُقْتَبَل : يُسْتَقْبَل . اقتبلتُ الأمر : أى استقبلته . أو استأنفته . أو ابتدأته .. ويراد بالصبح والنور : النهار . وبالدجى والظلام : الليل : أى يأتى النهار ، ويمضى الليل ، ويأتى الليل ، ويمضى النهار : أى تتوالى الأيام والليالى ، وتتعاقب الأزمنة والشهور مع انقطاع الخطابات والرسائل . فالبيت متعلق بالأبيات الآتية .

(١٥) الكتاب : الرسالة ، والخطاب . وجمعه كتب . وأخو الصدق : الصديق الوفىّ ، والأخ الصادق الإخاء . ويردّ السلام : يردّ التحية : أى يحييه تحيّة مماثلة لتحيته . والمراد بردّ السلام : إجابة الشاعر عن كتبه ورسائله التى أرسلها إلى أصدقائه فى مصر ، ولم تصل إليه ردودها ، وظن أنهم قصّروا فى الردّ والإجابة . وفى الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ نشر مؤلفها الشيخ « حسين المرصفى » هذه القصيدة ، وقدّمها بقوله : « وكان — حرسه الله — كَتَبَ لأبناء ودّه كتباً ، ولم تصل إليهم ، وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة بالإجابة . وقد وصل إلىّ يوم قدومه إلى مصر أحد كتابين كتبهما لى بعد مدة طويلة من كتابته .

ردّد الشاعر فى هذا البيت والبيت الذى قبله شكواه وتألمه من انقطاع الصلات بينه وبين أحبائه وأصدقائه بمصر ؛ فإنهم لم يبدءوا بالكتابة إليه ، ولم يجيبوا عن كتبه ورسائله . وهو فى انتظار هذه الكتابة أو الإجابة يراقب تعاقب الليل والنهار ، ويعدّ الأيام والساعات فى قلق وضجر من هذه القطيعة التى ضاعفتْ ما يقاسيه من بُعْد الشُّقّة ، وطول النوى ، ومرارة الغربة ، وقسوة الوحشة ، وشدة الشوق إلى الوطن والأهل ، والديار والأخلاء .

فِى هَضْبَةٍ مِنْ أَرْضِ «دِبْرِيجَةٍ» لَيْسَ بِهَا غَيْرُ بُغَاثٍ وَهَامْ[١٦]

وَرَاءَنَا الْبَحْرُ ، وَتِلْقَاءَنَا سَوَادُ جَيْشٍ مُكْفَهِرٍّ لُهَامْ[١٧]

فَتِلْكَ حَالِى ــ لَا رَمَتْكَ النَّوَى ــ فَكَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدَنَا يَا هُمَامْ ؟[١٨]

---

(١٦) «فى هضبة» : متعلق بـ«يقتبل» فى البيت الرابع عشر . والهضبة : الرابية : وهى ما ارتفع من الأرض . والجبل المنبسط الممتدّ على وجه الأرض . وجمعها هضاب . و«دبريجة» أو«دبروجة» : إقليم زراعىّ فى جملته . وفيه غابات . مساحته نحو تسعة آلاف ميل مربّع . يطلّ على البحر الأسود جنوبىّ دلتا نهر الطونة (الدانوب) . وتقتسمه . بينهما رومانيا وبلغاريا ، ويقع فى الجنوب الشرقىّ من الأولى ، والشمال الشرقىّ من الثانية . وقد تداولتْه فى تاريخه القديم عدّة دول ، وسيطر عليه الأتراك العثمانيون من القرن الخامس عشر إلى سنة ١٨٧٨ م . والبغاث (بتثليث الباء) : شرار الطير ، وما لا يصيد منها ، ولا يرغب فى صيده ؛ لأنه لا يؤكل . أو هو طائر أبغث اللون (أى أبيض إلى الخضرة ، أو أغبر) أصغر من الرخمة ، بطىء الطيران . والهام : جمع هامة : وهى نوع من البوم الصغير ، تألف القبور والأماكن الخربة . ويراد بالبغاث والهام هنا : طَغام الناس ، وأرذالهم ، وأوشا بهم ، وأوغادهم ، وأخلاطهم وأوباشهم ، وسفلتهم .

يقول : إن الأيام والليالى تتوالى عليه وهو فى أرض ليس بها إلا طَغام الناس وأوشابهم؛ وقد شبّههم مرة بالبغاث ، وهى من شرار الطير وأحقرها ، ومرة أخرى بالبوم ، وهى من أشأمها وأقبحها . والبيت ينمّ على الضجر والتبرّم ؛ فمعناه متصل بمعانى الأبيات السابقة ، وبالغرض الأصلىّ من القصيدة .

(١٧) وراءنا البحر : لعله يريد البحر الأسود ؛ فإن «دبريجة» تطل عليه . ورواية الوسيلة الأدبية «من خلفنا البحر» . وتلقاءنا : حذاءنا . أو أمامنا ، أو تجاهنا . يقال : قعدوا تلقاءه ، أو تجاهه : أى مستقبلين له . وهو فى الأصل مصدر لقيه (كرضيه) لقاء ، وتلْقاء (بوزن تبيان) . ثم توسّعوا فيه ، فاستعملوه ظرف مكان : بمعنى جهة اللقاء ، ومكان المقابلة . وسواد الناس : معظمهم ، وكثرتهم . وسواد العسكر : كثرته ، وما يشتمل عليه من المضارب والآلات ، والدوابّ ، وغيرها من أدوات الحرب والقتال . ومكفهرّ : كثير ، كثيف ، متراكب . أو عابس ، عنيف ، مخيف . وجيش لهام (بوزن غراب) : أى كثير عظيم ، كأنه يلتّهم كل شىء : أى يزدرده ويبتلعه .

يصف ما كان يحيط بهم ، ويحاصرهم فى تلك الحرب الضارية ؛ فالبحر من خلفهم . وأمامهم جيش عظيم عرمرم جرّار ، كثير العدد والعتاد .

(١٨) «لارمتْك النوى» : جملة دعائية ؛ فهو يدعو للمخاطب ألا تشطّ به النوى : أى لا تنزح به الدار ، ولا يمعن فى البعد ، ولا يفترق شمله . وفى هذه الجملة — مع الدعاء — إشارة إلى ما يكابده ويضانيه فى ميدان الحرب من الهمّ والضجر ، والشوق والحنين؛ بعد أن شطّتْ به النوى ، وفرّقتْ بينه =

= وبين أهله وصحبه ، وانقطعت الرسائل والصلات . والهمام : السيد الشجاع السخىّ من الرجال . والرجل العظيم الهمة : وهى العزم القوىّ ، والإرادة الصارمة ، والتعلّق بمعالى الأمور .

أجمل الشاعر فى هذا البيت الختامى معنى هذه القصيدة ؛ فأشار إلى حاله التى فصّلها فى الأبيات السابقة . ونادى صديقه الشيخ حسيناً المرصفىّ نداء مديح وتكريم ، وإعزاز وإطراء بالسيادة والشجاعة ، والسخاء وبُعْد الهمة . ودعا له بدوام ما ينعم به من اجتماع الشمل ، ورخاء البال . وأشار بهذا الدعاء إلى ما يعانيه فى غربته من الهمّ والضجر ، والشوق والحنين إلى أهله وصحبه ووطنه . وسأل عنهم بعد أن فرّقتْ النوى بينه وبينهم ، ورمتْ به فى ذلك المرمى السحيق ؛ فَشَطّتْ الدار ، وعزّ المزار ، وانقطعتْ الرسائل والاتصالات .

تعليق *

هذه القصيدة من أرقّ الشعر وأعذبه ، وأجوده وأصدقه . شأنها شأن كل ما نظمه البارودى فى محنته أو غربته ، أو منفاه . أو فيما خاضه من المعامع والحروب . أو فيما أجّج عاطفته ، وأثار شاعريته من أحداث الدهر ، وشدائد الليالى والأيام ؛ فمثل هذا الشعر يخرج من قلبه ليحلّ بقلوب قرائه ومستمعيه ، ويؤثّر فيها أبلغ تأثير ، ويخلد خلود الزمان ، ولا ينال القدَم من جدّته وقوّته ، ورقته وعذوبته .

وعدّة أبياتها فى أصل الديوان المخطوط ثمانية عشر بيتاً . وفى رواية الوسيلة الأدبية تسعة عشر بيتاً ، افتتحها الشاعر بما يشبه الغزل ، وهو فى حقيقته الحبّ الصادق ، والمودّة الخالصة ، والوفاء ، والتكريم ، والشوق والحنين إلى أخدانه وخلاّنه الذين أخلص لهم الودّ ، وأصفاهم بالإقبال والإعزاز .

وفى خمسة الأبيات الأولى منها خاطب الواحد ، وتحدّث عنه ؛ فحبيبه ناعس الطرف ، مغرق فى النوم ، لا يكاد يأبه له ، أو يهتمّ به . وقد أقلقه هذا الإعراض وأرّقه ، وأضجره وأسهره ، وأطال ليله ، وسوّد نهاره ، وأقضّ عليه مضجعه ، وحرّمه لذة النوم ، وأمّنة النعاس ، وجرّعه مرارة الأوصاب والآلام حتى أشفى على الموت .

وحبيبه إلى هذا محجّب ممنّع ، وقد أمضّه بتمنّعه واحتجابه ، وضاعف ما يقاسيه من الهجر والصدّ ، واضطرّه إلى الجهر بالتوجّع والتأوّه ، فلم يَرْثِ لتوجعه وتألمه ، ولم يرحم صبابته وغرامه ، بل غضب وثار ، وغالى فى مقاطعته ، والإعراض عنه ، وضنّ عليه برسائله ورسله . واشتدّتْ ضنانته حتى منع طيفه أن يلمّ به إلمامة قصيرة فى المنام ؛ فبلغ منه الجهد والعَنَت ، واشتدّ به الكرب والبلاء :

١ — يا ناعس الطرف ، إلى كم تنام ؟ أسهرتنى فيك ، ونام الأنام

٢ — أوشك هذا الليل أن ينقضى والعين لا تعرف طيب المنام

٣ — ويلاه من ظبى الحمى ؛ إنــه جرّعنى بالصدّ مــرّ الحمام =

* فى صفحة ٣٣١ من هذا الجزء بيان واف لما تتسع له التعليقات . وفى التعليق هنا تحليل ، وتلخيص ، ونقد وجيز .

= ٤ – يغضب من قولى «آه» ، وهل قولى «آه» يا بن ودّى حرام ؟
٥ – لا كُتْبه تترى ، ولا رُسْله تأتى ، ولا الطيف يوافى لمام

وفى البيت السادس وأربعة الأبيات بعده انتقل إلى خطاب جماعة الذكور العقلاء، والتحدّث عنهم وكأن هذا تمهيد ، بل انتقال إلى الغرض الأساسى من هذه القصيدة ، وهو الوجد والحنين ، وشكوى الإعراض والقطيعة ، وعتاب أصفيائه وخلصائه الذين توهّم أنهم قاطعوه ، فلم يراسلوه فى غربته ، ولم يردّوا على كتبه ورسائله . بل إن هذا الغرض يكاد يُلْمس فى كل بيت من أبيات هذه القصيدة ، حتى فى خمسة الأبيات الأولى التى جاءت فيها يشبه الغزل .

أمضّته القطيعة فى الأبيات ٦ – ١٠ وأضناه الهمّ ؛ فجفا النوم عينيه ، وبرى الغرام فؤاده ؛ فجأر إلى الله بالشكوى ، ونبّه على جلال الله وجبروته ، ودعا إلى مخافة الله وتقواه .

وفى هذه الأبيات أن الفُرْقة باعدتْ بينه وبين أخلاّئه؛ فشطّتْ الدارّ، وعز المزار، وطالت النوى بعدهم ؛ فساء مقامه فى مغتربه ، وذهب ما كان ينعم به فى قربهم من بشاشة العيش ، ورخاء البال . وقد يمرّ بهم من قبَلهم نسيم الصّبا ؛ فيحمل إليه الارتياح والشفاء ، والمرض والشقاء فى وقت واحد . ولما برّح به الوجد والبعد ، وأضناه الحنين والشوق تمنّى لو كان حرفاً من حروف الرسائل البرقية ، أو ريشة فى حمامة من حمام الزاجل ، ليلمّ بمصر إلمامة قصيرة ، يؤدّى فيها حقوق الحبّ ، ويفى بعهده ، ويرعى أذمّته وحرماته :

٦ – الله فى عين جفاها الكرى فيكم ، وقلب قد براه الغرام
٧ – طال النوى من بعدكم ، وانقضت بشاشة العيش ، وساء المقام
٨ – أرتاح إن مرّ نسيم الصّبا والبرء لى فيه معاً والسقام
٩ – ياليتنى فى السلك حرف سرى أو ريشة بين خوا فى الحمام
١٠ – حتى أوافى مصر فى لحظة أقضى بها فى الحبّ حقّ الذمام

وفى البيت الحادى عشر وسبعة الأبيات بعده خصّ بخطابه صديقه الشيخ حسيناً المرصفى ؛ فشكا إليه مرارة النوى ، وطول الأيام والليالى . وأشار إشارة مجملة وجيزة إلى ما كان ينغمر فيه من كتائب الجند، وميدان الحرب، ومعدّات القتال . ثم ردّد شكواه من انقطاع الصلات بينه وبين أحبائه ، وقال : إنه فى انتظار كتبهم ، وارتقاب الردّ على رسائله إليهم – يراقب تعاقب الليل والنهار ، ويعدّ الأيام والساعات فى قلق وضجر . ثم كرّر إشارته المجملة إلى أرض القتال ، وما يحيط به فيها . ثم ختم قصيدته ببيت أجمل فيه ما فصّله فى الأبيات السابقة ، مشيراً إلى حاله النكدة ، سائلاً عن أحوال خلاّنه . ودعا ، ومدح ، وضجر ، وألمّ ، وحنّ واشتاق . ولوتدبرنا كل بيت من أبيات هذه القصيدة ، لرأيناه منطوياً على الوجد والحبّ ، والألم والضجر ، والشوق والحنين : =

= ١١ – مولاى ، ! قد طال مرير النوى فكل يوم مرّ بى ألف عام

١٢ – أنظر حولى ، لا أرى صاحباً إلا جماهير ؛ وخيلاً صيام

١٣ – وديدبانا صارخاً فى الدجى ارجع وراء ، إنه لا أمام

١٤ – يقتبل الصبح ، ويمضى الدجى وينقضى النور ، ويأتى الظلام

١٥ – ولا كتاب من حبيب أتى ولا أخو صدق يردّ السلام

١٦ – فى هضبة من أرض « دبريجة » ليس بها غير بغاث وهام

١٧ – وراءنا البحر ، وتلقاءنا سواد جيش مكفهرّ لهام

١٨ – فتلك حالى – لا رمتك النوى – فكيف أنتم بعدنا يا همام ؟

ويلاحظ أن الأسلوب منوّع ، متنقّل بين النداء ، والاستفهام ، والتمنى ، والتعجّب ، والخبر والإنشاء . وهذه إحدى مزاياه ، وسبب من أسباب روعته وقوته ، وشدة تأثيره فى النفس .

ومن المعانى التى كررها الشاعر فى هذه القصيدة : أرقه وسهاده ؛ فقد جاء صريحاً فى الأبيات : الأول ، والثانى ، والسادس . وكذلك كرّر شكوى الصدّ ، وانقطاع الكتب تكراراً صريحاً فى الأبيات : الثالث ، والخامس ، والخامس عشر . أما المفردات أو الألفاظ المكررة فقليلة جداً ، ومنها كلمتا « النوى » و « الدجى » .

والقصيدة كلّها تدور حول غرض واحد ، أو اثنين ، هما الشكوى ، والعتاب . والموازنة ، أو المفاضلة بينها وبين ما قاله الشاعر فى مثل هذا المقام تجعلها مرجوحة ، مفضولة ، قليلة ، ضيقة ، متواضعة ، على رغم ما أشرنا إليه من مزاياها ؛ فقد خاض الشاعر حربين فى حملتين مصريتين ، لنصرة الدولة العثمانية : الأولى حرب جزيرة « أقريطش» . (ومن أسمائها قديماً وحديثاً « جريد » و« كريد » و« كريت » سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) حينما ثار أهلها ، وخرجوا على السلطان العثمانى . والثانية الحرب التى شنتها « روسيا » ودويلات البلقان على الدولة العثمانية سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م) . ثم شارك فى الثورة العرابية وكان من قادتها ، واحتمل معهم نتيجة الهزيمة العسكرية بعد أن غلبهم جيش الاحتلال الإنجليزى ، ودخل القاهرة فى ١٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ . هذه هى الحروب الثلاث التى خاض البارودى غمارها . وله فى الحرب الكريتية ، والحرب الروسية التركية عدة قصائد ، كل واحدة منها أطول من هذه القصيدة الميمية ، وأجود ، وأعلى مكانة فى مجال الأدب والتاريخ ؛ ففيها – مع تعدّد الأغراض ، وكثرتها وتنوعها – إسهاب فى وصف الحرب ، وعناية بتصويرها ، وتصوير شتى العواطف والمشاعر التى تختلج فى صدر محارب شجاع ، متفتّح الذهن والحواسّ ، بعيد عن أهله وصحبه ووطنه . وفيها رقّة وعذوبة ، وقوّة وروعة ، وجزالة وضخامة ، وشدّة ، ولين ؛ فالأسلوب يجرى مع الغرض ويشاكله ، ويناسبه ، ويوائمه .

وفى الجزء الأول من شرحنا لديوان البارودى ، طبعة سنة ١٩٤٠ بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة أربع من هذه القصائد :
=

= الأولى حائية ، ص ١٠٦ – ١١٤ نظمها وهو فى الحرب الروسية التركية فى ثمانية وأربعين بيتاً ومطلعها :

هنيئاً لـ « ريا » ما تضمّ الجوانـــح وإن طوّحتْ بى فى هواها الطوائـــح

وختامها :

فإن عشت صافحت الثريا وإن أمت فإن كريماً من تضمّ الصفائح

وفيها : غزل . وحنين إلى الوطن . وتغنٍّ بروضة المقياس . ووصف للحرب فى ثمانية عشر بيتاً ، أى فى أكثر من ثلث القصيدة . ثم ختمها بطائفة من الحكم والأمثال . وفيها مع هذا فخر بنفسه ، واعتداد بمزاياه . وقلّما ينسى البارودى مثل هذا حتى فى أماديحه ؛ فهو يجرى على سنن أبى الطيب المتنبى وأمثاله من شعراء الفخر ، والاعتزاز بالنفس . واقرأ هذه القصيدة فى طبعة دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م أول قافية الحاء ص ١٥٦ – ١٦٤ الجزء الأول .

والثانية دالية – ص ١٥٦ – ١٦١ نظمها فى سبعة وعشرين بيتاً ، وهو يكافح المتمردين على السلطان العثمانى من أهالى جزيرة « أقريطش » « كريت » . ومطلعها :

سرى البرق مصرياً ، فأرّقنى وحـــدى وأذكرنى ما لست أنساه من عهـــد

وختامها :

فهذا الذى ألقاه منك على النـــوى فراخى وثاقى يابنة القوم أو شدى

وفيها حنين إلى مصر . وتغنٍّ بروضة المقياس وجداولها ، وتحسّر على ما طواه الدهر من عيشه الرغيد فى تلك الجزيرة الأريضة . وغزل ، وشوق . ويلاحظ أن هذه القصيدة خلتْ من الإشارة الصريحة إلى الحرب الكريتية ؛ كأن الحنين اشتدّ بالشاعر ، وشغله الغزل ، فأنساه ما كان يغمره من شدائد الوغى ، وعتاد الحرب ، وويلات القتال . وتراها فى طبعة دار المعارف بالقاهرة ج ١ ص ٢٠٤ – ٢٠٩ .

والثالثة دالية . ص ١٦١ – ١٧٢ نظمها فى ثلاثة وستين بيتاً ، وهو يحارب روسيا ، وحلفاءها من دويلات البلقان ، ويبعث بها إلى الشيخ حسين المرصفى . ومطلعها :

هو البين ، حتّى لا سلام ، ولا ردّ ولا نظرة يقضى بها حقه الوجد

وختامها :

فلازلت محسوداً على المجـــد والعـــلا فليس بمحسود فتى ولـــه نـــدّ

وفيها : شكوى البين . إشارة إلى قطار سكة الحديد . بيان أثر الفراق فى نفوس المتحابين . وقوفه بمنازل أحبائه . تصبّره على النوى وشدائدها. حكم وأمثال . تحديث بنعم الله عليه . تمدّح وابتهاء وفخر بكثير من محامده ومناقبه . عتاب . شوق وحنين ، وحبّ ووفاء . أربعة عشر بيتاً (أى ربع القصيدة تقريباً) فى وصف الحرب الروسية التركية ، والافتخار بما كان له فيها وفى نظائرها من شدة بأس ، وصبر على القتال ، وغيرهما من مزايا المحاربين الأشداء الشجعان . وفى القصيدة إلى هذا كله أبيات =

= تدل على دين، وخلق، ورجوع إلى الله ، وتعلق بالله . وفيها معان أخرى رائعة قيّمة، وأغراض أخرى عالية ذات بال . واقرأها فى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ج ١ سنة ١٣٩١هـ-١٩٧١م ص ٢٠٩-٢١٩

والرابعة دالية . ص ١٧٢ - ١٧٦ نظمها فى سبعة وعشرين بيتاً يوم عيد الفطر وهو فى الحرب الروسية التركية . ومطلعها :

أراك الحمى ، شوقى إليك شديد وصبرى ونومى فى هواك شريـد

ومنها :

ألا ، أيها اليوم الذى لم أكـن له ذكوراً ، سوى أن قيل لى : هو عيد

أتسألنا لبس الجديـد سفاهـة وأثوابنا ما قد علمت حديـد ؟

وختامها :

عسى الله يقضى قربة بعد غربـة فيفرح باللقيا أب ووليـد

وفيها : حنين إلى مصر . شكوى الوحدة والغربة . بيان لتفاوت حظوظ الناس فى الحياة . وصف للحرب الروسية التركية . هجاء لمن رآهم فى تلك الحرب من الأعداء . وفى القصيدة مع هذا إشارة إلى البلد التى كان يحارب فيها . وتجمّع الحشود أمامه من البلغار ، والروم وغيرهم من أعداء الدولة العثمانية ، والخارجين عليها . وتراها فى طبعة دار المعارف سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م . ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٤.

وفى الجزء الثانى من الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى - ص ٤٩٦-٥٠٠ طبعة سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بمطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز بالقاهرة - ثلاث من قصائد البارودى فى الحرب الكريتية والحرب الروسية التركية : إحداها هذه الميمية التى شرحناها فى الصفحات السابقة ، وختمنا شرحها بتحليل ، وتلخيص ، وتعليق ، ونقد وجيز . وقد روتها « الوسيلة الأدبية» فى تسعة عشر بيتاً ، أى بزيادة بيت واحد عن رواية أصل الديوان المنسوخ بتاريخ ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ م والأخرى الدالية التى أشرنا إليها فى الصفحة السابقة ، ونشرناها فى الجزء الأول من شرحنا لديوان البارودى طبعة سنة ١٩٤٠ فى ثلاثة وستين بيتاً : « هو البين ، حتى لا سلام ، ولا ردّ .. » ص ١٦١ - ١٧٢ . والثالثة نونية فى ستة وثلاثين بيتاً . نظمها وهو يحارب لإخماد ثورة أقريطش « كريت » . ومطلعها :

أخـذ الكرى بمعاقـد الأجفـان وهفا السرى بأعنة الفرسان

وختامها :

شرف خصصت به ، وأخطأ حاسد مسعاته ، فهذى به ، وقلانى

وسننشرها إن شاء الله تعالى محققة مضبوطة مشروحة فى الجزء الرابع(وهو الجزء الأخير) من شرحنا لديوان البارودى .

وفى تقديم الشيخ حسين المرصفى لهذه القصائد الثلاث : « أن هذا الأمير (يعنى البارودىّ) باشر الحرب =

= مرتين بصدق وشهامة وعلو همة، حتى إن الناس كانوا يتعجّبون – كما أخبرنى من حضره فى تلك المواطن – من خشونة بأسه على ترف نشأته ، ولطف حسه : المرة الأولى حرب سكان جزيرة أقريطش ، المعروفة الآن بجزيرة « جريد » حين خرجوا عن الطاعة (يريد طاعة السلطان العثمانى) سنة ثنتين وثمانين ومائتين وألف ، والثانية حرب الروس سنة أربع وتسعين ومائتين وألف » .

وقد رأينا أن نتمّ الفائدة بنشر الميمية كما روتها الوسيلة الأدبية ، بعد أن نشرناها كما جاءت فى أصل الديوان المخطوط ، ليطّلع القارئ على الفوارق اليسيرة بين الروايتين فى عدد الأبيات ، وترتيبها ، وبعض المفردات :

١ يا فاعس الطرف ، إلى كم تنام ؟ ... أسهرتنى فيك ، ونام الأنام
٢ أوشك هذا الليل أن ينقضى ... والعين لا تعرف طيب المنام
٣ الله فى عين جفاها الكرى ... فيكم ، وقلب قد براه الغرام
٤ قد رحم العاذل حالى ، فما ... يرضى لذلى فى الهوى بالملام
٥ ويلاه من ظبى الحمى ، إنه ... جرّعنى بالصدّ مرّ الحِمام
٦ يغضب من قولى « آه » ، وهل ... قولى « آه » يا بن ودى حرام ؟
٧ لا كتبه تترى ، ولا رسله ... تأتى ، ولا الطيف يوافى لمام
٨ طال النوى من بعدكم ، وانقضت ... بشاشة العيش وساء المقام
٩ أرتاح إن مرّ نسيم الصّبا ... والبرء لى فيه معاً والسّقام
١٠ ياليتنى فى السلك حرف سرى ... أو ريشة بين خوافى الحمام
١١ حتى أوافى مصر فى لحظة ... أقضى بها فى الله حق الذمام
١٢ مولاى ، قد طال مرير النوى ... فكل يوم مرّ بى ألف عام
١٣ أنظر حولى لا أرى صاحباً ... إلا جماهير وخيلاً صيام
١٤ وديدباناً صارخاً فى الدجى ... ارجع وراء ؛ إنه لا أمام
١٥ يقتبل الصبح ، ويمضى الدجى ... وينقضى النور ، ويأتى الظلام
١٦ ولا كتاب من حبيب أتى ... ولا أخو صدق يردّ السلام
١٧ فى هضبة من أرض « دبريجة » ... ليس بها غير بغاث وهام
١٨ من خلفنا البحر ، وتلقاءنا ... سواد جيش مكفهرّ لُهام
١٩ فتلك حالى ، لارمتْك النوى ... فكيف أنتم بعدنا ، يا همام ؟

وقد أسلفنا أن البيت الرابع فى رواية الوسيلة الأدبية لم يرد فى أصل الديوان . ومعناه : أن الحب أذله ، ونهكه ، وأشقاه ، وأضناه ، حتى رقّ له عذّاله ، وأشفق عليه لائموه ، ورثى لحاله العاتبون؛ فأبوا أن يضاعفوا أوصابه باللوم ، والعذل ، والعتاب .

وَقَالَ * :

حَيِّ مَغْنَى الْهَوَى بِوَادِي الشَّآمِ ... وَادْعُ بِاسْمِي تُجِبْكَ وُرْقُ الْحَمَامِ (١)

* نظم البارودى هذه القصيدة الرائعة (٤٥ بيتاً) فى مدح الأمير « شكيب أرسلان » (١٨٦٩ ١٩٤٦) الملقّب بأمير البيان ، وهو أديب ، ناقد ، كاتب ، شاعر ، لغوىّ ، خطيب ، مؤلّف ، صحفى ، مؤرّخ ، سياسى ، رحّالة . جاهد خير جهاد فى سبيل وحدة العرب ، وأخوّة الإسلام . وكان متديّناً ، محافظاً على الصلاة . عقيدتهعقيدة أهل السنّة،وشعائره شعائرهم ، وإن نسب إلى دروز لبنان،وهم فرقة من الشيعة . وهو ابن الأمير حمود بن حسن الأرسلانى . وينتهى نسبه إلى الملك المنذر بن ماء السماء اللخمى . وأمه شركسية . وزوجته شركسية . ومن تعريفه بنفسه ؛ أنه من سلالة « الأشراف » و « آل البيت » ؛ لأن أجداده قد تناسلوا من الفاطميات . ومن تعريف غيره بالدروز : أنهم جنس من الفرس . أو العرب الذين هم من أصل فارسى . وهم من دعاة الخليفة الفاطمى « الحاكم بأمر الله » . ولد بالشويفات من قرى لبنان . ودفن بها . وشكيب أرسلان : كلمتان فارسيتان : الأولى بمعنى الصابر . والأخرى بمعنى الأسد .

(١) مغنى الهوى : منزل الحبّ ، وموطن الغرام . والشأم ، والشام ، والشآم، : الإقليم الشمالى الغربى من شبه جزيرة العرب . ويراد بوادى الشآم : البلاد الشامية التى تشمل فلسطين، وسوريا، ولبنان . ومن لبنان الأمير « شكيب أرسلان » ممدوح البارودى فى هذه القصيدة التى افتتحها بالغزل ، وجعله مقدمة بين يدى المديح . وادع باسمى : اهتف باسمى ، وناد‌نى . وورق : جمع أورق ، وورقاء : صفة من الوُرْقة : وهى سواد فى غبرة . وحمامة ورقاء : رمادية اللون . أو فى لونها بياض إلى سواد . أو هى التى يضرب لونها إلى الخضرة .

خاطب الشاعر صاحباً كان معه . أو جرّد من نفسه شخصاً آخر — على عادة الشعراء — وطلب إليه أن يحمل تحيته وسلامه إلى منزل حبه وهيامه ، ومغنى هواه وغرامه بالديار الشامية ، أى بلبنان . وقال له : إذا هتفتَ باسمى هنالك أجابتْك ورق الحمام . وتعليل هذا صريح فى البيت الآتى ؛ فهن يعرفْنه بطول حنينه .

والشعراء يتجهون — من قديم الزمان — إلى الحمام ، يناجونه ، ويطربون لسجعه وهديره ، ويتخذونه مثلاً لحنين الواجد الصبّ ، والعاشق المستّهام ، والحزين الملتاع . وتزعم العرب أن الهديل : فرخ للحمام ، كان على عهد نوح عليه السلام . ثم مات عطشاً وضيعة . أو صاده جارح من الطير ؛ فما من حمامة إلا وهى تحنّ إليه ، وتبكى عليه . ومن شعر بعض قدامى الشعراء :

أقول — وقد ناحتْ بقربى حمامة ... أيا جارتا ، لو تعلمين بحالى
أيا جارتا ، ما أنصف الدهر بيننا ... تعالى أقاسمك الهموم ، تعالى

هُنَّ يَعْرِفْنَنِى بِطُولِ حَنِينِى بَيْنَ تِلْكَ السُّهُولِ وَالْآكَامِ (٢)

فَلَقَدْ طَالَمَا هَتَفْنَ بِشَدْوِى وَتَنَاقَلْنَ مَا حَلَا مِنْ هُيَامِى (٣)

وَلَكَمْ سِرْتُ كَالنَّسِيمِ عَلِيلاً أَتَقَرَّى مَلَاعِبَ الْآرَامِ (٤)

(٢) هن : أى وُرْق الحمام . وحنّ حنيناً : صوّت طرباً ، أو توجّعاً . وحنّ إليه حنيناً : اشتاق . والحنين : صوت يردّده الواله الحزين . أو الصبّ المستهام ، والعاشق المشتاق . والسهول : الأراضى المنبسطة : جمع سهل . والآكام : التلال ، والأراضى المرتفعة ، وهى خلاف السهول : جمع أكم (بوزن شجر) . وواحدة الأكم أكمة : (بوزن شجرة) . ويراد بالسهول والآكام : ما انبسط ، وما ارتفع من أراضى الشام .

فى البيت السابق حمّل صاحبه تحيته وسلامه إلى مغنى هواه وهيامه ، ومنزل حبه وغرامه ببلاد الشام ، وقال : إن حمائم تلك البلاد تجيبه إذا هتف باسمه هنالك وناداه . وفى هذا البيت بيّن سبب هذه الإجابة ؛ فهن يعرفن الشاعر بكثرة ما سمعْنه من تطريبه وحنينه فى طول تلك البلاد وعرضها ، وفى كل بقعة من بقاعها .

(٣) هتفت الحمامة : صاتت . أو مدّتْ صوتها . أو سجعتْ ، ورجّعتْ . وشدا الشعر يشدوه شدواً (من باب عدا) . وشدا به : تغنّى به ، وترنّم ، وطرّب . والشادى : المغنّى . وهتفن بشدوى : هتفتْ ورق الحمام بمثل شدوى : أى تشبّهتْ بى ، وتغنّتْ بمثل غنائى . أو استحسنتْ شعرى ، وتأثّرتْ بنسيبى وغَزَلى ، وطربتْ له . من قولهم : هتف فلان بفلان : إذا أشاد به ، ومدحه ، وأطراه . والهيام (فى الأصل) : شدة العطش . ومن المجاز : هو هائم بفلانة : إذا اشتد عشقه لها ، وشغفتْه حباً . وبه هيام : أى ما يشبه الجنون من العشق . ويراد بهيامه : شدوه : أى ما تغنّى به من شعر الغزل والتشبيب والنسيب بأحبائه فى ديار الشام ؛ إذ الشدو أثر من آثار الهيام .

تخيل أن سجع الحمام بوادى الشآم ترديد لشدوه ، وتناقل لحلو هيامه . وهذا التخيّل تأكيد وتفصيل لمعنى البيت السابق ، ومعنى الشطر الثانى من البيت الأول ؛ فقد اشتد تعلّقه بمن يهواه فى ذلك الوادى ، وطال حنينه وغناؤه ، وبرّح به الوجد والشوق ، حتى عرفتْه الطير ، ورقّتْ له ، وتأثّرتْ به ، وشاركتْه فيه ، فطرّبتْ تطريبه ، وتغنّتْ بمثل غنائه .

(٤) «ولكم» : اللام : لام الابتداء . وفائدتها توكيد مضمون الجملة التى بعدها . و« كم » اسم ثنائى ، مبنى على السكون ، يعبّر به عن عدد مبهم القدر والجنس ؛ ولهذا يحتاج إلى مميز . وتمييزها هنا محذوف . والتقدير : ولكم مرة ، أو مرات سرت .. وهى هنا خبرية بمعنى كثير . والنسيم : الريح اللطيفة اللينة ، لا تحرك شجراً ، ولا تعفّى أثراً . وعليلاً : حال من التاء فى «سرت» : أى حال من فاعل « سار » : صفة من العلة : وهى المرض الشاغل . وهو هنا مرض الحب والغرام . أو حال من النسيم : أى ولكم سرت كالنسيم العليل ؛ فهى صفة مؤكدة لمعنى النسيم : وهو اللين ، وضعف الحركة . وأتقرى : أقصد ، وأتتبع . من قولهم : تقرى البلاد : إذا طاف بها ، وتتبعها أرضاً أرضاً ، وسار فيها =

فِي شِعَارٍ مِنَ الضَّنَى ، نَسَجتْهُ ... بِخُيُوطِ الدُّمُوعِ أَيْدِي الْغَرامِ (٥)

كُلَّما شِمْتُ بارِقًا خِلْتُ ثَغْرًا ... بَاسِمًا مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْخِيامِ (٦)

= ينظر أحوالها وديارها وأناسها . وجملة « أتقرى » : حال من « التاء » فى « سرت » : أى ولكم سرت كالنسيم عليلاً متقرياً ملاعب الآرام : جمع رئم (بكسر فسكون) : وهو الظبى الخالص البياض . ويجمع أيضاً على أرآم . وتشبه حسان النساء بالآرام : أى الظباء : أى الغزلان فى الرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنى ، وجمال العيون والأعناق .

أشار بالملاعب إلى لهو المتغزل بهن ولعبهن . وأشار بكثرة سيره ، وتقريه إلى هيامه بهن . وأشار بالنسيم العليل إلى ما يميز سيره وتقرّيه من اللطف واللين ، والخفة ، والرقة ، والاستخفاء من عيون العاذلين . أو إلى ما كان يكابده ويضانيه فى أثناء سيره وتقرّيه من علل الحب ، وأوصاب الهوى ، وتباريح الغرام . ولعل البيت الآتى يرجّح هذا المعنى ويفصّله .

(٥) الشعار (بكسر الشين وفتحها) : ما تحت الدثار من اللباس : وهو الثوب الذى يلى شعر الجسد : أى يلاصقه ويمسّه . و« من » : بيانية . والضنى : مصدر ضنى (بوزن رضى) : أى اشتد مرضه ، حتى نحل جسمه ، وتمكّن منه الضعف والهزال . أو هو المرض المخامر الذى كلما ظن برؤه نكس . ويكثر استعمال الضنى فى مثل هذا المقام : أى فيما يقاسيه العاشق الصبّ المستهام من أوصاب الوجد ، ولواعج الحب ، وحرق الصبابة والغرام . وخيوط الدموع : الدموع المنسجمة الغزيرة المتتابعة المنصبة التى تتصل قطراتها بعضها ببعض ؛ فتبدو كالخيوط ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . والغرام : الولوع بالشئ ، والتعلق الشديد الذى لا يستطاع التخلص منه . والغرام : العذاب الدائم . والحب المعذب للقلب . و« فى شعار » متعلق بـ « سرت » أو بـ « أتقرّى » فى البيت السابق .

يقول : إن أيدى الحب والغرام نسجت له من خيوط دموعه شعاراً هو الضنى ، مشيراً بهذا — فى شىء من التكلّف — إلى تبريح الوجد به ، وكثرة بكائه ، وشدة ضعفه وهزاله .

(٦) شام البرق والسحاب (من باب باع) : نظر إليه ليتعرّف أين يتجه ، وأين يمطر . والبارق : سحاب ذو برق . ويراد به هنا البرق : وهو ضوء يلمع فى السماء على إثر انفجار كهربى فى السحاب ، وجمعه بروق . أو المعنى : كلما شمت برقاً بارقاً : أى متلألئاً لامعاً . وخلت : ظننت . والثغر : مقدم الفم . وما يبدو من الأسنان عند الابتسام . وجمعه ثغور . وباسماً : اسم فاعل من بسم (من باب ضرب) : أى انفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكاً بدون صوت . وهو أخف الضحك ، وأقله ، وأحسنه . والخلال : جمع خلل (بوزن جبل) : وهو الفرجة بين الشيئين . والخيام : جمع خيمة (بوزن ضيعة) : وهى المنزل . والبيت يتخذ من الصوف أو القطن ، ويقام على أعواد ، ويشدّ بأطناب . وكل بيت يبنى من أعواد الشجر ، ويلقى عليه نبت يستظل به فى الحر . أو كل بيت لم يبن من حجارة ، ولا مما يشبهها ، أو يقوم مقامها . =

وَالْهَوى يَجْعَلُ الْخِلَاجَ يَقِينًا وَيَغُرُّ الْحَلِيمَ بِالْأَوْهَامِ (٧)

خَطَرَاتٌ لَهَا بِمِرْآةِ قَلْبِي صُوَرٌ لَا تَزُولُ كَالْأَحْلَامِ (٨)

= يشبّه البروق تلمع من خلال السحب بثغور الغيد الحسان تبتسم من خلال الخيام . وفى البيت معنى أن المتغزل بهن محجّبات ، وأنهن يحيين فى خدورهن حياة المرح والهناءة ، وأن وجوههن تشرق بابتسامات حلوة تضاعف حسنهن ، وتستميل القلوب إليهن .

(٧) الهوى : : الحب ، والعشق ، والغرام . ويراد بالخلاج : الشك ، أو الظن ، أو الوهم : مصدر خالج قلبى أمر : أى خامره ، وخالطه ، ونازعنى فيه فكر . واليقين : العلم الذى لاشك فيه . وهو خلاف الخلاج . وغره (من باب رد) : خدعه ، وأطمعه بالباطل . والحليم : صفة من الحلم (بكسر فسكون) : وهو العقل ، والرزانة ، والثبات ، والأناة ، والصبر . وضده «الجهل» : وهو الخفة ، والنزق ، والطيش ، والسفه . والأوهام : الظنون ، والأخيلة ، والخواطر التى تقع فى الذهن ، ولو لم تكن لها حقائق . جمع وهم (بفتح فسكون) .

والمعنى : أن الحب يستخفّ المحب ، ويستهويه ولو كان رزيناً ثابتاً ، راجح العقل ، قوىّ الإدراك ، سديد التفكير . إنه يخدعه بالأوهام الكاذبة ، والأمانى الباطلة ، ويطمعه فى غير مطمع ، ويجعل ما يخالجه من الأمور المشكوك فيها كاليقين الذى لاشك فيه .والغرض بيان سحر الحب وتمويهه ، وبالغ أثره فى قلب المحب ، وعقله وحواسه ، وما يتبع ذلك الأثر من بلبلة الفكر ، وخطأ الحكم ، وسوء التقدير ، وفساد التدبير ، والاغترار بالأوهام ، والجرى وراء الأباطيل . ويلاحظ أن هذا البيت يجرى مجرى الحكم والأمثال .

(٨) خطرات : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير « هى خطرات » : جمع خطرة : اسم مرة من خطر له الأمر : أى لاح فى فكره ، أو مرّ بباله ، أو وقع فى خلده . ويراد بالخطرات هنا : ذكريات الحب ، وما مضى من شئونه . وبمرآة قلبى : أى قلبى الشبيه بالمرآة ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه ؛ إذ القلب كالمرآة يجلّى الصور ويحفظها . ويراد بالقلب هنا : الذهن ، أو العقل ، أو الإحساس والإدراك ، وقوة الذاكرة والحافظة . ولا تزول كالأحلام : أى لا تنمحى ، ولا تذهب كما تزول الأحلام وتنسى : أى أنها صور ثابتة باقية محفوظة ؛ لا يعتورها الضياع أو النسيان . والأحلام : جمع حلم (بضم فسكون) : وهو رؤيا النائم .

والمعنى : أن كل ما مضى من تاريخ حبه ، وأطوار عشقه ، وأحوال غرامه ، مذكور عنده ، غير منسى . وهو إلى هذا أثير لديه ، عزيز عليه . وأن كل صورة من صور ذلك الماضى ثابتة مستقرة باقية فى صفحة قلبه . وأن هذه الخطرات أو الذكريات لا تفتأ تخطر بباله ، وتلوح بذهنه ؛ فتجدد تعلقه بذلك العهد العزيز السعيد . والأبيات الآتية توضح هذا المعنى وتفصّله ، وتعززه وتؤكده .

مَـــا تَجَلَّتْ عَـــلَى الْمَخِيلَةِ إِلَّا   أَذْكَرَتْنِى مـــا كَانَ مِنْ أَيَّـــامِى[٩]

ذَاكَ عَصْرٌ خَلَا ، وَأَبْقَى حَـــدِيثًا   نَتَعَاطَـــاهُ بَيْنَنَا كَالْمُدَامِ[١٠]

كُلَّمَـــا زَحْزَحَتْ بَنَـــانَةُ فِكْرِى   عَنْـــهُ سِتْرَ الْخَيَالِ لَاحَ أَمَامِى[١١]

---

(٩) تجلت : بدت ، وبانت ، وظهرت ، وانكشفت . وفاعله ضمير الخطرات ، أو الصور فى البيت السابق . والمخيلة : الظن . ويراد بها صفحة خياله . أو قوة التخيل ، والتشبّه ، والتصوّر ، والتذكّر . وأذكرتنى : جعلتنى أتذكّر . ويريد بأيامه : أيام حبه وغرامه .

يقول : إنه كلما تخيّل هذه الصور تذكّر ما تشير إليه من أحوال ذلك الماضى المحبب إليه ، العزيز عليه . يريد : أن صور تلك الأيام السعيدة وذكرياتها لا تفتأ تتجلّى فى ذهنه ، فتؤجّج حنينه إلى ماضيه .

(١٠) العصر : الزمان ، ويراد به : زمن الهوى والحب . وخلا : مضى ، وذهب ، وانقضى . وأبقى : خلّد . ويراد بالحديث : أخبار الحب ، وأطواره ، وتاريخه ، وذكرياته . ونتعاطاه : نتناوله ونأخذه . والمدام : الخمر .

يشير — فى تحسّر وتلهّف — إلى ما مضى من زمن هواه وغرامه ، وما خلّده ذلك الزمن من تاريخ ، وأحاديث ، وأخبار ، وذكريات حلوة لذيذة شهية ، محببة إليه وإلى رفاق شبابه ولهوه ؛ فهم يتعاطون بينهم هذه الأحاديث والذكريات كما يتعاطى الخمر شاربوها ومد منوها فى لذة ومتعة ، وإقبال واحتفال .

(١١) البنانة : الإصبع . أو طرفها : أى العقدة العليا منها . وجمعها بنان (بوزن سحابة وسحاب) . والفكر : النظر ، والتدبير ، والرويّة . وإعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . وجمعه أفكار . وفكّر فى الأمر ، أو المشكلة ، وتفكّر فيها : أعمل خاطره فيها ، وتأمّلها ، محاولاً التوصّل إلى حلّها . وعنه : أى عن العصر الذى خلا ، وهو زمن حبه وغرامه . والخيال : الظن . والوهم والطيف . وما تشبّه لك فى اليقظة أو المنام من الصور . وجمعه أخيلة . وخيال الماضى : ظلاله ، وأطيافه ، وذكرياته ، وصوره الباقية فى الذهن . وستر الخيال : الخيال الشبيه بالستر ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . ولاح : بدا ، وظهر . وفاعله ضمير العصر فى البيت السابق .

يتخيّل الشاعر عصر حبه وغرامه ، وتكثر فى ذهنه الأخيلة والأوهام ؛ فتحجب عنه حقائق ذلك العصر وأحداثه . وكلما أزاح بتفكيره هذه الحجب والأستار تجلّت من ورائها الحقائق والأحداث ناصعة خالصة ، لا يشوبها توهّم ، أو تزيّد ، أو اختلاط ، أو اعتكار ، حتى كأنه يراها عياناً ؛ فهو دائماً بين تخيّل لتلك الأيام ، وتذكّر تامّ لحوادثها .

هذا ، وقد اعتمدنا فى تحقيق ديوان البارودى على نسخة خطيّة . نقلها بخطه «مصطفى عبد الخالق» فى ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ ، فوقع فى كتابته كثير من الخطأ والتشويه ، والتحريف والتصحيف ، والنقص والزيادة . وأصابت هذه العيوب أو بعضها ثمانية من أبيات هذه القصيدة ، منها هذا البيت =

يَا نَسِيمَ الصَّبَا ـ فَدَيْتُكَ ـ بَلِّغْ   أَهْـلَ ذَاكَ الْحِمَى عَبِيرَ سَلَامِي(١٢)

وَاقْضِ عَنِّى حَقَّ الزِّيَارَةِ ، وَاذْكُرْ   فَرْطَ وَجْدِى بِهِمْ ، وَطُولَ سَقَامِى(١٣)

أَنَـا رَاضٍ مِنْهُمْ بِذُكْرَةِ وُدٍّ   أَوْ كِتَابٍ إِنْ لَمْ أَفُزْ بِلِمَـامِ(١٤)

= الذى أصيب فى شطريه ؛ فاختلّ فيه الوزن والنظم ، واضطرب الكلام وتعقّد ، وخفى المعنى وفسد . وهذه صورته المحرفة بقلم الناسخ :

كلما زحزت بنانى فكـــرى   عنه بستر الخيال لاح أمامى

(١٢) النسيم : الريح اللطيفة ، الطيبة ، اللينة ، لا تحرك شجراً ، ولا تعفّى أثراً . والصبا (بوزن العصا) : ريح تهب من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنثة) . وهى أحب الرياح إلى العرب فى جزيرتهم ، وألطفها عندهم ، وطالما ناجاها شعراؤهم ، وحمّلوها تحاياهم إلى من يحبون . وإضافة النسيم إلى الصبا من إضافة العامّ إلى الخاصّ . أو من إضافة الكلمة إلى ما يفسّرها . أو إلى شبه مرادفها ؛ فإن اللطف والرّقة واللين يجمع النسيم والصبا ، ولهما ترتاح النفوس ، وبهما تُسرّ وتنشط . و«فديتك» : جملة دعائية . يقولونها لمن يحبونه ، ويُعزّونه ، ويعظّمونه . ومثلها «جُعلت فداك» و«جعلنى الله فداك» . وأصلها من قولهم : فداه يفديه فِدًى وفداء : أى استنقذه بمال أو غيره ، فخلّصه مما كان فيه . وفدّى الأسير ، وافتداه ، وفاداه : أى استنقذه من الأسر بالمال ، أو غيره . والحمى : المكان يحمى ويصان ويدافع عنه ؛ فلا يجترأ عليه ، ولا يُقترب منه . وأهل ذاك الحمى : أحباؤه الذين تعلّق بهم ، وتاقت نفسه إلى لقائهم ، وضاعف توقانه بُعْد الدار ، وصعوبة المزار . والعبير : أخلاط من الطيب .

نادى ريح الصبا نداء إعزاز وتكريم ، وإقبال واحتفال ، وإيثار ومفاداة . وحمّلها تحيته الطيبة العطرة ، وسلامه الذكىّ الزاكى إلى من تعلّق بهم فى أرض الشام ، وأجرى حديثه عنهم مجرى الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ؛ ولا غرو فهو حديث الصبّ المستهام عمن تهيّموه ، وشغفوه حباً .

(١٣) اقض : أمر من قضى عنه الحق ، أو الدّين : أى أدّاه ووفّاه نائباً عنه . والأمر لنسيم الصبا . وحقّ الزيارة : الزيارة الواجبة علىّ المستحقّة لهم . والفرط : اسم من الإفراط : وهو مجاوزة الحد من جانب الزيادة والكمال ، والوجد : الحب : مصدر وجد به (من باب وعد) : أى أحبه حباً شديداً . والسقام : المرض .

فى البيت السابق حمّل نسيم الصبا سلامه وتحيته لمن يحبهم فى أرض الشام . وفى هذا البيت طلب إليه أن ينوب عنه فى زيارة هؤلاء الأحباء ، ويبلغهم ما يكابده ، ويقاسيه من فرط الحب وأوصا به ، وطول السقام والهيام .

(١٤) الذكرة (بضم فسكون) : ضد النسيان . والود (بتثليث الواو) : المودة والمحبة : وذكرة الود : أن يذكروه بمودتهم ومحبتهم . أو أن يذكروا حبه ووداده ، ويقدروه حق قدره . والكتاب : الرسالة ، والخطاب . واللمام : اللقاء اليسير ، والزيارة القصيرة . من قولهم : فلان يزورنا لماماً : =

هُمْ أَبَاحُوا الْهَوَى حرِيمَ فُؤَادِى   وَأَذَلُّوا لِلْعَاذِلِينَ خِطَامِى[١٥]
أَتَمَنَّاهُمُ ، وَدُونَ التَّلَاقِى   قُذُفَاتٌ مِنْ لُجٍّ أَخْضَرَ طَامِى[١٦]

= أى غِباً : أى فى الأحايين : أى حيناً بعد حين: أى زيارات قصيرة قليلة ، متقطّعة ، غير متصلة . الواحدة لَمّة (بفتح اللام) .

تمنى أن يزورهم أو يزوروه زيارة إلمام ، فإن تعسّر اللقاء أقنعه وأرضاه أن يذكروا وداده ، ويحفظوا محبته ، أو يصلوه برسالة منهم تخفف ما يضانيه من حرق الوجد والغرام ، وتباريح الصبابة والشوق .

(١٥) « هم » : يريد أحباءه الذين تعلق بهم فى وادى الشآم ، وساق حديثه عنهم فى الأبيات السابقة مساق الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب . وأباحه الشئ : جعله له حلاً مباحاً . والحريم : الشئ المحرّم المحمىّ الذى يصان ، ويدافع عنه ، فلا ينتهك ، ولا يمسّ ، ولا يقرب منه ، ولا يجترأ عليه . وأباحوا الهوى حريم فؤادى : أى كان قلبى محرّماً مصوناً ممنّعاً ، فأهدروا حرمته ، وصيانته ، ومَنَعَته ، وجعلوه حلاً مباحاً للحب والغرام ، يستولى عليه ، ويحتلّه ، ويتمكّن منه ، ويتيّمه ، ويستعبده . والعاذلون : اللائمون : جمع العاذل . والخطام : الزمام ، والمقْوَد ، وكل ما وضع فى خَطْم البعير : (أى أنفه) ليقاد به . ومن المجاز : وضع الخطام على أنف فلان : أى ملكه ، وأذلّه ، واستبدّ به .

والمعنى : أن قلبه كان محرّماً عَصِيّاً ، منيعاً محمياً ، فلمّا تعلّق بهؤلاء الأحباء كان حبه لهم أشدّ من منعته ، وأقوى من قوّته ؛ وبهذا احتلّه الهوى ، واستحلّه ، واستباحه ، وتَعَبّده ، وأغرى به العاذلين ، ومكّنهم منه ، وجرّأهم عليه : فكدّر واحياته باللوم والتخطئة ، وضاعفوا أوصابه بالعذل والتقريع .

(١٦) أتمناهم : أى أتمنى لقاء هؤلاء الذين أحببتهم فى لبنان من أرض الشام . وتمنى الشئ : قدّره ، وتصوّره ، ورغب فيه ، وأحب أن يصير إليه . وأكثر ما يكون التمنى فى الشئ المستحيل ، أو الذى يتعذّر الحصول عليه ، ويصعب الوصول إليه . و«دون» : ظرف مكان منصوب . وهو هنا بمعنى «قبل» كما تقول : دون احتلال القمر متاعب وأهوال وأخطار . والقذفات : جمع قذفة (بوزن غرفة) : وهى ما برز وأشرف من جانب الجبل : أو ما علا وارتفع من رأسه . وقذفات البحر ما علا من أمواجه وارتفع كالجبال . وجملة «ودون التلاقى قذفات» : جملة حالية . و«من» : بيانية . وما بعدها بيان لما قبلها . واللجّ : معظم البحر ، وتردّد أمواجه . أو عُرضه ووسطه . ومثله اللجّة . أو هى واحدته . واللجّ البحر : عَظُمَتْ لجّته ، وتلاطمت أمواجه . وبحر لجىّ : واسع زاخر ، عظيم ، متموّج . والأخضر : البحر ، لأن ماءه يضرب إلى الخضرة من صفائه . وطام : اسم فاعل من طما البحر (من بابى سما ، ورمى) : أى امتلأ ، وزاد ، وارتفع ، وطغى .

تعلّق الشاعر بمن أحبهم فى الديار اللبنانية الشامية ، واستهُيم بهم ، وتمنى لقاءهم ، ورغب فى وصالهم وإن حالت بينه وبينهم حوائل وعقبات ، منها بحر لجىّ يغشاه موج كالجبال . ويلاحظ أن الشاعر استطرد فى هذا البيت وتسعة الأبيات الآتية لوصف البحر والسفن ، ومشقّات الرحلة بين مصر والشام .

صَائِلُ الْمَوْجِ كَالْفُحُولِ تَرَاغَى ... مِنْ هِيَـاجٍ ، وَتَرْتَمِي بِاللُّغَامِ (١٧)

وَتَرَى السُّفْنَ كَالْجِبَالِ ، تَهَادَى ... خَافِقَاتِ الْبُنُـودِ وَالْأَعْـلَامِ (١٨)

تَعْتَلِي تَارَةً ، وَتَهْبِطُ أُخْـرَى ... فِي فَضَـاءٍ بَيْنَ السُّهَا وَالرَّغَامِ (١٩)

هِيَ كَالدُّهْمِ جَامِحَاتٌ ، وَلٰكِنْ ... لَيْسَ يُثْنَى جِمَـاحُهَا بِلِجَـامِ (٢٠)

---

(١٧) صائل (بالجر)؛ صفة لأخضر ، وهو البحر فى البيت السابق . أو (بالرفع) : خبر لمبتدإ محذوف : أى هو صائل : اسم فاعل من صال (من باب قال) : أى وثب ، وسطا . وقهر ، وغلب . والموج : ما علا من سطح الماء ، وتتابع . الواحدة موجة . والجمع أمواج . والفحول : جمع الفحل : وهو الذكر القوىّ من كل حيوان . ويراد به هنا : البعير . وتراغى : أصله تتراغى ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً . وتراغت الإبل : تصايحت . ورغا البعير : صوّت ، وضجّ ، وجلّب . والرغاء : صوت ذوات الخف من الحيوان . و«من» : تعليلية : أى لبيان العلة والسبب . وترتمى : ترمى ، وتُلْقى ، وتقذف . أو تترامى : أى يرمى بعضها بعضاً . واللغام (بضم اللام) : زبد أفواه الإبل .

يصف تموج البحر ، واضطرابه ، وهيجانه . ويصوّر الهدير ، والضجيج ، والجلبة ، والزبد يرتمى فوق أمواجه العالية الصائلة الهائجة المتلاطمة ، ويشبهها بالإبل إذا ثارت وهاجت ، فتجاوبت بالرغاء ، وقذفت باللغام . وهذا البيت تأكيد وتفصيل لمعنى الشطر الثانى من البيت السابق .

(١٨) تهادى : تتمايل فى سيرها ، وتترنح . وأصله «تتهادى» ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً . يقال : تهادى تهادياً : أى مشى وحده مشياً غير قوى ، متمايلاً . وجاء يتهادى بين اثنين : أى مشى وهو يعتمد عليهما فى مشيته . وخافقات : حال من فاعل : تهادى : جمع خافق وخافقة : اسم فاعل من خفقت الراية ونحوها : أى تحركت : واهتزت ، واضطربت . والبنود : جمع البند (بوزن الفهد) : وهو العَلَم الكبير (فارسى معرب) . والأعلام : الرايات . واحدها علم (بوزن جبل) .

شبّه السفن بالجبال فى العظمة والضخامة والهيكل العام . وأشار — إلى هيجان ذلك البحر وثورانه — بخفقان بنودها ، وترنّحها فى سيرها ، وتمايلها — مع ضخامتها — ذات اليمين ، وذات الشمال . والأبيات الآتية تعزز هذا المعنى وتفصّله . ويلاحظ أن كلمة «تهادى» لا تنهض به هنا ، ولا تقوم بالتصوير الذى يريده الشاعر .

(١٩) السُّها : كوكب خفىّ من بنات نعش الصغرى . والرغام (بفتح الراء) : التراب . أو الرمل المختلط بالتراب . ويرادبه هنا : قعر البحر .

يقول : إن السفن — على ضخامتها وقوتها — يتحكّم فيها بحر مائج هائج ، وموج فائر ثائر ، يرفعها تارة إلى السماء ، وينحدر بها مرة أخرى إلى غور البحر . وهى مغالاة مقبولة فى مثل هذا المقام .

(٢٠) «هى» أى السفن . والدهم : الخيل السود : جمع أدهم ودهماء . من الدهمة (بضم فسكون) : وهى السواد . وجامحات : عاتيات ، عاصيات : جمع جامح ، وجامحة : اسم فاعل من =

كُلُّ أُرْجُوحَةٍ تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا   خُشَّعًا بَيْنَ رُكَّعٍ وقِيَامِ (٢١)
لَا يُفِيقُونَ مِنْ دُوَارٍ : فَهَاوٍ   لِيَدَيْهِ ، وَرَاعِفُ الْأَنْفِ دَامِي (٢٢)

= جمح الفرس (من باب خضع) جموحاً ، وجماحاً : أى عتا عن أمر صاحبه أو راكبه ، واستعصى عليه ، وغلبه ، وخرج من قيادته ، وذهب به لا ينثنى . ومن المجاز : جمحت السفينة : أى تركت قصدها ؛ فلم يضبطها ملاحوها . و« جامحات» خبر المبتدأ « هى » . ويثنى : يكف ، ويمنع . وبابه رمى . واللجام (فى الأصل) : الحديدة فى فم الفرس ، ثم سموها مع ما يتصل بها من الحكمتين ، والعذارين ، والعنان : أى السير — لجاماً .

شبه تلك السفن فى ذلك البحر الصائل الموج بالخيل الجامحة . وقال : إذا استطاع الفارس أن يكبح جماح فرسه باللجام ، فإن الملاحين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً لكبح جماح السفين إذا جمحت ؛ لأنها إنما تضطرب باضطراب البحر ، وتهدأ بهدوئه . ولا قدرة للربان وأعوانه على تهدئة البحر إذا هاج .

(٢١) الأرجوحة : ما تترجح براكبها : أى تهتز ، وتميل ، وتتحرك ، وقد تكون خشبة أو شبهها ، تعلق بحبل ، ويركبها الصبيان . وقد تكون حبلاً يشد طرفاه فى عارضة مرتفعة ثابتة ، ويقعد فى وسطه الصبيان ، واحداً بعد واحد ، ويميلون به ؛ فيجئ ويذهب ، ويعلو ويسفل معلقاً براكبه فى الهواء . وقد تكون فى أشكال وهيئات أخرى كثيرة منوعة ، أساسها الارتجاح ، والتذبذب ، والتمايل ، وحركات الارتفاع والانخفاض ، والذهاب ، والإياب . ويراد بالأرجوحة هنا : السفينة يرفعها ، ويخفضها ، ويميلها ، ويعبث بها تموج البحر ، وهيجانه ؛ واضطرابه ، وعصف الرياح ، واشتدادها ، وتناوحها . وخشعاً : جمع خاشع : اسم فاعل من خشع (من باب خضع) : أى تطأ من وذل ، وسكن ، وخضع ، واستكان ، وخاف . ويراد بالخشوع هنا : الخوف . وركع : جمع راكع : اسم فاعل من ركع (من باب خضع) : أى انحنى ، وطأطأ رأسه ، وخضع ، وتواضع . ومنه ركوع المصلى : وهو انحناؤه فى صلاته بعد القيام ، حتى تنال راحتاه ركبتيه ، أو حتى يطمئن ظهره . وقيام جمع قائم : اسم فاعل من قام (من باب صام) : أى وقف ، وانتصب ، واعتدل ؛ ومنه قيام المصلى : وهو خلاف الركوع والسجود .

يصف عنف اهتزاز هذه السفن بعصف الرياح وتناوحها ، وتموج البحر وهيجانه ؛ ولهذا يشتد بركابها الوجل والخوف ، وتتحرك بحركاتها العنيفة أجسامهم ، كما يتحرك المصلون بين القيام والركوع .

(٢٢) لا يفيقون : لا ينتبهون . مضارع أفاق السكران من سكره . والنائم من نومه . والغافل من غفلته . والمغشى عليه من غشيته : أى صحا ، وانتبه ، واستيقظ ، وعاد إلى طبيعته . والدوار (بضم الدال وفتحها) : الدوران يأخذ فى الرأس . ومنه دوار البحر : وهو ما يصيب راكبه من الغشية والذهول ، وفقدان الرشد ، وضعف الفهم والحس والإدراك . وهاو : ساقط : اسم فاعل من هوى (كرمى) : أى سقط من علو إلى سفل : أى سقط من قيام : أى وقع بعد أن كان قائماً منتصباً . وليديه : تأكيد لمعنى الهويان ، أو الانهواء . ومن كلامهم فى الدعاء على الخصم أو العدو : « لليدين =

يَسْتَغِيثُونَ ، فالْقُلُوبُ هَوَافٍ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَالْعُيُونُ سَوَامِى (٢٣)

فِى وِعَاءٍ يَحْدُونَهُ بِدُعَاءٍ لِجَلَالِ الْمُهَيْمِنِ الْعَلَّامِ (٢٤)

ذَاكَ بَحْرٌ يَلِيهِ بَرٌّ تَرَامَى فِيهِ خُوصُ الْمَطِىِّ مِثْلَ النَّعَامِ (٢٥)

= وللفم » : أى يسقط لليدين وللفم . وراعف : اسم فاعل من رعف (من بابى نصر وقطع) : أى خرج الدم من أنفه . والاسم الرعاف (بضم الراء) : وهو خروج الدم من الأنف . أو هو الدم يخرج من الأنف . ودام : اسم فاعل من دمى الجرح (من باب صدى) دَمًى ، ودَمْياً : أى خرج منه الدم ؛ والمراد دامى الأنف ؛ فهو تفسير وتأكيد لمعنى « راعف الأنف » .

يصف أثر دوار البحر الهائج فى ركّاب السفائن المترجّحة ؛ فبعضهم يغلبه الدوار ، فيسقط من قيام ، وبعضهم يرْعف .

(٢٣) يستغيثون : يطلبون الغوث ، والنجدة ، والإعانة ، والنصرة ، والنجاة ، والسلامة . وهواف : جمع هاف : اسم فاعل من هفا الفؤاد : أى خفق ، واضطرب . وسوام : جمع سامية : اسم فاعل من سما البصر : أى شخص ، وانفتح ، ولم يطرف . وسموّ البصر أو شخوصه من أمارات غلبة الخوف ، وشدة الفزع .

يشتد الخوف بركّاب السفن المترجّحة فى البحر الثائر ، ويفزعهم شبح الموت غرقاً ، فتخفق أفئدتهم ، وتشخص أبصارهم ، ويستغيثون الله رب العالمين « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » . (الآية رقم ٦٧ من سورة الإسراء) .

(٢٤) الوعاء (بكسر الواو وضمها) : الظرف يُوعَى فيه الشىء : أى يجمع ويحفظ . وجمعه أوعية . ويراد بالوعاء هنا : السفينة . وحدا الحادى الإبل يحدوها : ساقها ، وحثّها على السير بالحداء : وهو الغناء لها . والدعاء : مصدر دعوت الله : أى رجوت منه الخير ، وابتهلتُ إليه ليكشف عنى الضرّ والشر . والجلال : عظم القدر . وخُصّ بوصف الله تعالى : وفى القرآن الكريم : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » (الآية رقم ٧٨ من سورة الرحمن) . والمهيمن : من أسماء الله تبارك وتعالى : ومعناه الرقيب ، والحافظ ، والمؤمن (من آمنه من الخوف) ، والمؤتمن ، والشاهد ، والمسيطر على كل شىء ، والقائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم . والعلاّم ، والعليم . والعالم (فى وصف الله عز وجل) : هو الذى لا يخفى عليه شىءٌ . « إن الله لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ، ولا فى السماء » . (الآية رقم ٥ من سورة آل عمران) .

شبّه السفن بالإبل ، وقال : إن ركّابها يحدونها بالدعاء يتجهون به إلى المهيمن العليم القدير ، ذى الجلال والإكرام . وهم بهذا الدعاء يعالجون الخوف والكرب والبلاء ، ويستدفعون الله تعالى ، الأسواء ، ويرجون منه السلامة والنجاء والعافية .

(٢٥) يليه : يدنو منه ويقرب . والمراد يتصل به ، ويتبعه من غير فاصل . وترامى : تتتابع وتتوالى ، وتتعاقب . وأصله « تترامى » ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً . وفيه : أى فى ذلك البر الوسيع الفسيح . وبعير أخوص . وناقة خوصاء . وإبل خوص : أى عيونها صغيرة . ضيقة ، غائرة . (وفعله =

فَسَوَادِي بِمِصْــرَ ثَاوٍ ، وقَلْبِي فِي إِسَــارِ الْهَوَى بِأَرْضِ الشَّآمِ (٢٦)

أَخْدَعُ النَّفْسَ بِالْمُنى ، وَهْيَ تَأْبَى وَخِدَاعُ الْمُنَى غِــذَاءُ الْأَنَــامِ (٢٧)

= من باب تعب) . والمطيّ : المطايا : جمع مطيّة : وهي ما يمتطى : أي يركب من الدوابّ (للمذكّر والمؤنث) ؛ فالبعير مطية ، والناقة مطية . والنعام : جمع النعامة . وهي مركّبة من خلقة الطير وخلقة الجمل . وتشتهر بشدة العَدْو ، وسرعة الجرى . وترامى خوص المطايا بركبانها فى ذلك البر كالنعام : كناية عن عظمه واتساعه . وتباعد أطرافه ونواحيه .

يتمنى الشاعر لقاء أحبابه بأرض الشام ، ولكنه يرى سبيله إليهم جدّ عسير ؛ فبينه وبينهم ذلك البحر العظيم الهائل المائج الذى وصفه فى تسعة الأبيات السابقة ، وأشار إلى تموّجه واضطرابه ، وترجّح السفن فيه بركّابها ، وانتقالهم منه إلى سفر آخر طويل شاقّ فى برّ وسيع فسيح ، ممتدّ الأطراف ، متباعد النواحى .

صوّر — فى إسهاب — مشقّات الرحلة وعقباتها ، وصعوبات السفر وأخطاره ، وتوعّر الطريق وتعسّره . ومهّد بهذا البيت والبيتين الآتيين للغرض الأساسى من هذه القصيدة ، وهو مدح أمير البيان « شكيب أرسلان » .

(٢٦) سوادى : شخصى وجثمانى . وثاو : مقيم ، مستقر . و« بمصر » متعلق بـ« ثاو » . والإسار : القِدّ : وهو سير يقدّ من الجلد ، ويقيّد به الأسير ونحوه . والإسار أيضاً : مصدر أسره (من باب ضرب) : أى قيّده . يقول : إن جثمانه مقيم بمصر ، ولكن فؤاده أسير الغرام بأرض الشآم .

(٢٧) أخدع النفس (من باب قطع) : أختلها ، وأغرّها ، وأطمعها ، وأمنّيها . ومثله خادعه مخادعة وخداعاً . والمنى : الأمانى والآمال . واحدتها منية . وهى : أى النفس . وتأبى : المراد تأبى الانخداع ، وترفض الخديعة . وخداع المنى : أى الخداع بالمنى . أو الأمانى الخادعة . والأنام : الخلق والناس.

ومعنى الشطر الأول : أنه يحاول أن يخدع نفسه ، ويطمعها بالآمال ، ويمنّيها بلقاء أحبائه ؛ ليخفف ما يساورها من الوجد ، ويوفّر لها شيئاً من الراحة والطمأنينة ورخاء البال . ولكنها ترفض الخديعة ، وتأبى أن تغترّ ؛ ولهذا لا تفتأ تضانى تباريح الصبابة والشوق ، وحرق الوجد والغرام .

والشطر الثانى : تذييل جار مجرى المثل . ومعناه : أن انخداع الناس بالأمل يحفزهم إلى العمل ، ويهيّئ لهم شيئاً من راحة النفس ، ورخاء البال ، ويمدّهم بقوى السعى والكفاح فى هذه الحياة ، ويخفف عنهم كثيراً من شقائها ومتاعبها ؛ فكما يحيا الناس بالغذاء ، أى بالطعام والشراب يحيون بالأمانى والآمال ؛ وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

وليست حياة المرء إلا أمانيـاً إذا هى ضاعت ، فالحياة على الإثر

ويقول الآخر :

أعلل النفس بالآمال أرقبهـا ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

فَمَتَى يَسْمَحُ الزَّمَانُ ، فَأَلْقَى ... بِـ «شَكِيبٍ» مَا فَاتَنِي مِنْ مَرَامِ (٢٨)

هُوَ خِلٌّ ، لَبِسْتُ مِنْهُ خِلَالًا ... عَبِقَاتٍ ، كَالنَّوْرِ فِي الْأَكْمَامِ (٢٩)

صَادِقُ الْوُدِّ ، لَا يَخِيسُ بِعَهْدٍ ... وَقَلِيلٌ فِي النَّاسِ رَعْيُ الذِّمَامِ (٣٠)

---

(٢٨) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه التمنى ؛ فهو يتمنى على الزمان أن يحقق له ما يرغب فيه ، ويحرص كل الحرص عليه ، وهو لقاء حبيبه وممدوحه أمير البيان «شكيب أرسلان» . وفى صفحة ٣٦٩ ترجمة وجيزة له . وقد يكون الاستفهام هنا للاستبطاء ؛ بمعنى أنه يعدّ الزمان بطيئاً متوانياً ، ويستحثه ويستعجله ، لتحقيق أمله فى لقاء حبيبه . وهذا هو البيت الأول من الأبيات الصريحة فى المديح ، وهو الغرض الأصلى الأساسى من هذه القصيدة . وسمح (من باب نفع) : لان ، وسهل . أو انقاد بعد استصعاب . أو بذل ، وسخا ، وجاد . وسمح له بحاجة : يسّرها له ، وقضاها . والمرام : المطلب ، والمراد .

يتمنى أن يلاينه الزمان ويساهله ؛ فيلقى بلقاء حبيبه « شكيب » ما يرومه فى حضرته من غبطة وأنسة ، وارتياح وسعادة .

(٢٩) هو : أى ممدوحه : الأمير شكيب أرسلان . والخل (بكسر الخاء وضمها) : الصديق المختص . وجمعه أخلال . والخلال : الخصال . واحدتها خلة (بوزن الخصلة ومعناها) . ويراد بالخلال هنا : مناقب الممدوح ، وفضائله ، وخصاله الحميدة . وعبقات : عطرات ذكيات : جمع عبقة : صفة من عبق به الطيب (من باب فرح) : أى لزق به ، وظهرت فيه رائحته . والنور : الزهر . أو الأبيض منه . واحدته نورة (بوزن زهرة) . وجمعه أنوار (بوزن أزهار) . والأكمام : جمع كمّ (بكسر الكاف وتشديد الميم) : وهو غطاء النور : أى الغلاف الذى يحيط بالزهرة ، فيسترها ، ثم ينشقّ عنها . والشطر الثانى تخصيص وتحديد للخلال ، وتنويه بها ؛ فخلال الممدوح فضائل ، ومحامد ومكرمات ، بها عبق الطيب ، ولها محاسن الأزهار

جعل الممدوح فى عداد أخلائه وأصفيائه وخلصائه ، ونوّه بما أفاده من محامده وفضائله ومزاياه .

(٣٠) الود (بتثليث الواو) : المودة والمحبة . وخاس بالعهد (من باب باع) : نقضه ، ونكثه ، وخانه ، وغدر به . والعهد : الموثق ، والوفاء ، والضمان ، والذمة ، والأمان ، والمودة . والذمام : العهد ، والكفالة ، والحرمة ، والحق . وجمعه أذمّة . ورعى الذمام : حفظه ، وصيانته ، والوفاء به . مصدر رعاه يرعاه .

فى هذا البيت تفصيل لبعض خلال الممدوح المنوّه بها فى البيت السابق . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فالممدوح من قليل الناس الذين يصدقون الود ، ويوفون بالعهد ، ويرعون الأذمّة والحرمات ، والحقوق ، والمواثيق حقّ رعايتها .

جَمَعَتْنَا الْآدَابُ قَبْلَ التَّلَاقِى ... بِنَسِيمِ الْأَرْوَاحِ ، لَا الْأَجْسَامِ (٣١)

وَبَلَغْنَا بِالْوُدِّ مَا لَمْ يَنَلْهُ ... بِحَيَاةِ الْقُرْبَى ذَوُو الْأَرْحَامِ (٣٢)

فَلَئِنْ لَمْ نَكُنْ بِأَرْضٍ ، فَإِنَّا ... لِاتِّصَالِ الْهَوَى بِدَارِ مُقَامِ (٣٣)

---

(٣١) الآداب : جمع الأدب : وهو البليغ الجميل من النظم والنثر . والبارودى وشكيب كلاهما شاعر ، ناثر ، أديب ، نابه . وقد ألّفت بين قلبيهما صناعة الشعر ، ومزاولة الأدب ، وجمعتهما على الوداد والتحابّ قبل أن يتلاقيا ويتراءيا . ونسيم الأرواح : قوتها . من قولهم : « وإن فلاناً لباقى النسيم » : إذا كان باقى القوة والصلابة . وبنسيم الأرواح : متعلق بـ « جمع» : أى جمعتنا الآداب بنسيم الأرواح قبل أن نتراءى وتلتقى أجسامنا ؛ فائتلاف النفوس ، وتوافق الأرواح قرين الاشتراك فى صناعة الأدب ، ونظم الشعر . يضاف إلى هذا أن هذين الشاعرين الأديبين المتحابين تمادحا على البعد قبل التلاقى والتراثى .

ينوّه بالتوافق والائتلاف الروحى القوىّ الذى أوثق الروابط والصلات ، وقوّى الأواصر والعلاقات بينه وبين خلّه وصفيه : أمير البيان « شكيب أرسلان» . ويقول : إن نسب الأدب جمع بين روحيهما قبل أن يتلاقى جسماهما .

(٣٢) فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا : « بحيات القربى » (بالتاء المفتوحة) . وهو تحريف وخطأ إملائى من الناسخ . ولو قال : « بصلات القربى » لكان أوضح وأليق . والقربى : القرابة فى الرحم . وذوو الأرحام : أصحاب القرابات ، كالإخوة ، وأولاد الأعمام . جمع رحم (بوزن كتف) : وهى فى الأصل : مستودع الجنين فى أحشاء الحبلى : أى بيت منبت الولد ، ووعاؤه ، وموضع تكوينه فى بطن أمّه . ثم استعيرت للقرابة . أو أصلها وأسبابها ؛ لأن الأقرباء يخرجون من رحم واحدة . وحياة القربى : الحياة القائمة على قرابة الرحم . و « ذوو الأرحام » فاعل « ينال » .

يقول : إن المودة الصادقة ، والمحبة الخالصة جعلتهما إلفين متآلفين ، تجمعهما صلات وأواصر أقوى وأمتن من صلات ذوى الأرحام ؛ فقد تكون صلة الأدب أوثق من صلة القرابة والنسب . وقد تفوق صداقة الصديق أخوّة الأخ الشقيق . وفى المثل : « ربّ صديق خير من شقيق » .

(٣٣) اللام فى أول هذا البيت : لام الابتداء : أى التى يبدأ بها الكلام . وفائدتها توكيد مضمون الجملة بعدها ، وتخليص المضارع للحال ، أى للزمن الحاضر . ولئن لم نكن بأرض : أى لئن لم تجمعنا الآن أرض واحدة ، أى بلد واحد ، فإنا . . . ؛ إذ كان البارودى — حينما نظم هذه القصيدة — مقيماً بمصر . وكان صديقه ، وأخوه الروحىّ « شكيب » مقيماً بلبنان . وكان لبنان يومئذ من أراضى الشام . واللام فى أول الشطر الثانى تعليلية : أى فإننا بسبب اتصال الهوى ، ومن أجل توثّق المحبة والمودة بيننا — بدار مقام . واتصال الهوى : وثاقة أسباب المحبة والمودة ، ودوامها بينهما . وبدار مقام : أى بدار واحدة من دور الإقامة والاستقرار والاطمئنان : مصدر ميمى من أقام =

وَائْتِـلَافُ النُّفُوسِ أَصْـدَقُ عَهْدًا مِنْ لِقَـاءٍ لَمْ يَقْتَرِنْ بِدَوَامِ (٣٤)

أَلْمَعِيٌّ لَـهُ بَدِيهَـةُ رَأْيٍ تُدْرِكُ الْغَيْبَ مِنْ وَرَاءِ لِثَـامِ (٣٥)

= بالمكان إقامة : أى نزل به ، واستقر فيه ، ولم يفارقه .

فرّقت الديار بين البارودى وممدوحه « شكيب » ؛ إذ كان الأول مقيماً بمصر ، والثانى يقيم بالشام ، ولكن الحب والود والوفاء جمع روحيهما ، وخفف أثر هذا الافتراق الجثمانى ، وجعلهما كالملتقيين بشخصيهما فى دار واحدة من دور الإقامة والاستقرار . ويبدو أن الاتصال أو التلاقى الشخصى لم يكن ميسّراً لهما ؛ ولهذا أطنب الشاعر فى بيان بعد الشُّقّة ؛ وشُطوط الدار ، وصعوبة المزار . وكرر هذا المعنى فى الأبيات التى افتتح بها هذه القصيدة ، وساقها مساق الغزل ، أى عرضها فى صورة النسيب ، أو التشبيب ، وهى فى حقيقتها وجوهرها الحب الصادق ، والود الخالص ، والوفاء والشوق والحنين إلى صديقه « شكيب » . كما أطنب فى بيان قوة الاتصال الروحى ، وأنه يفوق الاتصال الجسمانى ، ويفضله ، ويعلوه . وفى البيت الآتى تكرار وتأكيد وتعزيز لمعنى هذا الاتصال وقيمته وصدقه وقوّته وتفوّقه .

(٣٤) ائتلاف النفوس : توافقها ، والتئامها ، واجتماعها على الأَنَسَة والمحبة . والعهد : الوفاء ، والموثق ، والمودة . وفى الحديث : « إن كرم العهد من الإيمان » . وكرم العهد : رعاية المودة . ويراد باللقاء فى الشطر الثانى : تلاقى الأشخاص والأجسام . وهو بطبيعته موقوت غير دائم . ولا ريب أن ائتلاف النفوس متصف بالصدق ، مطبوع على الود ، مقرون بالدوام والبقاء . أما تلاقى الأشخاص والأجساد المجرد من ائتلاف النفوس والأرواح ، فإنه قليل الغَناء ، سريع الفَناء . ويلاحظ أن الشاعر أجرى هذا البيت مجرى الحكم والأمثال . وأكّد به البيت السابق . وهوّن به على نفسه مضاضة الافتراق الجثمانى ، وتعسّر التلاقى الشخصى ، وتباعد الديار ، وصعوبة المزار .

والمعنى : أن تعارف الأرواح وتوافقها ، والتئامها ، واجتماعها على الأَنَسَة والمودة خير وأبقى وأوفى وأصدق عهداً من أن يتلاقى الأشخاص تلاقياً عابراً محدوداً موقوتاً ، لا بقاء له ، ولا دوام . وفى الحق أن مودة القلوب والأرواح هى المودة الصادقة الباقية ، على الرغم من افتراق الأشخاص ، وتباعد الأجسام .

وقد يكون المعنى : أن ربط نفسين بالمودة وصدق العهد مع تباعدهما خير وأبقى من اجتماعهما على صلة من الود ضعيفة موقوتة لا تدوم .

(٣٥) ألمعىّ : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هو : أى الممدوح ألمعىّ : أى ذكىّ ، متوقّد الذهن ، صادق الفراسة . والبديهة : السرعة ، والمباغتة . وسداد الرأى عند المفاجأة . والرأى : التدبير السديد الصائب . وبديهة الرأى : الرأى المُبْتَدَه ، الذى يلقيه إليك ، ويبدهك به فى سرعة وإصابة ، وبلا توقف . أو الرأى البديع الرائق المعجب . من قولهم : «لفلان بدائه فى الكلام» : أى بدائع وعجائب . وفاعل « تدرك » : ضمير « بديهة » . واللثام : ما يغطى الأنف والفم من نقاب أو ثوب . ويراد باللثام =

وَقَرِيضٌ كَمَا وَشَتْ نَسَمَاتٌ بِضَمِيرِ الْأَزْهَارِ إِثْرَ الْغَمَامِ (٣٦)

هَزَّنِى شِعْرُهُ ، فَأَيْقَظَ مِنِّى فِكْرَةً كَانَ حَظُّهَا فِى الْمَنَامِ (٣٧)

= هنا : الحجاب والستار . و« من وراء لثام » : تأكيد لمعنى الغيب ؛ لأن الغيب بطبيعته محجوب خفى مستور .

نوّه بألمعيّة الممدوح ، وتوقّد ذهنه ، وصدق فراسته ، وبداهة رأيه ، وسرعة تفكيره ، وصحة تدبيره ؛ وبهذا ونحوه يستطيع أن يكشف الحجب ، ويخترق بعقله الأستار ، ويدرك مالا يدركه غيره من الغيوب والأسرار .

(٣٦) القريض : الشعر . وهو معطوف على « بديهة » فى البيت السابق . ووشى به (من باب وعى) : سعى به ، ونمّ عليه . والمراد بالوشى أو الوشاية هنا : النشر ، والإذاعة . والنسمات : جمع النسمة (بوزن القصبة) : وهى الريح اللينة الطيبة اللطيفة ، لاتحرك شجراً ، ولا تعفّى أثراً . ومثلها النسيم . أو هى جمع نسمة (بفتح فسكون) : اسم مرة من نسمتْ الريح (من باب ضرب) : أى أقبلتْ لطيفة ، ليّنة ، طيّبة . ويراد بضمير الأزهار : ما تضمره وتخفيه ؛ أى ما يكون كامناً فيها من ريّاها ، وروائحها العطرية الذكية . وجاء على إثره ، أو فى إثره : أى فى عقبه . وكان هذا إثر ذاك : أى بعده . والغمام : السحاب . ويراد به المطر . الواحدة غمامة (بوزن سحابة) .

شبّه شعر الممدوح بريّا الأزهار والرياحين ، تحملها الرياح اللينة الطيبة اللطيفة ، وتنشرها غبّ المطر ، فى صفاء الجوّ ونقائه ، وبهجة الطبيعة وروائها ؛ فهو شعر ذكىّ نقىّ ، عطر عبق ، ينعش النفوس ، ويحتلّ القلوب ، ويروق الأذهان ، ويطرب الآذان . ولأمير البيان « شكيب أرسلان » ديوان شعر . وقد رثى البارودى بقصيدة ميمية ، عنوانها : « الدمع الهامى فى رثاء محمود سامى » . وعدد أبياتها خمسة وستون بيتاً . ومطلعها :

يا ناظرىّ ألأياً تبكيـان دما ؟ أهكذا عهدنا أن نحفظ الذما ؟

لو صار كل سواد منكما يققا على الصديق لما أنصفتماه ، لما

وختامها :

فاذهب عليك تحيات المهيمن مـا همى بتربك دمع المزن منسجماً

هانت بمصرعك الأرزاء أجمعها فليس يجزع من رزء ولو عظما

توفى البارودى فى شوال سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ديسمبر سنة ١٩٠٤ م

(٣٧) هزنى شعره : أطربنى ، وراقنى ، وأعجبنى ، وحرك مشاعرى . والفكرة : إعمال الخاطر فى الأمر . والصورة الذهنية لأمر ما . والفكرة أيضاً : الفكر : وهو إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . وما يخطر بالقلب من المعانى . وتردد الخاطر بالتأمل والتدبر لطلب المعانى . ولى فى هذا الأمر فكر : أى نظر وروية .

سُمْتُهــا الْقَوْلَ بعْدَ لأْيٍ ، فَبَضَّتْ ... بِيَسِيرٍ لَمْ يُرْوِ عُودَ ثُمــامِ (٣٨)

فَارْضَ مِنِّى بِمَــا تَيَسَّرَ مِنْهَــا ... رُبَّ ثَمْــدٍ فِيهِ غِنًى عَنْ جِمَامِ (٣٩)

وَلَوَ انِّى أَرَدْتُ شَرْحَ وِدَادِى ... وَاشْتِيَاقِى - لَضَاقَ وُسْعُ الْكَلَامِ (٤٠)

= يقول : إن شعر الممدوح ، وما نظمه فى إطرائى هزّ مشاعرى ، وحرك وجدانى ، وأثار إعجابى ؛ فأيقظ منى فكرة كانت نائمة فى ذهنى . ولعله يريد بها تلك النواة الفكرية التى أوحتْ إليه بهذه الأبيات القليلة التى شكر بها الممدوح ، وأطراه ، وأشاد بشعره ، وأحسن الثناء عليه . وعدّتها ثمانية عشر بيتاً من خمسة وأربعين بيتاً ، هى عدد أبيات هذه القصيدة . ومعنى هذا : أن الغرض الأصلى الأساسى الذى أنتجتْه تلك الفكرة لم يتجاوز الثلث إلا قليلاً ، وإن كانت الأغراض الأخرى قد مهّدتْ له ، وخدمتْه . والبيت الآتى يرجح هذا المعنى ، ويوضحه .

(٣٨) سمتّها القول : سمت الفكرة القول : أى أردته منها ، وكلفتها إياه ، وألزمتها به . وبعد لأى : أى بعد جهد ومشقة . وبضّتْ : رشحتْ ، ونضحتْ . والمراد أنتجتْ إنتاجاً قليلاً ضئيلاً . من قولهم : « بضّ الحجر » : أى نشغ منه الماء ، ورشح ، ونضح ، وسال قليلاً قليلاً ، شبْه العرق . وبضّتْ عينه : أى دمعت قليلاً ، وبيسير : بقليل ضئيل . وهو تكرار وتأكيد لمعنى « بضّتْ » ؛ لأن البضّ لا يكون إلا بالقليل اليسير . وأرواه يرويه إرواء : سقاه ، وأشبعه ، وأزال عطشه . والثمام (بضم الثاء) : نبت ضعيف ، لا يطول . أو عشب من الفصيلة النجيلية . فروعه مزدحمة متجمعة ، ومنه الثمام السنبلى . ويسمى الدخن فى السودان . واحدته ثمامة . وبه يضرب المثل فى القلة والضعف . ويراد بعود الثمام : الفرع ، أو الغصن ، أو الثمامة الواحدة ، على قلتها وضعفها ، وقلة ما يرويها من الماء .

يقول : إنه بذل جهداً ، وعانى مشقّة ، حتى أيقظ فكرته من سباتها ، وأعدّها للإنتاج . ولما أرادها على القول لم تسمح إلا بالتافه اليسير ، القليل الضئيل الذى لا يروى غلة ، ولا يسدّ خلّة . والغرض التنويه بالممدوح ، وتعظيم شأنه ، وبيان ما يستأهله من الإفاضة فى المديح ، والإطناب فى حسن الثناء عليه .

(٣٩) منها : أى من الفكرة : أى من الشعر القليل الذى أنتجتْه فكرتى . والثمد (بفتح فسكون) : الماء القليل الذى ليس له مدد . والجمام : الكثير المجتمع من كل شيء . وجمام الماء : معظمه ، وكثرته ، ومجتمعه . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . وصلته بالشطر الأول أن اليسير القليل الذى بضّتْ به فكرة الشاعر ، قد يغنى عن الكثير الغزير الذى لم يتيسر له ؛ ولهذا طلب إلى الممدوح أن يرضى به ، ويقبل عذره .

(٤٠) الوسع (بضم فسكون) : الطاقة ، والقوّة ، والجدة ، والجهد ، والاستطاعة . ووُسْع الكلام : مجاله ونطاقه .

فى البيت السابق رجا من ممدوحه أن يرضى بالقليل اليسير الذى نظمه فى مدحه ، وشكْره ، والتنويه =

أَنَا أَهْــوَاكَ فِطْــرَةً ؛ لَيْسَ فِيهَا ... مِنْ مَسَاغٍ لِلنَّقْضِ وَالْإِبْــرَامِ (٤١)

وَإِذَا الْحُبُّ لَمْ يَكُنْ ذَا دَوَاعٍ ... كَانَ أَرْسَى قَوَاعِدًا مِنْ شَمَامِ (٤٢)

= بشعره، معتذراً بأن قريحته لم تبضّ إلا بهذا القليل اليسير . وفى هذا البيت تفصيل لاعتذاره، وزيادة فى معناه ؛ فإنه لو انطاعتْ له فكرته وقريحته ، واستطاع الإطناب والإسهاب ، والإفاضة والانسياب — لضاق نطاق الكلام ، وقصر التعبير عن بيان ما يضانيه من الحنين إلى الممدوح ، وما يضمره له من الود الصادق ، والحب الخالص ، وما يستأهله من جميل الثناء ، وبليغ الإطراء .

(٤١) أهواك : أحبك . والخطاب لصديقه وممدوحه « شكيب » . والفطرة : الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه . والفطرة : الطبيعة السليمة لم تُشَب بعيب . وفطرة الإنسان : صفته الطبيعية . وأهواك فطرة : أى أحبك حباً فطرياً طبيعياً ، خالصاً نقياً ؛ لا يعيبه التكلّف والرياء ، ولا يشوبه التصنّع والمداجاة . وليس فيها : ليس فى الفطرة . و« من » فى أول الشطر الثانى زائدة قبل اسم « ليس » المؤخّر . وهى تزاد كثيراً فى مثل هذا التركيب . والغرض من زيادتها تأكيد الكلام . وتقوية مضمون الجملة . ويراد بالمساغ هنا : المدخل ، والمنفذ ، والمجال . وهو اسم مكان من ساغ الشىء (من باب قال) : أى جاز فعله وأبيح . وساغ الشراب والطعام : أى سهل انحداره ومدخله فى الحلق . أو هو « مساغ » (بضم الميم) : مصدر ميمى بمعنى الإساغة : مصدر أساغه : أى جعله سائغاً . والنقض : مصدر نقض الشىء (من باب قتل) : أى أفسده بعد إحكامه . ونقض البناء : هدمه . ونقض الحبل أو الغزل : حلّ طاقاته . ونقض ما أبرمه غيره : أى أبطله . والإبرام : ضد النقض : مصدر أبرم الأمر : أى أحكمه . وأبرم الحبل : أى فتله من طاقين. وأبرم الثوب : أى فتل غزله طاقين . ويراد بالشطر الثانى : أن الفطرة ثابتة محكمة ، لا تبديل فيها ، ولا تغيير .

والمعنى : أنه يحب هذا الصديق حباً خالصاً نقياً ، صادقاً قوياً ، مركوزاً فى فطرته التى لا تبديل فيها ، ولا تغيير .

(٤٢) الدواعى : الأسباب ، والدوافع . جمع داع ، أو داعية . وحب ذو دواع : أى حب متكلّف ، غير خالص . وإنما يقوم على الأسباب والدوافع والمصالح القريبة التى تحمل الناس على تكلّفه وتصنّعه . وأرسى : أثبت ، وأرسخ : اسم تفضيل من رسا الشىء (من بابى عدا وسما) : أى ثبت ، ورسخ . والقواعد : جمع قاعدة : وهى من البناء ونحوه أصله وأساسه . وشمام (بوزن سحاب) : جبل .

والمعنى : أن الحب إذا كان خالصاً نقياً، مبرّأ من شوائب النفاق والرياء ، أو الدواعى الموقوتة، والمصالح القريبة التى تحمل الناس على تكلّفه وتصنّعه — كان أقوى وأدوم ، وأرسخ وأثبت من الجبال الراسيات . ويلاحظ أن هذا البيت يجرى مجرى الحكم والأمثال . وصلته بالذى قبله واضحة وثيقة ؛ فإن الحب المجرد من الدواعى هو الحب الفطرىّ القوىّ النقىّ .

وهذا قريب من قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

وإذا الحبّ كان عقــد وداد ... لم ينل منــه من وشى وتجنّى

فَتَقَبَّلْ شُكْرِى عَلَى حُسْنِ وُدٍّ   رُحْتُ مِنْــهُ مُقَلَّدًا بِوِسَــامِ (٤٣)

أَتَبَــاهَى بِهِ إِذَا كَانَ غَيْرِى   يَتَبَــاهَى بِزِينَــةِ الْإِنْعَــامِ (٤٤)

دُمْتَ فِى نِعْمَــةٍ تَرِفُّ حُلَاهَا   فَوْقَ فَرْعٍ مِنْ طِيبِ أَصْلِكَ نَامِى (٤٥)

---

(٤٣) يريد بـ« حسن الود » : المحبة والمودة الخالصة التى ظهرتْ فيما نشرته بعض الصحف أو المجلات من شعر « شكيب » أو مقالاته الصحفية التى أطرى بها « البارودى » ، وأشاد فيها بأدبه وشعره . ورحتُ : عُدْتُ ، أو صرتُ . من الرواح : وهو السير فى العشىّ . وضده الغدوّ : وهو السير فى الصباح . ويستعملان لمطلق الذهاب أو العودة ، أو المضىّ ، أو الانطلاق ، أو المسير فى كل وقت من ليل أو نهار . و« منه » : أى من حسن الود : أى بسببه ، ومن أجله ؛ فـ« من » هنا للتعليل . وقد تكون بمعناها الأصلى : وهو ابتداء الغاية : أى رحت مقلّداً من الود بوسام ؛ فالود هو الذى قلّده ذلك الوسام الرفيع . وقلّده القلادة : جعلها فى عنقه . وقلّده نعمة : أعطاه عطية . أو أسدى إليه معروفاً . والوسام (فى الأصل) : السمة ، أو العلامة ، وما يوسم به الحيوان من ضروب الصور والعلامات التى تُعْلمه ، وتميزه من غيره . ويطلق الآن على حلية أو نحوها ، يمنحها رئيس الدولة من امتاز بعمل يستحق من أجله التمجيد والتكريم . ويعلّق الوسام عادة على صدر من أحسن عملاً ؛ مكافأة له عليه .

أحبّ « شكيب » « البارودى » ، وأُعجب به ، وتودد إليه ؛ فنوّه فى بعض شعره ، أو بعض مقالاته الصحفية بشاعريته ومحامده ؛ فشكر له البارودى هذا الوداد ، وهذا التنويه ، وافتخر به ، وقال : إنه يزينه ويزهوه ، كما يزهو الوسام من تقلّده . والبيت الآتى يؤكد هذا المعنى ويعززه .

(٤٤) أتباهى : أزهو ، وأفتخر . وبه : أى بالوسام المكنىّ به فى البيت السابق عن حسن ودّ الممدوح : وإشادته بشعر البارودى وأدبه ومناقبه ومحامده .

يقول : إذا كان غيرى يفخر و يزدان بما أنعم عليه من أوسمة وقلائد ونحوها ، فإنى أفخر وأزدان بودّ هذا الممدوح وأخوّته وصداقته ، وما أولانى إياه من ثقة وإطراء .

(٤٥) « دمت فى نعمة » : جملة دعائية . وجملة « ترفّ حلاها ... » : نعت لـ« نعمة » . والنعمة (بكسر النون) : الحالة الحسنة التى يستلذها الإنسان ، والإنعام ، والخفض ، والدعة ، والخصب والرفاهة والمسرة . واليد البيضاء الصالحة ، وما أُنعم به عليك من رزق ومال وغيره . والنعمة (بفتح النون) : التنعم ، والتمتع ، والترفّه ، وطيب العيش ، وحسنه ، ولينه ، ورغده ، وغضارته ، واتساعه . أو هما لهذه المعانى كلها . أو النعمة (بالكسر) : الإنعام . و(بالفتح) : التنعّم . و(بالضم) : المسرة . ورفت عليه النعمة ، أو السعادة : خَفَّتْ ، وَسَبَغَتْ ، ونمتْ ، وزكتْ ، وكثرتْ ، واتسعتْ . ورفّ النبات ونحوه : اهتزّ من الرىّ والنضارة . ورفّ البرق وغيره : برق ، ولمع ، وتلألأ ، والحلى (بكسر الحاء وضمها) : جمع حلية (بكسر الحاء) : وهى الزينة : أى ما يُتزيّن به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة النفيسة . وحلى النعمة : نضارتها ، وبهجتها . وطاب الشىءُ يطيب طيباً : زكا ، ـــ

= وطهر ، وجاد ، وحسن . والطيب : الأفضل من كل شيء . وطيب أصله : أصله الزكيّ الكريم ، المتحلّي بالفضائل ، المتخلّي عن الرذائل . و « نام » : صفة لـ « فرع » : اسم فاعل من نما الشيء (من بابي سما ورمى) : أي كثر ، وزاد ، وارتفع .

دعا الشاعر لممدوحه في ختام هذه القصيدة بدوام ما ينعم به من الرفاهة ، وغضارة العيش ، ورخاء البال ، وحسن الحال . وأشاد – مع الدعاء – بفروع الممدوح وأصوله ؛ فالأصول طيبة زكية ، شريفة كريمة . والفروع مثلها زاكية نامية في شرف ومجد ، وعزة وعلاء .

تعليق وجيز *

أشرنا في أثناء الشرح إلى الأغراض التي تنقّل فيها الشاعر : فالثلث الأول – وهو خمسة عشر بيتاً – غزل ، أو تشبيب ، أو نسيب عذب رقيق ، هو في جوهره وحقيقته وهدفه الحب الصادق ، والود الخالص ، والوفاء التام ، والشوق والحنين إلى لقاء ذلك الصديق الكريم بأرض الشام :

(١) حي مغنى الهوى بوادي الشآم وادع باسمي تجبك ورق الحمام
(٢) هن يعرفنني بطول حنيني بين تلك السهول والآكام
(٣) فلقد طالما هتفن بشدوي وتناقلن ما حلا من هيامي
(٤) ولكم سرت كالنسيم عليلاً أتقرى ملاعب الآرام
(٥) في شعار من الضنى نسجته بخيوط الدموع أيدي الغرام

ومن المعاني المألوفة في مثل هذا المقام أن يحمّل المحب نسيم الصبا سلامه وتحيته لمن تيّمه وتيّمه ، ويرجو أن يرعى وده ، ويحفظ عهده ، ويصله برسالة أو كتاب :

(١٢) يا نسيم الصبا فديتك بلّغ أهل ذاك الحمى عبير سلامي
(١٣) واقض عني حق الزيارة واذكر فرط وجدي بهم ، وطول سقامي
(١٤) أنا راض منهم بذكرة ودّ أو كتاب ، إن لم أفز بلمام

ويبدو أن اللقاء الشخصي كان عسيراً غير ميسّر ؛ ولهذا انتقل الشاعر من الغزل إلى وصف البحر بحسبانه من معوّقات اللقاء. واستطرد لوصف السفن ، واضطرابها براكبيها ، وما يساورهم من القلق والفزع في ذلك البحر العظيم المائج الهائج ، المضطرب الثائر . كل هذا في تسعة أبيات :

(١٦) أتمناهم ، ودون التلاقي قذفات من لجّ أخضر طامي
(١٧) صائل الموج كالفحول تراغى من هياج ، وترتمي باللغام
(١٨) وترى السفن كالجبال تهادى خافقات البنود والأعلام =

* يشتمل التعليق هنا على التحليل والتلخيص ، والتقريظ .

= (١٩) تعتلى تارة ، وتهبط أخرى في فضاء بين السها والرغام

(٢٠) هي كالدهم جامحات ولكن ليس يثنى جماحها بلجام

(٢١) كل أرجوحة ترى القوم فيها خشّعاً ، بين ركّع وقيام

(٢٢) لا يفيقون من دوار : فهاو ليديه ، وراعف الأنف دامى

(٢٣) يستغيثون ؛ فالقلوب هواف حذر الموت ، والعيون سوامى

(٢٤) في وعاء يحدونه بدعاء لجلال المهيمـــن العلاّم

وفي البيت الخامس والعشرين أشار إلى مايلى البحر من برّ وسيع فسيح :

(٢٥) ذاك بحر يليه برّ ترامى فيه خوص المطىّ مثل النعام

ولا ريب أن البحر والبرّ كانا أهمّ الفواصل الطبيعية التي تحول بينه وبين ذلك الحبيب في ذلك الزمان .

وفي بيتين بعد هذا قال : إن شخصه بمصر وقلبه في إسار الهوى بأرض الشام . وعلل نفسه بأمل اللقاء ؛ ليخفف عنها بعض ما تكابده وتقاسيه من حرق الوجد ، وتباريح الشوق ، وحرارة الصبابة والغرام .

ومنهما انتقل إلى الغرض الأصلى الأساسى ، أى إلى صريح المديح في ثمانية عشر بيتاً ، هى ختام هذه القصيدة التي امتازت برقّة الهوى ، وصدق العاطفة ، وعذوبة اللفظ ، وإحكام النسج ، وروعة النظم ، وجمال الموسيقا ، وبلاغة القول ، وسحر البيان . وقد ضمن المديح كثيراً من المعانى والتعبيرات الرائقة الفائقة ، الصادقة القوية .

(٣١) جمعتنا الآداب قبل التلاقى بنسيم الأرواح ، لا الأجسام

(٣٢) وبلغنا بالود ما لم ينله بحياة القربى ذوو الأرحام

(٣٣) فلئن لم نكن بأرض فإنا لا تصال الهوى بدار مقام

وأشاد بكثير من محامد الممدوح ومناقبه ومزاياه ، وشكر له ، وأحسن الثناء عليه :

(٣٥) ألمعى ، له بديهة رأى تدرك الغيب من وراء لثام

(٣٦) وقريض كما وشت نسمات بضمير الأزهار إثر الغمام

(٤٣) فتقبل شكرى على حسن ودّ رحت منه مقلّداً بوسام

وأجاد الاعتذار عن إقلاله ، ونضوب معينه ، وجمود قريحته ، وضيق فكرته :

(٣٩) فارض منى بما تيسّر منها ربّ ثمد فيه غنى عن جمام

(٤٠) ولو انى أردت شرح ودادى واشتياق لضاق وسع الكلام =

= ولم يفته أن يسوق بعض أبياته مساق الحكمة أو المثل :

(٧) والهوى يجعل الخلاج يقيناً ... ويغرّ الحليم بالأوهام

(٣٤) وائتلاف النفوس أصدق عهداً ... من لقاء لم يقترن بدوام

(٤٢) وإذا الحب لم يكن ذا دواع ... كان أرسى قواعداً من شمام

وقد يأتي الشطر الثانى من البيت تذييلاً جارياً مجرى المثل :

(٢٧) ... ... وخداع المنى غذاء الأنام

(٣٠) ... ... وقليل فى الناس رعى الذمام

وفى القصيدة إلى هذا كله ما ينمّ على تديّن الشاعر، وصحة عقيدته، وقوة إيمانه، وفزعه فى الشدائد إلى الله، وخشوعه لجلال الله :

(٢٤) فى وعاء يحدونه بدعاء ... لجلال المهيمن العلاّم

أَبْيَاتٌ ، ورِسَالَةٌ

وَكَانَ الْأَمِيرُ «شَكِيبُ *أَرسلَان» ذَكَرَ أَبْيَاتًا لِصَاحِبِ هَذَا الدِّيوانِ فِي بَعْضِ مَقَالَاتِهِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُرَاسِلُ بِهَا جَرِيدَةَ الْأَهْرَامِ ، وَأَثْنَى عَلَى قَائِلِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَرِّحَ بِاسْمِهِ

ثُمَّ أَوْرَدَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَبْيَاتًا فِي مَقَالَةٍ أُخْرَى ، نَوَّهَ فِيهَا بِاسْمِهِ ؛ فَقَالَ يَشْكُرُهُ عَلَى ذَلِكَ . وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ ، وَبِالرِّسَالَةِ بَعْدَهَا :

أَشَدْتَ بِذِكْرِى بَادِئًا وَمُعَقِّبًا وَأَمْسَكْتُ ،لَمْ أَهْمِسْ،وَلَمْ أَتَكَلَّمِ[1]

وَمَا ذَاكَ ضَنًّا بِالْوِدَادِ عَلَى امْرِئٍ حَبَانِي بِهِ ، لَكِنْ تَهَيَّبْتُ مَقْدَمِي[2]

---

* فى صفحة ٣٦٩ ترجمة وجيزة لأمير البيان « شكيب أرسلان » .

(١) الذكر : الصيت ، والثناء ، والشرف ، والعلاء . وأشاد بذكره : رفعه بحسن الثناء عليه . وبادئاً : اسم فاعل من بدأ الشيء ، وبدأ به : أى افتتحه ، وقدّمه . أو فعله قبل غيره ، وفضّله . ومعقّباً : اسم فاعل من عقّبه تعقيباً : أى خلفه ، أو جاء على إثره . والمعقّب : خلاف البادئ . وأمسك عن الأمر : كفّ عنه ، وامتنع . وأمسك عن الكلام : سكت . وهمس إلىّ بحديثه (من باب ضرب) : كلّمنى به همساً : أى كلاماً خفياً ؛ فالهمس : كل خفىّ من كلام ونحوه . وضده الجهر .

ومعنى الشطر الثانى : أنه صمت وسكت سكوتاً تاماً ؛ فلم يجهر بكلامه ، ولم يخافت به . والبيت الآتى يبين سبب هذا الصمت الموقوت .

(٢) « ذاك » : إشارة إلى إمساكه عن الكلام ، وصمته وسكوته . والضنّ (بكسر الضاد وفتحها) : البخل . (وفعله كتعب وضرب) . وحباه كذا . وحباه بكذا : أعطاه إياه بلا عوض أو جزاء . وتهيّبه : مبالغة فى هابه : أى أجلّه ، وعظّمه ، أو حذره ، وخافه ، واتّقاه . ومقدم (بفتح فسكون ، أو بضم فسكون) : مصدر ميمى من قدم على الأمر . أو أقدم عليه : بمعنى تقدّم ، وأقبل ، وشجع ، وجسَر ، واجترأ .

يريد أنه تهيّب الإقدام على مراسلة ذلك الأمير العظيم ؛ وبسبب هذا التهيّب أمسك عن الكلام برهة من الزمن .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الممدوح ، وهو الأمير « شكيب أرسلان » نوّه بالبارودى ، وعظّمه ، وتودّد إليه ، ورفعه بحسن الثناء عليه بَدْءاً وعَوْداً ، فأمسك البارودى برهة عن شكره ، تهيّباً له ، لا بخلاً بالوداد ، ولا تقصيراً فيه .

فَأَمَّا وَقَدْ حَقَّ الْجَزَاءُ ؛ فَلَمْ أَكُنْ   لِأَنْطِقَ إِلَّا بِالثَّنَـاءِ الْمُنَمْنَمِ (٣)

وَكَيْفَ أَذُودُ الْفَضْلَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ   وَأُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ بَعْدَ تَوَسُّمِ ؟ (٤)

وَأَنْتَ الَّذِي نَوَّهْتَ بِاسْمِي . وَرِشْتَنِي   بِقَوْلٍ سَرَا عَنِّي قِنَاعَ التَّوَهُّمِ (٥)

---

(٣) « أما » : حرف شرط وتوكيد . و« الواو » بعدها : واو الحال . والجملة بعدها حالية . و« الفاء » بعدها : فاء الجزاء والجواب . و« حقّ » : ثبت ، ووجب ، ولزم . والجزاء : الثواب ، والمكافأة . والثناء : اسم من أثنى عليه خيراً ، وبخير : أى وصفه به . وأكثر ما يذكر الثناء : فى محامد الناس ؛ فيثنى حالاً فحالاً ذكره : أى يعدّ ، ويكرر . والمنمنم : المزخرف ، المرقّش ، المنقّش ، المزيّن ، المحسّن ، ونبات منمنم : أى ملتفّ ، مجتمع .

اهتاب الشاعر من بَدَأَ بالتودّد إليه ، والإقبال عليه ، والتنويه به تعريضاً ، ثم تصريحاً ؛ وبسبب هذا الاهتياب أمسك برهة يسيرة عن الكلام والمجاوبة ؛ ولكنه ما لبث أن رأى ذلك المتودّد الكريم حقيقاً بالجزاء والاحتفال ، جديراً بالاهتمام والإكرام ؛ فلم يسعه إلا أن يجهر بفضله ، ويقدر صدق وداده ، ويصفه بمحامده ومكارمه ، ويحسن الثناء عليه ، ويسدى المديح إليه .

(٤) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى : أى لا سبيل إلى ذَوْد الفضل ، وإنكار ضوء الشمس . وقد يكون معناه التعجب ؛ فالشاعر يتعجّب من نفسه ، ويعجّب غيره إذا هو حاول ذياد الفضل ، أو إنكار ضوء الشمس . وقد يفيد — مع التعجّب — الاستنكار ، والاستقباح ، والاستهجان ؛ كما فى قول الله تبارك وتعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » ؟ . (الآية رقم ٢٨ من سورة البقرة) . وأذود الفضل : أبعده ، وأدفعه ، وأمنعه . (وبابه قال) . والفضل : الإحسان ابتداء بلاعلة . ولا ريب أن الممدوح أقبل على الشاعر ، وأحسن إليه ابتداء من غير علة . والفضل والفضيلة : الخير والبرّ . وضدهما النقص والنقيصة . والفضل (فى الأصل) : الزيادة . وأكثر ما يستعمل فى الزيادات المحمودة ، كفضل العقل ، والعلم ، والمروءة ، والحلم . ومستقرّ الفضل : مكان استقراره ، وإقامته ، وتمكّنه ، وثباته . فى الشطر الأول إشارة إلى أن فضل الممدوح مستقرّ فيه ، ثابت له ، متمكّن منه ، مقيم معه ، لا يكاد يفارقه ، أو يحيد عنه . وفى الشطر الثانى إشارة إلى أن ذلك الفضل ذائع شائع ، تامّ موفور ، ظاهر مشهور . وتوسّمت فى فلان الخير توسّماً : أى تفرّسته فيه ، ورأيت فيه مخايله ، وأماراته ، وآثاره ، وعلاماته . ويراد بالتوسّم هنا : الرؤية ، والإبصار ، والمعرفة التامة اليقينية .

مدحه بالخير والبر ، والفضيلة والمروءة ، والابتداء بالإقبال والإحسان . كما مدحه بنباهة الشأن ، وسموّ القدر ، وعلوّ المكانة ، وذُهوب صيته فى الناس .

(٥) « الواو » فى أول هذا البيت : واو الحال . والجملة بعدها حالية . وهو متصل بالبيت السابق ؛ أى وكيف أذود الفضل ، وأنكر ضوء الشمس والحال أنك نوّهت باسمى ، ورشتنى ... ونوّه بفلان . ونوّه باسم فلان : أى شهره ، ورفع شأنه ، وعظّمه . ورشتنى : أحسنتَ إلىّ ، وتفضّلتَ علىّ . وأصله =

لَكَ السَّبْقُ دُونِي فِي الْفَضِيلَةِ ، فَاشْتَمِلْ بِحُلَّتِهَا ؛ فَالْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ (٦)

وَدُونَكَهَا ــ يَا بْنَ الْكِرَامِ ــ حَبِيرَةً مِنَ النَّظْمِ سَدَّاهَا بِمَدْحِ الْعُلَا فَمِي (٧)

= من الريش : وهو كسوة الطائر . ومن المجاز : رشت فلاناً (من باب باع) : أى قوّيتُ جناحه بالإحسان إليه ، وأعنته ، وأغنيته ، ونعشته ، وأصلحتُ حاله ؛ فارتاش ، وتريّش . ويراد بالقول هنا : ما قاله الأمير « شكيب أرسلان » ونشره فى جريدة الأهرام من تقريظ شعر « البارودى » ، والتنويه باسمه ، والإشادة بذكره ، وإحسان الثناء عليه . وسرا الشىء عنه (من باب عدا) : نزعه ، وألقاه ، وكشفه . والقناع : ما يغطّى به الرأس ، أو يستر به الوجه. وتوهّم الشىء توهّماً : تمثّله وتخيّله ، كان فى الوجود ، أو لم يكن . وتوهّمتُ به سوءاً : ظننتُ . وقناع التوهّم : أى التوهّم الشبيه بالقناع ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه ؛ إذ التوهّم هنا ــ يحجب الحقيقة النيّرة الناصعة ، ويسترها ، ويغطّيها ، ويخفيها .

تمثّل « شكيب أرسلان » فى بعض مقالاته الأدبية التى نشرتها له جريدة الأهرام ــ بأبيات من شعر « البارودى » ، وأشاد بذكره ، ونوّه باسمه ، وأحسن الثناء عليه ؛ فقوّى بهذا الإحسان جناحه ، وأظهر فضله ، وأعلى مقامه ، وعظّم شأنه ، وجلّى للناس حقيقة أمره ، وسموّ قدره ، وكشف عنه مقانع الأوهام الخاطئة ، وحُجُبَ الظنون السيئة .

(٦) الفضيلة : الدرجة الرفيعة فى الفضل والخير وحسن الخُلق . واشتمل بالثوب : تلفّف به ، وأداره على جسمه كله . والحلة (بضم الحاء) : الثوب الجيد الجديد ، أو الثوب الساتر لجميع البدن . أو ثوب له بطانة . أو ثوبان من جنس واحد . أو ثلاثة أثواب : قميص ، وإزار ، ورداء . أو هى إزار ورداء . ولا تسمى حلة حتى تكون من ثوبين .

سبق « شكيب » إلى التمثّل بشعر « البارودى » ، والتنويه باسمه ؛ فاعترف له الشاعر بالسبق والتقدّم والفضل . ودعا له أن يبقى على الدوام متأزّراً بالمحامد ، مرتدياً بالفضائل ، سبّاقاً إلى المفاخر والمكرمات .

(٧) « دون » : اسم فعل : بمعنى « خذ » . و« دونكها » : خذها : أى خذ هذه الحبيرة : وهى الجديدة الناعمة الموشّاة من الثياب . والنظم : الكلام المنظوم : أى الموزون المقفّى . وهو خلاف النثر . ويراد بالحبيرة من النظم : هذه القصيدة : أى هذه الأبيات السبعة ، على تشبيهها بالحبيرة ، أو الحبير . والقصيدة من الشعر : سبعة أبيات ، فأكثر . وسدّاها : نظمها ، وألّفها ، وقالها . والأصل سدّى النسّاج الثوب تسدية : أى أقام سَداه . والسَّدَى : ما يمدّ طولاً فى النسيج . واللُّحمة : ما يمدّ عرضاً . ومن المجاز : سدّى منطقاً حسناً .

ناداه بقوله : « يا بن الكرام » فأشار بهذا النداء إلى أن الكرم ــ وهو جماع الفضائل والمحامد والمحاسن الكبيرة ــ متأصّل فيه ، وفى آبائه الكرماء . وقدّم إليه هذه القصيدة (من سبعة أبيات) نظمها فى الثناء عليه ، وإطراء فضله ، ونباهة شأنه ، وسموّ قدره . ومدّح رفعته وشرفه وعلاءه . واعترف له بالسبق إلى الفضائل ، والتقدّم فى المكرمات . ثم أردف هذه القصيدة بالرسالة النثرية الآتية :

« هٰذِهِ أَبْيَاتٌ تَفَطَّرَتْ[١] بِهَا الْقَرِيحَةُ[٢] بَعْدَ الْعُقْمِ[٣] . وَتَنَفَّسَتْ لَهَا الطَّبِيعَةُ[٤] بَعْدَ مُعَانَاةِ[٥] السُّقْمِ . جَعَلْتُهَا شُكْرًا لِمَا قَرَأْتُهُ فِى الْأَهْرَامِ مِنْ عَوَاطِفِ الْبِرِّ وَالْإِكْرَامِ . وَلَوْلَا أَنِّى فِى مَكَانٍ حَرِيدٍ[٦] ، وَقَدْ حَانَ[٧] قِيَامُ الْبَرِيدِ[٨] ، لَأَطَلْتُ عِنَانَ[٩] الثَّنَاءِ[١٠] ، وَمَلَأْتُ صَدْرَ الْإِنَاءِ[١١] . وَلَسَوْفَ أَفِى بِذِمَّةِ[١٢] الْوَعْدِ ، إِنْ أَضَاءَ نَجْمُ السَّعْدِ[١٣] . فَاقْبَلْ مِنِّى عَلَى عُدَوَاءِ[١٤] الدَّارِ سَلَامًا عَلَى جَنَاحِ الْبِدَارِ »[١٥].

(١) تفطّرت القريحة بالأبيات : أنتجتْها ، أو جادت بها ، أوقدرتْ عليها . من قولهم : تفطّرتْ الأرض بالنبات : أى تشقّقتْ عنه ، وأخرجتْه . (٢) وقريحة الإنسان : طبيعته . وملكة يستطيع بها ابتداع الكلام ، وإبداء الرأى . (٣) والعقم (بفتحتين ، أو بفتح فسكون ، أو بضم فسكون) : مصدر عقم الزوجان (كفرح ، ونصر ، وكرم ، وعُنِىَ) : أى كان بهما أو بأحدهما ما يمنع النسل من داء أوشيخوخة . وعقم القريحة : توقّفها عن الإنتاج : أى عن القول ، ونظم الشعر . (٤) والطبيعة السجية . والقوّة السارية فى الجسم ، وبها يصل إلى كماله الطبيعى . ويراد بها هنا : شاعرية الشاعر ، وموهبته ، وقوّته ، واقتداره ، واستعداده لنظم الشعر . ويراد بتنفّس الطبيعة : إبلالها ، وبرؤها ، وشفاؤها ، وتخلّصها من السقم ، أى المرض . أو المراد أن الطبيعة الشعرية انفرجتْ أزمّتها ، ووجدتْ راحة التنفّس بعد معاناة السقم . وتنفّستْ لها : أى تنفّستْ بهذه الأبيات السبعة . أو بسببها ، ومن أجلها . (٥) وعانى السقم ونحوه معاناة : كابده ، وقاساه ، وضاناه ، وركب هوله وصعوبته ، واحتمل مشقّته وشدّته (٦) والحريد : المعتزل ، المنتبذ ، المنفرد . ويراد بالمكان الحريد : النائى البعيد . (٧) وحان الأمر : جاء حينه ، وقرب وقته . (٨) والبريد (فى الأصل) : الدابة التى تحمل الرسائل . ويمكن إطلاقه على كل شىء يحملها من سيارة ، أو طيارة ، أو باخرة ، أو قطار . ويطلق البريد أيضاً على الرسائل والرسول . (٩) والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، ويقاد به الفرس ونحوه . (١٠) والثناء : اسم من أثنى عليه : أى وصفه بخير . وإطالة عنان الثناء : كناية عن الإطناب فيه . (١١) والإناء : الوعاء للطعام والشراب . وجمعه آنية . وجمع الآنية أوان . مثل سقاء وأسقية وأساق . وملء صدر الإناء : كناية عن الإسهاب فى الشكر ، والإطناب فى المديح ، وإطالة الإطراء ؛ فهو بمعنى «أطلت عنان الثناء» . (١٢) وذمّة الوعد : حقّه ، وحرمته ، وما ينبغى له من الصدق والوفاء . (١٣) وإضاءة نجم السعد : كناية عن إسعاد الله له ، وتوفيقه إياه ، وتيسيره لأموره ، وإعانته عليها . (١٤) وعلى عدواء الدار : أى مع بعد الدار ، وشطّ المزار . (١٥) والبدار : المسارعة : مصدر بادر إليه مبادرة وبداراً : أى أسرع إليه ، أو عاجله . وبادره الغاية ، وبادره إليها : أى سبقه إليها .

وَقَالَ يَرْثِى وَالِدَتَهُ ، وَقَدْ وَرَدَ نَعْيُهَا وَهُوَ فِى الْحَرْبِ * :

هَوًى كانَ لِى أَنْ أَلْبَسَ الْمَجْدَ مُعْلَمَا فَلَمَّا مَلَكْتُ السَّبْقَ عِفْتُ التَّقَدُّمَا(١)

وَمَنْ عَرفَ الدُّنْيَا رَأَى مَـا يَسُرُّهُ مِنَ الْعَيْشِ هَمًّا يَتْرُكُ الشُّهْدَ عَلْقَمَا(٢)

* رثى الميت (من باب رمى) : بكاه بعد موته . وعدّد محاسنه . ويقال : رثاه بقصيدة . ورثاه بكلمة . ونعاه نعياً (من باب سعى) ونعيّاً (على وزن فعيل) : أذاع خبر موته . ونعاه لنا ، ونعاه إلينا : أخبرنا بموته . وورد نعيها : أى جاءه خبر موتها . ولعله يريد بالحرب : حرب الثورة العرابية ، واحتلال الجيش الإنجليزى مصر سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢) م . وكان البارودى من قادة تلك الثورة ، الضاربين فى غمرتها .

(١) الهوى : مصدر هويه (كرضيه) : أى أحبه ، وتعلّقتْ به نفسه . والهوى أيضاً : الشىء المهوىّ: أى المحبوب ، أو المرغوب فيه . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء . ولُبْس المجد : تحصيل أسبابه ، والتمكّن منه ، والاتصاف به ، وبلوغ غايته . وهو تعبير مجازىّ ، كما يقال : لبس الحياء . والحياء لباس التقوى . وكما قيل : « تأزّر بالمجد ، ثم ارتدى » . ومعلماً : متميزاً ظاهراً . وهو حال من فاعل «ألبس» أو حال من « المجد» . وملكت السبق : أى ملكتُ أسبابه ، وتمكّنتُ منه ، وبلغتُ غايته . وعفْتُ التقدّم : أى زهدتُ فيه ، وانصرفتُ عنه . وفى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا « عضت التقدما » .

والمعنى : أنه كان من أهوائه وأطماعه ورغائبه أن يلبس المجد ، ويتميّز به ، ويبلغ فى الحياة الدنيا ـ بجدّه ومسعاه ، ودأْبه واجتهاده ـ كل ما يبلغه أمثاله من الأماجد الأعلام النابهين الطامحين ، ذوى الهمم القوية العالية ، والمقاصد الرفيعة البعيدة ، فلمّا أحرز قصب السبق فى هذا المجال ، وتماسّك الوصول إلى تلك الغايات ، وظفر بها ، وتمكّن منها ـ تخلّى عنها ، وآثر الزهد والقناعة ، وعاف الانطلاق والتقدّم ، وانصرفتْ نفسه عن المتابعة والمثابرة .

وهذا المعنى يناسب مقام الرثاء والحزن وانقباض النفس ، ويعدّ تمهيداً لمعنى البيت الرابع من أبيات هذه القصيدة :

إذا كان عقبى كل حىّ منيــة فسيان من حلّ الوهاد ، ومن سما

وهو فى الوقت نفسه مناسب لما كان يستشعره الشاعر ، ويتجرّعه فى أثناء نظم هذه المرثاة من الحسرة ، ومرارة الهزيمة ، وخيبة الأمل فى الثورة العرابية .

(٢) العيش المعيشة والحياة . والهمّ : القلق ، والحزن ، وجمعه هموم : مصدر همّه الأمر (من باب ردّ) : أى حزنه وأقلقه . وأهمّه مثله . والشهد (بفتح الشين وضمها) : عسل النحل مادام لم يعصر من شمعه . والعلقم : كل شىء مُرّ . والعلقم : الحنظل: وهو نبات يمتدّ على الأرض كالبطيخ . ثمره =

وَأَىُّ نَعِيمٍ فى حَيَــاةٍ وَرَاءَهَــا مَصَائِبُ لَوْ حَلَّتْ بِنَجْمٍ لَأَظْلَمَا(٣)

إذَا كَانَ عُقْبَى كُلِّ حَىٍّ مَنِيَّــةٌ فَسِيَّانِ مَنْ حَلَّ الْوِهَادَ، وَمَنْ سَمَا(٤)

= فى حجم البرتقال . ويضرب المثل بمرارته .

والمعنى: أنه لو فكر الحكيم العاقل فى الحياة الدنيا ، وأدرك ببصيرته حقيقتها ، لعلم أن مباهجها وحلاوتها متصلة اتصالاً وثيقاً بهمومها ومرارتها؛ فهى قد تسرّ وتفرح ، ولكنها لا تلبث أن تحزن وتؤسف . وإذا سقتْك الحلو مرّة ، جرّعتْك المرّ مراراً ؛ فسرور العيش فيها منطو على القلق والحزن . وما بالك بسرور عابر موقوت سريع التحول والزوال ، ولا يعقب بطبيعته غير الأسى والحسرات ؟

وهذا المعنى كثير فى شعر الحكمة ، والزهد ، والفلسفة ؛ فأبو نواس يقول :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفَتْ له عن عــدوّ فى ثياب صديق

وأمير الشعراء أحمد شوقى يقول :

ضحك الدنيــا احتشاد للبكا وأغانيهــا معــدّات الأنين

والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويعززه ، ويؤكّده .

(٣) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى . والنعيم : الدعة والسكينة والطمأنينة ، والراحة ، وخفض العيش ورغده ، وغضارة الحياة ونضارتها ، وحسن الحال ، ورخاء البال .

والمعنى : أن حياة الإنسان فى الدنيا مهددة بكوارث ونكبات ، لو أصابت الكواكب النيرات لأطفأت أضواءها ، وجعلتها ظلمات بعضها فوق بعض ؛ فأنّى له نعيم البال مع هذه الحال ، وأين يجد الطمأنينة والاستقرار ؟ . وهذا كله توضيح وتأكيد لمعنى البيت السابق .

(٤) عقبى كل شىء : آخره ، ونهايته ، وخاتمته . ومثلها العاقبة . والمنية : الموت . وجمعها منايا . وسيان : مثلان ، أو متماثلان : مثنى السىّ : وهو المثل والمساوى والنظير . وحلّ الوهاد : نزل بها : جمع وهدة : وهى الأرض المنخفضة . وسما : علا ، وارتفع ، وتطاول . والمراد سما إلى القمم والنجاد .

والمعنى : أن الموت يسوّى بين النابه والخامل ، والرفيع والوضيع ، والأمير والسوقة ، وهو نهاية محتومة لكل حىّ من المخلوقات ، « لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه » (الآية رقم ٨٨ من سورة القصص) . وإذ كان الأمر كذلك فلا فرق بين من عاش متزوياً مغموراً ، ومن رفعه حظّه أو اجتهاده ، أو طمعه ، أو طموحه إلى أعلى مراتب الرفعة والسموّ ، والنباهة والعلاء . والغرض : التزهيد فى الدنيا ، وتهوين أمرها ، والنهى عن الاغترار بها ، والتكالب عليها ، ومكافحة الحرص المذموم ، وتخفيف الحزن على ما فات منها ، وتعزية المصابين ببلاياها ، وإعانة الأحياء على احتمال مصائب الموت ، وبخاصة موت الأهل والأقرباء والأحبّاء . وهذا المعنى أو بعضه يوائم الزهد الذى أشرنا إليه فى شرح البيت الأول من هذه القصيدة ، ويوضحه ، ويفصّله ، ويعززه .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّا نَرَى الْحَقَّ جَهْرَةً ... وَنَلْهُو ، كَأَنَّا لَا نُحَاذِرُ مَنْدَمَا(٥)

يَوَدُّ الْفَتَى فِى كُلِّ يَوْمٍ لُبَانَةً ... فَإِنْ نَالَهَا أَنْحَى لِأُخْرَى ، وَصَمَّمَا(٦)

طَمَاعَةُ نَفْسٍ تُورِدُ الْمَرْءَ مَشْرَعًا ... مِنَ الْبُؤْسِ لَا يَعْدُوهُ أَوْ يَتَحَطَّمَا(٧)

---

(٥) العجب : روعة تأخذ الإنسان عند استعظام أمر ، لوصف فيه ، زائد على المألوف ، مع خفاء السبب . ومثله التعجّب : أى ومما يدعو إلى العجب ، أو مما يتعجّب منه أنا نرى الحقّ ونلهو... والحقّ : الثابت الذى لاشكّ فيه ، ولا مراء . ويريد به هنا : ما أشار إليه فى الأبيات السابقة من هوان أمر الدنيا ، وخداعها ، واختلاط مباهجها بأحزانها ، وسرعة زوال نعيمها ، وترصّد الموت للإنسان ، وكثرة ما يهدّد حياته وعيشته من حدَثان الدهر ، ونوائب الزمان . ورأى الشيء جهرة : أى رآه عياناً ، غير مستتر عنه بشيء . ونلهو : نلعب : أى نغفل ، ونذهل ، ونشغل ، عن هذا الحق الذى يطالعنا ، ونطالعه كل وقت ، ونراه عياناً . والمندم : الندم : مصدر ميمى من ندم على الأمر (من بابى طرب ، وسلم) : أى تندّم ، وأسف ، وكرهه بعد ما فعله .

والمعنى : أنه مما يثير الدهش ، ويدعو إلى العجب أن الناس يغترّون بزخرف الدنيا وباطلها ، ويغرقون فى اللهو واللعب ، وهم يعلمون علم اليقين أن نعيمها سراب خادع ، وأن حياتهم فيها محفوفة بالمصائب ، وأن عواقب هذا الاغترار ندامات وحسرات .

(٦) الفتى (فى الأصل) : الشابّ الحدَث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تفرقة بين الشيخ والشابّ . وهذا المعنى هو المراد هنا ، بل المعنى يشمل الفتيان والفتيات ، وكلّ المتكالبين على الدنيا من رجال ونساء ؛ ويلاحظ أن هذا البيت وأكثر الأبيات السابقة ، وكثيراً من الأبيات اللاحقة تجرى مجرى الحكم أو الأمثال . واللبانة : الحاجة من غير فاقة ، بل من نهمة : أى إفراط فى الرغبة أو الشهوة . وأنحى : مال ، وقصد ، وأقبل ، واتجه . وصمّم فى كذا ، وعلى كذا تصميماً : أى مضى فيه بعزم قوىّ ، وحرص شديد ، وجدّ وصبر ، ونيّة معقودة ، وإرادة قاطعة .

يصف حرص الناس ، ونهمهم ، وتهافتهم على لبانات الحياة ؛ فكلما ظفر الواحد منهم بلبانة أقبل على أخرى فى عزم قوىّ ، وتصميم أكيد . وفى غير قناعة ، أو اعتدال ، أو قصد ، أو اعتبار .

وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة واللاحقة : أن تهافت الناس على لبانات الحياة . وحرصهم على جمعها ، وإسرافهم فى تحصيلها — هو فى حقيقته طمع مذموم ، واغترار بالدنيا ، وجرى وراءها ، وغفلة عن العقبى والمصير . وهو فى الوقت نفسه شيء يدعو إلى العجب . وفى أربعة الأبيات الآتية تفصيل لهذا ، وتصريح بشيء منه ، وبيان للعواقب . وفيها معنى العظة والاعتبار .

(٧) الطماعة : شدة الطمع : مصدر طمُع (من باب كرم) : أى كثر طمعه وساء ، واشتدّ حرصه وجشعه . وأورده الماء : جعله يرده ، ويشرف عليه . والمشرع (بوزن المذهب) : مورد الماء ، =

أَرَى كُلَّ حَيٍّ غَافِلًا عَنْ مَصِيرِهِ وَلَوْ رَامَ عِرْفَانَ الْحَقِيقَةِ لَانْتَمَى(٨)

فَأَيْنَ الْأُلَى شَادُوا ، وَبَادُوا ؟ أَلَمْ نَكُنْ نَحُلُّ كَمَا حَلُّوا ، وَنَرْحَلُ مِثْلَمَا ؟(٩)

= حيث يُستقى منه بلا رشاء . و « من » : بيانية ؛ فالمشرع يبينه البؤس : وهو الشدة ، والمكروه ، والافتقار ، واشتداد الحاجة . ولا يعدوه : لا يتجاوزه ، ولا يتعداه . و « أو » : بمعنى «إلى» أو بمعنى «إلاّ» : أى أن ذلك المسرف فى الطمع يلتزم مورد البؤس إلى أن يتحطّم ؛ ويتكسّر ، ويفنى ، ويهلك . أو أنه لا يجاوز مورد البؤس إلاّ إذا تحطّم وهلك .

يقول : إن تكالب الناس على لبانات الحياة ، وحرصهم على جمعها ، وإسرافهم فى تحصيلها — سببه ما انطوت عليه نفوسهم من طمع شديد ، وجشع ممقوت ، لا يلبث أن يوردهم موارد البؤس ، والفقر ، والشدة ، والضنك ، والشقاء والتّهلكة .

(٨) معنى الشطر الأول : أن الموت مصير كل مخلوق حىّ ، وأن غفلة المرء عن الموت غفلة عن مصيره المحتوم . وغفل عن الشىء ، فهو غافل : أى سها عنه من قلة التحفظ والتيقظ . أو تركه إهمالاً من غير نسيان . ويراد بالعرفان : المعرفة الواعية النافعة ، الواعظة المثمرة . ويراد بعرفان الحقيقة : أن يعرف الإنسان حقيقة مصيره ؛ ليتدبر أمور الموت والحياة ، وينتفع بهذا التدبر . وانتمى إلى كذا : انتسب إليه ، واعتزى . والمراد : انتسب إلى الحقيقة ، واتصل بها الاتصال النافع ، وعرفها تمام المعرفة . أو المراد انتسب إلى أصله الميت الفانى ، وهو آدم . وعرف أن الموت نهاية كل آدمى ، واتعظ بهذه المعرفة الواضحة ، أو الحقيقة التى لا ريب فيها :

صاح ! شمّر ، ولا تزل ذاكر المو ت ؛ فنسيانه ضلال مبين

والمعنى : أن الحياة الدنيا قد تشغل الناس ، وتغرقهم فى الغفلة ، وتغرّهم بزخرفها ، وتخدعهم بباطلها ، وتلهيهم عن مصيرهم المحتوم ، وهو الموت القريب المتربص . ولو أراد كل امرئ معرفة هذه الحقيقة التى لا مراء فيها لا نتسب إليها ، واتصل بها ، وتدبرها ، وأطال النظر والتفكير فيها . أو لا نتسب إلى أصله الفانى ، وهو آدم ، وأيقن أن الموت نهاية كل آدمى ، وأنه متربص به ، مترقب له ، وأن عمره فى الدنيا قصير ، وحياته موقوتة محدودة ... وبنى على هذا كله سلوكه ، وأعماله ومعاملاته ، وتصرفاته فى هذه الحياة القصيرة الفانية ، والغرض التنبيه والوعظ . والبيتان الآتيان يعززان هذا المعنى .

(٩) شاد البناء (من باب باع) : رفعه وأعلاه وأحكم بنيانه . أو زيّنه ، وطلاه بالشيد : وهو الجصّ والملاط ، وكل ما تطلى به الحيطان . وبادوا : هلكوا ، وانقرضوا (وبابه باع) . وحلّ المكان ، وحلّ به (من بابى قعد ، وضرب) : نزل به . أو سكن فيه . ورحل عنه (من باب منع) : غادره وتركه ، وظعن عنه . والرحيل : خلاف الحلول . والتركيب المقصود فى الاستفهام الثانى : « ألم يكونوا يحلّون كما نحلّ ، ويرحلون مثلما نرحل ؟ » . أو المعنى : ألسنا نحلّ المنازل التى حلّوا بها قبلنا ، وسنرحل قطعاً عن هذه الحياة كما رحلوا ؟ والاستفهام للتقرير . =

مَضَوْا ، وَعَفَتْ آثَارُهُمْ غَيْرَ ذُكْرَةٍ تُشِيدُ لَنَا مِنْهُمْ حَدِيثًا مُرَجَّمَا(١٠)

سَلِ الْأَوْرَقَ الْغِرِّيدَ فِى عَذَبَاتِهِ أَنَاحَ عَلَى أَشْجَانِهِ ، أَمْ تَرَنَّمَا؟(١١)

= والبيت وثيق الاتصال بالذى قبله ، فإن الناس أو أكثرهم غافلون عن مصيرهم ، جاهلون بالحقيقة التى ينبغى أن يعرفوها معرفة مثمرة هادية ؛ ولهذا نبههم الشاعر فى هذا البيت بهذين الاستفهامين ، ووعظ وبصّر بالعواقب ، ودعا إلى الاعتبار بمن سبقونا إلى هذه الحياة ، وكانت لهم فى الأرض إقامات ورحلات وعمارات ومساكن ، وحضارات ومعايش ، ثم طواهم الردى ، وأصابهم ريب المنون . والبيت الآتى إتمام وتأكيد وتفصيل لهذا المعنى . وفى القرآن الكريم : « أفلم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . (الآية رقم ٨٢ من سورة غافر) .

(١٠) عفا الأثر (من باب عدا) : درس ، وبلى ، وزال ، وامحى . وآثار السابقين : ما خلّفوه من ديار ومصانع وعمران وأخبار . والذكرة (بضم فسكون) : الشىء يجرى على اللسان ، أو فى القلب بعد نسيانه . وذكرته بلسانى وبقلبى ذِكْراً ، وذُكْرة ، وذِكْرى . وتُشيد : المراد تَرْوى ، وتحدّث ، وتنقل . وفاعله ضمير الذكرة . والإشادة (فى الأصل) : رفع الصوت بالشىء . وحديث مرجّم : مظنون غير مستيقن . وفى ترجيم أحاديثهم وأخبارهم إشارة إلى بُعْد العهد بهم .

والمعنى : أن هؤلاء الذين شادوا ، وبنوا ، وأثاروا الأرض وعمروها قد طواهم الموت ، وبَعُدَ العهد بيننا وبينهم ، وعَفَتْ بعفائهم آثارهم ومخلّفاتهم ، ولم يبق منها غير ذكريات وأحاديث ظنيّة تجرى أحياناً على ألسنة الناس ، ويرويها عنهم رواة الأخبار .

(١١) «سل» : أمر من سال يسال (بتخفيف همزته) . والأصل سأل يسأل . والأورق : الطائر الرمادىّ اللون . ومؤنثه الورقاء ، والغرّيد : الكثير الغرد . غرد الطائر (من باب فرح) : أى رفع صوته بالغناء ، ورجّعه ، ومدّه ، وطرّب به . والعذبات : الأغصان . واحدتها عذبة (بوزن قصبة) . وناحت الحمامة (من باب قال) : سجعت : أى ردّدت صوتها على طريقة واحدة . وناحت المرأة على الميت : بكت عليه صائحة بجزع وعويل ، واستبكت غيرها بنواحها . و« على » : معناها هنا التعليل : أى ناح لأشجانه : أى بسببها ؛ فالأشجان علّة النواح وسببه . واحدها شجن (بوزن سبب) : وهو الهمّ والحزن والأسى . وترنّم : رجّع صوته ، وطرّب به ، وغنّى غناء حسناً .

يقول : إنك تسمع سجع الحمام ، وتغريد الطير على الأغصان ؛ فلا تدرى أيسجع حزناً ، أم يتغنّى سروراً . يشير بهذا إلى ما يلحظ فى الطير والحيوان والناس من اختلاط الأصوات وتشابهها فى الحزن والفرح ، والنعى والتبشير ؛ فالنواح والبكاء يقارب الترنّم والغناء ، كما قال أبو العلاء المعرىّ :

وشبيه صوت النعىّ إذا قيـ س بصوت البشير فى كل نادى

أبكت تلكم الحمامة ، أم غنـ نت على فرع غصنها المياد

والغرض تهوين الأمر وتخفيفه على الواله الحزين ، والأسيف الملتاع .

=

تَرَجَّحَ فِى مَهْدٍ مِنَ الْأَيْكِ ، لَا يَنِى   يَمِيلُ عَلَيْهِ مَـائِلًا وَمُقَوَّمًا[(١٢)]

يَنُوحُ عَلَى فَقْدِ الْهَدِيلِ ، وَلَمْ يَكُنْ   رَآهُ ، فَيَاللّٰهِ ! كَيْفَ تَهَكَّمَا ؟[(١٣)]

= وقد يكون الاستفهام فى الشطر الثانى من تجاهل العارف ؛ فالشاعر يعلم أن الأورق الغريد ينوح حزناً فى عذباته ؛ بدليل البيت الثالث عشر : « ينوح على فقد الهديل ... » ولكنه ساق هذا المعلوم مساق المجهول ، واستفهم فى حيرة ودهشة ، ووله وجزع ؛ ليضاعف التأثير بكلامه ، ويرفع درجته فى مراتب البلاغة والبيان .

(١٢) ترجّح : تميّل ، وتهزّز ، وتحرّك . وفاعله ضمير « الأورق الغريد » فى البيت السابق . والمهد فى الأصل : الموضع ، أو الفراش ، أو السرير يمهّد للصبى : أى يوطّأ ، ويهيّأ ، لينام فيه . ومهد الطائر : ما يألفه ، ويسكنه ، ويحبّه ، ويجد فيه راحته وطمأنينته من الأشجار الملتفّة الناضرة . و «من» : بيانية ؛ فما بعدها ، وهو الأيك بيان لما قبلها وهو المهد . والأيك : جمع أيكة : وهى الشجر الكثير الملتفّ الكثيف . ولا ينى : لا يفتر ، ولا يتوانى ، ولا يكلّ ؛ ولا يضعف . وهو لا ينى يفعل كذا : أى لا يزال يفعله : أى يفعله باستمرار ؛ بلا ضعف أو كلال ، أو إعياء ، أو فتور . ويميل عليه : أى يميل على الأيك : أى على غصن من أغصان الأيك : أى يهتزّ فوقه ، ويتحرّك ، ويترجّح . و« مائلاً » و « مقوّماً » : حالان من فاعل « يميل » وهو ضمير « الأورق الغريد » : أى فهو مائل مرة ، ومقوّم مرة أخرى : أى مستقيم ، معتدل ، مستو ، غير مائل : اسم مفعول من قوّمه تقويماً : أى عدّله ، وأزال ميله وعوجه ، وأقامه وسوّاه . أو هو بصيغة اسم الفاعل : بمعنى مُستَقيِم أو مستقيم . والحركة الدائبة بين الميلان والاعتدال تصوير وتفصيل وتأكيد لمعنى الترجّح فى أول البيت ؛ فالطائر فوق الغصن لا يفتأ يترجّح ، ويتهزّز ، ويتحرك ، ويميل ، ويستقيم .

(١٣) فاعل « ينوح » : ضمير « الأورق الغريد» . والهديل (فيما تزعم العرب) : أب للحمام ، أو فرخ كان على عهد نوح عليه السلام . ثم مات عطشاً ، وضيعة . أوصاده جارح من جوارح الطير ؛ فما من حمامة إلا وهى تحنّ إليه ، وتبكى عليه . و« ياللّه » أسلوب استغاثة : وهى نداء من يعين على دفع شدّة ، كقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ياللّه للمسلمين » . والمستغاث به فى البيت لفظ الجلالة . والمستغاث لأجله محذوف ؛ فالشاعر هنا يستغيث الله لنفسه ، أو لهذا الطائر الأورق الغرّيد الذى ينوح على فقدان الهديل . والاستفهام بـ «كيف» هنا : معناه التعجّب . وتهكّم : تندّم : أى تحسّر ، وأسف ، وحزن . وتهكّم : تغنّى وترنّم . والمراد سجع وهدر وناح .

للحمام سجعات تتوالى على طريقة واحدة ، وتنمّ على ما يشبه الحزن والأسى ؛ ولهذا يقال : ناحت الحمامة . والشاعر يستغيث الله لنفسه أو للحمام ، ويعجب : كيف اشتدّ حزن كل حمامة ، واتصلت نياحاتها على ذلك الفرخ ، أو الجدّ القديم الذى لم تره .

وَشَتَّانَ مَنْ يَبْكِي عَلَى غَيْرِ عِرْفَةٍ ... جِزَافًا ، وَمَنْ يَبْكِي لِعَهْدٍ تَجَرَّمَا[١٤]

لَعَمْرِي لَقَدْ غَالَ الرَّدَى مَنْ أُحِبُّهُ ... وَكَانَ بِوُدِّي أَنْ أَمُوتَ وَيَسْلَمَا[١٥]

وَأَيُّ حَيَاةٍ بَعْدَ أُمٍّ فَقَدْتُهَا ... كَمَا يَفْقِدُ الْمَرْءُ الزُّلَالَ عَلَى الظَّمَا[١٦]

تَوَلَّتْ . فَوَلَّى الصَّبْرُ عَنِّي ، وَعَادَنِي ... غَرَامٌ عَلَيْهَا ، شَفَّ جِسْمِي ، وَأَسْقَمَا[١٧]

---

(١٤) « شتان » : اسم فعل ماض ، بمعنى افترق ، وتباين ، وبَعُدَ ، واختلف . وعرفة (بكسر فسكون) : عرفان ، أو معرفة : مصدر عرفه . وجازفه جزافاً ومجازفة : أى باعه ، أو ابتاع منه بلا كيل ، أو وزن . والجزاف (بتثليث الجيم) : الحدس والظن والتخمين فى البيع والشراء . وجازف فى كلامه : أى تكلم بلا تبصّر . وبكاه جزافاً : أى بكاه على غير معرفة . والعهد : الزمان . وتجرّم : تصرّم ، ومضى ، وانقضى ، وذهب ، وانقطع ، وجملة « تجرّم » : صفة لـ « عهد » .

يقول : إن البون شاسع ، والفرق بعيد بين بكائه وبكاء الحمام ؛ فالحمام يبكى على جَدّ له قديم لم يره ، ولا يكاد يعرفه . والشاعر إنما يبكى والدته ، وهى أحبّ الناس إليه ، وأحنّهم عليه ، وأقربهم منه ، وينوح على ما انقطع من زمانها ، وما ذهب بذهابها من عهود وحقوق ، وحرمات ومودّات .

والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويفصّله ، ويؤكّده ، ويعزّزه .

(١٥) اللام المفتوحة فى أول البيت للابتداء . وفائدتها توكيد مضمون الجملة بعدها . وعمرى : حياتى . وهو مبتدأ . وخبره محذوف . والتقدير : «لعمري قسمي» : أى ما أقسم به : أى أقسم بعمرى ، وأحلف بحياتى . واللام الثانية « لقد .. » واقعة فى جواب القسم . وغال : اغتال : وأردى ، وأهلك . والود (بتثليث الواو) : المودة والمحبة .

يقول : كان مما يودّه ، ويرغب فيه ، ويحرص عليه ، ويتمناه أن يجعله الله فداء لأمّه ؛ فيموت وتبقى لها العافية والسلامة . وبلاغة القسم فى صدر هذا البيت : أن نعى أمّه إليه وهو فى الحرب أجزعه وحزنه حزناً شديداً ، حتى انتهى به الجزع إلى ما يشبه الدهش أو الذهول ، ثم التشكّك والارتياب ، فكان بين مصدّق للنعى ومكذّب ؛ فاقتضى الحال تأكيد الخبر بهذا القَسَم .

(١٦) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى . والزلال : الماء العذب الصافى السائغ البارد السلس . و« على » : بمعنى « مع » فهى هنا للمصاحبة . والظمأ : شدة العطش . وسُهِّلَتْ الهمزة هنا لضرورة وزن الشعر .

يقول : إنه لا قيمة للحياة بعد وفاة والدته . ولقد غالتْها المنون مع شدة تعلّقه بها ، واحتياجه إلى برّها وحنانها ، وحرصه على حياتها وسلامتها ؛ ولهذا جزع جزعاً شديداً . والبيت الآتى فى تأكيد معنى الجزع .

(١٧) تولّى ، وولّى : أدبر ، وذهب ، ومضى ، ونأى ، وبَعُد . وفاعل « تولّتْ » : ضمير «الأمّ» فى البيت السابق . وعادنى : أتانى ، وانتابنى ، وتردّد إلىّ ، وتكرّر علىّ . أو أصابنى مرة =

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذُكْرَةٌ تَبْعَثُ الْأَسَى ... وَطَيْفٌ يُوَافِينِى إِذَا الطَّرْفُ هَوَّمَا(١٨)

وَكَانَتْ لِعَيْنِى قُرَّةً ، وَلِمُهْجَتِى ... سُرُورًا ، فَخَابَ الطَّرْفُ وَالْقَلْبُ مِنْهُمَا(١٩)

فَلَوْلَا اعْتِقَادِى بِالْقَضَاءِ وَحُكْمِهِ ... لَقَطَّعْتُ نَفْسِى لَهْفَةً وَتَنَدُّمَا(٢٠)

= بعد أخرى . والغرام : الولوع : أى التعلّق الشديد . والحبّ المعذّب للقلب . والشرّ ، والعذاب الدائم الملازم . ويراد به هنا : الأسف والأسى والحزن الشديد . وشفّه الهمّ أو الحبّ (من باب ردّ) : هزله ، وأنحله ، وضمّره ، وأرّقه ، وأضناه . وأسقمه : أمرضه .

توفيتْ أمّه ، فلم يجد صبراً على موتها ؛ واشتدّ حزنه عليها ، وثَقُلَتْ عليه وطأة الأسى والجزع ، حتى أورثتْه الهزال ، والضنى ، والنحول ، والسقام .

(١٨) الذكرة : اسم من ذكرت الشيء بعد نسيانه : أى تذكّرته . والأسى : الحزن . والطيف : الخيال الطائف ، يراه النائم . أو هو صورة الشيء ، وخياله الذى يتراءى للإنسان فى اليقظة ، أو فى المنام . ويوافينى : يأتينى . أو يفاجئنى . والطرف : العين . وهوّم تهويماً : نام نوماً خفيفاً . وتهويم عينيه : وَسَنه ، ونعاسه .

لم يبق بعد وفاة أمّه إلا خيالها الذى يطيف به فى المنام ، وذكرياتها التى تبعث الأسى ، وتجدّد فى قلبه الحزن والأسف .

(١٩) اسم « كانت » : ضمير الأم فى البيت السادس عشر : أى وكانت أمى قرة لعينى . والقرة : البهجة والسرور . وأصله من قرّ اليوم : أى برد . أو من قرّ بالمكان : أى استقرّ به ، وسكن ، واطمأن . وبمراعاة هذين الأصلين قيل : أقرّ الله عينه : أى أعطاه حتى قرّتْ عينه ، وسكنتْ ، واطمأنتْ ، ولم تطمح إلى شيء فوق عطاء الله . أو حتى بردتْ ، ولم تسخن : أى ظلتْ باردة مسرورة ، لا يصيبها ما يسوءها ؛ فللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارّة . والمهجة : الروح ، والنفس . أو القلب . وخاب : خسر ، وحُرم ، ومُنع . والطرف : العين . ومنهما : أى من القُرّة والسرور .

(٢٠) المفهوم من المعجمات اللغوية التى اطّلعنا عليها أن فعل « الاعتقاد » يتعدى بنفسه إلى المفعول به ؛ فتقول : اعتقدتُ كذا : إذا صدّقته ، وعقدت عليه ضميرك وقلبك ، أو تديّنت به . ويلاحظ أن الشاعر هنا عدّى الاعتقاد بالباء « فلولا اعتقادى بالقضاء » ، كأنه ضمّنه معنى « الإيمان » الذى يتعدّى بالباء . والقضاء : فصل الأمر . ويراد به هنا : قضاء الموت وقَدَره وحكمه الذى لا معقّب له ، ولابدّ من نفاذه . أى فلولا إيمانى بأن الموت لا يُردّ ، ولا يُدفع ، وأن الله كتبه على كل حىّ من خلقه ، وجعله نهاية محتومة لهذه الحياة الدنيا لقطّعت نفسى . واللهفة : الحزن ، والتحسر على الفائت . ومثلها أو قريب منها التندم : مصدر تندّم على الشيء : أى تحسّر عليه وتلهّف وحزن . =

فَيَا خَبَرًا شَفَّ الْفُؤَادَ ، فَأَوْشَكَتْ سُوَيْدَاؤُهُ أَنْ تَسْتَحِيلَ ، فَتَسْجُمَا(٢١)

إِلَيْكَ ، فَقَدْ ثَلَّمْتَ عَرْشًا مُمَنَّعًا وَفَلَّلْتَ صَمْصَامًا ، وَذَلَّلْتَ ضَيْغَمَا(٢٢)

أَشَادَ بِهِ النَّاعِي ، وَكُنْتُ مُحَارِبًا فَأَلْقَيْتُ مِنْ كَفِّي الْحُسَامَ الْمُصَمِّمَا(٢٣)

= والمعنى : أنه يؤمن بأن الموت من قضاء الله الذى لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه . ولولا هذا الإيمان لذهبتْ نفسه على أمّه حسرات .

(٢١) يريد بالخبر : نبأ الموت : أى نعى أمّه إليه وهو فى الحرب . وشفّه الهمّ والمرض ونحوهما (من باب رد) : هزله ، ونحله ، وضمّره ، وأرّقه ، وأوهنه ، وأضناه . وأوشك : سَرُع ، وقَرُب ، ودنا . وهو من أفعال المقاربة . وسويداء الفؤاد : سواد القلب ، وحبّته (تصغير السوداء) . وتستحيل : تتحوّل ، وتتغيّر ، وتنقلب عن حالها ، فتسيل بعد جمودها وتذوب . وتسجم (بالبناء للفاعل ، أو بالبناء للمفعول) : تسيل ، وتنصبّ . أو تُسال ، وتُصبّ : الأول مضارع سجم الدمع والمطر ونحوهما (من باب دخل) : أى انسجم ، وسال ، وجرى ، وانصبّ . والثانى من سجمتْ العين دمعها ، وسجمتْ السحابة ماءها (من بابى ضرب ودخل) : أى أسالتْه ، وصبّتْه ، فانسجم ، وانصبّ ، وانسكب .

يقول : إن نعى أمّه إليه شفّ قلبه ، وكاد يذيبه ، ويسيله ، ويذهب به ، ويقضى عليه ، ويُرْديه .

(٢٢) « إليك » : اسم فعل أمر : بمعنى تنحّ عنى ، وتباعد منى . والخطاب للخبر بمعنى النعى فى البيت السابق . وثلّمْتَ : كسرتَ ، وحطّمت . والعرش : العزّ . وقوام الأمر ، ومَلاكه ، وركن الشىء ، ودعامته وعماده . وثُلّ عرشه : أى وَهَى أمره ، وضعف شأنه ، وذهب عزّه . والممنع : المنيع القوىّ العزيز ، الحصين ، الذى لا يقدر عليه من يريده . وثلّم عرشه الممنّع : أى أوْهَى ما كان قوياً من أمره ، وضعضعه ، وأضعف مُنّته . وفلّلتَ : كسرتَ ، وحطّمتَ . مبالغة فى « فلّه » . والصمصام: السيف الصارم ، الحاد القاطع ، الذى لاينثنى . وذللت : أضعفت ، وأوهنت ، وأخضعت . والضيغم : الأسد الواسع الشدق .

والبيت كله — كالبيت الذى سبقه — مبالغة مقبولة فى بيان ما كان لنعى أمّه من أثر سيّىء شديد فى نفسه ، وفى حياته . وفى البيت — مع هذا — فخر ضمنى بما كان له من عزة ومنعة ، وقوة وبأس شديد؛ فإن الكلمات : (العرش الممنّع . والصمصام . والضيغم) تشير إلى هذه المفاخر ، بل إلى أكثر منها .

(٢٣) أشاد بالشىء : أعلنه ، ورفع به صوته . و« به » : أى بالخبر : وهو نعى أمّه إليه . والناعى : الذى ينعى الميت (من باب سعى) : أى يذيع خبر موته ، ويعلنه . والحسام : السيف الحاد القاطع . والمصمم : اسم فاعل من صمّم السيفُ ونحوه تصميماً : أى نَيَّب ، وعضّ ، وقطع ، وطبّق ، ومضى إلى العظم ، وأصاب المفصل .

مازال الشاعر يبالغ مبالغة مقبولة فى بيان أثر نعى والدته إليه وهو يحارب ؛ فقد سمع النعى ، فاهتزّتْ له مشاعره ، واضطرب أمره ، واشتد به الجزع ، فألقى سلاحه ، وأضرب برهة عن القتال والنزال .

وَطَارَتْ بِقَلْبِي لَوْعَةٌ لَوْ أَطَعْتُهَا ... لَأَوْشَكَ رُكْنُ الْمَجْدِ أَنْ يَتَهَدَّمَا(٢٤)

وَلَكِنَّنِي رَاجَعْتُ حِلْمِي . لِأَنْثَنِي ... عَنِ الْحَرْبِ مَحْمُودَ اللِّقَاءِ مُكَرَّمَا(٢٥)

فَلَمَّا اسْتَرَدَّ الْجُنْدَ صِبْغٌ مِنَ الدُّجَى ... وَعَادَ كِلَا الْجَيْشَيْنِ يَرْتَادُ مَجْثِمَا(٢٦)

---

(٢٤) طارتْ بقلبي : ذهبتْ به في عنف وقوة ، وخفّة وسرعة . واللوعة : حرقة في القلب ، وألم من همّ ونحوه . و« لو » هنا : حرف يفيد امتناع الجواب لا متناع الشرط ؛ فالشاعر لم يطع اللوعة ، فلم يتهدّم مجده ، وبقي راسخاً شامخاً قوياً منيعاً . . وأوشك : دنا وقرب وأسرع . وركن الشيء : أحد جوانبه التي يستند إليها ، ويقوم عليها . والمجد : العزّ والشرف ، والرفعة والعلاء .

والمعنى : أن نعي أمّه إليه لاعه وأجزعه وأحرق فؤاده . ولو انقاد للوعة الحزن ، لطوتْه على نفسه ، وغيّرتْ مجرى سلوكه في الحياة ، وأقعدته عن مواصلة الحرب والقتال ؛ وبهذا ينهار مارسخ وسما من عزه ومجده ، وشرفه وصيته . والبيت الآتي يؤيّد هذا المعنى .

(٢٥) راجعت حلمي : رجعت إليه ، واهتديت بهديه ، وعوّلْتُ عليه . والحلم : الأناة ، والصبر ، والوقار ، والعقل ، وضبط النفس . وأنثني عن الحرب : أعود منها ، بعد أن تضع أوزارها . ويراد باللقاء : ملاقاة الأعداء واستقبالهم ومواجهتهم . واللقاء المحمود : هو القائم على الكفاح والجلاد ، وشدة البأس ، والاستبسال ، وحسن البلاء . و«محمود اللقاء» : حال من فاعل «أنثني» . و« مكرّماً » : حال ثانية : اسم مفعول من كرّمه تكريماً : أي أكرمه ، وعظّمه ، وفضّله ، ونسبه إلى الكرم بمعناه العامّ ، وهو جماع الفضائل والمحامد ، والمكرمات ، والأخلاق الفاضلة ، والمحاسن الكبيرة ، والأفعال العظيمة التي تظهر من الإنسان . وفي مقدّمتها الجهاد في سبيل الله ، وحرب الدفاع عن النفس والوطن .

يقول : إنه عالج الجزع والأسى بمراجعة حلمه وعقله ؛ ليواصل جهاده ، ويجري على طبعه وخلقه الكريم ، ويعود من تلك الحرب بالتمجيد والتكريم .

(٢٦) الصبغ (بكسر فسكون) : ما يصبغ به : أي ما تلوّن به الثياب ونحوها . والصبغ : المصبوغ . ويراد به هنا : ظلمات الليل ودياجيه . و« من » : بيانية ؛ فما بعدها وهو الدجى بيان لما قبلها وهو الصبغ : جمع دجية : وهي الظلمة . ويرتاد : يطلب . ومجثم (بوزني مجلس ومقعد) : اسم مكان من جثم الإنسان والطير والحيوان (من بابي ضرب وقعد) : أي لزم مكانه ، فلم يبرح . أو وقع على صدره ، أو تلبّد بالأرض ، أو برك كما يبرك البعير . ويراد بالمجثم هنا : المكان الملائم الذي يجد فيه الجيش المحارب منعته وطمأنينته وراحته الموقوتة . واستردّ دجى الليل الجند : أي وجد المتحاربون فيما أسدله الليل من حنادسه ودياجيه وظلماته فرصة موقّتة ، وفترة محدودة يرجعون فيها إلى شيء من الراحة والاستجمام ، ويجدون فيها شيئاً من السكون والطمأنينة . وجواب « لما » في صدر البيت الآتي .

صَرَفْتُ عِنَانِى رَاجِعًا ، وَمَــدَامِعِى ... عَلَى الْخَدِّ يَفْضَحْنَ الضَّمِيرَ الْمُكَتَّمَا(٢٧)

فَيَا أُمَّتَا ؛ زَالَ الْعَزَاءُ ، وَأَقْبَلَتْ ... مَصَائِبُ تَنْهَى الْقَلْبَ أَنْ يَتَلَوَّمَا(٢٨)

وَكُنْتُ أَرَى الصَّبْرَ الْجَمِيلَ مَثُوبَةً ... فَصِرْتُ أَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَأْثَمَا(٢٩)

---

(٢٧) «صرفت عنانى راجعاً » : جواب « لما » فى البيت السابق . وصرف الشيء (من باب ضرب) : ردّه عن وجهه . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، وتقاد . و« صرفت عنانى » : كناية عن عودته ورجوعه من صفّ القتال إلى حيث يستجمّ فيما عبّر عنه بالمجم . و« راجعاً » : حال مؤكّدة لمعنى «صرفت عنانى » . والمدامع : جمع المدمع : وهو مسيل الدمع . أو مجتمعه فى نواحى العين ، ويراد بالمدامع هنا : : الدموع . والضمير : ما تضمره فى نفسك : أى تستره وتبالغ فى كتمانه ، وتحرص على إخفائه . وكتّم الشيء تكتيماً : بالغ فى كتمانه وستره . والمكتّم : اسم مفعول منه . وهو صفة مؤكّدة لمعنى « الضمير » .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أنه فى ظلمات الليل أخلد الجيشان المتحاربان إلى شبه هدنة قصيرة موقّتة . وفى أثناء عودة الشاعر إلى معسكره فاضت عيناه بدموع غزيرة ، أظهرتْ ما حرص على كتمانه من الأسى والجزع والحزن الشديد .

(٢٨) الأُمّة : الأُمّ . ويا أمتّا : منادى مضاف إلى ياء المتكلم التى قلبتْ ألفاً . والأصل يا أُمّتى : أى يا أُمىّ . وزال : ذهب . والعزاء: الصبر ، والسلوان . وتلوّم على الأمر ، وتلوّم فيه: تلبّث فيه ، وتمكّث ، وتريّث ، وانتظر . ويراد بتلوّم القلب هنا : صبره ، وتعزّيه ، وإخلاده إلى السكينة والطمأنينة ، وسلوّه عن هذا المصاب الجلل .

ينادى أمّه بعد موتها نداء تحزّن ، وتحسّر ، وتفجّع . ويعلن أنه لا سبيل إلى الصبر والعزاء والسلوان ، فإن مصيبته فيها من المصائب التى تجلّ عن الصبر ، وتستعصى على العزاء والسلوان .

(٢٩) الصبر الجميل : هو الصبر الذى لا يساوره الجزع ، ولا شكوى فيه إلى أحد غير الله تبارك وتعالى . أو هو الصبر عند الصدمة الأولى : أى حبس النفس عن الجزع ، ومجاهدتها على احتمال المصيبة ، قبل أن يخفّ أثرها بالسلوان والنسيان . والمثوبة : الثواب ، وحسن الجزاء . والمأثم : مصدر أثم (من باب علم) : أى عمل ما لا يحلّ ، ووقع فى الإثم : وهو الذنب والخطيئة .

كان يرى الصبر الجميل من الفضائل والطاعات التى تستأهل حسن الثواب ، وخير الجزاء ، فلمّا ماتت أمّه ، اشتدّ جزعه عليهــا ، وعاف كل دواعى العزاء والسلوان ، بل صار يرى الصبر الجميل فى هذا المصاب من الآثام والخطيئات . وهذه كبرى مبالغاته فى رثاء أمّه ، والتصوير الشعرىّ لجزعه ، وشدة حزنه عليها .

وَكَيْفَ تَلَذُّ الْعَيْشَ نَفْسٌ تَدَرَّعَتْ ... مِنَ الْحُزْنِ ثَوْبًا بِالدُّمُوعِ مُنَمْنَمَا؟ (٣٠)

تَأَلَّمْتُ فُقْدَانَ الْأَحِبَّـــةِ جَازِعًا ... وَمَنْ شَفَّهُ فَقْدُ الْحَبِيبِ تَأَلَّمَا (٣١)

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَرَاكِ سَقِيمَةً ... فَكَيْفَ وَقَدْ أَصْبَحْتِ فِي التُّرْبِ أَعْظُمَا؟ (٣٢)

بَلَغْتِ مَدَى تِسْعِينَ فِي خَيْرِ نِعْمَةٍ ... وَمَنْ صَحِبَ الْأَيَّامَ دَهْرًا تَهَدَّمَا (٣٣)

---

(٣٠) الاستفهام فى أول هذا البيت: معناه النفى؛ فالنفس الحزينة لا يلذّ لها العيش. وتدرّعتْ: لبستْ الدرع: وهو القميص أو الثوب. و«من» بيانية. والحزن بيان للثوب. والتركيب فى الأصل: «تدرعتْ ثوباً من الحزن». ونمنمه: نقشه، وزخرفه، ورقّشه، وزينّه، ووشّاه، فهو منمنم.

يصف شدة حزنه، وكثرة بكائه على أمّه. ويقول: إن النفس الحزينة لا تلتذّ بالعيش، ولا تعرف الهناءة، ولا تطيب لها الحياة.

(٣١) يبدو لنا أن الفعل «تألم» لازم غير متعدّ، وأن «فقداناً» نصب على نزع الخافض. أو على تضمين «تألم» معنى فعل متعدّ مثل «شكا». والاستعمال المعروف لنا: «تألّم». منه: إذا تشكّى منه، وتوجّع. و«جازعاً»: حال من فاعل «تألّم»: اسم فاعل من الجزع: مصدر جزع (من باب تعب): أى ضعفتْ مُنّته (قوّته) عن حمل ما نزل به، ولم يجد صبراً. والجزع أبلغ من الحزن؛ فإن الحزن عامّ، والجزع: الحزن الذى يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه. وشفّه الهمّ، أو الوجد، أو الحزن أو نحوه (من باب ردّ): ضمّره، ونحله، وهزله، وأوهنه، وبراه، وأرّقه، وأضناه. وفقده (من باب ضرب) فقداً (بوزن ضرب)، وفقدانا (بكسر الفاء وضمها). والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل، مؤكّد لمعنى الشطر الأول.

والمعنى: أن الموت طوى من كان يحبهم ويحبونه، فحزن، وجزع، وتشكّى، وتألّم، وتوجّع وتفجّع لفقدانهم. وما زال الجزع يساوره ويغالبه حتّى شفّه وبراه، ونحله وأضناه.

(٣٢) الأعظم: العظام. واحدها عظم، مثل سهم، وأسهم، وسهام. والاستفهام فى الشطر الثانى ينمّ على التفجّع والتوجّع، والأسى والحسرات.

يقول: كنت لشدة تعلّقى بأمى أحرص كل الحرص على صحّتها وسلامتها، وأكره لها المرض، وأخاف أن يصيبها شىء منه. فكيف ترانى اليوم بعد أن طواها الردى، وفاضت نفسها، وأكلت الأرض جسمها، ولم يبق منها غير جثة هامدة، وعظام بالية فى التراب؟

(٣٣) المدى: الأمد، والمسافة، والغاية، والنهاية. وبلغت مدى تسعين: أى عشت فى الدنيا تسعين سنة. والنعمة (بكسر النون): الحالة الحسنة التى يستلذها الإنسان، والإنعام، والخفض، والدعة، والخصب، والرفاهة، والمسرة، واليد البيضاء الصالحة، وما أنعم به عليك من رزق ومال وغيره. =

إِذَا زَادَ عُمْرُ الْمَرْءِ قَلَّ نَصِيبُهُ مِنَ الْعَيْشِ .وَالنُّقْصَانُ آفَةُ مَنْ نَمَا(٣٤)

= والنعمة (بفتح النون) : التنعّم ، والتمتّع ، والترفّه ، وطيب العيش ، وحسنه ، ولينه ، ورغده ، وغضارته ، ونضارته ، واتساعه . أو هما لهذه المعانى كلها ، ولا فرق بين كسر النون وفتحها . أو النعمة (بالكسر) : الإنعام . و(بالفتح) : التنعّم . و(بالضم) : المسرة . وصحب الأيام : عاش ، ومارس الحياة ، وتقلّب فى أمورها . والدهر : الزمان الطويل . وصحب الأيام دهراً : طالت مصاحبته للأيام ، وامتدّ عمره فى الحياة الدنيا .

يقول : إن والدته طال عمرها فى الدنيا ، وعاشت خير عيشة تسعين عاماً ، ولكن طول عمر الإنسان فى الدنيا ، وامتداد حياته فيها كفيل بهدم جسمه ، وطىّ حياته ، والقضاء على المعمّرين . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل .

ومما يناسب هذا المعنى، أو يتصل به فى القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى : « ومن نعمّره ننكّسه فى الخلق » (الآية رقم ٦٨ من سورة يس) . وقوله عز وجل : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » (الآية رقم ٥٤ من سورة الروم) . وقوله تبارك وتعالى : « هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخاً . ومنكم من يتوفّى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ، ولعلكم تعقلون » (الآية رقم ٦٧ من سورة غافر) .

(٣٤) العيش : المعيشة ، والحياة . وما تقوم به الحياة من المطعم والمشرب ، والدخل . ويراد بالعيش هنا : لذاته، ومتعه ، ومسراته . والآفة : كل ما يصيب شيئاً فيفسده : من عاهة ، أو مرض، أو قحط، أو نحوه . ونما (من بابى رمى، وسما) : زاد وكثر . و« النقصان آفة من نمى » : فى معنى « لكل شىء إذا ما تمّ نقصان » .

وهذا البيت شرح وتفصيل لمعنى الشطر الثانى من البيت الذى قبله « ومن صحب الأيام دهراً تهدّما » فزيادة عمر المرء فى الدنيا : هى طول مصاحبته للأيام . وقلة نصيبه من العيش هى التهدّم . و« النقصان آفة من نمى » : تذييل مؤكّد لهذا المعنى . والحياة إنما تطيب بالصحة والشباب ، فإذا زاد عمر الإنسان ، وطالت مصاحبته للأيام ، قلّ حظه من متع الحياة ولذاتها ومسراتها ، وذهب التعمير بالصحة والشباب ؛ فتكدّرتْ حياة المعمّر ، وساءت حالته ، وفسدت معيشته ، وسئم الضعف والعجز ، كما يقول أبو الطيب المتنبى :

وإذا الشيخ قال « أفّ » فما ملْـ ... لَّ حياة ، وإنما الضعف ملاّ
آلـة العيش صحـة وشباب ... فإذا ولّيا عن المـرء ولّى
أبـداً تستردّ ما تهب الـدنـ ... يا ، فياليت جودها كان بخلا

ويلاحظ أن بيت البارودى وهذه الأبيات الثلاثة تجرى مجرى الحكم والأمثال ، وأن البيت الثالث منها قريب من معنى البيت الآتى : « فياليتنا كنا تراباً .. »

فَيَا لَيْتَنَا كُنَّا تُرَابًا ، وَلَمْ نَكُنْ خُلِقْنَا . وَلَمْ نَقْدَمْ إِلَى الدَّهْرِ مَقْدَمَا (٣٥)

أَبَى طَبْعُ هَذَا الدَّهْرِ أَنْ يَتَكَرَّمَا وَكَيْفَ يَدِي مَنْ كَانَ بِالْبُخْلِ مُغْرَمَا ؟ (٣٦)

أَصَابَ لَدَيْنَا غِرَّةً ، فَأَصَابَنَا وَأَبْصَرَ فِينَا ذِلَّةً ، فَتَحَكَّمَا (٣٧)

وَكَيْفَ يَصُونُ الدَّهْرُ مُهْجَةَ عَاقِلٍ وَقَدْ أَهْلَكَ الْحَيَّيْنِ : عَادًا ، وَجُرْهُمَا (٣٨)

---

(٣٥) « فياليتنا » : « يا » : حرف نداء . والمنادى محذوف . أو هى لمجرد التنبيه . و « ليت » حرف تمنٍّ ، يتعلّق غالباً بالمستحيل أو المتعذّر . وقدم من سفره (كعلم) قدوماً ، ومَقْدَماً (بوزن مذهب) . وقدم على الأمر : أقبل عليه . وقدم إلى الأمر : قصد إليه . وقدم (كنصر) : تقدّم . ويراد بالدهر : الحياة الدنيا . والعبارتان : « ولم نكن خلقنا » « ولم نقدم إلى الدهر » : كلتاهما تفسير وتأكيد لمعنى : « فيا ليتنا كنا تراباً » .

اشتدّ جزع الشاعر على أمه ، وحمله الأسى على التبرّم بالدنيا ، فتمنى لو كان فيها تراباً ؛ فلم يصحبها ، ولم يخلق فيها بشراً ، يحسّ ويشعر ، ويتألم ويتوجّع ، ويشقى بمصائبها ونكباتها ، ويتحسّر كلما استردّتْ هباتها . كما قال المتنبى :

أبداً تستردّ ما تهب الدنـــيا ، فياليت جودها كان بخلا

وفى القرآن الكريم : « يوم ينظر المرء ما قدّمتْ يداه ، ويقول الكافر : ياليتنى كنت تراباً » . (الآية رقم ٤٠ من سورة النبأ) .

(٣٦) الدهر : الزمان الطويل . والأبد الممدود . ومدة الحياة الدنيا كلها . وقد اعتاد الناس — وبخاصة الشعراء — أن ينسبوا إلى الدهر الخير والشر ، والمسرة والمساءة . والشاعر فى هذا البيت ، وخمسة الأبيات بعده يذمّ الدهر ويشكوه ويتبرّم به ، ويشهّر بمساويه . وتكرّم : تكلّف الكرم . وتكرّم عن الشرّ والشوائن : أى تنزّه عنها ، وتعفّف وترفّع وتباعد . والاستفهام فى أول الشطر الثانى : معناه النفى . وودى القاتل القتيل (من باب وعى) : أعطى وليّه ، أو أهله ديته : وهى العوض المالىّ . والمغرم : المولع بالشىء ، لا يصبر على مفارقته .

يقول : ليس فى طبع الدهر شىء من التكرّم ، أو الخير . ولكن فى طبيعته الشرّ والشوائن . وإنه ليقتل ، ويسىء ، ويرْزأ ، ويصيب ، ويبخل كلّ البخل بالدية ، أو التعويض ، أو ترضية المرزّئين والمصابين .

(٣٧) الغرّة : الغفلة فى اليقظة : يقال : أصاب منه غرّة ، فبطش به . والذلة : المذلة ، والضعف . وتحكّم : انفرد بالحكم ، واستبدّ ، وتصرّف كما يشاء فيما تحكّم فيه .

يقول : إن الدهر وجد فينا غفلة وضعفاً ، فرمانا بسهامه ، وأصابنا بكوارثه ، واستبدّ بنا ، وتحكّم فينا .

(٣٨) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ؛ فالدهر لا يصون المهج ، ولا يحافظ على =

هُوَ الْأَزْلَمُ الْخَدَّاعُ، يَخْفِرُ إِنْ رَعَى وَيَغْدِرُ إِنْ أَوْفَى، وَيُصْمِي إِذَا رَمَى(٣٩)

فَكَمْ خَانَ عَهْدًا، واسْتَبَاحَ أَمَانَةً وَأَخْلَفَ وَعْدًا، وَاسْتَحَلَّ مُحَرَّمًا(٤٠)

= الأرواح ، ولكنه يهلك، ويقتل ، ويدمّر . والمهجة الروح ، والنفس ، أو الدم ، أو دم القلب خاصة . وعاقل : لاجىء . والمراد : لاجىء إلى الدهر ، متحصّن به ، محتَم فيه : اسم فاعل من عقل إليه : أى لجأ ، واحتمى ، وتحصّن . أو هو اسم فاعل من عقل (من باب ضرب) : أى تميّز بالعقل والإدراك ، والتمييز ، والتفكير . والمعنى : أن عقل العاقل ، وفطنة الفطين ، واحتراس المحترس لا يصونه من غوائل الدهر . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة بعدها حالية . والحىّ : واحد أحياء العرب ، أو البطن من بطونهم ، أو القبيلة . و« عاد » : قوم « هود » عليه السلام ، وكانوا بالأحقاف بين عمان وحضرموت باليمن . وهذه هى عاد الأولى . أما عاد الثانية فهى قبيلة « صالح » عليه السلام، وتسمى « ثمود » . وكانت تسكن « الحجر » بين الحجاز والشام ، إلى وادى القرى فى طريق المسافر من « يثرب » (وهى المدينة المنوّرة) إلى تبوك . وجرهم (بوزن قنفذ) : حىّ من أحياء اليمن ، ومنهم تزوّج سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام .

والمعنى : أن الدهر أفنى قبيلتى « عاد » و« جرهم » والقرون الأولى . وهذا دأبه وعادته ؛ فهيهات أن يحفظ أرواح غيرهم من الناس ، أو يحمى من احتمى به ، أو يعيذ من التجأ إليه ، أو يقى من غوائله عقل العاقل ، وفطنة الفطين ، أو يدفع شره تفكير أو تدبير .

(٣٩) الأزلم : الدهر الشديد ، الكثير البلايا والأحداث . والخدّاع : صيغة مبالغة من خدعه (من باب قطع) : أى ختله ، وغرّه ، ومكر به مكراً سيئاً ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . ويخفر : يغدر ، ويخون ، وينقض العهد : مضارع خفره (من باب ضرب) . أو أخفره إخفاراً . ورعاه: حفظه ، وحماه ، وصانه ، ووقاه ، وتعهّده ، وتولاّه . وأوفى بالوعد والعهد : وفى . والإيفاء والوفاء : ضد الغدر والإخفار والخيانة . ومعنى : « يخفر إن رعى ، ويغدر إن أوفى » : إن الدهر يضمر الإخفار والغدر والخيانة ، وإن أظهر الرعاية والوقاية والوفاء . أو المعنى : أن رعايته إخفار ، ووفاءه غدر : أى هو بطبيعته مخفر غدّار ، لا يرعى عهداً ، ولا يفى بوعد ، ولا يصون حقاً أو حرمة أو ذمّة ، ولا يكاد يدين بالمسالمة والوداد . ويصمى : يصيب الهدف إصابة تامة .

أشار الشاعر بهذا البيت إلى كثير من شرور الدهر ومشاينه ، كالشدة ، والقسوة ، والبطش ، والإخفار ، والغدر ، والإصماء ، والخداع ، والخيانة، وكثرة ما يصيب به الناس من البلايا والأحداث . والبيت الآتى فى جملته تكرار وتأكيد لمعنى هذا البيت .

(٤٠) « كم » : خبرية تدلّ على عدد كثير . وتمييزها محذوف : أى كم مرة أو مرات . وفاعل « خان » : ضمير الدهر . والعهد : الموثق، والذمّة ، والحرمة ، والأمان ، واليمين ، والوفاء ، والضمان =

فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَخْنَتْ بِصَرْفِهَا عَلَيَّ ، فَأَيُّ النَّاسِ يَبْقَى مُسَلَّمَا؟ (٤١)

وَإِنِّى لَأَدْرِى أَنَّ عَاقِبَةَ الْأَسَى ـ وَإِنْ طَالَ ـ لَا يُرْوِى غَلِيلًا تَضَرَّمَا (٤٢)

وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَرَى الصَّبْرَ سُبَّةً عَلَيْهَا ، وَتَرْضَى بِالتَّلَهُّفِ مَغْنَمَا (٤٣)

= والمودة . واستباحه : عدّه مباحاً : أى حِلاًّ غير ممنوع . والأمانة : الوديعة . والشيء الذى يأتمنك غيرك عليه . واستباح الأمانة : خانها . واستحلّ المحرّم : عدّ الحرام الذى لا يحلّ ، ولا يجوز فعله حِلاًّ مباحاً ، غير محظور ، ولا ممنوع .

والبيت تكرار ، وتأكيد ، وتفصيل ، وتمثيل لمعنى البيت السابق .

(٤١) أخنى عليه الدهر : أتى عليه ، وأهلكه . وصرف الأيام ، وصرف الدهر : نوائبه ومصائبه وحدثانه . وجمعه صروف . وأخنتْ عليه الأيام والليالى بصرفها : أى صبّتْ عليه بلاياها ، وأصابتْه بكوارثها . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . والاستفهام فيه : معناه النفى ؛ وفيه معنى التعزّى والتأسّى ؛ فإنه لا سلامة لأحد من صروف الزمان ، ولا نجاة لإنسان من الحدثان .

وهذا البيت ختام ستة أبيات فى شكوى الدهر ، وبيان شوائنه وشروره . وفى قريب من هذا المعنى يقول أبو الطيب المتنبى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم فى شأنه ما عنانا

وتولّوا بغصّــة كلّهم منـــ ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

ربّما تحسن الصنيع لياليـــ ـه ،ولكن تكدّر الإحسانا

(٤٢) الغليل : شدة العطش ، وحرارته . وتضرّم : اشتدّ ، وجاوز الحدّ : من تضرّمتْ النار : أى اتقدتْ . واشتعلتْ . ويريد بالغليل المتضرّم : تحسّره وتلهّفه ، وجزعه ، وشدة حزنه لوفاة أمه . وفاعل « طال » : ضمير الأسى : وهو الحزن . والأسا : العلاج والمداواة .

والمعنى على الأول : أن انطباعه للحزن ، والتمادى فيه لا يطفئُ ما يضانيه من حرق الوجد والتحسّر ، ولوعات الغمّ والتلهّف ؛ فالداء لا يعالج بالداء ، وإنما يعالجه التأسّى والتعزّى ، ويداويه التصبر والسلوان ؛ وكأن الشاعر ينهى نفسه عن الجزع ، ويحملها على الصبر والسلوان . والمعنى على الثانى : أن حزنه على أمه شديد ، متأجّج ، متجدّد ، لا يجدى فيه التأسّى والتصبّر ، ولا يداويه التعزّى والسلوان . وكأنه بهذا يعلن يأسه ، ويوئس من يحاول تعزيته .

(٤٣) السُبّة : العار . والتلهّف : مصدر تلهّف على الفائت : أى حزن ، وتحسّر . والمغنم : الغنيمة : وهى ما يؤخذ من المحاربين فى الحرب عنوة وقهراً . ويراد بالمغنم هنا : الربح والكسب .

فى البيت السابق أكد الشاعر أن الحزن ـ وإن طال لا يروى غليله ، ولا يطفئُ لوعته ، ولا يردّ الفائت ؛ وبهذا المعنى حسّن لنفسه الصبر ، وأرادها على السلوان . وفى هذا البيت استدرك ، أو خالف =

وَكَيْفَ أَرَانِى نَاسِيًا عَهْدَ خُلَّةٍ ... أَلِفْتُ هَوَاهَا : نَاشِئًا ، وَمُحَكَّمَا(٤٤)

وَلَوْلَا أَلِيمُ الْخَطْبِ لَمْ أَمْرِ مُقْلَةً ... بِدَمْعٍ ، وَلَمْ أَفْغَرْ بِقَافِيَةٍ فَمَا(٤٥)

= هذا الحكم ونقضه ، فقال : إن نفسه لا ترتضى الصبر ، ولا تقبل التجلّد ، بل تراه سُبَّة وعاراً . وترتاح لدوام التحزّن والتلهّف ، وتراه مغنماً وربحاً .

ويلاحظ أن هذا البيت قريب من معنى البيت التاسع والعشرين :

« وكنت أرى الصبر الجميل مثوبة ... فصرت أراه بعد ذلك مأثما »

وهما من مبالغاته فى رثاء أمه ، وتصوير شدة حزنه عليها .

(٤٤) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ، فهو لن ينسى عهد أمّه وذكراها . أو معناه التعجّب مع الإنكار ؛ فهو إذا نسى عهد أمّه كان نسيانه مثار العجب والدهش ، ومدعاة الاستنكار والاستهجان . وأرانى ناسياً (بالبناء للمجهول ، أو بالبناء للمعلوم) : الأول بمعنى أظننى ناسياً . والثانى بمعنى أذهب إلى النسيان وأرتضيه . ولم يسمع مضارع « رأى» بمعنى الظن إلا مبنيًّا للمجهول . والعهد : الموثق ، والوفاء والحفاظ ، والمودة ، والمعرفة ، ورعاية الحرمة . والعهد : الزمان . والخلة (بضم الخاء) : الخليل والصديق . يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ لأنه فى الأصل مصدر . والخلة . الصداقة والمحبّة المختصّة التى لا خلل فيها ، ولا وهن ؛ أو التى تخللت القلب ، فصارت خلاله : أى فى باطنه . والخلة (بكسر الخاء) : المصادقة والإخاء . ويريد بالخلة : أمه الحبيبة . أو محبّة أمه ، وشدة تعلّقه بها . وعهدها : موثقها ، والوفاء لها ، والمحافظة عليها ، ورعاية حقها وحرمتها . وألفه (من باب علم) : أنس به ، وأحبه ، واعتاده . والهوى : مصدر هويته (من باب صدى) : أى أحببته ، وتعلّقت به . والناشئ : الغلام جاوز حدّ الصغر ، وشبّ ، ونما . والمحكّم : اسم مفعول من حكّموه فى الأمر تحكيماً : أى فوّضوا إليه الحكم فيه : أى جعلوه حكماً يفصل فى المنازعات . وحكّموه : ولّوه ، وأقاموه حاكماً . وهذا كله لا يكون إلا عن تجربة وعلم فى المحكّم . وهو خلاف الناشئ أو الشابّ الحدَث . وفى القاموس أن المحكّم (بوزن المحدّث) : الشيخ المجرّب .

والمعنى : أنه أحبّ أمّه كل الحبّ ، وتعلّق بها غلاماً وكهلاً ، أو صبيّاً وشيخاً ؛ فلن ينسى عهدها ، ولن يخفّ حزنه عليها . والبيت تكرار وتأكيد وتفصيل لمعنى البيت السابق .

(٤٥) أليم : مؤلم ، موجع . والخطب : الأمر الشديد ، والنازلة ، والمصيبة . وجمعه خطوب . ومرى الحالب الناقة (من باب رمى) : مسح ضرعها ، فدرّ لبنها . والمقلة (بوزن الغرفة) : شحمة العين التى تجمع سوادها وبياضها . ومرى مقلته بالدمع : أى أرسل الدمع من عينيه غزيراً . ومعنى الشطر الأول أن وفاة أمه كان خطباً أليماً أجزعه وأبكاه . وفغر فه (من باب نفع) : فتحه . وفغر فه بقافية : أى نطق بشعر . والقافية فى الشعر : الحروف التى تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين فى آخر البيت ؛ فقافية هذا البيت مثلاً : « ة فما » : أى من التاء المربوطة المنونة إلى ألف « فما » . وقد يراد بالقافية الروىّ : =

فَيَا رَبَّةَ الْقَبْرِ الْكَرِيمِ بِمَا حَوَى ... وَقَتْكِ الرَّدَى نَفْسِى .وَأَيْنَ؟ وَقَلَّمَا(٤٦)

وهَلْ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ فِدْيَةَ رَاحِلٍ ... تَخَرَّمَهُ الْمِقْدَارُ فِيمَنْ تَخَرَّمَا ؟(٤٧)

سَقَتْكِ يَدُ الرِّضْوَانِ كَأْسَ كَرَامَةٍ ... مِنَ الْكَوْثَرِ الْفَيَّاضِ مَعْسُولَةَ اللَّمَى(٤٨)

= وهو الحرف تبنى عليه القصيدة ، وتنسب إليه ؛ فهذه المرثية - مثلاً - ميمية ، وقافيتها : أى رويها حرف الميم . ويراد بالقافية هنا : الشعر . أو البيت الواحد من الشعر .

يقول : إنما شجاه وأبكاه ، وأنطقه بهذه المرثاة فادح الخطب ، وشدة المصاب .

(٤٦) ربّة القبر : صاحبته. والكريم : العزيز النفيس: صفة من كَرُم الشىء (بوزن عَظُم) : أى عزّ ، ونَفُس . و« الباء » هنا للسببية ، فإنما اتّصف هذا القبر بالكرم والعزة والنفاسة ؛ لأنه حوى جثة أمه : أى ضمّها ، واشتمل عليها . ووقاه الله السوء : كلأه منه ، وحفظه ، وصانه ، وحماه . والردى : الهلاك . و« وقتْك الردى نفسى » : أى وقيتك بنفسى من الردى. وهى جملة دعائية ، كما تقول لمن تفدّيه بنفسك : أى ترى نفسه أعزّ عليك من نفسك : « جعلنى الله فداك » . و « أين : أداة استفهام ، يطلب بها تعيين المكان. و « قلّما » : « قلّ » : فعل ماض، اتصلتْ به « ما » الزائدة ، الكافة عن عمل الرفع ؛ فلا يحتاج الفعل معها إلى فاعل ، وتليها جملة فعلية . والتقدير : « وقلما يجدى هذا الدعاء » . وتفيد « قلّما » النفى الصرف ، أو إثبات الشىء القليل . وهى هنا : للنفى الصرف . « فأين » : استفهام عن مكان وجود أمه . و« قلما » نفى لهذا الوجود الذى أزاله الموت . أو نفى لفائدة الدعاء الذى قدّمه بقوله : « وقتك الردى نفسى » .

نادى أمه نداء إعزاز وتكريم ، ومجّد القبر الذى حوى جثّها ، وتناسى أنها ماتت ، فدعا بأن تكون نفسه فداء لها من الردى والسوء . وما لبث أن استدرك ، فقال : إنه لا قيمة لهذا الدعاء ، ولا فائدة منه ؛ فقد أدرك الموت أمه ، وطواها الردى.

والبيت الآتى شرح وتفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

(٤٧) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ، فالميت لا يستطاع فداؤه .وفداه من الأسر ونحوه : أى استنقذه بمال أو غيره ، فخلّصه مما كان فيه . والفدية : ما يقدّم من مال ونحوه لتخليص المفدى . وراحل : اسم فاعل من رحل: بمعنى ارتحل ، وسار ، ومضى ، وذهب . وتخرّمه : استأصله ، وأرداه ، وأهلكه ، وأفناه . والمقدار: القدر (بفتح القاف والدال) : أى الحكم ، والقضاء الذى يقضى به الله على عباده . ويراد به هنا : قضاء الموت . وفيمن تخرّم : أى فى عِداد من تخرّمهم من الناس . وقد تكون « فى » هنا : بمعنى المصاحبة : أى مع من تخرّمهم الموت وأفناهم .

(٤٨) الرضوان (بكسر الراء ، وضمها) : الرضا الكثير . وهو من مصادر رضيه (بوزن لقيه) : أى اختاره وقبله . والمراد : رضوان الله تبارك وتعالى . والكأس : القدح ، أو الإناء يشرب =

وَلَا زَالَ رَيْحَانُ التَّحِيَّةِ نَاضِــرًا   عَلَيْكِ ، وَهَفَّافُ الرِّضَا مُتَنَسَّمَا(٤٩)

لِيَبْكِ عَلَيْكِ الْقَلْبُ ، لَا الْعَيْنُ ؛ إِنَّنِي   أَرَى الْقَلْبَ أَوْفَى بِالْعُهُودِ وَأَكْرَمَا(٥٠)

= فيه . وهى مؤنثة . والكرامة : اسم بمعنى التكريم ، أى الإكرام والإعزاز . وسقتْك يد الرضوان كأس كرامة : أى كأساً يراد بها التكريم ، والحفاوة ، والإعزاز ، والاحتفال . والكوثر : الخير العظيم . أو هو نهر عظيم فى الجنة ، تتشعّب منه الأنهار . والفياض : صيغة مبالغة من فاض الماء : أى كثر ، وزاد ، حتى سال . ومعسولة : ممزوجة بالعسل . وهى صفة للكأس . والمراد ما فيها من الشراب . واللمى (مثلّثة اللام) : سمرة مستحسنة فى باطن الشفة . وقد يطلق اللمى على الريق البارد : أى اللعاب البارد . ويراد باللمى هنا : الشراب الشهىّ الذى حوتْه الكأس .

دعا الله تبارك وتعالى أن يفيض على أمّه من خيره العظيم ، وفضله العميم ، ويتغمّدها برحمته ورضوانه وكرامته وإحسانه .

(٤٩) الريحان : نبت من فصيلة الشفويات ، ذو رائحة ذكية عطرية . أو هو كل نبات طيّب الرائحة . أو هو الرحمة والرزق . والتحية : السلام . وريحان التحية : الريحان الرامز إلى التحية . أو التحية الشبيهة بالريحان ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . ونبات ناضر : ذو نضرة : وهى الحسن والرونق ، والبهجة ، والجمال ، والإشراق ، والبريق ، والصفاء ، والبهاء . وهفّاف : صيغة مبالغة من هفّتْ الريح : أى هبّتْ ؛ فسمع هفيفها : أى صوت هبوبها . وريح هفّافة : طيّبة ، سريعة السير . ويراد بالرضا : رضوان الله تبارك وتعالى ، ورحمته ، وكرامته ، وإحسانه ، وحفاوته ، وغفرانه . ومتنسّم (بصيغة اسم الفاعل) : لطيف الهفيف ، طيّب ، معتدل الحركة : من تنسّمتْ الريح : أى هبّتْ هبوباً رويداً . أو أرج ، عطر ، ذكىّ الرائحة : من تنسّم المكان بالطيب : أى أرج ، وفاح فيه الطيب وانتشر . أوهومتنسّم (بصيغة اسم المفعول) : من تنسّمتُ الريح تنسّماً : أى تشمّمتها فى ارتياح وشعور بالسرور . وتنسّمتها : تنفّستُ منها : أى ملأتُ منها رئتى ، واستمتعتُ بها ، وتتبّعت نسيمها . ومعنى الشطر الثانى : ولازلتِ تتنسّمين ، وتنعمين باللطيف الهفّاف ، الأرج الطيّب ، الذكىّ العَطِر من رحمة الله ومَرْضاته .

والبيت كله دعاء حارّ خالص لوالدته بأن تتوالى عليها باستمرار مرضاة الله تبارك وتعالى ، ورحمته وكرامته ، وبرّه وإحسانه إلى أن يبعث الله من فى القبور .

(٥٠) اللام المكسورة فى أول البيت : لام الأمر ، وتسمّى لام الطلب . والعهود : جمع العهد : وهو الموثق ، واليمين ، والحفاظ ، والأمان ، والذمّة ، والالتقاء ، والمعرفة ، والمودّة ، والوصيّة ، والضمان ورعاية الحرمة .

آثر أن يبكى أمّه بقلبه ، لا بعينيه ، وصرّح فى الشطر الثانى بسبب هذا الإيثار ؛ فإن القلب لا يتُصوّر إلا فى قمّة البرّ والكرم ، وأعلى مراتب الوفاء بالعهود ، ويعبّر بالقلب عن الروح ، والنفس ، =

فَوَاللهِ لَا أَنْسَاكِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا حَنَّ طَيْرٌ بِالْأَرَاكِ مُهَيْنِمَا(٥١)
عَلَيْكِ سَلَامٌ لَا لِقَاءَةَ بَعْـدَهُ إِلَى الْحَشْرِ إِذْ يَلْقَى الْأَخِيرُ الْمُقَدَّمَا(٥٢)

= والعقل ، والفهم ، والعلم ، والإحساس . وهو مركز الحب والعاطفة ، ومنبع الرحمة والحنان ، ومصدر الخير والإحسان ، وحزن القلب أشد الحزن وأصدقه ، وأدومه وأبقاه .

(٥١) « ما » فى الشطرين الأول والثانى : مصدرية زمانية : أى لا أنساك مدة ذرور الشارق ، ومدة حنين الطير : أى مدة الحياة الدنيا كلها ؛ فإن الشمس لا تفتأ تشرق وتغرب ، والطير لا تبرح تحنّ وتهينم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وذرّتْ الشمس (من باب قعد) : ظهرتْ أول شروقها . والشارق : الشمس حين تشرق . وحنّ الطير : من الحنين : وهو صوت الطرب عن حزن وتوجّع . أو عن شوق وتوقان نفس ، أو فرح وسرور . أو هو من الحنان : بمعنى الترحّم والعطف ، ورقّة القلب . والأراك : واحدته أراكة : وهى شجيرة كثيرة الفروع ، خوّارة العود ، متقابلة الأوراق ، يستاك بقضبانها . ولها ثمر أحمر داكن ، يؤكل . وتنبت فى البلاد الحارة ، وفى صحراء مصر الجنوبية الشرقية . ويراد بالأراك هنا : الشجر مطلقاً . ومهينماً : حال من الطير : اسم فاعل من هينم : أى تكلم ، وأخفى كلامه . أو خفتَ بصوته .

أقسم بالله تبارك وتعالى أن يفى كلّ الوفاء بعهد أمّه ، ويذكرها بحنينه أبَدَ الآباد ، ودهر الداهرين .

(٥٢) لقاءة (بكسر اللام وفتحها) : أحد مصادر لقيه (كرضيه) : أى استقبله ، وصادفه ، ورآه . والحشر : مصدر حشر الله الموتى (من بابى نصر وضرب) : أى بعثهم من قبورهم ، وساقهم ، وجمعهم . قال تعالى : « وحشرناهم ، فلم نغادر منهم أحداً » (الآية رقم ٤٧ من سورة الكهف) . وقال تعالى : « فسيحشرهم إليه جميعاً » . (الآية رقم ١٧٢ من سورة النساء) . ويوم الحشر : يوم القيامة : ويوم التلاق : ويوم البعث : ويوم النشر ، ويوم النشور . ويراد بالأخير والمقدّم : اللاحقون والسابقون ، ممن شهدوا الحياة الدنيا ، وأثاروا الأرض ، وعمروها ، وحلّوا بها ، ورحلوا عنها ، من عهد آدم إلى أن تقوم الساعة ، ويرث الله الأرض ومن عليها ؛ ففى يوم القيامة يتلاقى المقدّم والأخير ، والوالد والولد ، ومن عاشوا فى طفولة الدنيا ، وأوائل الزمان ، ومن عاشوا فى شيخوخة الدنيا ، وأواخر الزمان ، قبيل قيام الساعة .

تعقيب وجيز

أطال البارودى فى رثاء أمه ، فتجاوزتْ مرثاته خمسين بيتاً ، تمّ كلها على التفجّع والحزن العميق ، وتطاول أبلغ ما أثر من المراثى فى الشعر العربى . والملمّ بتاريخ محمود سامى البارودى لا تدهشه هذه الإطالة وهذه الإجادة ؛ فقد توفّى والده وتركه صبياً لم يتجاوز سبع سنوات ، فتولّتْ أمه أمره ، وأحسنتْ تربيته ، وقصرتْ حياتها وجهدها على تنشئته ورعايته ، وكفالته ، وتمام العناية به ، حتى كان له فى الحياة ذلك الشأن العظيم ، والمقام الرفيع ، والصيت الذائع ، والأثر الخالد ، فلا غرو أن تعلق بأمه طفلاً ، ويافعاً ، وشاباً ، وكهلاً ، وشيخاً ، ووفى لها كل الوفاء ، وبرّ بها غاية البرّ ، واشتدّ جزعه عليها بعد وفاتها ، وبكاها ذلك البكاء الحارّ ، وصوّر بهذه المرثية شيئاً من برّه ، ووفائه ، وجزعه ، وتفجّعه .

وَقَالَ يَرْثِى أَحَدَ قُوَّادِ الْجَيْشِ ، وَقَدْ مَاتَ بِأَقْرِيطِشَ * :

أَيُّ فَتًى لِلْعَظِيمِ نَنْدُبُهُ   شَاطَ عَلَى أَنْصُلِ الرِّمَاحِ دَمُهُ (١)

---

* رثى الميت (من بابى رمى ، وعدا) : بكاه بعد موته ، وعدد محاسنه . وكذا إذا نظم فيه شعراً . ويقال : رثاه بقصيدة ، ورثاه بكلمة . ومن مصادر هذا الفعل : الرثاء ، ، والمرثاة ، والمرثية .

و « أقريطش » . وتسمى « كريت » ، و « كريد » ، و « جريد » : جزيرة مشهورة ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، تقع فى الجنوبىّ الشرقى من بلاد اليونان ، وتبلغ مساحتها ٣٢٣٥ ميل مربع . وعدد سكانها (بإحصاء سنة ١٩٥١) ٤٦٢١٢٤ نسمة . وقد احتلها الأتراك العثمانيون نحو قرنين ونصف قرن من الزمان (من سنة ١٦٤٥ إلى سنة ١٨٩٨م) . وفى أثناء الحكم التركى اعتنق كثير من أهاليها الدين الإسلامى . ولاتزال فيها إلى اليوم بعض آثار هذا الدين الحنيف ، كالمساجد .

ومن ثوراتها فى وجه الحكم التركى : ثورة سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) . وقد شبت بتشجيع روسيا ، ومساعدة اليونان ؛ فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً لإخمادها . وبعث الخديو إسماعيل من مصر نجدة عسكرية ، كان « محمود سامى البارودى » من كبار ضباطها . ومن شعره وهو فى تلك الحرب قصيدته التى مطلعها :

سرى البرق مصرياً ، فأرقنى وحدى   وأذكرنى ما لست أنساه من عهد

وقصيدته التى مطلعها :

أخـذ الكرى بمعاقد الأجفـان   وهفا السرى بأعنة الفرسان

وقد انتهت تلك الثورة بمنح الجزيرة بعض الامتيازات فى المؤتمر الذى انعقد بباريس فى ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٦ هـ الموافق ١٩ من سبتمبر سنة ١٨٦٩ م . وفى سنة ١٨٩٧ م شبت فيها الثورة الكبرى التى انتهت بإرغام تركيا على تركها فى ١٤ من نوفمبر سنة ١٨٩٨ م . وما لبثت أن انضمت إلى اليونان ، وما زالت إلى اليوم جزيرة يونانية .

* * *

(١) قيل إن المرثى بهذه القصيدة هو « إسماعيل سليم » ناظر الجهادية ، والقائد العام للحملة المصرية فى حرب « كريد » .

« أى » : اسم استفهام أضيف إلى « فتى » . والاستفهام هنا : معناه التعظيم . أو معناه النفى : أى لن نجد بعد اليوم فتى عظيماً نندبه للأمر العظيم . وهو مع التعظيم أو النفى ينم على الأسى والتحسر . وقد تكون « أى » هنا : خبرية دالة على معنى الكمال ، واقعة صفة لنكرة محذوفة . والتقدير : المرثى فتى أى فتى : أى كامل فى صفات الفتيان ، حائز لمحامدهم ، جامع لمزاياهم وخير شمائلهم . وتقول العرب : فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . ومن كلامهم : « هو فتى بين الفتوة » : وهى الحرية والكرم ، والجود والسخاء ، والمروءة . والفتى : السخى الكريم ذو المروءة . وللعظيم : أى للأمر=

أَسْلَمَهُ صَحْبُهُ ، وَمَا عَلِمُوا أَنْ سَوْفَ يَمْحُو وُجُودَهُمْ عَدَمُهْ[٢]

زَالَ الأُلَى حَاذَرُوا مَصَارِعَهُمْ وَلَمْ تَزُلْ عَنْ مَكَانِهَا قَدَمُهْ[٣]

= العظيم ، والشأن الخطير ، والخطب الجلل . ونندبه: ندعوه . ندبناه لكذا ، وإلى كذا (من باب نصر) فانتدب له : أى دعوناه، فاستجاب ، وسارع . وشاط دمه : بطل ، وذهب هدراً . وأشاط السلطان دم فلان : أى أهدره ، وأبطله ، وأباح قتله. وشاط دمه على أنصل الرماح : سال ، وتصبب . والمعنى : أنه قتل وهلك بأنصل الرماح . قال الأعشى :

قد تخضب العير فى مكنون سائله وقد يشيط على أرماحنا البطل

ويبدو أن الشاعر اختار الفعل « شاط » ، وتعمده ، وقصده ؛ لأن أصحاب المرثى ، ومن كانوا فى قيادته ، وتحت إمرته من الجنود أسلموه ، وخذلوه ، وقعدوا عن نصرته ؛ فكأنهم أشاطوا دمه ، ومكّنوا منه أعداءه وأعداءهم . والبيتان الآتيان يرجحان هذا المعنى ، بل يعززانه ويؤكدانه . ونصل الرمح : سنانه الذى يقطع ، ويجرح ، ويقتل . وجمعه أنصل ، ونصال ، ونصول . والرماح : جمع الرمح : وهو قناة فى رأسها سنان يطعن به .

والمعنى : أن المرثى كان بطلاً عظيماً . وقد قتل بسلاح أعدائه ، وتهاون أصحابه ؛ فلم يبق بعده عظيم يندب للأمر العظيم .

(٢) أسلمه : خذله ، وأهمله ، وتركه لعدوه ، أو لمن يفتك به ، أو يضره ، ويؤذيه . وصحبه: صحابه ، ورفاقه ، المفرد صاحب . وما علموا : ولم يعرفوا .

والمعنى : أن أصحاب هذا الفقيد العظيم تهاونوا به ، وقعدوا عن نصرته ، جاهلين أن حياتهم بدونه لا قيمة لها . أو غافلين عن أنهم فقدوا بفقده حصنهم الحصين ، ودرعهم الواقية ، وخير حام لهم ، وأقوى مدافع عنهم ، فأصبحت حياتهم بعده فى خطر ، وأرواحهم فى قبضة أعدائهم .

(٣) زال عن مكانه ، وزال من مكانه يزول زوالاً : تحول عنه ، وانتقل منه ، وفارقه . والألى : الذين . وحذر الشيء (من باب تعب) ، وحاذره : خافه ، واحترز منه ، وتهيبه ، وتوقاه . والمصارع : جمع مصرع (بوزن مذهب) : مصدر ميمى ، أو اسم مكان من صرعه (من باب قطع) : أى طرحه على الأرض . ثم شاع استعماله فى القتل والفتك ، فقيل للقتيل : صريع . وجمعه صرعى . كما قيل : صرعته المنية. وصرعه ريب المنون . وهذه مصارع القوم. ولكل جنب مصرع . والذين حاذروا مصارعهم: أى جبنوا ، ونكصوا على أعقابهم ، وحذروا الموت : وهم أصحاب القتيل ، وجنده ، ومن كانوا تحت إمرته وقيادته فى الحرب والقتال . والشطر الثانى معناه: أن المرثى لم يفارق مكانه، ولم ينكص على عقبيه، ولم يتهيب تجمع أعدائه عليه ، وانفضاض صحبه من حوله ، بل ثبت وصبر ، وجاهد ، وجالد حتى قتل فى أعلى مراتب البطولة والإقدام .

يقول : إن أصحاب المرثى خافوا ، وجبنوا ، وفروا حذر الموت ، وتخلوا عن قائدهم ، وأسلموه . فلم يبال هذا ، ولم يحفل به ، بل ثبت ثبات الأبطال ، وجالد وجاهد حتى قتل . =

طَـاحَ بِجُثْمَانِهِ الرَّدَى ، وَرَقَا ... إِلَى سَمَوَاتِ رَبِّـهِ نَسَـمُهْ (٤)

نِعْمَ فَتَى الْحَرْبِ فِى الْهِيَاجِ إِذَا ... شَبَّ لَظَى الْبَأْسَاءِ ، وَاعْتَلَى ضَرَمُهْ (٥)

قَـدْ أَلِفَتْ صُحْبَـةَ الْقَنَا يَدُهُ ... وَاعْتَادَ « لَبَّيْكَ » فِى السَّمَاحِ فَمُهْ (٦)

= وفى معنى الشطر الثانى من هذا البيت قال أبو تمام فى مرثيته لأبى نصر ، محمد بن حميد الطائى ؛ وكان من قوّاد الدولة العباسية ، ثم قتل فى إحدى وقائع الخُرَّمية ، أصحاب « بابك » الخرمى :

وقد كان فوت الموت سهلاً ، فرده ... إليه الحفاظ المر ، والخلق الوعر

ونفس تعاف العار ، حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

فأثبت فى مستنقع الموت رجلـه ... وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

(٤) طاح (من بابى قال ، وباع) : هلك . وطاح به : أطاحه ، وأهلكه ، وأفناه . والجثمان (بالثاء والسين) : الجسم ، والجسد . والردى : الموت ، والهلاك ، ورقا الطائر يرقو : سما ، وارتفع فى طيرانه . والنسم : جمع نسمة (بفتح النون والسين) : وهى النفس والروح . والله تعالى بارئ النسم : أى خالق النفوس والأرواح . ويراد بالنسم هنا : روح المرثى .

والمعنى : أنه إذا كان الردى قد طاح بجثمان ذلك الفقيد العظيم فى تلك الحرب العاتية ، فإن روحه الطاهرة قد صعدت إلى بارئها مع أرواح الأبطال الشهداء فى سموات الله ونعيمه ، وجناته ورضوانه .

(٥) « نعم »: فعل جامد لمدح الجنس . والمقصود بالذات فرد من ذلك الجنس . ويسمى ذلك الفرد المخصوص بالمدح . نحو نعم الخليفة عمر بن الخطاب . أو عمر بن الخطاب نعم الخليفة. والمعنى هنا : نعم فتى الحرب المرثى فلان . أو المرثى فلان نعم فتى الحرب . ويلاحظ أن الشاعر لم يصرح باسمه ، بل قدم هذه المرثاة بقوله : وقال يرثى أحد قواد الجيش ... والفتى : السخى الكريم ، وذو النجدة . وفتى الحرب : بطلها المقدام . ويراد بالهياج هنا : ثوران الحرب ، وشدتها ، وعنفوانها ، وهيجانها : : مصدر هاج (من باب باع) : أى ثار ، وتحرك ، وانبعث . ومنه « الهيجاء » : وهو من أسماء الحرب . وشبت النار : اتقدت ، واشتعلت . واللظى : لهب النار الخالص ، لا دخان فيه . والبأساء : الحرب . أو شدتها . واعتلى : علا ، وارتفع . وضرمه : أى ضرم اللظى : مصدر ضرمت النار (من باب تعب) : أى تضرمت ، واتقدت ، واشتعلت . والضرم أيضاً : لهب النار . ومثله الضرام .

يمدح المرثى بالنجدة والشجاعة ، والثبات فى البأساء ، والإقدام على الأهوال ، وركوب الأخطار ، والصبر على القتال والنزال إذا حمى الوطيس ، وجدّت الحرب . وكان من كرمه وسخائه أن جاد بنفسه فى حرب « أقريطش » ، و« الجود بالنفس أقصى غاية الجود »

(٦) ألفه (من باب علم) : أنس به ، وأحبه ، واطمأن إليه ، واعتاده . وصحبه (من باب سلم) صحابة ، وصحبة : صاحبه ، ورافقه ، ولازمه . والقنا : الرماح ، الواحدة قناة ، ويراد بها مايستعمله =

لَيْسَ بِهَيَّـــابَةٍ ، وَلَا وَكَلٍ بَلْ صَادِقٌ فِى اللِّقَاءِ مُعْتَرَفُهُ(٧)

إِنْ صَالَ فَلَّ الْعِدَا بِصَوْلَتِهِ أَوْ قَالَ أَرْوَتْ مُشَاشَـــنَا كَلِمُهْ(٨)

= المحارب من أسلحة القتال. و« لبيك »: تركيب يفيد الاستجابة ويؤكدها . وأصله من ألب بالمكان إلبابا . أو من لب به (من باب نصر) لبا : أى أقام به ، ولزمه ، ولم يبرحه . وثنى للتأكيد ، وأضيف إلى كاف المخاطب . ومعناه : أنا مقيم على طاعتك إلبابا بعد إلباب : أى إقامة بعد إقامة، مجيب لك إجابة بعد إجابة . أو معناه : اتجاهى إليك ، وقصدى ، وإقبالى على أمرك . من قولهم : دارى تَلُبُّ داره : أى تواجهها وتحاذيها . والسماح . والسماحة : الجود ، والكرم ، والسخاء ، والعطاء .

والمعنى : من محاسن المرثى ومحامده : أنه محارب شجاع مقدام ، وجواد كريم معطاء ، وأن هذه الفضائل متأصلة فيه ، ملازمة له ، لا تكاد تفارقه ، ولا يكاد يفارقها . والشطر الأول من هذا البيت فى معنى قول أبى الطيب المتنبى فى شبيب بن جرير العقيل بعد موته :

برغم « شبيب » فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان

(٧) هيابة : جبان ، خواف ، صيغة مبالغة من هابه : بمعنى حذره ، واهتابه ، وخافه . والوكل (بفتح الكاف وكسرها) : الجبان ، والعاجز الضعيف الذى إذا نابه أمر لا ينهض فيه ، ولا يقدم عليه ، بل يكله إلى غيره ، ويراد باللقاء : ملاقاة العدو ، واستقباله ، ومواجهته ، ومجالدته ، ومكافحته فى الحرب والقتال . والصدق فى اللقاء : الثبات ، والصبر ، والشجاعة ، والإقدام فى الحروب والشدائد ، والمخاوف والمهالك ، والأهوال والأخطار . واعترف للأمر اعترافاً : صبر عليه ، وقوى ، وتجلد . والمعترف : مصدر ميمى بمعنى الاعتراف . وهو هنا : الصبر الصادق القوى على مكاره الحروب وشدائدها وبأسائها . و« صادق » : خبر لمبتدإ محذوف : أى المرثى صادق . و« فى اللقاء » متعلق به . و « معترف » : فاعل « صادق » .

وصفه بالصبر ، والتجلد ، والقوة ، والثبات ، والشجاعة ، والإقدام ، فى الحروب والشدائد ، والمخاوف ، والأخطار . ونفى عنه الجبن ، والضعف ، والعجز ، والخوف ، والتردد ، والإحجام .

(٨) صال : وثب مقاتلاً . (وبابه قال) . وصال على قرنه : حمل عليه ، وسطا ، واستطال ليقهره . ومن مصادره : الصَّوْل ، والصَّوَلان . والصَّولة : اسم مرة منه . وفله : ثلمه ، وكسره . (وبابه رد) . وفل الجيش : هزمه ، وقهره ، وغلبه . والعدا (بكسر العين ، وضمها) : الأعداء : جمع عدو . و« أو » فى أول الشطر الثانى : بمعنى « الواو » : أى إن صال فل ... وإن قال أروت ... وأرواه يرويه إرواء : سقاه ، وأشبعه ، وأزال عطشه . والمشاش (بضم الميم) : النفس . أوهو جمع مشاشة : وهى رأس العظم اللين الذى يستطاع مضغه . والكلم : جمع كلمة .

والمعنى : أن المرثى شديد البأس فى القتال . وبصولة من صولاته يستطيع كسر أعدائه ، وقهرهم ، وتشتيت شملهم . وهو إلى شجاعته ، وقوته ، وإقدامه فى الحروب — أديب عذب القول، ساحر البيان، يقع كلامه من نفوس الناس موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

يَنْكَفِتُ الْجَيْشُ حِينَ يَفْجَؤُهُ وَيَصْعَقُ الْقِرْنُ حِينَ يَلْتَزِمُهُ(٩)

بَكَى بِدَمْعِ الْفِرِنْدِ صَارِمُهُ وَانْشَقَّ مِنْ طُولِ حُزْنِهِ قَلَمُهُ(١٠)

فَمَنْ إِلَى مَلْجَإِ الضَّعِيفِ إِذَا أَقْبَلَ لَيْلٌ، وَأَطْبَقَتْ ظُلَمُهُ(١١)؟

---

(٩) ينكفت : ينهزم : مطاوع كفته (من باب ضرب) : فانكفت : أى صرفه عن وجهه فانصرف . وانكفت : انقبض . ويراد بالجيش : جيش الأعداء . ويفجؤه : يفاجئه ، ويهجم عليه ويباغته ، ويعاجله . (وبابه سمع ، ومنع) . ويصعق : يهلك . أو يغشى عليه . (وبابه تعب) . وصعقته الصاعقة (من باب قطع) : أصابته . وصعق (بالبناء للمفعول) : أصابته الصاعقة : وهى العذاب المهلك . وجسم نارى مشتعل ، يسقط من السماء فى رعد شديد . وقرن المرء : مثله فى الشجاعة ، والشدة ، والعلم ، والقتال ، وغير ذلك . وقرنك من يقاومك فى قتال ، أو غيره . وجمعه أقران . ويلتزمه : يعتنقه . واعتنقوا فى الحرب : أخذ كل منهم بعنق قرنه .

(١٠) الفرند : جوهر السيف ، ووشيه : وهو ما يرى فيه شبه مدبّ النمل ، أو شبه الغبار . وما يلمح فى صفحته من أثر تموج الضوء . والصارم : السيف القاطع . ودمع الفرند : الفرند الشبيه بالدمع .

جعل رونق السيف ، وماءه ، وما يلمح فى صفحته من أثر تموج الضوء دمعاً . وقال : إن سيف المرثى بكاه بهذا الدمع . وإن قلمه انشق ، أى انفلق وتلف من طول حزنه عليه .

وفى البيت ما يدل على أن ذلك الفقيد العظيم كان كالبارودى ، أى من أرباب السيوف والأقلام .

(١١) «من» : اسم استفهام ، يطلب به تعيين العقلاء . والاستفهام هنا : معناه النفى . ويفيد مع النفى الأسى ، والتحزن ، والتحسر ، والتلهف : أى لم يبق بعد وفاة ذلك البطل من يجير الضعيف ، ويحميه إذا ادلهم الليل ، واشتد الكرب ، وعظُم الخطْب . و« إلى » : بمعنى « اللام » : أى فمن يرتجى لحماية الضعيف ، وتأمينه ، وإعانته ، وإغاثته ؟ أو هى بمعناها الأصلى : وهو انتهاء الغاية : أى فمن ينتدب ، أو يسارع إلى إعاذة الضعيف ، وإجارته ؟ . أو فمن ينتهى به الأمر إلى حيث يعيذ الضعيف ، ويجيره ، ويؤمنه ، ويحميه . أو هى زائدة لتوكيد الكلام : أى فمن يكون ملجأ الضعيف ، وملاذه ، وحصنه ، ومعتصمه ؟ . ويراد بالضعيف : الخائف ، والمضطر ، والفقير ، والملهوف ، والمحتاج ، ومن كانوا يلتجئون إلى الفقيد ، ويلوذون به ، ويعتمدون عليه . وملجأ الضعيف : حمايته ووقايته . أو حصنه ، وحماه : مصدر ميمى . أو اسم مكان من لجأ إلى الحصن ، أو المكان ، أو الشىء (من بابى نفع وتعب) : أى لاذ به ، واعتصم ، وتحصن ، واحتمى . ولجأ إلى فلان : أى استند إليه ، واعتضد به . والحصن ملجأ . وفلان ملجأ قومه : أى ملاذهم ، ومعتصمهم . أو هو ملجأ (بضم الميم) : من ألجأه : أى عصمه ، وحماه . وألجأه من الشىء : أى حصّنه فى ملجأ منه ، ووقاه . وأطبقت ظلمات الليل : كثرت ، وتراكمت ، وغطت الكون ، واشتدت حلوكتها . والظُّلَم : الظلمات . واحدتها =

وَمَنْ يَقُودُ الزُّحُوفَ رَاجِفَةً وَالْيَوْمُ بِالْحَرْبِ سَاطِعٌ قَتَمُهُ[١٢] ؟

مَاتَ ، وَأَبْقَى شَجًى لِفُرْقَتِهِ يَكَادُ يَفْرِى قُلُوبَنَا أَلَمُهُ[١٣]

فَاذْهَبْ ، عَلَيْكَ السَّلَامُ مِنْ بَطَلٍ مَاتَ . وَعَاشَتْ مِنْ بَعْدِهِ نِعَمُهُ[١٤]

= ظلمة (بوزن غرفة) . وإقبال الليل ، وإطباق ظلماته : كناية عن اشتداد الكروب، وعظم الخطوب ، وإقبال الكوارث ، وتتابع النكبات .

والمعنى : كان الفقيد ملاذ الضعاف ومعاذهم فى الشدائد والملمات ؛ وبموته تقطعت بهم الأسباب، وفقدوا النصير، والمجير ، والثمال، والغياث، وأعوزهم المدافع القوى ، والحصن الحصين ، والمعين الفياض .

(١٢) الاستفهام فى صدر هذا البيت كالاستفهام فى صدر البيت السابق . والزحوف : جمع زحف : وهو الجيش الكثير العرمرم ، يزحف إلى العدو . تسمية بالمصدر . يقال : زحف العسكر إلى العدو (من باب قطع) : إذا مشوا إليه فى ثقل لكثرتهم . وراجفة : متهيئة للحرب والقتال . أو زاخرة ، متحركة ، جائشة . وهو حال من « الزحوف » . واسم فاعل من رجف (من باب نصر) : أى تحرك ، وجاش ، واضطرب اضطراباً شديداً . ورجف القوم : تهيئوا للحرب . واليوم : النهار . وبالحرب : أى بسبب الحرب ، أو مع الحرب . أو فى الحرب ؛ فالباء هنا : للسببية ، أو للمصاحبة ، أو للظرفية . وساطع : عال ، مرتفع، منتشر. والقتم : الغبار الأسود . ومثله القتام . و« الواو » فى أول الشطر الثانى : « واو» الحال . والجملة بعدها حالية . وسطوع القتام : كناية عن اشتداد الحرب ، واحتدامها ، وتأجج نارها، وقيامها على ساقها .

والمعنى: أنه لم يبق بعد وفاة ذلك القائد البطل من يتولى — فى حزم وإقدام ، وشجاعة ، وحسن تدبير— قيادة الجيوش الجرارة ، يزحف بها فى استعداد تام لملاقاة الأعداء فى حروب ومعارك ، ومعامع ووقائع يشتد فيها القتال ، ويحتدم النزال ، ويرتفع القتام، وتختفى الأعلام ، ويسود وجه النهار ؛ فلا يبقى مع الحرب شىء من بياضه ، وضيائه ، وإشراقه .

(١٣) الشجى : الهم ، والحزن ، والغم ، والأسى: مصدر شجى (من باب صدى) . وشجاه الأمر (من باب عدا) : حزنه ، وغمه . والفرقة : الافتراق : اسم من فارقه مفارقة وفراقاً . ويفرى : يشق ، ويقطع . (وبابه رمى) . وألمه : أى ألم الشجى والحزن .

يصف شدة حزنه ، وحزن غيره ممن عرفوا محامد الفقيد وفضائله فى الحرب والسلم . ويقول : إنهم لا يفتئون يتفجعون لفراقه ، وإن ألم هذه الفجيعة يكاد يمزق قلوبهم .

(١٤) « اذهب » : أمر من الذهاب ، أو الذهوب ، يراد به الدعاء ؛ فالشاعر يدعو ويرجو أن يكون مضى المرثى ، وسيره ، وارتحاله ، وذهابه عن الحياة الدنيا ذهاباً إلى رحمة الله تعالى ، وانتقالاً إلى جنته ، ونعيمه ، ورضوانه ، واستقراراً فى دار المجد ، والخلد ، والكرامة . و« عليك السلام » جملة أخرى دعائية . والسلام : السلامة من الآفات الظاهرة والباطنة، والبراءة من العيوب والهنوات . =

وَقَالَ يَفْتَخِرُ :

سَلَامَةُ عِرْضِى فِى خِفَـارَةِ صَارِمِى ... وإِنْ كَانَ مَـالِى نُهْبَـةً لِلْمَكَارِمِ [1]

= والسلام : الأمان ، والاطمئنان . والسلام : اسم من سلم عليه تسليماً : أى حياه بالسلام . ويراد بالسلام هنا : سلام الله تبارك وتعالى وتحيته ، وغفرانه وحفاوته . وتحيات من عرفوه ، فمجدوه ، وبكوه بدموع حارّة ، ورثوه مثل ذلك الرثاء البليغ ، وودعوه خير توديع . و« من » : بيانية . وما بعدها ، وهو « بطل » : بيان لما قبلها ، وهو فاعل « اذهب » . أو الكاف فى « عليك » . والخطاب للمرثى المتفجع عليه . والبطل : الشجاع المقدام . وجمعه أبطال . وفعله بطل (بوزن كرم) ، ومصدره البطولة والبطالة (بوزنى السهولة والشجاعة) . وسمى الشجاع بطلا ، لبطلان حياة عدوه : أى ضياعها عند ملاقاته فى الحروب . أو لبطلان العظائم وهوانها بشجاعته وإقدامه . أو لأن حياة البطل ، أو جراحته تبطل عنده ؛ فلا يباليها ، ولا يكترث لها . أو لأن دماء من يقتلهم من أعدائه تبطل عنده وتهدر ، فلا تعوّض بالديات ونحوها . والنعم : جمع النعمة (بكسر النون) : وهى العارفة ، والصنيعة ، واليد ، والمنة ، والفضل ، والإحسان . ونعم المرثى : عوارفه ، وصنائعه ، ومننه ، وأياديه ، ومآثره ، ومكرماته ، وسيرته العطرة ، وتاريخه المجيد ، وذكراه الخالدة .

تعليق وجيز

جاءت هذه المرثية القصيرة البليغة الرائعة الفائقة فى أربعة عشر بيتاً ، تنمّ كلها على تأجج عاطفة الراثى ، وصدق شعوره ، وعظم وفائه للعظماء ، وشدة تأثره بالفجيعة . هذا إلى تفوّقه فى كل ما عالجه ، ونظم فيه من أبواب الشعر ، وفنونه ، وأغراضه ، وبخاصة باب المراثى . وفى هذا البيت الختامى دعا الشاعر للمرثى برحمة الله ورضوانه ، وجمع له تحيات كل من عرفوه ، فعظموه ، وكل من يقدرون مجادة الماجدين ، وأعمال الخالدين ، وودّعه بخالص السلام والتحية خير توديع ، وأثنى على شجاعته ، وإقدامه وبسالته ، وشدة بأسه فى الحروب ، وأشاد بما خلده بعد وفاته من سيرة وتاريخ ، وبطولات ، وذكريات ، ونعم ، ومآثر ، وصنائع ، وعوارف لا يدركها الموت ، ولا يصيبها الفناء ، ولا ينال منها الذهول أو النسيان ، ولا يأتى عليها مرور الدهور ، وتوالى الأزمان .

* * *

(١) عرض الإنسان : ما ينبغى أن يصونه ، ويحميه ، ويحافظ عليه ، ويدافع عنه من نفسه ، وجسده ، وشرفه ، وحسبه ، وسلفه ، ومن يلزمه أمره . أو هو موضع المدح والذم من الإنسان . أو هو الخليقة المحمودة . أو هو كل ما يمدح المرء إذا حماه ، وصانه أن ينتقص ويثلب . وكل ما يذمّ من أجله إذا تهاون به ، أو قصر فيه ، أو أحجم عن نصرته وحمايته ، وجمعه أعراض . والخفارة (بتثليث الخاء) : الذمة ، والعهد ، والحفاظ ، والإجارة ، والحماية ، والمنعة : اسم من خفره ، وخفر به ، وخفر عليه (من بابى ضرب ونصر) : أى أجاره ، ومنعه ، وحماه ، وأمنه . والصارم : السيف القاطع . و« إن» فى أول الشطر الثانى : وصلية مجردة من معنى الشرط . ومعناها هنا : « قد » أو « لو » : أى وقد كان مالى نهبة ... أو ولو كان مالى نهبة . والواو قبلها : واو الحال : أى سلامة عرضى فى =

بَلَغْتُ عُلًا لَا يَبْلُغُ النَّجْمُ شَأْوَهَا إِذَا هُوَ لَمْ يَنْهَضْ لَهَا بِقَوَادِمِ [٢]

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْرَبْ إِلَى اللَّهْوِ وَالصِّبَا فَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ عِدَادِ الْبَهَائِمِ [٣]

= خفارة صارى والحال أن مالى نهبة للمكارم : أى ومع شدة حرصى على سلامة عرضى فإن مالى مبذول فى المكرمات ؛ لأن الحرص على سلامة العرض قد يوهم الحرص الممقوت على سلامة المال . وتكون « الواو » عاطفة إذا أسقطنا « إن » و « كان » ، واعتبرناهما فى حكم الزائدتين ، وإن لم يكن هذا الموضع من مواضع زيادتهما . والنهبة (بضم فسكون) : الغنيمة . والشىء المنهوب . واسم من نهب الشىء (كجعل ، وسمع ، وكتب) : أى أخذه قهراً . والمراد : أن مالى مبذول ، أجود به عن أريحية ، وغبطة ، وطيب نفس فى وجوه الخير والبرّ والمكارم : أى المكرمات : وهى أفعال الكرم والجود ، ووجوه الخيرات والمبرّات . الواحدة مكرمة (بفتح ، فسكون ، فضم) .

يعتز بشدة بأسه ، وقوة سلاحه ؛ ولهذا كان عرضه على الدوام مصوناً مخفوراً ، محمياً نقياً ، بريئاً من العيوب والمناقص ، وهو مع سلامة عرضه كريم جواد ، سخى أريحى ، جزيل العطاء ، يبذل ماله بلا حساب فى وجوه البرّ والخير والمكرمات .

(٢) العلا : جمع العليا : مؤنث الأعلى . ويراد بها المعالى . والعلا : الرفعة ، والشرف . ومثلها المعلاة ، والعلياء ، والعلاء . والشأو : الأمد ، والغاية . ونهض : قام ، وارتفع . أو أسرع. ونهض الطائر : بسط جناحيه ليطير . والقوادم : عشر ريشات . أو أربع كبار فى مقدّم جناح الطائر ، واحدتها قادمة . والخوافى : الريشات التى تخفى إذا ضم الطائر جناحيه . واحدتها خافية . والمراد هنا : الأجنحة التى تجمع القوادم والخوافى .

يفخر بأنه بلغ من المعالى وآماد الرفعة والشرف مرتبة تسمو كثيراً فوق الأفلاك ومنازل الكواكب والنجوم . وبالغ فى التصوير الحسى لتلك المرتبة ، فقال : إن النجم لا يبلغها إلا إذا بسط جناحيه ، وطار إليها فى قوة وسرعة . وهيهات .

(٣) طرب للغناء ونحوه(من باب فرح) : ارتاح له ، ونشط ، واهتز . وطرب منه . وله : خفّ واهتز من شدة فرح وسرور . أو من شدة حزن وغم . والمقصود هنا الفرح والسرور . و« إلى » : بمعنى اللام .. واللهو : كل ما لذّ لك ، واستمتعت به ، فألهاك وشغلك من هوى وطرب ، وغناء ونحوه .وقد يعبر باللهو عن وسائل الترويح عن النفس . وعن زينة الحياة الدنيا ، ومتعها ، وملذاتها . والصبا : (بكسر الصاد) : الحداثة والصغر .أو التشبه بالصبيان فى لهوهم ، ولعبهم ، ورتوعهم ، ومرحهم . وصبى إلى المرأة (كرضى) صبا (بفتح الصاد) . وصبا إليها يصبو صبا (بكسر الصاد) : مال إليها ، وحن ، وتشوق ، ويراد بالصبا هنا : دواعى الشباب ، وملابساته ، وما يكون من مرح الشبان ولهوهم ، وشهواتهم ، ولذاتهم . ومن عداد البهائم ، أو فى عدادها : أى يعد منها . والبهائم : جمع البهيمة : وهى كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر ما عدا السباع والطير . أو هى كل حيوان لا يميز . =

فَأَيَّةُ أَرْضٍ لم تَجُبْهَا سَــوَابِقِى وَغَمْرَةُ بَأْسٍ لَمْ تَخُضْهَا صَوَارِمِى (٤)

وَمَا اللَّيْلُ إِلَّا هَبْوَةٌ مِنْ كَتَائِبِى وَلَا الشُّهْبُ إِلَّا لَمْعَةٌ مِنْ لَهَاذِمِى (٥)

= يقول : إن الذى لا يطرب لضروب اللهو وفنونه ، وملابسات الصبا ودواعيه ، ميت الوجدان ، بليد الإحساس ، ضعيف الإدراك ، لا يمتاز من البهائم والعجماوات . والغرض الترغيب فى الإقبال على متع الحياة ولذاتها . ويبدو أن هذا البيت مقحم فى أبيات الفخر والابتهاء ، وأن مكانه المناسب مع أبيات الهوى والغزل ، فى القسم الثانى والأخير من هذه القصيدة . أو لعل الشاعر أراد أن يمهد به لهذه الأبيات . أو لعله يفخر ؛ فإن الطرب بمعناه الذى فصّلناه من قبل — لا يكون إلا مع رهافة الإحساس، ولطف الشعور ، وسموّ الإدراك ، وسلامة الذوق ، وشدة الوجد ، ورقة الهوى ، وحرارة الشوق ، واكتمال آدمية الإنسان . والبيت فى جملته يدل على أن البارودى كان فى صباه وشبابه — ابن كأس ولذة ، يطرب ويلعب ، ويلهو ويرتع ، ويمرح ويفرح ، ويصبو ويعشق ، ويجرى مع الغواية فى سباق . وهذه المعانى كثيرة مكررة فى شعر هذه المرحلة ، أو هذا الطور من أطوار حياته ، حيث الشباب الغضّ ، والمال الكثير ، والعيشة الرافهة ، والفراغ الواسع ، وكثرة المغريات الفاتنات . أو لعله لا يقصد بهذا الكلام ونحوه غير الافتتان فى ضروب الشعر وأغراضه ، واستيعاب فنونه وأبوابه ، مجاراة ومحاكاة لمن حفظ لهم، واقتدى بهم من فحول الشعراء .

(٤) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ؛ فالشاعر يفتخر بأنه لا توجد أرض لم تجبْها سوابقه ، كما ينفى وجود غمرة لم تخضها صوارمه : أى أنه قطع بسوابقه كل بقاع الأرض ، وخاض بصوارمه كل غمرات البأس . وهى مبالغة مقبولة فى مقام الفخر والمباهاة . وجاب الأراضى والبلاد (من باب قال) : قطعها بالتجوال فيها . ويريد بسوابقه : خيله وأفراسه : جمع سابقة ، أوجمع سابق . والغمرة : الشدة والزحمة . والبأس : الحرب ، أو الشدة فيها . وخاض الغمرات والشدائد ، والمخاوف والمكاره (من باب قال) : أى اقتحمها ، أو توسطها فى جرأة وإقدام وغير مبالاة . والصوارم : جمع صارم : وهو السيف القاطع .

يفخر بشجاعته وشدة بأسه ، واقتحامه الصعاب والعقبات ، وإقدامه على المخاوف والمكاره ، ويقول : إنه جوّل بخيله السابقات بقاع الأرض وأرجاءها ، وخاض بسلاحه المرهف غمار الحروب وشدائدها .

(٥) الهبوة : الغبرة ، وما يثار ، ويسطع ، ويرتفع ، وينتشر فى الجو من الغبار ودقاق التراب كأنه الدخان . والكتائب : جمع الكتيبة : وهى الجيش . أو الطائفة منه مجتمعة . أو جماعة الخيل . والشهب : جمع شهاب (بوزن كتاب وكتب) : وهو الكوكب المضىء . وما يرى كأنه نجم مضىء انقض من السماء . واللهاذم : جمع لهذم (بوزن جعفر) : وهو كل شىء قاطع من سيف ، أو سنان ، أو غيرهما .

والمعنى : أن الجيوش التى يقودها جرارة قوية عظيمة . وهى بسنابك خيلها ، وحركات الكر والفر =

جَنَانٌ تَحِيدُ الْأُسْدُ عَنْهُ . وَعَزْمَةٌ   هِيَ الْمَوْتُ بَيْنَ الْمَآزِقِ الْمُتَلَاحِمِ (٦)

وَلَكِنَّنِي أَمْسَيْتُ لِلْحُبِّ خَاضِعًا   وَلِلْحُبِّ سُلْطَانٌ عَلَى كُلِّ حَاكِمِ (٧)

= تثير غباراً كثيراً كثيفاً متراكباً ، يملأ الجو ، ويحجب ضياء الشمس ، فيجعل النهار المشرق المضيء ليلاً مظلماً قاتماً . على حين أن أسلحتهم المرهفة اللامعة تبرق فى هذا الليل المعتم ، وتلمع لمعان النجوم المضيئة تنقضّ من السماء . وهذا قريب من قول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(٦) تحيد : تميل ، وتتنحّى ، وتنأى ، وتبعد . (وبابه باع) . والأسد : جمع الأسد . وبه يضرب المثل فى القوة والجرأة وشدة البأس . وقد يراد بالآساد أقرانه فى الشجاعة ، وأنداده فى التمرس بالحروب. وهم يحيدون عنه ، ويخشون بأسه ، ويرهبون بطشه ، ويجتنبون قتاله ، لتفوقه عليهم . والعزمة : المرة من العزم : وهو الإرادة القاطعة القوية . والعزمة : الصبر والثبات ، والجدّ فيما يعزم عليه . و« بين » : ظرف مبهم ، بمعنى « وسط » . ولا يتبين معناه إلا بإضافته إلى ماله عدد ، أومسافة ، أوما يقوم مقامهما . ويلاحظ أنها أضيفت هنا إلى « المآزق » ، والمراد بين أجزاء المآزق : وهو المضيق الحرج . والمتلاحم : اسم فاعل من تلاحمت الأشياء : أى تضامت ، وتلاءمت ، واجتمعت بعد أن كانت منفصلة . وهو هنا تأكيد لمعنى « المآزق » . ويراد بالمآزق المتلاحم : شدائد الحرب وأهوالها . وويلات القتال ومضايقه .

يفخر بقوة جنانه ، وصلابة فؤاده ، وتفوّقه فى القوة والجرأة وشدة البأس وعنف البطش على الآساد ، أو على من يحاربهم ويحاربونه من أنداده الأقوياء الأشداء ، ولهذا يحيدون عنه ، ويخشون سطوته ، ويجتنبون قتاله . وإذا خاض المعامع ، وغشى المعارك ، واشتد البأس فى ملاحم القتال ومضايقه ، كانت عزماته وهجماته الموت الذريع لأعدائه ومحاربيه .

وفى البيت الآتى وأربعة الأبيات بعده استطراد للحب والهوى ، والغزل والغرام .

(٧) « لكن » : حرف يفيد مع التوكيد الاستدراك ، وهو أن تثبت لما بعدها حكماً مخالفاً لحكم ما قبلها ، فما قبلها أنه قوى القلب ، شديد البأس ، متمرس بالحرب والقتال ، يخشاه أقرانه ، ويحيدون عن ملاقاته ، وتحمل عزماته وهجماته الموت الذريع لأعدائه ومحاربيه . وما بعدها أنه — فى مجال الهوى والغرام — ضعيف مغلّب ، يخضع لسلطان الحب ، ولا يكاد يقاومه ، أو يغالبه . وأمسيت : صرت . وأصله لإفادة التوقيت بالمساء . والسلطان : القوة والقهر ، والسلطنة والغلبة ، والسيطرة والولاية. والحاكم : من نصب للحكم بين الناس : اسم فاعل من حكم : أى قضى ، وفصل . وحكَمَه : منعه عما يريد ، ورده . وجمعه حُكام . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . وصلته بما قبله أن الشاعر من المغامرين الأقوياء ، والمحاربين الأشداء ، والحاكمين ذوى البأس والسلطان ، ومع هذا كله فقد سيطر عليه الحب ، وأخضعه لسلطانه .

وصف نفسه فى البيت السابق بالشجاعة والإقدام ، وافتخر بقوة العزم ، وشدّة البأس فى الحرب =

وَبِى مِنْ صَمِيمِ الْعُرْبِ حَوْرَاءُ طَفْلَةٌ نَحِيلَةُ مَجْرَى الْبَنْدِ، رَيَّا الْمَعَاصِمِ (٨)
لَهَا نَظْرَةٌ لَوْ خَامَرَتْ قَلْبَ حَازِمٍ لَأَصْبَحَ مَسْلُوبَ النُّهَى، غَيْرَ حَازِمِ (٩)
أَطَعْتُ الْهَوَى فِيهَا وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا وَعَاصَيْتُ فِى حُبِّى لَهَا كُلَّ رَاحِمِ (١٠)

= والقتال . وقال فى هذا البيت : إنه مع هذا كله يتطامن للحب ، ويتواضع ، ويستكين ، ويخضع ؛ فإن للحب سلطاناً على كل ذى سلطان . وفى أربعة الأبيات الآتية تشبيب بمن أحبها ، وتعلّق بها ، ووصف لمحاسنها ومفاتنها ، وإطاعته الهوى فيها ، وانقياده لسلطانها ، وخضوعه لحكمها .

(٨) الصميم من كل شىء : المحض الخالص . والعُرْب : لغة فى العَرب . وحوراء : صفة من الحور (بوزن الفرح) : وهو من محاسن العين . ومعناه : أن يشتد بياض بياضها ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حواليها . قيل : ولا توصف العين بالحور إلا إذا كان جسد صاحبتها أبيض . وقيل : الحوراء من النساء : البيضاء ، لا يقصد بذلك حور عينيها . وطفلة (بفتح فسكون) : رخصة ، ناعمة ، لينة ، رقيقة . ونحيلة : صفة من النحول : وهو الهزال . والبند : الحزام ، أو النطاق يشد به الوسط . ومجرى البند : مكان حركة النطاق أو الحزام ، وجريانه ، ودورانه فى وسط المتحزم . ومجرى البند : كناية عن وسط المتغزل بها ، أو خاصرتيها . ونحوهما من الصفات المستحسنة فى النساء . وريًّا : ممتلئة : صفة من الرِّىّ : وهو هنا ضد الهزال والنحول . والمعاصم : جمع المعصم (بوزن المنبر) : وهو موضع السوار من اليد .

فى البيت السابق قال : إنه — مع عزته وقوته ، وإبائه وكبريائه — تطامن للحب ، وخضع لسلطانه . وفى هذا البيت قال : إن محبوبته عربية خالصة . ونوه ببعض محاسنها ومفاتنها ؛ فهى غضة بضّة ، رخصة ناعمة ، لينة رقيقة ، حوراء بيضاء ، نحيلة الوسط ، لطيفة الكشح ، خميصة البطن ، ممتلئة الجسم ، لا يعيبها هزال أو نحول .

(٩) خامرت : خالطت . وحازم : قوى ، سديد الرأى ، محكم التدبير : اسم فاعل من حزم الرجل رأيه (من باب ضرب) ، وحزم أمره : أى ضبطه ، وأحكمه ، وأتقنه . ومسلوب : منتزع ، مفقود . من سلبته الشىء (من باب قتل) : أى أخذته منه غصباً ، وانتزعته قهراً . وسلبت المرأة فؤاد عاشقها أو عقله : أى استهوته ، وفتنته ، واستولت عليه . والنهى : العقل .

يصف نظرتها بأنها ساحرة فاتنة ، شديدة التأثير ، تخالط قلب الحازم ؛ فتفتنه ، وتوله ، وتسلبه حزمه وعقله ، وتتركه أسير الهوى ، صريع الغرام .

(١٠) الهوى : مصدر هويه (من باب صدى) : أى أحبه ، وعشقه ، وتعلّق قلبه به تعلقاً شديداً . و« فى » فى الشطر الأول للظرفية المجازية . وفى الشطر الثانى معناها التعليل . أو هى تعليلية فى الشطرين : أى أطعت الهوى من أجلها . وعاصيتُ من أجل حبى لها كل راحم . و« إن » فى الشطر الأول من هذا البيت وصلية مجرّدة من معنى الشرط . وقد فصّلنا الكلام عليها وعلى الواو قبلها فى البيت الأول من هذه =

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّى أَدِينُ لِحُكْمِهَا ... وَأَكْبُرُ أَنْ أَنْقَادَ طَوْعَ الْخَزَائِمِ (١١)

فَقَلْبِيَ حُرٌّ ، لَا يَدِينُ لِصَوْلَةٍ ... وَعُودِيَ صُلْبٌ. لَا يَلِينُ لِعَاجِمِ (١٢)

= الأبيات . وظلم الهوى: أنه يتَيَّمُ العاشق الصب، ويتهيمه، ويستعبده، ويؤرقه، ويفنيه، ويذهب بعقله . وعاصاه معاصاة : خرج من طاعته ، وخالف أمره .

والمعنى : أن حبه لهذه الحسناء قد استبد به ، وغلبه على أمره ، فانقاد له ، وتمادى فيه ، واستمسك به ، وأصرّ عليه ، ولم يكترث لشروره وآفاته ، ولم يستمع لنصح رحمائه المشفقين عليه ، الذين يتمنون له الإقلاع والسلوان ، والنجاة والعافية ، والخير والسلامة .

(١١) «من عجب» : خبر مقدم . و «أنى أدين لحكمها» : مبتدأ مؤخر : أى انقيادى لحكمها مما يتعجّب منه . والعجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب شىء غير مألوف . أو روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشىء . أو انفعال نفسانىّ يعترى الإنسان عند استعظامه ، أو استطرافه ، أو إنكاره ما يردُ عليه . وعجب منه (من باب طرب) :أنكره لقلة اعتياده إياه . وأدين : انطاع ، وأخضع ، وأنقاد . والحكم : القضاء . ويراد به : السلطان ، والسيطرة . وأكْبرُ: أعْظم . من الكبر والعظم (بوزن العنب فيهما) . والصفة منهما كبير ، وعظيم . والمراد أنه يكبر على الانقياد : أى يأباه ويرفضه ، ولا يقبله . ويقال : هو طوع يدك ، أو إرادتك : أى هو منقاد لك . وفرس طوع العنان : أى سلس المقادة . والخزائم : جمع الخزامة (بكسر الخاء) : وهى حلقة من الشعر أو غيره ، توضع فى ثقب أنف البعير ونحوه . وبها يربط الحبل الذى يقاد به : وهو الزمام . ومن المجاز : جعلتُ فى أنف فلان الخزامة : إذا أذللته وسخرته . وطوع الخزائم : تأكيد لمعنى الانقياد : أى أكبُر أن أنقاد ، وأكبر أن أكون طوع الخزائم ؛ فهو طوع إرادة من يهواها ، منقاد لها ، خاضع لحكمها ، أبىّ كل الإباء على غيرها. والبيت الآتى يفصّل هذا المعنى ، ويعززه ، ويؤكّده .

(١٢) الصولة : السيطرة ، والغلبة ، والاستطالة ، والقهر ، والسطوة فى الحرب ونحوها . وعاجم : اسم فاعل من عجم العود (من باب نصر) : أى عضّه ليختبر صلابته أو خوره ورخاوته . وعجم عود فلان : أى امتحنه واختبره .

ومعنى هذا البيت والذى قبله :أن فى قلبه ، ونفسه ، وخُلقه ، وطبعه الحرية ، والإباء ، والعزة ، والمنعة ، والقوة، والصلابة ، وردّ الصولات والهجمات. ولكنه على الرغم من هذا كله تطامن لمن يهواها، وخضع لحكمها ، ودان لسلطانها ، فكان ذلك مثار العجب والدهش .

وَقَالَ فِى هَوًى * لَه وَقَدْ مَرِضَ :

دَعْ حَبِيبَ الْقَلْبِ يَا سَقَمُ فَبِنَفْسِى ، لَا بِهِ الْأَلَمُ[١]

كَيْفَ حَلَّ السُّقْمُ فِى بَدَنٍ خُلِقَتْ مِنْ حُسْنِهِ النِّعَمُ[٢] ؟

يَا لَهَا مِنْ لَوْعَةٍ شَعَبَتْ رُكْنَ قَلْبِى وَهْوَ مُلْتَئِمُ[٣] !

مَنَعُونِى عَنْ زِيَارَتِهِ وَحِمَى قَلْبِى لَهُ حَرَمُ[٤]

* هويه (من باب صدى) : أحبه ، وتعلّق به . والهوى هنا : المهوىّ : أى المحبوب المعشوق .

(١) دع : اترك . والسقم ، والسقم (بوزنى التعب والقبح) : مصدر سقم (من باب تعب) : أى مرض ، أو طال مرضه .

رجا لمن أخلص له الودّ ، وأصفاه بحبه — الإبلال والصحة . وتمنى أن يحتمل عنه المرض وآلامه .

(٢) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه التعجب ؛ فالشاعر يعْجب من حلول المرض بهذا الجسد الجميل . وكان ينبغى أن يحترم الحسن ، ويتهيبه ، ولا يقترب منه ؛ لأنه مصدر نعم ، ومنن ، وعوارف ، وأفضال .

(٣) يالها من لوعة : أسلوب تعجب : « يا » : حرف نداء . والمنادى محذوف : أى يا عجبا لها . و« من »: بيانية . وما بعدها وهو « لوعة » : بيان لما قبلها ، وهو « ها » ؛ فهو يتعجب من اللوعة . والتعجب : استعظام أمر ، لوصف فيه ، زائد على المألوف ، مع خفاء السبب . أو هو استعظام زيادة فى وصف الفاعل، خفى سببها ، وخرج بها المتعجب منه عن أمثاله . أو قل نظيره . واللوعة : حرقة الوجد والهمّ ونحوهما . ولا ريب أن اللوعة التى يعانيها العاشق لا نظير لها ، وبخاصة إذا مرض معشوقه . لاعه الحب ، والشوق ، والحزن ونحوه: أحرقه، وأمرضه (وبابه قال) . وشعبتْ : صدعتْ ، وشققت ، وفرقت ، ومزّقت . (وبابه قطع) . وركن الشىء : جزؤه القوى ، وجانبه المكين الذى يستند إليه ، ويقوم به . ويراد بركن قلبه: قلبه القوى الركين المتين . والواو فى الشطر الثانى . واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وملتئم ؛ مجتمع مكتنز ، قوى .

(٤) الواوفى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . و« له » : جار ومجرور ، متعلق بـ« حرم » . والحمى : الشىء المحمى ، المحظور ، الممتنع ، الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . والحرم : ما يحميه الرجل ، ويدافع عنه . وما لا يحل انتهاكه . والمكان الحصين ، المهيب ، المنيع ، المعتزّ ، المحمى المخشى ، فهو فى معنى « الحمى » . أو قريب من معناه ، مؤكد له .

طلب الشاعر أن يعود حبيبه ، فمنعه أهله من عيادته بسبب الغيرة ، أو الخوف ، أو نحوهما ؛ فشق هذا على نفسه ، وآسفه ؛ إذ الحبيب يحتل من قلبه حصناً حصيناً ، وحرماً آمناً ، لا يصيبه فيه سوء ، ولا يخشى عليه منه شر ، أو مكروه .

حَكَمُــوا أَنِّى بِهِ دَنِفٌ   أَنَا رَاضٍ بِالَّذِى حَكَمُوا(٥)

أَوَّلُــوا وَجْــدِى بِهِ عَبَثًــا   لَيْتَهُمْ قَالُوا بِمَــا عَلِمُوا(٦)

أَتْهَمُــونِى فِى مَــوَدَّتِــهِ   وَالْهَــوَى مِنْ شَــأْنِهِ التُّهَمُ(٧)

---

(٥) « به » : أى بحبيب القلب : أى بسبب عشقى له ، ومن أجل تعلقى به . ودنف المريض (من باب تعب) : اشتد مرضه ، وأشفى على الموت ، فهو دنف (بفتحتين ، أو بفتح فكسر) . وقد شاع استعمال الدنف فى المرض الذى يعترى العاشق بسبب العشق ، ويلازمه ، ويثقل عليه ، ويضنيه . ويلاحظ أن العشق : هو الإغرام بالمعشوقة ، والإفراط فى حبها ، والاشتغال بها ، والانصراف عن كل ما عداها .

والمعنى : أن عذاله ولائميه حكموا أن الحب أدنفه ، ونحله ، وهزله ، وبراه ، وأضناه ؛ وكأنهم أشفقوا عليه ، ونصحوا له ، ورجوا إقلاعه وسلوانه . والشطر الثانى ينم على رفضه النصح وإبائه ، واستمساكه بالحب ، وإصراره عليه ، وتماديه فيه ؛ فهو راض بحكمهم ، مستروح إلى قضائهم ، غير مكترث لما أصابه من الضنى والتوله ، والوجد والهيام .

(٦) أولوا : فسروا ، وقدروا . ووجدى به : حبى له . والعبث : اللعب ؛ والعمل الذى لا قيمة له ، ولا فائدة فيه . (وفعله من باب فرح) . وقال به : رآه ، وحكم به ، وذهب إليه ، واعتقده . وقالوا بما علموا : أى قالوا ما يعلمونه .

والمعنى : أن عاذليه أساءوا عن قصد تأويل حبه ؛ فعدوه من العبث ، فأسف وتألم ؛ لأنهم يعرفون فساد هذا التأويل ، وتجافيه عن الحق والصواب . وتمنى فى الشطر الثانى أن يقولوا ما يعلمونه من صدق حبه وإخلاصه ، وعفته ، ونزاهته ، وجده فيه ، وحرصه عليه ؛ ليسلم من تجنيهم وشرورهم التى أشار إليها فى الشطر الأول من هذا البيت ، وفى البيتين الآتيين .

(٧) فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا « تهمونى » . ويبدو أنه من تحريف الناسخ . والصواب : « أتهمونى » . أتهمه بكذا إتهاماً ، واتهمه اتهاماً . والاسم منه التهمة (بضم ففتح ، أو بضم فسكون) . وجمعها تهم . وأتهمه فى قوله : شك فى صدقه . وأتهمونى فى مودته : أى ارتابوا فى صدق مودتى لهذا المحبوب وأساءوا الظن ، كما أساءوا التأويل والتقدير . وقد تكون « فى » هنا للتعليل : أى لفقوا لى التهم والأباطيل بسبب ما انعقد بينى وبين هذا الحبيب من حب ووداد . والهوى : العشق ، والغرام ، والحب المضنى (وفعله من باب صدى) . والشأن : الأمر ، والحال .

يقول : إن حاسديه وعذاله رموه فى مودته الصادقة بالتهم الكاذبة . والعاشقون معرضون عادة لمثل ما تعرض له .

رَبِّ ، ! قَنِّعْهُمْ بِفِرْيَتِهِمْ وَانْتَصِفْ مِنْهُمْ بِمَا زَعَمُوا[٨]

وَاشْفِ نَفْسًا أَنْتَ بَارِئُهَا فَإِلَيْكَ الْبُرْءُ وَالسَّقَمُ[٩]

(٨) قنّعهم : أمر من التقنيع . ويراد به هنا : العقاب . والأصل : قنّعتْ المرأة رأسها : أى غطّتْه بالقناع . ومن المجاز : قنع فلاناً بالسيف ، أو العصا ، أو السوط : أى علاه به . والفرية : الكذب ، واختلاقه . وانتصف : أمر من الانتصاف : وهو الانتقام والعقاب . و « الباء» فى شطرى البيت : تعليلية : أى سببيّة . والأمر للدعاء . و« ما » فى الشطر الثانى : مصدرية . أو اسم موصول بمعنى « الذى » . وزعم : قال. أو أخبر . أو ظن . وأكثر استعمال الزعم فيما كان باطلاً ، أو فيما يشك فيه ، ولا يرجى تحققه . وقيل : إن الزعم كناية عن الكذب . أو هو مطيّة الكذب .

فى البيتين السابقين : شكا حسدته وعاذليه . وأشار إلى سوء تأويلهم لحبه ، وتجنيهم عليه ، ورميهم إياه بالتّهم الكاذبة . وفى هذا البيت دعا الله تبارك وتعالى أن يعاقبهم بأكاذيبهم ، وينتقم له منهم . ويلاحظ أن شطريه فى معنى واحد ، أو معنيين متقاربين .

(٩) بارئها : خالقها . وإليك البرء والسقم : أى بيدك الأمر كله .

فى ختام هذه الأبيات دعا الشاعر بالشفاء لحبيب قلبه الذى مرض ، ومنع من عيادته . وفى البيت معنى التضرع ، والابتهال ، والاجتهاد فى الدعاء .

وقد يكون الدعاء لنفسه ، مشيراً بهذا إلى ما يضانيه فى هواه من أوصاب العشق ، ولوعات الغرام . وإنما يشفيه أن يجمع الله شمله بذلك الحبيب ، فيسعدهما التلاقى والوصال .

وَقَالَ مُنَوِّهًا بِبَعْضِ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ أُعْجِبَ بِهِمْ . فَسَلَكَ سَبِيلَهُم ، وَنَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَهُمْ :

١ – أَبُو نُوَاسٍ الْحَسَنُ بْنُ هانِئٍ .

٢ – وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِىّ .

٣ – وَأَبُو تَمَّامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِىّ .

٤ – وَأَبُو عُبَادَةَ الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ الْبُحْتُرِىُّ .

٥ – وَأَبُو الطَّيِّبِ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمُتَنَبِّى .

مَضَى «حَسَنٌ» فى حَلْبَةِ الشِّعْرِ سَابِقًا ... وَأَدْرَكَ ، لَمْ يُسْبَقْ ، ولم يَأْلُ «مُسْلِمُ» [1]

وَبَارَاهُمَا «الطَّائِىُّ» ، فَاعْتَرَفَتْ لهُ ... شُهُودُ الْمَعَانِى بِالَّتِى هِىَ أَحْكَمُ [2]

---

(١) مضى : ذهب . ومضى فى الأمر : نفذ فيه ، وأتمه . و« حسن » : أبو نواس ، الحسن ابن هانئ . وحلبة الشعر : مجاله ، وميدانه . وهى فى الأصل : الدفعة من الخيل فى الرهان خاصة . أو خيل تجمع للسباق من كل أوْب : أى من كل ناحية ، لا من إصطبل واحد . ثم أطلقتْ على مجال السباق . ومن كلامهم : « تجارَوْا فى الحلبة » : أى فى مجال الخيل للسباق . ومن تعبيراتهم المجازية : « فلان يركض فى كل حلبة من حلبات المجد » وجمعها حلائب (على غير قياس) . و« سابقاً » : حال من فاعل « مضى » ، وهو « حسن » . وأدرك « مسلم » : أى وبارى مسلم بن الوليد الأنصارىُّ « أبا نواس » ، فأدركه ، ولحقه . ولم يسبق (بالبناء للمجهول) : أى لم يسبق « مسلماً » أحد من أقرانه . أو هى (بالبناء للمعلوم) : أى لحق « مسلم » بأستاذه « أبى نواس » فأدركه ، ولم يسبقه . ولم يأل : لم يقصّر ، ولم يفتر : مضارع « ألا » (من باب عدا) : أى فتر ، وضعف . أو قصّر ، وأبطأ . و« مسلم » : فاعل « أدرك » .

نوّه البارودى فى هذا البيت بشاعرين من خمسة الشعراء الذين أشاد بهم فى هذه الأبيات الخمسة ؛ فقال : إن أبا نواس سبق فى حلبة الشعر ، وفاق غيره من الشعراء .وباراه مسلم بن الوليد ، فأدركه ولحقه ، غير سابق له ، وغير مقصّر عن منزلته .

(٢) باراه مباراة : سابقه ، وعارضه ، وفعل مثل فعله . و« الطائى » : « أبو تمام ، حبيب ابن أوس» . واعترف بالشىء : أقرّ به ، وشهد . وشهود المعانى : المعانى الشبيهة بالشهود : جمع شاهد . =

وَأَبْدَعَ فِى الْقَوْلِ «الْوَلِيدُ» ؛ فَشِعْرُهُ عَلَى مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَشْىٌ مُنَمْنَمُ(٣)
وَأَدْرَكَ فِى الْأَمْثَالِ «أَحْمَدُ» غَايَةً تَبُذُّ الْخُطَى ، مَا بَعْدَهَا مُتَقَدَّمُ(٤)

= وبالتى : أى بالخطة التى... وأحكم : اسم تفضيل من حَكُمَ (من باب قَرُبَ) : أى صار حكيماً : أى صاحب حكمة : وهى الفلسفة ، والعلم ، والتفقه ، والعدل ، والحلم ، وصواب الأمر وسداده ، والكلام الجارى مع الحق والصدق ، والقول الذى يقل لفظه ، ويجل معناه . وأحكم الأمر إحكاماً : أحسنه ، وأتقنه .

يقول : إن أبا تمام بارى أبا نواس ومسلم بن الوليد . وإن المعانى فى شعره تشهد باتجاهه إلى الحكمة . ومن كلام بعض قدامى النقّاد : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والبحترىّ شاعر » .

(٣) أبدع فى القول : أجاده وحسنه . وأبدع الشىء : أنشأه . أو اخترعه على غير مثال سابق . والإبداع : إيجاد شىء غير مسبوق . وبدائع الشعر : أحاسنه . ويقال : هذا من البدائع : أى مما بلغ الغاية فى بابه . وأبدع : أتى بالبديع : أى بالمبتدع المخترع الذى لم يسبق . والوليد بن عبيد بن يحى الطائى أبو عبادة البحترى . ووَشْى تسمية بالمصدر : أى : موشى محسَّن مزين ، مزخرف . ومثله منمنم : اسم مفعول من المنمنة : وهى الوشى ، أو التوشية : وهى النقش ، والزخرفة ، والترقيش والتزيين ، والتحسين بالألوان ونحوها . والأصل : ثوب موشى ، وموشّى .

(٤) أدرك الغاية : بلغ النهاية ، ونالها ، وظفر بها : أى نهاية الإجادة والإبداع والإتقان . والأمثال : جمع مثل (بوزن سبب وأسباب) : وهو القول السائر بين الناس ، الممثّل بمضربه : أى الحالة الأصلية التى ورد فيها الكلام . أو هو جملة من القول مقتطعة من كلام ، أو مرسلة بذاتها ، تنقل مما وردت فيه إلى مشابهه ، بلا تغيير فى الكلمات والألفاظ ؛ وذلك ليبين أحدهما الآخر ، ويوضحه ويصوره . نحو قولهم : « الصيف ضيّعت اللبن » ؛ فإن هذا القول يشبه قولك : « أهملت وقت الإمكان أمرك » . والحكم كالأمثال ؛ فكلاهما صور من الكلام بلغت الغاية القصوى فى البلاغة ، من حيث إيجاز اللفظ ، وصحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف الإشارة ، وإصابة الغرض ، وصدق التجربة . وللحكم والأمثال ترتاح النفوس ، وتنشط لحفظها ، وتحرص على تداولها . والفرق بينهما : أن المثل قول محكى سائر ، يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل من أجله . والحكمة قول رائع تضمن حكماً صحيحاً مسلّما . وكما يكون كل منهما نثراً يكون نظماً . والأمثال والحكم كثيرة جدًّا فى شعر « أحمد بن الحسين أبى الطيب المتنبى » . وبذه يبذه (من باب رد) : غلبه وسبقه ، وفاقه . و« غاية تبذ الخطى» : أى أمد رفيع بعيد ، لا تستطيع بلوغه خطوات منافسيه ومساعيهم . و« ما » : نافية ، بمعنى « ليس » ، و« متقدم » (بصيغة المصدر الميمىّ ، أو بصيغة اسم المكان ، أو بصيغة اسم الفاعل) : أى ليس وراء ذلك الأمد البعيد الذى بلغه المتنبى بحكمه وأمثاله مجال للسبق أو التقدم . أو ليس بعده مكان يتقدم إليه متقدّم ؛ فهو غاية الغايات ، وأبعد الآماد ، وأعلى مراتب النبوغ والتفوق . والمنزلة الرفيعة التى سما إليها المتنبى فى هذا الشأن تعجز غيره من الشعراء والحكماء .

وَسِرْتُ عَلَى آثَارِهِمْ ، وَلَرُبَّمَا سبَقْتُ إِلَى أَشْيَاءَ . وَاللهُ أَعْلَمْ (٥)

(٥) الآثار : جمع الأثر : وهو العلامة . وما خلّفه السابقون . والخبر المروى . والسُّنَّة الباقية. وأثر الشيء : بقيته وما يحدثه . وسرت على آثارهم : أى سرت على آثار هؤلاء الشعراء الخمسة الذين نوّهت بهم فى أربعة الأبيات السابقة : أى سلكت سبيلهم ؛ واقتديت بهم ؛ واتبعت سُنَنهم . و « لربما » اللام للابتداء . و « رب » : حرف يفيد التكثير فى مثل هذا المقام ؛ لأنه مقام فخر ومباهاة . و« ما » زائدة بعد « رب » متصلة بها : أى وكثيراً ما سبقت هؤلاء الفحول إلى غايات لم يصلوا إليها ، وطرقت أبواباً لم يطرقوها ، وابتدعتُ مالم يخطر لهم على بال . « والله أعلم » : تذييل فى معنى ما سبقه : أى والله يعلم أنى سبقتهم إلى أشياء لم يصلوا إليها ، وآماد لم يبلغوها ، وطرقت أبواباً لم يطرقوها. ولم ينس البارودى أن يفخر بشعره حتى فى حديثه عن هؤلاء الفحول . واعتزاز الشاعر بشعره — وبخاصة ما كان مثل شعر البارودى — من الأمور المألوفة السائغة فى مثل هذا المقام . ومن مثله يُقْبَل ادعاء السبق ، والا بتداع ، والتجديد . والغرض من التذييل فى هذا البيت : تأكيد معنى السبق . وهو فى قوة القسم بالله .

* * *

تَرَاجِمُ وَجِيزَةٌ لِلشُّعَرَاءِ الَّذِينَ نَوَّهَ بِهِمُ الشَّاعِرُ فى أَبْيَاتِهِ السَّابِقَةِ *

(١) أبونواس : أبوعلي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمى (١٤٦ – ١٩٨هـ) (٧٦٣ – ٨١٤م) رأس المحدثين بعد بشار ، وشاعر العراق فى عصره . وهو فارسىّ الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان . ونشأ بالبصرة. ثم أخرجه والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفى إلى الكوفة. ثم قدم بغداد وهو شاب فى نحو الثلاثين ، فاتصل فيها ببعض الأمراء ، ومدحهم ، ثم أذن له الرشيد فى مدحه ، فدحه . ثم خرج إلى دمشق ، ومنها إلى مصر ، فدح أميرها « الخصيب » . كما قصد بعض عمال الولايات ، ومدحهم . ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين ببغداد . ثم مات بها بعد أن سجن ، وخرج من سجنه . وقد نظم فى جميع أغراض الشعر ، ونهج له طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، وتعصب لليمانية على المضرية ، وامتاز بخمرياته ، ومقطعاته المجونيات ، وأراجيزه الطَّرديات . واقتدى بشيطانه والبة بن الحباب ، فنقل الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر ، على خلاف مألوف العرب وآدابهم . وبهذا كله افتتن الشبان فى زمانه وبعده ، وحاكَوه ، ثم غلب هذا المذهب على أكثر الشعراء ، حتى صار الشاعر لا يعد ظريفاً إلا إذا مزج شعره بشيء من الخمريات والمجونيات وإن كان فى حقيقة أمره بعيداً عنها ، بريئا منها. ولأبى نواس ديوان شعر مطبوع ، وديوان آخر عنوانه « مجون أبى نواس ». ولابن منظور كتاب سماه : « أخبار أبى نواس » فى جزأين طبع أولهما .

(٢) أبو الوليد ، مسلم بن الوليد الأنصارى ، الملقب بصريع الغوانى (١٣٠ – ٢٠٨ هـ) =

* رجعنا فى هذه الترجمات والتعريفات إلى عدة مراجع ، منها كتاب « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » .

= (٧٤٧–٨٢٣ م) ولد بالكوفة، وقال الشعر فى صباه، وجدده بالبديع فى جنوح إلى تكلفه وتصنعه، والاستكثار منه. وقد انقطع إلى يزيد بن مَزْيد الشيبانى قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد فمدحهما، ثم مدح البرامكة، فسمت مكانته عندهم، وكان من خلصاء «الفضل بن سهل» وزير المأمون؛ فولاه أعمالاً بجرجان، اكتسب منها مالاً كثيراً. ثم لزم بيته، وجعل ينفق أمواله فى اللذّات مع أمثاله من خلعاء الشعراء. ولما نفد ماله عاد إلى الفضل بن سهل، فقلده الضياع بإصبهان؛ فاكتسب منها المال الكثير. ولما مات الفضل لزم «مسلم» منزله، وآثر النسُك والعبادة، وأقلع عن المدح، وظل متنسّكاً حتى مات بجرجان بالقرب من بحر قزوين إلى الجنوبى الشرقى منه.

(٣) أبو تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائى (١٩٠ – ٢٣١ هـ) (٨٠٦ – ٨٤٦ م). ولد من أبوين فقيرين فى قرية «جاسم» من قرى «حوران» بسورية، على بعد ثمانية فراسخ من دمشق. ونقل صغيراً إلى مصر، فنشأ بها، وعمل سقّاء فى جامع عمرو بن العاص، وكان يومئذ مثابة العلماء وناديهم، ومنهم تعلم أبو تمام العربية، وحفظ كثيراً من الشعر، وعالج نظمه حتى نبغ فى جميع فنونه، وبخاصة الرثاء، ومهد طريق الحكم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء المعرى وأمثالهما. ومن مصر خرج إلى بغداد، فدح المعتصم، ووزيره محمد بن الزيات، وكبار الولاة بولاياتهم. ثم ولاه الحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل بريد الموصل، وقبل أن يتم سنتين توفى فيها. ومن مؤلفاته: ديوان شعره. والاختيارات من شعر الشعراء. وفحول الشعراء. وديوان الحماسة. ونقائض جرير والأخطل. والوحشيات، أو ديوان الحماسة الصغرى. وسئل أبو العلاء المعرى فى المفاضلة بين أبى تمام، والبحترى والمتنبى، فقال: «أبو تمام والمتنبى حكيمان، وإنما الشاعر البحترى».

(٤) أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى، البحترى، الطائى (٢٠٦–٢٨٤ هـ) (٨٢١–٨٩٧م) ولد بمنبج (كمجلس)، بين حلب والفرات، ونشأ فى قبائل طى وغيرها من البدو الضاربين فى شواطئ الفرات؛ فطبع على فصاحة العرب، ولازم فى صباه أبا تمام، وعليه تخرج، ثم رحل إلى العراق، وأقام فى رحاب الخليفة العباسى «المتوكل» ووزيره «الفتح بن خاقان»، وظل محظياً لديهما إلى أن قتلا، فعاد إلى الشام، وجعل يختلف أحياناً إلى رؤساء بغداد وسُر مَن رأى إلى أن توفى بمنبج. وله ديوان شعر مطبوع. وكتاب الحماسة، وهو على مثال حماسة أبى تمام. وكان يقال لشعره: «سلاسل الذهب».

(٥) أبو الطيب، أحمد بن محمد بن الحسين، الجُعْفى، الكندى، الكوفى، المتنبى (٣٠٣ – ٣٥٤ هـ) (٩١٥ – ٩٦٥ م) الشاعر الحكيم، صاحب الأمثال السائرة، والحكم البالغة، والمعانى المبتكرة. وهو من سلالة عربية، من قبيلة جعفى بن سعد العشيرة، إحدى قبائل اليمانية. ولد بالكوفة، فى محلة كندة، فنسب إليها، وليس بكندى. ونشأ فى الشام. ولما ناهز العشرين من سنه خرج إلى بادية بنى كلب، فأقام بها مدة، وعظُم شأنه بين أعرابها، فوشى به إلى أمير حمص من قبَل الدولة الإخشيدية، وزعم حسدته والواشون به أنه ادعى النبوة فى بنى كلب، فلصق به لقب «المتنبى» وهو يكرهه، وبسبب هذه الوشاية سجن طويلاً. وبعد خروجه من سجنه لبث مدة يتكسب بشعره، ثم وفد على سيف الدولة بن حمدان العدوى صاحب «حلب» سنة ٣٣٧ هـ فمدحه بقصائد كثيرة، وتعلم منه =

وَقَالَ :

لَعَمْرُكَ مَا يُدْعَى الْفَتَى بَيْنَ قَوْمِهِ ... بِذِى كَرَمٍ حَتَّى يَكُونَ كَرِيمَا(١)

وَلَنْ يَلْبَثَ الْمَرْءُ الضَّنِينُ بِمَالِهِ ... إِذَا خَافَ غُرْمًا أَنْ يُعَدَّ لَئِيمَــا(٢)

الفروسية ، وشارك فى كثير من وقائعه العظيمة مع الروم ؛ حتى عُدّ من أبطال القتال ، وبقى أثيراً عنده إلى أن وشى به ، فاضطر إلى مفارقته ، وقصد « كافوراً الإخشيدى » أمير مصر ، فدحه آملاً . ولما خاب أمله فيه خرج من مصر على حين غفلة منه ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ هـ ، وذهب إلى الكوفة ، ثم إلى بغداد ، وزار بلاد فارس ، فدح ابن العميد بأرّجان ، وعضد الدولة بن بُوَيْه الديلمى بشيراز ، ثم عاد إلى بغداد ، ثم خرج منها يريد الكوفة ، فعرّض له فى طريقه « فاتك بن أبى جهل الأسدى » بجماعة من أعراب بنى ضبّة ، فقتلوا المتنبى ، وابنه ، وغلامه بعد دفاع مجيد ، بالقرب من دير العاقول ، فى الجانب الغربى من سواد بغداد . وله ديوان شعر مطبوع . وقد استوعب كل أغراض الشعر وفنونه ، وأجاد فى وصف المعارك ، والعتاب ، والمراثى ، ولعل باب المديح أوسع الأبواب فى ديوانه . أما حكمه وأمثاله فإنها ثروة عظيمة خالدة فاق بها من سبقوه ، ومن لحقوه من حكماء الشعراء ، وأفادت منها اللغة العربية أعظم فائدة ؛ فما من كاتب ، أو خطيب ، أو متكلم ، أو مناظر ، أو مدرس إلا وله من حكم المتنبى وأمثاله مدَد أيما مدَد . وأبو العلاء المعرى — على فضله ، وتعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية — اعترف لأبى الطيب المتنبى بالفضل ، وقدمه على نفسه وغيره .

* * *

(١) « لعمرك » : اللام : لام الابتداء . وعمر : حياة . وهو مبتدأ . وخبره محذوف . والتقدير لعمرك قسمى : أى أحلف بحياتك . ودعوت ابنى بعلىّ . ودعوته عليا : أى سميته بهذا الاسم . ويراد بالدعوة هنا : المعرفة . أو الاشتهار . أو الاتصاف .

والمعنى : أن المرء لا يسمو بين الناس إلى مرتبة الكرماء ذوى النجدة ، والمروءة ، والجود والسخاء إلا إذا كان كرمه خالصاً ، صادقاً ، حقيقياً ، نقياً ، لا تكدّره شائبة من شوائب المن ، أو الابتهاء ، أو الرياء والنفاق ؛ فإن الناس لا ينخدعون طويلاً بالظواهر الكاذبة المجوفة ، يعلنها الرجل ، ويخفى تحتها نقيضها . والبخيل الذى يدعى الكرم ، وينافق فيه ، لا يلبث أن يفتضح أمره ، وتنكشف للناس حقيقته . والبيت الآتى يعزز هذا المعنى ، ويؤكّده ، ويوضحه ، ويفصّله .

(٢) لبث بالمكان (من باب فهم) : مكث ، وأقام . وما لبث أن فعل كذا : أى ما أبطأ ، وما توانى ، ولا تأخر عن فعله. ولن يلبث الضنين أن يُعدّ لئيما : أى سرعان ما يوصم باللؤم . وضن بالشئ (كتعب ، وضرب) : بخل به بخلاً شديداً ، فهو ضنين . والغرم ، والمغرم ، والغرامة : الخسارة : =

فَلَيْسَ الْفَتَى مَنْ حَازَ مَالًا ، وَإِنَّمَا فَتَى الْقَوْمِ مَنْ أَغْنَتْ يَدَاهُ عَدِيمَا(٣)

فَمِزْ بَيْنَ مَاتَخْتَارُ فِى الْفِعْلِ ،وَالْتَمِسْ لِنَفْسِكَ حَظًّا كَىْ تَكُونَ عَظِيمَا(٤)

= مصدر غرم فى تجارته (كتعب) : أى خسر ، ولم يربح . واللئيم : ضد الكريم .

يقول : إن الذى يبخل بماله ، ولا ينفق منه فى وجوه البرّ والخير ، والمروءة والإحسان ، مخافة المغرم ، والخسران — سرعان ما يصمه الناس باللؤم والضنانة ، والمهانة والحقارة ، وشُح النفس ، ودناءة الطبع .

(٣) الفتى(فى الأصل): الشاب الحدث أول شبابه ، بين المراهقة والرجولة . وتتوسّع العرب فى استعماله . فتقول : هو فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . ويقولون : هذا فتى بيّن الفتوة: وهى الحرية، والكرم ، والجود والسخاء ، والمروءة والنجدة . وحاز المال وغيره (من بابى قال وكتب) : اقتناه ، وجمعه ، وضمه ، وملكه . والعديم : الفقير الذى لا مال له . وجمعه عدماء .

يقول : ليست الفتوّة والرجولة الحقيقية فى حيازة المال ، والضن به ، والحرص عليه . وإنما تكون مع الكرم والجود والسخاء ، وبذل المال فى وجوه البر والخير والمروءة . وسيّد القوم من أنجد المستنجد ، وأغنى بماله المعدم ، وسد خلّة المحتاج .

(٤) مز : أمر من ماز الشىء من غيره (من باب باع) : أى عزله ، وفصله ، وفرزه ، ونحّاه. وكذا ميّزه ، وأمازه ، فانماز ، وامتاز ، واستماز ، وتميّز. وتمايز القوم : تفرقوا . قال تعالى «ليميز الله الخبيث من الطيب» (الآية رقم ٣٧ من سورة الأنفال) وقال تعالى : «وامتازوا اليوم أيها المجرمون» (الآية رقم ٥٩ من سورة يس) ومايز بين الشيئين ، أو بين الأشياء ممايزة . هذه هى التعبيرات المعروفة لنا فى هذه المادة ؛ فكلمة «بين» تأتى بعد الممايزة . ويلاحظ أن الشاعر جاء بها هنا بعد الميز. و «مز بين ما تختار فى الفعل» : أى مايز بين ما تختاره من الأفعال ، وفاضل بين الأعمال ؛ لتنتقى منها ما يرفع شأنك بين الناس . أو مايز بين ما تختاره لنفسك فيما تفعله ، لتقلع عن القبيح ، وتتجه إلى الحسن . و «التمس لنفسك حظاً» : أى اطلب لنفسك نصيباً موفوراً من البر والخير ، والكرم ، والمروءة ، والجود ، والسخاء ، والنجدة ، والأريحية ، والفضل ، والإحسان .

يقول : مايز بين الأفعال والأخلاق ، وتخير أفضلها ، وجمّل نفسك بها ؛ لتكون من عظماء الناس . والأبيات الأربعة فى تعظيم شأن الكرم ، والدعوة إليه ، والترغيب فيه ، والحض عليه . وتهجين البخل ، وتقبيح اللؤم ، والتنفير منهما .

وَقَالَ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَدِيحِ :

لَهُ نظْرَتَا جُودٍ ، وَبَأْسٍ أَثارتَا غَمَامَيْنِ سَالَا بِالْفَوَاضِلِ وَالدمِ [1]

فَكَمْ أَحْيتِ الْأُولَى لُبَانَةَ مَعْشَرٍ وَكَمْ أَرْدَتِ الْأُخْرَى حُشَاشَةَ مُجْرِمِ [2]

(١) له : للممدوح . والنظرة : اسم مرة من نظر الشئ ، ونظر إليه : أى أبصره ، وتأمّله بعينه . ونظر فى الأمر : أى تدبره ، وفكر فيه ، يقدره ، ويقيسه . والجود : الكرم ، والبذل ، والسخاء . والبأس : القوة ، والشجاعة ، والإقدام ، والشدة فى الحرب والقتال . وأثار الغبار ونحوه : هيجه ، ونشره ، وأظهره ، وأسطعه . والغمام : السحاب . واحدته غمامة (بوزن سحابة) . وإثارة الغمام : تحريكه وسوقه . والفواضل : الهبات ، والنعم العظيمة ، والخيرات ، والعوارف ، والعطايا ، والمكرمات . الواحدة فاضلة . وإثارة الغمامين اللذين يسيل أحدهما بالفواضل ، والآخر بالدم : تعبير مجازى يوضح ما قبله ويفصّله : أى للممدوح نظرة مقرونة بالرضا تثير سحاباً ، وتسوقه إلى معتفيه ، فيجرى عليهم بالنعم والهبات . وله نظرة أخرى مقرونة بالغضب تثير سحابا ، وتسوقه إلى المجرمين ، فينصبّ عليهم بالتجريح والتقتيل ؛ فهما نظرتان مختلفتان : نظرة تنتج الجود والفواضل ، ونظرة تنتج البأس ، وتسيل الدماء .

يمدحه فى حالتى رضاه وغضبه ، أو فى حالتى سلمه وحربه ؛ فهو فى الرضا والسلم كريم سخى جواد معطاء ، يجود على معتفيه بالفواضل الكثيرة ، والنعم العظيمة ، ويفيض بالخيرات والمكرمات . وهو فى الغضب والحرب مقاتل شجاع ، باسل مقدام ، شديد البأس ، قوىّ المراس ، تكثر فى أعدائه طعناته ، وتثخنهم جراحاته .

(٢) « كم » فى شطرى هذا البيت : خبرية ، بمعنى كثير . والأولى : نظرة الجود . أو الغمامة التى تسيل بالفواضل . والأخرى : نظرة البأس . أو الغمامة التى تسيل بالدم . واللبانة : الحاجة . وجمعها لبان (بضم اللام) . والمعشر : جماعة الناس . وجمعه معاشر . وأردتْ : أهلكت . والحشاشة (بضم الحاء) : بقيّة الحياة . أو بقية الروح فى المريض والجريح المُشْفى على الموت . ويراد بها هنا : النفس ، والروح .

يقول : إن الممدوح يحيى بجوده وكرمه لُبانات الناس ، ويقضى حوائجهم ، ويحقق الواسع البعيد من آمالهم . ويُردى ببأسه وشدته ، وبطشه وقوته نفوس المجرمين الآثمين ، ذوى الشر والأذى ، والبغى والعدوان . والبيت توضيح وتفصيل لمعنى البيت الذى قبله .

وَقَالَ :

عَلِيلٌ ، أَنْتَ مُسْقِمُــهُ فَمَا لكَ لَا تُكَلِّمُهُ[١] ؟

سَــرَى فِيــهِ الضَّنَى حتَّى بَــدَتْ لِلْعَيْنِ أَعْظُمُــهُ[٢]

فَــلَا إِنْ بَاحَ تَعْــذِرُهُ وَلَا إِنْ نَاحَ تَرْحَمُــهُ[٣]

إِذَا كَانَ الْهَوَى ذَنْبِى فَقُلْ لِي : كَيْفَ أَكْتُمُهُ[٤] ؟

---

(١) عليل : مريض . من العلة : وهى المرض الشاغل . وهو خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : محبك عليل . وسقم (من باب تعب) : مرض . أو طال مرضه . وأسقمه : أمرضه . وسقّام الحب : ما يعانيه المحب من إعراض الحبيب ، وصدوده ، وهجرانه . وما يقاسيه لهذا السبب من الوصب ، والضنى والوله ، والأرق ، والهمّ ، والقلق ، والوجد والصبابة ، وحرارة الشوق ، ولوعة الهيام . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه الإنكار ؛ فهو ينكر على حبيبه صده عنه ، ويستهجن إعراضه عن تكليمه . وقد يكون معناه الاستعطاف والاسترحام ؛ فهو يستعطفه ويستميله ، ويرجو أن يرحمه بمحادثته ، والإقبال عليه . وقد يكون للتعجب ؛ فهويتعجب ويُعجّب غيره من إعراض ذلك الحبيب عنه ، وضنه بالتحدث إليه ، مع ما يعلمه من هُيامه به ، وسقّامه فى هواه . والشاعر يخاطب من يتغزل بها بضمير المذكر ، تشبهاً بكثير من شعراء العصر العباسى الذين حفظ لهم ، واقتدى بهم . وهذا غير قليل فى شعر البارودى .

(٢) سرى : سار . من السرى (بوزن الهدى) : وهو فى الأصل : السير ليلاً . ويقال : سرى فيه السم ، والخمر . وفيه : فى العليل الذى أسقمه حبيبه . يريد نفسه . والضنى : شدة المرض ، ونحول الجسم . ضَنِىَ (من باب صَدِىَ) : مرض مرضاً ملازماً حتى أشرف على الموت . أو مرض مرضاً مخامراً ، كلما ظُن برؤه نُكس . والأعظم : العظام ، جمع عظم ، (مثل سهم ، وأسهم ، وسهام) . والشطر الثانى : كناية عن نحوله وضعفه وهزاله ؛ فقد اشتد تأثير الضنى فى جسمه ، حتى أذاب ما يكسو العظام من اللحم . وهذا البيت تفصيل وتأكيد لمعنى الشطر الأول من البيت السابق .

(٣) باح : ظهر (وبابه قال) . والمراد باح بسره : أى أباحه وكشفه وأظهره . وناح (من باب قال) : بكى ، واستبكى غيره .

يشكو ما يضانيه من جفوة حبيبه وقسوته عليه ؛ فإنه لا يلتمس له العذر إن خفف عن نفسه ، فباح ببعض ما يكتمه من أسرار الهوى والغرام . ولا يرق له إن لاعه الحب ، واشتد به الوجد ، فغلبه البكاء والعويل .

(٤) يقول لمن يحبها ، ويتغزل بها : إذا كان ذنبى إليك أنى أهواك ، وأتعلق بك ، وأنى على الرغم منى أبوح بالهوى والغرام ، فأخبرينى : كيف أكتمه ؛ لأتقى بكتمانه غضبك ، وأفوز برضاك ؟ =

وَدَمْعِى أَنْــتَ مُرْسِــلُهُ وَقَلْبِى أَنْــتَ مُؤْلِمُــهُ(٥)
وَلَا وَاللّهِ مَالِى فِى الْ هَوَى ذَنْبٌ ، فَأَعْلَمُــهُ(٦)
فَوَيْلِى مِنْ غَــرِيبِ الدَّلْ لِ أَبْــلَانِى تَحَكُّمُــهُ(٧)

= وهو بهذا الاستفهام يحتج لنفسه، ويقيم عذره ؛ ويحاول إقناع معشوقته بأنه لا سبيل إلى كتمان الحب ، وإخفاء أمره، وأنه لا بدّ من ظهور أمارات العشق فى العاشق الصب المستهام؛ وعلى هذا لا يليق بالمعشوقة أن تغضب ، وتضاعف بغضبها أو صاب عاشقها ، بل ينبغى أن تلتمس له العذر ، وتشفق عليه ، وترق له ، وترحمه. وبهذا الشرح يتصل هذا البيت اتصالاً وثيقاً بالبيت السابق ، والبيتين اللاحقين .

(٥) أرسل الدمع إرسالاً : أطلقه ، وأساله ، وأجراه . وهذا البيت وثيق الاتصال بالبيت الذى قبله ؛ فالواو فى شطريه : واو الحال . والجملة بعدها حالية : أى فقل لى : كيف أكتم هواى والحال أنك بصدودك عنى تعذبنى ، وتؤلم قلبى ، وتجرى دمعى؛ فيفتضح بالبكاء وآثار الآلام النفسية ما أحاول كتمانه ، وأحرص على إخفائه من أمرى وأمرك .

(٦) « فأعلمه » : حق المضارع هنا أن ينصب بأن المضمرة بعد فاء السببية . ويمكن قطعه عن هذه الفاء ، ورفعه بتقدير اسم قبله ، يعرب مبتدأ ، خبره جملة « أعلمه » . والتقدير : « فأنا أعلمه » . وإنما حملنا على هذا التخريج حرصنا على سلامة البيت من « الإصراف » : وهو عيب من عيوب القافية : ومعناه اختلاف « المجرى » : أى اختلاف حركة الروى المطلق ، فالروى فى هذه القصيدة الميم . وحركته الضمة . ومن أمثلته قول الحطيئة :

الشعر صعب ، وطويل سُلَّمــه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
هوت به إلى الحضيض قدمــه يريد أن يُعْرِبه فيعجمه

أى فهو يعجمه .

قرّر الشاعر فى هذا البيت أن ساحته بريئة من ذنوب الهوى ، وآثام الغرام ، وأكد تقريره بالقسم الذى صدر به كلامه . والغرض استمالة الحبيب واستعطافه . وقد أسلفنا فى شرح الأبيات السابقة أن لوعة الحب ، وحرقة الوجد ، وتباريح الشوق تعذب المحب وتؤلمه وتضنيه ، وتهزله وتؤرقه وتبكيه ؛ فتكشف الخفى المكتوم من أمره ، وتُطْلِع الناس على مكنون سره ، وأن صدود الحبيب وتحكمه ، وإعراضه وتردده سبب هذا كله ؛ فهو وحده المسئول عن انكشاف أمر الهوى إن عد هذا الانكشاف من الأخطاء أو الذنوب . وفى البيتين الآتيين زيادة إيضاح وتفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

(٧) ويلى : : عذابى ، وشقائى ؛ فالويل : كلمة عذاب . والويل : الهلاك . وحلول الشر . والدل : مصدر دلّت المرأة على زوجها (من باب ضرب) : أى أظهرت جرأة عليه فى تلطف ، كأنها تخالفه ، وما بها من خلاف . والدل : الحالة التى يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار فى الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. ودل (كخف) دَلاًّ : تاه ، وتكبر ، وافتخر. وأدل على محبه إدلالاً : =

تَـرَدَّدَ فِى مَحَبَّتِـهِ وَلَمْ يَسْـمحْ بِهَا فَمُـهُ(٨)
غَـزَالٌ أَحْـوَرُ الْعَيْنَيْـ نِ ، لاَ يَسْـلُو مُتَيَّمُهُ(٩)
يَهِيمُ بِحُسْـنِ صُـورَتِهِ فُـؤَادِى ، وَهْوَ يَظْلِمُهُ(١٠)

= وثق بمحبته ، فأفرط عليه : أى حمله مالا يطيق. ولعل هذا المعنى هو المراد هنا. وغريب الدل : أى دلّه غريب غير مألوف : أى أفرط الحبيب فيه ، وخرج به عن حد القصد والاعتدال . وأبلانى : جَهَدنى ، وأضنانى ، وأعيانى ، وأشقانى . مستعار من أبليت الثوب : أى أخلقته ، وهلهلته ، وأذهبت جدته . والتحكم : الاستبداد ، والتغلب ، والسيطرة .

يشكو ما يضانيه ، ولا يكاد يطيقه من الجهد والمشقة ، والعنت والعذاب ، بسبب تحكم الحبيب وسيطرته ، وإفراطه فى الدل والتمنّع ، وضنانته بالإقبال والوصال .

(٨) بها : بالمحبة . ولم يسمح بها فه : أى لم يصارح بما فى نفسه من أمر الحب ، ولم ينطق بشىء من هذا ، ولم يجر على لسانه .

ومعنى البيت : أنه أحب هذه الحسناء ، وشغف بها ، وبدا فى قوله وعمله وسلوكه أثر هذا الحب الصادق القوى ، ولكن محبوبته لم تسايره فى شىء من هذا ، وبدت كأنها مترددة فى حبها له ، أو غير مكترثة لهيامه وغرامه ، وضنّت عليه بكلمة من كلمات الحب تشافهه بها ، فتصلح حاله ، وتريح باله. والتردد فى المحبة ، وعدم التصريح بها ، والإضراب عن التكلم فيها .. كل هذا قريب من معنى البيت السابق ، أى من معنى الدل الغريب ، والتحكم العنيف الذى أضنى المحب وعذبه، وأبلاه .

(٩) غزال : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هو (أى الحبيب) غزال : وهو الشادن : أى ولد الظبية إذا تحرك ، وترعرع ، ومشى . وتشبه المرأة بالغزال فى جمال الجيد ، أى العنق ، وجمال العينين وحسن سعتهما ، وفتورهما ، ورشاقة الجسم ، وخفة الحركة ، وحسن التثنى . وأحور : صفة من الحور (بفتحتين) : وهو من محاسن العين . ومعناه أن يشتد بياض بياضها ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها فى سعة مستحسنة ، وترق جفونها ، ويبيض ما حواليها . وقد حورتْ العين (من باب فرح) . قيل : ولا توصف العينان بالحور إلا إذا كان جسد صاحبتهما أبيض . وسلاه ، وسلا عنه : نسيه ، وتعزى عنه ، وتسلّى ، وصبر على بعُده ، وطابت نفسه بعد فراقه. والمتيم : الذى تيّمه العشق: أى عبّده وذلله . و« متيم » فاعل « يسلو » : أى لا يسلوه متيمه .

يُشبه محبوبته بالغزال ، وينوه بجمال عينيها ، ويقول: إنها بمحاسنها ومفاتنها تتيّم عاشقها، وتهيّمه ، وتدلّهه؛ فيبقى على الدوام مستهاماً بها صبا ، لا يكاد يسلوها ، أو ينصرف عنها ، أو تطيب نفسه بغيرها .

(١٠) هام فلان بفلانة (من باب باع) : هويها ، وشغف بها ، واشتد عشقه لها . وفاعل « يهيم» « فؤادى ». وبحسن صورته : أى بحسن صورة الغزال الأحور العينين الذى لا يسلوه متيمه . =

نَسَبْتُ بِهِ ، فَبَانَ عَلَى جَبِينِ الشِّعْرِ مِيسَمُهُ(١١)
فَمَا لِي فِي الَّذِي أُمْلِيهِ مِنْ فَضْلٍ . فَأَغْنَمُهُ(١٢)
وَلَكِنْ حُسْنُهُ يَبْدُو إِلَى عَيْنِي . فَتَرْسُمُهُ(١٣)

= و « الواو » فى الشطر الثانى : واو الحال . وجملة « هو يظلمه » : جملة حالية . و« هو» : أى الغزال .

يقول : إن قلبه مستهام بها ، مفتون بحسنها ؛ وهى مع هذا تظلمه ، وتعذبه ، وتجور عليه ، وتهضمه حقه بدلها وصدودها. والبيت الثامن من أبيات هذه القصيدة يشرح الجملة الحالية فى نهاية هذا البيت ،أى هو يهواها ، ويهيم بحسن صورتها ؛ وهى مع هذا تظلمه بترددها فى المحبة، وإعراضها عنه، وقلة اكتراثها له ، وبخلها عليه ، حتى بكلمة طيبة تطيب بها خاطره ، وتريح باله .

(١١) نسب الشاعر بفلانة : شبب بها فى شعره ، وتغزل ، وعرض بهواها وحبها . وبه : أى بالغزال الأحور العينين الذى لا يسلوه متيمه . والجبين : ما فوق الصدغ ، عن يمين الجبهة، أو شمالها، وهما جبينان . والجبهة بين جبينين . وقد يطلق الجبين على الجبهة. ويراد بجبين الشعر : ديباجته ، وأسلوبه ونظمه . والميسم : العلامة، والسمة، وأثر الحسن والجمال. وجمعه مياسم ، وميسمه: أى ميسم النسيب المفهوم من نسبت . أو ميسم « الغزال »؛ فإن الشعراء يحسنون شعرهم ، ويزينونه بالنسيب والتشبيب وأوصاف النساء ومحاسنهن .

يقول : إنه شبب بهذه الحسناء ، فظهرت فى شعره محاسنها . أو المعنى : أنه لما نسب بهذه الحسناء تحسن شعره بهذا النسيب ، وتزين ، وراق وشاق .

ومن خصائص شعر النسيب ، أو الغزل ، أو التشبيب – العذوبة ، ورقة الحواشى ، وجمال الأوصاف ، وبلاغة التشبيهات ، وتأجج العاطفة . وفيه لهو النفس ، وارتياح الخاطر.

(١٢) أملى الكتاب على الكاتب إملاء : ألقاه عليه ، وقاله له ، فكتب عنه . و« من » زائدة لتوكيد الكلام . والفضل : الإحسان ابتداء بلا علة . وأغنمه : أفوزبه بلا مشقة . أوأناله بلا بدل (وبابه فهم) . فأغنمه : أى فأنا أغنم هذا الفضل : أى أغنم جزاءه وثمرته . والمضارع مرفوع . وجملة « أغنمه » خبر المبتدأ « أنا » . ويراجع إعراب «فأعلمه» فى البيت السادس من أبيات هذه القصيدة .

فى البيت السابق قال : إنه نسب بمحبوبته ؛ فازدان شعره بجمالها ، أو بجمال هذا النسيب . وفى هذا البيت قال : إنه لا فضل له فيما يمليه من شعر الغزل أو النسيب ، وإنما الفضل كله لمن يتغزل بها ، ويزين شعره بمحاسنها . وثلاثة الأبيات الآتية تؤيد هذا المعنى .

(١٣) حسنه : أى حسن الغزال الأحور العينين الذى لا يسلوه متيمه : أى حسن الحسناء التى يتغزل بها . و« إلى » هنا : مرادفة اللام : أى يبدو لعينى . قال تعالى : « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » (الآية رقم٤٧ من سورة الزمر) . « وبدا لهم سيئات ما كسبوا » (الآية رقم ٤٨ من سورة الزمر) . « فبدت لهما سوآتهما » (الآية رقم ١٢١ من سورة طه) . وترسمه (من باب نصر) : =

وَيَنْـثُرُ لَفظَـهُ دُرًّا عَـلَى سَـمْعِى ، فَأَنْظِمُــهُ(١٤)
ولَوْلَا ذاكَ مَا لَاحَتْ بِأُفْـقِ الشِّعْـرِ أَنْجُمُــهُ(١٥)
فَقُلْ مَا شِئْتَ فى شِعْرِى وَخَـيْرُ الْقَـوْلِ أَحْكَمُهُ(١٦)

= تخطه . أو تكتبه . أو تصوره .

وهذا البيت يوضح معنى البيت السابق ، ويفصّله ، ويؤكده؛ فإن محاسن المتغزل بها تروقه وتبهره؛ فلا يعدو أن يصوّرها بشعره .

(١٤) نثر الحب وغيره (من بابى نصر وضرب) : رماه متفرقاً . وفاعله ضمير الغزال فى البيت التاسع . والدر : جمع درة : وهى اللؤلؤة العظيمة ، ونظم الدر وغيره (من باب ضرب) : جمعه ، وألّفه ، ونسقه فى سلك ، أو خيط ، أو نظام . ومن المجاز : نظم الشعر ، ونظم الكلام .

يقول : إنه يستمع لما تنثره هذه الحسناء من ألفاظ تشبه الدرر ، فيعنى بجمعها وتنسيقها . يريد أن ما ينظمه من شعر الغزل والتشبيب من وحى هذه المحبوبة الجميلة وإلهامها . ولولا افتتانه بها ما استطاع أن يزيد ثروة الأدب ، ويتحف قراءه بهذه الروائع .

(١٥) ذاك : إشارة إلى النسيب ، أو الغزل ، أو التشبيب . أو إشارة إلى محاسن محبوبته . ولاحت : بدت ، وظهرت . والأفق : الناحية . ومنتهى ما تراه العين من الأرض ، كأنما التقت عنده بالسماء . ويراد به هنا : السماء : أى بسماء الشعر : أى بالشعر الشبيه بالسماء . أو بما علا وراق من الشعر .

والمعنى : أن الشعر يزدان بالغزل ، وتصوير محاسن المتغزل بها ، كما تزدان السماء بكواكبها ونجومها النيّرات .

(١٦) أحكمه : أى أكثره إتقاناً وإحكاماً ، وأجوده حَبْكاً وسَبْكاً : اسم تفضيل من حكُم (من باب قرب) : أى صار حكيماً : أى ذا حكمة . ومن معانى الحكمة : الكلام الذى يقلّ لفظه ويجلّ معناه . ويجرى مع الحق والصدق ، والصواب والسداد ، ويقوم على الإتقان والإحكام . ومن حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمة » : أى قضية صادقة . وشعر حكيم : أى محكم متقن ، رائق ، رائع ، لا اختلاف فيه ، ولا اضطراب . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . ومعناه : أن خير القول وأفضله ما أصاب الحق ووافقه ، وقام على السداد والرشاد ، ورفعه الإحسان والإتقان فى مراتب البلاغة والبيان . وصلته بالشطر الأول : افتخار الشاعر بأن شعره من خير القول وأفضله وأحكمه وأقومه .

والمعنى : امدح شعرى بما شئت ، وقرّظه بما استطعت من كلمات المديح والإطراء ، وعبارات التقريظ وحسن الثناء ؛ فإنه من أسحر البيان ، وخير الكلام ، وأفضل القول وأحسنه . وقد ضاعف محاسنه ومزاياه ما زانه من حديث الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ، وعواطف الحب والهوى ، ومواقف العشق والغرام ، =

وَقَالَ :

وَفَاتِنَــةِ الْحَدِيثِ ، لَهَــا نِكَاتٌ ‏ ‏ ‏ ‏ تَحُــولُ بِسِحْرِهَا دُونَ الْمَرَامِ[١]

شَكَوْتُ لَهَا ضَنَى جَسَدِى ، فَقَالَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ بِطَرْفِى مَا بِجِسْمِكَ مِنْ سَقَامِ[٢]

= وصور الصبابة والهيام . وقد أسلفنا أن الشاعر استخدم فى هذه القصيدة وفى كثير غيرها ضمير المذكر ، وهو فى حقيقة أمره يتغزل بالمؤنث ، متشبهاً بكثير من شعراء العصر العباسى الذين حفظ لهم ، واقتدى بهم . كما أسلفنا فى التعريف بأبى نواس أنه نقل الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر ؛ فخرج بذلك من مألوف أدب العرب ؛ إذ لم يكن هذا معروفاً قبله وقبل شيطانه والبة بن الحُباب ، فافتتن بشعرهما كثير من الشعراء فى زمانهما ، وبعده . وحاكوهما فى المجونيات والخمريات ، وغلب عليهم هذا المذهب ، وإن لم يكونوا من ذوى الخلاعة والمجون .

* * *

(١) وفاتنة : أى وربّ فاتنة . « رب » : حرف جر ، حذف بعد الواو لفظه ، وبقى عمله . ومعناه هنا : التقليل ؛ فإن نظائر هذه الحسناء المتغزل بها — قليل . وفاتنة الحديث : أى كلامها معجب رائق ، يستميل الأسماع ، ويختلب القلوب : اسم فاعل من فتنه الشىء : أى استهواه ، واستماله ، وراقه ، وأعجبه . والنكات ، والنُكَت : جمع النكْتة : وهى النقطة فى الشىء تخالف لونه . ومن المجاز جاء بنكتة ، أو نكت (بوزن نقطة ونقط) فى كلامه : أى أتى فيه بطرف ولطائف ، وأشياء مستحدثة ، رائقة ، عجيبة . وتحول : تحجز ، وتمنع . (وبابه قال) . وفاعله ضمير « النكات » ، أو ضمير « فاتنة الحديث » . وبسحرها : أى بسحر النكت . أو بسحر « فاتنة الحديث » . والسحر الكلامى : غرابة الكلام ، ولطافته ، ورقّته ، وعذوبته ، وحسن تأليفه ؛ وبهذا ونحوه يؤثر فى القلوب ، ويحولها من حال إلى حال ، أو يجتذبها ويستميلها كما تستمال بالسحر . والمرام : المطلب . ومرام الشاعر : الوصال . وسيصرح به فى البيت الثالث من هذه الأبيات . وتحول بسحرها دون المرام : أى يحول سحرها بين العاشق ومرامه : أى يعترض له ، ويحجزه ، ويمنعه من إدراك مطلبه ، وبلوغ مرامه .

يقول : إن حديث هذه الحسناء مُعْجب مطْرب ، رائق فائق ، فاتن جذاب ، تزينه ، وتضاعف تأثيره نكت ساحرة باهرة تستأثر بسمع العاشق وقلبه ، وتلهيه عن مطلبه ومرامه .

(٢) الضنى : المرض الملازم ، والهزال الشديد : مصدر ضنى (من باب صدى) : أى اشتد مرضه وطال ، حتى تنحّل جسمه . أو مرض مرضاً ملازماً ، حتى أشرف على الموت . أو مرض مرضاً مُخامراً ، كلما ظُن برؤه نكس . وأكثر ما يستعمل الضنى فى مرض العاشق الولهان ، والصب المستهام . والطرف : العين . ومن محاسن عيون النساء : الفتور ، واللين ، والسكون ، وانكسار النظر ؛ لأنه من أمارات الخفر والحياء ، وهو مستحب فى النساء . وعلى العكس من هذا حدّة النظر فيهن وشدته . والسقام : المرض . ويراد به هنا : فتور الطرف ، ولينه ، وسكونه ، وانكسار النظر =

فَقُلْتُ : عِدِى بِوَصْلٍ مِنْكِ صَبًّا بَرَتْهُ يَدُ الصبَابةِ وَالْغَرامِ (٣)

فَقَالَتْ : سَوْفَ تَلْقَانِى قَرِيبًا فَقُلْتُ : مَتَى ؟ فَقَالَتْ : فِى الْمَنَامِ (٤)

= شكا إلى « فاتنة الحديث » نحول جسده وهزاله ، ومايعانيه ويضانيه من أوصاب الهوى والغرام ؛ فقالت له — على سبيل الفخر والزهو ، أو المداعبة والملاطفة ، والمباسطة والممازحة — : بطرفى مثل ما بجسمك من سقام . ووجه الشبه بينهما الفتور ، غير أن فتور جسمه من ضنى الحب ، وفتور طرفها من الخفر والحياء .

(٣) عدى : أمر من وعده الأمر ، ووعده بالأمر . وياء المخاطبة فاعل « عد » . والوصل : ضد الهجران . وفعله من باب وعد . ومثله الوصال . ويكون فى عفاف الحب ودعارته . والصب : المشوق المستهام : صفة من الصبابة (بوزن القناعة) : وهى الشوق . أو رقّته وحرارته . أو رقة الهوى ، وحرارة الوجد . وبرته : أضنته ، وهزلته ، وأنحلته . وهو من مجاز اللغة . والأصل : برى العود ، أو الحجر ، أونحوهما (من باب رمى) : أى نحته . وبرى القلم : أى سوّى طرفه للكتابة . والغرام : الهوى والحب الشديد الذى يعذب القلب. وأن يتولّع المرء بالشىء : أى يحرص عليه ، ويتعلق به تعلّقاً شديداً ، فلا يستطيع التخلص منه . والغرام أيضاً : العذاب الدائم الملازم . ويراد به هنا : عذاب الحب ، وأوصابه ، وآلامه .

سألها وعد الوصال ؛ فإنه مستهام بها ، صب . وقد برّح به الوجد والهيام ، واشتدّتْ به الصبابة والغرام ، حتى ضنى ، وذهبتْ مُنّته ، ونحَل جسمه ، وهزل ، واستحق المرحمة والعطف ، والحنان والإشفاق . وفى وصلها كل الرحمة ، وكل ما يتمناه فى الحياة . وفى البيت الآتى جواب هذا السؤال الرقيق الذى ذكّرنا بقول عاشق « عبلة » :

خفّفى يا عبلَ عنى ، واعلمى أننى يا عبل من لحم ودم
إن فى بردىّ جسماً ناحلاً لو توكّأت عليه لانهدم

(٤) « سوف » : حرف مبنى على الفتح ، يختص بالمضارع ، ويخلّصه للاستقبال : أى يرده من الزمان الضيق ، وهو الحال إلى الزمان الواسع ، وهو الاستقبال ؛ ولهذا يسمونه حرف تنفيس : أى توسيع . قيل : وهو يقتضى معنى المماطلة والتأخير : أى أن مدة الاستقبال معه أوسع من مدة الاستقبال مع السين ؛ فإذا قلت لصديق : « سأزورك » ، كان المعنى : أن مدة الاستقبال ضيقة محدودة قريبة . وإذا قلت له : « سوف أزورك » كان المعنى أن مدة الاستقبال واسعة فسيحة ممدودة ، غير محدودة ، وليست قريبة . وقيل : إنهما مترادفان : أى بمعنى واحد ، ولا فرق بينهما ، أى ليست مدة الاستقبال مع « سوف » أوسع من مدة الاستقبال مع « السين » . ويستعملان فى الوعيد ، وفى الوعد . و« سوف » هنا : للوعد . والمنام : النوم . ورأى فى منامه كذا : أى حلَم به . تريد أنه سوف يلقاها فى رؤيا منامية ، وفى جوابها معنى التهكم والسخرية ، أو الممازحة والمباسطة . وفيه رفض الوعد بالوصال .

سألها وعد الوصال ، فأخلفت ظنه ، وخيبت رجاءه .

وَقَالَ :

ذَنْبِي إِلَيْكَ غَرَامِي فَهَلْ يَحِلُّ مَلَامِي ؟[(١)]

يَا ظَالِمِي فِي هَوَاهُ هَلَّا رَعَيْتَ ذِمَامِي[(٢)]

حَتَّامَ تُعْرِضُ عَنِّي وَلَا تَرُدُّ سَلَامِي ؟[(٣)]

عَطْفًا عَلَيَّ ؛ فَإِنِّي بَرَى هَوَاكَ عِظَامِي[(٤)]

---

(١) الغرام : الهوى ، والحب الشديد الذى يعذب قلب المحب ويضنيه . والمغرم: أسير الحب. وأغرم بالشيء إغراماً : أى أولع به ، وحرص عليه ، وتعلق به تعلقاً شديداً . والاستفهام فى الشطر الثانى معناه النفى ، أو الإنكار ؛ فهولا يحل لحبيبه أن ينْحى عليه باللائمة . أو هو ينكر عليه أن يلومه على غرامه وتولعه به ، ويعيب العذل منه ، وينهاه عنه .

يقول : إن ذنبه إلى من يحبه ويهواه أنه مستهام به ؛ حريص عليه ؛ فمن المستنكر أن يعذله هذا الحبيب ويلومه على حبه له ، وتعلقه به . يريد أن الهوى والغرام ليس ذنباً ، ولا إثماً ، وإنما هو آصرة قوية وثيقة ، وصلة قلبية راسخة تقتضى الإقبال والاحتفال ، لا العذل والملام .

(٢) فى هواه : أى بسبب حبى له ، وتعلقى به . أو فى سبيل الهوى والغرام . والذمام : الحرمة ، والحق ، والعهد . ورعى له ذمامه (من باب سعى) : : لاحظه ، وحفظه . أو أحسن إليه برعاية حقه ، والمحافظة عليه . و «هلا» هنا : تفيد العتاب واللوم على ترك الرعاية : لأنها داخلة على الفعل الماضى. وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض : أى الحث والتحريض . وصلة الشطر الثانى بالشطر الأول : أن حبيبه لم يراع ذمامه : أى لم يراع حق الهوى والغرام ، ولم يحفظ عهد الحب وحرمته ؛ فظلمه بهذا ، وجار عليه ، وهضمه . ومن الظلم فى الهوى كذلك ما أشار إليه الشاعر فى بعض هذه الأبيات من إعراض الحبيب وتمنعه ، وظواهر جفوته وقساوته .

يشكو ما أصابه بسبب حبه وغرامه من ظلم الحبيب له ، وإعراضه عنه . ويعاتبه لأنه أهمل ما ينبغى حفظه ومراعاته من عهد الحب ، وموثقه ، وحقوق الهوى وحرماته .

(٣) «حتام» : أصله «حتى» «ما» : أى إلى متى ؟ . «حتى» : حرف جر : بمعنى : «إلى» . و «ما» : اسم استفهام ، اتصل بـ «حتى» ؛ فحذفت ألفه للتخفيف . وأعرض عنه إعراضاً ، صد عنه : ، ومال ، وولّى ، وجفا ، وأدبر . وضده الإقبال . والاستفهام هنا : معناه الاستبطاء . وعدم رد تحية المحب وسلامه : إحدى صور الظلم ، والإعراض ، والجفوة والقسوة ، والقطيعة ، والإدبار .

(٤) برى الهوى عظامه (من باب رمى) : أى اشتد به الوجد ، وبرّح به العشق حتى نحله ، وهزله وأضناه ، وأذابه . وهو من مجاز اللغة . والأصل : برى القلم ، أو العود ، أو الحجر ، أو نحوه : أى نحته .

فَكَيْفَ تُنْكِرُ وَجْدِى ؟ أَمَـا رَأَيْتَ سَقَامِى ؟(٥)

وَيْلَاهُ مِمَّا أُلَاقِى مِنْ لَوْعَتِى وَهُيَـامِى(٦)

رَقَّ النَّسِيمُ لِحَالِى وَسَـالَ دَمْعُ الْغَمَامِ(٧)

وَسَاعَدَتْنِى ، فَنَاحَتْ عَلَىَّ وُرْقُ الْحَمَـامِ(٨)

---

(٥) وجد بفلان (من باب وعد) وجداً : أى أحبه حباً شديداً والسقام : المرض الطويل : مصدر سقم (من باب تعب) : أى طال مرضه . ويراد به هنا : سقام الحب، وضناه، وأوصابه ، وآلامه . والاستفهام فى الشطر الأول : معناه التعجب ، فإن غرامه بهذا الحبيب قوىّ صادق، بيّن ظاهر ، وأمارات وجده واضحة كل الوضوح ، ومنها سقامه . وإنكار الحبيب أو جهله هذا الوجد مما يثير العجب والدهش . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه التقرير : أى إثبات سقامه ، وحمل المخاطب (وهو حبيبه) على الإقرار بما يبصره فى وجه محبه وجسمه من الضنى والهيام ، والاعتراف بما يراه من شواهد الوجد وأماراته ، وأوصاب الغرام وآلامه . وقد يكون الاستفهام للنفى : أى ألست ترى سقامى ؟ : أى وإنك لترى سقامى واضحاً جلياً فى وجهى وجسمى ، فلا معنى لإنكار وجدى بك . وهذا ونحوه من أساليب الغزل وما يتطلبه من التودد إلى المحبوب ، وإظهار الهيام به ، وشكوى الإعراض والصدود . وقد أسلفنا أن البارودى يجرى فى كثير من غزلياته على سنن والبة بن الحُباب ، وأبى نواس ومن نسجوا على منوالهما من الشعراء الذين خرجوا بالغزل من مألوف أدب العرب، فنقلوه من أوصاف المؤنث إلى المذكر ، وأولعوا بهذا المذهب ، وإن لم يقصدوا من ورائه إلا المحاكاة والتظرّف .

(٦) «ويلاه» : أسلوب ندبة . وهى هنا: نداء المتوجّع منه . والأصل : «ياويلى »، فحذفت «يا» وأبدلت ياء المتكلم ألفاً ، وزيدت بعدها «هاء» السكت . والويل : كلمة شر وعذاب . أو كلمة يعبر بها عن التفجّع والتوجع ،وتشكّى الألم الشديد . ولوعة الحب: حرقته ووصبه . والهيام : جنون العشق .

(٧) رق له: رحمه ، وأشفق عليه . ورق :دقّ، ونَحُف ، وضعف ، ولطف . والنسيم : الريح الطيبة اللينة اللطيفة ، لا تحرك شجراً ، ولا تَعفى أثراً . والغمام : السحاب . واحدته غمامة (بوزن سحابة) . ودمع الغمام : المطر .

(٨) ناحت المرأة الميت ، وعلى الميت (من باب قال) : بكت عليه بصياح وعويل وجزع . واستبكت غيرها . وناحت الحمامة : سجعت، ورددت صوتها على طريقة واحدة . ونواح الحمام يبدو كأنه صوت الحزين الواجد ، ورنين اللوعة والأسى . وناحت علىّ : أى ناحت من أجلى : أى شاركتنى فى لوعتى وهيامى، فناحت رقة ، وإشفاقاً علىّ . وحمامة ورقاء : رمادية اللون . والجمع ورق (بضم فسكون) .

فى هذا البيت والذى قبله افتن الشاعر فى استعطاف حبيبه ، وكسب مودته؛ فتخيّل أن الطبيعة والطير تشاركه فى وجده ، وترثى لحاله ، وترق له ، وتشفق عليه ، وكان من آثار هذه المشاركة رقة النسيم ، وبكاء الغمام ، ونوح الحمام .

فَيَا سَمِيرَ فُؤَادِى فِى يَقْظَتِى وَمَنَــامِى[٩]
مَتَى يَفُــوزُ بِوَصْلٍ أَسِيرُ لَحْظِكَ «أَسَامِى»[١٠]

وَقَالَ :

قَالَتْ أَرَاكَ عَلِيلَ الْجِسْمِ ،قُلْتُ لَهَا مَنْ شَفَّهُ الْحُبُّ أَبْلَى جِسْمَهُ السَّقَمُ[١]
قَالَتْ : فَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ يُسْتَطَبُّ بِهِ قُلْتُ :الْوِصَالُ ،فَرَاحَتْ وَهْىَ تَبْتَسِمُ[٢]

---

(٩) سمر (من باب نصر) : لم ينم ، وتحدث ليلاً . وسامره : حدّثه ليلاً . وسميرك : مسامرك . هذا هو الأصل . ثم تُوسّع فى استعمال السمير والمسامر : فكان صاحبك الذى تألفه ، وتأنس به ، وتتحدث إليه ، ويتحدث إليك فى الليل أو النهار .

وفى البيت إشارة صريحة إلى أن الغرام أو التعلق الشديد ، أو الولوع بهذه المحبوبة مسيطر على قلب الشاعر ، وحواسه ، ومشاعره ؛ فهو محب لها ، مستهام بها ، حريص عليها ، لا يفتأ يذكرها ، ويناجيها ، ويتولع بها فى نهاره وليله ، ويقظته ونومه .

(١٠) الاستفهام فى أول البيت : معناه الاستبطاء . أو التمنى . والأسير : المأسور المقيد . ولحظ المحبوبة : نظراتها الفاتنة الساحرة : مصدر لحظتُه ، ولحظت إليه (من باب قطع) : أى نظرت إليه بلحاظها : وهو مؤخر العين مما يلى الصدغ . ومن كلامهم : « فتنتْه ألحاظها ولحظاتها » . و « سامى » : اسم الشاعر : « محمود سامى البارودى » . وقد أسلفنا أنه فى كثير من غزلياته يشير إلى المؤنث بضمير المذكّر اقتداء بمن سبقه إلى هذا ، وتظارف به من شعراء العصر العباسى .

* * *

(١) عليل : سقيم مريض . وشفه الحب : هزله ، وأنحله ، وضمّره ، وأرقه ، وأوصبه ، وأضناه . وأبلاه : هزله ، وأنحله ، وأذابه ، وأضعفه . والأصل : أبلى الاستعمال الثوب إبلاء : أى أخلقه ، وأذهب جدته وقوته ، وصيره بالياً ، رثا ، خلَقاً . والسقم : مصدر سقم (من باب تعب) : أى مرض ، أو طال مرضه . ويراد بالسقم هنا : ما يصيب العاشق الصب المستهام من الوصب ، والضنى ، والهيام ، والصبابة ، والتوله ، والذهول ، والذبول ، والنحول .

رأته حبيبته معتلاً ، ناحل الجسم ، فسألته عن سبب هذا ، فأجابها أنه محب لها ، مستهام بها ، وأن الحب إذا اشتد شفّ الجسم وأبلاه .

(٢) « من » : زائدة ؛ لوقوعها بعد الاستفهام بهل ، كما فى قول الله تبارك وتعالى : « فارجع البصر ، هل ترى من فطور ؟ » (الآية رقم ٣ من سورة الملك) . والغرض من زيادتها توكيد العموم : أى فهل من دواء ما ؟ . ويستطب به : يتداوى به . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة بعدها حالية . =

فَبِتُّ فِي حَيْرَةٍ: لَا الْقَلْبُ مُصْطَبِرٌ ‏ ‏ وَلَا الْوُصُولُ إِلَى ما يَشْتَهِي أَمَمُ (٣)

وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ‏ ‏ بِمَا يَكُونُ؛ فعُقْبَى أَمْرِهِ نَــدَمُ (٤)

وَقَالَ نَاظِمًا قَوْلَ رَجُلٍ أَحَبَّ امْرَأَةً دُونَ (١) قَدْرِهِ (٢)، فَعَذَلَهُ (٣) عَمُّهُ: فقَالَ:

يَا عَمِّ (٤)، لَا تَلُمْ مُجْبَرًا (٥) عَلَى سَقَمِهِ (٦)؛ فَإِنَّ الْمُقِرَّ (٧) عَلَى نَفْسِهِ مُسْتَغْنٍ عَنْ

= سألتُ عن دواء يَطُبُّه ويداويه، فقال: دواؤه وشفاؤه فى أن تصله، ولا تهجره، فانصرفت عنه وعلى شفتيها ابتسامة الخجل والحياء والاحتشام. أو الحرج، والاهتياب، والإحجام. أو الإعراض والإدبار، وقلة الاكتراث، وعدم المبالاة.

(٣) مصطبر: صابر. ويشتهى (بالبناء للفاعل): أى يشتهيه القلب. أو هو (بالبناء للمفعول). وأمَم: هيّن، بيّن، واضح، يسير، سهل، قريب المتناول.

والمعنى: أن إعراض حبيبته عنه، وعدم اكتراثها له، وضنها بالإقبال والوصال، وإمعانها فى الصدود والهجران — أوقعه فى الحيرة والارتباك، وجعله يعانى الهم والغم بالليل والنهار، وسلبه نعمة الصبر والطمأنينة، وجرعه مرارة الحسرة والحرمان، وأشعره العجز عن بلوغ ما يتوق إليه ويشتهيه ويتمناه. وهو شبه تمهيد للبيت الآتى: (٤) غير مكترث: غير مبال، وغير مهتم. وعقبى كل شىء: آخرته، وخاتمته، ونهايته. والأمر: الشأن، والحال.

والمعنى: أنه انطاع لدواعى الحب والهوى، ولم يبال عواقبه؛ فانتهى أمره إلى ما شكاه فى البيت السابق من الأرق والقلق، والحيرة، والعجز، والجزع والحرمان؛ ولهذا استشعر الأسف والندم، وكره ما كان من انقياده لأسباب العشق والغرام، وقد ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكمة أو المثل، وختم به هذه المقطوعة الغزلية القصيرة؛ فخرج بهذا على المألوف فى مقام الغزل، أو النسيب، أو التشبيب؛ فإن العاشق الصب المستهام لا يكاد يشعر بشىء من الأسف أو الندم على حبه وغرامه، ولا يكاد يفكر فى الجهر بالندم لو أحسه، وهو فى كل حال يكافح العذل والعذال، ويجد لذته وسعادته فى حبه وغرامه، بل فى هيامه وآلامه لو أضناه الوجد والصبابة، وأوصبه صدود الحبيب وإعراضه، وهجره وانفضاضه.

* * *

(١) «دون»: ظرف مكان، منصوب. وتأتى لمعان كثيرة. ويتضح معناها بما تضاف إليه. وهى هنا بمعنى «تحت» (٢) وقدر الشىء: مبلغه، ومقداره، ومساويه، ومماثله. وأحبَّ امرأة دون قدره: أى عشق امرأة أقل مرتبة منه: أى منزلتها فى المجتمع دون منزلته؛ فهى ليست كفئاً له، ولا يليق بمثله أن يتعلق بمثلها؛ ولهذا كان تعلقه بها سُبَّة وعاراً يقتضى اللوم والتأنيب. (٣) وعذله (من بابى ضرب ونصر): لامه. (٤) وياعم: منادى مضاف إلى ياء المتكلم، حذفت الياء، وبقيت كسرة الميم دليلاً عليها. وفى مثل هذا خمس لغات أخرى غير هذه اللغة. (٥) والمجبر (بصيغة اسم المفعول): المُكْرَه: من أجبره على الأمر إجباراً: أى أكرهه عليه، وسلب إرادته واختياره (٦) والسقَم والسُّقْم والسقام (بوزن المرض: والعذر، والكلام): العلة والمرض. أو هو المرض الطويل (وفعله من باب تعب). ولا تلم مجبراً على سقمه: أى لا تلم مجبراً مع سقمه: أى لا تجمع عليه بلايا الإجبار، والسقم، واللوم؛ فمن الظلم والإعنات أن تعذل صَبّاً أضناه الهوى والصبابة، وشفه الوجد والغرام، وأطال سقامه وأوصابه، بعد أن سلبه إرادته واختياره، وأوقعه فى أشراكه وحبائله. (٧) الإقرار=

مُنَازَعَةِ(٨) خَصْمِهِ(٩)، وَإِنَّمَا يُلَامُ مَنِ اقْتَرَفَ(١٠) مَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِ. وَلَيْسَ أَمْرُ الْهَوَى(١١) إِلَى الرَّأْيِ(١٢) فَيَمْلِكَهُ(١٣)، وَلَا إِلَى الْعَقْلِ فَيُدَبِّرَهُ(١٤)؛ بَلْ قُدْرَتُهُ(١٥) أَغْلَبُ(١٦)، وَجَانِبُهُ(١٧) أَعَزُّ(١٨) مِنْ أَنْ تَنْفُذَ(١٩) فِيهِ حِيلَةُ(٢٠) حَازِمٍ(٢١)، وَلُطْفُ(٢٢) مُحْتَالٍ(٢٣).

= بالذنب : الاعتراف به . والمقر : اسم فاعل منه . يقال : أقر على نفسه بالذنب. وأقر بالحق : أى اعترف به ، وأثبته . (٨) ونازعه فى كذا منازعة : جاذبه فى الخصومة ، وغالبه ، وجادله . (٩) والخصم : المخاصم ، والمنازع ، يثنى ويجمع . أو يستوى فيه المفرد ، والمثنى ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث . وخاصمه مخاصمة وخصاماً : نازعه ، وجادله ، ولاحاه . والعاذل اللائم يشبه المخاصم . والعذل أو اللوم : لون من ألوان الخصومة والملاحاة ؛ فإذا أقر الملوم على نفسه ، واعترف بذنبه فلا داعى إلى مخاصمته ، ولا معنى لإعناته بالعذل واللوم ؛ إذ المخاصمة والمنازعة إنما تكون مع الاختلاف والإنكار . (١٠) واقترف : ارتكب ، واكتسب . واقترف الذنب أو الخطيئة : أى أتاها ، وارتكبها ، وكسبها ، وخالطها ، وفعلها . « وإنما يلام من اقترف ما يقدر على تركه » : تكرار وتأكيد لمعنى قوله : « لاتلم مجبراً » ؛ فإن من وقع فى الهوى أو غيره مضطراً ، مغلوباً على أمره ، مسلوب الإرادة والاختيار ، عاجزاً عن ترك ما وقع فيه — وجب أن ترفع عنه الملامة ، ويلتمس له العذر . (١١) والهوى : الحب ، والعشق ، والغرام . (١٢) والرأى : النظر ، والعقل ، والتفكير ، والتدبير . وجمعه آراء . (١٣) ويملكه : أى يملك أمر الهوى : أى يملك التصرف فيه ، والإقبال عليه ، أو الإقلاع عنه ، أو الحد منه برأيه ، وعقله ، وتفكيره ، وتدبيره ، وإرادته واختياره . (١٤) ودبر الأمر ، ودبر فيه تدبيراً : ساسه ، ونظر فى عاقبته ، وفعله عن فكر وروية ، مقدراً نتيجته وعقباه (١٥) وقدرته : قدرة الهوى : أى مقدرته ، وقوته ، وسطوته ، وسلطانه ، وسيطرته . (١٦) وأغلب : اسم تفضيل من غلبه : أى قهره ، واعتز عليه . والمراد أن قدرة الهوى غلابة قاهرة ، تفوق غيرها من القوى والقدرات ؛ فهى أشد وأعنف مما يقاومها ويغالبها ، ويحاول الاعتراض لها . (١٧) وجانب الشىء : شقه . وناحيته وجهته ، وطرفه . ويراد بجانب الهوى : منعته ، وقوته . (١٨) وأعز : أقوى ، وأمنع . (١٩) وتنفذ فيه : تصيبه ، أو تضعضعه . من قولهم نفذ السهم (من باب دخل) : أى خرق الرمية ، وخرج منها . (٢٠) والحيلة : الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور . (٢١) والحازم : اسم فاعل من حزم رأيه ، أو أمره : أى ضبطه ، وأتقنه ، وأخذ فيه بالثقة . (٢٢) واللطف فى العمل : الرفق فيه . (٢٣) والمحتال : طالب الشىء بالحيلة : اسم فاعل من احتال احتيالاً : أى قلب الفكر ، وأجاد النظر والتدبير ، حتى اهتدى إلى المقصود ، وحقق الغرض ، وأصاب الهدف ، وبلغ الغاية . ولطف المحتال : رفقه ، وحسن حيلته .

أَلَا ، لَا تَلُمْ صبًّا عَلَى طُولِ سُقْمِهِ ... وَدَعْهُ ؛ فَلَيْسَ الْأَمْرُ فِيهِ لِحُكْمِهِ[1]

فَلَيْسَ الْهَوَى مِمَّا يُرَدُّ بِحِيلَةٍ ... وَلَكِنَّهُ يَثْنِي الْفَتَى دُونَ عَزْمِهِ[2]

وَمَا يَسْتَوِي جَانٍ أَتَى الْإِثْمَ طَائِعًا ... وَآخَرُ لَمْ يَقْرِفْهُ إِلَّا بِرَغْمِهِ[3]

(١) «ألا» : حرف استفتاح وتنبيه: أى أداة يفتتح بها الكلام ، وتبتدأ بها الجملة ، وتفيد التنبيه ، وتحقيق ما بعدها وتأكيده . وهى هنا تؤكد النهى عن لوم الصب المستهام ، وتشدده . والصب : المشوق المستهام ، والعاشق الولهان ، وذو الولع الشديد : من صب إليه صبابة : أى كَلِفَ به ، ورق ، واشتاق . والصبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق ، والولع الشديد . ودعه : اتركه ، وخَلِّ عنه . وهو تأكيد لمعنى «لاتلمه» فى الشطر الأول . والأمر : الشأن والحال . وفيه : أى فى طول سقمه الناشئ من صبابته ، ورقة هواه ، وحرارة شوقه ، وشدة تعلقه بمحبوبته ، واشتغاله بها ، وتبريح الوجد به . والحكم : مصدر حكم ، أى قضى ، وفصل . ويراد بالحكم هنا : الإرادة والاختيار .

والمعنى : أن العاشق الصب المستهام الذى تيمه الهوى ، وأضناه الغرام — لا ينبغى أن يضاعف باللوم وجده ، وتزاد بالعذل علته ؛ فإن إرادته فى هواه معطلة ، واختياره مفقود ، ولا حيلة له فى رد الصبابة ، أو تخفيف وطأتها ، ولن يستطيع الاستجابة لعاذله ؛ فالإنحاء عليه باللائمة عبث ولجاج ، وظلم وإعنات. والبيت الآتى يؤيد هذا المعنى ، ويعززه ، ويؤكده .

(٢) ثنيت فلاناً على وجهه (من باب رمى) : إذا رَدَدْته ، وصرفته عن وجهه ومراده ، ورجعته إلى حيث جاء . والأصل : ثنيت الثوب ونحوه : أى طويته ، ورددت بعضه على بعض . ويراد بالفتى : المرء العاشق ، والصب المستهام . أو المحتال الذى يحاول رد الهوى بحيلته. و« دون » : ظرف مكان منصوب ؛ ولها عدة معان ، تتضح مما تضاف إليه . ومن معانيها السائغة هنا : « فوق » ؛ فالهوى يطوى الصب فوق عزمه : أى يعطل عزمه وإرادته ؛ فيثنيه على وجهه ، ويصرفه عن مراده ، ويغلبه على أمره لو عزم شيئاً من المقاومة والمدافعة . وقد تكون بمعنى « قبل » ؛ فالهوى يثنى الفتى ، ويرده عن مراده قبل أن يؤكد إرادته بالعزم : أى يشعره العجز واليأس ، بمعنى أن سلطان الهوى وقوته فوق سلطان العزم وقوته . والعزم : الصبر ، والجد . والنية الصادقة . والإرادة القوية القاطعة . والثبات والشدة فيما يعزم عليه الإنسان . والإرادة المتقدمة لتوطين النفس على ما يرى فعله . (وفعله من باب ضرب) .

والمعنى : أن الهوى بطبعه قاهر غلاب ، لا ترده حيلة محتال ، ولا يخفف وطأته تدبير مدبر . والصبابة تغلب الصب على أمره ، وتصرفه عن وجهه ، وتسلبه حريته واختياره ؛ فقوتها وسلطانها فوق إرادته وعزمه. والمتيم المستهام لا ينبغى أن يُعذل ويلام ؛ فالمرء لا يلام إلا على ما اقترفه باختياره ، وفى استطاعته الإقلاع عنه .

(٣) الجانى : الآثم المذنب . والإثم : الذنب ، والخطيئة . وأتى الإثم : أى وقع فى الإثم ، وأذنب ، وارتكب الخطيئة . وقرف الإثم (من باب ضرب) ، وقارفه ، واقترفه : أتاه ، وارتكبه ، وفعله ، =

إِذَا مَا أَقَرَّ الْمَرْءُ يَوْمًا بِذَنْبِهِ ... فَمَاذَا الَّذِى تُغْنِى لَجَاجَةُ خَصْمِهِ ؟(٤)

وَقَالَ* :

مَنَحْتُكَ أَلْقَابَ الْعُلَا ، فَادْعُنِى بِاسْمِى ... فَمَا تَخْفِضُ الْأَلْقَابُ حُرًّا ، وَلَا تُسْمِى (١)

= ووقع فيه . وفعل ذلك برغمه . وعلى الرغم منه : أى على كُره منه : أى بلا إرادة واختيار . والرغم (بتثليث الراء) : الكرْه ، والقَسْر ، والقهر . ورغمه (كعلمه ، ومنعه) : كرهه . والرغم ، والرغام (فى الأصل) : التراب الرقيق . يقال : ألقاه فى الرغام : أى مرَّغه فى التراب . ثم استعير هذا التعبير للقهر والإذلال ، والإهانة ، والإكراه ، والقسر ، والإجبار .

ينفى الاستواء ، أى التساوى ، والتماثل ، والتعادل بين جانبين : أحدهما ارتكب الإثم طائعاً مختاراً ، والآخر لم يقترفه إلا مُرْغماً مكْرهاً .

والمعنى : أنه إذا عدَّ الهوى ذنباً كان من الذنوب القسرية التى يرتكبها المرء وهو مسلوب الإرادة والاختيار ؛ فلا ينبغى مضاعفة بلواه بالعذل والملامة ؛ « وإنما يلام من اقترف ما يقدر على تركه » .

(٤) الاستفهام فى الشطر الثانى : معناه النفى ، فلجاجة المخاصم لا قيمة لها ، ولا غناء فيها إذا استسلم له خصمه ، واعترف له بذنبه . وتغنى : تفيد ، وتكفى . وما يغنى عنك هذا : أى لا يُجْزِىء عنك ، ولا ينفعك . واللَّجاجة : التمادى فى الخصومة ، وملازمتها ، والإصرار عليها .

والمعنى : أن إقرار المذنب بذنبه كاستسلام المقاتل لعدوه ، واعتراف المخاصم بحق خصمه ؛ فمن العبث أن يتمادى ذلك العدو أو المخاصم فى القتال ، أو الخصومة . وإذا أقر العاشق بعشقه ، وجب على عاذله أن يرحمه ، ويكف عن عذله ؛ « فليس أمر الهوى إلى الرأى فيملكه ، ولا إلى العقل فيدبره ؛ بل قدرته أغلب ، وجانبه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلة حازم ، ولطف محتال » .

* * *

* أخفقت الثورة المصرية العرابية . وفى أعقابها ضُرب الاحتلال العسكرى الإنجليزى على مصر فى ١٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ حكم على « محمود سامى البارودى باشا » وستة من رفاقه قادة تلك الثورة بالإعدام ، ولم يلبث الخديو توفيق أن استبدل به النفى المؤبَّد ، والتجريد من الألقاب والأملاك والحقوق الوطنية ، وبعد سبعة عشر عاماً عفا الخديو عباس حلمى الثانى عن البارودى ، ثم عن الأحياء من رفاقه . وفى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧هـ (الثانى عشر من سبتمبر ١٨٩٩م) وصل البارودى إلى ميناء السويس ، ففرحتْ مصر بعودته فرحاً شديداً ، واستقبله الوطنيون والأدباء بحفاوة بالغة . وفى ١٨ من المحرم سنة ١٣١٨هـ (١٧ من مايو سنة ١٩٠٠م) أمر الخديو أن تعاد إليه ألقابه وأملاكه وحقوقه المدنية .

نظم الشاعر هذه القصيدة — فيما نظن — بعد أن طال به النفى ، وساوره اليأس ، وبرته فى منفاه تباريح الحياة قبل أن يبرق أمل العفو عنه . أو فى المدة التى بين عودته من منفاه وإعادة ألقابه إليه ، وكانت الجرائد والمجلات ، والأدباء ، والكتاب يتحرجون من التصريح بلقب البارودى الرئيس السابق للوزارة المصرية ؛ فأوحى إليه هذا التحرج بهذه الميمية الرائعة . وفيها — مع الاستخفاف بالرتب والألقاب ، وظواهرها الخلابة — حكمة ، وعظة ، ونصح ، وإرشاد ، وزهد ، وتزهيد فى الدنيا وزخرفها .

(١) منحتك : أعطيتك ، ووهبت لك . (وبابه نفع) . والخطاب لمن كان يتحرج من كتابة =

إِذَا كَانَ عُقْبَانُ الْجَدِيدِ إِلَى بِلًى   فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ الْحَدِيثِ وَلَا الرَّسْمِ (٢)

= لقبه ، ودعائه به . أو لصاحب حقيق ، أو خيالى ؛ فقد يجرّد الشاعر من نفسه شخصاً ويخاطبه. والألقاب : جمع لقب (بوزن سبب) : وهو ما يطلق على المرء ؛ فيفيد المدح ، أو الذم ، ويشعر برفعته أو ضعته . أو هو اسم وضع بعد الاسم الأول للتعريف ، أو التشريف ، أو التحقير . أو هو اسم يسمى به الإنسان سوى اسمه الأول . ويشعر بمدح ، أو ذم ، باعتبار معناه الأصلى . والمراد هنا : ألقاب المدح ، والتكريم ، والتشريف ، والتعظيم ، مثل « الباشا » ، وصاحب المعالى ، وصاحب الدولة ، وصاحب المقام الرفيع . والعلا : الرفعة ، والشرف . ومثله العلاء . وادعنى باسمى : يريد نادنى باسمى مجرداً من ألقاب التكريم والتشريف . ودعاه يدعوه : صاح به ، وناداه . ودعاه زيداً . ودعاه بزيد : أى سماه به . والحرّ : الكريم . ورجل حرّ : أى كريم ، عزيز ، خالص من شوائب اللؤم ، بعيد عن المذلة والهوان . وجمعه أحرار . وتُسمى : تُعْلى ، وترفع . وهو نقيض « تخفض » وتَحُطّ .

والمعنى : أنّ قيمة المرء بأخلاقه وأعماله ، لا بما يحمله من ألقاب الرفعة والعلاء ؛ فهى لا ترفع الحر الكريم إن خُلعتْ عليه ، ولا تحط من قدره إن تجرد منها ، وهو بحريته وكرمه عزيز كريم ، عالى القدر ، رفيع المقام ؛ ولهذا زهد الشاعر فيها ، ورغب عنها ، وخلعها على من يفرح بها ، ويغتر بزخرفها ؛ وطلب أن ينادى باسمه مجرداً منها . والغرض رفع الحرج عن المتحرجين من ذكر ألقابه ، وتهوين الأمر عليهم . وفى البيت — مع قلة الاكتراث لألقاب العلا ، وعدم المبالاة بها — فخر وابتهاء بأنه من الأعزّة الكرام الأحرار . وفى القصيدة معنى الرّغب عن الدنيا وزينتها ، وإيثار الباقيات الصالحات .

(٢) عقبان الشىء : نهايته وآخره . والجديد ، والحديث : كلمتان مترادفتان ، بمعنى واحد . والبلى : ضد الجدة ، ونقيض الحداثة : مصدر بلى الثوب ونحوه (من باب رضى) : أى أخلق ، ودثر وذهبتْ جدّته ؛ فهو بال : أى خلَق ، أسمال ، مُهَلْهل . و « ما » و « لا » الثانية زائدتان فى الشطر الثانى . والكلام بدونهما : « فلا فرق بين الحديث والرسم » . ولا نعرف وجه زيادة الأخيرة هنا . ولو أبدلتْ بها « أو » التى بمعنى « واو العطف » لاستقام الوزن ، وجرى الكلام على ما نعرفه ونألفه « فلا فرق مابين الحديث أو الرسم » . والرسم : ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الديار ؛ ويراد به هنا : البالى القديم الفانى . وهو ما يقابل الجديد الحديث الزاهى .

يقول : إذا كانت نهاية الجديد أن يبلى ويفنى ، فلا فرق بينه وبين القديم البالى : أى لا ينبغى أن نغتر بالزاهى الخلاب من متاع الدنيا ؛ فنتعلق به ، ونتهافت عليه . وصلة هذا البيت بالذى قبله أن ألقاب العلا من متاع الدنيا الذى رغب عنه الشاعر ، وزهد فيه . والأبيات الآتية تفصّل هذا المعنى ، وتوضحه ، وتعززه وتؤكده . وهو مما يتطلبه مقام التزهيد فى الدنيا ، ويلائم الجو النفسى لهذه القصيدة . قال تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الآية رقم ٢٠ من سورة الحديد) .

تَأَمَّلْ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنٍ بَصِيرَةٍ ... لَعَلَّكَ تَرْضَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الْقَسْمِ [٣]

فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا خَطْرَةٌ عَرَضِيَّةٌ ... تَزُولُ كَمَا زَالَ الْحَثِيثُ مِنَ النَّسْمِ [٤]

وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا مِثْلُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؟ ... فَسَلْ عَنْ «جَدِيسٍ» أَيْنَ وَلَّتْ؟ وَعَنْ طَسْمٍ؟ [٥]

---

(٣) تأمل : أمر من تأملت الشيء ، وتأملت فيه : أى تدبرته ، وأعدت النظر فيه مرة بعد أخرى ، مستبيناً له ، حتى عرفته ، واستيقنته . و« إلى » : بمعنى « فى » . وإذا ضمنا « تأمل » معنى « انظر » ، كانت « إلى » بمعناها الأصلى . تقول : نظرت إلى الشيء : بمعنى نظر العين : وهو الإبصار والرؤية . أو نظر القلب : بمعنى التفكر والتدبر . وعين بصيرة : أى عين قوية ، صادقة الإبصار ، كاشفة للمبصرات ، محققة للمرئيات . ويراد بالعين البصيرة هنا : الفطنة ، وقوة الإدراك ، والعلم ، والخبرة ، وصحة الحكم ، والانتفاع بالنصح ، وسداد التقدير . و« لعل » : حرف يفيد الترجى : أى إذا نظرت إلى الدنيا ، وتأملتها بعين بصيرة — رجوت أن تفيد من هذا النظر والتأمل ، وترقبت ما يسعدك ، وهو أن ترضى بالقليل من القسم . وقد تكون « لعل» هنا : للتعليل : أى تأمل الدنيا بعين بصيرة لترضى بالقليل من القسم . والقسم (بكسر فسكون) : الحصة ، والنصيب ، والجزء من الشيء المقسوم . أو القسم (بفتح فسكون) : بمعنى العطاء : أى ما يُعْطَى .

وفى البيت : أن الاستبصار فى أمر الدنيا ، والاحتراز من خداعها وأطماعها المُردية ينتهى بالمستبصر إلى الزهد ، والقناعة ، والرضا ، والطمأنينة .

(٤) العيش : المعيشة ، والحياة . ويراد بالخطرة : البرهة ، والمدة اليسيرة ، والزمن القليل . تقول : ما ألقاه إلا خطرة بعد خطرة : أى إلا حيناً بعد حين . وعرضية : نسبة إلى العرض (بفتحتين) : وهو ما يطرأ ويزول من مرض وغيره . والعَرَض : اسم لما لا دوام له . يقال : هذا الأمر عرَض : أى عارض زائل . وعرَضيَّة : تأكيد لمعنى «خطرة» . وكلتاهما بيان وتعبير قوى عما يريده الشاعر من قصَر مدة حياة الإنسان فى الدنيا ، وسرعة زوالها . والشطر الثانى تأكيد آخر لهذا المعنى . وزال يزول زوالاً : ذهب ، ومضى ، وانقضى . وفاعل « تزول » : ضمير : « خطرة» . والجملة صفة ثانية لها : أى خطرة عرضية زائلة . والحثيث : السريع . يقال : ولَّى حثيثاً : أى أدبر ، وذهب مسرعاً . و« من » : بيانية . والنسم (بفتح فسكون) : مصدر نسمتْ الريح (من باب ضرب) : أى تحركت ، وهبَّت . ويراد بالمصدر هنا : الريح نفسها . أو هبوبها وحركتها العارضة السريعة الزوال . أو هى النسم (بفتحتين) أى الريح اللينة . أو نفس الريح إذا كان ضعيفاً . أو أوّلها حين تُقْبِل بلين قبل أن تشتد . وسُكنت السين لضرورة وزن الشعر . والنسم (أيضاً) : طير سراع كالخطاطيف ، تعلوهنّ خُضْرة .

يقول : إن حياة الإنسان فى الدنيا ليست إلا برهة قصيرة ، تزول فى سرعة هبَّة الريح ، أو طيران سراع الطير . وصلة هذا البيت بما قبله وما بعده ، وبموضوع هذه القصيدة — واضحة وثيقة ؛ فالدنيا خادعة فانية ، وحياة الإنسان فيها سريعة الزوال ، والطمع يُشْقى ويُرْدى ، وفى الزهد والقناعة راحة وسعادة .

(٥) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى : أى لسنا إلا مثل من كان قبلنا . و« جديس » =

تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهِ بُلْغَـةٌ فَسَوْفَ تُعَانِى الْجَدْبَ يَا رَاعِىَ الْوَسْمِى(٦)

= و « طسم » : قبيلتان من العرب البائدة ، كانتا تسكنان « اليمامة » إلى الجنوب الشرقى من « نجد » فى عهد ملوك الطوائف من الفرس . وهما من ولد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، عليه السلام . و« أين » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين المكان : أى واسأل عن قبيلتى « طسم وجديس » إلى أى مكان ولتا ؟ : أى أدبرتا وذهبتا . والغرض من مثل هذا الاستفهام : الوعظ ، والتنبيه . أو حمل المخاطب على الإقرار بالحقيقة التى يغفل المرء عنها إذا غرته الدنيا ، وانخدع بزخرفها وباطلها ؛ فما لا مراء فيه أن الإنسان يعيش فى الدنيا برهة ، ولا يلبث أن يفارقها بالموت ؛ فلا ينبغى أن يغتر بها ، أو يطمئن إليها . والشطر الثانى مؤكد لمعنى الشطر الأول . والبيت كله فى معنى البيت السابق : وهو أن حياة الإنسان فى الدنيا قصيرة موقوتة ، وزواله عنها حتم مقضى . وهذا شأن الحياة والناس مذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(٦) تزوَّد ، أخذ الزاد : وهو ما يتخذ من الطعام للسفر . وما يدخره المرء للانتفاع به وقت الحاجة . وتزود : أمر يراد به هنا : النصح والإرشاد . ومن المجاز : « التقوى خير زاد » . و« تزودوا من الدنيا للآخرة » . وفى القرآن الكريم : « وتزودوا ؛ فإن خير زاد التقوى » (الآية رقم ١٩٧ من سورة البقرة) . والبلغة (بضم فسكون) : ما يكفى لسد الحاجة ، ولا يفضل عنها : أى ولا يزيد عليها . ويراد بالبلغة هنا : ما يبلغك مأمنك وسلامتك فى الدار الآخرة من التقوى وصالح الأعمال . وتعانى : تقاسى ، وتكابد : من المعاناة : وهى المقاساة ، والمكابدة ، والمضاناة . عانيت = الأمر : أى قاسيت شدته ، وكابدت متاعبه ، وتحملته على جهد ومشقة . والجدب : القحط ، والمحْل : أى يبْس الأرض ، وانقطاع نبتها لانقطاع المطر عنها . والراعى : اسم فاعل من رعى الإنسان الماشية : أى جعلها تسرح ، وترعى ، وترتع ، وتأكل الكلأ والنبات . والوسمى (بتشديد الياء . وخففت هنا لضرورة وزن الشعر) : أول مطر الربيع . سمى بذلك لأنه يسم الأرض : أى يعلمها بالنبات ؛ فإذا مطرت بالوسمى ، اخضرت بالكلأ والنبات ؛ فكان لها كالسمة ، أو الأثر ، أو العلامة . ويراد بالوسمى : كلأ هذا المطر ونباته . وراعى الوسمى : من يقود الماشية فى المرعى ، ويمكنها من أن تسرح ، وتسوم ، وترتع ، وترعى حيث شاءت ، وتأكل من هذا الكلأ والنبات .

والبيت فى النصح ، والوعظ ، والإرشاد ، والتذكير بالعواقب ، والحض على التزود من الدنيا للآخرة ؛ فالدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء . ولا ينفع الإنسان فيها إلا ما ادخره لنفسه فى دنياه من التقوى وصالح الأعمال . والشطر الثانى وثيق الاتصال بهذا المعنى ؛ فإن المقصر فى الادخار يقاسى — بعد حلاوة الجدة والغنى — مرارة الفقر والحرمان ؛ كراعى الوسمى ، يفرح اليوم بما ترتع فيه ماشيته ، ويغفل عن غده ، فإذا انقطع المطر ، ويبست الأرض ، كابد هو وماشيته مشقات المحل والجدب ، ومتاعب القحط والخسران .

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْمَرْءُ مَنْ بَاتَ رَاضِيًا ... بِمَا خَصَّهُ مِنْ فَيْضِهِ سَابِقُ الرَّسْمِ (٧)

تَفَلْسَفَ قَوْمٌ فِى الْمَقَالِ ، وما دَرَوْا ... جَرِيرَةَ مَا أَبْقَوْا عَلَى الدَّهْرِ مِنْ وَسْمِ (٨)

---

(٧) « لعمرى » : اللام للابتداء . والعمر : الحياة . وهو مرفوع بالابتداء ، مضاف إلى ياء المتكلم . والخبر محذوف . والجملة من أساليب القسم . والتقدير : لعمرى قسمى : أى أحلف بحياتى . و« لنعم » : اللام : واقعة فى جواب القسم . و« نعم »: فعل غير متصرف ، لمدح الجنس ، والمقصود بالذات فرد من ذلك الجنس . وبات : أدركه الليل ، وبات يفعل كذا : إذا فعله ليلاً . ويراد بالبيات هنا : الصيرورة التى تشمل كل أوقات الليل والنهار . وخصه : أعطاه شيئاً كثيراً . وخصه بكذا : آثره به على غيره : أى جعله له دون غيره . وفاعله « سابق الرسم » . والفيض : الكثير ، الغزير . والرسم : الكتابة والخط . (وفعله من باب نصر) . ويراد بسابق الرسم : ما رسمه الله تبارك وتعالى : أى ما قضاه وقدره للإنسان فى الأزل من الرزق وغيره .

يمتدح الراضى بعطاء الله ، المطمئن قلبه على الإيمان ، وما قدره الله له فى الأزل من الرزق وغيره . ويؤكد المدح بالقسم . ويدعو إلى القناعة ، ويرغّب فيها ، ويحضّ عليها ؛ فإن الطمع المزرى ، والتكالب على حطام الدنيا أسّ الشرور والآثام . ويبدو أن هذا البيت شبه تفصيل وتوضيح ، وتأكيد وتكرار لمعنى الشطر الثانى من البيت الثالث : « لعلك ترضى بالقليل من القسم » . وهو من ثمار الاستبصار فى أمر الدنيا ، وتعرفها على حقيقتها .

(٨) تفلسف : تعاطى الفلسفة : أو سلك فى بحوثه طريق الفلاسفة . أو تكلف طريقتهم دون أن يحسنها . والمعنى الأخير هو اللائق هنا . والفلسفة : كلمة يونانية ، مركبة فى الأصل من كلمتين معناهما : حب الحكمة . أو إيثار الحكمة . وتفلسف قوم فى المقال : أى اتجهوا فى مقالاتهم إلى الفلسفة ، ولونوا بها كلامهم وبحوثهم فى تكلف وتنطّع ، بلا اعتدال ، وبلا إحسان ، أو نظر فى القيم الخلقية والروحية . وما دروا : أى ولم يعلموا ، ولم يفطنوا . (وبابه رمى) . والجريرة : الجناية ، والذنب . وعلى الدهر : أى مع الدهر . أو على مدى الدهر : أى طوال الدهر . وهو الأبد . أو الزمان الطويل ، أو الأمد الممدود . أو مدة الحياة الدنيا كلها . و « من » : بيانية . والوسم : السمة ، والأثر ، والعلامة . ولعلها محرفة عن « وصم » : وهو الصدع والشق . أو العيب والعار .

والمعنى : أن جماعة من الناس اتجهوا فى تفكيرهم وأقوالهم وكتاباتهم اتجاهات فلسفية غير سديدة وغير مجدية فى علاج الانحراف ، وضعف النفوس ، وتدهور الأخلاق ؛ ولم يفطنوا للعواقب الوخيمة ، والآثار السيئة التى تركتها هذه الفلسفات فى المجتمع ؛ وبهذا أفسدوا ، ولم يصلحوا . وضاعفوا الأدواء ، ولم يعالجوا شيئاً منها ، وجرّوا على أنفسهم وعلى غيرهم جرائر وخطايا باقية ما بقى الزمان . والغرض صرف الأذهان عن هذا التفلسف الملتوى العقيم ، وتنبيهها على العلاج الناجع المستقيم . والبيت الآتى يعزز هذا المعنى ، ويؤيده .

وَلَوْ رَاجَعُوا هَذِى النُّفُوسَ لَعَالَجُوا بِتَرْكِ الْخَطَايَا مُعْضِلَ الدَّاءِ بِالْحَسْمِ (٩)
فَدَعْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَإِنْ هِىَ أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ بِإِيمَاضِ الْبَشَاشَةِ وَالْبَسْمِ (١٠)
فَلَوْ جَرَّبَ الْإِنْسَانُ أَخْلَاقَ دَهْرِهِ لَأَمْسَكَ بِالْيَأْسِ الْمُرِيحِ عَنِ الْعَسْمِ (١١)

(٩) هذه النفوس : إشارة إلى النفوس المريضة المنحرفة التى حاول المتفلسفون علاجها بفلسفتهم الملتوية الخاطئة . والخطايا : جمع الخطيئة : وهى الإثم ، والجريرة ، والذنب ، والجناية . وداء معضل : أى عضال ، عقام ، عياء ، لا يرجى البرء منه : اسم فاعل من أعضل الداء الأطباء : أى أعياهم ، وأعجزهم أن يداووه . والحسم : مصدر حسمه (من باب ضرب) فانحسم : أى قطعه فانقطع . وحسم الداء : عالجه ، وداواه ، وأزاله بالدواء الناجع .

والمعنى : لو درس هؤلاء المتفلسفون نفوس الناس دراسة واعية مبصرة لبصّروهم بخطاياهم ، وحملوهم على اجتنابها بوازع السلطان ، ووازع القرآن . وهذا هو العلاج الحاسم لهذه الأدواء المستعصية .

أو المعنى — كما يبدو من جو هذه القصيدة — أن علاج النفوس المنحرفة سبيله علاج التكالب على الدنيا ، والإفراط فى حبها . فإذا عولج افتتان الناس بها ، استقاموا على الطريقة ، وأقبلوا على الصالحات ، وقل تفكيرهم فى الخطايا . وهذا هو العلاج الصحيح ، والدواء الناجع الذى يحسم أدواء النفوس وشرورها . يؤيد هذا المعنى ويعززه ما قدمناه فى شرح البيت السابق من أن الفلسفات الملتوية الخاطئة ضاعفت الشر والفساد ، وكانت الجرائر الباقية لهؤلاء المتفلسفين .

(١٠) دع : اترك . ويراد بترك الدنيا : الإعراض عنها ، والزهد فيها ، والاحتراس من خداعها وباطلها . والإيماض : مصدر أومض البرق : أى لمع لمعاناً خفيفاً ، وظهر . والبشاشة : تهلل الوجه وتلألؤه ، وإشراقه ، وطلاقته . وإيماض البشاشة : ما يلازمها من تألق الوجه ، ولمعانه ، وإشراقه . والبسم : أقل الضحك وأحسنه: مصدر بسم (من باب ضرب) . ومثله الابتسام ، والتبسّم . وإقبال الدنيا عليك بالابتسام، وإيماض البشاشة: تصوير حسى بليغ لما فى طبعها من التغرير والختل والخداع ، والجاذبية الكاذبة الخادعة الفاتنة .

وهذا البيت يرجح المعنى الثانى الذى ذهبنا إليه فى شرح البيت السابق ، وهو أن علاج الفساد ، والانحراف إنما يكون بعلاج التكالب على الدنيا ، والإفراط فى حبها ، والانخداع بزخرفها ؛ فإن الافتتان بها ، والتهافت عليها ، والانقياد لأصحاب الفلسفة المادية سبب الشرور والجرائر والآثام .

(١١) يراد بأخلاق الدهر: طباعه ، وكرائهه . وقد اعتاد الناس من قديم الزمان أن ينسبوا إلى الدهر ما يصيبهم من البلايا والشدائد ، ويصمونه بالغدر والختل ، وكثير من المقابح والمناقص . أو المراد بأخلاق الدهر: كرائه الدنيا وشرورها وفتنها . أو المراد أخلاق معاصرينا وأهل زماننا :

نعيب زماننا ، والعيب فينـــا وما لزماننا عيب سوانـــا

وأمسك باليأس : أخذ به ، واعتصم ، ولاذ ، واستمسك ، وتعلق . وأمسك عن الأمر : كف عنه . والعسم : الطمع (وفعله من باب ضرب) . ويراد به : الطمع الممقوت ، والحرص المردى ، والتهافت =

فَمَنْ لِي بِرَأْيٍ صَادِقٍ أَقْتَفِي بِهِ ... مَدَارِجَ قَوْمٍ أَدْرَكُوا الأَمْرَ بِالْقَسْمِ (١٢)
بَرَتْنِي تَبَارِيحُ الْحَيَاةِ ، فَلَمْ تَدَعْ ... لَدَىَّ سِوَى رُوحٍ تَرَدَّدَ فِي جِسْمِ (١٣)

= والتكالب على حطام الدنيا . و« لو» فى أول البيت : شرطية ، وتفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط : بمعنى أن الإنسان لم يقلع عن العسم، ولم يخلد إلى اليأس المريح ، كأنه لم يجرب أخلاق زمانه ؛ وسبب هذا أن طمعه فى المنافع الموقوتة ، وحرصه الشديد على حطام الدنيا ينسيه ما يتجرعه من التجارب المرة القاسية ، وما يصيبه من كرائه الدهر وبلاياه .

والمعنى : أن طمع الناس فى الدنيا يدفعهم إلى التكالب عليها ، ويوقعهم فى كثير من الشرور والمهالك . ولو جرب العاقل هذه الحياة لزهد فيها ، وانصرف عن ملاهيها ، واستراح إلى اليأس منها ، وأقلع عن أطماعه المردية ، وطوى آماله المستعصية . أو المعنى: أن فى طبع الدهر التقلب والتغير . والطمع فيه يعرّض الطامع لشرور هذا التقلب وصدماته . وإنما الأمن والسلامة فى الإخلاد إلى اليأس الذى يوفر لليائس راحة البال ، وطمأنينة النفس .

أو المعنى : أن فى أخلاق الكثرة الغالبة من الناس الشر والغدر ، والخيانة والعدوان . والتجربة الصادقة تحمل العاقل على أن يقطع حبل رجائه فيهم ، ويخلد إلى اليأس منهم ، ويرتب عليه حياته ؛ ليتوقى شرهم ، ويأمن كيدهم ، ويستريح من متاعب التزاحم والتهافت ، والتكالب على الحطام والتوافه .

(١٢) « من» : اسم استفهام ، يطلب به تعيين العاقل : أى فمن يأتى لى برأى صادق .. أو يمدنى برأى صادق . والغرض من الاستفهام التمنى . والرأى : العقل ، والتدبير . ورجل ذو رأى : أى ذو بصيرة وحذق بالأمور . واقتفاه : تبعه ، وسار فى أثره . وأقتفى به: المراد أسلك بنور ذلك الرأى الصادق وضيائه وهداه مدارج قوم . . أى مذاهبهم ، ومسالكهم ، وطرقهم : جمع مدرج (بوزن مذهب). أو مدرجة (بوزن مدرسة) . ويراد بالأمر: شأن هذه الحياة وحالها. والقسم (بفتح فسكون) : الرأى ، والعقل ، والتدبير ، والخُلق . وأن يقع الشىء فى قلبك موقع الظن والتخمين ، ثم يقوى حتى يصير يقيناً ، وحقيقة ثابتة لا شك فيها . وأدركوا الأمر بالقسم : أى أدركوا أمر هذه الحياة بالرأى الصادق ، وهداية الله تعالى وتسديده .

يتمنى أن يهتدى إلى رأى سديد ، يضىء له ظلمات هذه الحياة ، ويكشف له بعض ما خفى من أسرارها ، ويخفف عنه شرورها ومتاعبها ، ويسلك فى نوره مسالك الذين فطنوا لها ، ووقفوا على حقائقها ، وسلموا من آفاتها وتباريحها . والبيت الآتى يرجح هذا المعنى ويوضحه . ولعل صلة هذا البيت بالذى قبله أن القوم الذين أدركوا الأمر بالقسم ، وتمنى أن يكون له رأى صادق يقتفى به آثارهم ، ويسلك فى ضيائه طريقهم — هم أولئك الذين جربوا أخلاق دهرهم ، فأقلعوا عن الطمع الممقوت ، وأخلدوا إلى اليأس المريح . والأبيات الأربعة الأخيرة من هذه القصيدة تنمّ على ما كان الشاعر يستشعره من تبرم وقلق، وحيرة وآلام نفسية .

(١٣) براه (من باب رمى) : هزله ، وأنحله ، وأضعفه، وأضناه . مستعار من برْىِ العود ، =

يقُولُونَ «مَحْمُودٌ» ،وَيَا لَيْتَ أَنَّنِى كَمَازَعَمُوا ،أَوْلَيْتَ لِى طَائِعًا كَاسْمِى [١٤]

وَقَالَ :

قَالُوا : أَلَا تَصِفُ الْغَرَامَ لَنَا حَتَّى يُحِيطَ بِنَعْتِهِ الْفَهْمُ ؟[١]

= أو الحجر ،أو القلم : أى نحته وتسويته. وتباريح الحياة : شدائدها وبلاياها. وبرح به الأمر تبريحاً : أى أتعبه ، وجهده ، وألح عليه بالعنت والمشقة ، وآذاه أذى شديداً . ولم تدع : لم تترك . والروح : النفس (بفتح فسكون) . أو النفس (بفتحتين) . ويجوز تذكيره وتأنيثه . وتردد : أصله تتردد ، أو يتردد (مضارع حذف أوله للتخفيف) . أو هو تردد (فعل ماض) .

يشكو ما ناء به ، وأثقل كاهله ، وبراه ، وأضناه من شدائد الحياة ومتاعبها التى لم تبق فى جسده غير روح قلقة مترددة ، لا تكاد تعرف السكينة ، أو الطمأنينة ، أو الراحة والاستقرار .

أو المعنى : أن هذه الشدائد والأوصاب الثقال برته ، وذهبت بكل قوته ، وتركته مبهوراً ، تتوالى أنفاسه ، وتتقطع من الضعف والعجز ، والكلال والإعياء .

وقد تكون « الروح » بمعنى القوة والهمة. وعلى هذا يكون المعنى : أن تباريح الحياة برته وأضنته؛ ولكنها لم تذهب بكل قوته وهمته ، وصبره وعزيمته . وهذا مثل قوله فى إحدى قصائده البائية :

لم تدع صولة الحوادث منى غير أشلاء همة فى ثياب

(١٤) « محمود » : اسم الشاعر « محمود سامى البارودى». و« ياليت »: « يا » : حرف تنبيه، أو حرف نداء . والمنادى محذوف . و«ليت» : حرف تمنّ . والتمنى هنا متعلّق بالممكن المرغوب فيه . وكما زعموا (من باب نصر) : أى كما قالوا . أو مثلما ظنوا . وطائع : مطيع ، منقاد . (وفعله من بابى قال ، وخاف) .

والمعنى : أن الناس يورّون باسمه « محمود » ، ويظنون أنه محمود الحال ، ورخىّ البال .ومع أن حقيقة أمره على خلاف هذا ، فإنه يتمنى أن يكون كما يزعمون ، كما يتمنى أن يجد من يوائمه ويطيعه ، كما يوائمه اسمه ويطيعه ؛ فإن اسم المرء كظله أطوع شىء له ، وألصق شىء به . والصلة بين هذين التمنيين أنه إذا ظفر بمن ينقاد له ويطيعه . أو بالخل الوفى ، والصديق الصادق الذى يوائمه ويواسيه ، خفف عنه – بإخلاصه وصدق مودته – شدائد الحياة وبلاياها ، وهيأ له شيئاً من الغبطة ، وارتياح النفس ، وحسن الحال ، ورخاء البال .

* * *

(١) « ألا » : أداة مركبة من همزة الاستفهام و« لا» النافية . ومعناها هنا : التحضيض : وهو حثّ بقوة . أو العرض : وهو طلب بلين .

فَأَجَبْتُهُمْ : هيْهَـاتَ أَنْعَتُ مَا يَعْتَلُّ دُونَ صِفَـاتِهِ الْوَهْمُ(٢)

الْحُبُّ يَنْفُـذُ بِالْفُـؤَادِ كَمَا يَمْضِي عَـلَى غُلَوَائِهِ السَّهْمُ(٣)

يَعْنُو لِسَوْرَتِهِ الْمَلِيكُ ، وَلَا يَقْوَى عَلَى صَدَمَاتِهِ الشَّهْمُ(٤)

---

(٢) « هيهات » بتثليث الآخر : اسم فعل ماض . معناه بَعُدَ ؛ فهى كلمة تفيد التبعيد . ويعتل : يمرض . والمراد : يعيا ، ويعجز . و« دون » : ظرف مكان منصوب . وهو هنا بمعنى « قبل» : أى يعجز الوهم قبل أن يصل إلى صفات الغرام وأسراره : أى لا سبيل إلى وصفه ، وكشف سره . والوهم : ما يقع فى الذهن من الخاطر ؛ فالأوهام من خطرات الذهن أو القلب . أو هو مرجوح طرفى المتردد فيه . أو هو الظن ، والتمثل ، والتخيل ، والتصور . (وفعله من باب وعد) . ومثله التوهّم . ووهمت الشيء : توهمته ، وتخيلته . وتمثلته ، وتصورته . أو وقع فى خلدى ، ودار فى خاطرى . ويلاحظ أن « الوهم » أوسع من « الفهم » وأبلغ فى الدلالة على ما يريده الشاعر فى هذا البيت ، وهو تعذر نعت الحب أو الهوى أو العشق أو الغرام ، وصعوبة الوقوف على شىء من حقائقه وأسراره .

فى البيت الأول سأله بعض صحبه — بأسلوب العرض ، أو التحضيض — أن يصف لهم الغرام من مَعين معارفه وتجاربه وصفاً صحيحاً دقيقاً ، تحيط به أفهامهم إحاطة تامة شاملة ، وتقف على ظواهره وبواطنه وأسراره ، ودقائقه ، ومعضلاته وخفاياه . وفى البيت الثانى أجابهم بأن هذا كله مما يعيى الأفهام ويعجز الأوهام .

(٣) نفذ السهم ونحوه (من باب دخل) : خرق الرمية ، وخرج منها . ويراد بالنفوذ أو النفاذ هنا : الاستقرار والتمكن والثبات . ويمضى : ينفذ . والغلواء : الغلوّ ، والحدة ، والسرعة ، ومجاوزة حد القصد والاعتدال . والسهم : عود من خشب يسوى ، ويركب فى طرفه نصل حاد من الحديد الصلب ، وجمعه سهام . ومثلها النبال . وبالنبل والسهام يرمى الصائد ونحوه عن القوس ونحوها. ومضىّ السهم على غلوائه : انطلاقه فى حدة ، وشدة ، وقوة ، وسرعة بالغة .

لم يحاول الشاعر وصف حقيقة الحب ، وكشف سر الغرام . وإنما أشار فى هذا البيت إلى بعض ظواهره . وصوّر بالتشبيه والتمثيل الحسّى كيف يستولى الحب على قلب المحب ، ويتمكّن منه ، فقال : إنه يمضى إليه فى سرعة السهم وقوته وعنفه ومضائه ، فيصيبه إصابة بالغة نافذة ، ويستقر فيه ، ولا يكاد يبرحه ، أو يزايله .

(٤) يعنو : يذل ، ويخضع ، ويستكين ، وينقاد (وبابه سما) . وفى القرآن الكريم: «وعنت الوجوه للحى القيوم » : أى خضعت مستأسرة بعناء (الآية رقم ١١١ من سورة طه) . ولسورته : أى لسورة الحب : أى سطوته وشدته وحدته ، وبأسه ، وسلطانه . والشهم : الجلد ، القوى ، الصلب ، الشديد ، والذكىّ الفؤاد ، المتوقّد الذهن . والسديد الرأى . والسيد النافذ الحكم . والصبور على القيام بما حُمِّل . =

وَقَالَ فِى غَدَاةِ أُنْسٍ* :

أَدِرْهَــا قَبْلَ تَغْــرِيدِ الْحَمَامَهْ   فَما يَنْفِى الْهُمُومَ سِوَى الْمُدَامَهْ(١)

مُعَتَّقَــةً ، إِذَا سَلَكَتْ ضَمِيرًا   مَحَتْ عَنْهُ الْكَلَالَةَ والسَّــآمَهْ(٢)

= فى البيت السابق صور الشاعر كيف يصيب الحب قلب المحب . وفى هذا البيت تصوير بليغ لسيطرة الحب وسورته ؛ فإنه يصيب صاحب الملك والسطوة والقوة والسلطان والبأس الشديد ، فلا يسعه إلا أن يستأسر له ، ويعنو لسلطانه ، ويصدم الشهم القوى الجلد الذكى ؛ فلا يتجلد لصدماته ، ولا يكاد يقوى على الصمود ، أو المقاومة . وفى هذا المعنى يقول بعض الشعراء :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجــ   ـل ، على أننا نذيب الحديدا

وترانا لدى الكريهــة أحــرا   راً وفى السلم للحسان عبيــدا

* * *

* الغداة : ما بين الفجر وطلوع الشمس . والأنس (بضم فسكون ، أو بفتحتين) : ضد الوحشة ؛ وقد أنس به ، وإليه (كفرح ، وضرب ، وكرم) : أى سكن إليه قلبه ، وألفه ، وذهبت به وحشته ، وفرح ، واستبشر ، واطمأن .

(١) أدرها : يريد أدر كئوس الخمر علينا . والأمر لساقيها الذى يطوف بأكوابها على شاربيها . وتغريد الحمامة : هديرها ، أو هديلها : مصدر غرد الطائر : أى رفع صوته بالغناء ، وطرب به تطريباً . وقبل تغريد الحمامة : أى قبل أن تطلع الشمس ، ويمتد النهار . والهموم : الأحزان والمتاعب النفسية . واحدها هم : مصدر همه الأمر (من باب رد) : أى أقلقه ، وحزنه . والمدامة : الخمر .

جلس الشاعر فى الصباح الباكر مع بعض ندمائه يحتسون الخمر فى أنسة ومتعة ، ولذة وسرور . وطلب إلى ساقيها — فى رغبة وحرص — أن يطوف بكئوسها عليهم قبل تغريد الطيور ، أى قبل وضح الصبح ، وامتداد النهار ، زاعماً أنها تزيل الهموم ، وتذهب الأحزان .

(٢) معتقة (بالنصب) : حال من مفعول « أدر » فى البيت السابق . وهو الضمير « ها » . أو (بالرفع) خبر لمبتدإ محذوف : أى هى معتقة . وخمر معتقة : قديمة . وتعتيقها : تركها فى دنانها وخوابيها زماناً طويلاً ، لتعتق ، وتقدم ، وتطيب ، وتصفو ، وتجود ، ويقوى أثرها ، وتعلو قيمتها ، ويرتفع ثمنها . وسلك الطريق أو المكان أو نحوهما (من باب دخل) : ذهب فيه ، ودخل ، ونفذ . ويراد بالضمير هنا : قلب شاربها ، أو عقله ، أو ذهنه . أو ما يشمل جسمه وإحساسه . ومحاه (من بابى عدا ورمى) : أزاله ، وأذهب أثره . والكلالة : الإعياء ، والعجز ، والضعف ، والتعب ، والتراخى . والسآمة : الملل ، والضيق ، والضجر . =

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ أَصْبَحتِ الْغَوَادِى لها فِى كُلِّ نَاحِيَـةٍ عَلَامَهْ ؟(٣)
فَكَمْ فِى الْأَرْضِ مِنْ مَجْرَى غَدِيرٍ وَكَمْ فِى الْجَوِّ مِنْ مَسْرَى غَمَامَهْ(٤)

= فى البيت السابق زعم الشاعر أن الخمر تنفى الهموم ، وتذهب الأحزان . وقد يكون هذا صحيحاً من حيث إنها تميت إحساس صاحبها ، وتقتل وجدانه ، وتورثه بلادة لا يشعر معها بهم أو حزن . وفى هذا البيت زعم أنها تمحو الكلالة والسآمة . وهذا – فيما يبدو لنا – غير صحيح ؛ فالخمر تخمر العقل والذهن والوعى والإدراك : أى تستره وتغطيه : أى تذهب به وتخفيه . أو تخامره : أى تخالطه ، فتغيبه ، وتضعف الحواس ، وتخدّر الضمير . ومدمنها فى الدرك الأسفل من الكسل والفتور ، والخمول والخمود ، والعجز والإعياء . يقوم ، ويقعد ، ويمشى ، ويتحرك ، ويتكلم وينطق فى تعثر وتلعثم ، وكلالة وتراخ ، بلا وعى ، أو إدراك .

(٣) الاستفهام فى أول هذا البيت للتقرير : أى حمل المخاطب على الإقرار بعظمة ما يبصره من مشاهد الطبيعة ، وآثار الأمطار . أو هو للتعجيب : أى إثارة عجبه وانبهاره ، واستعظامه لهذه المشاهد الرائعة الممتعة . والغوادى : أمطار الصباح . الواحدة غادية : وهى مطرة الغداة . أو السحابة تنشأ فتمطر غدوة : أى بين الفجر وطلوع الشمس . وعلامات الغوادى : سماتها ، وأماراتها ، وآثارها فى بقاع الأرض ونواحيها من الغدران ، والأنهار ، والكلأ ، والنبات .

فى البيتين الأول والثانى : ذكر الشاعر الخمر ، وطلب إلى ساقيها أن يطوف بكئوسها عليهم قبل تغريد الطير ، وطلوع الشمس ، وامتداد النهار . وأشار إلى بعض صفاتها ، وبعض مزاياها فى زعمه . وفى هذا البيت والبيت الآتى انتقل إلى التنبيه والتقرير . أو الترغيب والتعجيب من أمطار الصباح وروعتها ، والتنويه بآثارها فى نواحى الأرض وجوانبها ، وعلاماتها فى آفاق السماء وأجوائها . وإنك لترى النبات غبّ المطر أعظم ما يكون غضارة ونضارة ، وحسناً وازدهاراً . ولعل الصلة بين ذكر الخمر وأمطار الصباح أنهما مبعث متعة ولذة ، وبهجة وارتياح . وقد نظم الشاعر هذه الأبيات الستة فى غداة أنس ، أديرت فيها عليه وعلى ندمائه ومشاربيه كئوس الخمر ؛ فالتذوا بها ، واستمتعوا بما رأوه فى هذا الصباح الباكر من مشاهد الطبيعة ، وحركات السحاب ، وسقوط المطر ، وآثاره فى الأرض . ، وعدّوا هذا كله من أمارات مواتاة الأيام وبهجتها ، وإقبال الزمان ومصافاته .

(٤) « كم » فى شطرى البيت : خبرية تدل على عدد كثير . وتمييزها فى الشطرين مجرور بمن . والغدير : القطعة من الماء يغادرها السيل . أو يغدرها إغداراً : أى يجاوزها ، ويتركها وراءه ؛ فهو فعيل بمعنى مفاعل ، أو مفعل (بصيغة اسم المفعول فيهما) . وجمعه غدر وغدران (بوزن كتب وقضبان) . وتطلق الغدران على الأنهار ، والترع ، والقنوات ، ومجارى المياه . ومسرى : مسير : اسم مكان . أو مصدر ميمى من سرى (من باب جرى) : أى سار . والغمامة : السحابة . وجمعها غمائم . وغمام (بوزن سحاب) .

ذكر فى هذا البيت والذى قبله أمطار الصباح ، وعلاماتها وآثارها فى الأرض والسماء ؛ ففى الأرض غدران كثيرة تسيل وتجرى . وفى السماء غمام كثير يتحرك ويسير .

فَبَادِرْ صفْوَةَ الْأَيَّامِ تَغْنَمْ لَذَاذَتَهَــا ، وَلَا تَخْشَ الْمَلَامَةْ[٥]
وَلَا تَحْزَنْ عَلَى شَيْءٍ تَــوَلَّى فَإِنَّ الْحُزْنَ مِقْــرَاضُ السَّلَامَةْ[٦]

وَقَالَ :

مَتَى يَنْقَضِي عُمْرُ الْحيَاةِ ؛ فَتَنْقَضِي مَآرِبُ كَانَتْ عِلَّــةً لِلْمَظَالِمِ[١]
تَسَاوَتْ نُفُوسُ الْخَلْقِ فِي الشَّرِّ ؛ فَاسْتَعِذْ بِرَبِّ الْبَرَايَا مِنْ جَهُولٍ وَعَالِمِ ؟[٢]

---

(٥) بادرت الشيء : سارعت إليه ، وعاجلته . وبادرت غيرى الغاية : وبادرته إليها : سبقته إليها ، وأدركتها قبله . ويراد بصفوة الأيام ولذاذتها : ما يهيئه لك الزمان من فرص الصفاء والنقاء ، ورخاء البال . وما تجده فيه من شهوات النفس وملذاتها ، ومتع الحياة ومباهجها . والملامة : اللوم .

يرغّب فى انتهاز ما تتيحه الليالى والأيام من فرص المواتاة والمياسرة ، والمصافاة ؛ لاغتنام الملاذ ، والاستمتاع بمباهج الحياة ، وشهوات النفس . وينهى عن خوف الملامة ، والاستماع للائم ؛ فإن هذا يكدر الصفو ، ويذهب بالطمأنينة ، ويعوق عن السير فى الطريق الذى رسمه ، وزينه ، وحسنه ، ودعا إليه ، وحض عليه ، وهو حضور مجالس الأنس ، والاستمتاع بندوات اللهو ، واحتساء الخمر ، وتملى مشاهد الطبيعة ، وجمال الكون . .

(٦) تولى : أدبر ، وذهب . والمقراض : أداة القرض : أى المقص الذى يقص به الثوب وغيره . وهما مقراضان : أى شفرتان . وقرض الشيء (من باب ضرب) : قطعه .

فى البيت السابق دعا إلى مبادرة صفوة الأيام ، واغتنام لذاذتها ، والإعراض عن اللائمين ؛ لاستبقاء طمأنينة النفس ومسرتها . ومن المحافظة على هذه الطمأنينة ألا يحزن المرء على فائت أياً كان ؛ فإن الحزن يعكر الصفو ، ويكدر العيش ، ويذهب ببهجة الحياة ، ويناقض اللذاذة والهناءة . وقد شدد الشاعر النهى عن الحزن ، وبالغ فيه ، فقال : إنه يقرض سلامة الحزين ، ويحرمه الأمن ، ويلقيه فى التهلكة .

* * *

(١) الاستفهام فى أول البيت : للاستبطاء . أو للتمنى ؛ فهو يستبطىء فناء الحياة ، وانصرامها ، وانقضاء عمرها : أى يعدّه بطيئاً ، ويضيق بهذا البطء ويتبرم . أو يتمنى هذا الانقضاء ، ويقدره ، ويتوق إليه ، ويرغب فيه ، ويحرص عليه . والمآرب : الحاجات ، والمطالب الحيوية . جمع مأرب (بوزن مذهب) . أو مأربة (بتثليث الراء) . وعلة : سبب .

يستبطئ ، أو يتمنى أن تفنى الدنيا ، وينتهى عمرها ؛ لتنقطع بفنائها حاجات الناس ومطامعهم ؛ فإن التكالب عليها سبب الشرور والآفات ، والخصومات والمظالم فى هذه الحياة .

(٢) الخلق : الناس . واستعاذ بالله من الشر أو من الشيطان : أى لجأ إليه ،واعتصم به ، ورجا حفظه ووقايته . والبرايا : جمع البرية : وهى الخلق ، والناس . والأمر فى الشطر الأول للنصح والإرشاد .

وَلَوْ عَرَفُوا مَا أَنْكَرُوهُ لَأَيْقَنُــوا   بِأَنَّ نَعِيمَ الدَّهْرِ خُدْعَةُ حَالِمِ(٣)

= وهذا البيت توضيح وتفصيل وبيان وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فقد اشتد تبرم الشاعر ، وزاد سخطه ، وساء ظنه ، وضاق صدره بالناس عالمهم وجاهلهم ؛ حتى قرر أن نفوسهم متساوية فى الشر ، وقلوبهم منطوية على الفساد ، ونصح أن يستعاذ بالله منهم ، ويستعان به عليهم .

وهذا المعنى كثير فى الشعر العربى ، يسوقه الشعراء مساق الحكمة والمثل ، ويرددونه فى مقام النصح والإرشاد والتنبيه والتحذير . وقد تبعثهم عليه بواعث خاصة أو عامة ، لمعاسرة الزمان ، وقلة الخلان ، ونكد الدنيا ، ومرارة الحياة ، وانتشار المفاسد والآثام ، وتتابع الشرور والمظالم . يستوى فيها العالم والجاهل ، والغنى والفقير ، والرفيع والوضيع « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم » . وفى هذا المعنى ، أو ما يقرب منه يقول أبو فراس الحمدانى :

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم   ذئاباً على أجسادهن ثياب

ويقول غيره :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسان فكدت أطير

ويقول البارودى :

تغير الناس عما كنت أسمعــه   واستحكم الغدر فى السادات والحشم

وظل أعدل مــن تلقاه من رجل   أعدى على الخلق من ذئب على غنم

ويقول أحمد شوقى :

ولو صوروا من نواحى الطباع   توالوا عليك سباع الصــور

فيارب وجــه كصافى النمــير   تشابــه حامله والنمـــر

(٣) واو الجماعة فى « عرفوا» : ضمير « الخلق» بمعنى الناس فى البيت السابق . وأنكروه : جهلوه ، أو جحدوه . والخدعة (بتثليث الخاء) : الاسم من خدعه (من باب قطع) : أى ختله ، ومكر به مكراً سيئاً ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .

والمعنى : أن الدنيا تخدع الناس أحياناً بالتافه القليل اليسير الموقوت من النعيم والمتعة ، وغضارة العيش ، وحسن الحال ، ولكنها لا تلبث أن تسترد هذا كله ، وتجرع المرء مرارة الأسى والحسرات ؛ كرجل وهب لغيره شيئاً ، فلما فرح به أخذه منه ؛ فكان أسفه عليه أكثر من فرحه به . أو كحالم انخدع برهة قليلة بلذة حلمه ، فلما استيقظ لم يجد شيئاً . والناس يجهلون هذه الحقيقة . أو يعرفونها ، ويتجاهلونها . ولو عرفوها ، أو اعترفوا بها ، وانتفعوا بالمعرفة أو الاعتراف — لتيقنوا أن الدهر بالناس قلّب ، والدنيا خداعة غرارة ، فاحترزوا منها ، ولم يتكالبوا عليها ، ولم يترددوا فى شرورها ومآسيها : وفى القرآن الكريم : «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الآية رقم ٢٠ من سورة الحديد) . ومن شعر أبى الطيب المتنبى فيما يناسب هذا المعنى :

أبــداً تستردّ ما تهب الــدنْــ   يا ، فياليت جودها كان بُخْلا =

تَأَمَّلْ رُوَيْدًا يَا بْن وُدِّيَ ، هَلْ تَرَى عَلَى صَفَحَاتِ الْأَرْضِ غَيْرَ مَعَالِمِ ؟(٤)

يَظُنُّ عَلِيلُ الْقَوْمِ فِى الطِّبِّ بُرْأَهُ وَلَمْ يدْرِ أَنَّ الطِّبَّ لَيْسَ بِسَالِمِ (٥)

= ومن شعر غيره :

فلا تغرنك من دهـــر عطيتـــه فليس يترك ما أعطى على أحـــد

(٤) رويداً : متمهلاً متئداً . تصغير رود (بوزن عود) . من قولهم : هو يمشى على رود : أى على مهل . أو تصغير « إرواد » على الترخيم :مصدر أرود فى مشيه : أى رفق ، واتأد، وتمهل ، وتأنى . وابن وده (بتثليث الواو) : صديقه ، وحبيبه ، وخدينه ، وخليله . ونداء المخاطب بابن الود لاستمالته ، والتأثير فيه ، وحمله على الاتعاظ ، وقبول النصح والإرشاد . والاستفهام بهل : معناه النفى : أى لو تأملت ما رأيت غير المعالم. وصفحات الأرض: جوانبها، ونواحيها ، ووجوهها ، جمع صفحة . والمعالم : جمع معلم (بوزن مذهب) : وهو العلامة والأثر .

ينصح ويرشد ويعظ ويدعو إلى التأمل والتفكر والتدبر فى إرواد واتئاد وإطالة نظر ؛ للاتعاظ بمن أثاروا الأرض وعمروها قبلنا، وما لبثوا أن أرداهم الردى، وطواهم هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ؛ فلم يبق بعدهم غير معالم وآثار ، فيها ذكريات وعظات لمن أراد أن يعتبر .

فى البيت الأول استبطأ ، أو تمنى فناء الحياة الدنيا ؛ لتفنى معها مآرب وأطماع تلابسها مظالم متأججة ، وشرور متجددة ، وظالمون معتدون ، لا يكادون يجنحون للمسالمة أو المهادنة . وفى البيت الثانى : اشتد سخطه على الناس ، وتطيّره منهم ؛ فرماهم بالشر والسوء ، ودعا إلى التعوذ بالله من عالمهم وجاهلهم . وفى البيت الثالث : رماهم بالغفلة والجهل ، أو التغافل والتجاهل والانخداع بالتافه الزائل الذى لا بقاء له ، ولا خير فيه من نعيم الدهر ، وزخرف الحياة الدنيا . ولو انتبهوا من غفلتهم ، وعرفوا ما جهلوا أو اعترفوا بما أنكروه لأيقنوا أن هذا النعيم حلم حالم ، وخدعة خادع محتال . وفى البيت الرابع : دعا إلى التأمل والتبصر ، للاتعاظ بمن سبقونا إلى هذه الحياة ؛ فأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرناها ، وما لبثوا أن طواهم الردى ، وأبقى من آثارهم ما يبعث على العظة والاعتبار .

(٥) الطب (مثلثة الطاء) : علاج الجسم والنفس . والطبّ (بفتح الطاء) : الطبيب المداوى . وإضافة العليل إلى القوم للإشارة إلى عجزهم عن إنقاذه من براثن العلة والمرض القاتل . أو ليعمّهم جميعاً بوعظه وإرشاده .

والمعنى : أن المريض المعتزّ بقومه وعشيرته ، والطبيب الحاذق الماهر إذا حان أجلهما لم يجدا فى علم الطب مايشفيهما ، ويدرأ الموت عنهما؛ فإن السلامة لم تكتب لإنسان أيًّا كان . وصلة هذا البيت بما قبله أن العليل الذى يظن فىالطب شفاءه، ويجهلأنّ الطبيب نفسه غير ناج — مخدوع بنعيم الدهر، غافل عن القائم الشاخص على صفحات الأرض من الآثار والمعالم والعبر والعظات . والغرض من هذا كله التبصير والتذكير ، والنصح والتحذير ، والوعظ والإرشاد؛ لتخفيف حدة المطامع والمظالم، وعلاج ما انطوت =

فَطِرْ لِلسُّهَا ، أَوْ فَاتَّخِذْ لَكَ سُلَّمًا لِتَرْقَى إِلَى أَبْرَاجِـهِ بِالسَّلَالِمِ (٦)

وَكَيْفَ تَنَالُ النَّفْسُ فِي الدَّهْرِ عِيشَةً تَلَذُّ بِهَا ، والدَّهْرُ غَيْرُ مُسَالِمِ ؟ (٧)

= عليه النفوس من الشر والغدر ، وما أمعن الناس فيه من الانخداع بالدنيا، والتكالب على حطامها. وفيما يقرب من معنى هذا البيت يقول أبو الطيب المتنبى :

يموت راعى الضأن فى جهلـه ميتة « جالينوس » فى طبّـه

وربما زاد على عمـــره وزاد فى الأمن على سربــه

(٦) السها : كوكب صغير ، خفى الضوء ، من بنات نعش الصغرى ، يمتحن الناس به أبصارهم . وأبراجه : أى أبراج السها. وأبراج النجوم : منازلها المختصة بها فى السماء . واحدها برج (بوزن قفل) . والسلالم جمع السلم .

والمعنى : أنه لا سبيل إلى السلامة ، ولا نجاة من الموت . قال تعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (الآية رقم ٧٨ من سورة النساء) . وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـه وإن يرق أسباب السماء بسلم .

(٧) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى : أى لا سبيل إلى أن ينال المرء فى دهره عيشة راضية لذيذة . ويراد بالدهر : الدنيا . أو الزمان . أو مدة حياة الإنسان فى الدنيا . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال والجملة بعدها حالية .

والمعنى : أنه لا سبيل إلى عيشة راضية ، يستمتع بها الإنسان ، أو يلذها ، أو يطمئن إليها فى دهره ، أو دنياه ؛ فإن فى طبعها الخداع والغدر ، وهى لا تفتأ تخاتله وتعاسره ، وتحاربه وتغاضبه ، وتكدر صفوه ، وتنغص حياته ، وتسلبه الأمن والطمأنينة ، وتفجؤه بالبلايا والنكبات .

تعليق وجيز

يبدو أن هذه المقطوعة من السرنديبيات التى نظمها البارودى لما ناهز الستين، وثقلتْ عليه البلوى، واستبدّ به اليأس ، وأظلمتْ الدنيا فى عينيه حتى استطال عمرها، وتمنى زوالها ؛ لتنقضى المظالم بانقضاء المآرب والمطامع، وانقطاع التهافت والتكالب . وقد اشتد تبرّمه بالناس جاهلهم وعالمهم حتى فزع إلى الله تعالى ، واستعاذ به من شرورهم . وفى القصيدة — إلى هذا — زهد وتزهيد ، وعظة واعتبار ، وتبصير وتيئيس ؛ فالعيشة الراضية بعيدة المنال ، والدهر غير مسالم ، والسلامة لم تكتب لإنسان .

ولا ريب أن شعوره بأنه مظلوم كان يملأ جوانب نفسه، ولفائف قلبه طوال إقامته فى ذلك المنفى السحيق. وإنك لتحس هذا الشعور المتوقّد فى هذه القصيدة، وفى نظائرها من السرنديبيات الباكية المبكية .

وَقَالَ :

خَلِيلَيَّ! ، مَا فِى الدَّهْرِ أَطْوَلُ حَسْرَةً مِنَ الْمَرْءِ يَلْقَى فُرْصَةً فَيَخِيمُ[(١)]

وإنَّ امْرَءًا يَلْقَى فَوَاضِـلَ نِعْمَـةٍ بِأَرْضٍ ، وَيَنْوِى غَـيْرَهَا لَمُلِيمُ[(٢)]

---

(١) خليلى : منادى مضاف إلى ياء المتكلم . وحرف النداء ، وهو « يا» محذوف . مثنى خليل : وهو الصديق المختص الذى لا خلل فى صداقته . أو الخالص . أو الصادق الذى أصفى المودة وأصحها . تخيل الشاعر أن معه خليلين : أى صاحبين ، أوصد يقين ، أو رفيقين . وناداهما مسدياً إليهما نصحه وإرشاده . مجرياً حديثه هذا مجرى الحكم والأمثال . وهذه إحدى خصائص لغة الشعر ، وعادة الشعراء من قديم الزمان ؛ يتخيل الواحد منهم أن له رفيقاً ، أو رفيقين يصطحبانه فى غدوّه ورواحه ؛ فيتحدث إليهما ، ويصفيهما وده ، ويختصهما بنجواه ، ويفضى إليهما بسره ، ومكنون صدره ، ويمنحهما وصاياه ، وصفوة تجاربه فى الحياة . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها . ودهر فلان : مدة حياته . والحسرة : التأسف ، والحزن ، والتلهف الشديد على الشىء الفائت . والفرصة : المنفعة المشروعة ، تتهيأ لك برهة قليلة ، فإذا لم تغتنمها ندمت وتحسرت . ومن المرء : أى من حسرة المرء : أى ليس فى الوجود حسرة أطول من حسرة ذلك الذى تواتيه الفرصة ، وتتهيأ له ، فيفرّط فيها ، ويضيعها . ويخيم عن الفرصة (من باب باع) : أى يقعد عن انتهازها واغتنامها . من قولهم : خام عن القتال ونحوه ، وخام فيه : أى أحجم ، وتراجع ، وجبن ، ونكص على عقبيه .

يقول : إذا صادف المرء فرصة مواتية . فخام عنها ، ولم ينتهزها ، اشتد أسفه عليها بعد فواتها ، وطالت حسرته ولهفته . والغرض الحض على انتهاز الفرص المواتية ، وعدم التفريط فيها ، وحسن الانتفاع بها .

(٢) النعمة (بكسر فسكون) : المسرة ، والخصب ، والفضل ، والبر ، والخير ، والإحسان ، والحالة الحسنة التى يستلذها الإنسان ، وما أنعم به عليك من رزق ومال ونحوهما . والنعمة (بفتح فسكون) : الرفاهة ، والتنعم ، والتمتع ، ولين العيش ، ورغده ، وحسنه ، واتساعه ، وطيبه ، وغضارته . أوهما بمعنى واحد ، وبناء الأولى (فى الأصل) : بناء اسم الهيئة ، أو الحالة . وبناء الثانية : بناء اسم المرة . وفواضل النعمة أو النعم : كثرتها ، وزيادتها ، واتساعها ، وسبوغها ، ووفورها . ونعم فواضل : سوابغ موفورة ، عظيمة . الواحدة فاضلة. وينوى غيرها : أى يقصد أرضاً غيرها : أى يغادر الأرض التى لقى فيها فواضل النعم ، ويرتحل عنها إلى أرض سواها . ومليم : ملوم : من ألام يليم إلامة ؛ أى أتى ما يلام عليه : أى فعل ما يستحق عليه اللوم والعذل ، والتكدير بالكلام القارص المؤلم .

يقول : إذا طابت حياة المرء فى بلد ، وتوالت عليه فيها نعم الله تعالى وفواضله الجليلة — وجب عليه أن يقيم بها ، ولا يريم . فإذا تركها ، وقصد إلى غيرها كان جديراً أن يندم ، ويتحسر ، ويعذل ويلام . وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن المرتحل عن أرض أكرمته ، وأفاضت عليه من نعمها وخيراتها =

وَقَالَ :

أَخُوالْعِلْمِ فِى الدُّنْيَا لِذِى الْجَهْلِ مُحْوَجٌ ... وَكُلٌّ لَهُ عِنْـدَ الْقِيَاسِ مَعَالِمُ(١)

فلَوْلَا وُجُــودُ الْعِلْمِ مَا عاشَ جَاهِلٌ ... ولَوْلَا وُجُودُ الْجَهْلِ مَا عَاشَ عالِمُ(٢)

= وفواضلها ، كالحائم عن فرصة ثمينة مواتية ، تهيأت له ، وتيسرت ، وأمكنته ، وسهلت عليه ، فزهد فيها ، وأعرض عنها ، ولم يبالها ، ولكنه ما لبث أن تحسر ، وندم ، وأسف أسفاً شديداً بعد فواتها ؛ فالحسرة والندم والأسف ، واللوم والعذل والتأنيب يجمع هذين الشخصين ، أو هاتين الحالتين .

* * *

(١) محوج (بصيغة اسم الفاعل . أو بصيغة اسم المفعول): محتاج : من أحوج الرجل إحواجاً : بمعنى احتاج إلى غيره . أو من أحوج فلاناً إلى كذا : أى جعله محتاجاً إليه ؛ فالفعل « أحوج » يأتى لازماً ومتعدياً . ومعنى الشطر الأول : أن العالم يحتاج إلى الجاهل ، والجاهل يحتاج إلى العالم ، فلا غنى لأحدهما عن الآخر . وكل : أى وكل من العالم والجاهل . والقياس : المقايسة ، والموازنة ، والتقدير ، والاعتبار . ومعالم : خصائص ، وعلامات ، وآثار ، وصفات مميزة . جمع معلم (بوزن مذهب) .

ومعنى البيت : أن الناس جميعاً : علماءهم ، وجهالهم ، ونابهيهم وخامليهم يحتاج بعضهم إلى بعض ؛ ويتعاونون فى الدنيا على إثارة الأرض ، وعمارتها ، وجلب المنافع ، ودفع المضار . وأن المجتمع الإنسانى إنما ينتظم ويقوم على تفاوت أفراده واختلافهم ، وتباينهم فى الخصائص والمؤهلات ، والقوى والمميزات ، والطبائع والمعالم ، والمشارب والمذاهب . ومن الأقوال المأثورة : « الناس بخير ما تفاوتوا ، فإن تساووا هلكوا » . ومن الشعر الذى يتطلبه هذا المقام :

الناس للناس مــن بــدووحاضرة ... بعض لبعض – وإن لم يشعروا– خدم

والبيت الآتى يعزز هذا المعنى ، ويؤكده .

(٢) معنى البيت : أن العلم والجهل ، والقوة ، والضعف ، والغنى والفقر ، والنباهة والخمول ، والعلماء والجهال ، والأقوياء ، والضعفاء ، والأغنياء ، والفقراء ، والنابهين والخاملين . . . يحيون جميعاً فى الدنيا باختلافهم ، وتباينهم ، وتناقض صفاتهم وأحوالهم . والمجتمع الإنسانى فى حاجة إلى هؤلاء جميعاً ؛ ولا يقوم إلا على أساس هذا التفاوت والتناقض ، والاختلاف والتباين . وفى القرآن الكريم : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » (الآية رقم ٣٢ من سورة الزخرف) . أى ليستخدم بعضهم بعضاً فى حوائجهم، ويُسَخِّر بعضهم بعضاً فى مهامهم ؛ فيكون بينهم من التعاون والترافد ما ينتظم به أمر المعاش والعمران .

أو المعنى : بالعلم يحيا الجاهل ، وبالجهل يحيا العالم ، أى أن العلم يمهد وسائل العيش للناس جميعاً ، وفيهم الجهلاء . وفى رحاب العلم ، وآثاره ، وأضوائه ، وثمراته، ومنافعه يحيون حياة طيبة راغدة. والجهل =

وقالَ :

أَنَا فِي الْحُبِّ وَفِيٌّ لَيْسَ لِي بِالْغَدْرِ عِلْمُ[١]
لَا تَظُنُّوا بِيَ سُوءًا إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمُ[٢]

وَقَالَ :

أَنَا فِي الدَّهْرِ ضَائِعٌ بَيْنَ فَهْمٍ فَاتِكٍ حَــدُّهُ ، وَجِدٍّ كَهَامِ[١]

= ميدان عمل العلماء ، ومجال نشاطهم . وحياتهم إنما تقوم على مكافحته ، وتبديد ظلماته ، وتوضيح المعميات ، وكشف أسرار الكائنات ؛ فإذا ذهب الجهل لم يبق للعلماء عمل .

* * *

(١) يتمدح بأنه وفىّ لمن يحب ، محافظ على الود ، بعيد كل البعد عن الغدر ، والخيانة ، ونقض العهد. وعدم علمه بالغدر : أى جهله به : تعبير قوىّ فى نفى الغدر عن نفسه ، وتبرئة ساحته منه . والوفاء فى الحب يتضمن معنى العفاف ، والترفع عن الريب والشبهات . والشطر الثانى تأكيد لمعنى الشطر الأول . ومن فخريات البارودى فى إحدى لامياته :

فما يمر خيال الغــدر فى خلــدى ولا تلوح سمات الشر فى خالى
قلبى سليم ، ونفسى حرة ، ويدى مأمونة ، ولسانى غير ختــال

(٢) الإثم : الخطيئة ، والذنب . والشطر الثانى مقتبس من القرآن الكريم . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، اجتنبوا كثيراً من الظن ؛ إن بعض الظن إثم » (الآية رقم ١٢ من سورة الحجرات) . وإثم : أى مؤثم: أى موقع فى الإثم. والاقتباس من المحسنات البديعية اللفظية: وهو أن يضمّن الأديب كلامه شيئاً من القرآن الكريم . أو الحديث النبوى الشريف ، لا على أنه منه ، بقصد تزيين الكلام وتحسينه ، ومضاعفة تأثيره ، ورفع منزلته فى درجات البلاغة والبيان . وصلة الشطر الثانى بالشطر الأول أن ظن السوء من الخطايا والآثام ؛ لأنه مجرد تهمة ، أو توهّم لا يستند إلى دليل قاطع ، ولا يقوم على أمارة صحيحة ، أو سبب ظاهر ، مع كون المظنون به ممن شوهد منه التستر والصلاح ، وأونستْ منه الأمانة والوفاء فى ظاهر أمره . وفى الحديث النبوى الشريف : « إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه ، وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

وصلة هذا البيت بالبيت الذى قبله : أنه إذا كان الوفاء فى الحب ، والبعد عن الغدر من أخلاق المحب كان معنى هذا أن حبه عذرىّ عفيف؛ فلا ينبغى أن يسىء أحد به الظن ، ويجرى وراء الأوهام والترهات ، ويرميه فى حبه بالريب والشبهات ؛ فإن هذا كله من ظن السوء ، أى الظن المذموم الذى يأثم صاحبه ، ويستحق به العقاب من الله رب العالمين .

* * *

(١) حد كل شىء : شباته ، وحدته ، وطرفه الرقيق الحاد القاطع ، كحد السيف والسكين ونحوهما. =

حُـزْتُ عِلْمًا ، وَمَا رُزِقْتُ قَبُولًا ... فَكَأَنِّى مجَـلَّةُ الْأَحْـكَامِ[٢]

وَقَالَ :

إِذَا مَا كَتَمْتُ الْحُبَّ كَانَ شَرَارَةً ... وَإِنْ بُحْتُ بِالْكِتْمَانِ كَانَ مَلَامَا[١]

= وحد فاتك : أى ماض ، قاطع ، بتار . من قولهم : فلان فاتك القلب : إذا كان جريئاً ماضياً . وفهم فاتك حده : أى فهم حاد ، قوىّ ، نشيط ، واسع ، راجح ، ثاقب ، فائق . والجد (بفتح الجيم) : الحظ ، والبخت . وجد كهام : حظ سيئ عاثر . من قولهم : سيف كهام : أى كليل ، لا يقطع . وضده الحاد الباتر .

يقول : إنه — فى حياته — ضائع ، أى غير سعيد ، ولا مجدود ، ولا محظوظ ، على الرغم من حدة فهمه ، وتوقد ذهنه ، وفائق فطنته ، وفرط ذكائه . وإنما ضيعه ، وحرمه السعادة فى حياته كهامة جده ، وتعثر حظه . وفى البيت أن حدة الفهم لا تسعد الفهّامة إلا إذا قارنها حسن حظه ، فإذا اجتمع عليه فرط الذكاء وكهامة الجد شقى بينهما ، وخسر ، وتعس ، وضاع . والبيت الآتى يؤكد هذا المعنى . ويفصّله ، ويمثّله .

(٢) لم يرزق القبول لكهامة جده ، وتعثر حظه. والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، والكراسة ، والكتاب . وتطلق فى عصرنا على كل صحيفة عامة ، أو متخصصة فى فن من الفنون ، تظهر فى فترات معينة ، بخلاف الصحف اليومية . والأحكام : جمع حكم (بضم فسكون) : مصدر حكم بالأمر . وحكم بينهم : أى قضى ، وفصل . والمراد مجلة الأحكام القضائية .

فى البيت السابق شكا ضياعه وشقاءه بين حدة فهمه وكهامة جده . وفى هذا البيت تأكيد وتمثيل لهذه الشكوى ؛ فإنه — مع حدة فهمه ، وغزارة علمه ، واتساع معارفه — يعاسره سوء حظه ، فلا يجد من الناس ما يكافئ فضله ومزاياه من القبول والرضا ، والإقبال والاحتفال . مثله فى هذا مثل مجلة الأحكام القضائية ؛ فإنها تعنى كل العناية بدراسة القضايا التى تنشرها ، وتستقصى ما يتصل بها من الحقائق العلمية ، والدراسات القانونية والاجتماعية ، والملابسات الشخصية والنفسية ، ولكنها مع هذا كله لا تلقى من جماهير القراء ما تستحقه من الإقبال والارتياح والانتشار والرواج .

* * *

(١) الشرارة : واحدة الشرار : وهو ما يتطاير من النار . وأجزاء صغيرة متوهجة ، تنفصل عادة من جسم يحترق . ويراد بالكتمان فى الشطر الثانى : الحب المكتوم . والملام : اللوم والعذل . وكان ملاماً : أى كان البوح بالحب المكتوم سبب العذل والملامة .

يقول : إنه إذا كتم حبه وغرامه ، وأخفى فى قلبه وجده وهيامه أججه الكتمان ، وضاعف لوعته وحرقته . وإن نفّس عن نفسه ، فباح بشىء منه ، وشكا تولّهه وصبابته كشف بشكواه المستور من أمره ؛ فتصدى لعذل العاذلين ، وتكدّر بملامتهم .

فَكَيْفَ احْتِيَالِي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَشْكَلَا عَلَيَّ ، فَصارَا شِقْوَةً وَغَـرَامَا ؟[٢]

وَقَالَ بَعْدَمَا اسْتَقَالَ مِنْ وَزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ * ، يَذُمُّ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ :

مَالِي بِوُدِّكَ بَعْدَ الْيَـوْمِ إِلْمَـامُ فَاذْهَبْ ؛ فَأَنْتَ لَئِيمُ الْعَهْدِ نَمَّامُ[١]

---

(٢) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى . وهو مع النفى ينمّ على الحيرة ، والضجر ، والضيق ، والأسف ، أى لا حيلة له فى التوفيق بين هذين الأمرين : وهما كتمان الغرام ، مع حسن احتماله ، أو إظهاره للتخفيف عن نفسه ، مع اتقاء ملامة اللائمين . واحتال احتيالاً : طلب الشىء ، أو عالجه بالحيلة : وهى الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور . والأمر : الشأن ، والحال ، والشىء . وأشكلا : خفيا ، والتبسا ؛ فصعب علاجهما ، والتوفيق بينهما . والشقوة (بكسر الشين وفتحها) : الشقاء ، والشدة ، والعسر ، والحرج . ومثلها الشقاوة . وضدها السعادة . والغرام : العذاب الدائم الملازم . والشر ، والشدة ، والمصيبة ، والهلاك . وفى القرآن المجيد ، فى وصف جهنم : « إن عذابها كان غراماً » (الآية رقم ٦٥ من سورة الفرقان) .

يقول : إنه لا حيلة له فى علاج أمرين أشكلا عليه ، وهما كتمان الحب مع حسن احتمال أوصابه ، أو إظهاره مع اتقاء ملامة اللائمين ، وعذل العذّال ، ومعاسرة الحاقدين والحاسدين ؛ فهما أمران ملتبسان معضلان ، تظاهرا عليه ، وغلبا حذقه ، وتدبيره ، واحتياله ، وكانا سبب شقاء وتعس ، وشر دائم ، وعذاب واصب لا يكاد يفارقه .

* * *

* فى غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ (السادس من فبراير سنة ١٨٨١م) عزل الخديو « توفيق » « عثمان رفقى » وزير الحربية فى وزارة « مصطفى رياض » ، وأسند هذه الوزارة إلى « محمود سامى البارودى » فى مستهلّ الثورة العرابية ؛ فسار فى عمله سيرة وطنية خالصة ، واجتهد فى تنقية الجو ، وإقامة العدل ، وإصلاح المفاسد . وفى ٢٥ من رمضان سنة ١٢٩٨هـ (٢ من أغسطس سنة ١٨٨١م) اضطر إلى الاستقالة من وزارة الحربية ، ووزارة الأوقاف التى كانت معه من قبل ، بسبب السعايات والنمائم التى اتهمتْه بأنه ضالع مع « أحمد عرابى » وجماعة الضباط الثائرين . ويبدو أنه أجبر يومئذ على مغادرة القاهرة ، والإقامة فى ضيعته بقرقيرة ، وهى إحدى قرى مركز « أجا » دقهلية . ولا ريب أن هذه الاستقالة ، أو الإقالة قد أصابتْه إصابة بالغة فى أمانيه الشخصية ، ومهمته الوطنية ؛ ولهذا اشتدتْ ثورته النفسية ، واشتدّ سخطه على من سعى به ؛ فهجاه بهذه الميمية المقذعة اللاذعة .

(١) الود(بتثليث الواو) : المودة والمحبة . وألمّ بالقوم إلماماً : أتاهم ، فنزل بهم ، وزارهم زيارة غير طويلة . ومعنى الشطر الأول : أن الشاعر لن يمنح المهجو مودته وثقته بعد اليوم ، ولن يقبل منه التودد ؛ فهى قطيعة أبدية دائمة . وفى الشطر الثانى تفسيرها وتعليلها . والعهد : الموثق ، والوفاء ، والذمة ، ورعاية الحرمات والمودات . وفى الحديث : « إن كرم العهد من الإيمان » . وكرم العهد : رعاية المودة . وضده لؤم العهد : أى إهمال المودة ، وخيانة الموثق ، والغدر بمن عاهدك وواثقك ، واعتمد عليك ، =

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَدْرَكْتُ مَأْرُبَةً ... مِنَ الْمُنَى، فَإِذَا ما خِلْتُ أَحْلَامُ(٢)

هَيْهَاتَ مِنِّي الرِّضَا مِنْ بَعْدِ تَجْرِبَةٍ ... إِنَّ الْمَوَدَّةَ بَينَ النَّاسِ أَقْسَامُ(٣)

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي؛ إِنَّنِي رَجُلٌ ... يَأْبَى لِيَ الْغَدْرَ أَخْوَالٌ وَأَعْمَامُ(٤)

كُلُّ امْرِئٍ تَابِعٌ أَعْــرَاقَ نَبْعَتِهِ ... وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ أَنْسَابٌ وَأَرْحَامُ(٥)

= واطمأن إليك . ورجل لئيم العهد: أى لا يرعى عهداً ، ولا يحفظ وداً ، ولا يفى لمعاهد . ونمام : صيغة مبالغة من النميمة: وهى اسم من نم الحديث : أى قتّه ، وسعى به ليوقع فتنة ، أو وحشة ، وقطيعة وإفساداً بين الناس (وفعله من بابى قتل وضرب) .

قاطع الشاعر ذلك المهجو ، وقال : إنه لن يتودد إليه بعد اليوم ، ولن ينخدع بظواهر وده ؛ فقد عرف بالتجربة المرة أنه لئيم غادر ، شيمته النميمة ، وخيانة العهد .

(٢) أحسبنى: أظننى . والمأربة (مثلثة الراء) : البغية ، والأمنية . أو الحاجة . والمنى : الأمانى والآمال . الواحدة منية (بضم فسكون) . وخلت : حسبت وظننت . والأحلام : جمع حلم (بضم فسكون ، أو بضمتين) : وهو رؤيا النائم .

عرف الشاعر هذا المهجو ، واتصل به فى الوزارة اتصال صحبة ومودة ، ووثق به ، واطمأن إليه ، وظن أنه بهذا الاتصال قد اكتسب صاحباً وفياً ، وحقق بصحبته شيئاً من مآربه ومطالبه فى الحياة ، وشيئاً مما يأمله الوطن ويرجوه بتعاون الوزراء والمسئولين والقادة من أبنائه ، فإذا ظنه وهم وهباء ، وإذا صاحبه هذا غادر لئيم ، هادم نمام ، مراوغ مخادع ، لا وفاء له ، ولا قيمة عنده للعهود والذمم والمواثيق .

(٣) هيهات : اسم فعل ماض مبنى على الفتح : بمعنى بعد ، فهى كلمة تبعيد . ومن العرب من يكسرها. ومنهم من يضمها؛ فهى مثلثة التاء . وجربه تجريباً وتجربة : اختبره مرة بعد أخرى . وأقسام : جمع قسم (بكسر فسكون) : وهو الحصة ، والنصيب ، والجزء من الشيء المقسوم .

والشطر الأول من هذا البيت فى معنى الشطر الأول من البيت الأول ؛ فالشاعر يجهر بشدة سخطه على المهجو ، ويؤكد إصراره على مقاطعته ، ويقول : إنه لن يرضى عنه بعد ما جربه من نفاقه وغدره ولؤمه وخداعه ، وسوء صحبته ، وكذب وداده . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . ومعناه : أن المودة بين الناس تختلف باختلافهم : فمنها ما يقوم على الصدق والإخلاص . ومنها ما يقوم على الخداع والتدليس ، فهى أقسام وأنواع شتى متباينة . وصلته بالشطر الأول أن مودة المهجو للناس من النوع الكاذب المزيف .

(٤) مازال الشاعر يؤكد إصراره على مقاطعة المهجو ، والنفور من مصاحبته . وفى البيت تعريض بغدره وخيانته ، وفخر من الشاعر بإبائهما ، والترفع عنهما ، وتمجيد لأخواله وأعمامه ، أى أصوله من جهتى أمه وأبيه ؛ فإنهم أورثوه هذا الإباء ، والترفع عن الدنايا والنقائص ، والحرص على الفضائل والمحامد .

(٥) الأعراق : الأصول : جمع عرق (بكسر فسكون) . والنبعة : واحدة النبع : وهو شجر ينبت فى قلل الجبال ، تتخذ منه القسىّ والسهام . ومن المجاز : فلان من نبعة كريمة : أى من أصل كريم =

فَانْظُرْ لِفِعْلِ الْفَتَى تَعْرِفْ مَنَاسِبَهُ إِنَّ الْفِعَالَ لِأَصْلِ الْمَرْءِ إِعْلَامُ(٦)

ولَا يَغُرَّنْكَ وجْهٌ رَاقَ مَنْظَرُهُ فَالنَّصْلُ فِيهِ الْمَنَايَا وَهْوَ بَسَّامُ(٧)

= ومعنى الشطر الأول : أن كل إنسان يتبع أصول أسرته ، ويجرى فى الخير والشر ، والمناقب والمثالب على ما ورثه من محتده وآبائه . والأنساب : القرابات : جمع نسب (بوزن سبب) . والأرحام : جمع رحم : وهى القرابة . أو أسبابها . أو أصلها (يذكّر ويؤنث) .

والمعنى : أن كل إنسان يصدر فى أفعاله وأقواله ، وتصرفاته ومعاملاته عن أصله ومحتده ؛ فهو فى هذا كله متأثر بنبعته ، مشدود إلى منبته ، تابع لعرقه ، متصل ببيئته ، مرتبط بها فى تربيته الأساسية ، لا يحيد عن هذا كله ، ولا يكاد يخالفه . ولا ريب أن الناس معادنهم مختلفة ، وأعراقهم متباينة ، وأخلاقهم وأعمالهم تنم على معادنهم وأصولهم ، وتكشف نبعاتهم وأعراقهم ، « وكل إناء بالذى فيه ينضح » . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . وفيه تفصيل وتوضيح وتأكيد لمعنى الشطر الأول ؛ فشرار الناس وأراذلهم تجمعهم مشابه وميول وعلاقات . وخيارهم وأماثلهم تربطهم مبادئ ومُثُل واتجاهات . والخير والشر كذلك ؛ فبين الخيرات أواصر وأرحام وأنساب . وبين الشرور صلات وروابط وقرابات . والبيت الآتى يؤكد هذا المعنى .

(٦) مناسبه : أصوله وأعراقه ، وقوم كرام المناصب والمناسب : أى كرام الأصول والأعراق . والفعال : جمع فعل (بوزن ظل وظلال) . أو هو الفعال (بفتح الفاء) : مصدر فعل (كذهب ذهاباً) . والفعال (بوزن الكلام) : الوصف الحسن ، والوصف القبيح . والفعل يكون فى الخير ، أو فى الشر . وإعلام (بكسر الهمزة) : إظهار ، وإبانة : مصدر أعلمه : أى عرفه ، وأبانه . أو جعل له علامة يتميز بها ويظهر . أو هى أعلام (بفتح الهمزة) : جمع علم (بفتحتين) : وهو العلامة المميزة .

وهذا البيت توضيح وتعزيز لمعنى البيت السابق ؛ فإن أعمال المرء وتصرفاته تنم على أصله وعرقه . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول .

(٧) لا يغرنك : لا يخدعنك . ويراد بالنهى : النصح والإرشاد . والبيت كله يجرى مجرى الحكم والأمثال ، وكذا البيت الذى يليه . غره (من بابى رد وقعد) : ختله ، وخدعه ، وأطمعه بالباطل . وراق (من باب قال) : صفا ، وحسن . وراقنى الشىء : أعجبنى . ونصل الرمح والسيف والسهم والسكين ونحوه : حديدته . أوحده الذى يقطع ويجرح ويقتل . والمنايا : جمع المنية : وهى الموت . والواو بعدها : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وبسام : لامع ، رائق ، صاف ، براق ، جذاب ، خلاب . وأصله صيغة مبالغة من بسم (من باب ضرب) : أى انفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكا بدون صوت . والبسم : أخف الضحك ، وأقله ، وأحسنه . ومثله الابتسام .

يحذّر الاغترار بالمخادعين من الناس ، الذين يلقونك بوجوه رائقة باسمة ، مستبشرة ، مشرقة وهم يضمرون لك الشر والأذى ، والحقد والبغضاء . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فالنصال تبدو لك لامعة براقة ، وهى مع لمعانها وبريقها الخادع أدوات قتل وفتك ، =

مَا كُلُّ ذِى مِنْسَرٍ فَتْخَاءَ كَاسِرَةً ... كَلَّا ، وَلَا كُلُّ ذِى نَابَيْنِ ضِرْغَامُ(٨)

فَإِنْ يَكُنْ غرَّنِى حِلْمِى فَلَا عَجَبٌ ... إِنَّ الْحُسَامَ لَيَنْبُو وَهْوَ صَمْصَامُ(٩)

= وبطش وإهلاك. وصلة هذا البيت بموضوع هذه القصيدة أن المهجو من الخادعين الخاتلين، وقد خدع الشاعر برهة بوده الكاذب ، وظاهره الخلاب .

(٨) المنسر (بوزنى المقود والمجلس) : للطائر الجارح : مثل المنقار لغير الجارح . والفتخاء : العقاب اللينة الجناحين : وهى من الطيور الكاسرة الجارحة؛ قوية المخالب، مسرولة ، لها منقار قصير أعقف ،هو منسرها . وبصرها حاد، يضرب المثل بحدته وقوته . وكاسرة : صفة لفتخاء : اسم فاعل من كسر الطائر جناحيه : إذا ضمهما وهو يريد الوقوع . و« فتخاء » بالنصب : خبر « ما » العاملة عمل « ليس » كما فى قول الله تبارك وتعالى : « ما هذا بشراً » (الآية رقم ٣١ من سورة يوسف) . ومن العرب من يهملها . وعلى هذا تكون « فتخاء» مرفوعة على أنها خبر المبتدأ « كل » . و« كلا» : حرف معناه الردع والزجر . أو هو بمعنى « حقا» لتأكيد ما قرره فى الشطر الأول . أو هو للاستفتاح والتنبيه . أو هو حرف جواب بمعنى « نعم » . والناب : السن بجانب الرباعية . يذكّر ويؤنث . وللإنسان نابان فى كل فك . قيل : ولا يجتمع فى حيوان ناب وقرن . والضرغام : الأسد الضارى الشديد .

استخدم الشاعر أسلوب النفى والتنبيه المشدد ، والردع والزجر ؛ فكف المغتر بكل ذى منسر أن يحسبه فتخاء كاسرة ، كما منع المخدوع بكل ذى نابين أن يظنه أسداً ضارياً ؛ أى لا تغرنك الظواهر ، وابحث عن الحقائق الكامنة وراءها لتميز الخبيث من الطيب ؛ فالبيت وثيق الاتصال بالذى قبله ، مؤكد لمعناه . وأربعة الأبيات الآتية تحمل ندم الشاعر على ما كان من حسن ظنه بالمهجو ، واغتراره بظاهر أمره .

(٩) الحلم : العقل ، والأناة . وقد يراد به الحزم ، وضبط الأمر وإحكامه ، والأخذ فيه بالثقة . وضده الخفة والنزق ، والطيش والسفه ، والحمق والجهل . والحسام : السيف الماضى القاطع البتار . ونبا السيف عن الضريبة (من بابى عدا وسما) : أى لم يصبها . وسيف صمصام: قاطع ماض، لا ينثنى . وجملة « وهو صمصام » : جملة حالية .

والمعنى : أنه فى حقيقة أمره ، وغالب أحواله يقظ محترس ، حازم واع ، محتاط لنفسه ، وأن حلمه معه على الدوام يبصّره ويهديه ، ويحفظه ويقيه . وأن اغتراره بالمهجو برهة كان من السقطات القليلة النادرة التى لا تثير العجب ، ولا تدعو إلى الدهش . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . وفيه تأكيد لمعنى الشطر الأول . وفيه فخر ضمنى بحلمه . واعتذار عن سقطته أو خطئه فى تقدير المهجو ، وانخداعه برهة بظواهره الخادعة الكاذبة ، وتقصيره فى كشف حقيقته ، وتعرّف ما انطوت عليه نفسه من السوء والضغينة . إن خطأ الشاعر فى هذا الصدد كان من الأخطاء القليلة النادرة التى لا تعيبه ، ولا تنقص كفايته وقوته . إنه كبوة جواد سبّاق ، ونبوة حسام صمصام . وكأن الشاعر أراد بهذا البيت أن يعزى نفسه ، ويخفف عنها ما ساورها من الأسف والندم ، والغيظ والكمد بعد أن غره المهجو وخدعه بزائف مظهره .

ظَنَنْتُ خَيْرًا ، وَلَمْ أُدْرِكْ عواقِبهُ فكَان شرًّا . وَبَعْضُ الظَّنِّ آثامُ(١٠)
فَيَا لَهَا ضِلَّةً ! ما إنْ أَبِهْتُ لَهَا حَتَّى تَرَدَّتْ بِها فِى الشَّرِّ أَقْدَامُ(١١)
آلَيْت أَكْذِبُ نَفْسِى بَعْدَهَا سفَهًا إنَّ الْمُنَى عِنْدَ صِدْقِ النَّفْسِ أَوْهَامُ(١٢)

---

(١٠) ولم أدرك عواقبه .. أى ولم أفطن لنتائج هذا الظن : أى ظننت بالمهجو الخير والإخلاص وصدق الوداد . وقدرت سلامة العواقب ، فكان ظنى شراً : أى خاطئاً سيِّئ العواقب ؛ إذ عاد علىّ بغدر المهجو وأذاه ونميمته ولؤم عهده . وهذا قريب من قوله فى البيت السابق : « غرنى حلمى » . والآثام : جمع الإثم : وهو الخطيئة والجريرة والذنب .

فى البيت السابق قال : إن حلمه اغترّ وغره ؛ ولكن غفلته واغتراره كانا كبوة جواد ، ونبوة صمصام . وفى هذا البيت معنى التحسر والأسف والندم ، ولوم النفس التى أحسنت الظن بالمهجو ، ولم تفطن لعواقب ظنها إلا بعد التجربة المرة التى كشفت فساد طويته ، ولؤم عهده . والجملة الاسمية فى نهاية البيت : « وبعض الظن آثام » تؤكد هذا المعنى ؛ فإن ظنه بالمهجو كان من الظنون الآثمة الخاطئة بما جره عليه من سوء العقبى ، وشر الجزاء . والبيت الآتى يردد هذا المعنى ، ويعززه ويؤكده .

(١١) « ياالها » : أسلوب تعجب : أى ياعجبا لها : أى للضلة (بكسر الضاد) : بمعنى الضلال ، ومثلها الضلة (بفتح الضاد) : اسم مرة منه . ولا ريب أن الشاعر حينما أحسن ظنه بالمهجو كان ضالاً بعيداً عن الهدى والرشاد ، غير موفق للقصد والسداد . و « إن » زائدة بعد «ما» النافية . وأبه له . وأبه به (كمنع ، وفرح) : أى فطن له ، وتنبه ، أو اهتمّ به . ولها : للضلة ؛ أى لما كان فيه — بسبب حسن ظنه — من غفلة وتجاف عن الصواب . وتردت : هوت وسقطت . وبها : أى بسبب الضلة .

يقول : إنه لما أحسن الظن بالمهجو ، ووثق به ، واطمأن إليه لم يكن على هدى ورشاد ، وإنما كان فى خطإ وضلال ، ولم يفطن لهذا الضلال إلا حينما تردى فى شر المهجو ، وأوذى بسعايته ونميمته ، واستبان له غدره ولؤم عهده . وقد أكد هذا المعنى بالتعجب الذى أثارنفسه ؛ فافتتح به البيت . وفيه معنى التحسر والندم على حسن ظنه بالمهجو .

(١٢) آلى إيلاء : أقسم وحلف . وأكذب نفسى : أى لا أكذبها ؛ فالكلام هنا منفى بتقدير حرف النفى ، وهو « لا » وكذبته نفسه : أرته مالا حقيقة له . وكذب نفسه ، وكذبته نفسه : إذا حدثها وحدثته بالأمانى البعيدة ، والأمور التى لا يبلغها وسعه ، ولا تصل إليها مقدرته ، وما لا يكاد يتحقق من الآمال ؛ فالكذب هنا : الحديث النفسى المبنى على التخيل والإيهام . وبعدها : أى بعد هذه الضلة ، والتجربة المرة . وسفهاً : أى بسبب السفه ، ومن أجله . أى أقسمت لا أحدث نفسى بعدها حديث السفه والضلالة . والسفه : الخفة والطيش ، والنزق ، والجهل ، والحماقة ، ونقص العقل ، وسوء التصرف . ومنه التعلق بالأوهام والترهات ، والجرى وراء الآمال الكاذبة ، والانخداع بالأخيلة الخادعة . وضده الحلم . والمنى : الأمانى والآمال . الواحدة منية . والأوهام : جمع الوهم (بوزن الوعد) : وهو ما يقع فى الذهن ، وما يخطر بالخلد ، أى البال أو القلب من الخواطر والهواجس . أو هو مرجوح طرفى المتردد فيه ؛ فالوهم أضعف من الظن . (وفعله من باب وعد) . =

فيَا بْنَ مَنْ تَزْدَرِيهِ النَّفْسُ مِنْ ضَعَةٍ ... فَمَا يُحَسُّ لَهُ وَجْدٌ وَإِعْدَامُ (١٣)

دَعِ الْفَخَارَ ، وَخُذْ فِيما خُلِقْتَ لَهُ ... مِنَ الصَّغَارِ ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ إِلْزَامُ (١٤)

وَاذْكُرْ مَكَانَكَ مِنْ «عَبَّاسَ» حَيْثُ مَضَتْ ... عَلَيْكَ فِى الدَّارِ أَعْوَامٌ وَأَعْوَامُ (١٥)

= أقسم ألا يحدث نفسه بعد هذه الصلة بالأمانى البعيدة الكاذبة، وألا يقبل منها مثل هذا الحديث الذى يشبه السفه ، أو يتصل به . واعتزم أن يأخذها على الدوام بالحيطة والحذر ، وسوء الظن العاصم من الزلل والضرر ، وصمّم أن يجرى فى تصرفاته ومعاملاته واتصالاته بالناس على منهج الحلم والحكمة والاحتراس.
والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فحديث النفس وأمانيها — حتى مع صدقها — أوهام وهواجس وخواطر نفسية قلما تصحّ أو يتحقق منها شىء . وصلة هذا البيت بالذى قبله واضحة وثيقة ؛ فإن الضلة التى تردى بها فى شر المهجو — لم تصبه إلا لتعلق نفسه بالآمال الكاذبة ، والأوهام الخادعة .

(١٣) تزدريه النفس : تحتقره ، وتتهاون به ، وتستصغره . و « من » : تعليلية ، كما فى قول الله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا » (الآية رقم ٢٥ من سورة نوح). والضعة (بفتح الضاد وكسرها) : الذلة ، والمهانة ، والخسّة، والدناءة . ورجل وضيع : أى دنىء حقير ، ساقط، لا قدر له . ويراد بالوجد والإعدام : الوجود والعدم . ولم نجدهما صريحين بهذين المعنيين فيما بين أيدينا من المعجمات .

اشتدّ الغضب بالشاعر ، وتأجّجت ثورته النفسية؛ فامتدّ هجاؤه فى هذا البيت إلى والد المهجوّ ، وزعم أن الناس يزدرونه ويحتقرونه لخسته وضعته وانحطاط شأنه ، ولا يكادون يشعرون به لحقارته وتفاهته ؛ فوجوده وعدمه فى نظرهم سيّان .

(١٤) دع : اترك . والفخار (بفتح الفاء) : اسم من فخر الرجل (من باب نفع) : أى زهى وتكبر . أو افتخر بما فيه ، أو فى آبائه من مزايا ومكارم ، ومناقب ومحاسن ، وحسب ونسب ونحو ذلك . أو هى الفخار (بكسر الفاء) : مصدر فاخره مفاخرة . وخذ : أمر من أخذ فى الأمر : أى شرع فيه ، وزاوله ، وباشره . وأخذ به : أمسك به . وعلى هذا تكون « فى » : بمعنى « الباء » . وخلقت له : طبعت عليه : أى جبلت ، وفطرت : يريد أن الصغار ، والذل ، والضيم ، والضعة ، والهوان مركوز فى خلقته وطبعه وجبلته وفطرته . و« من» : بيانية ؛ فما بعدها بيان لما قبلها . وألزم الشىء : أثبته وأدامه . وألزمه الشىء إلزاماً : أوجبه عليه ، وأثبته له ، وأدامه . ومعنى « الطبع إلزام » : « أن المهجو طبع على الصغار ، فلزمه ، ووجب له ، وثبت فيه ثبات الطبائع والسجايا والغرائز والجبلاّت ؛ فلا يكاد يفارقها ، ولا تكاد تفارقه .

يقول للمهجو : لا تحاول الزهو ، أو التعاظم ، أو الفخر ؛ فإنك لن تجد ما تفتخر به ؛ فاستمسك بما خلقت له ، وطبعت عليه من الصغار والهوان ؛ فإنه لا مناص لك منه ، ولن يستطيع امرؤ التخلى عن طبيعته وجبلّته .

(١٥) عباس الأول بن طوسون بن محمد على، رأس الأسرة المحمدية العلوية التى حكمت مصر =

تَبِيتُ مُرْتَفِعًا فِى ظِلِّ دَسْكَرَةٍ لِكُلِّ بَاغٍ بِهَا وجْدٌ وَتَهْيَامُ(١٦)

وَفَوْقَ ظَهْرِكَ لِلْأَنْفَاسِ مُعْتَرَكٌ وفِى حَشَاكَ لِنَارِ الْفِسْقِ إِضْرامُ(١٧)

= زهاء قرن ونصف قرن منالزمان (١٤٨ سنة) . ولد عباس الأول بجدة من بلاد الحجاز سنة ١٨١٦م وتدرب فى الشام على الأعمال الإدارية والحربية ، تحت إمرة عمه إبراهيم . ثم تمرس بهذه الأعمال فى مصر حيث عيّنه جده حاكما للقاهرة . وكان لا يألف الأجانب ، وينزع إلى الاستبداد بالحكم ، والتباعد عن الشعب ، والمحافظة على القديم ولو كان غير صالح . ولما ارتقى عرش مصر ، وتولى حكمها فى نوفمبر سنة ١٨٤٨ بعد وفاة عمه إبراهيم — كانت سياسته فى جملتها رجعية ، تتجافى عن الحكمة والسداد . ومما يحمد له تخفيف الضرائب ، وتوفير الأمن والطمأنينة ، والاستقرار والرخاء للفلاح فى أرضه . وقد مات مقتولاً فى قصره ببنها سنة ١٨٥٤ وعباس : علم مصروف : أى منون . وإنما منع من الصرف ، أىمن التنوين فى هذا البيت اضطراراً لسلامة وزن الشعر .

يقول : إن المهجو كان فى عهد عباس الأول خاملاً ساقطاً ، منزوياً فى داره ، لا يكاد يفارقها ، ولا يكاد يحس به أحد . وقد لبث زماناً طويلاً فى هذا الخمول والانزواء .

(١٦) مرتفعاً : حال من فاعل « تبيت » : إشارة إلى الكراسى المرتفعة التى يجلس عليها روّاد الحانات . أو لعلها محرّفة عن « مرتفقاً » أى تبيت متكئاً على مرفقك (بوزن منبر ، أو مجلس) : وهو موصل الذراع بالعضد . والدسكرة : كلمة فارسية من معانيها : بيوت يكون فيها الشراب والملاهى . وبناء كالقصر ، حوله بيوت يجتمع فيها الشُّطّار : أى الخبثاء الفجّار . وظل الدسكرة : سواد الحانة (وهى حانوت الخمّار) : أى ضوءها الضعيف الخافت . أو ظلّها : كنفها ، وجانبها : أى تبيت مرتفعاً فى ركن من أركانها ، أو زاوية من زواياها . والباغى : الظالم ، الفاسد ، الفاجر ، المفسد ، الفاسق. وبها : بالدسكرة . والوجد : الحب ، والفرح . والتهيام : الحبّ الشديد ، والولوع بالشىء ، وشدة التعلق به .

هجاه بأنه مدمن خمر ، مستهام بالحانات وبيوت اللهو والشراب ، يبيت فيها طوال ليله مرتفقاً ارتفاق السُّكارى ، متكئاً اتكاء الخزى والعار ، ينادم أمثاله من الشطار الفسقة البغاة الفجار .

(١٧) الأنفاس : جمع نفس (بفتحين) : كناية عن المتنفسين من الرجال . ومعترك : مصدر ميمى . أو اسم مكان من الاعتراك : وهو الازدحام والتدافع . والشطر الأول : كناية عن أن المهجو مأبون ، مهتّك العرض . والحشا : ما انطوت عليه الضلوع ، وما حواه البطن . وجمعه أحشاء . والفسق : الخروج عن طاعة الله ، والاستخفاف بأوامره تعالى ونواهيه ، ومجاوزة حدود الشرع . والإضرام : مصدر أضرمت النار : أى أوقدتها ، وأشعلتها .

رمى المهجو بالأُبنة وتهتك العرض . وصوّر شدة فسوقه وإغراقه فى الفجور بالنار المتوقدة الملتهبة التى لا يفتأ الشيطان يشعلها ويؤججها . والبيت كله إقذاع فى الهجاء .

وَيْلُمِّهَــا خِزْيَةً طارَتْ بِشُنْعتِها صَحَائِفٌ ، وجَرَتْ بِالذَّمِّ أَقْلَامُ(١٨)

فَاخْسَأْ ، فَمَا الْكَلْبُ أَدْنى مِنْكَ مَنْزِلَةً وَ «اخْسَأْ» لِمِثْلِكَ إعزَازٌ وَإِكْرَامُ(١٩)

هَـٰذَا الَّذِى تكْرَهُ الْأَبْصارُ طَلْعَتَهُ فَحَظُّها مِنْهُ إِيذَاءٌ وَإِيــلَامُ(٢٠)

---

(١٨) الويل : الهلاك . وحلول الشر . وكلمة عذاب ، وتفجيع ، وإيجاع ، وإيلام . وويلمه : كلمة مركبة . والأصل : ويل لأمه . يريدون الدعاء عليه . ثم استعمل فى التعجب . وويلمها خزية : أسلوب تعجّب وتعجيب من خزية المهجو (بكسر الخاء ، وفتحها) : وهى البلية ، والفضيحة الّتى وقع فيها . وتعرب تمييزاً للضمير قبلها ، وهو « ها» . وفعلها خزى (بوزن رضى) : أى وقع فى بلية وشر ؛ فافتضح بذلك ، وذل ، وهان . والشنعة (بضم فسكون) : القبح الشديد الفظيع الفاضح . وطارت بشنعتها : أى شهرت الخزية . وأعلنتها ، وأذاعتها ، ونشرتها . وفاعله « صحائف» : جمع صحيفة .

فى خمسة الأبيات السابقة (١٣ — ١٧) إقذاع فى الهجاء ، وتنديد شديد بالمهجو ، وتصريح بمقابحه ومناقصه ، وتهتكه ، وتفريطه فى عرضه ، واستهتاره بالشراب ، وولوعه بالفسوق ، وافتضاح أمره ، وانكشاف مساويه . وفى هذا البيت تأكيد لهذا الافتضاح ، وتعجّب وتعجيب من مخازيه الشنيعة الفظيعة الّتى أذاعتها الصحف ، وجرت بذمها الأقلام .

(١٩) اخسأ : أمر من خسأ الكلب (كمنع ، وخضع) : أى بعد ، كانخسأ . وخسأه : طرده ، وأبعده . ويقال : اخسأ عنّى : أى ابتعد . وتحمل هذه الكلمة — مع الإبعاد والطرد — معنى الإذلال ، والإهانة ، والتحقير ، والاستخفاف والعقاب . وأدنى : اسم تفضيل بتسهيل الهمزة : من دنؤ دناءة : أى صار دنيئاً : أى ذليلاً ، خسيساً ، حقيراً . أو من الدنوّ : بمعنى القرب . ويراد به هنا انحطاط المنزلة : وهى المرتبة ، والمكانة .

انحط المهجو فى نظر الشاعر إلى منزلة الكلب ، فأبعده وطرده بالكلمة الّتى يطرد بها الكلب ، وهى «اخسأ» قائلاً : إن الكلب ليس أدنأ من المهجو ، ولا أحقر ، ولا أقل منه منزلة . ولكنه ما لبث فى الشطر الثانى أن بالغ وتزايد فى الهجاء ، فجعل المهجو أذل من الكلب وأخس . ورأى كلمة « اخسأ» قليلة لا تكافئ خسته ودناءته ، بل رآها لمثله إعزازاً وإكراماً ، كالردىء الدون من الطعام مثلاً ، يعافه الإنسان ، وتكرم به الدوابّ والبهائم .

(٢٠) هذا : إشارة إلى المهجوّ . وطلعته : وجهه . أو رؤيته . وحظها : حظ الأبصار : أى نصيبها . ومنه : من المهجو .

والمعنى : أن الناس يكرهون المهجو ، ويتأذون بطلعته ، ويتألمون من رؤيته . وهذا قريب من قول أبى الطيب المتنبى :

واحتمال الأذى ، ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام .

فِى وَجْهِهِ سِمَةٌ لِلْغَـدْرِ بيِّنَةٌ ... وبَيْنَ جَنْبَيْهِ أَحْقَادٌ وَأَوْغامُ (٢١)
لَهُ علَى الشَّرِّ إِقْدَامٌ ، ولَيْسَ لهُ ... إلَّا عَنِ الْخَيْرِ وَالْمعْرُوفِ إِحْجامُ (٢٢)
كَأَنَّمـا أَنْفُهُ مِنْ طُولِ سَجْدَتِهِ ... فِى حَانَةِ اللَّهْوِ حَرْفٌ فِيهِ إِدْغَامُ (٢٣)
كَعقْرَبِ الْمَاءِ يَمْشِى مِشْيَةً صدَدًا ... فَخَلْفُهُ عِنْدَ جِدِّ الْأَمْرِ إِقْدَامُ (٢٤)

(٢١) سمة : علامة .وبينة : واضحة، جلية، ظاهرة . والأحقاد: الأضغان : جمع حقد: وهو الانطواء على العداوة ، وإضمار البغضاء، وتربّص فرصة الإيقاع بالمحقود عليه — والأوغام : جمع وغم (بفتح فسكون) : وهو الحقد الثابت فى الصدر، والشحناء ، والعداوة، والبغضاء، والسخيمة ،والضغينة .

يقول : إن المهجو ينطوى على الحقد والضغينة ، ويضمر لغيره الشحناء والبغضاء ، وتقرأ فى وجهه أمارات الغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق .

(٢٢) الإقدام : مصدر أقدم على الأمر : أى اجترأ عليه ، وشجع ، وأسرع فى إنجازه بلا تردد أو توقف . وأقدم على العيب : رضى به ، وسكن إليه . والمعروف : اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه . وضده المنكر : وهو ما ينكره العقل أو الشرع : أى يقبّحه ويستهجنه ، أو يحرّمه ، أو يكرهه . والإحجام : ضد الإقدام : مصدر أحجم عن الشىء : أى نكص عنه ، وكف ، وجبن .

يقول : إن المهجو جرىء مقدام على الشرور والآثام ، ممن مغرق فى المفاسد والأسواء ، وهو مع هذا محجم بخيل فى الخيرات والمبرات ، جبان شحيح فى المحامد والمكرمات .

(٢٣) السجدة (بكسر السين) : الاسم من سجد (من باب دخل) . أو اسم الهيئة منه . (وبفتح السين) : اسم المرة. والحانة: موضع بيع الخمر : أى حانوت الخمّار . والإدغام: مصدر أدغم الحرف فى الحرف . والحرف الذى فيه إدغام : الحرف المضعّف ، كالدال فى « عدّ » ، والضاد فى « انقضّ » .

والمعنى : أن المهجو من مدمنى الخمر ، المولعين ، بمجالس اللهو والشراب فى الحانات ؛ فهو لايفتأ يتردد إليها ، ويطيل الجلوس فيها . ومن عادته أن ينكئ بأنفه على مناضدها ؛ ولطول انكفائه وانكباب أنفه عليها يخيل إليك أنه دخل فيها ، وأدغم ، كما يدغم الحرف فى الحرف . وقد يكون المعنى : أن المهجو أفطس ، أى مفترش الأنف . وفيه — مع انخفاض قصبته — شىء من الغلظ والضخامة . ولم يكن الفطس طبيعياً فيه . وإنما جاءه من طول جلوس المهجو فى دكاكين الخمارين ، وحوانيت اللهو والشراب ؛ وطول انكبابه أو انكفائه بأنفه على مناضد الخمر ؛ فشابه الحرف الذى أدغم فى غيره ، فأفقده الإدغام استواءه وانتصابه .

(٢٤) عقرب الماء : سرطان الماء الذى يعرف بـ« أبو جلنبو» ومن خصائصه أنه يستطيع — وهو يمشى على الأرض — تغيير اتجاهه دون التفات ، أى من غير أن ينحنى جسمه فى أثناء تغيير الاتجاه . ومن عادته أن يتحرك جانبياً ؛ فمشيته غير مستقيمة ، بل فيها عوج ، وميل ، والتواء ، وانحراف . وأغلب أنواعه مائية . والمشية (بكسر الميم) : هيئة المشى . والصدد: الناحية ، والجانب، والجهة . =

أَبْدَى بِعَاتِقِهِ الْمِنْدِيلُ سِيمتَهُ ... وَحتَّ مَوْضِعهُ مِنْ كَفِّهِ الْجَامُ(٢٥)

وَكَيْفَ يصْلُحُ أَمْرُ النَّاسِ فِي بَلَدٍ ... حُكَّامُهُ لِبنات اللَّهْوِ خُدَّامُ ؟(٢٦)

= ويمشى مشية صدداً : أى يمشى مشية جانبية ؛ فهى ليست معتدلة، ولا مستقيمة ، ومشية الصدد هى وجه الشبه بين المهجو وعقرب الماء . وصورتها صورة التردد والالتواء ، والإحجام والتأخر ، والتمايل والتكسر ، والنكوص والتراجع . وخلفه : ظهره . وخلف : وراء . وضدها « قُدَّام » تكون ظرفاً ، وقد تخرج عن الظرفية ، فتتصرف . والأمر : الشأن والحال . وجد فى الأمر (من بابى نصر وضرب) : اجتهد . والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . وجد (من باب ضرب) : ضد « هزل » (من باب ضرب أيضاً) والاسم منه الجد (بكسر الجيم) . وجد الأمر : الحالة التى تتطلب الجد . وجد به الأمر : حمله على الجدّ والاجتهاد والصرامة. وإقدام : مصدر أقدم. أو هى « قُدَّام » : ضد « خلف» . وخلفه قُدَّام : شرح وتفسير وتأكيد لمعنى مشية الصدد، أى إذا جد بهالأمر استدبر ما ينبغى أن يستقبله، وأحجم وتأخر ، وتمايل وتكسر ، وجبن وتردد . وقلما يعرف السكران جد الأمر ، أو يحس به . وخلفه إقدام : أى إقدامه تقهقر، أى لا يعرف الإقدام، ولا يستطيعه، أى يقدم بالرجوع إلى الخلف، وينكص على عقبيه إذا جد به الأمر. وهذا وصم له بالجبن والخور ، والإحجام والفرار إذا حزب الأمر ، وجد الجد، ووجب على الحر الثبات والإقدام . ولا ريب أن مشية الصدد صورة من صور التردد والتعثر ، والتراجع والإحجام .

هجاه فى الشطر الأول بالانحراف والعوج والترنح فى مشيه . وهذه مشية السكارى . وهجاه فى الشطر الثانى بالجبن والفرار فى مواطن الجد والإقدام

(٢٥) عاتق الإنسان : ما بين منكبه وعنقه . وسيمته : سيمة المهجو : أى علامته التى يتميز بها من غيره ، ويعرف بها . وحتّه (من باب ردّ) : فركه ، ودلكه ، وقشره . والجام : الكأس (فارسية) (مؤنثة) . ويراد بها هنا : كأس الخمر . ومعنى الشطر الثانى : أن الجام تركتْ فى موضعها من كف المهجو أثراً ظاهراً باقياً ؛ لأنه مدمن خمر ، لا تفارق كأسها كفه . والغرض المبالغة فى تصوير إدمانه .

اعتاد المهجو أن يضع منديله على عاتقه ؛ فكان هذا من سماته الظاهرة . واعتاد كذلك شرب الخمر وإدمانها ؛ حتى تركت كأسها فى كفه أثراً ظاهراً . وربما كان المراد بالشطر الأول من هذا البيت : أن المهجو خالط الخمارين والنُدُل، واندمج فى سلكهم؛ فتشبه بهم . ومن عادة النادل (وهو من يقوم على خدمة القوم فى الأكل ، أو الشرب) أن يضع على عاتقه منديلاً ، أو شيئاً يشبه المنديل، كالفوطة مثلاً .

(٢٦) يصلح (بالبناء للمعلوم) : مضارعُ صلح (كدخل ، وكرم ، وفتح) . ومصدره الصلاح . والصلوح . أو هو (بالبناء للمجهول) من الإصلاح. والاستفهام فى أول البيت : معناه النفى: أى لا سبيل إلى صلاح أمر الناس أو إصلاحه فى بلد حكامه لاهون فاسقون . وبنات اللهو : الماجنات الساقطات العواهر من النساء .

يقول: إن شئون الناس فى بلدٍ ما لا يرجى لها صلاح أو إصلاح إذا كان حكامه خدماً للعواهر الماجنات . والمراد أن المهجو من أهل الفجور والفساد، المنغمسين فى اللهو والمجون ، المنقادين للاهيات =

قَدْ يَمَّمتْهُ الْمَخَازِى ؛ فَهْىَ نَازِلَةٌ ... مِنْهُ بِحَيْثُ تَلَاقَى اللُّؤْمُ وَالذَّامُ (٢٧)

مَا إِنْ أَصَبْتُ لَهُ خُلُقًا ، فَأَحْمَدَهُ ... فَكُلُّ أَخْلَاقِهِ لِلنَّفْسِ آلَامُ (٢٨)

فَظٌّ ، غَلِيظٌ ، مقِيتٌ ، سَاقِطٌ ، وَجِمٌ ... وَغْدٌ ، لئِيمٌ ، ثَقِيلُ الظِّلِّ ، حَجَّامُ (٢٩)

جاءَتْ بِهِ عَجُزٌ لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ ... لَهَا بِمَدْرَجَةِ الْفَحْشَاءِ أَزْلَامُ (٣٠)

= الساقطات . ومن نكد الدنيا على مصر أن يتولى مثل المهجو أمرها ، أو يتقلد فيها منصباً كبيراً ، أو ينصّب للحكم والسلطان ؛ وكيف تستقيم شئون الناس ، وتصلح أحوالهم مع فساد هذا الحاكم وأمثاله ، و إغراقهم فى الخلاعة والمجانة ؟

(٢٧) يممته : قصدته ، وعلقتْ به ، ولم تنحرف عنه . والمخازى : الخصال أو الأعمال السيئة القبيحة الفاضحة الشائنة المذلة . جمع مخزية (بصيغة اسم الفاعل) . أو مخزاة (بوزن مهواة) . أو جمع على غير قياس لخزْى وخَزَى (بوزنى علْم وهَوًى) : مصدرى خَزِىَ (كعلم) بعدما استعملا استعمال الأسماء . وخَزِىَ : وقع فى بليّة وشر ، وافتضح ؛ فذّل بذلك ، وهان . واللؤم : نقيصة تجمع الشحّ ، ومهانة النفس ، وخسّة الطبع ، ودناءة الأصل . والذام : العيب ، والمذمة ، والنقيصة .

اتسم المهجو بالذل والهوان ، ووُصم بالمقابح والفضائح ، وتلاقى فيه اللؤم والمذمّات ، وشانته المخزيات المنديات .

(٢٨) « إن » : زائدة بعد « ما» لتقوية الكلام وتوكيد معناه . وأصبت : وجدت .

خالط الشاعر المهجو وزامله فى المناصب الحكومية الكبيرة ، وعرفه معرفة صحيحة ؛ فلم يجد فى سيرته وسلوكه ، وأخلاقه وطبائعه ما يرتضى ويحمد ، بل أثبتت التجربة أن أخلاقه كلها مرذولة قبيحة ، سيئة رديئة ، تؤلم النفوس ، وتنفّر القلوب . وفى البيت الآتى تشهير وتنديد بكثير من هذه الأخلاق الوضيعة والصفات الممقوتة .

(٢٩) فظ : صفة من الفظاظة : وهى القسوة ، والعنف ، والشدة المستهجنة . ورجل فظّ : غليظ الكبد : قاس جاف ، عنيف عسر ، كريه الخَلق والخُلق . وفى القرآن الكريم : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك » (الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران) . ومقيت : ممقوت ، بغيض ، مكروه أشد الكراهية : صفة من مقته (من باب قتل) : أى أبغضه أشد البغض عن أمر قبيح . وساقط : رذل ، دون ، خسيس ، لئيم فى نفسه وحسبه ، دنىء ، سافل ، لا وزن له ، ولا قدر ، ولا اعتبار . ووجم (بوزن كتف) : عابس الوجه ، مطرق لشدة الحزن ، ساكت على غيظ شديد ، أو هم ، أو خوف . أو هى وجم (بفتحتين) أى لئيم بخيل . ووغد : أحمق ، ضعيف العقل . أو رذل دنىء . والظل من كل شىء : شخصه . ومن المجاز : فلان ثقيل الظل ، بارد النسيم : أى ثقيل على الناس ، مقيت إليهم ، مكروه منهم . والحجام من يعالج المريض بامتصاص جزء من دمه . وحرفته الحجامة (بوزن الكتابة) . وأداة الاحتجام : المحجم أو المحجمة . والحجام ثقيل الظل على الناس .

(٣٠) العجز : مؤخر الشىء (يذكّر ويؤنث) . أو هى من الرجل والمرأة : ما بين الوركين . ويراد بها هنا : فرج المرأة . وليست بطاهرة : ليست عفيفة ، ولا محصنة . ولها : للعجز . والمدرجة (بوزن =

مُسْتَيْقِظٌ لِلْمَخَازِى ، غَيْرَ أَنَّ لَهُ طَرْفًا عَنِ الْعِرْضِ وَالْأَوْتَارِ نَوَّامُ(٣١)
أَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا مِنْ عَـداوَتِهِ فَإِنَّها لِجَلَالِ اللهِ إِعْظَـامُ(٣٢)

= المَرْبة) : المسلك والطريق . أو قارعة الطريق ومعظمه ، ووسطه . والفحشاء : ما شنع ، وفظع ، واشتد قبحه ، وجاوز الحد من الأفعال والأقوال . وقد يكنى بالفحشاء عن الزنا . والأزلام : جمع زلم (بوزن قلم) : وهو السهم الذى لا ريش عليه . ومثله القدح (بكسر فسكون) . وكانت العرب فى جاهليتها تستقسم بالقداح أى الأزلام . وللعجز أزلام بمدرجة الفحشاء : كناية عن اعتيادها الفاحشة والرذيلة . والزلم أيضاً : الظلف : أى الظفر المشقوق للبقرة والظبى والشاة ونحوها . أو الذى خلف الظلف . وقد يراد بالأزلام : القوائم والأقدام ، يشار بهذا إلى قوتها وصلابتها . ولها بمدرجة الفحشاء أقدام : أى اعتادت السير فى طريق الفحشاء . وهو تفصيل وتأكيد لقوله : « ليست بطاهرة » .

هجا الشاعر فى هذا البيت المهجو بهجاء أمه ، والتعريض بها ، ورماها بالتفريط فى عرضها . كما هجاه فى البيت الثالث عشر من هذه القصيدة بهجاء أبيه ، ووصمه بالضعة والخمول ، وازدراء الناس له ، وتهاونهم به .

(٣١) مستيقظ للمخازى : منتبه لها ، حريص عليها ، مولع بها . والطرف : العين ، والنظر . وفى الأصل « طرف » بالرفع ، وهو خطأ نحوى . و « غير أن » : بمنزلة « لكن » . وتفيد الاستدراك : وهو أن تثبت لما بعدها حكماً مخالفاً لحكم ما قبلها من الكلام ؛ فما قبلها وهو استيقاظ المهجو للمخازى يناقض ما بعدها ، وهو نومه عن العرض والأوتار . والعرض : موضع المدح والذم من الإنسان . يقال : هو نقى العرض : أى ليس فيه مايثلب ويعاب . ويقال : هو مهتَّك العرض : إذا شانته المناقص والمعايب . أو العرض : ما يمدح المرء إذا صانه ووقاه وحافظ عليه ، ويذمّ إذا فرّط فيه ، أو تهاون به ، أو قصّر فى الدفاع عنه ، كالنفس ، والولد ، والدين ، والشرف ، والمال ، والحسب والنسب .. والأوتار : جمع وتر (بكسر الواو وفتحها) : وهو الذَّحْل ، والثأر . و « نوام » ؛ : نعت لـ « طرف » مقطوع عن منعوته . والتقدير : هو نوام : أى كثير النوم .

هجاه فى الشطر الأول بالإغراق فى المقابح والشرور ، والتمادى فى المخزيات والآثام ؛ فهو مستيقظ لها ، مولع بها ، لا يكاد يبرأ منها ، أو يغفل عنها . وهجاه فى الشطر الثانى ببلادة الحس ، والغفلة عن عرضه وثاراته ؛ فهو لا يغار على عرضه ، ولا يبالى أن يثلب ويهتك ، ولا يأخذ بثأره ، ولا ينتقم ممن وتره ، ولا يحاول الدفاع عما يلزمه الدفاع عنه .

(٣٢) عداوته : أى عداوتى للمهجو ، وحملتى عليه بمثل هذا الهجاء . والجلال من الصفات التى اختص بها الله « ذو الجلال والإكرام » . ومعناه : التناهى فى عظم القدر . وهو أبلغ من الجلالة . وأعظمه إعظاماً : فخّمه وكبّره وعظّمه . أو رآه عظيما .

والمعنى : أن عداوة الشاعر لمثل هذا المهجو ليست من الذنوب التى يرجى فيها من الله المغفرة ، ولكنها تمجيد وتعظيم لجلال الله وعظمته ؛ وكأنها من العبادات والقربات ؛ فالشاعر يتقرب إلى الله تعالى بالإمعان فى مثل هذا الهجاء ، والتنديد بما يمقته الله عز وجل ، وينهى عنه من المخازى والفواحش ، والشرور والآثام .

فَاذْهبْ كَمَا ذَهَبَ الطَّاعُونُ مِنْ بَلَدٍ ... تَقْفُوهُ بِاللَّعْنِ أَرْوَاحٌ وَأَجْسَامُ[٣٣]

وَهَاكَ مَا أَنْتَ أَهْلٌ فِى الْهِجَـاءِ لَهُ ... فَالْهَجْوُ فِيكَ لِنَقْضِ الْحَقِّ إِبْرَامُ[٣٤]

مِنْ كُلِّ قَافِيَـةٍ فِى الْأَرْضِ سَائِرَةٍ ... لَهَا بِعِرْضِكَ إِنْجَادٌ وَإِتْهَامُ[٣٥]

(٣٣) الطاعون : الوباء . أو الموت من الوباء . أو داء ورمى وبائى فاش عام ، سببه جرثومة تصيب الفئران ، وتنقلها البراغيث منها إلى الإنسان . وتقفوه : تتبعه ، وتسير وراءه ، وتقذفه وترميه (وبابه عدا ، وسما) . واللعن : الطرد ، والإبعاد من الخير : مصدر لعنه الله (من باب قطع) : أى سخط عليه ، فطرده من رحمته ، وحرمه توفيقه . ولعن فلان فلاناً : أى دعا عليه ، وسبه ، وأخزاه .

المهجو فى نظر الشاعر شرير مفسد ، يصيب غيره بالسوء والأذى . وشروره فاشية عامة ؛ ولهذا شبّهه بالطاعون . وهدده ، أو دعا عليه ، أو تمنى أن يذهب عن البلاد ؛ ليذهب بذهابه الشر والضر ، والأذى والفساد ، مشيعاً من قلوب الناس وألسنتهم بالسب والزرايات ، والمقت ، واللعنات .

(٣٤) « هاك » : اسم فعل أمر ، بمعنى « خذ » . وهو أهل لكذا : أى مستحق له ، جدير به ؛ (للواحد والجمع) . و« فى » فى الشطر الأول : بمعنى : « من » : أى وخذ من الهجاء ما تستأهله . وقد تكون بمعناها الأصلى ، وهو الظرفية : أى وخذ ما تستأهله فى أمر الهجاء . وهجاه يهجوه هجواً وهجاء : ذمه ، وندد به ، وعدد معايبه ونقائصه ومساويه. ونقض الشىء (من باب قتل) : أفسده بعد إحكامه . ونقض الحق : إهداره وتضييعه والتفريط فيه . وضده إبرام الحق : أى إحقاقه ، وإحياؤه . مستعار من أبرم الحبل ونحوه : أى فتله من طاقين . وأبرم الشىء : أحكمه .

ومعنى الشطر الثانى : أن المهجو فاسد مفسد ، وأن هجوه والتنديد بمخازيه يحدّ فساده ، ويصلح إفساده ، ويبرم ما نقضه من الحقوق ، ويثأر ما انتهكه من الحرمات ، ويحيى ما أماته من الكرامات .

(٣٥) « من» فى أول هذا البيت : بيانية ؛ فما بعدها ، وهو « كل قافية » : بيان لما قبلها فى البيت السابق ، وهو« الهجو » : أى هجو تسير به القوافى وتذيعه وتشهره . والقافية فى الشعر : الحروف التى تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين فى آخر البيت . وبعبارة أخرى : هى من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما ؛ فقافية هذا البيت مثلا «هام» . وقد تطلق القافية ويراد بها الروى ، وهو حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه ؛ فهذه القصيدة ميمية ، وقافيتها الميم . ويراد بالقافية هنا : القصيدة أو البيت من أبياتها . وسائرة فى الأرض : ذائعة ، شائعة ، منتشرة ؛ بذيوع اسم الشاعر ، ونباهة شأنه ، وسمو قدره ، وذهاب صيته بين الناس : اسم فاعل من سار الكلام ، أو المثل ، أو نحوه (من باب باع) : أى شاع وذاع واشتهر وانتشر . ولها : أى للقافية . والعرض : ما يمدح ويذم من الإنسان ، وهو ما ينبغى أن يصونه من نفسه وشرفه ودينه وحسبه وماله وخلائقه المحمودة ومآثر آبائه . ومن كلامهم : « هو نقى العرض » : أى برىء من العيب . و« أكرمت عنه عرضى» : أى صنت عنه نفسى . والإنجاد : =

شِعْرٌ لِوَجْهِ الْمَخَازِى مِنْهُ سَافِيَـــةٌ بِحَاصِبٍ . وَلِأَنْفِ الْجَهْلِ إِرْغَامُ (٣٦)
تَبْلَى الْعِظَامُ . وَيَبْقَى ذِكْرُهُ أَبَدًا فِى كُلِّ عَصْرٍ لَهُ سَجْعٌ وَتَرْنَامُ (٣٧)

= مصدر أنجد : أى ارتفع . وضده الإتهام : مصدر أتهم : أى انخفض . والأصل : أنجد المسافر : أى صعد إلى النجد : وهو ما ارتفع من الأرض ، وصَلُب . وأتهم : أى هبط ، أو انحدر إلى تهامة : وهى الأرض المنخفضة بين ساحل البحر والجبال فى الحجاز واليمن . ومن كلامهم : غار وأنجد . وسار ذكره فى الأغوار والنجاد . ومعنى إنجاد القوافى وإتهامها فى عرض المهجوّ : تنديدها بالمهجو ، وتشهيرها به ، وتمزيق عرضه ، وكشف معايبه .

وبهذه الأهجوّة نشر الشاعر مقابح المهجو فى آفاق الأرض ، وفضحه ، وشهّر به ، وأذاع ما تلوّث به عرضه من المخزيات المنديات .

(٣٦) « شعر » : خبر لمبتدإ محذوف : أى هو شعر . والمراد شعر الهجاء الذى وصفه فى البيت السابق بالذيوع والسيرورة ، والإنجاد والإتهام فى عرض المهجو . ومنه : أى من هذا الشعر . وسافية : اسم فاعل من سفت الريح التراب ونحوه (من باب رمى) : أى حملتْه ، وذرتْه ، ونسفتْه ، وفرقتْه ؛ فالريح سافية . والجمع سواف وسافيات . وسفا (من باب سما) : أسرع . وحاصب : اسم فاعل من حصبه (من بابى ضرب وقتل) : أى رماه بالحصباء : وهى صغار الحصى . والحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء والتراب . ويراد بالحاصب هنا : ما تثيره الرياح وتهيجه وتذروه ، وترمى به من الحصى والتراب ونحوهما . والجهل : السفاهة ، والجفاء ، والغلظة ، وسوء الخُلُق . والجهل : نقيض العلم . وأرغمه إرغاماً : ألقاه فى الرغام : وهو التراب . وأرغم أنفه . يكنون بهذا كله عن الإذلال ، والقسر ، والإهانة ، والإكراه .

جَعلَ شعره كالذاريات وسافيات الرياح ، تحصب فى المهجو وجه مخازيه ، وترجم قبائحه وفضائحه ؛ وتذله بإظهار جهله .

(٣٧) بلى الثوب ونحوه (من باب رضى) : ذهبتْ جدّته ، وأدركه البلى ، وشارف الفناء . وعظام بالية : أى رميم ، متفتتة ، فقدت الحياة . ويراد بالعظام : عظام الموتى من الناس . والضمير المضاف إليه فى « ذكره » يعود على « شعر » فى البيت السابق : أى شعر هذه الأهجيّة . والذكر : الصيت ، والحفظ للشىء . والشعر يجرى على اللسان : أى ويبقى هذا الشعر مذكوراً محفوظاً ، لايدركه النسيان . و « أبداً » : ظرف زمان للمستقبل ، ويدل على الاستمرار . ويبقى أبداً : أى ويبقى بقاء دائماً مخلداً . والعصر : الزمن . وله : للشعر . وسجع الشىء (من باب فتح) : استوى ، واستقام ، وأشبه بعضه بعضاً . وسجعت الحمامة والناقة : رددت صوتها على طريقة واحدة . ورنم الحمام والعود والقوس وكل ما استلذ صوته ترنيماً ، وترناماً : رجع صوته ، وطرب به ، وتغنى ، وأجاد الغناء .

وقال يَهْجُو :

هَجَوْتُكَ غيرَ مُبْتَدِعٍ مَقَالاً سِوَى مَا فِيكَ مِنْ دَنَسٍ وَشُؤْمِ (١)
فَإِنْ تَجْزَعْ فَمِنْ خَوَرٍ وَجُبْنٍ وَإِنْ تَصْبِرْ فَمِنْ ضَعَةٍ وَلُؤْمِ (٢)

أطال الشاعر هذه الأهجية ، وأقذع فيها للمهجوّ، ولذعه بها، وأوجعه وآذاه، وسلقه بلسان حادّ. ثم ختمها متمدّحاً بخلود شعره، مفتخراً بدوام صيته وذكره ؛ فالناس يفنون جيلاً بعد جيل، وقبيلاً فى إثر قبيل ؛ وأهاجيه مخلّدة ، وشعره باق على الأبد ، يتغنى به المغنون ، وتردده بالإعجاب والترنيم كل الأزمنة والعصور .

* * *

(١) هجاه (من باب عدا) : وقع فيه بالشعر ، وشتمه، وسبه ، وذمه، وندد به ، وعدد معايبه . والاسم منه الهجاء (بوزن كتاب) . ومبتدع : اسم فاعل من ابتدع الشىء ابتداعاً : أى استحدثه ، واخترعه ، وأنشأه على غير مثال سابق . ويراد بالشطر الأول: أن الشاعر لم يتجنّ على المهجو بهجائه ؛ وإنما هجاه بما فيه من مناقص ومثالب . ودنس الثوب ونحوه (من باب تعب) : توسخ ، وتلطخ، وتلوث. ودنس عرضه وخلُقه ، فهو دنس (بوزن قذر) . والشؤم: السوء ، والشر ، والفساد . وضده اليمن، والفأل ، والبركة .

يقول: إنه لم يتجنّ على المهجو بهجائه ، ولم يرمه إلا بمساويه ، ومعايبه ، وما يدنس خلقه وعرضه من شرور وأقذار .

(٢) جزع (من باب تعب) : ضعفت منته (أى قوته) عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً عليه . والجزع أشد وأبلغ من الحزن ؛ فإن الحزن عام . والجزع: حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه . والخور : الضعف والانكسار . (وفعله من باب تعب) . والجبن : صفة الجبان : وهو الذى يتهيب الإقدام على ما لا ينبغى أن يخاف . أو هو الذى يحجم حيث ينبغى الإقدام . والضعة (بفتح الضاد وكسرها) : الوَضاعة، والدناءة ، والخسة ، والانحطاط . ورجل وضيع : دنىء خسيس ، ساقط ، لا وزن له ، ولا اعتبار . واللؤم : نقيصة تجمع عدة نقائص ، كشح النفس ، ودناءة الأصل ، والمهانة . وضده الكرم .

يقول لهذا المهجو: فإن تجزع من الهجاء فإنما هو جزع الضعيف الجبان ، وإن تصبر عليه كان صبر الوضيع اللئيم : بمعنى أن جزعه وصبره لا يصدران إلا عن نفس موصومة بالضعف والجبن والوضاعة واللؤم .

وقد يكون المعنى عاماً ؛ فالمهجو إذا جزع كان جزعه على الدوام مقروناً بالخور والضعف ، والجبن والإحجام . وإذا صبر لم يكن صبره فضيلة ومحمدة ، وإنما هو صبر اللئام والأخساء .

وَقَالَ فِي رَجُلٍ :

أَلَا ، مَنْ مُعِينِي عَلَى صَاحِبٍ جَرِعْتُ بِصُحْبَتِهِ الْعَلْقَمَا ؟[١]

يَسُوءُ الْخَلِيلَ ، وَيُؤْذِي الْجَلِيـ ـسَ ، وَيَأْنَفُ إِنْ زَلَّ أَنْ يَنْدَمَا[٢]

يَلُومُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ جَرَى وَيَغْضَبُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْهَمَا[٣]

فَإِنْ قُلْتُ : «مَهْلًا» لَوَى شِدْقَهُ وَإِنْ لَمْ أُجِبْ قَوْلَهُ بَرْطَمَا[٤]

---

(١) «ألا» : حرف استفتاح وتنبيه . و «من» : اسم استفهام ، يطلب به تعيين العاقل . والاستفهام هنا : معناه التمنّى ؛ فالشاعر يتمنّى . ويأمل أن يجد من يعينه ويظاهره على هذا الصاحب المعاسر . وجرع الماء ونحوه (من بابى فهم وقطع) : شربه وبلعه . وبصحبته : أى بسبب مرافقتى له ، ومصاحبتى إياه . أو معها . أو فيها . والعلقم : شجر شديد المرارة . أو هو الحنظل . أوهو كل شىء مرّ . والشطر الثانى كناية عما كابده الشاعر وضاناه من المتاعب والمصاعب بسبب صحبته هذا الصاحب المعاسر النكد . وفى الأبيات الآتية تفصيل لكثير من معايبه ومساويه . ويبدو أن هذه المصاحبة كانت اضطرارية إجبارية ، أى أن البارودى كان مضطرا إليها ، مجبراً عليها :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بـدّ

عاسر هذا الصاحب الشاعر معاسرة شديدة ، وجرعه فى صحابته الصاب والعلقم ؛ حتّى ضاق به ذرعاً ، فاستنجد ، واستغاث ، وطلب من يظاهره عليه ، ويخفف عنه ثقله وبلواه .

(٢) الخليل : الصديق المختص ، والصاحب الخالص الناصح(فعيل : بمعنى مفاعل) . والجليس : المجالس . ويأنف : يستنكف ، ويستكبر ، ويكره (وبابه تعب) . وزل : أخطأ . وزل عن الحق أو الصواب : انحرف . (والفعل كضرب وتعب) . والاسم الزلة . والزلة : الخطيئة ، والسقطة .

من عيوب المهجو إيذاء جلسائه ، والإساءة إلى أخلائه ؛ والتشبث بالخطإ والزلل ، والتمادى فى الجهل والسفه .

(٣) إن هذا الصاحب ينحى بلائمته على غير المذنب ، ويسارع إلى الغضب قبل الفهم ، وتحكيم العقل . وهذان عيبان ينمان على حماقته وجهله . والإنحاء بالملامة على غير المذنب إحدى نتائج الغضب الأحمق الخاطىء المتهور .

(٤) الشدق (بكسر الشين وفتحها) : جانب الفم مما تحت الخد . ولىّ الشدق : كناية عن التبرم والغضب . وأمارة من أمارات السخط والإعراض . وبرطم : اغتاظ ، وانتفخ ، وأدلى شفتيه من الغضب .

يقول : إن طلبت إليه التؤدة والرفق لكيلا يتملكه الغضب الأهوج ؛ فيزلّ ، ويلوم غير المذنب — تبرم ، وسخط ، وضاق ذرعه بهذه النصيحة الخالصة . وإن التزمت بإزائه الصمت ، وآثرت السكوت ، =

لَهُ جَهَـلَاتٌ تُمِيتُ الرِّضَـا وَحُمْقٌ يكَادُ يُسِيلُ الدِّمَـا(٥)

يُكَابِرُ فِى الْحَقِّ إِنْ مَضَّـهُ وَلَا يَدَعُ الظَّنَّ أَوْ يَأْثَمَـا(٦)

فَلَا أَنَا مِنْـهُ أَرَى رَاحَةً وَلَا أَنَا عَنْـهُ أَرَى مَنْسِمَـا(٧)

= وأعرضت عن سفاهته، ولم أجب قوله – اشتد تبرمه وغيظه وسخطه؛ فحماقته مستعصية على العلاج ، متأبية على الطبيب المعالج . وهذا المعنى شبه تفصيل ، وتوضيح ، وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من البيت الثانى : « ويأنف إن زلّ أن يندما » . وفى البيت الآتى تشهير بشىء من نتائج جهلاته ، وعواقب حماقاته .

(٥) جهلات : جمع جهلة: اسم مرة من الجهل: بمعنى السفاهة والحماقة ، والخفة والطيش ، ونقص العقل ، وسوء التصرف . والحمق (بضم فسكون أو بضمتين) : قلة العقل ، أو فساده (وفعله من بابى كرم وغنم) . ومثله الحماقة . وهو مرادف للجهل فى هذا البيت ، أو قريب من معناه . والدما (بكسر الدال وفتحها) : فالأول جمع دم ، وأصله الدماء . والثانى مفرد .

والمعنى : أن المرافق لهذا المهجو قد يرضى عنه برهة قبل أن تنكشف له عيوبه ومساويه ، ولكنه لا يلبث أن يسخط عليه لجهالته وسفاهته ، وحماقته التى تثير الفتنة ، وتكاد تسيل الدماء . أو المعنى : أنه بجهالته وحماقته يسخط من يصاحبه أشد السخط ، ويقتل رضاه، ويثير غضبه ، ويكاد يحمله على الفتك به ، وإسالة دمه .

(٦) يكابر فى الحق : يجاحد فيه ، ويعاند ، ويلاحى ، ويغالب عليه ، ويحاول إحباطه . من المكابرة: وهى المعاندة والمغالبة والملاحاة. ومضه (من باب رد) وأمضه: آلمه وأوجعه، وشقّ عليه . ولا يدع : لا يترك . ويراد بالظن : ظن السوء ، القائم على الظلم والإثم . ويأثم (من باب علم) : يقع فى الإثم : وهو الذنب والخطيئة . و« أو »: بمعنى « إلى » : أى يتشبث بظن السوء إلى أن يتردى فى مهواة الإثم والخطيئة . وفى القرآن الكريم: « يأيها الذين آمنوا، اجتنبوا كثيراً من الظن؛ إن بعض الظن إثم » (الآية رقم ١٢ من سورة الحجرات) .. والظن المنهى عنه فى هذه الآية الكريمة هو ظن السوء بأهل الخير . وفى الحديث : « إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

(٧) المنسم (بوزن المجلس) : الطريق ، والمذهب ، والوجه .

ومعنى الشطر الثانى : أنه يتوق إلى قطع صلته بهذا الصاحب المتعب النكد ؛ ولكنه لا يكاد يجد الحيلة أو الطريق إلى ما يرغب فيه ويتمناه . وهذا المعنى يتصل ببيت أبى الطيب المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوا له ما من صداقته بـــدّ

تَبَدَّلَ أُنْسِي بِهِ وَحْشَةً وَعَادَ نَهَارِي بِهِ مُظْلِمَا(٨)
فَلَا رَحِمَ اللهُ يَوْمًا جَرَى عَلَيَّ بِهِ طَائِرًا أَشْأَمَا(٩)

وَقَالَ* :

كَمْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ وَلَرُبَّ تَالٍ بَذَّ شَأْوَ مُقَدَّمِ(١)

---

(٨) تبدل : تغير . وأنس به ، وإليه (كطرب ، وضرب ، وقرب) : أى ألفه ، وسكن إليه قلبه ، واطمأن ، وارتاح ، وفرح . والاسم منه الأنس. (بضم فسكون) أو هو أحد مصادره. وضده الوحشة : وهي الخلوة ، والوحدة ، والهم . وبه (فى الشطرين) : أى بسبب ذلك المهجو ، وما ضاناه الشاعر من معايبه وبلاياه . وعاد : صار . والشطر الثانى تعزيز وتأكيد لمعنى الشطر الأول ؛ فالنهار كناية عن الأنس والألفة . والإظلام أو الظلمة : كناية عن الوحشة والهم .

(٩) فاعل « جرى » : ضمير « اليوم » . وبه : أى بصحبة المهجو . و« طائراً »: حال من ضمير « اليوم » . والأشأم : المشئوم . ومن كلامهم : «جرى لهم الطائر الأشأم »: أى أصابهم الشؤم : وهو الشر ، والسوء ، والبلاء ، والوبال .

اشتد تبرم الشاعر بذلك المهجو ؛ فدعا الله تبارك وتعالى ألا يرحم ذلك اليوم الذى عرف فيه المهجو ، واتصل به اتصال لزوب واضطرار ؛ فإنه يوم نحس ومشأمة وشر وبلاء . والشاعر يجرى هنا على ما تعوده فى كثير من شعره ، وتعوده الناس ، وبخاصة الشعراء من شكوى الأيام والليالى ، أو الزمان ، أو الدهر كلما أصابهم فى حياتهم شر أو بلاء ، أو مكروه ؛ فهم يضيفون إلى الدهر كل هذا لكونه فيه . ومن كلامهم : دَهَرَهم أمر : أى أصابهم به الدهر . ومن شعر بعض الشعراء :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

* * *

* هذه القصيدة من فخريات البارودى ، وعيون شعره ، وفيها — مع الفخر — وفاء لمصر ، وتعلق بها ، وثناء عليها ، وتغن بمحاسنها . ويبدو أنها مما نظمه فى شيخوخته وأواخر أيامه ؛ فبعد عودته من منفاه فى سبتمبر سنة ١٨٩٩ استقبله الناس بحفاوة بالغة ، وعادت داره — بشارع غيط العدة بالقرب من ميدان باب الخلق ، بالقاهرة — منتدى الأدباء والشعراء ، وأهل العلم . وفى إحدى ندواته سأله الأديب الشاب « مصطفى صادق الرافعى » شيئاً من شعره الحديث ، فقال : إن « عنترة بن شداد العبسى » يقول :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهّم ؟

وقد نقضت هذه القصيدة بقولى :

كم غادر الشعراء من متردّم ولرب تال بَذّ شأو مقدّم

والقصيدتان على وزن وروى واحد .

(١) «كم » : اسم ثنائى مبنى على السكون . وهى هنا خبرية تدل على عدد كثير ؛ فالمتردمات التى غادرها الشعراء عددها كثير . وغادره : تركه وأبقاه . ومتردّم (مصدر ميمى) : أى مجال تردّم =

فى كُلِّ عَصْرٍ عبْقَرِىٌّ ، لَا يَنِى يَفْرِى الْفَرِىَّ بِكُلِّ قَوْلٍ مُحْكَمِ (٢)

= (أو اسم مفعول . أو اسم فاعل) من تردّم كلامه تردّماً : أى تتبعه حتى أصلحه ، وسدّ خلله . أو من تردّم الكلام : أى احتاج إلى الإصلاح والتحرير والتنقيح والتهذيب ، مستعار من تردم ثوبه : أى رقعه . وتردّم الثوب : أى أخلق حتى حان له أن يرقع . والمراد أن السابقين من الشعراء تركوا للاحقين مجالا واسعاً فسيحاً للقول ، والافتنان فيه ، والتجديد ، والابتداع . وهو خلاف قولهم : « لم يترك الأول للآخر شيئاً » . وربّ : حرف خافض يفيد التقليل أو التكثير . وهو هنا للتكثير ؛ لأنه فى مقام الفخر والمباهاة ، والتنويه بالتالين ، أى التابعين ، أو اللاحقين ، أو المتأخرين . وتال : اسم فاعل من تلاه (من باب سما) : أى تبعه ، وجاء بعده . وضده المقدّم : اسم مفعول من قدمته تقديماً : خلاف أخرته تأخيراً . أو اسم فاعل من « قدّم » اللازم . ومعناه تقدّم . وبذّه (من باب رد) : غلبه وفاقه ، وفضله ، وكان خيراً منه . والشأو : الغاية والأمد .

يقول : إن من سبقوه من الشعراء قد تركوا له ولأمثاله مجالاً واسعاً فسيحاً للقول ، والافتنان فيه ، والتجديد والابتداع . وقد يفوق اللاحق السابق ويبذه فى هذا المجال .

ويلاحظ أن الشطر الأول من هذا البيت يطابق — فى أكثر ألفاظه — الشطر الأول من مطلع معلقة الشاعر الجاهلى الفارس النابه « عنترة بن شداد العبسى » :

هل غادر الشعراء من متردّم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهّم ؟

وإن اختلف المعنيان ؛ فعنترة يعنى أن الأول لم يترك للآخر شيئاً ، وأن الذين سبقوه إلى القول لم يدعوا مقالا لقائل ، أى لم يتركوا له ، ولا لأمثاله مجالاً للقول ، أو شيئاً يصلحونه ويجددونه ، ويفتنّون فيه ، لأن القدامى فى رأيه قد استوعبوا فنون الكلام ، وضروب البيان ، وبلغوا فيه أعلى مراتب الإجادة والإتقان . والبارودى يقول : إن من سبقوه من الشعراء تركوا له ولأمثاله مجالا فسيحاً يبدعون فيه ، ويفتنّون ، ويتسابقون ويتفاضلون ، ويغلبون الأوائل ، ويتفوّقون عليهم . ويلاحظ كذلك أن البارودى نظم هذه القصيدة على وزن معلقة « عنترة » ورويها .

(٢) عبقرى : نسبة إلى « عبقر » (بوزن جعفر) : وهو — فيما تزعم العرب — موضع بالبادية تكثر فيه الجنّ ؛ فإذا تعجبوا من شىء فاق غيره ، وارتقى إلى مرتبة الكمال ، وبلغ الغاية فى القوة ، أو المهارة والحذق والإتقان ، أو جودة الصنيعة ، نسبوه إلى عبقر ؛ فقالوا « عبقرى» . وعبقرية الشاعر أو الكاتب : مقدرته على التوليد والتجديد ، والابتداع والافتنان ، وتفوّقه على غيره فى هذا المجال . ولا ينى : لا يفتر ، ولا يضعف ، ولا يتوانى ، ولا يصيبه كلال أو إعياء . وفلان لاينى يفعل كذا : أى لايزال يفعله : أى يفعله بدءوب وجد واستمرار . وفرى الشىء يفريه (من باب رمى) : قطعه على وجه الإصلاح . والفرىّ : الأمر العجيب . وفلان يفرى الفرى : إذا أجاد عمله وأحكمه وأتقنه ، وأتى فيه بالعجيب . والمحكم : المتقن ، اسم مفعول من أحكمت الشىء إحكاماً : أى أتقنته وأجدته كل الإجادة .

=

وَكَفَاكَ بِي رَجُلًا إِذَا اعْتُقِلَ النُّهَى ... بِالصَّمْتِ . أَوْ رَعَفَ السِّنَانُ بِعَنْدَمِ (٣)

أَحْيَيْتُ أَنْفَاسَ الْقَرِيضِ بِمَنْطِقِي ... وَصَرَعْتُ فُرْسَانَ الْعَجَاجِ بِلَهْذَمِي (٤)

= هذا البيت تأكيد لمعنى البيت الأول . وفيه تنويه بعباقرة الشعراء الذين ازدانت بهم عصورهم ، وأضافوا إلى التراث القديم جديداً بديعاً ، محكماً فائقاً . وفيه أيضاً فخر ضمنى بأنه عبقرىّ زمانه ، ونسيج وحده ، والبارودى صادق فى هذا الفخر ، بعيد عن التزيد والمغالاة . وفى الأبيات الآتية تعزيز وتفصيل لفخره وابتهائه .

(٣) كفاك بى رجلاً : أسلوب يفيد الفخر بأنه الرجل الذى تكون به الكفاية ، ويستغنى به عمن سواه من الرجال . واعتقل لسانه : حبس (بالبناء للمجهول فيهما) ، فلم يستطع الكلام . والنهى : العقل . أو العقول (جمع نهية) . وقد يكون المراد بالنهى هنا : الألسنة ؛ فإن اللسان ترجمان العقل . والصمت : بيان وتأكيد لمعنى الاعتقال . أو معنى اعتقلت بالصمت : أن الصمت اعتقلها : أى حبسها ؛ فعجزتْ عن التفكير أو النطق . واعتقال العقول والألسنة بالصمت : كناية عن نضوب القرائح ، وخمود الأذهان ، والعجز عن الإفصاح والبيان . ورعف فلان (كنصر ، ومنع ، وكرم ، وعنى ، وسمع) : خرج من أنفه الدم . وسنان الرمح ونحوه : نصله : أى حديدته التى تقطع وتجرح . والعندم : دم الأخوين . أو هو شجر من القرنيات الفراشية ، أحمر الساق ، وورقه كورق شجر اللوز : أو هو خشب نبات يصبغ به . ويراد بالعندم هنا : دم الجرحى والقتلى من المحاربين . ورعف الأسنة بالدماء : كناية عن استحرار القتال ، واشتداد لظى الحرب والنزال .

يتمدح بأنه الرجل الذى يُعوّل عليه ، ويُفْزع إليه فى مجال المقال ، وميدان القتال . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ويفصّله ويؤكده .

(٤) أحييت : جواب « إذا » فى البيت السابق : أى إذا اعتقلت النهى أحييت.. وإذا رعفت الأسنة بالدماء صرعت ... وقد يكون كل من البيتين مستقلا فى الإعراب ؛ فالبيت الأول : أنا الرجل الذى يكتفى به إذا اعتقلت النهى ، ورعفت الأسنة . وهذا البيت مفصل لما قبله . والأنفاس : جمع نفس (بفتحتين) . والقريض : الشعر . والمنطق : النطق والكلام . وصرعه (من باب قطع) : طرحه على الأرض . ويراد بالصرع هنا : الإصابة والقتل . والفرسان : المهرة فى ركوب الخيل . وفرسان الجيش : المحاربون على ظهور الخيل : جمع فارس : وهو فى الأصل راكب الفرس . والعجاج : الغبار والدخان . ويراد به هنا : الغبار الذى تثيره سنابك الخيل ، وحركات المتحاربين فى الكرّ والفرّ ، والهجوم والدفاع . وفرسان العجاج : أى فوارس الحرب والقتال . واللهذم : كل شىء قاطع من سنان أو سيف أو غيرهما . وسيف لهذم : حاد قاطع .

افتخر فى هذا البيت والبيتين السابقين بأنه الرجل الذى يعتمد عليه ، ويغنى كل الغناء إذا اعتقلت العقول ، وانعقدت الألسنة ، واحتدم القتال ، وسالت الأسنّة بالدماء ؛ فهو عبقرىّ زمانه . وعبقريته =

وَفَرَعْتُ نَاصِيَــةَ الْعُلَا بِفَضَائِلٍ ... هُنَّ الْكَوَاكِبُ فِى النَّهَارِ الْمُظْلِمِ (٥)
سَلْ مِصْرَ عَنِّى إنْ جَهِلْتَ مَكَانَتِى ... تُخْبِرْكَ عَنْ شَرَفٍ وَعِزٍّ أَقْــدَمِ (٦)
بَلِهٌ، نَشَأْتُ مَعَ النَّبَاتِ بِأَرْضِهَا ... وَلَثَمْتُ ثَغْرَ غَدِيرِهِ الْمُتَبَسِّمِ (٧)

= تتجلى فى مجال المقال، وميدان القتال؛ إذ بعث الشعر العربى من مرقده، ورد إليه الحياة والقوة، ونافس به فحول الشعراء فى أزهى عصوره، ورفعه نبراساً قوياً لمعاصريه وتابعيهم من الأدباء والشعراء، فهو أميرهم وقائدهم، ورائدهم وأستاذهم. وفى ساحة الحرب والنزال، وبرّز على الأقران، وصرع الفرسان؛ وبهذا لمع، ونبه، وأشرق، وتفوّق، وخلد لنفسه مجداً باقياً ما بقى الزمان.

(٥) فرعت الجبل ونحوه (من باب رفع): صعدته، وعلوته، وارتقيته. والناصية: مقدم الرأس. أو شعر مقدّم الرأس إذا طال. أو نهاية منبت شعر الرأس عند الجبهة. والعلا: العلاء، والرفعة، والشرف. أو هو جمع العليا: مؤنث الأعلى. وناصية العلا: قمة المعالى، وأعلى مراتبها. والفضائل: جمع الفضيلة: وهى الدرجة الرفيعة فى حسن الخلق.

يقول: إنه بمحامده ومزاياه فاق غيره، وعظم شأنه بين الناس، وبلغ أعلى مراتب الرفعة والعزة، والشرف والعلاء. وفى الشطر الثانى جعل فضائله كواكب ونجوماً لامعة متلألئة فى النهار الغائم. وقد يكون معنى الشطر الثانى: أنه إذا أظلم النهار بمفاسد الناس ورذائلهم أضاءته فضائله ومحامده، أى بدد بمكارم أخلاقه ظلمات الحياة وأسواءها.

(٦) المكانة: المنزلة، ورفعة الشأن، وسمو القدر. و«عن» فى الشطر الثانى: مرادفة «الباء». استخبرته عن كذا، فأخبرنى به: أى أنبأنى. والشرف: العلوّ، والمجد. قيل: ولا يكون الشرف إلا بالآباء: أى لا يعدّ المرء شريفاً إلا بشرف آبائه. وشرف الرجل (من باب كرم): علت منزلته، وسما قدره؛ فهو شريف من قوم شرفاء، وأشراف. والعز، والعزّة: القوة والمنعة. وضده الذل والمهانة. ويراد بالأقدم: القديم: أى التالد، أو التليد. وضده الطارف، أو الطريف؛ فعزه وشرفه ومجده تالد، أثيل، أصيل فيه، وفى آبائه من قبله.

يفخر بسمو منزلته، وجلال قدره، ورفعة شأنه، وأصالة شرفه وعزه، وأثالة مجادته، ونبله. ويقول: إن مصر وأهلها يعرفون له كل هذا، ويشهدون به. وفى ستة الأبيات الآتية اعتزاز بمصر، وتحدّث بفضلها، وتنويه بمحاسنها.

(٧) «بله»: خبر لمبتدإ محذوف: أى أنا فى صباى بله (بوزن فرح): صفة من البله. (بوزن الفرح). ومن معانيه: حسن الخلُق، والغفلة عن الشر، وقلة الفطنة لمداقّ الأمور. والبله والأبله: من شره ميت. ومن غلبته سلامة صدره. ومن كلامهم: هو فى عيش أبله: أى ناعم رخىّ. وفى شباب أبله: أى رافه منعّم، كأن صاحبهما غافل عن الطوارق. ويقولون: خير أولادنا الأبله العقول. ومنه: هو فى بلهنية من عيشه: أى فى رخاء ورغد ورفاهة وسعة. ونشأ الصبى: نما وشبّ، وترعرع. وبأرضها: أى بأرض مصر. واللثم: التقبيل. (وفعله من بابى فهم، وضرب). =

فَنَسِيمُهَا رُوحِى ، وَمَعْدِنُ تُرْبِهَا جِسْمِى ، وَكَوْثَرُ نِيلِهَا مَحْيَا دَمِى (٨)
فَإِذَا نَطَقْتُ فَبِالثَّنَاء عَلَى الَّذِى أَوْلَتْهُ مِنْ فَضْلٍ عَلَىَّ وَأَنْعُمِ (٩)

= والثغر : المبسم : وهو ما تقدم من الأسنان. أو ما يظهر منها مع الابتسام . وقد يطلق الثغر ، ويراد به الفم . ونشأته مع النبات : إشارة إلى غضارة طفولته ، ونضارة صباه ، وبهجة حياته فى هذه البيئة الناعمة الناضرة . واللثم هنا : كناية عن الشرب . والثغر : كناية عن المشرب ، أو المورد ، أو الموضع الذى يشرب منه . وغديره : غدير النبات : أى ما يروى النبات ويسقيه من الغدران ، والأنهار ، والترع ، والسواقى ، والقنوات . ولو قال : « غديرها » : أى غدير مصر ، أو غدير أرضها ، لكان أقرب وأظهر . والغدير (فى الأصل) : القطعة من الماء يغادرها السيل مغادرة . أو يغدرها إغداراً : أى يتركها ، ويبقيها ، ويخلفها وراءه بعد انحساره ؛ فهو فعيل فى معنى مفاعل ، أو مفعل (بصيغة اسم المفعول فيهما) . وقد يطلق الغدير على النهر ونحوه . والمتبسم : اسم فاعل من تبسم تبسماً : أى انفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكاً بدون صوت . وهو أخف الضحك ، وأقله ، وأجمله . والغدير بصفاء مائه ، وحسن روائه يبدو كالمتبسم .

يقول : إنه نشأ ونما ، وشب وترعرع فى أرض مصر ، مع نباتها فى بلهنية ورفاهية ، ونعمة عيش ، ورخاء بال ؛ وإنه كثيراً ما شرب من غدرانها الجارية النقية ، وقنواتها العذبة الصافية ، وطالما استمتع بما امتازت به هذه البيئة من طبيعة ساحرة باهرة . وفى كلمة « بله » إشارة إلى الغفلة التى يتميز بها الصبى فى صباه ؛ فعيشته مع أمثاله من الصبيان كانت غافلة ساذجة ، رخية هنية .

(٨) نسيمها : نسيم مصر ، وهو الريح الطيبة اللينة ، ونسمت الريح (من باب ضرب) : هبت لينة لطيفة . ومعدن الشىء : مركزه ، ومستقره ، ومكان أصله . والترب : التراب . وفى القرآن الكريم : « هو الذى خلقكم من تراب » (الآية رقم ٦٧ من سورة غافر) . والكوثر : البليغ الكثرة . أو العدد الكثير . أو الخير العظيم . أو النهر . أو نهر عظيم فى الجنة ، تتفجر منه أنهارها . وعلى المعنى الأخير يكون « كوثر نيلها » من إضافة المشبه به إلى المشبه : أى نيلها الشبيه بكوثر الجنة . والمحيا : الحياة . وحياة دمه : حياة جسمه .

يقول : من هواء مصر ، وريحها اللطيفة الطيبة يتنفس ويعيش ، وتحيا روحه ونفسه . ومن ترابها ، أو من نبات تربها وحيوانها يتغذى جسمه وينمو ويتكون ويتجدد . ومن نيلها العذب الفرات ، ذى الخير العظيم ، والنفع العميم تجرى الحياة متدفقة قوية فى دمه ؛ فهو مدين لمصر بروحه وجسده وكل أسباب وجوده وحياته .

(٩) الثناء : ما يذكر فى محامد الناس ، فيثنى حالاً فحالاً ذكره : أى يكرر ، ويعاد ، ويتعدد . وهو اسم من أثنى عليه : أى مدحه ، ووصفه بخير . وأولاه معروفاً : أسداه إليه ، وصنعه ، وقدمه . وفاعل « أولته » : ضمير « مصر » . و « من » : بيانية ؛ فما بعدها وهو الفضل والأنعم =

أَهْلِي بِها ، وأَحِبَّتِى ، وكَفَى بِهِمْ فَخْرًا مَلَكْتُ بِهِ عِنَانَ الأَنْجُمِ (١٠)

وَأَحَقُّ دَارٍ بِالْكَرَامَةِ مَنْزِلٌ لِلْقَلْبِ فِيهِ عَلَاقَةٌ لَمْ تُصْرَمِ (١١)

هِيَ جَنَّةُ الْحُسْنِ الَّتِي زَهَرَاتُهَا حُورُ الْمَهَا ، وَهَزارُ أَيْكَتِهَا فَمِى (١٢)

= بيان لما قبلها ، وهو « الهاء » : أى ضمير المفعول به فى « أولته » . وأفضل عليه : أحسن إليه . والفضل : الإحسان ابتداء بلا علة . والأنعم : جمع نعمة ، أو نعماء : وهى الخفض ، والدعة ، والمال ، والرزق والصنيعة ، والمنة ، والفضل ، والحال الحسنة .

ينوه بما أسدته إليه مصر من فواضل ونعم كثيرة ، تستحق أن يذكرها على الدوام بالحمد وحسن الثناء . وفى البيتين السابقين ، والبيت الآتى بيان وتفصيل لبعض هذه النعم والفواضل .

(١٠) أحبتى : من أحبهم ويحبوننى : جمع حبيب : وهو المحب . وكذا المحبوب . وكفى بهم فخراً : أى وكفانى فخراً بأهلى وأحبتى : أى فخرى بهم يغنينى عن كل ما يفخر به الفاخرون ؛ فأنا لا أباهى غيرى إلا بهم . وحسبى من الفخر أن أنتمى إليهم ، وأعتز بهم . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة وتقاد . وجمعه أعنة . وامتلاك أعنة النجوم والكواكب : كناية عن التحكم فيها ، والسيطرة عليها . وهذه كناية عن بلوغه أعلى مراتب الرفعة والمجد ، والعز والشرف ، والسناء ، والعلاء . وجملة « ملكت به عنان الأنجم » : صفة لـ « فخر » .

يقول : من مزايا مصر وفواضلها التى ترطّب لسانى بذكرها ، وحسن الثناء عليها — أن أهلى وأحبائى يقيمون بها ، وينعمون فى رحابها . ثم افتخر وتباهى بمحامدهم ومناقبهم ، وانتمائه إليهم . وقال : إن هذا الفخر أبلغه قمة الرفعة والعلاء .

(١١) أحق : أولى ، وأجدر . وفلان حقيق بكذا : أى جدير به ، مستحق له . ويريد بالدار والمنزل : مصر . والكرامة : اسم من الإكرام ، أو التكريم : أى الإعزاز والتعظيم . وعلاقة : صلة قوية ، وصداقة ، ومحبة ثابتة . ولم تصرم : لم تقطع (وبابه ضرب) .

يقول : لقلبه بمصر وأهلها علاقة وثيقة ثابتة لا انفصام لها ؛ فلا غرو أن كانت أحب بلاد الله إليه ، وأعزها عليه ، وأحقها ببره وتكريمه . وفى البيت السابق والبيت اللاحق تفصيل وتعليل لتعلّق قلبه بمصر ، وإيثارها بالإعزاز والتكريم .

(١٢) يراد بزهرات مصر : فتياتها الحسان الجميلات . : على التشبيه بزهرات النبات فى الغضارة والنضارة ، والإيناق والإشراق ، والرواء والبهاء . والحور : جمع حوراء : صفة من الحور (بفتحتين) : وهو من محاسن العين . ومعناه : أن يشتد بياض بياضها ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها ، ويحسن اتساعها ، وترقّ جفونها ، ويبيضّ ما حواليها . قيل : ولا توصف العين بالحور إلا إذا كان جسد صاحبتها أبيض . والمها : البقر الوحشى . واحدته مهاة . والحور من صفات عينيها . والهزار (بوزن سلام) : طائر من طيور الفرد ، صوته حسن . فارسيته « هزار دستان » . وزعم بعضهم أنه العندليب . والأيكة : =

مَا إِنْ خَلَعْتُ بِهَا سُيُورَ تَمَائِمِي حَتَّى لَبِسْتُ بِهَا حَمَائِلَ مِخْذَمِي (١٣)

وَغَنِيتُ عَنْ قُلَتِي بِعَامِلِ أَسْمَرٍ وَسَلَوْتُ عَنْ مَهْدِي بِصَهْوَةِ أَدْهَمِ (١٤)

= واحدة الأيك : وهو الشجر الكثير الملتف .

جعل مصر جنة الحسن ، ونوه بنضارة فتياتها ، وحسنهن ، وجمال عيونهن ؛ وشبههن بحور المها . وقال : إنه شاعر مصر الذى لا يفتأ يتغنى بمحاسنها ومفاخرها .

(١٣) « إن » : زائدة لتوكيد مضمون الكلام بعدها . وأكثر زيادتها بعد « ما » النافية إذا دخلت على جملة فعلية أو اسمية : أى لم أخلع .. حتى لبست . . فاللبس تال للخلع على التعقيب . وخلع الشيء (من باب قطع) : نزعه ، وألقاه . والسيور : جمع سير : وهو ما يقد مستطيلا من الجلد ونحوه ، وتعلق به التمائم وغيرها : جمع تميمة : وهى عُوذة ، أو خرزة رقطاء ، أو نحوها تنظم فى السير ، ثم يعقد فى عنق الطفل ، يعوذونه بها . وهى — فى زعمهم — تدفع العين والحسد ، وتعصمه من الشر ، وتقيه السوء . وتعليق التمائم : كناية عن الطفولة والصغر . وخلعها : كناية عن مجاوزتهما ، وبلوغ الرشد . والحمائل : جمع حمالة (بوزن رسالة) : وهى علاقة السيف ونحوه . والمخذم : السيف القاطع : اسم آلة من خذمه (من باب ضرب) : أى قطعه بسرعة . ولبس حمائل المخذم : كناية عن الرجولة والقوة ، والاضطلاع بمهام الحياة . وفى هذه الكناية أيضاً إشارة إلى التأهب لمعارك القتال ، ومعامع الحرب والنزال .

يشير إلى أطوار نشأته وتربيته بمصر . ويقول : إنه لما جاوز طور الطفولة دخل توًّا فى طور الرجولة . والبيت الآتى تعزيز وتأكيد وتفصيل لهذا المعنى .

(١٤) غنيت بكذا عن كذا : اكتفيت بالأول ، واستغنيت عن الثانى (وبابه رضى) . والقلة (بوزن الكرة) : من لعب الصبيان : وهى عود صغير ، غليظ الوسط ، دقيق الطرفين ، يرمى على الأرض ، ثم يهمز بالمقلى ؛ فيرتفع فى الهواء قليلا ، فيضرب بالمقل ضربة أخرى قوية ، فينطلق كالسهم ، ويجرى وراءه الصبيان . وعامل الرمح : أعلاه ، وصدره : وهو ما يلى سنانه . والأسمر : الرمح : وهو قناة فى رأسها سنان من الحديد الصلب يطعن به . وسلا عن الشيء (من باب سما) : نسيه وطابت نفسه بعد فراقه ، والمهد : الفراش ، أو السرير يهيأ للصبى ويوطأ لينام فيه . والصهوة : موضع السرج من ظهر الفرس . وصهوة كل شيء : أعلاه . والدهمة : السواد . وفرس أدهم : اشتدت ورقته ، أى سمرته ، حتى ذهب بياضه .

بانتقاله من طور الطفولة والصبا إلى طور الشباب والرجولة استغنى عن لُعب الأطفال ، وزهد فيها ، واستبدل بها أدوات الحرب ، وأسلحة القتال ؛ ونسى المهد ، وطابت نفسه بفراقه . واعتلى صهوات الخيل ، وتمرس بركوبها ، وأولع بالفروسية .

وَفَجَّرْتُ يَنْبُوعَ الْبَيَانِ بِمَنْطِقٍ عَذْبٍ ، رَوِيْتُ بِهِ غَلِيلَ الْحُوَّمِ (١٥)

وَلَكَمْ أَثَرْتُ غَيَابَةً مِنْ قَسْطَلٍ بِمُهَنَّدٍ ، وَحَلَلْتُ عُقْدَةَ مُبْرَمِ (١٦)

أَخْتَالُ طَوْرًا فَوْقَ ذِرْوَةِ مِنْبَـرٍ وَأَكُرُّ طَوْرًا فَوْقَ نَهْدٍ شَيْظَمِ (١٧)

---

(١٥) فجر الماء (من باب نصر) : بجسه : أى شق له طريقاً ، وفتح له منفذاً ، فسال وجرى . والينبوع : عين الماء . ومن المجاز : فجر الله على لسان فلان ينابيع الحكمة . والبيان : المنطق الفصيح . والحجة . والكلام يكشف عن حقيقة حال ، أو يحمل فى طياته بلاغاً . وينبوع البيان : أى البيان الشبيه بالينبوع ، فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . والمنطق : الكلام . وعذب : سائغ سهل . وعذوبة الكلام : سهولته وبلاغته وحسن موقعه فى الأسماع والقلوب . ورويت : سقيت . والغليل : شدة العطش ، وحرارته . والحوّم : العطاش : جمع حائم : اسم فاعل من حام (من باب قال) : أى عطش .

يفتخر بانطلاق لسانه ، وعذوبة بيانه ، وروائع أدبه : شعره ، ونثره . ويقول : إن هذا الأدب الرفيع البديع ، الممتع الرائع يقع من نفوس الناس موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

(١٦) « ولكم » : « اللام » : لام الابتداء : يبتدأ بها الكلام ، وتؤكد مضمون الجملة بعدها . و« كم » : اسم يفيد التكثير . وأثرت : هيّجت ، ونشرت . والغيابة : كل ما غيّب شيئاً ، وستره ، وواراه . و« من » بيانية . والقسطل : بيان للغيابة : وهو الغبار الساطع الذى تثيره فى الحرب سنابك الخيل ، وحركات المتحاربين . وكثرة ما أثاره فى الحروب من غيابات القساطل : كناية عن أنه محارب شجاع ، شديد البأس ، يقود جنده قيادة قوية مستبسلة . والمهند : السيف المطبوع من حديد الهند . وكان أجود السيوف عندهم . ومبرم : موثق محكم . وأصله الخيط ، أو الحبل من طاقين يفتلان حتى يصيرا واحداً .

يتمدح بشجاعته فى الحروب . ومقدرته على الحل والإبرام . وحسن تصرفه فى الأمور .

(١٧) اختال اختيالاً : تبختر وتكبر ، وتمايل فى مشيه من الزهو والإعجاب بالنفس ، والثقة بها . والطور : المرة ، والتارة . وذروة كل شىء (بكسر الذال وضمها) : أعلاه . وكر الفارس (من باب رد) : عاد مرة بعد أخرى ؛ وذلك إذا فرّ للجولان ، ثم عاد للقتال . وكرّ على عدوه : حمل عليه فى الحرب ونحوها : أى هجم . وفرس نهد : قوى ضخم . وفى الأصل المخطوط « نهر » بالراء وهو من أخطاء الناسخ . والشيظم من الخيل والإبل : الطويل الجسيم ، الفتىّ القوىّ ، السريع .

يفتخر بتبريزه فى مجال الخطابة ، ومهارته فى ركوب الخيل ، وتمرسه بالكرّ والفرّ ، وشجاعته فى ميادين الحرب والقتال .

حَتَّى رَبَأْتُ مِنَ الْمَعَالِي هَضْبَةً ... شَمَّاءَ تَزْلَقُ أَخْمَصَ الْمُتَسَنِّمِ (١٨)

نَشَأَتْ بِطَبْعِي لِلْقَرِيضِ بَدَائِعُ ... لَيْسَتْ بِنِحْلَةِ شَاعِرٍ مُتَقَدِّمِ (١٩)

يَصْبُو بِهَا «الْحَكَمِيُّ» صَبْوَةَ عَاشِقٍ ... وَتَخِفُّ مِنْ طَرَبٍ عَرِيكَةُ «مُسْلِمِ» (٢٠)

---

(١٨) ربأت : علوت ، وارتقيت ، وارتفعت . والمعالى : جمع المعلاة : وهى الرفعة والشرف . والهضبة : الجبل المنبسط ، الممتد على وجه الأرض ، وجمعها هضاب . وشماء : عالية مرتفعة . و « من » : بيانية . والترتيب الأصلى لهذا الكلام : « حتى ربأت هضبة شماء من المعالى » . وزلقت القدم (من باب تعب) : لم تثبت ، وزلت ، وسقطت ، وأزلقها إزلاقاً : أزلها وأسقطها . والأخمص : باطن القدم الذى يتجافى عن الأرض . ويراد به هنا : القدم . والمتسنم : اسم فاعل من تسنمت البعير : أى ركبت سنامه . ومن المجاز : تسنم فلان ذروة الشرف : أى علاها وارتقاها .

فى البيت السابق افتخر بتبريزه فى حلبات الفصاحة والخطابة ، وساحات الوغى والقتال . وفى هذا البيت نوه بالغاية التى وصل إليها ، والمرتبة التى ارتقاها ؛ فقد تسنم ذروة المجد والشرف ، وبلغ فى الرفعة والعلاء المنزلة التى تناسب همته ، ولا تنطاع لسواه .

(١٩) نشأت : حدثت ، وتجددت . والقريض : الشعر . وبدائعه : روائعه المعجبة المطربة التى بلغت الغاية ، وفاقت الأشباه والنظائر . ومعنى الشطر الأول : أن شعره مطبوع ، أى يجرى على الطبع والسليقة ، ولا يعيبه التكلف والتصنع . وهو إلى هذا بديع مستحدث ، رائق فائق . والنحلة (بكسر فسكون) : اسم من انتحل فلان شعر غيره أو قول غيره : إذا ادعاه ، ونسبه إلى نفسه . يريد أن شعره من إنشائه وابتداعه ، وليس فيه شىء منتحل . والشطر الثانى تأكيد لمعنى الشطر الأول .

افتخر بأنه ينظم الشعر باستعداد فطرى قوى فائق ، وأنه يأتى فيه بالروائع والبدائع ، ولا يدعى لنفسه شيئاً من شعر غيره .

(٢٠) صبا إلى الشىء يصبو صبوة (من باب سما) : مال إليه ، وحن ، وتشوق . ويلاحظ أن الشاعر عدّى هذا الفعل بالباء ؛ كأنه ضمنه معنى أولع ، أو أغرم ، أو هام ، أو نحو هذا . وقد تكون الباء هنا للسببية ، أو للتبعيض . وبها : أى ببدائع شعره . والحكمى (١٤٦ — ١٩٨هـ) (٧٦٣ — ٨١٤ م) : أبو نواس ، الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمى : شاعر العراق فى عصره . ولد فى الأهواز (من بلاد خوزستان) ، ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد ، فاتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس ، ومدح بعضهم . ثم خرج إلى دمشق . ومنها إلى مصر ، فمدح أميرها الخصيب بن عبد الحميد العجمى ، ثم عاد إلى بغداد ، فأقام بها إلى أن توفى فيها . وقد أعجب بشعره كثير من أئمة الأدب ، ولم يقل الشعر إلا بعد أن روى لكثرة شعراء العرب وشواعرهم . وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ونظمه فى جميع فنونه وأغراضه ، وأشهره وأجوده خمرياته . وله ديوان شعر مطبوع . وتخف : تسرع ، وتنشط وتهتز . والطرب : خفة من سرور وفرح ، أو من هم =

قَوَّمْتُهُ بَعْدَ اعْوِجَاجِ قَنَاتِهِ ... وَالرُّمْحُ لَيْسَ يَرُوقُ غَيْرَ مُقَوَّمِ (٢١)

فِقَرٌ يَكَادُ السِّحْرُ يَبْلُغُ بَعْضَ مَا ... فِي طَيِّهَا لَوْ كَانَ غَيْرَ مُحَرَّمِ (٢٢)

= وحزن. وطرب للغناء (من باب فرح) : أى ارتاح له، ونشط ، واهتز . والعريكة : الطبيعة ، والنفس. ومسلم (٧٤٧ - ٨٢٣م) : أبو الوليد ، مسلم بن الوليد الأنصارى ، الملقب بصريع الغوانى : من الشعراء النابهين المبرزين فى العصر العباسى الأول . أجاد الشعر وهو صبى . ومدح الرشيد والبرامكة . وكان خليعاً ماجناً ، ثم جنح للنسك والعبادة ، وظل متنسكاً حتى مات بجرجان ، بالقرب من بحر قزوين سنة ٢٠٨ هـ .

فى البيت السابق افتخر بأن شعره كله بدائع وروائع بعيدة عن التكلف والتنحل ، جارية على الطبع والسليقة . وفى هذا البيت : أن هذه البدائع والروائع تعجب المتقدمين من فحول الشعراء وتطربهم . ولو رواها أبو نواس ومسلم بن الوليد وأمثالهما لتعلقوا بها أشد التعلق ، وحرصوا عليها كل الحرص .

(٢١) قومته : قومت شعرى: أى عدلته ، وأزلت عوجه . والمصدر التقويم . ومثله أو قريب منه التهذيب ، والتحرير ، والتنقيح . والقناة (فى الأصل) : الرمح الأجوف . وكل عصاً مستوية ، أو معوجة . وتقويم قناة الشعر : تعبير مجازى فى معنى التهذيب والتحرير والتنقيح : أى تخليص الكلام من عيوبه ، وإخراجه جيداً محكماً رائقاً . والرمح : قناة فى رأسها سنان من الحديد الصلب يطعن به . ويروق : يعجب وييسر . (وبابه قال) : ومقوّم : اسم مفعول من التقويم : بمعنى التعديل والتهذيب والتشذيب والإصلاح .

عنى البارودى بتحرير شعره وتنقيحه قبل إقراره وإعلانه مقتدياً بمن سبقوه إلى تهذيب كلامهم ، كالشاعر الجاهلى الحكيم زهير بن أبى سلمى ؛ إذ كان صاحب روية ، يحذف فضول الكلام وحشوه ، ويهذب ما يقول . والشطر الثانى تذييل مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فالرمح إنما يصلح للاستعمال ويعجب ويروق بعد تقويمه وتعديله ، وتشذيبه وإصلاحه .

(٢٢) فقر الكلام والشعر : نكته ، وجمله ، وأجزاؤه ، وأشطره ، وأبياته . والفقر (فى الأصل) : عظام السلسلة الظهرية . الواحدة فِقْرة (بكسر فسكون . أو بفتح فسكون) . ويراد بما فى طيها : ما تنطوى عليه الفقر ، أى الأبيات ، أى ما تتضمنه وتشتمل عليه من المزايا التى ترفعها فوق مرتبة السحر الحلال ، كروعة التأليف ، وإبداع التركيب ، وحسن الإخراج ، وقوة التأثير فى الأسماع والأبصار والقلوب والأذهان .

بالغ البارودى فى هذا البيت ، فجعل شعره فوق السحر الحلال ، أى أبلغ منه ، وأشد تأثيراً فى النفس . وهى مبالغة مألوفة مقبولة .

مُتَشَابِهُ الطَّرَفَينِ ، يُنْبِئُ صَدْرُهُ عَمَّا تَلَاحَقَ : فَهْوَ بَادِى الْمَعْلَمِ [٢٣]

أَحْكَمْتُ مَنْطِقَهُ بِلَهْجَةِ مُفْلِقٍ يَقِظِ الْبَدِيهَةِ ، فِى الْقَرِيضِ مُحَكَّمِ [٢٤]

يَبْتَذُّ أُهْبَـةَ كُلِّ فَارِسِ بُهْمَةٍ وَيَزُمُّ شِقْشِقَةَ الْفَتِيقِ الْمُقْرَمِ [٢٥]

---

(٢٣) تشابه الطرفان : أشبه كل منهما الآخر . وأنبأه بكذا ، وأنبأه كذا . وهو هنا مضمن معنى فعل يتعدى بـ « عن » مثل « يكشف » . أو أن « عن » هنا : مرادفة « الباء » . وتلاحق : تتابع وتوالى . وباد : واضح . والمعلم (بوزن المذهب) : العلامة (بوزن الرمانة) : وهى الأثر . وما يستدل به على الطريق . ويريد بتشابه طرفى شعره ، وإنباء صدره ، أى مقدمه بما تتابع بعده : أن شعره متماثل فى الوضوح والبيان . وبادى المعلم : أى واضح المعالم ، لا يكاد يخفى منه شىء . وهو تأكيد لما قبله .

هذا البيت والذى قبله مطموسان فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا . وعلى الرغم من طمسهما استطعنا قراءتهما ، وآثرنا نشرهما .

(٢٤) أحكمت : أتقنت . ومنطقه : منطق شعرى : أى النطق به بعد حبك نسجه ، وإتقان نظمه وتأليفه . واللهجة : اللسان ، ولغة الإنسان التى جبل عليها ، فاعتادها . وأفلق الشاعر : أتى بالعجيب البديع الرائق الفائق ، فهو مفلق . والبديهة : حضور الجواب ، وسداد الرأى عند المفاجأة . ويراد بيقظة البديهة هنا زيادة على ما تقدم : صفاء الذهن ، وفطنة الشاعر ، وتمام استعداده لنظم الشعر فى شتى فنونه وأغراضه . ومحكَّم : حكم يفصل بين المتحاكمين .

يتمدح بفصاحة لهجته ، ويقظة بديهته ، وصفاء ذهنه ، وإتقان شعره ، وإحكام منطقه ، وإخراجه للناس مهذباً فائقاً ، وهو إلى هذا كله من نقدة الشعر ، المحكَّمين فيه .

(٢٥) يبتذ : يأخذ أخذ مغالبة ومقاهرة ومنازعة . وفاعله : ضمير الشعر . والأهْبة : العدَّة أى الاستعداد . والفارس : الماهر فى ركوب الخيل ، المتمرس بحسن استخدامها فى الحروب وغيرها . والبهمة (بضم فسكون) : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته : أى لا يستطيع أقرانه وأنداده التغلب عليه ، أو النيل منه . ومن كلامهم : « فلان فارس بهمة ، وليث غابة » . ويراد بفارس البهمة هنا : البارع المتفوق فى قول الشعر . وابتذاذ أهبته : إحباط عدته ، وكسر شوكته ، والتغلب عليه . وزم البعير ونحوه (من باب رد) : خطمه : أى جعل على أنفه خطاماً : أى زماماً ، وشده به . وفى الأصل المخطوط « يذم » بالذال . وهو من أخطاء الناسخ . والشقشقة : شىء كالرئة ، يخرجه الجمل من فيه إذا هاج وهدر . ويقال للفصيح : « هدرتْ شقشقته » : أى أفصح فى الكلام . ويراد بالشقشقة هنا : الفصاحة واللسن . والفتيق : الفصيح ، الحاد اللسان . والمقرم (بصيغة اسم المفعول) : السيد المعظم المكرم . ويراد بالفتيق المقرم : الشاعر المفلق . وزمّ شقشقته : كناية عن قهره =

ذَلَّلْتُ مِنْهُ غَوَارِبًا لَا تُمْتَطَى ... وَخَطَمْتُ مِنْهُ مَوَارِنًا لَمْ تُخْطَمِ (٢٦)

شِعْرٌ جَمَعْتُ بِهِ ضُرُوبَ مَحَاسِنٍ ... لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلِي لِحَيٍّ مُلْهَمِ (٢٧)

فَإِذَا نَسَبْتُ فَتَنْتُ كُلَّ مُقَنَّعٍ ... وَإِذَا نَأَمْتُ ذَعَرْتُ كُلَّ مُلَثَّمِ (٢٨)

= والتغلب عليه ؛ فهو فى معنى ابتذاذ الأهبة . والشطر الثانى فى معنى الشطر الأول .

والبيت مبالغة فى الفخر بشعره ، وتصوير مقدرته الشعرية ، ومنزلته بين الشعراء ؛ فهو يسكت منافسيه ؛ ويغلب أنداده ونظراءه ، ويفوق الفائقين ، ويبزّ المفلقين .

(٢٦) ذللت : سهلت : ومهّدت ، ويسرت . ومنه : من الشعر . والغوارب : جمع الغارب . وهو من البعير : ما بين سنامه وعنقه . ولا تمتطى : لا تركب : أى لا يسهل ركوبها . وخطمت البعير ونحوه (من باب ضرب) : جعلت الخطام : أى الزمام ، على خطمه : أى مقدّم أنفه وفه . وبالخطام أو الزمام تقاد الدابة وتذلل . ومنه : من الشعر . والموارن : جمع مارن : وهو الجزء اللين من الأنف . والشطر الثانى فى معنى الشطر الأول . و « غوارب » و« موارن » ممنوعان من الصرف ، أى التنوين ؛ لأنهما على صيغة منتهى الجموع . وضرورة وزن الشعر تبيح تنوين الممنوع من الصرف ، كما تبيح العكس ، أى منع المصروف من التنوين .

يقول : إنه ذلل غوارب الشعر ، وخطم موارنه ، وطوّعه للامتطاء والركوب . يريد أنه بعثه من مرقده ، وكشف أستاره ، ورفع مناره ، ويسر لغيره طريقه ، وذلل مصاعبه ، ورد إليه ما كان له فى أزهى عصوره من البهجة والرواء ، والقوة والازدهار . أو المعنى : أنه امتطى من الشعر مطايا لم يمتطها أحد قبله ، وخطم ما لم يخطم من موارنه ، يكنى بهذا عن أنه استحدث فى شعره ما لم يسبق إليه من الروائع والبدائع ، وما يتعصى على غيره من الطرائف واللطائف .

(٢٧) جمعت به : جمعت فيه ؛ فالباء هنا : بمعنى « فى » كما فى قول الله تبارك وتعالى : «ولقد نصركم الله ببدر» . (الآية رقم ١٢٣ من سورة آل عمران) . وضروب : صنوف ، وأنواع : جمع ضرب . ومحاسن جمع على غير قياس لحسن . وكأنه جمع محسن (بوزن مذهب) . ويراد بالحى : الإنسان ، أو الشاعر . وشاعر ملهم : شاعر موفق موهوب : اسم مفعول من الإلهام : مصدر ألهمه الله الخير : أى أوحى إليه به ، وألقاه فى روعه ، ولقّنه إياه ، ووفّقه له .

والمعنى : أنه بعبقريته ، وقوة شاعريته استطاع أن يجمع فى شعره مزايا وأنواعاً من المحاسن لم تجتمع لغيره من فحول الشعراء .

(٢٨) نسب الشاعر بفلانة : شبب بها فى شعره : أى تغزل بها ، ووصف محاسنها ومفاتنها ، وشدة تعلقه بها . والنسيب : الشعر المتغزل به . وهو أرق الشعر وأعذبه . وفتنت : استملت واستهويت . والمقنع : المستور الوجه بالقناع ونحوه . وهو هنا كناية عن المرأة المحجبة . ونأمت القوس (كضرب ومنع) نئيماً : صوتت . وكانت من أدوات القتال : وهى آلة على هيئة هلال ، ترمى بها السهام . =

كَالرَّوْضِ تَسْمعُ مِنْهُ نَغْمةَ بُلْبُلٍ وَالْغِيلِ تَسْمَعُ مِنْهُ زَأْرَةَ ضَيْغَمِ (٢٩)

أَدْرَكْتُ قَاصِيَةَ الْمَحَامِدِ وَالْعُلَا وَشَأَوْتُ فِيهَا كُلَّ أَصْيَدَ مُسْنِمِ (٣٠)

فَأَنَا ابْنُ نَفْسِي إِنْ فَخَرْتُ ، وَإِنْ أَكُنْ لِأَغَرَّ مِنْ سَلَفِ الْأَكَارِمِ أَنْتَمِي (٣١)

= والنئيم أيضاً : صوت الأسد . وذعرت : خوفت ، وأفزعت . (وبابه قطع) . والملثم : كناية عن المحارب : وهو من غطى باللثام فمه وطرف أنفه .

يفتخر بأنه شاعر غزل يستهوى بغزله الحسان المحجبات . وهو إلى رقة نسيبه ، وعذوبة شعره — محارب شديد البأس ، قوى المراس ، يفزع فى الحرب أعداءه بصيحته ، أو بنأمة قوسه ، وقعقعة سلاحه .

أو المعنى : أن شعره فى الغزل والنسيب رقيق عذب ساحر ؛ يستميل الحسان المحجّبات ويفتنهن . وهو فى الحماسة جزل مستحكم القوة ، إذا أنشده فى الحرب حمّس به جنده ، وأرهب به المحاربين من أعدائه . والبيت الآتى يرجّح هذا المعنى .

(٢٩) الروض : أرض مخضرة بأنواع النبات . والنغمة : حسن الصوت ، والتطريب فى الغناء . والبلبل : طائر صغير من طيور الغرد ، ومن فصيلة الحوائم ، يضرب المثل بحسن صوته ، وطلاقة لسانه . والغيل : الأجمة : أى الشجر الكثير الملتفّ ، ومأوى الأسد . وزئير الأسد : صوته . واسم المرة منه زأرة . والضيغم : الأسد الواسع الشدق .

والمعنى : أن شعره متفاوت بتفاوت فنونه وأغراضه ؛ فهو فى النسيب ونحوه عذب رقيق سهل . وفى الحماسة ونحوها جزل قوى ضخم ؛ فنغمة البلبل : كناية عن الرقة والعذوبة والسهولة . وزأرة الضيغم : كناية عن الجزالة ، واستحكام القوة ، ومجانبة الرقة .

(٣٠) قاصية الشىء : غايته ، ونهايته ، وأقصاه . والمحامد : جمع محمدة (بوزن مسألة) : وهى ما يحمد المرء به ، أو عليه . والعلا : جمع العليا . ومثلها المعالى : جمع المعلاة . والعلا : الرفعة والشرف . وشأوت القوم (من باب عدا) : سبقتهم . وفيها : فى العلا والمحامد . والأصيد : المتكبر ، المزهو بنفسه . وكل ذى حول وطول من ذوى السلطان . ومن يرفع رأسه كبراً . وملك أصيد : لا يلتفت من زهوه يميناً ، ولا شمالاً . ومسنم بالنون : عال مرتفع : اسم فاعل من أسنم إسناماً : بمعنى علا وارتفع . أو هى « مستم » (بالتاء) : اسم فاعل من استمى الشىء استماء : أى نظر إلى سماوته وأعلاه . وهى من الإسنام ، أو الاستماء : صفة مؤكدة لمعنى « أصيد » من الصيد (بوزن الطرب) : وهو الزهو والتكبر ، والتيه ، والفخر ، والنظر العالى .

يفخر بأنه وصل إلى غاية ما يطمع فيه الأماجد الأعلام ، وظفر بأقصى ما يطمح إليه العظماء الأكارم من المعالى والمكارم ؛ وسبق فى هذا المجال كل عظيم سبّاق .

(٣١) أنا ابن نفسى : أى أنا عصامى ، سودتنى نفسى ، ونهضت بى كفاياتى وأخلاقى وأعمالى . ولم أعتمد على غيرها فيما أدركته من قاصية المحامد والعلا . والأغرّ : المشهور ، الكريم الفعال . والسلف : جمع سالف : اسم فاعل من سلف (من باب قعد) : أى تقدم وسبق . أو مضى وانقضى . =

وَالْفَخْرُ بِالْآبَاءِ لَيْسَ بِنَـافِـعٍ إنْ كَانَتْ الْأَبْنَاءُ خُورَ الْأَعْظُمِ (٣٢)

هَذَا ، وَرُبَّتَ لَذَّةٍ بَاشَـرْتُهَا فِى ظِلِّ أَخْضَرَ بِالْعَـرَارِ مُنَمْنَمِ (٣٣)

طَفِقَ النَّسِيمُ يَحُوكُ وَشْىَ بُـرُودِهِ بِأَنَامِلٍ تَمْرِى خُيُـوطَ الْمِرْزَمِ (٣٤)

= وسلف الرجل : آباؤه المتقدمون . والأكارم : جمع الأكرم : اسم تفضيل من الكرم . وأنتمى : أعتزى وأنتسب .

يقول : إن فخرت فإنما أفخر بنفسى ، لا بآبائى ، وإن كانوا من الغر الأطيبين الأكارم . افتخر فى الشطر الأول بأنه عصامىّ ؛ وفى الشطر الثانى بأنه عظامىّ .

(٣٢) خور : ضعاف. وخوار : ضعيف . والأعظم : العظام . واحدها عظم . وخَوَر أو خؤورة أعظم الأبناء : كناية عن ضعفهم .

والمعنى : أن المرء قد يكون من أصل ماجد قوى ، عزيز كريم ، فإذا خالف آباءه ، وسلك غير سبيلهم ، وفرط فى تراثهم ، وانحدر إلى مهاوى الخور والضعف ، لم ينفعه فخره بهؤلاء الآباء الأماجد الكرام ، ولم يغن عنه ما كان لهم من مجد وعز ، وجاه وسؤدد . وقد أجرى الشاعر هذا البيت مجرى الحكمة والمثل ، وأكد به معنى الشطر الأول من البيت السابق ؛ فالإنسان لا يحق له أن يفخر إلا بفضائله وأعماله العظيمة ، ومساعيه المحمودة .

(٣٣) اسم الإشارة فى أول هذا البيت يشعر بانتقال الشاعر من الأغراض السابقة إلى غرض آخر ، هو وصف بعض ما استمتع به من رياض مصر ، ومحاسن طبيعتها . و« رب » : حرف خافض يختص بالنكرة . ويفيد التقليل ، أو التكثير بحسب المقام وسياق الكلام . وتتصل به تاء التأنيث ساكنة ، أو متحركة ، فيقال : « ربّت » . وهو هنا للتكثير ؛ لأنه فى مقام الفخر والمباهاة ، والتحدث بكثرة اللذات التى باشرها : أى استمتع بها متعة تامة ، كأنما لامست بشرته بشرتها . والظل : ضوء شعاع الشمس إذا استترت عنك بحاجز . ويعبر بالظل عن الرحاب ، والكنف ، والرفاهة ، والنعيم ، والعز والمنعة ، والستر والوقاية ، وغضارة العيش ورغده ، ومتع الحياة وبهجتها . وأخضر : صفة لموصوف محذوف : أى فى ظل روض أخضر . والعرار (بفتح العين) : بهار ينبت بالبادية ، طيب الرائحة . واحدته عرارة . ويراد به هنا : أزهار الروض وأنواره ذات الرائحة العطرية الذكية . ومنمنم : مرقش مزين ، مزخرف .

يصف ما اغتنمه من متع الحياة ولذاتها فى ظلال روض نضير ، يزدان بأزهار طيبة الرائحة .

(٣٤) طفق يفعل كذا : أى بدأ ، وجعل ، وأخذ ، وشرع . أو واصل الفعل : أى استمر يفعله . وهو خاص بالإثبات ؛ فلا يأتى مع النفى . (وأبوابه طرب ، وجلس ، وضرب) . والنسيم : الريح الطيبة اللطيفة اللينة ، لا تحرك شجراً ، ولا تعفى أثراً . ويراد بالنسيم هنا : الرياح التى تثير السحاب. ويحوك : ينسج . والوشى : الثياب الموشية : أى المنقوشة . ووشى الثوب (من باب رمى) : حسّنه ، =

فَبِكُلِّ أُفْقٍ مُـــزْنَةٌ فَيَّـــاضَـــةٌ   وَبِكُلِّ أَرْضٍ جَدْوَلٌ كَالْأَرْقَمِ (٣٥)

هَاتِيكَ تَجْرِى فِى السَّماءِ كَأَنَّهَا   سُفُنٌ ، وَهَذَا فِى الْخَمَائِلِ يَرْتَمِى (٣٦)

فَالرَّوْضُ بَيْنَ مُوَشَّحٍ وَمُـــؤَزَّرٍ   وَالزَّهْرُ بَيْنَ مُدَنَّرٍ وَمُـــدَرْهَمِ (٣٧)

= ونمنمه ، ونقشه ، وزخرفه بالنقوش والألوان . وبروده : أى برود الروض : جمع بُرد (بضم فسكون) : وهو كساء مخطط يلتحف به . ويحوك وشى بروده : أى ينسج بروده ويوشيها ويزخرفها . والأنامل : أطراف الأصابع ورءوسها المنتهية بالأظفار . والريح تمرى السحاب (من باب رمى) : تستدره ، وتنزل منه المطر . ويراد بالخيوط : المطر يسقط من السحاب فى انسجام وتتابع واتصال ، كأنه الخيوط . والمرزم (بوزن المنبر) : من أنواء المطر : أى النجوم المبشرة بالمطر . وهما مرزمان مع الشعريين .

يصف أثر الرياح فى إسقاط الأمطار من السحب ، وأثر الأمطار فى إحياء الأرض ، وإنضار مثل هذا الروض ، وتزيينه بمختلف النبات والشجر ، وألوان الورد والزهر . ويلاحظ أن الكلمات والتعبيرات المجازية فى هذا البيت كثيرة متراكمة مزدحمة ؛ وقد مالت به إلى الثقل والتكلف ؛ وأخفت أو كادت تخفى فى أطوائها وجه الحقيقة المشرق المستنير . وهو فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا بديل بيت مضروب عليه بقلم الشاعر فيما نظن . ونصه :

سمك السماك مــن الغمام بحــوِّه   حبكاً ، وأرزم فيه نوء المرزم

وهما متماثلان فى التكلف والثقل .

(٣٥) الأفق : الناحية . والمزنة : السحابة الممطرة . وفياضة : صيغة مبالغة من فاض الماء : أى زاد ، وكثر حتى سال ، وجرى . والجدول : النهر الصغير . والأرقم : ذكر الحيات ، أو أخبثها . وجمعه أراقم . ويشبه الجدول بالأرقم فى الانسياب .

يصف كثرة السحب الممطرة ، وانتشارها فى الآفاق ، وكثرة الجداول وقنوات الماء ، وانسيابها بين الأشجار والزروع كالأراقم .

(٣٦) هاتيك : إشارة إلى المزنة فى البيت السابق. وهذا : إشارة إلى الجدول. والخمائل : جمع خميلة (بوزن سفينة) : وهى الموضع تكثر فيه الأشجار . والشجر المجتمع الكثيف الكثير الملتف ، الذى لا يرى فيه الشىء إذا وقع فى وسطه . ويرتمى : يزيد ويكثر . يشير بالارتماء إلى كثرة ما ينساب بين الخمائل من الأنهار والجداول ، وفيضان مياهها وغزارتها .

(٣٧) موشح : موشى ، مزخرف ، مزين . أو مكسو بأنواع النبات والزروع والزهور ؛ فهى تزينه كما يزين الوشاح لابسه . والمؤزر : اسم مفعول من التأزير : مصدر أزره : أى ألبسه الإزار : وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن . أو هو كل ما غطاك وسترك . ومن المجاز أزر النبات الأرض تأزيراً : أى كساها وغطاها . ومدنر (بصيغة اسم المفعول) : أى يشبه الدنانير . (وبصيغة اسم الفاعل) : أى مشرق متلألئ كالدينار : وهو نقد ذهبى قديم من نقود الدولة الإسلامية . =

طَلْقُ الْجَبِينِ، تَبَسَّمَتْ أَزْهَـارُهُ   عَنْ دُرِّ قَطْرٍ كَالْعُقُودِ مُنَظَّمِ (٣٨)

عَبِقُ الْإِزَارِ، كَأَنَّمَا جَرَتِ الصَّبَا   فِيهِ بِجُؤْنَةِ عَنْبَـرٍ لَمْ تُخْتَمِ (٣٩)

= دنر السكاك الذهب تدنيراً : أى ضربه دنانير ؛ فالزهر مدنّر على التشبيه بالدينار . ودنر الوجه تدنيراً : أى أشرق وتلألأ كالدينار ، فهو مدنر : أى مشرق متلألئ . ومدرهم (بصيغة اسم المفعول . أو بصيغة اسم الفاعل) : أى يشبه الدرهم : وهو قطعة من النقود الفضية القديمة . الأول من قولهم : رجل مدرهم (بفتح الهاء) : أى كثير الدراهم . والثانى من قولهم : درهمت الخبازى : أى صار ورقها كالدراهم .

فى البيت السابق شبه السحب الممطرة المتحركة فى السماء بالسفن الجوارى فى البحار . ونوه بكثرة الجداول وتدفقها بالمياه الغزيرة الجارية بين الخمائل والأشجار . وفى هذا البيت وصف أثر الأمطار والجداول فى إحياء الأرض ، واكتساء مثل هذا الروض بأنواع الزروع والنبات، وتزينه بما يشبه الدراهم والدنانير من ألوان الورد والزهر .

(٣٨) الجبين : ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة أو شمالها . وهما جبينان . وقد يطلق على الجبهة ، وعلى الوجه . وطلق : صفة من الطلاقة : وهى تهلل الوجه ، وإشراقه ، واستبشاره . وتبسم الإنسان : انفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكاً بدون صوت . وهو أخف الضحك وأحسنه. وتبسم الأزهار : تفتحها الجزئى ، وظهورها فى أجمل صورها. والدر : اللؤلؤ . واحدته درة. والقطر : المطر. واحدته قطرة. ويراد به هنا : الندى : وهو بخار الماء ، يتكاثف فى طبقات الجو الباردة فى أثناء الليل ، ثم يسقط على الأرض قطرات صغيرة ، تحملها الأزهار وأوراق الأشجار فى الصباح . ودر قطر : أى قطر يشبه الدر فى النقاء والصفاء والتلألؤ . والعقود : جمع عقد (بكسر فسكون) : وهو خيط ينظم فيه الخرز أو اللؤلؤ أو نحوهما ، ويحيط بعنق المرأة للزينة . ومنظم : منظوم ، منسق .

وصف هذا الروض بطلاقة الجبين والإشراق والرواء . وقال : إن أزهاره تفتحت فى أجمل صورها . وضاعف جمالها وبهاءها ما تحمله أوراقها من قطرات الندى فى الصباح . وشبّه هذه القطرات بما يزين النساء من قلائد الجواهر ، وعقود الدرر واللآلئ المنسقة .

(٣٩) عبق به الطيب (من باب فرح) : لزق به ، وظهرت فيه رائحته الذكية العطرية ؛ فهو عبق . وإزار الروض : ما يكسوه ويزينه من الشجر والزرع والنبات والزهر . والصبا : (بفتح الصاد) : ريح مهبها من مشرق الشمس . وهى أحب الرياح إلى العرب ، وأطيبها فى جزيرتهم ؛ ولهذا لهج بها شعراؤهم . وفيه : فى الروض . والجؤنة (بالهمز والتليين) : سفط صغير : أى سليلة مستديرة ، مغشاة بالجلد ، يحفظ فيها العطار الطيب . والعنبر : مادة صلبة ، لا طعم لها ، ولا ريح إلا إذا سحقت ، أو أحرقت . ولم تختم : أى مفتوحة ، يفوح منها الطيب وينتشر .

والبيت فى وصف ما تحمله ريح الصبا وتنشره من روائح الأزهار والرياحين التى تكسو هذا الروض الأريض .

صَبَحَ الْغَمَامُ غُصُونَهُ ، فَتَرَنَّحَتْ طَرَبًا لِرَجْعِ الطَّائِرِ الْمُتَرَنِّمِ (٤٠)

فَنَسِيمُهُ أَرِجٌ ، وَطَائِرُ أَيْكِهِ هَزِجٌ ، وَجَدْوَلُهُ بَرُودُ الْمَبْسِمِ (٤١)

يَسْتَوْقِفُ الْأَلْبَابَ حُسْنُ رُوَائِهِ وَيَصِيدُ عَيْنَ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ (٤٢)

---

(٤٠) صبحه (من باب فتح) : سقاه الصَّبوح : وهو شراب الصباح . والغمام : السحاب . واحدته غمامة . ويراد بالصبوح : حب الغمام ، أو حب المزن ، أو البَرَد (بفتح الباء والراء) : وهو الماء الجامد ينزل من السحاب قطعاً صغاراً . وترنحت : تمايلت واهتزت . والطرب : مصدر طرب الإنسان (من باب فرح) : أى خف واهتز لشدة حزن ، أو شدة فرح وارتياح . ورجع الصوت : صداه . ورجّع الطائر ترجيعاً : شدا ، وترنم ، وردد صوته . وترنم : طرّب بصوته ، وشدا ، وتغنى ، فهو مترنم .

يصف سقوط حب المزن على أغصان الشجر صباحاً فى هذا الروض الأريض ، وتمايلها بحركات الرياح اللينة اللطيفة ، وحركات الطيور المغردة فوقها . وقد تخيل أن الأغصان ترنحت لما شربت الصبوح ، وأطربها شدو الطير وترنيمه .

(٤١) أرج الطيب (من باب فرح) : فاح ، وانتشرت رائحته الذكية . ونسيم أرج : أى عطر بما يحمله من شذا الورد والزهر والرياحين . والأيك : جمع أيكة : وهى الشجر الكثير الملتف . والهزج : التغنى والتطريب ، وكل صوت فيه ترنم خفيف مطرب . وطائر هزج : يغرد ، ويطرّب . (وفعله من باب فرح) . والجدول (بوزن جعفر) : مجرى صغير ، يشق فى الأرض للسقيا . والبرود : (بوزن رسول) : كل ما برد به شىء ، كالشراب تبرد به الغلة : وهى العطش الشديد ، أو حرارته . وجدول برود : أى ماؤه عذب بارد ناقع مرو . والمبسم (بوزن المجلس) : الثغر : وهو مقدم الأسنان ، وموضع الابتسام . ويراد به هنا : المذاق . من قولهم : « والله ما بسمت فيه » : أى ماذقته .

مازال الشاعر يتغنى بمحاسن الطبيعة ومباهجها فى هذا الروض الأريض ؛ فنسيمه متعطر بشذا أزهاره ورياحينه . ومياه جداوله عذبة رائقة ، باردة ناقعة . وأشجاره كثيرة ملتفة ناضرة ، تغرد الطيور عليها تغريد النشوة والارتياح والابتهاج .

(٤٢) الألباب : العقول . واحدها لب . والرواء : المنظر الحسن . والمتوسم : اسم فاعل من توسمت فيه الخير : أى تبينت فيه أثره ، وتعرفته . وتوسم الشىء : تفرسه وتخيله .

ينوه بما امتاز به هذا الروض النضير الزاهر من حسن الرواء ، والبهجة والبهاء ؛ وبهذا يصيد النواظر ، ويقيد الأنظار ، ويجتذب الألباب ، ويختلب القلوب .

وهذا البيت ختام عشرة أبيات (٣٣ — ٤٢) وصف بها الشاعر ما استمتع به من مشاهد الطبيعة الساحرة فى الرياض والبساتين ، والأزهار والرياحين ، والجداول والأنهار ، والغمام والبرد ، وطيور الغرد .. وهو فى الأبيات الآتية إلى نهاية هذه القصيدة يتجه إلى ما يشبه الحكمة ، والزهد ، والتزهيد فى الدنيا ، =

وَالْمَرْءُ طَوْعُ يَدِ الزَّمَانِ ، يَقُودُهُ قَوْدَ الْجَنِيبِ لِغَـايَةٍ لَمْ تُعْلَمِ (٤٣)

فَلَكٌ يَدُورُ ، وَأَنْجُمٌ لَا تَـأْتَلِي تَبْدُو وَتَغْرُبُ فِى فَضَاءِ أَقْتَمِ (٤٤)

= والنصح والإرشاد ، وتوجيه الأبصار والبصائر إلى ظواهر الكائنات وخوافيها ، وانطياع الإنسان للزمان .. وفى أثناء هذه المعانى وما يتصل بها استطرد لذم الجبناء ، وحض على الإقدام ، وافتخر بشجاعته فى الحروب ، وكثرة ما ظفر به من وجوه النصر ..

(٤٣) المرء (مثلثة الميم) : الإنسان . وطوع يد الزمان : أى منقاد له تمام الانقياد . من قولهم : « هو طوع يدك ، أو إرادتك » : أى خاضع لك ، منقاد ، منطاع . وقاد الإنسان الدابة (من باب قال) : مشى أمامها آخذاً بمقودها . والجنيب : الفرس ، أو الأسير ، أو نحوه ، تسيطر عليه ، وتقوده إلى جنبك : فهو فعيل بمعنى مفعول ، من جنبه (من باب قتل) : أى قاده إلى جنبه .

يقول : إن الزمان يسيطر على الإنسان سيطرة تامة ، ويسلبه إرادته واختياره ، ويقوده على الرغم منه إلى غايات ونهايات مجهولة . ولعله يقصد إلى الوعظ والإرشاد ، بتنبيه الإنسان على ضعفه فى يد القضاء والقدر ؛ فهو منطاع مستسلم ، لا يستطيع الفكاك مما قدر له ، وهو إلى هذا يجهل مستقبله كل الجهل ، ولا يكاد يعرف ما ينتهى إليه أمره . وفى القرآن الكريم : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » (الآية رقم ٣٤ من سورة لقمان) .

(٤٤) الفلك : الفضاء فى السماء يدور فيه النجم . وجمعه أفلاك . وقد يطلق الفلك ، ويراد به النجم . ويراد بالفلك الدائر : دوران النجوم ، والكواكب فى أفلاكها . وفى القرآن الكريم : « وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » (الآية رقم ٣٣ من سورة الأنبياء) . والأنجم : النجوم . واحدها نجم : وهو الكوكب . ولا تأتلى : لا تقصر ، ولا تفتر ، ولا تتوانى . وهو لا يأتلى أن يفعل كذا : أى يدأب فيه ، ويستمر بلا فتور أو تقصير . وتبدو : تظهر . وتغرب : تغيب . وغربت الشمس (من باب دخل) : أى اختفت فى مغربها . والأقتم : القاتم : وهو ما كان لونه أغبر ضارباً إلى سواد أو حمرة : من القتمة (بضم فسكون) : وهى لون فيه غبرة وحمرة (بضم فسكون فيهما) ، أو سواد غير شديد .

فى البيت السابق قرر أن الزمان يتحكم فى الإنسان ، وأن المقادير تسيره وتقيده وتسيطر عليه ، وتقوده إلى غايات يجهلها كل الجهل ، ولا يكاد يستبين منها شيئاً . والغرض من هذا التقرير أن يحد الإنسان عن غلوائه ، وتكبره ، وتجبره فى أرض الله . وفى هذا البيت وجه الأبصار والبصائر إلى الكواكب والنجوم الدائرة فى أفلاكها ، وما يعتورها من الشروق والغروب فى ذلك الفضاء الوسيع القاتم الهائل . ولعل الصلة بين هذين البيتين أن الإنسان إذا تدبر ما يراه من ملكوت الله ، علم أنه خلق ضئيل فى هذا العالم العظيم ؛ فاستيقظ عقله وضميره ، واستقام تفكيره وتدبيره ، وصح إدراكه وفهمه ، ونفعته معارفه ، وتجاربه ؛ فاهتدى إلى سواء الصراط ، وسبيل الحق والرشاد . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن الحكيم : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الآية رقم ٥٧ من سورة غافر) .

صُوَرٌ إذَا نَادَيْتها لمْ تَسْتَجِبْ ... أَوْ رُمْتَ مِنْهَا النُّطْقَ لَمْ تَتَكَلَّمِ (٤٥)

فَدَعِ الْخَفِيَّ ، وَخُذْ لِنَفْسِكَ حَظَّهَا ... مِمَّا بَدَا لَكَ ؛ فَهْوَ أَهْنَأُ مَغْنَمِ (٤٦)

لَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ يَبْلُغَ مَا نَأَى ... عَنْهُ ، وَلَوْ صَعِدَ السَّمَاءَ بِسُلَّمِ (٤٧)

---

(٤٥) صور (بضم الصاد وكسرها) : جمع صورة :وهى الشكل ، والتمثال المجسم . وصورة الشىء : ماهيته المجردة، وخياله فى الذهن أو العقل. وصفته ، وهيئته ، ونوعه ، ووجهه . وكل ما يصور. ويراد بالصور هنا : ما نراه من ظواهر الكائنات الصامتة ، متحركة ، أو ساكنة . وما أشار إليه فى البيت السابق من الأفلاك والنجوم والكواكب ، والفضاء الأقتم . ولم تستجب : لم تجب . استجابه ، واستجاب له استجابة ، وأجابه إجابة : رد إليه الجواب ، وأفاده عما سأل . ورام الشىء (من باب قال) : أراده ، وطلبه ، وابتغاه .

والمعنى : أننا لا نرى من الكائنات التى مثّل لها فى البيت السابق غير صورها وظواهرها . أما ما وراء هذه الصور والظواهر من الخفايا والأسرار ، والحقائق والجواهر ، والكيفيات والغايات — فلا سبيل إلى اكتناهه أو تعرفه . والبيت الآتى يعزز هذا المعنى ويؤكده .

(٤٦) دع : اترك . وهو أمر يراد به النصح والإرشاد . والحظ : الحصة والنصيب . وبدا : ظهر ، واتضح . والبادى : الظاهر الواضح المكشوف . وضده الخفى المحجّب المستور . وأهنأ : اسم تفضيل من هنؤ الشىء (من باب ظرف) : أى تيسر من غير كد أو مشقة . أو من هنئ له الطعام (من باب فرح) : أى ساغ ، ولذ ، وطاب . وهنأنى الطعام والشراب (من بابى نفع وضرب) : أى ساغ ولذّ لى . والمغنم : الغنيمة : وهى ما يأخذه المحارب من عدوه عنوة وقهراً . أو هى المكسب . وكل ما ظفر به المرء ، وفاز به . ويقال مغنم بارد : أى طيب . وجمعه مغانم .

ينصح أن يأخذ كل امرئ لنفسه ما ينفعها من ظواهر الكون ، وصور الكائنات ، والمعارف القريبة المفيدة المهيأة للإنسان ؛ فإنها خير المغانم وأيسرها . وينهى عن الكد فى طلب ما لا يتسنى لنا إدراكه من الخفايا والغيوب والمحجبات التى لا سبيل إليها ، ولا قدرة لنا عليها . والبيت الآتى يكرر هذا المعنى ويؤكده .

(٤٧) لا يستطيع المرء يبلغ : أى لا يستطيع المرء أن يبلغ ، بتقدير « أن » المصدرية الناصبة ، وتأويلها مع المضارع بمصدر يعرب مفعولاً به : أى لا يستطيع المرء بلوغ ما نأى عنه : أى النائى القصىّ البعيد الذى لم يتهيأ بفطرته واستعداده لبلوغه وإدراكه .

والمعنى : أن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى ما لم يقدر له ، ولو توسل إليه بكل الوسائل . وهو تأكيد لمعنى البيت السابق ، وتكرار للنهى عن طلب الخفايا والغيوب التى لا سبيل إليها ، ولا قدرة لنا عليها .

بَيْنَا يَشقُّ بِهِ الْجِوَاءَ تَـرَفُّعًـا ... أَهْوَى بِهِ فِي كِسْرِ بَيْتٍ مُظْلِمِ (٤٨)

إِنَّ الْحَيَاةَ شَهِيَّةٌ مَا لَمْ تَكُنْ ... غَرَضًا لِإِمْرَةِ ظَالِمٍ لَمْ يَرْحَمِ (٤٩)

لَا أَرْتَضِي عَيْشَ الْجَبَانِ ، وَلَا أَرَى ... فَضْلًا لِذِي حَسَبٍ إِذَا لَمْ يُقْدِمِ (٥٠)

---

(٤٨) « بينا » : ظرف زمان : بمعنى المفاجأة . ويشقّ به الجواء : أى يشقّ السلّم بالإنسان الجواء . أو يشق الإنسان بالسلم الجواء : جمع جو : وهو الفضاء بين السماء والأرض. والترفع : الارتفاع والاعتلاء : أى يترفع ترفعاً . أوحالة كونه مترفعاً . وأهوى به : أى سقط السلم بالمرء بغتة . وكسر البيت : جانبه .

ولعله يكنى بسقوطه فى كسر البيت المظلم عن الخيبة والإخفاق . أو لعله يريد بكسر البيت المظلم : القبر ؛ فإن الذى يحاول بلوغ ما نأى عنه ، أى ما لم يتهيأ له ، وما لا سبيل إليه ، ولا قدرة له عليه — يهلك دون بلوغه وإدراكه . أو لعل المعنى: أن الإنسان فى حياته الدنيا يتقلب بين الشدة والرخاء ، واليأس والرجاء . وقد يسعى إلى هدف من أهدافه البعيدة ، ويكد فى طلبه ، ويجد فى مسعاه ، ويتخذ إليه ما صعب وتعسر من الأسباب والوسائل ، حتى إذا ما خيـّل إليه أنه اقترب منه وداناه — انهارت بغتة وسائله وأسبابه ، وانتهت به إلى الردى والهلاك . والغرض النهى عن الطمع الممقوت ، وتضييع الوقت والجهد فى طلب المستحيل أو شبهه .

(٤٩) شهية : مشتهاة ، لذيذة ، محبوبة ، مرغوب فيها . والغرض : الهدف الذى يرمى إليه . والبغية ، والحاجة ، والقصد : أى ما يبتغى ، ويراد ، ويطلب. والإمرة : الإمارة ، والحكم ، والولاية والسيطرة ، والسلطان . يقال : تأمر علينا فلان ، فساءت إمرته : أى ساءت ولايته وحكمه .

والمعنى : أن الحياة تحب ، ويرغب فيها ، ويحرص عليها إذا قامت على العدل والطمأنينة ، والرحمة والإحسان ، والعزة والحرية ، والإخاء والمساواة . فإذا انتهت الإمارة والحكم إلى مستبدّ غاشم فظ غليظ القلب فقدت الحياة — بظلمه وقسوته — بهجتها ونضرتها ، وأصبحت ممقوتة بغيضة ، ووجب على الناس أن يزيحوا ذلك الظالم الذى كدرها عليهم ، ويخلعوا إمارته بكل ما يستطيعون من وسائل الكفاح والنضال .

(٥٠) حسب المرء: ما يعده من مناقبه ومفاخره وأفعاله الكريمة . أو شرف الأصل ، وما يبتهى به الإنسان من مفاخر آبائه . وأقدم يقدم إقداماً : شجع واجترأ على المخاوف والمخاطر . وضده الجبن والنكوص والإحجام .

يفخر بأنه عزيز أبى ، لا يرضى حياة الجبناء ، ولا يعترف لامرئ بفضل وإحسان إلا إذا كان باسلاً شجاعاً مقداماً ، يكافح الظلم ، ويدفع عن نفسه ووطنه عاره وشناره . ويرى أن الجبن والنكوص والإحجام يضيع كل مناقب المرء ومفاخره ، وكل ما يعتز به من شرف آبائه ومجدهم . وصلة هذا البيت بالذى قبله واضحة وثيقة ؛ فإن إمرة المستبد الظالم تسوّئ حياة المظلومين ، وتشينها وتقبّحها ، وتفسدها =

وَلرُبَّ مَلْحَمَةٍ سَرَيْتُ قِنَـاعَهَا عَنْ وَجْهِ نَصْرٍ بِالْغُبَارِ مُلَثَّمِ (٥١)

لَوْ كَانَ لِلإِنْسَانِ عِلْمٌ بِالَّذِى فِى الْغَيْبِ لَمْ يَفْرَحْ . وَلَمْ يَتَنَدَّمِ (٥٢)

=كل الإفساد . والراضى بهذه الحياة ذليل جبان ، مجرد من الفضل والخير ، والشهامة والكرامة ، والعزة والإباء ، وإن كان حسيباً نسيباً ، كريم الأصول والآباء .

(٥١) « لرب » : « اللام » : حرف يبتدأ به الكلام ، ويؤكد مضمون الجملة التى بعده . و« رب » : حرف خافض ، لا يقع إلا على نكرة ، ويفيد التكثير فى مثل هذا المقام . وملحمة : حرب شديدة . وسرا عنه الثوب ، أو الدرع ، أو نحوهما (من بابى عدا ، ورمى) : نزعه ، وألقاه . والقناع : ما تغطى به المرأة رأسها . وما يستر به الوجه . وملثم : اسم مفعول من لثّمه تلثيما : أى غطى فمه ، أو أنفه وما حوله باللثام : وهو النقاب ونحوه .

فى البيت السابق افتخر بعزته وإبائه الضيم ، ومقته معيشة الجبناء والأذلاء . وفى هذا البيت افتخر بكثرة ما اقتحمه من ملاحم القتال ، وكثرة انتصاره على الأعداء . وقال : إن هذا النصر لم يأت سهلا ، وإنما كان نتيجة كفاح مرير : فالمعارك التى خاض غمارها ، وكشف أقنعتها كانت شعواء عنيفة ، والانتصارات التى ظفر بها كانت وجوهها مغطاة بالغبار القاتم الكثيف الذى أثارته سنابك الخيل ، وهجمات المتحاربين ، وحركات الكرّ والفرّ . والصلة بين البيتين واضحة : فى كل منهما فخر بالشجاعة والإقدام .

(٥٢) « لو » فى أول البيت : حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط : فالشرط هنا ممتنع ، وهو اطلاع الإنسان على الغيب ؛ ولهذا امتنع الجواب ؛ فكان منه الفرح والبطر ، والمرح والأشر . وكان منه الحزن والجزع ، والتندم والتحسر . وعلم بالشىء : شعر به ، وأحسّ . والغيب : ما غاب عن حواس الإنسان ، واحتجب وراء علمه وإدراكه ، وعجز عقله عن اكتناهه وتحديده ، وكشف حقيقته وجوهره . وفى القرآن الكريم : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » (الآية رقم ١٧٩ من سورة آل عمران) .

والمعنى : أنه لو اطلع الإنسان على الغيب ، وعرف ما سبق به القضاء ، وما قدره الله تبارك وتعالى له فى الأزل من الخير والشر ، والنفع والضر ، والإصابة والإخفاق .. واطمأن قلبه ، وسكنت نفسه إلى قضاء الله تعالى وقدره — لم يعبأ بما تحمله إليه الأقدار من أسباب البشر والسرور ، وعوامل الأسى والحزن ؛ فلا يستخفه الطرب أو البطر والمرح ، ولا يستفزه الخوف ، أو الحسرة والندم . ولكنه يجهل الغيب ، ولا يجد فى نفسه الطمأنينة إلى قضاء الله ؛ ولهذا تناوبه الفرح والتندم . وفى القرآن الكريم : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور » (٢٢ و٢٣ من سورة الحديد) . وفى الحديث الشريف : « فرغ ربكم من الخلق ، والأجل ، والرزق » . والغرض من هاتين الآيتين الكريمتين ، وهذا الحديث الشريف تربية نفس المؤمن على الاطمئنان إلى قدر الله ، والرضا بقضاء الله عز وجل ؛ فإذا فرح كان فرحه شكراً ، وإذا حزن كان حزنه صبراً .

فدَعِ الأُمورَ إلَى مُدَبِّرِ شأْنِهَا ... وَارْغَبْ عَنِ الدُّنْيَا بِنَفْسِكَ تَسْلَمِ (٥٣)

وقَال :

بِأَىِّ غَزَالٍ فِى الْخُدُورِ تَهِيمُ ... وَغِزْلَانُ « نَجْدٍ » مَا لَهُنَّ حَمِيمُ ؟(١)

---

(٥٣) يراد بالأمور : أحوال الناس ، وشئون الحياة الدنيا ، وما لا قدرة لك على تغييره أو تعديله ، أو التصرف فيه من هذه الشئون والأحوال . ومدبر شأنها : المتصرف فيها ، وهو الله تبارك وتعالى . ورغب الإنسان بنفسه عن الدنيا (من بابى طرب وسمع) : زهد فيها ، وأعرض عنها ، وتحرج منها ، ولم ينخدع بزخرفها وباطلها .

فى الشطر الأول دعوة إلى التسليم والانقياد ، والرضا بقضاء الله تعالى وقدره . وفى الشطر الثانى تزهيد فى الدنيا ، وتنفير من زخرفها وباطلها . ولا ريب أن النجاة والسلامة فيما دعا إليه ، وحض عليه من الزهد والتسليم ؛ وفيهما علاج ما أشار إليه فى البيت السابق من القلق النفسى القائم على احتجاب الغيب وراء بصر الإنسان وبصيرته ، وخوفه من المفاجآت التى يخبؤها له القدر ، وتقلبه بين ألوان متناقضة من الشعور والعاطفة ، والإحساسات والانفعالات ، كالفرح والحزن ، واللذة والألم ، والارتياح والندم ، والانبساط والانقباض .

* * *

(١) « أى » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين أحد المتشاركين فى أمر يعمهما . والاستفهام هنا من تجاهل العارف . ويراد به تعظيم المستفهم عنه ؛ فالشاعر يعرف الغزال الذى يهيم به . وإنما تجاهله تعظيما لشأنه ، وتنويهاً بنباهته ، واشتهار أمره ، وفرط حسنه . وقد يكون للإنكار ؛ فهو بهذا الاستفهام ينكر على نفسه ، أى يلومها وينهاها عن الهيام بمن لا سبيل إليها ، ولا أمل فى وصالها . والغزال : ولد الظبية إذا شدن ، أى تحرك ومشى ، وقوى ، واستغنى عن أمه . وأنثاه الغزالة . وجمعه غزلان . وقد جرى شعراء العرب من قديم الزمان على تشبيه الجميلات الحسان من نسائهم وفتياتهم بالظباء والغزلان ، فى الرشاقة ، ولطف الحركة وخفتها ، ولين المعاطف ، وحسن التثنى ، وجمال الجيد والعينين . والبارودى مقتد بهم ، ناسج على منوالهم ، محتذ لمثالهم . والخدور : جمع خدر (بكسر فسكون) : وهو ستر يمدّ للمرأة فى ناحية البيت . أو هو كل ما واراك وسترك من بيت ونحوه . والعربى يهيم بالمرأة المخدرة المحجبة ، لا بالمتبرجة المتهتكة . وهام الرجل بالمرأة يهيم هياماً وتهياماً : شغف بها حباً . والشاعر هنا يخاطب نفسه . أو شخصاً جرده من نفسه . أو رفيقاً تخيل أنه معه يلازمه ؛ فهو يحاوره ، وينصح له ، ويحذّره ، ويفضى إليه بأسراره . و « نجد » : قسم من الجزيرة العربية ، بين الحجاز والعراق ، وحاضرته « الرياض » . وقد تغنى كثير من قدامى الشعراء بطيب ترابه ، ونقاء هوائه ، ونضارة نباته ، وجمال نسائه . والبارودى – كما أسلفنا – مفتون ببيئتهم ، مولع بمحاكاتهم ، والتشبه بهم ، ومجاراتهم فى فنونهم ، وأغراضهم ، وأخيلتهم ، وأساليبهم . وحميمك : صديقك ، ووديدك ، وحبيبك الذى =

يَقُدْنَ زِمَـامَ النَّفْسِ وَهْيَ أَبِيَّـةٌ وَيَخْدَعْنَ لُبَّ الْمَرْءِ وَهْوَ حَكِيمُ(٢)

فَإِيَّاكَ أَنْ تَغْشَى الدِّيارَ مُخَاطِرًا فَدُونَ حِماهَا لِلأُسُودِ نَئِيمُ(٣)

= توده ويودك. وقريبك الذى تهتم بأمره . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة بعدها حالية. وما لهن حميم : أى ليس لهن اهتمام بمن يتودد إليهن ؛ ويتعلق بهن ؛ فهن يعرضن عمن يهواهن ، ويصددن عمن يهيم بهن .

أولع الشاعر بفتاة نجدية مخدرة ، فتنته بفرط جمالها ، وولهته بدلالها ؛ فهام بها ؛ وعزّ عليه وصالها ، وكان شأنها معه شأن الحسان المحجبات من نساء نجد ، يستعصين على عشاقهن ، ولا يلقون منهن غير الإعراض والصدود .

(٢) قاد الرجل الدابة (من باب قال) : مشى أمامها ، آخذاً بمقودها . والزمام : المقود : أى الحبل الذى تقاد به الدابة . وفى القود أو القيادة : معنى التسلط والتحكم والسيطرة . وأبية : عزيزة حرة ، منيعة ، مستعصية، مترفعة ، من الإباء : وهو الامتناع ، والاستعصاء ، والترفع . وضده الخضوع ، والتذلل ، والانقياد . والجملتان الاسميتان فى نهايتى الشطرين الأول والثانى : حاليتان . والواو قبل كل منهما : واو الحال . وخدعه (من باب قطع) : ختله ، وغره ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . ويراد بالخدع أو الخديعة هنا : الاستهواء ، والفتنة ، والتوليه ، والتهييم . واللب : العقل . ولب حكيم : أى راجح ناضج ، محكم متقن ، لا يسهل استهواؤه، ولا يتسنى انخداعه . وامرؤ حكيم : أى مشتغل بالحكمة : وهى العلم والفلسفة ؛ والكلام الذى يوافق الحق والصدق ، ويطابق الصواب والسداد . أو هى إصابة الحق بالعلم والعقل . أو هى معرفة الموجودات وفعل الخيرات .

والمعنى : أن حسان نجد يفتن بجمالهن الباهر ذوى الألباب الراجحة. والعقول الناضجة من الأباة الأعزة ، والفلاسفة الحكماء ، ويستهوينهم ويهيمنهم ، ويسيطرن عليهم ، ويتحكمن فيهم ؛ فلا يجدون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً . وفى البيت فخر ضمنى بأنه عزيز قوىّ ، أبىّ النفس . راجح العقل ، واسع الإدراك .

(٣) « إياك أن تغشى الديار » : أسلوب تحذير وتخويف : وهو تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليجتنبه . ويراد بالديار : منازل حسان نجد ، أى أحذرك غشيان هذه الديار ، أى دخولها . ومخاطراً حال من فاعل « تغشى » ، وهو تأكيد للتحذير والتخويف : اسم فاعل من خاطر بنفسه مخاطرة : أى جازف بها ، وأشفاها على خطر ، وعرضها للهلاك . والشطر الثانى تعليل للتحذير فى الشطر الأول . و« دون» : ظرف مكان منصوب . ويتضح معناه مما يضاف إليه . ومن المعانى اللائقة به هنا : « أمام » و « قبل » . والحمى : المكان المصون المحمىّ الممتنع، الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه ، وحماها : أى حمى هذه الديار . وكلها محمية محصّنة . ويراد بالأسود : الرجال الشجعان الأشداء البواسل الذين يحمون الديار ، ويمنعون الحسان المتغزل بهن ، وهم أهلهن الذين يغارون عليهن ، ويبالغون فى حجبهن =

فَوَارِسُ لَا يَعْصُونَ أَمْرَ حَمِيَّةٍ ... وَلَا يَرْهَبُونَ الْخَطْبَ وَهْوَ عَظِيمُ(٤)

يَصُونُونَ فِى حُجْبِ الْأَكِلَّةِ ظَبْيَـــةً ... لَهَا نَسَبٌ بَيْنَ الْحِسَانِ صَمِيمُ(٥)

= وصيانتهن . والنئيم : صوت الأسد . والخطاب فى الشطر الأول لنفسه . أو للشخص الذى جرده من نفسه ، أو للرفيق الذى تخيل أنه معه يصحبه ويلازمه .

جعل محاولة غشيان تلك الديار مخاطرة بالنفس ، وتعرضاً للتهلكة ؛ إذ يحرسها ، ويبالغ فى حمايتها ، ويغار على من فيها من الحسان رجال من أهلهن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ؛ ولهذا حذر وأنذر ، وهدد وخوف . وهو من أساليب الغزل العربى القديم الذى يبالغ فى تصوير مناعة المتغزل بها ، وتعسر لقائها ، ويرتب على هذا تأجج اللوعة والصبابة فى قلب الصب المستهام .

(٤) « فوارس » : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : « هم » : أى (الأسود فى البيت السابق) فوارس : جمع فارس : وهو الماهر فى ركوب الخيل . ومن تمرس بالحرب على ظهورها . والحمية : الأنفة ، والمحافظة على المحرم ، وشدة الغيرة على العرض ، والمغالاة فى صيانته ، والدفاع عنه . ولا يرهبون : لا يخافون . والخطب : الأمر الشديد الخطير ، يكثر فيه التخاطب . وجمعه خطوب .

وصف حراس الديار بالفروسية . وقال : إنهم ذوو أنفة وحمية ، وإباء ونخوة ، وغيرة شديدة على العرض ، ومغالاة فى حجب فتياتهم ، وحماية نسائهم ، لا يبالون فى هذا السبيل بالشدائد والأخطار والخطوب الجسيمة . يريد التزيد فى التحذير والتخويف ، والمغالاة فى تصوير مناعة المتغزل بها ، وصعوبة الوصول إليها .

(٥) صان الشىء (من باب قال) : حفظه فى مكان أمين . وصيانة العرض : وقايته مما يعيبه . وواو الجماعة فى « يصونون » : ضمير « فوارس » فى البيت السابق . والحجب : جمع حجاب (بوزن كتاب وكتب) : وهو الستر الذى يحجب الشىء ويستره ، ويخفيه . والأكلة : الحجب والستور . الواحد إكليل : وهو شبه الغشاء يحيط بالشىء . حذفت همزته ، وفتحت الكاف بعدها ، ثم جمع على أكلة (بوزن دليل وأدلة) وإن صح جمع إكليل على أكلة استغنينا عن هذا التخريج . وإضافة الحجب إلى الأكلة : من إضافة الشىء إلى مرادفه . والظبية : الغزالة . ويراد بها الفتاة المتغزل بها . والنسب : القرابة . ونسب فلان فى بنى فلان : أى هو منهم . والحسان : جمع الحسناء . وصميم : خالص محض .

يقول : إن المتغزل بها ممنعة محجبة ، يصونها فرسان من أهلها بسلاء أشداء ، صناديد مغايير . وفيها رشاقة الظباء وخفتها ، ولطف حركتها ، ولين معاطفها ، وحسن تثنيها ، وجمال عيونها وأجيادها . وحسنها بين حسان النساء صميم محض ، أصيل ثابت ، نقى خالص ، بارع فائق .

مِنَ الْهِيفِ ، أَمَّا نَعْتُ مَا فِى إِزارِهَا فَرَابٍ . وأَمَّا خَصْرُهـا فَهَضِيمُ[٦]

أَناةٌ بَرَاهَا اللهُ فِى الْحُسْنِ آيَةً يَدِينُ إِلَيْها جَاهِلٌ وَحَلِيمُ[٧]

يَمِيلُ بِها سُكْرُ الشَّبَابِ إِذَا مَشَتْ كَمَا مَالَ بِالْغُصْنِ الرَّوِىِّ نَسِيمُ[٨]

---

(٦) الهيف : جمع هيفاء : صفة من الهيف (بوزن الفرح) : وهو دقة الخاصرة ، وضمور البطن، ولطافة الكشحين . والهيف من محاسن المرأة . وضده البدانة ، والترهل . ونعت : صفة . والإزار ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن . وما فى إزارها : كناية عن أعجازها وروادفها. وراب : نام ممتلىء بادن : اسم فاعل من ربا الشىء (من بابى عدا، وسما) : أى نما وزاد . وخصرها : وسطها . وهضيم : خميص . ضامر ، نحيل .

وصفها بالهيف، وامتلاء الروادف ، ودقة الخصر وضموره ، ونحافته خلقة ، لا هزالاً . وهذه كلها من محاسن النساء ومفاتنهن . وهو قريب من قول كعب بن زهير بن أبى سلمى فى قصيدته اللامية المشهورة « بانت سعاد » : « هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة » .

(٧) الأناة من النساء : المترفة المنعمة ، فيها فتور ورزانة . وبراها الله : خلقها . (وبابه قطع : وأصله الهمز) والله البارئ . والآية : العلامة والأمارة. والآية : المعجزة . ويدين لها : يطيعها، وينقاد لها ، ويخضع ويتطامن . ويراد مع هذا : أنه يفتن بها ، ويعجب بحسنها. ويلاحظ أن الشاعر عدّاه بـ « إلى » فقال : « يدين إليها » على التوسع فى استخدام حروف الجر . وقد تأتى « إلى » : بمعنى « اللام » فى فصيح الكلام . وجاهل : اسم فاعل من الجهل : بمعنى الجفوة ، والسفاهة ، والخفة ، والنزق ، والطيش ، والحمق . وضده الحليم : صفة من الحلم . ويراد بالجاهل والحليم: الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وطباعهم ونزعاتهم ؛ فكلهم مفتونون بحسنها الباهر ، وجمالها الساحر .

يقول : إن المتغزل بها فتاة مترفة رافهة منعمة . فيها رزانة الحلم ، ورجاحة العقل ، وفتور الرفاهة والترف ، ودلال الغوانى . وقد خلقها الله تبارك وتعالى آية فى أرضه للحسن الباهر ، والجمال الساحر الذى يفتن الناس قاطبة ، ويبهر الرزين والطائش ، ويدين الحليم والجاهل .

(٨) يميل بها : يميلها : أى يجعلها تمايل فى مشيتها وتزهو ، وتتيه ، وتتبختر . أو هو من قولهم : مال به الهوى : أى غلبه، واشتد فيه أثره . وأخذه سكر الشباب : أى قوته، وفتوته ، وزهوه ، وخيلاؤه. وغصن روىّ : ناضر ، غض ، ناعم ، ريان ، غضير . والنسيم : الريح الطيبة اللطيفة اللينة . ومال النسيم بالغصن : أماله ، وحركه حركات خفيفة لطيفة .

يقول : إذا مشت غلبها زهو الشباب وقوته ونضارته ؛ فتمايلت وتبخترت ، مزهوة معجبة بنفسها كما يهتز الغصن الروىّ الغضير بحركات النسيم العليل ؛ فسكر الشباب فى هذا التصوير البليغ يشبه النسيم العليل . وبخترة المتغزل بها تشبه اهتزاز الغصن النضير .

لَعَمْرُكَ ما أَدْرِى ، أَدُمْيَــةُ بِيعَةٍ ... تَرَدَّدَ فِيهَا الْحُسْنُ ، أَمْ هِيَ رِيمُ ؟(٩)

يَلُومُونَنِي أَنْ هِمْتُ وَجْدًا بِحُسْنِهَا ... وَأَيُّ امْرِئٍ بِالْحُسْنِ لَيْسَ يَهِيمُ ؟(١٠)

وَهَلْ يَغْلِبُ الْمَرْءُ الْهَوَى وَهْوَ غَالِبٌ ... وَيُخْفِي شَكَاةَ الْقَلْبِ وَهْوَ كَلِيمُ ؟(١١)

---

(٩) « لعمرك » : « اللام » : للابتداء . و« عمر » : حياة. و« الكاف » : ضمير المخاطب . والأسلوب يفيد القسم : أى لعمرك قسمى : أى أحلف بحياتك. والاستفهام فى البيت : من تجاهل العارف ؛ فالشاعر يعرف حقيقة ما يستفهم عنه ، ولكنه يسأل متجاهلا للإشادة والتنويه وتعظيم شأن المتغزل بها ، وتشبيهها بالدمية والرِّئم . والدمية : الصورة المزينة الممثلة . والتمثال من العاج وغيره . والبيعة (بكسر الباء) معبد النصارى . ومثلها الكنيسة . وتشتهر البيع والكنائس بمقدسات النصارى من الدمى والتماثيل والصور الجميلة الرائعة . وتردد الحسن : تكرر ، ورجع مرة بعد أخرى . والمراد أن حسنها متجدد حىّ قوىّ ، رائع رائق جذاب . والرِّئم : الظبى: أى الغزال الخالص البياض. سهلت همزته فصارت ياء . وقد جاءت فى الأصل المخطوط « ديم » بالدال ، وهو من تحريف الناسخ .

بأسلوب تجاهل العارف قال الشاعر : إنه لا يعرف حقيقة هذه الفتاة : أهى من الآرام والغزلان ، أم من تماثيل البيَع ودمى الكنائس ؟ وأكد كلامه بالقسم الذى صدّر به البيت . والغرض : التغنى بحسنها الباهر الساحر ، الرائق الفائق ، الحى المتجدد ، الفاتن الجذاب .

(١٠) هام بالشيء (من باب باع) : أحبه ، وتعلق به . ووجداً : حبًّا . وهو مفعول مطلق لـ« هام » مرادف لمصدره ؛ كأنه قال : يلوموننى أن همت بحسنها هياماً . والاستفهام فى أول الشطر الثانى معناه النفى : أى لا يوجد امرؤ لا يهيم بالحسن ، بل كل إنسان يهيم به ويهواه .

لامه عذّاله من أجل هيامه بهذه الحسناء ؛ فخطأهم ، أو اعتذر إليهم ، واحتج لنفسه بأن الحسن يحب ويعشق ، وتعلق الإنسان به من الأمور الطبيعية التى لا يستطيع الفكاك منها ، ولا ينبغى أن يلام عليها . والشطر الثانى استفهام منفى ، وتذييل جار مجرى المثل ، وثيق الاتصال بالشطر الأول ؛ فبه قامت حجة الشاعر العاشق ، واتضح عذره ، كما اتضح خطأ لائميه . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ويؤكده .

(١١) غلبه (من باب ضرب) : قهره ، واعتزّ عليه . وغالب : اسم فاعل منه . والاستفهام فى أول البيت : معناه النفى ، فالإنسان لا يستطيع أن يغلب الهوى ، وليس فى مقدرته أن يخفى شكاة قلبه الكليم . والهوى : الحب ، والعشق ، والوجد ، والغرام . والشكاة : الشكوى . والشكاة أيضاً : المرض ، والتوجع من ألم ونحوه . وكليم : جريح : فعيل بمعنى مفعول من كلمه (من باب ضرب) : أى جرحه . والجملتان الاسميتان فى نهايتى الشطرين الأول والثانى : حاليتان .

وهذا البيت معزز للبيت الذى قبله ؛ فالحسن فاتن جذاب ، والغرام بطبيعته قهار غلاب ، ولا قدرة للإنسان على صده أو مغالبته . ومن شأنه أن يشغف قلب العاشق ويضنيه ، ويؤجج لوعته وصبابته ، ويضطره إلى الجهر بالشكوى ، والتوجع . وكثير من هذا يرجع إلى صدود الحبيب وإعراضه ، كما يتضح من بعض الأبيات الآتية .

فَإِنْ أَكُ مَحْسُورًا بِهَا ، فَلَرُبَّمَا ... مَلَكْتُ عِنَانَ الْقَلْبِ وَهْوَ كَظِيمُ (١٢)

وَكَابَدْتُ فِيهَا مَا لَوِ انْقَضَّ بَعْضُهُ ... عَلَى جَبَلٍ لَانْهَالَ مِنْهُ قَوِيمُ (١٣)

فَيَا رَبَّةَ الْبَيْتِ الْمَنِيعِ جِوَارُهُ ... أَمَا مِنْ مُسَامٍ عِنْدَكُمْ فَأُسِيمُ ؟ (١٤)

---

(١٢) محسوراً بها : « الباء » للسببية . والمراد أضنانى حبها ، وأشقانى صدودها . والمحسور (فى الأصل) : من حسره السير : أى جهده وأعياه . وبعير محسور : أى ذهبت قوته ؛ فلا انبعاث له . وحسر النظر بصرى ، فهو محسور : أى كلّ وانقطع من طول النظر . و « ربما » : « ربّ » حرف جر لا يليه إلا نكرة ، فإذا لحقته « ما » كفته عن العمل ، وهيأته للدخول على الأفعال والمعارف . وهو هنا يفيد التكثير ؛ فالشاعر يشكو كثرة ما يكظمه فى نفسه ، ويطوى عليه قلبه من الهموم والأوصاب . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة وتقاد . وملكت عنان قلبى : كناية عن ضبط النفس ، وكظم الغيظ ، ومدافعة الغضب والتهيج ، والصبر على المكاره ، والآلام . وكظيم : مغيظ ، محنق ، مهمّ ، مغتمّ : فعيل بمعنى مفعول من كظمه الغيظ أو الهمّ ، أو الغمّ ، أو نحوه : أى أخذ بنفسه . أو بمعنى فاعل من كظم غيظه (من باب ضرب) : أى حبسه فى نفسه . والجملة الاسمية فى آخر البيت : جملة حالية . والواو قبلها : واو الحال .

يشكو ما يضنيه ويشقيه من الحب وإعراض الحبيب . وهو لا يفتأ يكظم هذا ، ويطوى قلبه على الأوصاب اتقاء العذل والشماتة . هذا ، وربما كانت كلمة « محسوراً » محرفة عن « محسوداً » ؛ فالناس قد يحسدون العاشق الولهان . وقد يقوم عذل العاذلين على الغيرة والحسد . والمعنى على هذا : إذا كان الناس يرون عشقى نعمة ، ويتمنون زوالها عنى إليهم ، فإنهم واهمون ، وإنى أكظم ما يثقلنى من الهموم والمتاعب ، وأطوى قلبى على كثير من الأوصاب والآلام . وفى البيت الآتى إشارة مجملة إلى هذا الذى يثقله ويكظمه ، ويطوى عليه فؤاده .

(١٣) كابد الأمر : عاناه وضاناه ، وقاسى شدته . وفيها : أى بسبب المتغزل بها ، فقد جمعت عليه لوعة الحب ، وقسوة الصدود . وانقضّ : سقط . وبعضه : أى بعض ما أكابده وأقاسيه . وانهال : انهار وتساقط ، وانهدم . ومنه : أى من الجبل . وقويم : معتدل ، منتصب ، قائم ، ثابت ، مستقر ، راسخ .

يقول : إنه من أجل عشقه هذه الحسناء ، وفى سبيل هذا العشق يكابد أوصاباً وآلاما ، ويعانى متاعب وأوجاعاً يهدّ بعضها رواسى الجبال . وفى الأبيات الآتية بيان وتفصيل لهذا الإجمال .

(١٤) ربة البيت : صاحبته ، ومالكته وسيدته . والمنيع : المحمى الحصين . والجوار (بكسر الجيم) : المجاورة : مصدر جاوره . والاسم منه الجوار (بضم الجيم) . وأن تعطى غيرك ذمة تجيره بها . وتقول : أنا فى جوار فلان : أى فى عهده وحمايته ، وأمانه وذمته . والجوار أيضاً : الجيران : جمع جار . وجوار الدار (بفتح الجيم) : طوارها : وهو ما كان على حدها ، وبإزائها . ويراد بمناعة =

بَخِلْتِ عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ ضَنَانَةً وَجَدُّكِ مَطْرُوقُ الْفِنَـاءِ كَرِيمُ(١٥)
فَكَيْفَ تَلُومِينِي عَلَى مَا أَصَابَنِي مِنَ الْحُبِّ يا «لَيْلَى» وأَنْتِ غَرِيمُ؟(١٦)

= جوار بيتها : أنها وقومها يمنعون الجار ، ويجيرون المستجير . أو المراد تصوير تحجبها ومنعتها ، وتعسر وصالها . و«أما» : الهمزة : للاستفهام . و«ما» : نافية . أو اسم بمعنى «شيء» ومعناهما هنا : التمنى . أو العرض : وهو طلب الشيء برفق ولين . وسامت الماشية (من باب قال) : رعت . وأسامها الراعي يسيمها إسامة : أخرجها إلى المرعى . ومسام (بضم الميم) : اسم مكان . أومصدر ميمي بمعنى الإسامة . وأسام إليه ببصره : رماه به. ومن المجاز سمتها الوصال : أى عرضته عليها ، وأردته منها .. ويلاحظ أن المضارع فى آخر هذا البيت مرفوع على أن الفاء للاستئناف ، والكلام بعدها مستأنف : أى فأنا أسيم . ولوكانت فاء السببية لوجب نصب المضارع بعدها بأن المضمرة ؛ وبالنصب يختلف المجرى ، أى حركة الروى المطلق . وهذا عيب من عيوب القافية ، اسمه الإصراف .

فى الشطر الأول : ناداها نداء — استمالة واستعطاف ؛ فهى سيدة بيت جواره منيع حصين ، والمستجير به فى أمان واطمئنان . أو هى صاحبة بيت يحجبها ويمنعها ، فلا يجد عاشقها سبيلا إليها . وفى الشطر الثانى سامها اللقاء والوصال . وتمنى أن يخفف لوعته برؤيتها وترديد النظر إليها ، وأن يجد فى رحابها موئلاً وملاذاً .

(١٥) ضنانة : بخلا شديداً ، وهو مفعول مطلق «مؤكد ل«بخل» مرادف لمصدره . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . والجد : أبو الأب وأبو الأم . وطرق الباب : قرعه . وطرق القوم : جاءهم ليلاً . وطرق الطريق : سلكه ، وسار فيه . والفناء : الساحة : أى الفضاء فى الدار . أو بجانبها أو بين الدور . ومطروق الفناء : كناية عن جوده وكرمه وسخائه ، وكثرة معتفيه ، أى طالبى معروفه وبره .

بخلت عليه بالتحية والسلام ، أى لم تبدأه بهما ، أو لم تردهما عليه ، فكره هذا منها ، فذكرها به ، وعاتبها — فى الشطر الأول — عتاباً لينا لطيفاً ؛ لعلها تحسن مراجعته ، وتقلع عن هذا الصد المضنى ، والهجران الأليم . وفى الشطر الثانى تأكيد لهذا العتاب ، ومحاولة استعطاف وتقريب ، وإغراء وترغيب ؛ لعلها تنهج نهج آبائها الكرام الأخيار الأجواد ، وتجرى على سنتهم فى البر والجود والسماحة .

(١٦) الاستفهام فى أول البيت : معناه التعجب . و«تلومينى» : أصلها «تلومييننى» ، وحذفت إحدى النونين للتخفيف . و«من» : تعليلية : أى سببية ؛ فإن الحب سبب ما أصابه من الأوصاب . أو بيانية إذا قدرنا بعدها وقبل الحب مضافاً مثل «لواعج» ؛ فلواعج الحب وحرقه : بيان لما أصابه . و«ليلى» : اسم معشوقته . والواو بعدها : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وغريم : مدين أو خصم : (فعيل) يستوى فيه المذكر والمؤنث . يريد أنه دائن لها بإقباله عليها ، وتعلقه بها . وهى مدينة له : تعرض عنه ، ولا تباليه ، وتخاصمه وتعاسره ، وتعنيه وتشقيه بالمطال وتسويف الوصال .

يعجب من ليلاه ، ويعجب منها غيره ؛ فهى تلومه على ما أصابه من حرق الوجد والغرام ، ولواعج الحب والهيام ، وأوصاب الصدود والهجران مع علمها أنها سبب هذه الإصابات بإعراضها عنه ، وتجاهلها لغرامه ، وإمعانها فى إعناته .

وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لَا أَدِينُ لِظَالِمٍ ... وَلَمْ يَحْتَكِمْ يَوْمًا عَلَيَّ زَعِيمُ (١٧)

فَأَنْتِ (التِي) مَرَّهْتِ عَيْنِيَ بِالْبُكَا ... وَأَسْقَمْتِ هَذَا الْقَلْبَ وَهْوَ سَلِيمُ (١٨)

تَنَامِينَ عَنْ لَيْلِي ، وَعَيْنِي قَرِيحَةٌ ... وَتُشْجِينَ قَلْبِي . وَهْوَ فِيكِ مُلِيمُ (١٩)

---

(١٧) الدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود . ويريد به مدة حياته قبل أن يأسره الهوى ، ويصرعه الغرام . ولا أدين : لا أخضع ، ولا أنقاد ، ولا أستكين . واحتكم عليه : جاز فيه حكمه . أو سيطر عليه بحكمه وسلطانه . وزعيم : حاكم ، أو رئيس .

يقول : إنه عاش حياته كلها حراً عزيزاً ، يأبى الضيم ، ويرفض الهوان ؛ فلم يخضع لظالم ، ولم يسيطر عليه حاكم ؛ فلما ابتلى بهذا الحب فقد فى مجاله عزته وحريته ، وقوته وسيادته ؛ إذ تيمته هذه المحبوبة ودلهته ، فأصبح أسير الهوى ، صريع الغرام . وفى البيت إشارة إلى أنها تظلمه بصدودها عنه وتعنّيه . وصلته بالذى قبله أنها تخاصمه وتعنته ، وتضاعف — بإعراضها عنه، وقلة اكتراثها له — لوعته وبلواه . وفى البيتين الآتيين بيان وتفصيل لبعض هذا العنت والوصب .

(١٨) فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا خطأ ونقص غير قليل . والكلمة التى بين قوسين « التى » تكملة من عندنا أضفناها إلى هذا البيت ؛ فاستقام بها وزنه . والمره (بوزن التعب) : مرض يصيب العين ، فيقرحها ويفسدها . ومره البكاء عينه تمريهاً : قرحها وأفسدها .

أشار فى هذا البيت إلى بعض ما أصابه من ظلم هذه الحبيبة وإعناتها ؛ فإنها بصدودها عنه تضنيه ، وتؤرقه وتبكيه ، وقد اشتد بكاؤه ، وطال أرقه حتى تقرحت عيناه . وهى بالإعراض والقطيعة تحمّله ما لا يكاد يطيقه من الهم والضنى ، والأسى والحسرات ؛ ولا ريب أن هذا يمرض الصحيح السليم من الأفئدة والقلوب . ويحطم القوى الشديد من النفوس والأجسام .

(١٩) نامت معشوقته عن ليله : غفلت عما يقاسيه فى ليله من الحرقة واللوعة ، والأرق والبكاء ، ولم تبال شيئاً من هذا ، ولم تكترث له . والواو فى شطرى هذا البيت : واو الحال . والجملتان بعدها حاليتان . وعينه قريحة : مجروحة ، قرّحها الأرق وطول البكاء . والشجو : الهم والحزن . وشجاه (من باب عدا) : غمه ، وحزنه . أو هيج حزنه ، وأجّج لوعته ، وأثار شجنه وشوقه . وأشجاه يشجيه إشجاء مثله . وفيك : أى بسببك ، ومن أجلك . ومليم اسم فاعل من ألام إلامة : أى فعل ما يستوجب لومه وعذله .

يشكو قلة اكتراثها له ، وغفلتها عما يقاسيه ويضانيه طوال أيامه ولياليه من الهم والشجن ، والضنى والوصب ، حتى تقرحت عيناه باتصال الأرق ، وكثرة البكاء . أما قلبه فقد استحق أن يلام ويعذل ؛ إذ اشتد تعلقه بها ، وأفرط فى حبها ، وهى مع هذا لا تفتأ تحزنه وتشجيه ، وتعنته وتضنيه ، وتتمادى فى القطيعة والإعراض .

مَنَحْتُكِ نَفْسِي ، وَهْيَ نَفْسٌ عزيزَةٌ عَلَيَّ ، وَمَا لِي مِنْ هَوَاكِ قَسِيمُ (٢٠)

فَإِنْ يَكُ جِسْمِي عَنْ فِنَائِكِ رَاحِلٌ فَإِنَّ هَوَى قَلْبِي عَلَيْكِ مُقِيمُ (٢١)

شَكَوْتُ إِلَى مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُ بَاكِيًا وَمَا كُلُّ مَنْ يُشْكَى إِلَيْهِ رَحِيمُ (٢٢)

فَحَتَّامَ أَلْقَى فِي الْهَوَى مَا يَسُوءُنِي وَأَحْمِلُ عِبْءَ الصَّبْرِ وَهْوَ عَظِيمُ (٢٣)

---

(٢٠) قسيم : حصة ، وحظ ، ونصيب .

يقول: إنه وهب لها نفسه ، وهي أعز شيء عليه ، وأكرم شيء لديه ؛ فاستأسرت لها ، وتولّعت بها ؛ ولكنها — على الرغم من هذه الهبة النفيسة الكريمة — لم تكترث له ، ولم تبال به ، ولم تمنحه شيئاً من حبها وإقبالها .

(٢١) يقول : إنه مغادر ديارها ، راحل عن منازل قومها بشخصه وجثمانه ، أما قلبه فسيبقى على الدوام مقيما لديها ، حريصاً عليها ، مستهاماً بها صبًّا .

(٢٢) « باكياً » : حال من تاء الفاعل، وهي ضمير المتكلم في « شكوت » . أو مفعول به لـ « يرحم » .

شكا إليها ما يؤلمه ويبكيه ، ويؤرقه ويضنيه من لواعج الهوى ، ولوعات الغرام ، ومرارة الصدود والإعراض ؛ فلم تحاول إشكاءه ، أو تخفيف همه وبلواه ، ولم يجد لديها شيئاً من الرحمة أو العطف ، أو الحنان ، أو الإحسان . والشطر الثاني تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فقد يشكو الملهوف المعنَّى إلى من لا يرحم ، فيتعامى ويتصام ؛ فتذهب شكواه أدراج الرياح ، ولا يجني غير الإخفاق وخيبة الرجاء وزيادة الأوصاب والحسرات . ويبدو أن قسوتها عليه ، وإغراقها في الجفوة والقطيعة هو الذي حمله على الرحيل عنها بجسمه ، وإن بقي قلبه متعلقاً بها ، مقيما على ودها . ولعله — بإعلان هذا الترحال — يقصد استمالتها إليه ، واستعطافها عليه .

(٢٣) « حتام » : « حتى » : حرف يفيد انتهاء الغاية ؛ فهو بمنزلة « إلى » في المعنى والعمل . و« ما » : اسمية استفهامية ، حذفت ألفها تخفيفاً . والاستفهام هنا : معناه الاستبطاء ؛ فالشاعر العاشق يعلن تبرمه بما يسوءه في سبيل هواه وغرامه ، ويجهر بالشكوى من أعباء جسام تنوء به وتثقله ، ويعدّ ما يعاسره ويضايقه من الهموم والعوائق بطيئاً ، ثقيل الوطأة ، لا يكاد يفارقه ، أو يخف عنه . وفي الهوى : أي بسبب الهوى . أو في سبيل الهوى . وساءه يسوءه (من باب قال) : حزنه ، وغمه ، وآذاه ، وفعل به ما يكرهه . والعبء : الحمل ، والثقل (بكسر فسكون في كل منها) . والجمع أعباء ، وأحمال ، وأثقال .

أشار الشاعر في كثير من أبيات هذه القصيدة إلى ما يكابده ويعانيه في سبيل حبه وغرامه من أوصاب وأوجاع . وهو في هذا البيت يجهر بضجره وتبرمه ، ويستبطئ ما يسوءه ويثقله ، ويشكو ما يحمله ويبهظه من أعباء التجلد والمصابرة ، وهي أحمال ثقال ، تنوء بها رواسي الجبال .

وَإِنِّى لَحُرٌّ بَيْنَ قَوْمِى ، وَإِنَّمَا تَعَبَّدَنِى حُلْوُ الدَّلَالِ رَخِيمُ⁽٢٤⁾

وَإِنِّى وإنْ كُنْتُ الْمُسَالِمَ فِى الْهَوَى لَذُو تُدْرَإٍ فِى النَّائِبَاتِ خَصِيمُ⁽٢٥⁾

أَفُلُّ شَبَاةَ الْخَصْمِ وَهْوَ مُنَازِلٌ وَأَرْهَبُ كَرَّ الطَّرْفِ وَهْوَ سَقِيمُ⁽٢٦⁾

---

(٢٤) تعبدنى : استعبدنى ، وسلب حريتى . ودلال المرأة : حسن حديثها ، ولطف مزاجها ، وخفة كلامها وظلها على القلوب : اسم من دلت المرأة على زوجها (من بابى ضرب وتعب) : أى أظهرت جرأة عليه فى تلطف ، كأنها تخالفه ، وليس بها خلاف . والدلال من محاسن النساء ومفاتنهن . وحلاوته تأكيد لمعناه . ورخيم : صفة من رخم الصوت والكلام (كظرف ونصر) : أى رقّ ، وسهل ، ولان. وجارية رخيمة ورخيم : منطقها سهل لين ، وكلامها حلو رقيق .

ويلاحظ أن الشاعر تغزل بضمير المؤنث من أول هذه القصيدة إلى البيت الحادى والعشرين . ثم عدل إلى ضمير المذكر فى هذا البيت ، والبيت الثانى والعشرين .

افتخر بحريته وعزته بين قومه وعشيرته ، ووصف المتغزل بها برخامة الكلام ، وحلاوة الدلال . وقال : إنها بمثل هذه المحاسن والمفاتن تيمته ودلهته ؛ فكان أسير الهوى ، صريع الغرام . وفى البيت إشارة إلى أنه لم يتطامن قط لغيرها .

(٢٥) التدرأ : الحفاظ ، والمنعة ، والنخوة ، والقوة ، والأنفة ، والحمية . وفلان ذو تدرإ : قوى ، مدافع ، عزيز ، أبى ، شديد البأس ، صعب المراس ، لا يضعف ، ولا يلين . والنائبات ، والنوائب : النوازل ، والمصائب ، والكوارث ، والحوادث التى تنوب الإنسان : أى تنزل به ، وتصيبه . الواحدة نائبة. وخصيم : فعيل من خاصمه مخاصمة وخصاماً : أى شارّه ، ونازعه ، وجادله ، وغالبه فى الخصومة ، فهو خصم (بفتح فسكون) ، ومخاصم ، وخصيم . والمخاصمة : ضد المسالمة .

يفخر بأنه قوى عزيز ، شديد البأس ، متمرس بالخصومة والكفاح فى الحروب والملمات . ولكنه على الرغم من هذا منقاد لمن يهواه ، مسالم متطامن فى مجال الحب والغرام . والبيت الآتى يفصّل هذا المعنى ويعززه ويؤكده .

(٢٦) فله (من باب رد) : كسره ، وحطمه . وشباة السنان ونحوه : حده القاطع الجارح . وخصمه ، وخصيمه : مخاصمه ومنازعه ومغالبه فى الخصومة . والمراد قرنه ، وعدوه ، ومنازله فى الحرب والقتال . وشباة الخصم : قوته ، وصرامته ، وبأسه الشديد . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملتان الاسميتان بعدهما حاليتان . ومنازل : محارب مقاتل : اسم فاعل من نازله فى الحرب والقتال منازلة ونزالاً : أى قابله وجهاً لوجه ، وكافحه مقاتلاً محارباً . وأرهب : أخاف ، وأتهيب . (وبابه طرب) . والطرف : العين . وكرّه : حركة جفنه . أو نظراته الساحرة . وهو فى الأصل مصدر كر الفارس على قرنه فى الحرب (من بابى ردّ ودخل) : إذا حمل عليه ، وهجم . ويقال : انهزم =

أَلَا ، قَاتَلَ اللهُ الْهَوَى ، مَا أَلَذَّهُ ! عَلَى أَنَّهُ مُرُّ الْمَـذَاقِ أَلِيمُ (٢٧)

طَوَيْتُ لَهُ نَفْسِي عَلَى مَا يَسُوءُهَـا وَأَصْبَحْتُ لا يَلْوِي عَلَيَّ حَمِيمُ (٢٨)

= عنه ، ثم كر عليه . وكر بعد ما فر . وطرف سقيم : فاتر ، غير حديد . وفيه ضعف مستحسن . وفتور الطرف من محاسن النساء .

فى هذا البيت والبيتين قبله جمع الشاعر بين الفخر والغزل ؛ فهو مقاتل شجاع ، شديد البأس ، قويّ المراس ، يفلّ فى الحرب شباة خصمه ، ويكسر شوكته . وفى السلم يتهيب النظرات الفاترة الساحرة التى تصرع العاشق الولهان :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ومما يتصل بهذا المعنى ، أو يقرب منه قول الشاعر :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ ـل ، على أننا نذيب الحديدا

وترانا لدى الكريهـة أحـرا رًا ، وفى السلم للحسان عبيدا

(٢٧) « ألا » : حرف استفتاح وتنبيه . وقاتل الله الهوى : أسلوب تعجّب . وما ألذه : أسلوب آخر من أساليب التعجب ؛ فهو بالجملة الأولى يتعجب من الهوى . وبالجملة الثانية يتعجب من لذاذته مع مرارته وإيلامه ؛ فما يثير العجب أنه مر حلو ، مؤلم لذيذ . وأليم : مؤلم ، موجع .

تعجب الشاعر من الهوى والغرام ؛ فهو يستهوى العاشق استهواء لا نظير له . ثم تعجب ، وعجب غيره من أنه يجمع اللذة والألم ، والحلاوة والمرارة . ولذة الهوى وحلاوته فى استمتاع المحب — فى الحب العذرى — بما امتازت به محبوبته من المفاتن والمحاسن ، وجمال الجسم والطبع ، والخُلق والنفس والروح. ومرارته وإيلامه فيما يلابسه ، وينشأ عنه من اللوعة والحرقة ، والوجد والضنى ، والهم والأرق ، والشوق والصبابة ، والصد والإعراض ، والنحيب والبكاء ، والغيرة والهيام ، والعذل والملام . والبيت الآتى يشير إلى شيء من هذه المتاعب والآلام .

(٢٨) فى الأصل المخطوط : « طويت له نفس » . وطوى نفسه ، أو فؤاده على الأمر (من باب رمى) : كتمه ، وأخفاه . وله : للهوى : أى بسببه ، ومن أجله ، ويسوءها : يحزنها ، ويؤلمها ، ويضنيها (وبابه قال) . وأصبح : صار . ولوى عليه (من باب رمى) : عطف ، ومن كلامهم : « مرّ لا يلوى على أحد » : أى لا يقف ، ولا يقيم عليه ، ولا ينتظره ، ولا يأبه له . والحميم : القريب ، والصديق الذى توده ويودك .

يشكو ما رماه به الهوى والغرام من الانطواء على الأوصاب والآلام ، والانفراد بالهموم والأحزان ، وجفوة الأقرباء والخلان ، وهذا تصوير وتمثيل لبعض ما أشار إليه فى البيت السابق من مرارة الحب وإيلامه .

فَمَنْ لِي بِقَلْبٍ غَيْرِ هَذَا ؟ فَإِنَّنِي ... بِهِ عِنْدَ رَوْعَاتِ الْفِرَاقِ عَلِيمُ (٢٩)

كَأَنِّي أُدَارِي مِنْهُ بَيْنَ جَوَانِحِي ... لَظًى . حَرُّهَا يَكْوِي الْحَشَا . وَيَضِيمُ (٣٠)

بَلَوْتُ (لَهُ) طَعْمَيْنِ : أَمَّا مَذَاقُهُ ... فَعَذْبٌ . وَأَمَّا سُؤْرُهُ فَوَخِيمُ (٣١)

---

(٢٩) « من » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين العقلاء ، ويراد به هنا : التمنى : أى أتمنى أن أجد من يبدلنى بقلبى هذا قلباً يتجلد لروعات الفراق : جمع روعة : اسم مرة من راع (من باب قال) : أى فزع وخاف . و« به » : متعلق بـ« عليم » أى فإنى عليم بقلبى ، خبير بضعفه ، وقلة احتماله لروعات الفراق .

فى البيتين السابقين أشار إلى شىء من مرارة الحب وآلامه . وفى هذا البيت إشارة إلى لون آخر من ألوان الألم والمرارة ، وهو فراق الحبيب وبعده . وعجز قلبه عن احتمال روعات هذا الفراق ولوعاته ؛ ولهذا تمنى أن يستبدل به قلباً متجلداً قوياً ، يصبر على المكاره ، ولا يبالى بالمخاوف . وفى البيت الحادى والعشرين قال : إنه يرحل عن المحبوبة بجسمانه ، أما حبه وغرامه فباق لها ، مقصور عليها ، مقيم لا يريم ؛ فلعله يشير هنا إلى هذا الرحيل الذى حطم قلبه ، فتمنى تبديله .

(٣٠) فى الأصل المخطوط : «كأنى أدرى» . ودارأه ، وداراه (بالهمز والتليين) : دافعه ، وقاومه ، وكافحه ، واتقاه . ومنه : من الفراق . أو من الهوى : أى بسببه ، ومن أجله . والجوانح : أضلاع الصدر . واحدتها جانحة : من جنح : أى مال ، وانحنى ، واعوجّ . واللظى : النار ، أولهبها الخالص ، لا دخان فيه . وحرها : حرّ اللظى : أى حرارتها . والحشا : ما انضمت عليه الضلوع ، وحواه الصدر : وجمعه أحشاء . وضامه (من باب باع) : ضاره : أى ضرّه ، وعذّبه ، وآلمه ، وآذاه .

والبيت تفصيل وتمثيل لما شكاه وأجمله فى البيت السابق من روعات فراق الأحباء . أو هو تصوير عام لما يكابده المحب ويضانيه من الوجد والصبابة ، ولوعة الحب ، وروعة الفراق .

(٣١) بلوت : جرّبت ، واختبرت . (وبابه عدا) . وما بين القوسين « له » تكملة من عندنا استقام بها وزن البيت ومعناه . وقد أشرنا من قبل إلى بعض ما يعيب الأصل المخطوط الذى بين أيدينا من نقص . وخطإ ، وتحريف ، وتصحيف . وله : للهوى . و« أما » : حرف شرط ، وتفصيل ، وتوكيد . ومذاقه : طعمه الأول : أى ما يتذوقه العاشق فى ابتداء الأمر من حلاوة العشق ولذاذته . وعذب : سائغ ، لذيذ ، حلو ، هنىء ، طيب ، مرىء (وفعله من باب سهل) . وسؤر الشىء : بقيته . وسأر الطاعم والشارب (من باب منع) . وأسأر : أى أبقى فى الإناء بقية : وهى السؤر . ويراد بالسؤر : الطعم الثانى من طعمى الهوى والغرام : أى ما يتجرعه العاشق فى نهاية الأمر من مرارة العشق وآلامه . وطعام وخيم : ثقيل ، ردىء ممجوج غير مستمرأ ، ولا يكاد يلائم آكله ، أو يصلح له . وأمر وخيم العاقبة : أى نهايته وبيلة ، سيئة ، ضارة ، ممقوتة .

والمعنى : أن الحب فى أول أمره سائغ عذب ، حلو طيب ، هنىّ شهىّ ؛ فإذا جدّ فيه المحب وأمعن =

وَجَرَّبْتُ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ ، فَلَمْ أَجِدْ صَدِيقًا لَهُ فِى الطَّيِّبَاتِ قَسِيمُ(٣٢)

لَهُمْ نَزَوَاتٌ بَيْنَهُنَّ تَفَاوُتٌ وَعَنٌّ – عَلَى طُولِ اللِّقَاءِ – ذَمِيمُ(٣٣)

= قاسى حرقه ولواعجه ، واكتوى بتباريحه ولوعاته ، وأضنته أوصابه وآلامه . وفى البيت السابع والعشرين قال : إن الحب لذيذ مؤلم ، حلو مرّ .

فى هذا البيت وأربعة الأبيات قبله أشار الشاعر إلى بعض خصائص الحب ، وبعض آثاره فى المحبين . وفى سبعة الأبيات الآتية اتجه إلى ما يشبه الحكم والأمثال ، وعرض تجربته المرة فيمن ظنهم أخلاء وإخوان صفاء ، وشكا كثرة الشر والغدر ، وقلة الخير والوفاء ؛ ثم فزع إلى الله تعالى يرجو رحمته ، ويعتمد فى أمره عليه وحده . ثم حض على مصابرة المحن ، والتجلد للشدائد . وختم القصيدة بأن فتح لليائسين والمبتئسين أبواب الأمل والرجاء ، وعلق الأمور كلها بإرادة الله التى تفرج الأزمات ، وتم الحاجات ؛ ولعل صلة هذا كله بما سبقه من أحاديث الهوى والغزل : أن العشق وملابساته وآثاره ينضج عقل العاشق ، ويكثر تجاربه ، ويربط روحه وقلبه بتمثال حى من تماثيل الحسن والبهاء ، ويمهد سبيله إلى عمق التفكير وصحة التدبير ، وتقدير الجمال فى كل مجال ، والانطلاق فى آفاق الحكمة البالغة ، والمثل الصادق ؛ هذا إلى رهافة إحساس العاشقين ، ودقة شعورهم ، وتأجج عواطفهم ، وشدة تأثرهم بما يلابسهم ، ويحيط بهم من أحوال الحياة والناس .

(٣٢) إخوان الصفاء : الأخدان ، والأخلاء ، والخلصاء ، والأصفياء من الإخوان والأصدقاء الذين صفت مودتهم . وصدقت أخوّتهم . ويراد بالطيبات : المحامد والمكرمات ، وما ينبغى أن يكون فى الأصدقاء ، وإخوان الصفاء من البر والخير ، والصدق والوفاء ، والنصح والإخلاص ، والتعاطف والتراحم . وقسيم : حصة ، وحظ ، ونصيب .

يتبرم بمن ظنهم إخوان صفاء ، وأصدقاء أوفياء ، ويعلن سخطه عليهم ؛ لأنه لما جربهم فى محنته خطأت التجربة ظنه بهم ، وخيبت رجاءه فيهم ، وأثبتت تجردهم من الطيبات والمحامد . وفى البيت الآتى إشارة إلى بعض مثالبهم .

(٣٣) لهم : لمن جربهم ، وكان يظنهم إخوان صفاء . ونزوات : حدّات ، وبوادر وشرور ، وحماقات : جمع نزوة (بوزن جمرة) : اسم مرة من قولهم : نزا به الشر : أى ثار وتحرك . وهو ينزو إليه : أى يتوثب ويتسرع . (وبابه عدا) . وبينهن تفاوت : أى نزوات متفاوتة مختلفة باختلاف أصحابها وتفاوتهم فى الاحتداد والتسرع ، والتنزى إلى الشر ، والغضب الأهوج الأحمق. والعن (بوزن المن) : مصدر عن عنه (كرد ، وخف) : أى أعرض عنه ، وصدف ، وانصرف . وعلى طول اللقاء : أى على الرغم من طول اللقاء ، وامتداد الصحبة .

رمى من خبرهم من هؤلاء الإخوان بالاندفاع إلى الشر ، وسرعة الغضب فى حماقة وطيش ، وكثرة البوادر والهفوات ، على تفاوت بينهم فى هذه العيوب والنقائص . وقال : إنهم أعرضوا عنه فى الملمات إعراضاً معيباً ذميما ، وأحجموا عن نصرته ومواساته ، على الرغم من طول ما كان بينه وبينهم من صحبة وتلاق ؛ مما يؤكد أن وفاءهم صدوف وجفاء ، وودهم نفاق ورياء ، وإخاءهم كاذب غير صادق .

بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ وَالْغَدْرُ شِيمَةٌ ... لِكُلِّ ابْنِ أُنْثَى. وَالْوَفَـاءُ عَقِيمُ؟(٣٤)

فَلَا تَعْتَمِدْ إِلَّا عَلَى اللهِ فِي الَّذِي ... تَوَدُّ مِنَ الْحَاجَاتِ؛ فَهْوَ رَحِيمُ(٣٥)

وَلَا تَبْتَئِسْ مِنْ مِحْنَةٍ سَاقَهَا الْقَضَا ... إِلَيْكَ؛ فَكَمْ بُؤْسٍ تَلَاهُ نَعِيمُ(٣٦)

---

(٣٤) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه النفى ، فالإنسان لا يكاد يجد فى الناس من يأتمنه ويثق به ، ويطمئن إليه ، ويعتمد فى الشدائد والملمات عليه . وأنى له هذا مع قلة وفائهم . وانطواء قلوبهم على الغدر والخيانة ؟ . والشيمة : الخلق ، والغريزة ، والطبيعة ، والجبلة التى فطر الإنسان عليها . وجمعها شيم (بكسر ففتح) . والوفاء عقيم : أى معدوم ، لا وجود له : صفة من العقم : وهو (فى الأصل) : ألا يلد الرجل أو المرأة بسبب داء ، أو شيخوخة ، أو غيرهما . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملتان الاسميتان بعدها حاليتان .

اشتد سخط الشاعر على من نقضوا عهده، وغدروا به، وقعدوا عن نصرته فى محنته؛ فجنح فى هذا البيت للمبالغة والتزيد ؛ فجرد الناس من الوفاء ، ورماهم بالغدر ، وقال : إنه مركوز فى طباعهم وجبلاتهم؛ فلا سبيل إلى برئهم منه ، ونزوحهم عنه ؛ ولهذا لم يعد يثق بإنسان ، أو يطمئن إليه ، أو يعول عليه . وهو فى مغالاته وتطيره وتشاؤمه من الناس ، وتبرمه بكثرتهم الغالبة يجرى مجرى كثير من الشعراء الذين سبقوه إلى هذا المعنى ، والذين لحقوه فيه ؛ فأبو تمام يقول :

إن شئت أن يسودّ ظنك كلــه ... فأجله فى هذا السواد الأعظم

ليس الصديق بمــن يعيرك ظاهراً ... متبسما عن باطن متجهم

وأمير الشعراء أحمد شوقى يقول فى رائيته الطويلة المشهورة التى نظمها فى « أبى الهول » :

ولو صوروا من نواحى الطبــاع ... توالوا عليك سباع الصور

فيا ربّ وجــه كصافى النمــير ... تشابه حامله والنمــر

(٣٥) فى البيت السابق تطير من الناس وتشاءم ، وتبرم بهم ، وسخط على من جربهم من إخوانه وصحابه ، ونفض منهم يده، ورماهم بالغدر ونقض العهد ، والنفاق والخيانة ، والتجرد من الصدق والوفاء، وأعلن أنه لا يثق بهم ، ولا يأتمنهم، ولا يطمئن إليهم. وهذا البيت شبه علاج لهذه الأزمة النفسية؛ فقد فزع منهم إلى الله رب العالمين ، ولجأ إليه ، واستجاره ، ودعا إلى الاعتماد عليه وحده فى كل ما يتمناه المرء ، ويرغب فيه ، ويحتاج إليه ؛ فإنه تبارك وتعالى يقبل على من قصد إليه ، وتوكل عليه ، ويغمره برحمته وإحسانه وإفضاله وإنعامه «ومن يتوكّلْ على الله، فهو حسبه» (الآية رقم ٣ من سورة الطلاق). والبيت الأخير وثيق الاتصال بهذا المعنى ، مؤكد له .

(٣٦) لا تبتئس : لا تكتئب ، ولا تحزن . وهو نهى يراد به النصح والإرشاد . والمحنة : ما يمتحن به الإنسان من البلايا والشدائد . وجمعها محن : اسم من محنه (من باب قطع) : أى امتحنه ، واختبره وبلاه ، وجربه ، وفتنه . وفى القرآن الكريم: « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (الآية رقم ٣٥ من سورة =

فَقَدْ تُورِقُ الْأَشْجَارُ بَعْدَ ذُبُولِهَا ... وَيَخْضَرُّ سَاقُ النَّبْتِ وَهْوَ هَشِيمُ (٣٧)

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ إِتْمَـامَ حَاجَةٍ ... أَتَتْكَ عَلَى وَشْكٍ وَأَنْتَ مُقِيمُ (٣٨)

= الأنبياء). وفيه: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» (الآية رقم ٢ من سورة العنكبوت) ويراد بالقضاء هنا : حكم الله الذى لا يرد « والله يحكم ، لا معقب لحكمه » . (الآية رقم ٤١ من سورة الرعد) . و «كم» : خبرية تكثيرية ، تمييزها « بؤس » : وهو المشقة والضرر . وضده النعيم . وتلاه : تبعه ، وعقبه ، وخلفه ، وجاء فى إثره . والابتئاس ، والحزن ، والاكتئاب من ملابسات البؤس ولوازمه ونتائجه .

ينهى عن الابتئاس والجزع ، ويحض على الصبر والتجلد لما يقدره الله تعالى ويقضيه من المحن والبلايا. والتذييل فى نهاية البيت يضاعف هذا التحضيض ويؤكده ، ويهيئ النفوس لقبوله، والانتصاح به ، والارتياح له ؛ فالبؤس ، أو المحنة مؤقتة لا تلبث أن تزول ، ويعقبها النعيم ، ورخاء البال. والأبلغ من هذا قول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً » . (٥ و ٦ من سورة الشرح) .

وصلة هذا البيت بأربعة الأبيات السابقة واضحة ؛ فالشاعر جرب إخواناً ظنهم أوفياء ، فخيبوا ظنه ، ولم يجد لأحد منهم نصيباً فى الطيبات ، بل رأى الغدر فى طباعهم ، وكانت هذه التجربة المرة من المحن والبلايا التى فزع منها إلى الله ، وعزى نفسه وغيره بهذا البيت والبيت السابق والبيتين الآتيين .

(٣٧) « قد » : حرف يفيد التحقيق والتكثير فى مثل هذا المقام ؛ فهى بمنزلة « كم » الخبرية التكثيرية فى البيت السابق . وهشيم : يابس متكسر : فعيل : بمعنى مفعول: من الهشم : وهو كسر الشيء اليابس الأجوف . (وفعله من باب ضرب) .

فى البيت السابق قال : إن البؤس يتلوه النعيم ، ويمحو أثره . وهذا البيت تأكيد وتعزيز ، وتفصيل وتمثيل لهذا التذييل ؛ فذبول الأشجار ، وتهشم سوق النبات صورة من صور البؤس أو المحنة . والإيراق والاخضرار أمارة من أمارات النعيم والبهجة ، والحياة الناعمة الناضرة .

(٣٨) أتتك على وشك (بضم الواو وفتحها) : جاءتك فى سرعة وعجلة . والواو فى الشطر الثانى: واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية .

ندد الشاعر فى البيتين الثانى والثلاثين والثالث والثلاثين بمن ظنهم أصدقاء ، وإخوان صفاء ووفاء ؛ فأخلفوا ظنه ، وخيبوا رجاءه . ثم أورد بعدهما خمسة أبيات فيما يشبه الحكمة والمثل ، خامسها هذا البيت وهو ختام هذه القصيدة الطويلة . ومعناه : أن الأمور كلها معلقة بإرادة الله عز وجل ، مرتهنة بمشيئة الله ؛ وبالإرادة الإلهية وحدها تنفرج الأزمات ، وتنكشف الكروب ، وتتم الحاجات ، وتسارع فى يسر وسهولة إلى من يرحمه الله من عباده ؛ فلا ينقل إليها قدماً ، ولا يجهد نفسه بسفر أو رحيل . وقد أشرنا من قبل إلى وثاقة اتصال هذا البيت بالبيت الخامس والثلاثين . والغرض منهما ومن أمثالهما : تقوية الإيمان بالله ، وتوثيق صلة الإنسان بربه الكريم الرحمن ؛ ليقوى بها على مكافحة الكروب ، والتجلد للخطوب ، والفوز بسعادة الدين ، والدنيا ، والآخرة .

وَقَالَ :

سَبَقْتَ بِالْفَضْلِ ؛فَاسْمَعْ مَاوَحَاهُ فَمِي فَأَنْتَ أَوْلَى بِهَذَا الدُّرِّ مِنْ كَلِمِي (١)

يَا رَائِدَ الْوُدِّ ! ، قَدْ صَادَفْتَ مُنْتَجَعًا بَيْنَ الْجَوَانِحِ ؛فَانْزِلْهُ ، وَلَا تَرِمِ (٢)

أَوْلَيْتَنِي مِنْكَ فَضْلًا قَدْ مَلَكْتَ بِهِ قَلْبِي ؛فَهَاكَ يَدِي فِي الْوُدِّ ، فَاحْتَكِمِ (٣)

---

(١) وحاه : ألقاه (وبابه وعى) . وأولى : أحرى ، وأجدر ، وأحق ، وأخلق ، وأقرب : اسم تفضيل من الولى (بوزن الوعى) : وهو الدنوّ والقرب . والدرّ : اللؤلؤ الكبير . الواحدة درة . و« من » : بيانية . والكلم : أى كلمات هذه المدحة وأبياتها ، بيان للدر .

أسدى الممدوح إلى الشاعر معروفاً ، وصنع له جميلا ؛ فنظم هذه الأمدوحة فى التنويه بفضله ، والشكر له ، وافتخر بأن كلماتها تشبه اللآلئ والدرر فى الرواء والنفاسة . وقال للممدوح : اسمعها منى ؛ فإنك أحق الناس بها ، وهى جزاء ، ما سبقت به ، وقدمته إلىّ من الخير والبر ، والإنعام والإحسان .

(٢) رائد الود : طالبه . أو السابق إليه . والرائد (فى الأصل) : من يبعثه قومه ليرود لهم الماء والكلأ : أى يطلبه ، ويتلمسه ، ويبحث عنه فى مظانه ؛ فيسبق إليه ، ثم يبشرهم به . (وفعله من باب قال) . وصادفه مصادفة : لاقاه ، ووجده من غير موعد ، ولا توقّع . والمنتجع (بصيغة اسم المكان) : الموضع يقصد لما فيه من كلأ وماء . ومن المجاز : انتجعت فلاناً : أى قصدته طالباً معروفه . والجوانح : الأضلاع القصيرة مما يلى الصدر . أو هى أضلاع الصدر التى تتصل رءوسها ، وتلتقى أطرافها فى وسط الزور . الواحدة جانحة . وسميت بذلك لما فيها من الميل والعوج ، والانعطاف والجنوح والانحناء . . والشاعر يكنى بالمنتجع الذى بين جوانحه عن قلبه ؛ فالممدوح قصد الشاعر ، وتقرب إليه ، منتجعاً صداقته ومودته ، فتقبله بقبول حسن ، وأحلّه من قلبه محل الوداد والإعزاز . ولا ترم : أى لا ترم المنتجع : أى لا تبرحه ، ولا تزايله . وهو تأكيد لمعنى النزول ، والحلول ، والإقامة والاستقرار . يقال : ما رام مكانه ، وما رام من مكانه : أى لم يفارقه ، ولم يبرحه ، ولم يغادره ، ولم يرحل عنه (وبابه باع) .

خطب الممدوح مودة الشاعر ، والتمس أخوّته وصداقته ؛ فوجد لديه حسن القبول والإقبال ، والحفاوة والترحيب والاحتفال ، وبادله ودًّا بودّ ، وأحلّه من نفسه وقلبه محلّ الإعزاز والإكرام . والبيت الآتى تكرار وتأكيد وتعزيز لهذا المعنى .

(٣) أوليتنى : منحتنى ، وأعطيتنى . وهاك : اسم فعل أمر : بمعنى خذ . وهاك يدى : تعبير يراد به المواثقة والمعاهدة ، أو الطاعة الأخوية ، والاستسلام الاختيارى ، والانقياد لدواعى الإخاء والمودة والمحبة والصداقة . وفى الودّ : أى فى أمر الودّ وشأنه . أو بسببه ، ومن أجله . واحتكم : أمر من الاحتكام : =

إِنَّ الْمَوَدَّةَ إِنْ صَحَّتْ غَدَتْ نَسَبًا ... بَيْنَ الْأَبَاعِدِ تُغْنِيهِمْ عَنِ الرَّحِمِ (٤)

فَثِقْ بِذِمَّةِ عَهْدٍ فِيكَ صَادِقَةٍ ... فَلَيْسَ كُلُّ خَلِيلٍ صَادِقَ الذِّمَمِ (٥)

وَاعْذِرْ إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي الْقَوْلِ مُتَّسَعًا ... فَالْمَرْءُ لَا يَبْلُغُ الْأَفْلَاكَ بِالْهِمَمِ (٦)

= وهو الانفراد بالحكم ، والتصرف والسلطان . وقد مهد له بقوله : « فهاك يدى » : أى أطعتك وانقدتُ لك فى شأن الود ؛ فمر فى هذا الشأن بما شئت تجدنى سميعاً مطيعاً .

خطب هذا الصديق ودّ الشاعر ، وأولاه فضله ؛ فملك بالإحسان قلبه ، وحمله على تعظيم وداده وتحكيمه وإطاعته ، والانقياد لأمره .

(٤) يراد بصحة المودة : صفاؤها ونقاؤها ، وصدقها ، وخلوصها من شوائب الكذب والرياء والنفاق . وغدت : صارت . والنسب : القرابة . ومثلها الرحم . وهى (فى الأصل) : منبت الجنين ، ووعاؤه ، وموضع تكوين الولد فى بطن أمه . ثم أطلقت مجازاً على الوُصْلة وعلاقة القرابة ، أو أصلها أو أسبابها . (تذكّر وتؤنث) . وجمعها أرحام . والأباعد : جمع الأبعد : صفة من البعد . ويراد بالأباعد ، أو البعداء : الأجانب الذين لا تجمعهم صلة القربى ، أو الرحم أو النسب .

ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكمة أو المثل ؛ ليؤكد به معنى البيتين السابقين . ولا ريب أن المودة الصحيحة الخالصة الصادقة تربط الأودّاء بأوثق الروابط والصلات ، وتغنى عن أواصر القربى والنسب والرحم ، وتقوم مقامها . وتسدّ مسدّها ؛ بل قد تفضلها وتفوقها . وفى المثل : « رب صديق خير من شقيق » .

(٥) لفلان ذمة : أى عهد يذم إذا ضيعه ؛ فإضافتها إلى العهد هنا : من إضافة الكلمة إلى مرادفها . والغرض التأكيد والتثبيت . وصادقة : صفة لها . وجمعها ذمم . وفيك : معك . أو إليك . أو فيما بينى وبينك . يريد أنك أوليتنى فضلاً ومودة ؛ فأعطيتك الذمة والعهد ، والموثق والضمان أن أتشدد فى رعاية هذه المودة وصيانتها والمحافظة عليها ، ومجازاتها بصدق الوداد والإخاء ، وموفور الإخلاص والوفاء .

واثق الشاعر هذا الصديق الذى راد الود ، وسبق بالفضل ، وعاهده أن يكون وديده وخليله ، ثم دعاه إلى الثقة به ، والاطمئنان إليه ، والاعتماد عليه ؛ فإنه من الذين يرعون الود ، ويوفون بالعهد ، ويصونون الذمم والحرمات ، وحقوق الصداقات والمودات . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فالشاعر من الأخلاء الأوفياء ذوى الذمم الصادقة ، والعهود الوثاق . وفى الناس منافقون مراءون كثيرون ، يظهرون لك الود والخلالة ، ويدّعون الإخلاص والوفاء ، وقلوبهم منطوية على الغدر والخيانة ، والكراهية والبغضاء .

(٦) متسعاً : مصدر ميمى ، أو اسم مكان ، أو اسم فاعل : أى اتساعاً ، أو مكاناً واسعاً ، أو مجالاً يتسع لما أريده وأحرص عليه من الإطناب فى إطرائك وحسن الثناء عليك ، وفاء بحقك ، وكفاء لفضلك . والأفلاك : جمع فلك (بوزن سبب) : وهو الفضاء فى السماء يدور فيه النجم أو =

لَا زِلْتَ تَرْفُلُ فِى أَثْوَابِ عَافِيَةٍ مَوْشِيَّةٍ بِطِرَازِ الْحَمْدِ وَالنِّعَمِ (٧)

= الكوكب . وقد تطلق الأفلاك ، ويراد بها النجوم والكواكب . والهمم : جمع همة (بوزن قمة) : وهى العزم القوى ، والإرادة القاطعة .

التمس الشاعر من صاحبه المعذرة إذا ضاق به نطاق الكلام ؛ فلم يطل مدحه وإطراءه ، ولم يطنب فى حسن الثناء عليه ؛ فإن منزلة هذا الصديق الودود منزلة الأفلاك والكواكب والنجوم ؛ وتلك غاية لا يبلغها بليغ القول ، وسحر البيان ، ولا يصل إليها جهد الشاعر على الرغم من بعد همته ، وموفور كفايته ، وقوة عزيمته . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، متضمن تعظيم الممدوح ، والتنويه بسمو مكانته ، وحسن الاعتذار عن التقصير فى مدحه . وما زال بلوغ الأفلاك والكواكب فوق جهد البشر وإن قاربتها محاولاتهم .

(٧) رفل (كنصر ، وفرح) : جرّ ذيله جرًّا حسناً ، وتبختر فى سيره . ورفل فى ثيابه : أطالها ، وجرها متبختراً مزهواً . وموشية : صفة لأثواب : أى مطرّزة ، مزينة منقوشة ، مزخرفة بالخيوط الملوّنة ، والرسوم ، والنقوش وما شاكلها من وسائل التطريز والتزيين والتحسين . وطراز الثوب : علمه ووشيه ، ورسمه ، وزينته ، وعلامته التى يعرف بها ، وتميزه من غيره . والطراز أيضاً : النمط والشكل . ومن حسن التأليف فى هذا البيت : أن الأثواب تناسب الرفول أو الرفلان . والوشى والطراز يناسبان الثياب واللباس . والحمد يلائم النعم ، ويقترن بها .

ختم الشاعر هذه الأبيات السبعة بالدعاء لصاحبه ووديده أن يبقى على الدوام رافلاً فى ثياب العافية والسلامة ، مزهوًّا بحلل الصحة والرفاهة ، حامداً محموداً متنعماً برغد العيش ، وطيب الحياة .

تعليق وجيز

هذه القصيدة على صغرها ، وقلة أبياتها جمعت المديح ، والفخر ، والدعاء ، وحسن الاعتذار . وجرى بعض أبياتها مجرى الحكم والأمثال ؛ فالممدوح راد الود ، وسبق بالفضل ، وأحسن إلى الشاعر ابتداء بلا علة . وكلمات الشاعر – على قلتها ووجازتها – درر ولآلئ عظيمة استأهلها الممدوح بسبقه إلى الفضل ، وصدق وداده ، وحبكه أواصر الخلة والمحبة والصحبة والصداقة . وذمة الشاعر فى قبولها والوفاء بها ، والمحافظة عليها – صادقة نقية ، وعهده محكم وثيق ، وقلبه أسير هذه الرابطة أو العلاقة الأخوية القوية ، وهمته عالية فتية ، ومنزلة الممدوح ومحامده ومزاياه فى أعلى مراتب الرفعة والسمو ؛ بحيث لا يكاد يبلغها ، أو يحيط بها ، أو يتسع لها بليغ الكلام ، وسحر البيان . وقد أشرنا فى أثناء الشرح إلى ما جرى مجرى الحكم والأمثال ، وهو البيت الرابع ، والشطران الأخيران من البيتين الخامس والسادس ، أى أكثر من ربع هذه القصيدة .

وَقَالَ :

خَلِّ الْعِتَابَ ؛ فَلَوْ طَلَبْتَ مُهَذَّبًا ... أَعْيَاكَ مَطْلَبُهُ بِهَـذَا الْعَـالَمِ [1]

إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ إِلَيْكَ جَرَى بِهِ ... قَدَرٌ ؛ فَإِنِّي مِنْ سُـلَالَةِ آدَمِ [2]

---

(١) خلّ العتاب : دعه ، واتركه : أمر يراد به النصح والإرشاد . أو محض الالتماس ، من خلاه تخلية : أي تركه وانصرف عنه . ويرجّح النصح والإرشاد أن الإغضا على هفوات الرفيق ، والإعراض عن ملامته وعتابه قد يكون علاجاً لزلاته ، واستبقاء للمودة بين الرفقاء والأصدقاء . وقد يعمّق العتاب هوّة الخلاف ، ويضاعف الجفوة والموجدة . ومن كلامهم : « الكريم ربما أغضى وبين جنبيه نار الغضى » . وأعياك : أعجزك ، واستعصى عليك . والمطلب : مصدر بمعنى الطلب . والعالم : الخلق والناس .

يقول لمن حاول أن يعتب عليه ، ويلومه فى تسخّط ، ويذكّره بما كرهه منه : دع العتاب ؛ فإنى لست مبرأ من الخطإ ، وإن الرجل المهذب المعصوم من الهنوات والزلات لا وجود له فى هذا العالم . وهذا الكلام يعد من الشاعر اعترافاً بخطئه ، واعتذاراً عنه ، وإعتاباً لمعاتبه ، أى ترضية له ، واستبقاء لوده ، وإزالة لأسباب سخطه وعتبه ولومه . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويعززه ، ويؤكده .

ويقرب من هذا قول النابغة الذبيانى الشاعر الجاهلى :

ولست بمستبق أخاً لا تلمّـه ... على شعث ؛ أى الرجال المهذب ؟

وقول بشار بن برد ، أشعر مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية :

إذا كنت فى كل الأمـور معاتباً ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحداً ، أو صل أخاك ؛ فإنه ... مقارف ذنب مرة ، ومجانبـه

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت ؛ وأىّ الناس تصفو مشاربه؟

(٢) القدر : ما يقدره الله تعالى على عباده : أى يقضى به ، ويحكم . والشاعر يريد أن ذنبه إلى معاتبه كان من الأمور التى جرى بها قدر الله تعالى وحكمه وقضاؤه ؛ فهو ليس من أفعاله الاختيارية ؛ فلا ينبغى أن ينكره عليه ، ويؤاخذه به . وقد يذنب المرء ذنباً غير مقصود ، أى نتيجة خطإ أو نسيان ؛ يرفع عنه اللوم والمعاتبة والمؤاخذة . وفى القرآن الكريم : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى ، ولم نجد له عزماً » (الآية رقم ١١٥ من سورة طه) . والسلالة : النسل ، والولد ، والذرّية . وآدم : أبو البشر . وفى هذا البيت إشارة واضحة إلى خطيئة سيدنا آدم التى أخرجته من الجنة . قال الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : « وقلنا : يا آدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه . =

وَقَالَ :

سُكُوتِى إِذَا دَامَ الْحَدِيثُ كَلَامُ ... وَتَقْلِيبُ عَيْنِى فِى الْوُجُوهِ مَلَامُ[1]

وَصَبْرِى عَلَى الْأَيَّامِ لَا مِنْ مَذَلَّةٍ ... وَلَكِنْ يَدٌ مَغْلُولَةٌ وَحُسَامُ[2]

= وقلنا : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدوّ . ولكم فى الأرض مستقرّ ، ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه ؛ إنه هو التواب الرحيم » (الآيات ٣٥ و ٣٦ و ٣٧) .

أشار الشاعر إلى خطيئة آدم أبى البشر عليه السلام . وقال : إنها كانت بقضاء الله وقدره ، ومن المألوف الطبيعى أن يكون أولاد آدم خطائين . والغرض : التمهيد لعذره ، والتنصل من تبعات ذنبه ، وتخفيف وقعه ، وتهوين أمره ، وتأكيد ما أشار إليه فى البيت السابق من أن الناس غير معصومين ، وليس فيهم مهذب ، أى برىء من الأخطاء والنقائص ؛ فلا ينبغى أن يخدشه صاحبه هذا بلومه وعتابه ، ويوجعه بموجدته وتقريعه ؛ فبالصفح والتسامح تقطع الخصومات ، وتستبقى المودات .

* * *

(١) الملام : اللوم ، والعذل ، ومثله الملامة .

يبدو أن البارودى نظم هذه الأبيات بعد سبتمبر سنة ١٨٨٢م ، أى بعد أن سقطت مصر فى قبضة الاحتلال العسكرى الإنجليزى الذى سيطر على البلاد ، واعتقل قادة الثورة العرابية ؛ فكثر حديث بعض الناس عنهم ، وعن الثورة ، وعما كان يطمع فيه الشاعر ؛ فلم يسعه إلا أن يقلب عينيه فى وجوههم تقليباً يحمل معنى الملامة والعتاب ، واستنكار هذه الأحاديث المتأثرة بدعايات الاحتلال وأذنابه . وقد عدّ سكوته الاضطرارى فى قوة الكلام الذى يحمل الحجة والبرهان ، ويحبط هذه الدعايات الكاذبة المضللة .

(٢) صبره على الأيام : صبره على شدائد الزمان ونكباته التى أصابته فى نفسه وأهله وماله ووطنه. ومغلولة : مقيدة ، ممنوعة من الحركة والعمل ، مربوطة بالغلّ (بضم الغين) : وهو طوق من حديد أو جلد أو نحوهما يجعل فى عنق الأسير ونحوه ، أو فى يديه لإذلاله وتقييد حركته ، وسلب حريته . والحسام : السيف القاطع . وفى الكلام حذف : أى ولكن يد مغلولة ، وحسام مغلول كذلك .

والمعنى : أن الصبر على الشدائد والملمات محمدة إذا لم يكن من مذلة أو ضعف أو هوان أو استسلام . ولقد تجلد الشاعر للأحداث والكوارث ؛ وصبر على ما جاءت به الأيام من المحن والآلام صبر الأباة الأعزة ، ذوى النفوس المترفعة القوية ، بعد أن غلت يده ، واعتقل لسانه ، وغلب على أمره ، وجرد من سلاحه وماله وسلطانه ، وكل وسائل المقاومة والدفاع. ولو بقى لديه شىء منها ما صبر ، ولا قعد عن الكفاح والنضال . وهو بهذا المعنى يمهد لمعنى البيت الآتى ؛ فيحسن الاعتذار عن صبره ، ويحتجّ لنفسه ، ويتنصّل من التبعات ، ويحبط لوم اللائمين ، وباطل المبطلين .

أَلامُ عَلَى أَنِّي صَبَرْتُ ، وَهَلْ فَتًى عَلَى الصَّبْرِ – إِنْ قَلَّ الْمُعِينُ – يُلَامُ ؟[٣]

وَقَالَ * .

يَا بَانَةً ! مَنْ لِي بِضَمِّكْ ؟ يَا زَهْرَةً ! مَنْ لِي بِشَمِّكْ ؟[١]

---

(٣) يراد بالفتى هنا : المعنى العام الذى يجمع الفتيان والشبان ، والكهول والشيوخ ؛ فإن العرب تقول : هو فتى من صفته كيت وكيت من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . ويقولون : « هذا فتى بين الفتوّة » : وهى النجدة والحرية والكرم والشجاعة . والاستفهام فى البيت : معناه النفى ، أو الإنكار : أى لا يجوز أن يلام الصابر إن فقد المعين ، أى المساعد والنصير والظهير والمجير . وإن خُدش بملامة كانت جديرة بالاستنكار والاستهجان . لتجافيها عن الحق والصدق ، والعدل والإنصاف ، والسداد والصواب .

فى البيت السابق قال : إنه صبر على ما جاءت به الأيام من المحن والآلام صبر الأبىّ القوىّ العزيز الذى جرد من كل وسائل الكفاح والدفاع . وفى هذا البيت استنكار للومه على هذا الصبر بعد هذا التجريد ، وبعد أن فقد المعين والنصير . والأبيات الثلاثة منسجمة مؤتلفة ؛ فنى البيت الأول أجبر على السكوت ، ومنع الكلام ، أو أضرب عنه إضراب المتمكن من حجته ، المقتدر على البيان والإقناع ، واكتفى بتقليب طرفه فى وجوه نقدته لائماً عاتباً . ولكنه ما لبث فى البيتين الثانى والثالث أن أظهر تجنيهم ، وأقام حجته ، وأوضح عذره ، وبين وجه صبره ، ودفع عن نفسه المذلة والهوان ، وقال : إنه فقد الأعضاد والأعوان ، وجرد من وسائل الكفاح والنضال ، وسقط فى ميدان الشرف والجهاد والعزة والكرامة سقوط الأعزة الأباة المكافحين الأبطال ؛ فلا ينبغى أن ينحى على مثله بلوم أو تثريب .

ويلاحظ أن هذه الأبيات الثلاثة مضروب عليها فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا . وقد آثرنا طبعها ونشرها حرصاً على الإتمام والإفادة .

هذا ، وقد نظم البارودى أكثر شعره وأجوده بعد إخفاق الثورة العرابية ، واحتلال الإنجليز مصر . فأين تنديده بالمحتلين المعتدين ؟ وأين تمجيده لصحبه ورفاقه فى الجهاد والجلاد ، ثم فى المحنة والبلاء ؟؟

* * *

* هذه الأبيات رويها الميم ، والكاف بعده حرف وصل . ويصح أن تكون الكاف نفسها رويًّا ؛ وعلى هذا تدرج الأبيات فى قافية الكاف ؛ فالأمران جائزان صحيحان ، والأول مستحسن راجح .

(١) البانة : واحدة البان : وهو ضرب من الشجر سبط القوام . وفيه مع السبوطة والاعتدال لين ومرونة . وورقه كورق الصفصاف . وبالبان تشبه حسان النساء فى حسن الطول ، وجمال القد ، واعتدال القوام ، والمرونة . و« من » فى شطرى البيت : اسم استفهام ، يراد به التمنى ؛ فالشاعر يرغب فى ضم من يتغزل بها وشمها ، ويتمنى أن يجد من يعينه على تحقيق تلك الرغبة . وبين الزهرة والشم ائتلاف قوى ، =

يا بِنْتَ سَيِّدَةِ النِّسَاء ! تَرَفَّقِى بِحَيَاةِ أُمِّكْ[٢]
مَا فِى مَنْبِتُ شَعْرَةٍ إلَّا بِهِ أَثَرٌ لِسَهْمِكْ[٣]
كَلَّا ، وَلَا فِى مُهْجَتِى مِنْ طُولِ صَدِّكِ غَيْرُ هَمِّكْ[٤]
أَصْبَحْتُ مُمْتَنِعَ الْكَرَى لَمَّا جَفَانِى بَدْرُ تِمِّكْ[٥]

= وتناسب واضح . وفى الزهرة – إلى ذكاء الرائحة، وطيب الأريج – معنى النضرة والبهاء والإشراق، والغضارة والرونق والرواء . وفى البانة مع السبوطة والاعتدال ، معنى المرونة والرخاصة وحسن اللين .

شبه المتغزل بها بالبانة ثم بالزهرة ، وتمنى أن يعان على عناقها وشمها .

(٢) بحياة أمك : الباء : حرف قسم . وحياة أمها مقسم بها .

استحلف معشوقته بحياة أمها أن تترفق به ، وترحمه ، وترقّ له ، وتعطف عليه .

(٣) المنبت (بوزن المجلس) : موضع النبات : أى المكان الذى ينشأ منه ، ويظهر ، (وفعله من باب نصر) . ومنبت الشعرة فى الجسم : أصلها ومستقرها . ويراد بمنابت الشعر : الجسم كله : ظاهره ، وباطنه . والسهم : عود من خشب يسوّى ، ويركّب فى طرفه نصل محدد ، ويرمى به عن القوس العربية ، وكانت من أدوات الصيد والقتال عندهم . ويرد السهم كثيراً فى لغة الشعر ، وبخاصّة فى باب الغزل والنسيب . وسهام الحسناء : محاسنها ، ومفاتنها ، ونظراتها الساحرة التى تستهوى بها العاشق ، وتدلّهه .

والمعنى : أن قلبه ووجدانه ، وعواطفه ومشاعره تأثرت كل التأثر بمحاسن المتغزل بها ونظراتها الساحرة ؛ فوقع صريع الحب ، أسير الغرام .

(٤) « كلا » : حرف جواب : بمنزلة « إى » : أى « نعم » . والجواب هنا لتصديق المخبر : أى تأكيد معنى البيت السابق . أو هى بمعنى « ألا » الاستفتاحية التى يبتدأ بها الكلام ، وتفيد التنبيه . أو هى بمعنى « حقّاً » : مصدر حقّ الأمر : بمعنى صحّ ، وثبت ، وصدق . والمهجة : النفس ، والروح ودم القلب . وقد تطلق ، ويراد بها القلب . و « من » هنا : تعليلية ، كما فى قول الله تبارك وتعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا » (الآية رقم ٢٥ من سورة نوح) . والصدّ والصدود : الإعراض والقطيعة ، والصدوف ، والهجران . وضده الإقبال والوصال ، واللقاء ، والاحتفال . والهمّ : الحزن ، والقلق .

فى البيت السابق قرر أن سهامها أصابته إصابات شاملة ؛ فوقع أسير الحب ، صريع الغرام . وفى هذا البيت أن طول إعراضها عنه أذابه وأضناه ، ولم يبق فى قلبه غير الهموم والأحزان .

(٥) الكرى : النوم والنعاس . وجفانى : أعرض عنى ، وهجرنى . والبدر : القمر ليلة كماله ، وتمام ضيائه فى منتصف الشهر العربى . وبدر تمك (بتثليث التاء) : بدرك التامّ ؛ فالتمّ تأكيد لمعنى البدر ، =

إنْ لمْ تَجُودِي بِاللِّقَا ءِ عَلَى الْمُحِبِّ ، وَلَا بِلَثْمِكْ[٦]
فَتَسَامَحِي لِيَ مَرَّةً حتَّى أَفُوزَ بِلَثْمِ كُمِّكْ[٧]

وَقَالَ :

دَعِ الْهَزْلَ ، واحْذَرْ تُرَّهَاتِ الْمُنَادَمَةْ فَكَمْ مِنْ غَوِيٍّ قَدْ أَسَالَ الْمُنَى دَمَهْ[١]

= وقد جرى المتغزلون على تشبيه الحسناء بالبدر فى الإشراق والبهاء ، والرواء ، وحسن الطلعة ، وجمال المحيّا ، واكتمال المحاسن .

شبهها بالقمر الممتلئ المشرق البهىّ ، الباهر التام . وقال : إنها جفته ، وأعرضتْ عنه ؛ فشق عليه الجفاء والإعراض ، ولازمه الهم والضنى ، والأرق والسهاد .

(٦) اللثم : التقبيل . (وفعله من بابى فهم ، وضرب) . وجواب «إن» الشرطية فى البيت الآتى : « فتسامحى .. » .

(٧) تسامح فى كذا : تساهل . والكم : مدخل اليد ومخرجها من الثوب . وجمعه أكمام .

* * *

(١) الأمران فى الشطر الأول : للنصح والإرشاد . والهزل : المزاح والدعابة . (وفعله من باب ضرب) . وضده الجد والصرامة . والمراد الهزل الممقوت الذى يقوم على قبح الكلام ، ويخالف أدب الإسلام . ومن معانى الهزل : الهذيان ، واسترخاء الكلام . والترهات : الأباطيل ، وما لا نفع فيه من الأقوال ، الواحدة ترهة . (بوزن سُكَّرة) والمنادمة : مصدر نادمه : أى رافقه ، وشاربه ، وسامره . و« كم » : خبرية ، تفيد التكثير . وتمييزها « غوىّ » : وهو المنقاد للهوى ، المنهمك فى الجهل ، الممعن فى الضلال . والمنى : الأمانى والآمال . الواحدة منية (بضم فسكون) .

ينهى عن المزح الفاسد ، والهزل الممقوت ، ويحذّر من الترهات وأباطيل المتجالسين على الشراب ، وهذيان السكر ، والفارغ المسترخى من كلام السكارى ؛ فإن هذا كله انهماك فى الجهل ، وانقياد للهوى ، وإمعان فى الضلال ، وجرى وراء أمانى خادعة ، وآمال كاذبة ، لا تنتج غير الشر والخيبة ، والبوار والخسران . والصلة بين شطرى البيت واضحة ؛ فإن الهزل المرذول ، والمزاح المعيب ، وترهات المنادمة ، من الغواية والضلال . والغى تلابسه وتقترن به الأمانى الخادعة الكاذبة التى كثيراً ما تستهوى الغواة الفاسدين ، وتوردهم موارد التهلكة . وفى البيت من المحسنات البديعية اللفظية جناس تام بين « المنادمة » فى نهاية الشطر الأول ، و« المنى دمه » فى نهاية الشطر الثانى . وقلما يتكلف البارودى المحسّنات البديعية ، أو يرغب فيها ، أو يحفل بها .

فَمَهْ ، لَاتَفُهْ بِالْقَوْلِ قَبْلَ انْتِقَادِهِ   فَرُبَّ كَلَامٍ فَضَّ مِنْ قَائِلٍ فَمَهْ(٢)

وَقَالَ :

لَا تَعْذِلَنِّي عَلَى وَفْرٍ سَمَحْتُ بِهِ   لِلْمُعْتَفِينَ ؛ فَإِنِّي مَاجِدُ الشِّيَمِ(١)

---

(٢) الأمر ، والنهى فى أول الشطر الأول : للنصح والإرشاد . و « مه » : اسم فعل أمر : بمعنى اكفف ، وامتنع : أى عن الكلام الذى لا قيمة له ، ولا خير فيه . ولا تفه : لا تنطق : مضارع فاه بالقول (من باب قال) : أى نطق به . وانتقاد القول : فحصه وتفتيشه ، وتدبره وتمحيصه ؛ لتعرّف عيوبه ، وتمييز غثه من سمينه ، وإخراج زيفه وفاسده ، وإلغاء باطله وسقطه ، وتنقيته من الشوائب والهنوات ، ثم إرساله سديداً صائباً ، سليما مستقيما . و « ربّ » : حرف جر يفيد التكثير فى مثل هذا المقام . ومجروره واجب التنكير . وفض الشيء (من باب رد) : فرقه ، وكسره ، وفكّه ، وقطعه . وفى الفم جهاز النطق والكلام . وأهم أجزائه اللسان والأسنان . وقد يطلق الفم ، ويراد به الأسنان ، فإذا فضت تعسر النطق ، وصعب الكلام . والشطر الثانى : تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الأمر والنهى فى الشطر الأول ، معزز للنصح والإرشاد الذى قصد إليه الشاعر ، أى فربّ كلام فضّ من قائله فمه . وفى هذا البيت أيضاً جناس تام بين صدره وعجزه : أى « فمه » و « فمه » .

فى البيت السابق قبّح الشاعر الهزل الممقوت ، وترهات المنادمة ، وحذّرمنهما ، وأمر بالكف عنهما ؛ فإنهما من الغى والضلال . ثم أشار فى الشطر الثانى إلى كثرة الغواة الذين أضرّت بهم الغواية وأمانيها الخادعة الباطلة .

وفى هذا البيت رسم للناطقين طريق النجاة والسلامة من آفات النطق ، وفضول القول ؛ فحضّ على مراجعة الكلام ، ونقده ، ووزنه وتهذيبه ، وحسن اختياره ، وتدبره قبل الجهر به ؛ ليساير الحكمة والرشاد . وبالغ فى النصح والإرشاد ؛ فأشار فى الشطر الثانى إلى كثرة من أوذوا بسبب فساد كلامهم ، وحصائد ألسنتهم ، وانحراف أقوالهم ، واختلاطها بالهذر والترهات .

* * *

(١) عذله (من بابى ضرب ، ونصر) : لامه . والوفر : المال الكثير الواسع . وجمعه وفور . وسمح بكذا (كفتح) سماحاً وسماحة : جاد ، وأعطى ، وسخا ، وبذل فى العسر واليسر عن كرم وإحسان ، ورضا وارتياح . والمعتفى : اسم فاعل من اعتفاه : أى جاءه يطلب معروفه وبره ، وكرمه وإنعامه . وماجد الشيم : نبيل الطباع ، شريف السجايا ، كريم الأخلاق : جمع شيمة : وهى الخلق ، والغريزة والطبيعة ، والجبلة التى جبل عليها الإنسان : أى فطر عليها ، وخلق ، وطبع .

بذل الشاعر فى عسره مالا كثيراً لبعض معتفيه ؛ جرياً على طبعه فى البر والخير ، والفضل والمروءة ؛ فلامه بعض صحبه ؛ فتبرم بلومه ، ونهاه عنه ، وافتخر بأنه ماجد أريحىّ ، كريم الخلال ، نبيل الخصال ، يعطى فى العسر واليسر عن رضا وارتياح للندى والبذل ، وحب ونشاط إلى المعروف والإحسان .

إنْ لَمْ يَكُنْ لِلْفَتَى جُودٌ يَسُدُّ بِهِ مَفَاقِرَ الصَّحْبِ ،فَالْمَثْرَاةُ كَالْعَدَمِ (٢)

فَإنْ يَكُنْ قَلَّ مَالِي بَعْدَ وَفْرَتِهِ فَإنَّ مالِيَ لَا يَقْوَى عَلَى كَرَمِي (٣)

---

(٢) يراد بالفتى هنا : المعنى العام الواسع الذى يشمل الفتيان والشبان ، والكهول والشيوخ ، فإن العرب تقول : هو فتى من صفته كيت وكيت » من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . ويقولون : « هذا فتى بيِّن الفتوّة » : وهى النجدة ، والحرية والكرم ، والشجاعة . والجود : الكرم ، والبذل ، والسخاء ، والعطاء . والمفاقر : الحاجات ، ووجوه الفقر والإعواز . لا واحد لها . أو هى جمع لفقر على غير قياس . أو جمع لمفقرة بمعنى فقر . ويقال : سد الله مفاقره (من باب رد) : أى سد خلته ، وأغناه. والصحب: جمع صاحب (كراكب وركب) . ويقال : هذا مثراة للمال: أى مكثرة له (بفتح فسكون فيهما). ويراد بالمثراة هنا : الثراء ، والغنى ، والثروة ، وكثرة المال . والعدم : الفقر ، والإعواز .

يقول : إذا لم يكن المرء جواداً كريماً ، يسد بالكثير من ماله حاجات المحتاجين ، ويمين العفاة والمعوزين من صحابه وخلانه — فثراؤه وفقره سيان ، لا يفترقان ، ولا يتمايزان . والمعنى : أنه لا قيمة للثروة وكثرة المال إلا بالإنفاق المحمود فى وجوه المروءة والوفاء ، والخيرات والمبرات . أما الغنىّ البخيل ، فإنه فى حقيقة أمره معدم فقير . وفقره مرذول ممقوت ، وماله وغناه شر ووبال عليه وعلى غيره . وقد أجرى الشاعر هذا البيت مجرى الحكم والأمثال ، وأوثق صلته بالبيت السابق ، فأقام به حجته ، ودمغ عذل العاذلين ، وملامة اللائمين ، وعظم شأن الجود والأجاود ، وأزرى بالبخل والبخلاء .

(٣) وفرة المال : كثرته ، واتساعه .

ومعنى البيت : أن كرمه أقوى من جدته ، وأريحيته أعظم من ثرائه ، وأن الجود يفقر ، وأنه كان غنياً ، واسع الوُجْد ، كثير المال ، فما زال ينفق منه فى وجوه الخير والبر ، والنجدة والمروءة ، والفضل والإحسان ، حتى صار إلى القلة والنضوب . وهذا المعنى يجرى مع بعض ما يشير إليه قول الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر ، والإقدام قتال

ولا ريب أن البارودى أقام مجده وسيادته على ما اضطلع به من المشقات والأعمال الجسام . ولقد كان الجود والإقدام من أظهر صفاته ومزاياه .

تعليق وبيان

* فى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩م) عاد البارودى إلى مصر من منفاه « سرنديب » . وفى ١٨ من المحرم سنة ١٣١٨ هـ (١٧ من مايو سنة ١٩٠٠م) ردت الحكومة المصرية إليه ماصادرته قبل نفيه من ثروته وأمواله وأملاكه؛ وفى سبب نظم هذه الأبيات قيل: إنه بعد عودته من المنفى ، وقبل أن ترد إليه أملاكه قصده فى منزله صديقه الشاعر « حافظ إبراهيم » ؛ فأنشده مدحة دالية فى سبعة وثلاثين بيتاً ، افتتحها بالغزل :

تعمّدتُ قتلى فى الهـوى ، وتعمّدا فما أثمتْ عينى ، ولا لحظه اعتدى

ونشرت بتاريخ ١٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٠ وجاءت فى باب المدائح والتهانى من ديوان حافظ =

وَقال :

الشِّعْرُ زَيْنُ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ ... وَسِيلَةً لِلْمَدْحِ وَالذَّامِ (١)

قَدْ طَالَمَا عَزَّ بِهِ مَعْشَرٌ ... وَرُبَّمَا أَزْرَى بِأَقْوَامِ (٢)

= إبراهيم — ج١ ص ٥ — ٨ طبعة سنة ١٩٤٨ بالمطبعة الأميرية بالقاهرة . وكان من هذه المدحة :

أتيت ولى نفس أطلت جدالها ... سيقضى عليها كربها اليوم أو غدا

فإن لم تداركها بفضل فقد أتت ... تودّع مولاها ، وتستقبل الردى

فلما سمع البارودى من حافظ هذين البيتين بكى ، وطلب إليه ألا ينشرهما ، فاستجاب ، وأطاع ، ونشرت القصيدة يوم ١٥ / ١٠ / ١٩٠٠ خالية منهما . ثم جاءت فى ديوانه خالية منهما كذلك .

سمع البارودى فى منزله هذه القصيدة من حافظ ؛ فقدّم إليه أربعين جنيهاً ، هى كل معاشه الشهرىّ فى ذلك الوقت (قبل أن تردّ إليه أمواله) . وقال : إنما بكيت لأنى عشت إلى زمن يقدّم فيه مثل إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل .

وحضر « خليل مطران » هذه القصة ، واستمع للدالية ، ورأى المنحة التى قدمها البارودى إلى حافظ ؛ وكأنما أحسّ البارودى أن « خليلاً » يلومه ؛ لأنه تبرع بمعاشه كله ، ولم يبق منه شيئاً لنفسه وأسرته وأطفاله ؛ فقال هذه الأبيات : « لا تعذلنى على وفر .. » .

وفى القصة معان ومرام عالية نبيلة ، منها : رقة عاطفة البارودىّ ، ورهافة إحساسه ، وشدة عطفه على المحتاج ، وسرعة استجابته للمعتفى ، وبالغ تأثره بأدب الأديب ، وشعر الشاعر ، ووثاقة الصلة بينه وبين « حافظ » ، وواسع كرمه ، وانطلاقه فى مجال السخاء إلى الغاية ، وتأدبه بأدب القرآن العظيم : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (الآية رقم ٩ من سورة الحشر) . هذا إلى فخره الصادق بمحامده ، واعتزازه بمجادة شيمه ، وسموشمائله ، وحرصه على كتمان إحسانه ، وصيانة كرامة المحتاجين من إخوانه .

* * *

(١) وسيلة : وُصْلة وذريعة . والذام : مصدر ذامه (من باب باع) : أى ذمه ، وعابه .
والمعنى : أن الشعر يزين الشاعر ويجمله ما لم يستخدمه فى المدح الكاذب الذى يجرى مع الملق والنفاق . أو فى الهجاء الظالم الذى يقع به فى أعراض الناس .

(٢) « قد » هنا : حرف يفيد التكثير . ومثله « طالما » : « طال » فعل ماض ، اتصلتْ به « ما » الزائدة ؛ فكفته عن عمل الرفع ، وأغنته عن الفاعل ، وجعلته شبيهاً بـ « رب » وخصصته بالدخول على الجمل الفعلية . وعزّ : قوى ، وأبى الضيم ، ورفض المذلة والمهانة ، وكان أبياً عزيزاً (وبابه قلّ) . وبه : بالشعر . ومعشر : جماعة من الناس أمرهم واحد . وجمعه معاشر . وربما : بمعنى طالما : « رب » حرف يفيد التكثير فى مثل هذا المقام . و « ما » : زائدة بعدها ، متصلة بها . وأزرى به . إزراء : تهاون به ، وحقره ، وصغره . وأقوام : معاشر : جمع قوم : وهم الجماعة من الناس تربطهم =

فَاجْعَلْهُ فِيمَا شِئْتَ مِنْ حِكْمَةٍ ... أَوْ عِظَةٍ ، أَوْ حَسَبٍ نَامِي[٣]

وَاهْتِفْ بِهِ مِنْ قَبْلِ إِطْلَاقِهِ ... فَالسَّهْمُ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّامِي[٤]

= رابطة يشتركون فيها ، ويقومون لها . وأزرى بأقوام : نقيض « عز به معشر » .

والبيت تكرار وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فالشعراء الذين يترفعون بشعرهم عن كاذب المدح وفاحش الهجاء يسلكون الجدد ، ويستقيمون على الطريقة ، ويحيون حياة العزة والإباء ، ويستحقون التوقير والإكرام . والذين يتخذونه وسيلة إلى المدح والهجاء القائمين على التملق والنفاق ، والكذب والتجنى ، والوقوع فى أعراض الناس ينحرفون عن الجادة ، ويستحقون التحقير والتصغير ، والمقت والإزراء . أو المعنى : أن الشعر من أقوى وسائل التأثير والتشهير ، والدعاية والإعلام ؛ وبهذا طالما أعز وأذل ، ورفع وخفض ، وأنبه وأخمل ، وكبر وحقر . وإنما كانت له هذه النتائج والآثار بمزاياه التى انفرد بها كسهولة حفظه ، ويسر استظهاره ، والحرص على روايته ، وسرعة تسياره وانتشاره ، وحلاوة نغمه وموسيقاه ، واعتماده على إثارة العاطفة والشعور ، ومخاطبة القلب والوجدان . والمعنى الأول مرجوح ، والثانى هو الراجح .

(٣) الأمر فى أول البيت : للنصح والإرشاد . والحكمة : كلام قل لفظه ، وجل معناه ، ووافق الحق ، ودعا إليه ، وحض عليه ، وسما إلى أعلى مراتب البلاغة والبيان . وفى الحديث الشريف : « إن من الشعر لحكمة » : أى قضية صادقة . والعظة : اسم من وعظه (من باب وعد) أى نصحه ، وذكره بالعواقب ، وأمره بالطاعة ، ووصاه بالخير . وقيل : إن الوعظ زجر مقترن بتخويف . وحسب المرء : شرف أصله ، وكرم محتده ، وما يعده من مفاخر آبائه . أو ما يبتهى به ، ويرفع شأنه من كرم ، وخلق ، ودين ، ومناقب ، ومفاخر ، وأعمال محمودة . ونام : اسم فاعل من نما الشىء (من بابى سما ، ورمى) : بمعنى كثر ، وزاد . أو بمعنى علا ، وارتفع . وفلان ينميه حسبه . وقد نماه جد كريم : أى رفعه ، وأعلى شأنه .

فى البيت الأول قال : إن الشعر يزين الشاعر ما لم ينظمه فى كاذب المديح ، وفاحش الهجاء ، وتجريح الأعفاء . وفى البيت الثانى قال : إنه بسيرورته وقوة تأثيره طالما أعز أقواماً ، وأذل آخرين . وفى هذا البيت نصح للشاعر ، وأرشده ، ورسم له طريق الاستقامة والرشاد ؛ فلا يتجاوز بشعره الحكمة البالغة ، والمثل السائر ، والموعظة الحسنة ، والتنويه بالمحامد ، والترغيب فى المكرمات ؛ بمدح ذوى الحسب والدين ، أو الفخر بالمناقب والأعمال المجيدة ، أو بما خلده الآباء من المآثر والأفعال الحميدة .

(٤) هتف به (من باب ضرب) : صاح به ودعاه . أو صاح مادًّا صوته مع ترديده فى حنجرته وترجيعه ، كما تهتف الحمامة .. ويراد بالهتاف هنا : أن يرجع الشاعر شعره ، ويردده فى نفسه ولنفسه قبل أن يجهر به ، ويخرجه للناس . ومن قبل إطلاقه : أى من قبل إعلانه للرواة والناس . والإطلاق (فى الأصل) : مصدر أطلقه : أى حله ، وحرره ، وأرسله ، وخلى سبيله . ورواية الوسيلة =

. . . .

= الأدبية ج ٢ ص ٥٠٣ : « واهتف به من قبل تسريحه » : مصدر سرحه : أى أرسله . وسرح الشاعر شعره : نقحه وهذبه . وعلى هذا المعنى يقال : « واهتف به من بعد تسريحه » . والسهم : عود من خشب ، يسوّى ، ويثبّت فى طرفه نصل حادّ قاطع جارح من الحديد الصلب ، ويرمى به عن القوس ونحوها . والرامى : اسم فاعل من رمى عن القوس ، ورمى عليها رمياً ، ورماية : أى أطلق سهمها للصيد أو القتال. والشطر الثانى تعليل وتمثيل للشطر الأول ، وتذييل جار مجرى المثل . ومعناه : أن ما يعمله الإنسان معزوّ إليه ، لاصق به ، محسوب عليه ؛ يرفعه إذا كان مجوّداً محكماً محموداً ، ويخفضه ويزرى به إذا كان مختلاً معتلاً مذموماً . وإنما يستبين قدر المرء بما يزاوله وينسب إليه من الأقوال والأعمال .

دعا كل شاعر إلى تنقيح شعره وتهذيبه قبل إخراجه . وضرب المثل بالسهم إذا أحكم الرامى تسديده رفع شأنه ، وأصاب الهدف . وإذا تهاون به أخطأ الرمية ، وأزرى عليه . ومن كلامهم : « خير الشعر الحولىّ المنقّح » . ومما قيل فى وجوب تهذيب الشعر قبل إخراجه :

لا تعرضن على الرواة قصيدة   ما لم تكن بالغت فى تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب   عدوه منك وساوساً تهذى بها

بيان وتعليق

قال صاحب الوسيلة الأدبية : ج ٢ ص ٥٠٣ :

ونبّه بقوله : « واهتف به من قبل تسريحه » على أنه لا ينبغى أن يكتفى الشاعر بالنظرة الأولى ؛ فللنفس خداع ، وربما تنبهتْ بعد أن غفلتْ ، واستقبحتْ ما استحسنتْ ؛ ولذلك يقول الأول :

لا تعرضن على الرواة قصيـدة   ما لم تكن بالغت فى تهذيبها
فإذا عرضتَ الشعر غير مهذّب   عدوه منك وساوساً تهذى بها

والبارودى فى هذه الأبيات الأربعة ينظر إلى أبى نواس فى قوله :

الشعر ديوان العـرب   أبداً ، وعنوان الأدب
لم أعد فيـه مفاخرى   ومديح آبائى النجب
ومقطّعات ربمـا   حلّيتُ منهن الكتب
لا فى المديح ، ولا الهجا   ء ، ولا المجون ، ولا اللعب

وَقَالَ :

أَيُّهَا الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ ! تَدَبَّرْ وَاجْعَلِ الْقَوْلَ مِنْكَ ذَا تَحْكِيمِ[١]

لَا تَذُمَّ اللَّئِيمَ ، وَامْدَحْ كَرِيمًا إِنَّ مَدْحَ الْكَرِيمِ ذَمُّ اللَّئِيمِ[٢]

(١) المجيد : اسم فاعل من الإجادة : وهى التجويد ، والتنوّق ، والإحسان ، والإتقان . أو هو المجيد (بوزن فعيل) من المجد ، أو المجادة : وهى النبل ، والشرف ، والمكارم المأثورة عن الآباء . وشاعر مُجيد : يأتى بالجيد الرائق من الشعر . وشاعر مَجيد : يتحرى بشعره مسالك النبل والشرف ، ويرجو أن يبلغ به مرتبة الأماجد الشرفاء . وتدبر : أمر من تدبر الأمر تدبراً . وتدبر فيه : أى ساسه ، وأطال التفكير فيه ، ونظر فى عاقبته . والتحكيم : مصدر حكمه فى الأمر : أى فوض إليه الحكم فيه . وحكّمه : جعله حكماً . وقول ذو تحكيم : قول سديد ، فيه قطع الحكم . وكلام يفصل بين الخطأ والصواب ، ويميز الباطل من الحق ، والخبيث من الطيب . وشعر ذو تحكيم : شعر محكّم : أى ذو حكم صحيح فاصل فيما يتناوله من الأغراض . أو يرجع إليه ، ويعول عليه ، كأنما يحتل بين غيره من الأقوال محل الحكم والقضاء ، والولاية والإمارة . والأمر والنهى فى هذا البيت والبيت الآتى يراد بهما النصح والإرشاد .

والمعنى : أن الإجادة ، أو المجادة تتطلب من الشاعر التدبر والتفكر ، وإطالة النظر ، ووزن الكلام قبل إطلاقه ، والعناية بتنقيحه وتهذيبه ، وأن يلتزم به منهج الرشد والإصابة ، والحكمة والسداد ؛ وبهذا يأتى شعره مجوّداً محكّماً ، يرجع الناس إليه ، ويعوّلون عليه ، ويفيدون منه أيما إفادة .

(٢) الكرم (بمعناه العامّ) : جُمّاع الفضائل ، والأخلاق الكريمة ، والمحاسن الكبيرة ، والأفعال العظيمة المحمودة التى تظهر من الإنسان . والكرم (بمعناه الخاص) : الإعطاء بسهولة فى العسر واليسر ، والسخاء ، والجود ، والبذل فى الخيرات والمحامد ، والمكرمات والمبرات عن رضا وانشراح ، وأريحية ونشاط . والكريم : صفة من الكرم . وجمعه كرام ، وكرماء . واللؤم : ضد الكرم . ورجل لئيم : دنىء النفس والأصل ، شحيح ، خسيس ، دون ، مهين ، رذل ، حقير . وجمعه لئام ، ولؤماء . والشطر الثانى من هذا البيت مؤكد للشطر الأول . وتذييل جار مجرى المثل . ومعناه أن الشاعر إذا مدح كريماً ، ونوه بمحامده وفضائله ، وأشاد بسيرته وخطته ؛ فقد أشار بهذه الفضائل والمكرمات إلى أضدادها من مناقص البخيل ومثالبه ؛ فأزرى بها ، وقبّحها ، وهجّنها ونفّر منها . وهذه الإشارة تغنى عن التصريح بذم البخيل وهجائه .

يقول : أهمل اللئيم ، وترفع عن التصريح بذمه ، ولا تجعله موضوعاً لشعرك . وامدح الكريم بما يستحقه ؛ فإن مدحك إياه ، وتنويهك بصفاته ومزاياه ذم ضمنى للئيم الموصوم بأضداد هذه الصفات . وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن التدبير ، والتحكيم ، والإجادة تفرض على الشاعر المجيد أن ينصرف بشعره عن هجاء اللئام ، ويتجه به إلى مدح الكرام ؛ وهو بهذا المديح يحقق غرضين ، ويصيب هدفين فى وقت واحد .

وَقَالَ :

حَنَى الشَّيْبُ عُودِى ، فَاسْتَقَامَتْ رَوِيَّتِى ... وَلَوْلَا انْحِنَاءُ الْقَوْسِ مَا صَرَّدَ السَّهْمُ (١)

وَقَالَ يَفْتَخِرُ :

فِى قَائِمِ السَّيْفِ إِنْ عَزَّ الرِّضَا حَكَمٌ ... فَالْحُكْمُ لِلسَّيْفِ إِنْ لَمْ تَصْدَعِ الْكَلِمُ (١)

---

(١) حنى العود وغيره (من باب رمى) : ثناه ، ولواه ، وعوّجه ، وقوّسه ، فانحنى انحناء : أى انعطف ، وتقوس . ويريد بعوده : قامته . والعود (فى الأصل) : الغصن بعد أن يقطع . وكل خشبة ، دقيقة كانت ، أو غليظة ، رطبة كانت أو يابسة . والروية : الفكر ، والنظر ، والتدبر : اسم من روّأ فى الأمر ترويئا وتروئة (بوزنى تفعيل وتفعلة) : أى نظر فيه ، وتفكّر فى ظروفه وملابساته وعواقبه . واستقامة رويته ، أو رويئته : استقامة تفكيره ، وصحة تدبيره ، وحسن نظره ، وسداد رأيه . والقوس : آلة على هيئة هلال ، أو نصف دائرة ، ترمى بها السهام : مؤنثة ، وقد تذكّر . وكانت من أدوات الصيد والقتال . وصرد السهم تصريداً : أصاب الرمية ، وخرجت منها شباة حده . والسهم : عود من خشب ، يسوّى ، ويثبت فى طرفه نصل حاد جارح من الحديد الصلب ، ويرمى به عن القوس .

فى طبيعة الإنسان الجزع من الشيب ، والابتئاس به ؛ فإنه نذير الموت ، والمؤذن بغروب شمس الحياة . وقد اتجه كثير من الشعراء والحكماء إلى تحسينه وتزيينه ، وتصوير محامده ومزاياه ، محاولين بهذا رد الابتسامة الحلوة ، وإشراقة الغبطة والطمأنينة إلى وجوه الهرمى والشيوخ .

والشاعر هنا يشير إلى ما يتركه الشيب فى الأشيب من اعوجاج عوده ، وانحناء قامته ، وينوّه بما يصحب هذا من استقامة رويته ، ونفاذ بصيرته ، وسلامة نظره وتفكيره ، وسداد رأيه وتدبيره ، وصدق خبراته وتجاربه ، وصحة ملاحظاته ومعارفه .

والشطر الثانى تمثيل وتصديق لمعنى الشطر الأول ، وتذييل جار مجرى المثل ؛ فإن السهم لا يصيب الهدف إلا بانحناء القوس ؛ وكذلك الأشيب لم تستقم رويته إلا بانحناء عوده ، وتقوس ظهره ؛ وكأن الله تبارك وتعالى عوّضه من ضعف قواه الجسمانية مضاعفة قواه العقلية .

* * *

(١) قائم السيف : مقبضه . والمراد السيف نفسه . وعزّ : صعب ، واستعصى . أو شقّ ، واشتد . ويراد بالرضا : رضانا ، ورضا من نفاوضه من خصومنا وأعدائنا . وحكم (بفتحتين) : حاكم ، أو فاصل فى الخصومة . أى إن عزّ التراضى ، أو شقّ على نفوسنا الرضا بما يريدنا عليه خصمنا — احتكمنا إلى السيف ، واعتمدنا عليه . والحكم (بضم فسكون) : القضاء ، والفصل فى المنازعات والخصومات . وإن لم تصدع الكلم : أى إن لم تحسم النزاع كلمات المفاوضة والملاينة والمحاسنة . والصدع (فى الأصل) : الشق فى الأجسام الصلبة ، كالزجاج ونحوه . وعنه استعير صدع الأمر : أى فصله =

تَـأْبَى لِيَ الضَّيْمَ نَفْسٌ حُرَّةٌ وَيَدٌ أَطَاعَهَا الْمُرْهَفَانِ :السَّيْفُ وَالْقَلَمُ(٢)

وَعَزْمَةٌ بَعَثْتَهَا هِمَّةٌ شَـــهَرَتْ بِهَا عَلَى الدَّهْرِ عَضْبًا لَيْسَ يَنْثَلِمُ(٣)

= وحسمه . (وبابه قطع) . وصدع بالحق : أى جهر به وصرّح ، مفرقاً بينه وبين الباطل .

يدعو إلى الاعتماد على القوة الحربية ، واستخدام السلاح فى حسم المنازعات ، وفضّ الخصومات إذا أخفقت المفاوضة ، وصعب التراضى ، ولم تنتج كلمات الملاينة والمحاسنة . والشطران فى معنى واحد . أو فى معنيين متقاربين . والثانى يؤكد الأول ويعززه . والبيت يجرى مجرى الحكمة أو المثل . وقد مهد به الشاعر للفخر بنفسه فى البيتين الآتيين .

(٢) الضيم : مصدر ضامه (من باب باع) : أى ظلمه ، أو أذله ، أو ضاره ، وأضرّ به . وضامه حقه : انتقصه ، وغبنه . وسيف مرهف : حادّ ، حاسم ، قاطع ، بتار . وقلم مرهف : قوى بليغ ، شديد التأثير . مستعار من رهافة السيف .

فى البيت السابق اعتز بالكفاح ، وقوة السلاح ، وآثر الاحتكام إلى السيف إن عز التراضى ، ولم تقنع كلمات المسالمة والمحاسنة . وفى هذا البيت افتخر بعزة نفسه ، وكرم طبعه ، وحرصه على الحرية ، ونفوره من كل شوائب اللؤم والعبودية ، وبمقدرته الحربية والكتابية ؛ فهو محارب شديد البأس ، قوىّ المراس ، وأديب مرهف القلم ، ناصع البيان ؛ وهو لهذا كله يأبى الضيم ، ويعاف الذل ، ولا يقبل الضير ، ولا يرضى بالهوان .

(٣) « الواو » : عاطفة . و « عزمة » معطوف على « نفس » فى البيت السابق . والعزمة : الجدّ ، والإرادة القوية القاطعة ، المؤكدة . والشدة ، والصبر ، والثبات فيما يعزم عليه ، أى فيما تعقد عليه النية . وبعثها : أيقظتها ، وأهبتها . والهمة (بكسر الهاء ، وفتحها) : العزم القوى : مصدر عزم (من باب ضرب) : أى جد واجتهد ، وثبت ، وصبر . وعزم الأمر ، وعزم عليه : أى أراد فعله ، وعقد عليه نيته ، ووطن بالنية والإرادة نفسه عليه . ومن كلامهم : « له همة عالية » ، و « هو بعيد الهمة » . وشهر المحارب سيفه (من باب قطع) : سله ، وجرده ، وأخرجه من غمده ، ورفعه ، يريد الكفاح ، والجلاد . وبها : بالعزمة . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود . والعرب تضيف إليه الخير والشر ، والمسرة والمساءة . وقد يطلقونه على النازلة والكارثة . ويراد بالدهر هنا : ما يصيب الناس ، أو يهددهم من الخطوب والنكبات . والعضب : السيف الحاد القاطع . وليس ينثلم : لا يكل ، ولا يفل ، ولا ينبو ، ولا يضعف . ثلمه (من باب ضرب) فانثلم : فله ، وكسره فانكسر .

افتخر فى هذا البيت والذى قبله بنفسه الحرة الأبية ، وعزيمته القاطعة القوية ، وهمته البعيدة الفتية ، وكفاياته الحربية والأدبية . وقال : إنه بهذا كله أبى الضيم ، وترفّع عن المذلة ، وكافح نوازل الدهر ، وجالد صروف الزمان بسيف بتار ، لا يصيبه الوهن أو الكلال .

وَفِتْيَةٌ كَأُسُودِ الْغَابِ ، لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الرِّمَاحُ إِذَا احْمَرَّ الْوَغَى أَجَمُ(٤)

كَالْبَرْقِ إِنْ عَزَمُوا ،وَالرَّعْدِ إِنْ صَدَمُوا وَالْغَيْثِ إِنْ رَحِمُوا ،وَالسَّيْلِ إِنْ هَجَمُوا(٥)

---

(٤) الفتية ، والفتيان : جمع فتى : وهو الشاب ، أو التابع . ومن كلامهم : « هذا فتى بين الفتوة » : وهى الحرية ، والكرم ، والنجدة ، والشجاعة ، والسخاء ، والمروءة . والواو فى أول البيت : عاطفة . و « فتية » : معطوف على « نفس » فى البيت الثانى؛ فالشاعر تأبى له الضيم نفسه الحرة ، ويده المتمرسة باستخدام القلم والسلاح ، وعزمته المكافحة لنوائب الحدثان ، وفتيان بسلاء كأسود الغاب : جمع غابة : وهى الأجمة ذات الشجر الكثير الملتف المتكاثف . والغاب مساكن الأسود أو الآساد . ومن كلامهم : « كأنه ليث غابة » . « وهو من ليوث الغاب » . والرماح : جمع رمح : وهو قناة فى رأسها سنان من حديد صلب قاطع جارح ، يطعن به . وكان من أدوات الحرب والطعان . والوغى: الحرب لما فيها من الجلبة والأصوات المختلطة . واحمرار الوغى : كناية عن استحرار القتال ، وشدة البأس ، وكثرة ما يسيل من دماء الجرحى والقتلى . والأجم : جمع أجمة (بوزن قصبة) : وهى الشجر الكثير المجتمع الملتفّ؛ فهى بمعنى الغابة. وهى أيضاً مأوى الأسد. والأجم (بضمتين) : الحصن . وجمعه آجام. شبَّه فتيانه : أى جنوده وأتباعه بأسود الغاب ، وجعل رماحهم وأسلحتهم أجمات ، أو غابات ، أو عرائن أو حصوناً يمتنعون بها ، ويعتمدون عليها ، ولا يفزعون إلا إليها إذا حمى الوطيس ، واشتد البأس ،وقامت الحرب على ساقها .

فى البيتين السابقين افتخر بأنه من أباة الضيم ، ذوى النفوس الحرة المترفعة العزيزة الأبية . ثم بتّام كفايتيه الحربية والأدبية ، ثم بهمته العالية القوية ، وعزيمته الصارمة المكافحة لغدر الزمان ، ونوائب الحدثان، وعوامل البغى والطغيان . وهو فى هذا البيت يعتز بفتيانه البسلاء الذين يحتمون بالسلاح ، ويحسنون الجلاد والكفاح إذا جدّ الجدّ، واشتدّ البأس، ودعا داعى الحرب والقتال . وفى ثمانية الأبيات الآتية وصف مفصّل ، وإطراء وحسن ثناء على هؤلاء الفتيان والأتباع ، أو الجند والأعوان ، أو الرفاق والصحاب ، أو الآباء والأجداد .

(٥) الغيث : المطر الخاصّ بالخير ، وفيه معنى الرحمة العامة ، والإحسان التام . وفى البرق والرعد معنى القوة والسرعة . وفى الهجوم معنى المباغتة والمفاجأة .

يمتدح هؤلاء الفتيان بأنهم إذا عزموا أمراً نفـّذوه فى سرعة البرق الخاطف وقوته، وإذا حاربوا عدواً كان صدامهم له ، وهجومهم عليه كالرعد الجالب القاصف ، والسيل العارم الجارف الذى لا يصد ولا يطاق . وهم فى السلم رحماء محسنون كرماء ، ورحمتهم واسعة شاملة عامة ، وغيث لا ينقطع ، ولا يغيض .

إنْ حَارَبُوا مَعْشَرًا فِى جَحْفَلٍ غَلَبُوا أَوْ خَاصَمُوا فِئَةً فِى مَحْفِلٍ خصمُوا(٦)

لَا يَرْهَبُونَ الْمَنَايَا أَنْ تُلِمَّ بِهِمْ كَأَنَّ لُقْىَ الْمَنَايَا عِنْـدَهُمْ حَرَمُ(٧)

مُرَفَّهُونَ ، حِسَانٌ فِى مَجَالِسِهِمْ وَفِى الْحُرُوبِ إِذَا لَاقَيْتَهُمْ بُهَمُ(٨)

(٦) المعشر : الجماعة من الناس أمرهم واحد . والجحفل : الجيش الكثير ، فيه الخيل والفرسان . وخاصمه فخصمه (من باب ضرب) : غلبه فى الخصومة : وهى المنازعة والمجادلة والملاحاة . والفئة : الطائفة ، أو الجماعة من الناس . والمحفل : المجلس ومكان الاجتماع . وهو اسم مكان من حفل القوم (من باب ضرب) : أى اجتمعوا ، واحتشدوا . ومثله احتفلوا .

مدحهم بأنهم الغالبون المنتصرون على أعدائهم وخصومهم فى ميادين الحرب والقتال ، ومحافل الخصام والجدال . وفى هذا تنويه بشجاعتهم وإقدامهم ، وكفاياتهم الحربية والعقلية والمنطقية ، وحضور بداهتهم ، وقوة حججهم ، وانطلاق ألسنتهم ، ونصاعة بيانهم ، وكل ما تتطلبه الغلبة فى هذين المجالين من المزايا والمؤهلات .

(٧) لا يرهبون : لا يخشون ، ولا يخافون (وبابه تعب) . والمنايا : جمع المنية : وهى الموت. وألمّ به : أتاه ، فنزل به . واللقى (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : اللقاء : مصدر لقيه (كرضيه) . وحرم الرجل : ما يحميه ، ويدافع عنه ، ويقاتل دونه . والحرمان الشريفان : بيت الله تعالى بمكة ، ومسجد نبيه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وثالثهما المسجد الأقصى ببيت المقدس . والحرم : جمع حرمة (بوزن مهجة ومهج) : وهى ما يجب القيام به من الحقوق ، ويحرم التفريط فيه ، ولا يحلّ انتهاكه . والمراد بهذه المعانى كلها أن الممدوحين يلقون المنايا فى جرأة واستبسال وشجاعة وإقدام ، ورضا وانشراح ، كأنهم يلقون شيئاً شائقاً رائقاً ، محبوباً لديهم ، عزيزاً عليهم .

فى البيت السابق قال : إنهم الغالبون المنتصرون على أعدائهم فى الحروب . وفى هذا البيت بيان لأهم أسباب الغلبة والنصر : فى الشطر الأول أنهم لا يحذرون الموت ، ولا يتهيبونه . وفى الشطر الثانى أنهم يقبلون عليه فى غبطة وارتياح ، ويلقونه لقاء المشوق المستهام لما يشوقه ويستهويه .

(٨) مرفهون : يحيون حياة الرفاهية : وهى التنعم ، والخصب ، وسعة الرزق ، ولين العيش ، ورغده ، وطيبه . وحسان : جمع حسن . وبهم : جمع بهمة (بضم فسكون) : وهو المحارب الشجاع الذى يستبهم على أعدائه مأتاه ، أى لا يعرفون كيف يتغلبون عليه ، ومن أين يؤخذ ؛ فهو مستعص عليهم ، غالب ظافر .

يقول : إنهم فى مجالس السلم حسان . وادعون رافهون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . وفى ميادين الحروب أشداء بسلاء ، مستبهمون على عدوّهم ، لا يكاد ينال منهم نيلاً ، ولا يكادون يعرفون الدعة ، أو الرفهنية ، أو الهوادة والاستقرار . والبارودى من طراز هؤلاء الرفاق أو الأعوان . وشأنه فى الحرب والسلم شأنهم ؛ وكأنما يصف نفسه ؛ ويفخر بما يزينه ويزدهيه .

مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ ، كَالدِّينَارِ غُرَّتُهُ ... يَجْلُو الْكَرِيهَةَ مِنْهُ كَوْكَبٌ ضَرِمُ(٩)

لَا يَرْكَنُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَـــا ... إِذَا هُمُ شَعَرُوا بِالذُّلِّ ، أَوْ نَقِمُوا(١٠)

قَدْ حَبَّبَ الْمَوْتَ كُرْهُ الضَّيْمِ فِي نَفَرٍ ... لَوْلَاهُمُ لَمْ تَدُمْ فِي الْعَالَمِ النِّعَمُ(١١)

(٩) « من » فى أول البيت : بيانية . وما بعدها وهو « كل أزهر » بيان لما قبلها فى البيت السابق ، وهم الحسان المرفهون . ورجل أزهر : أبيض ، نير ، مشرق ، مضىء الوجه ، نابه الشأن . والدينار : نقد ذهبى قديم من نقود الدولة الإسلامية ، قيمته نحو نصف جنيه مصرى من الذهب . وغرة الرجل : طلعته ، ووجهه المشرق المضىء . ويجلو : يكشف ويزيل ، ويذهب (وبابه عدا) . والكريهة : النازلة والكارثة ، والداهية ، والشدة فى الحرب . وكرائه الدهر : شدائده ، وما يكره منه . ومنه : من الرجل الأزهر . وضَرِم (بفتح فكسر) : مشرق مضىء . وقد يكون المراد بالكوكب الضرم : السيف اللامع المصقول ، وأسلحة القتال والجلاد ؛ فالممدوحون يكشفون كرائه الحروب ، ويكسبون لأنفسهم ولبلادهم النصر والغلبة بحسن استخدامهم لما يحملونه من الأسلحة اللامعة المصقولة ، وأدوات الجهاد والجلاد . ويلاحظ أن أكثر كلمات هذا البيت : وهى الأزهر ، والدينار ، والغرة ، والكوكب ، والضرم — تدور كلها حول الإشراق والإضاءة والتلألؤ .

شبَّه هؤلاء الزهر الحسان المرفهين بالكواكب النيرة ، والنجوم اللامعة فى سمو المنزلة ، وعلو القدر ، ونباهة الشأن ، وعموم النفع ، وذهاب صيتهم فى الناس . وقال : إن وجوههم مشرقة متلألئة كالدنانير ؛ وإنهم بهذه المزايا يضيئون جوانب الحياة ، ويبددون ظلمات الخطوب ، ويكشفون عن الناس الكرائه ، ويسارعون إلى النجدة ، ويكافحون فى الشدائد والملمات . وقد أسلفنا أن البارودى إذا نوه بهؤلاء الرفاق أو الأعوان ، فكأنما يفخر بمحامده ومناقبه ؛ لأنهم على شاكلته ، ومن طرازه .

(١٠) ركن إلى الدنيا (كخضع ، وقعد ، وعلم) : مال إليها ، واعتمد عليها ، ووثق بها ، وسكن واطمأن . وزينة الدنيا : ما يحرص عليه الناس من متاعها ، كالمال ، والأثاث ، والرياش . وفى القرآن الكريم : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن المآب » (الآية رقم ١٤ من سورة آل عمران) . ونقم الأمر (من بابى ضرب وفهم) : أنكره ، وعابه ، واستهجنه ، واستقبحه ، وكرهه أشد الكراهية .

والمعنى : إذا أحسوا الذل ، أو تهددهم الضيم ، أو رأوا ما يعاب وينقم — زهدوا فى الدنيا وزينتها ؛ وخلعوا ثياب الرفاهية والنعيم ، وجاهدوا وجالدوا مستبسلين مستعذبين الموت فى سبيل العزة والكرامة ، ودفع الهوان والعدوان .

(١١) الضيم : مصدر ضامه (من باب باع) : أى ظلمه ، أو أذله ، أو أضرَّ به . وضامه حقه : انتقصه وغبنه . وكره الضيم (بفتح الكاف وضمها) : كراهيته ، وإباؤه (وبابه فهم) . و « فى » : بمعنى « إلى » . قال تعالى : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزيَّنه فى قلوبكم » —

مَاتُوا كِرَامًا ، وَأَبْقَوْا لِلْعُلَا أَثَرًا نَالتْ بِهِ شَرَفَ الْحُرِّيَّةِ الْأُمَمُ(١٢)

فَكَيْفَ يَرْضَى الْفَتَى بِالذُّلِّ يَحْمِلُهُ وَالذُّلُّ تَأْنَفُهُ الْعُبْـدَانُ وَالْخَدَمُ؟(١٣)

= (الآية رقم ٧ من سورة الحجرات) : أى قد حبب كره الضيم الموت إلى نفر . والنفر : ما دون العشرة من الرجال . أو النفر ، والرهط ، والقوم : بمعنى الجمع . ولا واحد لها من لفظها . ويراد بالنفر هنا : من نوه بهم الشاعر فى سبعة الأبيات السابقة . أو يراد بهم : أباة الضيم فى كل زمان ومكان. والعالم : الخلق والناس. ويراد بالنعم : ما يتسع لمثل الأمن والسلام والطمأنينة، والحق والعدل والإنصاف، والعزة ، والحرية والكرامة ، والتعاون والإخاء والمساواة ، والمال ، والخفض والدعة ، واستقلال الوطن ، ورغد العيش ، وحسن الحال ، ورخاء البال .

والمعنى : أن النعم إنما تدوم للناس فى هذا العالم بمن يحافظون عليها ، ويدافعون عنها من الأعزة الأباة الأحرار الذين كرهوا الضيم ، فأحبوا الموت ، واستعذبوه ، وأعدوا أنفسهم ، ووهبوا أرواحهم لمكافحة البغى والعدوان ، ومحاربة الظلم والطغيان ، وتحطيم أغلال المذلة والهوان . ويلاحظ أن الشاعر انتقل فى هذا البيت والبيت الذى بعده من التخصيص إلى التعميم ، أى من امتداح رفاقه وأعوانه إلى تمجيد أباة الضيم الذين ما توا كراماً ؛ فكان موتهم ثمناً غالياً لحريات أممهم وبلادهم .

(١٢) فى البيت السابق قال : إن هؤلاء النفر كرهوا الضيم ، فأحبوا الموت ؛ واستعذبوه ؛ وبهذا أداموا للعالم ما ينعم به من العدل والإخاء والرخاء والسلام . وهذا البيت زيادة بيان وإيضاح لهذا المعنى ؛ فإن هؤلاء المكافحين الأبطال ماتوا فى سبيل المجد والجهاد أعزة أمجاداً ، كراماً أجواداً ، وبذلوا أرواحهم فى رضاً وارتياح ، فلم ينته الأمر بموتهم ، بل خلدوا للمعالى آثاراً عميقة باقية ، حققت لأممهم ما كانت تطمح إليه ، وتحرص عليه من الحرية والعزة ، والمنعة والقوة ، والمهابة والكرامة ، والسعادة والاستقلال .

(١٣) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه التعجب . أو الإنكار ؛ فهو يتعجب ويعجّب من أن يرضى الفتى بالذل ، ويحمل عاره وشناره . وفى التعجب هنا معنى التوبيخ والتقريع . أو هو ينكر هذا، ويعيبه ، ويستقبحه ، ويستهجنه ، وينهى عنه . ويراد بالفتى هنا : الإنسان مطلقاً ؛ فإن الفتيان والشبان والكهول والشيوخ والرجال والنساء مطالبون جميعاً بدفع الذل ومقاومته ، والتخلص منه بكل ما يستطاع من القوى والوسائل . ويحمله : يحتمله ، ويصبر عليه ، ويستكين له . وتأنفه : تستنكف منه ، وتكرهه ، وتترفع عنه ، وترفضه ، وتأباه (وبابه تعب) . والعبدان (بضم العين وكسرها) : العبيد: جمع عبد : وهو الرقيق المملوك لغيره . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال ، والجملة بعدها حالية .

فى البيت السابق قال : إن الأبطال الكرام ماتوا وهم يدفعون عن أنفسهم وبلادهم عار الذل ، وسبّة الهوان ، فكان موتهم فى هذا السبيل علاء ومجداً باقياً مخلداً على مدى الدهور والعصور ، وكان من آثار هذا الدفاع المجيد ، وبذل المهج والأرواح أن ظفرت أممهم بشرف الحرية والعزة ، والمنعة والكرامة . وفى هذا البيت عجب وعجّب ، واستنكر وهجن أن يرضى المرء بالمذلة ، ويقيم على الضيم وهو يعرف =

إنْ لَمْ يَكُنْ لِلْفَتَى فَضْلٌ وَمَحْمِيَةٌ ... فَإِنَّ وِجْدَانَهُ فِي أَهْلِهِ عَدَمُ (١٤)

فَالْحِلْمُ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْ قُدْرَةٍ خَوَرٌ ... وَالصَّبْرُ فِي غَيْرِ مَرْضَاةِ الْعُلَا نَدَمُ (١٥)

فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَنْ حَالٍ تُضَامُ بِهَا ... فَلَيْسَ بَعْدَ اطِّرَاحِ الذُّلِّ مَا يَصِمُ (١٦)

= تاريخ هؤلاء الكرام الخالدين، ويرى الخدم والعبيد يستنكفون من الذل، ويعلم أنهم بهذا الاستنكاف خير منه وأشرف ، ويعلم فوق هذا أن الموت أخفّ وأهون ، وأكرم وأعظم من حياة المهين الذليل:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش ... ربّ عيش أخفّ منه الحمام

والغرض من مثل هذا البيت الحض على إباء الضيم ، ودفع المذلة بالكفاح وقوة السلاح ، وبذل المهج والأرواح .

(١٤) الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة . وهو في الأصل الزيادة . وأكثر استعماله في الزيادات المحمودة ، كفضل العلم ، والحلم ، والشجاعة ، والنجدة ، والخير ، والبر ، والحميّة، والمروءة ، والنخوة ، والأنفة . والمحمية (بوزن المعصية) : الحماية ، والمنعة ، والعزة ، والقوة : مصدر حمى الشيء يحميه حماية ومحمية : إذا منعه ، ودفع عنه ، وجعله حمى، لا يقرب، ولا يجترأ عليه . والشاعر يريد بالوجدان : الوجود : (ضد العدم) . ولم نجده صريحاً بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المعجمات .

يقول : إذا لم يكن المرء فاضلا كريماً ، قوياً عزيزاً ، أبيًّا شجاعاً ، يحمى ذماره، ويصون حماه = فقد قيمته في أهله وقومه ، وسقط قدره ، وهان على الناس أمره ، واستوى وجوده وعدمه .

(١٥) الحلم : الأناة ، وضبط النفس ، والصفح ، والتسامح : مصدر حلم (ككرم) : أي تأنّى ، وسكن عند غضب أو مكروه ، مع قدرة وقوة . والخور : الضعف والانكسار . والمرضاة : الرضا . والعلا : العلاء ، والرفعة ، والشرف . وجمع العليا (كالكبرى والكبر) .

ومعنى الشطر الثاني : أن الصبر يحمد وتحمد مغبّته ، ويعد من الفضائل إذا رضيته المعالي، وصدر عن عزة وقوة ، وشرف ورفعة ، وإباء ومنعة، فإن لم يكن كذلك عدّ من الرذائل ، وأنتج الندم والحسرة ، واقترن بالهوان والمذلة .

أما الشطر الأول فإنه في هذا المعنى ، أو فيما يدانيه . وهو قريب من قول أبي الطيب المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام

ولا ريب أن اللؤم يجمع نقائص كثيرة ، منها الخور والانكسار ، والضعف المزري .

(١٦) رغب عن الشيء (من باب طرب) : لم يرده ، وزهد فيه ، وأعرض عنه ، وتركه متعمداً. ورغب بنفسه عن الضيم : كرهه لها ، وربأ بها عنه ، واستنكف منه ، وترفع . وضامه (من باب باع) : ضاره ، وقهره ، وظلمه ، وأذله . وبها : بالحال : أي فيها ، أو بسببها . واطرح الشيء اطراحاً : طرحه ، وألقاه ، ونبذه ، وأبعده . ووصمه (من باب وعد) : ثلبه، وعابه . =

وَلَا تخَفْ وِرْدَ مَوْتٍ أَنْتَ وَارِدُهُ ... مَنْ أَخْطَأَتْهُ الرَّزَايَا غَالَهُ الْهَرَمُ(١٧)

إِنَّ الْعُلَا أَثَرٌ تَحْيَـا بِذُكْرَتِهِ ... أَسْمَاءُ قَوْمٍ طوَى أَحْسَابَهَا الْقِدَمُ(١٨)

= يحض على إباء الضيم ، ومكافحة الظلم ، والترفع عن المهانة . ويقول: إذا ألقيت عن نفسك رداء الذل والاستكانة لم تجد بعدها شيئاً يعيبك : أى برئ عرضك من كل المثالب والنقائص ؛ فقد جعلها كلها فى نطاق المذلة والهوان .

(١٧) ورد الماء وغيره (كوعد) : بلغه ، ووافاه ، وصار إليه ، وداناه . والاسم منه الورد (بكسر فسكون) . واسم الفاعل وارد . ومعنى الشطر الأول : أنه لاينبغى أن تتهيب الموت ؛ فإنك وارده لا محالة ، وشارب كأسه حتى الثمالة . والرزايا جمع الرزيئة (بالهمز والتسهيل) : وهى المصيبة . ويراد بها هنا : مصيبة الموت . وغاله (من باب قال) : أخذه من حيث لا يدرى ، فأهلكه وأرداه . والهرم: الشيخوخة (وفعله من باب تعب) .

والمعنى : أن اتقاء الموت أو الاحتراس منه غير ممكن ؛ فإن المرء ميت لا محالة « كل نفس ذائقة الموت » (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) . وإذا كان الأمر كذلك ، فن العار أن تكون جباناً. والشطر الثانى تذييل لتأكيد انحتام الموت ؛ فإذا أخطأ إنساناً فى طفولته ، أو صباه ، أو شبابه ، أو كهولته – أصابه قطعاً فى هرمه وشيخوخته . وصلة هذا البيت وثيقة بالأبيات التى قبله ؛ ففيه حض قوى صريح على الجود بالنفس فى سبيل دفع الذل ، وإباء الضيم ، واتقاء العار ، وحماية الذمار . ومما يناسب هذا المعنى قول أبى الطيب المتنبى :

غير أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ، ولا يلاقى الهوانا

ولو أن الحيــاة تبقى لحىٍّ ... لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بــدٌّ ... فن العجز أن تكون جبانا

(١٨) الذكرة : الصيت ، والثناء ، والشرف ، والذكر الحسن ، والسيرة الطيبة تنتشر بين الناس . ويراد بأسماء قوم : ما اقترن بأسماء المجاهدين فى سبيل العزة والكرامة من أعمال البطولة والمجد. والأحساب : جمع حسب (كسبب وأسباب) : وهو الكرم ، وشرف الأصل ، وما يعده المرء من مناقبه ومفاخر آبائه .

والمعنى : إذا رغب المرء بنفسه عن الضيم والهوان ، ودفعه عن قومه بالجهاد والاستبسال الذى لا يتهيب الموت ولا يباليه – خلد لنفسه شرفاً وعلاء تبقى على الدهر آثاره وأخباره ، وتحيا بين الناس ذكرياته وبطولاته ؛ فلا تفتأ تنشر ما يحاول القدم طيه من حسب المجاهد ومناقبه ؛ فالجهاد فى سبيل العزة والكرامة ، والاستبسال فى دفع الضيم والهوان من المعالى الخالدة التى لا يطويها القدم ، ولا يأتى عليها النسيان . أو المعنى أن العلا أثر خالد ، يبقى على الدوام صيته ؛ فيحيى ما اندثر من مكارم أصحابه ، وينشر ما طواه القدم =

وَقَالَ :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَرْضَى عَنِ الدَّهْرِ مُغْرَمُ ... أَمِ الْعُمْرُ يَفْنَى وَالْمَآرِبُ تُعْدَمُ؟[1]

أُحَاوِلُ وَصْلًا مِنْ حَبِيبٍ مُمَنَّعٍ ... وَبَعْضُ أَمَانِي النَّفْسِ غَيْبٌ مُرَجَّمُ[2]

= من أحسابهم . ولا ريب أن ما دعا إليه الشاعر فى الأبيات السابقة، وحض عليه من الفضل والحمية، وإباء الضيم، واطراح الذل، يكسب العلاء، ويخلد الذكر .

تلخيص وتعليق

افتتح الشاعر هذه القصيدة ببيت أجراه مجرى الحكمة والمثل، وجعله تمهيداً للفخر ببعض مناقبه فى البيتين الثانى والثالث . وفى سبعة الأبيات بعد هذا (٤ — ١٠) نوه بطائفة من صحبه ورفاقه، أو جنده وأعوانه، وأشاد بمزاياهم فى الحرب والسلم . وفى البيتين الحادى عشر والثانى عشر مجد (بصفة عامة) أباة الضيم الذين ماتوا كراماً مجاهدين، فكانت دماؤهم الثمن الغالى لحريات أممهم، وعزة بلادهم . وفى ستة الأبيات الأخيرة نحا إلى الحكم والأمثال المتصلة بموضوع هذه القصيدة، وهو إباء الضيم، والحرص على الكرامة . واطراح الذل، وحماية الحرية بالكفاح وقوة السلاح؛ والاستهانة بالموت فى هذا السبيل، وتكريم الأبطال الخالدين الذين لا تفتأ معاليهم، وآثارهم الخالدة، وذكرياتهم المتجددة تحيى تاريخهم المجيد، وتنشر ما يحاول القدم طيه من أحسابهم ومناقبهم . فهذه ثمانية عشر بيتاً من شعر الفخر والحماسة منسجمة ملتئمة تحتل مرتبة عالية من شرف المعنى، وجزالة اللفظ، وجمال النظم، وقوة الجرس، وتحبيك التأليف .

* * *

(١) ألم يأن : ألم يحن . أنى (من باب رمى) : حان، وقرب، ودنا، وحضر . ومغرم : عاشق مستهام . و« أم » : بمعنى « بل» . وتفيد الإضراب . والمآرب : الحاجات، أو المطالب، أو الأمانى : جمع مأرب (بوزن مذهب) . أو مأربة (بتثليث الراء) .

أولع الدهر بمعاسرة العاشقين، وتحطيم آمالهم؛ فالواحد منهم يشقى بأوصاب الحب، ومرارة القطيعة والهجران، ثم يدركه الموت قبل أن يتحقق شىء من مآربه ومطالبه . والشاعر هنا مغرم مستهام، يشكو زمانه، ويلومه فى سخط، ويعاتبه متمنياً أن يُعْتب أمثاله بالمهادنة والمياسرة؛ ليرضوا عنه، ويطمئنوا إليه . ولكنه ما لبث أن أضرب عن هذا التمنى مستيئساً، مستشعراً الحزن والحسرة؛ لأنه رأى عمره يعدو فى طريق الفناء والعدم، وتفنى معه حاجاته وأمنياته المعلقة .

(٢) حاول الشىء : أراده، وطلبه بالحيلة . والوصل : الوصال، والقرب . وضده الهجران، والقطيعة . وممنع : منيع يصعب الوصول إليه، ولا يستطاع الاتصال به . والأمانى (بالتخفيف والتشديد) : المنى، والآمال . الواحدة أمنية . ومرجم : تأكيد لمعنى الغيب . وحديث مرجم : لا يوقف على حقيقته . =

وَمَا كُلُّ مَنْ رَامَ الْعَظَائِمَ نَالَهَا ... وَلَا كُلُّ مَنْ خَاضَ الْكَرِيهَةَ يَغْنَمُ (٣)

يَسُرُّ الْفَتَى مِنْ عِشْقِهِ مَا يَسُوءُهُ ... وَفِى الرَّاحِ لَهْوٌ لِلنُّفُوسِ وَمَغْرَمُ (٤)

وَلَوْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عِلْمٌ يَدُلُّهُ ... عَلَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ مَا كَانَ يَنْدَمُ (٥)

= ورجّم بالغيب : أى تكلم بما لا يعلم . ورجّم ترجيما : تكلم بالظن والتخمين ، لا بالعلم واليقين . ويراد بالغيب المرجم : البعيد المستعصى .

يقول : إنه تعلق بحبيب ممنع لا سبيل إلى وصاله . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فمحاولات الشاعر فى هذا الشأن غير مجدية ، وأمنياته من الأمور البعيدة المستعصية .

(٣) رام الشىء (من باب قال) : أراده ، وطلبه . والعظائم : جمع العظيمة . ويراد بها هنا : معالى الأمور ، وجلائل الرغائب ، ومطالب العظمة ، والمتمنيات الواسعة الكبيرة . وخاض الماء ونحوه (من باب قال) : دخله ، ومشى فيه . وخاض الغمرات : اقتحمها . والكريهة : الحرب . أو الشدة فيها . وغنم الشىء (من باب فهم) : فاز به بلا مشقة . أو ناله بلا بدل . وغنم الغازى فى الحرب : ظفر بمال عدوه ، وأخذه بالقهر غنيمة .

ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكم والأمثال ؛ ليعزى نفسه عما أشار إليه فى البيت السابق من إخفاقه فى محاولاته ، وتعذّر الوصال ، وتمنّع الحبيب ، وتعصّيه عليه ؛ فالمرء قد يروم العظائم ، ويطلبها دائباً جاهداً ، فلا يظفر بشىء منها . وقد يخوض الكرائه ، ويجالد فى الحروب بغير مغنم .

(٤) الراح : الخمر . واللهو : المتعة واللذة . والمغرم : الغرامة ، والخسارة . وقد يراد به : الإثم والذنب .

والمعنى : أن العاشق يسره من عشقه مقدماته وظواهره ، وتسوءه عواقبه وبواطنه ؛ كالخمر يجد فيها شاربها ما يلذه ويلهيه . وفيها مع اللذة واللهو خسارة وإثم كبير .

أو المعنى : أن العاشق يستعذب — فى محاولات اتصاله بمعشوقته — كل ما يبذله من جهد ووقت وتفكير وتدبير ، وأموال ومغارم ، ويتحمل فى هذا السبيل ما لا يكاد يطيقه من الأوصاب والآلام . ولا ريب أن كل هذا يسوءه ويضيره ، ويضنيه ويذيبه . مثله مثل شارب الخمر يجد فيها ما يلذه ويلهيه ، وهى مع هذا تتلف النفس والخلق والعقل والجسم والمال .

(٥) الخافيات : جمع خافية : اسم فاعل من خفى الشىء (كرضى) : أى استتر وغاب ، ولم يظهر . والخافيات من الغيب ؛ فإضافتها إليه من إضافة الكلمة إلى ما يرادفها ، أى يساويها فى المعنى .

يقول : لو اطلع الإنسان على ما خفى عليه من أمور الغيب ، لاستشعرت نفسه السكينة والطمأنينة ؛ فلم يأسف على فائت ، ولم يكره شيئاً بعد فعله ، ولم تجد الحسرة ، أو الندم ، أو الأسى إليه سبيلاً . وفى القرآن الكريم : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء » (الآية رقم ١٨٨ =

كَتَمْتُ الْهَوَى خَوْفَ الْوُشَاةِ ، فَلَمْ يَزَلْ ... بِيَ الدَّمْعُ حَتَّى بَانَ مَا كُنْتُ أَكْتُمُ(٦)

وَكَيْفَ أُدَارِي النَّفْسَ وَهْيَ مَشُوقَةٌ ... وَأَحْلُمُ عَنْهَا وَالْهَوَى لَيْسَ يَحْلُمُ ؟(٧)

وَتَحْتَ جَنَاحِ اللَّيْلِ مِنِّي ابْنُ لَوْعَةٍ ... يَرِقُّ إِلَيْهِ الطَّائِرُ الْمُتَرَنِّمُ(٨)

= من سورة الأعراف) . وصلة هذا البيت بما قبله : أن العاشق قد يجرى وراء أوهام ومرجّمات وأمانى بعيدة مستعصية ، وأن محاولاته فى هذا السبيل تسوده وتجهده ، وتذيبه وتضنيه . وكثيراً ما يتجرّع فى نهاية المطاف مرارة الحسرة والحرمان . ولو كان له علم يكشف أمامه هذه الخفايا والمغيبات لاطمأنّت نفسه إلى الواقع المحسوس ، أو المرتقب المعلوم ، وعرفت ما قدر لها ؛ وما لم يقدر ؛ فهدأت ، واستراحت من مخاوف المغيب المجهول ، ومفاجآت القدَر المقدور ؛ وأقلعتْ عن المساعى المخفقة المضنية . ولم يجد الندم أو الأسف إليها سبيلا .

(٦) الوشاة : جمع الواشى : وهو النمام : اسم فاعل من الوشاية : وهى النميمة ، والسعى بالفساد بين الناس (والفعل من باب وعى) .

والمعنى : أن الحب شفه ، والوجد أبكاه ؛ فأظهر البكاء ما كان يكتمه من الصبابة والهيام ، وتباريح الهوى والغرام ، وانكشف أمره للوشاة ، وهم خصومه وأعداؤه الذين يخافهم ، ويتقى بالكتمان شرهم .

(٧) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى . وداراه (بالهمز والتسهيل) مداراة : ختله وخادعه وراوغه . أو لاطفه وحاسنه ولاينه ، ورفق به ، وأشفق عليه . أو خالفه ودافعه واتقاه . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملتان الاسميتان بعدها حاليتان . وأحلم عنها : أداريها وألاطفها وأرفق بها ، وأصبر عليها . يقال : حلم عن السفيه . والله حليم عن العصاة : أى لا يعاجلهم بالعقاب (والفعل كقرب) .

فى البيت السابق قال : إنه حاول جاهداً أن يكتم الهوى خوفاً من شرور الوشاة ، واتقاء لمكايدهم ؛ فلما برح به الوجد بكى ، ففضح بكاؤه أمره ، وكشفت دموعه سره . وفى هذا البيت شبه اعتذار عن بكائه ، وعجزه عن كتمان سره ؛ فإن العاشق الصب المستهام لا يستطيع مداراة نفسه ، أو إخفاء ما تضانيه من لواعج الصبابة ، وتباريح الغرام . والهوى بطبعه ثائر ظاهر ، قهار غلاب ، لا يعرف الحلم والأناة ، أو المصابرة والمداراة ، ولا يستطاع إخفاؤه وكتمانه .

(٨) لوعة الحب ونحوه : حرقته . ولاعه (من باب قال) : أحرقه وأضناه . ويريد بابن اللوعة : نفسه . و « تحت جناح الليل » : كناية عن أرقه وسهره ، ووجده والتياعه فى ظلمات الليل والناس نيام . ورق له : رحمه ، وعطف عليه . و « إلى » هنا : بمعنى « اللام » . والمترنم : اسم فاعل من ترنم الطائر وكل ما استلذ صوته : أى طرب بصوته تطريباً ، وتغنى ، ورجّع .

يشكو بعض ما يقاسيه من آثار الهوى وملابساته كالأرق وسهر الليل ، والصبابة والالتياع . ويتخيل أن الطائر المغرد يعبر بتغريده عن رقته له ، ومشاركته إياه ، ورأفته به ، وحنانه عليه .

إذَا مَدَّ مِنْ أنْفَاسِهِ لَاحَ بَارِقٌ ... وَإنْ حَلَّ مِنْ أجْفَانِهِ فَاضَ خِضْرِمُ(٩)

وَإنَّ الَّتى يَشْتَاقُهَا الْقَلْبُ غَادَةٌ ... لَهَا الرُّمْحُ قَدٌّ، وَالْمُهَنَّدُ مِعْصَمُ(١٠)

يَنُمُّ بها صُبْحٌ مِنَ الْبِيضِ أزْهَرٌ ... وَيَكْتُمُهَا نَقْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ(١١)

---

(٩) يراد بالبارق: البرق. ولاح: أومض، ولمح، ولمع. و« من » فى شطرى البيت: معناها التبعيض. وحلّ أجفانه: فتح عينيه. والخضرم (بكسر فسكون فكسر): البحر العظيم. والكثير من كل شىء. وفيضان الخضرم هنا: كناية عن شدة بكاء « ابن اللوعة » وغزارة دموعه، واستحرار التياعه، وحرقته، وشدة وجده وهمه.

ما زال الشاعر يشكو ما يعانيه من تبريح الوجد والصبابة؛ فقلبه ملتاع محترق، وأنفاسه طويلة ممدودة، حارة ملتهبة، تكاد ترى بشرر يومض إيماض البرق. وبكاؤه شديد كثير، وعيناه تفيضان بدمع منهمر غزير.

(١٠) الغادة: الفتاة اللينة، الناعمة، المتثنية. (والفعل من باب فرح). والرمح: قناة فى رأسها سنان من حديد صلب جارح قاطع يطعن به. وكان من أدوات القتال والصيد. والقد: القامة. وقامة المرأة: قوامها، واعتدالها، وحسن طولها. ويشبّه قدّ الحسناء بالرمح فى الاعتدال، والاستواء، والمرونة. والمهند: السيف المطبوع من حديد الهند، وكان خير السيوف عند العرب، وحديده خير الحديد. والمعصم: اليد، أو موضع السوار منها. شبه يدها بالسيف فى البياض والنقاء والصفاء.

يقول: إن المعشوقة التى تهيمه غادة هيفاء، قدها الرمح، ويدها السيف. يكنى بهذا عن معالى الأمور، وتمجيد القوة الحربية، والتمرس باستخدام الأسلحة وأدوات الحرب والقتال. وسيصرح بهذا أو بمعناه فى البيت الخامس عشر والأبيات التى تليه.

(١١) ينم بها (من بابى نصر وضرب): ينم بالغادة: أى يظهرها، ويبديها، ويجليها. وهو تعبير مجازى من النم أو النميمة. ومن كلامهم: « نمّت على المسك رائحته ». والبيض (بكسر الباء): السيوف: جمع الأبيض. أو هى البيض (بفتح فسكون): جمع بيضة: وهى المغفر، أو الخوذة من الحديد، أو من زرد الحديد، يجعلها المحارب فوق رأسه، أو تحت القلنسوة. وصبح أزهر: مشرق مضىء. وتنوين « أزهر » لضرورة وزن الشعر. والنقع: الغبار الساطع. ويراد به: الغبار القاتم الذى تثيره فى ميدان القتال سنابك الخيل وحركات المتحاربين فى الكرّ والفرّ، والهجوم والدفاع. ونقع مظلم: أى نقع أقتم أسود، كأنه ظلمة الليل الحالكة. و « من » فى شطرى البيت: بيانية.

يقول: إن هذه الغادة يظهرها لمعان السيوف وبريقها فى أيدى المتحاربين، وتلألؤ الخوذات والمغافر فوق رءوسهم. ويخفيها الغبار القاتم الأسود الذى تثيره فى ميدان القتال وساحة المعركة، سنابك الخيل، وحركات المعتركين، وتزاحم الفرسان فى الكرّ والفرّ، والهجوم، والدفاع. وقد أسلفنا أنه يكنى بالغادة عن البطولة فى الحرب. وأنه أولع بالبيض القواضب، لا بالبيض الكواعب.

إِذَا رَاسَلَتْ كَانَتْ رِسَالَةُ حُبِّهَا ... بِضَرْبِ الظُّبَا تُوحِى، وَبِالطَّعْنِ تَعْجُمُ (١٢)

لَهَا مِنْ دِمَاءِ الصِّيدِ فِى حَوْمَةِ الْوَغَى ... شَرَابٌ، وَمِنْ هَامِ الْفَوَارِسِ مَطْعَمُ (١٣)

فَتِلْكَ الَّتِى لَا وَصْلُهَا مُتَوَقَّعٌ ... لَدَيْنَا، وَلَا سُلْوَانُهَا مُتَصَرِّمُ (١٤)

---

(١٢) راسله مراسلة : أرسل إليه رسولاً ، أو رسالة . وفاعل « راسلتْ » : ضمير « غادة » فى البيت العاشر . والشاعر يكنى بها عن الحماسة ، والبطولة الحربية ، وشدة البأس فى القتال والنزال . والمراد : راسلت عاشقيها من أبطال الوغى ، وصناديد القتال . والظبا : جمع ظبة : وهى الحد القاطع من السيف ، والسنان ، والخنجر ونحوه ، وأوحى إليه ، وله بكذا : أمره به ، ودعاه إليه . وأوحى : أومأ وأشار . وأصل الوحى : الإشارة السريعة . والطعن : مصدر طعنه بالرمح ونحوه (من بابى قطع وقتل) : أى وخزه ، وضربه بسنانه. وتوحى بضرب الظبا: أى توحى إلى عاشقيها أن يضربوا بظباتهم أعداءهم فى الحروب. وتعجم (من باب نصر) : تباو ، وتجرّب ، وتختبر وتمتحن . وقد يراد بالعجم : التدريب والتمرين والتعويد . وفى الشطر الثانى قصر أو تخصيص طريقته تقديم ما حقه التأخير : أى أن هذه الغادة لا توحى إلا بضرب الظبا ، ولا تعجم إلا بالطعن .

يقول : إن هذه الغادة تراسل عشاقها من أبطال الوغى ، وصناديد القتال . وإن كتبها إليهم ورسائل حبها لا تعدو الاختبار والتدريب ، والتحميس والتشجيع والحض على الجلاد والكفاح ، والاستبسال فى القتال والنزال ، والتمرس باستخدام السلاح ، والضرب والطعن بالسيوف والرماح لكسب النصر ، وبطولة الحرب .

(١٣) لها : أى للغادة المكنى بها عن البطولة الحربية . والصيد : جمع الأصيد : وهو المتكبر المزهوّ بنفسه . وكل ذى حول وطول من ذوى البأس والسلطان . والوغى : الحرب ؛ لما فيها من الجلبة والأصوات المختلطة . وحومة الوغى : ميدان الحرب . وساحة القتال . أو أشد موضع فيه . والهام : جمع الهامة : وهى الرأس . أو أعلاه . أو وسطه . وقد تطلق على الجثة . والفوارس ، والفرسان : جمع فارس : وهو الماهر فى ركوب الخيل ، المتمرس باستخدامها فى القتال . وفرسان الجيش : هم المحاربون على ظهور الخيل . ومطعم : طعام . و « من » فى شطرى البيت : بيانية . والترتيب الأصلى للكلام : للغادة فى حومة الوغى شراب من دماء الصيد ، وطعام من هام الفوارس ، أى جثثهم .

يقول : إن هذه الغادة مولعة بدماء الصيد ، وهامات الفرسان وجثثهم ؛ فمنها شرابها وطعامها فى ساحات الوغى والقتال ، وحومات الحرب والنزال . والغرض تصوير شىء من خصائص البطولة الحربية ، ومزايا صناديد الحرب ، وأبطال القتال ؛ فإن همهم التطويح برءوس أعدائهم ، وتمزيق جثثهم ، وإسالة دمائهم ؛ وبهذا يحطمون القوى البشرية المتصدية لهم ، ويكسبون الحرب ، وتتم لهم الغلبة والنصر .

(١٤) « تلك » : إشارة إلى الغادة فى البيت العاشر . واللام فى « تلك » لام البعد ، فإن منزلة تلك الغادة عالية رفيعة بعيدة . ووصالها صعب عسير غير يسير . ومتوقّع : مأمول ، مرتقب . ولدينا : =

عَلِقْتُ بِهَا ، وَهْىَ الْمَعَالِى ، وَقَلَّمَا يَهِيمُ بِهَا إِلَّا الشُّجَاعُ الْمُصَمِّمُ (١٥)

هوًى ، لَيْسَ فِيهِ لِلْمَلَامَةِ مَسْلَكٌ وَلَا لِامْرِئٍ نَاجَى بِهِ النَّفْسَ مَأْثَمُ (١٦)

تَلَذُّ بِهِ الْآلَامُ وَهْىَ مُبِيرَةٌ وَيَحْلُو بِهِ طَعْمُ الرَّدَى وَهْوَ عَلْقَمُ (١٧)

= عندنا . والسلوان: النسيان: مصدر سلاه ، وسلا عنه (من باب سما) : أى نسيه ، وطابت نفسه بعد فراقه . ومتصرّم : اسم مفعول من التصرّم : بمعنى التجلّد : أى التصبر : يريد أن السلو عنها غير متجلد عليه : أى غير مستطاع .

يقول : إن تلك الغادة بعيدة المنال ، لا يترقب وصالها ، ولا يستطيع نسيانها ، أو التجلد لفراقها ، والصبر على بعدها . والمراد : أن عشق العاشق لها لا يلابسه ما يلابس عشق الفتيان للفتيات من الوصال والهجران ، والهيام والسلوان . وهو يمهد بهذا للبيت الآتى ، وفيه أنه لم يعشق غير المعالى ، وعظيمات الأمور ، وبطولات الحرب ، وأعمال الشجاعة والإقدام .

(١٥) علقت بها: هويتها ، وعشقتها ، وأحببتها (وبابه طرب) . والمعالى : جمع المعلاة : وهى الرفعة والشرف . ومثلها العلا والعلاء . وهام بها : شُغف بها حبًّا . والمصمم : الماضى فى الأمور بعزيمة ثابتة صامدة ، وإرادة قوية قاطعة . اسم فاعل من صمم فى الأمر ، وصمم عليه تصميماً : أى مضى فيه بعزم قوى ، ورأى ثابت .

يقول : إن الغادة التى أغرم بها : هى الرفعة والشرف ، ومعالى الأمور ، والبطولات الحربية ، وأعمال الكفاح والنضال التى لا يهواها إلا ذوو الشجاعة والنجدة ، والعزم القوىّ ، والإرادة القاطعة ، والبأس الشديد .

(١٦) هوى : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : هو هوى : أى حب وعشق وغرام . والملامة : اللوم والعذل . ومسلك : طريق . وناجاه مناجاة : سارّه : أى أسرّ إليه الحديث ، وخافت به . وبه : بالهوى . ومأثم : إثم وذنب .

يقول : إن تعلق المرء بالمعالى ، وهيامه بها من الهوى المحمود ، والعشق الحلال الذى لا إثم فيه ، ولا تثريب على صاحبه ، وليس للعذل أو الملامة طريق إليه ، أى ليس فيه ما ينغص العاشق ، ويكدر صفوه ، وفى استطاعته أن يجهر ويخافت به وهو آمن مطمئن .

(١٧) تلذ : تحلو وتطيب وتشتهى . (وبابه سلم) . وبه : بالهوى : أى بسببه ومن أجله . أو فى سبيله . ومبيرة : مهلكة ، مردية ، قاتلة . والردى : الموت والهلاك . وهو : أى طعم الردى . وعلقم : شديد المرارة . والواو فى شطرى البيت : واوالحال . والجملتان الاسميتان بعدها حاليتان .

تعلق الشاعر بالمعالى ، والبطولات الحربية ، وعظائم الأمور ، وأحبها كل الحب ، ووهب لها نفسه وحياته ، وسعى إليها حريصاً عليها ، مستهاماً بها صبًّا . وهو فى هذا السبيل يستسهل الصعب ، ويستلذ الآلام المردية ، ويستعذب مرارة الموت ، ويرى فيه حلاوة المجد الخالد ، والشرف الباقى ، والذكر الحىّ ، والصيت الذاهب فى الناس .

فَمَنْ يَكُ بِالْبِيضِ الْكَوَاعِبِ مُغْرمًا ... فَإِنِّيَ بِالْبِيضِ الْقَوَاضِبِ مُغْرَمُ (١٨)

أَسِيرُ وَأَنْفَاسُ الْعَوَاصِفِ رُكَّدٌ ... وَأَسْرِى وَأَلْحَاظُ الْكَوَاكِبِ نُوَّمُ (١٩)

وَمَا بَيْنَ سَلِّ السَّيْفِ وَالْمَوْتِ فُرْجَةٌ ... لَدَى الْحَرْبِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَكَلَّمُ (٢٠)

---

(١٨) البيض فى الشطر الأول : جمع بيضاء : أى فن يك مغرماً بالبيض الحسان الكواعب من النساء . وفى الشطر الثانى : جمع أبيض : وهو السيف . وبينهما جناس تام ، وهو من المحسنات البديعية اللفظية . والكواعب : جمع كاعب : وهى الفتاة التى كعب ثديها : أى نهد ، ونتأ . وانتبر ، وبرز ، وأشرف ، وظهر ، وارتفع . والمغرم : المولع بالشيء : أى الذى اشتد تعلقه به . وسيف قاضب : حادّ ، مرهف ، قاطع ، صارم ، بتّار . وسيوف قواضب .

يقول : إذا أغرم أمثاله من الشبان بالبيض الحسان النواهد من النساء ، وهاموا بهن ، فإنه الصب المستهام بالسيوف القواضب ، وأسلحة القتال وعتاده ، وبطولات الحرب والنزال . والبيت وثيق الاتصال بالأبيات التى قبله ؛ ففيها ولوع الشاعر بالمعالى ، وتنويه بأمثاله ونظرائه من الشجعان المصممين ، أولى العزم القوىّ ، والبأس الشديد .

(١٩) الواو فى شطرى هذا البيت : واو الحال . والجملتان الاسميتان بعدها حاليتان . والأنفاس : جمع نفس (بفتحتين) : وهو نسيم الهواء ، وحركة الريح إذا كانت ضعيفة لينة ، قبل أن تهب ، وتثور ، وتعصف ، وتشتد . والعواصف : جمع عاصف ، أو عاصفة : وهى الريح إذا عصفت (من باب ضرب) : أى هبت بعنف ، وهاجت ، وثارت ، واشتدت . ويراد بالعواصف هنا : الفتن ، والخطوب ، والحروب . وركد : ساكنة ، هادئة : جمع راكد ، أو راكدة . ولعل المراد : أنه يسير فى ميدان القتال بين جنده متفقّداً أحوالهم محمساً إياهم ، راسماً خطط الهجوم والدفاع ، قبل أن يلتحم الجيشان ، وتقوم الحرب على ساقها ، ويحمى الوطيس ، ويضطرم الشر ، ويشتد البأس . وقد تكون « ركّد » محرفة عن « ركّض » : جمع راكض وراكضة ، من ركض الفرس ونحوه : إذا ضرب الأرض برجله ، وعدا ، وأسرع . وعلى هذا يكون المعنى : أنه إذا عصفت الحرب ، واشتدّ البأس ، واضطرم الأمر ، وعظم الخطب ، سار فى المعركة ، وخاض غمارها فى جرأة وشجاعة وإقدام ، وفى غير مبالاة ، أو اكتراث . وأسرى : أسير ليلا . والألحاظ : جمع لحظ وهو النظر بمؤخر العين من أحد الجانبين . ويراد بالألحاظ هنا : العيون . ونوّم : جمع نائم . ونوم ألحاظ الكواكب والنجوم : كناية عن ظلمة الليل الحالكة ، وسواده القاتم . ومعنى الشطر الثانى : أنه يسير فى الليل المظلم المعتم ، الحالك السواد بجرأة وشجاعة ، لا يبالى المخاوف ، ولا يهاب الأخطار . والبيت كله تمدح بالشجاعة والإقدام على المخاوف والأخطار ، والتمرس بالحروب والخطوب .

(٢٠) سلّ المحارب سيفه على عدوه (من باب رد) : شهره : أى أخرجه من غمده ، ورفعه مجالداً مضارباً . وبينهما فرجة : أى انفراج ومسافة قصيرة ، وقد حددها الشاعر فى الشطر الثانى بقوله : =

أَنَا الْمَرْءُ لَا يَثْنِيـــهِ عَمَّا يَرُومُهُ   نَهِيتُ الْعِدَا وَالشَّرُّ عُرْيَانُ أَشْأَمُ(٢١)

أُغِيرُ عَلَى الْأَبْطَالِ وَالصُّبْحُ أَشْهَبٌ   وَآوِى إِلَى الضِّيفَانِ وَاللَّيْلُ أَدْهَمُ(٢٢)

= « ريثما أتكلم » أى مقدار تكلمى. ولعله يريد بتكلمه : أمره لجنوده بشهر السيوف ، واستخدام الأسلحة ، وإطلاق نيرانها . وقد يكون المراد بتكلمه : تعريفه بنفسه ، وجهره باسمه ولقبه ، كما كان يفعل أبطال العرب فى حروبهم . ولدى : ظرف مكان بمعنى « عند » . وقد تستعمل فى الزمان .

يقول : إذا تأهب للقتال فسرعان مايفتك سلاحه بأعدائه ، ويستحرّ فيهم القتل . يفخر بشجاعته ، وشدة بأسه ، وتمرسه بالقتال ، وحسن استخدامه للسلاح ، وسرعة فتكه بعدوّه . وإذا لاحظنا أن البارودى قائد حربىّ ، كان فى البيت – زيادة على ما تقدم – إشارة إلى صرامته ، ومحكم قيادته ، ومسارعة جنده إلى طاعته ، وفائق دربتهم بالجلاد والضراب .

(٢١) لا يثنيه : لا يصرفه ، ولا يرده (وبابه رمى) . ويرومه : يريده ، ويطلبه (وبابه قال) . ونهيت العدا : أصواتهم الشديدة المزعجة . والنهيت (فى الأصل) : صوت الأسد وزئيره . أو هو صياحه دون الزئير . والعدا (بضم العين وكسرها) : الأعداء : جمع عدو . وهو جمع لا نظير له . أو هو اسم الجمع. وأشأم : مشئوم : من الشؤم : وهو التشاؤم ، والتطير . وضده اليمن ، والفأل ، والبركة . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وعرى الشر وشؤمه : كناية عن شدته ، وضراوته ، واستحراره .

يفتخر بأنه ماض ، مصمم ، جرىء ، مقدام ، قوى العزم ، شديد البأس ، ذو مراس فى الحروب والشدائد إذا علا نهيت العدا ، وأبدى الشر ناجذيه ، وحمى الوطيس ، واستحر القتال .

(٢٢) أغار على أعدائه إغارة : دفع عليهم الخيل. أو هجم عليهم ، وأوقع بهم . والاسم منه : الغارة . والأبطال : جمع بطل : صفة من البطولة : وهى الشجاعة ، والبسالة ، والإقدام ، وشدة البأس ، وقوة المراس فى الحروب والشدائد ، والعظائم ، والملمات (والفعل من بابى سهل وظرف) . وإغارته على الأبطال من أعدائه دليل على أن بطولته أقوى وأشد ، وأعلى وأعظم من بطولاتهم : وأشهب : صفة من الشهب ، أو الشهبة : وهى بياض يشوبه ، أو يغلب عليه سواد . وتنوين « أشهب» هنا لضرورة وزن الشعر . وشهبة الصبح : وقت الفجر ، وهو من الأوقات التى تناسب الإغارة والهجوم والمباغتة . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملتان الاسميتان بعدها : حاليتان . وأوى له وإليه (كرمى) : رق له ، ورحمه ، وأكرمه . وأوى إليه : عاد إليه ورجع . والضيفان : جمع الضيف . وأدهم : أسود ، مظلم ، معتم . ودهمة الليل وظلمته : إشارة إلى كرم الضيافة ؛ فنى الليل المظلم تشتد حاجة السارى إلى من يضيفه ، ويؤويه ، ويؤنسه ، ويكرمه . وذلك فى البيئة الصحراوية وما يشبهها . والبارودى مولع بنقل صورها ، ومحاكاة القدامى من شعراء العرب .

افتخر فى الشطر الأول بالشجاعة والإقدام ، والتفوق على أنداده وأقرانه من الأبطال المحاربين . وتمدح فى الشطر الثانى بالجود والسخاء ، وإيواء الضيوف وإكرامهم والحفاوة بهم .

وَيَصْحَبُنِى فِى كُلِّ رَوْعٍ ثَلَاثَةٌ : حُسَامٌ . وَطِرْفٌ أَعْوَجِىٌّ . وَلَهْــذَمُ(٢٣)

وَيَنْصُرُنِى فِى كُلِّ جَمْعٍ ثَلَاثَةٌ : لِسَانٌ . وَبُرْهَانٌ . وَرَأْىٌ مُحَكَّمُ(٢٤)

فَما أَنَا بِالْمَغْمُورِ إِنْ عَنَّ حَادِثٌ وَلَا بِالذِى إِنْ أَشْكَلَ (الْأَمْرُ) يَفْحَمُ(٢٥)

---

(٢٣) صحبه (من باب سلم) : رافقه ، وسايره ، ولازمه ، وكان صاحبه ورفيقه . ومن المجاز : صحبه الله : أى حفظه ورعاه . والروع : الحرب . والخوف والفزع . والحسام : السيف القاطع . والطرف (بكسر فسكون) : الفرس الأصيل الكريم . وكان المحارب لا يكاد يستغنى عن جواده . وأعوجى : نسبة إلى « أعوج » : وهو فرس لبنى هلال . تنسب إليه الأعوجيات : وهى ضرب من جياد الخيل وكرامها . واللهذم : الحاد القاطع من الرماح والسيوف والأسنة ونحوها .

(٢٤) يريد بلسانه : فصاحته ، ولسنه ، وسحر بيانه . والبرهان : الحجة البينة الفاصلة . والرأى : النظر ، والاعتقاد ، والإصابة فى التدبير . ورجل ذورأى : أى ذو بصيرة ، وحذق بالأمور ، وتدبير محكم سديد . ورأى محكم : سديد رشيد ، يرتضيه الناس ، ويطمئنون إليه ، وينزلون عليه . وهو فى الأصل اسم مفعول من التحكيم : مصدر حكّموه فى أمرهم : إذا اختاروه ليكون حاكماً أو حكماً يسوسهم ، ويدبّر أمورهم ، ويفصل فى منازعاتهم .

فى البيت السابق : افتخر بثلاثة ينتصر بها فى الحرب : وهى سيفه ، وجواده ، ورمحه . يشير بها إلى كل القوى والمعدات والعتاد الحربى . وفى هذا البيت : تمدح بثلاثة ينتصر بها فى السلم : وهى فصاحته ، وحجته ، وسداد رأيه . يشير بها إلى كل مؤهلات الغلبة ، والتفوق فى الندوات ومؤتمرات التفاوض والجدال والتقارع بالحجج والبراهين .

(٢٥) المغمور من الناس : الخامل المطمور . وضده النابه المشهور . وعن لك الشىء (كرد ، وخفّ) : بدا ، وظهر أمامك واعترض . والحادث : الكارثة ، والنائبة ، والمصيبة ، والنازلة . ومثله الحادثة . وأشكل الأمر : التبس ، واختلط ، واستغلق ، وخفيت معالمه ، واستبهمت حقيقته. والأمر : الشأن ، والحال ، والشىء . وهذه الكلمة تكملة من عندنا ، أضفناها إلى البيت ؛ فاستقام بها وزنه ومعناه . وقد أشرنا من قبل إلى بعض مايعيب الأصل المخطوط الذى بين أيدينا من النقص ، والخطأ ، والتحريف ، والتصحيف . ويفحم (بالبناء للمعلوم) : يعيا ، ويعجز . يقال : فحم الرجل (كنع) : إذا عجز ، وسكت ، ولم يستطع جواباً . أو هو بالبناء للمجهول : من الإفحام : مصدر أفحمه : إذا أسكته بالحجة فى خصومة أوغيرها . وأفحمه الهم ونحوه : أى ذهب بنشاطه .

يريد أنه فى النوازل والحادثات نابه ظاهر ، مشهور مقصود ، يفزع الناس إليه ، ويعولون عليه . وهو فى المعضلات ومشكلات الأمور حلال للعقد ، سديد الرأى ، هاد إلى الصواب . وصلة البيت بما قبله وما بعده واضحة وثيقة .

لِسَانِى كَنَصْلِى فِى الْمَقَالِ ، وَصَارِمِى كَغَرْبِ لِسَانِى حِينَ لَمْ يَبْقَ مُقْدِمُ (٢٦)

إِذَا صُلْتُ فَدَّتْنِى « فِرَاسٌ » بِشَيْخِهَا وَإِنْ قُلْتُ حَيَّا فِى « شَبِيبٌ » وَ « أَكْثَمُ » (٢٧)

(٢٦) النصل : الحديدة القاطعة الجارحة فى الرمح والسهم والسيف والسكين ونحوها ؛ فالسيف مثلا مركب من نصاب ونصل ، فإذا تجرد من نصابه : أى مقبضه ، بقّى نصله . ولسانه فى المقال كنصله فى القتال : تمدح بكفايتيه الحربية والكلامية : فهو فى الحرب تام الأهبة ، ماضى السلاح ، ذو مراس وقوة وبأس شديد . وهو فى السلم ذليق اللسان ، عذب المنطق ، قوى الحجة ، ساحر البيان . والصارم : السيف الماضى الحاد القاطع . وغرب كل شىء : حده الجارح القاطع ، كغرب السيف والسكين ونحوهما . وغرب اللسان : طرفه وحده ، حيث يبدو اللسن ، والذلاقة ، والطلاقة ، والفصاحة ، والبلاغة ، والبيان . وصارمه فى القتال كغرب لسانه فى البيان والمقال : تكرار للشطر الأول يراد به التوكيد . ومقدم : اسم فاعل من الإقدام : بمعنى الشجاعة . أو هو مقدم (بوزن مذهب) : مصدر ميمى من قدم (كنصر) : أى شجع ، وجرؤ ، وأقدم . أو من قدم قومه : أى تقدمهم وسبقهم : أى حين لا يوجد تقدّم متقدّم ، أو شجاعة شجاع .

يفتخر بأن سيفه ولسانه متشابهان متكافئان متفوقان فى ساحة الحرب والقتال ، ومجال المقال والبيان . وأنه ينفرد بهذه المنقبة أو المزية إذا عزّت الشجاعة الأدبية ، والشجاعة الحربية .

(٢٧) صال على قرنه فى القتال (من باب قال) : حمل عليه : أى هجم عليه ، وسطا ، ووثب ؛ ليقهره ويغلبه . وفداه تفدية : استنقذه بماله ، أو بنفسه ، فخلصه مما كان فيه . و « فراس » قبيلة عربية ، تنتمى إلى فراس بن غنم بن ثعلبة ، من كنانة ، إحدى القبائل المضرية . وقد عرف بنو فراس بالشجاعة . ومنهم ربيعة بن مكدّم : الفارس المشهور . ولعل البارودى يعنيه هنا ، ويعده شيخ هذه القبيلة وفارسها . ومعنى الشطر الأول : أن صولاته على أعدائه فى الحروب تبهر المشهورين بالشجاعة والإقدام وشدة البأس . ومن ظواهر انبهارهم و إعجابهم وتقديرهم أنهم يفدونه بساداتهم وشيوخهم وذوى الرياسة فيهم . ولعل المراد بشبيب : شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمى المنقرى الأهتمى : أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخو المساكين : من أهل البصرة . ولفصاحته لقب بالخطيب . وكان شريفاً من الدهاة ، ينادم خلفاء بنى أمية ، ويقصد إليه أهل بلده فى حوائجهم . توفى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . وفى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا « أقثم » . ولعل الناسخ حرّفه عن « أكثم » بن صيفى بن رباح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمى ، المتوفى فى السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠ م) : حكيم العرب فى الجاهلية ، وأحد المعمّرين . سمع برسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقصد إليه فى مائة من قومه ، يريدون الإسلام ، فأدركه الموت فى الطريق ، قبل أن يصل إلى المدينة المنوّرة . قيل : وهو ممن تعنيهم الآية الكريمة : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله » (الآية رقم ١٠٠ من سورة النساء) . ومن كلماته =

فَلَا تَحْتَقِرْ فَضْلَ الْكَلَامِ ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ مَايَبْنِى الْمَعَالِى ، وَيَهْدِمُ(٢٨)
وَمَا هُوَ إِلَّا جَوْهَرُ الْفَضْلِ وَالنُّهَى يُسَرَّدُ فِى سِلْكِ الْمَقَالِ ، وَيُنْظَمُ(٢٩)

= المأثورة التى جرت مجرى الحكم والأمثال : « من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ». «من لم يعتبر فقد خسر» . « المزاح يورث الضغائن » . « من سلك الجدد أمن العثار » . « من مأمنه يؤتى الحذر». « ويل للشجى من الخلى »

يفتخر بأنه غلاب فى ميادين الحرب والقتال ، متفوق فى مجالات الفصاحة والبيان ؛ فهو إذا حارب بهر الصناديد من أبطال العرب ، ورأوا حياته أغلى من حياتهم ، ففدوه بأنفسهم وبشيوخهم . وإذا تكلم أو خطب ، أو جرى لسانه أو قلمه بشعر أو نثر حياه تحية التكريم والإعجاب أشهر فصحاء العرب ، وأعظم حكمائهم .

(٢٨) فضل الكلام : مزيته ، وأثره ، وقوته . والمعالى : جمع المعلاة : وهى الرفعة ، والشرف ، والعز ، والمجد . ومثلها العلا ، والعلاء . ويهدم : أى يهدم المعالى . أو يهدم النقائص والمثالب ، وما يناقض المعالى والأمجاد ؛ فالشاعر المجيد النابه يظهر بشعره فضائل من يمدحهم ، وينوه بمناقبهم ، ويذيع محامدهم ، ويبنى لهم ذكراً وصيتاً وعلاء ومجداً . وعلى العكس من هذا إذا هجا وذم هدم بهجائه معالى المهجوين ، وأزرى بهم ، وشوه الجميل من صورهم وسيرهم وأعمالهم . أما هدمه للمثالب والمناقص ، فمعناه : أنه يحاربها ، ويقبحها ، وينفر الناس منها ، ويصرفهم عنها ؛ فهذه أمثلة موضحة لفضل القول البليغ ، والبيان الساحر ، ومزايا الكلام ، وقوة تأثيره ؛ فإن منه ما يبنى ويرفع ، ومنه ما يهدم ويخفض ؛ فهو سلاح ذو حدين ، تراه فى الخير أعظم الأسلحة أثراً . وفى الشر أمضاها وأشدها فتكاً ؛ ولهذا اهتم الناس كل الاهتمام بالدعايات الكلامية ، ووسائل التعريف والإعلام فى مجال السلم والحرب ، والسياسة والاقتصاد ، والوعظ والإرشاد .

(٢٩) هو : أى الكلام ، أو القول . ومثلهما المقالة ، والمقال . والنهى : العقل . أو هو جمع نهية (بوزن مدية) : وهى العقل . قيل : وإنما سمى العقل نهية أو نهى ، لأنه ينهى عن القبيح . ويسرد : ينسج ، أو ينظم . مستعار من تسريد الدرع الزردية وهو نسجها بشك طرفى كل حلقتين ، وتسميرهما . ونائب فاعل « يسرد » : ضمير « جوهر » : أى وليس الكلام إلا حقيقة الفضل والعقل ينظمها المتكلم فى سلك مقاله . والسلك : الخيط الذى يخاط به . أو ينظم فيه الخرز أو اللؤلؤ ، أو نحوهما . وينظم : يؤلف ، ويجمع فى تناسق ونظام . وهو شبه تكرار وتأكيد لمعنى « يسرد » ؛ فالمقال سلك ينتظم جواهر العقول والفضائل .

فى البيت السابق نوه بفضائل الكلام ومزاياه ، وآثاره ، واقتداره على بناء المعالى ، وهدم المناقص . وفى هذا البيت جعله أداة لإظهار الفضائل ، وجواهر العقول وثمارها ؛ تقرؤها ، أو تسمعها فى تأليف المقال ، ونظمه .

فَمَا كُلُّ منْ حَاكَ الْقَصَائِدَ شَاعِرٌ ... وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ النسِيبَ مُتَيَّمُ[٣٠]

فَإِنْ يَكُ عَصْرُ الْقَوْلِ وَلَّى ، فَإِنَّنِى ... بِفَضْلِي – وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ – مُقَدَّمُ[٣١]

---

(٣٠) حاك الثوب : نسجه (وبابه قال) . ومن المجاز : حاك الشاعر الشعر . والقصائد : جمع القصيدة : وهى من الشعر سبعة أبيات فأكثر . والنسيب : مصدر نسب الشاعر بالمرأة (كضرب ونصر) أى عرّض بهواها وحبها ، وشبّب بها فى شعره وتغزل . ومتيم : مستهام ، برّح به الوجد ، واشتد به العشق . من تيمه الهوى أو الحبيب : أى استعبده ، وتيّمه ، وأوله ، وذهب بعقله .

يقول : إن المرء قد ينظم الشعر ، ويحوك القصائد ، ولا يعد مع هذا شاعراً ؛ إذ الشعر ينبغى أن ينبع من شعور صادق ، وإحساس مرهف ، وعاطفة قوية . وقد ينظم كذلك شعراً فى النسيب ، وهو لا يكاد يعرف الشوق أو الوجد أو الصبابة . والشطر الثانى توضيح وتمثيل لمعنى الشطر الأول . ولعل صلة هذا البيت بالبيتين اللذين قبله : أن الكلام : (شعره ، وخطابته ، ونثره) إنما يبنى ويهدم ، ويعرض جواهر العقول والفضائل إذا قام على الاقتناع والتأثر ، وصدق النظر ، وقوة الإدراك ، ورهافة الإحساس ، ولطافة الشعور ، وتدفق العاطفة . هذا إلى المقدرة القوية الطبيعية على الإفصاح والإبانة ، والنظم والتأليف ، والإقناع والتأثير .

(٣١) يراد بعصر القول : زمن إجادة الشعر والنثر ، وعصر قوة الأدب وازدهاره . وولى : أدبر ، وذهب ، ومضى ، وانقضى . وفضل البارودى هنا : مزيته ، وموهبته ، وكفايته الفريدة العالية ، واستعداده الفطرىّ القوىّ ، ومقدرته الأدبية الفائقة ، ونتاجه الكثير الرائق الرائع من الشعر والنثر الفنى . وبفضلى : أى بسبب فضلى ، ومن أجله ؛ فالباء هنا : تعليلية : أى سببيّة . و « إن » فى الشطر الثانى مجردة من معنى الشرط : أى فإنى متقدم بفضلى ، سابق ، عالى المنزلة ، رفيع المكانة ، ولو كنت الأخير فى حساب الأزمنة والعصور : أى ولو كان عصرى متأخراً لاحقاً ، وزمانى مسبوقاً بأزمنة القوة ، والإجادة ، والإبداع ، والازدهار .

فى البيت السابق فخر غير صريح ، وإشارة ضمنية إلى أنه شاعر صادق الشعور ، مرهف الإحساس ، رقيق العاطفة ، محسن مجيد ، ينم شعره على فضله ورجاحة عقله . وقد مهد لهذا المعنى بالبيتين اللذين قبله . وفى هذا البيت أنه – وإن تأخر به زمانه عن زمن الابتداع والإجادة – نهضت به همته وفضله ، وقدمته مواهبه ومزاياه ، وشهّره أدبه وشعره ، ونافس به السابقين المبرزين من الأدباء والشعراء ، حتى لحق بهم ، أو فاقهم . وكأنه ينظر فى هذا إلى قول الشاعر :

وإنى – وإن كنت الأخير زمانه – ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

وَقَالَ فِى الْمَدْحِ * :

* قيل إن الممدوح بهذه القصيدة هو الشيخ «جمال الدين الأفغانى» (١٨٣٨ – ١٨٩٧م) المصلح الدينى ، والحكيم الفيلسوف الذى اضطلع بالزعامات الروحية ، والفكرية ، والسياسية ، وبعث نهضة الشرق ، وكافح بقلمه ولسانه الاستعمار والجمود ، والاستبداد والاستعباد ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته ، وترجع إلى مبادئه الصحيحة ؛ وتطهّره من البدع والأوهام والخرافات والأباطيل التى أخمّرتْ المسلمين ؛ وهدمتْ مجدهم التليد العريق ، ومكّنتْ منهم الأجانب والحكام المستبدين .

تنقّل « جمال الدين الأفغانى » فى كثير من البلاد الإسلامية ، والشرقية ، والأوروبية ، داعياً إلى الله ، مخلصاً فى دعوته ، حريصاً عليها ، مستّهاماً بها ، واهباً لها جهده وحياته ، فوهب الله له من رحمته ونصرته ، وتأييده وتسديده ، وشرح لرسالته صدور تلاميذه ومريديه ؛ فكان منهم أساطين الدين والعلم ، والفلسفة ، والأدب ، والسياسة ، والاجتماع .

جاء جمال الدين مصر لأول مرة فى أواخر سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٠ م) ولم يلبث بها غير أربعين يوماً . ثم عاد إليها فى أوائل المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (مارس سنة ١٨٧١ م) وهو فى نحو الثالثة والثلاثين ؛ فرغب إليه الخديو « إسماعيل » ووزيره مصطفى رياض أن يقيم بمصر ؛ فكان لروحه ومبادئه وتعاليمه أثرها فى المجتمع المصرى . ومن تلاميذه ، أو أصدقائه ومريديه الذين أقبلوا عليه ، واستمعوا له ، وأعجبوا به ، وأفادوا منه ، واعتنقوا آراءه ، واهتدوا بهديه ، أو أظهروا له التقدير والولاء : الأمير « محمد توفيق » ابن الخديو « إسماعيل » ، والشيخ « محمد عبده» ، و « محمود سامى البارودى» ، و « عبد الله النديم » خطيب الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها ؛ فهو أبوها ، وهى – فى حقيقتها – استمرار الحركة السياسية التى بعثها على عهد الخديو « إسماعيل» . ولو قُدِّر له أن يبقى فى مصر حين نشوبها لأمد قادتها بآرائه الحكيمة ، وتجاربه الرشيدة ، وجنبهم الخطل والشطط ، ووجههم – بإذن الله – إلى الغلبة والنصر ؛ ولكن شاءت الأقدار والدسائس الإنجليزية أن ينفى «جمال الدين » من مصر والثورة العرابية أحوج ما تكون إلى رأيه وحكمته ، وصدق نظره وتدبيره ؛ فانعقد مجلس الوزراء برياسة الخديو « توفيق » وأصدر قراره بنفيه ؛ فقبض عليه ليلة الأحد السادس من رمضان سنة ١٢٩٦ هـ (٢٤ من أغسطس سنة ١٨٧٩م) ؛ ولم يسمح له حتى بأخذ ثيابه ، ونقل صباح الثلاثاء ٨ من رمضان سنة ١٢٩٦ هـ (٢٦ من أغسطس سنة ١٨٧٩م) إلى الباخرة التى أقلّته من السويس إلى بمباى بالهند . ومن العجيب المؤسف المؤلم أن يكون « محمود سامى البارودى » من أعضاء الوزارة – (وزير الأوقاف) – التى قلبتْ ظهر المجنّ للسيد « جمال الدين الحسينى الأفغانى » ونفته من مصر بشر أساليب الغدر والخيانة ، والقسوة والفظاظة ، والتجنى والاختلاق ، زاعمة فى بلاغها الرسمى أنه « رئيس جمعية سرّية من الشبان ذوى الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا » . ومن كلام المؤرخ الكبير « عبد الرحمن الرافعى » : « أن موقف البارودى فى هذه الحادثة لايمكن تسويغه ، أو الدفاع عنه بأى حال » . وقد اعتمدنا – فى كتابة هذه الترجمة – على ماكتبه الرافعى عن الأفغانى .

يَا لَكَ مِنْ ذِى أَدَبٍ! أَطْلَعَتْ فِكْرَتُهُ ثَاقِبَةَ الأَنْجُمِ (١)

حَازَ مَدًى قَصَّرَ عَنْ شَأْوِهِ كُلُّ أَخِى سَابِقَةٍ مِرْجَمِ (٢)

فَهْوَ إِذَا قَالَ عَلَا ، أَوْ جَرَى بَرَّزَ ، أَوْ نَاضَلَ لَمْ يُحْجِمِ (٣)

ذُو فِكْرَةٍ فَاضَتْ بِمَا أُودِعَتْ مِنْ حِكْمَةٍ ، كَالْعَارِضِ الْمُثْجِمِ (٤)

---

(١) «يا لك» : أسلوب تعجّب . و «من» : بيانية . وثاقبة الأنجم : النجوم الثاقبة : أى المضيئة النيرة . والمناسبة واضحة قوية جميلة بين الإطلاع وثواقب النجوم .

يقول : إن الممدوح أديب ألمعى، ذهنه متوقد، وفكره ثاقب ، ينتج أدباً عالياً رائعاً، فائقاً مشرقاً، كالنجوم الثواقب . والتعجب فى أول البيت مبالغة محمودة فى هذا المديح .

(٢) المدى : الغاية، والأمد. ومثله الشأو . وقد يراد بالشأو : الهمة. ومن كلامهم : «فلان بعيد الشأو» : أى عالى الهمة . وأخو السابقة : السابق المتقدم . والسابقة : السبق فى الجرى وغيره . وله سابقة فى هذا الأمر : أى سبق الناس إليه . والمرجم من الرجال (بوزن المنبر) : القوىّ الشديد . والمرجم : السيد . ولسان مرجم : قوّال . والكلمات : «حاز» و «قصر» و«مرجم» محرفة فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا : فالأولى مرسومة بالذال المعجمة . والثانية كتبت بزيادة «ياء» بعد «الراء» . والثالثة كتبت «يرجم» . وقد أشرنا فى عدة مواضع من هذا الشرح إلى ما يعيب هذا الأصل من نقص وزيادة ، وخطأ وغموض ، وتحريف وتصحيف .

يقول : إن الممدوح بلغ فى الأدب، ونباهة الشأن ، وسمو التفكير غاية بعيدة ، ومرتبة رفيعة عجز عن بلوغها كل سيد همام قوىّ شديد ، متقدّم سباق . وهى مبالغة مقبولة فى مقام المديح والإطراء لرجل كان نسيج وحده ، وفريد زمانه ، و إمام عصره .

(٣) برز : سبق وتقدم ، وفاق . وناضله : باراه فى الرمى . ومن المجاز ناضل عن قومه : أى حامى عنهم ، ودافع . ولم يحجم : لم يتردد ، ولم ينكص : مضارع أحجم عن الأمر : أى تهيبه ، وخافه ؛ فرجع عنه ، ولم يقدم عليه . ويراد بنفى الإحجام إثبات الإقدام .

مدحه بالمقدرة الكلامية ، والسمو بقوله فى مراتب الفصاحة والبلاغة ، والإقناع والتأثير ، والتبريز على أنداده ونظرائه فى حلبة الأدب والبيان . وقال : إن غيره يعجز عن مباراته فى هذه الحلبة . وإنه قوى جرىء ، مقتدر ذو مراس فى المناضلات الفكرية والكلامية . وفى هذه المدحة إشارات ودلائل تكاد تقطع أن المقصود بها هو الأستاذ الإمام الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى أكبره البارودى ، وأفاد منه .

(٤) يراد بالفكرة : الذهن ، والعقل ، والفهم ، والفكر ، والفطنة ، وقوة الإدراك ، وصدق النظر ، وإحكام التدبير . و «من» : بيانية . والحكمة : قول يمتاز بإيجاز اللفظ ، وجلال المعنى ، وصدق التجربة ، وإصابة الغرض ، وجمال التصوير ، وإحكام التعبير ؛ ولهذا تحتلّ الحكم والأمثال أعلى مراتب البلاغة والبيان ، وإذا تخللت الأدب (شعره ، ونثره) أورثته رواجاً ، وأكسبته قبولا ، وارتاحت =

ذَاكَ فَتًى ، نَبْعَتُهُ لَمْ تَلِنْ لِعَاجِمٍ مِنْ خَوَرِ الْمَعْجَمِ(٥)
أَلْفَاظُهُ تَعْزَى إِلَى «يَعْرُب» وَفِكْرُهُ مُقْتَبَسٌ مِنْ «جَمِ»(٦)

= النفوس لها ، ونشطت لحفظها ؛ وتداولتها الألسنة والأقلام فى كل زمان ومكان . والعارض : السحاب يعترض فى الأفق بكثرة حتى يسده . ومثجم : ممطر ، غزير المطر : اسم فاعل من أثجمت السماء إثجاماً : أى أسرع مطرها ودام .

فى البيت الأول نوه الشاعر بفكرة الممدوح التى تطلع ثواقب الكواكب والنجوم . وفى هذا البيت تكرار لهذا المعنى ، غير أنه تخصيص بعد تعميم ، وتفصيل بعد إجمال ؛ ففكرة الممدوح هنا تفيض بالحكم البالغة فيضان العارض المثجم ، أى المطر الغزير . ووجه الشبه بين حكم الممدوح والعارض المثجم : الفيضان ، والغزارة ، والكثرة ، واتساع الإفادة ، وعموم النفع . وفى القصيدة تكرار ، وإلحاح على الفكر والفكرة ؛ لأن الممدوح مصلح دينى واجتماعى ، وفيلسوف عظيم ، أظهر خصائصه التفكير الصحيح العميق الشامل الواسع الذى لم يتقيد ببيئة أو وطن أو نطاق معين .

(٥) الفتى (فى الأصل) : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . والعرب تتوسع فى استعماله ، فتقول : هو فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . ومن معانى الفتى : السخى الكريم ذو النجدة . والممدوح هنا كهل أو شيخ . ونبعته : عوده . وهى فى الأصل : واحدة شجر النبع الذى ينبت فى قلل الجبال ، وتتخذ منه القسى والسهام . ومن كلامهم : « فلان صليب النبع » : إذا كان شديد الراس . وعاجم : اسم فاعل من عجم الشىء (من باب نصر) : أى عضه ، ليعلم صلابته من رخاوته . و« من » : تعليلية ، أى سببية . والخور : الضعف والانكسار . والمعجم (بوزن المذهب) : مكان العجم ، وموضعه .

مدحه بشدة البأس ، وقوة المراس ، وبرأه من كل معانى الضعف واللين ، والخور والانكسار . ولقد تعرض الممدوح فى حياته لكثير من البلاء والاختبار العنيف القاسى ، كالإبعاد والنفى والتشريد والاضطهاد . وحورب فى دعوته الإصلاحية الكبيرة ؛ فكانت نبعته أقوى وأشد ، وعوده أمتن وأصلب من البلايا والشدائد ، والرزايا والنكبات . واستطاع بقوة إرادته ، وصلابة عزيمته ، وصحة إيمانه ، وصدق يقينه أن ينشر مبادئه وآراءه ، ويؤسس مدرسته الشامخة الخالدة فى مصر وغيرها من بلاد العرب والإسلام . ومن تلاميذ هذه المدرسة محمود سامى البارودى .

(٦) ألفاظه : ألفاظ الممدوح وكلماته وعباراته . وتعزى : تنسب . و« يعرب » بن قحطان : أبو القبائل اليمنية ، وجد العرب العاربة ، وهم الذين جلوا عن سقى الفرات ، واختاروا اليمن منازل لهم ، وامتزجت لغتهم بلغة سابقيهم من قبائل العرب البائدة ؛ ثم انتشروا فى أنحاء الجزيرة العربية . ومن أمهات قبائلهم : كهلان ، وحمير . ويقال : إن «يعرب» أول من تكلم بالعربية ، وبه سمى العرب عرباً . ومقتبس : مأخوذ ، أو مستفاد . وفى القرآن الكريم : « انظرونا نقتبس من نوركم »(الآية رقم ١٣ من سورة الحديد) . و«جم» – فيما يبدو لنا – : ترخيم ، أو تسهيل ، أو اختزال لـ « جمشيد » : اسم =

لَمْ يَنْظِمِ الْحُوشِيَّ عُجْبًا بِهِ ۞ وَلَمْ يُسَمِّ الْوَرْدَ بِالْحَوْجَمِ (٧)

لَكِنَّهُ رَازَ الْحِجَا ، فَاكْتَفَى ۞ بِوَاضِحِ الْقَوْلِ عَنِ الْمُعْجَمِ (٨)

= أحد ملوك الفرس قبل الإسلام وكان يدعى أيضاً « جمشاد ». ومعنى « جم »: القمر ، أو الشمس . ومعنى « شيد » أو « شاد » : الشعاع ، أو الضياء . وهو أول من اتخذ النيروز أعظم أعياد الفرس . ومن سيرته أنه نظم شئون الملك تنظيما يدل على رجحان عقله، وثاقب فكره ، وسداد رأيه، ومحكم تدبيره . وقد بقيت بعده أنظمته إلى الفتح الإسلامى .

وصل الشاعر ممدوحه بأصلين راسخين شامخين عظيمين : أحدهما عربى ، ومنه لسانه الذليق الفصيح . والآخر فارسى ، ومنه فكره الثاقب المتوقد. وما أعظم أن يجمع مثل هذا الإمام المعلم المحدث ، الخطيب المحاضر ، الأديب الفيلسوف — ما تفرق من المزايا والمحامد فى أجناس الناس ، وشتى الأمم .

(٧) نظم الأشياء (من باب ضرب) : ألفها ، وجمعها ، وضم بعضها إلى بعض فى اتساق وتناسب وانتظام . وحوشى الكلام : وحشيه ،وغريبه ، وغامضه . وقد مثل الشاعر له فى الشطر الثانى بـ « الحوجم» وهو الورد الأحمر. واحدته : حوجمة . وعُجْباً به : إعجاباً به : أى ارتياحاً له ، وارتضاء ، وسروراً .

يقول: إن الممدوح فى نظمه وتأليفه ، ومشافهاته وكتاباته ، ودروسه ومحاضراته يتوخى على الدوام السهل العذب ، السائغ الرائق ، القريب المألوف ، المشرق الواضح من مفردات اللغة وتراكيبها . وليس من أولئك الذين يتكلفون الغريب الوحشى ، ويعجبون بالبعيد النافر ، فينحرفون عن منهج الفصاحة ، وحسن البيان . والبيت الآتى فى هذا المعنى .

(٨) رازه (من باب قال) : جربه ، واختبره، وقدره . ورازه : وزنه ؛ ليعرف قدره وثقله . وراز صنعته : قام عليها ،وأصلحها . ورازما عنده : طلبه ، وأراده . والحجا : العقل ، والفطنة . والمراد أنه راز الحجا فيما ينظمه ويؤلفه وينشئه ويتحدث به: أى اعتمد عليه فى الوزن والتقدير ، والنقد وحسن الاختيار . واكتفى بالشىء: استغنى به ، وقنع . وقد استعمله الشاعر استعمال مرادفه ؛ فإنه يقال: استغنى بكذا عن كذا . والمعجم: اسم مفعول من الإعجام : مصدر أعجم المتكلم كلامه : أى أبهمه ، وأخفاه ، وعقده، وذهب به إلى العجمة ، وتجافى عن الفصاحة والوضوح والبيان . والإعراب : ضد الإعجام .

عزز الشاعر بهذا البيت ما أشار إليه فى البيت السابق ، فالممدوح يعتمد — فى حديثه ، وفيما ينشئه من الأدب — على العقل والفطنة ، ويحسن الاختبار والاختيار ، ويحكم الذوق السليم ، والطبع المستقيم ، فلا يركب متن التعنى والتكلف ، ولا ينساق وراء الحوشى النافر ، والمعجم المستبهم ، بل يؤثر على الدوام اليسر والسهولة ، والإيضاح والإفصاح .

دَانَ لَهُ بِالْفَضْلِ عَنْ خِبْرَةٍ كُلُّ فَصِيحِ الْقَوْلِ ، أَوْ أَعْجَمِ[٩]
دَلَّ عَلَى مَعْدِنِهِ فَضْلُهُ دَلَالَةَ التِّبْرِ عَلَى الْمَنْجَمِ[١٠]

وَقَالَ :

يَدُلُّ عَلَى أَنْ لَيْسَ فِي الدَّهْرِ رَحْمَةٌ خِيَانَةُ «شِمْرٍ» بَعْدَ غَدْرِ «ابْنِ مُلْجَمٍ»[١]

(٩) دان له يدين (كباع يبيع) : انقاد له ؛ وأطاعه . ويراد به هنا : الإقرار والاعتراف . وفصيح القول : منطلق اللسان ، واضح الكلام ، رائق البيان . وقد يكون المراد به هنا : العربى . والأعجم ، والأعجمى ، والعجمى : خلاف العربى . والعجم : خلاف العرب .

فى البيت السادس من هذه المدحة وصل الشاعر هذا الممدوح الكريم بالعرب والعجم ، وعزاه إليهما ، فقال : إن ألفاظه عربية ، وأفكاره فارسية ، أو جمع فى أدبه وبيانه مزايا هاتين اللغتين العريقتين ، وهاتين الأمتين العظيمتين .

ولعله فى هذا البيت يكرر هذا المعنى بالإشارة إلى كفاية الممدوح وبراعته ، والتنويه بفضله وتفوقه فى اللغتين ، أو الأدبين العربى والفارسى ، حتى أقر له العرب والعجم بهذا الفضل ، واعترفوا بسبقه وتبريزه اعترافاً مؤسساً على الخبرة والتجربة ، والعلم والمعرفة .

(١٠) المعدن (بوزن المجلس) : مكان كل شىء فيه أصله ومركزه . ومعادن الجواهر من ذهب وفضة ونحوهما : منابتها : أى المواضع التى تستخرج منها . ويراد بمعدن الممدوح : فطرته ، وجبلته ، ومحتده ، وأصله . والتبر : الذهب قبل أن يسبك ويصاغ ويضرب ، أى فُتاته ، أو ترابه حينما يستخرج من المنجم قبل صياغته ، وصناعته . والمنجم (بوزن المذهب) : المكان الذى يوجد فيه الذهب ونحوه ، ويستخرج منه ؛ فالتبر فى مكان ما يدلنا على منجم من مناجم الذهب فى ذلك المكان .

ختم الشاعر هذه الأمدوحة القصيرة البليغة بهذا البيت مشيداً بمزايا الممدوح وفضائله ومحامده ، منوهاً بكرم معدنه ، وشرف أصله ، ومجادة محتده . والممدوح بين الناس نفيس عزيز ، رفيع القدر ، عظيم النفع ، يتنافس المتنافسون فى الإقبال عليه ، والتقرب إليه ، والإفادة منه ؛ كالذهب بين الجواهر والمعادن . وتمتاز هذه القصيدة بالصدق ، والبعد عن المغالاة التى يقوم عليها المديح فى الكثير الغالب .

* * *

(١) شمر (بكسر فسكون) . أو (بفتح فكسر) ، وسكنت الميم للتخفيف ، أو مراعاة لوزن الشعر ، وقد استأنسنا فى ضبط هذا الاسم بالقاموس . وشمر بن ذى الجوشن الضبابى : عىّ من رؤساء هوازن ، كانت إقامته بالكوفة ، وشارك فى قتل الحسين بن على رضى الله عنهما . فطلبه المختار الثقفى بدم المقتول ، فخرج من الكوفة ، فقتل فى خارجها سنة ٦٦ هـ (٦٨٦ م) .

وعبد الرحمن بن ملجم المرادى التدؤلى الحميرى : فاتك ثائر ، فارس شديد البأس . أدرك الجاهلية . وهاجر فى خلافة عمر . ثم شهد فتح مصر ، وسكنها . وكان من شيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه . وشهد معه حرب « صفين » . ثم خرج عليه ، وائتمر مع آخرين من أمثاله بعلى ، ومعاوية ، وعمرو =

هُمَا مَنْجمَا شَرٍّ ، وَصِنْوَا ضَلَالةٍ ۞ وكُلُّ امْرِئٍ فى الدَّهْرِ يُعْزَى لِمَنْجَمِ (٢)

شَقِيَّانِ ، هَامَا فِى الضَّلَالِ ؛ فَأَصْبَحَا ۞ دَرِيئَةَ لَعْنٍ مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ (٣)

= ابن العاص ليقتلوهم ، فقصد الكوفة ، وتربص بعلى ، فلما خرج من بيته لصلاة الفجر فى المسجد اغتاله ليلة السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠م) . وما لبث الحسن بن على أن قتله قصاصاً بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام .

اعتاد الناس وبخاصة الشعراء أن يضيفوا إلى الدهر الخير والشر ، والمسرة والمساءة . كما اعتادوا أن يجأروا بشكواه ؛ كأنهم يحملونه تبعات ما يصيبهم من الشدائد والنوازل . وتجريد الدهر هنا من الرحمة مبالغة فى تفظيع الجريمتين المشار إليهما فى هذه الأبيات . وقد يكون المراد بالدهر أهله ، أى الناس الذين يعيشون فيه . والتجريد يشمل القاتلين وأمثالهما من ذوى الغدر والخيانة ، وكل من اقترف الشر ، أو أعان عليه ، أو سكت عنه ، أو رضى به ، أو قصر فى دفعه ومكافحته ، ولم يحاول إنكاره وتغييره .

مات علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه مقتولاً بيد ابن ملجم. ثم مات ابنه الحسين رضى الله عنه مقتولاً بيد « شمر » ؛ ففظع الشاعر كل التفظيع هاتين الجريمتين ، وجرّد الزمان أو أهله من الخير والرحمة . وما بالك برجلين عظيمين من خيار المؤمنين . ومن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْتلان غيلة وغدراً ، وخيانة وظلما ؟!

(٢) منجم الشر : معدنه ، وأصله ، ومكان انبعاثه واندفاعه . والصنوان : مثنى الصنو (بكسر فسكون) : وهو الأخ الشقيق . والابن . والعم . والنظير ، والمثل . وإذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنتان صنوان ، والجمع صنوان . ويعزى : ينسب ، ويتصل ، وينتمى .

جعل هذين القاتلين الغادرين معدنى الشر والسوء ، والأذى والإجرام ، والظلم والعدوان ، والفساد والإفساد . وهما من الغواية أو الضلالة أخواها ، أو ابناها ، أو المماثلان لها ، أو النابتان من أصلها ، أو المتفرعان منها . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، معزز لمعنى الشطر الأول ؛ فكل امرئ فى هذه الحياة ينتمى إلى أصله ، وينتسب إلى معدنه ، ويتصل ببيئته ، ويجرى على خلقه وطبيعته ؛ فابن الهداية والخير مهتد خير . وابن الضلالة والشرّ ضالّ مضلّ ، غوىّ أثيم ، عتىّ شرّير .

(٣) هام (من باب باع) : خرج على وجهه فى الأرض ، لا يدرى أين يتوجه . وهام فى الأمر : تحير فيه ، واضطرب ، وتردد ، وذهب كل مذهب . ويراد بهيمانهما فى الضلال : الإمعان ، والتمادى . والدريئة : حلقة ، أو دائرة يتعلم عليها الطعن والرمى . واللعن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط . ولعنه الله (من باب منع) : طرده من رحمته ، وأبعده عن الخير . وفى القرآن الكريم : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار » (الآية رقم ٥٢ من سورة غافر) . وأصبحا دريئة لعن : أى صارا هدفاً تتوالى عليه لعنات اللاعنين . وفصيح : منطلق اللسان بكلام صحيح واضح (وفعله من باب ظرف) . والأعجم : خلاف الفصيح . ويراد بالفصيح والأعجم : العربى والعجمى : أى الناس جميعاً .

غلبت على هذين الشقيين شقوتهما ، وأمعنا فى الغواية ، وهاما فى الضلال ؛ فارتكبا جريمتيهما ؛ فتتابعت عليهما لعنات اللاعنين من العرب والعجم والناس أجمعين .

لَقَدْ فَوَّقَا سَهْمَيْهِمَا ، وَتَطَاوَلَا   إِلَى فَلَكٍ عَالٍ مُحَاطٍ بِأَنْجُمِ (٤)
لَعَمْرِى ، لَقَدْ بَاءَا بِخِزْىٍ وَلَعْنَةٍ   وَمَنْ يَحْتَقِبْ خِزْيًا مِنَ اللهِ يُرْجَمِ (٥)

(٤) فوق السهم تفويقاً : جعل الوتر فى فوقه عند الرمى . والفوق : مشق رأس السهم حيث يثبت الوتر . والسهم : عود من خشب يسوى ، ويركب فى طرفه نصل من حديد صاب حاد قاطع جارح ، يرمى به عن القوس ، وكان من أدوات الصيد والقتال . ويراد بتفويق السهمين : إعدادهما للرمى والإصابة والقتل . وتطاول إلى الشيء: مد عنقه ليراه ، أو يطلع عليه . وتطاول : تمدد قائماً لينظر إلى بعيد . والفلك : مدار النجم : أى الفضاء الذى يدور فيه . ويراد بالفلك العالى: كل واحد من القتيلين الشهيدين العظيمين . ويراد بالأنجم: أنصاره النابهون اللامعون . وأحاط القوم بالبلد : أحدقوا به ، واستداروا حوله . وعلى هذا يقال : فلك محيط بأنجم ؛ فهو يحدق بها ، وهى تدور فى إطاره ، وتجرى فى نطاقه . وإذا فسرت الإحاطة بالحفظ استقام التركيب؛ فالفلك محاط بالنجوم ، وهى التى تحوطه ، وتحفظه ، وهى له مانعة واقية . وقد يراد بالفلك: النجم . وعلى هذا يقال: إن القتيل الشهيد كان نجماً عالياً تحيط به نجوم من شيعته وأنصاره . ويمكن أن يقال: إن ذلك الفلك العالى تحيط به أفلاك أخرى بكواكبها ونجومها .

فى البيت تعظيم وتمجيد ، وتحسر شديد على هذين الشهيدين العظيمين ؛ إذ كان كل منهما رفيع المنزلة، عظيم الشأن ، هادياً إلى الخير ، تحيط به نجوم لامعة من شيعته وأنصاره . وكان من دواعى الأسف الشديد أن يتطاول إليهما ، ويعتدى عليهما هذان الشقيان الهائمان فى الغواية، الممعنان فى الضلالة ، الملعونان بكل لسان .

(٥) لعمرى : أسلوب قسم : أى أحلف بحياتى . وباء : عاد ، ورجع . والخزى : الذل والهوان ، والفضيحة والعار ، والسوء والانكسار . واحتقب الإثم : ارتكبه واكتسبه . واحتقب الشر والخطيئة : حملهما . ويراد بالخزى فى الشطر الثانى : سبب الخزى: وهو الإثم ، والخطيئة ، والظلم والبغى ، والعدوان والطغيان . ورجمه (من باب قتل) : رماه بالرجم : أى الحجارة . ومن يحتقب خزياً يرجم من الله : أى ومن يقترف خطيئة يلعنه الله ، أو يستحق عذاب الله وانتقامه . وشر الخطايا والجرائم قتل النفس التى حرّم الله قتلها إلا بالحق . وفى القرآن الكريم: « من قتل نفساً بغير نفس ، أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (الآية رقم ٣٢ من سورة المائدة) . وفيه « ومن يقتل مؤمناً متعمداً ، فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعدّ له عذاباً عظيماً » (الآية رقم ٩٣ من سورة النساء) . والشطر الثانى تذييل يجرى مجرى الحكم والأمثال ، ويؤكد معنى الشطر الأول .

ارتكب هذان الشقيان جريمتهما الكبرى بقتل اثنين من خيار الصحابة، وأعلام المسلمين ، وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فباءا بالذل والهوان ، والخزى والعار ، والضعة والانكسار . واستحقا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وقد أكد الشاعر هذا المعنى بالقسم الذى صدّر به البيت ، كما أكده بالشطر الثانى – وهو تذييل جار مجرى المثل – فإن المجرم الباغى ، الظالم الشرّير جدير بسخط الله وعذابه ، ولعنته ونقمته ، وعقابه وانتقامه .

وَقَالَ :

وَمَا مِصْرُ عُمْرَ الدَّهْرِ إِلَّا غَنِيمَةٌ ... لِمَنْ حَلَّ مَغْنَاهَا ، وَنَهْبٌ مُقَسَّمُ(١)

تَدَاوَلَهَا الْمُلَّاكُ مِنْ كُلِّ أُمَّـةٍ ... وَنَالَ بِهَا حَظًّا فَصِيحٌ وَأَعْجَمُ(٢)

فَما أَهْلُهَا إِلَّا عَبِيدٌ لِمَنْ سَطَا ... وَلَا رَيْعُهَا إِلَّا لِمَنْ شَاءَ مَغْنَمُ(٣)

---

(١) عمر الدهر : مدى الدهر : أى طوال الزمان . أو فى كل الأزمنة والعصور ، وفى كل مراحل التاريخ وأطواره. والغنيمة : ما يأخذه المحاربون من مال أعدائهم وعتادهم عنوة وقهراً . والمكسب عموماً . وما يفوز به الغانم بلا بدل ، وينالُه بلا تعب . والمراد : أن أموال مصر وكنوزها وغلاتها وخيراتها ميسَّرة للأجانب الوافدين عليها من شتّى البلاد والأقطار ، ومختلف الأمم والأجناس، يتملكونها على الرغم من أهلها الذين يعيشون فى بلادهم غرباء أذلاء، يكابدون شظف العيش ، ويتجرعون مرارة الحرمان. والمغنى : المنزل الذى غَنِىَ به أهله : أى أقاموا فيه ، واستقرّ بهم المقام ، أو طال . والنهب : الغنيمة ، والمال المنهوب ، أى المأخوذ من أصحابه عَنْـوة وقهراً وقسراً .

والمعنى : لم تكن مصر طوال حياتها إلا غنيمة باردة ، ومالا منهوباً يقتسمه الأجانب الذين يفدون عليها ، ويستقرون بها ، ويتحكمون فى مواردها وغلاتها ، على حين أن معظم أهلها يعيشون عيشة الشظف والضنك ، والهوان والحرمان . والبيتان الآتيان يؤكدان هذا المعنى ويفصّلانه .

(٢) تداولت الأيدى الشىء : أخذته هذه مرة ، وهذه مرة . ويقال : تداولت أقدام اللاعبين الكرة . والحظ : الحصة والنصيب. والحظ أيضاً : الجدّ والبخت . وفصيح : منطلق اللسان بكلام فصيح سليم ، وبيان واضح قويم . والأعجم : خلاف الفصيح : وهو من فى لسانه عجمة: أى لكنة . ويراد بالفصيح والأعجم : العَرَب والعَجَم: أى من يتكلمون بالعربية، ومن يتكلمون بغيرها من اللغات. أو المراد مختلف الشعوب والأمم ، وشتّى الأجناس والألوان . وهو تأكيد لمعنى « من كل أمة » .

فى البيت السابق قال : إن مصر كانت ومازالت على مدى الأزمنة والعصور مغنماً بارداً ، ونهباً مقسما بين الأجانب الذين يقصدونها من كل أقطار الأرض، وأجناس الناس . وفى هذا البيت توضيح وتفصيل وتأكيد لهذا المعنى ؛ فقد تملكها ، وقهرها ، وسيطر عليها ، واستبد بها ، وتحكم فى مواردها وأمورها ملاك ، وملوك ، ومماليك وحكام من شتّى الأمم والشعوب ، ومختلف الألوان واللغات . ونال كل منهم حظاً موفوراً من أموالها وكنوزها ، وغلاتها وخيراتها .

(٣) سطا عليه . وسطا به (من باب عدا) : قهره ، وأذله بشدة البطش . وسطا اللص على المتاع : انتهبه بقهر وبطش شديد . وريع كل شىء : فضله ، وزيادته على الأصل ، وربحه ، وغلته ، وثمرته ومنفعته . وهى فى الأصل المخطوط « ربع » بالباء . ومغنم (بوزن مذهب) : غنيمة .

هذه ثلاثة أبيات فى معنى أن مصر طوال عمرها مغلوبة على أمرها، مسلوبة الإرادة والحرية ، =

عِدَادُكَ فِي سِلْكِ الْبَرِيَّةِ خِــزْيَةٌ   وَدَعْوَاكَ حَقَّ الْمُلْكِ أَدْهَى وَأَعْظَمُ (٤)

لَقَدْ هَانَتِ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ عِنْدَمَا   رَأَوْكَ بِهَا فِي مُلْكِ «يُوسُفَ» تَحْكُمُ (٥)

= متداولة بين حكام من غير أهلها، يستبدون بها ، ويسومونها الخسف والمذلة، والهوان والخسران . وهى إلى هذا مرتع خصيب للوافدين عليها من كل جنس ولون ، وسحنة وملة ، يستعبدون أهلها ، وينهبون غلاتها وخيراتها . وقد جعلها الشاعر مقدمة وتمهيداً للأبيات الآتية فى هجاء حاكم أجنبى ، يظن أنه الخديو « توفيق » الذى نكب مصر بذل الاحتلال العسكرى الإنجليزى ، وأضراره ، وعاره وشناره .

(٤) فلان عداده فى بنى فلان: أى يعد منهم ، وينسب إليهم . والسلك : الخيط الذى يخاط به . والذى ينظم فيه الخرز ونحوه . والبرية : الخلق ، والناس . ويراد بسلك البرية : المجتمع الإنسانى . أو جماعة البشر . والخزية (بفتح فسكون ، أو بكسر فسكون) : الشر ، والبلية ، والخصلة يستحيا منها .

ومعنى الشطر الأول : أن انتماء المهجو إلى بنى البشر ، وانتسابه إلى المجتمع الإنسانى يعره ، ويسوءه ، ويشينه ويعيبه ، ويؤذيه ويخزيه . ودعواك : ادعاؤك : اسم من ادعى الشيء: أى زعم أنه له حقاً ، أو باطلا . ويراد بالملك : ملك مصر . وأدهى : المراد أفظع وأشنع وأقبح من انتسابك إلى جماعة الناس . دهاه الأمر يدهاه : إذا نزل به . ودهته داهية : أصابته : وهى الأمر المنكر ، والنائبة الشديدة . ودهاه : أصابه بداهية . ودهاه : عابه وتنقصه . وأعظم : أى أعظم قبحاً ، وأشد نكراً .

فى ثلاثة الأبيات السابقة مهد الشاعر للهجاء . وفى هذا البيت قال للمهجو: إن انتسابك إلى بنى البشر يعرهم ويخزيهم ، ويشينهم ويؤذيهم. ودعواك أن ملك مصر حق ثابت لك أدهى من هذا الانتساب، وأشد نكراً: بمعنى أنه لا يستحق الملك ، ولا يجوز عده من بنى آدم .

(٥) « يوسف » بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. اشتد عطف أبيه عليه بعد موت أمه « راحيل » ؛ فأحنق هذا العطف إخوته لأبيه، وأضمروا الكيد له ، فألقوه فى غيابة الجب، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله . ومر بالجب بعض السيارة ، فالتقطوه ، وحملوه إلى مصر ، وباعوه صغيراً لعزيزها ، فنشأ فى بيته ، وترعرع . وفى مصر آتاه الله الحكم والنبوة، وجمع شمله بأبيه وإخوته وأهله . وفى القرآن الكريم أحسن القصص ، ومنه سورة يوسف ، وفيها قصته وأطوار حياته إلى أن صار عزيز مصر ، المدبر لأمورها ، المتصرف فى شئونها ، القائم على خزائنها ، المكين الأمين ، والنبى الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فجمع الناس على توحيد الله تعالى وعبادته ، وأذاقهم حلاوة الأمن والعدل ، والرفاهة والرخاء، وأظلهم بحكم عبقرى مثالى ، زاهر صالح .

والمعنى : تداول مصر فى قديم الزمان وحديثه حاكمان مختلفان كل الاختلاف ، وحكمان على طرفى نقيض : حكم المهجو القائم على الظلم والإفساد ، وحكم يوسف الصديق القائم على العدل والإحسان. ولما رأى الناس المهجو يعيث حيث أصلح يوسف، هانت عليهم الدنيا ، وسقط اعتبارها عندهم ، ورأوا الحياة ذليلة مهينة ، حقيرة وضيعة. والغرض تصوير سخط المصريين على المهجو، واستخفافهم بالدنيا ، واحتقارهم للحياة فى عهده ، وبيان شيء من المفارقات والمتناقضات التى شهدتها مصر فى ماضيها وحاضرها .

فَإِنْ تَكُ أَوْلَتْكَ الْمَقَادِيرُ حُكْمَهَا ... فَقَدْ حَازَهَا مِنْ قَبْلُ عَبْدٌ مُزَنَّمُ (٦)

وَشَتَّانَ عَبْدٌ بِالْمَحَجَّـةِ نَاطِقٌ ... وَحُرٌّ إِذَا نَاقَشْتَـهُ الْقَوْلَ أَغْتَمُ (٧)

فَهَذَا أَذَلَّ الْمُلْكَ وَهْوَ مُعَـزَّزٌ ... وَذَاكَ أَعَزَّ الْمُلْكَ وَهْوَ مُهَضَّمُ (٨)

---

(٦) المقادير : جمع المقدار . ويراد بها قدر الله تعالى وقضاؤه وحكمه . أو اختلاف الأيام والأحوال ، وانقلاب الدولة والزمان . وحازها : حاز مصر : أى استولى عليها وحكمها . والعبد : الرقيق المملوك لغيره . ومزنم : دعىّ ، معلّق بمن ليس منه ، أو بغير قومه . ويراد بالعبد المزنم: «كافور» ابن عبد الله الإخشيدىّ (٢٩٢ – ٣٥٧ ﻫ) (٩٠٥ – ٩٦٨م) : وهو عبد حبشىّ ، اشتراه محمد ابن طغج الإخشيد ملك مصر سنة ٣١٢ﻫ ؛ فنسب إليه ، وما لبث أن أعتقه ، وكان عجباً فى الفطنة والدهاء والشجاعة والكياسة وحسن السياسة . وبهذه المزايا ترق فى حاشية مليكه وسيده ، ومازالت همته تصعد به حتى تولى الملك سنة ٣٥٥ ﻫ واستقامت له الأمور سنتين وأربعة أشهر إلى أن توفى بالقاهرة سنة ٣٥٧ ﻫ (٩٦٨م) . ولأبى الطيب المتنبى عدة قصائد فى مدحه ، ثم هجائه .

فى ثلاثة الأبيات الأولى أن مصر لبثت طوال عمرها مغلوبة على أمرها ، يتداولها حكام من غير أهلها ، وينهب غلاتها الأفاقون من كل صَوْب وحدب . وفى هذا البيت : أنه إذا كانت الأقدار قد أولت المهجو حكم مصر وهو أجنبى عنها ، فقد تولاّها من قبل كافور الإخشيدىّ وهو عبد مُزَنَّم حبشى ، أى ما زالت هذه البلاد يتداولها حكام أجانب من كل جنس ولون ؛ فهى مطية ذلول لكل راكب ، وعرض قريب لكل طالب . وفى الإشارة إلى كافور تحقير للمهجو ، واستخفاف به ، وحطّ من قدره . وفى البيتين الآتيين ممايزة بينهما ضاعفت التحقير والتشهير ، وجعلتهما على طرفى نقيض ؛ ففى كافور محامد ومناقب ، وفى المهجو مناقص ومثالب يأتى بيانها .

(٧) شتان : اسم فعل ماض: بمعنى افترق. وشتان عبد وحرّ : أى افترقا ، وبَعُد ما بينهما . والمحجة : جادّة الطريق : أى وسطه ومعظمه . أو الطريق المستقيم الواضح النير . وناطق بالمحجة : أى نطقه فصيح صحيح ، وكلامه واضح مستقيم ، يبلغ به مراده . وناقشته القول : حاورته ، وجادلته وكالمته . وأغتم : عيى غير فصيح : فيه غتمة : وهى العُجْمة واللكْنة .

يقول : اشتد التفاوت بين كافور والمهجو : فالأول واضح المنطق ، مستقيم التعبير ، مفصح عن مراده . والآخر أغتم ألكن ثقيل اللسان ، عَيِىّ بالبيان ، عاجز عن الجدل والحوار . وإذا كانت الغتمة من العيوب التى تحط من شأن الأغتم ، وتنقص قدره ، فهى فيمن يتصدون للملك ، والحكم والرياسة عيب فظيع شنيع فاضح .

(٨) هذا : إشارة إلى المهجو. وذاك : إشارة إلى كافور . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملتان الاسميتان بعدها حاليتان . ومهضّم : ضعيف محطم .

يقول : إن المهجو تولى أمر مصر وهى عزيزة قوية ، فأذل مُلْكها وأضعفه بضعف إدارته ، وفساد =

فَمَنْ شَكَّ فِى حُكْمِ الْقَضَاءِ، فَهَذِهِ جَلِيَّةُ مَا شَاءَ الْقَضَاءُ الْمُحَتَّمُ(٩)

=سياسته ، واستخذائه للأجانب الذين تدخلوا فى شئونه، وسيطروا عليه . وكافور على النقيض من هذا ؛ إذ تولى الملك وهو ضعيف متداع ، فقوّاه وأعزّه بكياسته وحسن سياسته وعالى همته وكفايته؛ وبهذه الممايزة فى هذا البيت والذى قبله رفع الشاعر كافوراً إلى القمة ، وخفض المهجو إلى الحضيض ، مع تساويهما فى أنهما من الحكام الأجانب الذين تداولوا مصر عمر الدهر من كل أمة وملة ، ومن كل جنس ولون .

تداولها الملاّك من كل أمـــة ونال بها حظًّا فصيح وأعجم

(٩) يراد بالقضاء : قضاء الله تبارك وتعالى وقدره : أى ما قضى به وحكم ، وما قدره فى الأزل على العباد والبلاد . وهذه : إشارة إلى قصة مصر التى أجملها الشاعر فى ثلاثة الأبيات الأولى . والجلية : الخبر اليقين . وجلية الأمر : حقيقته و « ما شاء القضاء » : أى مشيئة الله عز وجل وإرادته ، وما قضى به ، وحكم . وحتّم الأمر (من باب ضرب) : أوجبه . أو أحكمه . وحتّم به : قضى به وحكم ، فهو محتوم . هذا ما نعرفه . ويبدو أن التضعيف توسع أريد به التكثير والمبالغة .

والمعنى – فيما يبدو لنا – : أن أمور الحياة والناس تجرى كلها بقضاء الله تعالى وقدره ، وحكمه المحتوم الذى لا بد منه ، ولا محيص عنه ، ولا مفر من لقائه ، ولا حيلة للناس فى اتقائه . ومن ساوره الارتياب فى هذا وجد فى مصر ما يمحو شكه وارتيابه ؛ فأهلها مغلوبون على أمرهم من قديم الزمان ، محكوم عليهم بالمذلة والهوان . وكنوز بلادهم وخيراتها نهب مقسم للأجانب الوافدين عليها من كل حدب وصوب . أما حكمها فسخرية المساخر ، ومهزلة المهازل ؛ يتولاه أشتات من البيض والسود ، والترك والعجم ، وشتى الأجناس والأمم . وإن صحّ أن هذه فكرة الشاعر، وهذا مراده من البيت، رجونا ألا يكون فيه اعتذار ، أو شبهُ اعتذار عن الذين رضوا بالذل ، وأقاموا على الضيم ؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يرضى لعباده الضعف والانكسار . ولا ريب أن محافظة المرء على عزته وكرامته ، ووطنه وحريته ، وعرضه وماله واجب يفرضه العقل ، ويحتمه الدين . وعليه أن يكافح البغى والعدوان ، ويقاوم الفساد والطغيان بكل ما فى طاقته من الوسائل ، مؤمناً أن الموت خير وأكرم من حياة المذلة والهوان . وعليه أن يهاجر إذا لم يجد عن الهجرة محيصاً . قال تعالى فى القرآن الكريم : «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً » (الآية رقم ٩٧ من سورة النساء) .

تعليق

استحكمت الأزمة السياسية بين الخديو « توفيق » ووزارة « محمود سامى البارودى » التى أنكرت على الدولتين الإنجليزية والفرنسية تدخلهما فى شئون مصر ، كما أنكرت على « توفيق » ضعفه وتخاذله ، واحتجت على قبوله الإنذار الإنجليزى الفرنسى ، واستقالت فى السادس والعشرين من مايو سنة ١٨٨٢ وما لبثت الحرب الإنجليزية العرابية أن توقدت بعد هذه الاستقالة بنحو ستة أسابيع ؛ إذ أطلق الأسطول الإنجليزى قذائفه على حصون الإسكندرية صباح الثلاثاء ٢٢ من شعبان سنة ١٢٩٩هـ (١١من =

وَقَالَ :

رُدِّى الْكَرَى لِأَرَاكِ فِى أَحْلَامِهِ ... إِنْ كَانَ وَعْدُكِ لَا يَفِى بِذِمَــامِهِ[1]

أَوْ فَابْعَثِى قَلْبِى إِلَىَّ ؛ فَإِنَّهُ ... جَارَى هَوَاكِ ، فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ[2]

قَدْ كَانَ خَلَّفَنِى لِمَوْعِدِ سَاعَةٍ ... مِنْ يَوْمِهِ ، فَقَضَى مَسِيرَةَ عَامِهِ[3]

= يولية سنة ١٨٨٢م) ويبدو أن هذه القصيدة فى هجاء «توفيق بن إسماعيل» نظمها البارودى عقب استقالته من رياسة الوزارة ، أو حينما ضرب الأسطول الإنجليزى ميناء الإسكندرية ، أو قبيل ذلك العدوان الغادر الأثيم ، أو لما بدرت بوادر النكسة والهزيمة ، أو لما اشتدّ سخط العرابيين على « توفيق » وفكروا فى خلعه. ومن العجيب أنك لا ترى فى شعر البارودى هجاء مباشراً صريحاً للإنجليز ؛ وهم أسّ الشرّ والغدر ، والكيد والدهاء ، والكرب والبلاء ، والعدوان والطغيان .

* * *

(١) الكرى : النوم . والذمام : العهد والحق . وفى الأصل المخطوط : « بزمامه » بالزاى . وهو من تحريف الناسخ .

يقول : إن العشق سلبه نومه ، وأورثه الأرق والسهاد . ومعشوقته تعد بالوصال ، ولا تكاد تفى بذمة الوعد ، أى بحقه وحرمته . وقد عزّ لقاؤها ، واستعصتْ عليه رؤيتها فى اليقظة ؛ فطلب إليها أن تردّ إليه أمنة النعاس ، وراحة النوم ، ليراها فى منامه وأحلامه . ولا ريب أن الحلم أو الرؤيا المنامية تخفف ما يؤرقه ويضنيه من حرق الوجد والصبابة ، ولواعج الشوق والغرام .

(٢) جارى هواك : جرى مع الحب ، وسايره ، وتبعه ، وانقاد له ، ووقع فى أسره . والزمام : المقود . وقاده بزمامه : أى قاد هواك قلبى بزمام القلب ؛ فالهوى قائد . والقلب مقود . والزمام حبل المقادة وأداتها .

استهوتْه هذه الحسناء التى يشبب بها ، وسيطرت عليه ، وسلبتْه عقله ، وأورثتْه الأرق والسهاد ، وحرمته أمنة النعاس ، وماطلته بحقه فى القرب والوصال ؛ فخيرها فى هذا البيت والذى قبله بين ثلاثة : أن تفى له بوعدها ، ليسعد بقربها . أو ترد إليه النوم ، ليراها فى الأحلام . أو تعيد إليه فؤاده ، وتفك إساره ، ليحيا حياة الدعة والاستقرار . وفى ستة الأبيات الآتية حديث شائق عن قلبه الذى تعلق بهذه الحسناء ، وانقاد للهوى ، ووقع فى أسره .

(٣) خلفنى : تركنى ، وفارقنى . وقضى : مضى وذهب . ومسيرة : سير . والمراد أن غيبته طالت وانقطعت . أو هى « قصا » (من بابى عدا ، وسما) . يقال : قصا عنى : أى بعد عنى ، ونأى .

يقول : إن قلبه فارقه على أن يعود إليه بعد ساعة واحدة ، فما لبث أن وقع فى شرك الهوى ، وإسار الغرام ، فطالتْ غيبته وانقطعتْ ، وبعدت الشقة بينهما ، وتعسرت العودة .

لَمْ أدْرِ : هَلْ ثَابَتْ إلَيْهِ أَنَاتُهُ ۞ أَمْ لَمْ يَزَلْ فِي غَيِّهِ وَهُيَامِهِ[٤]

عَهْدِي بِهِ صَعْبُ الْقِيَادِ . فَمَا لَهُ ۞ أَلْقَى يَدًا لِلسِّلْمِ بَعْدَ غَرَامِهِ[٥]

خَدَعَتْهُ سَاحِرَةُ الْعُيُونِ بِنَظْرَةٍ ۞ مِنْهَا ؛ فَمَلَّكَهَا عِذَارَ لِجَامِهِ[٦]

---

(٤) ثابت : رجعت وعادت (و بابه قال) . والأناة : الحلم والوقار ، والتؤدة ، والرزانة . والغيّ : الإمعان فى الضلال ، والتمادى فى الباطل . والهيام : جنون العشق . والاستفهام فى أول البيت : من تجاهل العارف . والغرض منه إظهار التحسر والتلهّف ؛ فالشاعر يعلم أن قلبه مازال سادراً فى غيه وهيامه ، وأن أناته لم تعد إليه . و« أم » فى الشطر الثانى منقطعة بمعنى « بل » وتفيد الإضراب .

فى البيت السابق قال : إن قلبه فارقه مسّهاماً بتلك الحسناء ، فطال غيابه عنه ، وانقطعت صلته به. وفى هذا البيت سأل فى تجاهل ولهفة وحسرة : هل عادت إليه أناته ، فأقلع عن غوايته ، وأصبحت عودته مرجوّة ؟ ولكنه ما لبث أن أضرب عن هذا السؤال ، وقرر فى يأس وأسى أن قلبه ما زال سادراً فى غرامه وهيامه .

(٥) العهد هنا : العلم والمعرفة . و« عهدى به صعب القياد » : أى عرفت قلبى لا ينقاد ، ولا ينطاع . والاستفهام : معناه التعجّب ؛ فهو يتعجّب من انقياده ، وقد عرفه من قبل أبياً قوياً عصياً ، لايلين ، ولا يستكين . وقد يكون للإنكار ؛ فهو ينكر على قلبه هذا الانقياد ، و يعيبه ، و ينهاه عنه . ومن معانى اليد : الطاعة والاستسلام . والسلم : المسالمة والصلح . وألقى يده إلى السلم : أى خضع وتطامن ، واستكان .

يقول : إنه عرف قلبه قو ياً أبياً ، مترفعاً عصياً ، لا يلين ، ولا يستكين ، ولا يتطامن ، ولا ينقاد ؛ فلما أغرم بهذه الحسناء ذهب الغرام بإبائه وكبريائه ، وفرض عليه الخضوع والتطامن ، والانقياد والاستسلام ؛ فكان هذا مثار العجب والدهش ، أو الإنكار والاستهجان .

(٦) يقولون : عين ساحرة ، وعيون سواحر : يشيرون بالسحر إلى ما فيها من جاذبية واستمالة وتأثير شديد ، وحسن فائق ، وجمال باهر . واللجام : ما يجعل فى فم الفرس ونحوه من الحديد والحكمتين ، ليمنعه من مخالفة راكبه . والعذار : ما سال من اللجام على خدّ الفرس ، وهو السير ، أو العنان . وملكها عذار لجامه : كناية عن أنه جعلها مالكة لأمره ، مسيطرة عليه ، متحكّمة فيه .

يقول : إن معشوقته خدعتْ قلبه بنظرة من عينيها الساحرتين ؛ فوقع فى غرامها ، وانقاد لها ، وسار فى ركابها . وهو تكرار لمعنى الشطر الثانى من البيت السابق ، أى أغرم بها فانقاد لها . والزيادة هنا : هي التنويه بعيونها الساحرة ، ونظراتها الفاتنة .

يَا ، هَلْ يَعُودُ إِلَى الْجَوَانِحِ بَعْدَمَا سَلَبَتْ فَتَاةُ الْحَيِّ ثِنْيَ لِجَامِهِ ؟ (٧)
تَاللهِ ، لَوْ مَلَكَتْ يَدَاىَ جِمَاحَهُ لَعَقَدْتُ قَائِمَ رَسْنِهِ بِخِدَامِهِ (٨)
يَا لَائِمَ الْمُشْتَاقِ فِى أَطْرَابِهِ مَهْلًا ، إِلَيْكَ ؛ فَلَسْتَ مِنْ لُوَّامِهِ (٩)

---

(٧) « يا » : حرف تنبيه . أو حرف نداء ، والمنادى محذوف . والاستفهام للتمنى . والجوانح أضلاع الصدر . أو هى الضلوع تحت الترائب ، مما يلى الصدر . واحدتها جانحة . ويراد بالجوانح : مستودع القلب ، ومستقره فى صدره . والثنى (بكسر فسكون) : واحد الأثناء . وأثناء الشىء : تضاعيفه . وأثناء الحبل : طاقاته وقواه . ويراد بثنى اللجام : عنانه ، أو سيره أو حبله . وفى الأصل المخطوط : « مثنى لجامه » . ويلاحظ أن كلمة « لجام » جاءت فى البيت السابق ، وأعيدت فى هذا البيت ، وهذا عيب من عيوب القافية اسمه «الإيطاء» . والشطر الثانى من هذا البيت : كناية عن أن هذه الحسناء استهوت قلبه ، وسلبت لبه ، وسيطرت عليه ، وتحكّمت فيه . ويلاحظ أن الشاعر كرر هذا المعنى فى أكثر الأبيات السابقة .

فى صدر البيت تنبيه ، أو نداء لكل من يستمع له ، ويعينه على أمره . ثم استفهام تمنى به عودة قلبه إليه . أو استبعد هذه العودة ، واستيئس منها بعد أن سيطرت هذه الحسناء عليه ، وتمكّنتْ منه ، وتملّكتْ زمامه وقياده .

(٨) جمح الفرس ونحوه (من باب خضع) جماحاً وجموحاً : عتا عن أمر صاحبه ، وعزّه ، واستعصى عليه ، وغلبه . أو تغلّب على راكبه ، وذهب به لا ينثنى . أو عار : أى انفلت ، فركب رأسه ، ولم يثنه شىء . وملكت يداى جماحه : أى استطعت السيطرة عليه . والرسن (بوزن سبب ، والتسكين هنا لضرورة الوزن) : ما كان من الأزمة على أنف الدابة . والحبل الذى يقاد به البعير ونحوه . وقد جاءت فى الأصل المخطوط « رسفه » بالفاء . وقائم الرسن : طرفه الذى يمسك به من يقود الدابة . والخدام : جمع خدمة (بوزن قصبة) ؛ وهى الساق . والقيد . وسير غليظ محكم كالحلقة ، يشد فى رسغ البعير ونحوه . وعقد قائم الرسن بخدام البعير ونحوه : كناية عن إحكام تقييده ، ومنعه من الجموح والإفلات ؛ فإن الرسن أو المقود يربط أنفه بساقه ، أو بالقيد الذى فى رجله ، أو بالحلقة المشدودة فى رسغه . وهذه عدة قيود وموانع تمكن منه ، وتشدد عليه ، وترده إلى الطاعة والانقياد .

يقول : لو ملكت السيطرة على قلبى لرددته عن الهيام بهذه الفتاة .

(٩) يراد بالمشتاق : العاشق الصب . و«فى» : تعليلية : أى سببية . والأطراب : جمع الطرب : ويراد به : لوعة الشوق وحرارته . وطرب (من باب فرح) : خف ، واهتز ، واضطرب فرحاً ، أوحزناً ، أو ارتياحاً . أو هى الإطراب : مصدر أطربه : أى أثار فيه الطرب . وإليك عنى : اسم فعل أمر : بمعنى ابتعد عنى ، وتنح . ولست من لوامه : أى أنك لم تجرب العشق والشوق ، ولم تحترق بنارهما ؛ فلا يحق لك أن تلوم العاشق المشتاق. =

أَظَنَنْتَ لَوْعَتَــهُ فُكَاهَــةَ مَازِحٍ فَطَفِقْتَ تَعْذِلُهُ عَلَى تَهْيَامِهِ ؟ (١٠)
إِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ شَجْوَهُ ، فَانْظُرْ إِلَى أَنْفَاسِهِ ، وَدُمُــوعِهِ ، وَسَقَامِهِ (١١)
صبٌّ ، بَرتْهُ يدُ الضَّنى ، حَتَّى اختَفَى عَنْ أَعْيُنِ الْعُوَّادِ غَيْرَ كَلَامِهِ (١٢)

= هزّه الطرب والاشتياق إلى من يحبها ؛ فلامه لائمه ، فناداه طالبٌ إليه الرفق به ، والابتعاد عنه ، والإشفاق عليه بالإقلاع عن عذله ؛ فإنه لم يجرب شيئاً مما يقاسيه ذوو الصبابة والغرام . ولو جرب ، لرفق وشارك ، وأشفق ، وعذر . وقد انتقل الشاعر فى هذا البيت وخمسة الأبيات بعده من حديثه عن قلبه إلى التحدث عن الشوق والطرب ، واللوعة والصبابة ، وما يضانيه العشاق التيّمون من ملابسات العشق وآثاره وأوصابه .

(١٠) اللوعة : حرقة الهوى والوجد والشوق والحزن ونحوه . وطفق يفعل كذا (كفرح ، وضرب) : أى جعل ، أو استمرّ ، وواصل الفعل . وهو خاص بالإثبات . وهام بها تَهياماً : شغفتْه حباً .

لم يجرب اللائم عشق العاشق المستّبام ، ولم يكابد التياع الهوى والغرام ؛ فظن حرقته وصبابته فكاهة فاكه ، ومزاح مازح ، فجعل يعذله ، ويضاعف بالعذل متاعبه وأوصابه ؛ فأنكر الشاعر عليه هذا الظن الخاطئْ الجائر ، وعابه ، ونهاه عنه . وقد يحمل الاستفهام — مع الإنكار — معنى التقريع .

(١١) الشجو : الهم ، والحزن (وفعله من باب عدا) . والسقام : المرض . وأنفاس الشجى حارة متتابعة ، أو طويلة ممتدة تنم على شجوه وهمّه ، وتظهر أوصاب الهوى وآلامه . وعلى العكس منها أنفاس الخليين .

فى البيت السابق : أنكر على لائمه خطأ ظنه ، وسوء تقديره للوعة الملتاع ، وتهيام المستهام . وفى هذا البيت وضع أمام عينيه ثلاثة شواهد تبدد ظلمات جهله ، وتحمله على الإقرار بالحقيقة ، والإقلاع عن العذل : وهى أنفاس الصب ، ودموعه ، وسقامه ؛ فهو يعانى أوصاب الهوى ، ويبكى بدموع حارة ، ويتنفس الصُّعداء . والبيت الآتى فى معنى السقام ، وآثار الضنى .

(١٢) صبّ : صفة من الصبابة : وهى رقة الشوق ، وحرارة الهوى . والضنى : مصدر ضنى (من باب صدى) : أى مرض مرضاً ملازماً ، فتمكن منه الضعف والهزال ، وأشرف على الموت . أو هو المرض الخامر الذى لايزال يعاود المريض ، وكلّما ظُن برؤه انتكس . ويكثر استعمال الضنى فى أوصاب الهوى والحب ، وتباريح العشق والغرام . والعوّاد : جمع عائد : اسم فاعل من عاد المريض (من باب قال) : أى زاره .

بالغ فى تصوير أثر الصبابة فى الصب المستهام ، فقال : إنها برتْه وأضنتْه وأذابتْ جسمه ؛ فلم يبق فيه غير صوت خافت يدل عواده عليه . وفى مثل هذا المعنى يقول أبو الطيب المتنبى :

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى
روح تردّد فى مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

نَطَقَتْ مَدَامِعُــهُ بِسِرِّ ضَمِيرِهِ وَذَكَتْ جَوَانِحُهُ بِنَــارِ غَرَامِهِ (١٣)

طَوْرًا يُخَــامِرُهُ الذُّهُولُ ، وَتَارَةً يَبْكِي بُكَاءَ الطِّفْلِ عِنْدَ فِطَامِهِ (١٤)

يَصْبُو إِلَى بَانِ الْعَقِيقِ ، وَرَنْدِهِ وَعَرَارِهِ ، وَبَرِيرِهِ ، وَبَشَامِهِ (١٥)

---

(١٣) المدامع : مسايل الدمع ، ومواضع اجتماعه فى نواحى العين . والمدامع : المآق : وهى أطراف العين . ويراد بها هنا : الدموع . ويريد بسر ضميره : ما كان يحرص على إضماره وكتمانه من أسرار حبه وغرامه . وذكت النار : توقدت ، واشتد لهبها . والجوانح : أضلاع الصدر . ويراد بها هنا : القلب ، وما حواه الصدر ، ومراكز الإحساس والشعور . والغرام : الولوع والعشق ، وشدة تعلق المحب بمحبوبته. والغرام أيضاً : العذاب . ويراد به هنا : عذاب الحب والوجد ، وتباريح الهوى والصبابة .

تأججت نيران الغرام فى صدره ، وبرّح به الوجد والشوق ؛ فبكى ، فكشفت دموعه أمره ، وأظهرت ما كان يحرص على كتمانه من أسرار حبه .

(١٤) الطور ، والتارة : الحين والمرة . ويخامره : يخالطه ، ويلابسه ، ويغطيه . والذهول : التدله ، والتحير ، وغياب الرشد من الداهل ، وشغل يورثه حزناً ونسياناً . (وفعله كمنع ، وتعب) . وفطام الطفل : فصاله عن أمه ، ومنعه من الرضاع . وفى الفطام يشتد بكاء الطفل ، وتسوء حاله .

فى البيت الثانى عشر شكا ما براه وأذابه من الصبابة والضنى ، حتى خفى على عواده ، ولم يبق فيه غير الأنين الخافت، وآهات التوجع والتحزن والشكوى . ولولاها ما رآه، ولا أحس به أحد . وفى البيت الثالث عشر شكا تأجج نيران الغرام بين جوانحه ، وغلبة البكاء عليه ، وغزارة الدموع فى عينيه ، وآلمه أنها كشفت ما حرص على ستره من أسرار حبه .

وفى هذا البيت اشتد به الأمر ، وتقلب بين حالين : فهو إما غارق فى الذهول ، مستلب اللب ، فاقد الوعى ، وإما منتحب انتحاب الرضيع حرم أحب محبوب إليه ، وأعز عزيز عليه .

(١٥) يصبو إليه : ينزع إليه ، ويميل ، ويحن ، ويتشوق . والبان : ضرب من الشجر ، لين ، سبط القوام ، ورقه كورق الصفصاف . وتشبه به قدود الحسان . أى قاماتهن فى حسن الطول واعتدال القوام ، واللين والمرونة . والعقيق : علم على جملة مواضع بالمدينة، واليمامة ، وتهامة ، ونجد، والطائف . وتمتاز هذه الأماكن كلها بالعيون العذبة ، وبخضرة الزرع والنخيل ، ونضرة المروج ، وبهجة الطبيعة . وقد تغنى الشعراء الغزلون فى شبه الجزيرة العربية من قديم الزمان بوادى العقيق ، وجعلوه مغنى غرامهم ، ومرتع الغيد الحسان اللاتى تنزلوا بهن ، وتوددوا إليهن . والبارودى يحاكيهم فى هذا، ويقتدى بهم، وينسج على منوالهم . والرند (بفتح فسكون) : شجر طيب الرائحة، من فصيلة الغاريات ، وقد يطلق على العود ، والآس ، وهما من الأشجار العطرية . والعرار : بهار ناعم أصفر ، طيب الرائحة . وقد يطلق على النرجس البرى . واحدته عرارة . والبرير : ثمر الأراك إذا اشتد وصلب . الواحدة بريرة . والأراك: واحدته أراكة : وهى شجرة كثيرة الفروع ، خوارة العود، تتخذ منها المساويك . وثمرها أحمر، =

وَادٍ ، سَرَى فِي جَوِّهِ كَنَسِيمِهِ وَبَكَى عَلَى أَغْصَانِهِ كَحَمَامِهِ (١٦)

أَرِجُ النَّبَاتِ ، كَأَنَّمَا غَمَرَ الثَّرَى طِيبًا مُرُورُ «الْخِضْرِ» بَيْنَ إِكَامِهِ (١٧)

= داكن اللون ، يؤكل. وتنبت فى البلاد الحارة. والبشام: شجر طيب الرائحة والطعم ، يستاك بقضبانه ، لا ثمر له ، وإذا قطع شيء من أوراقه وأغصانه سال منه سائل أبيض يشبه اللبن . واحدته بشامة .

صبا الشاعر إلى وادى العقيق فى هذا البيت والأبيات الآتية جرياً على عادة الغزلين من قدامى شعراء العرب فى جزيرتهم ، واقتداء بهم ، وتشبثاً بما جرى على ألسنتهم من الأخيلة والصور ، والعواطف والانفعالات والمغانى والبيئات ، والمعانى والأساليب ، وترديداً لما راقهم من النبات والزهر ، والنسيم والطير ، والمناهل والمشارب ، وظواهر الطبيعة ، وجمال الكون ، ومحاسن الحسان من فتياتهم ونسائهم .

(١٦) سرى (من باب رمى) : سار ليلاً . والمراد مطلق السير . وفاعله ضمير « المشتاق » فى البيت التاسع . أو ضمير « صبّ » فى البيت الثانى عشر . والنسيم : الريح الطيبة اللطيفة اللينة .

فى البيت السابق صبا إلى وادى العقيق ، منزل حبه ، ومغنى غرامه ، وتعلّق بما يميزه ويزينه من أشجار وبهار ، ونباتات عطرية ذكية ، وطبيعة ناضرة زاهرة . وهو فى الحقيقة تعلق بمن يحبها ويهواها :

وما حبّ الديار شغفن قلبى ولكن حبّ من سكن الديارا

وقد تشير بعض الكلمات إلى بعض محاسنها ومفاتنها ، كحسن طولها ، وجمال قدّها ، واعتدال قوامها ، ولين جسمها ونعومته ومرونته ، وطيب رياها ، ونضرة محياها . وفى هذا البيت قال : إنه سرى فى جوّ هذا الوادى مسرى نسيمه ، وسجع على أغصانه سجع حمائمه . وهو تصوير بليغ لشوقه وصبابته وشدة ولوعه بالمحبوبة وديارها .

(١٧) أرج النبات : أى نبات هذا الوادى طيب عطرىّ ذكىّ الرائحة. (وفعله من باب فرح). ويلاحظ أن الأشجار والنباتات التى ذكرها فى البيت الخامس عشر ذات رائحة عطرية ذكية. وغمره الماء ونحوه (من باب نصر) : علاه ، وعمّه ، وستره ، وغطاه . والثرى : الأرض .والتراب الندى . ويراد بالطيب : الأريج ، والخصب ، والنماء ، واليمن ، والبركة . و«الخضر» (بكسر فسكون ، أو بفتح فسكون ، أو بفتح فكسر) : صاحب سيدنا موسى عليهما السلام: نبىّ ، أو ولىّ ، أو صدّيق: أى فوق الولاية ، ودون النبوّة. وقصة تصاحبهما فى القرآن الكريم: من قول الله تبارك وتعالى : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً » إلى قوله عز وجل : « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » (الآيات رقم ٦٥ — ٨٢ من سورة الكهف) . والإكام (بوزن الجبال) : تلال الأرض وروابيها ومرتفعاتها . الواحدة أكمة (بوزن قصبة) .

ما زال الشاعر يتغنى بوادى العقيق ، وادى هواه ، ومغنى غرامه ، وينوّه بمزاياه ، كأنّ ولىّ الله الخضر مرّ بآكامه ، وسار فى أرجائه ؛ فأخصبت تربته ، وطاب ثراه ، وأرج نباته ، وعمّه اليمن والبركة ، والزكاء والنماء .

مَالَتْ خَمَائِلُهُ بِخُضْرِ غُصُونِهِ   وَصَفَتْ مَوَارِدُهُ بِزُرْقِ جِمَامِهِ (١٨)

يَاصَاحِبِي! إِنْ جِئْتَ ذَيَّاكَ الْحِمَى   فَاحْذَرْ عُيُونَ الْعِينِ مِنْ آرَامِهِ (١٩)

وَاسْأَلْ عَنِ الْبَدْرِ الَّذِي كَسَمِيِّهِ   فِي نُورِ غُرَّتِهِ، وَبُعْدِ مَرَامِهِ (٢٠)

---

(١٨) الخمائل: جمع الخميلة: وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف الذى لا يرى فيه الشيء إذا وقع فى وسطه. وكل موضع كثر فيه الشجر خميلة. والموارد: المناهل والمشارب: جمع مورد (بوزن مجلس). والجمام: جمع جمّ (وزن تلّ وتلال): وهو الكثير المجتمع من كل شيء. أو هو جمع جمة (بضم الجيم): وهى من الماء معظمه. وماء أزرق: شديد الصفاء والنقاء. وجمام زرق: مياه صافية رائقة نقية، كثيرة غزيرة. وفى الشطر الأول إشارة إلى نسيم ذلك الوادى الذى يميل الغصون ويحركها حركات لطيفة. وقد تكون الإشارة إلى كثرة الغصون التى تميل بها أشجارها. وفى الخضرة معنى الحياة، والبهجة، والغضارة، والنضارة.

(١٩) ذياك: «ذيا»: تصغير «ذا»: وهو اسم إشارة للمفرد المذكر. والكاف: حرف خطاب. والحمى: المكان المحمى المصون المنيع. وفيه إشارة إلى تمنع المتغزل بهن، واحتجابهن، وصعوبة الوصول إليهن، وشدة بأس من يقومون بحراستهن. ويراد بالحمى: وادى العقيق: أى ديار محبوبته وأترابها. والعين: جمع عيناء: وهى المرأة التى اتسعت عيناها فى حسن وجمال. وفى القرآن الكريم فى وصف نساء الجنة: «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون» (الآية رقم ٢٢ والآية رقم ٢٣ من سورة الواقعة). والآرام: جمع رئم: وهو الظبى الخالص البياض. وتشبّه به الحسناء من النساء فى الرشاقة والمرونة، ولطف الحركة، وحسن التثنى، وجمال الجيد والعينين.

أشار إلى وادى العقيق، ونسائه العين البيض الحسان المصونات الشبيهات بالظباء والغزلان. وحذّر صاحبه أن تسحره عيونهن ومفاتنهن؛ فيقع فى مثل ما وقع فيه من أشراك الهوى، وحبائل الغرام. وجعل التنويه بهن فى هذا البيت تمهيداً لإفراد محبوبته بغزله وتشبيبه فى الأبيات الآتية. ونداء الصاحب فى مثل هذا المقام أسلوب شائع مألوف فى الغزل، ويمكن عدّه من خصائص لغة الشعر.

وقد أشرنا فى عدة مواضع من شرحنا إلى ولوع البارودى بالبيئة العربية البدوية، وكثرة ما يردده فى شعره من صورها وخصائصها، وعادات أهلها، وطبيعة الحياة فيها.

(٢٠) يريد بالبدر محبوبته. ويريد بسميّه: البدر الحقيق: وهو القمر الممتلئ ليلة تمامه فى منتصف الشهر القمرىّ. وسميك: نظيرك. ومن كان اسمه كاسمك. والغرة (فى الأصل): بياض فى جبهة الفرس. وغرة الإنسان: وجهه. والمرام: المطلب. ورامه (من باب قال): أراده، وطلبه.

طلب إلى صاحبه أن يسأل فى وادى العقيق عن معشوقته بين العين الحسان اللائى أشار إليهن فى البيت السابق. وكأنما أراد تمييزها له؛ فشبّهها بالبدر فى ضياء وجهها، وإشراق جبينها، وسمو قدرها، ونباهة شأنها، وصعوبة الوصول إليها.

فَإِنِ اشْتَبَهْتَ ، وَلَمْ تَجِدْ لَكَ هَادِيًا ... فَاسْمَعْ أَنِينَ الْقَلْبِ عِنْدَ خِيَامِهِ (٢١)

فَبِذَلِكَ الْوَادِي غَـزَالَةُ كِلَّةٍ ... تَرْوِي حَدِيثَ الْفَتْكِ عَنْ ضِرْغَامِهِ (٢٢)

ضَاهَتْ بِقَامَتِهَا سِـرَاحَ قَنَـاتِهِ ... وَحَكَتْ بِلَحْظَتِهَا مَضَاءَ حُسَامِهِ (٢٣)

---

(٢١) اشتبه الأمر عليه : اختلط ، والتبس ، وخفى وجهه . ويراد باشتباه صاحبه : صعوبة اهتدائه إلى المعشوقة ؛ فهو فى معنى : «ولم تجد لك هادياً» . وأنين قلبه : دقاته العالية المضطربة . والأصل : أنّ المريض أنيناً : إذا تأوّه ، وتوجّع . وأنّت القوس ونحوها : أى رَنّ وترها فى امتداد . وخيامه : خيام البدر : أى الحبيب : جمع خيمة : وهى المنزل . والبيت يتخذ من الصوف أو القطن ، ويقام على أعواد ، ويشد بأطناب . والبيت يبنى من أعواد الشجر ، ويلقى عليه نبت يستظل به .

يقول لصاحبه : إذا اختلط عليك الأمر ، ولم تجد من يدلك على محبوبتى فى حماها ؛ فاستمع لأنين قلبى فى خيامها تهتد إليها بلا مشقة . وفى البيت إشارة لطيفة إلى أن هذه المعشوقة قد خلبت لبه ، واستلبت فؤاده ؛ فهو أسير لديها ، مشدود إليها ، يئن أنيناً ، ويحن حنيناً . وترى مثل هذه الإشارة أو هذا المعنى مفصّلا فى سبعة أبيات سابقة (من الثانى إلى الثامن) .

(٢٢) الغزالة : أنثى الغزال : وهى الظبية . والغزالة : الشمس عند ارتفاعها. والكلة : الستر. وفتك به (من بابى ضرب وقتل) فتكاً (بتثليث الفاء) : انتهز منه فرصة ، فقتله على غرة ، وغدر به ، واغتاله . أو بطش به ، وقتله مجاهرة . وضرغامه : ضرغام الوادى . والضرغام : الأسد الضارى الشديد . والرجل الشجاع . وفى « الكلة » إشارة إلى رفاهة المتغزل بها ، أو احتجابها . وكلاهما مما يضاعف صبابة الصب المستهام .

شبه محبوبته بالظبية ، أو بالشمس . وقال : إنها رافهة ناعمة محجبة ممنعة . وإذا حدثت غيرها روت أنباء فتك الحسان بعشاقهن . أو فتك ضراغمة ذلك الوادى بمن يحاول الوصول إليهن ؛ فهن فى حراسة يقظة قوية ، شديدة مستحكمة . أو المعنى : أن هذه الغادة الحسناء تصرع عشاقها كما تصرع الأسود فرائسها .

(٢٣) ضاهاه : شاكله ، وشابهه ، وماثله . والقامة : القدّ ، والقَوام ، وحسن الطول . والسراح : اسم من سرّح الشىء تسريحاً : أى سهله ويسره . وسرحت المرأة شعرها : رجّلته ، ومشّطته ، وخلصت بعضه من بعض بالمشط. ويراد بسراح القناة : اعتدالها واستواؤها ، على التشبيه بالشعر المرجّل المسرح . أو هى السراح (بكسر السين) : جمع سرحة (بفتح السين) : وهى الشجرة الطويلة المعتدلة تشبه بها القامة فى حسن الطول ، والاستواء ، والاعتدال ، والمرونة . وتتخذ منها القناة : وهى الرمح الأجوف . والعصا المعتدلة المستوية المشذّبة . وحكت : ضاهت ، وشابهت، وماثلت ، وشاكلت . واللحظة : النظرة السريعة بمؤخر العين . ومن كلامهم : «فتنته لحظاتها وألحاظها» . والحسام : السيف الحادّ القاطع . ومضاؤه : حدته ، ونفاذه ، وسرعة قطعه . والضمير المجرور المضاف إليه فى « قناته »=

هِيَ مِثْلُهُ فِي الْفَتْكِ، أَوْ هُوَ مِثْلُهَا سِيَّانِ وَقْعُ لِحَاظِهَا وسِهَامِهِ(٢٤)

فَسَقَى الْحِمى دَمْعِي إِذَا ضَنَّ الْحيَا بِجُمَانِ دِرَّتِهِ سُلَافَةَ جَـامِهِ(٢٥)

= و « حسامه » يعود على « ضرغام » الوادى فى آخر البيت السابق .

يقول : إن الحسناء التى يتغزل بها ، قامتها معتدلة ، مستوية ، فى حسن طول استواء رمح الرامح الشجاع المقدام من رجال ذلك الوادى . ونظرتها فاتنة ساحرة فاتكة فتك سيفه البتّار . والبيت الآتى تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من هذا البيت .

(٢٤) هى : أى الحسناء التى يشبّب بها . أو نظراتها الفاتنة. ومثله : مثل « الضرغام » : أى الشجاع المقدام من رجال واديها . أو مثل سيفه البتار . و« أو » : بمعنى« واو» العطف . وهى مثله ، وهو مثلها : أى هى تشبهه فى الفتك بعشاقها ، وهو يشبهها فى الفتك بأعدائه . والشطر الثانى تكرار لهذا المعنى . وسيان : مثنى سىّ : وهو المثل ، والشبيه ، والنظير. ولحاظها (بكسر اللام) : لحظاتها : جمع لحظة : وهى النظرة السريعة ، تكون بمؤخر العين. والسهام : جمع سهم : وهو عود خشبىّ يسوّى ، ويركّب فى طرفه نصله : أى حديدته القاطعة الجارحة ، ويرمى به عن القوس . وكانت القسىّ من أدوات الصيد والقتال : أى سيان وقع لحظاتها فى قلوب عشاقها ، ووقع سهامه فى صدور أعدائه .

والبيت تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من البيت السابق ؛ فالحسناء المتغزل بها نظراتها فاتنة ساحرة فاتكة ، تهيم العشاق وتستهويهم وتصرعهم ، كأنها سهام المحارب الشجاع ، أو الصياد الماهر من رجال واديها ، وأبطال قومها .

(٢٥) الحمى : المكان المحمىّ المصون المنيع . ويراد به : وطن الشاعر ، ومغنى شبيبته ولهوه ، ومسرح حبه وغرامه . وضن (كتعب وضرب) : شح وبخل . والحيا : المطر . والجمان اللؤلؤ . وحب يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ . واحدته جمانة . ويراد به هنا : قطرات المطر على التشبيه بحبات الفضة وصغار اللآلئ فى الصفاء والنقاء . والدرة (بكسر الدال وفتحها) : اللبن أو كثرته . وتستعار للمطر . وسلافة كل شىء وسلافه : خالصه . والجام : إناء للشراب والطعام ، يكون من الفضة أو نحوها . وهى مؤنثة ، فارسية الأصل . وقد غلب استعمالها فى الكأس : أى قدح الشراب . وسلافة الجام : ما تحتويه من خالص الشراب . ويلاحظ أن الكلمات المجازية مالت بالبيت إلى الثقل والتكلف ، وتجافت عن اليسر والسهولة والطبع والسابقة . والترتيب الأصلى لهذا الكلام : « فسقّى دمعى الحمى سلافة جامه إذا ضن الحيا عليه بجمان درته » .

يدعو لوطنه بالسقيا والرىّ والخصب والخير الموفور ، فإذا بخل عليه المطر بمائه الغزير النقىّ الصافى أرواه بخالص دموعه ، وهى دموع الحب والشوق ، والحنين والوفاء ، والإعزاز والتكريم . وفى هذا البيت وثلاثة الأبيات بعده انتقال من الغزل والتشبيب إلى تمجيد الوطن ، والتحدث بنعمه وأياديه .

مَغْنًى ، رَعَيْتُ بِهِ الشَّبِيبَةَ غَضَّةً وَرَوَيْتُ قَلْبِي مِنْ سُلَافِ غَمَامِهِ(٢٦)

فَنَسِيمُ رُوحِي مِنْ أَثِيرِ هَوَائِهِ وَقِوَامُ جِسْمِي مِنْ مِزَاجِ رَغَامِهِ(٢٧)

لَا يَنْتَهِي شَوْقِي إِلَيْهِ . وَقَلَّمَا يَسْلُو حَمَامُ الْأَيْكِ عَنْ تَرْنَامِهِ(٢٨)

---

(٢٦) غنى بالمكان (من باب رضى) : أقام به . والمغنى : المنزل الذى غنى به أهله . ورعيت : راعيت ، ولاحظت ، وحفظت ، وتعهدت . والشبيبة : الشباب : وهو الفتاء ، وحداثة السن . وغضة : ناضرة فتية . ورويت : سقيت . والغمام : السحاب . واحدته غمامة . وسلاف الغمام : المطر . ويراد به : أنهار الوطن ، ومناهل مياهه ، وموارده‌ا . وفى رىّ قلبه إشارة إلى راحة نفسه ، ورخاء باله ، وهناءة حاله .

يحدث بشىء من نعم وطنه عليه ؛ فمن مناهله ومشاربه استقى وارتوى وامتلأ وشبع . وفى ربوعه ومغانيه نما وشب ، ونشأ وترعرع ، واستمتع بغضارة الشباب ونضارته وطراءته ورونقه .

(٢٧) النسيم : القوة والصلابة . والريح الطيبة اللينة اللطيفة . والروح (بضم الراء) : النفس . وما به حياة الأنفس . والروح (بفتح فسكون) : التنفس . ونسيم روحى : قوة نفسى وصلابتها وحياتها . أو الهواء الطيب اللطيف الذى أتنفس منه ، وتحيا به نفسى . وأثير هوائه : خالص هواء وطنى . من قولهم : فلان أثيرى : أى من خلصائى الذين أوثرهم وأقدمهم . أو يراد بالأثير : الهواء ؛ فهو من إضافة الكلمة إلى مرادفها . وفى علم الطبيعة : أن الأثير : سيال يملأ الفراغ ، ويتخلل الأجسام . وقوام جسمى (بكسر القاف) : عماده ، ونظامه ، وبناؤه ، وما يقوم به . أو ما يقيمه ويحفظه من القوت والغذاء . والمزاج : ما يمزج به الشراب ونحوه . والرغام : التراب . ومزاج رغام الوطن : ما تنبته أرضه . ولعله يشير إلى قول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « منها خلقناكم » (الآية رقم ٥٥ من سورة طه) : أى من الأرض . وقوله عز وجل : « هو الذى خلقكم من تراب » (الآية رقم ٦٧ من سورة غافر) . والضمير المجرور المضاف إليه فى « هوائه » ، و« رغامه » يعود على « الحمى » ، أى الوطن .

حدث بأعظم نعم وطنه عليه ؛ فمن أثيره وهوائه يتنفس ويعيش ، ويحيا ويقوى . ومن أرضه وترابه ونباته وثماره قوته وغذاؤه ، وطعامه وشرابه ، وقوام جسمه وبناؤه ، وعماده ونظامه . ولا ريب أن هذا التحديث ينم على الحب والتقدير ، والشكر والتكريم ، والشوق والحنين . والبيت الآتى فى معنى الشوق إليه ، والتعلق به ، والحرص عليه .

(٢٨) إليه : إلى الحمى : أى الوطن . وسلاه ، وسلا عنه : نسيه ، وطابت نفسه بعد فراقه . والأيك : جمع أيكة : وهى الكثير المجتمع الملتف من الأشجار . ورنم المغنى والحمام وكل ما استلذ صوته (من باب طرب) : أى رجع صوته ، وطرب به ، وتغنى . والترنام (بفتح التاء) : مصدر يدل على الكثرة والمبالغة .

يشير إلى ما فى طبيعة الحمام من إلف موطنه ، والحرص عليه ، والحنين إليه . وكأنما يعبر بترنامه وتطريبه ، وسجعه وهديره عن هذه المعانى السامية ، والمشاعر الرقيقة . وفى الشاعر ما فى الحمام من =

يَا حبَّذَا عَصْرُ الشَّبَابِ ، وَحَبَّذَا رَوْضٌ جَنَيْتُ الْوَرْدَ مِنْ أَكْمَامِهِ(٢٩)

عَصْرٌ ، إذا رَسَم الْخَيَالُ مِثَالَهُ فِى لَوْحِ فِكْرِى لَاحَ لِى بِتَمَامِهِ(٣٠)

إنِّى لَأَذْكُرُهُ ، وَأَعْلَمُ أَنَّنِى بَاقٍ عَلَى التَّبِعَاتِ مِنْ آثَامِهِ(٣١)

= هذا ؛ فتعلقه بوطنه شديد ، ووفاؤه له تام ، وبره به موفور ، وشوقه إليه لا ينقطع ، ولا يفتر . وهو لا يفتأ يتغنى بمحاسنه ، ويحدّث بإفضاله عليه ، ويشكر إحسانه إليه .

(٢٩) «يا» : حرف تنبيه . أو حرف نداء والمنادى محذوف . وعصر الشباب : زمنه ، وطوره . وحبذا : أسلوب مدح . والمخصوص بالمدح فى العبارة الأولى «عصر الشباب» . وفى العبارة الثانية «روض» : وهو البستان النضير . والأرض الخصبة ذات الماء والخضرة . وجنيت الورد ونحوه (من باب رمى) : قطفته من شجره . والأكمام : جمع كمّ (بوزن كنّ وأكنان) : وهو غطاء الزهرة : أى الغلاف الذى يحيط بها ، فيسترها ، ثم ينشق عنها . ويريد بالروض : عصر شبابه . ويريد بالورد : ما استمتع به من لذّات الشباب ومباهجه .

(٣٠) الخيال : قوّة التخيّل : وهى إحدى قوى العقل . وفى استطاعة كل عاقل أن يتخيّل الشىء : أى يتصوّره . ومثال الشىء : صورته التى تمثّل صفاته ، وتصوره تصويراً تاماً . واللوح : ما يكتب فيه ويرسم ، يكون من الخشب والورق المقوى وغيرهما . والفكر : إعمال العقل فى المعلوم الذى يعين على تعرف المجهول . ويراد به هنا : الذهن . ولوح فكرى : فكرى الشبيه باللوح . ولاح : بدا ، وظهر ، واتضح . وفاعله ضمير «مثال» .

يشير إلى شدة تعلقه بشبابه الراحل ، وحنينه إليه ، وتأثره به ، وتذكّره لعصره ؛ فإذا تخيّله رأى صورته حاضرة أمامه ، مرسومة فى ذهنه ، واضحة جلية ، حية قوية ، تامة كاملة ، مفصلة ممثلة .

(٣١) أذكره : أذكر عصر شبابى : أى أتذكّره ، ولا أنساه . والتبعات : جمع تبعة : وهى عاقبة الأمر ، ومغبّته ، وما يترتب عليه من أثر . وكثر استعمالها فى الآثار السيئة ، وما يترتب على الأفعال من شرور . وآثام : جمع إثم : وهو الذنب ، والجريرة ، والخطيئة . و«من» : بيانية . والآثام بيان للتبعات . ولعل المراد بهما ما يجنح له أكثر الشبان فى شبابهم من المرح واللهو ، والعبث والمجانة ، والهوى والغرام . ولعل مراده ببقائه عليها : دوام تذكّره لها ؛ فإن المقيم على الشىء يذكره ، ولا يكاد ينساه . وفى الذكرى راحة لمثله ومتعة .

فى البيت السابق وصف قوة تذكره لعصر شبابه ، وشدة تأثره به ، ومقدرته على استحضار صوره تامة واضحة فى ذهنه . ويبدو لنا أن هذا البيت تأكيد لهذا المعنى ؛ فإن تعلقه بذلك العهد بعد فواته يحضر على الدوام فى ذهنه وذاكرته ما كان له فيه من متع ولذات ، وشهوات ومسرات . ولعل البيت الآتى يسوّغ هذا المعنى ويرجحه .

مَا كَانَ أَحْسَنَ عَهْدَهُ لَوْ دَامَ لِي ... مِنْهُ الْوِدَادُ . وَكَيْفَ لِي بِدَوَامِهِ ؟(٣٢)

وَالدَّهْرُ مَصْدَرُ عِبْرَةٍ لَوْ أَنَّنَـا ... نَتْلُو سِجِلَّ الْغَدْرِ مِنْ آثَامِهِ(٣٣)

عَمْرِى ، لَقَدْ رَحَلَ الشَّبَابُ ، وَعَادَنِى ... شَيْبٌ تَحَيَّفَ لِمَّتِى بِثَغَامِهِ(٣٤)

---

(٣٢) عهده : عهد الشباب : أى زمانه . ومنه : من الشباب . أو من عهده . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه النفى . وهو مع النفى ينم على الأسى والتحسر والتلهف والحزن على شبابه بعد فواته ، وانقطاع مصافاته ووداده .

يقول – فى تحزّن وتوجّع ، ولهفة وحسرة : لا سبيل إلى دوام زمن الشباب . ولو دام لكان جديراً أن يتعجّب من حسنه وبهجته ، وبقاء متعه ومسرّاته .

(٣٣) السجلّ : الدفتر ، أو الكتاب يدون فيه ما يراد حفظه وتسجيله . ويلاحظ أن الشاعر كرر كلمة «آثامه» فى البيتين الحادى والثلاثين والثالث والثلاثين . وهذا عيب من عيوب القافية اسمه «الإيطاء» : وهو إعادة كلمة الروىّ لفظاً ومعنى من غير أن يفصل بين الكلمتين المكررتين سبعة أبيات فأكثر . وقد سبق هذا العيب نفسه فى البيتين السادس والسابع من هذه القصيدة .

فى أربعة الأبيات السابقة اشتدّ تعلّق الشاعر بشبابه الراحل ، واشتدت حسرته على فواته . وفى هذا البيت شكا الدهر ، وتبرم به ، وسخط عليه ؛ فإن ذهاب شبابه أثر من آثار تقلب الدهر ، وتحيف الزمان وتجرده من الخير والوفاء . ولو قرأنا من سجلات آثامه وجرائره سجلّ غدره وخياناته لأفدنا منه كثيراً من العبر والعظات ، وتوقينا كثيراً من الشرور والآفات .

أو المعنى : أن الدهر سجل لما يكون فى الحياة الدنيا من خير وشر ، ومسرات ومساءات ، فإذا قرأنا ما حواه هذا السجل من شرور وخيانات اتعظنا واعتبرنا ، ووقينا أنفسنا أن نقع فى مثل ما وقع فيه غيرنا . وهذا المعنى وثيق الاتصال بما قبله وما بعده ؛ فإنه لما تحسر على فوات عهد شبابه ، وتعلق ذهنه وفكره بذكريات ذلك العهد ، قرأ فى سجل الزمن صوراً وأمثلة من غدر الناس وخيانات بعضهم لبعض ؛ فاعتبر بها ، ودعا غيره إلى الاعتبار والاتعاظ . وأجرى البيت مجرى الحكم والأمثال .

(٣٤) عمرى : أسلوب قسم : أى أحلف بحياتى . وعادنى : عرانى وأصابنى . وتحيّف لمّى : تنقص سوادها ، وذهب به . واللمة : شعر الرأس الذى يجاوز شحمة الأذن . أو الذى يلم بالمنكب : أى يقرب منه . ويراد باللمة هنا : شعر الرأس مطلقاً . وثغام الشيب (بفتح الثاء) : بياضه . وهو فى الأصل : جمع ثغامة : وهى شجرة ذات زهر أبيض وثمر أبيض ، تنبت فى قنن الجبال . وإذا يبست اشتد بياضها ؛ ولهذا عبروا بها عن الشيب وبياضه . وشدة تعلق الشاعر بشبابه الراحل ، وشدة تبرمه بالشيب الملمّ سوّغت له أن يصدر هذا البيت بالقسم ؛ فهو يؤكد به – فى أسى وحسرة – أن شبابه ذهب ، ومضى ، ورحل ، وانقضى . وحلّ محلّه الشيب ، وهو نذير الموت والهلاك ، ورائد الردى والفناء . وكأن المقام مقام شك وارتياب فى قلة متاع الدنيا ، وذهاب زينتها وبهجتها ، وسرعة الرحيل عنها ، وسرعة انقضاء زهرة العمر ونضارته ؛ فهو يمحو هذا الشك بهذا القسم .

وَقَالَ :

أَعِدْ عَلَى السَّمْعِ ذِكْرَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ ... وَاعْذِرْ شَآبِيبَ دَمْعِي إِنْ جَرَتْ بِدَمِ [١]

مَلَاعِبٌ لِلصِّبَا أَقْوَتْ ، وَمَا بَرِحَتْ ... مَلَاعِبًا لِلْأَسَى وَالْأَعْيُنِ السُّجُمِ [٢]

كَانَتْ لَنَا سَكَنًا ، حَتَّى إِذَا (قَوِيَتْ) ... مِنَّا ، غَدَتْ سَكَنًا لِلرِّيحِ وَالدِّيَمِ [٣]

---

(١) البان: ضرب من الشجر . ومن معانى العلم : العلامة والأثر . ويشار بالبان والعلم إلى أماكن معينة فى شبه الجزيرة العربية ، رددها شعراء العرب قديماً فى أشعارهم ، وأكثروا من التغنى بها ، والحنين إليها . والبارودى مقتد بهم ، ناسج على منوالهم ، مولع بمغانيهم ، ومواقفهم ، وصورهم وأخيلتهم ، وأساليبهم ، ناقل عنهم ما تغنوا به من المواطن والديار ، وما استوقفهم من الدمن والآثار . وهو هنا يعنى بالبان والعلم : ملاعب نشأته وصباه ، ومنازل حبه وغرامه . والشآبيب : جمع الشؤبوب (بوزن العصفور) : وهو الدفعة من المطر . وشآبيب دمعه : أى دمعه الغزير الكثير المنهمر المتتابع الشبيه بشآبيب المطر . وإذا تقرّحت العين من كثرة البكاء اختلط دمعها بدم القروح .

طلب إلى صاحب حقيقى ، أو خيالى ، أو شخص جرده من نفسه أن يردد على سمعه حديث الديار التى يحن إليها ، ويأسى عليها ، كما طلب إليه ألا يلومه إذا أثارت ذكرياتها أشجانه ؛ فبكى ، وطال بكاؤه ، واشتد ، حتى دميت عيناه ، وجرت بالدم دموعه غزيرة متتابعة .

(٢) أقوتْ : أقفرت وخلتْ . و« ملاعب » فى شطرى البيت ممنوعة من الصرف ، أى التنوين . وإنما نونت لضرورة وزن الشعر . والثانية جاءت مشاكلة للأولى ؛ لوقوعها فى صحبتها ؛ فالملاعب لا تناسب الأسى والحزن ، وإنما تلائم الصبا والصغر والحداثة وما يلابسها ويلازمها من اللعب واللهو ، والمرح والسرور . والمشاكلة من المحسنات البديعية . والسجم : جمع سجوم (فعول بمعنى فاعل) من سجمت العين دمعها : أى أسالته ، وصبته .

فى البيت السابق أشار بالبان والعلم إلى أماكن عزيزة عليه ، أثيرة لديه . وفى هذا البيت : بيّن أنها كانت ملاهى طفولته وصباه ، ومسارح لعبه ومرحه فى حداثته وصغره ؛ فلما خلت من أهلها بقيت قائمة تجدّد ذكريات ماضيه ، وتثير الأسى والشجن ، وتؤجّج الحنين والبكاء .

(٣) فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا نقص . والكلمة التى بين قوسين فى نهاية الشطر الأول (قويتْ) تكملة من عندنا استقام بها وزن البيت ومعناه . ومن الكلمات المرادفة اللائقة هنا : صفرتْ (بوزن تعبتْ) ، وخويتْ (بوزن رضيتْ) ، وكلها بمعنى خلتْ وأقفرت . وغدتْ : صارت . والديم : جمع ديمة (بوزن قيمة وقيم) : وهى المطر يدوم أياماً . أو يدوم فى سكون ، بلا رعد ، ولا برق .

والمعنى : أقمنا زماناً فى هذه الديار العزيزة رافهين ناعمين فى ظلال الدعة والأنس ، والسكينة والطمأنينة ، لاعبين هانئين بمرح الطفولة وبهجتها ، ونشاط الصبا ولهوه ؛ فلما فارقناها تداولتها الرياح والأمطار ؛ فلم يبق منها غير الأطلال والآثار .

لَمْ أَتَّخِذْ بَعْـــدَهَا دَارًا أُقِيمُ بِهَا   إِلَّا تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِذِي سَلَمِ (٤)

وَكَيْفَ أَنْسَى دِيَارًا قَدْ نَشَأْتُ بهَا   فِي مَنْبِتِ الْعِزِّ بَيْنَ الْأَهْلِ وَالْحَشَمِ ؟ (٥)

يَا مَنْزِلًا ، لَمْ يَدَعْ وَشْكُ الْفِرَاقِ بِهِ   إِلَّا رُسُومًا كَوَحْيِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ (٦)

---

(٤) « ذو سلم » : موضع فى جزيرة العرب ، ردده قدامى الشعراء فى أشعارهم . وقد أسلفنا أن البارودى أولع بإحياء الشعر القديم ومحاكاته؛ وترديد ماورد فيه من الأماكن والمغانى والديار والآثار . وهو هنا يشير بذى سلم ، والبان ، والعلم إلى ملاهيه وملاعبه فى طفولته وصغره ، ومسارحه ومراتعه فى حداثته وصباه . وهذه كلها لا تتجاوز الديار المصرية التى ولد فيها الشاعر ونشأ ونما ، وشبّ وترعرع ، وعاش ومات .

والفكرة فى هذا البيت وثلاثة الأبيات قبله واحدة، هى وفاؤه لملاعب صباه ، وديار شبابه ، وشدة تعلّقه بها بعد إقوائها ؛ فكلما سكن بعدها داراً غيرها تذكّر أيام لهوه ومتعته، ومرحه وبهجته فى تلك الملاعب ؛ فاشتد حنينه إليها ، وتأجّج حزنه عليهـــا .

(٥) الاستفهام فى أول هذا البيت: معناه النفى . وحشم المرء: خاصته الذين يغضبون لغضبه ، ويغضب لغضبهم ، ويحزنهم ما يحزنه ، ويقومون على خدمته من أهله وأقاربه ، أو خدمه وعبيده ، أو صحبه وجيرته .

والبيت فى معنى الأبيات الأربعة السابقة ؛ فلاعب صباه مرموقة بحبه وحنينه ، مذكورة بإعزازه وتقديره؛ ولا غرو ففيها نشأ نشأة العزة والكرامة ، والنعيم والرفاهة بين من كانوا يحوطونه ويتعهدونه ، ويهتمون بأمره من أهله وحشمه .

(٦) لم يدع : لم يترك . ووشك الفراق (بفتح الواو وضمها) : سرعة البين والرحيل . ورسوم المنازل والديار المهجورة : آثارها الباقية. ومثلها الأطلال والدمن، المفرد رسم . والوحى : الكتابة . ووحى الخط بالقلم : كتابة من يخطّ بقلمه على ورق ونحوه .

نادى – فى تحسر وتلهف ، ووجد وأسى – منبت عزه ، وملاعب صباه ، وديار نشأته ، قائلاً : إن أهلها أقاموا بها برهة ، وما لبثوا أن فارقوها ، وارتحلوا عنها ؛ فتداولتها الرياح والأمطار ، وعوامل التعرية والتخريب ؛ فلم يبق منها غير رسوم وآثار ، شبهها بكتابة من خطّ بقلمه على ورق أو نحوه . وهذه إحدى صور الحياة فى البادية والبيئة الصحراوية العربية ؛ فإقامة البدو فى منازلهم موقوتة محدودة ، وارتحالهم عنها مفروض محتوم ، وشيك سريع ؛ فإذا زايلوها تناوبتها الرياح والأمطار ، ولا تزال بها حتى تمحوها ؛ فلا يبقى منها غير الدمن والطلول .

أَيْنَ الَّذِينَ بِهِمْ كَانَتْ نَوَاظِرُنَا ... تَرْعَى الْمَحَاسِنَ مِنْ فَرْعٍ إِلَى قَدَمِ (٧)

وَدَّعْتُ شَطْرَ حَيَاتِي يَوْمَ فُرْقَتِهِمْ ... وَصَافَحَتْنِي يَدُ الْأَحْزَانِ وَالْهَرَمِ (٨)

فَيَا أَخَا الْعَذْلِ ! لَا تَعْجَلْ بِلَائِمَةٍ ... عَلَيَّ ؛ فَالْحُبُّ مَعْدُودٌ مِنَ الْقِسَمِ (٩)

أَسْرَفْتَ فِي اللَّوْمِ ،حَتَّى لَوْ أَصَبْتَ بِهِ ... مَقَاطِعَ الْحَقِّ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ التُّهَمِ (١٠)

---

(٧) « بهم » : فيهم ؛ فالباء هنا : للظرفية . ونواظرنا : عيوننا : جمع الناظر . وترعى : تنظر وتراقب ، وتلاحظ . والمحاسن : جمع على غير قياس لـ « حُسْن ». وفرع المرأة : شعرها التام . والترتيب الأصلى لهذا الكلام : أين الذين كانت نواظرنا ترعى فيهم المحاسن من فرع إلى قدم .

فى ستة الأبيات السابقة ذكر الشاعر – بالأسى والحنين – ملاعب صباه ، ومسارح لهوه ، وديار نشأته فى العزّ بين أهله وحشمه ، وسلك فى تشوقه وحنينه ، وبره ووفائه لتلك الديار مسلك شعراء العرب فى باديتهم، ونهج نهجهم ، ونسج على منوالهم . وفى هذا البيت اتجه إلى ذكريات الغزل بمن كان يهواهن، ويأنس بهن، ويتملاّهن فى تلك الديار ، ويمتع ناظريه بالجمال الحسى الذى يشمل أجسامهن من الفروع إلى الأقدام . وسأل – فى حسرة ولهفة ، وأسى ولوعة – عن المكان الذى انتقلن إليه ، لعله يجد السبيل إليهن ، ويعاود القرب منهن ، ويستأنف رعى محاسنهن . ويلاحظ أنه وضع « الذين » موضع « اللائى » ، و« بهم » موضع « بهن » . وقد لا يكون هذا من الغزل ، وإنما هو الحب والوفاء ، والشوق والحنين إلى من عرفهم ، وأنس بهم فى ملاعب صباه من أهله وأقربائه، ورفاقه وخلانه ، ولداته وأترابه، فتياناً وفتيات. وأراد بمحاسنهم : فضائلهم ومزاياهم ، وأراد بالفرع والقدم : الشمول والتعميم : أى كانت نواظرنا ونفوسنا تسعد وتهنأ بمحامدهم التامة ، ومزاياهم الشاملة .

(٨) ودّعت : المراد فارقت . وشطر الشىء : نصفه . والهرم : الشيخوخة ، وأقصى الكبر . (وفعله من باب تعب) .

فى البيت السابق سأل متحسراً عن الذين كان يرعى بعينيه محاسنهم فى ملاعب صباه ، وأيام شبابه . وفى هذا البيت قال : إنه فارق يوم فارقهم – الشطر القوىّ الفتىّ البهيج النضير من عمره وحياته ؛ فترا كمت عليه الهموم والأحزان ، وسارعت إليه الشيخوخة وأوصابها .

(٩) أخو العذل : العاذل اللائم . واللائمة : العذل . ومثلها الملامة ، واللوم . والقسم : جمع قسمة (بوزن فتنة وفتن) : وهى الحظ والنصيب .

يريد أن الحب من الحظوظ المقدّرة المحتومة ، والأمور المبرمة المقضية التى لا مناص منها ، ولا حيلة للمحب فى اتقائها ، أو التخلص منها ؛ ولهذا كان من الظلم والإعنات أن تعاجله باللوم والتثريب .

(١٠) قطع الأمر : فصله . والمقطع : موضع القطع . وجمعه مقاطع (بوزن مذهب ومذاهب). وأصبت بلومك مقاطع الحق : أى كان لومك صائباً سديداً ، قائماً على الحق والصدق ، بعيداً عن الباطل =

فَارْحَمْ شَبَابَ فَتًى أَلْوَتْ بِنَضْرَتِهِ ... أَيْدِى الضَّنى ؛ فَغَدَا لَحْمًا عَلَى وَضَمِ (١١)

تَاللهِ مَا غَدْرَةُ الْخُلَّانِ مِنْ أَرَبِى ... وَلَا التَّلَوُّنُ فِى الْأَخْلَاقِ مِنْ شِيَمِى (١٢)

= والتجنى . والتهم : جمع تهمة (بوزنى غرفة ورطبة) : وهى اسم من اتهمه فى قوله : أى شك فى صدقه . واتهمه بكذا : أى أدخل عليه التهمة فيه ، وظنها به . يقال : اتهمه بالحقد مثلاً : أى ظنه حاقداً .

فى البيت السابق : دعا لائمه إلى التريث والتروى ، ونهاه عن المسارعة والعجلة ؛ فإن الحب من الأمور المحتومة المقسومة ؛ فليس من العدل أن يلام المرء على شىء اضطرارىّ خارج عن إرادته واختياره . وفى هذا البيت شكا الإسراف فى اللوم ، وقال : إنه يدعو إلى اتهام اللائم ، ويشكّك فى كلامه وإن كان محقاً . والغرض من البيتين إحباط العذل ، وحمل العاذلين على الإقلاع عنه ؛ فإنه يعاسر المحب ، ويضاعف أوصابه .

(١١) ألوى به : ذهب به ، وأهلكه ، وأرداه . وألوى الضنى بنضرته : ذهب بها ، ومحاها . والنضرة : الرونق والحسن ، والبهاء ، والنعمة . والضنى : الداء المخامر ، والمرض الملازم ، والهزال الشديد ، والإشراف على الموت . وغدا : صار . والوضم : خشبة الجزار التى يقطّع عليها اللحم . وكل ما وقيت به اللحم من الأرض . وغدا المريض لحماً على وضم : تعبير يراد به ذهاب الصحة ، وانهيار القوة ، وانحلال الجسم وتهدمه .

فى البيتين السابقين حاول إسكات عاذله ، وتنحيته عنه ؛ فلاينه فى البيت الأول وحاسنه . وخاشنه فى البيت الثانى وخاصمه ، قائلا إنه أسرف فى اللوم ، وجاوز القصد والاعتدال ؛ فلم يسلم من التهم والشبهات . وفى هذا البيت عاد إلى الملاينة والمحاسنة ، بل نزل إلى استرحام لائمه واستعطافه ؛ فإن الحب هزله ونحله ، وأشقاه وأضناه ، وألوى بنضرة شبابه ، وبالغ فى إيصابه وعذابه ، وضاعف اللوم همه وغمه ، وأوجاعه وبلواه .

(١٢) الغدرة : المرة من الغدر : وهو الخيانة ، ونقض العهد . والخلان : الأخلاء : جمع الخليل : وهو الصديق الخالص ، أو المختص (فعيل بمعنى مفاعل) . والأرب : البُغْية : وهى ما يبتغيه المرء ويريده ويطلبه . أو هى « أدبى » : أى خُلُقى وسلوكى . والأدب : رياضة النفس — بالتعليم والتهذيب — على ما ينبغى . أى ليس الغدر بأخلاقى مما أطلبه وأبتغيه وأفكر فيه . أو ليس من سلوكى وخُلُقى . أو ليس مما يلائم أدبى ويسايره . وتلون الأخلاق : ضعفها وانحلالها . من قولهم : فلان متلون : أى متقلب متغير ، لا يثبت على خُلُق . والشيم : جمع شيمة (بوزن قيمة وقيم) : وهى الخلق والغريزة ، والطبيعة ، والجبلّة التى جُبل الإنسان عليها : أى فطر ، وخلق ، وطبع .

افتخر بالوفاء لأخلائه ، والثبات على ما اعتاده ، وفطر عليه من حميد الخصال ، وحسن الشيم . وأكد هذا الفخر بالقسم الذى صدر به البيت . وصلته بالأبيات السابقة واضحة وثيقة ؛ فهو وفىّ لمن أحبهم ، مقيم على ودّهم ، بعيد عن التلون ، لا يبالى — فى سبيل حبه ووفائه — لوم اللائمين ، ولا يكترث لعذل العاذلين ؛ فإن العذل محاولة يراد بها صرف المحب عن الوفاء ، وحمله على نقض العهد ، والغدر بمن أحبه .

فكَيْفَ أُنْكِرُ وُدًّا قدْ أَخَذْتُ بِهِ ... عَلَى الْوَفاءِ عُهُودًا بَرَّةَ الْقَسَمِ ؟(١٣)

إنْ لَمْ يكُنْ لِلْفَتَى عقْلٌ يَصُونُ بِهِ ... عَلَائِقَ الْوُدِّ ضَاعَتْ ذِمَّةُ الْحُرَمِ (١٤)

وَأَيْنَ مَنْ تَمْلِكُ الْأَحْــرَارَ شِيمَتُهُ ... وَالْغَدْرُ فِى النَّاسِ دَاءٌ غَيْرُ مُنْحَسِمِ ؟(١٥)

فَانْفُضْ يَدَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَلَسْتَ تَرَى ... خِلًّا وَفِيًّا ، وَعَهْدًا غَيْرَ مُنْصَرِمِ (١٦)

---

(١٣) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى . والعهود : جمع عهد : وهو الموثق واليمين . وبرّة صادقة . والقسَم : اليمين : اسم من أقسم بالله إقساماً : أى حلف . يريد أن ودّه لأودّائه قائم على عهود ومواثيق قوية متينة ، وأن وفاءه بهذا الود وحرصه على دوامه شديد تامّ ، فلا سبيل إلى إنكاره ، أو التهاون به ، أو التقصير فيه . وهو تأكيد لمعنى البيت السابق .

(١٤) علائق الود : علاقاته ، وأواصره ، وحباله ، وأسبابه ، وروابطه . الواحدة علاقة (بكسر العين) . والعلاقة (بفتح العين) : الصداقة . والحب . ولى فى هذا الأمر علاقة : أى تعلق وارتباط . والذمة : العهد ، والكفالة ، والحق ، والأمان والضمان . والحرم : جمع حرمة (بضم فسكون) : وهى ما وجب القيام به ورعايته ، وحرم انتهاكه والتفريط فيه من حق ، أو ذمة ، أو صحبة ، أو مودة وصداقة ، أو نحو ذلك . ومما يمكن إحلاله محل العقل هنا : القلب ، والخلق ، والدين .

يقول : إن عقل العاقل يفرض عليه صيانة أواصر المودات المعقودة بينه وبين أودّائه وأحبائه ؛ وهذا يقتضى أن يكون وفياً لهم ، برًّا بهم ، حريصاً عليهم . فإذا اعتلّ العقل أو اختلّ تقطعت أسباب الحب ، وانتقضت مواثيق الوفاء ، وضاعت الحقوق والعهود ، والذمم والحرمات . وهو تأكيد لمعنى الود والوفاء فى البيتين السابقين .

(١٥) غير منحسم : غير منقطع : أى داء عياء ، لا طب له ، ولا برء منه .

ينفى أو يستبعد وجود الحرّ الكريم الذى يأسر الأحرار بشيمه النبيلة ، وسجاياه الحميدة ، وبره ووفائه وصدق وداده . وسبب هذا النفى أو الاستبعاد أن الغدر شائع فى طبائع الناس ، وداء عضال لا سبيل إلى علاجه . وفى البيت روح التشاؤم ، والتبرم بالناس . وخمسة الأبيات الآتية كلها فى هذا المعنى . ومنها انتقل الشاعر إلى من أوذى بغدرهم وأحقادهم وفساد طواياهم ، وسوء خلالهم .

(١٦) نفض يديه من الدنيا (من باب نصر) : أعرض عنها ، وزهد فيها ، ولم ينخدع بها . والعهد : الموثق ، واليمين ، والذمة ، والوفاء ، والضمان ، والأمان ، والمودة ، والوصية . ومنصرم : منقطع . ويراد بالأمر فى أول البيت : النصح والإرشاد .

لم يجد الشاعر الخل الوفى ، ولا الصديق الصادق الذى يحفظ عهده ، ويصون وده ، ويرعى ذمامه ، ويصفى له إخاءه ؛ ولهذا هانت الدنيا عليه ، وسقطت فى عينيه ، فنفض منها يديه ؛ إذ لا قيمة لها عنده إلا بالأخلاء الأوفياء ، والأصدقاء الخلصاء الذين يوفون بالعهود ، ويخلصون فى المودات ، ويرعون الحقوق والحرمات .

هَيْهَاتَ ، لَمْ يَبْقَ فِى الدُّنْيَا أَخُو ثِقَةٍ ... يَرْعَى الْمَوَدَّةَ ، أَوْ يُلْقِى يَدَ السَّلَمِ (١٧)

فَلَا يَغُرَّنْكَ مِنْ وَجْهٍ بَشَاشَتُـــهُ ... فَالنَّـــارُ كَامِنَةٌ فِى نَاخِرِ السَّلَمِ (١٨)

تَغَيَّرَ النَّاسُ عَمَّا كُنْتُ أَسْمَعُهُ ... وَاسْتَحْكَمَ الْغَدْرُ فِى السَّادَاتِ وَالْحَشَمِ (١٩)

---

(١٧) هيهات : اسم فعل ماض : بمعنى بعُدَ . وما بعدها فى هذا البيت تفسير لها ، تأكيد لمعناها . وأخو ثقة : شخص أو صديق يوثق به ، و يطمأن إليه ، ويؤتمن على الحقوق والحرمات . ويرعى المودة : يصون المحبة القائمة بينه و بين أحبائه ، ويحافظ عليها ، ويفى بحقوقها . ومن معانى اليد : الطاعة ، والانقياد ، والاستسلام . والسلم : اسم من سلم تسليما : أى انقاد ، وخضع ، واستسلم . وسَلَّم عليه : حياه بالسلام . و يلقى يد السلم : أى ينقاد لدواعى الأخوّة ، و يخلص فيها ؛ فهو فى معنى « يرعى المودة » . وعلى هذا تكون « أو » : بمعنى « واو » العطف . أو يلقى يده بالتحية والسلام فى صدق و إخلاص .

والبيت تكرار وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فقد أعوزه الأخلاء الأوفياء ، والثقات المؤتمنون من صحابه وإخوانه الذين يرعون الود ، ويوفون بالعهد ، وينقادون لما يقتضيه الإخاء ، ويبرءون من النفاق والرياء .

(١٨) لا يغرنك : لا يخدعنك . غره : خدعه ، وأطمعه بالباطل ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . وبشاشة الوجه : تهلله وبشره وطلاقته . وكامنة : متوارية مستترة ، مستخفية . والسَّلَم : شجر شائك ، ينمو فى البلدان الحارة ، ويدبغ بورقه . واحدته سلمة (بوزن قصبة وقصب) . وناخر السلم : السلم الناخر : أى القديم البالى المتفتت .

يحذر الاغترار بالوجوه الضاحكة ، واللقاءات الخادعة ، والبشاشات الزائفة التى تخفى تحتها الختل ، والشر ، والكيد ، والغدر .

(١٩) السادات : جمع سادة . والسادة : جمع سيد ، أو سائد . والمصدر السيادة ، والسُّودد ، والسؤدد . والحشم : العبيد ، والخدم ، والأتباع . واستحكام الغدر فى السادات والحشم : شيوع الخيانة ونقض العهد فى الناس جميعاً : عليتهم وسفلتهم ، ومخدوميهم وخادميهم ، وانتشار الغدر بينهم على وجه الاستحكام والثبات والاستقرار ، كأنه مركوز فى طباعهم وجبلاتهم . وفى هذا البيت وأربعة الأبيات قبله كرر الشاعر — بالإشارة ، أو بصريح العبارة — ذكر الغدر وكثرته فى الناس . وهذا التكرير ينم على كثرة ما أصابه من أذى الغادرين وكيد الخائنين .

كان الشاعر يحسن الظن بمن يعنيهم بهذا الكلام ، وقد بنى حسن ظنه على السماع ؛ فلما جربهم تبين له أنهم أهل نفاق وغدر ، وشر وعدوان . والبيت الآتى فى هذا المعنى ، أو فيما يقرب منه .

وَظَلَّ أَعْدَلُ مَنْ تَلْقَاهُ مِنْ رَجُلٍ ... أَعْدَى عَلَى الْخَلْقِ مِنْ ذِئْبٍ عَلَى غَنَمِ (٢٠)

مِنْ كُلِّ أَشْوَهَ فِى عِرْنِينِهِ فَطَسٌ ... خَالٍ مِنَ الْفَضْلِ ، مَمْلُوءٍ مِنَ النَّهَمِ (٢١)

سُودُ الْخَلَائِقِ ، دَلَّاجُونَ ، مَا طُبِعُوا ... عَلَى الْمَحَارِمِ ، هَدَّاجُونَ فِى الظُّلَمِ (٢٢)

---

(٢٠) ظل : صار . والأصل : ظل يعمل كذا : إذا عمله بالنهار دون الليل . وأعدى : اسم تفضيل من عدا عليه عدواناً : أى ظلمه ، وتجاوز الحد فى ظلمه وعدوانه . والخلق : الناس .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالذى قبله ؛ فإن الشاعر ظن هؤلاء الناس فى مرتبة عالية من العدل والإحسان ؛ فلما بلاهم رآهم فى الدرك الأسفل من الجور والغدر ، وكان فتكهم بغيرهم أشد وأقسى ، وأنكى وأفظع من فتك الذئاب بالأغنام . يشير بهذا إلى ما فى طبائعهم من الشر والأذى ، والبغى والعدوان ، والظلم والطغيان . أجرى الشاعر هذا البيت وستة الأبيات قبله مجرى الحكم والأمثال ، وأدارها كلها حول فكرة واحدة ، هى شيوع الغدر فى الناس . وكأنما مهّد بها لسبعة الأبيات الآتية التى هجا بها من سخط عليهم ، ونقم منهم .

(٢١) « من » فى أول البيت : بيانية . وما بعدها وهو « كل أشوه .. » : بيان لما قبلها : وهم الذين أخلفوا ظن الشاعر ، وخيبوا رجاءه ، وناقض مخبرهم مظهرهم ، وكانوا شراً من الذئاب . وأشوه : قبيح دميم ، سيئ المنظر . والعرنين : ما صلب من عظم الأنف . والفطس : انخفاض قصبة الأنف : أى انفراشه فى الوجه . وضده الشمم : وهو ارتفاع فى قصبة الأنف ، مع استواء أعلاه . والفضل : الخير ، والفضيلة ، والإحسان . وضده النقص ، والشر ، والرذيلة . والنهم : الإفراط فى شهوة الطعام وغيره . ويراد به هنا : الحرص والشره ، والطمع الممقوت ، والنقائص والمثالب التى تناقض الفضل والفضيلة ، والخير والإحسان .

رماهم بالدمامة ، وشوه الوجوه ، وفطس الأنوف ، وقبح المنظر ، وسوء المخبر ، وجرّدهم من الفضل والخير ، ورماهم بالنهم والطمع الممقوت ، وشتى المثالب والمناقص .

(٢٢) الخلائق : جمع الخليقة : وهى الطبيعة التى خلق المرء عليها . ويعبر بالسواد فى مثل هذا المقام عن الشر والقبح والسوء . وسود الخلائق : طبائعهم سيئة قبيحة . مرذولة ممقوتة . ودلاّجون : جمع دلاج : من قولهم بات ليلته يدلج دلوجاً : أى يسير عامة الليل . وهو فى مقام الهجاء : كناية عن سوء السلوك . أو من دلج الرجل بحمله : إذا نهض به مثقلا . والمراد أنهم يمشون مثقلين بكثرة ما يحملونه من الأوزار والمخازى . « وما » : نافية . وطُبع على كذا : نشأ عليه ، وتعوده . وفى الأصل المخطوط « طمعوا » . والمحارم : جمع محرم (بوزن مذهب) . أو جمع محرمة : وهى ما حرمه الله تعالى . وما لا يحل انتهاكه من عهد أو ميثاق أو نحوهما : أى لم يطبعوا على اتقاء المحارم ، ولم يعتادوا احترام العهود ، وصيانة الحرمات ، ورعاية الذمم . وهدّاجون : جمع هدّاج : صيغة مبالغة من هدج (كضرب) : أى مشى متثاقلا فى ضعف وارتعاش . والهدجان فى ظلمات الليل : كناية عن ارتياد مواطن الريب والشبهات ، =

لَا يُحْسِنُونَ التَّقَاضِي فِى الْحُقُوقِ، وَلَا يُوفُونَ بِالْعَهْدِ إِلَّا خِيفَةَ النِّقَمِ (٢٣)

صُفْرُ الْوُجُوهِ مِنَ الْأَحْقَادِ، تَحْسَبُهُمْ - وَهُمْ أَصِحَّاءُ - فِى دِرْعٍ مِنَ السَّقَمِ (٢٤)

فَلَا ذَمَامَةَ فِى قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا أَمَانَةَ فِى عَهْدٍ وَلَا قَسَمِ (٢٥)

بَلَوْتُ مِنْهُمْ خِلَالًا لَوْ وَسَمْتَ بِهَا وَجْهَ الْغَزَالَةِ لَمْ تُشْرِقْ عَلَى عَلَمِ (٢٦)

= وانتهاك الحرمات، وارتكاب المحرّمات؛ فالناقص الفاسق يلبس الليل، ويستتر بسواده، ويمشى وراء نزواته، وينقاد لشهواته. وقد يكون الهدجان فى الظلمات: كناية عن الوشايات والنمائم، والكيد والمكر السيئ، والسعى بالإفساد.

(٢٣) التقاضى فى الحقوق: المطالبة بها، واستردادها من آخذيها. والكلام هنا يشمل الحقوق العامة والحقوق الخاصة. والنقم: جمع نقمة: وهى العقوبة والانتقام.

وصمهم بالعجز والتقصير فى تقاضى الحقوق الوطنية، والحقوق الشخصية، وهم لا يوفون بالعهود والعقود، ولا يحترمون الأيمان والمواثيق، ولا يراعون الذمم والحرمات إلا إذا خافوا العقوبة والانتقام؛ فهم ضعاف لئام جبناء.

(٢٤) الأحقاد: جمع حقد: وهو الضغن، والانطواء على العداوة، وإضمار البغضاء، والغضب الثابت فى القلب. وحقد عليه (من بابى ضرب وتعب): أضمر له العداوة، وتربص فرصة الإيقاع به؛ ولا ريب أن عجز الحاقد عن إيذاء المحقود عليه يضاعف الحقد فى نفسه، ويؤجج ناره، ويضاعف آثاره فى الوجه وغيره.. وتحسبهم: تظنهم. وجملة «وهم أصحاء»: جملة حالية. والدرع: القميص. والسقم: المرض.

انطوت قلوب المهجوين على الأحقاد والضغائن، وعجزوا عن إيذاء المحقود عليهم؛ فبدت وجوههم مصفرة شاحبة، فإذا رأيتهم ظننتهم مرضى، وهم فى حقيقة الأمر أصحاء، وما تراه فى وجوههم صفرة الضغينة والعجز، لا صفرة العلة والمرض.

(٢٥) الذمامة (بفتح الذال وكسرها): الذمة، والحق، والكفالة، والضمان، والحرمة، والعهد، والأمان. والذمامة (بفتح الذال): الحياء والخجل والإشفاق من الذمّ واللوم. والعهد: ما يجب مراعاته، والمحافظة عليه، والوفاء به من الذمم والحرمات، والأيمان والمواثيق، والحقوق، والكفالات ونحوها. والقسم: اليمين: وهو اسم من أقسم بالله تعالى: أى حلف.

جرّدهم فى أقوالهم وأعمالهم من الحياء والخجل، أو من مراعاة الذمة والحق، كما جرّدهم - فى عهودهم وأيمانهم - من الصدق والأمانة.

(٢٦) بلوت: خبرت، وجرّبت، وامتحنت، وعرفت. (وبابه عدا). ومنهم: من المهجوين أو من الناس الذين خالطهم وعاملهم. والخلال: الخصال، والشيم، والطبائع، والأخلاق. الواحدة =

لمْ أَدْرِ ، هَلْ نَبَغَتْ فِى الْأَرْضِ نَابِغَةٌ   أَمْ هَذِهِ شِيمَةُ الدُّنْيَا مِنَ الْقِدَمِ ؟ (٢٧)

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا مَنْ إِذَا نَهَضَتْ   بِهِ الْحَمِيَّةُ لَمْ يَقْعُدْ عَلَى رَغَمِ (٢٨)

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِى الْمَسَاعِى مَا يَبِينُ بِهِ   فَضْلُ الرِّجَالِ تَسَاوَى النَّاسُ فِى الْقِيَمِ (٢٩)

= خلّة (بفتح الخاء) . ووسمت (بتاء المتكلم ، أو بتاء المخاطب) . وسمه (من باب وعد) : كواه ، وأثر فيه بسمة أو كى . أو جعل له سمة : أى علامة يعرف بها . والغزالة . الشمس . والعلم : الجبل .

يقول : لو تلطّخ وجه الشمس بما عرفه من نقائص هؤلاء المهجوين وخصالهم الذميمة ، لاحتجبت استحياء وخجلاً .

(٢٧) نبغ (كمنع ، ونصر ، وضرب ، ودخل) : بدا ، وظهر . والنابغة : اسم فاعل منه . ويراد بها هنا : الظاهرة المستحدثة . والشاعر يشير بها إلى ما بلاه وعرفه فيمن خالطهم وعاملهم من سوء الخلال ، وقبح الخصال ، ولؤم الطباع ، وفساد الفعال والأخلاق . و« أم » فى الشطر الثانى للإضراب . والشيمة : الخلق ، والطبيعة ، والعادة . وفى الأصل المخطوط « العدم » وصوابها « القدم » .

جرّب الشاعر المهجوين ، واختبر من خالطهم من الناس ، وتجرّع ما ساءه وحزنه ، وغاظه ، وآذاه من سوء خلالهم ، وفساد طباعهم ، واستحكام الغدر والخيانة فى عامتهم وخاصتهم ، وسوقتهم وسادتهم ، فاستقهم فى امتعاض وأسف : أهذه ظاهرة مستحدثة فى الناس ، جدت بعد أن لم تكن ؟ ولكنه ما لبث أن أضرب عن هذا السؤال ، وقرر فى الشطر الثانى أن هذه طبيعة الحياة والناس منذ خُلقوا .

(٢٨) المجد : العز والرفعة ، والنبل والشرف . والحمية : القوة الغضبية إذا كثرت وزادت وثارت فى الإنسان . ويعبر بها فى مثل هذا المقام عن الأنفة ، والترفع عن الدنايا ، والمحافظة على المحارم ، والدفاع عن العرض والشرف ، والغضب للعزة والكرامة إذا انتقصت أو مُسّت بسوء . والرغم : الذل والهوان : مصدر رغم (من باب تعب) : أى ذل وهان وأكره على شىء لا يرضاه . ونهضت به حميته : رفعته فى مراتب العزة والكرامة ومعالى الأمور ، وأبت عليه أن يقيم على الضيم ، أو يرضى بالهوان . وفى الأصل المخطوط « دغم » . وفى المعجمات : أدغمه الشىء ؛ أى ساءه . وأدغمه الله : أى سود وجهه وأذله . وأرغمه الله وأدغمه : أى أذله وأخزاه . وراغم داغم . ورغماً دغماً .

يقول : إنما يدرك المجد ذو الحمية والأنفة الذى يأبى الضيم ، ولا يقيم على الذل ، ولا يرضى بالهوان . ساق الشاعر هذا البيت والذى بعده مساق الحكم والأمثال . ولعل الصلة بين هذه الحكمة والهجاء الذى سبقها أن المهجوين انحرفوا بمناقصهم عن الجادة ، وبعدوا عن المجد والحمية والفضل وشرف الخلال . ومكارم الأخلاق .

(٢٩) المساعى : المكرمات وأعمال الخير والبر ، والمحاسن الكبيرة التى تكسب صاحبها الشرف والمجد ، واحدتها بسعاة . والمساعى أيضاً : جمع المسعى (بوزن المرمى) : مصدر ميمى : بمعنى السعى ، والمسلك ، والتصرف ، والعمل ، والكسب . ويبين : يبدو ويظهر ويتضح وينكشف . والفضل : الخير ، =

فَأَيُّ غامِضَةٍ لَمْ تَجْلُهَا فِطَنِي ؟ وأَيُّ باذِخَةٍ لَمْ تَعْلُهَا قَدَمِي ؟(٣٠)

وَكَيْفَ لَا تَسْبِقُ الْمَاضِينَ بَادِرَتِي وَالسَّمْهَرِيَّةُ تَخْشَى الْفَتْكَ مِنْ قَلَمِي ؟ (٣١)

= والفضيلة ، والإحسان . وضده النقص ، والرذيلة ، والإساءة . وقيمة الشيء : قدره ، ووزنه ، واعتباره وجمعها قيم (بوزن ديمة وديم) .

والمعنى : أن الناس يتفاوتون فى مراتبهم ودرجاتهم وأقدارهم بتفاوت أعمالهم ومساعيهم . وهممهم وكفاياتهم ؛ فالمساعى النبيلة الحميدة ، والأعمال الصالحة العظيمة تشهد لأصحابها بالفضل والإحسان ، وترفعهم فى مراتب المجد والسودد . وعلى العكس منها المساعى الوضيعة الممقوتة ، والأعمال السيئة المرذولة ، أو التافهة الحقيرة ، أو المعتلة الفاسدة ؛ فإنها تجرد أصحابها من الخير ، وتنزل بهم إلى الحضيض . والغرض الحض على المكرمات وأعمال الخير والبر ، والمروءة ، والإحسان ؛ فبها يظهر فضل الأفاضل من الناس ، وفيها يتنافسون . ولولاها لامحت الفوارق والمميزات ، وتساوى النابه والخامل ، والعامل والعاطل ، والقوى والضعيف ، والذكى والغبى ، والتقىّ والفاجر ، والمحسن والمسىء . وفى البيتين الآتيين ينتقل الشاعر إلى الفخر ببعض مناقبه .

(٣٠) الاستفهام فى شطرى البيت : معناه النفى ؛ ففطنته تجلو كل غامضة ، وقدمه تعلو كل باذخة . والفطن : جمع فطنة : وهى الحذق ، والمهارة ، والذكاء ، وحدّة العقل ، وجودة الفهم ، وتوقّد الذهن ، وتمام استعداده لإدراك ما يرد عليه . وبذخ الجبل ونحوه (من بابى دخل وفرح) : طال ، وعلا ، وارتفع ، فبان علوه وارتفاعه . ويراد بالباذخة : المرتبة الرفيعة العالية من مراتب المجد والعز ، والشرف والسودد . فهو يتسنّم بفطنته وهمته وكفايته ما يصعب على غيره من معالى الأمور ، والمقاصد البعيدة الكبيرة . وعلاه يعلوه (من باب سما) : رقيه ، وصعده .

افتخر بفطانته وهمته وقوة عزيمته ؛ وبهذه المزايا وأشباهها يجلو غوامض الأمور ، ويحل المشكلات ، ويقتحم العقبات ، ويتسنّم ذروة المجد والسودد ، ويحقق الآمال الواسعة ، ويدرك المقاصد البعيدة .

(٣١) البادرة : البديهة . ويراد بها : ما يرتجله من الشعر والنثر والخطب والأدب والبيان . ورمح سمهرى ، ورماح سمهرية ، وقناة سمهرية : نسبة إلى « سمهر » (بوزن جعفر) : وهو رجل اشتهر عند العرب بتثقيف الرماح وتقويمها . يريدون بنسبتها إليه : أنها أجود الرماح وأمضاها . وفتك به (من بابى ضرب وقتل) : بطش به ، وقتله مجاهرة . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة بعدها حالية .

يفتخر بنبوغه وسبقه فى مجال الأدب والبيان . وهو بمرتجلاته من الشعر والنثر والخطب يفوق الماضين من فحول الشعراء ، وأساطين الخطابة واللسن . وقلمه أبلغ أثراً ، وأعظم خطراً من أمضى أسلحة الحرب والقتال . والصلة واضحة بين بيتى الفخر وبيتى الحكمة قبلهما .

لِكُلِّ عَصْرٍ رِجالٌ يُذْكَرُونَ بِهِ ... وَالْفَضْلُ بِالنَّفْسِ لَيْسَ الْفَضْلُ بِالْقِدَمِ (٣٢)

وَقَالَ * :

مَنْ لِعَيْنٍ إِنْسَانُهَا لَا يَنَـامُ ... وَفُؤَادٍ قَضَى عَلَيْهِ الْغَرَامُ ؟ (١)

أَقْطَعُ اللَّيْلَ بَيْنَ حُزْنٍ وَدَمْعٍ ... وَسُهَادٍ ، وَالنَّاسُ عَنِّى نِيَامُ (٢)

---

(٣٢) يقول : لكل زمان دولته ورجاله الذين اشتهروا به ، واشتهر بهم . وفضل الأفاضل منهم لا يكون بقدم الزمان ، أو حداثته . وإنما يكون بما تنطوى عليه نفوسهم من الفضائل وكرم الخلال ، وما يخلدونه من الأعمال العظيمة ، والآثار النافعة ،والمساعى والمكارم . والبيت يجرى مجرى الحكم والأمثال. وصلته ببيتى الفخر قبله أن البارودى من أدباء العصر الحديث وشعرائه ، ومع حداثته وحداثة عصره بزّ القدامى وفضلهم ، وفاق الأوائل وسبقهم . وكأنه يعنى قول القائل :

وإنى — وإن كنت الأخير زمانه — ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

ويلاحظ أن كلمة « القدم» مكررة فى البيتين السابع والعشرين والثانى والثلاثين . وهذا عيب من عيوب القافية اسمه « الإيطاء » ؛ وهو إعادة كلمة الروىّ لفظاً ومعنى من غير أن يفصل بين اللفظين المكررين سبعة أبيات على الأقل .

* * *

* يعارض البارودى بهذه القصيدة قصيدة لأبى الطيب المتنبى مطلعها :

لا افتخار إلا لمن لا يضـــام ... مدرك ، أو محارب لا ينام

فالقصيدتان متفقتان فى الوزن والروى . وفى بعض المعانى .

(١) إنسان العين : حدقتها . أو ناظرها . أو سوادها . أو المثال الذى يرى فى سوادها . وقضى عليه : صرعه ، وقتله . والغرام : العشق .

اشتدّ به الوجد والغرام ، فذهب بقلبه ، وأورثه الهمّ والأرق ؛ فاستنجد بمن يعينه على أمره ، ويخفّف أوصابه ومتاعبه . والحبيب المتغزل به خير من ينجده بقربه ووصاله ، ويردّ إليه أمنة النعاس ، ويحيى فؤاده ، ويحقق مراده .

(٢) أقطع الليل : أقضيه كله . وهو من مجاز اللغة . كما يقال : قطع المفازة . وقطع النهر : أى عبره واجتازه من أحد شاطئيه إلى الآخر . والسهاد : الأرق ، والسهر . والجملة الاسمية فى الشطر الثانى : جملة حالية . ونام عنه : غفل عنه ، ولم يأبه به ، ولم يكترث له ، ولم يهتم بأمره ، فهو نائم ، وجمعه نيام .

فى البيت السابق افتتح هذه القصيدة بسؤال يحمل معنى الاستغاثة والاستنجاد ؛ لعله يجد من يرثى =

لَا صَدِيقٌ يرْثِى لِمَا بِتُّ أَلْقَا ... هُ . وَلَا مُسْعِدٌ - فَأَيْنَ الْكِرَامُ ؟(٣)

لَمْ تَدَعْ لَوْعَةُ الصَّبَابَةِ مِنِى ... غَيْرَ نَفْسٍ غِذَاؤُهَا الْآلَامُ(٤)

رَقَّ طَبْعُ النَّسِيمِ رِفْقًا بِحَالِى ... وَبَكَى - رَحْمَةً - عَلَىَّ الْحَمَامُ(٥)

وَبِنَفْسِى - لَوْكُنْتُ أَمْلِكُ نَفْسِى - ... قَمَرٌ نُورُهُ عَلَىَّ ظَلَامُ(٦)

=لحاله ، ويستمع لشكواه ويعينه على أمره. وفى هذا البيت شكا فقدان النصير والمجير ، وغفلة الناس عنه ، وقلة اهتمامهم بأمره ، وهو يقضى لياليه كلها حزيناً باكياً ، قد أرقه الوجد والصبابة ، وأضناه الهوى والغرام . والبيت الآتى تفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

(٣) رثى له (من باب رمى) : رحمه ، ورقّ له ، وحنا عليه . وبات يفعل كذا : إذا فعله ليلا . وهو يشير بما بات يلقاه إلى ما صرح به فى البيت السابق من الحزن والبكاء ، والأرق والسهاد . والعاشق الصب المستهام يلقى كل هذا ويكابده ويعانيه ليلا ونهاراً ، غير أن ليله أقسى عليه من نهاره . والمسعد : النصير ، والمجير ، والمعين : اسم فاعل من أسعده : أى أعانه وأنجده . و«أين» : اسم استفهام ، يطلب به تعيين المكان . ويراد بالاستفهام هنا : الاستنجاد والاستغاثة . وكرام الناس : كرماؤهم وخيارهم الذين يرقون لمثله ، ويشفقون عليه ، وينقذونه من كربه وبلائه .

فصّل الشاعر فى هذا البيت ما أجمله فى البيت السابق ، وأجمل ما فصّله : أجمل ما يلقاه فى ليله. وفصل أمر الغافلين عنه من الناس : فلم يجد فيهم مسعداً يسعده ، ولا صديقاً يرثى لحاله ، ولا كريماً يرقّ له ، ويحنو عليه .

(٤) لم تدع : لم تترك . واللوعة: الحرقة . ولاعه الحب (من باب قال) : أحرقه ، وأمضّه ، وأوجعه . والصبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق .

(٥) النسيم : الريح الطيبة اللينة اللطيفة . ورقّة طبع النسيم : لينه واعتداله ولطف حركته .

فى أربعة الأبيات السابقة وصف حاله ، وهى حال الصب المستهام ، وشكا واستنجد ، وتألم وتوجع ؛ ولما رأى غفلة الناس عنه ، وقلة اهتمامهم بأمره ، عزى نفسه فى هذا البيت ، فتخيل أن النسيم رفق به ، وأشفق عليه ، فرق ولان ولطف لعله يستطيع برقته ولينه ولطافته أن يخفف وجده ، ويهوّن لوعته . كما تخيل أن الحمام شاركه فى حرقته وصبابته فناح وبكى ، وشدا وترنم ، وغنى وسجع ، وهدر ورجع رأفة به ، وحناناً عليه .

(٦) شبّه حبيبه بالقمر . وقال : إنه ضنين عليه باللقاء والوصال ؛ فلا يكاد يستمتع بشىء من ضيائه وبهائه ؛ ولهذا يعيش كئيباً ملتاعاً فى ظلمات الصدود والهجران . ثم قال : إن نفسه ليست له ، وإنما هى لهذا الحبيب ؛ فقد تيمها وأسرها ، ولو عادت إليه لفداه بها .

تَسْتَطِيبُ الْقُلُوبُ فِيــهِ الرَّزَايَا وَتَلَذُّ الضَّنَى بِهِ الْأَجْسَامُ (٧)

صَنَمٌ ، حَامَتِ الْقُلُوبُ عَلَيْهِ ـ فَانْظُرُوا : كَيْفَ تُعْبَدُ الْأَصْنَامُ ؟ (٨)

غَيَّرَتْهُ الْوُشَــاةُ ؛ فَازْوَرَّ عَنِّى وَهْوَ مِنِّى بِنَجْوَةٍ لَا تُرَامُ (٩)

---

(٧) استطابه يستطيبه: وجده طيباً حسناً ، تلذه النفس ، وترتاح له . وفيه : فى الحبيب المتغزل به : أى فى سبيل حبه والتعلق به . والرزايا : المصائب والبلايا . الواحدة رزيئة ، أو رزيّة (بالهمز أو بالتخفيف) . ولذّ الإنسان الشىء ، وبالشىء (من باب سلم) : أى وجده لذيذاً شهيًّا . والضنى : الداء المخامر ، والمرض الملازم الذى يشرف به المريض على الموت . وكلما ظن أنه برئ منه انتكس (وفعله من باب صدى) . وأكثر ما يستعمل الضنى فى أوصاب العشق ، وآلام الغرام . وبه : أى بالحبيب ، أو بالحب : أى بسببه ، وفى سبيله . والترتيب الأصلى لكلمات الشطر الثانى : وتلذ الأجسام الضنى به : أى بالقمر الذى كان نوره على عاشقه عتمة وظلاماً .

والمعنى : أن الحب العذرىّ العفيف الصادق يهيّئ قلب المحب ونفسه وجسده لاحتمال ما يلقاه فى سبيل الغرام من الرزايا والبلايا ، والأوصاب والآلام ، بل يجعلها فى نظره وحسه طيبة شهية ، ممتعة لذيذة ، كالمكافح فى سبيل أمنية عزيزة عليه يجد فى متاعب الكفاح لذته وراحته .

(٨) الصنم : الوثن : وهو تمثال من حجر أو خشب أو معدن ، كانوا يصنعونه بأيديهم ، ويزعمون أن عبادته تقربهم من الله . وجمعه أصنام . وحام حول الشىء ، وحام عليه (من باب قال) دار حوله ، وطاف به .

حاكى الشاعر بعض الشعراء المتحضرين فى عصر الدولة العباسية ، فاستخدم فى غزله ضمير المذكّر . وهو هنا يشبّه معشوقته بالصنم ، ويشير بهذا التشبيه إلى فائق حسنها ، وتعلق القلوب بها . وفى الشطر الثانى يسترعى الأنظار ، ويعجب ، ويعجّب غيره من افتتان الإنسان بالجمال المجسم ، وبراعة التصوير ، وحسن التقسيم .

(٩) الوشاة : جمع الواشى : اسم فاعل من الوشاية : وهى النميمة والسعاية . وشى كلامه : زوّره وزخرفه بالكذب ، وسعى به ليوقع فتنة ، ويفسد به بين الناس . وازورّ عنى : أعرض عنى ، ومال وانحرف . والنجوة : ما ارتفع من الأرض . وهو بنجوة منى : أى هو بعيد عنى ، مغرق فى البعد . ولا ترام : لا تنال ، ولا يستطاع الوصول إليها . والأصل : رام الشىء (من باب قال) : أى أراده وطلبه . ومن كلامهم : « هو بعيد المرام » .

يشير إلى أثر الوشاية فى تقطيع العلائق والروابط بين المتحابين ، فبها تغير حبيبه ، وتبدّلت حاله ؛ فأعرض عنه ، وجفاه ، وأصبح بعيد المرام ، صعب المنال .

زَعَمُونِى أَتَيْتُ ذَنْبًا ، وَمَا لِى — يَعْلَمُ اللهُ — فِى هَوَاهُ أَثَامُ(١٠)

سَوْفَ يَلْقَى كُلُّ امْرِئٍ مَا جَنَاهُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأَحْكَامُ(١١)

يَا نَدِيمَىَّ ! عَلِّلَانِى ، فَلَنْ تَهْلِكَ نَفْسٌ قَدْ عَلَّلَتْهَا النِّدَامُ(١٢)

---

(١٠) زعم : ظن . وواو الجماعة : ضمير الوشاة فى البيت السابق . وأكثر استعمال الزعم فيما يكون كاذباً أو باطلا . أو فيما يكون موضع شك وارتياب . و« يعلم الله » : جملة معترضة بين المبتدإ والخبر ، لتأكيد الكلام ؛ كأنها قسم . والأثام : الإثم والذنب .

زعم الوشاة لحبيبه أنه ارتكب فى الحب ذنباً ، فدفع عن نفسه هذا الزعم الكاذب ، وأكد براءة هواه من الأوزار والشبهات ، وإذا برئ الحب من الإثم والريبة كان عذرياً نقياً ، عفيفاً شريفاً ، يستحق الإكبار والاحترام . والبيت تفصيل لبعض ما أجمله فى البيت السابق .

(١١) جنى (كرمى) جناية : أجرم وأذنب . وجنى الذنب على غيره : جره إليه . وتجنى عليه : رماه بإثم لم يرتكبه . ومعنى الشطر الأول : أن كل جان سوف يلقى جزاء جنايته أو تجنيه ، أى سوف يؤاخذ بذنبه وجريرته . وترجع (بالبناء للمفعول) : من الرجع : مصدر رجع إليه الشىء (من باب ضرب) : أى رده إليه وأعاده . أو هو (بالبناء للفاعل) من الرجوع : مصدر رجع الشىء (من باب جلس) : أى عاد . والأحكام : جمع الحكم : مصدر حكم بكذا : أى قضى به ، وفصل .

فى البيت السابق شكا تجنى الوشاة عليه ، وإساءتهم إليه ، وبرأ نفسه من آثام الهوى ومزالقه . وفى هذا البيت أن كل جان مجزىّ بجنايته وتجنيه . وكأن الشاعر يحاول بهذا محو أثر الوشاية فى نفس حبيبه ، وردع الوشاة وزجرهم وتحذيرهم عقاب الله وانتقامه . والشطر الثانى تذييل يؤكد الشطر الأول : « والله يقضى بالحق » (الآية رقم ٢٠ من سورة غافر) . « وله الحكم ، وإليه تُرجعون » . (الآية رقم ٧٠ من سورة القصص) .

(١٢) نديمك : منادمك : أى مسامرك ، ومصاحبك ، وجليسك على الشراب : فعيل بمعنى مفاعل . وجمعه ندماء (بوزن كريم وكرماء) . ومثله الندمان . وجمعه ندام (بوزن غضبان وغضاب) . وعلله بالطعام وغيره تعليلا : شغله به ولهّاه . وعلله : سقاه سقياً بعد سقى . وعلله : عالجه من علته وداواه . وقد يكون التعليل بناجع القول ، وحلو الكلام ، وعذب الحديث . والبيت الآتى يرجح هذا المعنى ويظهره ويؤيده .

نادى نديمين حقيقيين أو خياليين نداء استنجاد واستغاثة راجياً منهما أن يعالجا ما يقاسيه من ضنى الحب ، وكيد الوشاة . أو يسقياه الخمر نهلاً وعللاً ؛ فإنها فى زعم شاربيها تداوى الكلوم ، وتسلّى من الهموم . وفى البيت تنويه بفضل الندماء ، وقيمة كلامهم ، وأثرهم المحمود فى إنقاذ مثله من براثن الردى والهلاك . وفيه إيمان بفائدة التعليل المطلوب .

رُبَّ قَـوْلٍ يَرُدُّ لهفَـةَ قَلْب ... وَكَلامٍ تَجِفُّ مِنْهُ الْكِلَامُ(١٣)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَرَاهُ سَلِيمًـا ... وَهْوَ دَاءٌ تَدْوَى بِـهِ الْأَفْهَامُ(١٤)

قَدْ ـ لَعَمْرِي ـ بَلَوْتُ دَهْرِي :فَمَا أَحْ ... مَدْتُ مِنْهُ مَا تَحْمَدُ الْأَقْوَامُ(١٥)

---

(١٣) «ربّ» : حرف خافض لا يقع إلا على نكرة . وهو هنا يفيد التكثير . واللهفة : الحزن والأسى ، والتحسر على الفائت . ولهفة قلب العاشق : احتراقه ، ولوعته ، ووله ، وتبريح الوجد به . وردّ اللهفة : صرفها ، وإزالتها . والكلام فى آخر البيت : الجروح : جمع كلم (بوزن سهم وسهام) . كلمه (من باب ضرب) : جرحه . وجفاف الكلام : اندمالها ، وبرؤها ، وشفاؤها ، وزوال أثرها . وبين «كلام» و«كِلام» جناس ، وهو من المحسنات اللفظية البديعية ، جاء هنا عفواً ، وسمح به الطبع من غير تكلف ؛ فحسّن العبارة ، وضاعف تأثيرها ، ورفع منزلتها فى مراتب البلاغة والبيان .

ينوّه بالندماء وأقوالهم التى تقع من قلوب الملهوفين موقع الماء من ذى الغلة الصادى ؛ فتعالج جراح نفوسهم ، وتصرف عنهم اللهفة والالتياع ، وترد إليهم الرضا والارتياح . وقد يكون المعنى عاماً يشمل من يعالجون الأمراض النفسية بحلو الكلام ، وعذب الحديث ، والقول الساحر ، والحكمة البالغة . وفى هذا البيت وتسعة الأبيات بعده إلى نهاية القصيدة ، جنح الشاعر لما يشبه الحكم والأمثال ، وشكا ما عاناه وآذاه من عيوب الناس ونقائصهم ، وبخاصة الغدر والنفاق .

(١٤) تراه : تحسبه وتظنه . أو تبصره وتعاينه. أو تتوهّمه وتتخيّله . أو تعلمه وتتيقّنه (بالبناء للمجهول ، أو بالبناء للمعلوم) . وسليماً : أى سليم القلب والضمير ، سالماً من الأحقاد والضغائن ، والمثالب والمعايب. و«هو داء» : جملة حالية : أى تحسبه سليما والحال أنه غير سليم . وقد بالغ فجعله الداء نفسه . وتدوى : تمرض (وبابه صدى) . والأفهام : جمع فهم : وهو حسن تصور المعنى ، وجودة استعداد الذهن للاستنباط . جعل الأفهام تدوى به ، لأنها تنخدع برهة بسلامة ظاهره ؛ فكأنها تمرض ، ويعوقها المرض عن العمل ، فلا تكشف فساد باطنه .

يقول : ومن الناس من تخدعك سلامة ظاهره وهو فى حقيقة أمره شر وبلاء ، وأذى وداء يصيب الأفهام ؛ فيعوقها عن كشف باطنه ، واتقاء شره . والغرض التحذير من الظواهر الخادعة الكاذبة التى تخفى تحتها الحقد والضغن ، والمكر والغدر ، والختل والإجرام .

(١٥) لعمرى : قسم بحياتى . العمر : الحياة . واللام : لام الابتداء . وعمرى : مبتدأ أضيف إلى ياء المتكلم . والخبر محذوف ، تقديره قسمى ، أو ما أحلف به . وبلوت : اختبرت ، وامتحنت وجربت . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها . ودهر المرء : مدة حياته . وأحمده إحماداً : وجده محموداً . أو رضى فعله أو مذهبه . أو ارتاح له ، وسرّ به . وحمده (من باب فهم) : رضى عنه ، وارتاح له . والأقوام : جماعات الناس : جمع قوم .

اعتاد الناس أن يضيفوا إلى الدهر ما يسرهم ويسوءهم من الخير والشر ، والنفع والضر ، ويرتبوا =

صَلَفٌ لَا يَبُلُّ غُلَّةَ صَادٍ ... وَمَرَاعٍ هَشِيمُهَا لَا يُشَامُ(١٦)

أَطْلُبُ الصِّدْقَ فِي الْوِدَادِ ، وَأَنَّى ... يَصْدُقُ الْوُدُّ وَالْعُهُودُ رِمَامُ ؟(١٧)

كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ أَصَبْتُ خَلِيلًا ... أَضْحَكَتْنِي مِنْ غَدْرِهِ الْأَيَّامُ(١٨)

= على هذه الإضافة الحمدّ والرضا ، أو الذمّ والسخط . وإذا كان بعضهم قد حمده وارتضاه ، فإن الشاعر جرب دهره وبلاده ؛ فلم يجد فيه ، أو في الناس ما يحمده ويرتضيه . والقَسَم الذي في صدر البيت يؤكد هذا ويقويه . وقد يكون المعنى : أن الأقوام الذين يعنيهم الشاعر بكلامه فسدت طباعهم وأخلاقهم ، واختلت عقولهم وموازينهم ؛ فاعتادوا ما لا يحمد من الشر والأذى ، والذل والضيم ، والهوان والضعف ، والفساد والإفساد.

(١٦) صلف (بفتح فكسر ، أو بفتحتين) : صفة ، أو مصدر صلف الشيء (من باب تعب) صَلَفاً : أي قلّ خيره وغَناؤه. والغُلّة : شدة العطش وحرارته . والصادى : العطشان . والمراعى : جمع المرْعَى : وهو ما ترعاه الماشية من النبات والكلأ . أو هو موضع الرعى . والهشيم : المهشوم المتكسر من النبات الأجوف اليابس الجاف الهالك القديم البالى . وما يجمعه الحاطب من حثالة النبات ، وحطام الأغصان اليابسة . ولا يشام : لا يعتدّ به ، ولا يؤبه له ، ولا يرجى فيه خير أو غناء .

في البيت السابق اختبر دهره وجربه ، فلم يجد فيه خيراً يحمده ويرتضيه . وهذا البيت تأكيد لعقم الدهر ، وقلة خيره . أو قلة الخير في الناس ، وغلبة الشر والفساد . والبيتان الآتيان يوضحان هذا المعنى ويؤكدانه .

(١٧) «أنى» : اسم استفهام يأتى لعدة معان : فيكون بمعنى كيف . وبمعنى متى . وبمعنى من أين . ويراد به هنا : الاستبعاد ، أو النفى . والواو في الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . والعهود : جمع عهد : وهو الموثق ، واليمين ، والذمة ، والوفاء ، والحفاظ ، والأمان ، وكل ما يجب حفظه وتعهده ومراعاته حالاً بعد حال. وعلى هذا يعدّ الود من العهد. ورمام: خَلَق، بالية: من قولهم : حبل رمام : أى بال متقطّع مسهلك.أو هو جمع رمّة: القطعة من الحبل البالى ، والعظام البالية . أو هو جمع رميم . يقال : عظم رميم ، وعظام رمام . أو هو رمام (بضم الراء) : بمعنى رميم بال .

يطلب صدق الوداد ؛ وكأنما يطلب المحال؛ فإن المودّات بين الناس واهية كاذبة، والعهود لا وفاء بها ، ولا احترام لها . وكيفما كان تفسير العهد ، فإن الصلة بينه وبين الود وثيقة؛ فإذا أصاب الكذب أحدهما أصاب الآخر . وإذا انحلّت العهود انحلّت بانحلالها الصلات والمودّات، ولم يبق بعدها غير الرياء والنفاق ، والمخاتلة والخداع .

(١٨) الخليل : الصديق الخالص المختصّ : فعيل بمعنى مفاعل . من المخالّة : وهى المصادقة .والخُلّة : الصداقة والمحبة التى تخللت القلب : أى صارت خلاله : أى فى باطنه . أو التى لا يعتريها خلل، أو وهن . وضحك منه. وضحك به: سخر منه، واستهزأ به . أو عجب منه ،أو فزع. =

فَتَفَرَّدْ تَعِشْ بِنَفْسِكَ حُـرًّا رُبَّ فَرْدٍ يَخْشَاهُ جَيْشٌ لُهَامُ(١٩)

وَاحْذَرِ الضَّيْمَ أَنْ يَمَسَّكَ ؛ فَالضَّيْـ ـمُ حِمَـامٌ يَفِـرُّ مِنْهُ الْحِمَامُ(٢٠)

ضَلَّ قَوْمٌ تَوَهَّمُوا الصَّبْرَ حِلْمًـا وَهْوَ ـ إِلَّا لَدَى الْكَرِيهَةِ ـ ذَامُ(٢١)

= يقول : كلما ظن أنه عثر على صديق صادق الود أخلفت الأيام ظنه ، وخيبت التجربة رجاءه ، وأظهرت له أن هذا الصديق كاذب فى وداده ، منافق خائن غدّار ؛ فضحك سخرية ، أو فزعاً ، أو عجباً من عقم الدهر ، وضياع الوفاء ، وشيوع الكذب ، وقلة الصدق فى الناس .

(١٩) تفرّد : أمر من التفرّد : وهو الانفراد والتوحّد ، والاعتزال عن الناس . والأمر هنا : للنصح والإرشاد . ورب : حرف خافض يختص بالنكرة . ويفيد هنا التقليل . والفرد : المنفرد المتوحّد المفرد . ويقابله الجمع . وجيش لهام (بوزن غراب) : عظيم ، كثير ، قوىّ ، جرّار ؛ كأنه يلتهم كل شىء .

فى خمسة الأبيات السابقة شكا الشاعر كثرة الغدر والخيانة ، وقلة الصدق والوفاء فى كثير ممن عرفهم من الناس . ويبدو أنه أوذى بغدرهم ، ولقى منهم الأمرّين ، فلم يسعه إلا أن ينصح لنفسه ولغيره ، ويحضّ على اعتزالهم ، والابتعاد عنهم ، ويرغّب فى التوحّد والانفراد ؛ فإن الوحدة خير من جليس السوء ؛ واعتزال اللئام الأشرار يهيّئ للمعتزل فى عزلته جواً من العزة والحرية ورخاء البال ، ويبعده عما يسوءه ويكدر حياته . والشطر الثانى تذييل يجرى مجرى المثل ، ويعزز هذا المعنى ويؤكده ؛ كأنه يقول : ولا ضير فى انفرادك ؛ فإن الجيش اللهام قد يخشى مثل هذا المتفرد الذى نجا بنفسه من ختل اللئام وكيدهم ، واستردّ بالعزلة حريته وقوّته ، وأهبته ، واستعداده ، وبأسه ، وإباءه .

والحضّ هنا على العزلة ، والترغيب فيها ، والتنفير من الجمع بين احتمال الأذى ورؤية المؤذى يذكّرنا بقول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى تماثل هذه القصيدة فى وزنها ورويّها وبعض معانيها :

واحتمال الأذى ، ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام

(٢٠) الضيم : الظلم ، والقهر ، والضير ، والهضم ، والجور ، والإذلال . (وبابه باع) . والحمام : الموت .

جعل الضيم أفظع وأنكى من الموت ، وحذّر قبوله ، والرضا به ، وأوجب مكافحته ودفعه بكل الوسائل . ولعل صلته بالبيت السابق أن التفرد ، وطلب الحياة الحرة العزيزة الكريمة لا يكون إلا من أباة الضيم . ويقرب من هذا قول أبى الطيب المتنبى :

ذلّ مـن يغبط الذليل بعيش ربّ عيش أخفّ منه الحمام

ولا ريب أن الذليل مستضام ، وعيشه عيش ضيم ومذلة وهوان .

(٢١) ضلّ : ضاع ، وتلف ، وهلك . وضل عن طريق ، أو قصد ، أو حق : زلّ عنه ، وجار ، ولم يهتد إليه . والضلال : الباطل والغىّ . وضده الهدى والرشاد . وتوهّم الشىء : ظنه . أو تمثّله وتخيّله . والحلم : الأناة ، والصفح ، والستر ، والعقل ، والرزانة ، والوقار ، وضبط النفس ، ومكافحة ثورتها =

يَحْسَبُونَ الْحَيَاةَ فِى الذُّلِ عَيْشًا   وَهْوَ مَوْتٌ يَعِيشُ فِيهِ اللِّئَامُ[٢٢]

وَقَالَ :

يَا نَدِيمَىَّ فِى «سَرَنْدِيبَ» كُفَّا   عَنْ مَلَامِى ؛ فَلَيْسَ يُغْنِى الْمَلَامُ[١]

= عند الغضب . وهو : أى الصبر . و« لدى » : ظرف مكان بمعنى « عند ». وقد يستعمل فى الزمان . والكريهة : الحرب . أو الشدة فيها . وذام : عيب ، ونقص ، ومذمة .

يقول : إن الصبر لا يحمد إلا فى الحروب ؛ فبه يكون النصر . وهو قوام البطولة . ومن ظن أن الصبر على الضيم من الحلم فقد ضلّ سبيل الرشاد . والمتنبى يصم باللؤم من ادّعى الحلم وهو ضعيف عاجز . فيقول :

كل حلم أتى بغير اقتـــدار   حجة لاجئٌ إليها اللئـام

(٢٢) يحسبون : يظنون . والعيش : المعيشة والحياة . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة بعدها حالية . وهو : أى الذل ، أو عيش الذليل . واللئام : جمع اللئيم : صفة من اللؤم : وهو أن يجتمع فى الشخص الشحّ والبخل ، وخسّة النفس، ودناءة الطبع ، ومهانة الآباء ، ونحو ذلك من النقائص والمثالب وذميم الخصال . وضده الكرم بمعناه العام .

يقول : إن الذين توهموا الصبر حلماً ؛ فاحتملوا الذل ، وأقاموا على الضيم — يظنون أن حياتهم فى قيود المذلة والمهانة عيشة مرضية ؛ وهى فى حقيقة أمرها عيشة سوء ، تساوى الموت . ولا يحياها أو يرتضيها إلا الأوغاد اللئام ، الممعنون فى الغىّ والضلال .

فى البيت السابق جعل الصبر على الذل من المثالب والمعايب ، وسفّه الذين توهموه حلماً ، وضللهم ، ناظراً إلى قول أبى الطيب المتنبى : إن الحلم لا يحمد إلا من القوىّ المقتدر ؛ فإذا احتجّ به الضعيف العاجز كان — إلى ضعفه وعجزه — لئيماً مهيناً . وفى هذا البيت حضّ على إباء الضيم ، والترفّع عن الهوان ، ومكافحة البغى والطغيان ، والحرص على العزة والكرامة ، وقال : إن الذليل الراضى بالذل وغد لئيم ، وحياته شرّ من الموت . وهو تكرار أو شبه تكرار لمعنى البيت العشرين .

* * *

(١) نداء النديمين ، والتوجّه إليهما بالخطاب والحوار من لغة الشعر ، ومن أخيلة الشعراء . ونديمك : منادمك : أى مجالسك على الشراب : فعيل : بمعنى مفاعل : من نادمه منادمة ونداماً . ويطلق النديم على الرفيق والصاحب والمسامر ، ولو لم يكن بين المتنادمين شراب .

و « سرنديب » أو « سيلان» : جزيرة كبيرة من أرض الهند ، فى جنوبيها الشرقى . وهى الآن مستقلة بحكومتها وإدارتها وأمورها . وكانت مستعمرة إنجليزية . وإليها نفى الشاعر وستة من رفاقه قادة الثورة العرابية بعد إخفاقها فى شهر صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ديسمبر سنة ١٨٨٢ م . وفيها نظم البارودىّ أجود شعره ، وأشده تأثيراً فى النفس . وقد لبث فى ذلك المنفى السحيق زهاء سبعة عشر عاماً . وكفّ عن الشىء : انصرف عنه وامتنع . والملام : اللوم . ويغنى : يفيد وينفع . =

أَنَا فِى هَـــذِهِ الدِّيَارِ غَـــرِيبٌ وَغَرِيبُ الدِّيَارِ لَيْسَ يُلَامُ(٢)
وَاذْكُرَا لِى «فُسْطَاطَ» مِصْرَ ؛ فَإِنِّى بِهَوَاهَـــا مُتَيَّمٌ مُسْتَهَـــامُ(٣)

= اشتد حنين الشاعر إلى وطنه وأهله وأحبائه ، وبرّح به الوجد والشوق ، وأضناه الهمّ والوحشة ؛ فلامه نديماه رحمة به ، وإشفاقاً عليه ؛ فتبرم بلومهما ، ودعاهما إلى الكف عنه ، وأيأسهما من غنائه وجدواه . وفى البيتين الآتيين زيادة إيضاح لهذا المعنى ، وفيهما أقام الشاعر حجته ، وأظهر عذره .

(٢) احتجّ الشاعر لنفسه ، واستنكر أن يلومه لائم ؛ فإنه غريب فى « سرنديب » ، بعيد عن وطنه وأهله ، منكوب بالنفى والإبعاد . ولائمه يظلمه ويعاسره ، وإن كان مشفقاً راحماً ؛ لأنه يجمع عليه مرارة اللوم والتثريب ، ومرارة الغربة والبعد ، وحسرة الفراق والحرمان .

(٣) الفسطاط (فى الأصل) : السرادق . والبيت من الشعر ، ومجتمع أهل الكورة : وهى الصقع ، والناحية ، والبقعة التى تجمع طائفة من القرى والمساكن والمحالّ . ثم صار علماً لمصر القديمة التى أسسها عمرو بن العاص فى موضع فسطاطه بعد فتحه مصر سنة ٢١ هـ (٦٤١م) . وبهواها : بحبها : أى بحب مصر . وهو متعلق بـ « متيم » : أى متيم مستهام بسبب هواها : الأول من تيّمه الحب أو الحبيب : أى استعبده ، وأسره ، وولهّه ودلهّه ، وذهب بعقله . والثانى تأكيد له ، مرادف ، أو شبه مرادف لمعناه : اسم مفعول من استهيم فؤاد المحب . وهو هائم بحبيبه ، ومستهام به : أى اشتد تعلقه به ، حتى أصابه الهيام : وهو جنون الحب والعشق والغرام .

فى البيت الأول طلب من نديميه أن يكفّا عن لومه ؛ فإن اللوم لا يكاد يغنى : ولا يكاد يفيد . وفى البيت الثانى احتجّ واستنكر ، وأوضح عذره ، وأكد مطلبه . وفى هذا البيت طلب إليهما أن يتغنّيا له بمصر ، ويذكراها بما تستحقه من الإمجاد والتعظيم ، ويقدرا تعلّقه بها وحنينه إليها ؛ كأنه يرغب إليهما أن يشاركاه فى وجده وهيامه ، ويخففا بهذه المشاركة لوعاته وحسراته ، وهمومه وأوصابه .

* * *

تمّ الجزء الثالث بحمد الله وتوفيقه .

ويليه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى

وأوّله قافية النون .

فهرس المنظومات *

قافية اللام :

الأبيات الصفحات

(١) قلدت جيد المعالى حليـة الغزل وقلت فى الجد ما أغنى عن الهزل ٧٠ / ٥٠ — ٣٧
فخره ببعض محامده . نصح وإرشاد . عودة إلى التمدّح ببعض مناقبه .
هجاؤه لخصومه السياسيين من رجال الحكم الذين رآهم فاسدين مفسدين .
تحريض على دفع الضيم ، وبمكافحة الفساد والإفساد . تمجيد الآباء
لتحميس الأبناء . عرض مزاياه التى تؤهله للقيادة والرياسة . عودة إلى
التحميس والتشجيع ، والنصح والإرشاد . ابتهاؤه بهذه القصيدة الخالدة
ومحاسنها ؛ لتنبيه الأذهان عليها ، وشدها إليها . . . .

(٢) طربت ، ولولا الحلم أدركنى الجهل وعاودنى ما كان من شرتى قبل ٥١ / ٣٧ — ٦٠
وصف الخمر . وصف النحل . غزل وتشبيب . مدح . فخر .

(٣) مضى اللهو إلا أن يخبر سائل وولى الصبا إلا بواق قلائل ٢٨ / ٦١ — ٧٤
شوق وحنين . فخر . حكمة . مدح وإطراء للشيخ حسين المرصفى .

(٤) عصيت نذير الحلم فى طاعة الجهل وأغضبت فى مرضاة حب المها عقلى ٣٤ / ٧٤ — ٩٣
لهو ومجانة . جد ، وفخر ، نصح وإرشاد . عودة إلى الفخر .

(٥) ردوا علىّ الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البـالى ؟ ٥٥ / ٩٣ — ١١٧
تحسّر وتلهّف . شوق وحنين . عتاب . فخر . زهد . شكوى ، وتوجّع .
استطراد لوصف قوس الغمام . ثم لوصف فرخ طير يماثل البارودىّ فى

---

* جمع هذا الفهرس كل ما نظمه الشاعر فى الجزء الثالث (أى فى قافيتى اللام والميم) من القصائد المطولة ، ومتوسطة الطول ، والقصائد القصيرة ، وكذا المقطوعات المتفرقة التى تقل الواحدة منها عن سبعة أبيات .

والرقم المسلسل يشير إلى ترتيب المنظومة فى قافيتها ، وهو مطابق للترتيب القائم فى أصل الديوان المخطوط الذى بين أيدينا : ويبدو لنا أنه من إعداد الناظم نفسه ، أو من إعداد غيره تحت إشرافه ، ولا نعرف الأساس الذى بنى عليه .

وفى الفهرس بعد هذا مطلع كل منظومة ، أى أول أبياتها . ومجمل ما طرقته من أبواب الشعر ، أو أغراضه ، أو فنونه ، أو موضوعاته ، ومعانيه الأساسيّة. وفيه عدد أبيات كل منظومة . وأرقام صفحاتها .

الأبيات الصفحات

قافية الميم :

الأبيات الصفحات

= ما تتطلبه الإجادة، أو المجادة من الشاعر. مدح الكريم يغنى عن هجاء اللئيم: نصح، وإرشاد . . . .

(٤٢) حنى الشيب عودى؛ فاستقامت رويتى ولولا انحناء القوس ما صرّد السهم ١ /٥٣٥
تحسين الشيب وتزيينه . . . .

(٤٣) فى قائم السيف إن عزّ الرضا حكم فالحكم للسيف إن لم تصدع الكلم ١٨/٥٣٥–٥٤٣
تمهيد . فخره ببعض مناقبه . تنويهه بطائفة من صحبه ، أو جنده وأعوانه ، وإشادته بمزاياهم فى السلم والحرب . تمجيد عامّ لأباة الضيم . . . حكم وأمثال تتصل بموضوع هذه القصيدة ، وهو الفخر والحماسة ، والتمدّح بالمكرمات ، وتكريم الأبطال الخالدين . . . .

(٤٤) ألم يأن أن يرضى عن الدهر مغرم أم العمر يفنى ، والمآرب تعدم ٣١/٥٤٣–٥٥٤
غزل يكنى به الشاعر عما يعشقه من المعالى ، وعظيمات الأمور ، والبطولات الحربية. فخره بشجاعته القتالية، وبيانه، وشعره ، وبعض محامده ومناقبه .

(٤٥) يا لك من ذى أدب أطلعت فكــرته ثاقبــة الأنجــم ١٠/٥٥٥–٥٥٩
مدح وتمجيد لأظهر خصائص الممدوح وفضائله . . . . .

(٤٦) يدلّ على أن ليس فى الدهر رحمة خيانة شمر بعد غدر ابن ملجم ٥ /٥٥٩–٥٦١
تفظيع قتل الشهيدين العظيمين علىّ بن أبى طالب، ثم ابنه الحسين، وتنديد وسخط شديد على قاتليهما . . . .

(٤٧) وما مصر عمر الدهر إلا غنيمة لمن حلّ مغناها ، ونهب مقسّم ٩ /٥٦٢–٥٦٦
تمهيد خلاصته أن مصر فى نظر الشاعر عرض قريب لكل طامع أفّاق. هجاء حاكم من حكّامها أجنبىّ عنها . مايزة بينه وبين حاكم أجنبىّ آخر سبقه إلى حكمها . . . .

(٤٨) ردّى الكرى لأراك فى أحلامــه إن كان وعدك لا يفى بلمامه ٣٤/٥٦٦–٥٧٧
غزل وتشبيب . حديث شائق عن قلبه. ما يضانيه العشّاق المتيّمون. وادى العقيق. تمجيد الوطن ، والتحدّث بفواضله ونعمه. تحسّره على شبابه الراحل. عظة واعتبار . تبرّم بالمشيب . . . .

(٤٩) أعد على السمع ذكر البان والعلم واعذر شآبيب دمعى إن جرت بدم ٣٢/٥٧٨–٥٨٨
وفاؤه وحنينه إلى ملاعب صباه ، وديار شبابه . ذكريات ماضيه السعيد . أسى وحسرة . سلوكه فى حنينه وتشوّقه إلى تلك الديار الخاوية مسلك قدامى شعراء العرب فى باديتهم؛ فالصور ، والأخيلة، والتعبيرات ، وأعلام الأمكنة كلها بدوية ، وثيقة الاتصال بالبيئة العربية . ذكريات غزله بمن كان يهواهن =

= ويتملاّهن فى تلك الديار . أو هو الحب والوفاء والحنين إلى من عرفهم، وأنس بهم فى ملاعب صباه من أهله، ولداته وأترابه. حديثه إلىعاذليه بين الملاينة والمخاشنة . فخره ببعض محامده ومناقبه . شكوى قلة الوفاء ، وشيوع الغدر فى الكثرة الغالبة من الناس . هوان الدنيا عليه ، وسقوطها فى عينيه . حكم وأمثال ، ونصح ، وإرشاد . هجاؤه من أصيب بشرّهم وغدرهم . عودة إلى الفخر ببعض مزاياه . . . .

(٥٠) من لعين إنسانها لا ينام وفؤاد قضى عليه الغرام ٢٢/٥٨٨—٥٩٥
غزل . ووَجْد ، وغرام ، وصبابة ، وهيام . شكوى ، واستنجاد . تألم وتوجّع . فى الحب العذرىّ يحتمل المحبّ مايلقاه فى سبيل غرامه من الأوصاب والآلام . أثر الوشاية فى تقطيع الأواصر بين المتحابين . تفنيد لمزاعم الوشاة . فزع الشاعر إلى نديميه . تنويهه بفضل الندماء ، ومن يعالجون الأمراض النفسية بحلو الكلام ، والحكمة البالغة . أبيات تجرى مجرى الحكم والأمثال؛ وفيها شكا الشاعر ماعاناه من نقائص الناس ومثالبهم . تحذير من الظواهر الخادعة التى تخفى تحتها الحقد ، والغدر .اعتاد الناس ، إضافة ما يسرهم ، ويسوءهم إلى الدهر ، أو الزمان ، أو الليالى والأيام . تنديد الشاعر بناس عرفهم ؛ فلم يجد فيهم غير الشر ، والأذى ، والضعف والهوان . . . قلة خير الدهر ، أو قلة الخير فى الكثرة الغالبة من الناس، وغلبة الشر ، والفساد ، والغدر والخيانة . صدق الوداد لا وجود له فيمن خبرهم الشاعر من الناس . عهودهم منحلّة . وصِلاتهم ، ومودّاتهم قائمة على المخاتلة ، والنفاق . دعوته إلى التفرّد ، واعتزال الناس ؛ فإن الوحدة خير من جليس السوء. إباء الضيم محمدة ، وقبوله مذمة ، بل موت زؤام . الصبر المطلوب المحمود ، والصبر الشائن المذموم . . . . .

(٥١) ياندِيمىّ فى «سرنديب» كفّا عن ملامى ؛ فليس يغنى الملام ٣/٥٩٥ — ٥٩٦
شدة تعلق الشاعر بوطنه . تبرمه بمنفاه . غربته مؤلمة موجعة . فى حديثه إلى نديميه أقام حجته ، وأظهر عذره ، واستهجن أن يلومه لائم على وجده ، وهيامه ببلاده . وطلب إليهما أن يتغنيا له بمصر ، ويذكراها بما تستحقّه من التمجيد والتكريم . . . .

فهرس الموضوعات *

---

* روى البارودى شعر سابقيه من فحول شعراء العرب ، ونقده ، وحفظ كثيراً منه ، وتأثّر به ، وحاكاه ، وحرص على أن يطرق بشعره كل ما طرقوه من الأبواب ، أو الفنون ، أو الأغراض ، أو الموضوعات ، والمعانى . . .

وهذا الفهرس يجمع أكثر ما حوته منظومات الجزء الثالث من هذه الأغراض ، أو الموضوعات . وإذا جمعت المنظومة الواحدة غرضين أو أكثر ، كالغزل ، والمديح ، والفخر مثلا – رأيت الإشارة إليها مكررة فى كل باب من هذه الأبواب الثلاثة . وهذه الإشارة مكونة من رقمين : أولهما لتعيين موضع المنظومة ، وترتيبها فى قافيتها ، والآخر لتعيين صفحتها .

ومن الغزل : النسيب ، والتشبيب ، واللهو والمجانة ، والهوى والغرام ، والوقوف بالأطلال ورسوم الديار ، والتياع العاشق ، وهيامه ، وصبوته ، وشكواه . . .

ومن الشكوى : شكوى الدهر ، والتبرّم بالحياة والناس . ومنها : الحنين والتشوّق ، والتوجّع ، والتحسّر ، والتلهّف . ومنها : الاستعطاف ، والاسترحام ، والعتاب الرقيق . . .

ومن الفخر : الحماسة . . .

وتتسع الحكمة للمثل ، والأدب ، والوعظ ، والنصح ، والإرشاد ، وفلسفة الحياة والموت ، والإيمان بالقضاء والقدر . . .

ومن الهجاء : التعريض ، والتنديد . . .

ومن المديح : التهنئة . . .

ومن الزهد : الروحانيات . . .

ومن الرثاء : التأبين ، والتعزية ، والتحزّن ، والتفجّع . . .

ومن السياسة : نقد الحكم ، والحكّام ، والتنديد بفاسديهم فى نظر الشاعر . . .

فهرس التعليقات *

---

* يأتي التعليق قبل شرح القصيدة ، أو المنظومة ، أو في مقدمة الشرح وفاتحته ، أو في أثنائه وغضونه ، أو في خاتمته ونهايته .

ويتسع التعليق عندنا للتوطئة والتمهيد ، أو التحليل ، أو التلخيص ، أو البيان والتفصيل ، أو النقد ، أو التخطئة ، أو التصويب ، أو الممايزة ، أو الموازنة والمفاضلة ، أو الإحصاء والاستقصاء ، أو التعقيب ، أو التذييل ، أو التأريخ ، أو التحقيق . . . أو غير هذا من التعقيبات .

ومما يدخل في دائرة التعليق شرح بعض المفردات اللغوية في استقصاء ضروري لا بد منه ، وكذلك إذا اتسع هذا الشرح في إفادة وإمتاع .

ومن التعليق بيان معنى البيتين ، أو الأبيات المربوطة بفكرة واحدة . وكذلك إذا اتسع هذا البيان ، أو تنوع ، أو تعدد في دائرة الاهتمام ، والاحتياج ، والإفادة .

وتعليقات الجزء الثالث من شرح ديوان البارودي كثيرة ، منظمة ، مهذبة ، تضاعف فوائد الشرح ، وتعين على استيعابه وتحصيله ، وتفتح كثيراً من أبواب الدراسات الأدبية النافعة الواسعة المستفيضة .

وقد حوى هذا الفهرس أمثلة غير قليلة من هذه التعليقات . وفيه قبل كل تعليق رقمان : أولهما لتعيين الصفحة ، والآخر لتعيين الحاشية ، أو البيت .

١٤ / ١٨ الشطر الأول من هذا البيت يحتمل معنيين :
١٦ / ٢١ والشاعر ينتقل فى هذا البيت والأبيات التالية إلى هجاء خصومه السياسيين . . .
١٩ / ٣٢ فى الأبيات (٢١ – ٣١) هجاء ، وفخر . . .
١٩ / ٣٢ فى هذا البيت ، والأبيات التالية حض على الثورة . . .
٢١ / ٣٩ فى الأبيات (٣٢ – ٣٨) ضروب من القول . . .
٢٢ / ٣٩ فى هذا البيت وثمانية الأبيات التالية فن آخر من فنون التحريض ، هو التنويه بالآباء . . .
٢٥ / ٤٩ فى البيت السابق نوه بالعقل وعظم شأنه . . . وفى أربعة الأبيات الآتية تنبيه على القائد الكفء . . .
٢٩ / ٥٨ يلاحظ أن الشاعر استخدم فى هذه اللامية الأساليب الخطابية . . .
٣٢ / ٦٤ فى البيت السابق لخص فى كلمة « نصيحة » مادعا إليه قومه فى الأبيات التى قبله . . . وفى هذا البيت ، وستة الأبيات بعده فخر بهذه اللامية . . .
٣٥ – ٣٧ تعليق وجيز ، فيه تمهيد ، وإشارة إلى تاريخ نظم هذه القصيدة السياسية ، وبعض ماتضمنته من المعانى وفنون الكلام . وجوه الشبه بينها وبين قصيدة أخرى عينية ، وما كان للبارودى من آمال ومطامع . . .
٣٧ / ٠ تعريف بمدينة « حلوان »
٥١ / ٣٣ فى البيت الأول من أبيات هذه القصيدة أعلن الشاعر ارتياحه لإقامته فى « حلوان » . . .
٥٢ / ٣٣ وفى ثمانية الأبيات التى تليه انتقل إلى وصف الخمر . . .
وفى البيت التاسع وثلاثة الأبيات بعده استطرد لوصف النحل . . . ومن هذا الغرض أو الموضوع انتقل إلى الغزل ؛ فبسطه فى واحد وعشرين بيتاً . وفى البيت الثالث والثلاثين والأبيات التالية إلى نهاية هذه القصيدة افتخر بقومه . . .
٦٠ / تلخيص و تعليق فيه حصر وإحصاء لماتضمنته هذه القصيدة من أبواب الشعر ، وفنون الكلام ، وفيه إشارة إلى تاريخ نظمها .
٦١ / ٠ ترجمة للشيخ « حسين المرصفى »
٦٧ / ١٣ تلخيص السابق واللاحق من أبيات هذه القصيدة :
٧٠ / ١٩ إشارة إلى الجو النفسى . . .
وصلة هذا البيت بالذى قبله :
٧٠ / ٢٠ تلخيص لسبعة أبيات .
٧٤ / إحصاء للأغراض ، أو الأبواب التى تضمنتها هذه القصيدة :
رواية الوسيلة الأدبية لهذه القصيدة : وتعقيب المرصفى عليها .
٨٤ / ١٨ مجمل معنى الأبيات =

= (١١ — ١٨) . وهو فى البيت الآتى والأبيات التالية إلى نهاية هذه القصيدة يعود إلى الفخر بمناقبه ومحامده .

٩٢/ تلخيص وتعليق : إحصاء وحصر لما تضمنته هذه القصيدة من فنون الشعر ، وألوان الحديث ، وبخاصة شدة اعتداده بمناقبه الحربية ، وكثرة افتخاره بها فى شعره ، وتعليل هذا .

٩٣ / * تعريف بجزيرة « سيلان » وفيه تواريخ مهمة :

٩٧ / ١٠ أزمته النفسية فى منفاه .

٩٨ / ١٠ مجمل معنى عشرة الأبيات الأولى من هذه القصيدة . . . انتقاله منها إلى الفخر بفضائله .

١٠١ / ١٧ الشطر الثانى من هذا البيت معنى الشطر الأول منه . . .

١٠٢ / ٢٠ يحتمل هذا البيت معنيين . . :

١٠٤ / ٢٥ بحاشية الأصل المخطوط لهذا الديوان كلمة « بهزاد » . . .

١١٤ / ٤٥ إشارة إلى جو هذه الأبيات وأمثالها ، وما تحمله من المعانى والأغراض . . :

١١٥ / ٤٨ نظرة مجملة إلى هذه القصيدة ، وما صورته لقارئها من جوانب نفس الشاعر . . .

١١٥ / ٤٩ صلة هذا البيت بالذى قبله.

١١٦ / ٤٩ تلخيص لمعنى خمسة أبيات ، واختتام هذه القصيدة ببيتين يجريان مجرى الحكم والأمثال .

١١٦ / تلخيص وتعليق : تمهيد ، وتواريخ مهمة . تقريظ . تلخيص مرتب مهذب لأبيات هذه القصيدة كلها (خمسين بيتا) وماتضمنته من الأغراض والمعانى . وفى الأبيات (٣٨—٥٠) أجمل الشاعر مايضانيه ، ومايز بين حاضره وماضيه ، وافتخر بشعره . . .

١١٨ / * تعريف بـ « سرنديب » . تواريخ مهمة . مايبدو من عنوان هذه القصيدة ، ومن جوها ، وبواعث نظمها . . .

١١٨ / ** ترجمة للخديو « عباس حلمى الثانى » تواريخ مهمة ، وإشارة إلى بعض الحوادث التاريخية الكبيرة .

١٣٦ / تعليق وجيز : لم تتجاوز هذه القصيدة الغرض الأساسى . نقد فيه إشارة إلى هنواتها . سبب هبوط مستواها . ماأولع الشاعر بتكراره فيها من الكلمات والمعانى . . .

١٤١ / ١٣ هذا البيت وأمثاله يوضح العنوان الذى اختاره البارودى لهذه اللامية : « وقال على طريقة العرب » :

١٤٨ / ٢٦ وفى عدة مواضع من شرحنا لهذه القصيدة وجهنا الأنظار إلى اندماج =

=الشاعرفى البيئةالبدويةالعربية ؛ فجاءت تعبيراته وتصويراته كلها شاهدة بصحة العنوان الذى اختاره لهذه القصيدة :

١٥٠ / تعليق وجيز فيه حصر وإحصاء للأغراض والمعانى التى اشتملتْ عليها هذه القصيدة ، وفيه أن الشاعر أتقن التشبيه والتمثيل ، وعرض علينا صوراً حية قوية من حياة العرب فى باديتهم .

١٥١ / * معنى رياضة القول . . .

١٥١ / ** معنى الأسلوب والأساليب . . .

١٥١ / سلك الشاعر فى هذه القصيدة مسالك الفحول من قدامى شعراء العرب ؛ فآثر جزالة اللفظ . . .

١٥١ / تلخيص محبوك مرتّب لمعانى هذه القصيدة وموضوعاتها . . .

١٥٧ / ١٤ الغرض من مثل هذا البيت محاولة إقناع العاذلين ، والاحتجاج لنفسه . . . وهو ختام سبعة أبيات دارت كلها حول هذا الغرض :

١٥٧ / ١٥ صلة الشطر الثانى بالشطر الأول . . . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة كلها . . . وصلته بالبيت الذى بعده . . .

١٥٧ / ١٥ البيت الخامس عشر تمهيد لانتقال الشاعر من اللهو والغزل إلى الفخر بشجاعته وبطولته القتالية . . .

١٥٨ / ١٨ هذا البيت تكرار لمعنى البيت السابق . . .

١٦٤ / ٣٢ انتقل الشاعر فى هذا البيت والأبيات التالية من وصف سيفه إلى وصف يوم من أيام الطرد والصيد ، ويلاحظ أنه لم يمهّد لهذا الانتقال . . .

١٦٤ / ٣٢ الاقتضاب ، والطفرة ، وضعف الروابط بين أغراض القصيدة من صفات الشعر الجاهلى الذى يحاكيه الشاعر هنا ، ويجرى مجراه .

١٧٥ / تلخيص وتعليق : إجمال وترتيب لما حوته هذه القصيدة الطويلة من فنون الشعر ، وضروب الكلام . سلوك الشاعر فيها مسالك الفحول من قدامى شعراء العرب . التشابه الظاهر بين شعره وأشعارهم . . .

١٨٢ / ٢٠ هذا البيت فى معنى الشطر الثانى من البيت السابق :

١٨٢ / ٢٠ صلة البيتين الأخيرين بموضوع هذه القصيدة .

١٨٣ / تلخيص وحصر وإحصاء لما اشتملت عليه هذه القصيدة من الأغراض والمعانى ، فى ترتيب وإجمال وتهذيب .

١٩١ ــ ١٩٣ تلخيص وتعليق :
تضمّنتْ هذه القصيدة وصف البحر وأمواجه ، وذكر الرياح ، والسفن وركبانها ، وكلاماً يشبه العظة أو الحكمة المناسبة لهذا المقام :
وقد أشرنا إلى طائفة من الكلمات =

٣٠٢ / ٤٢ تزيّد فى المديح، ومغالاة غير سائغة ، وتكلّف ، وتعسّف ...

٣٠٣ / ٤٥ مزايا تعين الإنسان على مكافحة البلايا . . .

٣٠٤ / ٤٨ مفاضلة بين « أورقتْ» و « أعشبتْ » . . .

٣٠٥ / ٥٠ فى هذه القصيدة مايرجّح أن البارودى نظمها فى الطور الأول من أطوار حياته الأدبية قبل أن تنضج سليقته الشعرية . . .

٣٠٧ / ٥٦ مثال للتصويرات الحسيّة الكثيرة الشائعة فى هذه المدحة ، وفى شعر البارودى . . .

٥٦/٣٠٧ يحتمل هذا البيت معنيين ... وفى شرحنا الديوان البارودى نبّهنا على أبيات كثيرة يحتمل كل منها معنيين ، أو أكثر ...

٣٠٩ / ٦٠ فى هذا البيت والذى قبله مايدل على أن البارودى نظم هذه الأمدوحة الطويلة فى القسطنطينية لاستقبال وتكريم الخديو إسماعيل. . . ولكن يضعف هذه الدلالة . . .

٣١٢ / ٦٩ بيان لبعض مااعتاده شعراء المديح . . . وفى هذه المدحة نحو ستة أبيات فى هذا المعنى . . .

٣١٢ / ٧٠ عدة معان ومقاصد يحتملها البيت ٦٩

٣١٣ / ٧١ كرر الشاعر فى هذا البيت معنى البيت السابق .

٣١٤ / ٧٢ تعظيم الشاعر لمدحته تعظيم لشأن الممدوح . . .

٣١٥ / ٧٥ ختم الشاعر هذه المدحة الطويلة بهذا البيت الذى جمع فيه لممدوحه السعادة فى صورة صديق صادق الودّ . . .

٣١٥ / ، يعارض البارودى بهذه الميمية قصيدة لأبى نواس . . .

٣١٥ / ١ الكلام هنا يحتمل الخبر والإنشاء . . .

٣١٨ / ٧ مدحه لصحبه يتضمّن فخره بمحامده . . .

٣١٨ / ٨ آداب الهوى . . .

٣١٨ / ٨ البلاء بالخير والشر . . .

٣٢٠ / ١٣ أطرى الشاعر فى هذا البيت وسبعة الأبيات قبله أصدقاءه الذين كانوا يصاحبونه « إذ للهوى ثمر يرفّ » ويلاحظ أنه فى هذه الأبيات كرر بعض المعانى والأفكار بأساليب مختلفة...

٣٢١ / ١٤ فى هذا البيت وأربعة الأبيات بعده انتقل الشاعر من إطراء أصحابه إلى مايشبه الحكمة ، أو العظة . . .

٣٢٣ / ١٩ فى الأبيات الأربعة السابقة تذكير بالموت . . . وفى هذا البيت وعشرة الأبيات التالية ترغيب فى الخمر . . . وهما غرضان منفصلان ، لاصلة بينهما ؛ وفى تكلّف وعنت حاولنا وصل أحدهما بالآخر . . .

٣٢٦ / ٢٩ وصف الشاعر الخمر ، وزينها فى أحد عشر بيتاً (١٩ — ٢٩) أى فيما يقرب من ثلث هذه القصيدة... وفى عشرة الأبيات التالية (٣٠ — ٣٩) ختم الشاعر هذه القصيدة بالحكمة والعظة ، وشىء من فلسفة الحياة والموت . ويلاحظ أنه جنح لمعنى هذا الختام فى الأبيات (١٥ — ١٨) ؛ وبهذا تكررت الحكمة فى هذه القصيدة مرتين .

٣٢٧ / ٣٠ يحمد للشاعر أنه — فى حديثه عن لهو الشباب ومرحه — قيد نفسه ، كما قيد رفاقه بآداب الهوى ، وحدود الاستقامة . . .

٣٣١ — ٣٣٢ تعليق وجيز : فيه حصر وإحصاء لما اشتملت عليه هذه القصيدة من أبواب الشعر ، وفنون الكلام . وفى أثناء الشرح ملاحظات ، ونقد ونظرات جديرة بالاعتبار والإكبار . . .

٣٣٣ — ٣٤٠ رواية الوسيلة الأدبية لهذه القصيدة . تفصيل ، وبيان لوجوه الاتفاق والاختلاف بينها وبين ماجاء فى أصل الديوان . . .

٣٤٠ / * روضة المقياس : ماضيها ، وحاضرها .

٣٤٧ / ١٥ ختم الشاعر بهذا البيت القسم الأول من هذه القصيدة التى اختص بها « روضة المقياس » وفيه وصف معالمها . . . ثم تحسر على أيام هانئة عزيزة كانت له فى هذه الجزيرة الأريضة النضيرة . وهو فى الأبيات الآتية يعود إلى ذكر العصر الذى تولى . . . ويحسن الثناء على صحابه فى ذلك العهد . . . ويتمدح بالمحامد والفضائل التى شابههم فيها وشابهوه . . . ثم يختم القصيدة بما يشبه العظة والاعتبار بتقلب الدنيا . . .

٣٤٩ / ٢٠ يحتمل هذا البيت ثلاثة معان...

٣٥٢ — ٣٥٣ تعليق فيه تحليل ، وتلخيص ، وتنسيق ، وبيان ، وعرض وجيز مجمل محبوك لهذه الميمية الرائقة الرائعة . . .

٣٥٤ / * الحرب التى شنتها « روسيا » وتوابعها على « تركيا » سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م)

٣٥٤ / ** ترجمة الشيخ « حسين المرصفى » .

٣٥٥ / ٢ اختلاف بين أصل الديوان ورواية الوسيلة الأدبية فى عدد أبيات هذه القصيدة ، وفى ترتيب بعضها . . .

٣٥٩ / ١٠ مجمل معنى الأبيات (١ — ١٠) ثم مجمل معنى الأبيات (١١ — ١٨)

٣٦١ / ١٥ تقديم المرصفى لهذه القصيدة فى الوسيلة الأدبية .

٣٦٣ — ٣٦٨ تعليق مطول مفصل : =

= فيه تحليل . وتمثيل، وتلخيص، ونقد، وتقريظ . . . مزايا أسلوب هذه الميمية . المعانى التى كررها الشاعر فيها . الحروب التى صلى نارها . . .

٣٦٩ / ٥ ترجمة للأمير « شكيب أرسلان »

٣٧٣ / ١١ إشارة إلى بعض عيوب ومناقص الأصل المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى تحقيق هذا الديوان وشرحه . . . وقد أصابت هذه العيوب أو بعضها ثمانية من أبيات هذه القصيدة (الميمية السادسة) .

٣٧٩ / ٢٥ صور الشاعر فى إسهاب توعّر الطريق بين مصر والشام ، . . . ثم مهّد بهذا البيت والبيتين الآتين للغرض الأساسى وهو مدح « شكيب أرسلان »

٣٨٣ / ٣٦ إشارة إلى مرثاة « شكيب » للبارودى ، وعرض بعض أبياتها . . .

٣٨٧ — ٣٨٩ تعليق : فيه حصر وإحصاء ، وتحليل ، وتلخيص ، وبيان ، وتقريظ ، وشواهد كثيرة . الأبيات (١ — ١٥) غزل هو فى حقيقته وهدفه ودّ ، ووفاء . الأبيات (١٢ — ١٤) ، سلامه ووجده مع نسيم الصبا إلى من تيّمه وتهيّمه . الأبيات (١٦ — ٢٤) عسر التلاقى ووصف البحر ، والسفن : وركّابها . . . برّ بعيد المرامى ، فسيح الأرجاء . . . شخصه بمصر ، وقلبه فى إسار الهوى بأرض الشام . . . مديح صريح فى ثمانية عشر بيتاً . . . أمثلة وشواهد . . . مزايا هذه القصيدة . . . تعبيرات ومعان رائقة صادقة . . . إشادة بمحامد الممدوح ومناقبه . . . شكر وحسن ثناء . . . اعتذار عن الإقلال . . . أبيات وتذييلات جرت مجرى الحكم والأمثال . . . تديّن الشاعر : وفزعه فى الشدائد إلى الله . . .

٣٩٠ — ٣٩٣ أبيات ، ورسالة نثرية رادفة . . .

٣٩٤ / ٥ معنى الرثاء، ومعنى النعى : . . نعيتْ إلى البارودى أمه وهو فى حرب الثورة العرابية .

٤٠٩ / ٤١ الأبيات (٣٦ — ٤١) فى شكوى الدهر . . .

٤٠٩ / ٤٢ الأسى : الحزن . والأسا : العلاج والمداواة . والمعنى على الأول . . . والمعنى على الثانى . . .

٤١٣ / تعقيب وجيز خلاصته أنها مرثاة طويلة تمّ كلها على التفجّع . . . وتطاول أبلغ ماأثر من المراثى . . . والملمّ بتاريخ « محمود سامى البارودى » لاتدهشه هذه الإطالة مع الإجادة . . . فلا غرو أن تعلّق بأمّه . . . وصوّر=

= بهذه المرثية شيئاً من برّه ووفائه، وجزعه وتفجّعه . . .
٤١٤/ * تعريف بجزيرة «أقريطش»
٤١٤ / ١ تعيين المرثىّ بهذه القصيدة .
٤١٤ / ٢٠ تعليق وجيز خلاصته أن هذه المرثية القصيرة البليغة . . . تنمّ كلها على تأجّج عاطفة الرائى . . . هذا إلى تفوّقه فى كل ماعالجه ونظم فيه من أبواب الشعر، . . . وبخاصة باب المراثى . وفى البيت الختامى دعا الشاعر للمرثىّ . . . وأشاد بماخلّده بعد وفاته من سيرة، وتاريخ و بطولات . . ويلاحظ أنها مرثاة قائد بطل عظيم لقائد بطل عظيم . . .
٤٢٠ /١ «عرض الإنسان» شرح لغوىّ واف
٤٢٠ / ١ « إنْ » بحث لغوىّ فى بعض معانيها ، وبعض استعمالاتها . . .
٤٢٢ / ٣ يبدو أن هذا البيت مقحم فى أبيات الفخر . . .
٤٣١ — ٤٣٣ تراجم وجيزة لخمسة من فحول شعراء العصر العباسى ، نوّه بهم البارودى فى خمسة أبيات من شعره قائلاً : إنه سار على آثارهم ، وربما سبقهم وفاقهم .
٤٣٤ / ٤ مادة « الميز » ، و « الممايزة » : بحث لغوى واسع نافع . . .
٤٣٤ / ٤ كلمة « بين » تأتى بعد « الممايزة » لابعد « الميز » . . .
٤٣٤ / ٤ الأبيات الأربعة فى تعظيم شأن الكرم . . .
٤٣٦ / ١ خطاب المتغزل بها بضمير المذكّر . . .
٤٣٧ / ٤ فى الشطر الثانى من هذا البيت استفهام احتجّ به الشاعر لنفسه ، وأقام عذره ، وحاول إقناع معشوقته . وبهذا الشرح يتصل هذا البيت اتصالاً وثيقاً بالبيت السابق ، والبيتين اللاحقين . . .
٤٤٩ / * تمهيد ، وتقديم ، وبيان . . . تاريخ نظم هذه القصيدة ، وسبب نظمها ، وجوّها النفسى ، ومجمل ماحوته من الأغراض والمعانى . . .
٤٥٥ / ١١ يحتمل هذا البيت ثلاثة معان . . .
٤٥٥ / ١٢ والأبيات الأربعة الأخيرة من هذه القصيدة تنمّ على ما كان الشاعر يستشعره من تبرّم وقلق وحيرة وآلام نفسية .
٤٥٦ / ١٣ يحتمل هذا البيت ثلاثة معان .
٤٦٣ / تعليق وجيز فيه إشارة إلى تاريخ نظم هذه القصيدة ، والجوّ النفسىّ الذى أحاط بالشاعر حينما نظمها ، والدوافع التى دفعتْه إلى نظمها . وفى التعليق إلى هذا مجمل معانى القصيدة ، وأغراضها . . .
٤٦٨ / تمهيد ، وتقديم ، وبيان يعين على الإحاطة بالميمية التاسعة والعشرين ، =

= وسبب نظمها ، والحدّة الغضبية التى سيطرتْ على الشاعر حينما نظمها . . .

٤٨٢ / ٣٧ أطال الشاعر هذه الأهجيّة ، وأقذع فيها للمهجوّ . . . ثم ختمها متمدّحاً بخلود شعره .

٤٨٥ / ٠ تمهيد، وتقديم، وبيان لمجمل أغراض الميمية الثانية والثلاثين ، وتاريخ نظمها ، وسببه . ويلاحظ أن البارودى نقض بها قصيدة لعنترة ابن شدّاد على وزنها ورويّها .

٤٨٨ / ٦ فى الأبيات السابقة فخر بنفسه . وفى ستة الأبيات الآتية اعتزاز بمصر ، وتحدّث بفضلها . . .

٥٠١ / ٤٢ فى الأبيات (٣٣ — ٤٢) وَصَفَ الشاعر مااستمتع به من مشاهد الطبيعة الساحرة . . . وهو فى الأبيات الآتية إلى نهاية القصيدة يتّجه إلى مايشبه الحكمة ، والزهد . . . وفى أثناء هذه المعانى وما يتصل بها استطرد لذمّ الجبناء ، وحَضّ على الإقدام ، وافتخر بشجاعته الحربية .

٥١٨ / ٣١ صلة الحكمة بالغزل . . .

٥١٩/٣٥ فى البيت السابق تَطَيَّرَ من الناس وتشاءَمَ . . . وهذا البيت شبه علاج لهذه الأزمة النفسية . . .

٥٢٠ / ٣٨ ندّد الشاعر فى البيتين ٣٢ و ٣٣ بمن ظنّهم أصدقاء أوفياء . . . فأخلفوا ظنه . . . ثم أورد بعدهما خمسة أبيات فى الحكمة ، والنصح ، خامسها هذا البيت . وهو ختام هذه القصيدة .

٥٢٣ / تعليق وجيز فيه إجمال وتلخيص محبوك للأغراض والمعانى التى جمعتْها هذه المدحة القصيرة الصغيرة ، الرائعة الرائقة ، وفيه أن بعض أبياتها جرى مجرى الحكم والأمثال . والممدوح بها — فى ظننا — الأمير « شكيب أرسلان » .

٥٢٥ / ١ إشارة إلى تاريخ وسبب نظم هذه الأبيات الثلاثة المؤتلفة المنسجمة . . . شرح ، وبيان . . .

٥٢٦ / ٣ نظم البارودى الكثير الغزير الرائق الفائق من شعره بعد إخفاق الثورة العرابية ، والاحتلال العسكريّ الإنجليزيّ . فأين تنديده بالمحتلين المعتدين ؟ وأين تمجيده لصحبه ورفاقه فى الجهاد والجلاد، ثم فى المحنة والبلاء ؟ ؟ ؟

٥٣٠ — ٥٣١ تعليق ، وبيان لبعض التواريخ وسبب نظم هذه الأبيات الثلاثة . . . إشارة إلى قصيدة دالية طويلة نظمها الشاعر « حافظ إبراهيم» فى مدح « البارودى » ، ومنها بيتان فى شكوى الإعواز . وفى أبيات البارودى إعراض عن عذل عاذله ، وفخر بمجادة شيمه، وعظم كرمه على الرغم=

٣٣/٥٧٧ فى أربعة الأبيات السابقة اشتدّ تعلق الشاعر بشبابه الراحل ، واشتدّت حسرته على قواته . وفى هذا البيت شكا الدهر ... وهذا البيت يحتمل معنيين... والمعنى الثانى يوثق اتصال البيت بما قبله ، وما بعده.

٣٣/٥٧٧ فى القصيدة ٤٨ عيب الإيطاء، وقد تكرر فيها مرتين . . .

١/٥٧٨ طلب الشاعر إلى صاحب له حقيقى ، أو خيالى ، أو شخص جرده من نفسه أن يردد على سمعه حديث الديار التى يحن إليها . . .

٥٧٨ / ١ مجمل معنى البيتين الأول والثانى .

٣/٥٧٨ بعض عيوب الأصل المخطوط الذى بين أيدينا .

٤/٥٧٩ والفكرة واحدة فى هذا البيت ، وثلاثة الأبيات قبله . . .

٥/٥٧٩ وهذا البيت فى معنى الأبيات الأربعة السابقة . . .

٦/٥٧٩ بعض خصائص الحياة ، وصور المعيشة فى البادية ، والبيئة الصحراوية العربية . . .

٧/٥٨٠ مجمل معنى الأبيات (١ — ٦) معنى البيت السابع . ملاحظة يحتمل بها البيت معنيين .

١٠/٥٨١ مجمل معنى البيتين (٩ — ١٠)

١١/٥٨١ تحدّث للشاعر إلى عاذله فى الأبيات (٩ — ١١) فاختلف حديثه بين الملاينة والمخاشنة .

١٢/٥٨١ صلة هذا البيت بما سبقه من الأبيات .

١٣/٥٨٢ هذا البيت يؤكد معنى البيت السابق .

١٤/٥٨٢ فى هذا البيت تأكيد لمعنى الودّ والوفاء فى البيتين السابقين .

١٥/٥٨٢ فى هذا البيت روح التشاؤم ، والتبرم بالناس . وخمسة الأبيات التالية كلها فى هذا المعنى . ومنها انتقل الشاعر إلى هجاء من أوذى بغدرهم ، وأحقادهم.

١٧/٥٨٣ هذا البيت تكرار لمعنى البيت السابق .

١٩/٥٨٣ فى هذا البيت وأربعة الأبيات قبله كرر الشاعر — بالتعريض، أو بصريح العبارة — ذكر الغدر ، وكثرته فى الناس ؛ وهذا التكرار ينمّ على كثرة ما أصابه من أذى الغادرين .

٢٠/٥٨٤ هذا البيت وثيق الاتصال بالذى قبله : . . والأبيات (١٤ — ٢٠) تجرى مجرى الحكم والأمثال ، وتدور كلها حول فكرة واحدة . . . وكأنما مهد الشاعر بها لسبعة الأبيات الآتية التى هجا بها من سخط عليهم . . .

٢٨/٥٨٦ البيتان ٢٧ و٢٨ يجريان مجرى الحكم والأمثال . صلة هذه الحكمة بما سبقها من الهجاء . . .

٥٨٧/٢٩ معنى هذا البيت . . . والغرض الحضّ على المكرمات . . . وفى البيتين الآتيين ينتقل الشاعر إلى الفخر ببعض مناقبه . . .

٥٨٧/٣١ صلة الفخر بالحكمة . . .

٥٨٨/٣٢ هذا البيت الختامى يجرى مجرى الحكم . صلته ببيتى الفخر قبله . . .

٥٨٨/٣٢ فى القصيدة (٤٩) عيب الإيطاء

٥٨٨/ * يعارض البارودى بالقصيدة (٥٠) قصيدة لأبى الطيب المتنبى . . .

٥٨٨/٢ مجمل معنى البيتين الأول والثانى .

٥٨٩/٣ فصّل الشاعر فى هذا البيت ما أجمله فى البيت السابق ، وأجمل ما فصّله .

٥٨٩/٥ مجمل معنى الأبيات (١ — ٤). وفى البيت الخامس عزّى نفسه ، فتخيّل . . .

٥٩٠/٧ « الضنى » : معناه ، وكثرة استعماله فى لغة الغزل ، أو النسيب . . .

٥٩٠/٨ حاكى الشاعر بعض الشعراء المتحضرين فى عصر الدولة العباسية ؛ فاستخدم فى غزله بالمؤنث ضمير المذكّر . . .

٥٩١/١١ مجمل معنى البيتين ١٠ و ١١ الشطر الثانى من البيت ١١ تذييل يؤكد معنى الشطر الأول .

٥٩١/١٢ نداء النديمين من لغة الشعر . فضل الندماء على الملهوفين . وفضل من يعالجون الأمراض النفسية بحلو الكلام .

٥٩٢/١٣ فى البيت الثالث عشر ، وتسعة الأبيات بعده إلى نهاية هذه القصيدة جنح الشاعر لما يشبه الحكم والأمثال ، وشكا ما عاناه وآذاه من مثالب الناس ونقائصهم ، ولا سيما الغدر والنفاق .

٥٩٢/١٥ اعتاد الناس — وبخاصة الشعراء — أن يضيفوا إلى الدهر مايسرّهم و يسوءهم من الخير والشر .

٥٩٣/١٦ مجمل معنى هذا البيت ، والبيت الذى قبله ، والبيتين التاليين .

٥٩٤/١٩ مجمل معنى خمسة أبيات .

٥٩٤/٢٠ صلة هذا البيت بالذى قبله .

٥٩٥/٢٢ معنى هذا البيت ، والبيت الذى قبله .

٥٩٥/٢٢ معنى البيت الثانى والعشرين تكرار لمعنى البيت العشرين .

٥٩٥/١ بعض خصائص لغة الشعر .

٥٩٥/١ تعريف بجزيرة « سرنديب » (سيلان) .

فهرس الأعلام*

* لم يستوعب هذا الفهرس والذى يليه كل ما حواه الجزء الثالث من الأعلام ، والأمكنة ، والبلدان .
وبإزاء كل علم ومكان رقمان : أولهما لتعيين الصفحة ، والآخر لتعيين السطر .

فهرس الأمكنة والبلدان

* * *

بعون الله تبارك وتعالى تمّ طبع الجزء الثالث من شرح ديوان البارودىّ بدار المعارف
فى جمادى الأولى سنة ١٣٩٤ هـ (يونية سنة ١٩٧٤ م)

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٥٦٢٣
مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٤
١/٧٢/٢٢

محمود سامى البارودى

شاعر الأمة العربية ، وأستاذ النابهين الفائقين من شعرائها فى العصر الأدبىّ الحديث . ورئيس الوزارة المصرية قبيل الثورة العرابية ، وقائد لامع من قادتها الذين أججوا جذوتها ، وضربوا فى غمرتها .

ديوان شعره مرآة مجلوة لبيئته وعصره ؛ وتصوير صحيح دقيق لحياته ، وخلجاته ، وشخصيته ، وصفاته ، ومرحه وترحه ، وآماله وآلامه ، وسلمه وحربه ، وحريّته ووطنيته ؛ بل هو شهادة ناطقة صادقة لشاعر عبقرىّ ، أحيا الشعر العربى ، وردّ إليه ما كان له فى أزهى عصوره من القوة والفتوّة ، والنضرة والبهجة ، والجزالة ، والأناقة ، بشاعريّة متوقدة ، وإحساس مرهف ، وعاطفة مشبوبة ، ونزعة وجدانية خالصة ، ومشاعر إنسانية رفيعة ، وآفاق ممتدة فسيحة ، وتجديد ألمعىّ ، وتقليد ذكىّ ، ومعارضة لبعض القدامى والمحدثين من فحول الشعراء ، واستيعاب لفنون الشعر وأغراضه ، واندماج فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وعرض رائع لكثير من ظواهرها وخفاياها فى زمانه ، ومحاولات جريئة صريحة لإيقاد شعور مواطنيه ، وتحريضهم على مكافحة الظلم والفساد ، وتحطيم قوى البغى والطغيان .

أبيات هذا الديوان نحو ستة آلاف بيت فى أربعة أجزاء . حقق الجزأين الأول والثانى وشرحهما الشاعر المطبوع المرحوم الأستاذ على الجارم كبير مفتشى اللغة العربية سابقًا بمشاركة الأديب الكبير الأستاذ محمد شفيق معروف المفتش العامّ بوزارة التربية والتعليم سابقًا .

وفى الطبعة الجديدة لهذين الجزأين (طبعة دار المعارف) قصائد كاملة ، ومقطوعات ، وأبيات لم تنشر من قبل ، وكشف ، وتحقيق ، ونشر لكل ماطمس فى أصل الديوان المخطوط . وتفصيل وتوسيع محمود لبعض ماشرح ونشر فى الطبعات السابقة . وتعديلات ، وتحقيقات ، وزيادات ذاتُ بال . وتواريخ تهم الدارسين والقارئين ، وتعين على إتمام الدراسة والإحاطة .

وحقق الجزأين الثالث والرابع الأستاذ محمد شفيق معروف ، وشرحهما بمنهج جديد ، واسع مفيد . فيه بيان لغوى مهذب ، وشرح إجمالى محبوك ، وإشارة إلى الأجواء النفسية التى يدور فيها الشعر . وفيه ربط ، وتلخيص ، ونقد ، وتعليق ، وأدب ، وتاريخ ، وخلق ، ودين ، وتنبيه على كثير من آى الذكر الحكيم ، وكثير من الشعر العربى القديم الذى نظر إليه البارودى ، وتأثر به ، وردّد معانيه فى أكثر شعره

والمنهج كله قائم على العناية الفائقة ، والاهتمام البالغ بتجلية هذا الديوان وتيسيره ، وتقريبه إلى كل قارئ ، وبخاصة طلاب المدارس الثانوية ومن فى مستو



ص
١٧٥